قصص سورة الكهف

جمع وإعداد

مُغرم محمد الهبيان

تقديم

د. سامر مظهر قنطقجي

KIE Publication

قصص سورة الكهف

جمع وإعداد

مغرم محمد الهبيان (رحمه الله)

تقديم

د. سامر مظهر قنطقجي

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا

سورة الكهف: ١

منشورات كاي

إن مطبوعات (كتاب الاقتصاد الإسلامي الالكتروني المجاني) تهدف إلى :

- تبني نشر مؤلفات علوم الاقتصاد الإسلامي في السوق العالمي؛ لتصبح متاحة للباحثين والمشتغلين في المجالين (البحثي والتطبيقي) .
- توفير المناهج الاقتصادية كافة للطلاب والباحثين بصبغة إسلامية متينة .
- أن النشر الالكتروني يعتبر أكثر فائدة من النشر الورقي .
- أن استخدام الورق مسيء للبيئة، ومنهك لمواردها .

واللهُ من وراء القصد .

رابط زيارة جامعة كاي KIE university

يمكنكم التواصل من خلال : www.kantakji.com

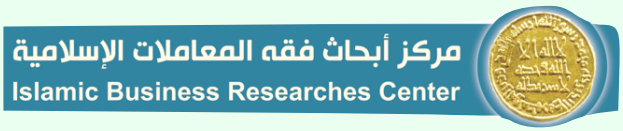

جامعة كاي

جامعة مرخصة من التعليم العالي

خيارك الأفضل لدراسة الاقتصاد الإسلامي وعلومه

https: //kie.university

توضيح

إن كل ما ورد في الكتاب هو حقوق بحثية للمؤلف، ويعتبر ورقة بحثية من الأوراق البحثية لمركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامية وجامعة كاي.

يسمح باستخدام هذ الكتاب كمنهج أكاديمي – كما هو منشور – مجانًا مع ضرورة المحافظة على حقوق المؤلف.

www.kantakji.com , www.kie.university

الإهداء

إلى المُؤمِنينَ الصادِقينَ؛ لِيزْدادُوا إيمانًا مع إيمانِهم.

إلى الذينَ في قُلوبِهم زَيغٌ؛ لِتطمَئِنَ قلوبُهم.

إلى الذينَ لا يَعلَمُونَ إلاّ ظاهِرًا مِن القولِ؛ حتّى لا يتَّبِعوا أهواءَهُم.

إلى المُلْحِدينَ بآياتِ اللهِ؛ حتّى يُكْشَفَ عن بَصيرَتِهم.

نُهدِي هذا الكتابَ

المؤلف...

الفهرس

منشورات كاي ٤

توضيح ٦

الإهداء ٧

الفهرس ٨

لمحة عن الكاتب ١٤

تقديم ١٧

المقدمة ١٩

التعريفُ بالسُّورةِ ٢١
سببُ التسميةِ ٢٢
أسبابُ النُّزولِ ٢٢
فضلُها ٢٥
لِماذا نَقرأُها يومَ الجُمُعَةِ؟ ٢٧
مقاصِدُها ٣٢
بلاغَتُها ٣٨
الدَّلائلِ العِلميَّةِ لِلسُّورة ٤٢
الإعْجازُ في القُرآنِ الكريمِ ٤٣

تأملات وخواطر وفتوحات: الكلب والحوت والحديد ٩٩

قصة بين قصتين ١٢٣
التوأمة بين سورتي الإسراء والكهف ١٢٧
ضرورة التغيير ١٣٦
الخفاء واللطف ١٣٩
المحاور الفكرية ١٤٣
علامات منهجية ١٤٥
بصمة وجدان – كيف نبدأ من جديد ١٥١

الرقيم ١٥٦
من البذرة إلى التمكين – البوصلة القرآنية ١٦١
فوائد تدبر سورة الكهف ١٦٥
تساؤلات وخواطر ليس لها ردود ١٧١

القصة الأولى أصحاب الكهف ١٧٥

فرْضيَّةُ مركزِ نُون للدِّراساتِ القُرآنيّة ١٨٧
أقوال المفسرين ١٩٠
تفسيرُ الطَّبريِّ ١٩٠
تفسيرُ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاويّ ٢٢٠
تفسيرُ القرطبيِّ ٢٣٢
تفسيرُ ابنِ كثير ٢٥٦
تفسير الجلالين ٢٦٩
في ظِلال القُرآن ٢٧٤
التحريرُ والتنويرُ - تفسيرُ ابنِ عاشُور ٢٨٥
خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ ٣١٥
الوسيط لمُحمَّد سيِّد طِنطاويّ ٣٣٧
التفسير الميسر ٣٥٨
حجج دامغة ٣٦٥
قصَّةٌ ورِوايةٌ ٣٧٠
الإسرائيليات الدخيلة في كتب التفسير ٣٧٥
اجتماعُ الفِتيَةِ ٣٨٢
دروس من قصة أصحاب الكهف ٣٩١
أقوال الباحثين والمفكرين والعلماء ٣٩٧
الإعجاز الغيبي في هيئة أصحاب الكهف ٤١٤
الدلالات العلمية للآية الكريمة (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) ٤١٨
وَقَفاتٌ ودُروسٌ وعِظاتٌ ٤٤١
بلاغة الحوار القرآني ووظيفته الحجاجية ٤٤٧
لمسات بيانية للسامرائي ٤٥٢
لمسات بيانية للنعيمي ٤٥٦
إعراب الآيات الكريمة ٤٥٩

القصة الثانية صاحب الجنتين ٤٨٠
أقوال المفسرين ٤٨٥
تفسير الطبريُ ٤٨٥
أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٤٩٠
تفسير القرطبي ٤٩٦
تفسيرُ ابنِ كثيرٍ ٥٠٥
تفسير الجلالين ٥٠٩
في ظِلال القُرآن ٥١٢
التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور ٥١٥
خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ ٥٢٦
الوسيط لمُحمَّد سيِّد طِنطاويّ ٥٣٨
التفسير الميسر ٥٤٧
ضرب المثل ٥٤٩
نظرات وأفكار ٥٥٦
أقوال المؤرخين والباحثين ٥٥٩
جنان القرآن ٥٦٦
بلاغة لفظة تبيد في قصة صاحب الجنتين ٥٧٠
دروس وفوائد وعبر ٥٧٢
إعراب الآيات الكريمة ٥٧٤
القصة الثالثة نبي الله موسى عليه السلام والعبد الصالح ٥٨٤
البَلاغةُ ٥٨٨
تراجمُ الأعلامِ ٥٨٩
حجُّ مُوسَى عليهِ السلامُ وصِفَتُه ٥٩٥
هارونُ عليهِ السلامُ ٦٠١
عَلَى ثناءِ اللهِ تعالى على مُوسَى وهارُونَ عليهِما السلامُ: ٦٠٢
الخَضرُ عليهِ السلامُ ٦٠٣
يُوشع عليهِ السلامُ ٦٠٧
شُعيبٌ عليهِ السلامُ ٦١٠
فِرْعَونُ الطاغِيةُ ٦١٢
أقوال المُفسرين ٦١٤
تفسيرُ الطبريِّ ٦١٤

تفسيرُ أنوارِ التنزيلِ وأسرارِ التأويلِ لِلبَيضاويِّ..... ٦٢٣
تفسيرُ القُرطبيّ..... ٦٣٤
تفسيرُ ابنِ كثيرٍ..... ٦٦٨
تفسيرُ الجلالَين..... ٦٨٠
في ظِلالِ القُرآنِ..... ٦٨٦
التحريرُ والتنويرُ المَعرُوفُ بِتفسِير ابن عاشُور..... ٦٩٦
خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ..... ٧٢٤
الوسيطِ لمُحمَّد سيِّد طِنطاوي..... ٧٤٧
التفسيرُ المُيسَّرُ..... ٧٦٢
أقوال المؤرخين والباحثين _____ ٧٦٧
حقائق بين يدي قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح _____ ٧٨٩
الحقيقةُ الأُولى: عِلْمُ الحَقيقَةِ وعِلْمُ الشَّريعَةِ..... ٧٨٩
الحَقيقةُ الثانِيةُ: يجبُ أن تُضْبَطَ أفْعالُ العِبادِ بالشَّريعَةِ..... ٧٨٩
سَببُ اللقاءِ..... ٧٩٠
خُروجُ مَوسَى عليهِ السلامُ وفَتاهُ..... ٧٩١
دلائِلُ الآياتِ..... ٧٩٢
هل الخَضرُ عليهِ السلامُ نبيٌّ؟..... ٧٩٤
روعة الجمع بين الدين والأدب والتاريخ في القصص القرآني _____ ٨٠٤
فوائِدُ مِن قِصَّةِ مُوسَى والخَضرِ عليهِما السلامُ..... ٨٢٥
تأملات تربوية في قصة موسى والرجل الصالح _____ ٨٢٧
بَعْضُ صَفاتِ المُعَلِّمِ الرَّبَّانِيِّ..... ٨٣١
مِن أدبِ التعلُّمِ..... ٨٣٢
عجائب الماء _____ ٨٣٨
بلاغة الحوار في لقاء موسى والعبد الصالح _____ ٨٥٥
دراسة لتحديد موقع لقاء نبي الله موسى والخضر عليهما السلام _____ ٨٦٢
عَرْضُ النَّظَرِيَّاتِ القديمةِ، والرَّدُّ عليها..... ٨٦٦
منهجُ الدِّراسةِ: مُقدِّمةٌ تاريخيَّةٌ..... ٨٧٠
قِصَّةُ اللقاءِ التاريخيِّ بينَ مُوسَى والخَضرِ..... ٨٧١
الاستِنتاجاتُ والمُناقَشةُ..... ٨٧٤
النتائجُ..... ٨٧٩
دروس وعبر وعظات _____ ٨٨١
فَوائِدُ ونَصائِحُ..... ٨٨٦

الآداب المستقاة من قصة موسى والخضر عليهما السلام..... ٨٩٠
لمسات بيانية..... ٨٩٢
لمسات بيانية للسامرائي والنعيمي..... ٨٩٩
الفرق بين المدينة والقرية - نظرة حضارية واجتماعية..... ٩١٦
الخضر بين الأسطورة والحقيقة..... ٩١٨
فلسفة المصيبة في قصة موسى والخضر عليهما السلام..... ٩٢٣
دلالة الأحداث في لقاء موسى والخضر عليهما السلام..... ٩٢٦
الهندسة الايمانية في جدار الغلامين اليتيمين..... ٩٣٠
حقيقة العلم اللدني..... ٩٣٤
العلم اللدني..... ٩٣٦
إعراب الآيات الكريمة..... ٩٤٠

القصة الرابعة ذو القرنين ويأجوج ومأجوج_____ ٩٦٠

أقوال المفسرين_____ ٩٦٦
تفسيرُ الطبريِّ..... ٩٦٦
تفسيرُ "أنوارِ التنزيلِ وأسرارِ التأويلِ" للإمامِ البيضاويّ..... ٩٦٩
تفسيرُ "الجامع لأحكام القُرآن" القُرطُبيِّ..... ٩٧٣
تفسيرُ ابنِ كثيرٍ..... ٩٧٨
تفسيرُ الجَلالَينِ..... ٩٨٢
في ظِلال القُرآنِ..... ٩٨٣
التحريرُ والتنويرُ - تفسيرُ ابنِ عاشُور..... ٩٨٩
خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ..... ٩٩٦
الوسيط لمُحمَّد سيِّد طِنطاويّ..... ١٠٠٠
التفسيرُ المُيسَّر..... ١٠٠٤
أقوال المؤرخين والباحثين_____ ١٠٠٧
عُلومُه وما آتاه اللهُ مِن الأسبابِ..... ١٠٢٤
ذو القرنين والخضر_____ ١٠٢٧
دراسة فريدة ونهج علمي_____ ١٠٣٠
مِن نتائجِ المُؤتَمرِ العِلْميِّ للإعجازِ القُرآنيّ..... ١٠٣٤
تأملات ودروس وعظات_____ ١٠٣٨
نظريات جديدة وأفكار غريبة..... ١٠٤٦
لمسات بيانية..... ١٠٦٦
إعراب الآيات الكريمة..... ١٠٦٧

يأجوج ومأجوج ١٠٧٤
أقوال المفسرين ١٠٧٦
تفسيرُ الطَّبَريِّ ١٠٧٦
تفسيرُ "أنوارِ التنزيلِ وأسرارِ التأويلِ" لِلبَيضاويّ ١٠٨٠
تفسيرُ القُرطبيُّ ١٠٨٤
تفسيرُ ابنِ كَثيرٍ: ١٠٩٠
تفسيرُ الجَلالَينِ ١٠٩٢
في ظِلالِ القُرآنِ ١٠٩٤
التحريرُ والتنويرُ - تفسيرُ ابنِ عاشُورٍ ١٠٩٨
خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ ١١٠٢
الوسيط لمُحمَّد سيِّد طِنطاويّ ١١٠٦
التفسيرُ المُيسَّر ١١١١
أقوال المؤرخين والباحثين ١١١٣
موقع الردم على الخريطة ١١٣٨
لمسات بيانية ١١٤٧
إعراب الآيات الكريمة ١١٦٣
المصادر ١١٦٩

لمحة عن الكاتب

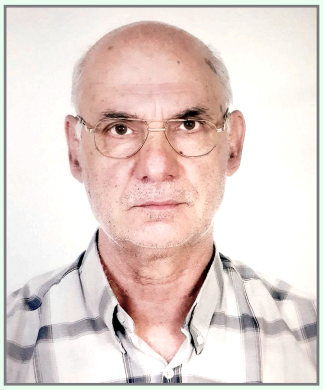

الاسم: **مفرم محمد هبيان**

مواليد :عام / ١٩٤٢ /م حماة.

الدراسة: درس الابتدائية والإعدادية من مدرسة دار العلم ونال الشهادة الثانوية ١٩٦٠. ودرس الكيمياء في جامعة دمشق وتخرج من كلية العلوم قسم الكيمياء والجيولوجيا عام ١٩٦٥.

العمل: عمل بعد التخرج مدرسا لمادة الكيمياء ودرّس في ثانويات حماة وكان من خيرة المدرسين، شهد له بذلك طلابه. وكان أسلوبه علمياً ومميزاً في مجال التدريس.

عمل في بداية دخوله لعالم الأعمال بمجال الصيدلة وتركيب الأدوية الطبية لمدة ١٧ عامًا، فقد كان والده الحاج حمدي صيدلانيًا، وله صيدلية بحي الدباغة آنذاك واكتسب خبرة جيدة،و مما زاد من خبراته دراسته لعلم الكيمياء التطبيقية.

ثم عمل في مختبر مؤسسة المياه لتحليل مياه الشرب، حيث ساهم في تطوير المختبر وحسّن من قدراته العلمية التحليلية وإعطاء نتائج ممتازة من حيث نظافة المياه ونقاوتها ووضعها الصحي.

وبعد إحالته إلى التقاعد عمل في مجال البناء وبقي فيه لعدة سنوات، ثم سافر إلى السعودية وظل فيها لمدة ١٥ عامًا، عمل فيها في عدة مجالات: كتدريس الكيمياء وبعض الوظائف في القطاع الصناعي.

عاد إلى سورية وعمل في مجال صناعة الزيوت النباتية، وساهم بإنشاء الشركة الأهلية – وهي شركة مساهمة مغفلة – لصناعة الزيوت النباتية في حماة حتى بدء الإنتاج.

النتاج العلمي: تفرغ لأعمال التأليف والكتابة في المجال العلمي والأدبي والشرعي؛ فألّف عدة كتب وبحوث في الكيمياء، والتفسير والخواطر القرآنية.

- ألّف كتابًا عن المدينة المنورة من الناحية التاريخية والدينية والثقافية أسماه (طيبة سيدة البلدان)، ويعتبر الكتاب موسوعة تحوي معلومات دينية وتاريخية وثقافية مدعمًا بالصور والتواريخ وأقوال المؤرخين والعلماء والمخططات الأثرية وغير ذلك.
- ألّف بحثًا بعنوان: (وسع كرسيه السموات والارض)، وبحثًا بعنوان: (أسماء الله الحسنى)، وبحثًا بعنوان: (أهل الكهف)، وغيرها. وهي دراسات تاريخية وتفسيرية وعلمية.

شغل في سنيّ عمره الأخيرة منصب إمام مسجد تبرعًا، في مصلى حي الطوافرة، واستمر ذلك ١٧ عاما، قام خلالها بترميم المسجد وإعادة إكسائه حسب الطابع التاريخي والأثري.

نال إجازة في القرآن الكريم تلاوة وتدريسًا وتدريبًا. وتتلمذ على يديه العديد من الطلبة والقرّاء.

كان زملاؤه وأصدقاؤه من خيرة المدرسين والمهندسين، منهم الأستاذ أكرم الشقفي، والأستاذ مفيد الشقفي أساتذة الرياضيات. والأستاذ الزكار أستاذ التاريخ والأستاذ توفيق طيفور والأستاذ أبو عفيف النعسان والأستاذ مصطفى الصليعي وغير ذلك

من المدرسين الذين يُشهد لهم بالخيرة وحسن الأداء فقد كانوا مربيي أجيال قبل كونهم مدرسين.

كان جديًا في حياته، واضح الفكر والتفكير، لا يؤجل أي عمل سواء كان له أو لغيره مما يُسند إليه، وكان متابعًا جيداً لكل شيء، وقّافًا عند حدود الله، لا يُجامل ولا يُحابي أحداً.

كانت مقولته الدائمة: **إن الله يحب العبد إذا عمل عملا أن يتقنه**.

توفاه الله تعالى في ١٢-١٠-٢٠٢٢ بعد معاناة مع المرض، رحمه الله وغفر له.

وكتبه ولده محمد مفرم هبيان

تقديم

الحمد لله رب العالمين وصلاة وسلام على سيد المرسلين، وبعد..

مغرم هبيان رحمه الله تعالى، صديق عزيز، هو بعمر والدي رحمه الله وصديقه، لكن رفقتي لهذا الأخ الطيب والتي امتدت لنحو عشرين عاما، جعلتني أحبه، ورأيت في المرح بغير ما وصفه ولده، ولربما هي حالته مع الأصدقاء حيث يتم رفع الرسميات.

لجأت إليه عندما رأيت الحس الأدبي في كتاباته والأناقة في عباراته وجمال الترتيب في طيات ذلك كله، لذلك بعد أن أنهيت الدكتوراه كنت أبحث عمن يدقق لي كتاباتي فينصحني ويرشدني، ووجدت ذلك عند الأخ مغرم، فكنت أطلب منه قراءة مقالاتي لأسمع رأيه فيها. فكان نِعم الناصح رحمه الله تعالى.

وعرضت عليه أن أنشر له كتابه هذا ضمن كاي للنشر وهي دار الكترونية كنت قد أنشأتها، فكان كعادته دقيقا حريصا متأنيا، فطال الأمد وأن أطلب وهو يستمهل، وفعلا سلمني ملفات الكتاب وما زال يصرّ على التأني.

بعد ذلك نسيت الأمر وتوفي الأخ مغرم رحمه الله.

ومنذ أشهر قليلة وأنا في صلاة الفجر جاءتني ذكرى مغرم رحمه الله فقد كنت أدعو له بين الفينة والأخرى، وتذكرت كتابه هذا. ولم أقف عند كل ذلك.

ثم عادت الذكرى لمخيلتي وأعتقد أن ذلك كان في منامٍ أو ما شابه.

اعتبرت ذلك إشارة لإخراج كتابه (قصص سورة الكهف)، وفعلا أسندت الأمر لبعض طالباتي للتنقيح والمراجعة، ثم قمت بالإخراج بالشكل الذي ظهر فيه هذا الكتاب.

أرجو الله تعالى أن يتقبل من أخي وصديقي مغرم هبيان وأن يجعله له حسنة جارية فهذا علم يُنتفع به.

وأتوجه بالشكر للأخوات: أميمة شنينة وحنان معتوق وعائشة معتوق اللواتي راجعن فصول هذا الكتاب.

حماة (حماها الله) بتاريخ ٢٠ محرم ١٤٤٤ هـ – والموافق ١٨ أغسطس/آب ٢٠٢٢ م

د. سامر

المقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ نَحمدُه، ونَستعِينُه، ونَسترشِدُه، ونَعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أنفُسِنا وسيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فلا مُضِلَّ لهُ، وَمَن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، أنزلَ كِتابَه بالحُجَّةِ الدامِغَةِ والبُرهانِ الساطِعِ مَوعِظةً وشفاءً لِما في الصُّدورِ وهُدَى ورَحمةً لِلمُؤمنينَ، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا مُحمَّدًا عَبْدَهُ ورَسُولَهُ صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه نُجُومِ الهُدى وشُموسِ العلمِ والمَعرِفة والتابِعينَ لهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمّا بَعدُ: فقَد قيَّضَ اللهُ جلَّ ثناؤه لِكتابِه الكريمِ (عُلماءَ أتقياءَ أوفياءَ) مِن أعلامِ الهُدى وأئِمَّةِ الصَّلاحِ؛ سَهِرُوا على خِدمَتِه، وبَذلُوا قُصارى جُهدِهِم؛ لِتوضيحِ مَعانيهِ، وبيانِ مقاصِده، وكشفِ دقائقِه، واستخراجِ ما فيه مِن حِكَمٍ وأسرارٍ، وما احتوى عليه مِن روائعَ وعجائِب؛ فهُو كتابُ ربِّ العالَمِينَ... نزلَ به الرُّوحُ الأمينُ على قلبِ رسولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** بلِسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، وعِزَّةُ اللهِ وجَلالُه إنّ القلوبَ لَتَخْشَعَ حينَ تلاوةِ آياتِه، وإنَّ العُيونَ لَتَذْرفُ حينَ تسبرُ مَعاني كلماتِه. سورُه عظيمةٌ، وآياتُه كريمةٌ؛ ففي كلِّ سورةٍ قِصَّةٌ وخَبَرٌ، وفي كلِّ آيةٍ مَعانٍ وعِبَرٍ.

ف- (الفاتِحةُ) هيَ "أمُّ الكِتابِ"، وهيَ "السبْعُ المثاني" و"الشافيةُ" و"الواقيةُ" وهي سُورةُ "المُناجاةُ"، و(البقرةُ وآلُ عِمرانَ) هُما "الزَّهْراوانِ"، و(المائدةُ) هي سُورةُ "العُقودُ والمُنقِذةُ"، و(الأعرافُ) هي سُورةُ "المِيقاتِ والمِيثاقِ"، و(التوبةُ) هي سورةُ "العذابِ" و"الفاضحةُ"، و(النورُ) هي سُورة "السترِ والعَفافِ"، و(السجْدةُ) هي سورة "المَضاجِع"، و(فاطِر) هي سُورة "الملائِكةِ"، و(يس) "قلبُ القُرآنِ"،

والرَّحمن "عَروسُ القُرآنِ"، و(الكافِرونَ) سُورة "العِبادةِ والدِّينِ"، و(الإخلاصُ) سُورة "التوحيدِ والنَّجاةِ"، و(الفَلَقُ والنَّاسُ) هُما "المُعوِّذتانِ".

أمّا سُورةُ (الكهفِ) فهيَ سُورة "الحمْدِ والشُّكْرِ، والتوحيدِ والإخلاصِ، والمُغيَّباتِ والمُبهَماتِ، والإيمانِ واليقينِ، والأمثالِ والعِبَرِ، والحِوارِ والعَقلِ، والعِلمِ والحقيقةِ، والدعوةِ والمُلكِ، والبيانِ والنصيحةِ".. قَصَصُها فريدةٌ لم تتكرَّرْ في السُّورِ الأُخْرى، ودُروسُها حِكَمٌ بالِغةٌ تصلحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ مَن عَمِلَ بمُقتضاها فازَ، ومَن استفادَ مِن دُروسِها أفلحَ؛ فمَعينُها لا ينضبُ، وفوائِدُها جمَّةٌ لا تُحصى.

هِمَّةٌ عاليةٌ، وجَهدٌ عظيمٌ أن يبحثَ المرءُ في أمَّهاتِ المَراجعِ ومُتونِ الكُتبِ ومواقعِ الإنترنت؛ لِلوُصولِ إلى ما كُتِبَ والاطلاعِ على آراءِ الآخَرينَ؛ فالعلمُ لم يتوقَّفْ، وإعجازُ القرآنِ الكريمِ قائمٌ إلى قيامِ الساعةِ، والناسُ في شَوقٍ ولهفةٍ لِمَعرفةِ المَزيد.

ولقد ولدَتْ فِكرَةُ هذا الكتابِ من خلالِ دِراستِنا لهذهِ السورةِ الكريمةِ حين تساءَلنا لِماذا لا نجمعُ كلَّ ما كُتِبَ عنها مِن أقوالِ المُفسِّرينَ وآراءِ الباحِثينَ وتوجيهاتِ المُرشِدينَ في قِرطاسٍ واحدٍ؛ لِتكُونَ النظرةُ شاملةً والمعاني أوضحَ؟

وبعدَ الاتِّكالِ على اللهِ تعالى بدأنا بالبحثِ.. وتواردَتِ الأفكارُ والخواطرُ والآراءُ، وَوَجَدْنا فيها ما يُطفئ الظمأَ ويُروي العطشَ؛ إلاّ أنّ اليأسَ كادَ أن يتسرَّبَ إلى أنفُسِنا لِكثرَتِها واختلافِها وتفاوتِها.

وَوَجَدْنا أنْ لا نُدلِيَ نحنُ بِدَلْوِنا في هذا المِضمارِ – وأنّى لنا ذلكَ –؛ بلْ كان دورُنا يتمثَّلُ في (الجمعِ، والتعديلِ، والتنسيقِ).

فبَدأنا أوَّلاً بالسُّورةِ ذاتِها تعريفًا بها، وفضْلاً بتِلاوَتِها، وإعجازًا ببيانِها، وآراءِ الباحِثينَ فيها وما قيلَ حولَها.

ثمَّ أتْبَعنا ذلكَ قَصصَها مُرتَّبةً حسبَما جاءتْ في السُّورةِ مُستفْتِحينَ بِقصَّةِ أصحابِ الكهفِ، ثمَّ قصَّةَ (صاحبِ الجنَّتَينِ)، ثمَّ قِصَّةَ (موسى والعبْدِ الصالحِ)، ثمَّ قصَّةَ (ذِي القَرنينِ ويأجُوجَ ومأجوج).

فذكَرنا أقوالَ المُفَسِّرينَ حسبَ ترتيبِهم الزَّمنيِّ، وذكَرنا آراءَ (المُفكِّرينَ، والعُلماءِ العامِلينَ الرَّبَّانِيينَ)، وأورَدنا أيضًا ما قالَه الباحِثونَ واستنبَطَه المُستنْبِطُونَ. وختَمْنا كُلاًّ مِنها ب(الدُّروسِ، والعِبَرِ، والعِظاتِ)؛ فنكونَ بذلكَ قد استكْمَلْنا حلقاتِ البحثِ حسبَ استطاعتِنا وإمكاناتِنا المَحدودَة.

اللهُمَّ تَقبَّلْ مِنَّا عملَنا هذا فإنَّه خالِصٌ لِوَجْهِكَ الكريمِ، واجعَلْهُ في صحائِفنا يومَ الدِّينِ يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ؛ إلاّ مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ. اللهُمَّ آمينَ.

التعريفُ بالسُّورةِ

(سُورةُ الكهفِ) "مكيّةٌ"، وهيَ السورةُ رقم (١٨) في ترتيبِ المُصحَفِ، وتأتي بعدَ سورة (الإسراءِ) ويأتي بعدَها سورةُ (مَريم). نزلتْ بعدَ سُورة (الغاشيةِ).

عددُ آياتِها (١١٠)، وعددُ كلماتِها (١٥٧٨) كلمةً، ونسبةُ عددِ كلماتِها إلى عددِ كلماتِ القُرآنِ الكريمِ تُقارِبُ ٤٩ / ١ وهيَ إحدى سُورٍ خَمْسْ بُدِئتْ ب "الحمدُ للهِ"، وهي (الفاتحةُ، الأنعامُ، الكهفُ، سبأُ، فاطِرُ).

قال في "التحريرِ والتنويرِ" هِيَ مِنَ السُّوَرِ الَّتِي نَزَلَتْ جُمْلَةً وَاحِدَةً[١]، وفيها الدعوةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ على المُستوياتِ كافَّةً فيها ذِكْرٌ "لِلمُغيَّباتِ"، وهي مليئةٌ ب "التعابيرِ الحَركيَّةِ" (فَأوُوا – ابْعَثوا – انطلَقا) ومليئةٌ بِصيَغِ الجَمعِ (فَضَرَبْنا – مَكَّنا – أنْزَلْن) وذلكَ "لِلتفخيمِ والتعظيمِ".

سببُ التسميةِ

سُمِّيتْ سورةُ الكهفِ؛ لِما فيها مِن "المُعجزةِ الرَّبَّانيَّةِ في القِصَّةِ العَجيبةِ الغريبةِ قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ".

أسبابُ النُّزولِ

- وَرَدَ أنّ قُريشًا بَعثتْ باثنَينِ مِن زُعمائِها إلى أحبارِ يَهودٍ في "يَثرِبَ"؛ لِيَسألَوهُم عن مُحمَّدٍ، وصِحَّةِ دَعوتِه على اعتبارِ أنَّهُم أصحابُ الكتابِ الأوَّلِ، وعِندَهُم مِن عِلْمِ الأنبياءِ؛ فقالُوا سَلُوهُ عن ثلاثٍ، عن فِتيَةٍ ذَهبُوا في الدَّهرِ الأوَّلِ ما كانَ مِن أمرِهم
- وعنْ رَجُلٍ طوّافٍ بلغَ مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها ما كانَ نَبؤُه وعن الرُّوحِ ما هُوَ؟ فإنْ أخبَركُم بهِنَّ؛ فهُوَ (نبيٌّ مُرسَلٌ)؛ وإلاّ فهُوَ (رَجُلٌ مُتقَوِّلٌ)؛ فلمَّا رجَعُوا إلى "مَكَّةَ" سألُوا رسولَ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** عن ذلكَ؛ فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ سُورةَ (الكهفِ).

١) التحريرِ والتنويرِ: محمد الطاهر بن محمد عاشور التونسي، (ج١٥/ص ٢٤٢).

- عنْ عبدِ اللهِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ: اجتمعَ عُتبَةُ بنُ ربيعةَ وشَيبةُ بنُ ربيعةَ وأبُو جَهْلِ بنُ هِشامٍ والنَّضْرُ بنُ الحارثِ وأمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ والعاصُ بنُ وائلٍ والأسْودُ بنُ المُطَّلِبِ وأبُو البختريِّ في نَفَرٍ من قريشٍ، وكان رسُولُ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** قد كَبُرَ عليه ما يَرى من خِلافِ قومِه إيَّاهُ وإنكارِهم ما جاءَ به من النَّصيحَةِ؛ فأحزَنَّه حُزنًا شديداً فأنزلَ اللهُ: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ (الكهف: ٦).
- رُوِيَ أنّ أشرافَ قُريشٍ اجتمَعُوا عندَ رسُولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** وقالُوا لهُ: إنّ أردتَ أنْ نُؤمنَ بكَ فاطْرُدْ هَؤلاءِ الفُقراءَ من عِندكَ – يَعنُونَ بِلالاً وخَبَّابًا وصُهيبًا وغيرَهُم – فإنَّا نأنَفُ أن نجتَمعَ بِهم، وتُعَيِّنَ لهُم وقْتًا يَجتَمِعُونَ فيه عِنْدَكَ. فأنَزلَ اللهُ: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ (الكهف: ٢٨)[١].
- عن سلمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللهُ عنهُ قال جاءتِ المُؤلَّفةُ القلوبِ إلى رسُولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** (عُيَينَةُ بنُ حِصنٍ، والأقرعُ بنُ حابِسٍ) وذَوُوهُم فقالُوا يا رسُولَ اللهِ: "إنَّكَ لو جَلَسْتَ في صَدرِ المجَلسِ، ونَحَّيْتَ عنَّا هؤلاءِ وأرواحَ جِبابِهِم – يَعنُونَ سَلمانَ وأبا ذَرٍّ وفُقراءَ المُسلمينَ – وكانتْ عليهِم جِبابُ

١) التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي (ج٢١/ص١١٥).

الصُّوفِ لم يَكُنْ عليهِم غيرُها – جَلسْنا إليكَ وحادَثناكَ وأخَذنا عَنكَ. فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، حتى بلغ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا..﴾ يتهدَّدُهُمْ بالنَّارِ. فقامَ النبيُّ يلتمَّسُهُم حتَّى إذا أصابَهُم في مُؤخِّرَةِ المَسجدِ يَذكُرونَ اللهَ تعالى قال: "الحمدُ للهِ الذي لم يُمِتْني حتّى أمرَني أنْ أصبِّرَ نفْسي معَ رجالٍ مِن أُمَّتي. مَعَكُم المحَيا ومَعَكُم المَماتُ".

- عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨) قالْ نَزلَتْ في أُمَّيةَ بنِ خَلْفٍ الجُمَحِيِّ وذلكَ أنَّه دَعا النبيَّ إلى أمْرٍ كَرِهَهُ مِن تَحَرُّدِ الفُقراءِ عنهُ، وتَقريبِ صناديدِ أهلِ مكَّةَ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿ولَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ يعني: مَن خَتَمْنا على قلبِه عن التوحيدِ، واتَّبَعَ هَواهُ يعني "الشِّرْكَ".
- قالَ قتادةُ: "إنّ اليهودَ سألُوا نبيَّ اللهِ عن ذي القَرنَينِ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف: ٨٢) [١].

[١] أسباب النزول: (ص ١٧٢).

فضلُها

جاءَ في فَضْلِها جُملةٌ من الأحاديثِ منها:

روى الشيخانِ عن البَراءِ بنِ عازبٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنّه قالَ: "كانَ رجلٌ يقرأُ سورةَ الكهفِ وإلى جانبِه حِصانٌ مَربُوطٌ بِشَطَنينِ – الشَّطَنُ هو الحَبْلُ – فَتَغَشَّتْهُ سَحابَةٌ؛ فَجَعَلَتْ تَدنُو وتَدنُو، وجَعلَ فَرَسُه يَنفرُ، فلمّا أصبحَ أتى النبيَّ **صلى الله عليه وسلم** فَذَكَرَ ذلكَ لهُ، فقالَ: " تلكَ السَّكِينَةُ تَنزَّلَتْ بِالقُرآنِ"[1].

ورَوى مُسلِمٌ عن أبي الدَّرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ **صلى الله عليه وسلم** قال: "مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آياتٍ مِنْ أوَّلِ سُورةِ الكهفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ"[2].

وفي روايةِ أبي داودَ " عُصِمَ مِن فِتنَةِ الدَّجَّالِ".

وفي رِوايةِ التِّرمذيِّ " مَنْ قَرأ ثلاثَ آياتٍ مِن أوَّلِ الكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتنَةِ الدَّجَّالِ".

وفي رِوايةِ النَّسائيِّ " مَنْ قَرأ عَشْرَ آياتٍ مِن الكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتنَةِ الدَّجَّالِ"[3]

وعنِ النَّواسِ بن سَمعانَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: "ذَكَرَ رَسولُ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** الدَّجَّالَ، إلى أنْ قال: " فَمَنْ أدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيهِ فَواتِحَ سُورةِ الكَهْفِ".

وفي رِوايةِ أبي داودَ "فإنَّها جِوارُكُمْ مِن فِتنَتِه".

---

[1] صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن (٥٠١١).

[2] صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين (٢٥٧)، صحَّحَهُ الألبانيُّ في سِلسلةِ الأحاديثِ الصحيحةِ (٥٨٢).

[3] السنن الكبرى النسائي: كتاب فضائل القرآن (٧٩٧١).

وروى النَّسائيُّ في السُّنَنِ الكُبْرى عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ أنّ نبيَّ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** قال: "مَنْ قَرأَ سُورةَ الكهفِ كما أُنْزِلَتْ كانتْ لَهُ نُوراً مِن مَقامِه إلى مكَّةَ، ومَنْ قَرأَ بِعَشْرِ آياتٍ مِن آخِرِها فَخرَجَ الدَّجَّالُ لمْ يُسلَّطْ عَليه" .

وفي روايةِ (البيهقيِّ) في "السُّنَنِ الصُّغْرى": "مَنْ قَرأَ سُورةَ الكهفِ في يومِ الجُمُعَةِ أضاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ ما بينَ الجُمُعَتَينِ"(١)، وفي روايةٍ: "مَنْ قَرأَ سُورةَ الكهفِ لَيلةَ الجُمُعَةِ أضاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيما بَينَهُ وبينَ البيتِ العَتيقِ "(٢)

وفي مُسنَدِ الإمامِ أحمدَ عن مُعاذِ بنِ أنسٍ الجُهَنِيِّ رضيَ اللهُ عنهُ عن رَسولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** أنَّه قالَ: " مَنْ قَرأَ أوَّلَ سُورةِ الكهفِ وآخِرَها؛ كانتْ لهُ نُوراً مِن قَدَمِهِ إلى رأسِهِ، ومَن قَرأها كُلَّها؛ كانتْ لَهُ نُوراً ما بينَ السَّماءِ إلى الأرضِ " .

وتُقرأُ السُّورةُ في ليلةِ الجُمُعةِ أو في يَومِها، وتبدأُ ليلةُ الجُمُعةِ مِن غُروبِ شَمسِ يَومِ الخميسِ وينتهي يومَ الجُمعةِ بِغُروبِ الشَّمسِ؛ فيكونُ وقتُ قِراءتِها مِن غُروبِ شَمسِ يومِ الخَميسِ إلى غُروبِ شَمسِ يومِ الجُمعةِ. قال الحافظُ (ابنُ حَجَرٍ) في "أماليه": كذا وقعَ في رواياتِ يومِ الجُمعةِ وفي رِواياتِ ليلةِ الجُمعةِ. ويُجمَعُ بأنَّ المُرادَ اليومَ بِلَيلَتِه والليلةَ بِيَومِها.

ويُندَبُ قِراءتُها يومَ الجُمعةِ، وكذا ليلَتَها كما نصَّ عَليهِ (الشافعيُّ) رحِمهُ اللهُ تعالى(٣).

---

١) المستدرك على الصحيحين: الحاكِم (٣٣٩٢)، والسُّنَنِ الصُّغْرى: البيهقيُّ، كتاب الصلاة (٦٠٦).
٢) سنن الدارمي: كتاب فضائل القرآن (٣٤٥٠).
٣) فيض القدير (ج٦/ص١٩٨، ١٩٩).

لِماذا نَقرأُها يومَ الجُمُعَةِ؟

إنَّ "سرَّ المحوَرِ" الرّابطِ بينَ قَصَصِ سُورةِ الكهفِ وأحداثِها يكمُنُ في الآيةِ السابعةِ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ بلْ في كَلمَةِ ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ على وَجْهِ التحديدِ؛ فقَد ذَكَرَ اللهُ تعالى عاقِبةَ أهلِ الخُسرانِ في الابتِلاءِ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا. ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾،وذَكَرَ عاقِبَةَ أهلِ النّجاحِ في الابتلاءِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا. خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾، ثُمَّ ذَكَرَ في خِتامِ السُّورةِ طريقةَ العملِ في دارِ الابتِلاء ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

ولَمّا كانتْ للحياةِ الدُّنيا زينةٌ؛ فقَد خِيفَ على أهلِها وطالبيها مِن الخَديعةِ والغُرورِ؛ ف(الحياةُ الدُّنيا وزينتُها ابتلاءُ شَهوةٍ وشُبهةٍ، وليسَ شيءٌ أفضلُ مِن الصَّبْرِ في مِثل هذه الأحوالِ؛ صَبْرٌ على الخَلْقِ، وصَبْرٌ على الأمرِ) ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤)؛ ف(الخَلْقُ يتضمَّنُ أحكامَه الكونيةَ القَدَريَّةَ، والأمرُ يتضمَّنُ أحكامَه الدينيّةَ الشرعيَّةَ)، وهذا (الصّبرُ هو العُدّةُ في طريقِ

الابتلاءِ؛ حتّى يُوفّى صاحِبُه الجَزاءَ)؛ فمَن تَزوَّدَ بالصّبْرِ والتقوى كانَ للّهِ أعبَدَ، ولإمامةِ الخَلْقِ أجدرَ، ومَن قلَّ صبْرُه كَثرَ جَزَعُه، وانْحَطّتْ عُبوديَّتُه. وقد أمرَ اللّهُ تعالى رسُولَه **صلى الله عليه وسلم** بِالصّبرِ في هذهِ السّورةِ فقالَ عزَّ وجلَّ: **(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)**.

وربَّما كانَ اقترانُ الصبرِ بزينَةِ الحياةِ الدُّنيا في هذهِ الآيةِ؛ لارتباطِ الابتلاءِ بالصّبْرِ كضَرورةٍ شرعيّةٍ، فيكونُ مِن بابِ ردِّ ما خَلَقَ اللّهُ بِما شَرَعَ اللّهُ، ومِنه رَدُّ القضاءِ بالدُّعاءِ. كما وَرَدَ ذِكْرُ (الصّبْرِ) في قِصّةِ مُوسى عليهِ السلامُ مع العبدِ الصّالحِ ك(شَرطٍ للتعلُّمِ والصُّحبَةِ)؛ لِما سيكونُ مِن (مشاهِدَ ومواقِفَ مَحفُوفةٍ بالابتلاءِ): **(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا. قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)**.

ولّما كان (الابتِلاءُ بَلبَلَةً وتمحيصًا) احتاجَ المُبتلَى إلى السَّكِينةِ ل (تُهدِّئَ رَوعَهُ، وتُثبِّتَ أقدامَه)؛ ف (إنّ أصلَ السّكينةِ الطُّمأنينةُ والوقارُ)، ولَعلَّ هذا هُوَ السِّرُّ في تَنزُّلِها عندَ قِراءةِ الصّحابيِّ الجليلِ سُورةِ الكهفِ كما في الصَّحيحَين.

ولّما كان (الابتِلاءُ هُوَ المحورَ والمَقصِدَ) في هذه السّورةِ؛ فقد ارتبطَتْ ب(المَسيحِ الدَّجّالِ مُدَّعي الألوهية، وصاحبِ الفِتنَةِ العظيمةِ"، ولقد عَظّمَ **صلى الله عليه**

وسلم أَمْره وَحَذَّرَ منْهُ وَتَعَوَّذَ مِنْ فِتْنَته، وأخبرَ أنّه ما بَعثَ اللّهُ نَبيًّا إلاّ أنذرَ أُمّتَه المسيحَ الدَّجّالَ؛ فكَشفَ اللّهُ بهذِه السُّورةِ أسرارَ مَسيحِ الضَّلالةِ والكُفْرِ وَمَزَّقَ قِناعَه، وبينّ طريقةَ التّصدِّي له والعِصمةَ منهُ؛ بِقراءةِ عَشْرِ آياتٍ مِن سُورةِ الكهفِ لم تُذْكَرْ أوّلَ ولا آخرَ وكأنَّها إشارةٌ إلى بيانِ محورِ السُّورةِ.

وفي روايةٍ أُخْرى أرشدَهُم إلى قِراءةِ أوَّلِ السُّورةِ وفواتِحِها؛ ولعلَّ الحِكمةَ في ذلك أنّ المَسيحَ الدَّجّالَ كان أوَّلَ فِتنَةٍ عظيمةٍ وفاتحةَ ابتلاءٍ جديدٍ أيّامَ الخليقةِ آنذاكَ لمْ يَشهَدُوا لَه مِن قَبْلُ مَثيلاً.

وأمّا على روايةِ الأواخِرِ رُبَّما كانتْ إشارةً لخُروجِه في آخرِ الزّمانِ واللّهُ أعلمُ.

وأمّا تحديدُ الآياتِ بِعَشْرٍ فرُبَّما كان لحديثِ رَسولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** الذي رَواهُ حُذَيْفَةُ بْنُ أُسَيْدٍ الْغِفَارِيِّ حيثُ قَالَ: " اطَّلَعَ النَّبِيُّ **صلى الله عليه وسلم** عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: "إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ؛ فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَيَأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ"[1]؛ ف (ناسبَ عددُ الآياتِ الشّرعيّةِ عددَ الآياتِ الكونيّةِ).

وإذا ما تَتبَّعنا نهايةَ الآياتِ العَشْرِ الأوائلِ وَجَدْناها عندَ قولِه تعالى: (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) يُريدُونَ

[1]) صحيح مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة (٣٩).

بذلكَ التّحصُّنَ والتّحرُّزَ من فتنَةِ قَومِهِم لهُم وقد أرادُوا منهُم الكفْرَ، وهذا هُو الصَّوابُ عند وُقوعِ الفتنَ، الفرارُ منها والتّحصُّنُ بما هو حِصنٌ خَلْقًا وأمرًا، وهكذا في فتنةِ المَسيحِ الدَّجّالِ شُرِعَ التّعوُّذُ منها في الصّلاةِ، وزيادةُ قراءةِ آياتِ العِصمَةِ لخَطرِ المُلاقاةِ؛ فالواجبُ اجتنابُه، وعَدَمُ مُلاقاتِه، والفرارُ إلى الكهوفِ؛ حتّى لا يُفتَتنَ المرءُ في دينِه؛ فيُجدِّدَ بذلكَ سُنَّةَ الفتيةِ المُؤمنةِ. ولمّا كان الكهفُ – مع ظُلمتِه، وضيقِه، وبُعدِه عن العُمرانِ، وخُلُوِّهِ من كلِّ ألوانِ الترفِ والنعيمِ – بالنسبةِ للفتيةِ المُؤمنَةِ مأوىً ضَمَّهُم؛ فأحَسُّوا فيه بـ(الرّاحةِ والسّكينةِ)، وكذلكَ الشرعُ في أحكامِه وبُعدِه عن الإغراقِ في الماديّاتِ والغُلُوِّ في الرُّوحانيّاتِ، وخُلُوِّهِ من كلِّ ألوانِ (الإسرافِ والتّبذيرِ)، وتوسُّطِه بينَ (الإفراطِ والتّفريطِ)، وأخْذِه بجانبَي (التّرغيبِ والتّرهيبِ)، كان بالنسبةِ للمُؤمنينَ مأوىً ضَمَّهُم؛ فأحَسُّوا فيه بـ(الرّاحةِ والسّكينةِ).

وإذا ما كان الكهفُ حمايةً للإنسانِ من الأخطارِ إذا التجأَ إليهِ؛ فـ(الشرعُ حمايةٌ للإنسانِ من الأخطارِ إذا التجأَ إليهِ).

وقد يَظنُّ البعضُ أنّ الكهفَ مَخوفٌ مُظلِمٌ سِجْنٌ للعبدِ، وسَكَنٌ للقُرونِ الأُولى لا يُلاءمُ العَصرَ، كذلك (يَظُنُّ الجاهلونَ أنّ الشّريعةَ رجعيَّة لا تُلاءِمُ العَصرَ، وأنّها قيْدٌ لحُرِّيَّةِ الإنسانِ وأنّ أدعياءَها ظَلاميُّونَ)؛ فيخافُونَ بَسطَةَ أحكامِها، ويَصدُّونَ مَن يُنادي بتطبيقِها. ولمّا رأى الأحزابُ هذا ظنُّوا بشَرعِ اللّهِ الظُّنونَ، ونادَوا بالتنويرِ والحَداثةِ، وما دَرَوا أنّ ذلكَ يَكمُنُ في (التّوبةِ من الكُفرِ، والبَراءةِ من أهلِه، والعملِ بالتّوحيدِ)، قال الحقُّ جلَّ وعَلا: (**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى**

النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة : ٢٥٧) ؛

ف– (مَنْ عَكَفَ على عِبادَةِ الطّاغُوتِ) ؛ حتّى صَدَّهُ عن الإيمانِ، وحَرَمَهُ خيرَه؛ (فهُو في الظّلماتِ) – وإنْ نادَى بالتّنويرِ، وزَعَمَ أنّهُ حامِلُ لِواءَه – .

وأمّا (الحداثةُ) فهيَ (الطّاعةُ والقُرباتُ، وتجديدُ الإيمانِ، وعملٌ بالشّرع) . وإذا كانت نهايةُ الآياتِ العَشْرِ الأوائِلِ تُشيرُ إلى الذينَ كَسَبُوا الرِّهانَ، ونجَحُوا في الامتِحانِ؛ فإنَّ بدايةَ الآياتِ العَشْرِ الأواخِرِ تُشيرُ إلى الذينَ خَسِرُوا الرِّهانَ، وسَقطُوا في الامتِحانِ، وبَدا لهُم ما لمْ يَحتَسِبُوا، والحُسْنُ يَظْهَرُ حُسْنُهُ بالضِّدِّ، وبِضِدِّها تتميّزُ الأشياءُ كما قالَ تعالى : (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) وهذا تَنبيهٌ على (أحوالِ أتْباعِ الدَّجّالِ) ؛ فَهُم (عُمْيٌ عن الآياتِ الكونيّةِ، صُمٌّ عن الآياتِ الشّرعيّةِ) .

وقد تكونُ في هذهِ الآياتِ إشارةٌ إلى (براءةِ قارِئيها مِن صنيعِ الهَلْكَى في الابتِلاءِ بِلِسانِ المَقالِ؛ فلمْ يَبْقَ لهُ إلاّ التَّرجُمانُ بِلِسانِ الحالِ فيكتمِلَ المطلوبُ، ويتحقَّقَ المرغوبُ) .

وأمَّا سِرُّ قِراءةِ السُّورةِ يومَ الجُمُعَةِ؛ فهُو تذكيرٌ بِيَومِ الحِسابِ يومَ تظهرُ نتيجةُ الابتلاءِ والامتحانِ قال تعالى : (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) ؛ إذْ لا تقومُ السّاعةُ إلاّ في يومِ

الجُمُعةِ؛ فعَنْ سَعدِ بنِ عُبادَةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنّ رَجُلاً مِن الأنصارِ أتى النبيَّ **صلى الله عليه وسلم** فقالَ أخبِرْنا عن يومِ الجُمُعَةِ ماذا فيهِ مِن الخيرِ؟ قال: "فيه خمسُ خِلالٍ؛ فيهِ خُلُقَ آدمَ، وفيهِ أُهْبِطَ آدمُ، وفيهِ تُوفِّيَ آدمُ، وفيهِ ساعةٌ لا يَسألُ اللهَ عَبْدٌ فِيها شيئًا؛ إلَّا آتاهُ اللهُ إيَّاهُ ما لمْ يَسألْ مأثَمًا أو قطيعةَ رَحِمٍ، وفيهِ تقومُ الساعةُ، ما مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، ولا سَماءٍ، ولا أرضٍ، ولا جِبالٍ، ولا حَجَرٍ؛ إلاّ وهُوَ يُشْفِقُ مِنْ يَومِ الجُمُعَةِ (١)، ولمّا كانتْ أيّامُ الأُسبوعِ سبعةٌ كانَ السِّرُّ في الآيةِ السّابعةِ؛ قِفْ، واعتبِرْ؛ وإلاّ فاصبِرْ واصطَبِرْ (...**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**) (البقرة: ٢٢٢).

مقاصِدُها

تُعتبَرُ قَصَصُ سُورةِ (الكهفِ) مِن روائعِ القَصصِ القُرآنيّةِ (بلاغةً، وإعجازاً، وإخباراً) عمّا حَدَثَ في سالفِ العُصورِ والأزمانِ. وتَدُورُ قَصَصُها الأربعُ حولَ مِحورٍ واحدٍ؛ لِكَونِها تجمعُ الفِتنَ الأربعَ في الحياةِ:

(فِتنَةَ الدِّينِ) قصَّةَ أصحابِ الكهفِ، (وفِتنةَ المالِ) قصَّةَ صاحبِ الجَنَّتَينِ، (وفتنةَ العِلمِ) قصَّةَ مُوسى والعبدِ الصالحِ، (وفِتنةَ السُّلطَةِ) قصَّةَ ذي القَرنَينِ. وهذه الفِتنُ شديدةٌ على الناسِ، والمُحرِّكُ الرئيسُ لها هو الشيطانُ الرجيمُ الذي يُزَيِّنُها؛ لذا جاءتِ الآيةُ الكريمةُ: (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**) في وسطِ السُّورةِ (للبيانِ والتحذيرِ). ومِن مَقاصِدِها:

١) مسند أحمد: مسند الأنصار (٢٢٤٥٧)، والمعجم الكبير: الطبرانيُّ ٤٥١١.

- الإيمانُ باللهِ تعالى ربًّا واحداً أحداً فَرداً صَمداً، وتنزيهه تنزيهًا كاملاً عن (الشريكِ، والشبيهِ، والصاحِبَةِ، والولَدِ، وعن جميعِ صفاتِ خَلْقِه، وعَن كُلِّ وصفٍ لا يليقُ بِجلالِه).
- وأنّ القُرآنَ الكريمَ هو كلامُ اللهِ تعالى المُوحَى إلى خاتمَ أنبيائِه ورُسُلِه نذيراً للمُشركينَ وبشيراً للمُؤمنينَ: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا. قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا**) (الآيات ١ – ٢).
- نددَّتْ بالمُشركينَ الذينَ نَسَبُوا إلى اللهِ تعالى الولدَ زُوراً وبُهتاناً، ونَفْيَ ذلك نَفْيًا قاطعاً: (**وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا. فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**) (الآيات: ٤ – ٦).
- أشارتْ إلى ابتلاءِ البَشرِ بزِينةِ الحياةِ الدُّنيا، وأكَّدَتْ على أنّ مآلَها إلى الزَّوالِ (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا**) (الآيات ٧ – ٨).
- أكَّدَتْ على أنَّ الصِّراعَ بينَ (الحقِّ والباطلِ، والخيرِ والشرِّ، والإيمانِ والكُفرِ) مِن سَننِ الحياةِ الدُّنيا، و(أنّ الحقَّ لا ينتَصِرُ لِكَونِه حقًّا؛ بل يحتاجُ إلى المُؤمنينَ به،

المُجاهدينَ في سبيلِه)؛ فإن عَجَزُوا فَالفِرارَ بِالدِّينِ (الآيات : ٩ – ٢٥ والآيتان ٢٢ و ٢٦).

- طلبتْ مِن رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم والمُؤمنينَ (أن يَستعِينُوا دَومًا بالمَشيئةِ الرَّبَّانيَّةِ قَبْلَ الإقدامِ على أيِّ عَمَلٍ، والمُداومَةِ على ذِكْرِ اللهِ تعالى) قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا. إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ (الآيتان : ٢٢ – ٢٤).

- أمَرتْ بالمُداومةِ على تلاوةِ القرآنِ الكريمِ، وصُحبَةِ الصالحِينَ، والبُعدِ عن رِفاقِ السُّوءِ) : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا. وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (الآيتان : ٢٧ – ٢٨).

- أكَّدتْ على حُرِّيَّةِ الاعتقادِ، ووصَفتْ جانبًا من عذابِ الظالمينَ، وطَرفًا مِن ثوابِ المُؤمنينَ الصالحِينَ : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن

سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۚ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) (الآيات: ٢٩ – ٢١).

- ضَربتْ مَثلاً لِمَنْ أبْطَرَتْهُ النِّعمةُ، ومَثلاً آخرَ لِمَنْ ثَبَتَتْهُ العقيدةُ، ومَثلاً للحياةِ والموتِ؛ لِتُؤكِّدَ هَوانَ الدُّنيا الفانيةِ إذا ما قورنت بالآخرةِ الباقيةِ الخالدة، وأشارتْ إلى حقيقةِ المالِ والبَنينَ وثوابِ الباقياتِ الصالحاتِ (الآيات: ٢٢ – ٤٦).
- عرضَتْ أحداثَ الآخرةِ وما فيها مِن (تدميرٍ للكونِ، وبعثٍ، وحَشرٍ، وعَرْضٍ، وحِسابٍ) قال تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا. وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا. وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (الآيات: ٤٧ – ٤٩).
- ذَكَرَتْ قِصَّةَ خلقِ آدمَ عليهِ السلامُ، وأشارتْ إلى سُجودِ الملائكةِ له انصياعًا لأمرِ اللهِ تعالى، وإلى رَفْضِ إبليسَ السجودَ لأبي البَشر آدمَ عليهِ السلامُ (فُسوقًا، وعِصيانًا، وكِبْرًا، واستِعلاءً). ونهيَ اللهِ تعالى عبادَه المؤمنينَ عن اتِّخاذِ الشيطانِ وذُرِّيَّته أولياءَ وَهُمُ الأعداءُ الألدَّاءُ. وأكَّدَتْ على أنّ خلْقَ السماواتِ والأرضِ وخلْقَ الإنسانِ هو مَتاهةٌ كبيرةٌ بغَيرِ الهدايةِ الرَّبَّانيَّة (مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدا) (الآيتان : ٥٠ – ٥١) .

- عادتْ إلى وَصْفِ بعضِ مواقفِ الحسابِ في الآخرةِ، وعلى ذُلِّ المُشركينَ وإقامةِ الحُجَّةِ عليهِم، وأنَّ مَصيرَهم إلى النارِ، وأكَّدتْ على ظُلمِ مَن ذُكِرَ بآياتِ اللهِ؛ فأعرضَ عنها، وعلى إهلاكِ الظالمِينَ كلٌّ في مَوعِده المحدَّدِ (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا. وَرَءَا المُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا. وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ قُبُلًا. وَمَا نُرْسِلُ المُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا. وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا. وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا) (الآيات ٥٢ – ٥٩) .

- عَرضَتْ قِصَّةَ نبيِّ اللهِ مُوسى والعبدِ الصالِح الذي آتاهُ اللهُ تعالى رحمةً من عِندَه وعِلْمِه مِن لَدُنهُ عِلماً؛ لِتؤكِّدَ على مَحدوديةِ علمِ الإِنسانِ، وعلى ضَرورةِ الرِّضا بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه وإِنْ بَدا في غَيرِ صالحِه، كما تؤكِّدُ على **(ضَرورةِ رعايةِ اليتيمِ، وأنّ اقتِلاعَ الشرِّ من الأرضِ واجبٌ، وأنّ صلاحَ الوالِدَينِ يَبقى للذُّرِّيَّةِ مهما طالَ الأمدُ)** (الآيات ٦٠ – ٨٢).
- عَرضَتْ قِصَّةَ ذِي القَرنَينِ الذي مَكَّنَ اللهَ سُبحانَه وتعالى لهُ في الأرضِ، وآتاهُ مِن كلِّ شيءٍ سبباً، وكيفَ تعاملَ مع الأقوامِ؛ ومِنهُم يأجوجُ ومأجوجُ الذين أفسدُوا في الأرضِ فأقامَ بينهُم وبينَ جيرانِهم رَدْمًا، وفي ذلكَ وصفٌ للقائدِ الصالِحِ المُؤمِنِ بِرَبِّه الذي يُجاهِدُ ل (إقامةِ العدلِ ومُكافَحةِ الظلْمِ)، وأشارتْ إلى أنَّ دكَّ هذا السدِّ هو مِن علاماتِ الساعةِ (الآيات ٨٢ – ٩٨).
- عادتْ إلى ذِكْرِ بَعضِ مَشاهدِ الآخرةِ وما فيها مِن (بَعْثٍ، وحَشْرٍ، وعَرْضٍ، وحِسابٍ، وجَزاءٍ) **(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا. وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا. أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا. قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ**

فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا) (الآيات ٩٩ – ١٠٦).

- وَصَفَتْ شيئًا من جزاءِ المؤمنينَ، وأشارتْ إلى (عَظَمةِ اللهِ تعالى، وتعظيمِ كتابه الكريمِ) (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا. خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا. قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) (الآيات: ١٠٧ – ١٠٩).
- أكَّدتْ على بَشريَّةِ رَسُولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** ونُبوَّتِه، كما أكَّدَتْ على (التوحيدِ الخالِص للهِ تعالى، وضَرورةِ العملِ الصالحِ وعَدمِ الشركِ باللهِ سُبحانَه وتعالى) (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الآية: ١١٠).

بلاغَتُها

تضمَّنَتْ آياتُها الكريمةُ وُجوهًا مِن (البيانِ والبديعِ) نُوجزُها بما يلي:

١ – **الطِّباقِ** بينَ (**يُبَشِّرَ...ويُنْذِرَ**)، وبينَ (**يَهدِي...ويُضِلُّ**)، وبين (**أيقاظًا... ورُقُودٌ**)، وبين (**ذاتَ اليمينِ...وذاتَ الشِّمالِ**)، وبينَ (**الغَداةِ...والعَشيِّ**)، وبينَ

(فَلْيُؤْمِنْ... وفَلْيَكْفُرْ)، وبينَ (**مُبَشِّرِينَ...ومُنْذِرِينَ**)، وبينَ (**نَسِيتُ... وأذْكُر**)، وبينَ (**مَطْلِعَ...ومَغْرِبَ**).

٢ – **الطِّباقُ المَعنويُّ** بينَ (**فَضَرَبْناعلى آذانِهِمْ...ثُمَّبَعَثْناهُمْ**)؛ لأنَّ مَعنى الأُولى: أنْمْناهُم، والثانية: أيْقَظْناهُم.

٢ – **الجِناسُ الناقِصُ** بينَ (**قامُوا...وقالُوا**). (**يَحْسَبُونَأَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ**)؛ لِتَغَيُّرِ الشكلِ وبَعضِ الحُروفِ، ويُسمَّى أيضًا (جِناسَ التَّصحيفِ).

٤ – **الإطْنابُ بِذِكْرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ** (**لِّيُنذِرَبَأْسًاشَدِيدًا**) (**وَيُنذِرَالَّذِينَقَالُوا اتَّخَذَاللَّهُوَلَدًا**) الشناعةُ دَعوى الولَدِ للهِ عزَّ وجلَّ، وفيهِ مِن بديعِ الحَذْفِ وجَليلِ الفَصاحةِ فَحَذْفِ المَفعولَ الأوَّلَ أيّ: لِيُنذِرَ الكافِرينَ بأسًا شَديدًا، ثمَّ ذَكَرَ المَفعولَ الأوَّلَ وحَذَفَ الثانيَ في قوله تعالى: (**وَيُنذِرَالَّذِينَقَالُوااتَّخَذَاللَّهُوَلَدًا**) عَذابًا شَديدًا؛ فَحَذَفَ العذابَ لِدلالةِ الأوَّلِ عليهِ، وحَذَفَ مِن الأوَّلِ المُنذِرينَ لِدلالَةِ الثاني عليه، وهذا مِن ألطفِ الفَصاحةِ.

٥ – **صِيغَةُ التعجُّبِ** (**أَبْصِرْبِهِوَأَسْمِعْ**).

٦ – **الاستِعارةُ** (**يُرِيدُأَنيَنقَضَّفَأَقَامَهُ**)؛ لأنّ الإرادةَ مِن صِفاتِ العُقلاءِ، وإسنادَها إلى الجِدارِ مِن لطيفِ الاستعارةِ وبليغِ المجَازِ.

٧ – **الاستِعارةُ التمثِيليَّةُ** (**بَاخِعٌنَّفْسَكَعَلَىآثَارِهِمْ**) شَبَّهَ حالَهُ **صلى الله عليه وسلم** مع المُشرِكينَ بِحالِ مَن فارقتْهُ الأحبابُ؛ فَهَمَّ بِقَتْلِ نَفْسِهِ، أو كادَ يُهلِكَ نَفْسَهُ

حُزْنًا وَوَجْداً علَيهِم. (**كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي**) أيّ: كانُوا يَنظُرونَ فلا يَعتبِرُونَ، وتُعْرَضُ عليهِم الآياتُ الكونيَّةُ فلا يُؤمِنونَ، ولم تَكُنْ أعينُهُمْ حقيقةً في غِطاءٍ وحِجابٍ؛ وإنَّما هُوَ بِطَريقِ التمثيلِ.

٨ – **الاستِعارةُ التَّبَعيَّةُ** (**فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ**) شُبِّهَتِ الإنامَةُ الثقيلةُ بِضَرْبِ الحِجابِ على الآذانِ كما تُضْرَبُ الخَيمةُ على السُّكَّانِ. وفي (**ورَبَطْنا على قُلُوبِهِم**)؛لأنّ الربْطَ هو الشَّدُّ. والمُرادُ: شَدَدْنا على قُلوبِهِم كما تُشَدُّ الأوعيةُ بالأوكِيَةِ. (**يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**) شَبَّهَهُمْ لِكَثْرَتِهِم وتداخُلِ بَعضِهِم في بَعضٍ بِمَوجِ البَحرِ المُتلاطِم واستعارَ لفظَ (**يَموجُ**).

٩ – **المُقابَلةُ البَديعيَّةُ** بينَ الجَنَّةِ (**نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا**) والنَّارِ (**بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**). (**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى**) **مُقابِلَ** (**أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ**).

١٠ – **التشبيهُ** (**بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ**) ويُسَمَّى مُرسَلاً مُفصَّلاً؛ لِذِكْرِ الأداةِ وَوَجْهِ الشَّبَهِ.

١١ – **التشبيهُ التمثيليُّ** (**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِإِحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ**) (**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ**).

١٢ – **التشبيهُ البليغُ** (**حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا**) أيّ: كالنَّارِ في الحَرارةِ وشِدَّةِ

الاحمرارِ، حُذِفَتْ (أداةُ التشبيهِ، وَوَجْهُ الشَّبَهِ)؛ فأصبحَ بليغًا.

١٢ – **المُبالَغةُ بإطلاقِ المَصدرِ على اسمِ الفاعِلِ** (**أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا**) أيّ: غائرًا.

١٤ – **الكِنايةُ** (**يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ**) كنايةً عن التحَسُّرِ والنَّدَمِ؛ لأنّ النادمَ يَضْرِبُ بِيَمِينِه على شِمالِه. الإنكارُ والتعجيبُ (**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ**).

١٥ – **اللَّفُّ والنَّشْرُ المُرَتَّبُ** (**أَمَّا السَّفِينَةُ**) (**وَأَمَّا الْغُلَامُ**) (**وَأَمَّا الْجِدَارُ**)؛ فقَد جاءَ بِها مُرتَّبةً بَعدَ ذِكْرِ (رُكوبِ السفينةِ، وقَتْلِ الغُلامِ، وبِناءِ الجِدارِ)، وهُو مِن المُحسِّناتِ البديعيَّةِ.

١٦ – **الحَذْفُ بالإيجازِ** (كُلَّ سَفينةٍ) أيّ: صالِحةٍ حُذِفَ لِدلالةِ لفظِ (أعيبَهَا)، وحذفُ لفظِ الكافِرِ من (وَأَمَّا الْغُلَامُ) لِدلالةِ قولِه تعالى (**فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ**).

١٧ – **التغليبُ** (أَبَوَاهُ) المُرادُ باللفظِ (أبُوهُ وأمُّهُ).

١٨ – **التنكيرُ للتفخيمِ والإضافةُ للتشريفِ** (**عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا**).

١٩ – **السَّجْعُ** مُراعاةً لِرُؤوسِ الآياتِ؛ مِثل (نَصَبًا، سَرَبًا، عَجَبًا).

٢٠ – **تعليمُ الأدبِ** (**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**) وهُناكَ قالَ (**فَأَرَادَ رَبُّكَ**)؛ حيثُ أسندَ ما ظاهِرُه شَرٌّ لِنَفْسِه، وأسندَ الخيرَ إلى اللهِ تعالى؛ وذلكَ لِتعليمِ الأدبِ مع اللهِ جلَّ وعَلا.[١]

---

١) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني (ج٢ / ص ١٨٨، ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٨).

سُورةُ الكهفِ في المَنامِ: قال ابنُ سِيرينَ رحمَه اللهُ: "مَن رأى أنّه قرأَ سُورةَ الكهفِ في المنامِ، أو آيةً مِنها، أو تُلِيَتْ عليه رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وحُكْمًا وحَظًّا وَفِيرًا وعُمِّرَ عُمُرًا طويلاً؛ حتّى يملَّ الحياةَ، ويشتاقَ إلى الموتِ وينالَ الأمانيَّ.

ومَن قرأها وكانَ مَمسُوسًا مِن الجِنِّ شَفاهُ اللهُ تعالى مِن ذلكَ، وتفضَّلَ عليه بِالصِّحَّةِ والعافيةِ.

العِلمُ اللدُنيُّ: وَرَدَ في "التفسيرِ الكبيرِ" للشيخِ (مُحيي الدِّينِ بنِ العربيِّ الأندلسيِّ) عندَ قولِه تعالى (**وَعَلَّمْنَاهُمِنْلَدُنَّاعِلْمًا**) ستِّينَ سِفْرًا كُلُّ سِفْرٍ بَحْرٌ لا ساحِلَ لهُ، وأنشدَ:

عَلَيَّ نَحْتُ القوافِي مِن مَقاطِعِها وَما عَلَيَّ لَهُم أَن لم تَفهَمِ البَقَرُ

الدَّلائلِ العِلميَّةِ لِلسُّورة

١ – التأكيدُ على حتميَّةِ فَناءِ الكونِ، والعِلمُ يُؤيِّدُ ذلكَ وَيَدعَمُه.

٢ – الضَّربُ على الآذانِ يُؤدِّي إلى نَومٍ عميقٍ، وتُؤكِّدُ البُحوثُ العلمية ذلكَ.

٢ – تقليبُ النائمِ لِمُدَّةٍ طويلةٍ يَحميه مِن التَّقَرُّحاتِ الجِلديَّةِ.

٤ – مِدَّةُ نَومِ أصحابِ الكهفِ (ثلاثمائةِ سِنينَ وازدادُوا تِسعًا) لَيستْ مُصادَفةً.

٥ – وَصْفُ خَلْقِ الإنسانِ في غايةِ الدِّقَّةِ مِن الناحيةِ العِلميَّةِ.

٦ – إن خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ وخَلْقَ الأنفُسِ قد تمَّ قبلَ خَلْقِ الإنسانِ.

٧ – تشبِيهُ الحياةِ الدُّنيا ب(الإنباتِ والحصادِ؛ ومِن ثَمَّ الهشيمِ) هو تشبيهٌ واقِعيٌّ.

٨ – سبيكةُ (الحَديدِ والنّحَاسِ) مِن أقوى السبائِكِ المَعدنيَّةِ (صلابةً، ونُعومةً،

ومَلْمَسًا).

الإعْجازُ في القُرآنِ الكريمِ

القُرآنُ الكريمُ هو كلامُ اللهِ المُنْزَلُ على نبيِّهِ مُحمَّدٍ **صلى الله عليه وسلم** المُعجِزُ بلَفْظِه، المُتعبَّدُ بتلاوَتِه، المَنقولُ بالتواترِ، المَكتُوبُ في المَصاحفِ من أوَّلِ سُورةِ الفاتحةِ إلى آخرِ سُورةِ الناسِ. هُو الفَصلُ ليسَ بالهَزْلِ، وهُوَ الذي لا تَزيغُ به الأهواءُ، ولا يَشْبَعُ منْهُ العُلماءُ، ولا تَنقَضِي عَجائبُه، مَن تَركَهُ منْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، ومَنْ ابتغَى الهُدَى في غَيرِه أضَلَّهُ اللهُ. هُوَ حَبْلُ اللهِ المَتينُ، وهُوَ الذِّكْرُ الحَكيمُ، وهُوَ الصِّراطُ المُستقيمُ؛ مَنْ عَملَ به أُجرَ، ومَنْ حَكَمَ به عَدَلَ، ومَنْ دَعا إليه هُديَ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ.

والقرآنُ الكريمُ مُعجزةُ الرَّسُولِ **صلى الله عليه وسلم** الكُبْرَى المُتميِّزةُ عن سائرِ مُعجزاتِ الأنبياءِ والمُرسَلينَ؛ لكَونِه **صلى الله عليه وسلم** خاتمَ الأنبياءِ والرُّسُلِ؛ فكانتْ مُعجزَتُه هَذهِ ثابتةً دائمةً لا تنتهي بوَفاتِه وانتقالِه إلى الرفيقِ الأعلى؛ بلْ تبقَى حُجَّةً على الأجيالِ إلى قيامِ الساعةِ. وهُو مَحفُوظٌ من (الزيادةِ، والنقصانِ، والتبديلِ، والتغييرِ).

وإعجازُ القُرآنِ الكريمِ مَعناهُ عَجْزُ الخَلْقِ قاطبةً عن الإتيانِ بشيءٍ من مِثْلِه؛ فهُو كتابٌ مُعجزٌ في (بيانِه ونَظْمِه)، مُعجزٌ في (فصاحَتِه وبلاغةِ أُسلُوبِه)، مُعجزٌ في (كمالِ رسالَتِه ومَضمونِه). وقد أعجزَ بُلغاءَ العَربِ وفُصحاءَهُم، وخَضَعَ لهُ أربابُ الشِّعرِ والبيانِ، واعترفُوا بِضَعفِهِم أمامَ (أُسلُوبِه، وبَلاغَتِه، وبيانِه) في عَصرِ البلاغةِ.

يقول مُصطفَى صادِق الرَّافِعيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى: "إنّ القُرآنَ إنَّما ينفَرِدُ بِأُسلُوبِه؛ لأنَّه ليسَ وضْعًا إنسانيًّا البتَّةَ، ولو كانَ مِنْ وَضْعِ إنسانٍ لجَاءَ على طريقةٍ تُشبِه أُسلوبًا مِن أساليبِ العَرب.

وهذا سهلُ بنُ عبدِ اللهِ يقولُ: "لو أُعطِيَ العبدُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنَ القُرآنِ ألْفَ فَهْمٍ لَمْ يَبْلُغْ نِهايةَ ما أودعَ اللهُ في آيةٍ مِن كتابِه؛ وإنَّما يَفْهَمُ كُلٌّ بِمِقْدارِ ما يَفتَحُ اللهُ على قلبِه (نظراتٌ لُغويةٌ في القُرآنِ الكريم).

و"المُعجِزةُ" لُغَةً هيَ: (إثباتُ العَجْزِ وإظْهارُه)، وهيَ (أمرٌ خارقٌ للعادةِ مَقْرُونٌ بالتَّحَدِّي يُظْهِرُه اللهُ تعالى على أيدِي رُسُلِهِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ).

ولا يجوزُ تحديدُ وُجُوهِ إعجازِ القُرآنِ الكريمِ؛ لأنّ الآيةَ الكريمةَ **(وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)** (البقرة: ٢٢) لم تُحَدِّدْ أوجُهَ المِثليَّةِ هذه.

ولعلَّ الحِكْمَةَ مِن ذلكَ – واللهُ أعلمُ – كثرةُ أوجُهِ الإعجازِ، وعَدَمُ انكِشافِها دَفعةً واحِدةً لجِيلٍ مِن الأجيالِ؛ فكُلُّ جيلٍ مِن البشريةِ يَنْكَشِفُ لهُ وُجوهٌ أُخْرى لم تَكُنْ مَعرُوفةً لِسابِقِه. قال الإمامُ السُّيوطيُّ رحمهُ اللهُ تعالى: "إنَّ إدراكَ إعجازِ القُرآنِ مُمْكِنٌ؛ ولَكِنْ لا يُمْكِنُ وَصْفُه، ومِن بَعضِ وُجوهِ إعجازِ القُرآنِ ما ذَكَرَ اللهُ فيهِ مِن (أعدادِ الحِسابِ، والجَمعِ، والقِسمَةِ، والضَّربِ، والمُوافَقةِ، والتأليفِ، والمُناسَبةِ، والتصنيفِ، والمُضاعَفةِ)[1] ولا شكَّ أنّ هناكَ أمثلةً لا تُحصَى مِن الإعجازِ القُرآنيِّ

[1]) الإتقان في علوم القرآن: السيوطي (ج ٢/ ص ٢٢٤ - ٢٥٦).

سنَذْكُر منها النَّزْرَ اليسيرَ؛ لِ (توضيحِ المَعنى، وتجسيدِ الفِكْرةِ).

الإعجازُ الصَّوتيُّ: لقَد نَزَلَ القُرآنُ الكريمُ نُزولاً صَوتيًّا، ولم يَنْزِلْ مُدَوَّنًا في سُطورٍ، أو مَكتُوبًا في كتابٍ، كما تمَّ تبليغُه أيضًا تبليغًا صَوتيًّا من لَدُنِ الوحي الأمينِ جِبْريلَ عليهِ السلامُ إلى رسولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** ومِنْ ثَمَّ إلى النَّاسِ عامَّةً.

وما زالتْ طريقةُ القِراءةِ والإِقْراءِ الشَّفويِّ هي الطريقةَ الوحيدةَ المُتواترةَ في (تبليغِه، وإسماعِه، وضَبْطِه، وإتقانِه) مُنذُ لحظةِ نُزولِه حتّى اليومَ وإلى يومِ القيامةِ.

ولقَد قرَّرَ سُبحانَه وتعالى هذه الحقيقةَ في قولِه: (**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**) (القيامة: ١٦ – ١٩)

وفي قولِه أيضًا: (**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى**) (الأعلى: ٦).

كما ضَمِنَ النُّزولُ الصَّوتيُّ للقرآنِ الكريمِ (صَونَهُ وحِمايتَه من التبديلِ والتحريفِ)، كما ضَمِنَ أيضًا (تخليدَه إلى الأبدِ على هيئةِ تنزيلِه ذاتِها) يومَ أُنْزِلَ مِنْ لَدُنْهُ سُبحانَه وتعالى.

الإعجازُ التوحيديُّ:

(**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**) (البقرة: ١٦٢).

(**ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**) (الأنعام: ١٠٢).

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة: ٣١).

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (التوبة: ١٢٩).

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء: ٢٥).

الإعجازُ البلاغيُّ:

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء: ٨٨).

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) (الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥).

(قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (الزمر: ٢٨).

الإعجازُ الحَرفيُّ:

(الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) (البقرة: ١ – ٢).

(المص. كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (الأعراف: ١ – ٢).

(الَرَ ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) (يُونُس : ١) .

(الَمِرَ ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۗ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) (الرعد : ١) .

(كَهَيَعَصَ) (مريم : ١) .

(طَهَ. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (طه : ١ – ٢) .

(طَسِمِ. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) (الشعراء : ١ – ٢) .

(طَسِ ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ) (النمل : ١) .

(يَسِ. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) (يس : ١ – ٢) .

(صَ ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ) (ص : ١) .

(حَمِ. تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (غافر : ١ – ٢) .

(حَمِ. عَسِقَ) (الشورى : ١ – ٢)

(قَ ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (ق : ١) .

(نَ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) (القلم : ١) .

الإعجازُ البيانيُّ:

إنَّ عبارةَ **لا إلَهَ إلاّ الله** تتركَّبُ من ثلاثةِ حروفٍ أبجديّةٍ هي(الألفُ، واللامُ، والهاءُ)؛ فهل يمكن لِبَشرٍ أن يُركِّبَ ركيزةَ الإيمانِ وأساسَ التوحيدِ من ثلاثةِ أحرُفٍ فقط

- في الآيةِ الكريمةِ: (**قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَ آتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**) (هود: ٢٨) كلمةُ **أنُلْزِمُكُمُوها** يُقابِلُها جُملةٌ مؤلفةٌ من سَبْع كلماتٍ في اللغةِ الانكليزيةِ Shall we compel you to accept it وقد لا تفي بالغَرضِ.
- في الآيةِ الكريمةِ: (**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**) (الحجر: ٢٢) كلمةُ **فأسقَيناكُمُوهُ** فيها (حرفُ عَطفٍ، وفاعلٌ، ومفعولٌ بهِ أوَّلٌ، ومفعولٌ به ثانٍ)؛ فما أروعَ بيانَ القرآنِ !
- لقد خلّدَ التاريخُ أسماءَ أشخاصٍ كانوا من (أفصحِ الناسِ لِسانًا، وأبلَغِهم بيانًا)، أمّا أنْ نسمعَ بِنملَةٍ بليغةٍ فهذا هو الإعجازُ الإلهيُّ؛ ففي الآيةِ الكريمةِ: (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) (النمل: ١٨) جمعتْ هذه (النملةُ) من أجناسِ الكلام: يا (نادتْ)، أيُّها (نبَّهَتْ)، النَّملُ (عيَّنَتْ) اُدخلُوا (أمرَتْ) مَساكِنَكُمْ (نَصَّتْ) لا يَحطِمَنَّكُمْ

(حَذَّرَتْ) سُليمانُ (خَصَّتْ) وجُنُودُه (عَمَّتْ) وَهُمْ لا يَشْعُرونَ (اعْتَذرَتْ)؛ فَسُبْحانَ الذي أنطقَها وألهَمها.

- وقال بعضُهم: عَلِمَتْ فبَلَّغَتْ، وما كَتمَتْ ولا خافَتْ، ولا خانَتْ ولا غَشَّتْ؛ (وفاءً لِقَومِها، وأداءً لأمانَتِها، ومُوافقةً لِفِطرَتِها).

- في الآيةِ الكريمةِ (أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ)(النحل: ١) استخدمَ القرآنُ الكريمُ فِعلَ **أتى** للدلالةِ على غَيرِ زمانِه فهو (فعلٌ ماضٍ)، وكلمةُ تستعجِلُوه تدلُّ على المستقبَلِ. فما السِّرُّ في ذلك؟ الجوابُ: هو أنّ الزمنَ يَحكمُنا؛ لكنَّه لا يَحكُمُ اللهَ عزَّ وَ جلَّ. نحنُ لدَينا (ماضٍ، وحاضرٌ، ومستقبلٌ)، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ الذي خلقَ (الزمانَ، والمكانَ، والأكْوانَ) فلا يَحكُمُه زمانٌ ولا مكانُ؛ ف- (الماضي، والحاضرُ، والمستقبَلُ) مكشوفٌ عِندَه على السواءِ؛ فعندَما يتحدَّثُ عن المستقبلِ فإنَّه بالنسبةِ إليه ماضٍ هو أعلمُ به.

- قال العلماءُ المُفسِّرونَ في تفسيرِ الآيةِ الكريمةِ: (وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا) (الكهف: ٤٥) شبَّهَ اللهُ تعالى الدُنيا بالماءِ؛ لأنَّ الماءَ لا يستقِرُّ في مَوضعٍ، وكذلكَ الدُّنيا لا تستقرُّ على أمرٍ. ولأنَّ الماءَ لا يستقيمُ على حالةٍ واحدةٍ، وكذلك الدُّنيا لا تستقيمُ على حالةٍ واحدةٍ. ولأنّ الماءَ لا يَبقى؛ بل يَذهَبُ، وكذلك الدُّنيا تَفنى وتَزُولُ. ولأنَّ الماءَ لا يَدخلُه أحدٌ

إلاّ ابتلَّ، وكذلك الدُّنيا لا يَسلَمُ أحدٌ دَخَلَها مِن فِتَنِها وآفتِها. ولأنَّ الماءَ إذا كان بِقَدَرٍ كان نافِعًا مُفيداً، وإذا جاوزَ المِقدارَ كان ضارًّا مُهلِكًا، وكذلك الدُّنيا الكفافُ منها يَنفعُ وفُضُولُها يَضُرُّ. وفي صحيحِ مُسلِمٍ عن النبيِّ **صلى الله عليه وسلم**: "قد أفلَحَ مَنْ أسْلَمَ وَرُزِقَ كَفافًا وقَنَّعَهُ اللهُ بِما أتاهُ"،(١) رواه مسلمٌ والتِّرمذيُّ وأحمدُ والبيهقيُّ.

الإعجازُ اللغويُّ الرَّقميُّ:

لا يُمكِنُ أن نجِدَ في لُغةِ القُرآنِ الكريمِ وبَلاغَتِه (خَللاً، أو تناقُضاً، أو اختلافًا) رقْميًّا؛ فهو (كِتابٌ مُحكَمٌ لُغويًّا ورقميًّا)، وأنَّ أيَّ مُحاولةٍ لِتقليدِه أو تحريفِه لا بُدَّ أنْ تُخِلَّ بهذا الإعجازِ، وهذا قانونٌ إلهيٌّ لمْ ولنْ يستطيعَ أحدٌ تجَاوزَه (**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**) (النساء: ٨٢).

وتتجلَّى لُغةُ الأرقامِ في آياتِ القُرآنِ الكريمِ، وتَشهَدُ على أنّه سُبحانَه وتعالى هوَ الذي أنْزَلَهُ، وحَفِظَ كُلَّ حَرفٍ فيهِ لا عن طريقِ المُصادَفةِ؛ بل إنَّ كُلَّ شيءٍ عِندَه بِمقدارٍ (**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**) (هود: ١).

وهُنا لا بُدَّ مِن بيانِ أنّ:

١ – لُغةَ الأرقامِ هي لغةُ التوثيقِ؛ فعِندَما نَعلَمُ أنَّ كُلَّ حَرفٍ في كتابِ اللهِ تعالى قَد وُضِعَ بِميزانٍ دقيقٍ مَحسوبٍ؛ فإنّ نُقصانَ أيِّ حَرفٍ أو زيادتَه سَوفَ يُخِلُّ بهذا

١) صحيح مسلم: كتاب الزكاة (١٢٥).

المِيزان. وبهذا يُمكِنُ القولُ: أنّ لُغةَ الأرقامِ هِيَ اللغةُ التي نَستدِلُّ بِها على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد حَفِظَ كُلَّ حَرفٍ في كتابِه إلى يومِ القيامةِ (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر: ٩).

٢ – إنَّ مُعظَم سُكَّانِ الأرضِ لا يَفقهونَ اللغةَ العربيةَ، والقرآنُ الكريمُ لم يَنزِلْ إلى العربِ فحَسب؛ بل نَزلَ للناسِ كافَّةً (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان: ١)؛ فما اللغةُ التي يُمكِنُ لهذهِ الرسالةِ الإلهيةِ أن تُخاطِبَ الناسَ جميعًا؟ لا شكَّ أنّها لغةُ الأرقامِ. والإعجازُ الرقْميُّ هو بمَثابةِ لغةٍ جديدةٍ يُمكِنُ من خلالِها مُخاطَبةُ البَشرِ كافّةً.

٣ – تُؤكِّدُ الآيةُ الكريمةُ (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل: ٨٩) على أنّ القرآنَ الكريمَ يَحوي كلَّ العلومِ؛ بل كلَّ شيءٍ، وعلمُ الرياضياتِ هو من العلومِ الحديثة، وهذا دليلٌ على صدقِ اللهِ تعالى، و(أنَّ القرآنَ الكريمَ هو كِتابٌ عالَميٌّ).

٤ – القرآنُ الكريمُ بناءٌ شامخٌ عظيمٌ لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يأتي بِمثلِه أو بِمثلِ سُورةٍ مِنه. وإذا عَجَزَتِ اللغةُ العربيةُ عن تقديمِ براهينَ مادَّيَّةٍ على ذلكَ؛ فإنَّ لغةَ الأرقامِ دليلٌ ملموسٌ على صدقِ كلامِ الحقِّ سُبحانَه وتعالى (هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ) (آل عمران: ١٢٨)، (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ

﴿هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

والمُعجزةُ الرقميةُ هي كشفٌ إحصائيٌّ جديدٌ في القرآنِ الكريمِ يُناسِبُ عصرَنا هذا الهدفُ منها زيادةُ إيمانِ المؤمنِ، وزيادةُ يقينِه بكتابِ ربِّه كي لا يَرتابَ ولا يشكَّ بشيءٍ من هذه الرسالةِ الإلهية، أمَّا الذي لا يُؤمِنُ بهذا القرآنِ العظيمِ فسيبقَى على ضلالِه حتَّى يلقَى ربَّهُ ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٢١).

ومِن الإعجازِ الرقميِّ الآيةُ الكريمةُ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (الحجر: ٤٢ – ٤٤) وقولُه **صلى الله عليه وسلم**: "في الجنَّةِ ثمانيةُ أبوابٍ فيها بابٌ يُسمَّى الرَّيَّانُ لا يَدخُلُه إلاَّ الصائمونَ". (١) فمَجموعُ أبوابِ النارِ والجنَّة ١٥ ولقد تكرَّرتْ كلمةُ **أبواب** في القرآنِ الكريم ١٥ مرَّةً فسُبْحانَ اللهِ العظيمِ.

واستنتجَ الباحثونَ من آياتِ القرآنِ الكريمِ نسبةَ المياه التي تُغطِّي سطحَ الكرةِ الأرضيَّةِ ونسبةَ اليابسةِ، فقَد وَردَت كلمةُ البحارِ **المياه** ٢٢ مرّةً، ووَردَت كلمةُ البَرِّ

١) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق (٣٢٥٧).

اليابسة ١٢ مرَّةً، ومجموعُهما ٢٢ + ١٢ = ٤٥ وبنسبةٍ رياضيَّةٍ بسيطةٍ نستنتجُ:

(٢٢ X ١٠٠) ÷ ٤٥ = ٧١،١١١١١٪ نسبةُ المياهِ على سطحِ الكُرةِ الأرضيةِ.

(١٢X١٠٠) ÷ ٤٥ = ٢٨،٨٨٨٨٩ ٪ نسبةُ اليابسةِ على سطحِ الكُرةِ الأرضيةِ.

وذك تعالى أنَّه خَلَقَ سَبْعَ سماواتٍ ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ (الملك: ٢٢) وكرَّرَ ذِكرَها سبعَ مرَّاتٍ في آياتِ القرآنِ الكريمِ، وهذا التطابُق المُذهِلُ بينَ عددِ السماواتِ وعددِ مرَّاتِ تكرارِها لا يُمكِنُ أن يأتيَ مُصادَفةً؛ بل يَشهَدُ أنّ مُنزِلَ القرآنِ هو خالقُ السماواتِ السبعِ ومَن فِيهنَّ.

الإعجازُ في قُدرةِ اللهِ تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس: ٨٠).

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر: ٦٧).

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (القيامة: ٢ – ٤).

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ (النبأ: ٢٩).

الإعجازُ في خَلْقِ الكونِ:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (فُصِّلَت: ٩ – ١٢).

الإعجازُ في خَلْقِ الإنسانِ:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (الحِجْر: ٢٨ – ٢٩).

﴿ ولقد خَلَقْنا الإنسان من سُلالةٍ من طين. ثمَّ جعلناه نُطفةً في قرارٍ مَكِين. ثمَّ خَلَقْنا النُطفةَ عَلقةً فخَلَقْنا العَلَقةَ مُضغةً فخَلَقْنا المُضغةَ عِظامًا فكسونا العِظام لحمًا ثمَّ أنشأناه خَلْقًا آخرَ فتبارك الله أَحْسَنُ الخَالقين ﴾ (المؤمنون: ١٢ – ١٤).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحُجرات: ١٢).

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فجعلناه سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان : ٢) .

الإعجازُ في خَلْقِ الجِنِّ :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف : ١٢) .

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ (الحِجْر : ٢٧) .

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ (الرحمن : ١٥) .

الإعجازُ الفلكيُّ :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ (الفُرقان : ٤٥) .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ (يس : ٢٧) .

الإعجازُ الطِّبِّيُّ والصَّيدلانيُّ :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (النساء : ٥٦) .

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (يوسف : ٨٤) .

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء : ٢٦) .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء : ٨٢) .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (لُقمان : ١٤) .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يس : ٦٨) .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (المَعارج : ٢٩) .

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ (الإنسان : ١٧) .

الإعجاز الكيميائي :

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس : ٦١) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٠) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ (الفرقان : ٥٢) .

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ (الرحمن : ٢٥) .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد : ٢٥) .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة : ٧) .

الإعجاز الكيميائي الحيوي :

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل : ٦٧)

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور : ٢٥) .

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ (التين : ١) .

الإعجازُ الفيزيائيُّ :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (النور : ٣٩) .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) (النور : ٤٣) .

(قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (النمل : ٤٠)

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) (الروم : ٢٢) .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) (السجدة : ٥) .

الإعجازُ الزِّراعيُّ :

(وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأنعام : ١٤١)

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد: ٤).

(وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ. وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ) (يس: ٢٢ – ٢٤).

(وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ. وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ) (ق: ٩ – ١٠)

الإعجازُ الحيوانيُّ:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) (البقرة: ٢٦).

(فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) (المائدة: ٢١).

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) (النمل: ٢٠).

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤١) .

الإعجازُ الجُغرافيُّ :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ (الرحمن : ١٩ – ٢٠) .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ. وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير : ١٨ – ١٧) .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ. وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ (الطارق : ١١ – ١٢) .

الإعجازُ التاريخيُّ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ (يوسف : ٤٢)

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (العنكبوت : ٢٨) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ١٤) .

الإعجازُ في يومِ الدِّينِ:

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا. وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ (الطور: ٩ – ١٠).

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ. وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ. وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ. وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ. وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ (التكوير: ١ – ١٢).

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ. وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ (الانفطار: ١ – ٤)

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ (الزلزلة: ١ – ٢).

الإعجازُ الحواريُّ:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٠).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ

الصَّاغِرِينَ. قَالَ فَانظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ) (الأعراف : ١١ – ١٨) .

الإعجازُ في التَّحَدِّي :

(وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة : ٢٢) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) (الحج : ٧٢) .

(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) (الطُّور : ٢٤) .

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (الرحمن : ٢٢) .

الإعجازُ التوبيخيُّ :

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (الأنبياء : ٦٧ – ٦٦) .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (القصص: ٧١ – ٧٢).

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (الطور: ١٥).

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (القلم: ٣٥ – ٣٦).

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمّد: ٢٤).

الإعجازُ في القَسَمِ:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢).

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (الواقعة: ٧٥).

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ (الحاقة: ٣٨ – ٣٩).

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ (المَعارج: ٤٠).

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ١ – ٢).

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ. الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ (التكوير: ١٥ – ١٦).

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ. وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ. وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (الانشقاق: ١٦ – ١٨).

الإعجازُ في حُرِّيَّةِ الرَّأي:

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف: ٢٩).

﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي. فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الزمر: ١٢ – ١٤).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (فُصِّلَت: ٤٠).

الإعجازُ في الصَّبْر:

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٥).

﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (هود: ١١٥).

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٢).

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٢٧).

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١١).

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم: ٦٠).

الإعجازُ الغيبيُّ:

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (القصص: ٤٤ – ٤٦).

(آلم. غُلِبَتِ الروم. في أدنى الأرضِ وهُم مِن بَعدِ غَلَبِهم سيَغلِبون. في بِضعِ سنين) (الروم: ١ – ٤).

(لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا) (الفتح: ٢٧).

(سيُهزَمُ الجَمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُر) (القمر: ٤٥).

(سَنَسِمُهُ على الخُرطُومِ) (القلم: ١٦).

(تَبَّتْ يدا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ) (المسد: ١).

الإعجازُ في الاستِغفار:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (الأنفال: ٢٢).

(وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) (هود: ٢).

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) (نوح: ١٠ – ١٢).

الإعجازُ النفْسيُّ:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأنفال: ٥٢).

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا) (الإسراء: ٢٥).

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) (القيامة: ١٤ – ١٥).

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات ٤٠ – ٤١).

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (الشمس: ٧ – ١٠)

الإعجاز التربوي:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧).

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩).

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (مريم: ٤١ – ٤٥).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف: ٢ – ٣).

الإعجازُ في الوعظِ والنصيحةِ:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (الفرقان : ٦٢) .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لُقمان : ١٢) .

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان : ١٨ – ١٩) .

الإعجاز التشريعي :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النساء : ٩٠) .

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ (النساء : ١٠٢) .

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور : ٢) .

الإعجازُ الاقتصاديُّ :

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢٦١) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (البقرة : ٢٧٨) .

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ) (التوبة : ٢٤ – ٢٥) .

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (الذاريات : ١٩) .

الإعجازُ في الملكيَّة :

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة : ١٨٨) .

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (النساء : ٢٢) .

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (القَصَص : ٧٦ – ٧٧) .

الإعجازُ في التبليغِ:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران: ٦٤).

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (المائدة: ٦٧).

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل: ١٢٥).

(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) (الشورى: ٧).

الإعجازُ في النَّصر:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (آل عمران: ١٢٢).

(إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (آل عمران: ١٦٠).

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (النور: ٥٥).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: ٤٧).

الإعجازُ العقليُّ:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٢).

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف: ٢).

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأحقاف: ٤).

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الملك: ١٠).

الإعجازُ اللسانيُّ:

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) (النحل : ١٠٢) .

(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النور : ٢٤) .

(وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ) (الشعراء : ١٩٢ – ١٩٥) .

(وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ) (الأحقاف : ١٢) .

الإعجازُ في الصَّلاةُ : (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ) (البقرة : ٤٢) .

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) (البقرة : ٤٥) .

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) (البقرة : ٢٢٨) .

(قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ) (إبراهيم : ٢١) .

(فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (مريم : ٥٩) .

الإعجازُ في الزَّكاةِ :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦٠).

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٠٢)

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (الذاريات: ١٩).

الإعجازُ في الصومِ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٢ – ١٨٥).

الإعجازُ في الحَجِّ:

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٥٨).

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٦ – ٩٧).

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج: ٢٧).

الإعجازُ في الدُّعاءِ:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧).

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (البقرة: ٢٠١).

﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: ٨).

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠).

الإعجازُ المنطقيُّ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ٧٥ – ٧٨).

الإعجازُ في اليقينِ:

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحِجْر: ٩٩).

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٢).

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٩٥ – ٩٦).

﴿ قالوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ (المدثر: ٤٢ – ٤٧).

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ. لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ. ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ. ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر: ٥ – ٨).

الإعجازُ في أمرِ اللهِ وقَدَرِه:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ٥١).

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢).

﴿ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (الأحزاب: ٢٨).

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: ٤٩).

﴿ ما أصابَ من مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفُسِكُم إلاَّ في كتابٍ من قَبْلِ أن نبرَأَها إنَّ ذلك على الله يسيرٌ ﴾ (الحديد: ٢)

الإعجازُ في الظُّلْمِ:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا. إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (النساء: ١٦٨ – ١٦٩).

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (يونس: ٥٤).

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ. وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود: ١٠١ – ١٠٢).

﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (طه: ١١١).

الإعجازُ في العَدلِ:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء: ٥٨).

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠).

الإعجازُ الإيحائيُّ:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة: ١١١).

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (النحل: ٦٨).

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٢).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص: ٧).

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا. وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ (الزلزلة: ١ – ٥).

الإعجازُ التصويريُّ:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ٦).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ (الأعراف: ١١).

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٤).

﴿ يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (الانفطار: ٦ – ٨)

الإعجازُ في النفْعِ والضُّرِّ:

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۗ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٩).

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (الرعد: ١٦).

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٢).

الإعجازُ في المَشيئةِ:

﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأنعام: ٣٥).

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذكر للعالمين. لمن شَاءَ مِنْكُم أَن يَسْتَقِيم. وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاء الله رب الْعَالمين ﴾ (التكوير: ٢٧ – ٢٩)

الإعجازُ في الإرادةِ:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٢٦ – ٢٧).

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٥).

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس : ٨٢) .

الإعجازُ في النَّصيحةِ :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (المائدة : ٧٨ – ٧٩) .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (مريم : ٤١ – ٤٥) .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (يس : ٢٠ – ٢١) .

الإعجازُ في الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهي عن المُنكَر :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧١).

الإعجازُ في الإخلاصِ:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١٤٥ – ١٤٦).

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢ – ١٦٢).

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٩).

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (غافر: ١٤).

الإعجازُ في العِنادِ والمُكابَرةِ:

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا) (البقرة : ١٥٢) .

(وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) (الإسراء : ٩٠ – ٩٢) .

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (العنكبوت : ٥٠) .

الإعجازُ في النجْوى :

(لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (النساء : ١١٤) .

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) (التوبة : ٧٨) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ

لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (المُجادلة: ٩ – ١٠).

الإعجازُ في المَواريثِ:

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ) (النساء: ١١ – ١٢).

الإعجازُ في الغنائِم:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١).

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال: ٤١).

الإعجازُ في التوبةِ:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، والله غفور رحيم﴾ (المائدة: ٧٤).

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٩ – ١٠٠).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٨).

الإعجازُ في الطاعةِ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (النساء : ٥٩) .

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (الأنفال : ٤٦) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) (الأحزاب : ٧٠ – ٧١) .

الإعجازُ في العُبوديَّةِ :

(وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة : ٢٢) .

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الإسراء : ١) .

(هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (الحديد : ٩) .

الإعجاز في الكيد :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٧٦).

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٣).

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ (الأنفال: ١٨).

الإعجازُ في المحَبّةِ:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ٧٦).

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٨).

الإعجازُ في الخَوفِ والخَشيةِ:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ. وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٧ – ٦١).

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر: ٢٨).

الإعجازُ في الجَنَّةِ ونعيمِها:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٢).

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ (النساء: ٥٧).

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (الحج: ٢٢).

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الزخرف: ٧١).

الإعجازُ في النارِ وعَذابِها:

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف: ٢٩).

(إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ) (الدخان : ٤٢ – ٤٦).

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ. فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) (الواقعة : ٤١ – ٤٤)

(إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا. وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا) (المزمل : ١٢ – ١٢).

(لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ. لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ) (الغاشية : ٦ – ٧).

الإعجازُ في تكريمِ الوالِدَين :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) (الإسراء : ٢٢ – ٢٤).

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (لقمان : ١٤).

الإعجازُ في يومِ القيامةِ :

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ) (الأنبياء : ١٠٤).

(يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) (ق : ٤٢).

﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (الرحمن : ٢٧) .

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (المدثر : ٨ – ١٠) .

﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ . وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ . وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ . وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ . لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ (المرسلات : ٨ – ١٤) .

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ . وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ . عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (الانفطار : ١ – ٥) .

الإعجاز في إهلاك الأمم :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء : ١٧) .

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (الأنبياء : ٩٥) .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ (مريم : ٩٨) .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (يس : ٢١) .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر : ٥١) .

الإعجازُ في المَوتِ :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾ (النساء: ٧٨).

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (السجدة: ١١).

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزُّمَر: ٤٢).

الإعجازُ في الحياةِ الدُّنيا:

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (التوبة: ٣٨).

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ (هود: ١٥).

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ (الرعد : ٢٦)

الإعجازُ في الأمانةِ :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء : ٥٨) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٧) .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (المؤمنون : ٨) .

الإعجازُ في الخِيانةِ :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا . وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (النساء : ١٠٥ – ١٠٧) .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (الأنفال: ٥٨).

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ (التحريم: ١٠).

الإعجازُ في السُّؤالِ:

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف: ٦).

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الحجر: ٩٢ – ٩٢).

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (العنكبوت: ١٢).

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ (الصافات: ٢٤).

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر: ٨).

الإعجازُ في الاستِقامةِ:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (هود: ١١٢).

﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المؤمنون: ٧٢).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت: ٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٢٠).

الإعجازُ في صِفاتِ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

الإعجازُ في الفِتنَة:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ

تَأْوِيلِهِۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران: ٧).

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) (الأنفال: ٢٥).

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (الأنفال: ٢٨)

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) (الفرقان: ٢٠).

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَاۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الممتحنة: ٥).

الإعجازُ في الحَسرةِ والندامةِ:

(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (مريم: ٣٩).

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا. يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) (الفرقان: ٢٧ – ٢٩).

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ) (الزمر: ٥٦).

﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ (النبأ : ٤٠) .

الإعجازُ في الشهادةِ :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة : ١٤٢) .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء : ٤١) .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ (النحل : ٨٩) .

الإعجازُ في خَلْقِ الأضدادِ :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام : ١)

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٢)

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (الملك : ٢) .

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى. وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) (الليل : ١ – ٢) .

الإعجاز في العزة :

(بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (النساء : ١٢٩) .

(وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (يونس : ٦٥) .

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) (فاطر : ١٠) .

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (المنافقون : ٨) .

الإعجازُ في التِّجارةِ :

(رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) (النور : ٢٧) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) (الصف : ١٠ – ١١) .

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (الجمعة : ١١) .

الإعجازُ في التعوُّذِ :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (النحل : ٩٨) .

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون : ٩٧ – ٩٨) .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ. مِن شَرِّ مَا خَلَقَ. وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ. وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ. وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (الفلق : ١ – ٥) .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ. مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (الناس : ١ – ٦) .

تأملات وخواطر وفتوحات: الكلب والحوت والحديد[1]

جاءتْ في سُورةِ الكهفِ أربعُ قَصَصٍ:

الأولى: قِصَّةُ أصحابِ الكهفِ؛ وذُكِرَ بها الكلبُ أربعَ مرَّاتٍ،

والثانيةُ: قِصَّةُ صاحبِ الجنَّتَينِ،

والثالثةُ: قصَّةُ نبيِّ اللهِ تعالى مُوسَى وفتاهُ وذُكِرَ بها الحُوتُ مرَّتَينِ،

والرابعة: قصَّة ذي القَرنَينِ وذُكِرَ فيها الحديدُ.

وَجاءَ فيها أيضًا دلائلُ رقْميَّةٌ وإشاراتٌ خفيَّةٌ عن عددِ كروموسوماتِ الكلبِ والحُوتِ، وعن الوزنِ الذَّرِّيِّ للحديدِ، وعن أبعادِ الشمسِ والأرضِ، وعن أحداثٍ جدٍّ مُهمَّةٍ، ومفاتيح بَحثٍ عن بعضِ المخلوقاتِ.

عددُ كروموسوماتِ الكلبِ والحُوت:

بينَ سُورةِ "الكهف" ذاتِ الرقْم ١٨ التي ذُكِرَ فيها ذِكْرُ الكلبِ أربعَ مرَّاتٍ وبينَ سُورةِ الحديدِ ذاتِ الرقْمِ ٥٧ هناك ٢٩ سورةً، وهذا الرقْمُ يساوي عددَ أزواجِ كروموسوماتِ الكلبِ. وممّا يُؤيِّدُ ذلك هو أنّ الفَرْقَ بينَ الآيةِ رقْم ١٨ التي وَرَدَ فيها ذِكْرُ الكلبِ في سُورةِ الكهفِ وبينَ الآيةِ رقْم ٩٦ التي وردَ فيها ذِكْرَ فيها الحديدُ هو ٧٨ وهو العددُ الكاملُ لكروموسوماتِ الكلبِ. والكروموسوماتُ تحتوي على أدقِّ تفاصيلِ صفاتِ الكائنِ الحيِّ وشِيفرةِ تكوينِه الشديدةِ التعقيدِ.

[1] (بِتَصرُّف)

ونجَدُ أيضا خواصَّ (الحوتِ والحديدِ والكلبِ) بالترتيبِ في أرقامِ الآيةِ ٢٢ (.. **ثلاثةٌ رابِعُهُم كلبُهُم..خَمسةٌ سادِسُهُم كلبُهُم..سَبعةٌ وثامِنُهم كلبُهُم..**) بالترتيبِ نفسِه! تأمّل أُخَيَّ (**ثلاثةٌ رابِعُهُم**) أي ٤٢ وهي عددُ أزواجِ كروموسوماتِ جميعِ أنواعِ الحيتانِ؛ حيث أنّ أوَّلَ ذِكْرٍ للحوتِ بالقرآنِ الكريمِ جاءَ بصيغةِ الجَمْعِ (**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**) (الأعراف: ١٦٢). ثُمَّ تأمَّلْ (**خَمسةٌ سادِسُهُم**) أي ٥٦ وهو الوزنُ الذَّرِّيُّ الأشهرُ للحديدِ. ثمَّ تأمَّلْ (**سَبْعَةٌ وثامِنُهُم**) أي ٧٨ وهو العددُ الكاملُ لكروموسوماتِ الكلبِ، أو أنّه مجموعُ كروموسوماتِ الكلبِ والذئبِ وهُما الحيوانانِ الوحيدانِ المَذكُورانِ بالقرآنِ الكريمِ اللذانَ يَحمِلانَ ٢٩ زوجًا من الكروموسوماتِ ولهُما الصفاتِ نفسِها تقريبًا.

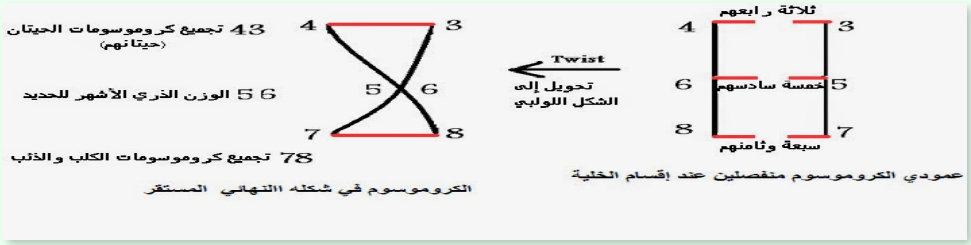

ونجَدُ كذلكَ في سورةِ "الأعرافِ" في الآيات ١٦٢، ١٧١، ١٧٦ ذِكْرَ "الحِيتانِ"، يليهِ ذِكْرَ جَبلِ "الطورِ" المرفوعِ فوقَ اليهودِ – وهو رمزُ الحديدِ – يليهِ ذِكْرُ الكلبِ. وهذا الترتيبُ هو ترتيبُ نفسِ صِفاتها في أرقامِ الآية رقْم ٢٢.

ومِن الجديرِ بالذِّكْرِ أنَّ السورةَ رقْم ٧٨ في القرآنِ الكريمِ هي سُورةُ "النبأ" وعددُ آياتِها ٤٠ أيةً وهو عددُ حروفِ كلماتِ "الكلبِ والذئبِ" نفسِها في القرآنِ الكريمِ: كلبُهُم ٤ مرَّاتٍ... الكلبُ مرَّةً واحدةً... الذئبُ ٢ مرَّاتٍ. وقد رتِّبَتِ الأرقامُ ٤٢ و ٥٦ و ٧٨ بهذهِ الطريقةِ بسببِ شكلِ الكروموسوم، ومجموعُها هو ١٧٧ وهو رقْمُ أوَّلِ آيةٍ ذُكِرَ فيها الكلبُ في القرآنِ الكريمِ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٦) مع إضافةِ البسملةِ.

وهو الذي يبدأُ الخَلْقَ ثمَّ يُعيدُه:

يُحلَّلُ الرقْمُ ١٧٧ إلى ٥٩ × ٢ والرقْم ٥٩ هو رقْمُ آيةٍ مِثلَ خَلْقِ عيسى عليهِ السلامُ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩)، والأرقامُ المذكورةُ بالآيةِ ٢٢ تبدأُ بالرقْمِ ٢ وتنتهي بالرقْم ٨ وهما رقْمانِ لهُما علاقةٌ بِبَدءِ الخَلقِ وإعادتِه، حسب تأمُّلي للتعبيرِ، ويتكرَّرُ ذلكَ في ثلاثةِ أزواجٍ من الآياتِ هي: زوجٌ في سورةِ يُونُس ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (يونس: ٤) ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ

تُؤْفَكُونَ) (يونس: ٣٤) ومجموعُ رقْمَي الآيتَين هو ٢٨ ، وآيةٌ في سورةِ النملِ (أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (النمل: ٦٤) وأُخرى في سورةِ العنكبوتِ (أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) (العنكبوت: ١٩) مجموعُ رقْميهِما ٨٢ ، وزوجٌ في سُورةِ الرومِ (اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (الروم: ١١) (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الروم: ٢٧) ومجموعُ رقْميهِما ٢٨ أيّ: أنّ هناك على ما يبدُو حلقةً لِبَدءِ الخلقِ وإعادته ٨ – ٢ – ٢ – ٨ – ٨ – ٢ ثمَّ إنّ مجموعَ الأرقامِ مِن ٢ إلى ٨ هو ٢٢ وهو سِنُّ رَفْعِ عيسى عليهِ السلامُ، وسِنُّ عَودتِه إلى الأرضِ، وسِنُّ دُخولِ أهلِ الجنَّةِ إلى جنَّتِهِم.

وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها:

من الآية رقْم ٢٢ في سُورةِ الكهفِ إلى الآية (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) (الرحمن: ٤) هناكَ ٢٧٤٤ آية أيّ ٧ × ٧ × ٧ × ٨ إذنْ هناك نظامٌ رقْميٌّ بديعٌ للعددِ سَبعة.

ولا ننسى أنّ مجموعَ الأرقامِ المَذكورةِ في سورةِ الكهفِ: (**ثلاثةٌ-رابِعُهم-خمسةٌ-سادِسُهم-سبْعةٌ-وثامِنُهم-ثلاثُمائةٍ-تِسعًا-واحدٌ**) هو ٢٤٢ وهذا الرقْمُ يُحلَّلُ إلى ٧ × ٧ × ٧ وهذا النظامُ الرقْميُّ البديعُ للعددِ سبعةٌ قد يُشيرُ إلى أنّ الحُروفَ

الأبجديَّةَ العربيةَ هي الحُروفُ التي علَّمَها اللهُ عزَّ وجلَّ لآدمَ عليه السلامُ، وفيها صفاتُ المخلوقاتِ.

الكافُ والدالُ والحاءُ:

قد يكونُ حَرفُ الكافِ تمثيلاً لكلمةِ **كلبٍ** والحاءُ لكلمةِ **حوتٍ** والدالُ لكلمةِ **حديدٍ** وهناك عشراتُ الأمثلةِ على ذلك وهذه إحداها: إنّ عددَ حروفِ الكافِ من أوَّلِ سورةِ الكهفِ حتّى كلمة كلبِهم الثانية هو ٢٩ حرفًا ويُساوي عددَ أزواجِ كروموسوماتِ الكلبِ:

(الْكِتَابَ-مَاكِثِينَ-كَبُرَتْ-كَلِمَةً-كَذِبًا-فَلَعَلَّكَ-نَّفْسَكَ-الْكَهْفِ-كَانُوا-الْكَهْفِ-لَّدُنكَ-الْكَهْفِ-عَلَيْكَ-كَذِبًا-الْكَهْفِ-لَكُمْ-رَبُّكُم-لَكُم-أَمْرِكُم-كَهْفِهِمْ-ذَلِكَ-وَكَلْبُهُم-وَكَذَلِك-كَمْ-رَبُّكُمْ-أَحَدَكُم-بِوَرِقِكُمْ-أَزْكَى-فَلْيَأْتِكُم-بِكُمْ-عَلَيْكُمْ-يَرْجُمُوكُمْ-يُعِيدُوكُمْ-وَكَذَلِكَ-كَلْبُهُمْ-كَلْبُهُمْ-كَلْبُهُمْ).

ويُلاحَظُ أنّ رقْمَ حرفِ الكافِ بكلمةِ "كلبُهُم" الأولى هو ٢٢ وهو عددُ أزواجِ كروموسوماتِ أغلبِ الحيتانِ، وهو رقْمُ الآيةِ التي فيها أعلى مُعدَّلٍ لِذِكْرِ الكلبِ بالقرآنِ الكريمِ. ومِن الملاحَظِ أنّ ترتيبَ كلمةِ "كلبُهُم" المكرَّرةِ ثلاثَ مرَّاتٍ في الآيةِ رقْم ٢٢ هو ترتيبُ الكلماتِ الثلاثِ نفسِها التي تحتوي على حرفِ الكافِ في الآيةِ رقم ٢١ من سُورةِ البقرةِ **(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)** كُلَّها – الملائكةِ – كُنتُم. هذا وقد يدلُّ

حرفُ الكافِ إلى أنّه يحتوي في (شَكلِه ومَضمونِه ونُطقِه) صفاتِ الكائنِ الذي يُشيرُ إليه، وهو أوَّلُ حَرفٍ مِن كلمة كُن، وأوَّلُ حرفٍ من كلمةِ **كَهف**، وأوّلُ حَرفٍ من حروفِ **كهيعص** وهذا هو الظهورُ الوحيدُ له بهذهِ الحُروفِ.

هل الكلبُ والحوتُ والحديدُ تَرمزُ لِشَيءٍ ما؟

الكلبُ: هناك ما يُشيرُ إلى أنّ "الكلبَ" يرمزُ إلى العذابِ المسلَّطِ على الظالمِينَ، وإلى الأرضِ التي يعيشُ عليها "الدَّجَّالُ". وقد تختلفُ عن الأرضِ التي سيخرجُ منها بعدَ غَضبَتِه، وهي تُشبِهُ الكلبَ على الخريطةِ، وكانت تُسمَّى "الإمبراطوريةَ التي لا تغيبُ عنها الشمسُ"، ويُوجدُ فيها خطُّ الطولِ الصِّفْريّ "غرينتش" الذي يرتبطُ بِحركةِ الشمسِ الظاهريّة. ونجدُ في سورةِ الكهفِ أعلى مُعدَّلٍ لِذِكْرِ الكلبِ وأعلى مُعدَّلٍ لِذِكْرِ الشمسِ بالقرآنِ الكريمِ كلِّه. إنّ أوّلَ ذِكْرٍ للكلبِ في سورةِ الكهفِ هو في الآيةِ رقْم ١٨ (**وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**) وعددُ الكلماتِ مِن كلمةِ وكلْبُهُم في هذه الآيةِ حتّى كلمةِ المدينةِ بالآيةِ رقْم ١٩ هو ٢٩ كلمةً، وهذا الرقْمُ هو رقْمُ خطِّ الطولِ التي تقعُ عليه "المدينةُ المنوَّرةُ" التي لن يَدخُلَها "الدَّجَّالُ"، وهو أيضًا عددُ أزواجِ كروموسوماتِ الكلبِ. ومِن أوَّلِ ذِكْرٍ للكلبِ بالآيةِ رقْم ١٨ (...**وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ**) حتّى أوّل ذِكْرٍ للحوتِ بالآية رقْم ٦١ (**نَسِيَا حُوتَهُمَا**) سنجدُ ٤٤ آيّةً أيّ: العددَ الكاملَ لِكروموسوماتِ "الحُوتِ"، ومِن ثاني ذِكْرٍ للكلبِ بالآية رقْم ٢٢ (**ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ**) حتّى ثاني ذِكْرٍ للحُوتِ

بـالآيـةِ رقْـم ٦٢ (....**نَسِـيَاحُـوتَهُـمَا**) سنجـدُ ٤٢ آيـةً أيّ الـعددَ الـكامـلَ

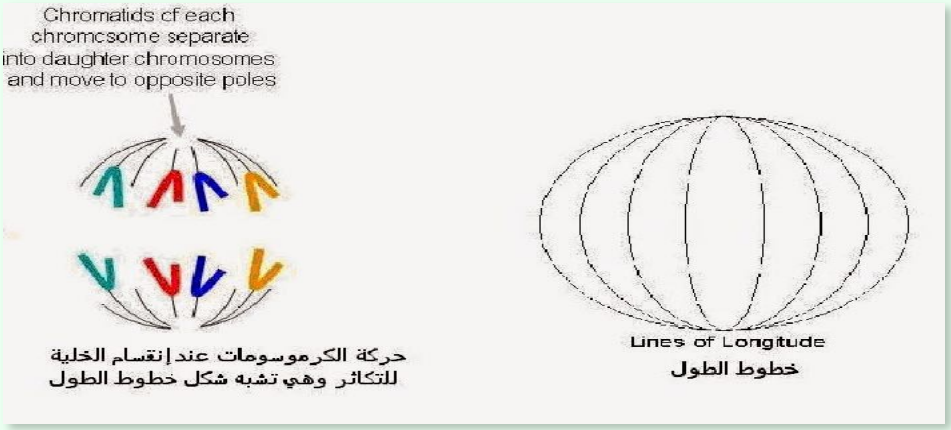

لكروموسوماتِ بعضِ أنواعِ الحِيتانِ.

ونجَـدُ أنّ الآيـةَ رقْـم ١٨ بـالسورةِ رقْـم ١٨ وتـرتـيبَ كـلمةِ (**وَكَـلْبُهُم**) بـالآيـةِ هـو رقْـمُ ١٠ كـأنّـها إشـارةٌ إلـى زَوجَـي مجـموعـاتِ خُـطوطِ الـطولِ أل ١٨٠ أو الـعددِ الكاملِ لهُم ٢٦٠.

تـأمَّـلْ شـكلَ الـكروموسـوماتِ وحـركتَها عـندَ انـقسامِـها وتـوجُّـهِها إلى طَرَفي الخـليّةِ تجَـدُها تُشبِهُ خُطوطَ الطولِ وكـأنَّـها تـتقلَّبُ ذاتَ اليـمينِ وذاتَ الـشمالِ عـلى سـطحِ الأرضِ مع الحـركةِ النسبيَّةِ للشمسِ؛ ف– (خـالقُ الحَـركتَينِ واحـدٌ). ومِن الملاحَظِ أيضًا أنّ خُطوطَ الطولِ تلتقي عند قُطبَي الأرضِ والكروموسوماتِ أيضًا تلتقي في حَركتِها عندَ قُطبَي الخليَّةِ وذِكْرِ اليمينِ والشمالِ أيضًا قد يكونُ إشارةً لِعَمودي الكروموسومِ الأيمنِ والأيسرِ.

طولُ خطِّ الاستواءِ وأبعادُ الكرةِ الأرضيّة:

العجيبُ أنّ حرفَ "التاءِ" في كلمةِ ولْيَتَلَطَّفَ في الآيةِ رقْم ١٩ (**فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا**) هو نِصفُ القُرآنِ الكريمِ. وكذلك فإنّ كلمةَ استواء يتوسَّطُها حرفُ "التاءِ" تقريبًا؛ فهلْ في هذه الآيةِ إشارةٌ ما؟

إنّ عددَ كلماتِها ٢٨ وهو ضِعفُ رقْمِها ١٩ ومَجموعَهُما ٥٧ وهو ٤٠ + ١٧ أيّ طولَ خطِّ الاستواءِ تقريبًا أو محيطِ الأرضِ بآلافِ الكيلومترات + رقْم سورةِ الكهفِ ١٧ على اعتبارِ أنّ عدَّ سُوَرِ القرآنِ يبدأ مِن سُورةِ البقرةِ، وأنّ البسملَةَ في بدايةِ كلِّ سُورةٍ تُعدُّ آيةً كما تُعدُّ في سورةِ الفاتحةِ لِتُعطينا سبعَ آياتٍ. وإذا كان في ذلك تكلُّفٌ فهناكَ أمثلةٌ أُخرى، ولعلّ مِن أبلغِها ما اكتشفَه العالِمُ الرَّبّانيُّ المتخصِّصُ الخبيرُ زغلول النجّارِ اللّهُ في سُورةِ الحديدِ لِيؤكِّدَ الارتباطَ الوثيقَ بينَ هذا النظامِ وحسابِ أبعادِ الأرضِ.

المثالُ الأوَّلُ: رقْمُ سورةِ الحديدِ ٥٧ وهو الوزنُ الذَّرِّيُّ المُستقرُ للحديدِ، ورقْمُها بدونِ عدِّ الفاتحةِ ٥٦ وهو الوزنُ الذَّرِّيُّ الأشهرُ للحديدِ، كما أنّ ذِكْرَ الحديدِ في سُورةِ الحديدِ جاءَ في الآيةِ رقْم ٢٥ ويُصبحَ رقمُها بإضافةِ البسملةِ ٢٦ وهو عددُه الذَّرِّيُّ.

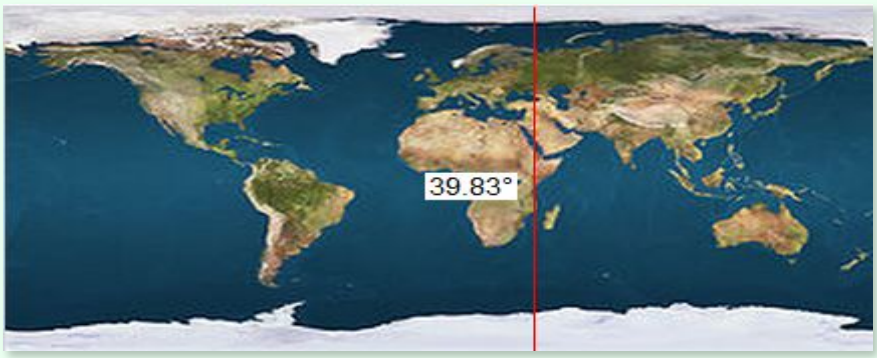

المثالُ الثاني: الرقْمُ المُعجزُ ٢٩ الذي يتكوَّنُ مِن أوَّلِ وآخرِ رقْمٍ ذُكِرَ في قصَّةِ أصحابِ الكهفِ (**سيَقولُونَ ثلاثةٌ**) (**وازدادوا تِسعًا**) وهذا الرقْمُ هو أيضًا عددُ أزواجِ كروموسوماتِ الكلبِ، فإذا ما أضفْنا له رقْمَ سُورةِ الكهفِ ١٨ يُعطي ٥٧ وهو رَقْمُ سورةِ الحديدِ والوزنُ الذَّرِّيُّ الأوسطُ للحديدِ، وإذا ما طَرَحنا مِنهُ الرقْمَ ١٨ نَحصلُ على الرقْمِ ٢١ وهو عددُ أزواجِ الكروموسومات لبعضِ أنواعِ الحِيتانِ. وبذلك تمَّ الرَّبطُ بين "الكلبِ والحُوتِ والحديدِ". والأعجبُ مِن ذلكَ أنّ عددَ حُروفِ "الكافِ" من بدايةِ سورةِ الكهفِ حتى كلمة "كلْبُهُم" الأخيرة في الآية ٢٢ هو ٢٩ حرفًا أيضًا.

عَودٌ إلى الرقْمِ ٤٠ الذي يُشيرُ إلى طولِ خطِّ الاستواءِ وإلى سورةِ الكهفِ التي تَقِي مِن "المسيحِ الدَّجّالِ" الذي يجوبُ الأرضَ في ٤٠ يومًا كما ذُكِرَ في الأحاديثِ الشريفةِ. وأنّ الآيةَ رقْم ١٩ التي تُشيرُ إلى خُطوطِ العَرْضِ جاءتْ مباشرةً بعدَ الآيةِ رقْم ١٨ التي تُشيرُ إلى خُطوطِ الطولِ وارتباطِ الآيتَينِ بالدَّجَّالِ. ومِن الملاحظِ أثناءَ انقسامِ الخليَّةِ اصطفافَ الكروسومات أفقيًّا كخُطوطِ العَرْضِ عند خطِّ استواءِ الخليَّةِ، ثمَّ اصطفافَها رأسيًّا واتِّجاهَها إلى قُطبَي الخليَّةِ كما في خُطوطِ الطولِ، ونَجِدُ الكروموسومَ وكأنَّهُ "باسِطٌ ذِراعَيهِ" وباتِّباعِ نظامِ (**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ**) سوفَ نجدُ مساحةَ سطحِ الأرضِ التي سيجُوبها "المسيحُ الدَّجَّالُ" ويَمسَحُها:

٧: ١٨ (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**).

٨ : ١٨ (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً)؛ حيث مجموعُ كلماتِ الآيتَينِ ١٧

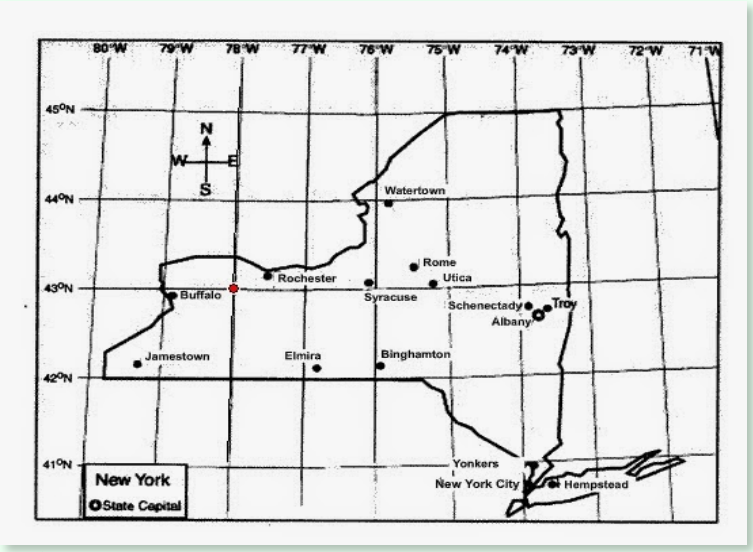

كلمةً، ورقَما الآيتَينِ يُصبِحانِ بإضافةِ البسملَةِ ٨ و٩ ومجموعُهما أيضًا ١٧، ورقْمُ سورةُ "الكهفِ" التي تحتويهِما بدونِ عدِّ "الفاتحةِ" هو أيضًا ١٧ وبذلكَ يتكرَّرُ الرقْمُ ١٧ ثلاثَ مرَّاتٍ ومجموعُهم ٥١ – لاحِظْ أنّ سطحَ الأرضِ ثلاثُ أقسامٍ؛ ثلثٌ يابسةٌ وثلثانِ ماء – ومساحةُ سطحِ الأرضِ هي ٥١ X ١٠ أس ٧ كيلومتر مربَّع. لاحِظ أيضًا ال ١٠ وال ٧ مجموعهُما ١٧. أمّا باتِّباعِ نظامِ المُصحَفِ المشهورِ فسنجِدُ هذا الرقْمَ مباشرةً واضحًا في أرقامِ السورةِ والآيتَينِ معًا ٧ : ١٨ و ٨ : ١٨ ومجموعُ هذه الأرقامِ ٥١. ويُلاحَظُ أيضًا أنّ الآيةَ ١٧ تُبيِّنُ حركةَ الشمسِ في طُلوعِها وغُروبِها وكأنَّها تمسحُ سطحَ الأرضِ (**وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت...وَإِذَا غَرَبَت**) وعددُ كلماتِها ٢٤ كلمةً أيّ ضِعفَ رقْمِها ١٧ ومجموعُ الرقْمَينِ ٥١، وثُلثا هذه المساحةِ ماءٌ ٢٤ وثُلثُها يابسةٌ ١٧. ثمَّ إنّ عددَ كلماتِ الآيةِ ١٧ من

بدايةِ (**وَتَرَى الشَّمْسَ**) حتّى كلمة (**وليتلطف**) منتصفَ القرآنِ الكريمِ هو ٩٠ كلمةً بعَددِ خُطوطِ العَرضِ في النصفِ الشماليِّ من الكرةِ الأرضيَّةِ والمُساوي لِعَددِها في النصفِ الجنوبيِّ. وفي الآيتَينِ أيضًا أوَّلُ ذِكْرٍ للأرضِ بالسورةِ، وكلمةُ الأرضِ هُنا هي الكلمةُ رقْم ٦٧ من بدايةِ السورةِ وهو يُذكِّرُنا بتاريخِ سيطرةِ جُنودِ الدَّجَّالِ على أرضِ "القُدسِ" سنة ١٩٦٧م. أمّا نهايةُ الآيتَينِ ففيها تحوُّلُ الأرضِ إلى "صَعِيدًا جُرُزًا"، وكلمةُ "جُرزًا" هي الكلمةُ ذاتُ الرقْم ٧٩ وهو تاريخُ سيطرةِ الدَّجَّالِ على "القُدسِ"

سَنة ١٩٧٩م بالمُعاهَداتِ الدوليةِ وبدايةُ الانطلاقةِ الكُبرى لهُ والتي سيكونُ فيها دمارُ كيدِه ودمارُ الأرضِ كذلكَ (**صَعِيدًا جُرُزًا**) وقد يكونُ ذلك ب– (مُذنَّبٍ أو كارثةٍ) ما مِثل ثورانِ بركان "يلوستون"، ولعلَّ تلك الكارثةَ هي ما سوفَ يُسبِّبُ الدخانَ العلامةَ الرئيسةَ للخروجِ النهائيِّ للدَّجَّالِ وإحدى العلاماتِ الكُبْرى.

الحوتُ: قد يكونُ الحوتُ رَمزًا لكائنٍ ضَخمٍ تملَّكَ الأرضَ بالقوَّةِ والمَكْرِ وأفسدَ فيها إفسادًا عظيمًا ك "الديناصوراتِ" وكان مصيرُها الهلاكَ ب "المُذنَّباتِ" أيّ بالحديدِ النازلِ مِن السماءِ، وقد يكونُ رمزًا لليهودِ وللأرضِ التي يعيشُ عليها أغلبهُم وهي ولايةُ "نيويورك" التي تُشبِهُ على الخريطةِ الشكلَ النموذجيَّ ل "لحُوتِ" الذي يضخُّ الماءَ من أعلى. وهي "حُوتٌ" في إحداثياتِها حيث يقعُ داخلَ حُدودِها خطُّ العَرْضِ

٤٢ (**ثلاثةٌ رابعُهُم**) وهو تجميعُ كروموسوماتِ الحِيتانِ، وخطُّ الطولِ ٧٨ (**سبعةٌ وثامِنُهُم كلبُهُم**) وهو تجميعُ كروموسوماتِ "الكلبِ والذئبِ". وهي "حُوتٌ" في صِفاتِها ففِيها يُخزَّنُ معظمُ أموالِ الأرضِ وذَهبُها، وفيها بورصةُ المالِ العالميَّة، وهي أقوى دُولِ العالَم، وتحتضنُ مُنظمَّةُ الأممِ المُتحدَّة. والعجيبُ أنّ معدَّلَ زيارةِ الحِيتانِ في مياهِ "نيويورك" قد زادَ بشكلٍ ملحوظٍ في الأعوامِ الأخيرةِ وكأنَّها تستكشفُ أرضًا مَوعودةً على وَشْكِ الغَورِ في قاعِ المحيطِ وستُصبحُ مَرتعًا لها.

وحتى "الولاياتُ المُتحدَّة" نفسُها تُشبِه على الخارطةِ حوتٌ ضَخمٌ:

ولقد سبقَ ذِكْرُ "الحُوتِ" في سورةِ "الكهفِ" آيتَينِ تكرَّرَ بهِما مَوعدُ عذابِ القُرى وإهلاكُها (**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا**) (**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**) (الكهف: ٥٨ – ٥٩) فهل هي الولاياتُ المُتحدَّة الأمريكية؟

وقد هربَ "الحُوتُ" من مُوسى عليهِ السلامُ، وكذلك هَرَبَ اليهودُ من شَريعتِه وانسلَخُوا منها، وحرَّفُوا التوراةَ، وقتلُوا الأنبياءَ، وأفسدُوا في الأرضِ، وآذَوا مُوسى نفْسَه في حياتِه. ثمَّ تأمَّلْ ذِكْرَ "الحُوتِ" مُفرداً مُعرَّفًا لأوَّلِ مرَّةٍ في القرآنِ الكريمِ بالآيةِ نفسِها رقْم ٦٢ التي ذُكِرَتْ فيها الصخرَةُ (**قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ**)، ثمّ راجِع موضِعَ خطِّ الاستواءِ ومنتصفَ القُرآنِ الكريمِ في الآيةِ رقْم ١٩ أيّ أنّ ذِكْرَ "الصخرَةِ والحُوتِ" معًا جاءَ بالآيةِ التي بعدَ آيةِ خطِّ الاستواءِ ب ٤٤ آيةً، والرقْم ٤٤ هو خطُّ عَرضِ الصخْرةِ المحميَّةِ الطبيعيَّةِ المدعوَّةِ

Yellow stone وهي رَمْزٌ مُهِمٌّ ل "لحوتِ الأمريكيِّ"، والرقْم ٤٤ هو أيضًا العددُ الكاملُ لكروموسوماتِ "الحوتِ"، كما أنّ خطَّ طولِ هذه المحميَّةِ هو ١١٠ وهو عددُ آياتِ سورةِ الكهفِ. والجديرُ بالذِّكْرِ أنّ بعضَ سكَّانِ الحُوتِ يَخْشَونَ ثورانَ بُركانِ هذه المحميَّةِ وتدميرَ الولاياتِ الأمريكيّةِ بالكاملِ، والبعضُ الآخَرُ يَخشَى غَرَقَ القارّةِ أو ساحِلها الشرقيّ (**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا**) (**نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**) (**نَسِيتُ الْحُوتَ... وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**). وفي تلك المحَميَّةِ أبادوا الذئابَ؛ فتدهورَ نِظامُها البيئيُّ؛ فجلبُوها مِن "كندا" وتناسلتْ، وزادَ عددُها مُجدَّداً؛ وكأنَّها إشارةٌ عجيبةٌ لارتباطِ الحُوتِ ب(الكلبِ والذئبِ). ولقد كانَ هروبُ الحوتِ مِن مُوسى عليهِ السلامُ هو علامةُ ظهورِ العبدِ الصالِح، وإنَّني لأرى في إفسادِ اليهودِ في الأرضِ وهُروبِهِم مِن شريعةِ مُوسى عليهِ السلامُ علامةً على قُربِ ظهورِ "المهديِّ" للإصلاحِ، وسيتبِّعُه عيسى عليهُ السلامُ ومَن مَعهُ مِن فتيان صالحِينَ ويقتلُوا "الدَّجَّالَ" وأتباعَه من اليهودِ، ويَستعيدُوا الأرضَ المُقدَّسةَ كما اتَّبعَ مُوسى وفتاهُ "العبدَ الصالِح"، وفتى مُوسى عليه السلامُ هو الذي فتحَ "القُدسَ" فيما بعدُ، وائتمَرتِ الشمسُ بأمرهِ بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ خلالَ ذلك الفتحِ، وهو الذي لمْ يُفتنْ في

فتنةِ السامِريّ الذي أرى أنّه الدَجَّالُ لِدلائلَ عِدَّةٍ مِنها: أنّ مُوسى عليهِ السلامُ قد تركَهُ على الرُّغمِ مِن أنَّه أحدثَ فتنةً عظيمةً أدَّتْ إلى قتلِ آلافِ اليهودِ لأنْفُسِهم لِيتُوبوا؛ وذلك لأنّ له مَوعِدًا أظنُّه مع عيسى عليهِ السلامُ (**وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ**). وتأمَّلْ أخي المسلِمُ العاقِلُ أنّ أكثرَ ذِكْرٍ للكلبِ في القرآنِ الكريمِ جاءَ بالآيةِ رقْم ٢٢ وهذا الرقْمُ هو عددُ أزواجِ كروموسوماتِ الحُوتِ الأزرقِ أكبرِ مَخلوقٍ على وجهِ الأرضِ، وعددُ كلماتِ الآيةِ هو ٢٢ كلمةً؛ أيّ بأقصى طُولٍ للحوتِ الأزرقِ وهو ٢٢ مترًا ، وهذا الكائنُ هو أعلى الكائناتِ صَوتًا، وتذكَّرْ أنّه رمزٌ لهُمْ فهُمْ يُسيطِرونَ على مُعظَمِ وسائلِ الإعلامِ مِن (فضائياتٍ وأفلامٍ وصُحُفٍ) وغيرِها.

ملحوظةٌ: الرقْمُ ٢٢ قد يدلُّ على نهايةِ الحوتِ عام ٢٠٢٢ ميلاديَّة أو ١٤٤٤ هِجريّة، وهو العامُ الذي يتوقَّعُه بعضُ الباحِثينَ لِفَناءِ دولةِ يهود.

الحديدُ:

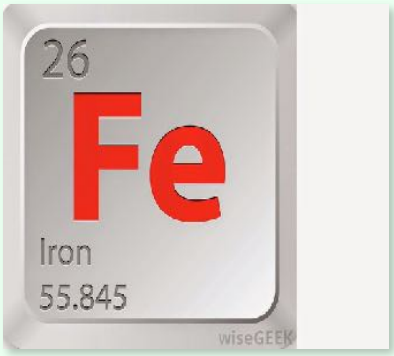

الوزنُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ هو مِثقالُ ذرَّةٍ (**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**) (الزلزلة: ٧ – ٨). وتأمَّلْ كلمَتَي الحديدِ و وَزْنًا في الآيتَينِ ٩٦ و ١٠٥ (**آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ...**) (**فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**) فإذا ضُمَّتِ الكلمتانِ إلى بَعضِهما للحُصولِ على تعبيرِ – وزنِ الحديدِ – فكأنَّنا نجمعُ أرقامَ الآياتِ من الآيةِ ٩٦ حتّى الآية ١٠٥ لِينتُجَ الرقْمُ

١٠٠٥ وبقِسْمةِ هذا الرقْمِ على رقْمِ السورةِ أيّ الرقْمِ ١٨ نجَدُ الناتجَ ٥٥.٨٢٢٢٢٢ وهو الوزنُ الذَّرِّيُّ للحديدِ بالأرقامِ العِشريَّة ! ويُوحِي أيضًا بوظيفةِ الحديدِ في بَدءِ الخَلْقِ وإعادتِه بهذا الكسرِ العِشريِّ المُكوَّنِ مِن ٨ و ٢ المُمتَّدَة إلى ما لا نهايةٍ. ومِمَّا يُؤكِّدُ ذلك أيضًا أنّ عددَ الكلماتِ من الآيةِ ٩٦ إلى الآيةِ ١٠٥ هو ٥٦.

ولقد رُفِعَ الجبلُ فوقَ اليهودِ وهو رَمْزُ الحديدِ والعَذابِ ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٧١) وهدَّدَهُم اللهُ تعالى إنْ لم يَصلحُوا أنْ يقعَ فوقَهُم جبلُ "الطورِ"، وهُمُ الآنَ قد أفسدُوا إفساداً عظيماً، وأصبحَ كوكبُ الأرضِ مُهدَّداً بسببِهِم؛ فَهُمْ بانتظارِ سقوطِ الجبلِ عليهِم من السماءِ، والكواكبُ الفضائيَّةُ تمرُّ بِقُربِ الأرضِ بمعدَّلٍ عالٍ في السنواتِ القليلةِ الماضيةِ، والعجيبُ أنّ واحِداً منها – رغمَ بُعدِه – ألقَى ظِلَّهُ على "نيويورك" أكبرِ تجمُّعٍ لليهودِ في العالَم يوم ٢٠ مِن مارس ٢٠١٤ م وقبلَ يومٍ واحدٍ فقط مِن مُرورِ كويكبِ QQ٤٧ ٢٠٠٣ بالقُربِ من الأرضِ، وأظنُّ – واللهُ تعالى أعلى وأعلمُ – أنّ ذلكَ أبلغُ إنذارٍ لهُم. ثمَّ تأمَّلْ وصفَ المولى عزَّ وجلَّ لأئِمَّةِ اليهودِ وعُلمائِهم ب (الرَّبَّانيُّونَ) ولم تَرِدْ تلك الكلمةُ في القرآنِ الكريمِ إلاّ في الآيتَينِ ٤٤ و ٦٢ مِن سورةِ المائدةِ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ

الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ) .

والرقْمُ ٤٤ هو العددُ الكاملُ لِكروموسوماتِ الحوتِ، والرقْمُ ٦٢ هو رقْمُ آيةِ أوَّلِ ذِكْرٍ للحوتِ بالمُفردِ المُعرَّفِ بالقرآنِ الكريمِ بسُورةِ الكهفِ (**نَسِيتُ الْحُوتَ**) . ونجَدُ أنّ الشِّقَّ الأوَّلَ مِن كلمةِ (الرَّبَّانيُّونَ) هو "الرِّبا" والذي هو عِمادُ حياتِهم ونِظامِهِمُ العالَميُّ الفاسِدُ، ويُوحي اللفظُ أيضًا – كما وجدت في بعضِ الأمثلةِ – بما قد يكونُ رمزَ "نيويورك" و"واشنطن"، ويُرمَزُ لهُما ب– NY ن ي و W N ون، وتأمَّلْ كلمةَ (الرَّبَّانيُّونَ) – الرِّبا – ن ي – ون – أيّ عاصِمتا "الحوتِ الأمريكيِّ" وعاصِمتا العالَمِ الاقتصاديَّةِ والعسكريَّةِ والتي يتَمَرْكَزُ بِهما رؤساؤهُم حاليًّا مِن "الإيباك" وغَيرِهم. وسيُقتَلُ قائِدُهُم "الدَّجَّالُ" بِحَربةِ "عيسى المَسيحِ" عليه السلامُ، ومعلومٌ أنّ الحَربَةَ سلاحٌ يُرمَى بهِ، وتأمَّلْ قصرَ النبيِّ مُحمّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلّمَ القوَّة على الرَّمي " ألاَ إنّ القوَّةَ الرّمي" .

أبعادُ الشَّمسِ والأرضِ:

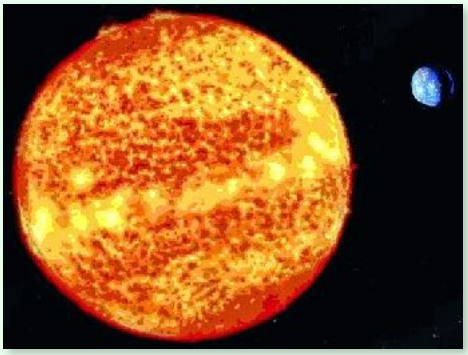

إن الملاحظِ أنّ قطرَ الشمسِ هو ١١٠ ضِعفَ قُطرِ الأرضِ، وهذا الرقْمُ هو عددُ آياتِ سورةِ "الكهفِ" التي تحوي مُعدَّلاً عالٍ لِذِكْرِ الأرضِ بالنسبةِ لِعَددِ آياتِ السورةِ، وتحتوي أيضًا على أعلى مُعدَّلٍ لِذِكْرِ الشمسِ في القرآنِ الكريمِ. وإذا ما

تـأمَّـلْتَ أوَّلَ وآخِـرَ ذِكْـرٍ لـلشمسِ فـي الآيـتَينِ ١٧ و ٩٠ (**وَتَـرَى الـشَّـمْسَ إِذَا طَـلَعَت تَّزَاوَرُ عَـن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ ءايَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**) (**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا**) نجِدُ أنَّ عددَ كلماتِهما على الترتيبِ هو ٢٤ و ١٥ ومجموعُ هذه الأرقامِ هو ٢٤ + ١٥ = ١٥٦ وهو كذلك ١٢٩+ ١٧ والعجيبُ أنّ الرقْمَ ١٢٩ يُستخدَمُ كمقياسٍ لِقُطرِ الشمسِ بالنسبةِ لأقطارِ الكواكبِ التابعةِ لها. ولتأكيدِ ذلك نجِدُ أنّ الذِّكْرَ الأخيرَ للشمسِ في سورةِ الكهفِ وردَ بالآيةِ رقْم ٩٠ وهذا الرقْمُ هو رقْمُ سورةِ الشمسِ بِدُونِ عدِّ الفاتحةِ، وفي سورةِ الشمسِ أيضًا آخرُ ذِكْرٍ للشمسِ في القرآنِ الكريمِ كُلِّه، وعددُ كلماتِ الآيةِ رقْم ٩٠ بسورةِ الكهفِ هو ١٥ كلمةً، وعددُ آياتِ سورةِ الشمسِ هو أيضًا ١٥ آيةً، والرقْم ١٥ يظهرُ بِكُلِّ مكانٍ مُرتبطٌ بالشمسِ، وأنّ المسافةَ بين الأرضِ والشمسِ بالكيلومتر هي رقْمُ ١٥ وأمامَه عِدَّةُ أصفارٍ.

ولنتأمَّلِ الإشارةَ إلى مُنتصَفِ القرآنِ الكريمِ في الآيةِ رقْم ١٩ (**وَلْيَتَلَطَّفْ**) وعددِ كلماتِها ٢٨، ولِذِكْرِ الشمسِ في الآيةِ رقْم ٨٦ (**مَغْرِبَ الشَّمْسِ**)، وعددِ كلماتِها؛٢٤ فإنَّ مجموعَ هذه الأرقامِ هو ١٩ + ٢٨ + ٨٦ +٢٤ = ١٦٧ وهو رَقْمُ سورةِ الكهفِ ١٧نفسُه بدونِ عَدِّ الفاتحةِ مُضافًا لها ١٥٠ وهو متوسِّطُ المسافةِ بين الأرضِ والشمسِ وهي ١٥٠ مليون كيلومتر؛ فهلْ هذه الإشاراتُ المتبادَلةُ بين الأرضِ والشمسِ تدلُّ على أنّ الأرضَ خُلِقَتْ مِن الشمسِ؟!

اللهُ سُبحانَه وتعالى أعلمُ بالحقيقةِ؛ فقَد يكونُ ذلكَ مِن إعجازِ القرآنِ العظيمِ، وقد لا يكون هناكَ إشاراتٌ متبادَلةٌ من الأساسِ؛ بل هو عَرْضٌ لأبعادِ الشمسِ والأرضِ والمسافةِ بينهُما والنسبةِ بين قطريهما. وكما جاءَ في الآيةِ ٢٢ (**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم**) ثلاثُ احتمالاتٍ؛ فقَد جاءتْ في الآيةِ ٥٤ ثلاثةُ أقوالٍ (**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا**) ٥٤ = ١٨ × ٢، وعددُ حُروفِها أيضًا ٥٤ = ١٨ × ٢ وهِيَ القولُ في خَلْقِ "الحوتِ والكلبِ"، وفي خَلْقِ "الأرضِ والشمسِ"، وفي شخصِ "الدَّجَّالِ".

دجَّالُ أهلِ الكِتابِ:

في سُورةِ الكهفِ التي تَقِي مِن فِتنَةِ الدَّجَّالِ نَجِدُ تركيزًا على الأعدادِ؛ فهلْ فيها مِفتاحُ البحثِ عن الدَّجَّالِ والوقايةِ مِن فِتنَتِه؟ يدَّعي أهلُ الكتابِ أنّ الرقْمَ ٦٦٦ هو رقْمُ "الوحشِ" الذي سَيُواجِهُ "الدَّجَّالَ"؛ فمَجموعُ أرقامِه يُعطي رَقْمَ سورةِ الكهفِ ١٨ التي تَقِي مِن فِتنَتِه وهذا مِن مُعجزاتِ القرآنِ الكريمِ.

وَوَرَدَ في الإصحاحِ ١٢ مِن رؤيا "يُوحنَّا" مِن "العَهدِ الجديدِ" ما يلي نَصُّه:

١. ثُمَّ وَقَفْتُ عَلَى رَمْلِ الْبَحْرِ؛ فَرَأَيْتُ وَحْشًا طَالِعًا مِنَ الْبَحْرِ لَهُ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ، وَعَلَى قُرُونِهِ عَشَرَةُ تِيجَانٍ، وَعَلَى رُؤُوسِهِ اسْمُ تَجْدِيفٍ. وَالْوَحْشُ الَّذِي رَأَيْتُهُ كَانَ شِبْهَ نَمِرٍ، وَقَوَائِمُهُ كَقَوَائِمِ دُبٍّ، وَفَمُهُ كَفَمِ أَسَدٍ، وَأَعْطَاهُ التِّنِّينُ قُدْرَتَهُ وَعَرْشَهُ وَسُلْطَانًا عَظِيمًا.

٢. وَرَأَيْتُ وَاحِداً مِنْ رُؤُوسِهِ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ لِلْمَوْتِ، وَجُرْحُهُ الْمُمِيتُ قَدْ شُفِيَ. وَتَعَجَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ وَرَاءَ الْوَحْشِ.

٣. وَسَجَدُوا لِلتِّنِّينِ الَّذِي أَعْطَى السُّلْطَانَ لِلْوَحْشِ، وَسَجَدُوا لِلْوَحْشِ قَائِلِينَ: مَنْ هُوَ مِثْلُ الْوَحْشِ؟ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَارِبَهُ؟

٤. وَأُعْطِيَ فَمًا يَتَكَلَّمُ بِعَظَائِمَ وَتَجَادِيفَ، وَأُعْطِيَ سُلْطَانًا أَنْ يَفْعَلَ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ شَهْرًا.

٥. فَفَتَحَ فَمَهُ بِالتَّجْدِيفِ عَلَى اللهِ، لِيُجَدِّفَ عَلَى اسْمِهِ وَعَلَى مَسْكَنِهِ وَعَلَى السَّاكِنِينَ فِي السَّمَاءِ.

٦. وَأُعْطِيَ أَنْ يَصْنَعَ حَرْبًا مَعَ الْقِدِّيسِينَ وَيَغْلِبَهُمْ، وَأُعْطِيَ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ قَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَأُمَّةٍ.

٧. فَسَيَسْجُدُ لَهُ جَمِيعُ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ، الَّذِينَ لَيْسَتْ أَسْمَاؤُهُمْ مَكْتُوبَةً مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ فِي سِفْرِ حَيَاةِ الْحَمَلِ الَّذِي ذُبِحَ.

٨. مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ !

٩. إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَجْمَعُ سَبْيًا فَإِلَى السَّبْيِ يَذْهَبُ. وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَقْتُلُ بِالسَّيْفِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُقْتَلَ بِالسَّيْفِ. هُنَا صَبْرُ الْقِدِّيسِينَ وَإِيمَانُهُمْ.

١٠. ثُمَّ رَأَيْتُ وَحْشًا آخَرَ طَالِعًا مِنَ الأَرْضِ، وَكَانَ لَهُ قَرْنَانِ شِبْهُ خَرُوفٍ، وَكَانَ يَتَكَلَّمُ كَتِنِّينٍ.

١١. وَيَعْمَلُ بِكُلِّ سُلْطَانِ الْوَحْشِ الأَوَّلِ أَمَامَهُ، وَيَجْعَلُ الأَرْضَ وَالسَّاكِنِينَ فِيهَا يَسْجُدُونَ لِلْوَحْشِ الأَوَّلِ الَّذِي شُفِيَ جُرْحُهُ الْمُمِيتُ.

١٢. وَيَصْنَعُ آيَاتٍ عَظِيمَةً، حَتَّى إِنَّهُ يَجْعَلُ نَاراً تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الأَرْضِ قُدَّامَ النَّاسِ.

١٣. وَيُضِلُّ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ بِالآيَاتِ الَّتِي أُعْطِيَ أَنْ يَصْنَعَهَا أَمَامَ الْوَحْشِ قَائِلاً لِلسَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَصْنَعُوا صُورَةً لِلْوَحْشِ الَّذِي كَانَ بِهِ جُرْحُ السَّيْفِ وَعَاشَ.

١٤. وَأُعْطِيَ أَنْ يُعْطِيَ رُوحًا لِصُورَةِ الْوَحْشِ حَتَّى تَتَكَلَّمَ صُورَةُ الْوَحْشِ وَيَجْعَلَ جَمِيعَ الَّذِينَ لاَ يَسْجُدُونَ لِصُورَةِ الْوَحْشِ يُقْتَلُونَ.

١٥. وَيَجْعَلَ الْجَمِيعَ الصِّغَارَ وَالْكِبَارَ، وَالأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ، وَالأَحْرَارَ وَالْعَبِيدَ، تُصْنَعُ لَهُمْ سِمَةٌ عَلَى يَدِهِمِ الْيُمْنَى أَوْ عَلَى جِبْهَتِهِمْ.

١٦. وَأَنْ لاَ يَقْدِرَ أَحَدٌ أَنْ يَشْتَرِيَ أَوْ يَبِيعَ إِلَّا مَنْ لَهُ السِّمَةُ أَوِ اسْمُ الْوَحْشِ أَوْ عَدَدُ اسْمِهِ.

١٧. هُنَا الْحِكْمَةُ ! مَنْ لَهُ فَهْمٌ فَلْيَحْسِبْ عَدَدَ الْوَحْشِ فَإِنَّهُ عَدَدُ إِنْسَانٍ، وَعَدَدُهُ: سِتُّ مِئَةٍ وَسِتَّةٌ وَسِتُّونَ.

ومِن المعلومِ أنّ "الدَّجَّالَ" سَيدَّعِي "الأُلوهيَّةَ"، وهو "أعورُ، كافرٌ، وذُو قُوى خارقَةٍ وقُدرَةٍ على الإتيانِ بما يُشبِه المُعجِزاتِ". والأحاديثُ النبويَّةُ كثيرةٌ ومَشهورةٌ بهذا الخُصوصِ.

ولكنْ لماذا يَتَّخِذ الرقْمَ ٦٦٦ رَمزاً له؟

لا يُوجَدُ جوابٌ مُقنِعٌ لهذا السؤالِ رغمَ أنّ العديدَ مِن المُفكِّرينَ والباحِثينَ حاولُوا إيجادَ إجاباتٍ مَنطقيَّةٍ لهُ؛ إلاّ أنّ هذا "الكُودَ" قد استُخدِمَ في ترميزِ جميعِ

المُنتجاتِ الأوربيّةِ والأمريكيَّة وغيرِها مِن مُنتَجاتِ الدُّولِ الصناعيَّةِ الكُبْرى بِما يُسمَّى U P C bar code أو Uniform Product Code .

ويَعتقِدُ الكثيرونَ أنّه سيتمُّ قريبًا زَرْعُ شريحةٍ إلكترونيَّةٍ صغيرةٍ في أجسامِ جميعِ البَشرِ – فيما يُشبِهُ حَملةَ تطعيمٍ عالَميَّةٍ – هيَ بمثابةِ هُويَّةٍ تُخزَّنُ فيها جميعُ المعلوماتِ الخاصَّةِ بالفردِ عن طريقِ نظامِ كمبيوتر عالَميٍّ، ويُمكِنُ له أن يُجْرِيَ العمليَّاتِ التجاريَّةَ كافّةً دونَ أن يَحملَ أوراقًا ثبوتيَّةً أو نقوداً أو غيرَها.

إذنْ: فإمَّا أنْ تُذْعِنَ لِلدَّجَّالِ – بِوَضْعِ وَشْمِهِ على جِسْمِكَ – أو أنْ تبقَى لا حولَ لكَ ولا قوَّةَ. أليستْ هذه هي العُبوديَّةُ الفعليَّةُ؟ بلى والأدهى والأمرُّ هو أنَّكَ ستكونُ تحتَ المُراقبَةِ، ولا يُمكِنُكَ أن تقولَ أو تفعلَ إلاّ ما يُرضِيه. وقد وُلِدَ الخَوفُ مِن هذا الرقْمِ مِن إحدى آياتِ سِفْرِ "يوحنا" في "العَهدِ الجديدِ" التي تُوضحُ أنّه مُرتبِطٌ ب "الشيطانِ" أو "المَسيحِ الدَّجَّالِ" !

وَوَرَد في سِفْرِ "أشيعا" أيضًا في الآيةِ ٦٦ : ٦ أنّه سيذهبُ إلى "الهيكلِ" في "القُدسِ" ويُعلِنُ أنّه "الرَّبُّ".

حقيقةُ الدَّجّالِ:

مِن المَعروفِ أنّ النشاطَ الشمسيَّ يبلغُ ذُروتَه كُلَّ ١١ سنة، وكانت السنتانِ (٢٠٠١ و ٢٠١٢) م هُما ذُروةُ نشاطِ الشمسِ. وفي عام ٢٠١١ م كانت أحداثُ

الحادي عشرَ مِن سبتمبر، ومَصرعُ العديدِ بأرضِ "الحوتِ" في "نيويورك"، فهل تمَّ تقديمُهم كَ "قُربانٍ للشيطانِ" خُصوصًا وأنّ اليهودَ قد غادَروا مكانَ الحادثِ قبلَ وقوعِه؟

وفي عام ٢٠١٢ م أُقيمَ حَدَثٌ رياضيٌّ ضَخْمٌ على الأرضِ التي تُشبِه "الكلبَ" على الخريطةِ مليءٌ بِرُموزٍ شيطانيَّةٍ وأفلامٍ تُشيرُ إلى ارتباطِ ذلك الحَدَثِ ب "الدَّجّالِ والشيطانِ".

وفي سورةِ الكهفِ إشارةٌ لآخرِ عاصفةٍ شمسيَّةٍ ضَربتِ الأرضَ عام ١٨٥٩ م عندَما رأى الفلكيُّونَ قطعًا منها تَنفَصِلُ وتتَّجِهُ نحوَ الأرضِ – في هذا العامِ رُشِّحَ "أبراهام لنكولن" لِرئاسةِ أمريكا –؛ حيثُ أنّ رقْمَ سُورةِ الكهفِ هو ١٨ ورقْم آيةِ إهلاكِ القُرى بِمَوعِدٍ مُحدَّدٍ هو ٥٩ أيّ: أنّ الرقْمَينِ يَكوِّنانِ الرقْم ١٨٥٩، كما اعتَدنا أنْ ننطِقَ أرقامَ السنواتِ رقْمَينِ رقْمَينِ Eighteen fifty nine. وعندما حَدَثتْ هذه العاصفةُ كان تأثيرُها ضعيفًا؛ لأنّ العالَم وقتَها لم يَكُنْ يعتمِدُ كُليًّا على الكهرباءِ ووسائلِ الاتِّصالاتِ الحديثةِ؛ إنّما كانت إيذانًا بِحُلولِ موعدِ دمارِ أمريكا (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا). ولقد سُلّطَ بعدَها "لنكولن" على الولاياتِ المُتَّحِدَة فدمَّرَها في حَربٍ ضَروسٍ استمرَّتْ عدَّةَ سنواتٍ خَرَّبَتِ العديدَ من المُدُنِ والمُنشئاتِ الصناعيَّةِ، وخلَّفَتِ الألوفَ مِن القتلى والجَرحى؛ ولعلّ ذلكَ بِسبَبِ (استعبادِهم للمُختَطَفِينَ من أفريقيةَ، وتعذيبِهم، وقتلِهم)، ومُعاملتِهم ك "الحيواناتِ" وكانوا قبلَ حُلولِ ذلك العذابِ يتجادَلُونَ في تحريرِهم.

ولقد ارتبطَتْ حياةُ يَهودٍ جُنودِ الدَّجَّالِ آكِلي الرِّبا بِمَسِّ الشيطانِ (**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**) كما ارتبطَ انسلاخُ عابدُ بَني إسرائيلَ مِن آياتِ اللهِ (**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**) فأصبحَ فارغًا بعدَ خُروجِها منهُ، ودَخَلَ مَحلَّها الشيطانُ فأصبحَ مَثلُه كمَثلِ "الكلبِ" رمزًا ل "لدَّجَّالِ" (**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ**). وقد يكونُ الدَّجَّالُ خليطًا مِن (بَشرٍ وشيطانٍ) يتأرجَحُ بين صفاتِهما بدليلِ كَثرةِ الإشارةِ للكروموسوماتِ في سُورتَي "الكهفِ" و"النجمِ".

ثمَّ إنّ أكثرَ أتباعِ "الدَّجَّالِ" هُم مِن النِّساءِ؛ حتّى أنّ الرِّجَّالَ يُقيِّدُونَهُنَّ لَمنْعِهِنَّ مِن اتّباعِه، ونجِدُ أنّ عددَ آياتِ سُورةِ النساءِ هو ١٧٦ آيةً، وهذا الرَّقْمُ هو رَقْمُ أوَّلِ آيةٍ ذُكِرَ فيها "الكلبُ" في القرآنِ الكريمِ في سورةِ "الأعرافِ"، وقد يكونُ هذا دليلاً آخرَ على (كَونِ الكلبِ هو رَمْزٌ للدَّجَّالِ).

وتأمَّلْ تعبيرَ (**مَجْمَعَ بَيْنِهِما**) بالآيةِ رَقْم ٦١ في سورةِ "الكهفِ" والتي ذُكِرَ بها الحوتُ لأوَّلِ مَرَّةٍ؛ فالرَّقْمُ ٦١ هو مجموعُ أزواجِ كروموسوماتِ الكلبِ والحوتِ ٢٩ + ٢٢، وهو كذلكَ مَجموعُ حروفِ ما جاءَ من كلماتٍ بالمفردِ في القرآنِ الكريمِ – حوتهما – الحوت ٢ مرّات – الكلب – الذئب ٢ مرّات – كلبهم ٤ مرّات، وكأنّ "الدَّجَّالَ" يجمعُ في صفاتِه بين كائنَينِ من عالَمَينِ مُختلِفَينِ هُما "الكلبُ" في (عالَمِه البريِّ)، و"الحوتُ" في (عالَمِه البحري)؛ ولذلك تكرَّرَتِ الإشاراتُ في السورةِ لكرموسوماتِ "الكلبِ" و"الحوتِ".

المادَّةُ الوِراثيَّةُ:

وفي سورةِ "الكهفِ" مُعجزةٌ مُبهِرَةٌ في كلمةِ (كَلْبُهُم)؛ حيث تكرَّرَتْ عِدَّةَ مرَّاتٍ في آيةٍ واحدةٍ (**رابِعُهُمْ كَلْبُهُم...خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُم...سَبْعَةٌ وثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**) وكأنَّها إشارةٌ لخاصِّيةٍ تتميَّزُ بها المادَّةُ الوراثيَّةُ لـ- "لكلبِ" وهي التكرارُ؛ ممّا يجعلُه صالحًا لتشكيلِ عددٍ من الأنواعِ المُهجَّنَةِ؛ ولذلكَ قد يكونُ "الكلبُ" رمزًا للدَّجَّالِ الذي يتشكَّلُ بأشكالٍ عديدةٍ؛ كـ- (ابنِ الصَّيَّادِ، والسامِريِّ، والمارِدِ) الذي رآهُ الصَّحابيُّ "تميمٌ الداريُّ" مُقيَّدًا بالكهفِ وغَيرِهم... والعجيبُ أنّ كثرةَ تهجينِ "الكلابِ" قد يُصيبُها بأمراضٍ وراثيَّةٍ كـ- (العَمى والصَّمَمِ)، ويُذكِّرُنا هذا بالشكلِ النهائيِّ المُشوَّهِ لـ "لدَّجَّالِ" عندَ خُروجِه من تقوُّسِ ساقَيهِ، وتجَعُّدِ شَعَرِه، وطَمْسِ إحدى عَينَيهِ؛ ولعلَّه يكونُ عِندئذٍ قد استنفدَ عدداً كبيراً من التشكيلاتِ على مدى الزمنِ، وحُبِسَ بذلكَ القالَبِ المُشوَّهِ.

قصة بين قصتين

جاءتْ قِصَّةُ صاحبِ الجنَّتَينِ بينَ القِصَّةِ التي ذُكِرَ فيها "الكلبُ" والقِصَّةُ التي ذُكِرَ فيها "الحوتُ"؛ وكأنَّه عاملٌ مُشتركٌ يجمعُ بين خواصِّهما.

وقد يكونُ في هذه القصَّةِ تعبيرٌ عن الدَّجَّالِ؛ حيث ذُكِرَ فيها أنّ له "جنَّتَينِ والدَّجَّالِ" سيأتي بِجنَّتَينِ؛ جنَّتُهُ نارٌ، ونارُه جنَّةٌ، وذُكِرَ فيها (وفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَرًا) والدَّجَّالُ سيأتي معه نَهَرٌ، وذُكِرَ فيها (يُصبِحُ ماؤها غَوراً) وغَورانُ مياهِ بُحيرةِ "طبريّة" هي مِن العلاماتِ الرئيسيّةِ لِظُهورِ الدَّجَّالِ، وذُكِرَ فيها (أنَا أكْثَرُ مِنْكَ مالاً وأعَزُّ نَفَرًا) ورُموزُ "الدَّجَّالِ" مرسومةٌ على مُعظمِ العُملاتِ العالَميَّةِ ومَعهُ أنفارٌ مِن (ذَوي العِزَّةِ والقُوَّة)، ولَدَيهِ الكثيرُ من مُمَثِّلي العالَم في مُنظَّمةِ الأُممِ المُتَّحِدَة – تأمَّلْ ذِكْرَ عِزّةِ الأنفارِ وليس كثرتَهم – وفي "نيويورك" نَجِدُ سادةَ العالَم في (الاقتصادِ والإعلامِ) وفيها معظمُ ذَهَبِ العالَمِ وأمواله. ونَجِدُ في سورةِ الكهفِ ما يُشيرُ إلى انهيارِ قيمةِ المالِ، وعدمِ أهمِّيَتِه وهي مِن علاماتِ الساعةِ كما جاءَ في الآياتِ الكريمةِ وَوَرَدَ في الأحاديثِ النبويَّةِ الشريفةِ (فهلْ نَجْعَلُ لكَ خَرْجًا... ما مكَّنِّي فيه ربِّي خَيرٌ) (لو شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عليهِ أجْرًا) (فابْعَثُوا أحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذهِ) (المالُ والبَنونَ زِينةُ) (إنّا جَعلْنا ما على الأرضِ زِينةً لها) (وإنّا لَجَاعِلُونَ ما عَلَيها صَعِيداً جُرُزًا).

وفي أرقامِ آياتِ القِصَّةِ وخُطوطِ عَرضِ "الحوت الأمريكيِّ" ما يُشيرُ إلى أنَّ "جَنَّتَي الدَّجّالِ هُما الساحِلانِ الشرقيُّ والغربيُّ لأمريكا" وبِهما يُزرَعُ العِنَبُ، وهُما مَحفُوفتانِ بالنخيلِ في الجنوبِ، أمّا السهولُ الوُسطى فَفِيها الزرعُ الذي يأكلُ منهُ

العديدُ من سُكَّانِ العالَمِ، ومَن أوهمَهُمُ الدَّجَّالُ بالسَّلامِ لِيَحمِيَ ملجأهُ النهائيَّ بالأرضِ المقدَّسةِ (كِلْتا الجَنَّتَينِ آتَتْ أُكُلَها ولمْ تَظْلِمْ منهُ شَيئًا) . وقد ذُكِرَ الطعامُ في سورةِ الكهفِ (اسْتَطعَما أهلَها فأبَوا أنْ يُضيِّفُوهُما) فقَد طلَبا الطعامَ ولم يحصَلا عليهِ (فَلْيَنْظُرْ أيُّها أزْكَى طَعامًا) ولم يذكُرْ أنَّهُم حَصلُوا عليهِ (كَماءٍ أنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فاختَلَطَ بهِ نباتُ الأرضِ فأصبَحَ هَشِيمًا) (وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فأصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيهِ على ما أنْفَقَ فِيها وهِيَ خاوِيةٌ على عُرُوشِها) . أمّا النهرُ الذي بينَ الجنَّتَينِ فهو إشارةٌ إلى نَهرِ "الميسيسبيّ" بِرَوافدِه المُمتدَّةِ خلالَهُما (وفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهرًا) . ثمَّ إنَّ "الدَّجَّالَ" الذي شاهَدَهُ الصَّحابيُّ الجليلُ مُقيَّدًا بالكهفِ سألَ عن ماءِ "عَينِ زغر وبُحيرةِ طبرية" ، وفي السورةِ (وإنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كالْمُهْلِ يَشوي الوُجُوهَ بِئسَ الشَّرابِ) (واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَيوةِ الدُّنيا كَماءٍ أنْزَلْناهُ مِن السَّماءِ فاخْتَلَطَ بهِ نباتُ الأرضِ فأصبَحَ هَشِيمًا) أنّه ماءٌ يَشوي ويُدمِّرُ فهلْ في ذلكَ إشارةٌ إلى الأمطارِ الحَمضيَّةِ بعد أن يَمتلِئ الغلافُ الجويُّ بالغازاتِ السامَّةِ مِن آثارِ ضَربةٍ سَماويَّة أو بُركانٍ ثائرٍ؟

ويظنُّ البعضُ أنّ "الدَّجَّالَ" يُوجَدُ في "مثلَّثِ برمودا" المُلاصقِ لأمريكا؛ وكأنَّه قريبٌ من جَنَّتَيهِ؛ ولعلَّ المَلِكَ الذي كان (يأخُذُ كُلَّ سفينةٍ غَصْبًا) إشارةٌ له؛ حيث تكرَّرتْ حوادثُ اختفاءِ السُّفنِ بتلكَ المنطقةِ فهلْ هو الذي يَغتصِبُها؟

وهناكَ مَن يربطُ بين دكِّ "جبلِ الطُّورِ" الذي يقعُ في الجهةِ المقابلةِ ل "مثلَّثِ برمودا" من الأرضِ وبين خواصِّ منطقةِ هذا المثلَّثِ، فهل كان دكُّ الجبلِ عذابًا للدَّجّالِ، أو سببًا في تدميرِ حاجزٍ سَمَحَ له بِدُخولِ عالَمِنا؟

ولنتأمَّلْ كيف ظهرَ "السامِريُّ" بالتوازي مع دكِّ الجبلِ، وقد غابَ موسى عليهِ السلامُ أربعينَ ليلةً عن قومِه، وهي فترةٌ كافيةٌ ل "لدَّجَّالِ" كي يصلَ إليهِم فهو يَجوبُ الأرضُ كلَّها في أربعينَ يومًا كما ذُكِرَ بالحديثِ.

ولعلَّ "الدَّجَّالَ" حين دخلَ إحدى جنَّتَيهِ "نيويورك" وهو ظالِمٌ لِنفْسِه كانت ضَرباتِ سبتمبر قُربانًا له؛ فهل مصيرُ الجنَّةِ التي دخلَها هو الدَّمارُ؟ (وأُحِيطَ بثَمَرِه فأصبحَ يُقَلِّبُ كفَّيهِ على ما أَنْفقَ فيها وهيَ خاويةٌ على عُرُوشِها ويقولُ يا ليتَني لم أُشْرِكْ بِربِّي أحدًا). وكما نُسِفَ العِجلُ الذَّهبيُّ للسامريِّ في اليمِّ فسوفَ يُنْسَفُ العجلُ الذهبيُّ الذي جمعُوه له في "نيويورك" وسيتَّخِذ الحوتُ الأمريكيّ طريقَه في البحرِ سَرَبًا كما اتَّخذَ الحوتُ سبيلَه في البَحرِ عَجبًا. ويَخشى العُلماءُ انهيارَ جبلِ (الصَّخرَةِ) في جزيرة "لابا لما" في جُزُرِ "الكَناري" بالمُحيطِ؛ فيسبِّب أمواجًا كالجبالِ تُدمِّرُ الساحلَ الشرقيّ للولاياتِ المتَّحدةِ والساحلِ الغربيِّ لأوروبا (ويومَ نُسيِّرُ الجِبالَ وتَرَى الأرضَ بارزةً، وحَشَرناهُمْ فلَمْ نُغادِرْ مِنهُم أحدًا) وتُحَدَّدُ مسافاتُها بالحِقَبِ (أو أمْضِيَ حُقُبًا) ولها مَوعِدٌ لا يَعلَمُه إلاّ اللّهُ (وتِلْكَ القُرْى أهْلَكْنَاهُمْ لَمّا ظلَمُوا وجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهُمْ مَوعِدًا). ومِن المُلاحَظِ اقترابُ النيازكِ مِن الأرضِ كُلَّ عامٍ في ذِكْرى المَولدِ النبويِّ الشريفِ، وكان مولِدُه عامَ هلاكِ أصحابِ الفيلِ بالرَّجْمِ مِن السَّماءِ؛ فهلْ

هناكَ أصحابُ فيلٍ جُدُدٍ تُشبِهُ خريطةُ بلادِهم رأسَ الفيلِ، ولَدَيهِم حزبٌ رئيسيٌّ يتَّخِذُ الفيلُ شِعارًا لهُ؟

التوأمة بين سورتي الإسراء والكهف[1]

هناك أكثر من ثلاثين وجْهًا مِن أوجُهِ الرَّبطِ بين سُورتَي "الإسراءِ والكهفِ"، وبالتأمُّلِ نستخرجُ أكثرَ مِن ذلكَ؛ فكلُّ مَن أنعمَ وأمعنَ النظرَ في كتابِ اللهِ تعالى أمدَّهُ بمَعانٍ وأسعَفَهُ بلآلئ وجواهرَ. ولقد بُنِيُ القرآنُ الكريمُ على (التناسُقِ والتعانُقِ والارتباطِ)؛ فهو سلسلةٌ منتظمةٌ من الفاتحةِ إلى سُورةِ الناسِ ليس فيها قطعٌ بعدَ الربطِ ولا رَبْطَ بعدَ القطعِ، خيطٌ واحدٌ متَّصِلٌ كنَهرٍ جارٍ.

١ – العبوديةُ للهِ تعالى: في سورةِ الإسراءِ (**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**) (١)، وفي سورةِ الكهفِ (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا**) (١) العبدُ صاعدٌ إلى السمواتِ في سورةِ الإسراءِ والوحي نازلٌ إلى العبدِ في سورةِ الكهفِ.

٢ – التسبيحُ والحَمدُ: أوَّلُ كلمةٍ في سورةِ الإسراءِ هيَ (سُبحانَ)، وأوَّلُ كلمةٍ في سورةِ "الكهفِ" هي (الحَمدُ)، وكلُّنا يَعرِفُ أنّ "سُبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ" ذِكْرٌ مُتلازِمٌ مُقترِنٌ مُترابِطٌ على مرِّ الزمانِ وعلى كلِّ لسانٍ.

[1] د. أحمد نوفل

٣ – نفيُ اتِّخاذه تعالى الولدَ: في سورةِ الإسراءِ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ (١١١)، وفي سورة الكهف ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٤).

٤ – رؤوسُ الآياتِ: في سورةِ الإسراءِ (وكيلاً – شَكوراً – نَفيراً – تفسيراً)، وفي سورةِ الكهفِ (عِوجًا – حَسَنًا – أبدًا – أحدًا).

٥ – رقمُ سورةِ الإسراءِ ١٧ وعددُ آياتِها ١١١، ورقْمُ سورةِ الكهفِ ١٨ وعددُ آياتِها ١١٠، ولو جمَعنا رَقْمَ كلِّ سُورةٍ مع عددِ آياتِها ستكونُ النتيجةُ واحدةً.

٦ – ذِكْرُ مُوسى عليهِ السلامُ: في سورةِ الإسراءِ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (١٠١)، وفي سورةِ الكهفِ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (٦٠).

٧ – الهدايةُ من اللهِ تعالى: في سورةِ الإسراءِ ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧)، وفي سورةِ الكهفِ ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ

وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) (١٧) .

٨ – نفيُ الشريكِ معَ اللهِ تعالى : في سورةِ الإسراءِ (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) (١١١)، وفي سُورةِ الكهفِ (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (١١٠) .

٩ – التبشيرُ والإنذارُ : في سورةِ الإسراءِ (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) (١٠٥)، وفي سورةِ الكهفِ (قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا) (٢) .

١٠ – عددُ كلماتِ آخرِ آيتَينِ في كلٍّ مِن السورتَينِ ٤٢ كلمةً، وهذا لا يُمكِنُ أن يكونَ صُدفةً، فهناك علاقةٌ تحتاجُ إلى توضيحٍ.

١١ – كلمةٌ مُشتركةٌ : في سورةِ الإسراءِ (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (٨٥)، وفي سورةِ الكهفِ (وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا) (٨٢) .

١٢ – كتابُ الأعمالِ: في سورةِ الإسراءِ ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٢)، وفي سورةِ الكهفِ ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩).

١٢ – نفيُ الظلمِ عن اللهِ سُبحانُه وتعالى: في سورةِ الإسراءِ ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧١)، وفي سورةِ الكهفِ ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩).

١٤ – قصةُ آدمَ عليهُ السلامُ: في سورةِ الإسراءِ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (٦١)، وفي سورةِ الكهفِ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥٠).

١٥ – الحديثُ عن الجنِّ: في سورةِ الإسراءِ ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨)، وفي

سورةِ الكهفِ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥٠).

١٦ – إهلاكُ القُرى: في سورةِ الإسراءِ ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨)، وفي سورةِ الكهفِ ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ (٥٩).

١٧ – سببُ عدمِ الإيمانِ: في سورةِ الإسراءِ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (٩٤)، وفي سورةِ الكهفِ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (٥٥).

١٨ – ذِكْرُ البَحرُ: في سورةِ الإسراءِ ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٦٦)، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ (٦٧)، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠). وفي سورةِ الكهفِ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ

بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) (٦١)، (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا) (٦٢)، (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) (٧٩).

١٩ – قتلُ النفْسِ: في سورةِ الإسراءِ (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا) (٢٢)، وفي سورةِ الكهفِ (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا) (٧٤).

٢٠ – ذِكْرُ الحقِّ: في سورةِ الإسراءِ (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (٨١)، وفي سورةِ الكهفِ (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) (٢٩).

٢١ – توجيهٌ للنبيِّ **صلى الله عليه وسلم** للثباتِ والصَّبرِ: في سورةِ الإسراءِ (وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤)، وفي سورةِ الكهفِ (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ

عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (٢٨) .

٢٢ – بَشريَّةُ الرَّسولِ **صلى الله عليه وسلم** في سورةِ الإسراءِ (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا) (٩٢)، وفي سورةِ الكهفِ (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (١١٠) .

٢٢ – ذِكْرُ الجنَّةِ: في سورةِ الإسراءِ (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا) (٩١)، وفي سورةِ الكهفِ (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) (٢٢) .

٢٤ – ذِكْرُ الشَّمسِ: في سورةِ الإسراءِ (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) (٧٨)، وفي سورةِ الكهفِ (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) (١٧) .

٢٥ – الأموالُ والأولادُ: في سورةِ الإسراءِ (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) (٦٤)، وفي سورةِ الكهفِ (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) (٤٦).

٢٦ – ذِكْرُ الجِبالِ: في سورةِ الإسراءِ (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) (٢٧)، وفي سورةِ الكهفِ (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) (٧٤)

٢٧ – ذِكْرُ القرآنِ: في سورةِ الإسراءِ: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا) (٤١)، وفي سورةِ الكهفِ (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) (٥٤).

٢٨ – المَوعِدُ: في سورةِ الإسراء (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا) (٥)، وفي سورةِ الكهفِ (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا) (٥٩)

٢٩ – سُورةُ الإسراءِ سورةُ الصراعِ مع بَني إسرائيلَ والنَّصرِ عليهِم بإذنِ اللهِ تعالى، وإنهاؤهُم مِن الوُجودِ ليسَ ظُلمًا ولا عُدوانًا؛ إنّما بما صَنعتْ أيديهِم جزاءً وِفاقًا.

وقَصَصُ سورةِ الكهفِ قَصصُ الصراعِ بين الحقِّ والباطلِ. ويرى أبو الحسنِ النَّدْويُّ علاّمةُ الهندِ رحِمهُ اللهُ تعالى أنّ أوجُهَ الربطِ ملخَّصةٌ في جُملةٍ واحدةٍ هي: الصراعُ بين الإيمانِ والكُفرِ، بينما يرى صاحبُ الظِّلالِ أنَّ وَجْهَ الربْطِ هو تصحيحُ مِيزانِ العَقيدةِ وقِيَمِ الفِكْرِ والنَّظَرِ وفقَ منهجِ اللهِ عزّ وجلَّ[1].

[1] التوأمةُ بين سورتَي الإسراءِ والكهف: د. أحمد نوفل (بتصرُّف).

ضرورة التغيير[1]

إنّ من الأمورِ المُساعِدَةِ على اكتشافِ معاني النصِّ النظرَ إليهِ من أكثرَ من زاويةٍ، والدخولَ عليه من أكثرَ من مَدخلٍ، وجَمعَ المُتشابهاتِ والمُتخالِفاتِ والمُوازنةَ بينها. ويُمكِنُ استثمارُ القَصصِ الواردةِ في السورةِ الواحدةِ لاستنتاجِ دِلالاتٍ كثيرةٍ ودقيقةٍ. ولعلِّي هُنا أقِفُ مع سورةِ الكهفِ وقَصصِها الأربعةِ: قصَّةِ الفِتية، وقِصَّةِ صاحبِ الجَنَّتَين، وقِصَّةِ مُوسى والعبدِ الصالِح، ثمَّ قِصَّةِ ذي القرنَين. ويُمكِنُنا أنْ نَنْظُرَ إلى هذه القَصَصِ من زَوايا عِدَّةٍ مثلِ: المَوضوعِ العامِّ – طريقةِ العَرْضِ – طريقةِ الاستهلالِ والخِتام – التعقيبِ على القِصَّةِ – أهمِّ الأفكارِ – الزَّمانِ والمكانِ – العاملِ المُشتَرك – ما تتميَّزُ به كلُّ قِصَّةٍ. وسأثيرُ هُنا بعضَ هذه المعاني والدّلالاتِ وأشيرُ إلى بعضِ الملامِحِ وأتركُ الباقي للتأمُّلِ والنَّظَرِ.

لو عَرَضْنا قَضيَّةَ المكانِ في القَصَصِ الأربعةِ وكيفيّةَ التعامُلِ مَعهُ؛ لَوَجَدنا في القِصَّةِ الأُولى المَدينةَ والكهفَ، وفي الثانيةِ الجَنَّتَين، وفي الثالثةِ مَجمَعَ البَحرَين والبَحرِ والصَّخرةَ والقريةَ والمَدينةَ، وفي القِصَّةِ الرابعةِ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ومَطلِعَ الشمسِ وبين السَّدَّين؛ ففي قَصَصِ الفِتية ومُوسى وذي القرنَين حركةٌ ظاهرةٌ وانتقالٌ من مكانٍ إلى آخرَ، بينما في قِصَّةِ صاحبِ الجَنَّتَين دخولٌ مباشرٌ؛ ولهذا اختلفَت النتيجةُ؛ فالفِتيةُ انتقلُوا من مكانٍ لم يستطِيعُوا أن يُقيمُوا شرعَ اللهِ فيه، ولم يتمَكَّنُوا من تحقيقِ أهدافِهم وهو المدينةُ إلى مكانٍ آخرَ هو الكهفُ. ولو تأمَّلْنا المَوضِعَين لَوَجَدْنا اختِلافًا كبيراً بينَهُما؛ ففي المَدينةِ النعيمُ والترفُ والاجتماعُ والأُنسُ بالنَّاسِ، وفي

[1] د. عويض العطوي

الكهفِ الانعزالُ والانفرادُ وشَظَفُ العَيشِ والوَحشَةُ؛ لكنَّ المبدأَ والعقيدةَ فَرَضَ عليهِم التغييرَ، وجَعَلَهُم يتنازَلُونَ عن مَلذَّاتِ الحياةِ الدُّنيا إلى راحةِ النَّفْسِ؛ فتحقَّقَ لهُم ذلك بالنومِ في الكهفِ حتّى زالتْ عن المدينةِ مَظاهرُ الشِّرْكِ.

وأمَّا قِصَّةُ مُوسى عليهِ السلامُ والعبدُ الصالِح فالانتِقالُ فيها ظاهرٌ مِن تَتَبُّعِ الألفاظِ (**لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**)، (**فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**)، (**فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا**)، ومِن الواضحِ أنَّ تغييرَ المكانِ كان أمراً جَوهريًّا، ويظهرُ ذلك مِن تكرارِ كلمةِ (فانْطَلَقا). ولو تأمَّلْنا الأحداثَ لَوجَدْناها تغييراً للمكانِ ومتابعةً للمسيرِ؛ وكأنَّ في التغييرِ تعليمٌ لِما هو جديدٌ مِن خلالِ المَوقفِ والحَدَثِ لا مِن خلالِ الحكايةِ والمَعلومةِ، وقد يكونُ في ذلكَ إرشادٌ إلى أنّ التعلُّمَ يحتاجُ إلى سَفَرٍ وتنقُّلٍ دائِمَينِ، وأنّ تغييرَ مكانِ التعلُّمِ مُهمٌّ جِدًّا في تنويعِ المصادرِ. وقد عَوَّضَ اللهُ عزَّ وجلَّ مُوسى عليهِ السلامُ سَفَرَهُ ونَصَبَهُ هذا بالعلمِ الذي لم يَكُنْ يَعلَمُه؛ حيث فَسّرَ له الخَضِرُ الحوادثَ العجيبةَ التي لم يَكُنْ له علمٌ بأسبابِها وأسرارِها.

وأمّا قِصَّةُ ذي القرنَينِ فيظهرُ فيها الانتقالُ من أوَّلِ أحداثِها (**فَأَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ**)، (**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ**)، (**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ**) ونَجِدُ في ذِكْرِ مَغرِبِ الشمسِ ومَطلعَها ما يُشيرُ إلى سُرعةِ التنقّلِ والبُعْدِ، وقد نتجَ عن هذا التنقُّلِ وتغييرِ المكانِ بَسْطُ النفوذِ على مساحةٍ

كبيرةٍ من الأرضِ، كما نتجَ عنه كثرةُ الأتباعِ واستثمارُ خيراتِ تلك المواضعِ من الموارِد البشريةِ والماديِّة، وتوجيهِ كلِّ ذلكَ في وُجوهِ الخَير.

ولو أمعنَّا وأنعَمنا النظرَ في القَصَصِ الثلاثِ لَوَجَدنا أنّ التغييرَ فيها والانتقالَ كان لِزاماً؛ وأنّها أدَّتْ إلى نتائجَ طيِّبةٍ، وأنّ أبطالَها مُؤمنونَ أخيار. بينما نَجِدُ دُخولاً في قِصَّةِ صاحبِ الجنَّتَين؛ فقَد جاءَ فيها (**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ**) وتلكَ الجنَّةُ تُمثِّلُ الحياةَ الدُّنيا كما تُشيرُ إلى ذلكَ الآياتُ التي أعقبَتِ القِصَّةَ (**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا**) فكأنَّما هي تصويرٌ لِتَوجُّهِه إلى الحياةِ الدُّنيا ولهذا خَسِرَ، بينَما كانَ في القَصَصِ الأُخرى خُروجٌ مِن الدُّنيا ولهذا نالُوا مُرادَهُم ورَبِحُوا؛ فكأنَّها بذلكَ ترسمُ لنا مَنهجَ النجاحِ في هذه الحياةِ؛ ولهذا كانَ مِن أعظمِ أحداثِ البَعثةِ النبويَّةِ الهِجرةُ من مكَّةَ المكرَّمةِ إلى المَدينةِ المنوَّرة؛ فكانَ النصرُ له **صلى الله عليه وسلم** فهل يُدركُ المُؤمنونَ هذه المعاني؟[1]

[1] ضَرورةُ التغيير: د. عويض العطوي (بتصرُّف)

الخفاء واللطف[1]

لقد تحدَّثتْ سورةُ الكهفِ في مُجمَلِها عن طائِفتَينِ من الناسِ: المُشرِكينَ الذين طَلَبُوا زِينةَ الحياةِ الدُّنيا وعَزَوا ذلك إلى الأسبابِ بما فيها مِن قَدْحٍ في التوحيدِ، والمُوحِّدِينَ الذين عَرَفُوا تلكَ الأسبابِ فلم يُنكِرُوها؛ بل ردُّوها إلى مُسبِّبِها وتَوكَّلُوا عليه، وتضاءلَتْ عِندَهُم وتلاشَتْ بالنَّظَرِ إلى مَشيئَتِه وقُدرَتِه؛ فَخَرَقَها لهُم خَرقًا ربَّانيًّا في أربعِ قَصصٍ تحدَّثَ بها العالِمونَ. والعجيبُ في الأمرِ أنّ تلكَ القَصصِ الأربعِ لم تتكرَّرْ في مَوضعٍ آخرَ من كتابِ اللهِ تعالى فحفظَ لِهذهِ السُّورةِ تفرُّدَها وتميُّزَها. ويُمكِنُنا أنْ نُوجزَ هذا الخَرْقَ الرَّبَّانيَّ في أربعةِ عناصرَ رئيسيّةٍ هي:

خَرقٌ في الزمانِ، وخَرقٌ في المكانِ، وخَرقٌ للعادةِ في الإنسانِ، وخَرقٌ رابعٌ ألاَ وهوَ الكشفُ الرَّبَّانيُّ لأستارِ القَدَرِ.

أوّلاً: أصحابُ الكهفِ وطيُّ الزَّمانِ: فهؤلاءِ فِتيةُ الكهفِ آمَنُوا بِرَبِّهِم، وأعلَنُوا البراءةَ ممّا سِواه، وألقَوا الحربَ والعداوةَ بينَهُم وبينَ ما اتَّخَذَ الناسُ مِن دُونِه، وأيقَنُوا أنّ القومَ ماضُونَ في غيّهِم، وأنّ الباطلَ قد أصبحَ دِينًا لهم مُلازِمًا لحياتِهم، والدِّفاعَ عنهُ هو دِفاعٌ عن مُقدَّراتِهم ودَولتِهم بِكُلِّ عناصِرها ومُؤسَّساتِها، وقد تملَّكَ زِمامَ الأمورِ فيها عِصابةٌ مِن المجُرِمينَ. والفِتيةَ قد خَرجُوا بإيمانِهم عن المألوفِ؛ فتعطَّلَتْ مَصالِحُهُم وأغلِقَتْ في وُجوهِهِم أبوابُ الدُّنيا ومُنِعُوا الوظائفَ وأسبابَ الحياةِ، ولم يبقَ أمامَهُم إلاّ الاعتزالُ والفِرارُ بالدِّينِ. وثَقُلَتِ الجاهليّةُ حينئذٍ على قلوبِ المُؤمنينَ وبَغتَهُم ظاهِرُ الأسبابِ؛ حيث تضخَّمَتْ دولةُ الباطلِ وانتفَشَتْ حتّى ظنَّ الظانُّ

[1] د. خالد سعيد عبد القادر

أنّها لن تَزُولَ؛ حينئذٍ بَرَزَتْ قِصَّةُ أصحابِ الكهفِ لِتكْشِفَ الوَهَمَ وتُزِيلَ الغشاوة وتَظهرَ الحقيقةُ. فما هو إلاّ أنْ طَوى العليمُ القديرُ لهُم الزمنَ حتّى صارتِ الثلاثمائةُ سِنينَ وزِيادتُها في حِسِّهِم كأنَّها يومٌ أو بعضُ يومٍ (**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**) (الصّافّات: ١٧١ – ١٧٢).

ثانيًا: صاحِبُ الجنَّتَينِ ودَكُّ المكانِ: قصَّةُ تضخَّمَتِ الدُّنيا فيها وعَظُمَتْ أسبابُها في أعينُ أصحابِها، وظنُّوا أنّ اللهَ الذي بَسَطَها لهُم ومَدَّها ليسَ بِقادرٍ على أن يَقبِضَها ويَطويها؛ فهذا رجلٌ ضعيفٌ يستقِي قُوَّتَه مِن غَيرِه ويستعلِي بها، وقد شدَّهُ الماءُ والطينُ وتقوَّى بالمالِ والبنينَ (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا). بينما يقفُ فيها أهلُ الإيمانِ موقفَ الاستعلاءِ كالطَّودِ الشامخِ لا تُنالُ منهُم أنواءُ الفقرِ ولا عائِزةُ الحاجةِ؛ وقد تعلَّقُوا بِحَبلِ اللهِ المَتينِ يتعبَّدونَه بالفاقةِ إليه والذِّلَّةِ له وقد علِمُوا أنّ مع الذِّلَّةِ تكون النُّصرَةُ، كما يتعبَّدُونَه أيضًا بتعجيلِ بَطْشَتِه بالظالمينَ وقطعِ دابِرهم، ولهذا قال المُؤمِن (**فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا**)، ولأمرٍ ما فصَّلَ القرآنُ الكريمُ ذِكْرَ الجنَّتَينِ، وأفاضَ البيانَ بأبعادِ المكانِ وعناصِره حتّى قالَ الرَّجُلُ) مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)نَعمْ إلى هذا الحدِّ كَبُرَتِ الدُّنيا في أعينُ أصحابِها حتّى ظنُّوا أنَّها لن تزولَ ! ثمّ كانت المُفاجأةُ فتقوَّضَتْ أسبابُ الباطلِ وتهاوَتْ (**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي**

أَحَدًا). درسٌ آخرُ يُلقِّنُه اللهُ تعالى للمُؤمنينَ؛ فكَما أنّه طَوى الزَّمانَ لأصحابِ الكهفِ مَحَقَ المكانَ بصاحبِ الجَنَّتَينِ.

ثالثًا: ذو القَرنَينِ وأسبابُ التمكينِ: مَلِكٌ مسلمٌ قال اللهُ فيه: (**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**)؛ فقَد أوتِيَ مِن أسبابِ العِلمِ والقوَّةِ ما لا يَعلَمُه إلاّ اللهُ تعالى فسخَّرَ له الدُّنيا، وقهَر الأعداءَ، وبلغَ مشارِقَ الأرضِ ومغارِبَها، وفهمَ عُجْمَةَ القلوبِ والألسنةِ، وبَنى السدودَ، وعَمِلَ السبائكَ المعدنيةَ؛ فهوَ رَجُلٌ خارقُ القوى والمَلَكاتِ بالتمكينِ الإلهيِّ واللطفِ الرَّبَّانيِّ. وبهذا تكتمِلُ عناصرُ الكونِ في (الزمانِ، والمكانِ، والإنسانِ)، وبها يقومُ عالَمُ الشهادةِ شاخِصًا مُتحرِّكًا حركةَ الحياةِ والأحياءِ، بينما يبقَى عالَمُ الغَيبِ مَكنونًا غامِضًا لا يهتكُ سِتْرَهُ إلاّ القِصَّةُ الرابعةُ والأخيرةُ.

رابعًا: موسى عليهِ السلامُ والخضر بين العالَم المشهودِ والغيبِ المنشودِ: ترتكزُ القصَّةُ في مُجمَلِها على عُنصُرَينِ رئيسينِ هُما (**المالُ والبَنونَ**)؛ وهُما زينةُ الحياةِ الدُّنيا. مساكينُ يعملونَ في البحرِ لتحصيلِ لُقْمةِ عَيشِهِم... أبوانِ مُؤمنان يُقتَلُ صغيرُهما وهو كلُّ ما يَرجُونَ في الحياةِ الدُّنيا ويَتَّكِئُونَ عليه... يتيمانِ في قريةٍ لا يَملِكُونَ إلاّ داراً مُتهدِّمةَ الجُدرانِ إلاّ جِداراً يقفُ شاهِداً على لؤمِ أهلِ القريةِ وشُحِّهِم. وفجأةً يظهرُ الخضرُ لِيُجلِّي الحقائقَ، ويكشِفَ أستارَ الغيبِ الذي أطلعَه اللهُ عليه. ونتعجَّبُ مِن الفِطرةِ النقيَّةِ السليمةِ مُتمثِّلَةً في موسى عليهِ السلامُ وهو يستنكِرُ المنكرَ! كيف تُتلِفُ الأملاكَ؟ كيفَ تَقتُلُ النفسَ البريئةَ؟ لماذا تصنعُ المعروفَ مع

غيرِ أهلُه؟ سُبحانَ اللهِ العظيمِ... أمرَ المُؤمنُ كلِّه خيرٌ وصلاحٌ. أعِبْتَ السفينةَ حتّى لا يأخذَها الملكُ الظالِم... قَتَلْتَ الغلامَ رحمةً به وخشيةَ أن يُرْهِقَ والِدَيه طُغيانًا وكُفرًا... أقمْتَ الجِدارَ حتى يبلغَ اليتيمانِ أشدَّهُما ويَستخْرِجا كَنْزَهُما بسببِ صلاحِ أبيهما.

والسؤالُ هو: لماذا كانتْ سورةُ الكهفِ عاصمةً من فتنةِ الدَّجَّالِ عليه لعنةُ اللهِ؟ أجيبُ والعِلْمُ عندَ اللهِ تعالى بأنّ سورةَ الكهفِ بدأتْ بِذِكْرِ أهلِ الكتابِ وهُمْ جُلُّ أتباعِ المسيحِ الدَّجَّالِ، وهو من علاماتِ الساعةِ، وربما كان في ذلكَ إشارةٌ إلى تملُّكِهِم زِمامَ العالَم في آخرِ الزمانِ، وخُتِمَتْ ب (الحديثِ عن التوحيدِ، وذَمِّ الكُفرِ) الذي هُم عليهِم، واشتملَتْ على محورٍ مُشتَركٍ بين قَصَصِها وهو الخَرْقُ الرَّبَّانيُّ لَسننَ الزمانِ والمَكانِ والإنسانِ والقَدَرِ الكونيِّ، وبذلك صارتْ هذه السورةُ الكريمةُ كالرُّقيةِ من الخَرْقِ الشيطانيِّ الذي يُمثِّلُهُ مَسيحُ السوءِ "الدَّجَّالِ" في أعظَمِ صُورِه، فأنّى يُثبِتُ وأنّى يُفْلِحُ حينئذٍ؟ وممّا يستأنسُ به أيضًا في هذا المَعنى أنّ زوالَ شخصِ المسيحِ الدَّجَّال نفسِه يكونُ على يدِ مسيحِ الخيرِ بن مريمَ عليهِما السلامُ؛ باعتبارِه خارقةً بشريةً ربانيَّةً كذلك؛ إذ خُلِقَ من غيرِ أبٍ، ومُعجزاته كالنَّفخِ في الطينِ بإذنِ اللهِ وإبراءِ المرضى والإخبارِ عن المُغيَّباتِ، ورَفْعِه من غيرِ موتٍ ثمَّ عَودتِه بعد ذلكَ (**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**) (الأنبياء: ١٨)[1].

---

١) الخَفاءُ واللطفُ: د٠خالد سعيد عبد القادر (بتصرُّف).

المحاور الفكرية[1]

ممّا تجدرُ الإشارةُ إليه أنّ قَصصَ القرآنِ الكريمِ قد تردُ مُستقِلّةً لِتعرضَ مجموعةً مِن الأفكارِ المستهدَفة، وقد تردُ ضِمنَ السورِ القرآنيةِ الكريمةِ وهو ما يطبعُ أغلبَ القَصَصِ؛ ممّا يعني أنّ وُرودَ القِصَّةِ ضِمنَ السورةِ؛ إنّما يَرِدُ في سياقِ ما عَرضَتْهُ السورةُ من الأفكارِ، وحينَ نتّجه إلى سورةِ الكهفِ وقَصَصِها نَجِدُ أنّ هذه السورةَ تَجَمَعُ بين النَّمَطَينِ؛ فليستْ هي مُتضَمِّنَةً قَصصًا مُستقلَّةً، كما ليستِ القَصَصُ عابرَةً فيها بِقَدْرِ ما تحومُ على محورٍ فكريٍّ رئيسٍ وإلى جانبِها أفكارٌ ثانويّة... والمهمُّ أنّ متابعةَ مُلاحظَتِنا لِقَصصِ السورةِ المباركةِ تكشفُ لنا المزيدَ ممّا لاحظْناه تتضمّنُ سورةُ الكهفِ أربعَ قَصَصٍ أو حكاياتٍ يستقلّ كلٌّ مِنها عن الآخرِ من جانبٍ، كما يتداخلُ بعضُها ببعضٍ من جانبٍ ثانٍ. أو لِنَقُلْ مِن جانبٍ ثالثٍ إنّها تحومُ على ما أفرَزتْه مُقدِّمةُ السورةِ من أفكارٍ تتمثّلُ بصُورةٍ خاصَّة في الآيتَين الآتيتَينِ اللتَين سبقَتا قصَّةَ أهلِ الكهفِ (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**) (**وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا**)؛ ففي هذه المقدِّمةُ يُحدِّثنا النصُّ عن وظيفةِ الكائنِ الآدميِّ على الأرضِ وإخضاعِه للاختبار (**أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**) مع مُلاحَظةِ أنَّ النَّصَّ رَسَمَ للأرضِ طابَعًا خاصًّا هو الزِّينةُ؛ أيّ أنّ الدُّنيا أو الأرضَ تظلُّ مُجرَّدَ زِينَةٍ أو حِليةٍ أو مَتاعٍ عابرٍ صاغَتهُ السماءِ بمَثابةِ مُنبِّهاتٍ أو مُثيراتٍ لها صلةٌ بدوافعِ الشخصيّةِ لِتختبرَ مِن خلالِها نمطَ الاستجابةِ التي

[1] موقعُ مؤسِّسة السِّبطَينِ العالَميَّة

ستصدرُ الشخصيةُ عنها، وهل إنّها استجابةٌ سَوِيّةٌ ملتئمة مع مبادئِ السماءِ التي أمرتنا بالالتزامِ بها، أو إنّها استجابةٌ مريضةٌ تتمركزُ حولَ الذّاتِ وإشباعِها بلا قَيدٍ؟ وقد عقّبتِ السماءُ في الآيةِ الثانية على هذا المَتاعِ أو الزينةِ؛ حينما ألغتْه أساسًا وجعلتْه صَعيداً أجردَ (**وَإِنّالَجاعِلُونَماعَلَيْهاصَعِيدًاجُرُزًا**). وينبغي ألاّ نَقِفَ عند هذه الصورةِ – صَعيداً جُرُزاً أو صورةَ الأرضِ الجَرداءِ –؛ وكأنّها مجرّدُ صورةٍ فنِّيَّةٍ أو تعبيرٍ جماليٍّ فقط بِقَدرِ ما ينبغي أن ننظُرَ إلى هذه الصورةِ أو الرمزِ إلى أنّها صورةٌ فنِّيَّةٌ بالغةُ الجَمالِ تنطوي على دلالةٍ بالغةِ المَدى أيضًا؛ ف(المَتاع أو الزينةُ) تظلُّ مُجرَّدَ حِليةٍ خارجيَّةٍ على الأرضِ، ثمَّ تتلاشَى حتّى تُصبحَ الأرضَ جرداءَ ملساءَ لا أثرَ لها مِن الزينةِ المذكورةِ. وحيالَ هذا تُحسّسنا الصورةُ الفنِّيّةُ المتقدِّمةُ إلى أنَّنا إزاءَ (اختبارٍ أو امتحانٍ) ينبغي أن نجتازَه بنجاحٍ ما دامتِ (الزينةُ أو المتاعُ) مُجرّدَ (لباسٍ أو نَبْتٍ) مَصيرهُ إلى الزوالِ التامِّ؛ أيّ أنَّه متاعٌ فاقدٌ للقيمةِ أساسًا فيما ينبغي ألاّ نُقيمَ لهُ أيَّ وزنٍ على الإطلاقِ؛ ولكي يُجسّدَ النصُّ القرآنيُّ الكريمُ هذا المفهومَ في أذهاننا يتقدّمُ إلينا بنصٍّ قصصي يجسّد عمليًا مفهوم هذه الزينة على الأرض وكيفية سحقِها ونبذِها من خلالِ قصَّةِ أصحابِ الكهفِ الذين نَبذُوا زينةَ الحياةِ الدُّنيا تمامًا واتَّجُهوا إلى كهف يعزلهم تمامًا عن الأرض وزينتها. إذن المقدّمةُ أو التمهيدُ الذي استُهلّت سورةُ الكهفِ به ينطوي على مُهمَّةٍ فنِّيَّةٍ تُلقي بأضوائِها على محتوياتِ السورةِ لإنارةِ الحقائقِ بوسيلةٍ فنِّيَّةٍ تكون أشدَّ مِن غيرِها في إحداثِ التأثيرِ على المُتلَقّي[1].

١) المحاورُ الفِكريَّةُ: موقعُ مؤسِّسة السِّبطَينِ العالَميَّة.

علامات منهجية[1]

سورةُ الكهفِ سورةٌ فريدةٌ من سُوَرِ القرآنِ الكريمِ لها معانٍ كبيرةٌ ومقاصدُ عظيمةٌ.

ويظهرُ للمُتأمِّلِ فيها مِن أهلِ العِلمِ والبَصيرةِ بأنّ موضُوعَها هو الابتلاءُ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ بدأتْ بِحَمْدِ اللهِ عزَّ وجلَّ والثناءِ عليه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّمًا﴾ والحمدُ هو التنزيهُ والثناءُ بأنواعِ المحامدِ والصفاتِ التي جاءتْ في الكتابِ العزيزِ والسُّنَّةِ الشريفةِ؛ فمِن الحمدِ إثباتُ رُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وألوهيَّتِه وأن يُعبَدَ وحدَه لا شريكَ لهُ، له الأسماءُ الحُسنى والصِّفاتُ العُلى، له المُلكُ وإليه المَصيرِ، لا نُحصِي ثناءً عليه كما أثنَى هو على نفْسِه، أنزلَ الكتابَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ فمَنْ عَمِلَ به فلا يَضِلُّ ولا يَشقى ونجَا مِن الابتلاءِ، ومَن أعرضَ عنهُ فإن له مَعيشةً ضَنكًا ويُحشَرُ يومَ القيامةِ أعمى.

والابتلاءُ مَعناهُ الاختبارُ، وفي هذه السورةُ أنواعٌ عديدةٌ من الابتلاءِ:

ففي قصَّةِ أصحابِ الكهفِ ابتلاءٌ، وفي قصَّةِ صاحبِ الجنَّتَينِ ابتلاءٌ، وفي إخراجِ آدمَ عليه السلامُ من الجنَّةِ ابتلاءٌ، وفي قصَّةِ الخضرِ مع موسى عليه السلامُ ابتلاءٌ وفي قصَّة ذي القَرنَينِ.

قصَّةُ أصحابِ الكهفِ: إنّهُم فِتيةٌ آمنُوا بِرَبِّهِم فَزادَهُمُ اللهُ هُدىً، تيقَّنُوا أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو المُستحِقُّ للعِبادةِ وحدَه، وخالَفُوا قومَهُم لَما رأوا منهُم الشِّركَ؛ فاعتَزلوهُم

[1] موقعُ السَّكِينَةِ

وآوَوا إلى الكهفِ، فألقَى اللهُ تعالى عليهم النومَ ثلاثمائةَ سِنينَ وازدادُوا تِسعًا. فما الابتلاءُ في قِصَّتِهم؟

– ليستِ العِبرةُ في معرفةِ الحقِّ بكَثرةٍ أو قلَّةٍ؛ ف (الحقُّ يُعرَفُ مِن دَليلِه وبُرهانِه).

– الابتلاءُ بالمَعلوماتِ والجَدلِ (فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِرًا).

– الصبرُ على زينةِ الحياةِ الدُّنيا (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا).

قِصَّةُ صاحبِ الجنَّتَينِ: المالُ والمَزارعُ والثروةُ كلُّها ابتلاءٌ وفِتنةٌ كما قال النبيُّ مُحمَّدٌ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ وَإِنَّ فِتْنَةَ أُمَّتِي الْمَالُ"[1] رجلٌ له جنَّتانِ... فجَّرَ اللهُ تعالى خِلالَهُما نَهرًا...، أُعْجِبَ بِنَفْسِه... ظنَّ أنّه يستحقُّ ذلكَ.

إنّ أصحابَ المالِ والثروةِ إذا اعتزُّوا بمَالِهم وثَرواتِهم فقَد خالفُوا منهجَ اللهِ تعالى ووقَعُوا في سُوءِ أعمالِهم وفَشِلُوا في الابتلاءِ وظلَمُوا أنفسَهُم بالكِبْرِ وعَدَمِ الاعترافِ بالنِّعمةِ وحَسِبُوا أن لا تكونَ فِتنةٌ، ظنُّوا أنَّهُم مَلَكُوا الدُّنيا والقوَّة؛ حتى الساعةَ أصبحُوا في شكٍّ مِنها. *وصاحِبٌ له فقيرٌ ذُو مزرعةٍ بسيطةٍ... أخبرَه أنّ في مَقولتِه السابقةِ شِرْكٌ باللهِ عزَّ وجلَّ... نَصَحَهُ بالتَّواضُعِ فما عِندَه خيرٌ وأبْقى. أصحابُ الكَثرةِ يُختَبَرُونَ... وأصحابُ القِلَّةِ يَختَبِرُونَ... وحِقْدُ الفقيرِ على الغنيِّ

[1] أخرجَه التِّرمذيُّ (٢٣٣٦)، صحيح ابنُ حِبّانَ (٣٢٢٣)، والمعجم الكبيرِ الطبرانيّ (٤٠٤).

ليس من سِمَةِ أهلِ الإيمانِ؛ لكنَّه من سِمَةِ الذين فَشِلُوا في الابتلاءِ...؛ لأنّ ما أعطاكَ اللهُ خيرٌ ممّا حَرَمَكَ. وسورةُ الكهفِ تجمعُ هذهِ المَعاني كلَّها، وقراءتُها كلَّ يومِ جُمُعَةٍ تُظهِرُ لكُم أسرارَها وما فيها مِن الفوائدِ والعلومِ ولكنْ لِمنَ عَلِمَ واعتبرَ...

قصَّةُ موسى عليهِ السلامُ والعبدِ الصالحِ: سُئِلَ موسى عليه السلامُ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فقال: أَنَا. ابتلاءٌ وتربيةٌ وعلمٌ... فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ: بَلَى، لِي عَبْدٌ بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قال موسَى عليهِ السلامُ: أَيْ رَبِّ وَكيفَ لِي بِهِ؟ قال: تَأْخُذُ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ وحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ (**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**). فَهِمَ موسَى المقصودَ فقالَ لهُ (**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**) أدب وتواضع... (**قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**)... درسٌ بليغٌ في الابتلاءِ خاصَّةً لأهلِ هذا الزمانِ الذين يَحكُمونَ على الأمورِ بِظواهِرِها وهُمْ لا يَعرِفونَ حقائِقَها وعواقِبَها. (**قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**) خَشِيَ عليهُ السلامُ أن يُحرمَ حتّى الصبْرَ... فخَرَقَ السفينةَ، وقتلَ الغُلامَ، وبَنى الجدارَ... في الموطنِ الأوَّل ذَكَّرَ الخضرُ موسَى (**أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)، وفي المَوطنِ الثاني غَلَّظَ العبارةَ (**أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا**)، وفي الثالثةِ (**هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**)... فكان عِلمُ الخضر على عِلم موسَى ابتلاءً... لا بُدَّ أن تكونَ صاحِبَ تأمُّلٍ وحِكمةٍ؛

فهُناكَ فرقٌ بين الظواهرِ والحقائقِ... فلا تغترَّ دائِمًا بالظواهرِ (سَلبًا أو إيجابًا) حتّى تُوافِقَ الحقيقةَ.

قال ابنُ الوزيرِ في كتابِه "إيثار الحقِّ على الخَلقِ":

تَسَلَّ عَن الْوِفَاق فَربُّنَا قَدْ حَكَى بَين الْملائِكَة الخِصَامَا

كَذَا الخْضِرُ الْمُكرَّمُ والوَجيهُ الْمُكلَّمُ إِذْ ألمَّ بِهِ لِماما

تكدَّرَ صَفْوُ جَمعهِمَا مِرَارًا فعجَّلَ صَاحِبُ السِّرِّ الصَّرَاما

ففارَقَهُ الكليمُ كليمَ قلْبٍ وَقد ثَنَا على الخْضِرِ الملاما

وَمَا سَبَب الخِْلاف سِوى اخْتِلافِ الْعُلُومِ هُنَاكَ بَعْضًا أَو تَمَامًا

فَكَانَ مِن اللوازمِ أَن يكونَ الإِلهُ مُخَالفًا فِيهَا الأناما

فلا تجَهَلْ لها قَدراً وخُذْها شَكوراً للذي يُحيي الأناما

قولُه: تكدَّر صَفْو جَمعِهمَا مِرَارًا؛ أيّ: أنّ اعتراضاتِ مُوسى على الخضرِ تُكدِّرُ الصفْوَ.

وقولُه: فعجَّلَ صَاحِبُ السِّرِّ الصَّرَاما؛ أيّ: أنّ الخضرَ عجَّلَ الصّرامَ فقالَ: (**هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**) تكفي ثلاثةُ اعتراضاتٍ.

وقولُه: ففارَقُه الكليمُ يعني موسَى عليهِ السلامُ. ولَوْ سَكَتَ مَنْ لا يَعْلَمُ سَقَطَ الاِخْتِلافُ)[1] وقد حذَّرَنا رسولُ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** في آخرِ الزَّمانِ مِن فتنةِ "(وَإِعْجَابُ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ)[2]. قال تعالى: (**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً**

---

١) جامعُ بيانِ العلمِ وفضْلِه: ١/ ٥٨٢).
٢) أخرجَهُ أبو داودَ (٤٢٤١)، وسنن التِّرمذيُّ (٢٠٥٨)، وصحيح ابنُ ماجهْ (٤٠١٤).

أَتَصْبِرُونَ) (الفُرقان : ٢٠) فَتنَ اللهُ الفقيرَ بالغنيِّ، والغنيَّ بالفقيرِ، والصحيحَ بالمريضِ، والمريضَ بالصحيحِ، والرئيسَ بالشَّعبِ، والشعبَ بالرئيسِ، والناسَ جميعًا بعضَهم ببعضٍ، (وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) .

قصَّة ذو القَرنين: إنها قصة ابتلاء الملوك، ابتلاء ذوي المسؤولية. قال تعالى (وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) ذو القرنين ملك أعطاه الله من كل شيء سببا... في القوة والسياسة والبناء والحيل العسكرية وتجهيز الجيوش والحصار وفي التعامل مع الأعداء... (فَأَتْبَعَ سَبَبًا) . نشر التوحيد، وأحبط منارة الشرك (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا. قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) ابتلاء واختبارا له فيما أعطاه... فنجح في الاختبار والابتلاء. (أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

فضربَ اللهُ عزَّ وجلَّ بهذا مثلاً لِمن ابتلاهُم بالمسؤولياتِ "عَظُمَتْ أو صَغُرَتْ"؛ فليسَ فوقَ حُكْمِ اللهِ تعالى حُكْمٌ (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) (الأنعام :

٥٧)[1].

[1] علاماتُ مَنهجيّةٌ: موقعُ السَّكِينَةِ (بتَصرُّفٍ)

بصمة وجدان - كيف نبدأ من جديد

خلقَ اللهُ عزَّ وجلَّ كلَّ شيءٍ في الدُّنيا محكُومًا بدورةِ حياةٍ، يُولَدُ صغيراً غضًّا رقيقًا.. ثمَّ يَشِبُّ قويًا فتيًا جريئًا مِقدامًا.. وتأخذُه السُّنونُ؛ لِيُصبحَ أكثرَ حِكمَةً وأعمقَ فِكرًا ونُضجًا.. ثمَّ يصلُ في رحلتِه إلى قِمَّتِها، ومِن ثَمَّ يبدأُ في الانحدارِ... يَضْعُفُ ويتأخَّرُ ويتقلَّصُ حتّى يَرجِعَ كما كانَ. وهذا قانونٌ إلهيٌّ ينطبقُ على الإنسانِ والحيوانِ والنباتِ حتّى النجومِ والمجرَّاتِ. وقد شاءَ اللهُ تعالى أن يَسْرِيَ هذا القانونُ على الأُمَمِ. تُولَدُ الأمَّةُ من فِكرةٍ يُؤمِنُ بها صاحِبُها، يعملُ لها ويُضحِّي مِن أجْلِها، ويبْذلُ كلَّ ما في وُسْعِه لِيَنْشُرَها ويُقْنِعَ بها الآخَرينَ فيَحمِلُوها معهُ، وتقوى الفِكرةُ وتكبُرُ وتنضجُ، ثمَّ تزدادُ عُمقًا بزيادةِ مُعتنِقيها حتّى تأتيَ اللحظةُ التي تفيضُ فيها على الواقعِ، وتَفرِضُ نفْسَها عليه وتتحوَّلُ إلى كيانٍ قويٍّ. ثمَّ تأتي على هذه الأمَّةِ الوليدةِ فترةُ استقرارٍ، ثمَّ يتعاقبُ عليها أجيالٌ لا تُعطي ولا تَبْذُلُ؛ بل تسحبُ فقط مِن الرصيدِ الذي بناهُ الأوائلُ بِدمائِهم وأرواحِهم؛ حتّى تَضْعُفَ ويَخْبُو شُعاعُها.

وقد تطرأُ على الفِكرةِ الأولى التي قامتْ عليها الأمَّةُ أفكارٌ ليستْ مِنها؛ فتختلطَ بها وتُلوِّثُها؛ بل وتقاوِمُها... فتَضْعُفَ وتنزَوي وتشرعَ في الاحتِضار، وقد يَطولُ احتضارُها أو يَقصُرُ، وهكذا تموتُ أُمَّةٌ وتُولَدُ أُخْرَى... وتستمرُّ الحياةُ.

ويَسري هذا القانونُ الرَّبَّانيُّ على الأُمَمِ كافّةً؛ إلاّ أُمَّةً واحدةً شاءَ اللهُ تبارك وتعالى أنْ يَختلِفَ القانونُ الذي يَحكُمُها؛ فهي تقوَى وتضعُفُ كَكُلِّ الأُمَمِ؛ لكنَّها لا تموتُ أبدًا. هي أمَّةٌ شاءَ اللهُ تعالى أن تكونَ باقيةً لِيَومِ الدِّينِ، أمَّةٌ شاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ أن

تظلَّ أمامَها فُرَصٌ كي تعودَ من جديدٍ فتيةٍ قويةٍ لِتَشْهَدَ على الأممِ كُلِّها، هي أُمَّةُ النَّبيِّ الخاتمِ مُحمَّدٍ **صلى الله عليه وسلم** أمَّةٌ حَفِظَ اللهُ دستورَها الخالدَ وكتابَها الخاتمِ ووَعَدَها بالنصرِ والتأييدِ إذا ما أخذتْ بأسبابِ هذا النصرِ... إذا رجعتَ إلى البَذرةِ الأولى... إلى العقيدةِ النقيَّةِ والمَحَجَّةِ البيضاءِ. وأمَّتُنا اليومَ لم تُمتْ؛ لكنَّها ضعيفةٌ مريضةٌ طرأتْ عليها إضافاتٌ ليستْ منها؛ بل عملَتْ على زيادةِ مَرَضِها، وغابتْ عنها أمورٌ لا تكونُ قويَّةً إلا بِها، ويعملُ من حولِها أعداؤها دائبينَ على إضعافِها وإسقاطِها؛ فيَغزُوها بِجُيوشِهم تارةً، ويَتَسلَّلُونَ إلى عَقيدتِها تارةً أُخْرَى؛ فَيَعْبَثُونَ بها أو يَردُّوها عن كتابِها والناسُ في غَفْلَةٍ من هذا.

وهناكَ من هذه الأمَّةِ مَن يعملُ لِصالحِ أعدائِها عن (قَصْدٍ وفَهْمٍ) أو عن (جَهْلٍ وعَدَمِ إدراكٍ). ورغمَ ذلك لن تموتَ هذه الأمَّةُ، لقد تغيَّرَ قانونُ الموتِ والحياةِ من أجلِها، وبإمكانِها أن ترجعَ له في أيِّ لحظةٍ شاءتْ، وستجِدُ كلَّ الوعودِ لم يبطُلْ مَفعُولُها. ولكنْ كيفَ لها أن تعودَ وتنهضَ من جديدٍ؟

كيف لها أن تكونَ أمَّةً قويَّةً يحكمُها ذُو القَرنَينِ بشرعِ اللهِ عزَّ وجلَّ. لو كان في زمننا هذا لغَزَا الفضاءَ، وجابَ المجَرَّاتِ، وهَبطَ إلى قاعِ المُحيطاتِ يسكتشِفُها ويستخرِجُ خيراتِها.

من المؤكَّدِ أنّ العليمَ الخبيرَ قد أرشدَنا إلى ذلكَ وهَدانا إلى سواءِ السبيلِ. فإذا ما عُدنا إلى سورةِ الكهفِ لَوَجَدْنا فيها أربعَ قَصَصٍ تتخلَّلُها بعضُ الأمثلةِ والتعقيباتِ لعلَّنا نجدُ فيها الرابطَ الذي يُجيبُ على هذا السؤالِ؟ تبدأُ السورةُ بحَمدِ اللهِ تعالى

الذي أنزلَ على عَبْدِه الكتابَ ولمْ يَجْعَلْ له عِوجًا، فهل في ذلك إشارةٌ إلى دُستورِ هذه الأمّةِ الذي يحملُ في آياتِه فِكرتها وعَقيدَتها النقيةَ الطاهِرة؟

أجلْ: إنّه لا بُدَّ لهذهِ الأمَّةِ كي تعودَ وتنهضَ مِن جديدٍ يجبُ أن تعودَ إلى المصدرِ الأوَّلِ والسلسبيلِ الصافي الذي تفجَّرَ على يدِ رسولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم**. ولو عُدنا إلى سُورةِ الكهفِ لَوَجَدْنا في افتتاحِيَّتِها قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ والرَّقيمِ، وهي قِصّةُ فتيةٍ آمنُوا بربِّهِم ولمْ يَقبَلُوا عقيدةَ قومِهم (**هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**). هؤلاءِ الفِتيةُ هُم مِثالٌ لأولئكَ الذي حملُوا الفِكْرَةَ، وتحمَّلُوا في سبيلِها التبِعاتِ، وهمُ الانطلاقةُ لأُمَّةٍ تُريدُ أن تنهضَ أو تُولدَ مِن جديدٍ، ومِن العجيبِ أنَّ الآياتِ القرآنيةِ في هذا المقطعِ من السورةِ تتحدَّثُ عن الفردِ في بناءِ ذاتِه وتزكيتِه وتنقيتِه وعلاجِ أمراضِه وعُيوبِه، وتأمرُه أن يَصبرَ نفْسَه مع الذينِ يَدعُونَ ربَّهُم بالغَداةِ والعشيِّ، وأنْ لا يُطِعْ مَن أغفلَ اللهُ قلبَهُ عن ذِكْرِه سبحانه وتعالى.

لقد كان الكهفُ هو الرَّحِمُ الذي تخلَّقَتْ فيه الفِكرةُ وبَرزَتْ للوجودِ، فمَا الخُطوةُ القادمةُ؟ إنّ القِصَّةَ الثانيةَ تتحدَّثُ عن حِوارٍ بينَ رَجُلَينِ؛ أحدهُما مُؤمنٌ باللهِ تعالى يحملُ في قلبِه فِكْرَةَ الإيمانِ، ولم يَمنَعْهُ فَقْرُه مِن أن يُحاورَ رَجُلاً غَنيًّا جعلَ اللهُ تبارَكَ وتعالى له جنَّتَينِ لا يُؤمنُ باللهِ ولا باليومِ الآخِرِ؛ بل يُؤمنُ بالمادَّةِ وما تُدرِكُه الحواسُ، يتحاورُ معَه كي يُقنِعَهُ بِفِكْرَتِه.

نعم لقد خرجَتِ الفِكْرَةُ مِن الكهفِ، وبدأتْ تنمُو وتكبُرُ وتصلُ إلى الناسِ ضِمنَ حُدودٍ مُعيَّنةٍ... هو حِوارٌ هادِفٌ لِحَصرِ أمراضِ المجتمعِ بُغيَةَ عِلاجِها. ثمَّ يُعمِّقُ

النصُّ القرآنيُّ هذا الحوارَ ليُخاطبَ الناسَ علانيةً، ويُهاجمَ أفكارَهُم الباطلَةِ وسُلوكِهم المِعوَّجِ، وهُنا تأتي قِصَّةُ نبيِّ اللهِ مُوسى عليهِ السَّلامُ والخَضرِ؛ وهي قِصَّةٌ لها أهمِّيّتُها قبلَ الوصولِ إلى المرحلةِ النهائيةِ حيث تحكُمُ وتَسُودُ، وحينئذٍ تكونُ قد ولدَتْ أمَّةٌ قويَّةٌ ذاتُ كيانٍ ووجودٍ. فهلْ لهذهِ المرحلةِ قوانينُها الخاصَّةُ؟ إنّ القصَّةَ تحكي عن سيِّدنا مُوسى فحسب، ولم تذكُرْ بني إسرائيلَ، ولم تتكَرَّرْ في القرآنِ الكريمِ. وبالرغْمِ من أنّ مُوسى عليه السلامُ تحمَّلَ المشقَّةَ لِلقاءِ الخضرِ اسْتأذَنَهُ (**هَلْ اتَّبِعُكَ على أنْ تُعلِّمَنِي مِمّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**)؟ قد تكونُ هذه إشارةً إلى فَضْلِ العلمِ ومَكانتِه؛ لكنْ لم يَكُنْ عِلمًا بمَعناهُ الحقيقيِّ؛ بل هو الفَهْمُ ومَعرِفةُ حقيقةِ الأُمورِ قبلَ اتِّخاذِ القرارِ.

لقد اعتبرَ مُوسى عليهِ السلامُ خَرْقَ السفينةِ واحتمالَ غَرَقِ أهْلِها أمرًا عَظيمًا، وهو بالفعلِ كذلكَ؛ لولا أنَّها كانتْ لِمساكينَ يَعمَلُونَ في البحرِ، وكان وراءهُم مَلِكٌ يأخُذُ كُلَّ سفينةٍ غَصبًا؛ فكانُ القرارُ الصائبُ في هذه الحالةِ هو خَرْقُها، وكذلك قَتْلَ الغُلامِ... وبناءَ الجِدارِ دُونَ أخْذِ الأجْرِ...؛ فالمرحلةُ التي تسبقُ التمكينَ هي مرحلةٌ خاصَّةٌ لها قوانينُها، والتعاملُ مع المجتمعِ في هذه المرحلةِ الانتقاليةِ يجبُ أن يَسُودَه الفَهمُ لطبيعةِ الناسِ والظُّروفِ المُحيطَةِ؛ فالفِكْرَةُ لمْ تَعُدْ فِكْرَةَ فَردٍ أو مجموعةِ أفرادٍ؛ بل فِكرةَ المجتمعِ بأسْرِه، لقد أضحَى هناك شَعبًا، وصارتْ له عقيدةٌ وغايةٌ ومُستقبَلٌ وأملٌ. ومِن حقِّ هذا المجتمعِ أن يحكُمَ نفْسَه، وأن تَسُودَ فِكْرَتُه؛ فهُناكَ أمَّةٌ قد ولدَتْ. وهذا هو الطريقُ كي تعودَ أمَّتُنا من جديدٍ، وهو طريقٌ شاقٌّ وطويلٌ

ويَحتاجُ إلى جُهدٍ وصَبرٍ، ولقد خاضَهُ رسولُ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** بكلِّ ثِقَةٍ وثباتٍ.

كانتِ الفِكرةُ والعَقيدةُ في داخِله... حَمَلَ همَّها... دعا الناسَ إليها سرًّا بالحِوارِ والإقناعِ؛ فتكَوَّنَتْ جماعةٌ آمنتْ بِها وضحَّتْ مِن أجْلِها، صارتِ الدَّعوةُ علنيَّةً للناسِ جميعًا... أصبحَتْ أمَّةً مِن أعظَمِ الأُمَمِ... سادَتِ العالَم... وستعودُ مرَّةً أُخْرى لِتَسُودَ... لقد حانَ ذلك الوعدُ المَوعودُ بإذنِ اللهِ تعالى.

إنّ سُورةَ الكهفِ تُعلِّمُنا كيفَ نعودُ من جديدٍ؛ لذلك حَضَّنا رسولُ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** أن نتلُوَ هذه السورةَ العظيمةَ كلَّ أسبوعٍ. إنّ هذه السورةَ بمَثابةِ الصِّيانةِ الدَّوريَّةِ التي مِن شأنِها أن تُحافِظَ على حيويَّةِ هذه الأمَّةِ وضَمانةِ قوَّتِها[1].

[1] بصمةُ وجدانٍ: كيف نبدأُ من جديدٍ (بتصرف).

الرقيم[1]

لقد كانَ سيّدُنا عبدُ اللهِ بنُ عبّاسٍ تُرجمانُ القرآنِ رضيَ اللّٰهُ عنهُ في حَيْرَةٍ من كَلِمَةِ "الرَّقيمِ"؛ فهو يُصوِّبُ الرأيَ في مَعناهُ حينًا، ويمتَنِعُ عن الإفصاحِ حينًا آخرَ. ويُدلِّلُ هذا المسلكُ على عَجيبِ سورةِ الكهفِ برمَّتِها، وغَرابَةِ ما فيها من القَصصِ؛ بل وغَرابةِ كلمةِ "الرقيم" وهيَ بيتُ القصيدِ في هذه المَقالةِ. يقولُ: "كلُّ شيءٍ في القُرآنِ أعلمُه إلاّ أربَعةً: غِسْلِين، وحَنانًا، والأوَّاه، والرَّقيم"[2] ثمَّ يعودُ ليُدلِيَ بدَلْوِهِ بأكثرَ من معنىً فيقولُ: هو وادٍ قريبٌ من أيْلَةَ، وهو القَريةُ، وهو الجَبلُ الذي فيه الكهفُ، وهو جبلُ بَنْجْلُوس، وهو بُنيانٌ، وهو كِتابٌ في لوحٍ من رَصاصٍ كَتَبَ فيه الكفَّارُ الذينَ فرَّ الفِتْيَةُ منهُم قِصَّتَهُم وجَعَلُوها تاريخًا لهُمْ، وذَكَرُوا وَقْتَ فَقْدِهِم، وكَمْ كانوا وبينَ مَن كانوا، وهو كتابٌ مَرقُومٌ كانَ عِندَهُم فيه الشَّرعُ الذينَ تمسَّكُوا به من دِينِ نبيِّ اللهِ عيسى عليهِ السلامُ. وهذه المعاني كلُّها تعكسُ مراحلَ فِكريَّةً في فَهمِه للرقيمِ.

واختلفَ المُفسِّرونَ أيضًا: قال عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ أنّ الرقيمَ هو الكِتابُ، ثمَّ قرأَ (كِتابٌ مَرقُومٌ) وهذا هو الظاهرُ من الآيةِ وهو اختيارُ ابنِ جَريرٍ أيضًا. وعن مجاهدٍ: "وادٍ". وعن السُّدِّيِّ: الصَّخْرَةُ التي كانت على الكهفِ. وعن ابنِ زيدٍ: كِتابٌ غَمَّ اللّٰهُ عَلَينا أمْرَهُ، ولمْ يَشْرَحْ لنا قِصَّتَهُ. وعن الفرَّاءِ: لوحٌ من رَصاصٍ كُتِبَ فيه أسماؤهُم وأنسابُهم ودِينُهم وممَّنْ هَرَبُوا. وعن قَتادَةَ: دراهِمُ أصحابِ الكهفِ.

---

[1] (بِتصرُّف)

[2] تفسير الطبري (ج ١٥/ص١٢١)، تفسير القرطبي: (ج ٦/ص٢٧٦)، تفسير ابن كثير(ج ٥/ ص٨٤).

وعن أنسِ بنِ مالكٍ والشَّعبيِّ: "كَلْبُهُم". وعن عِكْرِمَةَ: "الدَّواةُ". وعن الضَّحَّاك: "بلدةٌ في بلادِ الرُّومِ". وعن القُرطبيِّ: "مأخوذٌ من الرَّقْمِ"، ومِنْهُ (الأرقَمُ) لِتخطِيطِه، ومِنهُ رَقْمَةُ الوادي؛ أيّ: مكانُ جَري الماءِ وانعِطافِه. وعن ابن عطيَّةَ: "بِناءٌ رُوميٌّ موجودٌ بِغرناطةَ إلى جِوارِ الكهفِ الذي عليه المسجِدُ". وقيلَ: "لوحٌ مِن ذَهَبٍ تحتَ الجِدارِ الذي أقامَه الخضرُ". وقيلَ: "أصحابُ الغارِ الذي انطبقَ عليهِم فَذَكَرَ كلٌّ واحدٍ أصلحَ عَمَلِه". وقيل: "لَمْ يُخْبِرِ اللّهُ عن أصحابِ الرقيمِ بِشيءٍ". وقيلَ: "كِتابٌ في لَوحٍ مِن النّحاسِ". وقيلَ غيرُ ذلكِ. وأمّا العلماءُ الرَّبَّانِيُّونَ فيقولونَ: "اللّهُ أعلمُ بِمُرادِه".

وهذه الظاهرةُ تعكسُ خُصوبةَ آراءِ المُفسِّرينَ، وهي إنْ دلَّتْ على شيءٍ؛ فإنَّما تدلُّ على ثراءِ اللغةِ العربيةِ من ناحيةٍ، والعجبِ في قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ التي ذَكَرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ أنّها عجيبةٌ بالفعلِ؛ لِتظلَّ أبدَ الدهرِ عجيبةً لِكُلِّ قارئٍ لِلقرآنِ الكريمِ، ويومَ القيامةِ سوفَ تُبْلَى السرائرُ وتُتْلى وتُعرَفُ الأسرارُ. ولكِنَّنا نستحسِنُ مِن هذه الآراءِ ما وَرَدَ على أنّ "الرَّقِيمَ هو الكتابُ" لأسبابٍ مِنها:

– وجودُ شاهدٍ قويٍّ في سُورةِ المُطفِّفينَ في وَصفِ كتابِ الأبرارِ وكتابِ الفجَّار بأنّه "كِتابٌ مرقومٌ"؛ أيّ: لا زِيادةَ فيهِ ولا نُقصانَ، أو كما قالَ القُرطبيُّ: "مُخطَّطٌ ومَكتُوبٌ"، فيكونُ المعنى: "كتابٌ مُخطَّطٌ مَكتُوبٌ فيهِ أعمالُهم بِلا زيادةٍ ولا نُقصان وهذا مِن عَدلِ اللّهِ تعالى".

– قولُ اللهِ تعالى : (**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**) (الكهف : ٤٩) .

– كان رسولُ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** يُسَوِّي بينَ الصُّفوفِ حتّى يدعَها مِثْلَ "القدحِ" أو "الرَّقيمِ" . أيِّ: أنَّه كان يُسوّي الصُّفوفَ؛ فلا تَرى فيها عِوَجًا ولا أمْتًا؛ كَحَالِ مَن يُخَطِّطُ ويُسَطِّرُ الكتابَ، ويُقوِّمُ سُطورَ الكتابةِ فيه.

– في لسانِ العربِ ل "ابنِ مَنظُور" : "الرَّقيمُ هو الكِتابُ" .

ف "الرَّقيمُ" إذنْ هو الكتابُ المكتوبُ القيِّمُ المعنى القويمُ الخطِّ، أو بمعنىً آخَرَ هو "المُستقيمُ" . وكلمةُ "المُستقيم" لها مدلولُ الشكلِ والمَضمونِ، وهذا مِن الإعجازِ الرَّبَّانيِّ، وسِرٌّ مِن الأسرارِ، وعجيبةٌ من عجائبِ سُورةِ الكهفِ. وكُلُّ كُتبِ اللهِ عزَّ وجلَّ قيِّمةٌ قويمةٌ تَهْدِي لِلتي هِيَ أقومُ، غَيرَ ذِي عِوَجٍ، لا زِيادةَ فيها ولا نُقْصانَ، لا تُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ وتُحْصِيها، لا اختلافَ فيها ولا تعارُضَ، واضحةٌ، مُستقِيمةٌ، لا تتبَّدلُ ولا تتغيَّرُ (**وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**) (الكهف : ٢٧) . وإنْ كان الرَّقيمُ هو الكِتابُ . . . فَلَعَلَّهُ كتابُ الشَّرعِ الذي كانَ معَهُم أو الكتابُ الذي فيهِ خَبَرُهُم . . . وكِلاهُما أمرٌ قَيِّمٌ قويمٌ مُستقيمٌ غيرُ ذِي عِوَجٍ؛ فأصحابُ الكهفِ كانُوا اسمًا ومعنىً (**قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**) (الزُّمَر : ٢٨) . فلماذا لا نَستفيدُ مِن معنى التقويمِ وعَدمِ الاعوِجاجِ

الذي وَصَفَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في أوَّلِ آيةٍ مِن هذه السُّورةِ (**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا**) وأخفَى في دلالاتِه معنى الرَّقِيمِ؟

لِماذا لا نَستفيدُ مِن تقابُلِ الاعوجاجِ والتقويمِ في مجموعةِ القَصَصِ التي جاءتْ في سِياقِ السُّورةِ بأكملِها؟؛ فالدلائلُ واضحةٌ وضوحَ الشَّمْسِ التي كانت تطلُعُ على أصحابِ الكهفِ التي كانت تَزاوَرُ عن كَهْفِهِم ذاتَ اليمينِ وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ.

ففي قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ: اعوجاجُ المجتَمعِ... واستقامةُ الفِتيةِ (إذ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ لَنْ نَدعُوَ مِنْ دُونِه إلهًا لَقَد قُلْنَا إذًا شَطَطًا).

وفي قِصَّةِ صاحِبِ الجنَّتَينِ: اعوجاجُ صاحبِ الجنَّتَينِ... واستقامةُ صاحبِه (أَكَفَرْتَ بِالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً* لَكِنّا هُوَ اللهُ رَبِّي ولا أُشْرِكُ بِرَبِّي أحداً).

وفي قِصَّةِ مُوسَى والعَبْدِ الصالِحِ عليهِما السلامُ: اعوجاجُ المُلكِ الذي كانَ يأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا، واعوجاجُ الغُلامِ الذي كادَ أنْ يُرهِقَ أبوَيهِ طُغيانًا وكُفْرًا، واعوجاجُ أهلِ القريةِ البُخلاءِ اللئامِ... واستقامةُ العَبدِ الصالِحِ في خَرْقِ السفينةِ وقَتْلِ الغُلامِ وإقامةِ الجِدارِ الذي يُريدُ أن ينقَّضَ. وبالعِلْمِ اللدُنِّيِّ الّذي آتاهُ اللهُ عَلِمْنا أنّ في هذا الاعوجاجِ الظاهِرِ تقويمًا لِلباطِنِ؛ فـ- (سُبْحانَ الأوَّلِ والآخِرِ والظاهِرِ الباطِنِ).

وفي قِصَّةِ ذِي القَرنَينِ: اعوجاجُ الأقوامِ التي مَرَّ بِهِم.. واستقامةُ ذِي القَرنَينِ ودَورِه الإيجابيِّ الإصلاحيِّ في تقويمِ هذا الاعوجاجِ. ومِن العجيبِ أنّ الاعوجاجَ مَوجُودٌ

في دُنيا الناسِ قديمًا وحديثًا ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا؟ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ إنّهُمْ ضالُّونَ مُضِلُّونَ ويَعتَقِدونَ أنَّهُم مُستقِيمُونَ... فهلْ سيكونُ لهُمْ استقامةٌ يومَ القيامةِ؟ ولاتَ حِينَ مَناصٍ.

من البذرة إلى التمكين - البوصلة القرآنية[1]

إنَّ الأطوارَ المُتعاقِبَةِ ظاهرةٌ أساسيَّةٌ تمرُّ بها الأفكارُ أثناءَ تحوُّلِها من (فِكرَةٍ إلى واقعٍ). في البدايةِ قد تكونُ الفِكْرَةُ مُستنْكَرَةً ومَرفُوضةً؛ لكنَّها تحدثُ ثَغرةٌ في جدارِ الواقعِ. وفكرةُ (النهضةِ والاستخلافِ) ليستْ استثناءً؛ بل تتَّضِحُ في سورةِ الكهفِ التي تُعتبَرُ مراجعةً أسبوعيةً لهذه الفِكرة.

الطورُ الأوّل – أصحابُ الكهفِ:

إنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بالفِكْرَةِ، والفُتوَّةُ والشبابُ رَمْزٌ لِمَنْ يَعتنِقُها.

فِتيةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ فَزادَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ هُدَىً في وَجْهِ الشِّرْكِ والظُّلْمِ؛ لكِنّهُم لَيسُوا مُؤهَّلِينَ بَعدُ لِلمُواجَهةِ، ما زالُوا في طَورِ الضَّعفِ؛ إذن: لا بُدَّ مِن (الاعتِزالِ والاختِفاءِ) وإلاّ أُبِيدُوا وأُبِيدَتِ الفِكرَةُ مَعهُم.

وهناك فَرْقٌ كبيرٌ بينَ الاعتِزالِ والعُزْلَةِ (**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا**)؛ ف– "العُزْلَةُ حالةٌ يَفرِضُها المجتَمعُ"، أمّا "الاعتزالُ فهو عمليةٌ اختياريَّةٌ؛ لِعدَمِ القُدرَةِ على المُواجَهةِ".

الطَّورُ الثاني – صاحبُ الجَنَّتَينِ:

حِوارٌ بين الكُفرِ والإيمانِ... أصبَحتِ الفِكْرةُ أكثرَ قوَّةً رغمَ قِلَّةِ العَددِ... المُهمُّ هو الكيفُ لا الكمُّ. دَرسٌ عظيمٌ كي نَبتعِدَ عن الفِكرةِ التقليديَّةِ التي تربطُ النجاحَ

[1] د. أحمد العُمَري

بالعَدد على حساب الكيف. صاحبُ الفكرَةِ صارَ قويًّا بما يكفي للدُّخول في حوارٍ... الرَّجُلُ ليس داعيةً فهُو لمْ يَبتدئْ بالحِوارِ، ولم يَرُدَّ على الآخَرِ عندما كان يتباهَى بمالِه (**أناأكثرُمِنْكَمالًاوأعَزُّنَفَرًا**).

لقد وَصَلَتْ فِكْرَةُ الكافِرِ إلى الذُّروةِ؛ لكنَّها ليستْ مقياسَ الحقِّ والنجاحِ؛ أمَّا فِكْرَةُ المُؤمنِ فما زالتْ بذرةً في طَورِها الثاني؛ فهُو واثقٌ باللهِ تعالى، وصاحبُ مبدأٍ، ولا يُعاني مِن أمراضٍ نفسيَّةٍ ماديَّةٍ وذُو بصيرةٍ لا تَخْدَعُه المظاهرُ البرَّاقةُ عن الحقيقةِ.

الطَّورُ الثالثُ – مُوسى والخضر: هُنا يكمُنُ الاختبارُ الحقيقيُّ للفِكرَةِ والصُّمودِ أمامَ الواقعِ والتفاعُلِ مَعهُ من أجلِ (التطبيقِ والإثمارِ)؛ فَمُوسى عليه السلامُ لمْ يُسافِرْ طَلبًا للعلمِ مِن الخضرِ لِتَواضُعِه فحَسْب؛ بل يعني أنَّ تطبيقَ الفِكْرَةِ يحتاجُ إلى عِلْمٍ ورُشدٍ ورؤيةٍ شاملةٍ تُري الصُّورةَ كاملةً دونَ أن تَمنَعَهُ التفاصيلُ والجُزئيَّاتُ عنها؛ وإلاّ أصبحَ التطبيقُ مُستحيلاً.

ولو قارنَّا نظرةَ الخضرِ في المواقفِ الثلاثةِ لَوَجَدْنا أنّها كانتْ تتميَّزُ بالشُّموليَّةِ... تُرتِّبُ الأَولَوياتِ، وتُطبِّقُ الأهمَّ فالمُهِمَّ، وتُؤجِّلُ الآخَرَ إلى الوقتِ المناسبِ؛ فهُناكَ فرقٌ كبيرٌ بين (التأجيلِ والتعطيلِ)؛ لكنَّنا نخلطُ بينَهُما.

والخضرُ عليه السلامُ هُنا ليسَ صُورةَ العبدِ الصالحِ الزاهدِ الساكنِ المُعتَزِلِ الدُّنيا كما نتخيّلُ دائمًا؛ بل يفعلُ ويقتحِمُ الواقعَ بِقِيَمِهِ مِن أجلِ الإصلاحِ والتغييرِ؛ لأنَّ ذلك جزءٌ مِن مَهمَّتِه.

الطورُ الرابعُ – ذُو القَرنَينِ: سُمِّيَ ذُو القَرنَينِ بِسبَبِ الثُّنائيَّاتِ التي جَمعَها في حضارتِه منها (العَدَلُ والقوَّةُ، الدُّنيا والآخِرَةُ، المادَّةُ والرُوحُ، الفردُ والمجتمعُ).

تلك الحضارةُ اعتمدَتْ على البحثِ في الأسبابِ والعلومِ والأخذِ بها (فأتْبَعَ سَبَبًا) وتكرَّرَتْ هذه الآيةُ للتأكيدِ على ذلك. ولقد تميَّزَتْ هذه الحضارةُ ب(الشُّموليَّة)؛ أيّ: أنّها استثمرَتِ العلومَ في الإصلاحِ وخيرِ الإنسانيَّةِ؛ لأنَّها مُرتبِطةٌ بالقِيَمِ السَّماويَّةِ.) فَلَمَّا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَومًا قُلْنا يا ذا القَرنَينِ إمَّا أنْ تُعَذِّبَ وإمّا أنْ تَتَّخِذَ فِيهِمُ حُسْنًا) .

ولقد تعاملَ كثيرٌ مِن المُفسِّرينَ مع أُفولِ الشمسِ على أنَّه رَمْزٌ لأُفولِ الحَضاراتِ، وليس بالضَّرورةِ أن يكونَ الأمرُ كذلكَ؛ بلْ قد يَبدُو العكسُ كما كانتِ الحالُ في مُمْلَكَةِ سَبَأ وكما هُو عليه الآنَ؛ لكنْ علينا أنْ نَنظُرَ إلى ما بينَ السُّطورِ لِنَعرِفَ الحقيقةَ؛ ف "الحَمَئَةُ معناها طِينٌ مُتغيِّرٌ" ، وهي إشارةٌ إلى القِيَمِ السُّفْلَى المُتديِّنة التي وَصَلَتْ إليها الحضارةُ الغارِبةُ، ومعَ ذلكَ فإنَّ ذا القَرنَينِ استخدَمَ معَها القوانينَ المُستمَّدةَ مِن القِيَمِ السَّماويَّةِ (**قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**) وهذا التفاعلُ الإيجابيُّ قد يمنعُ الأُفولَ ويَدفَعُه إلى الأمامِ. ثُمَّ يتوجَّهُ ذُو القرنَينِ إلى مَطلعِ الشَّمسِ؛ حيث تنطلقُ الحضارةُ مِن الصِّفْرِ. إنَّهُم في مَرحَلةِ ما قبلَ الحضارةِ، ولن يُجْدِيَ استعمالُ القوانينِ... لا بُدَّ مِن الاستقرارِ المدنيِّ أوّلاً. ثمَّ ينطلقُ ذُو القرنَينِ إلى مَنطقةِ ما بينَ السَّدَّينِ، وهناكَ أصبَحُوا خارجَ مُعادَلةِ الحضارةِ. لقد انْعَزَلُوا ظَنًّا مِنهُم أنَّهُم يَحمُونَ تُراثَهُم؛ لكنَّ انغلاقَهُم وصلَ إلى حدِّ أنَّهُم (**لا يَفْقَهُونَ قَولًا**) لا يستطِيعُونَ الحِوارَ والتواصُلَ. ورغمَ أنَّهُم لَيسُوا قومَ ذِي

القرنَينِ؛ لكنَّهُ ساعَدَهُم وحَماهُم؛ لأنَّه كما قُلْنا يستعمِلُ العلومَ للإِصلاحِ من أجلِ الإِنسانيّة – أيًّا كانَ عِرقُها أو دِينُها أو جِنْسُها – وهو يعني أنَّ هذا واجبًا ومَسؤولية لا تفضُّلاً؛ لذلكَ رفضَ أنْ يأخُذَ ثَمنًا أو خَرْجًا مِنهُم؛ ولأنّ تلك المسؤوليّةَ ليستْ مسؤوليّةَ ذي القرنَينِ وحدَه؛ بل مسؤوليةَ كُلِّ فردٍ؛ فقَد أمرَهُم أن يُساعِدُوه (انْفُخُوا)؛ فقِصَّةُ ذِي القرنَينِ تنطبِقُ على الأُممِ، كما يُمكِنُ لِكُلٍّ مِنّا أنْ يكونَ ذا القرنَينِ حين (يُحاولُ إقامةَ العدلِ من مكانِه وفي مَنصبِه). والسورةُ بأطوارِها تَنطبِقُ على الأُممِ، وتنطبقُ كذلكَ على كُلٍّ مِنّا؛ ففي أيِّ مرحلةٍ أنتَ؟ (١).

١) مِن البذرةِ إلى التمكينِ - البَوصَلة القرآنية: د. أحمد العُمَري (بتصرُّف).

فوائد تدبر سورة الكهف[1]

- (**الحَمدُ لِلّهِ الّذي أنزَلَ الكِتابَ**) ذَكَرَ بَعْدَ الحَمْدِ عِلَّةَ استِحقاقِه تعالى لِهذا الحَمدِ؛، فالألِفُ واللامُ للاستِغراقِ؛ فكُلُّ المحَامِدِ لهُ سُبحانَه وتعالى، وهُو أحقُّ أنْ يُعبَدَ ويُحمَدَ.
- (..**أجرًا حَسَنًا ماكِثينَ فِيهِ**) وَصَفَ الجنَّةَ بالنعيمِ المُقيمِ والبقاءِ الدائمِ.
- (**فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نفْسَكَ**) إنّ الحُزْنَ على المُعرِضينَ يُثبِّطُ ويُوهِنُ ويشْغلُ.
- مِن مقاصدِ السُّورةِ الوقايةُ مِن الفِتنَ: فِتنَةِ الدِّينِ (أصحابِ الكهْف)، وفِتنَةِ المالِ (صاحبِ الجَنَّتَينِ)، وفِتنةِ العِلْمِ (مُوسى والعبدِ الصَّالِح)، وفتنةِ المُلْكِ (ذُو القرنَينِ)، وفِتنَةِ الدَّجَّالِ.
- (**فأتبعَ سَببًا**) الأخذُ بالأسبابِ واجبٌ، وعَدَمُ الأخذِ بها (جَهْلٌ وتواكُلٌ واستِهتارٌ).
- (**هُنالِكَ الوَلايةُ لِلّهِ الحقّ**) الولايةُ للّهِ فقط دونَ سِواهُ.
- (**وإذا اعتَزَلْتُمُوهُمْ وما يَعبُدُونَ إلّا اللهُ**) لا بُدَّ مِن اعتزالِ الباطلِ وأهلِه. ومَن فرَّ بدِينِه مِن الفِتنِ سَلَّمَهُ اللّهُ، ومَن التجأَ إليه آواهُ.
- (**يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحمَتِهِ**) مَنْ تَرَكَ شيئًا للّهِ عَوَّضَهُ اللّهُ خيرًا مِنهُ.

[1] د. فاطمة منصور

- ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ حِفْظُ اللهِ وتَدبيرُهُ لأوليائِه خَيرٌ مِن تدبيرِهم لأنْفُسِهم.
- ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ مَنْ تكلَّمَ دونَ عِلْمٍ وبَيِّنةٍ؛ فهُو مذمومٌ، وفِيهِ شَبَهٌ بِالضَّالِّينَ.
- ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ نهيٌ عن استفتاءِ مَن لا يصلُحُ لِلفَتْوى.
- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ في التعلُّقِ باللهِ تبارك وتعالى صَفاءُ القُلوبِ وحُسْنُ العاقِبَةِ.
- ﴿وَقُل عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ أعظمُ السُّؤالِ هو سُؤالُ الهِدايةِ، وأنفعُ الدُّعاءِ هُو دعاءُ الفاتحَةِ.
- ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ حُكْمُ اللهِ نَوعانِ: (كَونيٌّ وشَرعيٌّ).
- ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ تلاوةُ الكتابِ هيَ اتِّباعُه وتصديقُ أخبارِه وامتثالُ أحكامِه.
- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الصحبةُ الصالحةُ تحتاجُ إلى صبرٍ يَجمعُ بين العملِ الصالحِ والإخلاصِ، والصَّبْرُ قد يُخالِفُ هَوى النفْسِ.
- ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ وَصفٌ بليغٌ للذينَ ضاعُوا في مَتاهاتِ الانحرافِ.
- ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ إذا قَرَّبُوهُ إلى وُجُوهِهِم لِيَشْرَبُوا شَواها، فما ظَنُّكَ إذا دَخَلَ إلى أجوافِهِم.

- (**إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا**) لا تبحثُ عن تقديرِ الناسِ؛ وإنّما يكفي أنّ الودائعَ لا تَضيعُ عِندَ اللهِ تعالى.
- (**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ... قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا**) ما أظلمَ الإِنسانَ وما أجهلَه، أمرٌ بديهيٌّ يُدركُه الجميعُ؛ لكنّ هذا الظالِمَ لِنَفْسِه أنْكَرَه.
- (**وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا**) يُريدُ أنْ يَحكُمَ الآخرةَ بموازينِ المادَّةِ وقوانينِ الدُّنيا.
- (**هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ**) قرِئتْ (الحقّ) بالرفعِ والجرِّ؛ ف(الرَّفْعُ صِفَةٌ للولايةِ)، والجرُّ صِفةُ لاسمِ الجلالةِ (لله). وفي الشدائدِ ينصرُ اللهُ الحقَّ وينْصُرُ المُؤمنينَ.
- (**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**) هيَ الأعمالُ الصالحةُ من (صلاةٍ وذِكْرٍ وتسبيحٍ).
- (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ) دليلٌ على أنّ إبليسَ مِن الجِنِ؛ وليسَ مِن الملائِكَةِ، وهو الراجِحُ من أقوالِ العُلماءِ الأجِلاّءِ.
- (**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ**) عَجَبًا لِمَن يُوالِي عَدُوَّه ويَعصِي وَلِيَّه.
- (**وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**) حقيقةٌ ثابتةٌ... ما دامَ هناكَ كُفرٌ وحقٌّ؛ فهناكَ جَدَلٌ باطلٌ لِرَدِّ الحقِّ.
- (**وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا**) مَنهجٌ شيطانيٌّ، وعملٌ مُستمِرٌّ؛ لِتشويهِ سُمعَةِ الرُّسُلِ ومناهجِ الرِّسالاتِ.

- ﴿**بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ**﴾ لا تَحْزَنْ أيُّها المظلومُ، لِلظَّالِمِينَ يومٌ... ويومَئذٍ يَفرَحُ المُؤمِنونَ.
- ﴿**وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ**﴾ الشيطانُ عدوٌّ شديدُ الحِرصِ على صَدِّكَ عن كلِّ ما فيه خيرٌ لكَ في الدُّنيا والآخِرة.
- التواضعُ من صفاتِ الكمالِ؛ فمُوسى عليهِ السلامُ أفضلُ مِن الخضر ومعَ ذلك صَحِبَهُ لِيَسْتَفِيدَ منهُ. والعاقِلُ مَن يطلُبُ الحِكْمةَ.
- إنّ إطلاقَ الأحكامِ دونَ (مَعرفةٍ وعِلْمٍ وتبصُّرٍ) لا تليقُ بِحقِّ مَن عُرِفَ مِنه العِلمُ والخيرُ والفضلُ.
- مِن أعظَم المقاماتِ التسليمُ إلى اللهِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاء.
- ﴿**عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ العُبوديَّةُ للهِ شَرَفٌ عظيمٌ لا يُدانيهِ شَرَفٌ، وثناءٌ عليهِ بأنَّه قامَ بِحقِّ العُبوديّةِ.
- ﴿**آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا**﴾ تنكيرُ كلمةِ "رحمةً" يدلُّ على عِظَمِها وجلالِ نفعِها؛ لأنّها مِن اللهِ تعالى.
- ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾ العِلمُ (باللهِ وعنِ اللهِ ومِن اللهِ) أعظمُ العلومِ على الإطلاقِ، والإنسانُ عدوٌّ ما يَجْهَلُ.
- ﴿**وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ**﴾ فَرِحا يومَ وُلِدَ، وحَزِنا يومَ ماتَ؛ ولو بقِيَ كان فيه شَقاؤُهُما. فوِّضِ الأمرَ لِمولاكَ؛ فإنَّه يَعلَمُ ولا تَعلَمُ.
- لم يُبيِّنْ اللهُ تعالى الأسبابَ التي يَسَّرَها لِذي القرنَينِ؛ لكنَّها أسبابٌ ربَّانيَّةٌ عظيمةٌ، والواجبُ أنْ نَقِفَ حيث وقفَ النصُّ دونَ تصديقٍ لِما يُقالُ.

- (**أمّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوفَ نُعَذِّبُهُ...وأمّا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحًا فَلَهُ جَزاءً الحُسْنَى**) لا يستوي الأبرارُ والظَّالِمونَ في جزاءِ الدُّنيا والآخرةِ، ومهما بلغَ عذابُ الدُّنيا لا يُقارَنُ مع عذابِ الآخِرَةِ.
- (**وأمّا مَن آمَنَ...وسَنَقُولُ لَهُ مِن أمْرِنا يُسْرا**) أيُّها الأبُ... أيَّتُها الأمُّ... أيُّها المُعلِّمُ... إنَّ الكلامَ الحَسنَ والثناءَ الطيِّبَ واجبٌ لِمَنْ أحسنَ فَلَهُ أثرٌ فعَّالٌ.
- (**قالَ ما مَكَّنِّي فيهِ رَبِّي خَيرٌ**) عطاءُ اللهِ للمُؤمِن خيرٌ مِن عطاءِ الناسِ، ولا ينبغي لِمَنْ مَكَّنَه اللهُ أن يجعلَ ذلكَ في جَمْعِ الأموالِ ونَهْبِ الثرَواتِ.
- (**قالَ هذا رَحمَةٌ مِن رَبِّي**) أعظمُ النَّوالِ أنْ تنالَكَ رحمةُ اللهِ تعالى..
- (**الَّذِينَ كانَتْ أعيُنُهُمْ في غِطاءٍ عَن ذِكْري وكانُوا لا يَستَطِيعُونَ سَمْعًا**) قد يَصِلُ المرءُ إلى مرحلةٍ يعجَزُ فيها عن إدراكِ الهُدى لِتَراكُمِ الظُّلماتِ على قلبِه والمَعاصي على جَوارحِه.
- (**وَهُمْ يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**) أشدُّ الغَبنِ أنْ يعملَ المرءُ ويَكْدَحَ ثمَّ تكونُ عاقِبتُه إلى النارِ.
- (**فلا نُقِيمُ لَهُ يومَ القِيامَةِ وَزْنًا**) يُؤتَى يومَ القيامةِ بالرَّجُلِ العظيمِ الذي ملأ الدُّنيا ضَجيجًا فلا يُقامُ لهُ وزْنًا. ويُؤتَى بالرَّجُلِ الفقيرِ الضعيفِ الذي لم يُؤبَهْ لهُ في الدُّنيا فيكونُ في المِيزانِ أثقلَ مِن جبلِ أُحُدٍ لإيمانِه وتَقواهُ.
- (**قُلْ لو كانَ البَحرُ مِدادًا لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحرُ قَبْلَ أنْ تَنفَدَ كَلِماتُ رَبِّي**) هذه إحدى صُوَرِ عظمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وقُدرَتِه، فتَبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمِينَ.

- ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ العملُ الصالِحُ والإخلاصُ هُما شَرْطا قَبولِ العملِ عِندَ اللهِ تعالى[1].

[1]) من فوائدِ تدبُّرِ سورة الكهف: د. فاطمة منصور (بتصرُّف).

تساؤلات وخواطر ليس لها ردود

هُناكَ مِن المُسلِمينَ مَن ينظرُ إلى سُورةِ الكهفِ على أنّها سورةٌ خاصَّةٌ لَها مكانةٌ تُميِّزُها عن سِواها مِن سُوَرِ القرآنِ الكريمِ؛ وذلكَ للأحاديثِ النبويَّةِ الشريفةِ المُتعلِّقةِ في قراءتِها كاملةً يومَ الجُمعَة، أو أوَّلِ عَشْرِ آياتٍ، أو آخرِ عَشْرِ آياتٍ مِنها ، وأنّها تكونُ نُوراً لِصاحبِها مِن الجُمُعَةِ إلى الجُمُعَةِ، وأنّ هذا النورَ يصلُ إلى البيتِ العتيقِ، وأنّها تَعصِمُ مِن فِتنَةِ المسيحِ الدَّجَّالِ... إلخ.

ولقد تواردتْ في هذا الصَّدَدِ أسئلةٌ لا تزالُ تبحثُ عن أجوبةٍ شافيةٍ:

١ – تذكرُ الأحاديثُ النبويةُ الخاصَّةُ بِفَضْلِ سُورةِ الكهفِ أنَّ مَن قرأَ... وليسَ مِن رَتَّلَ أو مَن جَوَّدَ؛ فهي تُركِّزُ على القراءةِ التي تقودُ إلى التعلُّمِ، وليسَ الترتيلُ والتجويدُ بِقَصْدِ التعبُّدِ الذي يَصلحُ لِسُورةِ الكهفِ أو لِغَيرها مِن سُورِ القرآنِ الكريمِ!

٢ – لا يُوجَد نصٌّ يُوضِّحُ كيفيةَ تلكَ القِراءةِ؛ هل هي قراءةٌ بصوتٍ مسموعٍ؟ أم قِراءةٌ صامتةٌ بالعُيونِ والعُقولِ؟

والظاهرُ أنّ هذه العُموميَّةَ تشمَلُ كلَّ أشكالِ القراءةِ طالَما أنَّها (قراءةٌ واعيةٌ مُتمعِّنةٌ تصلُ إلى المعاني، وتَستنتِجُ العِبَرَ).

٣ – القَصصُ المَذكُورةُ في هذه السورةِ لم تَرِدْ (عَبثًا أو لِمُجَرَّدِ الروايةِ القَصصيَّةِ أو للتسليةِ)؛ بل (لِلعِبَرِ والدُّروسِ والتطبيقِ).

٤ – إنّ التفسيرَ اللغويَّ لِمُفرداتِ الكلماتِ وشَرحِ معاني الآياتِ، وفَهْمِها على أنَّها قَصَصٌ حَدَثَتْ في الماضي لأُناسٍ عاشُوا وماتُوا في عُصورِهِم يَقتُلُ فِكْرَةَ الأثرِ

المُتجدِّدِ لهذهِ السورةِ؛ فالأمرُ أكبرُ من ذلكَ بكثيرٍ وأعمقُ.

٥ – هُناكَ فرقٌ بين كلمةِ "نُور" المَعنويّةِ، وكلمةِ ضَوءٍ الفيزيائيَّة... وبينَ البيتِ العتيقِ الذي في السماءِ والكعبةِ المُشرَّفةِ التي في الأرضِ.

٦ – يجبُ العودةُ إلى التفاصيلِ المُتوفِّرةِ في النصوصِ لِبيانِ كيفيةِ حُدوثِ فتنةِ المسيحِ الدَّجَّالِ، وكيف أنَّه يَخْدَعُ الناسَ؛ حتّى المُتعلِّمينَ منهُم؟ بينما يكونُ المُؤمنُ الحقيقيُّ في عِصمَةٍ من هذه الفتنةِ حتَّى وإنْ كان أُمِّيًا !

٧ – على علماءِ المُسلمينَ في أيَّامِنا هذه الربطُ بين فِتنَةِ المسيحِ الدَّجَّالِ في آخرِ الزمانِ وبينَ الآياتِ الخاصَّةِ بها والتي جاءتْ في السورةِ الكريمةِ، وبيانِ كيف يُمكِنُ أن تتحقَّقَ هذه العِصمَةُ؟

٨ – هُناكَ فَجْوةٌ فِكريَّةٌ بينَ الفهمِ اللفظيِّ الحَرفيِّ المادِّيِّ لِلنُّصوصِ في هذا الموضوعِ وبينَ الفهْمِ المجَازيِّ المَعنويِّ التأويليِّ لها؛ ف(الفَهمُ اللفظيُّ الحرفيُّ قد يكونُ سطحيًّا ومُباشرًا وواضِحًا)؛ بحيث لا تنطلي فتنةُ المسيحِ الدَّجَّالِ على أحدٍ، أمّا (الفهمُ المعنويُّ المجَازيُّ التأويليُّ فيتركُ البابَ مفتوحًا للأشخاصِ والأحداثِ والتطوُّراتِ دون إدراكِ حُدوثِها) !

ومِثالُ ذلك: هل ظاهرةُ العَوَرِ هي ظاهِرةٌ مادِّيَّةٌ حِسِّيَّةٌ؟

كيف يَقتنِعُ شخصٌ ذُو عَقلٍ بحقيقةٍ مادِّيَّةٍ حِسِّيَّةٍ أنَّ إلهَهُ أو رَبَّهُ أعورُ بِعَينٍ واحدةٍ يَرى بها وأنّ عَينَهُ الأُخْرى طافية.

وكيف يستقيمُ أن يكونَ هناكَ كلمةُ كُفْر ك – ف – ر على جَبينِ المسيحِ الدَّجَّالِ يَقرأُها المُؤمنُ وإنْ كان أمِّيًّا، ولا يَقرأُها الكافِر وإنْ كان مِن حَملَةِ شهادة الدكتوراه ! وبأيِّ لُغَةٍ هذه الكلمةُ مكتوبةٌ؟

وما شكلُ وحجمُ حُروفِها؟

ثمَّ ماذا عن جَنَّةِ المسيحِ الدَّجَّالِ التي هي في حقيقتِها نارٌ، ونارُه التي هيَ في حقيقتِها جَنَّةٌ؟

وماذا عن حِمارِ الدَّجَّالِ الذي يقطعُ المسافاتِ، ويطيرُ بين السحابِ، ويبلغُ طُولُ أُذُنَيهِ ٢٠ ذِراعًا أو ٤٠ ذِراعًا؟

٩ – هُناكَ عدمُ وُضوحٍ حولَ حقيقةِ المسيحِ الدَّجَّالِ، هل هُو مِن البَشرِ؟ أمْ خَلْقٌ آخرُ مِن خَلْقِ اللهِ؟

وإنْ كان بَشرًا؛ فهَلْ وُلِدَ أو أطلِقَ أيَّامِ البعثةِ النبويةِ؟ أمْ أنَّه سَيُولَدُ فيما بَعدُ؟

وإنْ كانَ قد وُلِدَ مُنذُ ١٤٠٠ سَنة أو أكثرَ فكيفَ يعيشُ طِيلةَ هذه المُدَّة؟ وأينَ يعيشُ؟ وإنْ لم يُولَدْ بَعدُ فماذا عن الأحاديثِ النبويةِ الشريفةِ ك(حديثِ الجسَّاسةِ، وحديثِ ابنِ صيَّاد ونَخلِ المدينة) وما إلى ذلكَ؟

١٠ – وماذا عن يأجُوجَ ومأجُوجَ؟ هل هُمْ بآلافِ والملايينِ مَحجُوزونَ وراءَ السُّورِ الذي بَناهُ ذُو القرنَينِ؟ وهل هُم مَوجودُونَ الآنَ؟ وأينَ... فوقَ الأرضِ؟ أمْ تحتَها؟ وكيف يبقَونَ في المجُهولِ في عَصرِ الطائراتِ والفضاءِ والأقمارِ الصناعيةِ التي مَسَحَتْ سطحَ الأرضِ بأكمَلِه؟ وكيف سَيشرَبونَ مِياه طبريا إلى أن تجَفَّ؟ ولماذا طبريا بالذَّات؟ وهل لهذا الموضوعِ علاقةٌ بإسرائيلَ والصهاينةِ على أرضِ فلسطينَ

واستهلاكِهم لمياهِ بُحيرَةِ طبريّة؟ وماذا عن التقاريرِ العِلميَّةِ التي تؤكِّدُ أنّ مِياهَ بُحيرَةِ طبريةِ سَتجِفُّ فِعلاً خِلال العَقدِ الحاليِّ.

١١ – هل للمعنى اللغَويِّ لِكلِمَتي "يأجُوج ومأجُوج" – كونِهما اسمَ فاعلٍ واسمَ مفعولٍ مُشتقَّانِ من الفعلِ أجَّجَ – ارتباطًا بالطاقةِ؟

هل لهُما علاقةٌ بالنِّفْطِ والكهرباءِ والثورةِ الصناعيةِ وتقدُّمِ العالَم الصناعيِّ وسَيطرَتِه على الدُّولِ والشعوبِ الأُخْرى؟

إنّ الموضوعَ جِدُّ مُهمٍّ وعميقٌ لهُ علاقتُه بما يَجري لنا ومَن حولنا، وله ارتباطاتٌ واضحةٌ بِ (نُبوءاتِ المستقبَلِ وعالَمِ آخرِ الزَّمانِ..).

القصة الأولى
أصحاب الكهف

الكثيرُ منّا يقرأُ سورةَ الكهفِ يومَ الجُمُعَةِ، والكثيرُ منّا يقرأُ في صلواتِه بعضَ آياتٍ منها؛ لكنّ القليلَ الذي (يتدبَّرُ معانيها، ويَسبرُ أغوارَها) وفيها من (الحِكَمِ والقَصَصِ والعِبَرِ والمُغيَّباتِ) ما لا يعلمُ حقيقتَه إلاّ اللهُ سُبحانَه وتعالى.

وعندما نقرأُ آياتِ أصحابِ الكهفِ يَتبادرُ إلى أذهانِنا أسئلةٌ كثيرةٌ عن حقيقةِ هؤلاءِ الفتيَةِ الذينَ كانُوا نموذجًا فذًّا في ذلكَ الزمانِ، وكيف اختارَهُم اللهُ سُبحانَه وتعالى لِيكُونُوا للناسِ آيةً على مرِّ السِّنينِ؛ فالكهفُ يُوحِي ظاهِرُه ب (الخَوفِ والظُّلمَةِ والرُّعبِ)؛ إلاّ أنّه كان فيهِ (النَّجاةُ) لهُم، وفيه أيضًا (كنوزٌ وأسرارٌ) فهُو مُفعَمٌ ب:

(أسرارِ التوحيدِ والدعاءِ)

(أسرارِ البعثِ والنشورِ)

(أسرارِ اليقينِ والاعتزال والربطِ على القلوبِ)

(الأسرارِ الرُّوحيَّةِ والنَّفْسيَّةِ)

(الأسرارِ اللغويّةِ والرِّياضيةِ)

(الأسرارِ التاريخيةِ والجُغرافيةِ)

(الأسرارِ الطِّبِّيَّةِ والفَلكيَّةِ)

وكُلُّها تنتظرُ مَن يكتشِفُها وينهلُ مِن مَعينِها، وكلَّ يومٍ نسمعُ عن الجديدِ منها ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

والكهفُ في السورةِ ما هُو إلاّ دلالةٌ على (أنّ العِصمَةَ مِن الفِتنِ لا تكونُ إلاّ باللجُوءِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى)؛ حتّى لو كان ظاهِرُ الأمرِ مُخيفًا، وهو أيضًا (رمزُ الدعوةِ إلى اللهِ والتسليمِ إليهِ. أين كهفُهم؟

ما عَددُهم؟ في أيِّ زمنٍ كانوا؟ كم لَبِثُوا؟ كيف كان رُقودُهم؟ لماذا لم تَفنَ أجسامُهم خلالَ تلك المُدَّة؟ ونحنُ لا نعلمُ حقيقةَ كلِّ ذلكَ؛ إلاّ مِن خلالِ ما أخبَرنا به القُرآنُ الكريمُ في بِضْعِ آياتٍ مِنْهُ. إلاّ أنّ أخبارَهُم – كانت ولا تزالُ – شائعةً في مَشارقِ الأرضِ ومَغاربِها على (اختلافِ الرِّواياتِ وشتَّى الأفكارِ والآراءِ الشخصيَّة والمذاهبِ الدينيةِ)؛ بحيث لو اطَّلَعَ عليها القارئُ لَتَشَتَّتَ ذِهْنُه، وضاعَ فِكْرُه، واختلطتْ أوراقُه. فما كان منّا بعدَ الاستعانةِ باللهِ عزَّ وجلَّ إلاّ الرجوعُ إلى أمَّهاتِ الكُتبِ والتفاسيرِ وأقوالِ المُؤرِّخينَ واستنباطاتِ العُلماءِ والمُفكِّرينَ بُغيةَ (جَمعِ ما تناثرَ فيها مِن أخبارِ أصحابِ الكهفِ، وتنسيقِ ما وَرَدَ من أقوالِهم. حتّى خَرجْنا منها بمَعلوماتٍ تكادُ تكونُ مُتكاملةً لِقصَّةٍ فتيةٍ طواها الزَّمنُ، ومَرَّتْ عليها الأيَّامُ وتعاقبتْ عليها الدُّهورُ ابتغاءَ الثوابِ من العليمِ الخَبير.

ولم نسردْ أخبارَها سَردًا – كما هو مُتَبعٌ في الأسلوبِ القَصَصيِّ –؛ بل اتَّبَعنا أسلوبَ فِقراتٍ؛ بحيث تُبيِّنُ كُلُّ فِقرَةٍ ناحيةً من نواحيها؛ لِنُمْضيَ معًا رحلةً مُمتِعةً في رحابِ آياتِ أصحابِ الكهفِ، وَنَرَ ألوانًا مِن التوافُقاتِ العجيبةِ والمُعجِزاتِ

الباهرةِ عسى أن نَزْدادَ إيمانًا وتسليمًا. فإنْ أصبْنا فَمِن فضلِ اللهِ تعالى ونِعمته، وإنْ أخْطأنا أو قصَّرْنا فنَرجُو مِن اللهِ المَغفِرَةَ، كما نأملُ مِن القارئِ المَعذرةَ وسدَّ الخَللِ. واللهُ يقولُ الحقَّ ويَهدي إلى سَواءِ الصِّراطِ.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦).

الكَهْفُ: اسمٌ، وهُو الغارُ أو البيتُ المَنقُورُ في الجبلِ، والجَمعُ كُهوفٌ. والمُتكَهِّفُ هو ساكِنُ الكهفِ. ومُكهَّفٌ: ذُو كُهوفٍ. والكَهْفُ: المَلْجأُ. والكَهْفُ: اسمُ السورةِ رقْم ١٨ مِن سُورِ القُرآنِ الكريمِ. وأصحابُ الكَهْفِ: جماعةٌ هَربُوا بِدينِهم إليهِ مِن ظُلْمِ السُّلطانِ، ونامُوا فيهِ مدَّةً طويلةً من الزمنِ. لقَد صارَ نومُ أصحابِ الكَهْفِ: مَثلاً يُضْرَبُ للنومِ الكثيرِ العَميقِ. كلبُ أصحابِ الكَهْفِ: يُضْرَبُ مَثلاً

لَمْ يُلازِمُ ولا يُفارِقُ. وفي الإنكليزية والفرنسية Cave وفي الإيطالية Cava وفي اللاتينية Cavus.

مَوقِعُ الكَهْفِ: في أكثرَ من ٢٠ دولةً في العالَمِ تُوجَدُ كهوفٌ تُنْسَبُ إلى أصحابِ الكهفِ منها (الأُردُنّ، وتُركّيا، وإسبانيا، وإيطاليا، واليونان، وقُبْرُص) وفي تُركّيا وحدَها تُوجَدُ ثلاثةُ أمكنةٍ في ثلاثِ مُدُنٍ مُختلِفة (طرسوس وأفْشِين وأفس) وتُسمَّى كُلُّها (كهوفُ أصحابِ الكهفِ).

كهفُ الرّقودِ السبعةِ في تُونُس:

يَعتقِدُ سُكّانُ مدينةِ شنني الجبليةِ المتأصّلَةِ في عُمْقِ التاريخِ التُّونُسيّ أنّ قِصّةَ أصحابِ الكهفِ التي جاءَ ذِكْرُها في القُرآنِ الكريمِ حَدَثَتْ في مَنطِقَتِهم، وأنّ الرقودَ السبعةَ أصحابَ الكهفِ مَدفُونُونَ في الكهفِ الموجودِ في قِمَّةِ أحدِ الجِبالِ الذي أَسَّسَ فيه أجدادُهُم الأمازيغُ المدينةَ منذُ القرنِ الثاني عشرَ المِيلاديِّ.

تتبعُ مدينةُ شنني محافظةَ تطاوين، ويُعَدُّ مقامُ الرّقودِ السَّبعةِ "الرُّكنَ الأساسَ" لِهذه القريةِ الجبليةِ و"المَرجعيَّةَ" التي حفظتَ بقاءَ سُكّانِها منذُ مِئاتِ السنين رغمَ قَسوةِ المكانِ؛ كونُه مقامًا يرقدُ فيه أولياءُ اللهِ تعالى الصَّالِحُونَ الذينَ ذَكَرَهُم القُرآنُ الكريمُ.

يتوسَّطُ المقامَ جامعٌ ذُو صَومَعةٍ فريدةٍ بُنيتْ وفقَ المِيزاتِ الثقافيةِ الأمازيغيةِ، ويُحيطُ به عددٌ من القُبورِ يعتقدُ السُّكّانُ أنَّها لأصحابِ الكهفِ.

ويمتدُّ المقامُ على مساحةٍ تُقَدّرُ بِحَوالَي ٢٠٠ متر مربَّع، ويبدو مكانُه جَليًّا مِن بعيدٍ في أعالي جبالِ المنطقةِ التي تتبعُ سلسلةَ جبالِ الأطلسِ المُمتدَّةِ إلى المَغرِب.

يقعُ الكهفُ في الناحيةِ الخلفيةِ للمسجدِ، وعلى بابِه صخرةٌ عِملاقةٌ يعتقدُ أنّها تُغْلِقُ الكهفَ منذُ آلافِ السنينِ، وقد حاولَ كثيرٌ من الناسِ زَحْزَحَتْها لِمَعرفةِ ما بالغارِ لكنَّهُم عَجَزُوا، ويَزعُمونَ أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الذي أغلقَ الغارَ لحِمايةِ أوليائِه الصَّالحِينَ مِن ظُلْمِ أحدِ المُلوكِ منذُ آلافِ السنين. وأهلُ المدينةِ على يقينٍ بأنّ عددَ أصحابِ الكهفِ مَخفيٌّ لا يَعلَمُه إلاّ اللهُ تعالى.

ويتضمّنُ هذا المَقامُ جُملةً من العلاماتِ المُتوافِقةِ مع ما جاءَ في القرآنِ الكريمِ؛ مِنها أنّ الشمسَ تزّاورُ يوميًّا عن يمينِ فتحةِ الكهفِ في الشُّروقِ، وتَقرِضُه ذاتَ الشِّمالِ في الغُروبِ، وهذا ما يُرجِّحُ فرْضِيَّةَ وجودِ الكهفِ في هذا المكانِ.

أصحابُ الكهفِ شَرقيّ عَمَّان:

على بُعدِ ٧ كيلو متر شرقَ العاصمةِ الأُردنية عمَّان، وعلى بُعدِ ٤ كم شرقَ مبنى التلفزيونِ الأُردنيِّ، وعلى بُعدِ ١.٥ كم شرقَ منطقةِ أبو عَلنَد، يقعُ كهفُ الرَّقِيمِ أو ما سُمِّيَ بالعامِّيَّةِ " الرَّجِيب " الذي اكتُشِفَ عام ١٩٦٢ م.

وقد جُمِعَتِ الهياكلُ العظميةُ لأصحابِ الكهفِ في بُقْعَةٍ صغيرةٍ يُمْكِنُ رُؤيتُها مِن خلالِ فتحةٍ سُدَّتْ بِقِطعَةٍ زجاجيَّة. وتراوحتِ الحقائقُ بين التأكيدِ والنفي في صِحَّةِ أن يكونَ هذا الموقِعُ هو موقعُ أصحابِ الكهفِ كما جاءَ في القُرآنِ الكريمِ.

يقعُ كهفُ "الرَّجِيبِ" في سفحِ جبلٍ في منطقةِ أبو عَلْنَد، ويحتوي على قاعةٍ مركزيّةٍ تتفرَّعُ عنها ثلاثةُ محاريبَ مَسقُوفةٍ بِعُقودٍ، وتُوجَدُ سبعةُ مدافِنَ حَجريّةً في الكُوَّتَينِ الشرقيةِ والغربيةِ مُزيَّنةً بِزَخارِفَ هندسيةٍ ونباتيةٍ. ويضمُّ الموقعُ مَسجِدَينِ

قديمَين؛ الأوَّل: فوقَ الكهفِ مُباشرةً، والثاني: في الساحةِ الأماميَّةِ للكهفِ، وقد كُشِفَ عنه عام ١٩٦٢م.

وظهرَ في الكهفِ ثمانيةُ قُبورٍ، وبالقُربِ من بابِه عُثِرَ على فَكٍّ عُلويٍّ لِجُمجُمَةِ كَلْبٍ. كما أنّ الدلائلَ التي وُجِدَتْ في الموقعِ تُشيرُ إلى أنّ أصحابَ الكهفِ كانوا سبْعةٌ وثامنُهُم كلبُهُم، ولا يُعلَمُ لِمَن هو القبرُ الثامن.

أصحابُ الكهفِ في اليَمنِ:

يُرجِّحُ أكثرُ الباحثينَ اليَمنيينَ وجودَ الكهفِ في مدينةِ "يافِع" الواقعةِ جنوبَ اليمنِ، ويَرَونَ أنّ الأماكِنَ الأُخْرى في الأُردُنِّ أو تُركِّيا أو سَلطَنَةِ عُمانٍ أو غَيرِها لا تتطابقُ مع ما جاءَ في القُرآنِ الكريمِ.

وسببُ ذلكَ توفُّرُ مجموعةٍ من القرائنِ منها:

أنّ الكهفَ عِبارةٌ عن مَدخلٍ طبيعيٍّ بين جبلَينِ، وليس بِالمَغارةِ المُظلِمَة أو المَفتوحةِ على ضَوءِ الشمسِ، وأنّه يَتَّسِعُ لإيواءِ عددٍ من الأشخاصِ، وأنَّه كالفَمِ المَفتوحِ نحوَ الجنوبِ الغربيِّ، وأنّ بابَه كان يتَّجِه نحوَ الشّمال. وعلى بُعدِ ٥٠ م من هذا المَوقعِ يُوجَدُ مسجدٌ ذُو تِسْعِ قِبابٍ يُعرَفُ لدى الأهالي بِ "مَسجدِ السبْعة"، وسبعةُ قُبورٍ خارِجَه. ونَظرًا لِبُعدِ الموقعِ وصُعوبةِ الوُصولِ إليه لم تُجْرَ بُحوثٌ دقيقةٌ تكشِفُ عن مدلولِ الكِتاباتِ هناك،

ويُؤكِّدونَ أنّ اللغةَ التي خُطَّتْ بها تلك العِباراتُ هي اللغةُ الحِمْيريَّة. إضافةً إلى وُجودِ قريةٍ تُدعى "دَقّة يانُوس" قربَ موقعِ الكهفِ.

أمّا "الرَّقيمُ" فينسبُونَه إلى بني رَقيمٍ الذين هاجَرُوا إلى حَضَرَمَوت واستقرُّوا هناك.

أصحابُ الكهفِ في جَبلِ صَبر :

أفسوس هي مدينةُ أصحابِ الكهفِ، ويُقصَدُ بها "الأرضُ البيضاءُ" كما وَرَدَ عن ابنِ المُجاورِ الدِّمَشقيِّ الذي أنكرَ وُجودَ الكهفِ في الشامِ، وأكَّدَ على وُجودِه في اليَمنِ، وتُسمَّى هذه المدينةُ اليومَ ب " الجُنْدِ " ولا يُعرَفُ تاريخُ بنائِها لِعَدمِ وُجودِ الأدلَّةِ، ويُظَنُّ أنها تعودُ إلى الفترةِ التي تلتْ رِسالةَ سيِّدنا عِيسى عليهِ السلامُ.

تميَّزتْ هذه المدينةُ بأرضِها الخِصبَةِ ومائِها العَذْبِ، ونمتْ فيها (الزِّراعةُ والصِّناعةُ والتجارةُ)؛ ممّا أدَّى إلى تَرَفِ سُكَّانِها وكُفْرِهِم باللهِ عزَّ وجلَّ، الأمرُ الذي قُوبِلَ بالرَّفْضِ من أصحابِ الكهفِ؛ فهَرَبُوا من قومِهم بحثًا عن مكانٍ آمنٍ في ضواحِيها، فخَرَجُوا من جهةِ الشرقِ باتِّجاهِ جبلِ "صَبْر"؛ حتّى وصلُوا إلى منطقةِ " ثَعْبات " القريبةِ من مدينةِ "تَعْز" ومِن جبلِ "صَبْر". ثمَّ أُطلِقَ عليها مدينةُ "الثُّعبان"، وهي التي خرجَ إليها أحدُ الفِتْيةِ بَحثًا عن طعامٍ لأصحابِه.

والكهفُ له بابانِ؛ الأوَّلُ: في " ثَعْبات " والثاني في " المِعْقاب " التي تَبعُدُ حوالَي ٩٠٠ متر الأمرُ الذي جعلَ هذا الكهفَ مُتميِّزًا عن سائرِ الكُهوفِ. وتُقدَّرُ المسافةُ بين بابَي الكهفِ بنحو ٢٢٠٠ متر. والمتأمِّلُ لِبابِ الكهفِ يَرى أنّ الآيةَ وَصَفَتْهُ بشكلٍ دقيقٍ؛ بحيث يَسمَحُ للشمسِ بالدخولِ إليهِ أثناءَ طُلوعِها وكذلك عند الغُروبِ. وهُناك مسجدٌ عند بابِ الكهف لا يتجاوزُ الأربعةَ أمتار طُولاً والثلاثة عَرضًا، ويَذكُرُ المُؤرِّخونَ أنّ قُبورَ أصحابِ الكهفِ كانت تقعُ بالقُربِ من هذا المسجدِ. وعلى بُعدِ بِضْعَةِ أمتارٍ من بابِ الكهفِ تُوجَدُ عينُ ماءٍ عَذْبٍ. وأكَّدَ

الباحِثونَ أنّ المُعطَياتِ المذكورةَ في القُرآنِ الكريمِ تنطبقُ على هذا المَوقعِ أكثرَ مِن المَوقِعِ الآخَرِ.

أصحابُ الكهفِ في دِمَشْقَ:

يُوجَدُ في قِمَّةِ جبلِ قاسيونَ بِدِمَشقَ، وفي مكانٍ ضيِّقٍ مُزدحِمٍ بالأبنيةِ "كهفٌ" يحملُ بين جنباتِه واحدةً من أروعِ قَصَصِ القُرآنِ الكريمِ التي تجُسِّدُ عظمةَ الخالِقِ وعِنايتَه بِعبادِه المُخلِصينَ، إنّه الكهفُ الذي رَقَدَ فيه أصحابُ الكهفِ بِجُدرانِه البازِلْتيَّة السميكةِ التي بَناها الملكُ الصالحُ على الفجْوةِ التي رَقَدُوا فيها. وفوقَ الكهفِ آثارٌ لمَسجدٍ قديمٍ.

كما تُوجَدُ مجموعةٌ من الصُّورِ التُقِطَتْ قبلَ أنْ تُطمَسَ معالِمِ المكانِ نتيجةً للزَّحفِ العمرانيِّ، وفيها تظهرُ قبورُ أصحابِ الكهفِ الثمانيةِ، والصورةُ القديمةُ للكهفِ، والمسجدُ الذي أُقيمَ فَوقَهُ.

أصحابُ الكهْفِ في مَرْسِين:

يتوافدُ الأتراكُ خلالَ شهرِ رمضانَ المباركِ على مَغارةٍ في مدينةِ "طَرسُوس" بمُحافَظةِ "مَرسِين"؛ لاعتقادِهم بأنّ أصحابَ الكهفِ المَذكُورينَ في القرآنِ الكريمِ قد نامُوا فيها نومَتَهُم الطويلةَ التي امتدَّت لأكثرَ من ٢٠٠ سنة. ويُعرَفُ الكهفُ ب " مغارةِ النائِمينَ السبْعة " أو " مغارةِ أصحابِ الكهفِ "، ويتوافَدُونَ للاتِّعاظ بِقِصَّتِهِم والتوجُّهِ إلى اللهِ تعالى بالدُّعاء.

أصحابُ الكهفِ في إفْسُوس:

إفسوس مدينةٌ تُركيةٌ أثريةٌ تقعُ على بُعدِ ٧٢ كم من إزمير، ويُوجَدُ الكهفُ بسفحِ جبلِ يناير داغ على بُعدِ ١ كم منها. وهو كهفٌ لا فَجْوةَ فيه، ويَتَّجِهُ بابُه نحوَ الشمالِ الشرقيِّ، وليس عِندَه أثرُ (مسجدٍ أو صومَعةٍ أو كنيسةٍ). وهذا الكهفُ هو المتعارَفُ عليه عندَ النَّصارى، وقد وَرَدَ ذِكْرُه في عددٍ من رواياتِ المسلمينَ. وعلى الرغمِ مِن شُهرَتِه لا ينطبِقُ عليهِ ما جاءَ في الكتابِ العزيزِ.

كهوفٌ أُخْرى:

هُناكَ كهفٌ ب"البتْراء" من بلادِ "فلسطين" يُنسَبُ إلى أصحابِ الكهفِ.

وكهفٌ اكتُشِفَ في "إسكدنافية" من أوربةَ الشماليّة عَثرُوا فيه على سَبْعِ جُثَثٍ غيرِ باليةٍ على هيئةِ الرُّومانِ يُظَنُّ أنَّهُم فتيةُ أصحابِ الكهفِ.

كما يُذكَرُ أنّ بِالقُربِ من بلدةِ "نَخْجَوان" من بلادِ "القَفْقاز" كهفًا يعتقدُ أهلُ تلكَ البلادِ أنّه كهفُ أصحابِ الكهفِ، والناسُ يَقصدُونَه ويَزورُونَه، ولا يوجدُ دليلٌ قطعيٌّ يُثبِتُ أنّ أحدَ هذه الكهوفِ هو الكهفُ المذكورُ في القُرآنِ الكريمِ.

موقع المهديّ ناصر محمَّد اليمانيّ – منتديات البشرى الإسلامية والنبأ العظيم

أصحابُ الكهفِ والرَّقيم هُم في محافظةِ "ذِمار"، شرق مدينةِ "ذِمار"، شرق قرية "حُورُور"، إلى الشرقِ مِن "حِمَّة ذِياب"، في قريةِ الأقْمَر(القُمُر) جانبِ بيتِ رجلٍ يُدعى مُحمّد سعد. و"حِمَّة ذِياب" يُسمُّونها اليومَ حِمّة كِلاب. وتُوجَدُ قريةُ قومِ أصحابِ الكهفِ تحت أساسِ بُيوتِ القريةِ الجديدةِ؛ لأنّ اللّهَ خَسَفَ بهِم جبلَ الحِمَّةِ ويُسمَّى في القُرآنِ الكريم "الرَّسّ". وأمّا الكهفُ فيُوجَدُ إلى الشرقِ من "حِمَّةِ ذياب" على مسافةِ كيلو ونصفِ الكيلو متر قريبًا.

سؤال: هل خرجَ أصحابُ الكهفِ من كهفِهم بعدَ أن انقضَى لبثُهم الأوّل ثمَّ عادُوا؟ وما دليلكُ من الكِتابِ العَزيزِ على خُروجِهم بعدَ انقضاءِ لبثِهم الأوَّل وعودتِهم إلى كهفِ كهفِهم لِقضاءِ لبثِهم الثاني؟

جواب: البُرهانُ المُبينُ في مُحكَمِ القرآنِ الكريمِ على خُروجِهم من كهفِهم بعدَ انقضاءِ لبْثِ نومتِهم الأُولى هُو قولُ اللهِ تعالى: (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ) بمعنى: أنَّهُم خَرَجُوا منهُ بَعدَ مُضيّ ثلاثِ مائةِ سَنةٍ قَمريَّة.

سؤال: بعدَ أنْ بعثَهُم اللهُ تعالى بعدَ انقضاءِ لبثِهم الأوّل، هل سُئِلُوا من قِبَلِ أحدٍ حتّى يُخبِرُونَه بِقِصَّتِهم؟

الجوابُ: إنّ الحِكمةَ مِن بعثِهم هو للتساؤلِ فِيما بينَهم، ولم يتساءلُوا مع أحدٍ حتّى لا يكشِفَ اللهُ عزَّ وجلَّ سِرَّهُم إلى القَدَرِ المَقدُورِ في الكتابِ المَسطُور (**كَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ**).

سؤال: الرجلُ الذي خرجَ من الكهفِ وذهبَ إلى المدينةِ، هل أحضرَ لهُم طعامًا؟

جواب: عندما خرجَ الرجلُ من بابِ الكهفِ لم يشاهِدْ مدينةً ولا أضواءِ؛ بل ظَلامًا دامِسًا، وكان الوقتُ ليلاً؛ فاستدعى أصحابَه لينظُروا في الأمرِ؛ فعادُوا إلى الكهفِ لِينامُوا حتّى الصَّباح – وَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ خَسَفَ مدينةَ قومِهم قَبْلَ تسعةِ آلافِ سَنةٍ – فَضَرَبَ اللهُ على آذانِهم لِقَضاءِ لبثِهم الثاني تِسعَ سنواتٍ. وهُمْ لا يزالونَ حتّى هذه الساعةِ في نَومِهم لقضاءِ لبثِهم الثاني تصديقًا لقولِ اللهِ تعالى: (**وَازْدَادُوا تِسْعًا**). وأشهدَ اللهَ تعالى إنَّ زمنَ لبثِهم الأوَّل كان تِسعَ آلافِ سَنَةٍ

بحسابِ أيَّامِ البَشرِ، وإنّ زمنَ لبثِهم الثاني هو تِسعُ آلافِ سَنَةٍ بحسابِ أيَّامِ البَشر، وإنّا لصادِقونَ.

وربّما تعجَّبَ البعضُ وتساءلَ: كيف ذلكَ وكان لبثُهم الأوَّل ثلاثَ مائةِ سَنَة ! تقولُ هو تسعُ آلافِ سَنَة! ولبثُهم الثاني تِسعَ سنواتٍ، تقولُ كذلك هو تسعُ آلافِ سَنةٍ؟ وذلك بحِسابِ حركةِ ثلاثةِ كواكبَ؛(كوكبِ الشمسِ، وكوكبِ القمَر، وكوكبِ الأرضِ). وربَّما سألَ سائلٌ: هل يُوجدُ في الكتابِ العزيزِ حسابٌ قمَريٌّ وحسابٌ شَمسيٌّ؟

نعم يُوجَدُ حسابٌ شَمسيٌّ بحَركةِ الشمسِ، وحسابٌ قمَريٌّ بحركةِ القمَر؛ تصديقًا لِقولِ اللهِ تعالى: (**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**).

واعلَمُوا أنّ "الثانيةَ" الواحدةَ من ثواني القمرِ تعدِلُ ثلاثينَ ثانيةً أرضيَّةً، و"الدقيقةَ" تعدِلُ ثلاثينَ دقيقةً أرضيّةً، و"الساعةَ" تعدلُ ثلاثينَ ساعةً أرضيّة، و"اليومَ" يَعدِلُ ثلاثينَ يومًا أرضيًّا، و"الشهرَ" يَعدِلُ ثلاثينَ شهْرًا أرضيًّا، و"السَّنَةَ القمَريَّةَ" تَعدِلُ ثلاثينَ سَنةً أرضيّةً. ومِن ثَمَّ نأتي لِقولِ اللهِ تعالى: (**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ**) ويقصدُ بحسابِ السَّنةِ القمَرية. فكمْ تعدِلُ ثلاثُ مائةٍ سنينَ قمَرية بحسابِ سِنيِّ البَشر؟

ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِين X ثلاثون = تسعة آلاف سنة بحسابِ السِّنينَ الأرضيّةِ بِحسابِ أيَّامِ البشرِ نفسها – لا تزيدُ ثانيةً واحدةً ولا تنقصُ ثانية – . ومِن ثمَّ نأتي لحسابِ لبثِهم الثاني تصديقًا لِقولِ اللهِ تعالى: (**وَازْدَادُوا تِسْعًا**) أيّ: تِسْعَ سَنواتٍ

شمسيّة، وبما أنّ السَّنَةَ الشمسيَّةَ الواحدةَ تعدلُ ألفَ سَنَةٍ من سنيِّ البَشر فهي تعدلُ تسعَ آلافِ سَنةٍ ممّضا تعدُّونَ، وتُساوي لَبْثَهم الأوَّلَ ولبثِهم الثاني، فلم تَزِد ثانيةً أو تنقصْ ثانيةً واحدةً برغمِ إنّ الحِسابَ لم يكنْ بحسابِ حركةِ كوكبٍ واحدٍ؛ بل اشتركَ فيها حسابُ حركةِ (القمرِ والشمسِ والأرضِ)[1].

فرَضيَّةُ مركزِ نُون للدِّراساتِ القُرآنيّة

إنَّ كهفَ أصحابِ الرَّقيم هو كهفُ صخرةِ بيتِ المَقدِس. ولقد جاءتْ هذه الفرْضيَّة نتيجةَ ملاحظاتٍ في أبحاثٍ ودراساتٍ سابقةٍ، ثُمَّ أُيِّدَتْ هذه المُلاحَظاتُ بأنماطٍ رقْميّةٍ قرآنيّةٍ رأينا أنَّها كافيةً لجَعلِ هذه الفرْضيَّةِ مَوضوعًا للنِّقاشِ الجادِّ؛ حيث أنّ الأقوالَ كلَّها التي حدَّدتْ مكانَ الكهفِ في (الأردنَّ أو تُركيّا) أو غيرها مِن المَواقِع لم تستندْ إلى أدلَّةٍ مُقنعَةٍ للأسبابِ التالية:

أ – يجبُ أن يستندَ القولُ – في قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ – إلى دليلٍ تقومُ به الحُجَّةُ.

ب – لا يصحُّ أن يُرجَعَ في القِصَّة التاريخيَّةِ التي جاءتْ في القرآنِ الكريم إلى ما عندَ الناسِ من أقوالٍ وتفصيلاتٍ.

ج – إذا كان الناسُ لا يَملِكُونَ الحقيقةَ في هذه المسألةِ؛ فليسَ أمامَهُم إلاّ طريقٌ واحدٌ ألاَ وهُو الوحيُ الرَّبَّانيُّ (**نَحْنُ نَقُصُّ عليكَ نَبأهُمْ بِالحَقِّ**).

مِن المَعلومِ أنّ ترتيبَ سُورةِ "الإسراء" في القُرآنِ الكريمِ ١٧ تليها سُورة الكهفِ ١٨ وتليها سُورةُ مَريم ١٩ ومِن المعلومِ أيضًا أنّ أحداثَ الإسراءِ كانت في فلسطين، وأنّ

[1] موقع المهديّ ناصر محمَّد اليمانيّ - منتديات البشرى الإسلامية والنبأ العظيم

أحداثَ قِصَّةِ مَريم عليها السلامُ كانت في فلسطينَ؛ فلماذا لا تكونُ أحداثُ قصَّةِ أصحابِ الكهفِ في فلسطينَ أيضًا. وقد جاءَ في القُرآنِ الكريمِ أنّ أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ من أجلِ العبادةِ هو "الكعبةُ المُشرَّفةُ" قال اللهُ تعالى: (**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**) (آل عمران: ٩٦).

وعنْ أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: " قُلْتُ يا رسولَ اللهِ أيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ في الأرضِ أوَّل؟

فقالَ: المَسجِدُ الحَرامُ.

قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ ثُمَّ أيٌّ؟

قال: المَسجِدُ الأقصَى.

قُلْتُ: فَكَمْ بينَهُما؟

قالَ: أربعونَ سَنَةً، ثُمَّ حيثُ ما أدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ فَصَلِّ فَهُوَ لَكَ مَسْجِدٌ" (صحيحُ البُخاريّ).

ونتيجةً لِغَفلَةِ الناسِ وتَطاوُلِ السِّنينَ اندثرَتْ معالِم المَسجِدَينِ. ثمَّ بعثَ اللهُ تعالى إبراهيمَ عليهِ السلامُ فأعادَ بناءَ الكعبةِ بعدَ أنْ بيَّنَ الوحيُ لَهُ مَوضِعَها.

وقد يكونُ النبيُّ الذي آمنَ به الفِتيةُ هو الذي بينّ مكانَ المَسجدِ الثاني " الأقصَى" وكان من نتيجةِ حادثةِ الكهفِ أنْ بنَى الناسُ المسجدَ الأقصَى في مَوضِعِه الأصليِّ؛ أيّ فوقَ الكهفِ الذي تحتَ صَخْرةِ بيتِ المَقدِس.

ويجبُ التنويهُ بأنّ المسجِدَ الأقصَى بدأ بِصَخرةِ بيتِ المَقدِس لِتُصبِحَ مساحتُه اليومَ ما يُقارِبُ ١٤٤ دونمًا. والظاهِرُ أنّ الكهفَ كان مَعروفًا لِلفِتيةِ قبلَ فِرارِهِم إليهِ؛ إذ

كانُوا يتعبَّدُونَ اللهَ عزَّ وجلَّ فيهِ، ويُعزِّزُ هذا الرأيَ استخدامُ " ال " في كلمةِ الكهفِ في قولِه تعالى (**فأوُوا إلى الكَهْفِ**) ولم يَقُلْ: "فأووا إلى كَهْفٍ"، ويبدُو أنّه كانَ في مَوضعٍ مَهجورٍ كمَوضعِ الكعبةِ في زمنِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ، وكان ذلكَ في حدودِ عام ٢٧٦٠ ق.م وكانتِ الصخرةُ على رأسِ جبلٍ لا يُحيطُ به بِناءٌ، ولا يُوجَدُ بالقُربِ منه مدينةٌ كما هو اليوم. وتدلُّ الدِّراساتُ على أنّ بِناءَ مدينةِ "القُدسِ" كان أحدثَ من التاريخِ المذكورِ – عِلمًا بأنَّ مساحةَ الصخرةِ أكثرُ مِن ضِعفَي مساحةِ "الكعبةِ المُشرَّفةِ"، وأنّ الكهفَ يقعُ في الجنوبيِّ مِنها، وبابُه باتِّجاهِ القِبلَةِ واللهُ تعالى أعلى أعلمُ.

أقوال المفسرين

تفسيرُ الطَّبريِّ

يقولُ تعالى ذِكْرُهُ لِنَبيِّه مُحمَّدٍ صلّى اللّٰهُ عليهِ وسلمَ (أَمْ حَسِبْتَ) يا مُحمَّدُ (أنّ أصحابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كانُوا مِن آياتِنا عَجَبًا) فإنّ ما خَلَقْتُ مِن السَّماواتِ والأرضِ وما فِيهنَّ من العجائِب أعجبُ من أمْرِ أصحابِ الكهفِ، وحُجَّتِي بِكُلِّ ذلك ثابتةٌ على هؤلاءِ المُشرِكينَ مِن قومِكَ وغَيرِهِم من سائرِ عِبادي.

وعن مُجاهدٍ قال: لَيسُوا بأعجَب آياتِنا، وقال الحارثُ: لَيسُوا أعجبَ آياتِنا.

وعن قتادةَ: قد كانَ مِن آياتِنا ما هو أعجبُ مِن ذلكَ.

قال ابنُ إسحاق: ما قَدَرُوا مَن قَدْرٍ فِيما صَنَعْتُ مِن أمرِ الخلائِقِ، وما وَضَعْتُ على العِبادِ من حُجَجِي ما هُو أعظمُ مِن ذلك.

وقال ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللّٰهُ عنهُما: الذي آتَيتُكَ مِن العِلْمِ والسُّنَّةِ والكِتابِ أفضلُ مِن شأنِ أصحابِ الكهْفِ والرَّقيم.

والقول الأوَّلُ أولَى بتأويلِ الآيةِ؛ لأنّ اللّٰهَ عزَّ وجلَّ أنزلَ قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ على نبيِّهِ احتِجاجًا بها على المُشرِكينَ مِن قومِه على ما ذَكرْنا في الرِّوايةِ عن ابنِ عبَّاسٍ؛ إذ سألُوه عنْها اختباراً منهُم له بالجوابِ عنها صدقه، فكان تقريعُهم بتكذيبِهم بما هو أوكدُ عليهِم في الحُجَّةِ ممّا سألُوا عنهُم، وزعَمُوا أنَّهُم يُؤمِنونَ عند الإجابةِ عنهُ أشبهُ من الخَبرِ عمّا أنعمَ اللّٰهُ على رسولِه مِن النِّعَمِ.

وأمَّا "الكهفُ" فهو كهفُ الجبلِ الذي أوى إليه الفِتيَةُ. وأمّا "الرَّقيم" فقال بعضُهم: هو اسمُ "قريةٍ"، أو هو "وادٍ" على اختلافٍ بينَهُم في ذلك؛ فعَن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: الرَّقيمُ هو "وادٍ" بينَ عسْفان وأيَلةَ دونَ فلسطين.

وعن عطيَّةَ: الرَّقيمُ "وادٍ". وعن قتادةَ "الرَّقيم": هو الوادي الذي فيه أصحابُ الكهفِ. وعن الضَّحَّاك: الكهفُ هو "غارُ الوادي"، والرَّقيمُ هو "اسم الوادي".

وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ: الرقيم "لوحٌ" من حِجارَةٍ كتبُوا فيه قصَّةَ أصحابِ الكهفِ، ثمَّ وضعُوه على بابِ الكهفِ. وعن ابن زيدٍ: الرقيمُ "كِتاب"؛ ولذلكَ الكتابِ خَبرٌ فلمْ يُخْبِرِ اللهُ عن ذلكَ الكتابِ وعمَّا فيهِ، وقرأ: (**كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ**). وقيل الرقيمُ هو "الجبل" الذي فيه الكهفُ، واسمُ ذلكَ الجبلِ "بنجلوس" أو "بناجلوس"، واسمُ الكهفِ "حيزم"، والكلب "حُمران".

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قال: كُلُّ القُرآنِ أعلمُه؛ إلاّ (حَنانًا، والأوّاه، والرَّقيم). وقال أيضًا: ما أدري ما الرَّقيمُ؛ أكتابٌ أمْ بُنيانٌ؟

وأولى هذه الأقوالِ بالصَّوابِ في "الرَّقيم" أن يكون معناهُ: "لوحٌ، أو حَجَرٌ، أو شيءٌ كُتِبَ فيه كتابٌ".

وقال أهلُ الأخبارِ: إنّه لوحٌ كُتِبَ فيه أسماءُ أصحابِ الكهفِ وخَبرُهُم حينَ أوَوْا إلى الكهفِ ورُفِعَ في خِزانةِ المَلِكِ، وقال بعضُهم: بلْ جُعِلَ على بابِ كهفِهم.

(**إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ**) حين أوى فِتيةُ أصحابِ الكهفِ إلى كهفِ الجبلِ هَرَبًا بدِينِهم إلى اللهِ.

(فقالوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً) رَغْبةً منهُم إلى ربِّهم في أنْ يَرزُقَهُم مِن عِندِه رحمةً.

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) أيّ: يَسِّرْ لنا بما نبتغي وما نَلتَمِسُ مِن رِضاكَ والهَرَبِ مِن الكُفْرِ بكَ، ومِن عبادةِ الأوثانِ التي يدعُونا إليها قومُنا.

(رَشَدا) أيّ: سَداداً إلى العملِ بالذي تُحِبُّ.

وقد اختلفَ أهلُ العلمِ في سببِ مصيرِ هؤلاءِ الفِتيةِ إلى الكهفِ الذي ذَكَرُه اللهُ في كتابِه؛ فقالَ بعضُهم: كانتِ الفِتيةُ على دِينِ عيسى على الإسلامِ، وكان مَلِكُهُم كافراً، وقد أخرجَ لهُم صنَماً، فأبَوا وقالوا: **(رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)**. فاعتزلُوا عن قومِهم لِعبادةِ اللهِ، فقالَ أحدُهم: إنّه كان لأبي كهفٌ يأوي فيه غَنَمه، فانطلِقُوا بِنا نَكُنْ فيهِ فَدَخَلُوه، وفُقِدُوا في ذلك الزَّمانِ فطُلِبُوا، فقيلَ: دخلُوا هذا الكهفَ. فقالَ قومُهم: لا نُريدُ لهُم عُقوبةً ولا عَذاباً أشدَّ من أنْ نَردِمَ عليهِم هذا الكهفَ، فبَنَوهُ عليهِم ثمَّ رَدَمُوه. ثمَّ إنَّ اللهَ بعثَ عليهِم مَلِكًا على دِين عِيسى، ورفعَ ذلك البناءَ الذي كان رُدِمَ عليهِم، فقالَ بعضُهم لِبعضٍ: كَمْ لَبِثْتُمْ؟ فقَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ... فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ وكان وَرِقُ ذلك الزمانِ كِباراً، فأرسلُوا أحدَهُم يأتيهِم بطعامٍ وشرابٍ، فلمّا خرجَ رأى على بابِ الكهفِ شيئًا أنكرَهُ، فأرادَ أن يرجِعَ، ثمَّ مضَى حتّى دخلَ المدينةَ، فأنكرَ ما رأى، ثمَّ أخرجَ درهَماً، فنَظَرُوا إليهِ فأنكَرُوه وأنكَرُوا الدِّرهَمَ وقالوا: مِن أينَ لكَ هذا؟ هذا مِن وَرِق غيرِ هذا الزمانِ،

واجتمَعُوا عليه يَسألُونَه، فلمْ يَزالُوا بهِ حتَّى انطلَقُوا بهِ إلى مَلِكِهِم، وكان لِقَومِهِم "لَوحٌ" يكتبونَ فيهِ ما يكونُ، فنظرُوا في ذلك اللوحِ، وسألَهُ الملكُ فأخبرَه بأمرِه، ونظرُوا في الكتابِ متى فُقِدَ، فاستبْشَرُوا بهِ وبأصحابِه، وقِيلَ لهُ: انطلقْ بِنا فأَرِنا أصحابَكَ. فانطلقَ وانطلَقُوا معهُ؛ فدخلَ قبلَ القومِ، فَضُرِبَ على آذانِهم، فقالَ الَّذِينَ غَلَبُوا على أمْرِهِم: (**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا**).

وقال ابنُ إسحاق: مَرِج أمرُ أهلِ الإنجيلِ، وعظُمتْ فيهِمُ الخطايا، وطغَتْ فيهِم الملوكُ؛ حتّى عبدُوا الأصنامَ، وذبَحُوا للطواغيتِ، وفيهِم على ذلك بقايا على أمرِ عيسى ابنِ مريمَ مُتمَسِّكُونَ بعبادةِ اللهِ وتوحيدِه. وكان ممَّن فعلَ ذلك من مُلوكِهم مَلِكٌ من الرُّومِ يُقال له "دَقْيَنوس"، كان قد عبدَ الأصنامَ، وذبحَ للطواغيتِ، وقتلَ مَن خالفَهُ في ذلكَ ممَّنْ أقامَ على دِين عيسى بن مريمَ. فلمّا نزلَ "دقينوس" بمدينةِ فتيةِ أصحابِ الكهفِ كَبُرَ ذلك على أهلِ الإيمانِ، فاستخْفُوا منهُ وهَرَبُوا في كلِّ وَجْهٍ. فلمّا رأى ذلكَ فِتيةُ أصحابِ الكهفِ حَزِنُوا حُزنًا شديداً؛ حتّى تغيَّرتْ ألوانُهم، ونَحِلتْ أجسامُهم، واستعانُوا بالصلاةِ والتضرُّعِ إلى اللهِ – وكانوا فِتيةً أحداثًا أحراراً من أبناءِ أشرافِ الرُّومِ – وجَعلُوا يقولونَ: اللهُمَّ ربَّ السَّماواتِ والأرضِ، لنْ نَدعُوَ من دُونِكَ إلهًا لَقَدْ قُلْنَا إذًا شَطَطًا، اكشِفْ عن عبادِكَ المؤمنينَ هذه الفِتنةَ وادفعْ عنهُم البلاءَ وأنعِمْ على عِبادِكَ الذينَ آمنُوا بكَ، ومُنِعُوا من عِبادتِكَ إلاّ سرًّا؛ حتّى يعبُدوكَ علانيةً. فبينَما هُمْ على ذلكَ عرَفَهُمُ الكُفَّارُ، ودَخَلُوا عليهِم مُصلَّاهُم، فَوجَدُوهُم سُجوداً على وُجوهِهِم يَتضرَّعُونَ ويَبْكُونَ ويَرغَبُونَ إلى اللهِ أن يُنْجِيهِم مِن "دقينوس" وفِتنَتِه. فَرَفَعُوا أمرَهُم إلى "دقينوس"،

فبعثَ إليهِم وقال لهُم: ما مَنَعَكُمْ أن تَشْهَدُوا الذَّبْحَ لآلِهَتِنا وتجَعلُوا أنفُسَكُم أُسْوةً لِسَراةِ أهلِ مَدينَتِكُم ولِمَن حَضَرَ مِنَّا مِن الناسِ؟

اختارُوا مِنّي: إمّا أنْ تذبَحُوا لآلِهَتِنا كما ذَبَحَ الناسُ، وإمّا أنْ أقتُلَكُم ! فقالُوا: إنَّ لَنا إلهًا نَعبُدُه مَلأتِ السمواتِ والأرضَ عظَمتُه لنْ نَدعُوَ مِنْ دُونِه إلهًا أبدًا، ولنْ نُقِرَّ بهذا الذي تَدعُونا إليهِ أبدًا. فأمَرَ بِهِمْ فَنَزَعَ عنْهُم لَبُوسًا كان عليهِم مِن لَبوسِ عُظمائِهم، ثمَّ قالَ: أمّا إذ فعلْتُمْ ما فَعلْتُم فإنِّي سأؤخِرُكُمْ رَغْبَةً في أن تكونُوا مِن بِطانَتي وأهلِ مَملَكَتِي وما يَمنَعُنِي أن أُعَجِّلَ العُقوبَةَ لكُمْ إلاّ أنّي أراكُمْ فِتيانًا حديثةً أسنانُكُم، ولا أحِبُّ أنْ أُهْلِكَكُمْ حتّى أستأنّي بِكُمْ، وأنِّي جاعِلٌ لكُمْ أجلاً تُراجِعُونَ عُقولَكُم. ثمَّ أمرَ بهِم فأخُرِجُوا مِن عِندِه، فلمّا رأى الفِتيةُ ذلك أتَمَرُوا بينهُم أن يأخُذَ كلُّ واحدٍ مِنهُم نفقةً من بيتِ أبيهِ فيتصدّقَ مِنها ويتزوّدَ بِما بَقِيَ. ثُمَّ انطلَقُوا إلى كهفٍ قريبٍ من المدينةِ في جبلِ" بنجلوس" وتَبِعَهُم كَلْبٌ لهُم، فَلبِثُوا فيهِ ليسَ لهُم عملٌ إلاّ الصلاةُ والدعاءُ إلى اللهِ تعالى، وجعلُوا نفقتَهُم إلى فتىً مِنهُم يُقالُ له "يمليخا"، فكان يبتاعُ لهُم أرزاقَهُم من المدينةِ سِرًّا ويأتيهِم بالأخبارِ، فَلبِثُوا بذلكَ ما لَبِثُوا، فبينَا هُمْ على ذلكَ إذ ضَرَبَ اللّهُ على آذانِهِم في الكهفِ سِنينَ عددًا، وكَلبُهُم باسطٌ ذِراعَيهِ بِبابِ الكهفِ. فلمّا عَلِمَ بهِم المَلِكُ أمرَ بِبابِ الكهفِ فُسُدَّ عليهِم وهُوَ يظنُّ أنَّهُم أيقاظٌ يَعلمونَ ما يَصنعُ بهِم، وقد تَوَفّى اللّهُ أرواحَهُم وفاةَ النَّومِ، وكَلْبُهُم باسطٌ ذِراعَيهِ بِبابِ الكهفِ قد غَشَّاهُ اللّهُ ما غشَّاهُم، يُقلَّبُونَ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ. ثمَّ إنّ رَجُلَينِ مُؤمِنَينِ كانا في بيتِ المَلِكِ "دقينوس" يكتُمانِ إيمانَهُما فأتمَرا أنْ يكتُبا شأنَ الفِتيةِ أصحابِ الكهفِ وأسماءهُم وأسماءَ

آبائهِم وأنسابَهُم وقِصَّة خَبَرِهِم في لوحَينِ من الرَّصاصِ وَضَعُوهُما في "تابُوتٍ" من نُحاسٍ بين ظَهرانيِّ البُنيانِ، وقالا لعلَّ اللهَ أنْ يُظْهِرَ على هَؤلاءِ الفِتيةِ قومًا مُؤمِنينَ قبلَ يومِ القيامةِ، فيعلَمَ مَن فَتَحَ عليهِم حين يقرأُ هذا الكتابَ خَبرَهُم. وبَقِيَ "دقينوس وقرنه" ما شاءَ اللهُ أن يبْقَوا، ثمَّ هلَكُوا وقُرونًا بعدَه كثيرةٌ، وخلفَتِ الخُلوفُ بعدَ الخُلوفِ.

قال مُجاهِدٌ: كان أصحابُ الكهفِ أبناءَ عُظماءِ مَدينتِهم وأهلِ شَرفِهم، فخَرجُوا فاجتمعُوا وراءَ المدينةِ على غيرِ ميعادٍ، فقالَ رَجُلٌ مِنهُم هو أسنُّهُم: إنّي لأَجِدُ في نفْسي شيئًا ما أظنُّ أنَّ أحدًا يَجِدُه. قالوا: ماذا تجَدُ؟ قال: أجدُ في نَفْسي أنّ ربِّي ربُّ السَّماواتِ والأرضِ، فقالوا ونحنُ نَجِدُ كذلكَ، فقامُوا جميعًا وقالوا: "رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا". واجتمَعُوا أن يَدخلُوا الكهفَ وعلى مَدينَتِهم؛ إذ ذاك جبَّارٌ يُقالُ له "دقينوس"، فلَبِثُوا فيهِ ثلاثمائةٍ سِنينَ وازدادُوا تِسعًا وَهُمْ رُقودٌ.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُبَيدِ بنِ عُميرٍ قال: كان أصحابُ الكهفِ فِتيانًا مُلوكًا مُطَوَّقينَ مُسَوَّرينَ ذَوي ذوائِبَ، وكان معهُم كلبُ صَيدِهِم، فَخرَجُوا في عيدٍ لهُم عظيمٍ في زِيٍّ ومَوكبٍ، وأخرَجُوا معهُم آلهَتَمُ التي يَعبُدونَ، فَقذَفَ اللهُ في قلوبِ الفتيةِ الإيمانَ فآمَنُوا، وأخفَى كلُّ واحدٍ منهُم الإيمانَ عن صاحبِه، وقالُوا في أنفُسِهم مِن غيرِ أنْ يظهرَ إيمانُ بعضِهم لِبَعضٍ لِنَخرُجَ مِن بينِ أظهُرِ هؤلاءِ القومِ حتّى لا يُصيبنَا عِقابٌ بِجرمِهم، فخَرجَ شابٌ مِنهُم حتّى انتهى إلى ظلِّ شجرةٍ فجلسَ فيهِ، ثمَّ خَرجَ

آخرُ فرآه جالِسًا وحدَه، فرَجا أن يكونَ على مِثلِ أمرِه مِن غَيرِ أن يَظهَرَ منهُ، فجاءَ حتّى جلسَ إليهِ، ثمَّ خرجَ الآخَرونَ. فلمّا اجتمَعُوا قال بعضُهُم ما جمعَكُم؟

وقال آخرُ: بلْ أنتُم ما جمعَكُم؟

وكلٌّ يكتُم إيمانَه مِن صاحبِه مخافةً على نفْسِه، ثمَّ قالُوا: لِيَخرُجْ مِنكُم فَتَيانِ فيخْلُوَا، فيتواثَقا أنْ لا يُفْشِيَ واحدٌ مِنهُما على صاحبِه، ثمَّ يُفْشِي كلٌّ واحدٍ مِنهُما لِصاحبِه أمرَه، فإنّا نرجُو أن نكونَ على أمرٍ واحدٍ، فَخرَجَ فتيانِ منهُم فتواثَقا، فذَكَرَ كلٌّ واحدٍ منهُما أمرَه لِصاحبِه، فأقبَلا مُسْتَبْشِرَينِ إلى أصحابِهما قد اتَّفَقا على أمرٍ واحدٍ، فإذا هُم جميعًا على الإيمانِ، وإذا كهفٌ في الجبلِ قريبٌ منهُم، فقالَ بعضُهم لِبعضٍ: ائتُوا إلى الكهفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا. فَدَخَلُوا الكهفَ ومعهُم كلبُ صيدِهم فنامُوا، فجعلَه اللّهُ عليهِم رقدةً واحدةً، فنامُوا ثلاثمائةٍ سِنينَ وازدادُوا تِسعًا. قال: وفَقَدَهُمْ قَومُهُم فَطلبُوهُم وبَعثُوا البرد، فعمَّى اللّهُ عليهِم آثارَهُم وكهفَهُم، فلمَّا لم يَقدِرُوا عليهِم كتبُوا أسماءَهُم وأنسابَهُم وتاريخَ فَقْدِهِم في لوحٍ ورفعُوا اللوحَ في الخِزانةِ، فماتَ ذلك المَلِكُ وغَلَبَ عليهِم مَلِكٌ مُسْلِمٌ مع المُسلِمينَ، وجاءَ قرنٌ بعدَ قرنٍ، ولبثُوا في كهفِهم ثلاثمائةٍ سِنينَ وازدادُوا تِسْعًا ثمَّ بعثَهُم اللّهُ لِيَعلَمَ أيُّ الحِزْبَينِ أحصَى لِما لَبِثُوا أمدًا.

وعن وهبِ بنِ مُنبِّهٍ قال: جاءَ حواريّ عِيسى بنِ مريمَ إلى مدينةِ أصحابِ الكهفِ، فأرادَ أنْ يدخلَها، فقيلَ لهُ: إن على بابِها صنمًا لا يدخلُها أحدٌ إلاّ سَجَدَ لَهُ فَكَرِهَ أن يدخُلَها، فأتى حَمَّامًا قريبًا مِن تلكَ المدينةِ، فكانَ يعملُ فيهِ يُؤاجِرُ نفْسَه من صاحبِ الحمَّامِ، ورأى صاحبُ الحمَّامِ في حمَّامِه البركةَ ودَرَّ عليهِ الرِّزقُ. ثمَّ إنَّه

عَرَضَ عليه الإسلامَ، وجَعَلَ يَسترسِلُ إليه، وعَلقَهُ فِتيةٌ من أهلِ المدينةِ، وجعلَ يُخبرِهُم خبرَ السماءِ والأرضِ وخبرَ الآخِرةِ، حتّى آمنُوا بهِ وصَدّقُوه، وكانُوا على مِثْلِ حالِه في حُسْنِ الهيئةِ، وكان يَشترِطُ على صاحبِ الحمَّامِ أنّ الليلَ لي لا تحولُ بيني وبين الصلاةِ إذا حَضرَتْ، فكانَ على ذلك حتّى جاءَ ابنُ المَلِكِ بامرأةٍ فَدَخَلَ بها الحمَّامَ، فَعَيَّرَهُ الحواريُّ وقال: أنتَ ابنُ المَلِكِ وتُدْخِلُ مَعَكَ هذه النَّكْداءَ، فاستحيا فذَهبَ. فرجعَ مرّةً أُخْرى فقالَ له مِثلَ ذلكَ، فسَبَّهُ وانتَهَرهُ ولم يلتفِتْ حتّى دَخَلَ وَدخَلتْ معهُ المرأةُ فماتا في الحمّامِ جميعًا، فأتِيَ الملِكُ وقيلَ لهُ: قتلَ صاحبُ الحمَّامِ ابنكَ، فالتُمِسَ فلمْ يَقْدِرْ عليه هَربا، قال: مَن كان يَصحَبُه؟ فسمَّوا الفِتيةَ، فالتُمِسُوا، فَخَرَجُوا من المدينةِ، فَمَرُّوا بصاحبٍ لهُم في زرعٍ لهُ وهوَ على مِثْلِ أمرِهِم، فَذكَرُوا أنَّهُم التُمِسُوا، فانطلقَ مَعهُم الكلبُ، حتّى آواهُم الليلُ إلى كهفٍ فَدَخَلُوهُ وقالوا نبيتُ ها هُنا الليلةَ، ثمَّ نُصبِحُ إنْ شاءَ اللّهُ فَترونَ رأيَكُم، فَضربَ على آذانِهم. فخَرجَ المَلِكُ في أصحابِه يتبعُونَهُم حتَّى وجَدُوهُم قد دخَلُوا الكهفَ، فكلمَّا أرادَ رجلٌ أن يدخلَ أُرعِبَ، فلم يُطِقْ أحدٌ أن يَدخُلَهُ، فقالَ قائلٌ: أليسَ لو كُنتَ قَدَرتَ عليهِم قتلْتَهُم؟ قال: بلى، قال: فابْنِ عليهِم بابَ الكهفِ وَدَعْهُم فيه يمُوتوا عَطشًا وجُوعًا ففعلَ.

(فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ) أيّ: ألقَينا عليهِمُ النومَ، كما يقولُ قائلٌ لآخَرَ: ضَرَبَكَ اللّهُ بالفالِجِ، بمعنى: ابتلاهُ اللّهُ بهِ وأرسلَهُ عليه.

(سِنِينَ عَدَدًا) يعني سِنينَ مَعدُودةً.

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ) أيّ: ثمَّ بَعثنا هؤلاءِ الفتيةِ الَّذين أوَوْا إلى الكهفِ – بعدَ ما ضَرَبْنا على آذانِهم فيهِ سِنينَ عَدداً – مِن رَقْدَتِهم، لِينظُرَ عِبادي فيَعلَمُوا بالبحثِ أيُّ الطائفتَينِ اللتَينِ اختلفَتا في قَدْرِ مُكْثِ الفِتيةِ في كهفِهم رُقوداً.

(أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) أيّ: أصوبَ لِقَدرِ لِبثِهم فيه أمداً، ويعني بالأمدِ: الغايةَ، كما قال النابغةُ:

إلاّ لِمِثْلِكَ أوْ مَنْ أنْتَ سابِقُهُ سَبْقَ الجَوَادِ إذا اسْتَوْلَى على الأمَدِ

وذُكر أنّ الَّذينَ اختلفُوا في ذلكَ هُم مِن قومِ الفِتية. فقالَ بعضُهم: كان الحِزبانِ جميعًا كافِرينَ. وقال بعضُهم: بلْ كان أحدهُما مُسلِمًا والآخَرُ كافراً. وعن قتادةُ: ما كان لِواحدٍ مِن الفريقينِ عِلْمٌ، لا لِكُفَّارِهم ولا لِمُؤمنِيهِم.

ومعنى أمَداً: بعيداً، وقال آخرونَ عدداً.

وفي نصبِ أمَداً وجْهانِ: أحدهُما أن يكونَ منصوباً على التفسيرِ من قولِه أحْصَى، كأنّه قال: أيّ الحِزْبَينِ أصوبُ عَدداً لِقَدرِ لِبثِهم. والآخُر: أنْ يكونَ منصوباً بِوُقوعِ لَبِثُوا عليه، كأنَّه قال: أيّ الحِزْبَينِ أحصَى لِلبْثِهم غايةً.

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ) أيّ: نحنُ يا مُحمَّدُ نَقُصُّ عليكَ خبرَ هؤلاءِ الفِتيةِ الذينَ أوَوْا إلى الكهفِ بالصِّدقِ واليقينِ الذي لا شكَّ فيهِ.

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ) أيّ: إنّ الفِتيةَ الَّذينَ أوَوْا إلى الكهفِ الَّذينَ سألكَ عن نبئهِم الملأُ مِن مُشْرِكي قومِكَ هُمْ فِتيةٌ آمنُوا بربِّهِم.

(وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) أيّ: وزِدْناهُم إلى إيمانِهم بربِّهم إيمانًا وبصيرةً بِدينِهم حتّى صَبَرُوا على هِجْرانِ قَومِهم، والهرَبِ من بينِ أظهُرِهم بِدينِهم إلى اللهِ، وفِراقِ ما كانوا فيهِ مِن خَفْضِ العيشِ ولِينِه، إلى خُشونَةِ المُكْثِ في كهفِ الجبلِ،

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ) أيّ: وألهمْناهُمُ الصبْرَ، وشَدَدنا قلوبَهُم بِنُورِ الإيمانِ حتّى عَزفَتْ أنفُسُهم عمّا كانُوا عليهِ مِن خَفْضِ العيشِ كما قال قتادة.

(إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أيّ: حين قامُوا بين يدَي الجبَّارِ "دقينوس"، فقالُوا لُهُ: رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وما فيهِما مِن شيءٍ، وآلهتُكَ مَربُوبةٌ، وغيرُ جائزٍ لنا أنْ نَتْرُكَ عِبادةَ الرَّبِّ ونَعبُدَ المَربُوبَ.

(لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا) أيّ: لنْ نَدعُو مِن دونِ رَبِّ السَّمواتِ والأرضِ إلهًا؛ لأنَّه لا إلهَ غَيرُه، وإنَّ كُلَّ ما دُونَهُ فهُو خَلْقُه.

(لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) أيّ: لئنْ دَعُونا إلهًا غيرَ إلهِ السَّماواتِ والأرضِ، لقد قُلْنا إذنْ بِدُعائِنا غَيرَه إلهًا. وشَطَطًا مِن القولِ: كذبًا وغُلوًّا ومُجاوِزًا مِقدارَهُ في البطلِ كما قال قتادةُ. وقال ابنُ زيدٍ: الشَّطَطُ هو الخطأُ مِن القولِ.

(هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) أيّ: هؤلاءِ قَومُنا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلهةً يَعبُدونَها، فهَلاّ يأتُونَ على عِبادتهِم إيَّاها بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ، وفي الكلامِ محذوفٌ اجْتُزِئَ بما ظَهَرَ عمّا حُذِفَ؛ فالهاءُ والميمُ في " عَليهِم " مِن ذِكْرِ الآلهةِ، والآلهةُ لا يُؤتَى عليها بِسُلطانٍ،

ولا يَسألُ السلطانُ عليها؛ وإنّما يسألُ عابدُوها السلطانَ على عِبادتِهم لها، فإذا كان الأمرُ كذلكَ، فمعنَى الكلامِ: لولا يأتُونَ على عِبادتهِم لها واتِّخاذِهم لها آلهةً مِن دُونِ اللهِ بِسُلطانٍ بيِّنٍ. قال قتادةُ: بِعُذْرٍ بيِّنٍ. وعَنَى بِقَولِهم: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، أيّ: ومَن أشدُّ اعتِداءً وإشراكًا باللهِ مِمَّنْ اختلقَ فتخرَّصَ على اللهِ كَذِبًا وأشركَ مَعَهُ في سُلطانِه شريكًا يَعبُدهُ مِن دُونِه ويتَّخذُه إلهًا.

(وَإِذِاعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ) يقولُ تعالى ذِكْرُهُ مُخبِرًا عن قولِ الفِتيةِ بعضِهم لِبَعضٍ: وإذِ اعْتَزَلْتُمْ قومَكُمُ الَّذِينَ يَعبدُونَ مِن الآلهةِ غَيرَ اللهِ.

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ) أيّ: فَصِيروا إلى غارِ الجبلِ، وهذا القولُ جوابٌ ل " إذ "، كأنّ معنَى الكلامِ: وإذ اعْتَزَلْتُمْ أيُّها القَومُ قومَكُمْ، فأْوُوا إلى الكهفِ، كما يُقالُ: إذا أذنَبْتَ فاستَغْفِرِ اللهَ وتُبْ إليه.

(يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ) أيَّ: يَبْسُطْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِن رَحْمَتِهِ بتيسيرِه لكُمْ المخْرَجَ مِن الأمرِ الذي قد رُمِيتُم بهِ مِن الكافِرِ "دقينوس" وطلبِه إيَّاكُم لِعَرضِكُمْ على الفِتنةِ.

(وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا) أيّ: ويُيَسِّرُ لكُمْ مِن أمرِكُم الذي أنتُم فيهِ مِن الغَمِّ خَوفًا على أنفُسِكُمْ ودِينِكُم ما ترتفِقُونَ بهِ مِن شيءٍ.

(وَتَرَى الشَّمْسَ) يا مُحمَّدُ.

﴿إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ تَزَاوَرُ: تَعدلُ وتميلُ، مِن الزّوَرِ وهو الْعَوجُ والمَيلُ، يُقالُ: في هذهِ الأرضِ زَوَرٌ، إذا كان فيها اعوجاجٌ، وفي فُلانٍ عن فُلانٍ ازْوِرارٌ، إذا كان فيهِ عنه إعراضٌ، ومنهُ قولُ بِشْرِ بن أبي حازمٍ:

يَؤُمُّ بِها الحُدَاةُ مِياهَ نَخْلٍ وفيها عَنْ أبانَين ازْوِرَارُ

يعني: إعراضًا وصدًّا. وقرأتْ عامَّةُ قرّاءِ المَدينةِ ومكَّةَ والبَصرةِ "تزَّاوَرُ" بتشديدِ الزَّاي؛ بمعنى: تتزاورُ بتاءينِ، ثمَّ أدغمَ إحدى التاءينِ في الزَّاي، كما قيلَ: تظَّاهَرُونَ عليهِم. وقرأ عامَّةُ قرَّاءِ الكُوفيينَ "تَزَاوَرُ" بتخفيفِ التاءِ والزاي؛ كأنّه عنَى به تفاعلَ مِن الزَّوَرِ، ورُوِيَ عن بعضِهم "تَزْوَرُّ" بتخفيفِ التاءِ وتسكينِ الزَّاي وتشديدِ الرَّاءِ مِثل تحمرُّ، وبعضِهم "تَزْوَارّ" مِثل تحَمارّ. والصوابُ مِن القولِ أنَّهُما قِراءتانِ مُتقارِبتا المعنى، فبأيَتِهما قرأ القارئُ فمُصيبٌ الصوابَ. وأمّا القِراءتانِ الأُخريانِ فإنَّهُما قِراءتانِ لا أرى القِراءةَ بهِما – وإنْ كان لهُما في العربيةِ وَجْهٌ مفهومٌ. وعن سعيدِ بنِ جُبيرٍ قال: تَزَاوَرُ أيّ تميلُ. وعن ابنِ عبَّاسٍ قال: تميلُ عن كهفِهم يمينًا وشِمالاً. وعن قتادةَ قال: تدعُهُم ذاتَ اليمينِ. وعن ابنِ عبَّاسٍ قال: لو أنّ الشَّمْسَ تطلعُ عليهِم لأحرَقَتْهُم، ولو أنَّهُم لا يُقلَّبُونَ لأكَلتْهُمُ الأرضُ.

﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أيّ: وتَرَى الشمسَ إذا طلعَتْ تَعدلُ عن كهفِهم، فتطلُعَ عليهِ مِن ذاتِ اليمينِ؛ لئلا تُصيبَ الفتيةُ؛ لأنَّها لو طلعَتْ عليهِم قبالَهُم لأحرَقَتْهُم وثِيابَهُم أو أشْحبَتْهُم، وإذا غَرَبَتْ تَتْرُكهُم بِذاتِ الشّمالِ فلا تُصيبُهم. يُقالُ: قَرَضتُ موضعَ كذا إذا قطعتُه فَجاوزتُه، وأصلُ القرْضِ: القطعُ، يُقالُ قرضتُ الثوبَ: إذا قطعتُه، ومِنهُ قيلَ لِلمِقراضِ مِقراضٌ؛ لأنَّه يقطعُ، ومِنه

قَرَضَ الفأرُ الثوبَ. وعن ابنِ عبَّاسٍ قال: تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ أيّ تَذرُهُم. وعن سعيدِ بنِ جُبيرٍ قال: وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ أيّ: تتركُهُم ذاتَ الشِّمالِ. وعن مُجاهدٍ تَقْرِضُهُمْ: تَتركُهُم. وعن قتادةَ: تَقرضهُم: تدعُهُم.

(وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ) أيّ: والفِتيةُ الَّذِينَ أووا إليهِ في مُتَّسَعٍ مِنهُ. والجْمَعُ: فَجَوات. وعن قتادة: في فضاءٍ من الكهفِ. وعن سعيدِ بن جُبيرٍ: المكانُ الداخِلُ. وعن مجاهدٍ: المكانُ الذاهبُ.

(ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ) أيّ: هذا الذي فعلْناهُ بِهؤلاءِ الفِتيةِ الذينَ قَصَصنا عليكَ أمرَهُم كلَّ ذلكَ مِن حُجَجِ اللهِ على خَلقِه، ومِن الأدلَّةِ التي يستدلُّ بها أولُو الألبابِ على عظيمِ قُدرَتِه وسُلطانِه وأنَّهُ لا يُعجزُه شيءٌ.

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ) أيّ: مَن يُوفِّقُهُ اللهُ للاهتداءِ بآياتِه وحُجَجِه – التي جعلَها أدلَّةً عليهِ – إلى الحقِّ فهُو المُهتدي الذي أصابَ سبيلَ الحقِّ.

(وَمَنْ يُضْلِلْ) أي: ومَن أضلَّهُ اللهُ عن آياتِه وأدلَّتِه لا يُوفِّقُه للاستدلالِ بها إلى سبيلِ الرَّشادِ.

(فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) أيّ: لنْ تَجِدَ لهُ يا مُحمَّدُ مَن يُرشِدُه لإصابتِها؛ لأنّ التوفيقَ بيَدِ اللهِ، فلا يَحْزُنْكَ إدبارُ مَن أدبرَ عنكَ مِن قومِكَ وتكذيبهِم إيَّاكَ.

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا) أيّ: ولو رأيتَ يا مُحمَّدُ حالَ هؤلاءِ الفِتيةِ في كهفِهم الذي أوَوا إليهِ لَحَسِبْتَهُم أيقاظًا. والأيقاظُ: جمع يَقِظٍ.

(وَهُمْ رُقُود) أيّ: وهُمْ نيامٌ. والرُّقودُ جمعُ راقدٍ؛ كالجُلوسِ جمعُ جالسٍ، والقُعودُ جمعُ قاعدٍ.

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) أيّ: ونُقلِّبُ هؤلاءِ الفِتيةِ في رَقدَتِهم مرَّةً لِلجَنْبِ الأيمنِ، ومَرَّةً لِلجَنبِ الأيسرِ. وعن قتادةَ: كان هذا التقليبُ في رَقدتِهم الأُولى. وقيلَ: كان لهُم في كلِّ عامٍ تقليبَتانِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: لو أنَّهُم لا يقلَّبُونَ لأكلَتْهُم الأرضُ.

(وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ) ذَكَرْنا فِيما مضَى كثيراً ممَّا قيلَ في ذلكَ، وقالَ بعضُهم: كان إنساناً مِن الناسِ طبَّاخًا لهُم تَبِعَهُم.

(بِالْوَصِيدِ) قال ابنُ عبَّاسٍ هو الفِناءُ. وقال سعيدُ بنُ جبيرٍ: الوصيدُ هو الفِناءُ. وقال مجاهدٌ والضَّحَّاكُ: الوَصِيدُ هو بالفِناءِ. وقال آخَرونَ: الوَصِيدُ هو الصعيدُ أو التُّرابُ، وقيلَ: هو البابُ. وأوْلَى الأقوالِ في ذلكَ بالصَّوابِ قولُ مَن قالَ: الوصيدُ هو البابُ، أو فِناءُ البابِ؛ حيثُ يُغلَقُ البابُ؛ وذلكَ أنّ البابَ يُوصَدُ، وإيصادُه: إطْباقُه وإغلاقُه وذلكَ مِن قولِه تعالى: إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ.

(لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا) أيّ: لو اطَّلَعْتَ عليهِم في رَقْدَتِهم التي رَقَدُوها في كَهفِهم لأدبَرْتَ عنهُم هارِبًا مِنهُم فارًّا.

(وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) أيّ: وَلَمَلَئْتَ نفْسَكَ مِن اطِّلاعِكَ عليهِم فَزَعًا؛ لِما كان اللهُ قد ألبسَهُم مِن الهَيبَةِ؛ كي لا يَصِلَ إليهِم واصلٌ، ولا تلمِسُهُم يدُ لامِسٍ حتّى يبلغَ الكتابُ فيهِم أجَلَهُ وتُوقِظَهُم مِن رَقْدَتِهم قُدرَتُه وسُلطانُه في الوقتِ الذي أرادَ أن

يَجعلَهُم عِبْرَةً لِمَن شاءَ مِن خلقِه، وآيةً لِمَن أرادَ الاحتِجاجِ بهِم عليهِ مِن عِبادِه؛ لِيعلَمُوا أنّ وَعدَ اللهِ حقٌّ، وأنّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها. وقُرأتْ " وَلُمِّلْئْتَ " بتشديدِ اللامِ؛ بمعنى: أنّه كان يَمتلِئُ مرّةً بعدَ مرّةٍ، وقُرأتْ " وَلُمِلْئْتَ " بالتخفيفِ؛ بمعنى: لُمِلْئْتَ مرَّةً، وهُما عِندَنا قِراءتانِ مُستفِيضتانِ في القِراءة، مُتقارِبتا المعنى؛ فبأيَتِهما قرأَ القارئُ أصابَ.

(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ) أيّ: كما أرقَدنا هؤلاءِ الفِتيةِ في الكهفِ وحَفِظناهُم بِقُدرَتِنا من وصولِ واصلٍ إليهِم، وعينِ ناظرٍ أن يَنظُرَ إليهِم، وحفِظنا أجسامَهُم مِن البِلَى على طُولَ الزمانِ، وثيابَهُم مِن العَفَنِ على مَرِّ الأيَّامِ كذلكَ بعثناهُم مِن رقْدَتِهِم، وأيقظناهُم مِن نومِهِم؛ لِنُعرِّفَهُم عظيمَ سُلطانِنا، وعجيبَ فِعلِنا في خَلقِنا، ولِيَزْدادُوا بصيرةً في أمرِهِم الذي هُمْ عليهِ من براءتِهِم من عبادةِ الآلهةِ، وإخلاصِهِم لِعبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له.

(لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ) أيّ: لِيسألَ بعضُهم بعضًا.

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ) فسألَ أجدُّهُم: كَمْ لَبِثْتُمْ؟ وذلكَ أنَّهُم استنكَرُوا مِن أنفُسِهِم طُولَ رَقدَتِهِم.

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) فأجابَه الآخَرُونَ: لَبِثنا يومًا أو بعضَ يومٍ، ظنًّا مِنهُم أنّ ذلك كانَ.

(قالوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) فَسَلِّمُوا العِلمَ إلى اللهِ.

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أيّ: مَدينتهِم التي خَرجُوا منها هربًا.

﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ ذُكِرَ أنَّهُم هَبُّوا مِن رَقْدَتِهِم جِياعًا؛ فلذلكَ طلَبُوا الطعامَ. وعن وهبِ بنِ مُنبِّه: إنَّهُم غبرُوا، يعني الفِتيةَ مِن أصحابِ الكهفِ بعدَما بُنِيَ عليهِم بابُ الكهفِ زمانًا بعدَ زمانٍ. ثمَّ إنّ راعيًا أدركَهُ المَطرُ عندَ الكهفِ، فقالَ: لو فَتحتُ هذا الكهفَ وأدخَلْتُ غَنَمي مِن المطرِ، فلمْ يزلْ يُعالِجْهُ حتَّى فتحَ ما أدخلَه فيهِ، ورُدَّ إليهِم أرواحهُم في أجسامهِم مِن الغَدِ حين أصبَحُوا، فبعثُوا أحدَهُم بِوَرِقٍ يشتري طعامًا، فلمّا أتى بابَ مَدينتِهم رأى شيئًا يُنكِرُه؛ حتى دخلَ على رَجُلٍ فقالَ: بِعني بهذِهِ الدراهِم طعامًا. فقالَ: ومِن أينَ لكَ هذهِ الدراهِمُ؟ قال: خرَجتُ أنا وأصحابٌ لي أمسِ فآوانا الليلُ، ثمَّ أصبَحُوا فأرسَلُوني. فقالَ: هذه الدراهِمُ كانت على عَهْدِ مُلكِ فلانٍ فأنَّى لكَ بها؟ فرَفعَه إلى المَلِكِ، وكان مَلِكًا صالحًا. فقالَ: مِن أين لكَ هذه الورِقُ؟ قال: خرَجتُ أنا وأصحابٌ لي أمسِ، حتّى أدركَنا الليلُ في كهفِ كذا وكذا، ثمَّ أمرُوني أنْ أشتريَ لهُمْ طعامًا.

قال: وأينَ أصحابُكَ؟ قال: في الكهفِ.

قال: فانطلَقُوا معَه حتّى أتَوا بابَ الكهفِ، فقالَ: دَعُوني أدخُل على أصحابي قَبْلَكُم، فلمّا رأوْه ودَنا مِنهُم ضُرِبَ على أُذُنِه وآذانِهم، فَجعلُوا كلمَّا دخلَ رَجُلٌ أُرعِبَ، فلمْ يَقدِرُوا على أن يَدخُلُوا عليهِم، فبَنَوا عِندَهُم كنيسةً اتَّخذُوها مَسجِداً يُصلُّونَ فيه. وعن عِكرمةَ: كان أصحابُ الكهفِ أبناءَ مُلوكِ الرومِ، رَزَقَهُمُ اللّهُ

الإسلامَ فتعوَّذُوا بدينِهم واعتزَلُوا قومَهم حتّى انتَهُوا إلى الكهفِ، فضَرَبَ اللّٰهُ على سَمْعِهِم، فلبِثُوا دهرًا طويلاً حتّى هلَكَتْ أُمَّتُهم، وجاءتْ أمَّةٌ مُسلِمةٌ، وكان مَلِكُهم مُسلِمًا. فاختلفُوا في الرُّوحِ والجسدِ؛ فمِن قائلٍ: يُبعثُ الروحُ والجسدُ جميعًا. ومِن قائلٍ: يُبعَثُ الروحُ، فأمَّا الجسدُ فتأكلُه الأرضُ فلا يكونُ شيئًا، فَشَقَّ على مَلِكِهِم اختلافُهُم، فلبسَ المُسُوحَ وجلسَ على الرَّمادِ، ثمَّ دعا اللّٰهَ تعالى فقالَ: أيّ ربِّ، إنَّكَ تَرى اختلافَ هؤلاءِ، فابعثْ لهُم آيةً تُبيِّنُ لهُم، فَبَعثَ اللّٰهُ أصحابَ الكهفِ، فبَعَثُوا أحدَهُم يشتري لهُم طعامًا، فدخَل السُّوقَ، فَجعلَ يُنكِرُ الوُجوهَ، ويعرفُ الطرقَ، ويَرى الإيمانَ بالمدينةِ ظاهِرًا. فانطلقَ وهو مُستخْفٍ حتّى أتى رجُلاً يشتري مِنهُ طعامًا، فلمَّا نظرَ الرَّجُلُ إلى الوَرِق أنكرَها، قال: حَسِبْتُ أنّه قالَ: كأنَّها أخفافُ الرُّبَعِ، يعني الإبلَ الصِّغارَ، فقالَ لهُ الفتى: أليسَ مَلِكِكُم فُلانًا؟

قال: بلْ مَلِكُنا فُلانٌ، فلم يزلْ ذلكَ بينَهُما حتّى رفعَهُ إلى المَلِكِ. فسألَهُ، فأخْبَرَهُ الفتَى خبرَ أصحابِه، فبَعثَ الملكُ في الناسِ، فجَمَعَهُم، فقال: إنَّكُم قد اختلفتُم في الرُّوحِ والجسدِ، وإنّ اللّٰهَ قد بعثَ لكُم آيةً، فهذا رجلٌ مِن قومِ فُلانٍ، يعني مَلِكَهُم الذي مضَى، فقال الفتَى: انطلِقُوا بي إلى أصحابي، فركِبَ المَلِكُ، وركِبَ مَعهُ الناسُ حتّى انتهَوا إلى الكهفِ، فقالَ الفتى: دَعُوني أدخُل إلى أصحابي، فلمّا أبصرَهُم ضُرِبَ على أُذُنِه وعلى آذانِهِم، فلمَّا استبطئوه دَخَلَ المَلِكُ، ودخلَ الناسُ معهُ، فإذا أجسادٌ لا يُنكِرونَ مِنها شيئًا؛ غيرَ أنَّها لا أرواحَ فيها.

فقال المَلِكُ: هذه آيةٌ بعثَها اللّٰهُ لكُمْ.

قال قتادةُ: غَزا ابنُ عبَّاسٍ مع حبيبِ بنِ مَسلَمةَ، فمَرُّوا بالكهفِ فإذا فيه عِظامٌ، فقالَ رجلٌ: هذه عِظامُ أصحابِ الكهفِ. فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: لقد ذهبَتْ عِظامهُم منذُ أكثرَ مِن ثلاثِ مئةِ سَنَة.

وقال ابنُ إسحاق فيما ذُكِرَ من حديثِ أصحابِ الكهفِ: ثمَّ مَلَكَ أهلَ تلك البلادِ رجلٌ صالِحٌ يُقالُ له "تيذوسيس"، فلمّا مَلَكَ بقيَ مُلكُه ثمانيةً وستِّينَ سَنةً، فتحزّبَ الناسُ في مُلكِه فكانُوا أحزابًا؛ فمِنهُم مَن يُؤمِنُ باللهِ ويَعلَمُ أنّ الساعةَ حقٌّ، ومِنهُم مَن يُكذِّبُ. فكَبُرَ ذلكَ على المَلِكِ الصالِحِ وبكى إلى اللهِ وتَضرّعَ إليه، وحَزِنَ حُزنًا شديداً لّما رأى أهلَ الباطلِ يَزيدُونَ ويَظهَرُونَ على أهلِ الحقِّ ويقولونَ: لا حياةَ إلاّ الحياةُ الدُّنيا وإنَّما تُبعَثُ النُّفوسُ ولا تُبعَثُ الأجسادُ، ونَسُوا ما في الكتابِ. فجعل المَلِكُ يُرسِلُ إلى مَنْ يظنُّ فيه خيرًا، وأنَّهُم أئمَّةٌ في الحقِّ، فجَعلُوا يُكذِّبونَ بالساعةِ، حتّى كادُوا أن يُحوِّلُوا الناسَ عن الحقِّ ومِلَّةِ الحَواريينَ، فلمَّا رأى الملكُ ذلك دَخلَ بيتَه فأغلقُه عليه ولبسَ مِسْحًا وجعلَ تحتَهُ رماداً ثمَّ جلسَ عليه، فدأبَ ذلكَ ليلَهُ ونهارَهُ زمانًا يتضرَّعُ إلى اللهِ ويبكي إليه ممَّا يَرَى فيه الناسَ. ثمَّ إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أرادَ أن يُبيِّنَ للناسِ شأنَ الفتيةِ ويجْعلَهَم آيةً للناسِ وحُجَّةً عليهِم؛ لِيعلَمُوا أنّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، استجابَ لِعبدِه الصالِح "تيذوسيس" فألقَى في نفْسِ رَجُلٍ مِن أهلِ ذلك البلدِ الذي به الكهفُ أن يهدمَ البُنيانَ الذي على فمِ الكهفِ ليبنيَ به حَظيرةً لِغَنَمِه، فأذنَ اللهُ ذُو القُدرةِ والعَظمَةِ والسُّلطانِ مُحيي المَوتى لِلفتيةِ أن يَجْلِسُوا بينَ ظَهْراني الكهفِ فَرِحينَ مُسْفِرَةً وُجوهُهُم طيِّبةً

أنفُسُهم، فسلَّمَ بعضُهم على بعضٍ، حتّى كأنَّما استيقظُوا مِن ساعتِهم، فتساءلُوا بينَهُم كَمْ لَبِثْتُمْ؟

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ).

ثمَّ قامُوا إلى الصَّلاةِ ولا يُرَى في وُجوهِهم ولا أبشارِهم ولا ألوانِهم شيءٌ يُنكِرُونَه كهيئتِهم حينَ رَقَدُوا بِعَشيٍّ أمسِ، وَهُم يَرَونَ أنّ مَلِكَهُم "دقينوس" الجبّارَ في طلبِهم والتماسِهم. فلمَّا قَضَوا صلاتَهُم قالوا ل"يمليخا": انطلقْ إلى المدينةِ فتسمَّعْ ما يُقالُ لنا بها اليومَ، وما الذي نُذْكَرُ به عندَ "دقينوس"، وابتعْ لنا طعامًا فأتِنا به وتلطَّف ولا يُشعِرَنَّ بنا أحدًا.

ففَعلَ "يمليخا" كما كان يفعلُ فوضعَ ثيابَه، وأخذَ الثيابَ التي كان يتنكَّرُ فيها، وأخذَ وَرِقًا مِن نفقتِهم التي كانت معَهُم التي ضُرِبَتْ بطابَع "دقينوس" المَلِكِ، وانطلقَ خارجًا، فلمّا مرَّ بابِ الكهفِ رأى الحِجارةَ مَنزوعةً عنه فلم يُبالِ بها، حتّى أتى المدينةَ فرأى فوقَ بابِها علامةَ الإيمانِ إذ كان ظاهِرا فيها، فتحوّلَ إلى بابٍ آخرَ من أبوابِها فرأى مِثلَ ذلك، فجعلَ يُخيَّلُ إليه أنّ المدينةَ ليستْ بالمدينةِ التي يَعرِفُها، ورأى كثيراً مِن الناسِ لم يَكُنْ قد رآهُم مِن قَبْلُ، ثمَّ دخلَ المدينةَ فَجعلَ يمشي بينَ ظهْراني سُوقِها، وسَمِعَ أُناسًا يَحلِفُونَ باسْم "عِيسى بنِ مَريم"، فزادَه فَرَقًا، فقالَ في نفْسِه: واللهِ ما أدري ما هذا ! أمّا عشيَّةُ أمسٍ فليسَ على الأرضِ إنسانٌ يذكُرُ عِيسى بنَ مريمَ إلا قُتِلَ، وأمّا الغَداةُ فأسمعهُم وكلُّ إنسانٍ يذكُرُ أمرَ عِيسى لا يخافُ، ثمَّ قال: لعلَّ هذه ليستْ بالمدينةِ التي أعرفُ أسمعُ كلامَ أهلِها ولا أعرفُ أحداً منهُم، واللهِ ما أعلمُ مدينةَ قُربَ مَدينتِنا.

فسأل فتىً عن اسمِ هذه المدينةِ قال: اسمُها "أفسوس" . فقال في نفْسِه: لعلَّ بي مَسًّا أو أمرًا أذهبَ عَقلي، واللهِ لو عَجّلْتُ الخروجُ من المدينةِ قبلَ أن يُفطَنَ بي لكانَ أكيسَ لي، فدَنا مِن الذينَ يبيعونَ الطعامَ فأخرجَ الورِقَ التي كانتْ معَه، فأعطاها رجُلاً منهُم وقال لهُ: بِعني بهذه الورقِ يا عبدَ اللهِ طعامًا، فأخذَها الرجلُ فنظرَ إلى ضَرْبِ الورِقِ ونقْشِها فعَجِبَ منها، ثمَّ طَرَحَها إلى رَجُلٍ من أصحابِه، وجعلُوا يتداولُونَها بينَهُم ويقولُ بعضُهم لبعضٍ: إنّ هذا الرجلَ قد أصابَ كنزًا خبيئًا في الأرضِ منذُ زمانٍ ودَهرٍ طويلٍ.

فقال لهُم وهو شديدُ الفَرَقِ مِنهُم: أفضِلُوا عليَّ فقَد أخذتمُ وَرِقي فأمْسِكُوا، وأمّا طعامُكُم فلا حاجةَ لي بهِ. قالوا لَه: مَن أنتَ يا فتَى، وما شأنُكَ؟ واللهِ لقد وَجَدتَ كنزًا من كنوزِ الأوّلينَ، وتُريدُ أن تُخفيهِ مِنّا، واللهِ لا تستطيعُ أن تكتُمَ ما وجدتَ، ولا تظنَّ في نفْسِكَ أنَّه سيخفَى حالُكَ.

فجعل "يمليخا" لا يَدري ما يقولُ لهُم. فلمّا رأوهُ لا يتكلَّمُ أخذُوا كِساءَهُ فطَوَّقُوه في عُنُقِهِ وانطلقُوا بهِ إلى رئيسَي المدينةِ وهُما رَجُلانِ صالِحانِ اسمُ أحدِهما "أريوس" والآخرُ "أسطيوس"، وظنَّ أنّه ينطلقُ بهِ إلى "دقينوس" الجبَّارِ مَلِكِهم الذي هرَبُوا مِنهُ والناسُ يَسخَرونَ مِنهُ. فرَفَعَ رأسَهُ إلى السماءِ وقال: اللهُمَّ إلهَ السَّماواتِ والأرضِ أولِجْ مَعِيَ رُوحًا مِنكَ اليومَ تُؤيدُني بهِ عند هذا الجبَّارِ. فلمّا انتهى إلى الرَّجُلَينِ الصالِحَينِ أخَذا الوَرِقَ فنَظرا إليها وعَجِبا منها، ثمَّ قال أحدهُما: أينَ الكنزُ الذي وجَدتَ يا فتى؟ هذا الورِقُ يَشْهَدُ عليكَ أنَّكَ قد وَجَدتَ كنزًا.

فقال "يمليخا" : ما وجَدتُ كنزًا؛ ولكنَّ هذه الورِقَ وَرِقُ آبائي، ونَقْشُ هذه المدينةِ وضَرْبُها؛ ولكنْ واللهِ ما أدري ما شأني، وما أدري ما أقولُ لكُم، فقالَ له أحدُهما: ممَّن أنتَ؟

قال يمليخا: ما أدري، كنتُ أرى أنّي مِن أهلِ هذه القريةِ. قالوا: فمَن أبوكَ؟ ومَن يَعرِفُكَ بها؟ فأنبأهُم باسمِ أبيهِ، فلم يَجِدُوا أحداً يَعرِفُه ولا أباهُ.

فقالَ له أحدُهُما: أنتَ رَجُلٌ كذَّابٌ لا تُنبِئُنا بالحقِّ، إنّي لأظنُّني سآمُرُ بكَ فتُعَذَّبَ عذابًا شديداً حتّى تعتَرِفَ بالكنزِ الذي وجَدتَ. فلمّا قال ذلك، قال يمليخا: أنبِئُوني عن شيءٍ أسألُكُم عنهُ؛ فإنْ فعلتُم صَدَقتُكُم عمّا عِندي. أرأيتُم "دقينوس" المَلِكَ الذي كان في هذه المدينةِ عشيَّة أمسٍ ما فعلَ؟

فقال له الرَّجُلُ: ليسَ على وَجْهِ الأرضِ رجلٌ اسمُه "دقينوس"، ولم يكنْ إلا مَلِكٌ قد هلكَ منذُ زمانٍ ودهرٍ طويلٍ، وهلكَتْ بعدَه قُرونٌ كثيرةٌ، فقالَ له يمليخا: واللهِ إنّي إذًا لَحَيرانَ، وما هُو بمُصدِّقٍ أحدٌ مِن الناسِ بما أقولُ، واللهِ لقد فَرَرنا مِن "دقينوس"، وإنّي قد رأيتُه عَشِيَّةَ أمسٍ حين دخلَ مدينةَ "أفسوس"؛ ولكنْ لا أدري أمدينةَ "أفسوس" هذهِ أم لا؟ فانطلِقا معي إلى الكهفِ الذي في جبلِ "بنجلوس" أريكُم أصحابي. فلمَّا سَمِعَ "أريوس" ما يقولُ "يمليخا" قال: يا قومُ لعلَّ هذه آيةً من آياتِ اللهِ جعلَها لكُمْ على يدَي هذا الفتى، فانطلِقُوا بنا مَعهُ يُرِنا أصحابَه كما قالَ. فانطلَقَ معهُما أهلُ المدينةِ كبيرُهم وصغيرُهم نحوَ أصحابِ الكهفِ لِينْظُرُوا إليهِم. ولّما رأى الفِتيةُ أصحابُ الكهفِ أنّ "يمليخا" قد احتبسَ عليهِم بطعامِهم

وشرابِهم عن القَدْرِ الذي كان يأتي بهِ، ظنُّوا أنّه قد أُخِذَ فذُهِبَ بهِ إلى "دَقْيانوس" الذي هَرَبُوا منه.

فبينَما هُم كذلكَ إذ سَمِعُوا الأصواتَ وجَلَبَةَ الخيلِ مُصعدةً نَحوَهُم، فظنُّوا أنَّهُم رُسُلُ "دقينوس" بعثَ إليهِم ليُؤْتي بهِم، فقامُوا إلى الصلاةِ، فلم يَرَوا إلاّ "أريوس" وأصحابَه وُقوفًا على بابِ الكهفِ وقد سبقَهُم "يمليخا"، فسألُوه عن شأنِه فأخبرَهُم خبَرَهُ وقصَّ عليهِم النبأَ كُلَّهُ، فَعَرَفُوا عندَ ذلك أنَّهُم كانُوا نِيامًا بأمرِ اللهِ ذلك الزمانِ كلِّه؛ وإنّما أُوقظُوا؛ لِيَكُونوا آيةً للناسِ، وتصديقًا للبعثِ، ولِيعلَمُوا أنّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها. ثمّ دَخَلَ "أريوس" فرأى تابوتًا من نُحاسٍ مَختُومًا بخاتمٍ من فِضَّةٍ، فدعا عُظماءَ أهلِ المدينةِ وفَتحَ التابوتَ فَوجَدُوا فيه لوحَينِ من رَصاصٍ مَكتُوبًا فيهِما أنّ هؤلاءِ الفِتيةَ هَرَبُوا من مَلِكِهم "دقينوس" الجبَّارِ مَخافةَ أن يفْتِنَهُم عن دِينِهم فدَخَلُوا هذا الكهفَ، فلمَّا أُخبِرَ بمكانِهم أمرَ بالكهفِ فَسُدَّ عليهِم بالحجارةِ، وإنّا كتبْنا شأنَهُم وخَبرَهُم لِيَعلَمَه مَن بَعدَهُم إنْ عُثِرَ عليهِم.

ثمَّ إنّ "أريوسَ" بعثَ بريداً إلى ملكِهم الصالحِ "تيذوسيس" لِينْظُرَ إلى آيةٍ من آياتِ اللهِ. وسارَ الناسُ مَعهُ حتّى أتَوا الكهفَ، فلمَّا رأى الفِتيةُ "تيذوسيس" خرُّوا سُجَّدًا للهِ، فاعتنقَهُم وبكَى وقال: واللهِ ما أشبَهُ بِكُمْ إلاّ الحواريونَ حين رأوا المَسيحَ.

ثمَّ رَجَعُوا إلى مَضاجعِهم فتوفَّاهُم اللهُ، فجعلَ المَلِكُ ثيابَه عليهِم، وأمرَ أن يُجْعَلَ لِكلٍّ مِنهُم تابوتٌ من ذهبٍ، فأتَوه في المنامِ وقالوا: إنّا لم نُخْلَقْ من ذَهبٍ ولا فِضَّةٍ، ولَكِنَّا خُلِقْنا من تُرابٍ وإلى التراب نَصيرُ، فاتْرُكْنا كما كُنّا في الكهفِ على التُّرابِ حتَّى يبعثَنا اللهُ منهُ، فأمرُ المَلِكُ حينئذٍ بتابوتٍ من ساجٍ فجَعلُوهُم فيهِ، وحَجبَهُم

اللهُ حين خرجُوا مِن عندهِم بالرُّعب، فلم يَقْدِرْ أحدٌ على أن يدخُلَ عليهِم، وأمرَ المَلِكُ فجعلَ على كهفِهم مسجداً يُصَلَّى فيه، وجعلَ لهُم عيداً عظيماً، وأمرَ أن يُؤتى كُلَّ سَنَةٍ.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُميرٍ قال: بعثَ اللهُ الفِتيةَ أصحابَ الكهفِ – وكان على أهلِ مدينتِهم مَلِكٌ مُسلِمٌ – وسلَّط عليهِم الجُوعَ، فقالَ قائلٌ مِنهُم: كَمْ لَبِثْتُمْ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. ثم قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ – وكان معَهُم وَرِقٌ مِن ضَرْبِ المَلِكِ الذي كانُوا في زَمانِه – فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ: أيّ بِطعامٍ، وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا.

فَخرجَ أحدُهُم فرأى المَعالِمَ مُتنكِّرَةً حتّى انتهى إلى المدينةِ، فلمْ يَعرِفْ مِنهُم أحداً، حتّى انتهى إلى صاحبِ طعامٍ، فأخرجَ إليه الوَرِقَ، فقال: مِن أين لكَ هذا الوَرِقُ؟ قال: هذه وَرِقُنا ووَرِق أهلِ بلادِنا.

فقالَ: هيهاتَ هذه الوَرِقُ مِن ضَرْبِ فُلانِ بنِ فُلانٍ منذُ ثلاثمائةٍ وتِسْعِ سِنينَ، أنتَ أصبْتَ كَنْزًا ولَسْتُ بِتارِكِكَ حتَّى أرفَعَكَ إلى المَلِكِ، وكان المَلِكُ وأصحابُه مُسلِمونَ؛ فَفَرِحَ واستَبْشَرَ وأظهرَ لهُم أمرَه، وأخبرَهم خَبرَ أصحابِه. فأتَوا باللوحِ المَحْفُوظِ في الخِزانةِ، فوافقَ ما وَصفَ مِن أمرِهم. فقالَ المُشرِكُونَ: نحنُ أحقُّ بهِم، هؤلاءِ أبناءُ آبائِنا. وقال المسلمونَ: نحنُ أحقُّ بهِم، هُمْ مُسلِمونَ مِنا. فانطلَقُوا معَه إلى الكهفِ، فلمّا أتَوا بابَ الكهفِ قال لهُم: دَعُوني حتّى أدخلَ على أصحابي حتّى أُبَشِّرَهُم؛ فإنَّهُم إنْ رأوكُمْ مَعي أرعبْتُموهُم، فَدخلَ فَبشَّرهُم، ثمَّ قبضَ اللهُ أرواحَهم، فقالَ المشرِكونَ: نبني عليهِم بُنيانًا ونعبدُ اللهَ فيهِ.

وقال المُسلِمونَ: بل نبني عليهِم مَسجِداً نُصلِّي ونَعبدُ اللهَ فيهِ.

وقرأ أهلُ المَدينةِ بِوَرِقِكُمْ – بفتحِ الواوِ وكسْرِ الرّاءِ والقافِ – وقرأَ أهلُ الكوفةِ والبَصرَةِ بَورْقِكُمْ – بسكونِ الرَّاءِ وكسْرِ القاف – وقرأَ بعضُ المَكِّيينَ بكَسْرِ الرَّاءِ وإدغامِ القافِ في الكافِ – وكلُّها مُتَّفِقةٌ بالمَعنى.

(ولِيتلطَّف) أيّ: ولِيترفَّقَ في شِرائِه ما يَشتري، وفي طريقِه ودُخولِه المدينة.

(ولا يُشعِرَنَّ بِكُم أحدًا) أيّ: لا يُعلِمَنَّ بِكُم أحداً مِن الناسِ.

(إنَّهُم إن يَظْهَرُوا عليكُم يَرْجُمُوكُم) أيّ: دقينوس وأصحابُه إنْ يَظهَرُوا عليكُم ويَعلَمُوا مَكانَكُم يَرجُموكُم شَتماً بالقولِ ويُؤذُوكُم كما قال ابنُ جُريجٍ.

(أو يُعيدُوكُم في مِلَّتِهِم) أيّ: أو يَردُّوكُم في دِينِهِم فتَصيرُوا كفّاراً بِعبادةِ الأوثانِ.

(ولن تُفلِحُوا إذًا أبدًا) أي: ولنْ تُدرِكُوا الفلاحَ أبداً، وهو البقاءُ الدائمُ والخلودُ في الجِنانِ، إنْ أنتُمْ عُدتُمْ في مِلَّتِهِم أيَّامَ حياتِكُم.

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ليعلموا أن وعد الله حق، وأن الساعة لا ريب فيها) أيّ: وكما بَعثناهُم بعدَ طُولِ رَقْدَتِهِم كَهَيئتِهِم ساعةَ رَقَدُوا لِيتَساءلُوا بينَهُم – فيَزدادُوا بعظيمِ سُلطانِ اللهِ بصيرةً وبِحُسْنِ دفاعِ اللهِ عن أوليائِه مَعرِفةً – أطلَعنا عليهِم الفريقَ الآخَرَ الذينَ كانُوا في شَكٍّ مِن قُدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتى، وفي مِرْيةٍ من إنشاءِ أجسامِ خلقِه كهَيئتِهِم يومَ قبضِهِم بعدَ البِلَى، فيعلَمُوا أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ، ويُوقِنُوا أنّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها.

قال قتادة: أطلَعنا عليهِم لِيعلَمْ مَن كذَّبَ بهذا الحديثِ أنّ وعدَ اللهِ حقٌّ، وأنّ الساعةَ لا ريبَ فيها.

﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أيّ: أنّ القومَ الذينَ أعثرُوا على الفِتية اختلَفُوا فيما بينَهُم في أمرِ قيامِ الساعةِ، وإحياءِ اللهِ الموتى بعدَ مماتِهم، وفيما اللهُ فاعلٌ بمَن أفناهُ مِن عبادِه فأبلاهُ في قبْرِه، أمُنْشِئُهم هُوَ أمْ غيرُ مُنشئِهم.

﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾ أي: قال الذينَ أعثَرْناهُم على أصحابِ الكهفِ ابْنُوا عليهِم بنيانًا.

﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أيّ: ربُّ الفِتيةِ أعلَمُ بالفِتيةِ وشأنِهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ أي: قال القومُ الذينَ غلبُوا على أمرِ أصحابِ الكهفِ.

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾. وقد اختُلِفَ في قائِلي هذه المَقالةِ هل هُم المُسلِمونَ أم الكفَّارُ؟ قال ابنُ عبَّاسٍ: هُمْ عَدُوّهُم.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَير: فقالَ المُشرِكُونَ نبني عليهِم بُنيانًا فإنَّهُم أبناءُ آبائِنا، ونَعبدُ اللهَ فيها. وقال المُسلِمونَ: بلْ نحنُ أحقُّ بهِم، نبني عليهِم مَسجِداً نُصلِّي فيه.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أيّ: سيقولُ بعضُ الخائِضينَ في أمرِ الفتيةِ من أصحابِ الكهفِ هُم ثلاثةٌ رابعُهُم كلبُهُم، ويقولُ بعضُهم هُمْ خَمسةٌ سادِسهُم

كلبهُم، قذْفًا بالظَّنِّ غيرَ يقينِ عِلْمٍ. قال قتادةُ: قذفًا بالغَيبِ. ويقولُ بعضُهم هُم سبْعةٌ وثامنهُم كلبُهم.

(قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم) أيّ: قُلْ يا مُحمَّدُ لِقائلي هذه الأقوالِ في عددِ الفِتيةِ من أصحابِ الكهفِ رجْمًا منهُم بالغيبِ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ.

(مَا يَعْلَمُهُمْ) أيّ: ما يَعلَمُ عَددُهُم.

(إِلا قَلِيلٌ) مِن خَلْقِه. قال قتادةُ: قليلٌ مِن الناسِ. وقال آخَرونَ: أهلُ الكِتابِ. وكان ابنُ عبَّاسٍ يقولُ أنا مِن أولئكَ القليلِ الذينَ استثنى اللهُ، كانوا سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم.

(فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا) أيّ: لا تجُادِلْ أهلَ الكتابِ في عِدَّةِ أهلِ الكهفِ، وحُذِفَتِ العِدَّةُ اكتفاءً بِذِكْرِهِم فيها لِمعرِفةِ السامِعينَ بالمُرادِ. وقال ابنُ زيدٍ: لا تُمارِ في عِدَّتِهِم.

واختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى المِراء الظاهِرِ الذي استثناهُ اللهُ ورَخَّصَ فيه لِنبيِّهِ **صلى الله عليه وسلم** قال ابنُ عبَّاسٍ: حَسبُكَ ما قصصت عليك فلا تمار فيهم. وقال قتادة: أي حَسْبُك ما قَصَصنا عليكَ مِن شأنهِم. وقال ابنُ زيدٍ: قلْ ليسَ كذلكَ؛ فإِنَّهُم لا يعلمونَ عِدَّتَهُم.

(وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) أيّ: ولا تَستفْتِ في عِدَّةِ الفِتيةِ من أصحابِ الكهفِ من أهلِ الكتابِ أحداً؛ لأنَّهُم لا يعلمونَ عِدَّتَهُم؛ وإِنّما يقولونَ فيهِم رجْمًا

بالغيبِ لا يقيناً من القولِ. قال ابنُ عبَّاسٍ: هُم أهلُ الكتابِ. وقال مُجاهدٌ: ولا تسألْ يهودَ عن أمرِ أصحابِ الكهفِ؛ إلاّ ما قَد أخبرْتُكَ مِن أمرهِم. وقال قتادةُ: مِن أهلِ الكتابِ.

(ولا تَقولَنَّ لِشَيءٍ إنّي فاعِلٌ ذَلِكَ غدًا إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ) فيه مسألتانَ؛ الأُولى: قال العُلماءُ عاتبَ اللّهُ تعالى نَبيَّه مُحمّدًا **صلّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ** على قولِه لِلكفَّارِ حين سألُوه عن الرُّوحِ والفِتيةِ وذَي القَرنَينِ غداً أخْبركُم بِجوابِ أسئلتِكُم ولم يَستثنِ في ذلكَ. فاحتبسَ الوحيُ عنه خمسةَ عشرَ يومًا حتّى شقَّ ذلك عليهِ وأرجفَ الكفَّارُ به، فنزلتْ عليهِ هذه السورةُ مُفرَجةً، وأمرَ في هذه الآيةِ ألاّ يقولَ في أمرٍ مِن الأمورِ إنّي أفعلُ غداً كذا وكذا إلاّ أن يُعلِّقَ ذلكَ بَمشيئةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ حتّى لا يكونَ مُحقِّقًا لِحُكمِ الخَبَرِ؛ فإنّه إذا قالَ: لأفْعَلَنَ ذلكَ ولم يفعلْ كان كاذبًا، وإذا قالَ لأفعلَنَّ ذلكَ إنْ شاءَ اللّهِ خرجَ عن أنْ يكونَ مُحقِّقًا للمُخبَرِ عنهُ. واللامُ في قولِه لِشيءٍ بمنزلةٍ في، أو كأنّهُ قالَ لأجْلِ شيءٍ. الثانيةُ: قال ابنُ عطيَّةَ: وتكلَّمَ الناسُ في هذه الآيةِ في الاستثناءِ في اليمينِ، والآيةُ ليستْ في الأيمانِ؛ وإنّما هيَ في سُنّةِ الاستثناءِ في غيرِ اليمينِ. وفي الكلامِ حَذْفٌ يقتضيه الظاهرُ ويُحَسِّنُه الإيجازُ تقديرُه: أنْ تقولَ إلاّ أنْ يشاءَ اللّهُ، أو إنْ شاءَ اللّهُ. وقال البَصريونَ: المعنى إلاّ بمشيئةِ اللّهِ.

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) هذا تأديبٌ مِن اللّهِ عزَّ ذِكْرُه لِنبيِّه **صلى الله عليه وسلم** عَهِدَ إليه أنْ لا يَجْزِمَ على ما يَحدثُ مِن الأمورِ أنّه كائنٌ لا محالةً إلاّ بمشيئةِ اللّهِ، واختلفَ أهلُ التأويلِ في مَعناهُ فقالَ بعضُهم: واستَثنِ في يَمينكَ إذا ذَكَرتَ أنَّكَ نَسِيتَ ذلك في حالِ اليمينِ. وعن ابنِ عبَّاسٍ في الرَّجُلِ يَحلِفُ، قال لهُ: أنْ يَستثني

ولو إلى سَنَةٍ. وعن أبي العالية: "وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ" الاستثناءُ ثمَّ ذَكَرتَ فاسْتَثنِ.

وقال الحَسنُ: إذا ذَكَرَ أنَّه لم يَقُلْ إنْ شاءَ اللّٰهُ، فليقلْ إنْ شاءَ اللّٰهُ.

وقال عِكرمةُ: واذكُرْ ربَّكَ إذا عَصيتَ.

وأولَى القَولَينِ في ذلك بالصوابِ: واذْكُرْ ربك إذا تَركْتَ ذِكْرَه؛ لأنّ أحدَ معاني النسيانِ في كلامِ العَربِ التَّركِ.

(وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) يقولُ عزَّ ذِكْرُه لِنبيِّه **صلى الله عليه وسلم** قُلْ ولعلَّ اللّٰهَ أن يَهدِيني فَيُسدِّدُني لأسُدَّ مِمّا وَعدتُكُم وأخبَرْتُكُم أنّه سيكونُ إنْ هو شاءَ. وقيلَ: إنَّ ذلكَ مِمّا أمرَ النبيُّ **صلى الله عليه وسلم** أنْ يقولَه إذا نَسِيَ الاستثناءُ في كلامِه الذي هُو عندَه في أمرٍ مُستقبَلٍ مع قولِه إنْ شاءَ اللّٰهُ إذا ذُكِرَ. وقيلَ: إذا نَسِيَ الإنسانُ أنْ يقولَ إنْ شاءَ اللّٰهُ، فتَوبَتُه مِن ذلكَ، أو كفّارةُ ذلكَ أن يقولَ: عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لأقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا.

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) قال قتادةُ: هذا قولُ أهلِ الكتابِ، فَردَّه اللّٰهُ عليهِم بقَولِه: **(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)**. وقال مَطر الورّاقُ: إنّما هُو شيءٌ قالَتهُ اليهودُ، فردَّه اللّٰهُ عليهِم بِقَولِه: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا. وقال مُجاهِدٌ: عددُ ما لَبثُوا، وزادَ فيهِ: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا. وعن الضَّحَّاكِ بنِ مُزاحِمٌ قال: عندَما نزلتْ هذه الآيةُ، قالوا: أيّامًا أو أشهُرًا أو سِنينَ؟ فأنزلَ اللّٰهُ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا. وأولَى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ

كما قال اللهُ عزَّ ذِكْرُه: ولَبِثَ أصحابُ الكهفِ في كَهفِهم رُقوداً إلى أنْ بَعثَهُم اللهُ، لِيتساءلُوا بينَهُم، وإلى أنْ أعثرَ عليهِم مَن أعثرَ، ثلاثمائةٍ سِنينَ وتِسعَ سِنينَ، وذلكَ أن الله بذلك أخبر في كتابه. وقرأ عامة قرّاء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين " ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ "، بتنوينِ ثَلاَثَمِائَةٍ، وقرأَ عامَّةُ قُرّاءِ أهلِ الكوفةِ " ثَلاثَ مِائَةِ سِنِينَ" بإِضافةِ ثلاثمائةٍ إلى السِّني غيرِ مُنوَّنٍ. وأولَى القِراءتَينِ في ذلك عِندي بالصَّوابِ قراءةُ مَن قرأ (ثَلاثَ مِائَةٍ) "بالتنوينِ" سِنِينَ.

(أبصِرْ بِهِ وأَسْمِعْ) أيّ: ما أبْصَره وأسْمعَه. قال قتادةُ: لا أحدَ أبصرَ مِن اللهِ ولا أسمعَ، وهذه عباراتٌ عن الإدراكِ. ويحتملُ أن يكونَ المعنى: أبصِر بوحيهِ وإرشادِه هَداكَ وحُجَجِكَ والحقَّ من الأمورِ وأسمِع به العالَم، فيكونانِ أمرَين لا على وجْهِ التعجُّبِ. وقيل: المعنى أبصِرهم وأسمِعهُم ما قالَ اللهُ فيهِم.

(مالَهُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ) أيّ: لم يكُنْ لأصحابِ الكهفِ وليٌّ يتولَّى حِفظَهُم دونَ اللهِ.

ويحتملُ أن يعودَ الضميرُ في لهُم على مُعاصري سيِّدنا مُحمَّدٍ **صلى الله عليه وسلم** مِن الكفَّار. والمعنى: ما لِهؤلاءِ المُختلِفينَ في مُدَّةِ لبثِهِم وليٌّ دونَ اللهِ يتولَّى تدبيرَ أمرِهم، فكيف يكونونَ أعلَم منهُ، أو كيف يتعلَّمونَ مِن غيرِ إعلامِه إيَّاهُم.

(ولا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أحدًا) قرأ الجمهورُ بالياءِ ورَفْعِ الكافِ على معنى الخبرِ عن اللهِ تعالى.

وقرأ ابنُ عامرٍ والحسنُ وأبو رجاءٍ وقتادةُ والجُحدُريُّ ولا تُشْرِكْ بالتاءِ وإسكانِ الكافِ على جهةِ النَّبيِّ **صلى الله عليه وسلم**؛ فيكونُ عطفًا على قولِه أبصرْ بهِ وأسمِع.

وقرأ مُجاهِدٌ بالياءِ والجَزْم. قال يعقوب: لا أعرِفُ وَجْهَهُ.

مسألةٌ: اختُلِفَ في أصحابِ الكهفِ هل ماتُوا وفَنُوا؛ أمْ هُمْ نيامٌ وأجسادهُم مَحفوظةٌ؟ رُوي عن ابنِ عبَّاسٍ أنّه مَرَّ بالشامِ في بعضِ غَزواتِه مع ناسٍ على موضعِ الكهفِ وجَبَلِه، فمَشى الناسُ معَه إليه فوَجدُوا عِظامًا. فقالُوا: هذه عِظامُ أهلِ الكهفِ. فقال ابنُ عبَّاسٍ: أولئكَ قومٌ فنُوا وعَدِمُوا منذُ مُدَّةٍ طويلةٍ. فسَمِعَهُ راهبٌ فقال: ما كُنتُ أحسبُ أنّ أحداً من العربِ يَعرِفُ هذا ! فقيلَ له: هذا ابنُ عمِّ نبيِّنا **صلى الله عليه وسلم**.

وروتْ فِرقةٌ أنّ النَّبيَّ **صلى الله عليه وسلم** قال: لَيَحُجَنَّ عِيسى ابنُ مريمَ ومعهُ أصحابُ الكهفِ؛ فإنَّهُم لم يَحُجُّوا بعدُ. ذَكَرُه ابنُ عطيّةَ.

قلت: ومكتوبٌ في التوراةِ والإنجيلِ أنّ عِيسى بنِ مريمَ عبدُ اللهِ ورَسُولِه، وأنَّه يُمرُّ بالرَّوحاءِ حاجًّا أو مُعتَمِراً أو يَجمَعُ اللهُ له ذلكَ؛ فيجعلُ اللهُ حواريّه أصحابَ الكهفِ والرَّقيمِ، فيمرُونَ حُجَّاجًا؛ فإنَّهُم لم يَحُجُّوا ولمْ يَموتُوا.

وقد ذكَرنا هذا الخبرَ بِكمالِه في كتابِ " التذكرةِ ." فعلى هذا هُمْ نيامٌ ولم يَموتُوا إلى يومِ القيامةِ؛ بل يَموتُونَ قُبيلَ الساعةِ.

(واتلُ ما أُوحِيَ إليكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبدِّلَ لِكلِماتِه) قيلَ: هُو مِن تمامِ قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ؛ أيّ: اتَّبعِ القُرآنَ فلا مُبدِّلَ لِكلماتِ اللهِ ولا خَلفَ فيما أخبرَ بهِ مِن قصَّةِ أصحابِ الكهفِ. وقال الطبريُّ: لا مُغيِّرَ لِما أوعدَ بكلماتِه أهلَ معاصِيه

والمخالفينَ لكتابه. (**ولنْ تَجِدَ**) أنتَ (**مِن دُونِه**) إنْ لمْ تتَّبِعِ القُرآنَ وخالَفتَه.

(**مُلتَحدًا**) أيّ: ملجأً، وقيلَ: مَوئِلاً، وأصلُه الميلُ، ومَن لجأتَ إليه فقَد مِلْتَ إليه.

قال القُشيريُّ: وهذا آخرُ قصَّةِ أصحابِ الكهفِ[1].

تفسيرُ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاويّ

(**أم حسبت**) بل أحسِبتَ.

(**أنّ أصحابَ الكَهْفِ والرَّقيمِ**) في إبقاءِ حياتِهم مُدَّةً مديدةً.

(**كانُوا مِن آياتِنا عَجبًا**) وقِصَّتُهم بالإضافةِ إلى خَلَقَ ما على الأرضِ من الأجناسِ والأنواعِ الفائتةِ للحَصرِ على طبائعَ مُتباعِدةٍ وهيئاتٍ مُتخالِفةٍ تعجبُ الناظِرينَ مِن مادَّةٍ واحدةٍ ثمَّ ردَّها إليها ليسَ بِعَجيبٍ مع أنَّه مِن آياتِ اللهِ كالنَّزْرِ الحقيرِ.

والكهفُ: هو الغارُ الواسعُ في الجبلِ، والرَّقيمُ: هو اسمُ الجبلِ أو الوادي الذي فيه كهفُهُم أو اسمُ قريتِهم أو أنّه كلبُهم. قال أُميَّةُ بن أبي الصَّلْتِ:

وليسَ بها إلاّ الرقيم مُجاوراً وصَيدهُم والقومُ في الكهفِ هُجَّدُ.

أو لوحٌ رصاصيٌّ أو حَجريٌّ رُقِمَتْ فيه أسماؤهُم وجُعِلَ على بابِ الكهفِ.

وقيلَ: أصحابُ الرقيمِ قومٌ آخرونَ كانُوا ثلاثةً خرجُوا يرتادُونَ لأهلِهم فأخذتْهُم السماءُ فأوَوا إلى الكهفِ فانحَطَّتْ صخرةٌ وسدَّتْ بابَه فقالَ أحدُهم: اذكُرُوا أيُّكُم عملَ حسنةً لعلَّ اللهَ يَرحمَنا.

[1] تفسيرُ الطَّبريِّ: (ج١٦/ ص٦٠٠- ٦٥١)

(**إِذْ أَوَى الفِتيةُ إِلى الكَهفِ**) كانوا فِتيةً مِن أشرافِ الرُّومِ أرادَهُم "دقيانوس" على الشركِ فأبَوا وهَرَبُوا إلى الكهفِ.

(**فقالوا ربَّنا آتِنا مِن لَدُنكَ رَحمَةً**) أيّ: توِّجْ لنا المَغفِرةَ والرِّزقَ والأمنَ مِن العدوِّ.

(**وهَيئْ لنا مِن أمْرِنا**) مِن الأمْرِ الذي نحنُ عليه مِن مُفارَقةِ الكُفّار.

(**رَشدًا**) نَصيرُ بِسَببِه راشِدينَ مُهتدِينَ، أو اجعلْ أمرَنا كُلَّهُ رشداً؛ كقَولِكَ: رأيتُ مِنكَ أسداً، وأصلُ التهيئةِ إحداثُ هيئةِ الشيءِ.

(**فضَرَبْنا على آذانِهِم**) أيّ: ضَرَبْنا عليهِم حِجاباً يَمنعُ السماعَ بِمعنى أنْمناهُم إنامةً لا تُنبِّهُهم فيها الأصواتُ فَحُذِفَ المفعولُ كما حُذِفَ في قولِهم: بنى على امْرأتِه.

(**في الكهفِ سِنينَ**) ظَرفانِ لِضَربْنا.

(**عددًا**) أيّ: ذواتِ عَددٍ ووصفُ السِّنينَ به يحتملُ التكثيرَ والتقليلَ؛ فإنّ مُدَّةَ لبْثِهم كبعضِ يومٍ عِندَه.

(**ثمَّ بَعثناهُم**) أيقظْناهُم.

(**لِنَعلَمَ**)ليتعلَّقَ عِلمُنا تعلُّقًا حاليًا مُطابِقًا لِتعلُّقِه أوَّلاً تعلُّقًا استِقباليًّا.

(**أيُّ الحِزبَينِ**) المُختَلِفينَ مِنهُم أو مِن غَيرِهم في مُدَّةِ لبثِهم.

(**أحصَى لِما لَبِثُوا أمدًا**) أيّ ضبطَ أمدِ زمانِ لِبْثِهم.

(**نَحنُ نَقُصُّ عليكَ نَبأَهُم بِالحَقِّ**) بِالصِّدقِ.

(**إِنَّهُمْ فِتيةٌ**) شُبَّانَ جمعُ فَتىً كَصَبيٍّ وصِبيَّةٍ.

(**آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وزِدْناهُمْ هُدَى**) بِالتثبيتِ.

(**وربَطنا على قُلوبِهِم**) وقويّناها بِالصَّبْرِ على هَجْرِ (الوطنِ والأهلِ والمالِ) والجَراءةِ على إظهارِ الحقِّ والرَّدِّ على "دقيانوس" الجبَّارِ.

(**إذ قامُوا**) بين يَديهِ.

(**فقالُوا ربُّنا ربُّ السَّماواتِ والأرضِ لنْ ندعُوا مِن دُونِه إلهًا لَقَدْ قُلْنا إذا شَطَطًا**) واللهِ لقَد قُلنا قولاً ذا شَطَطٍ؛ أيّ ذا بُعدٍ عن الحقِّ مُفْرِطٍ في الظُّلْمِ.

(**هَؤلاءِ قومُنا**) عَطفُ بيانٍ.

(**اتَّخَذُوا مِن دُونِه آلِهَةً**) وهو إخبارٌ في معنى إنكارٍ.

(**لولا يأتُونَ**) هلاّ يأتُونَ.

(**عليهِم**) على عِبادتهِم.

(**بسُلطانٍ بيِّنٍ**) ببُرهانٍ ظاهرٍ فإنَّ الدِّينَ لا يُؤخَذُ إلاّ بِه. وفيهِ دليلٌ على أنَّ ما لا دليلَ عليهِ مِن الدِّياناتِ مَردُودٌ وأنَّ التقليدَ فيه غيرُ جائزٍ.

(**فَمَنْ أظلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِبًا**) بِنسبةِ الشريكِ إليهِ.

(**وإذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ**) خِطابُ بَعضِهِم لِبَعضٍ.

(ومايَعبُدونَ إلّاالله) عطفٌ على الضميرِ المَنصوبِ. أيّ: وإذا اعتزَلْتُمُ القومَ ومَعبُودِيهِم إلاّ اللهَ؛ فإنَّهُم كانُوا يَعبدُونَ اللهِ ويَعبدُونِ الأصنامِ كسائرِ المُشركينَ. ويجوزُ أن تكونَ ما مَصدريّةً على تقديرِ وإذْ اعْتَزلْتُموهُم وعِبادتَهُم إلاّ عبادةُ اللهِ. أو أن تكونَ نافيةً على أنّه إخبارٌ مِن اللهِ تعالى عن الفِتيةِ بالتوحيدِ مُعترضٌ بين إذْ وجوابِه لتحقيقِ اعتزالِهم.

(فأوُوا إلى الكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ) يَبسُطْ الرِّزقَ لَكُمْ ويُوسِّعْ عليكُم.

(مِن رحمَتِه) في الدَّارينِ.

(ويُهَيئ لَكُمْ مِنْ أمْرِكُمْ مِرْفَقًا) ما تَرتفِقُونَ بِهِ أيّ تَنْتَفِعُونَ، وجَزمُهُم بذلكَ لِنُصوعِ يقينِهم وقوَّةِ وثوقِهم بفَضلِ اللهِ تعالى.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ مُرفقًا بفتحِ الميمِ وكَسْرِ الفاءِ، وهو مَصدرٌ جاءَ شاذًّا كالمَرجعِ والمَحيضِ فإنّ قياسَه الفتحُ.

(وترى الشَّمْسَ) لو رأيتَهُم والخِطابُ لِرَسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ) أو لِكُلِّ أحدٍ.

(إذا طَلَعَتْ تزاورُ عَنْ كَهْفِهِمْ) تميلُ عنهُ ولا يقعُ شُعاعُها عليهِم فيؤذِيهم؛ لأنّ الكهفَ كان جَنوبيًّا، أو لأنّ اللهَ تعالى زوَّرها عنهُم. وأصلُه "تتزاورُ" فأدغمَتِ التاءُ في الزاي وقرأ الكُوفيونَ بِحَذفِها وابنُ عامرٍ ويعقوبُ "تَزْوَرُّ ك "تَحْمَرُّ"، وقُرِئَ "تزوارُّ" ك "تَحمارُّ" وكُلُّها مِن الزَّورِ بمعنى المَيلِ.

(**ذاتَ اليَمينِ**) جهةَ اليمينِ وحقيقتُها الجِهَةُ ذاتَ اسمِ اليمينِ.

(**وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم**) تقطُعهُم وتَصرمُ عنهُم.

(**ذاتَ الشِّمالِ**) يعني يمينَ الكهفِ وشِمالَه لِقولِه: (**وهُمْ في فَجْوةٍ مِنْهُ**) أيّ وَهُمْ في مُتَّسَعٍ من الكهفِ يعني في وسْطِهِ؛ بحيثُ ينالهُم روحُ الهواءِ ولا يُؤذيهِم كَربُ الغارِ ولا حَرُّ الشّمْسِ؛ وذلكَ لأنّ بابَ الكهفِ في مقابلةِ بناتِ نعشٍ وأقربُ المشارقِ والمَغاربِ إلى مُحاذاتِه مَشرقُ رأسِ السَّرطانِ ومَغربِه، والشمسُ إذا كان مَدارُها مَدارُه تطلعُ مائلةً عنهُ مقابلةً لجانبِه الأبيضِ وهو الذي يلي المَغرِبَ وتَغرُبُ مُحاذيةً لجانبِه الأيسرِ فيقعَ شُعاعُها على جانبيه ويُحلِّلُ عُفونَتَه ويَعدِّل هواءَه ولا يقعُ عليهِم فيؤذي أجسادَهُم ويُبلِيَ ثيابَهُم.

(**ذلك مِن آياتِ اللهِ**) أيّ: شأنُهم وإيواؤهُم إلى كهفٍ شأنُه كذلكَ، أو إخبارُكَ قِصَّتَهُم، أو ازورارُ الشمسِ عنهُم وقَرضُها طالعةً وغُربةً من آياتِ اللهِ.

(**مَن يَهْدِ اللهُ**) بالتوفيقِ.

(**فهُو المُهتَدِ**) الذي أصابَ الفلاحَ والمُرادُ بهِ؛ إمّا الثناءُ عليهِم أو التنبيهُ على أنَّ أمثالَ هذه الآياتِ كثيرةٌ ولكنَّ المُنتفِعَ بها مِن وفَّقَهُ اللهُ للتأمُّلِ فيها والاستِبصارِ بها.

(**ومَن يُضْلِلِ**) ومَن يَخْذلُه.

(**فلَنْ تَجِدَ لَهُ ولِيًّا مُرشِدًا**) مَن يليهِ ويُرشِدُه.

(**وتَحسبُهُم أيقاظًا**) لانفتاحِ عُيونِهم أو لِكثرَةِ تقلُّبِهِم.

(وهُمْ رُقودٌ) نيامٌ.

(ونُقلِّبُهُم) في رَقدتِهم.

(ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ) كَيلا تأكُلَ الأرضُ ما يليها مِن أبدانِهم على طولِ الزمانِ. وقُرِئَ ويُقلِّبُهم بالياءِ والضميرُ "اللهُ" تعالى، وتقلّبُهُم على المصدرِ مَنصوبًا بِفعلٍ يدلُّ عليه تحسبُهم أيّ وتَرى تقلُّبَهُم.

(وكلبُهُم) هو كلبٌ مَرُّوا بِه فتبِعهُم فَطرَدُوه فأنطقَهُ اللهُ تعالى فقالَ أنا أحبُّ أحبَّاءِ اللهِ فَناموُا وأنا أحْرُسكُم، أو كلبُ راعٍ مَرُّوا بِه فَتَبِعَهُم وتبِعُه الكلبُ، ويُؤيِّدُه قراءةُ مَن قرأَ: وكالبهم أيّ وصاحِبُ كلبِهم.

(باسِطٌ ذِراعَيه) حكايةُ حالٍ ماضيةٍ؛ ولذلك أعمِلَ اسمَ الفاعِل.

(بالوصيدِ) بِفناءِ الكهفِ وقيلَ: الوصِيدُ البابُ وقيلَ: العَتبَةُ.

(لو اطَّلَعتَ عليهِم) فنَظرَتَ إليهِم وقُرِئَ لو اطّلعَتَ بِضمّ الواوِ.

(لولَّيْتَ مِنهُم فِرارًا) لَهَربْتَ مِنهُم، وفِرارًا يحتمِلُ المَصدَرُ؛ لأنّهُ نوعٌ من التوليةِ والعِلَّةِ والحالِ.

(وَلَمُلِئْتَ مِنْهُم رُعبًا) خوفًا يملأُ صدركَ بما ألبسَهُم اللهُ مِن الهيبةِ، أو لِعِظَمِ أجْرامِهم وانفتاحِ عُيونهِم، وقيلَ: لِوحشةِ مَكانِهم. وعن معاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنّه غَزا الرُّومَ فمَرَّ بالكهفِ فقالَ: لو كَشَفْتَ لنا عن هؤلاءِ فنَظرْنا إليهِم. فقالَ له ابنُ

عبَّاسٍ رضيَ اللّٰهُ تعالى عنهُما ليسَ لك ذلكَ، قد منعَ اللّٰهُ تعالى مِنهُ مَن هو خَيرٌ مِنكَ فقال: لو اطَّلَعتَ عليهِم لولَّيْتَ مِنهُم فِراراً.

فلمْ يسمَع وبعثَ ناسًا فلمّا دَخلُوا جاءتْ ريحٌ فأحرَقَتْهُم. وقرأ الحِجازيانِ: "لُمِّئْتَ رعبًا" بالتشديدِ للمُبالَغةِ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ ويعقوبُ.

(وكذلكَ بَعثناهُمْ) وكما أنمْناهُم آية بَعثناهُم آيةٌ على كَمالِ قُدرَتِنا.

(لِيتَساءلُوا بينَهُم) لِيسألَ بعضُهم بَعضًا فتَعرِفُوا حالَهُم وما صَنعَ اللّٰهُ بهِم فيزْدادُوا يقينًا على كمالِ قُدرةِ اللّٰهِ تعالى ويَستبْصِرُوا بهِ أمرَ البعثِ، ويَشْكُروا ما أنعمَ اللّٰهُ به عليهِم.

(قالَ قائلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثنا يوماً أو بَعضَ يومٍ) بناءً على غالبِ ظنِّهِم؛ لأنّ النائِمَ لا يُحصِي مُدَّةَ نَومِه؛ ولذلكَ أحالُوا العِلْمَ إلى اللّٰهِ تعالى.

(قالُوا رَبُّكُمْ أعلَمُ بِما لَبِثْتُمْ) ويجوزُ أن يكونَ ذلك قولُ بعضِهم وذا إنكارُ الآخَرينَ عليهِم، وقيلَ: إنَّهُم دخلُوا الكهفَ غدوةً، وانتبَهُوا ظهيرةً، وظنُّوا أنَّهُم في يومِهم أو اليومِ الذي بَعدَه قالوا ذلكَ، فلمّا نظرُوا إلى طولِ أظفارِهم وأشعراهِم قالوا هذا، ثمَّ لّما علِمُوا أنّ الأمرَ مُلتبِسٌ لا طريقَ لهُم إلى علمِه أخذُوا فيما يهمُّهُم وقالوا **(ابْعثُوا)** والورِقُ الفضَّةُ مَضروبةً كانت أو غيرَ مضرُوبةٍ، والمدينة "طرسوس".

(فلْيَنْظُرْ أيُّها) أيّ أهْلُها.

(أزكَى طعامًا) أحلَّ وأطيبَ أو أكثرَ وأرخَصَ.

(**فليأتِكُم بِرِزقٍ مِنهُ وليَتلَطَّف**) ولَيَتَكَلَّفَ اللطفَ في المُعاملَةِ حتّى لا يُغبنَ أو في التخفِّي حتّى لا يُعرَفَ.

(**ولا يُشعِرنَّ بِكُم أحدًا**) ولا يَفعَلَنَّ ما يؤدِّي إلى الشُّعور.

(**إنَّهُم إنْ يَظهَروا عليكُم**) أي يطَّلعُوا عليكُم أو يَظفَرُوا بكُم والضَّميرُ لأهلِ المُقدَّرِ في أيُّها.

(**يَرجُمُوكُم**) يقتلُوكُم بالرَّجْم.

(**أو يُعيدُوكُم في مِلَّتِهِم**) أو يُصيِّرُوكُم إليها كَرهًا مِن العَودِ بمعنى الصَّيرورةِ، وقيلَ: كانوا أوَّلاً على دِينِهم فآمَنوا (**ولنْ تُفلِحُوا إذًا أبدًا**) إنْ دَخلْتُم في مِلَّتِهم.

(**وكذلكَ أعثَرنا عليهِم**) وكما أنْمناهُم وبَعثناهُمْ لِتزْدادَ بَصيرَتُهمْ أطلَعنا عليهِم (**لِيعلَمُوا**) لِيعلَمَ الذينَ أطلَعناهُم على حالِهم (**أنَّ وَعْدَ اللهِ**) بالبعثِ أو الموعودِ الذي هو البعثُ (**حَقٌّ**) لأنّ نومَهُم وانتباهَهُ كحالِ مَن يموتُ ثمَّ يُبعَثُ.

(**وأنّ الساعةَ لا رَيبَ فِيها**) وأنّ القيامةَ لا ريبَ في إمكانِها، فإنَّ مَن توفَّى نفوسَهُم وأمسكَها ثلاثمائةً سِنينَ حافِظًا أبدانَها عن التحلُّلِ والتفتُّتِ، ثمَّ أرسلَها إليها قادرٌ أن يتوفَّى نفوسَ جميعِ الناسِ مُمسِكًا إيّاها إلى أنْ يحشُرَ أبدانَهُم فيَردَّها عليها.

(**إذ يَتنازَعُونَ**) ظرفٌ ل "أعثرنا"، أيّ أعثَرنا عليهِم حين يتنازَعُونَ (**بينَهُم أمرَهُم**) أمرَ دينِهم، وكان بعضُهم يقولُ: تُبعَثُ الأرواحُ مُجرَّدةً، وبعضُهم يقولُ

يُبعثانِ معًا؛ ليرتفعَ الخلافُ ويتبيَّنَ أنَّهُما يُبعثانِ معًا، أو أمرَ الفِتية حين أماتَهُم اللهُ ثانيًا بالموتِ. فقال بعضُهم: ماتُوا، وقالَ آخرونَ: نامُوا نومَهُم أوَّلَ مَرَّةٍ. أو قالت طائفةٌ نبني عليهِم بُنيانًا يسكنُه الناسُ ويتَّخِذُونَه قُربَةً، وقال آخرونَ: لَنَتَّخِذَنَّ عليهِم مَسجِداً يُصلَّى فيه كما قالَ تعالى **(فقالُوا ابْنُوا عليهِمْ بُنيانًا رَبُّهُمْ أعلَمُ بِهِمْ قالَ الذينَ غلبُوا على أمْرِهِمْ لَنتَّخِذَنَّ عليهِم مَسجِدًا)** وقولُه "ربُّهُم أعلَمُ بهِم" اعتراضٌ إمّا مِن اللَّهِ ردًّا على الخائِضينَ في أمرهِم مِن أولئكَ المُتنازِعينَ، أو مِن المُتنازِعينَ في زمانِهم، أو مِن المُتنازِعينَ فيهِم على عهدِ رسولِ **صلى الله عليه وسلم** أو مِن المتنازِعينَ للرَّدِّ إلى الله بعدَ ما تذكَّرُوا أمرَهُم وتناقَلُوا الكلامَ في أنسابِهم وأحوالِهم فلم يتحقَّقْ لهُم ذلك. حُكِيَ أنّ المبعوثَ لمّا دخلَ السوقَ وأخرجَ الدراهِمَ وكان عليها اسمُ "دقيانوس" اتَّهَمُوه بأنَّه وَجَدَ كنزًا فذهَبُوا به إلى المَلِكِ – وكان نصرانيًّا مُوحِّدًا – فقصَّ عليه القَصَصَ فقال بعضُهم إنّ آباءنا أخبرُونا أنّ فِتيةً فرُّوا بِدِينِهم مِن "دقيانوس" فلعلَّهُم هؤلاءِ، فانطلقَ الملكُ وأهلُ المدينةِ من مؤمنٍ وكافرٍ وأبصرُوهم وكلَّمُوهم، ثمَّ قالتِ الفِتيةُ للملكِ نَستودِعُكَ اللهَ ونُعيذُكَ به مِن شرِّ الجنِّ والإنسِ، ثمَّ رجعُوا إلى مضاجعِهم فماتُوا، فدفنَهُم الملكُ في الكهفِ وبنى عليهِم مسجداً. وقيلَ: لمّا انتهَوا إلى الكهفِ قال لهُم الفتى: مكانَكُم حتّى أدخُلَ أوَّلاً؛ لِئلاّ يَفزعُوا فدخَل فعَمي عليهِم المدخلُ فَبَنوا ثم مَسجِداً.

(سيَقولُونَ) أيّ الخائِضونَ في قِصَّتِهم في عهدِ الرَّسولِ **صلى الله عليه وسلم** مِن أهلِ الكتابِ والمؤمنينَ.

(ثلاثةٌ رابعُهم كلبُهم) أيّ هُم ثلاثةُ رجالٍ يَربعُهُم كلبهُم بانضمامِه إليهِم وهو قولُ اليهودِ.

(ويقولونَ خمسةٌ سادِسهُم كلْبُهم) وهو قولُ النَّصارى.

(رجْمًا بالغيبِ) رميًا بالخبرِ الخفيِّ الذي لا مطلعَ لهُم عليهِ وإتيانًا بهِ، أو ظنًّا بالغيبِ مِن قولِهم رَجْمٌ بِالظَّنِّ إذا ظَنَّ. ولمْ يذكُرِ السِّتَ اكتفاءً بعطفِه على ما هُو فيهِ.

(ويقولُونَ سَبْعةٌ وثامِنهُم كلْبُهُم) قالَهُ المسلمونَ بإخبارِ الرسولِ **صلى الله عليه وسلم** لهُم وإيماءٌ اللهِ تعالى إليهِ باتِّباعِه.

وقولُه **(قُلْ ربِّي أعلَمُ بِعِدَّتِهِم ما يَعلَمُهُم إلّا قليلٌ)** أتبعَ القولَينِ الأوَّلَينِ بِقَولِه "رجمًا بالغيبِ"، وأثبتَ العلمَ بهِم لطائفةٍ بعد ما حصرَ أقوالَ الطوائفِ الثلاثةِ، وأدخلَ الواوَ على الجملةِ الواقعةِ صفةٌ للنكرةِ تشبيهًا لها بالواقعةِ حالاً من المعرفةِ لتأكيدِ لُصوقِ الصفةِ بِالموصوفِ والدلالةِ على أنَّ اتِّصافَه بها أمرٌ ثابتٌ. وعن عليٍّ رضيَ اللهُ عنه قالَ: هُم سَبْعةٌ وثامِنُهم كلبُهم وأسماؤهُم: يمليخا ومكشلينيا ومشلينيا هؤلاءِ أصحابِ يمينِ المَلكِ، ومرنوش ودبرنوش وشاذنوش أصحابُ يَسارِه، والسابعُ الرَّاعي الذي وافقَهُم. واسمُ كلبِهِم قطمِير، واسمُ مدينتِهم أفسوس.

(فلا تُمارِ فيهِم إلّا مِراءً ظاهِرًا) فلا تجُادِلْ في شأنِ هؤلاءِ الفِتيةِ إلا جِدالاً ظاهِرًا غيرَ مُتعمِّقٍ فيه، وهو أن تقُصَّ عليهِم ما في القُرآنِ مِن غيرِ تجهيلٍ لهُم والرَّدّ عليهِم.

(ولا تَسْتَفْتِ فيهِم مِنهُم أحدًا) ولا تسألْ أحداً منهُم عن قِصَّتِهم سؤالَ مُسترْشِدٍ، فإنّ ما أُوحِيَ إليكَ لَمَنْدُوحةٌ مِن غيرِه مع أنّه لا عِلْمَ لهُم بها، ولا سؤالَ مُتعَنِّتٍ تُريدُ تفضيحَ المسؤولِ وتزييفَ ما عِندَه فإنَّه مُخِلٌّ بِمكارمِ الأخلاقِ.

(ولا تَقولَنَّ لِشيءٍ إنّي فاعِلٌ ذلكَ غَدًا* إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ) نهيٌ تأديبٍ مِن اللهِ تعالى لِنبيِّه **صلى الله عليه وسلم** حين قالتِ اليهودُ لِقُريشٍ: سلُوه عن الروحِ وأصحابِ الكهفِ وذِي القرنَينِ فسألُوه فقالَ: ائتُوني غداً أُخبركُم ولم يَستثْنِ، فأبطأَ عليهِ الوحيُ بِضعةَ عشرَ يَومًا حتّى شقَّ عليهِ وكذَّبَتْهُ قريشٌ. والاستثناءُ من النهي هو: ولا تَقولَنَّ لأجلِ شيءٍ تَعزِمُ عليهِ إنّي فاعِلُه فيما يُستقْبلُ إلاّ بِقَولِكَ أنْ يشاءَ اللّهُ؛ أيّ: إلاّ مُتلبساً بِمشيئتِه قائِلاً: إنْ شاءَ اللّهُ، أو إلاّ وقتَ أنْ يَشاءَ اللّهُ، أو أنْ تقولَه بمعنى أن يأذنَ اللّهُ لكَ فيهِ. ولا يجوزُ تعليقهُ بفاعلٍ؛ لأنّ استثناءَ اقترانِ المشيئةِ بالفعلِ غيرُ سديدٍ واستثناءُ اعتراضِها دُونَه لا يُناسِبُ النهيَ.

(واذكُرْ رَبَّكَ) أيّ مشيئةَ ربِّكَ وقُلْ إنْ شاءَ اللّهُ، كما رُويَ أنّه لَمّا نَزَلَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إنْ شاءَ اللّهُ.

(إذا نَسيتَ) أي إذا فَرَطَ مِنكَ نِسيانٌ لِذلكَ ثمَّ تَذكَّرْتَه. وعن ابنِ عبَّاسٍ: ولو بعدَ سَنَةٍ ما لمْ يَحنثْ ولذلكَ جُوِّزَ تأخيرُ الاستثناءِ عنه. وعامَّةُ الفقهاءِ على خِلافِه؛ لأنّه لو صحَّ ذلكَ لم يتقرَّرْ إقرارٌ ولا طلاقٌ ولا عتاقٌ ولم يُعلَمُ صِدقٌ ولا كذبٌ. وليسَ في الآيةِ والخبرِ أنّ الاستثناءَ المُتدارَكَ بهِ من القولِ السابقِ؛ بل هُو مِن مُقدَّرٍ مدلولٍ بهِ عليهِ. ويَجوزُ أن يكونَ المعنى: واذكُرْ رَبَّكَ بالتسبيحِ والاستغفارِ إذا

نَسِيتَ الاستثناءَ مُبالَغةً في الحثِّ عليه، أو اذكُرْ ربَّكَ وعِقابَه إذا تركْتَ بعضَ ما أمركَ بِه لِيَبْعثَكَ على التدارُكِ، أو اذْكُرْهُ إذا اعتراكَ النِّسيانُ لِيُذَكِّرَكَ المنسيَّ **(وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي)** يَدُلُّني **(لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا)** لأقْرَبَ رشداً وأظهرَ دلالةً على أنّ نبي مِن نبأِ أصحابِ الكهفِ وقد هداهُ لأعظَم مِن ذلكَ كَـ- (قَصصِ الأنبياءِ المُتباعِدَة عنهُ أيّامُهم والإخبارِ بالغُيوبِ والحوادثِ النازلةِ في الأعصارِ المستقبَلَة إلى قيامِ الساعةِ أو لأقربَ رشْداً وأدنَى خيراً مِن المنسيِّ.

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) يعني لبثهُم فيه أحياءً مَضْرُوبًا على آذانِهم وهو بيانٌ لما أُجْملَ قبلُ. وقيلَ: إنَّه كلامُ أهلِ الكتابِ؛ فإنَّهُم اختلفُوا في مُدَّةِ لُبْثِهم، كما اختلَفُوا في عِدَّتِهم؛ فقالَ بعضُهم: ثلاثمائةٍ، وقال بعضُهم: ثلاثمائةٍ وتِسْعِ سِنينَ. وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ ثلاثمائةٍ سِنينَ بالإضافةِ على وَضْعِ الجمعِ موضِعَ الواحدِ، ويُحسِّنُه ها هُنا: أنّ علامةَ الجمعِ فيه جَبْرٌ لِما حُذِفَ من الواحدِ، وأنّ الأصلَ في العددِ إضافتُه إلى الجمعِ، ومَن لَمْ يُضِفْ أبدلَ السِّنينَ من ثلاثمائةٍ **(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** لهُ ما غابَ فيهِما وخَفِيَ من أحوالِ أهلِهما فلا خلقَ يَخفَى عليه علماً **(أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ)** ذَكرَ بصيغةِ التعجُّبِ للدلالةِ على أنَّ أمرَه في الإدراكِ خارجٌ عمّا عليهِ إدراكُ السامعينَ والمُبْصِرينَ؛ إذ لا يَحجُبُه شيءٌ ولا يتفاوتُ دُونَهُ لطيفٌ وكثيفٌ وصغيرٌ وكبيرٌ وخفيٌّ وجَليٌّ والهاءُ تعودُ إلى اللهِ.

(**مالَهُم**) الضميرُ لأهلِ السمواتِ والأرضِ (**مِن دُونِه مِن ولِيٍّ**) مَن يتولَّى أمورَهُم (**ولا يُشْرِكُ في حُكْمِهِ**) في قضائِه (**أحدًا**) منهُم ولا يجعلْ له فيه مَدخلاً. ثمَّ لَمَّا دلَّ اشتملَ القرآنُ على قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ من حيث إنَّها من المُغيَّباتِ بالإضافةِ إلى رسولِ اللهِ على أنّه وحيٌ مُعجِزٌ أمرَه أن يُداوِمَ دَرسَهُ ويُلازِمَ أصحابَه فقالَ: (**واتْلُ ما أوحِيَ إليكَ مِن كتابِ ربِّكَ**) من القرآنِ ولا تَسمعْ لِقولِهم: ائتِ بِقُرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّلْهُ. (**لا مُبدِّلَ لِكلماتِه**) لا أحدَ يَقْدرُ على تبديلِها وتغييرِها غيرُه (**ولَنْ تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحدًا**) مُلتجأً عليه إنْ هَمَمْتَ به [1].

تفسيرُ القرطبيِّ

مذهبُ سِيبَويه أنّ (**أمْ**) إذا جاءتْ دونَ أن يتقدَّمَها ألفُ استفهامٍ أنَّها بمعنى بلْ وألفُ الاستفهامِ، وهيَ المُنقطِعةُ. وقيلَ: أمْ عطفٌ على معنى الاستفهامِ في لَعلَّكَ، أو بمعنى ألفِ الاستفهامِ على الإنكارِ. قال الطبريُّ: هو تقريرٌ للنبيِّ **صلى الله عليه وسلم** على حسابِه أنّ أصحابَ الكهفِ كانُوا عَجبًا؛ بمعنى إنكارِ ذلكَ عليه؛ أيّ: لا يعظمُ ذلكَ بحسبِ ما عظَّمَه عليكَ السائلُونَ من الكَفَرَةِ؛ فإنّ سائرَ آياتِ اللهِ أعظمُ من قِصَّتِهم وأشيعُ، هذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ ومُجاهِدٍ وقتادةَ وابنِ إسحاق، والخِطابُ للنبيِّ **صلى الله عليه وسلم**؛ وذلك أنّ المُشرِكينَ سألُوه عن (فِتيةٍ فُقِدُوا،

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ج٣/ص٢٧٣، ٣٧٩).

وعن ذِي القَرنَينِ وعن الرُّوحِ)، وأبطأَ الوحيُ على ما تقدَّمَ؛ فلمّا نزلَ قال اللهُ تعالى لِنبيِّه **صلى الله عليه وسلم**: أمْ (**حَسِبْتَ**) يا مُحمَّدُ (**أنّأصحابَالكَهْفِ والرَّقِيمِ كانُوامِنآياتِناعَجَبًا**) أيّ: لَيسُوا بِعَجَبٍ مِن آياتِنا؛ بل في آياتِنا ما هُو أعجبُ مِن خَبَرِهم. قال الكلبيُّ: خَلقُ السماواتِ والأرضِ أعجبُ مِن خَبرِهم. وقال الضَّحَّاكُ: ما أطلعتُكَ عليهِ من الغيبِ أعجبُ. وقال الجُنيدُ: شأنُكَ في الإسراءِ أعجبُ. وقال الماورديُّ: معنى الكلامِ النفيُّ؛ أي: ما حَسِبْتَ لولا إخبارِنا. وقال أبو سَهلٍ: استفهامُ تقريرٍ أيّ: أحسِبْتَ ذلكَ فإنَّهُم عَجَبٌ. والكهفُ هو النقبُ المُتّسِعُ في الجبلِ، وما لم يتَّسِعْ فهو غارٌ. وحكى النقَّاشُ عن أنسِ بنِ مالكٍ أنّه قال: الكهفُ هو الجبلُ وهذا غيرُ شهيرٍ في اللغةِ.

واختلفَ الناسُ في الرَّقيمِ؛ فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: كلُّ شيءٍ في القُرآنِ أعلَمُه إلاّ أربعةً: غِسْلِين وحَنان والأوَّاه والرَّقيم. وسُئِلَ مَرَّةً عن الرَّقيمِ فقال: زَعمَ كَعْبٌ أنّها قريةٌ خَرجُوا مِنها. وقال مُجاهِدٌ: الرَّقيمُ وادٍ. وقال السُّدِّيُّ: الرَّقيمُ الصخرةُ التي كانت على الكهفِ. وقال ابنُ زيدٍ: الرقيمُ كتابٌ غمَّ اللهُ علينا أمرَه، ولم يَشرَحْ لنا قِصَّتَه. وقالت فِرقةٌ: الرَّقيمُ كتابٌ في لوحٍ من نُحاسٍ. وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: في لوحٍ مِن رصاصٍ كَتَبَ فيه القومُ الكفَّارُ الذي فرَّ الفِتيةُ مِنهُم قِصَّتَهُم وجَعلُوها تاريخًا لهُم، ذَكَرُوا وقتَ فَقْدِهِم وكَمْ كانُوا وبينَ مَن كانُوا. وقال القراء: الرَّقيمُ لوحٌ من رَصاصٍ كُتِبَ فيه أسماؤهُم وأنسابُهم ودِينُهم وممَّنَ هَربُوا. قال ابنُ عطيَّةَ: ويَظهَرُ مِن هذه الرِّواياتِ أنَّهُم كانُوا قومًا مُؤرِّخينَ لِلحَوادثِ؛ وذلك مِن نبلِ المَملَكةِ. وهذه الأقوالُ مأخوذةٌ من الرَّقْمِ، ومِنهُ كتابٌ مرقومٌ. ومِنهُ الأرقمُ لِتخْطيطِه. ومِنهُ رقمةُ الوادي،

أيّ مكانَ جَري الماءِ وانعطافِه. وما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ ليسَ بمُتناقِضٍ؛ لأنَّ القولَ الأوَّلَ إنَّما سَمِعَهُ من كعبٍ. والقولُ الثاني يجوزُ أن يكونَ عرفُ الرقيمِ بعدَه. وروى عنه سَعيدُ بنُ جُبيرٍ قال: ذكرَ ابنُ عبَّاسٍ أصحابَ الكهفِ فقالَ: إنّ الفِتيةَ فَقَدُوا فَطلبَهُم أهلُوهُم فلَمْ يَجِدُوهُم فَرُفِعَ ذلك إلى الملكِ فقال: ليَكُونَنَّ لهُم نبأٌ، وأحضرَ لوحًا من رصاصٍ فكتبَ فيه أسماءهُم وجعلَه في خِزانتِه؛ فذلكَ اللوحُ هو الرَّقيمُ. وقيلَ: إنَّ مُؤمِنَينِ كانا في بيتِ المَلِكِ فكَتبا شأنَ الفِتيةِ وأسماءهُم وأنسابَهُم في لوحٍ مِن رصاصٍ، ثمَّ جَعلاهُ في تابوتٍ مِن نُحاسٍ وجعلاهُ في البُنيانِ فاللّهُ أعلمُ. وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا: الرَّقيمُ كتابٌ مرقومٌ كان عِندَهُم فيه الشَّرعُ الذي تَمسَّكُوا بهِ من دِينِ عِيسى عليهِ السلامُ. وقال النَّقَّاشُ عن قتادةَ: الرَّقيمُ دراهِمُهم. وقال أنسُ بنُ مالكٍ والشعبيُّ: الرَّقيمُ كلبُهم. وقال عِكرمةُ: الرَّقيمُ الدَّواةُ. وقيلَ: الرَّقيمُ لوحٌ مِن الذهبِ تحتَ الجِدارِ الذي أقامَهُ الخضرُ. وقيلَ: الرَّقيمُ أصحابُ الغارِ الذي انطبقَ عليهِم فَذَكَرَ كُلُّ واحدٍ مِنهُم أصلحَ عَملِه. وقال قومٌ: أخبرَ اللّهُ عن أصحابِ الكهفِ ولم يُخبِرْ عن أصحابِ الرَّقيمِ بِشيءٍ. وقال الضَّحَّاكُ: الرَّقيمُ بلدةٌ بالرُّومِ فيها غارٌ فيه أحدٌ وعِشرونَ نفْسًا كأنَّهُم نِيامٌ على هيئةِ أصحابِ الكهفِ؛ فَعلَى هذا هُمْ فِتيةٌ آخَرونَ جَرَى لهُم ما جَرَى لأصحابِ الكهفِ. وقيلَ: الرَّقيمُ وادٍ دونَ فلسطينَ فيه الكهفٌ، مأخوذٌ من رقْمةِ الوادي وهي مَوضِعُ الماءِ، يُقالُ: عليك بالرقْمةِ ودع الضّفَّةَ، ذَكَرَهُ الغزنويُّ. قال ابنُ عطيَّةَ: وبِالشامِ على ما سَمِعْتُ بِه من ناسٍ كثيرٍ كهفٌ فيه موتَى يَزْعُم مُجاورُوه أنَّهُم أصحابُ الكهفِ وعليهِم مسجدٌ وبناءٌ يسمَّى الرَّقيمُ ومعهُم كلبُ رمّة. وبالأندلسِ في جِهةِ غِرناطةَ بِقُربِ قريةٍ

تُسمَّى "لوشة" كهفٌ فيه موتَى ومعهُم كلبُ رمَّة، وأكثرُهم قد تجرَّدَ لحمُه وبعضُهم مُتماسِكٌ، وقد مَضَتِ القُرونُ السالفةُ ولم نجِدْ مِن علْمِ شأنِهم أثارةً، ويَزعمُ ناسٌ أنَّهُم أصحابُ الكهفِ، وقد دخلتُ عليهِم ورأيتهُم سَنةَ أربعٍ وخمسمائةٍ وهُم بهذِه الحالةِ، وعليهِم مسجدٌ وقريبٌ منهُم بناءٌ رُوميٌّ يُسمَّى الرَّقيم كأنّهُ قصرٌ مخلقٌ قد بقيَ بعضُ جُدرانِه وهو في فلاةٍ من الأرضِ خَرِبَةٍ، وبأعلى غِرناطةَ ممّا يلي القِبلَةَ آثارُ مدينةٍ قديمةٍ رُوميَّةٍ يُقالُ لها مدينةُ "دقيوس"، وَجَدْنا في آثارِها غرائبُ من قُبورٍ ونحوِها.

قلتُ: ما ذُكِرَ مِن رؤيتِه لهُم بالأندلسِ؛ فإنَّما هُم غَيرُهم؛ لأنّ اللهَ تعالى يقولُ في حقِّ أصحابِ الكهفِ: لو اطَّلَعتَ عليهِم لَولَّيْتَ منهُم فِرارًا ولَمُلِئْتَ منهُم رُعبًا. وقال ابنُ عبَّاسٍ لِمُعاويةَ لمّا أرادَ رُؤيتَهُم: قَد منعَ اللهُ مَن هُو خيرٌ منكَ عن ذَلِكَ. وقال مُجاهِدٌ في قول "كانُوا من آياتِنا عَجَبًا": هُمْ عَجَبٌ. وقيلَ ليسَ بأعجبِ آياتِنا.

(إذْأوى الفِتيةُإلى الكَهْفِ) رُوي أنَّهُم قومٌ مِن أبناءِ أشرافِ مدينةِ "دقيوس" المَلِكِ الكافِرِ، ويُقالُ فيه "دقينوس". ورُويَ أنَّهُم كانُوا مُطوَّقِينَ مُسَوَّرِينَ بالذَّهبِ ذَوي ذَوائِبَ، وهُمْ مِن الرُّومِ واتَّبَعُوا دِينَ عِيسى. وقيلَ: كانوا قبلَ عِيسى. وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: إنّ مَلِكًا مِن المُلوكِ بعدَ زَمَنِ عِيسى عليهِ السلامُ يُقالُ له "دقيانوس" ظهرَ على مَدينةٍ من مدائنِ الرُّومِ يُقالُ لها "أفسوس"، وقيلَ: هي "طرسوس" فدعا أهلَها إلى عِبادةِ الأصنامِ، وكان بها سبعةُ أحداثٍ يَعبُدونَ اللهَ سِرًّا، فَرُفِعَ خَبَرُهُم إلى المَلِكَ فَهَرَبُوا ليلاً، ومَرُّوا بِراعٍ مَعهُ كلبٌ فَتَبِعَهُم فآوَوا إلى الكهفِ فَتَبِعَهُم المَلِكُ إلى فَمِ الغارِ؛ فوَجدَ أثرَ دُخولِهم ولم يَجِدْ أثرَ خُروجِهم، فَدَخَلُوا فأعمَى اللهُ أبصارَهُم فلمْ

يَرَوا شيئًا. فقالَ المَلِكُ: سُدُّوا عليهِم بابَ الغارِ حتّى يموتُوا فيهِ جُوعًا وعَطشًا. وروى مُجاهِدٌ عن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا: أنّ هؤلاءِ الفِتيةِ كانُوا في دِينِ مَلِكٍ يعبدُ الأصنامَ ويذبحُ لها ويَكفُرُ باللهِ، وقد تابَعَهُ على ذلكَ أهلُ المَدينةِ؛ فَوقعَ للفِتيةِ عِلْمٌ مِن بعضِ الحَواريينَ – حسبما ذَكَرَ النَّقَّاشُ أو مِن مُؤمِني الأُمَمِ قَبْلَهُم – فآمَنُوا باللهِ ورأوا بِبصائِرِهِم قبيحَ فعلِ الناسِ، فأخَذُوا نُفوسَهُم بالتزامِ الدِّينِ وعِبادةِ اللهِ، فَرُفِعَ أمرُهُم إلى المَلِكِ وقِيلَ لهُ: إنَّهُمْ قد فارَقُوا دِينَكَ واستخَفُّوا آلهتَكَ وكفَرُوا بها، فاستحضَرَهُم المَلِكُ إلى مَجْلِسِه وأمرَهُم باتِّباعِ دِينِه والذَّبْحِ لآلِهَتِه، وتَوعَّدَهُم على فِراقِ ذلك بالقتلِ. فقالُوا لهُ فيما رُوِيَ: رَبُّنا ربُّ السَّماواتِ والأرضِ... ورُوِيَ: أنَّهُم قالُوا نحوَ هذا الكلامِ وليسَ بهِ، فقالَ لهُم المَلِكُ: إنَّكُمْ شُبَّانٌ أغْمارٌ لا عُقولَ لَكُمْ، وأنا لا أعجَلُ بِكُمْ؛ بل استأنِي فاذْهَبُوا إلى مَنازِلِكُمْ ودَبِّرُوا رأيَكُمْ وارجِعُوا إلى أمْرِي، وضَرَبَ لهُم في ذلك أجلاً. فتشاورَ الفِتيةُ في الهُروبِ بِدِينِهِم، فقالَ أحدُهُم: إنِّي أعرِفُ كهْفًا في جبلِ كذا، وكانَ أبي يُدخِلُ فيهِ غَنَمَهُ فَلْنَذْهَبْ فَلْنَخْتَفِ فيهِ حتّى يفتحَ اللهُ لنا. فخَرجُوا فيما رُوي يَلعبُونَ بالصَّولجَانِ والكُرَةِ، وهُمْ يُدحْرِجُونَها إلى نَحْوِ طَريقِهِم؛ لِئلاّ يَشعُرَ الناسُ بهِم. ورُوِيَ أنَّهُم كانُوا مُثقَّفِينَ فحَضرَ عِيدٌ خَرجُوا إليهِ فرَكِبُوا في جُملَةِ الناسِ، ثمَّ أخذُوا باللعبِ بالصَّولجَانِ حتّى خلصُوا بِذَلِكَ. وروى وهبُ بنُ مُنبِّهٍ: أنّ أوّلَ أمْرِهم إنّما كان حَواري لِعيسى بنِ مريمَ جاءَ إلى مدينةِ أصحابِ الكهفِ يُريدُ دُخولَها، فأجَرَ نَفْسَهُ مِن صاحبِ الحمَّامِ وكان يعملُ فيهِ، فرأى صاحبُ الحمَّامِ في أعمالِه بَركَةً عظيمةً فألقَى إليهِ بِكُلِّ أمرِه، وعرفَ ذلك الرجلُ فتيانَ من المدينةِ فَعَرَفَهُم باللهِ تعالى فآمنُوا بهِ واتَّبعُوه على دِينِه،

واشتهرَتْ خِلْطتُهُم بِه، فأتى يومًا إلى ذلكَ الحمَّامِ ابنُ المَلِكِ بامرأةٍ أرادَ الخلوةَ بها، فنهاهُ ذلك الحواريُ فانتهى، ثُمَّ جاءَ مرَّةً أُخْرَى فَنهاهُ فَشتمَهُ، وأمضَى عَزْمَهُ في دُخولِ الحمَّامِ مع البغيِّ، فدخلَ فماتا فيهِ جميعًا، فاتَّهَم ذلك الحواريَ وأصحابَه بقتلهِما فَفَرُّوا جميعًا حتّى دخلُوا الكهفَ. وقيلَ في خُروجِهم غيرُ هذا.

أمَّا الكلبُ فَرُويَ أنّه كان كلبَ صيدٍ لهُم، ورُويَ أنَّهُم وَجدُوا في طريقِهم راعيًا لهُ كلبٌ فاتَّبَعَهُم الراعي على رأيهِم وذَهبَ الكلبُ معهُم. قال ابنُ عبَّاسٍ: واسمُ الكلبِ حمران وقيل: قِطمير.

وأمّا أسماءُ أهلِ الكهفِ فأعجميّةٌ، والسَّنَدُ في مَعرِفتِها واهٍ.

وهذه الآيةُ صريحةٌ في الفرارِ بالدِّينِ وهِجرَةِ الأهلِ والبَنينَ والقَرابات والأصدقاءِ والأوطانِ والأموالِ خوفَ الفِتنةِ وما يلقاهُ الإنسانُ مِن المِحنَة.

وقد خرجَ النبيُّ **صلى الله عليه وسلم** فارًّا بِدِينِه ومكثَ في الغارِ حسبَما تقدَّمَ في سُورةِ النحلِ. وقد نصَّ اللهُ تعالى على ذلكَ في سُورةِ براءة. وكذلك أصحابُه هجَرُوا أوطانَهُم وتَرَكُوا أرضَهُم وديارَهُم وأهاليهِم وأولادَهُم وقَراباتِهِم وإخوانِهم رجاءَ السلامةِ بالدِّينِ والنَّجاةِ من فتنةِ الكافرينَ. فسُكْنَى الجِبالِ ودُخولُ الغيرانِ والعُزلةُ عن الخَلْقِ والانفرادُ بالخالقِ والفِرارُ من الظالِم هي سُنَّةُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهِم والأولياءِ.

وقد فضَّلَ رسولُ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** العُزلَةَ، وفضَّلَها جماعةُ العلماءِ لا سيّما عندَ ظُهورِ الفِتنِ وفسادِ الناسِ، وقد نصَّ اللهُ تعالى عليها في كتابِه فقالَ: **وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ**. قال العلماءُ: الاعتزالُ

عن الناسِ يكونُ في الجِبالِ والشِّعابِ، وفي السَّواحِلِ والرِّباط، وفي البُيوتِ. وقد جاءَ في الخَبرِ: " إذا كانتِ الفِتنةُ فأخْفِ مَكانَكَ وكُفَّ لِسانَكَ ".

(فقالُوا ربَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحمَةً) لّما فرُّوا مِمَّن يَطلبُهُم اشتغلُوا بالدُّعاءِ ولجَؤوا إلى اللهِ تعالى قالُوا ربَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحمَةً أيّ مَغفِرَةً ورِزقًا.

(وهَيِئْ لَنا مِنْ أمْرِنا رَشَدًا) أيّ توفيقًا للرَّشادِ. قال ابنُ عبَّاسٍ: مَخرَجًا مِن الغارِ في سلامةٍ، وقيلَ: صَوابًا. ومِن هذا المعنى أنّه **صلى الله عليه وسلم** كانَ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاة.

(فَضَرَبْنا على آذانِهِمْ في الكَهْفِ سِنِينَ عَددًا) عبارةٌ عن إلقاءِ اللهِ تعالى النومِ عليهِم. وهذهِ مِن فَصيحاتِ القرآنِ التي أقرَّتِ العَرَبُ بالقُصورِ عن الإتيانِ بمِثْلِهِ. قال الزَّجّاجُ: أيّ مَنعناهُم عن أنْ يَسمعُوا؛ لأنّ النائِمَ إذا سَمِعَ انتبَه. وقال ابنُ عبَّاسٍ: ضَرَبْنا على آذانِهِم بالنَّومِ؛ أيّ سَدَدْنا آذانَهُم عن نُفوذِ الأصواتِ إليها. وقيلَ: المعنى فاستَجَبْنا دُعاءَهُم وصَرَفْنا عَنهُم شَرَّ قَومِهِم وأنْمناهُم. والمعنى كُلُّهُ مُتقارِبٌ. وقال قُطْرُب: هذا كقَولِ العرَبِ: "ضَرَبَ الأميرُ على يدِ الرَّعيةِ" إذا مَنعَهُم الفسادَ، وَضَرَبَ السَّيِّدُ على يدِ عَبْدِهِ المَأذُونِ لهُ في التجارةِ إذا مَنعَهُ مِن التَّصَرُّف. قال الأسودُ بن يَعفُر وكان ضَريرًا:

ومِن الحَوادِثِ لا أبَالَك أنَّني ضَرَبتْ عليَّ الأرضُ بالأسْدادِ

وأمّا تخصيصُ الآذانِ بالذِّكْرِ؛ فلأنَّها الجارِحةُ التي مِنها عِظَمُ فِسادِ النومِ، وقلَّما يَنقطِعُ نومُ نائمٍ إلاّ مِن جهةِ أُذنِه، ولا يَستحكِمُ نومٌ إلاّ مِن تَعطُّلِ السمْعِ.

ومِن ذُكْرِ الأذنِ في النَّومِ قولُه **صلى الله عليه وسلم**: "ذاكَ رَجُلٌ بالَ الشَّيطانُ في أُذنِه" خرجه الصحيحُ. وفيه أشارَ إلى رَجُلٍ طَويلِ النومِ لا يقومُ الليلَ.

(ثُمَّ بَعثناهُمْ) أيّ مِن بعدِ نَومِهِم. ويُقالُ لِمَن أُحيِيَ أو أُقِيمَ مِنْ نَومِه مَبعوثٌ؛ لأنّه كان ممنوعًا من الانبعاثِ والتصرُّفِ **(لِنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَينِ أحصَى لِمَا لَبِثُوا أمدًا)** لِنَعلَمَ: عبارةٌ عن خُروجِ ذلكَ الشيءِ إلى الوجودِ ومُشاهدَتِه، وهذا على نحوِ كلامِ العربِ؛ أيّ: نعلَمُ ذلكَ مَوجُودًا؛ إلاّ فقَد كانَ اللهُ تعالى عَلِمَ أيَّ الحِزْبَينِ أحصى الأمدَ. وقرأُ الزُّهريُّ لِيعلَمَ بالياءِ. والحِزبانِ الفَريقانِ، والظاهرُ من الآيةِ أنّ الحِزبَ الأوَّلَ "هُمُ الفِتيةُ؛ إذْ ظَنُوا لبْثهُم قليلاً"، والحِزبُ الثاني "أهلُ المدينةِ الذينَ بُعِثَ الفِتيةُ على عَهدِهم؛ حيث كان عِندَهُم تاريخُ أمرِ الفِتيةِ، وهذا قولُ الجُمهورِ من المُفسِّرينَ. وقالتْ فِرقةٌ: هُما حِزبانِ من الكافِرينَ اختلفا في مدَّةِ أصحابِ الكهفِ، وقيلَ: هُما حِزبانِ من المُؤمنينَ، وقيلَ غيرُ ذلكَ ممّا لا يرتبطُ بألفاظِ الآية.

(نَحنُ نَقُصُّ عليكَ نَبأهُم بِالحَقِّ) لَما اقتضَى قولُه تعالى لِنَعلَمَ أيُّ الحِزْبَينِ أحصَى – اختِلافًا وَقَعَ في أمدِ الفِتيةِ – عقَّبَ بالخَبرِ عن أنَه عزَّ وجلَّ يَعلَمُ مِن أمرِهِم بالحقِّ الذي وَقَعَ فقالَ **(إنّهُم فِتيَةٌ آمنُوا بِرَبِّهِم)** أيّ شبابٌ وأحداثٌ حَكَمَ لهُم بِالفتوَّةِ حينَ آمنُوا بِلا واسطَةٍ. قالَ أهلُ اللسانِ: رأسُ الفتوَّةِ الإيمانُ. وقالَ الجُنيدُ: الفُتوَّةُ بَذْلُ النَّدى وكفُ الأذَى وتركُ الشَّكْوى. وقيلَ: الفتوَّةُ اجتِنابُ المَحارِمِ واستعجالُ المَكارمِ.

(وزِدناهُم هُدَىً) أيّ: يَسَّرْناهُم للعَملِ الصالحِ من الانقطاعِ إلى اللهِ تعالى ومُباعَدَةِ الناسِ والزُهدِ في الدُّنيا، وهذه زيادةٌ على الإيمانِ. وقال السُّدِّيُّ: زادَهُم هُدَىً بِكَلْبِ الراعي حينَ طرَدُوهُ ورَجَمُوهُ مَخافةَ أن يَنبَحَ عليهِم ويُنبِّه بهِم، فرَفعَ الكلبُ يديهِ إلى السماءِ كالدّاعي فأنطقَهُ اللهُ فقالَ: يا قومُ لِمَ تَطرُدونَني، لِمَ تَرجُمونَني، لِمَ تَضْرِبونَني فو اللهِ لقَد عَرَفْتُ اللهَ قبلَ أن تَعرِفُوهَ بأربعينَ سَنةٍ، فَزادَهُم اللهُ بذلك هُدَىً.

(ورَبَطْنا على قُلُوبِهِم إذْ قامُوا فقَالُوا) عبارةٌ عن شِدَّةِ عَزمٍ وقوَّةِ صبرٍ أعطاها اللهُ لهُم حين قالُوا بين يدي الكفَّارِ: رَبُّنا رَبُ السَّماواتِ والأرضِ لنْ نَدْعُوا مِن دُونِهِ إلهًا لَقَد قُلْنا إذًا شَطَطًا. وفيه مَسألتانِ؛ **الأُولى**: إذ قامُوا فقالُوا، يحتملُ ثلاثةَ مَعانٍ، أحدُها: أن يكونَ هذا وصفُ مَقامِهم بين يدَي المَلِكِ الكافرِ – كما تقدَّم – وهو مقامٌ يحتاجُ إلى الربطِ على القلبِ؛ حيث خالَفُوا دِينَه ورفَضُوا في ذاتِ اللهِ هَيبتَه. والمعنى الثاني فِيما قيلَ: إنَّهُم أولادُ عظماءِ تلك المدينةِ؛ فَخرَجُوا واجتمَعُوا وراءَ تلكَ المدينةِ مِن غيرِ ميعادٍ، فقالَ أسنُهُم: إنِّي أجِدُ في نفْسِي أنّ ربِّي ربُّ السَّماواتِ والأرضِ، فقالُوا: ونحنُ كذلكَ نجَدُ في أنفُسِنا.

فقامُوا جميعًا فقالُوا: رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ لَنْ نَدعُوَ مِن دُونِه إلهًا لَقَد قُلْنا إذًا شَطَطًا. أيّ: لَئِنْ دَعَونا إلهًا غَيرَه؛ فقَد قُلْنا إذًا جَورًا ومَحالاً. والمعنى الثالثُ: أنْ يُعبِّرَ بالقيامِ عن انبعاثِهِم بالعزمِ إلى الهروبِ إلى اللهِ تعالى ومُنابَذةِ الناسِ، كما تقولُ: قامَ فلانٌ إلى أمرِ كذا إذا عَزمَ عليه بِغايةِ الجِدِّ. **الثانيةُ**: قال ابنُ عطيَّةَ: تعلَّقَتِ الصُوفيَّةُ في القيامِ والقولِ بقولِ: "إذْ قامُوا فقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ

والأرضِ" قلتُ: وهذا تعلُّقٌ غيرُ صحيحٍ، هؤلاءِ قامُوا فَذكَرُوا اللهَ على هدايته، وشَكَرُوا لما أولاهُم من نِعَمه ونِعمَته ثُمَّ هامُوا على وُجوهِهم مُنقطِعينَ إلى ربِّهم خائفينَ من قومِهم، وهذه سُنَّةُ اللهِ في الرُّسلِ والأنبياءِ والفُضلاءِ الأولياءِ. أينَ هذا مِن ضَرْبِ الأرضِ بالأقدامِ والرَّقْصِ بالأكمامِ...

(رَبُّنارَبُّالسَّماواتِوالأرضِلنْنَدعُوامِندُونِهِإلهًالقدقُلْنا إذًاشَطَطًا) ولّما كان الفَزَعُ وخَوَرُ النفْسِ يُشبِهُ بالتناسُبِ الانحلالَ حسنٌ في شِدَّةِ النفْسِ وقوَّةِ التصميمِ أن يشبِه الرَّبطَ، ومِنه يُقالُ: "فُلانٌ رابطُ الجأشِ" إذا كانَ لا تفرَقُ نفْسُه عند الفزَعِ والحربِ وغَيرها. ومنهُ الرَّبْطُ على قلبِ أُمِّ مُوسى عليه السلامُ، وكذلك قولُه تعالى في الآية ١١ من سُورةِ الأنفالِ: "ولِيَربِطَ على قُلُوبِكُمْ ويُثبِّتَ به الأقدامَ".

(هَؤلاءِقومُنااتَّخَذُوامِندُونِهِآلهَةً) أيّ قال بعضُهم لِبَعضٍ: هؤلاءِ قومُنا أيّ أهلُ عَصرِنا وبَلَدِنا عَبدُوا الأصنامَ تقليداً منِ غيرِ حُجَّةٍ **(لولا)** أيّ: هلاّ **(يأتُونَعليهِم بِسُلطانٍبَيِّنٍفَمَنْأظْلَمُمِمَّنِافْتَرَىعلىاللهِكَذِبًا)** أيّ بِحُجَّةٍ على عِبادتِهم الصَّنَم. وقيلَ "عليهِم" راجعٌ إلى الآلهَةِ أيّ: هلاّ أقامُوا بيِّنةً على الأصنامِ في كونِها آلهةً؛ فَقَولُهم "لولا" تحضيضٌ بمعنى التعجيزِ، وإذا لمْ يُمكِنْهُم ذلكَ لمْ يَجِبْ أن يُلتَفَتَ إلى دعواهُم.

(وإذاعتَزَلْتُمُوهُمْومايَعبُدُونَإلّااللهَفأوُوا إلىالكَهْفِيَنْشُرْلَكُمْرَبُّكُمْمِنرَحْمَتِهِويُهَيِّئْلَكُمْمِنأمْرِكُمْمِرْفَقًا) قيلَ هُو مِن قولِ اللهِ لهُم. أيّ وإذ اعتَزَلْتُمُوهُم فاؤُوا إلى الكهفِ. وقيلَ: هُو مِن قولِ رئيسِهِم "يمليخا" فِيما ذَكَرَ ابنُ

عطيَّةَ. وقال الغزنويُّ: رئيسُهم "مكسلمينا" قال لهُم ذلكَ أيّ: إذ اعتَزلْتُموهُم واعتزَلتُم ما يَعبُدونَ. ثمَّ استثنَى وقالَ إلاّ اللهَ أيّ: إنَكُم لم تَترُكُوا عِبادتَه؛ فهُو استثناءٌ منقطِع. قال ابنُ عطيَّة: وهذا على تقديرِ إنّ الذينَ فرَّ أهلُ الكهفِ منهُم لا يَعرِفُونَ اللهَ ولا علْمَ لهُم بهِ؛ وإنّما يَعتقِدُونَ الأصنامَ في ألوهيَّتَهُم فقط. وإنْ فرَضْنا أنَّهُم يَعرِفُونَ اللهَ كما كانتِ العربُ تفعلُ؛ لكنَّهُم يُشرِكُونَ أصنامَهُم معهُ في العبادةِ فالاستثناءُ مُتَّصِلٌ؛ لأنّ الاعتزالَ وقعَ في كلِّ ما يعبدُ الكُفّارُ إلاّ في جهةِ اللهِ. وعن عطاءٍ قال: كانَ الفِتيةُ مِن قومٍ يَعبدُونَ اللهَ ويَعبدُونَ معهُ آلهةً فاعتزلَتِ الفِتيةُ عِبادةَ تلكَ الآلهةِ ولم تعتزِلْ عِبادةَ اللهِ.

ومضمونُ هذه الآيةِ أنّ بعضَهُم قال لبَعضٍ: إذا فارقْنا الكفَّارَ وانفرَدْنا باللهِ تعالى فلَنَجْعَلِ الكهفَ مأوىً ونتَّكِلَ على اللهِ؛ فإنّه سيبسطُ لنا رحمتَه وينشرُها علينا ويُهيئ لنا مِن أمرِنا مِرفَقًا. وهذا كلُّهُ دُعاءٌ بِحسَبِ الدُّنيا، وعلى ثِقَةٍ كانُوا مِن اللهِ في أمرِ آخرتِهم. مِرفَقًا بكسرِ الميم وفتحِها هو ما يُرتفَقُ به، وكذلك مِرفَقُ الإنسانِ، ومنهُم مَن يجعلُ المِرفق بفتحِ الميم الموضِعَ كالمسجدِ وهُما لُغتانِ.

(وَتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ اليَمِينِ وَإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ) أيّ: ترَى أيُها المُخاطَبُ الشَّمْسَ عندَ طُلوعِها تميلُ عن كهفِهم. والمَعنى: إنَّكَ لو رأيتَهُم لرأيتَهُم كذا، لا أنّ المُخاطَبَ رآهُم على التحقيقِ. وتزاورُ أي تتنحَّى وتميلُ، مِن الازْوِرارِ. قال عَنترةُ: فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنا بِلَبانِهِ.. وفي حديثِ غَزوةِ مُؤتةَ أنّ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه رأى في سَريرِ عبدِ اللهِ بنِ رَواحةَ ازوِراراً عن سريرِ جَعفَرَ وزَيدِ بنِ حارِثةَ. وقرأَ أهلُ الحَرَمَينِ وأبُو عمروٍ تزاور بإدغامِ التاءِ في الزاي، والأصلُ

تَتزاورُ. وقرأَ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ تزاورُ مُخفَّفة الزاي. وقرأُ ابنُ عامرٍ تَزوَّرُ مِثل تحمَّرُ. وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم بالتاءِ على مَعنى تَترُكُهُم قالَه مُجاهِدٌ. وقال قتادةُ: تدعُهُم. والمَعنى: أنَّهُم كانُوا لا تُصيبهُم شمسٌ البتَّةَ كرامةً لهُم وهو قولُ ابنِ عبّاسٍ. يعني: أنّ الشمسَ إذا طلعَتْ مالتْ عن كهفِهم ذاتَ اليمينِ؛ أي يمينِ الكهفِ، وإذا غَرَبَتْ تُمرُّ بهِم ذاتَ الشمالِ، أيّ شمالَ الكهفِ، فلا تُصيبُهم في ابتداءِ النهارِ ولا في آخرِ النهارِ.

وكان كهفُهم مستقبلَ بناتِ نَعشٍ في أرضِ الرومِ؛ فكانتِ الشمسُ تميلُ عنهُم طالعةً وغاربةً وجاريةً لا تبلغُهم لِتؤذيهم بحَرِّها، وتُغيِّرَ ألوانِهم وتُبليَ ثيابَهُم.

وقيلَ: إنّه كان لِكهفِهم حاجِبٌ من جهةِ الجنوبِ، وحاجِبٌ من جِهة الدَّبَورِ وهُم في زاويتِه.

وذهبَ الزَّجَّاجُ إلى أنّ فِعلَ الشمسِ كان آيةً من اللهِ، دونَ أن يكونَ بابُ الكهفِ إلى جهةٍ تُوجِبُ ذلك. وقرأتْ فِرقةٌ بِقَرضِهم بالياءِ من القَرْضِ وهو القطعُ، أيّ: يقطعُهم الكهفُ بِظلِه من ضَوءِ الشمسِ. وقيلَ: وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم أيّ يُصيبُهُم يسيرٌ مِنها، مأخوذٌ من قارِضَةِ الذَّهبِ والفِضَّة؛ أيّ: تُعطِيهم الشمسُ اليسيرَ مِن شُعاعِها.

وقالوا: كان في مَسِّها لهُم بِالعَشيِّ إصلاحٌ لأجسادِهم. وعلى الجُملَةِ فالآيةُ في ذلك أنّ اللهَ تعالى آواهُم إلى كهفٍ هذه صِفَتُه لا إلى كَهفٍ آخرَ يتأذَّونَ فيه بانبساطِ الشمسِ عليهم في مُعظَمِ النهارِ. وعلى هذا يُمكِنُ أن يكونَ صَرفُ

الشمسِ عنهُم بالغَمامِ أو بِسَببٍ آخَر. والمقصودُ: بيانُ حِفظِهم من البِلى وتغيُّرِ الأبدانِ والألوانِ والتأذِّي بِحَرٍّ أو بَرْدٍ

(وهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنهُ) أيّ مِن الكهفِ، والفجْوةُ المُتَّسَعُ.

(ذَلِكَ مِن آياتِ اللهِ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهتَدِ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرشِدًا)

لَطفَ بهِم.

(وتَحْسَبُهُمْ أيقاظًا وهُمْ رُقُودٌ) قال أهلُ التفسيرِ: كانتْ أعينُهم مفتوحةً وهُمْ نائِمونَ، فكان الرائي يَحسَبُهم أيقاظًا. وقيلَ: تحسبُهم أيقاظًا؛ لِكثرَةِ تَقلُّبِهِم كالمُستيقِظِ في مضْجعِه. وأيقاظًا جمعُ يَقِظٍ ويَقْظان، وهو المُنْتَبِهُ. وهُمْ رُقودٌ كقَولِهم: وهُمْ قومُ رُكوعٍ وسُجودٍ وقُعودٍ، فَوصَفَ الجَمعَ بالمَصدَرِ.

(ونُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليَمِينِ وذاتَ الشِّمالِ) قال ابنُ عبَّاسٍ: لِئلَّا تأكُلَ الأرضُ لُحُومَهُم.

وقال أبُو هريرةَ: كانَ لهُمْ في كلِّ عامٍ تقليبَتانِ. وقيلَ: في كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً.

وقال مُجاهِدٌ: في كُلِّ سبعِ سِنينَ مَرَّةً. وقالتْ فِرقةٌ: إنَّما قُلبُوا في التسعِ الأواخِرِ، وأمّا في الثلاثِمائةِ فلا. وظاهِرُ كلامِ المُفسِّرينَ أنّ التقليبَ كان مِن فِعْلِ اللهِ، ويجوزُ أن يكونَ مِن مَلَكٍ بأمْرِ اللهِ فيُضافُ إلى اللهِ تعالى.

(وكَلْبُهُم باسِطٌ ذِراعَيهِ) أكثرُ المُفسِّرينَ على أنَّهُ "كلبٌ" حقيقةً، وكانَ لِصيدِ أحدِهِم، أو لِزَرعِه، أو غَنَمِه على ما قال مُقاتِلٌ.

واختُلِفَ في لونِه اختِلافًا كثيراً، ذَكَرَهُ الثعلبيُّ وتحصيلُه: أيَّ لونٍ ذَكَرتَ أصبْتَ، حتّى قيلَ لونَ الحَجَرِ، وقيلَ لونُ السماءِ.

واختُلِفَ أيضًا في اسمِه؛ فعَن عليّ ريان ، وعن ابنِ عبَّاسٍ "قطمير" ، وعن الأوزاعيِّ "مُشير" ، وعن عبدِ اللهِ بن سلاّمٍ "بسيطٌ" ، وعن كعبٍ "صهيا" ، وعن وَهْبٍ "نَقيًا" . وقيلَ "قطميّ" ذَكَرَهُ الثعلبيُّ.

وكان اقتناءُ الكلبِ جائزًا في زمانِهِم كما هو عِندَنا اليومَ جائزٌ في شَرعِنا.

قال ابنُ عبَّاسٍ: هَرَبُوا ليلاً، وكانُوا سبعةً فَمَرُّوا بِراعٍ مَعهُ كلبٌ فاتَّبَعَهُم على دِينِهم .

وقال كعبٌ: مَرُّوا بِكَلْبٍ فنبحَ لهُمْ فَطَرَدُوهُ فعادَ فَطرَدُوهُ مِرارًا، فقامَ الكلبُ على رِجلَيهِ ورفعَ يديهِ إلى السماءِ كهيئةِ الداعي فنَطقَ فقال: لا تَخافُوا مِنّي أنا أحبُّ أحبَّاءِ اللهِ تعالى فنامُوا حتَّى أحرُسَكُم.

وقال أبو الفضلِ: إنّ مَن أحبَّ أهلَ الخيرِ نالَ مِن بَرَكَتِهِم ! كَلْبٌ أحبَّ أهلَ فَضْلٍ وصَحِبَهُمْ فَذَكَرَهُ اللهُ في مُحْكَمِ تَنزِيلِه.

وقالتْ فِرقةٌ: لم يكنْ كلبًا حقيقةً؛ وإنّما كان أحدَهُم، وكان قَد قعدَ عِندَ بابِ الغارِ طليعةً لهُم كما سُمِّي النجْمُ التابِعُ للجَوزاءِ كَلْبَ الجبَّارِ؛ لأنّه مِنها كالكلبِ من الإنسانِ.

وقد حكى أبو عُمَر المُطرِّز في كتابِ اليواقيتِ أنّه قُرِئَ "وكالِبُهُم باسِطٌ ذِراعَيهِ بالوصيدِ، فيحتملُ أن يُرِيدَ بالكالِبِ هذا الرَّجُلِ. وعن جَعفرٍ الصادقِ: كالِبُهُم أيّ صاحِبُ الكلبِ. وباسِطٌ ذِراعَيهِ أُعْمِلَ اسمَ الفاعلِ؛ لأنَّها حكايةُ حالٍ ولم يقصد الإخبارَ عن فعلِ الكلبِ.

والذِّراعُ من طرفِ المِرفَقِ إلى طرفِ الأصبَعِ الوُسطَى.

وقيلَ: بسطَ ذِراعَيهِ لِطُولِ المُدَّةِ ، وقيلَ: نامَ الكلبُ مفتوحَ العَينِ، وكانَ ذلك مِن الآياتِ.

(بالوصِيد) الوصيدُ هو "فِناءُ الكهفِ" قالُه ابنُ عبَّاسٍ ومُجاهِدٌ وابنُ جُبيرٍ، والجمعُ وصائِد ووُصُدٌ. وقيل "البابُ." وقال عطاءٌ: "عتبةُ البابِ."

(لو اطَّلَعْتَ عَلَيهِم) قرأَ الجُمهورُ بكسرِ الواو، والأعمشُ ويحيى بنُ وثابٍ بِضَمِّها.

(لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرارا) أيّ: لو أشْرَفْتَ عليهِم لَهَرَبْتَ مِنهُم.

(ولَمُلِئْتَ مِنهُم رُعبًا) أيّ: لّما حفَّهُم اللّهُ تعالى مِن الرُّعبِ واكتنفَهُم من الهَيبةِ.

وقيلَ: لِوحشَةِ مَكانِهِم؛ وكأنَّهُم آواهُم اللّهُ إلى هذا المكانِ المُوحِشِ في الظاهِرِ؛ لينفَرَ الناسُ عنهُم.

وقيلَ: كان الناسُ مَحجُوبِينَ عنهُم بالرُّعبِ، لا يَجْسُرُ أحدٌ منهُم على الدُّنوِّ إليهِم.

وقيلَ: الفِرارُ مِنهُم لِطُولِ شُعورِهِم وأظفارِهِم، وذَكَرَهُ المَهدويُّ والنّحّاسُ والزَّجّاجُ والقُشيريُّ، وهذا بعيدٌ؛ لأنَّهُم لّما استيقَظُوا قالَ بعضُهم لِبعضٍ "لَبِثْنا يَومًا أو بَعْضَ يومٍ"؛ فدلَّ هذا على أنّ شُعورَهُم وأظفارَهُم كانتْ بِحالِها.

قال ابنُ عطيَّة: والصحيحُ في أمرِهِم أنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ حَفِظَ لهُم الحالةَ التي نامُوا عليها لِتكُونَ لهُم ولِغَيرِهِم فيهِم آيةٌ فَلَمْ يَبْلَ لهُم ثوبٌ ولمْ تُغيَّرْ صِفةٌ، ولمْ ينكُرْ الناهضُ إلى المدينةِ إلاّ معالِمَ الأرضِ والبناءِ، ولو كانتْ في نفْسهِ حالةً يُنكِرُها لكانتْ عليهِ أهمَّ.

وقرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وابنُ عبّاسٍ وأهلُ مكّةَ والمدينةِ " لُمِّلْئتَ منهُم " بتشديدِ اللامِ على تضعيفِ المُبالَغةِ، أي مُلِئْتَ ثُمَّ مُلِئتَ. وقرأها الباقونَ بالتخفيفِ، والتخفيفُ أشهرُ في اللغةِ. وقرأُ الجمهورُ "رُعْبًا" بإسكانِ العَينِ، وقرأ بضمِها أبو جَعفرَ. وقال أبو حاتمٍ هُما لُغتانِ.

(وَكَذلِكَ بَعثْناهُمْ لِيَتساءلُوا بَينَهُم قالَ قائِلٌ مِنهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ) البَعثُ هُو التحريكُ عن سُكونٍ. والمعنى: كما ضَرَبْنا على آذانِهِم وزِدْناهُمْ هُدَىَ وقَلبْناهُمْ بَعثناهُمْ أي: أيقظناهُمْ مِن نَومِهِم على ما كانُوا عليهِم مِن هيئتِهِم في ثيابِهِم وأحوالِهِم. قال الشاعر:

وفتيانَ صِدقٍ قَد بُعِثَتْ بِسَحرَةٍ فقامُوا جَميعًا بينَ عاثٍ ونَشوانِ

أي أيقظَتْ. واللامُ في قولِه لِيَتَساءلُوا هِيَ)لامُ الصَّيرُورَةِ وهي لامُ العاقبةِ(؛ كقولِه في الآيةِ ٨ من سُورةِ القَصَصِ: "لِيَكُونَ لَهُمْ عَدوًّا وحَزَنًا". فبَعثُهم لم يكُنْ لأجْلِ تساؤلِهم.

(قالُوا لَبِثْنا يَومًا أو بَعْضَ يَومٍ قالُوا رَبُّكُمْ أعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ) وذلكَ أنَّهُم دَخَلُوهُ غَدوةً وبَعثَهُمُ اللهُ في آخرِ النهارِ، فقالَ رئيسُهُم "يمليخا" أو "مكسلمينا" اللهُ أعلمُ بالُمدَّةِ.

(فابْعَثُوا أحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إلى المَدِينَة) قال ابنُ عبّاسٍ: كانت وَرِقُهُم كأخفافِ الرّبع. وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ والكِسائيُّ وحفصٌ عن عاصِمٍ بِوَرِقِكُم بكسرِ الراءِ. وقرأ أبو عَمروٍ وحمزةُ وأبو بكرٍ عن عاصمٍ "بِوَرْقِكُم" بسكونِ

الراءِ، حَذفُوا الكسرةَ لِثقلِها، وهما لُغتانِ. وقرأ الزَّجَّاجُ "بِورْقِكُمْ" بكسر الواو وسكونِ الراء. ويُروى أنَّهُم انتبَهُوا جِياعًا، وأنّ المَبعوثَ وهو "يمليخا" كان أصغرَهُم فيما ذَكَرَ الغزنويُّ. والمدينةُ هي "أفسوس" ويُقالُ "طرسوس"، وكان اسمُها في الجاهليةِ "أفسوس"، فلمّا جاءَ الإسلامُ سمَّوها "طرسوس". قال ابنُ عبَّاس: كان مَعهُم دراهِمُ عليها صورةُ الملكِ الذي كان في زمانِهم).

(**فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا**) قال ابنُ عبّاسٍ: أحلَّ ذبيحةً؛ لأنّ أهلَ بلَدهِم كانُوا مَجُوسًا يذبَحونَ على اسمِ الصنَمِ، وكان فيهِم قومٌ يُخْفُونَ إيمانَهُم. وقيلَ: أزكَى طعامًا؛ أيّ: أكثرَ بركةً، وقيلَ: أطيبَ، وقيلَ: أرخصَ.

(**فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ**) أيّ: بِقُوتٍ.

(**وَلْيَتَلَطَّفْ**) أيّ في دُخولِ المدينةِ وشِراءِ الطعامِ.

(**وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا**) أيّ: لا يُخْبِرْنَ، وقيلَ: إنَ ظهرَ عليهِ فلا يُوقِعَنَّ إخوانَهُ فيما وقعَ فيهِ. وفي هذهِ البَعثةِ بالوَرِقِ دليلٌ على جوازِ الوكالةِ وصِحَّتِها، وعلى جوازِ الشراكةِ؛ لأنّ الوَرِقَ كان لجَميعِهم، وتضمَّنَتْ جوازَ أكْلِ الرُّفقاءِ وخَلْطِهم طعامَهم معًا.

وقال ابنُ العربيِّ: ليسَ في الآيةِ دليلٌ على ذلكِ؛ لأنَّه يَحتملُ أن يكونَ كلٌّ واحدٍ منهُم قد أعطاهُ مُنفرِدًا فلا يكونُ فيهِ اشتراكٌ.

(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ) أيّ: "دقينوس" وأصحابُه إن يَظهرُوا عليكُم ويعلَمُوا مكانَكُم يَرجُموكُم شَتمًا بالقولِ ويُؤذُوكُم، أو يَقتلُوكُم بالرَّجْمِ بالحِجارة وهو أخبثُ القتلِ. وقيلَ: يَرمُوكُم بالسبِّ والشتمِ، والأوَّلُ أصحُّ.

(أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ) أيّ: يَردُّوكُم في دِينهِم فتَصيرُوا كفَّاراً بِعبادَةِ الأوثانِ.

(وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا) أيّ: إنْ أنتُم عُدْتُمْ في مِلَّتهِم أيَّامَ حياتِكُم فلَنْ تُدرِكُوا الفلاحَ، وهو البقاءُ الدائمُ والخلودُ في الجِنانِ.

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ) أيّ: أطلَعْنا عليهِم وأظهَرناهُم.

(لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ)

يتنازعونَ يعني الأمَّةَ المسلِمةَ الذينَ بُعِثَ أهلُ الكهفِ على عَهدِهم؛ وذلكَ أنّ "دقيانوس" ماتَ ومَضتْ قُرونٌ وملكَ أهلَ تلكَ الدِّيارِ رَجُلٌ صالِحٌ، فاختلفَ أهلُ بلدِه في الحشرِ وبَعثِ الأجسادِ من القُبورِ، فَشَكَّ في ذلك بَعضُ الناسِ واستبْعَدُوهُ وقالُوا: إنَّما تُحْشَرُ الأرواحُ والجَسدُ تأكلُه الأرضُ. وقال بعضُهم: تُبْعثُ الروحُ والجسدُ جميعًا. فَكَبُرَ ذلك على المَلِكَ وبَقِيَ حَيرانَ لا يدْري كيفَ يَتبيَّنُ أمرُه لهُم، حتّى لَبِسَ المُسوحَ وقعدَ على الرَّمادِ وتضرَّعَ إلى اللهِ تعالى في حُجَّةٍ وبَيانٍ، فأعثرَ اللهُ على أهلِ الكهفِ. ويُقالُ: إنَّهُم لَمَّا بَعثُوا أحدَهُم بِوَرِقِهم إلى المدينةِ لِيأتِيهِم بِرِزْقٍ مِنها استُنْكِرَ شَخصُهُ واستُنْكِرَتْ دَراهِمُه لِبُعدِ العهدِ، فحُمِلَ إلى المَلكِ وكان صالحًا قد آمنَ مَن معهُ، فلمَّا نظرَ إليه قال: لعلَّ هذا مِن الفِتيةِ الذينَ خرجُوا على عهدِ "دقيانوس" المَلكِ، فقَد كنتُ أدعُو اللهَ أن يُرِينيهِم، وسألَ الفتى

فأخبَرهُ، فَسُرَّ المَلِكُ بذلكَ وقال: لعلَّ اللهَ قد بَعثَ لكُم آيةً، فَلْنَذْهَبْ إلى الكهفِ معهُ. فركِبَ مع أهلِ المدينةِ إليهِم، فلمَّا دنَوا إلى الكهفِ قال "تمليخا": أنا أدخُلُ عليهِم؛ لِئلاّ يُرعَبُوا فدخلَ عليهِم فأعلمَهُم الأمرَ وأنَّ الأُمَّةَ أُمَّةُ إسلامٍ، فَرُوِيَ أنَّهُم سُرُّوا بذلكَ، وخَرَجُوا إلى المَلِكِ وعَظَّمُوهُ وعَظَّمَهُم، ثُمَّ رَجَعُوا إلى كهفِهم. وأكثرُ الرِّواياتِ على أنَّهُم ماتُوا – حين حدَّثَهُم تمليخا – ميتةَ الحقِّ على ما يأتي. ورَجَعَ مَن كانَ شكَّ في بعثِ الأجسادِ إلى اليقينِ، فهذا معنى "أعثَرْنا عليهِم لِيَعْلَمُوا أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ" أيّ: لِيَعلَمَ المَلِكُ ورَعِيَّتُه أنَّ القيامةَ حقٌّ والبعثَ حقٌّ. وقيلَ: بل استدلُّوا بذلكَ الواحدَ على خَبَرِهِم وهابُوا الدُّخولَ عليهِم.

(فقالُوا ابْنُوا عليهِم بُنيانًا)، **(رَبُّهُمْ أعلَمُ بِهِم، قالَ الَّذينَ غَلَبُوا على أمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عليهِم مَسْجِدًا)** أيّ: قال الَّذينَ هُم على دينِ الفتيةِ اتَّخِذُوا عليهِم مَسجداً. ورُوِيَ أنّ طائفةً كافرةً قالت: نَبني بَيعةً أو مَضيفًا، فَمانَعَهُم المسلمونَ وقالوا: لَنَتَّخِذَنَّ عليهِم مَسجِداً. ورُوِيَ أنّ بعضَ القومِ ذهبَ إلى طَمْسِ الكهفِ عليهِم وتَركِهم فيهِ مُغيَّبينَ. ورُوِيَ عن عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ: أنّ اللهَ تعالى أعمَى على الناسِ حينئذٍ أثرَهُم وحَجَبَهُم عنهُم، فذلكَ دعا إلى بناءِ البُنيانِ؛ لِيكونَ مَعلمًا لهُم. وقيلَ: إنّ المَلِكَ أراد أن يَدفِنَهُم في صُندوقٍ مِن ذهبٍ فأتاهُ آتٍ مِنهُم في المنامِ فقالَ: أردتَ أنْ تجعلَنا في صُندوقٍ مِن ذهبٍ فلا تفعلْ؛ فإنّا مِن التراب خُلِقْنا وإليهِ نعودُ فَدَعْنا.

(سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُم ويَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُم رَجْمًا بِالغَيبِ، ويَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثامِنُهُم كَلْبُهُم) الضميرُ في "سَيقُولونَ" يُرادُ به أهلُ التوراةِ

ومُعاصِري الرَّسُولِ مُحمَّدٍ **صلى الله عليه وسلم**؛ وذلكَ أنَّهُم اختلَفُوا في عددِ أهلِ الكهفِ هذا الاختلافَ المنصوصَ عليه.

وقيلَ: المُرادُ به النَّصارى؛ فإنّ قومًا مِنهُم حَضرُوا النَّبيَّ **صلى الله عليه وسلم** مِن نَجْرانَ فَجَرى ذِكْرُ أصحابِ الكهفِ فقالتِ اليَعقُوبيَّةُ: كانُوا ثلاثةً رابِعُهم كلبُهم.

وقالتِ النسطوريّةُ: كانُوا خمسةً سادِسهُم كلبُهم.

وقال المُسلِمونَ: كانُوا سبعةً ثامِنهُم كلبُهم.

وقيلَ: هو إخبارٌ عن اليهودِ الذينَ أمَروا المُشرِكينَ بمسألةِ النبيِّ **صلى الله عليه وسلم** عن أصحابِ الكهفِ. والواو في قولِ" وثامِنُهُم كلبهُم" – من طريقِ النحْوِ – هي واوُ عَطفٍ دخلَتْ في آخرِ إخبارٍ عن عَددِهِم لِتفْصِلَ أمرَهُم، وتدلُّ على أنّ هذا غايةُ ما قيلَ؛ ولو سَقطتْ لَصَحَّ الكلامُ.

وقالت فِرقةٌ مِنها ابنُ خالَويهِ: هي واوُ الثمانيةِ. وحكَى الثعلبيُّ عن أبي بكرِ بنِ عيَّاشٍ أنّ قُريشًا كانت تقولُ في عَددِها سِتَّةً سَبْعةً وثمانيةً، فتدخلُ الواوُ في الثمانيةِ. وقال القفَّالُ: العددُ ينتهي عند العربِ إلى سبْعةٍ، فإذا احتيجَ إلى الزيادةِ عليها استؤنِفَ خبرٌ آخرُ بإدخالِ الواوِ؛ كقولِه في الآية ١١٢ من سُورةِ التوبةِ: "التّائِبُونَ العابِدُونَ – ثُمَّ قالَ – والنَّاهُونَ عن المُنكَرِ والحافِظُونَ". وفي الآيةِ ٧١ من سُورةِ الزُّمَرِ لمّا ذكرَ أبوابَ جهنَّم: "حتّى إذا جاؤوها فُتِحَتْ أبوابُها"، بِلا واوٍ. ولمّا ذَكَرَ الجنَّةَ قال "وَفُتِحَتْ أبوابُها"، بالواو. وقالَ في الآيةِ ٥ من سُورةِ التحريمِ: " خَيرٌ مِنكُنَّ مُسْلِماتٍ"، ثمَّ قالَ: " وأبكاراً". فالسَّبْعةُ نهايةُ العددِ عِندهُم كالعَشَرَةِ الآنَ عِندَنا. قال القُشيريُّ: ومِثلُ هذا الكلامِ مُنقوضٌ بِقَولِه تعالى في الآيةِ ٢٢ من سُورةِ

الحشْر: "هُوَ اللهُ الذي لا إلهَ إلاّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤمِنُ المُهَيمِنُ العَزيزُ الجَبَّارُ المُتكَبِّرُ"، ولمْ يذكرِ الاسمَ الثامِن بالواو. وقالَ قومٌ مِّمَّن صارَ إلى أنَّ عددَهُم سبْعةٌ: إنّما ذكرَ الواوَ في قولِه: " سَبْعةٌ وثامِنهُم"؛ لِيُنَبِّهَ على أنّ هذا العددَ هو الحقُّ، وأنَّه مُباينٌ للأعدادِ الأُخرى التي قالَ فيها أهلُ الكتابِ، ولهذا قالَ تعالى في الجُملَتَينِ المُتقدِّمَتَينِ "رجْمًا بِالغَيبِ" ولم يَذكُرْهُ في الجملةِ الثالثةِ ولم يقدحْ فيها بشيءٍ؛ فكأنَّه قالَ لِنَبيِّه **صلى الله عليه وسلم** هُم سَبْعةٌ وثامِنهُم كلبُهم. والرَّجْمُ هو القولُ بالظَّنِّ.

وقال ابنُ جُريجٍ ومُحمَّدُ بنُ إسحاقٍ: (**وثامِنُهُم كلبُهُم**) أيّ: صاحبُ كلبِهم.

(**قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ**) أمرَ اللهُ تعالى نبيَّه **صلى الله عليه وسلم** في هذهِ الآيةِ أنْ يَردَّ عِلْمَ عِدَّتِهِم إليهِ عزَّ وجلَّ. ثمَّ أخبرَ أنّ عالَم ذلكَ من البَشرِ قليلٌ. والمرادُ بهِ: قومٌ مِن أهلِ الكتابِ في قولِ عطاءٍ. وكان ابنُ عبَّاسٍ يقولُ: "أنا مِن ذلكَ القليلِ، كانُوا سبْعةً وثامِنهُم كلبُهم، ثمَّ ذَكَرَ السبْعةَ بأسمائِهِم، والكلبُ اسمهُ "قِطمير" كلبٌ أنمرُ فوقَ القلطيِّ ودُونَ الكُرديِّ. وقال ابنُ المُسيَّبِ: هُو كلبٌ صِينيٌّ. والصحيحُ أنّه زبيريٌّ.

(**فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا**) أيّ لا تجُادِلْ في أصحابِ الكهفِ؛ إلاّ بِما أوحيناهُ إليكَ، وهو ردُّ عِلْمِ عِدَّتِهِم إلى اللهِ تعالى. وقيلَ: معنى المِراءِ الظاهِرِ أنْ تقولَ: ليسَ كما تقولُونَ أو نحوٌ مِن هذا. وفي هذا دليلٌ على أنّ اللهَ تعالى لم يُبيِّنْ لأحدٍ عَددَهُم فلِهذا قال: إلاّ مِراءً ظاهِرًا، ولم يُبِحْ لهُ في هذه الآيةِ أنْ يُماري فيهِم إلاّ مِن

حيثُ يُماريه أهلُ الكتابِ، وسُمِّيتْ مُراجَعتُه لهُم مِراءً، ثمَّ قيَّدَه بأنَّه ظاهِرٌ فَفارَقَ المِراءَ الحقيقيَّ المَذمومَ. والضميرُ في قولِه "فِيهِم" عائدٌ على أهلِ الكهفِ. وقولُه "فلا تُمارِ" فيهِم يعني في "عِدَّتِهِم"، وحُذِفَتِ العدَّةُ لِدلالةِ ظاهرِ القولِ عليها.

(ولا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنهُم أحدًا) رُويَ أنّه **صلى الله عليه وسلم** سألَ نَصارى نجْرانَ عنهُم فَنُهِيَ عن السؤالِ. والضميرُ في قولِه مِنهُم عائدٌ على أهلِ الكتابِ المُعارِضينَ. وفي هذا دليلٌ على منعِ المُسلمينَ مِن مُراجَعةِ أهلِ الكتابِ في شيءٍ من العِلْم.

(ولا تَقُولَنَّ لِشيءٍ إنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غدًا إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ) قال العلماءُ: عاتبَ اللهُ تعالى نبيَّه **صلى الله عليه وسلم** على قولِه للكفَّارِ حين سألُوهُ عن الرُّوحِ والفِتيةِ وذِي القَرنَينِ غداً أُخبِركُم بِجَوابِ أسئلَتِكُم، ولمْ يَستَثنِ في ذلك. فاحتَبسَ الوحيُ عنهُ خمسةَ عشرَ يومًا حتّى شقَّ ذلكَ عليهِ وأرجفَ الكفَّارُ بهِ، فنزلتْ عليهِ هذه السورةُ مُفرِّجةً. وأمرَ في هذه الآيةِ ألاّ يقولَ في أمرٍ من الأمورِ إنّي أفعلُ غداً كذا وكذا إلاّ أنْ يُعلِّقَ ذلكَ بِمَشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حتّى لا يكونَ مُحقِّقًا لِحُكْمِ الخَبرِ؛ فإنّه إذا قالَ: لأفْعَلَنَّ ذلكَ ولم يفْعلْ كان كاذِبًا، وإذا قالَ: لأفْعَلَنَّ ذلكَ إنْ شاءَ اللهُ خرجَ عن أنْ يكونَ مُحقِّقًا للمُخبَرِ عنه. واللامُ في قولِه لِشيءٍ بِمَنزلَةِ في أو لأجْلِ.

(واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ) أيّ: الأمرُ بالذِّكْرِ بعدَ النِّسيانِ.

واختُلِفَ في الذِّكْرِ المأمورِ بهِ؛ فقيلَ هُو قولُه **(وقُلْ عَسى أنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأقْرَبَ مِن هذا رَشَدًا)** قال مُحمَّدٌ الكُوفيُّ المُفسِّرُ: إنّها بألفاظِها ممَّا أمرَ أنْ يَقولَها كُلُّ مَن لمْ يَستَثنِ، وإنَّها كفَّارةٌ لِنسيانِ الاستثناءِ. وقالَ الجُمهورُ: هو دُعاءٌ مأمورٌ بهِ دُونَ هذا

التخصيصِ. وقيلَ: هُو قولُه" إنْ شاءَ اللّٰهُ" في الآيةِ ١٠٢ من سُورةِ الصَّافَّات. حُكِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنّه إنْ نَسِيَ الاستثناءَ ثُمَّ ذَكَرَ ولو بعدَ سَنَةٍ لمْ يَحنَثْ إنْ كان حالِفًا. وهذه الآيةُ مُخاطبةٌ للنبيِّ **صلى الله عليه وسلم** وهيَ استفتاحُ كلامٍ على الأصحِّ وليستْ مِن الاستثناءِ في اليمينِ بِشَيءٍ، وهيَ بَعدَهُ تعمُّ جميعَ أمَّتِه؛ لأنّه حُكْمٌ يتردَّدُ في الناسِ لِكثرَةِ وُقوعِه.

(وَلِبُثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) أخبرَ اللّٰهُ تعالى نبيَّه **صلى الله عليه وسلم** أنّ هذهِ المُدَّةَ في كونِهم نِيامًا، وأنَّ ما بعدَ ذلكَ مَجهولٌ للبَشرِ. فأمرَ اللّٰهُ تعالى أن يَرُدَّ عِلْمَ ذلكَ إليهِ. قال ابنُ عطيَّة: "لَبِثُوا" الأُولى يُريدُ في نومِ الكهفِ، و"لَبِثُوا " الثانيةُ يُريدُ بعدَ الإعثارِ إلى زمنِ مُحمَّدٍ **صلى الله عليه وسلم** أو إلى وقتِ عدمِهم بالبِلى.

وقال مُجاهِدٌ: إلى وقتِ نُزولِ القرآنِ. وقال الضَّحَّاكُ: إلى أنْ ماتُوا. وقال بعضُهم: إنَّه لَمّا قالَ وازدادُوا تِسْعًا لم يَدْرِ الناسُ أهيَ ساعاتٌ؟ أمْ أيَّامٌ؟ أمْ جُمَعٌ؟ أمْ شُهورٌ؟ أمْ أعوامٌ؟

واختلفَ بنُو إسرائيلَ بحسبِ ذلكَ، فأمرَ اللّٰهُ تعالى بِرَدِّ العِلْمِ إليهِ في التِّسعِ، فهِيَ على هذا مُبهمَةٌ. وظاهِرُ كلامِ العربِ والمفهومُ منهُ أنّها أعوامٌ، والظاهرُ مِن أمرِهم أنَّهم دخلُوا الكهفَ بعدَ عِيسى بيَسيرٍ، وقد بقيتْ من الحواريينَ بقيَّةٌ.

وقال القُشيريُّ: لا يُفْهَمُ مِن التِّسْعِ تِسْعُ لَيالٍ وتِسْعُ ساعاتٍ لِسَبْقِ ذِكْرِ السنينَ. وقال الضَّحَّاكُ: لَمّا نَزَلَتْ و"لَبِثُوا في كَهْفِهِم ثلاثمائةٍ "قالُوا سِنينَ؟ أمْ شهورٍ؟ أمْ جَمعٌ؟ أمْ أيَّامٌ؟ فأنزلَ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ سِنينَ.

وقال النَّقَّاشُ ما معناهُ: أنَّهُم لَبِثُوا ثلاثمائةِ سَنةٍ شمسيَّة بِحسابِ الأيَّامِ، فلمَّا كانَ الإخبارُ هُنا للنبيِّ العربيِّ ذُكِرَتِ التِّسْعُ؛ إذ المفهومُ عِندَه مِن السِّنينَ القمريةِ، وهذه الزيادةُ هي ما بينَ الحِسابَين. وقرأَ الجُمهورُ: "ثلاثمائةٍ سِنينَ" بتنوينِ مائةٍ ونصبِ "سِنينَ" على التقديمِ والتأخيرِ؛ أيّ سِنينَ ثلاثمائةٍ فقدَّمَ الصِّفةَ على الموصوفِ، فتكونُ "سِنينَ" على هذا بدلاً أو عطفَ بيانٍ.

(**قُلِ اللهُ أعلَمُ بِما لَبِثُوا**) قيلَ بعدَ مَوتِهم إلى نُزولِ القرآنِ فيهِم على قولِ مجاهدٍ، أو إلى أنْ ماتُوا على قولِ الضَّحَّاكِ، أو إلى وقتِ تغيُّرِهِم بالبِلى على ما تقدَّمَ. وقيلَ: بما لَبِثُوا في الكهفِ، وهي المُدَّةُ التي ذَكَرَها اللهُ تعالى عن اليهودِ وإنْ ذكَرُوا زيادةً ونُقصانًا. أيّ: لا يعلَمُ عِلْمَ ذلكَ إلاّ اللهُ أو مَن عَلَّمَهُ ذلكَ (**لهُ غَيبُ السَّماواتِ والأرضِ**)، (**أبْصِرْ بِهِ وأسْمِعْ**) أيّ ما أبْصرَه وأسْمعَه. قال قتادةُ: لا أحدَ أبصرُ مِن اللهِ ولا أسمعُ، وهذهِ عباراتٌ عن الإدراكِ. ويحتملُ أن يكونَ المعنى أبصِرْ بهِ وأسمِعْ أيّ: بوَحيهِ وإرشادهِ هَداكَ وحجَجكَ وألحقَ مِن الأمورِ وأسمِعْ به العالَم، فيكونانِ أمرَينِ لا على وجْهِ التعجُّبِ.

وقيل: المعنى أبصِرهُم وأسمعْهُم ما قالَ اللهُ فيهِم.

(**ما لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ**) أيّ: لمْ يكُنْ لأصحابِ الكهفِ وليٌّ يتولَّى حِفْظَهُمْ دُونَ اللهِ. ويحتملُ أنْ يعودَ الضميرُ في لهُم على مُعاصِري النبيِّ مُحمَّدٍ **صلى الله عليه وسلم** مِن الكفَّار. والمعنى: ما لِهؤلاءِ المُختلِفينَ في مُدَّةِ لبثِهم وليٌّ دونَ اللهِ يتولَّى تدبيرَ أمرِهم، فكيفَ يكونونَ أعلمَ منهُ؟ أو كيفَ يتعلَّمونَ مِن غيرِ إعلامِه إيَّاهُم؟

(ولايُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أحدًا) قُرِئَ بالياءِ ورَفْعِ الكافِ على معنى الخبرِ عن اللهِ تعالى. وقرأ ابنُ عامرٍ والحَسنُ وأبو رَجاء وقتادةُ والجُحدَريُّ ولا تُشْرِكْ بالتاءِ وإسكانِ الكافِ على جهةِ النبيِّ **صلى الله عليه وسلم**، ويكون قولُه هذا عطفًا على قولِه " أبْصِرْ بِهِ وأسمعْ" . وقرأَ مُجاهِدٌ "يُشْرِكْ" بالياءِ والجزْمِ(١).

تفسيرُ ابنِ كثير

هذا إخبارٌ مِن اللّهِ تعالى عن قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ **(أَمْ حَسِبْتَ)** يعني يا مُحمَّدُ **(أنّ أصحابَ الكهفِ والرَّقيمِ كانُوا مِن آياتِنا عَجَبًا)** أيّ: ليسَ أمرُهُم عَجيبًا في قُدرَتِنا وسُلطانِنا؛ فإنّ خلقَ السماواتِ والأرضِ وتسخيرَ الشمسِ والقمرِ وغيرِ ذلكَ مِن الآياتِ العظيمةِ الدالَّةِ على قُدرَةِ اللّهِ تعالى وأنَّهُ على ما يشاءُ قادرٌ ولا يُعجِزُهُ شيءٌ – أعجبُ من أخبارِ أصحابِ الكهفِ – كما قالَ مجاهدٌ: قد كانَ مِن آياتِنا ما هُوَ أعجبُ مِن ذلكَ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: الذي آتيتُكَ مِن العلمِ والسُّنَّةِ والكتابِ أفضلُ مِن شأنِ أصحابِ الكهفِ والرقيمِ.

وقال مُحمَّدُ بنُ إسحاق: ما أظهَرتُ مِن حُجَجِي على العبادِ أعجبُ مِن شأنِ أصحابِ الكهفِ والرقيمِ. وأمَّا الكهفُ: فهو الغارُ في الجبلِ، وهو الذي لجأَ إليهِ هؤلاءِ الفِتيةُ المَذكُورونَ، وأمّا الرقيمُ: فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: هو وادٍ قريبٌ من أيلةَ. وقال

١) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي (ج١٠/ ص٣٥٦ - ٣٨٩)

الضَّحّاكُ: أمّا الكهفُ فهوَ غارُ الوادي، والرقيمُ اسمُ الوادي. وقال مجاهدٌ: الرقيمُ كتابُ بُنيانهِم، ويقولُ بعضُهم: هو الوادي الذي فيهِ كهفُهم. وقال ابنُ عبَّاسٍ: الرقيمُ الجبلُ الذي فيه الكهفُ. وقال سعيدُ بنُ جُبيرٍ: الرقيمُ لوحٌ مِن حجارةٍ كَتبُوا فيه قَصَصَ أصحابِ الكهفِ، ثُمَّ وَضعُوهُ على بابِ الكهفِ، وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ: الرقيمُ الكتابُ، ثمَّ قرأَ: "كتابٌ مَرقومٌ". وهذا هُو الظاهِرُ من الآيةِ وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، قال الرقيمُ بمعنى "مَرقومٍ"، كما يُقالُ للمَقتولِ قتيلٌ وللمَجْرُوحِ جَريحٌ، واللّٰهُ أعلمُ.

وقولُه تعالى: **(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)** يُخبرُ اللّٰهُ تعالى عن أولئكَ الفِتيةِ الذين فرُّوا بِدينِهم مِن قومِهم؛ لِئلاّ يَفتِنوهُم عنهُ فَهَرَبُوا منهُم فلَجأوا إلى غارٍ في جَبلٍ لِيَخْتَفُوا عن قومِهم؛ فقالُوا حينَ دخلُوا سائِلينَ مِن اللّٰهِ تعالى رحمَته ولطفَه بهِم "ربَّنا آتِنا مِن لَدُنْكَ رَحمَةً" أيّ: هَبْ لنا مِن عِندكَ رحمةً ترحمُنا بِها وتسترُنا عن قومِنا، وهيئْ لنا مِن أمرِنا رَشداً أيّ: اجعلْ عاقِبتَنا رَشَداً، كما جاءَ في الحديثِ الشريفِ: " وما قَضَيتَ لَنا مِن قَضاءٍ فاجْعَلْ عاقِبَتَهُ رَشَداً".

وفي المُسنَدِ عن رَسُولِ اللّٰهِ **صلى الله عليه وسلم** أنَّهُ كانَ يَدعُو: "اللهُمَّ أحْسِنْ عاقِبَتَنا في الأُمورِ كُلِّها، وأَجِرْنا مِن خِزْيِ الدُّنيا وعَذابِ الآخِرَةِ".

وقولُه **(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا)** أيّ: ألقَينا عليهِم النومَ حينَ دخلُوا إلى الكهفِ فَنامُوا سِنينَ كثيرةً.

(**ثُمَّ بَعثناهُم**) أيّ: مِن رَقْدَتِهِم تلكَ، وَخَرَجَ أحدُهُم بِدراهِمَ مَعهُ لِيشْتَرِيَ لهُم بها طعامًا يأكُلونَه كما سيأتي بيانُه وتفصيلُه؛ ولِهذا قال (**لِنَعلَمَ أيُّ الحِزْبَينِ**) أيّ المُختلِفينَ فيهِم (**أحصَى لِما لَبِثُوا أمدًا**) قيلَ: عَددًا، وقيلَ: غايةً.

(**نَحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ نبأهُم بِالحَقِّ إنّهُم فِتيةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِم**) مِن ها هُنا شَرَعَ في بَسطِ القِصَّةِ وشَرحِها؛ فذَكرَ تعالى أنَّهُم فِتيةٌ وهُمُ الشَّبابُ، وهُمْ أقبلُ للحقِّ وأهدى للسبيلِ مِن الشيوخِ الذين قد عَتَوا وانْغَمَسُوا في دينِ الباطلِ؛ ولهذا كان أكثرُ المُستَجيبينَ للّهِ تعالى ولِرَسُولِه **صلى الله عليه وسلم** شَبابًا. وأمّا المشايخُ مِن قريشٍ فعامَّتُهم بَقُوا على دِينِهم ولم يَسلَمْ مِنهُم إلاّ القليلُ، وهكذا أخبرَ تعالى عن أصحابِ الكهفِ أنَّهُم كانُوا فِتيةً شبابًا. وقال مجاهدٌ: بلغَني أنّه كان في آذانِ بعضِهم القرطةُ – يعني الحَلَق – فألهَمَهُم اللّهُ رُشْدَهُم وآتاهُم تقواهُم فآمَنُوا بِرَبِّهِم؛ أيّ: اعتَرفُوا له بالوحدانيةِ، وشَهِدُوا أنّه لا إلهَ إلاّ هُو (**وزِدْناهُم هُدًى**) استدلَّ بهذِه الآيةِ وأمثالِها على زيادةِ الإيمانِ وتَفاضُلِه، وأنّه يزيدُ وينقصُ. وقد ذكرَ أنَّهُم كانُوا على دينِ المسيحِ عِيسى ابنِ مريمَ واللّهُ أعلمُ.

وقولُه تعالى: (**وَرَبَطنا عَلى قُلُوبِهِم إذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا ربُّ السَّماواتِ والأرضِ**) أيّ: وصَبَّرناهُم على مُخالَفةِ قومِهم، ومُفارقَةِ ما كانوا فيه من العيشِ الرغيدِ والسعادةِ والنعمةِ؛ فإنَّه قد ذكرَ غيرُ واحدٍ من المُفسِّرينَ من السَّلَفِ والخَلَفِ أنَّهُم كانُوا مِن أبناءِ مُلوكِ الرُّومِ وَسادَتِهم، وأنَّهُم خَرَجُوا يومًا في بعضِ أعيادِ قومِهم، وكان لهُم مجتمعٌ في السَّنَةِ يَجتمِعُونَ في ظاهِرِ البلدِ، وكانوا يَعبدُونَ الأصنامَ

والطواغيتَ ويَذبَحُونَ لها، وكانَ لها مَلِكٌ جبَّارٌ عنيدٌ يُقالُ له "دقيانوس" وكان يأمرُ الناسَ بذلكَ، ويَحثُّهم عليهِ، ويَدعُوهُم إليهِ، فلمّا خرجَ الناسُ لمُجتمعِهم ذلكَ وخَرَجَ هؤلاءِ الفِتيةُ مع آبائِهِم وقومِهم، ونَظرُوا إلى ما يَصنُعُ قومُهم بِعَينِ بَصيرتِهم، عَرفُوا أنّ هذا الذي يَصنعُه قومهُم من السجودِ لأصنامهِم والذَّبْحِ لها لا ينبغي إلاّ للّهِ الذي خلقَ السماواتِ والأرضَ؛ فجعلَ كلٌّ واحدٍ مِنهُم يتخلَّصُ من قومهِ وينحازُ عنهُم، واتَّخذُوا لهُم مَعبَداً يَعبدُونَ اللّهَ فيهِ؛ فعَرفَ بهِم قومُهم فَوشُوا بأمرِهم إلى مَلِكِهم، فاسْتَحضَرَهُم بين يديهِ، وسألهُم عن أمرِهم وما هُم عليهِ؛ فأجابُوه بالحقِّ ودَعَوهُ إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ، ولهذا أخبرَ تعالى عنهُم بقولِه **(لن نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إلهًا)** ولنْ لِنَفي التأبيدِ: أيّ: لا يقعُ مِنا هذا أبداً لأنّا لو فَعلْنا ذلك لكانَ باطِلاً؛ ولهذا قالَ عنهُم **(لَقد قُلْنا إذًا شَطَطًا)** أيّ: باطِلاً وكَذِبًا وبُهتانًا.

(هَؤلاءِ قَومُنا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لولا يأتُونَ عليهِم بِسُلْطانٍ بيِّنٍ) أيّ: هلاّ أقامُوا على صِحَّةِ ما ذَهبُوا إليهِ دليلاً واضِحًا صحيحًا.

(فَمَنْ أظلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللّهِ كَذِبًا) أيّ: هُم ظالِمُونَ كاذِبونَ في قولِهم ذلكَ. ويُقالُ: إنّ مَلِكَهُم تَهدَّدَهُمْ، وتَوعَّدَهُمْ، وأمَرَ بِنَزْعِ لِباسِهِم عنهُم، وأجلَّهُم؛ لِينْظُرُوا في أمرِهم لعلَّهُم يَرجِعونَ عن دِينِهم الذي كانُوا عليه، وكان هذا لُطفُ اللّهِ بهِم؛ فإنَّهُم توصَّلُوا إلى الهَرَبِ منهِ والفِرارِ بدِينِهم مِن الفِتنَة، وهذا هُو المشروعُ عندَ وُقوعِ الفِتنِ في الناسِ أن يَفِرَّ العبدُ مِنْهُم خَوفًا على دِينهِ كما جاءَ في الحديثِ الشريفِ:

" يُوشِكُ أنْ يكونَ خيرُ مالِ أحدِكُمْ غَنَمًا يَتْبَعُ بِها / شعفَ الجِبالِ ومَواقِعِ القَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِن الفِتَنِ " أخرَجَهُ البُخاريُّ وأبو داودَ عن أبي سعيدٍ.

ففِي هذه الحالِ تُشْرَعُ العُزْلَةُ عن الناسِ ولا تُشْرَعُ فِيما عداها؛ لِما يَفوتُ بها مِن تركِ الجماعاتِ والجُمَعِ. فلمّا أجمعُوا أمرَهُم على الهَرَبِ مِن قومِهم، واختارَ اللّٰهُ تعالى لهُم ذلكَ وأخبرَ عنهُم بذلكَ في قولِه: **(وإذاعْتَزَلْتُمُوهُمْ ومايَعبُدونَ إلّااللّٰهَ)**: أيّ: وإذا فارقْتُمُوهُم وخالفْتُمُوهُم بأديانِهم في عِبادتِهم غيرَ اللّٰهِ؛ ففارِقُوهُم أيضًا بأبدانِكُم.

(فأوُوا إلى الكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِن رَحمَتِهِ): أيّ يَبْسُطُ عليكُمْ رحمةً يَسترُكُم بها مِن قومِكُم.

(ويُهَيئ لَكُمْ مِن أمْرِكُم) الذي أنتُم فيهِ.

(مِرفقا) أيّ: أمرًا ترتَفِقونَ به؛ فعِندَ ذلك خَرَجُوا هَرَبًا إلى الكهفِ، فأوَوا إليهِ فَفَقَدَهُم قومُهم مِن بينِ أظهُرِهِم وتطلَّبَهُم المَلِكُ، فيُقالُ: إنّه لمْ يَظفَرْ بهِم، وعمَّى اللّٰهُ عليهِ خَبرَهُم كما فعلَ بِنَبيّهِ مُحمَّدٍ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ وصاحِبه الصِّدِّيقِ حين لجَآ إلى غارِ ثَورٍ.

(وَتَرى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ) أخبرَ تعالى أنّ الشَّمسَ إذا دَخَلَتْه عِندَ طُلوعِها.

(تَزاورُ عن كَهْفِهِم ذاتَ اليَمينِ). قال ابنُ عبَّاسٍ تزاورُ: أيّ: تميلُ؛ وذلكَ أنَّها كلَّما ارتفعَتْ في الأُفقِ تقلَّصَ بارتفاعِها؛ حتّى لا يبقَى مِنهُ شيءٌ عندَ الزَّوالِ في مِثْلِ

ذلك المكانِ؛ ولِهذا قال (**وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ**) أيّ: تدخُلُ إلى غارِهِم مِن شمالِ بابِه وهُو مِن ناحيةِ المَشرِق؛ فَدَلَّ على صِحَّة ما قُلْناهُ، وهذا بيِّنٌ لِمَنْ تأمَّلَهُ وكان له عِلْمٌ بِمَعرِفةِ الهيئةِ وسَيرِ الشمسِ والقمرِ والكواكِب. وبيانُه: أنَّه لو كان بابُ الغارِ من ناحيةِ الشرقِ لَما دخلَ إليه مِنها شيءٌ عِندَ الغُروبِ، ولو كان من ناحيةِ القِبلَةِ لَما دَخَلَ مِنها شيءٌ عِندَ الطلوعِ ولا عِندَ الغُروبِ ولا تزاورَ الفيءُ يَمِينًا ولا شِمالاً، ولو كانَ من جِهةِ الغَربِ لَما دخَلَتْهُ وقتَ الطُّلوعِ؛ بل بعدَ الزَّوالِ ولَمْ تزلْ فيه إلى الغُروبِ، فتعيَّنَ ما ذَكَرناهُ ولِلّهِ الحمدُ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ ومُجاهِدٌ: تَقْرِضُهُمْ أيّ: تَتْرُكُهُم، وقد أخبرَ اللّهُ تعالى بذلكَ وأرادَ مِنّا فهْمَه وتَدبُّرَه، ولم يُخْبِرْنا بمكانِ هذا الكهفِ في أيِّ البلادِ من الأرضِ، ولو كان لنا فيه مَصلحةٌ دِينيَّةٌ لأرشدَنا اللّهُ تعالى ورسولُه إليه؛ فقَد قال **صلى الله عليه وسلم**: "ما تَرَكْتُ شَيئًا يُقَرِّبُكُمْ إلى الجَنَّةِ ويُباعِدُكُمْ مِن النَّارِ إلاّ وقَد أعلَمْتُكُمْ به". فأعلَمَنا تعالى بِصِفَتِه ولم يُعلِمْنا بِمَكانِه فقال: وَتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عن كَهْفِهِم، قال مالكٌ: تميلُ ذاتَ اليمينِ، وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم ذاتَ الشِّمالِ.

(**وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ**) أيّ: في مُتَّسَعٍ مِنهُ داخِلاً بِحَيثُ لا تُصيبُهم؛ إذ لو أصابَتْهُم لأحرَقَتْ أبدانَهُم وثِيابَهُم، قالهُ ابنُ عبَّاسٍ.

(**ذَلِكَ مِن آياتِ اللهِ**) حيث أرشَدَهُم إلى هذا الغارِ الذي جعلَهُم فيه أحياءَ والشمسُ والرِّيحُ تدخلُ عليهِم فيه لِتبقَى أبدانُهم؛ ولِهذا قالَ تعالى: "ذَلِكَ مِن آياتِ اللّهِ".

ثمَّ قال (**مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ**) أيّ: هُو الذي أرشدَ هؤلاءِ الفِتيةَ إلى الهدايةِ مِن بينِ قَومِهِم؛ فإنّه مَن هَداهُ اللهُ اهتَدى.

(**وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا**) ومَنْ أضَلَّهُ فلا هاديَ لهُ.

(**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ**) ذَكَرَ أنَّهُمْ لَمَّا ضَرَبَ اللهُ على آذانِهم بالنَّومِ، لمْ تنطبِقْ أعينُهم؛ لِئلاّ يُسْرِعَ إليهِم البِلى.

(**وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ**) قالَ بعضُ السلَفِ: يُقلَّبُونَ في العامِ مَرَّتَينِ. قال ابنُ عبَّاسٍ: لو لَمْ يُقلَّبُوا لأكَلَتْهُمُ الأرضُ.

وقولُه: (**وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**) الوصيدُ: الفِناءُ، وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: بِالبابِ. قال ابنُ جُرَيجٍ: يَحْرُسُ عليهِمُ البابَ، وهذا مِن سَجِيَّتِه وطبيعَتِه؛ حيث يَربضُ ببابِهم كأنَّه يَحْرُسُهُم، وكان جُلوسُه خارجَ البابِ؛ لأنّ الملائكةَ لا تَدْخُلُ بَيتًا فيهِ كَلْبٌ ولا صُورةٌ ولا جُنُبٌ كما وَرَدَ في الصَّحيحِ، وشَمِلَتْ كلبَهُم بَركَتُهُم فأصابَه ما أصابَهُم من النومِ على تلكَ الحالِ، وهذه فائدةُ صُحبَةِ الأخيارِ؛ فإنّه صارَ لهذا الكلبِ ذِكْرٌ وخبرٌ وشأنٌ.

وقولُه تعالى: (**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**) أيّ: أنّه تعالى ألقَى عليهِم المهابةَ؛ بحيثُ لا يقعُ نظرُ أحدٍ عليهِم إلاّ هابَهُم؛ لِما أُلْبِسُوا مِن المَهابةِ والذُّعرِ؛ لِئلاّ يَدنُوَ مِنهُم أحدٌ ولا تَمَسَّهُم يدُ لامسٍ حتّى يَبلُغَ الكتابُ أجلَه لِما له في ذلكَ من الحِكمَةِ البالِغةِ والرَّحمةِ الواسعةِ.

يقولُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أيّ: كما أرقَدناهُم بَعثناهُم صحيحةً أبدانُهُم وأشعارُهُم وأبشارُهُم لم يَفقِدُوا مِن أحوالِهم وهيآتِهم شيئًا، وذلكَ بعدَ ثلاثمائةِ سَنَةٍ وتِسعِ سِنينَ؛ ولِهذا تساءلُوا بينَهُم كمْ لَبثْتُم؟ أيّ: كَمْ رَقَدتمُ؟ قالُوا لَبِثْنا يومًا أو بعضَ يومٍ؛ لأنّه كان دخولُهُم إلى الكهفِ في أوَّلِ النهارِ، واستيقاظُهم كان في آخرِ النهارِ؛ ولهذا اسْتَدرَكُوا فقالُوا أو بعضَ يَومٍ.

﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أيّ: أعلمُ بأمْرِكُم؛ وكأنَّه حصلَ لهُم نوعُ تردُّدٍ في كثرةِ نومِهِم، فاللّهُ أعلمُ، ثمّ عَدَلُوا إلى الأهمِّ في أمرِهم إذ ذاكَ وهو احتياجُهُم إلى الطعامِ والشرابِ، فقالُوا ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أيّ فِضَّتِكُم هذه؛ وذلك أنَّهُم كانُوا قد اسْتَصحَبُوا مَعهُم دراهِمَ مِن منازِلِهِم لحاجتِهم إليها، فتَصدَّقوا مِنها وبقيَ منها، فلِهذا قالُوا: فابْعَثُوا أحدَكُمْ بِوَرِقِكُم هذه إلى المدينةِ أيّ: مَدينَتِكُم التي خرجْتُم مِنها ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أيّ: أطيبَ طعامًا، كقولِه: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، وقولِه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، ومِنهُ الزكاةُ التي تُطيِّبُ المالَ وتُطَهِّرُه.

وقولُه: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أيّ: في خُروجِه وإيابِه، يَقولُونَ ولْيَخْتَفِ كلَّ ما يَقدِرُ عليه، ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أيّ: ولا يُعلِمَنَّ بِكُمْ أحدًا.

(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ) أيّ: إنْ عَلِمُوا بمَكانِكُم يَرجُموكُم أو يُعيدُوكُم في مِلَّتِهِم يَعنونَ أصحابَ "دقيانوس"، يَخافُونَ مِنهُم أن يَطَّلِعُوا على مكانِهم، فلا يزالونَ يُعذِّبُونَكُم بأنواعِ العذابِ إلى أنْ يُعِيدُوكُم في مِلَّتِهم التي هُم عليها أو يَموتُوا، وإنْ وافقْتُموهُم على العَودِ في الدِّينِ فلا فلاحَ لَكُمْ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ ولِهذا قال: (وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا).

يقولُ تعالى: (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ) أيّ: أطلَعْنا عليهِم الناسَ (لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا) ذكرَ واحدٌ مِن السلفِ أنّه قَد حَصلَ لأهلِ ذلكَ الزمانِ شكٌّ في البعثِ وفي أمرِ القيامةِ؛ فبعثَ اللهُ أهلَ الكهفِ حُجَّةً ودلالةً وآيةً على ذلكَ، وذَكَرُوا أنّه لّما أرادَ أحدُهمُ الخروجَ لِيذْهَبَ إلى المدينةِ في شِراءِ شيءٍ لهُم ليأكُلُوه، تَنكَّرَ وخرجَ يمشي في غَيرِ الجادَّةِ حتّى انتهى إلى المدينةِ، وهو يظنُّ أنَّه قريبُ العَهدِ بها، وكان الناسُ قد تبدَّلُوا قَرنًا بعدَ قَرنٍ وجِيلاً بعدَ جيلٍ، فجعلَ لا يَرى شيئًا من معالمِ البلدِ التي يَعرِفُها، ولا يَعرِفُ أحدًا مِن أهلِها لا خواصِّها ولا عوامِّها؛، فجعلَ يتحيَّرُ في نفْسِه ويقولُ: إنّ عَهدِي بهذه البلدةِ عشيَّةَ أمسٍ على غيرِ هذه الصِّفةِ. ثمَّ قال: إنّ تعجيلَ الخُروجِ من هاهُنا لأَولى لي، ثمَّ عمدَ إلى رَجُلٍ مِّمَّنْ يبيعُ الطعامَ فدَفعَ إليهِ ما مَعهُ مِن النفقةِ، وسألهُ أن يَبيعَه بِها طعامًا، فلمَّا رآها ذلكَ الرجُلُ أنكرَها وأنكرَ ضَرْبَها، فدَفَعَها إلى جارِه، وجعلُوا يتداولُونَها بينَهُم ويقولونَ: لعلَّ هذا وَجَدَ كَنْزًا؟ فسألُوه عن أمْرِه؟ ومِن أينَ لهُ هذه النفقةُ لعلَّهُ وَجَدَها مِن كَنْزٍ، ومِّمَّنْ أنتَ؟ فجعلَ يقولُ: أنا مِن هذه البلدةِ، وعَهدِي بها عشيةَ

أمسٍ، وفيها "دقيانوس" فَنَسبُوه إلى الجُنونِ، فَحَملُوهُ إلى ولي أمْرِهم، فسألَه عن شأنِه وخَبَرِه حتّى أخبرَهُم بأمْرِه، فلمّا أعلمَهُم بذلكَ قامُوا مَعهُ إلى الكهفِ – مَلِكُ البلدِ وأهلُها – حتّى انتهى بهِم إلى الكهفِ، فقالَ: دَعُوني حتّى أتقدَّمَكُم في الدخولِ لأُعْلِمَ أصحابِي فدَخلَ، فيقالُ: إنَّهُم لا يَدرونَ كيف ذَهَبَ فيه، وأخفَى اللّهُ عليهِم خَبرَهُم، ويُقالُ: بلْ دَخلُوا عليهِم ورأوهُم وسلَّمَ عليهِم المَلِكُ واعتنَقَهُم، وكان مُسلِمًا فِيما قِيلَ واسمُه "يندوسيس"، فَفَرِحُوا بهِ وآنَسُوهُ بالكلامِ، ثُمَّ دَعَوهُ وسلَّمُوا عليهِ وعادُوا إلى مَضاجِعِهم، وتوفَّاهُم اللّهُ عزَّ وجلَّ، فاللّهُ أعلمُ. وقولُه "وكَذلِكَ أعْثَرنا عليهِم" أيّ: كما أرْقَدناهُم وأيقظناهُم بِهيآتِهم أطلَعْنا عليهِم أهلَ ذلك الزمانِ؛" لِيعلَمُوا أنّ وَعْدَ اللّهِ حقٌّ وأنّ الساعةَ لا رَيبَ فِيها" .

(إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) أيّ: في أمْرِ القيامةِ؛ فمَن مُثْبِتٍ لِها ومِن مُنْكِرٍ؛ فَجعلَ اللّهُ ظُهورَهُم على أصحابِ الكهفِ حُجَّةً لهُم وعليهِم. **(فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ)** أيّ: سُدُّوا عليهِم بابَ كهفِهم، وذَرُوهُم على حالِهم. **(قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا)** حكَى ابنُ جَريرٍ في القائِلينَ ذلك قولينِ أحدَهُما: أنَّهُم المُسلِمونَ مِنهُم، والثاني: أهلُ الشركِ مِنهُم واللّهُ أعلَمُ.

(سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) قولُه تعالى هذا مُخْبِرًا عن اختلافِ الناسِ في عِدَّةِ أصحابِ الكهفِ؛ فحكَى ثلاثةَ أقوالٍ، ولّما ضَعَّفَ القولَينِ الأوَّلَينِ القائِلونَ بالثلاثةِ وهُمُ "اليهودُ"، والقائِلونَ بالخَمسةِ وَهُمُ "النَّصارى" كما ذَكَرَهُ السُّدِّيُّ بِقَولِه **(رَجْمًا بِالْغَيْبِ)** أيّ: قولاً بِلا عِلْمٍ كَمَن يَرمي

إلى مكانٍ لا يَعرِفُه؛ فإنَّه لا يكادُ يُصيبُ، وإنْ أصابَ فبلا قَصدٍ. ثمَّ حكَى الثالثَ وسَكَتَ عليهِ أو قَرَّرهُ بِقَولِه **(وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ)** فَدَلَّ على صِحَّتِه وأنَّه هُو الواقعُ في الأمرِ نفسِه، وقولُه: **(قُلْ رَبِّي أعلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)** إرشادٌ إلى أنّ الأحسنَ في مِثلِ هذا المَقامِ ردُّ العِلم إلى اللّهِ تعالى؛ إذ لا احتياجَ إلى الخَوضِ في مِثلِ ذلكَ بِلا عِلْمٍ؛ لكنْ إذا أطلَعنا على أمرٍ قُلْنا بهِ وإلاّ وَقَفْنا.

وقولُه **(مايَعلَمُهُمْ إلّا قليلٌ)** أيّ: مِن الناسِ. قال ابنُ عبَّاسٍ: أنا مِن القليلِ الذي استثنى اللّهُ عزَّ وجلَّ، كانوا سبْعةً. وكذا رَوى ابنُ جريرٍ عن عطاءٍ أنّه كانَ يقولُ: عِدَّتُهُم سبْعةٌ. فكانُوا ليلَهُم ونهارَهُم في عبادةِ اللّهِ، يَبْكُونَ ويَستَغيثُونَ باللّهِ.

(فلا تُمارِ فيهِم إلّا مِراءً ظاهِرًا) أيّ: سَهلاً هيِّنًا؛ فإنّ الأمرَ في معرفةِ ذلكَ لا يترتَّبُ عليهِ كبيرُ فائدةٍ.

(ولا تَستَفْتِ فِيهِمْ مِنهُمْ أحدًا) أيّ فإنَّهُم لا عِلْمَ لهُم بذلكَ إلاّ ما يَقُولونَه مِن تلقاءِ أنفُسِهم رجْمًا بالغيبِ مِن غيرِ استنادٍ إلى كلامٍ مَعصومٍ، وقد جاءكَ اللّهُ يا مُحمَّدُ بِالحقِّ الذي لا شكَّ فيهِ ولا مِريةَ؛ فهُو المُقدَّمُ الحاكِمُ على كلِّ ما تَقدَّمَه مِن الكُتبِ والأقوالِ.

(ولا تَقُولَنَّ لِشيءٍ إنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غدًا. إلّا أنْ يَشاءَ اللهُ) هذا إرشادٌ مِن اللّهِ تعالى لِرَسُولِه **صلى الله عليه وسلم** إلى الأدبِ فيما إذا عَزَمَ على شيءٍ لِيَفْعَلَهُ في المستقبلِ أن يَرُدَّهُ إلى مَشيئةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ عَلاّمِ الغُيوبِ، كما ثَبَتَ في الصَّحيحَينِ عن أبي هُريرةَ عن رسولِ اللّهِ **صلى الله عليه وسلم** أنّه قالَ: " قالَ سُليمانُ بنُ داودَ عليهِما

السلامُ لأَطُوفَنَّ الليلةَ على سَبْعِينَ امرأةً – وفي روايةٍ مائةِ امْرأةً – تَلِدُ كُلُّ امْرأةٍ مِنْهُنَّ غُلامًا يُقاتِلُ في سبيلِ اللّهِ، فقيلَ لهُ – وفي روايةٍ – قال له المَلَكُ: قُلْ إنْ شاءَ اللّهُ فَلَمْ يَقُلْ، فَطافَ بِهِنَّ فَلَمْ يَلِدْ مِنهُنَّ إلاّ امرأةٌ واحدةٌ نِصفَ إنسانٍ، فقالَ رسولُ اللّهِ: **صلى الله عليه وسلم** والَّذي نفْسِي بِيَدِه لو قالَ إنْ شاءَ اللّهُ لم يَحنَثْ وكانَ دَرَكًا لِحاجَتِه" . وفي روايةٍ: "ولَقاتَلُوا في سبيلِ اللّهِ فُرسانًا أجْمَعُونَ" . وقد تقدَّمَ في أوَّلِ السورةِ ذِكْرُ سَببِ نُزولِ هذه الآيةِ في قولِ النبيِّ **صلى الله عليه وسلم** لَمّا سُئِلَ عن قِصَّةِ أصحابِ الكهْفِ غداً أُجِيبُكُم، فتأخَّرَ الوحيُ خمسةَ عشرَ يومًا.

وقولُه (**وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**) قيلَ: معناهُ إذا نَسِيتَ الاستثناءَ فاستَثنِ عِندَ ذِكْرِكَ لهُ قالَهُ أبو العالية والحَسنُ البَصريُّ. وقال ابنُ عبَّاسٍ في الرَّجُلِ يَحلِفُ، لهُ أن يَسْتَثني ولو إلى سَنةٍ، وكان يقولُ واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ ذلكَ، ومعنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ: أنّه يُستَثنى ولو بَعدَ سَنةٍ أيّ: إذا نَسِيَ أنْ يقولَ في حلِفِه أو في كلامِه إنْ شاءَ اللّهُ وذَكَرَ ولو بَعدَ سَنَةٍ فالسُّنَّةُ لَهُ أن يقولَ ذلكَ؛ لِيكُونَ آتيًا بِسُنَّةِ الاستثناءِ؛ حتّى ولو كان بعدَ الحَنِثِ، قالُه ابنُ جريرٍ رَحِمهُ اللّهُ ونصَّ على ذلكَ لا أنْ يكونَ رافِعًا لِحِنْثِ اليمينِ ومُسقِطًا لِلكفَّارةِ وهو الصَّحيحُ.

وقال عِكْرِمَةُ: واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ أيّ: إذا غَضِبْتَ.

وقالَ الطبرانيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه "واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ": أنْ تقولَ إنْ شاءَ اللّهُ.

ورَوى الطبرانيُّ أيضًا عنهُ: اسْتَثْنِ إذا ذَكَرْتَ، وقالَ هي خاصَّةٌ بِرسولِ اللّهِ **صلى الله عليه وسلم** وليسَ لأحدٍ مِنّا أنْ يَستثنِيَ إلاّ في صِلَةٍ مِن يمينِه، ويُحتملُ في الآيةِ

وجهٌ آخرُ وهو أنْ يكونَ اللّٰهُ تعالى قد أرشدَ مَن نَسِيَ الشيءَ في كلامِه إلى ذِكْرِ اللّٰهِ تعالى؛ لأنّ النِّسيانَ مَنْشؤهُ من الشّيطانِ كما قال فتَى مُوسى: **(وما أَنْسانِيهُ إِلّا الشَّيطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ)**، وذِكْرُ اللّٰهِ تعالى يَطْرُدُ الشيطانَ، فإذا ذَهَبَ الشيطانُ ذَهَبَ النِّسيانُ، فَذِكْرُ اللّٰهِ تعالى سَببٌ للذِّكْرِ؛ ولهذا قال: **(واذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ)**.

(وقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذا رَشَدًا) أيّ: إذا سُئلْتَ عن شيءٍ لا تعلمُه فاسألِ اللّٰهَ تعالى فيه، وتَوجَّهْ إليه في أنْ يُوفِّقَكَ لِلصَّوابِ والرّشَدِ في ذلك.

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ) هذا خَبرٌ مِن اللّٰهِ تعالى لِرَسولِه **صلى الله عليه وسلم** بِمقدارِ ما لَبِثَ أصحابُ الكهفِ في كهفِهم مُنذُ أنْ أرقَدَهُم إلى أنْ بَعثَهُم وأعثرَ عليهِم أهلَ ذلك الزمانِ، وأنّه كانَ مِقدارُه ثلاثمائةِ سَنةٍ تزيدُ تِسعَ سِنينَ بالهِلاليّة. وهيَ ثلاثمائةُ سَنةٍ بالشمسيَّة، فإنّ تفاوُتَ ما بينَ كلِّ مائةِ سَنةٍ بالقَمريةِ إلى الشمسيةِ ثلاثُ سِنينَ؛ فلِهذا قال بعدَ الثلاثمائةِ **(وازْدادُوا تِسْعًا)**.

(قُلِ اللّٰهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا) أيّ: إذا سُئِلْتَ عن لبْثِهم وليسَ عِندكَ علمٌ في ذلكَ وتوقيفٌ مِن اللّٰهِ تعالى فلا تتقدَّمْ فيه بِشيءٍ؛ بلْ قُلْ في مِثلِ هذا اللّٰهُ أعلمُ بِما لَبِثُوا.

(لَهُ غَيبُ السَّماواتِ والأَرضِ) أيّ: لا يَعلمُ ذلكَ إلاّ هُوَ، ومَن أطلَعُه عليهِ مِن خَلْقِه، وهذا قولُ جُمهورِ المُفَسِّرينَ من السَّلَفِ والخَلَفِ.

قال قتادةُ في قولِه: "ولَبِثُوا في كَهفِهِم ثلاثمائةٍ سِنينَ" أنَّه قولُ أهلِ الكتابِ، وقد ردَّهُ اللّهُ تعالى بِقَولِه: " اللّهُ أعلمُ بِما لَبِثُوا"، والظاهِرُ أنَّه إخبارٌ مِن اللّهِ لا حكايةً عنهُم كما قالَ ابنُ جريرٍ.

وقولُه (**أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ**) أيّ: إنَّه لَبصيرٌ بهِم سميعٌ لهُم. قال ابنُ جريرٍ: وذلكَ في معنى المُبالَغةِ في المدحِ؛ كأنَّه قيلَ ما أبْصَرَه وأسْمَعَه، وتأويلُ الكلامِ: ما أبصرَ اللّهَ لِكُلِّ مَوجُودٍ وأسمعَهُ لِكُلِّ مَسمُوعٍ، لا يَخفى عليهِ مِن ذلكَ شيءٌ. ثُمّ رُويَ عن قتادةَ في قولِه "أبْصِرْ به وأسْمِع" : فلا أحدَ أبصرَ مِن اللّهِ ولا أسمعَ.

وقولُه (**مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا**) أيّ: أنّه تعالى هو الذي له الخَلْقُ والأمرُ لا مُعقِّب لحُكْمِه، وليسَ له وزيرَ ولا نصيرَ، ولا شريكَ ولا مُشِير، تعالى وتقدَّس[1].

تفسير الجلالين

(**أَمْ حَسِبْتَ**) أيّ ظَنَنْتَ (**أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ**) الغارِ في الجبلِ (**وَالرَّقِيمِ**) اللوحِ المكتوبِ فيه أسماؤهُم وأنسابُهم وقَد سُئِلَ **صلى الله عليه وسلم** عن قِصَّتِهِم (**كَانُوا**) في قِصَّتِهم (**مِنْ**) جُملَةِ (**آيَاتِنَا عَجَبًا**) خَبر كانَ وما قبلَه حالٌ؛ أيّ: كانُوا عَجبًا دونَ باقي الآياتِ أو أعجبَها ليسَ الأمرُ كذلكَ.

[1] تفسير القرآن العظيم (ابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ج٥/ ص١٢٥- ١٣٧).

اذكُرْ (**إِذْأَوَى الفِتيةُإلى الكَهْفِ**) جمعُ فتىً وهو الشابُّ الكاملُ، خائفينَ على إيمانِهم من قومِهم الكفَّار (**فقالُوا ربَّنا آتِنامِن لَدُنْكَ**) مِن قِبَلِكَ (**رَحمةً وهَيئْ**) أصلِحْ (**لنامِن أمْرِنارَشَدًا**) هِدايةً.

(**فَضَربْناعلى آذانِهِم**) أيّ: أنَمناهُم (**في الكَهْفِ سِنينَ عَددًا**) مَعدُودةً (**ثُمَّ بَعثناهُمْ**) أيقَظناهُم (**لِنَعْلَمَ**) عِلْمَ مُشاهَدةٍ (**أيُّ الحِزْبَين**) الفَريقَينِ المُختلِفَينِ في مُدَّةِ لُبثِهِم (**أحصَى**) أفعلُ بمعنَى أضبطُ (**لِمالَبِثُوا**) لبْثِهِم مُتعلِّقٌ بما بَعدَه (**أمدًا**) غايةً (**نَحنُ نَقُصُّ**) نَقْرأُ (**علَيكَ نبأهُمْ بِالحَقِّ**) بالصِّدقِ (**إنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمنُوا بِرَبِّهِمْ وزِدْناهُم هُدَىً**).

(**ورَبَطْناعلى قُلُوبِهِم**) قوَّيناها على قولِ الحقِّ (**إذْقامُوا**) بينَ يدَي مَلِكِهِم وقَد أمرَهُم بالسُّجودِ للأصنامِ (**فقالُوا ربُّنا ربُّ السَّماواتِ والأرْضِ لنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِه**) أيّ: غَيرَه (**إلهًا لقَدْ قُلْنا إذًا شَطَطًا**) أيّ: قولاً ذا شَطَطٍ؛ أيّ: إفراطٌ في الكفرِ إنْ دَعَونا إلهًا غيرَ اللهِ فَرضًا.

(**هؤلاءِ**) مبتدأٌ (**قومُنا**) عطفُ بيانٍ (**اتَّخَذُوا مِن دُونِه آلِهَةً لولا**) هلاّ (**يأتُونَ عليهِم**) على عِبادَتِهِم (**بِسُلطانٍ بَيِّنٍ**) بِحُجَّةٍ ظاهِرَةٍ (**فَمَنْ أظْلَمُ**) أيّ: لا أحدَ أظلَمُ (**مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِبًا**) بنسبةِ الشريكِ إليهِ تعالى.

قال بعضُ الفتيةِ لِبَعضٍ (**وإذِاعْتَزَلْتُمُوهُمْ ومايَعبُدونَ إلّا اللهَ فأوُوا إلى الكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِن رَحْمَتِهِ وَيُهَيِئْ لَكُمْ مِنْ أمْرِكُمْ مِرْفقًا**) بِكَسرِ المِيمِ وفَتحِ الفاءِ وبالعكسِ ما تَرتفِقُونَ بهِ مِن غَداءٍ وعَشاءٍ.

(**وتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزّاوَرُ**) بالتشديدِ والتخفيفِ تَميلُ (**عَن كَهْفِهِمْ ذاتَ اليمينِ**) ناحِيتَه (**وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ**) تَتْرُكُهُم وتَتجاوزُ عنهُم فلا تُصيبُهُم ألبتَّةَ (**وهُمْ فِي فَجْوةٍ مِنْهُ**) مُتَّسَعٍ مِن الكهفِ يَنالُهُم بردُ الرِّيحِ ونَسيمُها.

(**ذلكَ**) المذكورُ (**مِن آياتِ الله**) دلائِلُ قُدرَتِه (**مَن يَهْدِ اللهُ فهُوَ المُهتَدِ ومَنْ يُضْلِلْ فلنْ تَجِدَ لَهُ ولِيًّا مُرشِدًا**).

(**وتَحْسَبُهُمْ**) لو رأيتَهُم (**أيقاظًا**) أيّ: مُنْتَبِهينَ؛ لأنَّ أعيُنَهُم مُنفتِحةٌ، جمعُ يَقِظٍ بكسرِ القافِ (**وهُمْ رُقودٌ**) نِيامٌ جمعُ راقِدٍ (**ونُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ**) لِئلاّ تأكُلَ الأرضُ لُحومَهُم (**وكَلْبُهُم باسِطٌ ذِراعَيهِ**) يَدَيه (**بِالوصِيدِ**) بِفِناءِ الكهفِ وكانُوا إذا انقلَبُوا انقلبَ هُوَ مِثلَهُم في النومِ واليَقَظةِ.

(**لو اطَّلَعْتَ عليهِم لَوَلَّيتَ مِنْهُم فِرارًا ولَمُلِئْتَ**) بالتَّشديدِ والتخفيفِ (**مِنهُم رُعْبًا**) بسُكونِ العَينِ وضَمِّها مَنعَهُم اللهُ بالرُعبِ من دُخولِ أحدٍ عليهِم.

(**وكذلِكَ**) كما فعلْنا بهِم ما ذَكَرْنا (**بَعثناهُمْ**) أيقظناهُمْ (**لِيَتساءلُوا بَينَهُم**) عن حالِهِم ومُدَّةِ لُبثِهم (**قالَ قائِلٌ مِنهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثنا يَومًا أو بَعضَ يومٍ**)؛ لأنَّهُم

دخلُوا الكهفَ عندَ طُلوعِ الشمسِ وبُعِثُوا عندَ غُروبِها؛ فظنُّوا أنَّه غُروبُ يومِ الدُّخولِ ثمَّ (**قالُوا**) مُتوقِّفينَ في ذلكَ (**رَبُّكُمْ أعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فابْعَثُوا أحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ**) بِسُكونِ الراءِ وكَسْرِها بِفضَّتِكُم (**هذِهِ إلى المَدينةِ**) يُقالُ: إنّها المُسمَّاةُ الآنَ "طرسوس" بفَتحِ الرّاءِ (**فَلْيَنْظُرْ أيُّها أزْكى طعامًا**) أيّ: أيُّ أطعمةِ المَدينةِ أحلُّ.

(**فلْيَأتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ولْيَتَلَطَّفْ ولا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أحدًا**)،

(**إنَّهُمْ إنْ يَظْهَرُوا عليكُمْ يَرْجُمُوكُم**) يَقتلُوكُمْ بِالرَّجْمِ (**أو يُعِيدُوكُمْ في مِلَّتِهِمْ ولَنْ تُفْلِحُوا إذًا**) أيّ: إنْ عُدتمْ في مِلَّتِهِم (**أبدًا**).

(**وكَذلِكَ**) كما بَعثْناهُم (**أعثَرْنا**) أطلَعْنا (**عليهِم**) قومَهُم والمُؤمِنينَ (**لِيَعلَمُوا**) أيّ: قومهُم (**أنّ وَعْدَ الله**) بالبعثِ (**حَقٌّ**) بِطَريقِ أنّ القادرَ على إنامَتِهِم المُدَّةَ الطويلةَ وإبقائِهم على حالِهم بلا غِذاءٍ قادرٌ على إحياءِ المَوتى.

(**وأنَّ الساعةَ لا رَيبَ**) لا شَكَّ (**فيها إذْ**) مَعمُولٌ لأعثَرنا (**يَتنازَعُونَ**) أيّ: المُؤمِنونَ والكفَّارُ (**بينَهُم أمرَهُم**) أمرَ الفِتيةِ في البناءِ حولَهُم (**فقالُوا**) أيّ: الكُفّارُ (**ابْنُوا عليهِم**) أيّ: حولَهُم (**بُنيانًا**) يَستُرُهُم.

(**رَبُّهُم أعلَمُ بِهِم قالَ الَّذينَ غَلَبُوا على أمْرِهِمْ**) أمرَ الفِتيةِ وهُمُ المُؤمِنونَ (**لَنَتَّخِذَنَّ عليهِم**) حولَهُم (**مَسجِدًا**) يُصلَّى فيهِ وفُعِلَ ذلكَ على بابِ الكهفِ.

(**سيَقولُونَ**) أيّ: المُتنازِعونَ في عددِ الفِتيةِ في زمنِ النبيِّ مُحمَّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم أيّ: يقولُ بعضُهم هُمْ (**ثلاثةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ويَقُولُونَ**) أيّ: بعضُهم (**خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُم**) والقولانِ لِنَصارى نجْران (**رَجْمًا بِالغَيبِ**) أيّ: ظنًّا في الغَيبَةِ عنهُم وهو راجعٌ إلى القَولَينِ معًا ونَصبُه على المَفعولِ لهُ أيّ: لِظَنِّهِم ذلكَ (**ويَقُولُونَ**) أيّ: المُؤمِنونَ (**سَبْعَةٌ وثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**) الجُملةُ من المبتدأِ وخَبَرِه صِفةُ "سبعة" بزيادةِ الواو، وقيلَ: تأكيدٌ أو دلالةٌ على لُصوقِ الصِّفَةِ بِالمَوصوفِ ووَصْفِ الأوَّلِينَ بالرَّجْمِ دونَ الثالثِ دليلٌ على أنَّه صحيحٌ.

(**قُلْ رَبِّي أعلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إلّا قليلٌ**) قالَ ابنُ عبَّاسٍ: أنا مِن القليلِ وذَكَرَهُم "سبعة" (**فلا تُمارِ**) تُجادِلْ (**فيهِم إلّا مِراءً ظاهِرًا**) بِما أُنْزِلَ عليكَ (**ولا تَسْتَفْتِ فيهِم**) تَطلُبِ الفِتيا (**مِنهُم**) مِن أهلِ الكتابِ اليهودِ (**أحدًا**) وسألَهُ أهلُ مَكَّةَ عن خَبرِ أهلِ الكهفِ فقالَ: أُخْبِركُم بهِ غدًا ولم يَقُلْ إنْ شاءَ اللهُ فَنَزَلَ (**ولا تَقُولَنَّ لِشيءٍ**) أيّ: لأجْلِ شيءٍ (**إنِّي فاعِلٌ ذلكَ غدًا**) أيّ: فِيما يُستقبَلُ مِن الزَّمانِ (**إلّا أنْ يشاءَ الله**) أيّ: إلاّ مُلتبسًا بِمَشيئةِ اللهِ تعالى بأنْ تقولَ: "إنْ شاءَ اللهُ".

(**واذْكُرْ رَبَّكَ**) أيّ: مَشيئتَهُ مُعلَّقًا بها (**إذا نَسِيتَ**) ويكونُ ذِكْرُها بعدَ النِّسيانِ كَذِكْرِها مع القولِ الحَسنِ وغَيرِه ما دامَ في المجْلسِ.

(**وقلْ عَسى أنْ يَهْدِينِ رَبِّي لأقْرَبَ مِن هذا**) مِن خَبرِ أهلِ الكهفِ في الدلالةِ على نُبوَّتِي (**رَشَدًا**) هِدايةً وقد فعلَ اللهُ ذلكَ.

(**ولَبِثُوا في كَهْفِهِمْ ثلاثَ مائةٍ**) بالتنوينِ (**سِنِينَ**) عطفُ بيانٍ لِثلاثمائةٍ وهذه السِّنونُ الثلاثمائةِ عند أهلِ الكهفِ شمسيَّةٌ وتزيدُ القمريةُ عليها عندَ العربِ تِسعَ سِنينَ وقد ذُكِرَت في قولِه (**وازْدادُوا تِسْعًا**) أيّ: تِسعَ سِنينَ. فالثلاثمائةِ الشمسيَّةُ هي ثلاثمائةٍ وتِسع قمريةً.

(**قُلِ اللهُ أعلمُ بِما لَبِثُوا**) مِمَّنْ اختلَفُوا فيهِ وهو ما تقدَّمَ ذِكْرُه.

(**لهُ غَيبُ السَّماواتِ والأرضِ**) أيّ: عِلمُه (**أبْصِرْ بِهِ**) أيّ: باللهِ هي صيغةُ تعجُّبٍ (**وأسْمِعْ**) بِهِ كذلِكَ؛ بِمعنى: ما أبْصَرَهُ وما أسْمَعَهُ وهُما على جِهَةِ المجازِ والمرادُ: أنّه تعالى لا يَغيبُ عن بَصَرِه وسَمْعِه شيءٌ.

(**ما لَهُم**) لأهلِ السَّماواتِ والأرضِ (**مِن دُونِهِ مِن ولِيٍّ**) ناصِرٍ (**ولا يُشْرِكُ في حُكمِه أحَدًا**)؛ لأنَّه غنِيٌّ عن الشريكِ[1].

في ظِلال القُرآن

في القِصَّةِ رِواياتٌ شتَّى وأقاويلُ كثيرةٌ. وقد وَردتْ في بعضِ الكتبِ القديمةِ وفي الأساطيرِ بِصُوَرٍ شتّى. ونحنُ نقفُ فيها عند حدٍّ ما جاءَ في القرآنِ الكريمِ؛ فهُو

١) تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ج١/ ص٣٨١- ٣٨٤).

المصدرُ الوحيدُ المستيقَنُ، ونطرحُ سائرَ الرِّواياتِ والأساطيرِ التي اندسَّتْ في التفاسيرِ بلا سَندٍ صحيحٍ؛ وخاصَّةً أنّ القرآنَ الكريمَ قد نهَى عن استفتاءِ غيرِ القرآنِ فيها، وعن المِراء فيها والجدلِ رجْمًا بالغيبِ. وقد وردَ في سببِ نُزولِها ونُزولِ قِصَّةِ ذِي القَرنَينِ أنّ اليهودَ أغرَوا أهلَ مكَّةَ بِسُؤالِ الرَّسولِ **صلى الله عليه وسلم** عنهُما وعن الرُّوحِ. أو أنّ أهلَ مكَّةَ طلبُوا إلى اليهودِ أن يَصُوغُوا لهُم أسئلةً يختبِرُونَه بها. وقد يكونُ هذا كلُّه أو بعضُه صحيحًا؛ فقَد جاءَ في أوَّلِ قصَّةِ ذِي القرنَينِ: **(ويَسألُونكَ عن ذِي القرنَينِ)**، قُلْ: **(سأتْلُوا عليكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)**. ولكنْ لم تجَيء عن قصَّةِ أصحابِ الكهفِ مِثلُ هذه الإشارةِ. ونمضي في القصَّةَ لِذاتِها وهي واضحةُ الارتباطِ بمحورِ السورةِ كما بيَّنا.

إنّ الطريقةَ التي اتُّبعَتْ في عَرْضِ هذه القصَّةِ من الناحيةِ الفنِّيَّةِ هي طريقةُ التلخيصِ الإجماليِّ أوَّلاً، ثمَّ العَرْضِ التفصيليِّ ثانيًا. وهي تُعْرَضُ في مشاهِدَ وتُتْرَكُ بينَ المَشاهدِ فجْواتٍ يُعرفُ ما فيها مِن السِّياقِ. وتبدأُ هكذا **(أمْ حَسِبْتَ أنّ أصحابَ الكَهْفِ والرَّقيمِ كانُوا مِن آياتِنا عَجَبًا. إذْ أوَى الفِتيَةُ إلى الكَهْفِ فقالُوا ربَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، وهَيئْ لَنا مِن أمْرِنا رَشَدًا. فَضَربْنا على آذانِهِمْ في الكَهْفِ سِنِينَ عَددًا، ثُمَّ بَعثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَينِ أحصَى لِما لَبِثُوا أمدًا)** وهُو تلخيصٌ يُجْمِلُ القصَّةَ، ويَرسمُ خُطوطَها الرئيسيةَ العريضةَ. فنَعرِفَ أنّ أصحابَ الكهفِ فِتيةٌ لا نعلمُ عَددَهُم، آوَوا إلى الكهفِ وَهُمْ مُؤمنونَ، وأنّه ضَرَبَ على آذانِهم في الكهفِ – أيّ: نامُوا – سِنينَ معدُودةً لا نعلمُ عددَها، وأنَّهُم بُعِثُوا مِن رَقدتِهم الطويلةِ. وأنّه

كان هناكَ فريقانِ يتجادلانِ في شأنِهم كمْ لَبِثُوا في الكهفِ؟ فَبُعِثُوا لِيتَبيَّنَ أيُّ الفريقَينِ أدقُّ إحصاءً، وأنّ قِصَّتَهُم على غَرابَتِها ليستْ بأعجبِ آياتِ اللهِ؛ ففي صفحاتِ هذا الكونِ من العجائبِ وفي ثناياهُ من الغرائبِ ما يفوقُ قصَّةَ أصحابِ الكهفِ والرَّقيمِ.

وبعدَ هذا التلخيصِ المُشوِّقِ للقصَّةِ يأخذُ السِّياقُ في التفصيلِ. ويبدأُ هذا التفصيلُ بأنَّ ما سيقُصُّه اللهُ منها هو فصلُ الخِطابِ في الرِّواياتِ المُتضارِبَة، وهو الحقُّ اليقينُ **(نَحنُ نَقُصُّ عليكَ نبأَهُم بِالحَقِّ. إِنَّهُم فِتيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِم وَزِدنَاهُم هُدًى. وَرَبَطنَا عَلَى قُلُوبِهِم إِذ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ، لَن نَّدعُوَا مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَد قُلنَا إِذًا شَطَطًا. هَؤُلَاءِ قَومُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً. لَولَا يَأتُونَ عَلَيهِم بِسُلطَانٍ بَيِّنٍ. فَمَن أَظلَمُ مِمَّنِ افتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا)**.

هذا هُو المشهدُ الأوَّلُ من مشاهدِ القصَّةِ. إنَّهُم فِتيةٌ آمنُوا بربِّهِم وزِدناهُم هُدَىً بإلهامِهم كيفَ. وربَطْنا على قُلوبِهم فإذا هي ثابتةٌ راسخةٌ مُطمَئِنَّةٌ إلى الحقِّ الذي عَرَفَتْ، مُعتزَّةٌ بالإيمانِ الذي اختارتْ إذ قامُوا، والقيامُ حركةٌ تَدلُّ على العَزْمِ والثَّباتِ. فقالُوا: رَبُّنا ربُّ السَّماواتِ والأرضِ. فهُو ربُّ هذا الكونِ كُلِّه لنْ نَدعُوَا مِن دُونِه إلهًا؛ فهُو واحدٌ بلا شريكٍ "لقَد قُلْنا إذًا شَطَطًا"، وتجاوزْنا الحقَّ وَحِدْنا عن الصَّوابِ. ثمَّ يلتفِتُونَ إلى ما عليهِ قومُهُم فيَستَنْكِرُونَه، ويَستنكِرُونَ المنهجَ الذي يَسلكُونَه في تكوينِ العقيدةِ: هَؤلاءِ قومُنا اتَّخذُوا مِن دُونِه آلِهةً، لولا يأتُونَ عليهِم بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ؟ فهذا هو طريقُ الاعتقادِ: أن يكونَ للإنسانِ دليلٌ قويٌّ يستندُ إليهِ،

وبُرهانٌ له سُلطانٌ على النفوسِ والعقول؛ وإلاّ فهُو الكذبُ الشنيعُ؛ لأنَّه الكذبُ على اللهِ: "فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرى على اللهِ كَذِبًا". وإلى هُنا يبدوُ مُوقِفُ الفِتيةِ واضحًا صريحًا حاسمًا، لا تردُّدَ فيه ولا تلعثُمَ؛ إنَّهُم فِتيةٌ أشدَّاءُ في أجسامِهم، أشدَّاءُ في إيمانِهم، أشدَّاءُ في استِنكارِ ما عليه قومُهُم.

ولقد تبيَّنَ الطريقانَ واختلفَ المَنهجانِ؛ فلا سبيلَ إلى الالتقاءِ ولا للمشاركةِ في الحياةِ، ولا بُدَّ من الفِرارِ بالعقيدةِ. إنَّهُم ليسُوا رُسلاً إلى قومِهم فيواجِهُوهُم بالعقيدةِ الصحيحةِ ويَدعُوهُم إليها، ويتلَّقَوا ما يتلقَّاهُ الرسلُ؛ إنّما هُم فتيةٌ تبيَّنَ لهُم الهُدَى في وسطٍ ظالمٍ كافرٍ، ولا حياةَ لهُم في هذا الوسطِ إنْ هُمْ أعلَنُوا عقيدتَهُم وجاهَرُوا بها، وهُم لا يُطيقُونَ كذلكَ أن يُدارُوا القومَ ويُدارُوهُم، ويَعبُدوا ما يَعبدونَ مِن الآلهةِ على سبيلِ التُّقيَةِ ويُخْفُوا عِبادتِهم للهِ. والأرجَحُ أنّ أمرَهُم قد كُشِفَ؛ فلا سبيلَ لهُم إلَّا أنْ يَفرُّوا بِدينِهم إلى اللهِ، وأن يَختارُوا الكهفَ على زينةِ الحياةِ. وقد أجمَعُوا أمرَهُم فهُم يَتناجَونَ بينَهُم.

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا)، وهُنا يَنكَشِفُ العَجَبُ في شأنِ القلوبِ المؤمنةِ؛ فهَؤلاءِ الفِتيةُ اعتزَلُوا قومَهُم، وهَجَرُوا ديارَهُم، وفارَقُوا أهلَهُم، وتَجَرَّدُوا مِن زينةِ الأرضِ ومَتاعِ الحياةِ، هؤلاءِ الذينَ آوَوا إلى الكهفِ الضيِّقِ الخَشِنِ المُظْلِمِ يَرْجُون رحمةَ اللهِ ويُحِسُّونَ هذه الرحمةَ ظليلةً فسيحةً مُمتدَّةً. ولفظةُ "يَنْشُرْ" تُلقِي ظِلالَ السَّعَةِ والبُحبوحةِ والانْفِساحِ. فإذا الكهفُ فضاءٌ فسيحٌ رحيبٌ وسيعٌ تنتشرُ فيه الرحمةُ وتتَّسِعُ خُيوطُها وتمتدُّ ظِلالُها، وتَشمَلُهم بالرِّفقِ واللينِ والرَّخاءِ.

إنّ الحُدودَ الضيِّقةَ لَتنْزاحُ، وإنّ الجُدرانَ الصَّلْدةَ لَتَرِقّ، وإنّ الوحشةَ المُوغِلَةَ لَتَشِفّ، فإذا الرحمةُ والرفقُ والراحةُ والارتفاقُ. إنّه الإيمانُ... وما قيمةُ الظواهِر؟ وما قيمةُ القِيَمِ والأوضاعِ والمَدلُولاتِ التي تعارفَ عليها الناسُ في حياتِهِم الأرضيَّة؟

إنّ هنالكَ عالَمًا آخرَ في جَنَباتِ القلبِ المَغمورِ بالإيمانِ المأنُوسِ بالرحمنِ، عالَمًا تُظلِّلُهُ الرحمةُ والرفقُ والاطمِئنانُ والرِّضوانُ. ويُسْدَلُ السِّتارُ على هذا المشهدِ لِيُرْفَعَ على مَشهدٍ آخرَ والفِتية في الكهفِ وقد ضَرَبَ اللّهُ عليهِم النُّعاسَ.

(وَتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ اليَمِينِ، وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ، وَهُمْ في فَجْوةٍ مِنهُ) وهو مَشهَدٌ تصويريٌّ عجيبٌ، ينقلُ بالكلماتِ هيئةَ الفتيةِ في الكهفِ كما يلتقطُها شريطٌ متحرِّكٌ، والشمسُ تطلعُ على الكهفِ فتميلَ عنهُ كأنَّها مُتعمِّدةٌ. ولفظُ "تَزاوَرُ" تُصوِّرُ مَدلُولَها وتُلقِي ظِلَّ الإرادةِ في عَملِها، والشمسُ تغربُ فَتُجاوِزهُم إلى الشّمالِ وهُمْ في فَجْوةٍ مِنهُ. وقبلَ أن يكملُ نَقلُ المَشهدِ العجيبِ يُعلِّقُ على وضعِهم ذاك بأحدِ التعليقاتِ القرآنيةِ التي تتخلَّلُ سِياقَ القَصَصِ لِتوجيهِ القلوبِ في اللحظةِ المناسبةِ: **(ذَلِكَ مِن آياتِ اللهِ)** وَضْعُهُم هكَذا في الكهفِ، والشمسُ لا تَنالهُم بأشِعَّتِها وتقربُ منهُم بِضَوئِها، وهُم في مكانِهم لا يَموتُونَ ولا يتحرَّكُون.

(مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرشِدًا) وللهُدى والضَّلال نامُوسٌ؛ فمَن اهتدَى بآياتِ اللهِ فقَد هداهُ اللّهُ وفقَ نامُوسِه وهو المُهتدي حقًّا، ومَن

لـمْ يأخُذْ بأسبابِ الهُدَى ضلَّ، وجاءَ ضلالُه وفقَ النامُوسِ الإلهيِّ، ولنْ تجِدَ لهُ مِن بعدُ هاديًا.

(وتَحْسَبُهُمْ أيقاظًا وَهُمْ رُقُودٌ. ونُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ. وكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيهِ بِالوَصيدِ. لو اطَّلَعْتَ عليهِم لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرارًا، ولَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا).

ثُـمَّ يَمضي السِّياقُ لِيكمِلُ المشهدَ العجيبَ وهُـمْ يُقلَّبُونَ من جَنْبٍ إلى جَنْبٍ في نَومَتِهِم الطويلةِ، فيَحْسَبُهُم الرَّائي أيقاظًا وهُمْ رقودٌ، وكَلْبُهُم – على عادةِ الكِلابِ – باسِطٌ ذِراعَيه بِالفِناءِ قريبًا من بابِ الكهفِ كأنَّهُ يَحْرُسُهم، وهُمْ في هَيئتِهِم هذهِ يُثيرُونَ الرعبَ في قلبِ مَن يَطَّلِعُ عليهِم إذ يَراهُم نِيامًا كالأيقاظِ، يَتقلَّبُونَ ولا يَستَيقِظُونَ. وذلك مِن تدبيرِ اللهِ كي لا يَعبَثَ بهِم عابثٌ حتّى يحينَ الوقتُ المعلُومُ. وفجأةً تدبُّ فيهِم الحياةُ، فلْنَنْظُرْ ولْنَسْمَعْ: **(وَكَذَلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَينَهُم. قالَ قائِلٌ مِنهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ)** إنّ السِّياقَ يَحتفِظُ بالمُفاجأةِ في عَرضِ القصَّةِ، فيعرِضُ هذا المشهدَ والفِتيةُ يَستيقِظُونَ وهُمْ لا يَعرِفُونَ كَمْ لَبِثُوا مِنذُ أنْ أدركَهُم النُّعاسُ. إنَّهُم يَفْركُونَ أعينَهُم، ويلتفِتُ أحدهُم إلى الآخَرينَ فيسألُ كما يسألُ مَن يستيقظُ مِن نومٍ طويلٍ كَمْ لَبِثْتُم؟ ولا بُدَّ أنَّه كان يُحِسُّ بآثارِ نومٍ طويلٍ **(قالُوا لَبِثْنا يومًا أو بَعْضَ يَومٍ)**! ثُمَّ رأَوا أن يَترُكُوا هذه المسألةَ التي لا طائلَ وراءَ البحثِ فيها ويَدعُوا أمرَها للهِ شأنَ المُؤمِنِ في كلِّ ما يَعْرِضُ له مِمّا يَجْهَلَهُ **(قالُوا رَبُّكُمْ أعْلَمُ بِما لَبِثْتُم)** ثـمَّ رأَوا أنْ يأخُذوا في شأنٍ عمليٍّ؛ فَهُمْ جائِعُونَ ولَديهِم نقودٌ

فِضِّيَّةٌ خرجُوا بِها من المَدينةِ (**فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ**) أيّ: لِيَخْتَرْ أطيبَ طعامٍ في المَدينةِ فلْيأتِكُمْ بِشَيءٍ منهُ.

(**وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا**) فَهُمْ يُحذِّرونَ أنْ يَنكَشِفَ أمرُهُم ويُعرَفَ مَخبُؤهُم، فيأخذُهُم أصحابُ السُّلطانِ في المَدينةِ فيَقتلُوهُم رجْمًا بِوصْفِهم خارِجينَ على الدِّينِ؛ لأنَّهُم يَعبدُونَ إلهًا واحِدًا في المدينةِ المشركةِ ! أو يَفْتِنُوهُم عن عقيدَتِهم بالتعذيبِ، وهذهِ هي التي يَتَّقُونَها؛ لِذلِكَ يُوصُونَ الرَّسولَ أنْ يكونَ حَذِرًا لَبِقًا.

(**إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا**) فمَا يُفلِحُ مَن يرتدُّ عن الإيمانِ إلى الشِّركِ؛ وإنّها للخَسارة الكُبرى. وهكذا نشهدُ الفِتيةَ يتناجَونَ فيما بينَهُم، حَذِرينَ خائِفينَ، لا يَدرُونَ أنّ الأعوامَ قد كَرَّتْ، وأنّ عجلَةَ الزمنِ قد دارتْ، وأنّ أجيالاً قد تعاقبَتْ، وأنّ مَدينتَهُم التي يَعرِفونَها قد تغيَّرَتْ معالِمُها، وأنَّ المُتسلِّطينَ الذينَ يَخْشَونَهم على عقيدتِهم قد دالتْ دَولتُهم، وأنّ قصَّةَ الفِتيةِ الذينَ فرُّوا بِدينِهم في عَهدِ المَلِكِ الظالِمِ قد تناقلَها الخلَفُ عن السَّلَفِ، وأنّ الأقاويلَ حولَهُم مُتعارِضةٌ حولَ عَقيدتِهم وحولَ الفترةِ التي مضتْ منذُ اختفائِهم. وهُنا يُسدَلُ على مَشهَدِهِم في الكهفِ لِيُرْفَعَ على مَشْهَدٍ آخرَ، وبينَ المَشهَدَينِ فجْوةٌ مَتروكةٌ في السِّياقِ القُرآنيِّ. ونفهُم أنّ أهلَ المَدينةِ اليومَ مُؤمِنونَ؛ فهُم شديدُو الحفاوةَ بِالفتيةِ المُؤمِنينَ بعدَ أن انكشفَ أمرهُم بِذهابِ

أحدِهم لِشراءِ الطعامِ، وعرفَ الناسُ أنّه أحدُ الفتيةِ الذينَ فرُّوا بِدينِهم منذُ عَهدٍ بعيدٍ.

ولنا أنْ نتصوَّرَ ضخامةَ المُفاجأةِ التي اعتَرَتِ الفِتيةُ بعدَ أن أيقنَ زميلُهم أنّ المدينةَ قد مضَى عليها العهدُ الطويلُ منذُ أنْ فارَقُوها، وأنّ الدُّنيا تبدلَّتْ مِن حولِهم فلَمْ يَعُدْ لِشَيءٍ ممّا يُنكِرُونَه ولا لِشيءٍ ممّا يَعرفونُه وُجودٌ! وأنَّهُم مِن جيلٍ قديمٍ مَضتْ عليهِ القرونِ، وأنَّهُم أعجوبةٌ في نظرِ الناسِ وحِسِّهِم، فلا يُمكِنُ أن يُعامِلُوهُم كَبشرٍ عاديينَ، وأنّ كُلَّ ما يَربِطُهم بِجِيلِهِم من قراباتٍ ومُعاملاتٍ ومشاعِرَ وعاداتٍ وتقاليدَ كلُّه قد تقطَّعَ؛ فهُم أشبَهُ بالذِّكْرى الحيَّة منهُم بالأشخاصِ الواقعيَّةِ... فيرحمهُم اللّهُ مِن هذا كُلِّه فيتوفَّاهُم، لنا أنْ نتصوَّرَ هذا كلَّه.

أمّا السِّياقُ القُرآنيُّ فيعرضُ المشهدَ الأخيرَ؛ مشهدَ وفاتِهِم والناسُ خارجَ الكهفِ يتنازَعُونَ في شأنِهم على أيِّ دِينٍ كانُوا، وكيفَ يُخلِّدُونَهم ويَحفظُونَ ذِكْراهُم للأجيالِ. ويعهدُ مُباشرةً إلى العِبْرَةِ المُستقاةِ من هذا الحادثِ العجيبِ.

(وكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) إنّ العِبْرَةَ في خاتمةِ هؤلاءِ الفتيةِ هي دلالتُها على البعثِ بِمَثلٍ واقعيٍّ قريبٍ مَحسوسٍ يُقرِّبُ إلى الناسِ قضيَّةَ البعثِ؛ فيَعلَمُوا أنّ وعدَ اللّهِ بالبَعثِ حقٌّ، وأنّ الساعةَ لا ريبَ فيها. وعلى هذا النحْوِ بُعِثَ الفِتيةُ مِن نَومَتِهِم وأعثرَ قومَهُم عليهِم.

قال بعضُ الناسِ: ابْنُوا عليهِم بُنيانًا، فَرَبُّهُمْ أعْلَمُ بِهِمْ وبِما كانُوا عليهِ من عقيدةٍ. وقال أصحابُ السلطانِ في ذلكَ الأوانِ لَنَتَّخِذَنَّ عليهِم مَسجِداً. والمَقصودُ مَعبدٌ على طريقةِ اليهودِ والنَّصارى في اتِّخاذِ المَعابدِ على مقابرِ الأنبياءِ والقدِّيسينَ، وكما يصنعُ اليومَ مَن يُقلِّدُونَهُم مِن المُسلِمينَ مُخالِفينَ لِهُدى الرسولِ **صلى الله عليه وسلم**. ويُسْدَلُ السِّتارُ على هذا المشهدِ، ثمَّ يُرْفَعُ لِنَسْمَعَ الجَدَلَ حولَ أصحابِ الكهفِ على عادةِ الناسِ يتناقلونَ الرِّواياتِ والأخبارِ، ويَزيدونَ فيها ويُنقِصُونَ، ويُضيفُونَ إليها مِن خيالِهم جِيلاً بعدَ جيلٍ حتّى تتضخَّمَ وتتحوَّلَ، وتكثُرَ الأقاويلُ حولَ الخَبرِ الواحدِ أو الحادثِ الواحدِ كلَّما مَرَّتِ القُرونِ.

(سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ. قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ. مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ. فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا). فهَذا الجَدَلُ حولَ عددِ الفِتيةِ لا طائلَ وراءَه، وإنّه لَيَسْتَوي أنْ يَكُونُوا ثلاثةً أو خَمسةً أو سبعةً، أو أكثرَ. فأمرُهُم مَوكُولٌ إلى اللهِ، وعِلْمُهُم عندَ اللهِ، وعندَ القليلينَ الذينَ تثبَّتُوا من الحادثِ عندَ وُقوعِه أو مِن روايتِه الصحيحةِ. فلا ضَرورةَ إذنْ للجَدلِ الطويلِ حولَ عَددِهِم، والعِبْرَةُ في أمرِهِم حاصلةٌ بالقليلِ وبالكثيرِ؛ لذلكَ يُوجِّهُ القرآنُ الكريمُ الرسولَ **صلى الله عليه وسلم** إلى تَرْكِ الجَدلِ في هذه القضيةِ، وإلى عدمِ استِفتاءِ أحدٍ مِن المُتجادِلينَ في شأنِهم، تمشِّيًا مع منهجِ الإسلامِ في صيانةِ الطاقةِ العقليةِ أن تُبدَّدَ في

غيرِ ما يُفيدُ. وفي ألاّ يقفُو المسلِمُ ما ليسَ لهُ بهِ علمٌ وثيقٌ. وهذا الحادثُ الذي طواهُ الزمنُ هُو مِن الغيبِ المَوكُولِ إلى علمِ اللهِ، فلْيُتْرَكْ إلى علمِ اللهِ.

وبمُناسبةِ النهي عن الجَدَلِ في غيبِ الماضي، يَرِدُ النهيُ عن الحُكْمِ على غَيبِ المستَقبلِ وما يقعُ فيه؛ فالإنسانُ لا يَدري ما يكونُ في المستقبلِ حتّى يُقطَعَ برأيٍ فيهِ (**ولاتَقُولَنَّلِشيءٍإِنِّيفاعِلٌذَلِكَغَدًاإِلّاأَنْيَشاءَاللهُ**) إنّ كُلَّ حَركةٍ؛ بل كُلُّ نَفْسٍ من أنفاسِ الكائنِ الحيِّ مَرهُونٍ بإرادةِ اللهِ. وسُجُفُ الغَيبِ مُسْبَلٌ يَحجُبُ ما وراءَ اللحظةِ الحاضِرَة، وعينُ الإنسانِ لا تمتدُّ إلى ما وراءَ السترِ المُسْدَلِ، وعقلُه مَهما عَلِمَ قاصرٌ كليلٌ. فلا يَقُلْ إنسانٌ: "إنّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَداً". وغداً في غيبِ اللهِ وأستارِ غيبِ اللهِ دُونَ العَواقِب. وليسَ معنى هذا أنْ يَقعُدَ الإنسانُ لا يُفكِّرُ في أمرِ المستقبَلِ ولا يُدَبِّرُ له، وأنْ يعيشَ يوماً بيومٍ ولحَظةً بلَحظةٍ، وألاّ يَصِلَ ماضي حياتِه بحاضِره وقابلِه... كلاّ، ولكنْ معناهُ: أن يَحسبَ حِسابَ الغيبِ وحِسابَ المَشيئةِ التي تُدَبِّرُه، وأنْ يَعْزِمَ ما يَعزِمُ ويَستعينُ بمَشيئةِ اللهِ على ما يَعْزِمُ، ويستشعرَ أنّ يدَ اللهِ فوقَ يَدِه، فلا يُستبْعدُ أنْ يكونَ للهِ تدبيرٌ غيرُ تدبيرِه؛ فإنّ وفَّقَهُ اللهُ إلى ما اعتزَم فبِها، وإنْ جَرَتْ مَشيئةُ اللهِ بغَيرِ ما دَبَّرَ لمْ يَحزَنْ ولمْ ييأسْ؛ لأنّ الأمرَ للهِ أوّلاً وأخيراً فَلْيُفَكِّرِ الإنسانُ ولْيُدبِّرْ؛ ولكنْ لِيشْعُرَ أنّه إنَّما يُفكِّرُ بتيسيرِ اللهِ، ويُدبِّرُ بتوفيقِ اللهِ، وأنَّه لا يَملِكُ إلاّ ما يَمُدُّهُ اللهُ به من تفكيرٍ وتدبيرٍ. ولنْ يدعُو هذا إلى كسلٍ أو تراخٍ أو ضعفٍ أو فُتورٍ؛ بل على العكسِ يَمُدُّهُ بالثِّقةِ والقوَّةِ والاطمئنانِ والعزيمةِ. فإذا انكشفَ سِترُ الغيبِ عن تدبيرٍ للهِ غيرِ تدبيرِه فليتقبَّلْ قضاءَ اللهِ بالرِّضى والطُّمأنينةِ والاستسلامِ؛ لأنَّه الأصلُ الذي كانَ مَجْهولاً لهُ فَكُشِفَ عنهُ السِّتارُ. هذا هو المنهجُ

الذي يأخذُ به الإسلامُ قلبَ المسلمِ، فلا يشعرَ بالوحدةِ والوحشةِ وهو يُفكِّرُ ويُدبِّرُ... ولا يُحِسُّ بالغُرورِ والتبطُّرِ وهو يُفْلِحُ وينجحُ... ولا يَستشْعِرُ القنوطَ واليأسَ وهو يفشلُ ويخفقُ...؛ بل يبقَى في كلِّ أحواله مُتَّصِلاً باللهِ، قويًّا بالاعتمادِ عليه، شاكِرًا لِتوفيقِه إيّاه، مُسلِّمًا بِقضائِه وقَدَرِه، غيرَ مُتبطِّرٍ ولا قَنوطٍ.

(واذكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ) إذا نَسِيتَ هذا التوجيهَ والاتِّجاهَ فاذْكُرْ رَبَّكَ وارجِعْ إليه **(وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا)** من هذا المنهجِ الذي يصلُ القلبَ دائِمًا باللهِ في كلِّ ما يهُمُّ به وكلِّ ما يتوجَّهُ إليه. وتجيءُ كلمةُ "عَسَى" وكلمةُ "لأقْرَبَ" للدلالةِ على ارتفاعِ هذا المُرتَقى، وضرورةُ المحاولَةِ الدائمةِ للاستِواءِ عليه في الأحوالِ كافّةً.

وإلى هُنا لم نَكُنْ نعلَمُ كَمْ لَبِثَ الفِتيةُ في الكهفِ؛ فلنعرفُه الآنَ على وجهِ اليقينِ.

(ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا. قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) فهَذا هو فصلُ الخِطابِ في أمْرِهم، يُقرِّرُه عالمُ غيبِ السَّماواتِ والأرضِ. ما أبْصَرَه وما أسْمَعَهُ ! سُبحانَه فلا جِدالَ بعدَ هذا ولا مِراءَ. ويُعقِّبُ على القصَّةِ بإعلانِ الوحدانيةِ الظاهِرة الأثرَ في سيرِ القصَّةِ وأحداثِها **(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ. وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)**. وبِتَوجيهِ الرسولِ **صلى الله عليه وسلم** إلى تلاوةِ ما أوحاهُ ربُّه إليه، وفيه فصلُ الخِطابِ وهو الحقُّ الذي لا يأتيه الباطلُ، والاتِّجاهُ إلى اللهِ وحدَه، فليسَ مِن حِمىً إلاّ حِماهُ. وقَد فرَّ إليه أصحابُ الكهفِ فَشملِهُمْ برحْمَتِه وهَداهُم.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ وهكذا تنتهي القصَّة، تسبِقُها وتتخلَّلُها وتعقبُها تلكَ التوجيهاتُ التي مِن أجلِها يُساقُ القَصصُ في القُرآنِ، مع التناسُقِ المُطلَقِ بينَ التوجيهِ الدِّينيِّ والعَرْضِ الفنِّيِّ في السِّياقِ(١).

التحريرُ والتنويرُ - تفسيرُ ابنِ عاشُور

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ أمْ للإضْرابِ الانتقاليِّ مِن غَرضٍ إلى غَرضٍ. ولمّا كان هذا مِن المقاصدِ التي أُنْزلتِ السُّورةُ لِبيانِها لم يَكُنْ هذا الانتقالُ اقتِضابًا؛ بلْ هُو كالانتقالِ مِن الدِّيباجةِ والمُقدِّمةِ إلى المَقْصُودِ، ومُناسَبةِ الانتقالِ تتَّصلُ بقَولِه تعالى: "فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ على آثارِهِم إنْ لَمْ يُؤمِنُوا بِهذا الحديثِ أسَفًا". إذْ كانَ ممّا صَرفَ المُشرِكينَ عن الإيمانِ إحالتَهُم الإحياءَ بعدَ الموتِ، فكان ذِكْرُ أصحابِ الكهفِ وبَعثِهم بعدَ خُمودِهِم سِنينَ طويلةً مِثالاً لإمكانِ البعثِ. وأمْ هي المُنقَطِعةُ بِمعنى بلْ، وهي مُلازِمةٌ لِتقديرِ الاستفهامِ معَها.

﴿كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أيّ: أحَسِبْتَ أنّ أصحابَ الكهفِ والرقيمِ كانُوا أعجبَ مِن بقيَّةِ آياتِنا؛ فإنَّ إماتةَ الأحياءِ أعجبُ مِن إنامةِ أصحابِ الكهفِ؛ لأنّ في إنامَتِهم إبقاءً للحياةِ في أجسامِهم وليسَ في إماتةِ الأحياءِ إبقاءً لِشيءٍ من الحياةِ فيهِم على كَثْرتِهم وانتشارِهِم، وهذا تعريضٌ بِغَفلَةِ الذينَ طلبُوا مِن النبيِّ **صلى الله عليه**

١) في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ج٤/ ص٢٢٥٦- ٢٢٦٦).

وسلم بيانَ خبرِ أصحابِ الكهفِ؛ لاستعلامِ ما فيها من العَجَبِ؛ وذلكَ لأنَّهُم سألُوا عن عجيبٍ وكَفَرُوا بِما هُو أعجبُ وهو فَناءُ العالَم، وكانُوا يَقولُونَ ما هيَ إلاّ حياتُنا الدُّنيا نَمُوتُ ونَحيا وما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ" . أيّ: إنّ الحياةَ هي حياتُنا الدُّنيا فقط، وأنّ الدهرَ يُهلِكُنا وهُو باقٍ، وفي ذلكَ لَفْتٌ لِعُقولِ السائلينَ حولَ الاشتِغالِ بعَجائبِ القَصصِ وتركِ الأولى لهُم وهو الاتِّعاظُ بِما فيها من العِبَرِ والأسبابِ وآثارِها. فأعلمُ الناسِ بثَباتِ إيمانِهم باللهِ ورجائِهم فيهِ، وأنَّهُم أبطلُوا الشِّركَ وسفَّهُوا أهْلَه تعريضًا بأنّ حقَّ السامِعينَ أن يَقتَدُوا بِهُداهُم. والخطابُ للنبيِّ **صلى الله عليه وسلم** والمرادُ به قومُه الذينَ سألُوا عن القصَّةِ وكذلك أهلُ الكتابِ الذينَ أغروهُم بالسؤالِ عنها وتطلُبُ بيانَها. ويظهرُ أنّ الذينَ لقَّنُوا قُريشًا السؤالَ عن أصحابِ الكهفِ هُمْ بعضُ النَّصارى الذينَ لهُم صلةٌ بأهلِ مكَّةَ مِن التَّجّارِ الواردينَ إليها، أو مِن الرُّهبانِ الذينَ هُم في الأديرةِ الواقعةِ في طريقِ رحلةِ قريشٍ من مَكَّةَ إلى الشامِ وهي رحلةُ الصيفِ. ومحلُّ التعجُّبِ هو قولُه مِن آياتِنا أيّ مِن بينِ آياتِنا الكثيرةِ المُشاهدةِ لهُم وهُمْ لا يَتعجَّبُونَ مِنها ويَقْصِرونَ تَعجُّبَهُم على أمثالِ هذه الخوارقِ، فيؤولُ المعنَى إلى أنّ أصحابَ الكهفِ لَيسُوا هُم العَجَبُ مِن بينِ الآياتِ الأُخْرى؛ بل عجائبُ صُنعِ اللهِ تعالى كثيرةٌ مِنها ما هو أعجبُ مِن حالِ أصحابِ الكهفِ. ومِن للتبعيضِ؛ أيّ: ليستْ قصّةُ أصحابِ الكهفِ مُنفَرِدةً بالعَجَبِ مِن بينِ الآياتِ الأُخرى. ويمْكِنُ أن تكونَ ظرفيّةً مجازيّةً أي كانُوا عَجَبًا في آياتِنا وبقيَّةُ الآياتِ لَيسَتْ عَجَبًا! وأخبرَ عن أصحابِ الكهفِ بالعَجبِ؛ وإنّما العجَبُ حالُهُم في قومِهِم، فَثمَّ مُضافٌ مَحذوفٌ يدلُّ عليه الكلامُ، وأخبرَ عن حالِهم بالمَصدرِ مُبالغةً والمرادُ عجيبٌ.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ والكهفُ هو الشِّقُّ المُتَّسعُ الوسطِ في جبلٍ؛ فإنْ لم يكُنْ مُتَّسعًا فهُو غارٌ. والرقيمُ من الرَّقْمِ وهُو الكِتابةُ؛ فالرَّقيمُ كتابٌ كانَ مع أصحابِ الكهفِ في كهفِهم، قيلَ: كتَبُوا فيهِ ما كانُوا يَدِينُون به من التوحيدِ، وقيلَ: : هُو كتابُ دِينهِم كانَ قبلَ عِيسى عليهِ السلامُ، وقيلَ: هو دِينُ عِيسى، وقيلَ: كتبُوا فيه الباعثَ الذي بعثَهُم على الالتجاءِ إلى الكهفِ فِراراً من كُفْرِ قومِهم.

وابتدأ القرآنُ الكريمُ من قِصَّتِهم بمَحلِّ العِبرةِ الصادقةِ والقُدوةِ الصالحةِ منهُ وهو التجاؤهُم إلى ربِّهِم واستجابته لهُم. وقد أشارتِ الآيةُ إلى قِصَّةِ نَفَرٍ من صالحِي الأُممَ السالفةِ ثبتُوا على دِينِ الحقِّ في وقتِ شُيوعِ الكفرِ والباطلِ فانْزَوَوا إلى الخلوةِ تجنُّبًا لمُخالَطةِ أهلِ الكفرِ، فأوَوا إلى كهفٍ استقرُّوا فيهِ فِراراً من الفتنةِ في دِينهِم؛ فأكرَمَهُم اللهُ تعالى بأنْ ألقَى عليهِم نَوماً بَقُوا فيهِ مُدَّةً طويلةً ثمَّ أيقظَهُم، فأراهُم انقراضَ الذينَ كانوا يَخافُونَهُم على دِينهِم.. وقد عَرَفَ الناسُ خبَرهُم ولم يَقِفُوا على أعيانِهم ولا وقَفُوا على رقيمِهم؛ ولذلكَ اختَلفُوا في شأنِهم؛ فمنهُم مَن يُثبِتُ وقوعَ قِصَّتِهم، ومِنهُم مَن ينفِيها. ولمّا كانت معاني الآياتِ لا تتَّضِحُ إلاّ بمعرفةِ ما أشارتْ إليهِ تعيَّنَ أن نذكُرَ ما صَحَّ عندَ أعلامِ المُؤرِّخينَ على ما فيهِ من اختلافٍ. وقد ذكرَ ابنُ عطيَّةَ أنّه في بَلَدٍ يُقالُ له "أَبْسُس" من ثُغورِ "طرسوس" بينَ "حلب وأنطاكية"، وليستْ "أفسس" المعروفةُ في بلادِ اليونانِ، وكانت الدِّيانةُ النَّصرانيةُ قد دخلَتْ في تلكَ الجِهاتِ؛ فكانَ من أهلِ "أبسُس" نفرٌ من صالحِي النَّصارى رَفَضُوا عبادةَ الأصنامِ في زمنِ الإمبراطورِ "دوقيوس" ويقال "دقيانوس" الذي ملكَ في

حُدودِ سَنةِ ٢٢٧ وكان مُتعصِّبًا للدِّيانةِ الرُّومانيةِ وشديدَ البُغضِ للنَّصرانيّةِ؛ فتوعَّدهُم بالتعذيبِ. فاتَّفَقُوا على أن يَخرُجوا من المدينةِ إلى جبلٍ يبعدُ عنها فرْسَخَينِ يُقالُ له "بنجلوس" فيه كهفٌ أوَوا إليهِ وانفَرَدُوا فيهِ بعبادةِ اللهِ. ولّما بلغَ خبرُ فِرارِهِم مسامعَ المَلِكِ أرسلَ وراءهُم فألقَى اللهُ عليهِم نومةً فظَنَّهُم أتباعُ المَلِكِ أمواتًا، وأمرَ أن تُسَدَّ فُوَّهةُ الكهفِ فَبَقوا في رقدتِهم مُدَّةً طويلةً ذَكرَها القرآنُ الكريمُ أنَّها ثلاثمائةُ سَنةٍ وتِسْعٌ، وكان انبعاثُهم أيَّامَ مُلْكِ "ثاوذوسيوس" قيصرَ الصغيرِ؛ فجَعلَهُم اللهُ آيةً لأنْفُسِهم وللناسِ فبَعثَهُم من مَرقَدِهِم ولم يَعلَمُوا مُدَّةَ مُكثِهِم، وأرسلُوا أحدَهُم إلى المدينةِ بِدراهِمَ لِيشتريَ لهُم طعامًا، . فعَجبَ الناسُ من هيئتِه ومِن دَراهِمِه وعَجبٌ هو ممّا رأى من تغيير الأحوالِ، وتسامَع أهلُ المدينةِ بأمرِهِم، فَخرجَ القيصرُ مع أساقِفَةٍ وقِسِّيسينَ وبَطارقَةٍ إلى الكهفِ فنَظَرُوا إليهِم وكَلَّمُوهُم وآمنُوا بآيَتِهم، ولّما انصرَفُوا عنهُم ماتُوا في مواضِعِهِم، فكانتْ آيةً تأيَّد بها دِينُ المَسيحِ عليه السلامُ.

وأوى إلى المكانِ أيّ: جَعلَهُ مَسكَنًا لهُ؛ فالمكانُ هو المَأْوَى. والفِتيةُ جمعُ قِلَّةٍ لِفَتىً وهو الشابُّ المُكْتَمِلُ، والمُرادُ بالفِتيةِ هُم أصحابُ الكهفِ، وهذا من الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ لأنّ مُقتضَى الظاهرِ أن يُقالَ "إذ أوَوا" ؛ فعَدلَ عن ذلكَ؛ لما يدلُّ عليهِ لفظُ الفِتيةِ من كَونِهم أترابًا مُتقاربِي السِّنِّ، وذَكَرَهُم بهذا الوصفِ للإيماءِ إلى ما فيهِ من اكتمالِ خُلُقِ الرُّجوليَّةِ المُعبَّرِ عنهُ بالفتوَّةِ الجامعِ لمعنى سَدادِ الرَّأيِ وثباتِ الجأْشِ والدفاعِ عن الحقِّ.

(فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً) الفاءُ في كلمةِ "فقالُوا" تدلُّ على أنَّهُم لمّا أوَوا إلى الكهفِ بادَرُوا بالابتهالِ إلى اللهِ، ودَعَوهُ أن يُؤتيهِم رحْمَةً مِن لَدُنْهُ تُناسِبُ عِنايتَهُ باتِّباعِ الدِّينِ الذي أمرَ بهِ وذلك جامِعٌ لخَيرِ الدُّنيا والآخِرَة. و"مِن لَدُنْكَ" تُشيرُ إلى التعلُّقَ بِفعلِ الإيتاءِ، وفي مِن معنى الابتداءِ وفي "لَدُنْكَ" معنى العِنديَّةِ والانتِسابِ إليهِ، وذلكَ أبلغُ ممّا لو قالُوا آتِنا رحمةً؛ لأنّ الخَلْقَ كُلَّهُم بمَحلِ الرَّحمةِ مِن اللهِ؛ ولكنَّهُم سألُوا رَحمةً خاصَّةً وافِرَةً في حينِ توقعُ ضِدَّها، وقَصدُوا الأمنَ على إيمانِهِم مِن الفتنةِ؛ ولِئلاّ يُلاقُوا في اغترابِهم مَشقَّةً وألَمًا، وأنْ لا يُهينَهُم أعداءُ الدِّينِ فيَصيرُوا فِتنةً للقومِ الكافِرينَ.

(وَهَيِّئْ لَنَا) سألُوا اللهَ أن يُقدِّرَ لهُم أحوالاً تكونُ عاقبَتُها حصولَ ما خَوَّلَهُم من الثباتِ على الدِّينِ الحقِّ والنَّجاةِ مِن مُناوأةِ المُشرِكينَ؛ فعبَّرَ عن ذلكَ التقديرِ بالتهيئةِ التي هي إعدادُ أسبابِ حُصولِ الشيءِ.

(مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) الأمرُ هُنا "الشأنُ والحالُ" الذي هُم فيهِ، وهو الإيمانُ والاعتصامُ إلى محلِّ العُزلَةِ عن أهلِ الشركِ، وقد أعدَّ اللهُ لهُم من الأحوالِ ما به رَشَدُهُم؛ فمِن ذلكَ صرفَ أعدائِهم عن تَتَبُّعِهم، وألهَمَهُم مَوضِعَ الكهفِ، وكان وضعُه على جهةٍ صالحةٍ ببقاءِ أجسامِهم سليمةً، وأنامَهُم نومًا طويلاً لِيَمضِيَ عليهِم الزمنَ الذي تتغيَّرُ فيه أحوالُ المدينةِ، وحَصَلَ رَشَدُهُم إذْ ثَبتُوا على الدِّينِ الحقِّ وشاهَدُوه مَنصُوراً مُتَّبَعًا، وجعلَهُم آيةً للناسِ على صِدقِ الدِّينِ وعلى قُدْرَةِ اللهِ وعلى البَعثِ.

و"الرَّشَدُ" بِفَتحتَينِ هو الخَيرُ وإصابةُ الحقِّ والنفعِ والصلاحِ، والرُشْدُ بِضَمِّ الراءِ وسُكونِ الشِّينِ مُرادِفٌ، وتحريكُ الحَرفَينِ فيهِما أنسبُ بالكلماتِ الواقعةِ في قرائنِ الفواصِل.

(**فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ**) تفريعُ هذه الجملةِ بالفاءِ إمّا: على جُملَةِ دُعائهِم فيؤذنَ بأنّ مضمونَها استجابةُ دعوتهِم فجَعلَ اللهُ إنامَتهُم كرامةً لهُم بأنْ سلَّمَهُم مِن التعذيبِ بأيدي أعدائِهم وأيَّدَ بِذلكَ أنَّهُم على الحقِّ وأرى الناسُ ذلكَ بعدَ زمنٍ طويلٍ، وإمّا: على جُملَة "إذْ أوَى الفِتيةُ" ... فيؤذنَ بأنّ اللهَ عَجَّلَ لهُم حصولَ ما قصدُوه ممّا لم يَكُنْ في حُسبانِهم. والضَّربُ هُنا بمعنى الوضْعِ، وحَذفُ مَفعول "ضَرَبْنا" لِظُهورِه، أيّ ضَرَبْنا على آذانِهُم غِشاوةٌ أو حائِلاً عن السَّمْعِ. والضَّرْبُ على الآذانِ كنايةٌ عن الإنامةِ؛ لأنّ النومَ الثقيلَ يستلْزِمُ عدمَ السمعِ، والسمعُ السليمُ لا يحجبُه إلاّ النومُ بخلافِ البصرِ الصحيحِ؛ فقَد يُحجَبُ بتغميضِ الأجفانِ، وهذه الكنايةُ من إعجازِ القرآنِ الكريمِ لم تكُنْ معروفةً قبلَ هذه الآيةِ.

(**سِنِينَ عَدَدًا**) عَدداً نعتُ سِنينَ، والعددُ مستعمَلٌ في الكثرَةِ، أيّ: سِنينَ ذاتَ عددٍ كثيرٍ. وقد أُجْمِلَ العددُ هُنا تَبعًا لإجمالِ القصَّة.

(**ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ**) البعثُ هُنا بمعنى "الإيقاظِ"؛ أيّ: أيقظناهُم مِن نومَتِهم يقظةَ مَفزُوعٍ، وفي لفظِ البعثِ تنبيهٌ على أنّ في هذه الإفاقةِ دليلاً على إمكانِ البعثِ وكيفيَّتِه.

(**لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ**) الحِزبُ هو الجماعةُ الذين توافَقُوا على شيءٍ واحدٍ؛ فالحِزْبانِ فريقانِ أحدُهُما مُصيبٌ والآخرُ مُخْطئٌ في عدِّ الأمدِ الذي مَضَى عليهِم.

قِيلَ هُما فريقانِ مِن أهلِ الكهفِ أنفُسِهم المُشارِ إليهِم في قولِه تعالى: "قالَ قائلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ..." وفي هذا بُعْدٌ مِن لفظِ "حِزْبٍ"؛ إذ كان القائلُ واحِداً والآخَرونَ شاكِينَ، وبَعيدٌ أيضاً مِن فِعل "أحصى"؛ لأنّ أصحابَ الكهفِ ما قَصَدُوا الإحصاءَ لُمدَّةِ لُبثِهِم عندَ إفاقَتِهم؛ بلْ خالُوها زمَناً قليلاً. فالمُرادُ ب "الحِزْبَينِ" حِزْبانِ مِن أهلِ بلدِهِم اختلفَتْ أقوالُهُم في مُدَّةِ لُبْثِهِم بعدَ أن عَلِمُوا انْبِعاثَهُم مِن نومَتِهِم؛ فهُما فَريقانِ في جانِبَي صَوابٍ وخَطأٍ. وجُعِلَ حُصولُ عِلْمِ اللهِ بِحالِ الحِزْبَينِ عِلَّةً لِبَعْثِهِ إيَّاهُمْ كِنايةً عن حُصولِ الاختلافِ في تقديرِ مُدَّتِهِم.

(أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) أيّ: لِنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَينِ أتْقنَ إحصاءً؛ بحيثُ يكونُ هو المُوافِقُ للواقِعِ وما عَداه تقريباً ورَجْماً بالغَيبِ وهو ما فصَّلَه قولُه تعالى: "سَيقُولُونَ ثَلاثةٌ..."، أو لِيَظْهَرَ اضْطِرابُ الناسِ في ضَبْطِ تواريخِ الحوادثِ، واختلالِ خَرْصِهِم وتَخْمِينِهِم إذا تَصدَّوا لها، ويَعلَمَ تفريطَ كثيرٍ مِنهُم في تحديدِ الحوادثِ وتاريخِها.

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ) القَصصُ هو سَرْدُ خَبرٍ طويلٍ، والنَّبأُ هو الخَبرُ الذي فيهِ أهمِّيَّةٌ ولهُ شأنٌ. ولمّا كان في نبأِ أصحابِ الكهفِ تخرُّصاتٌ ورَجْماً بالغَيبِ أثارَ ذلكَ في النفْسِ تطلُّعاً إلى مَعرفةِ الصِّدقِ في أمرِهِم مِن مُخْبِرٍ لا يُشَكُّ في صِدْقِ خَبَرِه كانتْ جُملَةُ "نَحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ نَبأهُمْ بِالحَقِّ" استِئنافاً بيانيًّا لِجُملَةِ "لِنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَينِ أحصَى لِما لَبِثُوا أمَداً"، وهذا شُروعٌ في مُجمَلِ القِصَّةِ والاهتمامِ بِمَواضِعِ العِبْرَةِ مِنها. والمَعنى: نَحنُ لا غَيرُنا يَقُصُّ قَصَصَهُم بِالحَقِّ. والحَقُّ هُنا الصِّدقُ، والصِّدقُ مِن أنواعِ الحقِ، والباءُ لِلمُلابَسةِ؛ أيّ: القَصَصُ المُصاحِبُ لِلصِّدقِ لا للتَّخرُّصاتِ.

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) قدَّمَ وصفَ ثباتِهم على الإيمانِ ومُنابَذتِهم قومَهُم الكفَرةَ ودُخولِهم الكهفَ، وتقديمُ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفعليِّ في جملةِ "نَحنُ نَقُصُّ عليكَ" يُفيدُ الاختِصاصَ. وجُملَةُ "إنَّهُمْ فِتْيَةٌ" مُبيِّنةٌ لِلقَصصِ والنَّبأ، و(افتتاحُ الجُملَةِ بِحَرفِ التأكيدِ لِمُجَرَّدِ الاهتمامِ لا لردِّ الإنكارِ)، والزيادةُ هي وَفْرَةُ مِقدارِ شَيءٍ مَخصُوصٍ، وزيادةُ الهُدى يجوزُ أن يكونَ بِفَتْحِ بَصائِرِهِم للتفكيرِ في وسائلِ النَّجاةِ بإيمانِهم وإلهامِهم التَّوفيقَ والثَّباتَ، ويَجُوزُ أن يكونَ بِفَضْلِ التقوى، وتُستعارُ الزِّيادةُ لِقُوَّةِ الوصفِ كما وَردَ هُنا.

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ) الرَّبْطُ على القلبِ هو تثبيتُ الإيمانِ وعَدمُ التردُّدِ فيه، ولولا ذلكَ لَما أقدَمُوا على مِثلِ ذلكَ العَملِ والقَولِ.

(إِذْ قَامُوا فَقَالُوا) القيامُ يحتملُ أن يكونَ "حقيقيًا"؛ بأنْ وقَفُوا بين يَدَي مَلِكِ الرُّومِ المُشرِكِ، أو في مَجامِعِ قومِهِم خُطباءَ مُعلنينَ فَسادَ عقيدةِ الشِّركِ، ويحتملُ أن يكونَ "مُستعاراً" للإقدامِ والجَسْرِ على عَملٍ عظيمٍ، أو "للاهتمامِ بالعملِ والقولِ" تشبيهًا للاهتمامِ بقيامِ الشخصِ من قُعودٍ للإقبالِ على عَملٍ ما؛ فليسَ في ذلك قيامٌ بعدَ قُعودٍ؛ بل قالُوهُ وهُمْ قُعودٌ.

(رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) عَرفُوا اللهَ بِطَريقِ الإضافةِ إلى ضَميرِهِم؛ إمّا لأنَّهُم عُرِفُوا مِن قَبْلُ بأنَّهُم عَبدُوا اللهَ المُنَزَّهَ عن الجِسْمِ وخَصائِصِ المُحدَثاتِ، وإمَّا لأنَّ اللهَ لم يكُنْ مَعرُوفًا باسْمِ عَلَمٍ عِندَ أولئكَ المُشرِكينَ الذينَ يزعُمونَ أنَّ ربَّ الأربابِ هو "جوبتير" المُمثَّلِ في كوكبِ المُشتري، فلم يكُنْ طريقٌ لِتعريفِهِم الإلهَ الحقّ؛ إلاّ

طريقَ الإضافةِ. وقولِهم هذا قد يكونُ مَسُوقًا إلى قومِهم المُشركينَ قَصدُوا به إعلانَ إيمانِهم بين قومِهم وإظهارَ عَدمِ الاكتراثِ بتهديدِ المَلِكِ فيكونُ موقِفُهُم هذا كمَوقفِ "بني إسْرائيلَ" حين قالُوا لِفَرعونَ كما وَرَدَ في الآيةِ ٥٠ من سُورةِ الشُّعراءِ: لا ضَيْرَ إنَّا إلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ، أو أنَّهُمْ قَصدُوا بهِ مَوعِظَةَ قومِهم دونَ مُواجَهَةٍ على طَريقةِ التعريضِ، واستقصاءً لِتبليغِ الحقِّ إليهِم؛ وهذا هو الأظهرُ لحَملِ القيامِ على حقيقتِه؛ ولأنَّ القولَ نُسِبَ إلى ضَميرِ جَمعِهم دونَ بَعضِهم.

(لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) ذَكَرُوا الدُّعاءَ دونَ العِبادةِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يشملُ الأقوالَ كُلَّها من إجراءِ وَصْفِ الإلهيَّةِ على غَيرِ اللهِ ومن نداءِ غَيرِ اللهِ عندَ السُّؤالِ. والشَّطَطُ هو الإفراطُ في مُخالَفةِ الحقِّ والصَّوابِ؛ أيّ: "لقَد قُلْنا قَولاً شَطَطًا" وهُو نِسبةُ الإلهيَّةِ إلى مَن دُونَ اللهِ تعالى.

(هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا) استِئنافٌ بيانيٌّ اقتضتْهُ جملةُ "لقَد قُلْنا إذًا شَطَطًا"؛ إذ يَثورُ في نفْسِ السامِعِ أن يتساءلَ عَمَّنْ يقولُ هذا الشَّطَطَ إنْ كانَ في السامِعينَ مَن لا يَعلمُ ذلك، أو بِتَنزيلِ غَيرِ السائلِ منزلةَ السائِل، وهذه الجُملَةُ من بقيَّةِ كلامِ الفِتيةِ كما اقتَضاهُ ضُمير "رَبّنا". والإشارةُ إلى قومِهم ب "هَؤلاءِ" لِقَصْدِ تمييزِهم بما سيخبرُ بهِ عنهُم، وفي هذه الإشارةِ تعريضٌ بالتعجُّبِ من حالِهم وتفضيحُ صُنعِهم وهو من لوازمِ قَصْدِ التمييزِ.

(اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) أيّ: آلهةً ناشئةً من غَيرِ اللهِ، وكان قومُهُم يَومَئذٍ يَعبُدونَ الأصنامَ على عقيدةِ الرُّومِ ولا يُؤمِنونَ باللهِ.

﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ لولا حرفُ تحْضيضٍ حقيقتُهُ الحثُّ على تحصيلِ مَدخُولِها. ولمّا كان الإتيانُ بِسُلْطانٍ على ثُبوتِ الإلهيَّةِ للأصنامِ التي اتَّخَذُوها آلهةً مُتعذّرًا بقَرينةِ أنَّهُم أنكَرُوه عليهِم انصرفَ التحضيضُ إلى التبكيتِ والتغليطِ؛ أيّ: اتَّخَذُوا آلهةً مِن دُونِ اللهِ لا بُرهانَ على إلاهيَّتِهم. ومَعنى عليهِم: أيّ على آلهتِهم، و"السُّلطانُ": هو الحُجَّةُ والبُرهانُ، و"البَيِّنُ": هو الواضِحُ الدلالةِ.

ومَعنى الكَلامِ: إذْ لم يأتُوا بِسُلطانٍ على ذلكَ؛ فقَد أقامُوا اعتقادَهُم على الكَذِبِ والخَطأ؛ ولذلكَ فَرَّعَ عليهِ جُملَةَ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ "مَن" استفهاميَّةٌ وهو إنكارٌ؛ أيّ: لا أظْلَمُ ممَّنِ افْتَرَى، أو: أنّهُ أظْلَمُ مِن غَيرِه، والمَعنى: أنّ هؤلاءِ افْتَرُوا على اللهِ كَذِبًا؛ وذلك أنَّهُم أشْرَكُوا معَهُ غَيرهُ في الإلهيَّةِ؛ إذ أثبَتُوا لهُ صِفةً مُخالفةً للواقِعِ. ثُمَّ إنْ كان الكلامُ مِن مَبدئِه خِطابًا لِقَومِهم أعلَنُوا به إيمانَهُم بينَهُم كانت الإشارةُ في قولِهم "هَؤلاءِ قَومُنا..." على ظاهِرِها وكان ارتقاءً في التعريضِ لهُم بالمَوعِظَة، وإنْ كان الكلامُ مِن مَبدئِه دائِرًا بينَهُم في خاصَّتِهم كانت الإشارةُ إلى حاضِرٍ في الذِّهنِ.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يتعيَّنُ أن يكونَ هذا مِن كلامِ بَعضِهم لِبَعضٍ على سبيلِ النُّصحِ والمَشُورَةِ الصائبةِ، ولا يَلْزَمُ في أقوالِ القائِلينَ أن تكونَ المَحكيَّاتُ كُلُّها صادِرةً في وقتٍ واحدٍ؛ فيَجُوزُ أنْ قالَ بعضُهم لِبَعضٍ ذلكَ بعدَ اليأسِ مِن ارعِواءِ قَومِهم عن فِتنَتِهم في مَقامٍ آخرَ، ويَجوزُ أن يكونَ ذلك في المقامِ نفْسِه الذي خاطبُوا فيهِ قومَهُم بأنْ غيَّرُوا الخِطابَ مِن مُواجَهةِ قومِهم إلى مُواجَهةِ

بَـعضِهم بَـعضًا، وهـو ضَـرْبٌ مـن الالـتِفات؛ فـعَلى الـوجْـهِ الأوّلِ: يـكونُ فـعلُ "اعتَزَلْتُمُوهُـم" مُستعملاً في إرادةِ الفِعل، وعلى الوجْهِ الثاني: يكونُ الاعتِزالُ قد حَصلَ فيما بينَ مَقامِ خِطابِهم قومَهُم وبينَ مُخاطَبةِ بَعضِهم بَعضًا.

وعلى هذا فالقرآنُ الكريمُ اقتصرَ في أقوالِهم على المَقْصِدِ الأهمِّ وهو الدلالةُ على ثباتِهم، ودُون ما سِوى ذلك لا أثرَ له في الغَرَضِ؛ وإنَّما هو مُجرَّدُ قَصصٍ. و"إذْ" للظرفيةِ المجَازيَّةِ بمعنى التعليلِ. والاعتِزالُ: هو التباعُدُ والانفِرادُ عن مُخالَطةِ الشيءِ؛ فاعتِزالُ القومِ هو تَرْكُ مُخالطَتِهم، واعتزالُ ما يَعبُدونَ هو التباعُدُ عن عِبادَةِ الأصنامِ. والاستِثناءُ في قولِه "إلاّ اللّهَ" مُنقَطِعٌ؛ لأنّ اللّهَ تعالى لم يَكُنْ يَعبُده القومُ.

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ) الفاءُ للتفريعِ على جُملَةِ "وإذْ اعْتَزَلْتُمُوهُم".. باعتبارِ إفادَتِها مَعنى اعتزلْتُمْ دِينَهُم اعتِزالاً اعتقاديًّا، والتقديرُ: وإذْ اعتَزَلُوهُم اعتزالَ مُفارقَةٍ فأوُوا إلى الكهفِ، أو: وإذِ اعتَزَلْتُمْ دِينَهُم يُعذِّبُونَكُم فَأْوُوا إلى الكَهْفِ. والأوْيُ هو السَّكَنُ، والتعريفُ في كلمةِ "الكَهفِ" يَجوزُ أن يكونَ تعريفَ العَهدِ بأنْ كان الكهفُ مَعهُوداً عِندَهُم يَتعبَّدُونَ فيهِ مِن قَبْلُ، ويَجوزُ أن يكونَ تعريفُ الحقيقةِ أيّ: فأْوُوا إلى كَهْفٍ مِن الكُهوفِ. وعلى هذا الاحْتِمالِ يكونُ إشارةً مِنهُم إلى سُنَّةِ النَّصارَى التي ذَكَرْناها في أوَّلِ هذه الآياتِ، أو عادةِ المُضَطهَدِينَ مِن اليهودِ كما ارتأيناهُ هُنالِكَ.

(يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ) نَشْرُ الرَّحمَةِ هو تَوفُّرُ تعلُّقِها بالمَرحُومِينَ.

(وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا) المَرفِقُ بِفَتْحِ المِيمِ وكَسْرِ الفاءِ هو ما يُرتَفَقُ بِهِ ويُنْتَفَعُ وبِذلِكَ قرأ "نافِعٌ وابنُ عامرٍ وأبُو جَعفرَ"، وبِكَسْرِ المِيمِ وفَتْحِ الفاءِ وبِه قرأَ الباقُونَ. وتَهيئتُه مُستعارَةٌ للإِكْرامِ والعِنايةِ تشبيهًا بتهيئةِ القِرَى لِلضَّيفِ المُعتنَى بِهِ. وجَزْمُ "يَنْشُرْ" في جوابِ الأمرِ مبنيٌّ على الثِّقةِ بالرَّجاءِ والدُّعاءِ، وساقُوه مَساقَ الحاصلِ لِشِدَّةِ ثِقَتِهِم بِلُطْفِ رَبِّهِم بِالمُؤمِنينَ، وهَذهِ حالٌ عظيمٌ بأنْ هيّأَ اللهُ لَهُمْ في أمرِهِم مِرفَقًا، وأنّ ذلكَ جَزاؤهُم على اهتِدائِهِم وهُو مِن لُطفِ اللهِ بِهِم.

(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ) الخِطابُ لِغَيرِ مُعيَّنٍ؛ أيِّ: يَرى مَن تُمكِنُه الرؤيةُ. "تَزاورُ" مُضارِعٌ مُشتقٌّ مِن "الزَّوْرِ" بِفَتحِ الزَّاي وهو المَيلُ. وقرأهُ "نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبُو عَمروٍ وأبُو جعفرَ" بِفَتْحِ التاءِ وتشديدِ الزاي بَعدَها ألفٌ وفَتحُ الواوِ، وأصلُهُ "تَتَزَاوَرُ" بتاءينِ أُدغِمَتْ تاءُ الفاعلِ في الزاي تَخفيفًا، وقرأَ "عاصِمٌ وحَمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ" بتخفيفِ الزاي، وقرأَ "ابنُ عامرٍ ويَعقوبُ" تَزورُ بِفَتْحِ التاءِ بَعدَها زايٌ ساكِنةٌ وبِفَتْحِ الواوِ وتشديدِ الراءِ بِوَزنِ "تَحْمَرُّ". والإِتيانُ بِفِعلِ المُضارَعةِ لِلدّلالةِ على تكرُّرِ ذلكَ كُلَّ يومٍ.

"تَقْرِضُهُمْ" أيّ: تَنْصَرِفُ عنهُم، "ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ" بِمعنَى (صاحِبَةٍ)؛ أيّ: الجِهةُ صاحِبةُ اليمينِ والجِهةِ صاحِبةِ الشِّمالِ. والتعريفُ في اليمينِ والشِّمالِ عِوضًا عن المُضافِ إليه؛ أيّ: يَمينِ الكَهفِ وشِمالِه، فيَدُلُّ على (أنَّ فَمَ الكهفِ كان

مَفتُوحًا إلى الشمالِ الشرقيِّ)؛ فالشَّمسُ إذا طَلَعَتْ تَطْلُعُ على جانبِ الكَهفِ ولا تَخْتَرِقْهُ أشِعَّتُها، وإذا غَرَبَتْ كانتْ أشِعَّتُها أبعدَ عَن فَمِ الكَهفِ مِنها حينَ طُلوعِها. وهذا وَضْعٌ عَجيبٌ يَسَّرَهُ اللهُ لهُم بِحِكْمَتِه؛ لِيكُونَ داخِلُ الكَهفِ بحالةِ اعتدالٍ فلا يَنتابَ البِلَى أجسادَهُم وذلك مِن قُدرَةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

(وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ) الفَجْوةُ هي المُتَّسَعُ مِن داخلِ الكَهفِ؛ أيّ: لمْ يَكُونُوا قَريبِينَ مِن فَمِ الكهفِ وفي ذلك عَونٌ على حِفْظِ هذا الكهفِ كما هُو.

(ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) آياتُ اللهِ هِيَ الدلائلُ على قُدرَتِه وعِنايَتِه بأوليائِه ومُؤيِّدي دِينِ الحقِّ، والجملةُ مُعترِضةٌ للتنويهِ بأصحابِها والإشارةُ لِلتعظيمِ، واستئنافٌ بيانيٌّ لِما اقتضاهُ اسمُ الإشارةِ من تعظيمِ أمرِ الآيةِ وأصحابِها.

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) عُمومُ "مَنْ" الشَّرطيَّةِ يشملُ المُتحَدَّثَ عنهُم بقرينةِ المقامِ، والمعنى: أنَّهُم كانُوا مُهتَدِينَ؛ لأنَّ اللهَ هداهُم فيمَنْ هَدَى ورَزَقَهُم أفهامًا تُؤمِنُ بالحَقِّ.

والمُرشِدُ: هو الذي يُبيِّنُ لِلحَيرانِ وَجْهَ الرّشَدِ؛ وهو إصابةُ المَطلوبِ مِن الخيرِ.

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) عَطفٌ على بقيَّةِ القِصَّةِ وما بينَهُما اعتراضٌ. والخِطابُ فيه كالخِطابِ في قولِه تعالى "وتَرَى الشَّمْسَ..." وهذا انتقالٌ وتعجيبٌ إلى ما في حالِهم مِن العِبْرَةِ لِمَنْ لو رآهُم أحدٌ مِن الناسِ، مُدمَجٌ فيهِ بيانُ كرامتِهم وعظيمِ قُدرةِ اللهِ في شأنِهم. ومعنىَ حِسبانِهِم "أيقاظًا" أنَّهُم في حالةٍ تُشْبِه حالَ

اليقظةِ وتُخالِفُ حالَ النومِ، قيلَ: كانتْ أعينُهم مَفتُوحةً، والأيقاظُ جمعُ يَقِظٍ، والرُّقودُ جَمعُ راقدٍ.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ التقليبُ: هو تغييرُ وَضْعِ الشيءِ مِن ظاهِره إلى باطِنه، وذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمالِ؛ أيّ: إلى جِهةِ أيمانِهم وشَمائلِهم. والمعنى: أنّ اللهَ أجْرَى عليهِم حالَ الأحياءِ الأيقاظِ كرامةً لَهُم فجعلَهُم تتغيَّرُ أوضاعِهم مِن أيمانِهم إلى شمائلِهم والعكسِ، وذلكَ لحِكْمَةٍ لعلَّ لها أثرًا في بقاءِ أجسامِهم بحالةِ سلامةٍ. والإتيانُ بالمُضارعِ للدّلالةِ على التجدُّدِ بِحَسبِ الزمنِ المَحكيِّ ولا يلزمُ أن يكونُوا كذلكَ حينَ نُزولِ الآيةِ.

﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ لمْ يَذكُرِ التقليبَ لِكلْبِهِم؛ بل استمرَّ باسِطًا ذِراعَيهِ شأنَ جِلْسَةِ الكلبِ، وعَدمُ تقليبِه يدلُ على أنَ تقليبَهُم ليسَ مِن أسبابِ سلامَتِهم مِن البِلَى وإلاّ لَفَنِيَ كَلْبُهُم. ويُقالُ: إنّهُم لم يُفْنَوا، وأمّا "كَلْبُهُم" فَفَنِيَ وصارَ رِمَّةً مَبسُوطةٌ عِظامُ ذِراعَيهِ. والوصِيدُ: هو مَدخلُ الكهفِ شُبِّهَ بِالبابِ؛ لأنَّه يُوصَدُ ويُغْلَقُ.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ الخِطابُ لِغيرِ مُعيَّنٍ؛ أيّ: لو اطَّلَعْتَ عليهِم أيُّها السامِعُ حِينَ كانُوا في تلكَ الحالةِ قبلَ أن يَبْعَثَهُمُ اللهُ – إذْ لَيسَ في الكلامِ أنَّهُم لمْ يَزالُوا كذلكَ زمنَ نُزُولِ الآيةِ لَفَرَرْتَ مِنْهُمْ ومَلَكَكَ الرُّعْبُ. وليسَ المُرادَ الرُّعبَ مِن ذَواتِهم؛ إذْ ليسَ فيهِم ما يُخالِفُ خُلُقَ النَّاسِ، ولا

الخَوفَ مِن كَونِهم أمواتًا؛ إذْ لمْ يَكُنِ الرُعبُ مِن الأمواتِ مِن خلالِ العَربِ، على أنَّه قَد سَبَقَ (**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ**).

والاطلاعُ: هو الإشرافُ على الشيءِ ورُؤيتُه مِن مكانٍ مُرتفعٍ، ومُلِّئْتَ مَبنيٌ للمجهولِ؛ أيّ: مَلاك الرُّعبِ، وعكْسُهُ قولُه تعالى: (وأصْبَحَ فُؤادُ أمِّ مُوسَى فارِغًا). وقرأَ "نافعٌ وابنُ كثيرٍ" (ولُمِّئْتَ) بتشديدِ اللام على المُبالَغةِ في المَلءِ، وقَرأ الباقونَ بتخفيفِ اللامِ على الأصلِ. وقرأَ الجُمهورُ (رُعْبًا) بسكونِ العَينِ، وقرأَهُ "ابنُ عامرٍ والكسائيُّ وأبو جَعفرَ ويَعقوب" بِضَمِّ العَينِ.

(**وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ**) أيّ: وكمَا أنْمناهُمْ قُرونًا بَعَثْناهُمْ. ووَجْهُ الشَّبَهِ أنّ في الإفاقةِ آيةً على عظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى مِثل آيةِ الإنامةِ. ويجوزُ أن يكونَ تشبيهُ البعثِ المذكورِ بنفسِه للمُبالَغةِ في التعجيبِ.

(**لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ**) أيّ: بَعثناهُم فتساءلُوا بينَهُم.

(**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**) جملةُ قال قائلٌ مِنهُم بَيانٌ لجُملةِ (لِيَتساءلُوا) وسُمِّيَتْ هذه المُحاورَة تساؤلاً لأنّها تحُاورُ؛ فالذينَ قالُوا (لَبِثْنا يَومًا أو بعضَ) هُمْ غَيرُ الذي (قال كَمْ لَبِثْتُم). وأسندَ الجوابَ إلى ضميرِ جماعتِهم؛ إمّا لأنَّهُم تواطُؤوا عليه، وإما على إرادةِ التوزيعِ؛ أيّ: مِنهُم مَن قالَ (لَبِثْنا يومًا)، ومِنْهُمْ مَن قالَ (لَبِثْنا بَعْضَ يَومٍ). وعلى هذا يجوزُ أن تكونُ "أو" للتقسيمِ في القولِ بدليلِ (**قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ**) أيّ: لَما اختلَفُوا رجَعُوا فعَدلُوا عن القولِ بالظَّنِّ إلى تفويضِ العِلْمِ إلى اللهِ تعالى؛ وذلك مِن كمالِ إيمانِهم.

فالقائلُونَ (رَبُّكُمْ أعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ) يجوزُ أن يكونَ جميعُهم وهو الظاهرُ. ويجوزُ أن يكونَ قولُ بعضِهم فأسندَ إليهِم؛ لأنَّهُم رأوهُ صَوابًا.

(فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ) قولَهُم فابْعثُوا أحدَكُم... على قولِهِم ربُّكُم أعْلَمُ بِما لَبِثْتمْ... هو تفريعٌ؛ لأنّه في معنى دَعُوا الخَوضَ في مُدَّةِ اللبثِ فلا يعلَمُها إلاّ اللهُ، وخُذُوا بِشَيءٍ آخرَ يَهُمُّكُم. وهو قريبٌ من الأسلوبِ الحكيمِ؛ لأنّ تلقِّي السائلِ بِغَيرِ ما يتطلَّبُ تنبيهًا على أنّ غَيرَه أولى بِحالِه، ولولا قولِهم: (رَبُّكُمْ أعلَمُ بِما لَبِثْتُمْ) لَكانَ قولهُم: (فابْعثُوا أحَدَكُمْ) عينَ الأسلوبِ الحكيمِ.

(بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ) الوَرِقُ بفتحِ الواو وكسْر الراءِ هو الفِضَّةُ، والمُرادُ بالوَرِقِ هنا القِطعةُ المَسكُوكةُ من الفِضَّةِ وهيَ الدَّراهِم، قيلَ: كانت من دراهِم "دقيوس" مَلكِ الرُّومِ. "أيّها" أيّ: فلْيَنْظُرْ أيّ مكانٍ من المدينةِ هو أزْكَى طعامًا من طعامِ غَيرِه. والأزْكَى هو الأطْيَبُ والأحسنُ. والرِّزقُ هو القُوتُ، و"الفاءُ" لتفريعِ أمرِهم مَن يَبعَثُونَه بأن يأتيَ بطعامٍ زكيٍّ وبأنْ يتلطَّفَ. وصيغةُ الأمرِ في قولِه "فَلْيأتِكُمْ... ولْيَتلَطَّفْ..." أمرٌ لأحَدٍ غَيرِ مُعيَّنٍ سَيُوكِلُونَهُ؛ أيّ: أنّ تَبْعَثُوهُ يأتِكُمْ بِرِزْقٍ، ويجوزُ أن يكونَ المأمورُ مُعيَّنًا بينَهُم؛ وإنّما الإجمالُ في حكايةِ كلامِهم لا في الكلامِ المحكيِّ. وعلى الوجْهَينِ فَهُمْ مأمُورُونَ بأن يُوصُوهُ بذلكَ.

(وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) الإشعارُ هو الإعلامُ. "بِكُمْ" مُتعلِّقٌ بـ- "يُشعِرَنَّ".

والتقديرُ: ولا يُخْبِرنَّ بِوُجودِكُم أحداً؛ فهُنا مضافٌ محذوفٌ دلَّتْ عليه دلالةُ الاقتِضاءِ فيشملُ أحوالَهُم كُلَّها؛ مِن عَدَدِهِم ومَكانِهم وغَيرِ ذلك. "النونُ" لِتوكيدِ النهي تحذيراً من عواقبِه المُضمَّنَةُ في جُملَةِ (إنَّهُمْ) إنْ يَظْهَروا عليكُم يَرْجُمُوكُمْ... الواقعةُ تعليلاً للنهي؛ فهي واقعةٌ موقِعَ العِلَّةِ والبيانِ، وكِلاهُما يقتضِي فصلَها عمّا قبلَها.

(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا)

هذه الجملةُ عِلَّةٌ للأمرِ بالتلطُّفِ والنهي عن إشعارِ أحدٍ بهِم. وضميرُ إنَّهُمْ عائدٌ إلى ما أفادَه العُمومُ في قولِه (**وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا**)؛ فصار أحداً في معنى الناسِ جميعًا على حُكْمِ النكرةِ في سِياق شِبْهِ النهي.

والظُّهورُ هو البُروزُ، ويُطلَقُ على الظَّفَرِ بالشيءِ والغَلَبَةِ على الغَيرِ وهو المُرادُ هُنا. الرَّجْمُ هو القَتْلُ بِرمي الحِجارةِ على المَرجُومِ حتَّى يموتَ، وهو قتلُ إذلالٍ وإهانةٍ وتعذيبٍ. والمعنى: إمّا إرجاعُكُم إلى دِينِهم أو قتْلِكُم. والمِلَّةُ هيَ الدِّينُ. وأكَّدَ التحذيرُ من الإرجاعِ إلى مِلَّتِهِم بأنَّها يترتَّبُ عليها انتفاءُ فلاحِهم في المُستقبَلِ لِما دلَّتْ عليه أداةُ "إذاً" من الجَزائيّةِ. أبداً ظَرْفٌ لِلمُستقبلِ كُلِّه، وهو تأكيدٌ لِما دلَّ عليهِ النفيُ ب "لن" مِن التأبيدِ أو ما يُقارِبُه.

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا) هُنا مَوضِعُ عِبْرَةِ أهلِ زمانِهم بحالِهِم وانتفاعِهم باطمئنانِ قلوبِهم لوقوعِ البعثِ يومَ القيامةِ بطريقةِ التقريبِ بالمُشاهَدةِ وتأييدِ الدِّينِ بما ظَهرَ من كرامةِ أنصارِه. وقَد كان القومُ الذين عَثرُوا عليهِم مُؤمنينَ مِثلَهُم؛ فكانتْ آيتهُم آيةَ تثبيتٍ وتقويةِ إيمانِهم.

والعُثورُ على الشيءِ هو الاطِّلاعُ عليهِ والظَّفَرُ به بعدَ الطلبِ. وكان الحديثُ عن أصحابِ الكهفِ في تلكَ المدينةِ يتناقلُه أهلُها، فَيَسَّرَ اللهُ لهُم العثورَ عليهِم لِلحِكمَةِ التي في قولِه: (**لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**) وهو إمّا إحياءُ المَوتى للبعثِ، وأمّا عِلمهُم بأنّ ساعةَ الحشْرِ لا ريبَ فيها. فإنْ صارَ عِلمُهم بذلكَ عن مشاهدةٍ تزولُ بها خواطِرُ الخفاءِ التي تعتري المُؤمنَ في اعتقادِه حين لا يتصوَّرُ كيفيةَ العقائدِ السَّمعيَّة، وما هو بريبٍ في العِلم؛ ولكنَّه في الكيفيةِ، وهو الواردُ فيهِ أنّه لا يخطرُ إلاّ لِصَديقٍ ولا يَدومُ إلاّ عندَ زِنْديقٍ.

(**إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ**) الظرفُ مُتعلِّقٌ ب " أعثَرْنا" ؛ أيّ: أعثَرْنا عليهِم حين تنازَعُوا أمرَهُم، وصِيغُ ذلكَ بصيغةِ الظرفيةِ لِلدّلالةِ على اتصالِ التنازُعِ في أمرِ أصحابِ الكهفِ بِالعُثورِ عليهِم؛ بحيث تبادَرُوا إلى الخَوضِ في كرامةٍ يَجعلُونَها لهُم. وهذا إدماجٌ لِذكْرِ نِزاعٍ جَرَى بين الذينَ اعتدَوا عليهِم في أمورٍ شتَّى جمعَها قولُه تعالى: "أمْرَهُمْ" ؛ فضميرُ "يتنازَعُونَ" وضميرُ "بينَهُم" عائِدانِ إلى ضميرِ "لِيعْلَمُوا" . وضميرُ "أمْرَهُمْ" يجوزُ أن يعودَ إلى أصحابِ الكهفِ، والأمرُ هُنا بمَعنى الشأنِ. والتنازعُ هو الجِدالُ القويُّ؛ أيّ: يتنازعُ أهلُ المدينةِ بينَهُم شأنُ أهلِ الكهفِ، مِثلَ هل كانوا نِيامًا أمْ أمْواتًا؟ وهل سيبْقَونَ أحياءَ أم يُموتُونَ؟ وهل سيبْقَونَ في الكهفِ؟ أم يرجِعُونَ إلى سُكنى المدينةِ؟ وكذلك في مُدَّةِ مُكْثِهم؟ ويجوزُ أن يكونَ ضميرُ "أمْرَهُمْ" عائِدًا إلى ما عادَ عليه ضميرُ "يتنازَعُونَ" ؛ أيّ: شأنُهُم فِيما يَفعَلُونَه بِهم. والإتيانُ بالمُضارعِ لاستحضارِ حالةِ التنازُعِ.

(فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا) هُنا طويُ وَصْفِ العُثورِ عليهِم وذِكْرِ عَودِهِم إلى الكهفِ؛ لِعَدَمِ تعلُّقِ الغَرَضِ بِذِكْرِه؛ إذ ليسَ بِمَوضعِ عِبْرَةٍ؛ لأنَّ المصيرَ إلى مَرقَدِهِم و/طُروءِ الموتِ عليهِم شأنٌ مُعتادٌ لِكلِّ حيٍّ. وتفريع "فقالُوا... على يتنازَعُونَ... "وإنّما ارتأوا أنْ يَبْنُوا عليهِم بُنيانًا؛ لأنَّهُم /خَشوا عليهِم من تردُّدِ الزائرينَ غيرِ المُتأدِّبينَ؛ فلعَلَّهُم أن يُؤذُوا أجسادَهُم وثيابَهُم باللمسِ والتقليبِ؛ فأرادُوا أن يَبنُوا عليهِم بناءً يُمكِنُ غَلْقُ بابِه وحِراستُه.

(رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) الجملةُ يجوزُ أن تكونَ من حكايةِ كلامِ الذينَ قالُوا "ابنُوا عليهِم بُنيانًا"؛ والمعنى: ربُّهُم أعلَمُ بِشُؤونِهم التي تنازَعْنا فيها، ويجوزُ أن تكونَ مُعترِضةً مِن كلامِ اللهِ تعالى أثناءَ حكايةِ تنازُعِ الذينَ أعثرُوا عليهِم؛ أيّ: ربُّ أصحابِ الكهفِ أو ربُّ المتنازِعينَ في أمرِهِم أعلَمُ مِنهُم بواقعِ ما تنازَعُوا فيهِ.

(قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) الذينَ غلَبُوا على أمرِهِم هُم ولاةُ الأمورِ بالمدينةِ، وضميرُ" أمْرِهِم" يعودُ إلى ما عادَ إليهِ ضميرُ "فقالُوا"؛ أيّ: الذينَ غَلَبُوا على أمرِ القائلينَ ابْنُوا عليهِم بُنيانًا؛ وإنّما رأوا أن يكونَ البناءُ مَسجِدًا لِيكونَ إكرامًا لَهُم ويدومُ تعهُّدُ الناسِ كهْفَهُم. وكان اتِّخاذُ المساجدِ على قُبورِ الصالحينَ من سُنَّةِ النَّصارى وقد نَسَخَهُ الإسلامُ الحنيفُ.

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) لّما شاعَتْ قِصَّةُ أصحابِ الكهفِ حين نَزَلَ بها

القُرآنُ صارتَ حديثَ النَّوادي؛ فكانت مثارَ تخرُصاتٍ في مَعرفةِ عددِهم وحَصرِ مُدَّةِ مُكْثِهم في كَهْفِهم، وربَّما أملى عليهِم المُتنصِّرَةُ من العربِ في ذلك قَصصًا.

وقد نبَّهَهُم القُرآنُ إلى أن تتعوَّدَ الأمَّةُ بِتَرْكِ الاشتِغالِ فيما ليستْ منهُ فائدةٌ لِلدِّينِ أو للناسِ، ودلَّ عَلَمُ الاستقبالِ على أنّ الناسَ لا يَزالُونَ يَخُوضُونَ في ذلك. وضميرُ يقُولونَ عائدٌ إلى غيرِ مَذكورٍ؛ أيّ: يقولُ الناسُ أو المُسلِمُونَ، وليسَ في هذا القولِ حَرَجٌ؛ ولكنَّهُم نُبِّهُوا إلى أنَّ جميعَه لا حجَّةَ لهُم فيهِ.

ومعنى سينِ الاستقبالِ سارٍ إلى الفِعلَينِ المَعطُوفَينِ على الفعلِ المُقتَرِنِ بِالسِّينِ وليس في الانتهاءِ إلى عددِ الثمانيةِ إيماءً إلى أنَّه العِدَّةُ في الأمرِ نفسِه. وقد أعلمَ اللّهُ أنّ قليلاً من الخلقِ يَعلَمونَ عِدَّتَهُمْ وهُمْ مَن أطلعَهُم اللّهُ على ذلكَ وفي مُقدِّمَتِهم مُحمَّدٌ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلمَ؛ لأنَّ قِصَّتَهُم جاءت على لسانِه؛ فلا شكَّ أنّ اللّهَ أطلعَهُ على عِدَّتِهم.

ورُوِيَ أن عبدَاللّهِ بنَ عبَّاسٍ قال: أنا مِن القليلِ. وكأنَّ أقوالَ الناسِ تمالأتْ على أنَّ عِدَّتَهُم فَرديَّةٌ تيمُّنًا بعَددِ المُفرَدِ؛ وإلاّ فلا دليلَ على ذلكَ دونَ غَيرِه، وقَد سمَّى اللّهُ قولَهُم ذلكَ رَجْمًا بِالغَيبِ. والرَّجْمُ حقيقتُه الرَّميُ بِحَجَرٍ ونَحْوِه، واستُعِيرَ هُنا لِرَمي الكلامِ من غَيرِ رَويَّةٍ ولا تَثبُّتٍ، قال زُهير: وما هو عنها بالحديثِ المُرَجَمِ.

والباءُ في بِالغَيبِ للتعديةِ؛ كأنَّهُم لمّا تكلَّمُوا عن أمرٍ غائبٍ كانوا يَرجُمونَ به. ومِن غرائبِ فِتنَ الابتكارِ في معاني القُرآنِ قولُ مَن زَعَمَ إنَّ هذه الواو "واوُ الثمانيةِ"، وهو منسوبٌ في كُتُبِ العربيةِ إلى بَعضِ ضَعَفَةِ النُّحاةِ ولم يُعينْ مُبْتَكِرُه.

(**قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ**) الجملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا لِما تُثيرُه جملةُ "سَيقُولُونَ ثلاثةٌ رابِعُهُمْ كلبُهُم" مِن ترقُّبِ تعيين ما يُعتمَدُ عليه من أمرِ عِدَّتِهم، فأُجيب بأنّ يُحالَ العلمُ بذلكَ على علَّامِ الغُيوبِ. وإسنادُ اسمِ التفضيلِ إلى اللهِ تعالى يُفيدُ أنّ عِلْمَ اللهِ بِعِدَّتِهم هو العِلمُ الكامِلُ، وأنّ عِلمَ غَيرِه مُجرَّدُ ظَنٍّ وحَدْسٍ قد يُصادِفُ الواقعَ وقد لا يُصادِفُه.

(**مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ**) الجملةُ كذلكَ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛ لأنّ الإخبارَ عن اللهِ عزَّ وجلَّ بأنَّه الأعلمُ يُثيرُ في أنْفُسِ السامِعينَ أن يَسْألوا هل يكونُ بعضُ الناسِ عالِمًا بِعِدَّتِهم عِلْمًا غيرَ كاملٍ؛ فأُجيبَ بأنّ قليلاً مِن الناسِ يعلمونَ ذلكَ؛ وَهُمْ مَن أطلعَهُم اللهُ تعالى على ذلك بِوحيٍ، وعلى كلِّ حالٍ فَهُمْ لا يُوصَفُونَ بالأعلَميَّةِ؛ لأنّ عِلمَهُم مُكتَسبٌ مِن جهةِ اللهِ الأعلَمِ بذلك.

(**فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا**) تفريعٌ على الاختلافِ في عَددِ أهلِ الكهفِ؛ أيّ: إذا أرادَ بعضُ المُشركِينَ المُماراةَ في عِدَّةِ أهلِ الكهفِ لأخبارٍ تلقَّوها مِن أهلِ الكتابِ، أو لأجْلِ طَلَبِ تحقيقِ عدَّتِهم فلا تُمارِهِم؛ إذ هو اشتغالٌ بما ليسَ فيه جَدوى.

وهذا التفريعُ وما عُطِفَ عليهِ مُعترضٌ في أثناءِ القِصَّةِ. والتماري هو تَفاعُلٌ مُشتَقٌّ من المِريةِ وهيَ الشَّكُّ، والمرادُ بالمِراء فيهِم هو المِراءُ في عِدَّتِهم كما هو مُقتضَى التفريعِ. والمِراءُ الظاهِرُ هو الذي لا سبيلَ إلى إنكارِه ولا يطولُ الخَوضُ فيهِ مِثل: "قُلْ ربِّي أعلَمُ بِعِدَّتِهِم"، ومِثل: "ما يَعلَمُهُمْ إلاّ قليلٌ"؛ فإنّ هذا ممّا لا سبيلَ إلى

إنكارِه لِوُضوحِ حُجَّتِه، وما وراءَ ذلك مُحتاجٌ إلى الحُجَّةِ فلا ينبغي الاشتِغالُ به لِقِلَّةِ جَدواه.

(وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا) الاستِفتاءُ هو طلبُ الفَتوى، وهي الخبرُ عن أمرٍ عِلميٍّ ممَّا لا يعلمُه كُلُّ أحدٍ. ومعنى: "فيهِم" أيّ في أمرِ أصحابِ الكهفِ. والمُرادُ مِن النهي عن استفتائِهم الكِنايةُ عن جَهْلِهِم بأمرِ أصحابِ الكهفِ؛ فضَميرُ "مِنهُمْ" عائدٌ إلى ما عادَ إليه ضميرُ "سيَقُولُونَ ثلاثةٌ وَهُمْ أهلُ مكَّةَ الذينَ سألُوا عن أمرِ أصحابِ الكهفِ، أو يكونُ كِنايةً رَمزيَّةً عن حُصولِ عِلْمِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلّمَ بحقيقةِ أمْرِهم؛ بحيث هو غنيٌّ عن استفتاءِ أحدٍ، وأنّه لا يَعلَمُ المُشركينَ بما عَلِمَهُ اللهُ من شأنِ أصحابِ الكهفِ، وتكونُ مِن تعليليةً، والضميرُ المجرورُ بها عائداً إلى السائِلينَ المُتعَنِّتينَ؛ أيّ: لا تسألْ عِلْمَ ذلك مِن أجْلِ حِرْصِ السائِلينَ على أن تعلمهم بيقينٍ أمرَ أصحابِ الكهفِ؛ فإنَّكَ علمتَه ولم تؤمَرْ بتعليمِهم إيّاه، ولو لم يحملِ النهيُ على هذا المعنى لم يتَّضِحْ له وجْهٌ. وفي التقييدِ بـ" مِنهُم " مُحتَرزٌ، ولا يستقيمُ جعلُ ضميرِ "مِنهُم" عائِداً إلى أهلِ الكتابِ؛ لأنّ هذه الآياتِ مَكِّيَّةٌ باتفاقِ الرُّواةِ والمُفَسِّرينَ.

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ) عطفٌ على الاعتِراضِ، ومُناسَبةُ مَوقعِه هُنا ما رواهُ "ابنُ إسحاق والطبريُّ" في أوَّلِ هذه السورةِ و"الواحديُّ" في سُورةِ "مَريمَ" أنّ المُشركينَ لمّا سألُوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلّمَ عن أصحابِ الكهفِ وذِي القَرنَينِ وَعَدَهُم بالجَوابِ عن سُؤالِهم مِن الغَدِ ولم يَقُلْ" إنْ شَاءَ اللهُ" ، فلَمْ يأتِه جبريلُ عليهِ السلامُ بالجَوابِ إلاّ بعدَ خَمْسَةَ عَشَرَ يومًا؛ فكان تأخيرُ الوحي

إليهِ بالجوابِ عِتابًا رَمْزيًا مِن اللهِ لِرَسُولِه **صلى الله عليه وسلم**. ثمَّ أعلَمَ اللهُ رَسُولَهُ بقِصَّةِ أهلِ الكهفِ ونَهاهُ عن أن يَعِدَ بِفِعْلِ شيءٍ دُونَ التقييدِ بِمَشيئةِ اللهِ تعالى.

وقولُه "إلاّ أنْ يَشاءَ اللهُ" هو استثناءٌ حقيقيٌّ من الكلامِ الذي قَبْلَهُ. وفي كيفيةِ نَظْمِهِ اختلافٌ للمُفَسِّرينَ؛ فمُقتضى كلامِ "الزَّمَخْشَريِّ" أنَّه مِن بَقيَّةِ جملةِ النهي واستثناءٌ مِن حُكْمِهِ؛ أيّ: (لا تَقُولَنَّ إنِّي فاعِلٌ... إلاّ أنْ يشاءَ اللهُ أو يأذنَ لكَ اللهُ أنْ تَقُولَهُ). ومُقتضى كلامِ "الكِسائيِّ والأخفشِ والفرَّاءِ" أنَّه مُستثنىً مِن جُملةِ "إنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا..." فيكونُ مُستثنىً من كلامِ النبيِّ **صلى الله عليه وسلم** المنهيِ عنهُ؛ أيْ: إلاّ قَولاً مُقترنًا بـ" إنْ شاءَ اللهُ"، وقد جَمعتْ هذه الآيةُ الكريمةُ كرامةً للنبيِّ **صلى الله عليه وسلم** مِن ثلاثِ جِهاتٍ:

الأُولى: أنّه أجابَ سُؤَلَهُ فبيَّنَ لهُم ما سألُوه إيَّاه على خِلافِ عادةِ اللهِ مع المُكابِرينَ.

الثانيةِ: أنَّه علَّمَهُ عِلمًا عَظيمًا مِن أدبِ النُّبوءةِ.

الثالثةِ: أنَّه ما عَلَّمَهُ ذلكَ إلاّ بعدَ أنْ أجابَ سُؤلَه استِئناسًا لِنَفْسِه أنْ لا يُبادِرَه بالنهي عن ذلكَ قبلَ أن يُجيبَه كيلا يتوهَّمَ أنّ النهيَ يقتضي الإعراضَ عن إجابةِ سُؤالِه، وكذلك شأنُ تأديبِ الحَبيبِ المُكرَّمِ.

ومِثالُه ما وَرَدَ في الصَّحيحِ: أنّ حَكيمَ بنَ حِزامٍ قال: سألتُ رَسُولَ اللهِ فأعطاني، ثُمَّ سألْتُه فأعطاني، ثُمَّ سألْتُه فأعطاني، ثُمَّ قال: يا حكيمُ إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلوةٌ فمَنْ أخَذَهُ بِسَخاوةِ نَفْسٍ بُورِكَ لهُ فيهِ، ومَن أخَذَهُ بإشرافِ نَفْسٍ لمْ يُبارَكْ لهُ فيهِ وكانَ كالذي يأكُلُ ولا يَشْبَعُ، واليدُ العُليا خَيرٌ مِن اليدِ السُّفْلَى. قالَ حكيمٌ يا رَسُولَ اللهِ: والذي بَعثكَ بالحقِّ لا أرْزأُ أحدًا بَعدَكَ شَيئًا حتّى أُفارِقَ الدُّنيا. فَعَلِمَ

حَكيمٌ أنّ قولَ رَسُولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** لهُ ذلكَ ليسَ القَصدَ منهُ مَنعُهُ من سُؤْلِه؛ وإنّما قَصَدَ منهُ تَخليقَه بِخُلقٍ جَميلٍ؛ فلذلكَ أقسمَ حكيمٌ أنْ لا يأخُذَ عن أحدٍ غَيرِ رَسُولِ اللهِ شَيئًا، ولمْ يَقُلْ لا أسْألُكَ بعدَ هذهِ المَرَّةِ شيئًا.(١) فنَظْمُ الآيةِ الكريمةِ أنّ اللامَ في قولِه "لِشيءٍ" هيَ لامُ العِلَّةِ؛ أيّ: "لا تَقُولَنَّ إنِّي فاعِلٌ كذا لأجْلِ شيءٍ تَعِدُ به"؛ ف(اللامُ بِمَنزلَةِ في). وشَيءٌ اسمٌ مُتوغِّلٌ في التنكيرِ يُفسِّرُه المقامُ؛ أيّ: لِشيءٍ تُريدُ أن تفعلَهُ. والإشارةُ بِقَولِه ذلكَ عائِدةٌ إلى شيءٍ؛ أيّ: أنّي فاعِلُ الإخبارِ بأمرٍ يسألُونَه. وغَدًا مُستعمَلٌ في المستقبلِ مَجازًا، ولا يُرادُ بها اليومَ الذي يلي يَومَه؛ ولكنَّه مُستَعملٌ في معنى الزمانِ المستقبل، كما يُستعملُ اليومُ بمعنى زمانِ الحالِ، والأمسُ بمعنى زمنِ الماضي. وقد جمعَها قولُ زُهيرٍ:

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأمسِ قَبلَهُ ولَكِنَّني عنْ عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِ

وظاهرُ الآيةِ اقتصارُ إعمالِها على الإخبارِ بالعَزمِ على فعلٍ في المستقبَلِ. وقال مالكٌ: إنَّما قُصِدَ بذلكَ ذِكْرُ اللهِ عندَ السَّهْوِ وليس باستثناءٍ.

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) وفي تعريفِ اسم الجلالةِ بلفظِ "الرَّبِّ" مُضافًا إلى ضميرِ المخاطَبِ دونَ اسمِ الجلالةِ العَلَمِ من كمالِ المُلاطَفةِ ما لا يخفى. وحُذِفَ مَفعولُ "نَسِيتَ" لِظُهورِه من المقامِ؛ أيّ: إذا نَسِيتَ النهيّ فقُلْتَ: إنّي فاعِلٌ. وعن ابنِ عبَّاسٍ: لا تحديدَ بمُدَّةٍ ولو طالَ ما بينَ اليمينِ والثَّنيا، وقالَ الجُمهورُ: لا دلالةَ فيه على جوازِ تأخيرِ الثَّنيا، واستدلُّوا بأنّ السُّنَّةَ الشريفةَ وَردتْ بِخلافِه.

---

١ صحيح البخاري: كتاب الزكاة (١٤٧٢)، صحيح مسلم: كتاب الزكاة (٩٦).

(وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) لمّا أبرَّ اللهُ وَعْدَ نبيِّهُ **صلى الله عليه وسلم** الذي وَعَدَهُ المُشرِكينَ أن يُبيِّنَ لهُم أمرَ أصحابِ الكهفِ فأوحاهُ إليهِ وأوقفَهُم عليْهِ، أعقبَ ذلك بِعتابِه على التَّصدِّي لمُجاراتِهم في السُّؤالِ عمَّا هو خارجٌ عن غَرَضِ الرسالةِ دُونَ إذنٍ مِن اللهِ، وأمَرَهُ أن يَذْكُرَ نهيَ ربِّهِ، ويَعزمَ على تدريبِ نفْسِه على إمساكِ الوعدِ ببيانِ ما يُسألُ منهُ بيانُه دونَ أن يأذَنَهُ اللهُ بِه، أمرَهُ هُنا أن يُخبرَ سائليهِ بأنَّه ما بُعِثَ للاشتغالِ بمِثلِ ذلكَ، وأنَّه يرجُو أنّ اللهَ يَهديهِ إلى ما هُو أقربُ إلى الرّشدِ مِن بيانِ أمثالِ هذه القِصَّةِ – وإنْ كانت هذه القِصَّةُ تشتمِلُ على مَوعِظَةٍ وهُدىً؛ ولكنَّ الهُدى الذي في بيانِ الشريعةِ أعظمُ وأهَمُّ.

والمَعنى: وقُلْ لهُم عَسَى أن يَهديني ربِّي لأقْرَبَ مِن هذا رَشَدًا؛ فالجملةُ معطوفةٌ على جُملَةِ فلا تُمارِ فيهِم، ويجوزُ أن تكونَ عَطْفًا على جُملَةِ "واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ"؛ أيّ: اذْكُرْ أمْرَهُ ونَهيَهُ وقُلْ في نَفْسِكَ: "عَسَى أن يَهدِيَني ربِّي لأقْرَبَ مِن هذا رَشَدًا"؛ أيّ: ادعُ اللهَ بِهذا. و"عَسَى" مُستعمَلةٌ في الرَّجاءِ تأدُّبًا. واسمُ الإشارةِ عائدٌ إلى المذكورِ من قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ بِقَرينةِ وُقوعِ هذا الكلامِ مُعترِضًا في أثنائِها، ويجوزُ أن يكون المَعنى: وارجُ مِن اللهِ أن يَهدِيَكَ فيُذَكِّرُكَ أنْ لا تَعِدْ وَعدًا ببيانِ شَيءٍ دُونَ إذنِ اللهِ. و"الرَّشَدُ" بِفتحتَينِ هو الهُدى والخَير.

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) رُجوعٌ إلى بقيَّةِ القِصَّةِ بعدَ أن تخلَّلَ الاعتِراضُ بينَها بِقَولِه: "فلا تُمارِ فِيهِم... رَشَدًا"؛ فيجوزُ أن تكونَ جملةُ "ولَبِثُوا" عَطفًا على مَقولِهم "سيَقُولُونَ ثلاثةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُم..." أيّ: ويقولُونَ لَبِثُوا في كَهْفِهم؛ ليكونَ مِوقعَ قولِه: "قُلِ اللهُ أعلَمُ بِما لَبِثُوا" كمَوقِعِ قولِه السابقِ

"قُلْ رَبِّي أعْلَمُ بِعِدَّتِهِم"، وعليْه: فلا يكونُ هذا إخباراً عن مُدَّةِ لبْثِهم. ويجوزُ أن يكونَ العطفُ على القِصَّةِ كُلِّها، والتقديرُ: وكذلكَ أعثَرْنا عليهِم... وهُمْ لَبِثُوا في كَهْفِهِم ثلاثَمائةِ سَنَةٍ وازدادُوا تِسعًا. والظاهِرُ: أنَّ القُرآنَ الكريمَ أخبرَ بِمُدَّةِ لبْثِ أصحابِ الكهفِ في كهْفِهِم، وأنّ المُرادَ لبثُهُم الأوَّلُ قَبْلَ الإفاقةِ وهو المُناسِبُ لِسَبْقِ الكلامِ على اللبْثِ في قولِه: "قالَ قائِلٌ مِنْهُم كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوماً أو بَعضَ يَومٍ، قالُوا رَبُّكُمْ أعْلَمُ بِما لَبِثْتُم". وقيلَ: المُرادُ لبثُهم مِن وَقْتِ مَوتِهم الأخيرِ إلى زَمنِ نُزولِ هذه الآيةِ الكريمةِ، والمَعنى: أنْ يُقَدَّرَ لبثَهُم بِثلاثمائةٍ وتِسْعِ سِنينَ؛ فعُبِّرَ عن هذا العددِ بأنَّه ثلاثمائةُ سَنَةٍ وزيادةُ تِسْعٍ لِيُعْلَمَ أنّ التقديرَ بالسِّنينِ القَمريَّةِ المُناسبةِ لتاريخِ العربِ والإسلامِ مع الإشارةِ إلى مُوافقةِ ذلك المِقدارِ بالسِّنينِ الشمسيَّةِ التي بها تاريخُ القومِ الذينَ مِنهُم أهلُ الكهفِ وهُم أهلُ بلادِ الرُّومِ. قال "السُّهيليُّ" في "الرَّوضِ الأُنُفِ": النَّصارى يَعرِفُونَ حديثَ أصحابِ الكهفِ ويُؤرِّخُونَ بِهِ.

وأقولُ: واليهودُ الذينَ لَقَّنُوا قُريشًا السُّؤالَ عنهُم يُؤرِّخُونَ الأشْهُرَ بِحسابِ القَمرِ ويُؤرِّخُونَ السِّنينَ بِحسابِ الدَّورةِ الشمسيَّةِ؛ فالتفاوتُ بينَ أيَّامِ السنَةِ القمريّةِ وأيَّامِ السنَةِ الشمسيَّةِ يحصلُ مِنهُ سَنَةٌ قمريَّةٌ كاملةٌ في كُلِّ ثلاثٍ وثلاثينَ سَنَةٍ شمسيّةً؛ فيكونُ التفاوتُ في مائةِ سَنَةٍ شَمسيّةٍ بثلاثِ سِنينَ زائدةٍ قمريَّة. وبهذا تظهَرُ نُكتَةُ التعبيرِ عن تِسْعِ السِّنينَ بالازديادِ. وهذا مِن عِلْمِ القُرآنِ وإعجازِه العِلميِّ الذي لم يكُنْ لِعُمومِ العربِ عِلْمٌ بِه. وقرأ الجُمهورُ ثلاثَ مائةٍ بالتنوينِ، وانتصبَ سِنينَ على البَدليَّةِ مِن اسْمِ العددِ. وقرأَ "حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَف" بإضافةِ مائةٍ إلى سِنينَ على أنَّهُ تمييزٌ للمائةِ.

(**قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا**) إنْ كان هذا القولُ إخباراً من اللهِ عن مُدَّةِ لبثِهم فيكونُ قطعًا لِلمُماراةِ في مُدَّةِ لبثِهم المختلَفِ فيها بينَ أهْلِ الكتابِ؛ أيّ: اللهُ أعلمُ منكُمْ بمُدَّةِ لبثِهم. وإنْ كان حكايةً عن قولِ أهلِ الكتابِ كان تفْويضًا إلى اللهِ في عِلْمِ ذلك.

(**لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) غيبُ السَّماواتِ والأرضِ ما غابَ علمُه عن الناسِ من مَوجُوداتِ السّماواتِ والأرضِ وأحوالِهم. واللامُ في "لهُ" للمُلْكِ. وتقديمُ الخبرِ المجرورِ لإفادةِ الاختصاصِ؛ أيّ: للهِ لا لِغَيرِه؛ وذلك ردًّا على الذينَ يَزْعُمونَ عِلْمَ خَبرِ أصحابِ الكهفِ ونَحوهِم.

(**أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ**) صيغتا تعجيبٍ من عُمومِ علمِه تعالى بالمُغيَّباتِ من المَسْمُوعاتِ والمُبْصَراتِ، وهو العِلمُ الذي لا يُشارِكُه فيه أحدٌ.

(**مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ**) ضميرُ الجمعِ يعودُ إلى المُشركينَ. وهو إبطالٌ لِولايةِ آلهتِهم بطريقةِ التنصيصِ على عُمومِ النفي بِدُخولِ "مِن" الزائدةِ على النكرةِ المَنفيّةِ.

(**وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا**) ردٌّ على زَعمِهم بأنَّ اللهَ اتّخَذَ آلهتَهُم شُركاءَ لهُ في مُلْكِه. قرأ الجُمهورُ "ولا يُشْرِكُ" بالرفْعِ، وقرأَ "ابنُ عامرٍ" بتاءِ الخِطابِ وجَزْمِ "يُشْرِكْ" على أنّ لا ناهية، والخِطابُ لِرَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلّمَ والمُرادُ به أُمَّتُه أو لِكُلِّ مَن يتلقَّاه.

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) ردٌّ على المُشركينَ إذْ كانُوا أيامئذٍ لا يُبَيَّنُ لهُمْ شَيءٌ إلاّ وانتقَلُوا إلى طلبِ شَيءٍ آخَر؛ فأمرَ نبيَّه **صلى الله عليه وسلم** أن يَقرأَ القُرآنَ كما أُنزِلَ عليه، وأنَّه لا مُبَدِّلَ لِكلماتِ اللهِ؛ ولكي لا تُطْمِعُهُمُ الإجابةُ عن بعضِ ما سألُوهُ بالطمعِ في أنْ يُجيبَهُم عن كُلِّ ما طَلَبُوه.

والتبديلُ هو التغييرُ بالزيادةِ والنقصِ؛ أيّ: تركِ تِلاوةِ ما لا يَرْضَونَ بِسَماعِه مِن إبطالِ شِركِهم وضَلالِهم، وهذا يُؤذِنُ بأنَّهُم طَعنُوا في بعضِ ما اشتمَلَتْ عليه القِصَّةُ في القُرآنِ كما أشارَ إليهِ قولُه: "سيَقُولُونَ ثلاثةٌ..."، وقولُه: "ولَبِثُوا في كَهْفِهِمْ ثلاثَ مائةٍ سِنينَ..."؛ فالأمرُ هو كِنايةٌ عن الاستمرارِ، وما أوحِيَ مُفيدٌ لِلعُمومِ أيّ كُلِّ ما أُوحِيَ إليكَ. ومَفهومُ المَوصولِ أنّ ما لم يُوحَ إليهِ لا يتلُوه، وهو ما اقتَرَحُوا أنْ يقولَه في الثناءِ عليهِم وإعطائِهم شَطراً مِن التصويبِ. والتلاوةُ هيَ القِراءة.

(وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا) المُلْتَحَدُ: هو مكانُ الالتِحادِ، والالتِحادُ: هو المَيلُ إلى جانبٍ، وجاءَ بِصيغةِ الافتِعالِ؛ لأنّ أصلَه تَكلُّفُ المَيلِ. ويُفْهَمُ مِن صيغةِ التكلُّفِ أنَّه مَفَرٌّ مِن مَكرُوهٍ يتكلَّفُ الخائفُ أنْ يأوي إليه؛ فلذلكَ كان المُلْتَحدُ بمعنى المَلْجأ. والمَعنى: لنْ تجِدَ شَيئًا يُنجيكَ مِن عِقابِه، والمَقصودُ مِن هذا تأييسِهم مِمَّا طَمِعُوا فيهِ.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) هذا من ذيول الجواب عن مسألتهم عن أصحاب الكهف، فهو مشارك لقوله: واتل ما أوحى إليك من كتاب... حيث أن سادة المشركين زعموا أنه لولا أن من المؤمنين ناسًا أهل

خصاصة في الدنيا وأرقاء لا يدانوهم ولا يستأهلون الجلوس معهم لأتَوْا إلى مجالسة النبي واستمعوا القرآن، فاقترحوا عليْه أن يطردهم من حوله إذا غشيه سادة قريش، فرد الله عليهم بقوله هذا. والمعنى: احبسها معهم حبس ملازمة. والصبر هو الشد بالمكان بحيث لا يفارقه، ولتضمين فعل اصبر معنى الملازمة علق به ظرف مع. الغداة هو الوقت الذي بين الفجر وطلوع الشمس. والعَشي هو المساء. والمقصود أنهم يدعون الله دعاءً متخللاً سائر اليوم والليلة. والدعاء هو المناجاة والطلب. والمراد به ما يشمل الصلوات. والتعبير عنهم بالموصول للإيماء إلى تعليل الأمر بملازمتهم، أي لأنهم أحرياء بذلك لأجل إقبالهم على الله فهم الأجدر بالمقارنة والمصاحبة. قرأ الجمهور بالغداة بألف بعد الدال، وقرأ ابن عامر بالغَدْوَةِ بسكون الدال وواو بعد الدال مفتوحة وهو مرادف الغداة، ووجه الله مجاز في إقباله على العبد.

(وَلاَتَعْدُعَيْنَاكَعَنْهُمْ) أكّد الأمر بمواصلتهم بالنهي عن أقل إعراض عنهم. ومعنى نهي العينين نهي صاحبهما، فيؤول إلى معنى: ولا تعدّي عينيك عنهم. وهو إيجاز بديع.

(تُرِيدُزِينَةَالْحَيَوةِالدُّنْيَا) أي لا تكن إرادة الزينة سبب الإعراض عنهم لأنهم لا زينة لهم من بزة وسمت. وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا همهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية

فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة وجعلوا همّهم الصور الظاهرة.

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا) هذا نهي جامع عن ملابسة شيء مما يأمره به المشركون. والمقصود من النهي تأسيس قاعدة لأعمال الرسول والمسلمين تجُاه رغائب المشركين وتأييس المشركين من نوال شيء مما رغبوه من النبي **صلى الله عليه وسلم** ومَن كل من اتصف بالصلة، وقيل نزلت في أمية بن خَلَف الجُمَحي حيث طلب من النبي **صلى الله عليه وسلم** طرد فقراء المسلمين عن مجلسه حين يجلس إليه هو وأضرابه من سادة قريش. والمراد بإغفال القلب جعله غافلاً عن الفكر في الوحدانية حتى راج فيه الإشراك، وأصل الإغفال هو إيجاد الغفلة، وهي الذهول عن تذكر الشيء، وأريد بها هنا غفلة خاصة هي الغفلة المستمرة، وجعل الإغفال من الله تعالى كناية عن كونه في خِلقة تلك القلوب، وما بالطبع لا يتخلف.

(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) إتباع الهوى يكون عن بصيرة لا عن ذهول، فالغفلة خلقة في قلوبهم، وإتباع الهوى كسب من قدرتهم. والفُرُط بضمتين هو الظلم والاعتداء، مشتق من الفُروط وهو السبق، لأن الظلم سبْق في الشر. والأمر هو الشأن والحال. وزيادة فعل الكون للدلالة على تمكن الخبر من الاسم، أي حالة تمكن الإفراط والاعتداء على الحق[1].

[1] التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ج ١٥/ ص ٢٥٨- ٣٠٦).

خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ

يُروى أن قريشا أرسلت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أهل الكتاب في المدينة ليسألوهم عن صدق رسول الله، وما هو خبره عندهم، وما ورد عنه في كتبهم. فقالوا لهم إنْ أردتمْ معرفة صدق محمد فاسألوه عن ثلاثة، فإنْ أجابكم فهو صادق. اسألوه ما قصة القوم الذين ذهبوا في الدهر مذاهب عجيبة؟ وما قصة الرجل الطوّاف الذي طاف الأرض شرقًا وغربًا؟ وما الروح؟ وفعلاً عاد الرجلان إلى رسول الله **صلى الله عليه وسلم** وسألاه عن ذلك. فقال **صلى الله عليه وسلم** أخبركم بما سألتم عنه غداً. وجاء غد وبعد غد ومرَّت خمسة عشر يومًا دون أنْ يُوحَى لرسول الله **صلى الله عليه وسلم** شيء من أمر هذه الأسئلة، فشقّ ذلك عليه، وكَبُر في نفسه أنْ يعطِي وَعْدًا ولا يُنجزه. وكان سبب إبطاء الوحي على رسول الله **صلى الله عليه وسلم** في هذه المسألة أنه لم يقُلْ: إنْ شاء الله. ولذلك خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله: **(وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا. إِلاَّ أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ)** وهذه الآية في حَدِّ ذاتها دليل على صدق رسول الله **صلى الله عليه وسلم** وعلى أدبه، وعلى أمانته في البلاغ عن ربه عز وجل، وقد أراد الحق سبحانه أن يكون هذا الدرس في ذات الرسول نموذجًا لغيره وتربية للأمة في شخصية رسولها حتى لا يستنكف المربَّى من توجيه المربِّي ما دام الهدف هو الوصول إلى الحقيقة. فإياكم أن ترفضوا استدراك رأي على رأي حتى وإنْ كان من الخَلْق، فما بالك إنْ كان الاستدراك من الخالق سبحانه، والتعديل والتربية من ناحيته؟ ولقد ورد مثال لأدب

الاستدراك ومشروعية استئناف الحكم في الآية ٧٨ من سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾. فكان حكم داود عليه السلام في هذه المسألة أنْ يأخذ صاحب الزرع الغنم التي أكلتْ زرعه. فلما بلغ سليمان هذا الحكم استدرك عليه قائلاً: بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يُصلحه حتى يعودَ إلى ما كان عليه، ثم تعود الغنم إلى صاحبها والزرع إلى صاحبه. لذلك قال تعالى بعدها: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. ولم يتهم داود بالخطأ، بل قال: ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. ونلحظ هنا أن الاستدراك لم يَأْتِ من الأب للابن، فيكون أمرًا طبيعيًا، بل جاء من الابن للأب ليؤكد على أنه لا غضاضة أنْ يستدرك الصغير على الكبير، أو الابن على الأب، فالهدف هو الوصول إلى الحق والصواب. ونبيّ الله سليمان في هذه المسألة لم يغُضّ الطرف عن هذا القصور في حكم أبيه، بل جهر بالحق ونطق به لأن الحق أعزّ من أيِّ صلة حتى لو كانت صلة الأبوة. ولنا هنا وَقْفة مع أمانته **صلى الله عليه وسلم** في البلاغ عن الله، وأنه لم يكتم من الوحي شيئًا حتى ما جاء في عتابه والاستدراك عليه، فكأنه أمينٌ حتى على نفسه، فالرسول هو الذي بلغنا: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾. وهو الذي بلَّغنا في الآية ١ من سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾. وهو الذي بلغنا بشأن غزوة بدر في الآية ٤٢ من سورة التوبة: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وغيرها كثير من

آيات القرآن. لذلك مدحه ربه تبارك وتعالى في الآية ٢٤ من سورة التكوير بقوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، حتى في مجال التهديد والوعيد لم يكتم رسول الله من الوحي حرفًا واحداً، انظر إلى قوله تعالى في الآيتين ٤٤ – ٤٦ من سورة الحاقة: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾. إنها الأمانة المطلقة والصدق الذي لا يُخفِي شيئًا. ألم يكُنْ جديراً بالقوم أنْ يفقهوا هذه الناحية من رسول الله **صلى الله عليه وسلم** ويتفكّروا في صِدْقه حين يُخبرهم عن نفسه أشياء لم يعرفوها، وكان من المنتظر أنْ يُخفيها عنهم؟ أليس في ذلك دليلاً قاطعًا على صدقه فيما يقول؟ والحق تبارك وتعالى حينما يعلمنا أن نقول: إن شاء الله إذا أقدمنا على عمل في المستقبل إنما يُكرّم عبده ويحميه حتى لا يُوصَف بالكذب إذا لم يُحقِّق ما وعد به. وليس في قولنا: إنْ شاء الله حَجْر على أحد، أو تقييد لطموحات البشر كما يدّعي البعض أن قول إنْ شاء الله يلغي التخطيط للمستقبل. نقول: خَطِّط كما تريد، ودَبِّر من أمرك ما شئت، واصنع من المقدمات ما تراه مناسبًا لإنجاح سعيك، لكن ما عليك إنْ قرنتَ هذا كله بمشيئة الله، وهي في حَدِّ ذاتها عَوْنٌ لك على ما تريد. فإنْ أخفقتَ فقد جعلتَ لنفسك حماية في مشيئة الله، فأنت غير كاذب، والحق تبارك وتعالى لم يشأ بَعْدُ أنْ تنجزَ ما تسعى إليه. والحقيقة أن الحدث في المستقبل لا يملكه أحد، ولا يضمنه أحد إلا الله تبارك وتعالى، لذلك عليك أن تعلق الفعل على مشيئة الله، فإنْ قُلْتَ مثلاً: سأقابل فلانًا غداً لأكلمه في كذا، فهل تملك أنت من عناصر هذا الحدث شيئًا؟ أضمنتَ أن تعيش إلى غد؟ أضمنتَ حياة فلان هذا إلى الغد؟ أضمنتَ أن موضوع المقابلة باق

لا يتغير فيه شيء، ولا يطرأ عليه طارئ؟ إذن فكيف تقطع بالقول أنك ستفعل غداً كذا؟ قل: إن شاء الله، واخرج من دائرة الحرج هذه.

لنعد إلى الآية التي نحن بصددها فالحق سبحانه يقول ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ أَمْ: حرف من حروف العطف، ويفيد الإضراب عَمَّا قبله وتوجيه الاهتمام إلى ما بعده، كما في قوله تعالى في الآية ١٦ من سورة الرعد: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَاتُ وَٱلنُّورُ﴾. فالمراد إنْ سألك كفار مكة عن مسألة أصحاب الكهف على أنها معضلة يريدون إحراجك بها، فدعْكَ من كلامهم، ودَعْك من سوء نيتهم، ولا تحسب أن أهل الكهف هي العجيبة الوحيدة لدينا، فالعجائب عندنا كثيرة، وهذه واحدة منها.

﴿وَٱلْكَهْفِ﴾: الفجوة في الجبل. ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾: الشيء المرقوم المكتوب عليه كحجر أو نحوه، ولعله حجر كان على باب الكهف رُقِم عليه أسماء هؤلاء الفتية، ومن ذلك قوله تعالى في الآية ٩ من سورة المطففين: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي مكتوب.

وقوله ﴿كَانُوا۟ مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ليست هذه هي العجيبة الوحيدة، فكل آياتنا عجيبة تستحق التأمل. ثم تأخذ الآيات في تفصيل هذه العجيبة ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾. أَوَى: من المأوى وهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ويلجأ إليه. ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾: جمع فتى وهو الشاب في مُقْتبل العمر، والشباب هم مَعْقِد الآمال في حَمْل الأعباء والنهوض بكل أمر صعب، وهؤلاء

شباب مؤمن وقفوا يحملون راية عقيدتهم وإيمانهم أمام جبروت الكفر وطغيان الشرك، فالفتاء فيهم فتاء إيمان وعقيدة. لذلك لجأوا إلى الكهف مُخلِّفين وراءهم أموالهم وأهلهم وكل ما يملكون، وفرُّوا بدينهم إلى هذا المكان الضيق الخالي من أيِّ مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة، لأنهم لا يشغلون أنفسهم بهذه المقوّمات، بل يعلمون أن لهم ربًا سيتولى أمرهم، لذلك ضَرَعُوا إليه قائلين: (**رَبَّنَآءَاتِنَامِنلَّدُنكَرَحْمَةً**) أي رحمة من عندك ترحم بها ما نحن فيه من انقطاع عن كل مُقوِّمات الحياة، فالرحمة في فجوة الجبل لن تكون من البشر، الرحمة هنا لا تكون إلا من الله.

(**وَهَيِّئْلَنَامِنْأَمْرِنَارَشَدًا**) أي: يَسِّر لنا طريقًا سديداً للخير وللحق. إن هؤلاء الفتية المؤمنين حينما ألجأهم الكفر إلى ضيق الكهف تضرَّعوا واتجهوا إلى ربهم، فهو وحده القادر على أن يُوسّع عليهم هذا الضيق، كما قال تعالى في الآية ٤٢ من سورة الأنعام (**فَلَوْلا إِذْجَآءَهُمْبَأْسُنَاتَضَرَّعُوا**).

ثم يقول الحق سبحانه (**فضربناعلىآذانهم**) يُقَال: ضُرِب الفسطاط على الأرض يعني الخيمة، أي غُطِّيتْ الأرض بها بعد أنْ كانت فضاءً، والضرب هو أن تلمس شيئًا بشيء بشدة شريطة أن يكون المضروب به أقوى من المضروب، وإلاّ كان الضارب ضاربًا لنفسه. لذلك قال الشاعر عندما تكلم عن المعترضين على القدر:

أَيا هَازِئًا مِنْ صُنُوفِ القَدَر بنفْسِكَ تُعنف لاَ بالقَدَر

وَيَا ضَارِبًا صَخْرَةً بِالعَصَا ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضرَبْتَ الحَجَر؟

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ) أي: غطيناها بغطاء محكم يحجبهم عن العالم الخارجي، والضرب على آذانهم هو الرحمة التي دعوا الله بها وطلبوها لأن الإنسان الذي يحمل الفأس مثلاً ويعمل بها إنْ تعب وأجهده العمل يقف بعض الوقت ليستريح، فإنْ تعب من الوقوف قعد، فإنْ تعب من القعود استلقى واضطجع، فإنْ لم يسترح فلا يبقى إلا أن ينام، ففي النوم تهدأ الأعصاب ويستريح الإنسان، حتى مع الآلام في أعنف الأمراض إذا نام المريض لا يشعر بشيء من الألم، لذلك اختار لهم ربهم هذا الوضع ليريحهم به طوال فترة مُكْثهم في الكهف. إذن الحق سبحانه هو الضارب، والمضروب هو الآذان، والضرب على الآذان هنا للرحمة لا للعذاب، لأن الله تعالى أراد لهم أقصى درجات الراحة والنوم الهادئ الذي لا يُعكّر صَفْوه شيء، والنوم هو الراحة التامة التي تطغى على الآلام العضوية في الذات الإنسانية. وقد أختار الحق سبحانه الضرب على آذانهم، لأن حاسة السمع هي أول الحواس عملاً في الإنسان، وهي أول آلة إدراك تُؤدّي مهمتها في الطفل، كما قال الحق سبحانه وتعالى في الآية ٧٨ من سورة النحل: (وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

هذه الحواس هي منافذ العلم والإدراك للإنسان، فلو وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل المولود تراه لا يرمش، لأنه لا يرى إلا بعد ثلاثة إلى عشرة أيام. أما لو صرختَ في أُذنه فإنه ينتبه، فحاسة السمع تؤدي مهمتها منذ ولادته. وكذلك فالأذن تمتاز أيضًا بأنها الإدراك الوحيد الذي لا يتعطل ولا يتوقف أثناء النوم لأن بها يتم الاستدعاء من النوم. وهؤلاء الفتية دخلوا وأَوَوْا إلى الكهف، وهو فَجْوة في

جبل في صحراء وهي عُرْضة للعواصف والرياح وأصوات الحيوانات وأشياء كثيرة يمكن أن تزعج النائم، فلو تركهم الخالق سبحانه في نومهم هذا على طبيعتهم لأزعجتهم هذه الأصوات وأقلقتْ راحتهم، لذلك عطّل حاسة السمع عندهم، وبذلك استطاعوا أن يناموا كل هذه المدة.

ثم يقول تعالى: (**فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا**) ومعنى عدداً أي: سنين كثيرة، لأن القليل لا يُعَدُّ لأنه معروف، فإنْ ذكر العدّ فاعلم أنه للشيء الكثير، كما تقول فلان عنده مليون عَدًّا ونقداً.

ثم يقول الحق سبحانه (**ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ**) بَعَثْنَاهُمْ أي: أيقظناهم من نومهم الطويل، وما داموا قد ناموا فالأمر إذن ليس موتًا إلا أنهم لما طالتْ مدة نومهم شبَّهها بالموت (**لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ**) أي الفريقين منهم، لأنهم سأل بعضهم بعضًا عن مُدَّة لُبْثهم فقالوا يومًا أو بعض يوم. أو المراد الفريقان من الناس الذين اختلفوا في تحديد مدة نومهم

(**أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا**) أي لنرى أيّ الفريقين سيُقدِّر مُدّتهم تقديراً صائبًا. والأمد هو المدة وعدد السنين. والمتأمل في الآيات السابقة يجد فيها ملخصًا للقصة وموجزًا لها، وكأنها برقية سريعة بما حدث، فأهل الكهف فتية مؤمنون فروا بدينهم إلى كهف من الكهوف، وضرب الله على آذانهم فناموا مدة طويلة، ثم بعثهم الله ليعلم مَنْ يحصي مدة نومهم، وهذه البرقية بالطبع لم تُعطِنَا تفصيلاً لكل لقطات القصة، لذلك تبدأ الآيات في التفصيل.

فيقول تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ نحن أي الحق سبحانه وتعالى، فهو الذي يقصُّ ما حدث بالحق، فلو أن القاصَّ غير الله لتُوقّع منه الخطأ أو النسيان أو ترك شيء من الأحداث لِهَوىً في نفسه، إنما إنْ جاءك القصص من الله فهو الحق، كما قال في الآية ٢ من سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. إذن هناك قصَص ليس بالحسن وهو القَصَص غير الدقيق. فالقصَصُ القرآني يضمن لك منتهى الدقة في عرض الأحداث، ويُصوّر لك كل اللقطات، وكلمة قصة أو قَصَص تدلُّ على دقة التتبع، لأنها من قصَّ الأثر أي تتبَّعه، وكان لهذه المهمة رجال معروفون بقصّاصي الأثر وهم الذين يتتبعون الواقع. والنبأ هو الخبر العظيم.

ثم يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ هذا هو تفصيل القصة بعد أنْ لخَّصها القرآن في المذكرة والبرقية السابقة، وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله لقد ذكر ناسٌ هذه القصة من قبل، لكنها قُصَّتْ بغير الحق، وغُيّر فيها، لكن قَصّنا لها هو القَصَص الحق الذي لا كذبَ فيه. فحقيقة هؤلاء أنهم فتية آمنوا بالله، وهذه قضيتهم التي ضَحَّوْا من أجلها، فلما آمنوا بالله تولاّهم ونوَّر بصائرهم وربط على قلوبهم، وزادهم إيمانًا، كما قال في الآية ١٧ من سورة محمد: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾. وما أشبه هذه المسألة بالمعلِّم الذي يلمح أمارات النجابة والذكاء على أحد تلاميذه، ويراه مُجيبًا حريصًا على العلم فيُولِيه اهتمامه ويمنحه المزيد من المعلومات. ونلاحظ هنا أن هؤلاء المؤمنين الذين ضَحَّوْا بكلِّ شيء وفرُّوا بدينهم ما زالوا في مرحلة الشباب، وهو مظنّة الانشغال بالدنيا

والحِرْص على مُتعها، أما هؤلاء فقد انشغلوا بدينهم منذ صِغَرهم ليكونوا قدْوة ومثَلاً للشباب المؤمن في كل زمان ومكان، فالفتاء في أهل الكهف: فتاء إيمان وفتاء عقيدة.

(**وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ**) والربط يعني أن تربط على الشيء وتشدّ عليه لتحفظ ما فيه، كما تربط القِرْبة حتى لا يسيل الماء، وتربط الدابة حتى لا تنفلت. وقد وردتْ مادة "ربط " في القرآن كثيرا، منها قوله تعالى في قصة أم موسى في الآية ١٠ من سورة القصص: (**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا**). أي: ربط على ما في قلبها من الإيمان بالله الذي أوحى إليها أن تُلْقِيَ بولدها في الماء، ولولا أنْ ربط الله على قلبها وثبّتها لانطلقتْ خلف ولدها تصرخ وتنتحب وتُلفِت إليه الأنظار، أي: تكشف عن الخُطّة التي أمرها الله بها لنجاة موسى عليه السلام، وهكذا اطمأن قلب أم موسى وأصبح فؤادها فارغًا من الانفعالات الضارة. ومعلوم أن القلب هو محلُّ الانفعالات بدليل ما يحدث فيه من اضطراب وزيادة ضربات وتدفُّق للدم عند الغضب مثلاً. ولا يُسمَّى القلب فؤاداً إلا إذا توقّد بالمشاعر وتحرك بها، وربط الله على قلب أم موسى أحدث لها ضَبْطًا للشعور يحكم تصرفاتها فتأتي سليمة مُتمشّية مع الخطة المرادة. ومن هنا نأمر الغاضب الذي تغلي الدماء في عروقه بالهدوء وضبط النفس، لأن الهدوء سيعينه على الحق، ويُلجم جماح غضبه الذي لا تُحمد عُقباه. ألا ترى التوجيه النبوي في حال الغضب؟ إنه ينصح بتغيير الوضع الذي أنت عليه، لأن هذه العملية تحدث لديك نزوعية تصرف عنك الغضب. وفي الآية ٤٢ من سورة إبراهيم يقول الحق

سبحانه وتعالى: ﴿وَأَفْيِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾. أي فارغة خالية ليس فيها شيء، لأن الشيء إذا فرغته من محتواه امتلأ بالهواء. وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ لتظل بداخلها العقيدة والإيمان بالله لا تتزعزع ولا تُخرِجها الأحداث والشدائد، وهذا من زيادة الهدى الذي أَخبرتْ به الآية السابقة.

وقوله تعالى ﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾ القيام هنا دليل على مواجهتهم للباطل ووقوفهم في وجهه، وأن الباطل أفزعهم فهُبوا للتصدِّي له بقولهم ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾ ولا بُدَّ أنهم سمعوا كلاماً يناقض قولهم، وتعرّضوا في دعوتهم للحرب والاضطهاد، فالآية تعطي صورة لفريقين: فريق الكفر الذي ينكر وجود الله أو يشرك به، وفريق الإيمان الذي يُعلنها مُدوّية. وإنْ كان فريق الكفر يدعو إلى عبادة آلهة من دون الله فإن فريق الإيمان يقول ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَٰهاً﴾ فإن ادّعَيْنَا إلهاً من دون الله ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ أي فقد تجاوزنا الحدّ وبَعُدْنا عن الصواب. ثم يقول الحق سبحانه ﴿هَؤُلاءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ وهنا يخبر أهل الكهف الفتية المؤمنون عن قومهم أنهم اتخذوا من دون الله آلهة متعددة، دون أن يكون لهم دليل أو حُجّة واضحة على صِدْق ما ذهبوا إليه من عبادة هذه الآلهة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً﴾ فأفظع الظلم وأقبحه أنْ نفتريَ على الله الكذب، كما قال تعالى في الآية ١٢ من سورة لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم يقول الحق سبحانه ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ هذا حديث الفتية بعضهم إلى بعض: ما دُمْنا اعتزلنا أهل الكفر، ونأينا عن طريقهم، وسلكنا مسلكَ الإيمان بالله الذي يسَّره الله لنا، فهيا بنا إلى الكهف نلجأ إليه ونحتمي فيه فراراً بديننا، ومخافة أن يفتننا القوم عن ديننا. ويلفتنا هنا إلى فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلد آخر فيه مُتّسع للحياة، بل إلى كهف ضيق في جبل في صحراء وليس به مُقوّم من مُقوّمات الحياة. لذلك ينبهنا الحق سبحانه: إياك أن تقول إن الكهف ضيق وكيف يعيشون فيه؟ لأنهم مهاجرون إلى الله لاجئون إليه مُتوكّلون عليه. لذلك قال بعدها ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فالضيق يقابلُه البَسْط والسّعة. ولقد قالوا هذه الكلمة وهم واثقون في رحمة الله معتقدون أن الذي هاجروا إليه لن يُسلمهم ولن يخذلهم، وسوف يُوسِّع عليهم برحمته هذا الضيق، وقد وَسَّعه الله عليهم فعلاً حين أنامهم، ألاَ ترى النائم يرتع في الدنيا هنا وهناك ولا تحدُّه حدود؟ ومن هذه السعة ما حدث لنبي الله موسى عليه السلام حينما تبعه فرعون بجنود حتى قال أتباعه ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ – كما ورد في الآية ٦١ من سورة الشعراء – فقد ضاق عليهم الخناق حيث البحر من أمامهم والعدو من خلفهم، ولا مهربَ لهم فيما يرون من واقع الأمر. فماذا قال موسى لقومه في هذا الموقف؟ قال بملء فيه قولَة الواثق من نصر الله: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. فجاءه التأييد من ربه في التوِّ واللحظة، وفُرّج عنه وعن أصحابه ما يُلاَقون من ضيق

المخرج، فأوحى الله إليه: (**ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ**). كذلك هنا: يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ.

(**وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقًا**) والمراد بالمرفق جمع مرافق وهي مُقوّمات الحياة التي لا يستغني عنها الإنسان. فلما أنامهم الله أغناهم عن مرافق الحياة، لأنهم إنْ ظلوا في حال اليقظة فلا بُدَّ أنْ يحتاجوا إلى هذه المرافق.

ثم يقول الحق سبحانه (**وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ**) بعد أنْ ضرب الله على آذانهم فعصمهم من الأصوات التي تُزعجهم وتُقلِق نومهم عصمهم أيضًا من ضوء الشمس، وقد أثبتت الأبحاث خطر الأشعة خاصة على النائم، وأن للظُّلمة مهمةً فبها تهدأ الأعصاب وترتاح الأعضاء، والشمس خَلْق من خَلْق الله لها مَدارٌ ثابت وقانون لا يتخلّف كما قال تعالى في الآية ٢٢ من سورة الأنبياء: (**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ**). ولكن الخالق سبحانه خرق لهم نظامها حتى لا يزعجهم ضوءها، فكانت الشمس إذا طلعتْ تميل عن الكهف جهة اليمين (**وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ**) والقرْض أنْ تعطي غيرك شيئًا يحتاج إليه، فكأن الشمس تقرضهم وتسلفهم كونها لا تدخل عليهم عند غروبها، وهذا أمر ليس من حقهم فكأنها تقرضهم إياه. ولا شَكَّ أن هذه العملية مظهرٌ من مظاهر قدرة الله التي تصنع الشيء وضده. ويُلحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل الفعل للشمس في تزاور وإقراض وكأنها تفعل ذلك من نفسها بعد أن ضبط الله تعالى حركتها على هذه الأفعال كما تضبط الآلة اليوم (وهم في فجوة منه) أي أن (ذلك من آيات

الله). ومادامت هذه الأفعال للشمس آية من آيات الله عز وجل ومعجزة من معجزاته، فلا تعجب كيف تميل الشمس؟ وكيف تغير اتجاهها؟ لأن الخالق سبحانه وتعالى خلق الخلق وأعطى لكل مخلوق قانونه الذي يسير به، ومع ذلك لم يترك لمخلوق أن يفعل بقانونه ما يريد بل له سبحانه وتعالى قيومية على القانون تبطله إن شاء وتحركه إن شاء. أما فرعيات القصة فهي أمور ثانوية لا تقدم ولا تأخر لذلك قال تعالى بعدها (فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهرا (أي لا تجادل في أمرهم. ثم يأتي فضول الناس يسألون عن زمن القصة ومكانها وعن أشخاصها وعددهم وأسمائهم حتى كلبهم تكلموا في اسمه، وهذه كلها أمور ثانوية لا تنفع في القصة ولا تضر. ويجب هنا أن نعلم أن القصص القرآني حين يبهم أبطاله يبهمهم لحكمة. ونلحظ أن الحق جعلها وكأنها تفعل ذلك من نفسها بعد أنْ ضبط حركتها على هذه الأفعال كما تضبط الآلة اليوم.

وقوله (**وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ**) أي: في الكهف. (**ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ**) وما دامت هذه الأفعال للشمس آيةً من آيات الله ومعجزة من معجزاته تعالى فإياك أنْ تعترضَ: كيف تميل الشمس؟ وكيف تُغيِّر اتجاهها؟ لأن الخالق سبحانه خلق الخَلْق وأعطى لكل مخلوق قانونه الذي يسير به، ومع ذلك لم يترك لكل مخلوق أنْ يفعل بقانونه ما يريد، بل له سبحانه وتعالى قيُّومية على القانون تبطله إنْ شاء وتحركه إنْ شاء.

(**مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا**) فقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم، ولا تزال ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن، فهناك دائمًا

من يقول: إذا كان الله هو الهادي والمُضِل فلماذا يعذبني إن ضللت؟ وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة، ويراد منه إيجاد مبرر للنفس العاصية غير الملتزمة، ونقول لكل مجادل: لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ولم تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت؟ إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم. والهداية نوعان: هداية دلالة، وهي للجميع، للمؤمن والكافر، لأن الحق سبحانه لم يدل المؤمن فقط، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به، فمن يُقبل على الإيمان به فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة فيأخذ بيده ويعينه ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه، ويعطي له طاقة لفعل الخير ويشرح له صدره وييسر له أمره. فمن شاء الحق سبحانه هدايته أعطاه الهداية، ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً. وقد بينّ أن من شاء هدايته يهتدي وهذه معونة من الله، والكافر لا يهتدي وكذلك الظالم والفاسق، لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره، وهكذا يمنع الحق سبحانه عنهم هداية المعونة.

ثم يقول الحق سبحانه **(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال)** أي: لو أتيح لك النظر إليهم لخُيّل إليك أنهم أيقاظٌ غير نائمين ذلك لأن ربهم سبحانه حفظهم على حال اليقظة وعلى هيئتها، ثم أظهر فيهم آية أخرى من الإعجاز بأنْ يُقلِّبهم في نومهم مرة ناحية اليمين وأخرى ناحية الشمال لتظلّ أجسامهم على حالها ولا تأكلها الأرض. ومعلوم أن الإنسان إذا قُدِّر له أنْ ينام فترة طويلة على سرير المرض يُصَاب بمرض آخر يُسمُّونه قرحة الفراش نتيجة لنومه

المستمر على جانب واحد، وقد جعل لهم هذا التقليب ذات اليمين وذات الشمال على هيئة الإيقاظ.

(وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) ويبدو أنهم كانوا من الرعاة فتبعهم كلبهم وجلس مَادًّا ذراعيْه بفناء الكهف أو على بابه.

(لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) فقد ألقى الله مهابتهم والخوف منهم في نفوس الناس، فإذا ما اطلع عليهم إنسان خاف وولّى هاربًا يملؤه الرعب، لأن هيئتهم تُوحي بذلك، حيث يتقلّبُون يمينًا وشمالاً ومع ذلك لا يصحُو منهم أحد ولا يقوم منهم أحد طوال هذه المدة.

ثم يقول الحق سبحانه **(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ)** بَعَثْنَاهُمْ أي: أيقظناهم من نومهم، لأن نومهم الطويل الذي استغرق ثلاثمائة سنة وتِسْعًا أشبه الموت فقال بَعَثْنَاهُمْ. والبعْثُ هنا لقضية خاصة بهم وهي أنْ يسأل بعضهم بعضًا عن مُدّة لُبْثهم في الكهف، وقد انقسموا في سؤالهم هذا إلى فريقين الفريق الأول **(قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ)** فَردَّ الفريق الآخر بما تقضيه طبيعة الإنسان في النوم العادي **(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)** فالإنسان لا يستطيع تقدير مدّة نومه بالضبط، لكن المعتاد في النوم أن يكون كذلك يومًا أو بعض يوم. وقد أخذ العلماء من هذا القول أنهم حين تساءلوا هذا السؤال لم يجدوا في ذواتهم شيئًا يدلُّ على مرور زمن طويل، حيث وجدوا أنفسهم على الحال التي ناموا عليها، فلم يتغير مثلاً حالهم من الشباب إلى الشيخوخة، ولم يتغير شعرهم مثلاً إلى البياض... لذلك

قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، ولو وجدوا بأنفسهم شيبًا لقدَّروا الزمن المناسب لهذا الشيب. وهذه وقفة المشدوه حين يُسْأل عن زمن لا يدري مُدته، إنه طويل عند الله إنما قصير عنده، وهذا كقوله تعالى في الآية ٢٥٩ من سورة البقرة: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾. لقد حكم على مُدّة لُبْثه بيوم أو بعض يوم لأنه وجد نفسه على الحال التي عهدها لم يتغير منه شيء، فكيف يتأتّى الصدق من الحق سبحانه في قوله مائة عام، والصدق في قول العُزَيْر بيوم أو بعض يوم؟ لا شكَّ أننا أمام آية من آيات الخالق سبحانه ومعجزة من معجزاته لا يقدر عليها إلا المالك للزمان والمكان، القابض للزمان ليوم أو بعض يوم، الباسط له إلى مائة عام. لذلك أظهر الخالق سبحانه في هذه المعجزة الدليل على صدق القولين: ففي طعام العُزَير الذي ظلَّ على حاله طازجًا لم يتغير دليل على يوم أو بعض يوم، وفي حماره الذي رآه عظامًا بالية دليل على المائة عام، فسبحان الذي يجمع الشيء وضده في آن واحد.

﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وهو قَوْل الجماعة الذين أرادوا إنهاء الخلاف في هذه المسألة فقالوا لإخوانهم دعونا من هذه القضية التي لا تفيد واتركوا أمرها لله تعالى. ودائمًا يأمرنا الحق سبحانه بأنْ ننقلَ الجدل من شيء لا ننتهي فيه إلى شيء ونُحوله للأمر المثمر النافع، لذلك قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ

﴿بِكُمْ أَحَدًا﴾ والوَرِق يعني العملة من الفضة، فأرادوا أنْ يرسلوا أحدهم بما معهم من النقود ليشتري لهم من المدينة طعاماً لأنهم بمجرد أن استيقظوا انتهت حالتهم الاستثنائية وعادوا إلى طبيعتهم لذلك طلبوا الطعام. لكن نلحظ هنا أن الجوع لم يحملهم على طلب مطلق الطعام، بل تراهم حريصين على تزكية طعامهم واختيار أَطيبه وأَطْهره وأبعده عن الحرام. وكذلك لم يَفُتْهم أنْ يكونوا على حذر من قومهم، فَمْن سيذهب منهم إلى هذه المهمة عليه أن يدخل المدينة خِلْسة، وأن يتلطف في الأمر حتى لا يشعر به أحد من القوم، ذلك لأنهم استيقظوا على الحالة التي ناموا عليها، وما زالوا على حَذَر من قومهم يظنون أنهم يتتبعونهم ويبحثون عنهم ويسعَوْن للقضاء عليهم.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ وهذا احتياط منهم للدين وحماية للعقيدة التي فَرُّوا بها. فإن يرجموكم فسينتصرون عليكم في الدنيا إنما ستأخذون الآخرة، وإن ردوكم إلى دينهم فلن تفلحوا في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ يقيم من أهل الكهف دليلاً على قيام الساعة والبعث بعد الموت، فها أنتم ما زِلْتم على قَيْد الحياة وفي سَعَة الدنيا، ومع ذلك أنامكم الله هذه النَّوْمة الطويلة ثم بعثكم، وقد عُثِر عليهم وما زالت فيهم حياة.

ثم يقول تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ حدث هذا التنازع من الجماعة الذين عثروا عليهم، ويبدو أنهم كانوا على مِسْحة من الدين، فأرادوا أنْ يحافظوا على هذه الآية الإلهية، ويصحّ أنهم بمجرد أنْ عثروا عليهم قضى أجلهم فماتوا. وهذه مسألة يجب أن يُؤرّخ لها وأن تخلد. لذلك جعلوها مثلاً شَرُوداً للعالم كله لتُعرف قصة هؤلاء الفتية الذين ضَحَّوْا في سبيل عقيدتهم وفَرُّوا بدينهم من سَعَة الحياة إلى ضيق الكهف، ليكونوا مثلاً لكل أهل العقيدة، ودليلاً على أن الله تعالى ينصر أهله ويدافع عنهم ويُخلِّد ذكراهم إلى قيام الساعة. لذلك قال بعضهم لبعض ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾ أي: مطلق البنيان، فعارضهم آخرون بأن البناء يجب أن يكون مسجداً ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ ليكون موضعاً للسجود لله وللعبادة ليتناسب مع هذه الآية العظيمة الخالدة. ثم تحدَّث الحق سبحانه عن الاختلافات التي نشأت عن فضول الناس لمعرفة عدد أهل الكهف وما يتعلَّق بهم من تفصيلات هي في حقيقتها عِلْم لا ينفع وجَهْل لا يضر، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ لقد اختلف القوم في عدد أهل الكهف، منهم مَنْ قال ثلاثة رابعهم كلبهم، ومنهم مَنْ قال خمسة سادسهم كلبهم. وعلَّق الحق سبحانه على هذا القول بأنه رَجْماً بِالْغَيْبِ

لأنه قَوْل بلا عِلْم مما يدلُّنا على خطئه ومخالفته للواقع. ومنهم مَنْ قال سبعة وثامنهم كلبهم، ولم يعلق القرآن على هذا الرأي مما يدُّل على أنه الأقرب للصواب. ثم يأتي القول الفَصْل في هذه المسألة (**قُلرَّبِّيأَعْلَمُبِعِدَّتِهِممَّايَعْلَمُهُمْإِلَّاقَلِيلٌ**) فلم يُبينّ لنا الحق سبحانه عددهم الحقيقي، وأمرنا أن نترك هذا لعلمه سبحانه، ولا نبحث في أمر لا طائل منه ولا فائدة من ورائه، فالمهم أنْ يثبت أَصْل القصة وهو الفتية الأشدّاء في دينهم الذين فَرُّوا به وضَحَّوْا في سبيله حتى لا يفتنهم أهل الكفر والطغيان، وقد لجأوا إلى الكهف ففعل الله بهم ما فعل، وجعلهم آيةً وعبرةً ومثَلاً وقدْوة. أما فرعيات القصة فهي أمور ثانوية لا تُقدّم ولا تُؤخّر، لذلك قال تعالى بعدها (**فَلَاتُمَارِفِيهِمْإِلَّامِرَآءًظَاهِرًا،وَلَاتَسْتَفْتِفِيهِممِّنْهُمْأَحَدًا**) أي لا تجادل في أمرهم. ثم يأتي فضول الناس ليسألوا عن زمن القصة ومكانها، وعن أشخاصها وعددهم وأسمائهم، حتى كلبهم تكلموا في اسمه. وهذه كلُّها أمور ثانوية لا تنفع في القصة ولا تضرُّ. ويجب هنا أن نعلم أن القَصَص القرآني حين يبهم أبطاله يبهمهم لحكمة، فلو تأملتَ إبهام الأشخاص في قصة أهل الكهف لوجدته عَيْن البيان لأصل القصة، لأن القرآن لو أخبرنا مثلاً عن مكان هؤلاء الفتية لقال البعض إن هذا الحدث من الفتية خاص بهذا المكان، لأنه كان فيه قدر من حرية الرأي. ولو حدد زمانهم لَقال البعض لقد حدث ما حدث منهم لأن زمانهم كان من الممكن أن يتأتّى فيه مثل هذا العمل. ولو حدد الأشخاص وعيَّنهم لقالوا هؤلاء أشخاص لا يتكررون مرة أخرى. لذلك أبهمهم الله لتتحقّق الفائدة المرجوّة من القصة، أبهمهم زمانًا ومكانًا وعددًا وأشخاصًا ليشيع خبرهم بهذا الوصف في الدنيا كلها لا يرتبط

بزمان ولا مكان ولا أشخاص. فحمل راية الحق والقيام به أمر واجب وشائع في الزمان والمكان والأشخاص وهذا هو عَيْنُ البيان للقصة، وهذا هو المغزى منها.

ثم يقول الحق سبحانه **(وَلاَتَقُولَنَّلشيءإِنِّيفَاعِلٌذلِكَغَدًا)** تتجلى في هذه الآية رحمة الله بالمحبوب محمد **صلى الله عليه وسلم** فلميُرِدْ سبحانه وتعالى أن يصدم رسوله بمسألة المخالفة هذه، بل أعطاه ما أراد وأجابه إلى ما طَلب من مسألة أهل الكهف، ثم في النهاية ذكَّره بهذه المخالفة في أسلوب وَعْظ رقيق كما خاطبه في الآية ٤٢ من سورة التوبة بقوله: **(عَفَا ٱللَّهُعَنكَلِمَأَذِنتَلَهُمْ)** ثم عاتبه بعد ذلك.

والحق سبحانه يقول **(إِلاَّأَنيَشَآءَٱللَّهُوَٱذْكُر رَّبَّكَإِذَانَسِيتَ)** أي: على فَرْض أنك نسيت المشيئة ساعة البَدْء في الفعل، فعليك أن تعيدها ثانية لتتدارك ما حدث منك من نسيان في بداية الأمر.

وقوله تعالى: **(وَقُلْعَسَىأَنيَهْدِيَنِرَبِّيلأِقْرَبَمِنْهَذَارَشَدًا)** أي: يهديني ويعينني فلا أنسى أبداً، وأن يجعل ذِكْره لازمة من لوازمي في كل عمل من أعمالي فلا أبدأ عملاً إلا بقوْل: إنْ شاء الله. **(وَلَبِثُواْفِي كَهْفِهِمْثَلاثَمِاْئَةٍسِنِينَ وازدادواتسعا)** هذه الآية تعطينا لقطةً من المذكرة التفصيلية التي أعطاها الله تعالى لرسوله **صلى الله عليه وسلم** عن أهل الكهف، وهي تُحدِّد عدد السنين التي قضاها الفِتْية في كهفهم بأنها ثلاثمائة سنة، وهذا هو عددها الفعليّ بحساب الشمس. لم يَقُلْ ثلاثمائة وتسعًا، بل قال: **(وَٱزْدَادُواْتِسْعًا)**. ولما سمع أهل

الكتاب هذا القول اعترضوا وقالوا: نعرف ثلاثمائة سنة، ولكن لا نعرف التسعة، ذلك لأن حسابهم لهذه المدة كان حسابًا شمسيًا. ومعلوم أن الخالق سبحانه حينما خلق السماوات والأرض قسَّم الزمن تقسيمًا فلكيًا، فجعل الشمس عنوانًا لليوم نعرفه بشروقها وغروبها، ولما كانت الشمس لا تدلّنا على بداية الشهر جعل الخالق سبحانه الشهر مرتبطًا بالقمر الذي يظهر هلالاً في أول كل شهر، وقد قال تعالى في الآية ٣٦ من سورة التوبة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فلو حسبتَ الثلاثمائة سنة هذه بالحساب القمري لوجدتها ثلاثمائة سنة وتسعًا، إذن هي في حسابكم الشمسي ثلاثمائة سنة، وفي حسابنا القمري ثلاثمائة وتسعًا. ونعرف أن السنة الميلادية تزيد عن الهجرية بأحد عشر يومًا تقريبًا في كل عام. ومن حكمة الخالق سبحانه أن ترتبط التوقيتات في الإسلام بالأهلة. ولك أن تتصور لو ارتبط الحج مثلاً بشهر واحد من التوقيت الشمسي في طقس واحد لا يتغير، فإنْ جاء الحج في الشتاء يظل هكذا في كل عام، وكم في هذا من مشقة على مَنْ لا يناسبهم الحج في فصل الشتاء. والأمر كذلك في الصيام.

أما في التوقيت القمري فإن هذه العبادات تدور بمدار العام، فتأتي هذه العبادات مرة في الصيف ومرة في الخريف ومرة في الشتاء ومرة في الربيع، فيؤدي كل إنسان هذه العبادة في الوقت الذي يناسبه. والمتأمل في ارتباط شعائر الإسلام بالدورة الفلكية يجد كثيراً من الآيات والعجائب، فلو تتبعتَ مثلاً الأذان للصلاة في ظل هذه الدورة لوجدت أن كلمة "الله أكبر" نداء دائم لا ينقطع في ليل أو نهار من

مُلْك الله تعالى، وفي الوقت الذي تنادي فيه " الله أكبر "يُنادي آخر" أشهد ألا إله إلا الله "وينادي آخر" أشهد أن محمداً رسول الله وهكذا دواليك في منظومة لا تتوقف. وكذلك في الصلاة، ففي الوقت الذي تصلي أنت الظهر، هناك آخرون يُصلّون العصر، وآخرون يُصلُّون المغرب، وآخرون يُصلّون العشاء. فلا يخلو كَوْنُ الله في لحظة من اللحظات من قائم أو راكع أو ساجد. إذن فلفظ الأذان وأفعال الصلاة شائعة في كُلِّ أوقات الزمن، وبكُلّ ألوان العبادة.

ثم يقول الحق سبحانه **(قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)**. وقوله **(أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ)** أسلوب تعجُّب أي: ما أشدّ بصره، وما أشدّ سمعه، لأنه البصر والسمع المستوعب لكلِّ شيء بلا قانون.

وقوله: **(مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا)** كأن الحق سبحانه وتعالى يُطمئِن عباده بأن كلامه حَقٌّ لا يتغير ولا يتبدل لأنه واحد أحد لا شريك له. ثم يقول لنبيه محمد **صلى الله عليه وسلم (وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ)** أي بعد هذه الأسئلة التي سألك كفار مكة إياها وأخبرك الله بها فأجبتهم، اعلم أن لك ربًا رفيقًا بك، لا يتخلّى عنك ولا يتركك لكيدهم، فإنْ أرادوا أن يصنعوا لك مأزقًا أخرجك الله منه، وإياك أنْ تظنَّ أن العقبات التي يقيمها خصومك ستُؤثّر في أمر دعوتك. وإنْ أبطأتْ نُصْرة الله لك فاعلم أن الله يريد أنْ يُمحِّص جنود الحق الذين يحملون الرسالة إلى أن تقوم الساعة، فلا يبقى في ساحة الإيمان إلا الأقوياء الناضجون، فالأحداث والشدائد التي تمرُّ بطريق الدعوة

إنما لتغربل أهل الإيمان حتى لا يصمد فيها إلا مَنْ هو مأمون على حَمْل هذه العقيدة. وقوله: لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ دليل على أن كلمات الله لا يستطيع أحد أنْ يُبدِّلها إلا أنْ يكون معه سبحانه إله آخر، فما دام هو سبحانه إلهًا واحدًا لا شريك له، فاعلم أن قوله الحق الذي لا يُبدّل ولا يُغيّر.

(وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا) أي: ملجأ تذهب إليه لأن حَسْبك الله وهو نِعْم الوكيل[1].

الوسيط لمُحمَّد سيِّد طنطاويّ

قال الإمام الرازي: اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف، وسألوا عنها الرسول **صلى الله عليه وسلم** على سبيل الامتحان، فقال تعالى: **(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف والرقيم كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)** أي لا تحسبن ذلك، فإن آياتنا كلها عجب، فإن من كان قادرا على خلق السموات والأرض، وعلى تزيين الأرض بما عليها من نبات وحيوان ومعادن، ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية من الجميع، كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة من الناس مدة ثلاثمائة سنة في النوم. وعلى ذلك يكون المقصود بهذه الآيات الكريمة بيان أن قصة أصحاب الكهف ليست شيئًا عجبا بالنسبة لقدرة الله تعالى. وقد ذكر المفسرون في سبب نزول قصة أصحاب الكهف روايات ملخصها: أن قريشا بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهم سلوهم

[1] خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ (ج١٤/ ص٨٨٤٢- ٨٨٧٣).

عن محمد **صلى الله عليه وسلم** وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله **صلى الله عليه وسلم** ووصفوا لهم أمره. فقالوا لهما سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ماذا كان من خبرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طاف المشارق والمغارب ماذا كان من خبره؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور. ثم جاءوا إلى رسول الله **صلى الله عليه وسلم** فقالوا يا محمد أخبرنا وسألوه عما قالته لهم يهود. فقال لهم رسول الله **صلى الله عليه وسلم**: سأجيبكم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن. أي ولم يقل إن شاء الله. فانصرفوا عنه. ومكث رسول الله **صلى الله عليه وسلم** خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا، ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غدا واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشئ عما سألناه عنه. فأَحْزَن رسول الله **صلى الله عليه وسلم** مُكْثُ الوحي عنه وشق عليه ما تكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبريل بسورة الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا**

قَلِيلًا). والخطاب في قوله تعالى (**أم حسبت**) هو للرسول **صلى الله عليه وسلم** ويدخل فيه غيره من المكلفين. وأم في هذه الآية هي المنقطعة، وتفسر عند الجمهور بمعنى بل والهمزة أي: بل أحسبت. وعند بعض العلماء تفسر بمعنى بل، فتكون للانتقال من كلام إلى آخر أي: بل حسبت. ويرى بعضهم أنها هنا بمعنى الهمزة التي هي للاستفهام الإِنكاري أي: أحسبت (**أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا**) الكهف هو النقب المتسع في الجبل، فإن لم يكن فيه سعة فهو غار وجمعه كهوف، والمراد به هنا الكهف الذي اتخذه الفتية مستقرا لهم. أما الرقيم فقد ذكروا في المراد به أقوالا متعددة منها: أنه اسم كلبهم، ومنها أنه اسم الجبل أو الوادي الذي كان فيه الكهف، ومنها أنه اسم القرية التي خرج منها الفتية. ولعل أقربها إلى الصواب أنه اللوح الذي كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم. فيكون الرقيم بمعنى المرقوم – فهو فعيل بمعنى مفعول – ومأخوذ من رقمت الكتاب إذا كتبته. ومنه قوله تعالى: (**كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلأبرار لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ**)، أى مكتوب. قال بعض العلماء: والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم هم طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين أحدهما معطوف على الآخر، خلافا لمن قال أن أصحاب الكهف طائفة وأصحاب الرقيم طائفة أخرى، وأن الله قص على نبيه في هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ولم يذكر له شيئا عن أصحاب الرقيم. وخلافا لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فسدّت عليهم باب الكهف فدعوا الله بصالح أعمالهم

فانفرجت، وهم البار بوالديه والعفيف والمستأجر، وقصتهم مشهورة ثابتة في الصحيح. إلا أن تفسير الآية بأنهم هم المراد بعيد كما ترى. والمعنى: أظننت أيها الرسول الكريم أن ما قصصناه عليك من شأن هؤلاء الفتية شيئا عجبا؟ لا، لا تظن ذلك فإن قدرتنا لا يعجزها شئ. ثم حكى سبحانه ما قالوه عندما حطوا رحالهم في الكهف فقال ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي اذكر يا محمد للناس ليعتبروا وقت أن خرج هؤلاء الفتية من مساكنهم تاركين كل شئ خلفهم من أجل سلامة عقيدتهم فالتجأوا إلى الكهف واتخذوه مأوى لهم وتضرعوا إلى خالقهم قائلين: يا ربنا آتنا من لدنك رحمة تهدى بها قلوبنا وتصلح بها شأننا وتردُّ بها الفتن عنا، كما نسألك أن تهيئ لنا من أمرنا الذي نحن عليه – وهو فرارنا بديننا وثباتنا على إيماننا – ما يزيدنا سدادا وتوفيقا لطاعتك. وقوله سبحانه: إِذْ أَوَى الفتية... لتحقيق ما كانوا عليه من فتوة، وعلى قلتهم، وعلى أنهم شباب في مقتبل أعمارهم، ومع ذلك ضحوا بكل شئ في سبيل عقيدتهم. والتعبير بالفعل أوى يشعر بأنهم بمجرد عثورهم على الكهف ألقوا رحالهم فيه واستقروا به استقرار من عثر على ضالته، وآثروه على مساكنهم المريحة، لأنه واراهم عن أعين القوم الظالمين. والتعبير بالفاء في قوله سبحانه: فَقَالُواْ رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً يدل على أنهم بمجرد استقرارهم في الكهف ابتهلوا إلى الله تعالى بهذا الدعاء الجامع لكل خير. والتنوين في قوله رحمة هو للتهويل والتنويع أي: آتنا يا ربنا من عندك وحدك لا من غيرك رحمة عظيمة

شاملة لجميع أحوالنا وشؤننا. فهي تشمل الأمان في المنزل والسعة في الرزق والمغفرة للذنب.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أصل الضرب هو التقاء جسم بجسم آخر بشدة. يقال ضرب فلان بيده الأرض إذا ألصقها بها بشدة، وتفرعت عن هذا المعنى معان أخرى ترجع إلى شدة اللصوق ومنه قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾، أي التصقتا بهم التصاقا لا فكاك لهم منه ولا مهرب لهم عنه. والمراد بالضرب هنا النوم الطويل الذي غشاهم الله تعالى به فصاروا لا يحسون بشيء مما حولهم، والمعنى: بعد أن استقر هؤلاء الفتية في الكهف وتضرعوا إلينا بالدعاء، ضربنا على آذانهم حجابا ثقيلا مانعا من السماع، فصاروا لا يسمعون شيئا يوقظهم. واستمروا في نومهم العميق هذا سنين ذات عدد بينها سبحانه فيما بعد. وخص الآذان بالضرب – مع أن مشاعرهم كلها كانت محجوبة عن اليقظة – لأن الآذان هي الطريق الأول للتيقظ، ولأنه لا يثقل النوم إلا عندما تتعطل وظيفة السمع. ثم بين سبحانه ما حدث لهم بعد هذا النوم الطويل فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ والبعث في اللغة هو إثارة الشيء من محله وتحريكه بعد سكون. ويستعمل بمعنى الإيقاظ وهو المقصود هنا من قوله بعثناهم أي أيقظناهم بعد رقادهم الطويل. وقوله لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ بيان للحكمة التي من أجلها أيقظهم الله من نومهم. فقيل هما حزبان من أهل المدينة الذين بعث هؤلاء الفتية في زمانهم حزب مؤمن وآخر كافر. وقيل هما حزبان من المؤمنين كانوا

موجودين في زمن بعث هؤلاء الفتية اختلفوا في المدة التي مكثها هؤلاء الفتية رقوداً. قال الآلوسى: ثم بعثناهم أي أيقظناهم من نومهم (**لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ**) منهم القائلون لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يوم، ومنهم القائلون رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ. وقيل أحد الحزبين هم الفتية الذين ظنوا قلة زمن لبثهم، والثاني هم أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم وكان عندهم تاريخ غيبتهم. والمراد بالعلم في قوله لنعلم هو إظهار المعلوم، ويجوز أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز أي: بعثناهم لنميز أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا. ويرى صاحب الكشاف أن المعنى هو: لنعلم أي الحزبين أضبط لمدة لبثهم في الكهف.

(**نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ**) أي: نحن وحدنا يا محمد نقص عليك وعلى أمتك خبر هؤلاء الفتية قصصا لحمته وسداه الحق والصدق لأنه من ربك الذي لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء.

(**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**) كلام مستأنف جواب عن سؤال تقديره ما قصتهم وما شأنهم بالتفصيل؟ إنهم فتية أخلصوا العبادة لخالقهم وأسلموا وجوههم لبارئهم وآمنوا بربوبيته إيمانا عميقًا ثابتًا، فزادهم ببركة هذا الإخلاص والثبات على الحق هداية على هدايتهم وإيمانا على إيمانهم. وقوله سبحانه: (**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نبَأَهُم بالحق**) إيماء إلى أن قصة هؤلاء الفتية كانت معروفة لبعض الناس، إلا أن معرفتهم بها كانت مشوبة بالخرافات والأباطيل. واستدل غير واحد من الأئمة بقوله تعالى: وزدناهم هدى إلى أن الإيمان يزيد وينقص. ثم حكى

سبحانه جانبا من مظاهر هدايته لهم فقال ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ وأصل الربط هو الشد، والمراد به هنا ما غرسه الله في قلوبهم من قوة وثبات على الحق وصبر على فراق أهليهم. ومنه قولهم فلان رابط الجأش إذا كان لا يفزع عند الشدائد والكروب. والمراد بقيامهم هو عقدهم العزم على مفارقة ما عليه قومهم من باطل وتصميمهم على ذلك تصميما لا تزحزحه الخطوب مهما كانت جسيمة. ويصح أن يكون المراد بقيامهم وقوفهم في وجه ملكهم الجبار بثبات وقوة دون أن يبالوا به عندما أمرهم بعبادة ما يعبده قومهم، وإعلانهم دين التوحيد ونبذهم لكل ما سواه من شرك وضلال. ثم حكى سبحانه ما قالوه بعد أن استقر الإيمان في نفوسهم ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ أي: أعلنوا براءتهم من كل خضوع لغير الله عز وجل حين قاموا في وجه أعدائهم، وقالوا بكل شجاعة وجرأة ربنا سبحانه هو رب السموات والأرض لن نعبد سواه أي معبود آخر. ونفوا عبادتهم لغيره سبحانه بحرف لن، إذ النفي بلن أبلغ من النفي بغيرها. قال الآلوسى: ويقال إنهم أشاروا بالجملة الأولى وهى: ربنا رب السموات والأرض إلى توحيد الربوبية، وأشاروا بالجملة الثانية وهي: لن ندعو من دونه إلها إلى توحيد الألوهية. وهما أمران متغايران وعبدة الأوثان لا يقولون بهذا. وقولهم ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ تأكيد لبراءتهم من كل عبادة لغير الله تعالى. والشطط مصدر معناه مجاوزة الحد في كل شيء، وهو صفة لموصوف محذوف، وفى الكلام قسم مقدر، واللام في لقد واقعة في جوابه، وإذن حرف جواب وجزاء فتدل على شرط مقدر.

أي: ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها. ولو فرض أننا دعونا وعبدنا من دونه إلها آخر إذن والله قد قلنا قولا شططا بعيدا عن دائرة الحق والصواب. والآية الكريمة تدل على قوة إيمان هؤلاء الفتية، وعلى أن من كان كذلك ثبت الله تعالى قلبه وقواه على تحمل الشدائد. كما تدل على أن من أشرك مع الله تعالى إلها آخر يكون قد جاء بأمر شطط بعيد كل البعد عن الحق والصواب، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾. ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الفتية أنهم لم يكتفوا بإعلان إيمانهم الصادق، بل أضافوا إلى ذلك استنكارهم لما عليه قومهم من شرك فقال: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ ولولا للتحضيض وهو الطلب بشدة، والمقصود بالتحضيض هنا الإنكار والتعجيز، إذ من المعلوم أن قومهم لن يستطيعوا أن يقيموا الدليل على صحة ما هم عليه من شرك. والمراد بالسلطان البين الحجة الواضحة. أي أن أولئك الفتية بعد أن اجتمعوا وتعاهدوا على عبادة الله تعالى وحده ونبذ الشرك والشركاء قالوا على سبيل الإنكار والاحتقار لما عليه قومهم: هؤلاء قومنا بلغ بهم السفه والجهل أنهم اتخذوا مع الله تعالى أصناما يشركونها في العبادة، هلا أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد دعواهم بأن هذه الأصنام تصلح آلهةّ! لا شك أنهم لن يستطيعوا ذلك. قال صاحب الكشاف في قوله: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ تبكيت. لأن الإتيان بالسلطان على صحة عبادة الأوثان محال وهو دليل على فساد التقليد، وأنه لا بد في الدين من حجة

حتى يصح ويثبت. وشبيه بهذه الآية في تعجيز المشركين وتجهيلهم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظن وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾. وقوله أيضا: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ائتوني بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هذا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بما يدل على تكذيبهم لقومهم ووصفهم إياهم بالظلم فقال ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحد أشد ظلمًا من قوم افتروا على الله تعالى الكذب حيث زعموا أن له شريكا في العبادة والطاعة، مع انه منزه عن الشريك والشركاء: أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العالمين. ثم تناجوا بينهم بعد أن أعلنوا كلمة التوحيد فقالوا ﴿وَإِذِ اعتزلتموهم وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الكهف يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ إذ هنا للتعليل، والاعتزال هو تجنب الشئ سواء كان بالبدن أم بالقلب، ومرفقًا من الارتفاق بمعنى الانتفاع. قرأ نافع وابن عامر مرفقا بفتح الميم وكسر الفاء. والمعنى أن هؤلاء الفتية بعد أن عقدوا العزم على مفارقة قومهم تناجوا قائلين: لأجل ما أنتم مقدمون عليه من اعتزالكم لقومكم الكفار واعتزالكم ما يعبدونه من دون الله الجأوا إلى الكهف واتخذوه مأوى ومستقرا لكم ينشر لكم ربكم الكثير من الخير بفضله ورحمته ويهيئ لكم بدلا من أمركم الصعب أمرا فيه اليسر والنفع. وفي هذا التعبير دلالة واضحة على صدق إيمانهم وحسن ظنهم بربهم عز وجل. وهكذا الإيمان الصادق يجعل صاحبه يفضل المكان الخالي من زينة الحياة – من

أجل سلامة عقيدته – على المكان المليء باللين والرخاء الذي يحس فيه بالخوف على عقيدته. فالآية الكريمة تدل على أن اعتزال الكفر والكافرين من أجل حماية الدين يؤدى إلى الظفر برحمة الله وفضله وعطائه العميم. وصدق الله إذ يقول في شأن إبراهيم عليه السلام: (**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا. فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا**). ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى الحديث عن أحوال هؤلاء الفتية بعد أن استقروا في الكهف وألقى الله تعالى عليهم النوم الطويل (**وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال**) والخطاب لرسول الله **صلى الله عليه وسلم** أو لكل أحد ممن يصلح – وهو للمبالغة في الظهور وليس المراد به الإِخبار بوقوع الرؤية – بل الإِخبار بكون الكهف لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين. وتزاور من الزور بمعنى الميل، ومنه قولهم زار فلان صديقه أي مال إليه، ومنه شهادة الزور لأنها ميل عن الحق إلى الباطل. ومعنى تقرضهم تقطعهم وتتجاوزهم وتتركهم، من القرض بمعنى القطع والصرم. والمعنى: لو رأيت أهل الكهف لرأيت أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم جهة اليمين، وإذا غربت تميل عنهم ذات الشمال، فهي في الحالتين لا تصل إليهم حماية من الله تعالى لهم حتى لا تؤذيهم بحرها فتغير ألوانهم وتبلى ثيابهم (**وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ**) الفجوة هي المكان المتسع أي: أنهم في وسط الكهف. وللمفسرين في تأويل هذه

الآية اتجاهان لخصهما الإمام الرازي أولهما: أن باب الكهف متوجها نحو الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف وإذا غربت كانت على شماله، فضوءها ما كان ليصل إلى داخل الكهف، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل. والثاني: المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله تعالى ضوءها من الوقوع عليهم، وكذا القول في حال غروبها، وكان ذلك فعلا خارقا للعادة، وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف ومع وجاهة الرأيين فإنني أميل إلى الرأي الثاني، لأن قوله تعالى: (**وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ**)، يشير إلى أنهم مع اتساع المكان الذي ينامون فيه – وهو الفجوة – لا تصيبهم الشمس لا عند الطلوع ولا عند الغروب وهذا أمر خارق للعادة يدل على عجيب حالهم. كما أن قوله تعالى (**ذلك مِنْ آيَاتِ الله**) يشعر بأن أمر هؤلاء الفتية فيه غرابة وليس أمراً عاديا مألوفا.

قال الآلوسي: وأكثر المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلا وإن اختلفوا في منشأ ذلك. واختار جمع منهم أنه لمحض حجب الله تعالى الشمس على خلاف ما جرت به العادة والإشارة تؤيد ذلك أتم تأييد، والاستبعاد مما لا يلتفت إليه لا سيما فيما نحن فيه، فإن شأن أصحاب الكهف كله على خلاف العادة. وعلى الرأي الثاني يكون معنى اسم الإشارة في قوله ذلك مِنْ آيَاتِ الله: أن الذي فعلناه معهم هو من آياتنا الدالة على قدرتنا الباهرة وإرادتنا التي لا يعجزها شئ. وأما على الرأي الأول فيكون اسم الإشارة مرجعه إلى ما سبق من الحديث عنهم، كهدايتهم إلى التوحيد، وإخراجهم من بين عبدة الأوثان، ولجوئهم إلى الكهف، وجعل باب الكهف على تلك الكيفية، إلى غير ذلك مما ذكر سبحانه عنهم، أي كل الذي

ذكرناه عنهم هو من آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته. ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي: من يهده الله إلى طريق الحق ويوفقه إلى الصواب فهو المهتد الفائز بالحظ الأوفر في الدارين، ومن يضلله عن الطريق المستقيم فلن تجد له – يا محمد – نصيرا ينصره ومرشدا يرشده إلى طريق الحق، كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. وكذلك قوله: ﴿وَمَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾.

ثُمَّ صُوَّرَ سُبحانَه بعدَ ذلك مَشهداً عَجيباً من أحوالِ هؤلاءِ الفِتيةِ فقالَ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ والحُسْبانُ بمعنى الظَّنِّ، والأيقاظُ جَمْعُ يَقِظٍ وهُو ضِدُّ النائمِ، والرُّقودُ جَمعُ راقدٍ والمُرادُ به هُنا النائمُ؛ أيّ: وتَظُنُّهُمْ – أيُّها المُخاطَبُ لو قُدِّرَ لكَ أنْ تَراهُمْ – أيقاظًا مُنتَبِهينَ، والحالُ أنَّهُم نِيامٌ. وسببُ هذا الظَّنِّ والحُسْبانِ أنَّ عُيونَهُم كانتْ مَفتوحةً، وأنَّهُم كانُوا يتقلَّبُونَ مِن جهةٍ إلى جهةٍ كما قالَ اللهُ تعالى بعدَ ذلك: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أيّ: ونُحَرِّكُهُم وَهُمْ رُقودٌ إلى الجِهَةِ التي تلِي أيمانَهُم، وإلى الجِهَةِ التي تلِي شَمائِلَهُم؛ رِعايةً مِنّا لأجْسامِهم حتّى لا تأكُلَ الأرضُ شيئًا منها؛ بِسَبَبِ طُولِ رُقادِهِم. وعددُ مرَّاتِ هذا التقليبِ لا يَعلَمُه إلاّ اللهُ تعالى، وما أوردَهُ المُفَسِّرونَ في ذلكَ لم يَثبُتْ عن طريقِ النقلِ الصَّحيحِ.

ثُـمَّ بـيَّنَ سُبحانَه حالةَ كلبِهم فقالَ: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ المُرادُ بِالوَصيدِ هو فِناءُ الكَهْفِ قريبًا من البابِ، أو هُو البابُ نفْسُه؛ أيّ: وكلبُهُم الذي كان مَعهُم مَدَّ ذِراعَيهِ ببابِ الكهفِ؛ حتَّى كأنَّه يَحرُسهُم ويمنعُ الوُصولَ إليهِم. وما ذَكرَهُ بعضُ المُفسِّرينَ عن اسمِ الكلبِ وصِفاتِه لم نهتَمَّ بِذِكْرِه لِعَدَمِ فائدتِه.

ثـمَّ ختمَ سُبحانَه الآيةَ بِقَولِه: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أيّ: لو عاينْتَهُم وشاهَدتَهُم – أيُّها المُخاطَبُ – لأعْرَضْتَ بِوجْهِكَ عنهُم مِن هَولِ ما رأيتَ، ولَمُلِئَ قلبُكَ خوفًا ورُعبًا مِن مَنظَرِهِم. ثُمَّ حكَى سُبحانَه وتعالى عن حالِ هؤلاءِ الفِتيةِ بعدَ أن أعادَ إليهِم الحياةَ فذكَرَ بعضَ أقوالِهم فيما بينَهُم فقالَ: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ بيانٌ للعلَّةِ التي مِن أجلِها بُعِثَ أصحابُ الكهفِ من نومِهِم الطويلِ؛ أيّ: وكَما أنمناهُمْ تِلكَ المُدَّةَ الطويلةَ بَعثناهُم مِن نَومِهم؛ لِيسألَ بعضُهم بعضًا وكأنَّهُم قد أحسُّوا أنَّ نومَهُم قد طالَ. والاقتصارُ على التساؤلِ الذي حصلَ الإيقاظُ مِن أجلِه لا ينفِي أن يكونَ هناكَ أسبابٌ أُخْرى غيرَه؛ وإنّما أفردَه سُبحانَه وتعالى بِالذِّكْرِ لاستتباعِه لِسائرِ الآثارِ الأُخْرى.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أيّ: كَمْ مَكثْتُمْ مُسْتَغْرِقينَ في النومِ في هذا الكهفِ؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا﴾ لِظنِّهِم أنّ الشمسَ قد غَربَتْ؛ فلمّا رأَوها لَمْ تَغرُبْ بعدُ قالُوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أيّ: مَكَثْنا نائمينَ بعضَ ساعاتِ اليومِ. ويصحُّ أن تكونَ أو لِلشَّكِ بمعنى: لا نَدري على الحقيقةِ كَمْ مَكَثْنا نائمينَ.

(قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) أيّ: ربُّكُمْ وحدَهُ هو العليمُ بمِقْدارِ الزمنِ الذي قَضيتُمُوهُ نائِمينَ في هذا الكهفِ. قال الآلوسيُّ: وهذا ردٌّ منهُم على الأوَّلينَ على أحسنِ ما يكونُ من مُراعاةِ حُسْنِ الأدبِ. وقال بعضُهم: استدلَّ ابنُ عبَّاسٍ بهذهِ الآيةِ على أنَّ عددَ الفتيةِ سَبْعَةٌ؛ لأنَّه قال: قال قائلٌ منهُم، وهذا واحِدٌ. وقالُوا في جوابِه: **(لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ" وهُو جَمْعٌ وأقلُّه ثلاثةٌ)**. ثُمَّ قالُوا: **(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ)**، وهذا قولُ جمعٍ آخَر فَصاروا سَبْعةً.

(فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ) أيّ: كُفُّوا عن الحديثِ في المُدَّةِ التي لَبِثْتُمُوها فَعِلْمُها عِندَ اللهِ، وابْعَثُوا أحَدَكُمْ بِدراهِمِكُم الفِضِّيَّةِ هذه **(إِلَى الْمَدِينَةِ)** وهيَ أقربُ مكانٍ إلى الكهفِ، وقيلَ: بلْ هيَ مَدينَتهُم التي كانُوا فيها **(فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَى طَعَامًا)** أيّ: متى وصلَ إلى المدينةِ فليتفقَّدْ أسواقَها ولْيَتخَيَّرْ أيَّ أطعِمَتِها أحلُّ وأطهرُ وأجْودُ وأكثرُ بركةً. **(فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ)** أيّ: فَلْيأتِكُمْ بما يَسدُّ جُوعَكُمْ من ذلكَ الأزكى طعامًا؛ فيكونُ الضميرُ في "منه "للطَّعامِ الأزكَى، ويصحُّ أن يكونَ للدراهِمِ المَضرُوبةِ المُعبَّرِ عنها بِوَرِقِكُم، أيّ: فليأتِكُم بَدلاً منها بِطعامٍ تأكُلونَه

(وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) أيّ: ولْيَتَكلَّفِ اللطفَ في الاستِخفاءِ والدِّقَّةِ حالَ دُخولِه وخُروجِه من المدينةِ؛ حتّى لا يَعرِفَهُ أحدٌ من أهلِها.

(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ) تعليلٌ للأمْرِ والنهي السابقَين. وظَهَرَ أيّ: صارَ على ظَهرِ الأرضِ. ولمّا كان ما عليها مُشاهداً مُتمكِّناً منهُ استعملَ تارةً في الاطلاعِ، وتارةً في الظَّفَرِ والغَلَبَةِ. ويَرْجُمُوكُمْ أيّ: إنْ يَعْرِفُوا مكانَكُم يَرجُمُوكُمْ بالحِجارةِ؛ حتّى تموتُوا أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ الباطلةِ التي نجَّاكُمُ اللهُ تعالى منها.

(وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا) أيّ: إنْ عُدْتمْ إليها بعدَ أنّ نجَّاكُم اللهُ تعالى منها وعَصَمَكُمُ من إتِّباعِها؛ فلَنْ تُفْلِحُوا أبداً لا في الدُّنيا ولا في الآخِرَة. وهاتانِ الآيتانِ تُصوِّرانِ بأسلوبٍ مُؤثِّرٍ بليغٍ حالَ الفِتيةِ وهُمْ يَتناجَونَ فيما بينَهُم بعدَ أنْ استيقَظُوا من رُقادِهِم الطويلِ وتَركُوا الحديثَ عن المُدَّةِ التي لَبِثُوها في نَومِهم، نَراهُمْ حَذِرينَ خائِفينَ لا يَدرُونَ أنّ الأعوامَ قد كرَّتْ، وأنّ عَجَلَةَ الزَّمَنِ قد دارتْ، وأنّ أجيالاً قد تعاقبَتْ، وأن مَدينتَهُم التي يَعرِفُونَها قد تغيَّرتْ معالِمُها، وأنّ أعداءهُم الكافِرينَ قد زالتْ دَولتُهُم.

ثمَّ تمضي الآياتُ الكريمةُ تُحدِّثُنا عن مَشهَدٍ آخرَ من أحوالِ هؤلاءِ الفِتيةِ تتجلَّى فيهِ قُدرَةُ اللهِ تعالى وحِكمَتُه (وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا) بيانٌ لِلحِكْمَةِ التي من أجْلِها أطلعَ اللهُ تعالى الناسَ على هؤلاءِ الفِتيةِ.

قال الآلوسيُّ ما مُلخَّصُه: وأصلُ العُثورِ هو السُّقوطُ لِلوجْهِ، ثُمَّ تُجُوِّزَ بهِ في الاطلاعِ على أمرٍ من غَيرِ طَلَبِه. وقيلَ: لمّا كان كُلُّ عاثِرٍ ينظُرُ إلى مَوضعِ عَثْرَتِه جاءَ العُثورُ بمعنى الاطلاعِ والعِرفانِ؛ فهُو في ذلكَ مجازٌ مشهورٌ بعلاقةِ السببيَّةِ. والمَعنى: وكما

أنمناهُمْ تلكَ المُدَّةِ الطويلةِ، وبَعثْناهُم هذا البعثَ الخاصَّ، أطلَعْنا الناسَ عليهِم؛ لِيَعْلَمُوا عن طريقِ المُعايَنةِ والمُشاهَدةِ **(أَنَّوَعْدَالله)** بِالبَعثِ **(حَقّ)** أيّ: صِدقٌ **(وأنَّالسَّاعةَ)** أيّ: القِيامةَ آتيةٌ **(لارَيْبَفِيها)** ولا شَكَّ في حُصولِها فإنّ مَن شاهدَ أصحابَ الكهفِ وعَرفَ أحوالَهُم أيقنَ بأنَّ مَن كان قادِرًا على إنامَتِهم تلكَ المُدَّةِ الطويلةِ وبَعثِهم بعدَ ذلكَ قادرٌ على إعادةِ الحياةِ إلى المَوتى وبعثِهم يومَ القيامةِ للحسابِ والجَزاء. وقد ذَكَرُوا في كيفيّةِ اطِّلاعِ الناسِ عليهِم رِواياتٌ مُلخَّصُها: أنّ الذي أرْسَلُوهُ بِالدَّراهِم إلى السُّوقِ لِيشتريَ لهُم طعامًا لّما وصلَ إلى سُوقِ المدينةِ عَمدَ إلى رَجُلٍ ممَّن يبيعُ الطعامَ، دَفَعَ إليهِ ما مَعهُ مِن نُقودٍ ليأخُذَ مُقابِلَها طعامًا؛ فلمّا رأى البائعُ النقودَ أنكَرَها – لِكَونِها منذُ زمنٍ بعيدٍ – وأخذَ يُطلِعُ عليها بَقيّةَ التُّجَّارِ فقالُوا لهُ: أينَ وجَدتَ هذه الدَّراهِمَ؟ فقالَ لهُم: بِعتُ بها أمسِ شيئًا مِن التمْرِ، وأنا مِن أهلِ هذه المدينةِ، وقد خَرَجْتُ أنا وزُملائي إلى الكهفِ خوفًا من إيذاءِ المُشرِكينَ لنا، فأخَذُوهُ إلى مَلِكِهِم فَقَصَّ عليه قِصَّتَه. فَسُرَّ المَلِكُ به، وذَهبَ مَعهُ إلى الكهفِ؛ لِيَرَى بقيَّةَ زملائِه فلمّا رآهُمْ سلَّمَ عليهِم، ثمَّ أماتَهُم اللهُ تعالى. ثمَّ بيَّنَ سُبحانَه وتعالى ما كان مِن أمرِهم بعدَ وفاتِهم واختلافِ الناسِ في شأنِهم فقالَ: **(إِذْيَتَنَازَعُونَبَيْنَهُمْأَمْرَهُمْ)** والظرفُ "إذ" متعلِّقٌ بمَحذوفٍ تقديرُه اذْكُرْ، والتنازعُ بمعنى التخاصُمِ والاختِلاف، والضميرُ في "أمرِهم" يعودُ إلى الفِتنةِ.

المعنى: لقد قَصصْنا عليكَ – أيُّها الرَّسولُ الكريمُ – قِصَّةَ هؤلاءِ الفتيةِ، وبيَّنا لك أحوالَهُم عندَ (رُقادِهم، وبعدَ بعثِهم مِن نومِهم، وبعدَ الإعثارِ عليهم)، وكيف أنّ

الذينَ عثرُوا عليهِم صاروا يتنازَعونَ في شأنِهم؛ فمِنهُم من يقولُ: إنَّهُم وَجدُوا في زمنِ كذا، ومنهُم مَن يقولُ: إنَّهم مكثُوا في كهفِهم كذا سَنةٍ، ومِنهم مَن يقولُ: نبني حولهِم بُنيانًا صِفتَهُ كذا. ويجوزُ أن يكونَ الضميرُ في أمرِهم عائدٌ إلى الذينَ أطلعَهُم اللهُ على الفِتية فيكونُ المعنى: اذكُرْ وقتَ تنازُعِ هؤلاءِ الذينَ عَثرُوا على الفِتية وتخاصُمِهم فيما بينَهُم؛ حيث إنّ بعضَهُم كان مؤمِنًا وبعضَهُم كان كافِرًا، وبعضَهُم كان يُؤمِنُ بِبَعْثِ الأرواحِ والأجسادِ، وبعضَهُم كان يؤمِنُ بِبعْثِ الأجسادِ فحسب.

(فَقَالُواْ ابنوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا) تفسيرٌ للمتنازَعِ فيه؛ فقال بعضُهم: ابنُوا على بابِ كهفِهم بنيانًا حتّى لا يصلَ الناسُ إليهِم ونَصونَهُم مِن الأذى.

(رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) يحتملُ أنَّه كلامُ طائفةٍ مِن المُتنازِعينَ في شأنِهم وقد قالُوه لِيقْطَعُوا النِّزاعَ ويُفوِّضُوا أمرَهُم إلى اللهِ تعالى. ويحتمل أن يكونَ مِن كلامِ اللهِ تعالى ردًّا للخائِضينَ في شأنِهم أيّ: اُترُكوا أيُّها المُتنازِعونَ ما أنتُم فيهِ من تنازعٍ؛ فإنِّي أعلمُ منكُم بحالِهم.

(قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا) قال الذينَ أعثرَهُم اللهُ على أصحابِ الكهفِ ابْنُوا على هؤلاءِ الفِتيةِ بُنيانًا يَستُرُهُم. وقال أصحابُ الكلمةِ النافذةِ والرأي المُطاعِ لَنَتَّخِذَنَّ على هؤلاءِ الفتيةِ مَعبدًا تبرُّكًا بِهم. قال الآلوسيُّ: واسْتُدلَ بالآيةِ على جوازِ البناءِ على قُبورِ الصُلحاءِ واتِّخاذِ مَسجدٍ عليها وجَوازِ الصلاةِ في ذلك. وممَّن ذَكَرَ ذلك الشهابُ الخفاجيُّ في حواشيهِ على البيضاويِّ.

وهو قولٌ باطل عاطل فاسدٌ كاسدٌ؛ فقَد روى أحمدُ وأبو داودَ والتِّرمذيُّ والنَّسائيُّ وابنُ ماجهْ عن ابنِ عبَّاسٍ أنّه قال: قالَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ: "لَعَنَ اللهُ زائِراتِ القُبورِ والمُتَّخِذينَ عليها المَساجِدَ والسُّرُجَ".[1] ورَوى الشيخانِ عن أبي هُريرةَ أنّ رسولَ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** قال: " لَعَنَ اللهُ اليهودُ والنَّصارى اتَّخَذُوا قُبورَ أنبيائِهِم مساجدَ"[2]. **(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ)** الضميرُ في سيَقُولُونَ وفي الفِعلينِ بعدَه يعودُ لِلخائِضينَ في قِصّةِ أصحابِ الكهفِ وعَددِهم على عهدِ النبيِّ **صلى الله عليه وسلم** قال الجمل: أتى بالسِّينِ؛ لأنّ في الكلامِ طيًّا وإدماجًا؛ تقديرُه: إذا أجبْتَهُم عن سؤالِهم عن قصَّةِ أصحابِ الكهفِ فَسَلْهُم عن عَددَهِم؛ فإنَّهم سيقولونَ ثلاثةٌ. ولم يأتِ بها في بقيَّةِ الأفعالِ؛ لأنَّها معطوفةٌ على ما فيهِ السينُ فأُعْطِيتْ حُكْمَهُ مِن الاستقبالِ.

(رَجْمًا بِالْغَيْبِ) ردٌّ على القائِلينَ بأنَّهُم "ثلاثةٌ رابِعُهُم كَلْبُهُم"، وعلى القائِلينَ بأنَّهُم "خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُم". وأصلُ الرَّجْمِ هو الرَّميُ بِالحِجارَةِ، والمُرادُ بهِ هُنا: القولُ بالظَّنِّ والحَدْسِ والتخمينِ دونَ دليلٍ أو بُرهانٍ.

(وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) وهُمُ المُؤمِنونَ. قال الآلوسيُّ: الجملةُ الواقعةُ بعدَ العددِ في قولِه تعالى: **(وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ)** في موضِعِ الصِّفَةِ لَه، والواو الداخلةُ على الجملةِ صفةٌ للنَّكِرَة، كما تدخلُ حالاً عن المَعرفةِ كما في قولِه

[1] مسند أحمد (١٩٢٦)، سنن أبي داوود (٢٨١٧)، سنن الترمذي (٢٩٤).
[2] صحيح البخاري: كتاب الجنائز (١٣٣٠)/ صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة (١٩).

تعالى: وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ. وفائِدتَها توكيدُ لُصوقِ الصِّفةِ بِالمَوصوفِ، والدلالةُ على أنّ اتِّصافَه بها أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ. أيّ: أنّ الذي قالُوهُ هو عنْ عِلْمٍ؛ وليسَ رَجْمًا بِالظَّنِّ كما رَجَمَ غَيرُهُم، فهُو الحقُّ دونَ القولَينِ الأوَّلَينِ. ثمَّ أمرَ اللهُ تعالى النبيَّ **صلى الله عليه وسلم** أن يُخبِرَ الخائِضينَ بما يقطعُ التنازعَ الذي دارَ بينَهُم فقالَ: **(قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)** أيّ: أنّ عِلْمَ ربِّي بِهِم هو عِلْمٌ تفصيليٌّ يقينيٌّ. ثمَّ أثبتَ سُبحانَه عِلْمَ عَددَهِم لقليلٍ من الناسِ فقال: **(مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ)** ولا تعارُضَ بين هذه الآيةِ وبين سابِقَتِها؛ لأنّ عِلْمَ هذا العددِ لِقليلٍ مِن الناسِ نابعٌ مِن إعلامِ اللهِ تعالى لهُم عن طريقِ الوحي كـ- الرَّسولِ **صلى الله عليه وسلم** أو مَن يُطلِعُه الرَّسولُ على عِدَّتِهم. قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: أنا مِن أولئكَ القليلِ؛ كانوا سَبْعَةً، ثُمَّ ذَكَرَ أسماءهُم. ثمَّ نَهى اللهُ تعالى رسولَه **صلى الله عليه وسلم** عن الجِدالِ المُتعمِّقِ في شأنِهم، كما نهاهُ عن استفتاءِ أحدٍ في أمرِهم فقال: **(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا)**. والمِراءُ: هو الجِدالُ والمُحاجّةُ فيما فيه تردُّدٌ والاستِفتاء: طلبِ الفُتيا من الآخَر. والفاءُ في قولِه فَلا تُمارِ للتفريعِ. أيّ: إذا كان الشأنُ كما أخبرْناكَ فلا تُجادِلْ في أمرِهم أحداً من الخائِضينَ فيه إلاّ جِدالاً واضحًا لا يتجاوزُ حدودَ ما قصَصناهُ عليكَ، ولا تطلُب الفُتيا في شأنِهم مِن أحدٍ؛ لأنَّ ما قَصصْناهُ عليكَ مِن خَبرِهم يُغنيكَ عن السُّؤالِ وطلبِ الإيضاحِ من أهلِ الكتابِ أو مِن غَيرِهم.

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ) المُرادُ بالغَدِ ما يستقبلُ من الزمانِ، ويدخلُ فيه اليومُ الذي يلي اليومَ الذي أنتَ فيهِ، وعبَّر عمَّا يُستقبَلُ من الزمانِ ب– "الغَدِ" للتأكيدِ؛ أيّ: ولا تَقولَنّ – أيُّها الرسولُ الكريمُ – لِشيءٍ تَعزِمُ على فِعلِه في المستقبلِ إني فاعِلُه غداً إلاّ وأنتَ مُقرِنٌ قولكَ هذا بمَشيئةِ اللهِ تعالى وإذنِه؛ فإنّ كلَّ حركةٍ مرهُونةٌ بمَشيئةِ اللهِ وإرادتِه، وما يتعلَّقُ بالمستقبلِ هو في عِلْمِ اللهِ تعالى وحدَه. وليس المقصودُ من الآيةِ الكريمةِ نهى الإِنسانَ عن التفكيرِ في أمرِ مستقبلِه؛ وإنّما المقصودُ نهيهُ عن الجَزْمِ بما سيقعُ في المستقبلِ. والعاقلُ هو الذي يُباشِرُ الأسبابَ التي شرعَها اللهُ تعالى – سواءٌ كانت تتعلَّقُ ب– (الماضي أو الحاضِرِ أو المستقبَلِ).

(وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) أيّ: واذكُرْ رَبَّكَ سُبحانَه وتعالى إذا نَسيتَ تعليقُ القولِ بالمَشيئةِ وأتِ بها عندَ تَذكُرِكَ. قال الآلوسيُّ: قولُه "وَاذْكُرْ رَبَّكَ" أيّ: مَشيئةَ رَبِّكَ؛ فالكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ "إذا نَسِيتَ"؛ أيّ: إذا فرطَ مِنكَ نِسيانُ ذلكَ ثمَّ تَذكَّرْتَه. فهُو أمرٌ بالتداركِ عندَ التذكُّرِ. وللمُفسِّرينَ في ذلك قولانِ؛ الأوَّل: أنّ هذه الجملةِ مُرتبِطةٌ ومتعلِّقةٌ بما قبلَها. والمعنى: إنّكَ إنْ قلتَ سأفعَلُ غداً كذا ونَسيتَ أنْ تقولَ إنْ شاءَ اللهِ، ثُمَّ تذكَّرْتُ بعدَ ذلكَ فقُلْ "إنْ شاءَ اللهُ". وهذا القولُ هو الظاهِرُ وهو قولُ الجُمهورِ. الثاني: أنّ هذه الجملةَ لا تعلُّقَ لها بما قبلَها، والمعنى: إذا وَقَعَ مِنكَ النِّسيانُ لِشيءٍ فاذْكُرْ ربَّكَ؛ لأنّ النِّسيانَ مِن الشيطانِ كما قال فتَى مُوسى عليه السلامُ: (وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ..) وعلى هذا القولِ يكونُ المرادُ بالذِّكْرِ هو التسبيحُ والاستِغفار.

ثمَّ ختمَ سُبحانَه وتعالى الآيةَ الكريمةَ بِقَولِه ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أيّ: عَسَى أن يُوفِّقَنِي ربِّي ويَهدِيني ويَدُلَّنِي على ما هُو أقربُ في الهدايةِ والإرشادِ من هذا الذي قَصصْتُه عليكُم من أمرِ أصحابِ الكهفِ.

قال صاحبُ الكشَّافِ: هذا... اسمُ الإشارةِ يعودُ إلى نبأِ أصحابِ الكهفِ، ومعناهُ: لعلَّ اللّهَ يُؤتيني من البيِّناتِ والحُجَجِ على أنّي نبيٌّ صادقٌ ما هو أعظمُ في الدلالةِ وأقربُ رَشداً من نبأِ أصحابِ الكهفِ.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أيّ: أنّ أصحابَ الكهفِ مَكثُوا في كهْفِهم راقِدينَ ثلاثمائةٍ سِنينَ، وازدادُوا فوقَ ذلك تِسْعَ سِنينَ؛ فالآيةُ الكريمةُ إخبارٌ مِن اللّهِ سُبحانَه عن المُدَّةِ التي لبثَها هؤلاءِ الفِتيةُ مَضرُوباً على آذانِهم.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ تقريرٌ وتأكيدٌ لِكونِ المُدَّةِ التي لَبِثُوها هي ما سَبَقَ بيانُه في الآيةِ السابقةِ وهذا هو فَصْلُ الخِطابِ وهو الحقُ الذي لا شكَّ فيه.

ويرى بعضُهم أنّ قولَه تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ هو كلامُ أهلِ الكتابِ، وأنّ قولَه: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ هو لِلردِّ عليهِم.

وقولُه تعالى ﴿لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض﴾ تأكيدٌ لاختِصاصِه عزَّ وجلَّ بعِلْمِ المُدَّةِ التي لَبِثُوها؛ فلَهُ وَحدَهُ عِلْمُ ما خَفِيَ وغابَ من أحوالِ السمواتِ والأرضِ وأحوالِ أهلِهما، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

وقولُه سُبحانَه ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ صِيغتا تعجُّبٍ: أيّ ما أبْصَرَهُ وما أسْمَعَهُ فلا

يَغيبُ عن بَصَرِه وسَمْعِه شيءٌ. وجاءتْ هذه الآيةُ بصيغةِ التعجُّبِ للدلالةِ على أنّ أمرَه تعالى في الإدراكِ خارجٌ عمّا عليه إدراكُ المُبْصِرينَ والسّامِعينَ.

﴿مَالَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أيّ: ليسَ لأهلِ السمواتِ ولا لأهلِ الأرضِ ولا لِغَيرِهما غيرُ اللهِ تعالى نَصيرٌ يَنْصرُهُم أو وليٌّ يلي أمرَهُم. ولا يُشْرِكُ سُبحانَه وتعالى في حُكْمِه أو قضائِه أحداً كائِنًا مَن كانَ مِن خَلْقِه. كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

التفسير الميسر

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أيّ: لا تَظُنُّ أيُها الرسولُ أنّ قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ واللوحِ الذي كُتِبَتْ فيه أسماؤهُم مِن آياتِنا عجيبةً وغريبةً؛ فإنّ خَلْقَ السمواتِ والأرضِ وما فيهما أعجبُ مِن ذلكَ.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ واذكُرْ أيُّها الرسولُ حين لجأَ الشُّبَّانُ المُؤمنونَ إلى الكهفِ خشيةً مِن فتنةِ قومِهم لهُم وإرغامِهم على عبادةِ الأصنامِ؛ فقالُوا ربَّنا أعطِنا مِن عِندكَ رَحمةً تُثبِّتُنا بِها وتحفظُنا مِن الشَّرِّ، ويَسِّرْ لنا الطريقَ الصَّوابَ الذي يُوصِلُنا إلى العملِ الذي تُحِبُّ فنكونَ راشِدينَ غيرَ ضالِّينَ.

---

١) الوسيط لمُحمَّد سيِّد طِنطاويّ (ج٨/ ص٤٧٣- ٥٠٢).

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ فألقَينا عليهِم النومَ العميقَ؛ فَبَقُوا في الكهفِ سِنينَ كثيرةً.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ثمَّ أيقظناهُم مِن نومِهم لِنُظْهِرَ لِلناسِ ما عَلِمْناهُ في الأزلِ؛ فتتميَّزَ أيُّ الطائفَتَينِ المُتنازِعتَينِ في مُدَّةِ لُبْثِهم أضبطَ في الإحصاءِ، وهل لَبِثُوا يومًا أو بعضَ يومٍ أو مُدَّةً طويلةً؟

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ نحنُ نَقصُّ عليكَ أيُّها الرسولُ خبرَهُم بالصِّدقِ. إنّ أصحابَ الكهفِ شُبَّان صدَّقوا ربَّهُم وامتثلُوا أمْرَه، وزِدْناهُم هُدىً وثباتًا على الحقِّ.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ وقَوَّينا قلوبَهُم بالإيمانِ، وشَدَدْنا عزيمَتَهُم به حين قامُوا بين يدَي المَلِكِ الكافرِ وهو يَلُومُهُم على تَرْكِ عبادةِ الأصنامِ فقالُوا لهُ: ربُّنا الذي نَعبُدُهُ هو ربُّ السمواتِ والأرضِ، لنْ نَعبُدَ غيرَه مِن الآلهةِ، لو قُلْنا غَيرَ هذا لَكُنَّا قَد قُلْنا قولاً جائرًا بعيدًا عن الحقِّ.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ثمَّ قال بعضُهم لبعضٍ: هؤلاءِ قومُنا اتَّخَذُوا لهُم آلهةً غيرَ اللهِ، فهلَّا أتَوْا على عِبادتهِم لها بدَليلٍ واضحٍ؛ فلا أحدَ أشدَّ ظُلمًا مِمَّنْ اختلَقَ على اللهِ الكذبَ بنسبةِ الشريكِ إليه في عِبادَتِه.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ وحين فارقتُم قومَكُم بدينِكُم، وتركْتُم ما يَعبُدونَ من الآلهةِ إلاّ عبادةَ اللهِ؛ فالْجَؤُوا إلى الكهفِ في الجبلِ لعبادَةِ ربِّكُمْ وَحدَهُ، يَبْسطْ لكُم رَبُّكُمْ من رَحمَتِه ما يَسْتُركُمْ به في الدَّارَين، ويُسهِّلْ لكُم من أمْركُم ما تنتَفِعُونَ به في حياتِكُم من أسبابِ العيشِ.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ فلمّا فعلُوا ذلك ألقَى اللهُ عليهِمُ النومَ وحَفِظَهُم. وترى – أيُّها المُشاهِدُ الكريمُ – لهُم الشمسَ إذا طلَعَتْ من المَشرقِ تميلُ عن مكانِهم إلى جهةِ اليمينِ، وإذا غَرَبَتْ تَتْرُكُهُم إلى جهةِ الشمالِ، وهُمْ في مُتَّسَعٍ من الكهفِ؛ فلا تُؤذِيهم حرارةُ الشمسِ، ولا ينقطعُ عنهُم الهواءُ؛ ذلك الذي فعلْناهُ بهؤلاءِ الفتيَةِ من دلائلِ قُدرَةِ اللهِ تعالى مِن يُوفِّقُه اللهُ للاهتداءِ بآياتِه؛ فهُو المُوفَّقُ إلى الحقِّ، ومَن لمْ يُوفِّقْهُ لذلكَ فلنْ تجِدَ لهُ مُعينًا يُرشِدُه لإصابةِ الحقِّ؛ لأنّ التوفيقَ والخِذْلانَ بيَدِ اللهِ وَحدَهُ.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ وتظنُّ – أيُّها الناظِرُ – أهلَ الكهفِ أيقاظًا، وهُمْ في الواقعِ نيامٌ، ونتعهَّدُهُم بالرِّعايةِ،

فنُقَلِّبُهُم حالَ نَومِهم مَرَّةً لِلجَنْبِ الأيمنِ، ومرَّةً للجَنْبِ الأيسرِ؛ لِئلَّا تأكُلَهُم الأرضُ، وكلبُهُم الذي صاحَبَهُم مادٌّ ذِراعَيهِ بفِناءِ الكهفِ، لو عاينتَهم لأدبَرْتَ عنهُم هارِبًا، ولَمُلِئَتْ نفْسُكَ منهُم فَزَعًا.

(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) وكما أنمناهُم وحفِظْناهُم هذه المُدَّةَ الطويلةَ أيقظْناهُم مِن نومِهم على هَيئتِهم دونَ تغيُّرٍ؛ لِكي يسألَ بعضُهم بَعضًا: كمْ مِن الوقتِ مَكثْنا نائمينَ هُنا؟ فقال بعضُهم (مَكَثْنا يومًا أو بعضَ يومٍ)، وقالَ آخَرونَ التبسَ عليهِم الأمرُ فَوَّضُوا عِلْمَ ذلكَ للهِ فَرَبُّكُمْ أعلمُ بالوقتِ الذي مَكَثْتُمُوهُ؛ فأرسِلُوا أحدَكُم بِنُقودِكم الفِضِّيَّةِ هذه إلى مدينتِنا فَلْيَنْظُرْ أيَّ أهلِ المدينةِ أحلُّ وأطيَّبُ طعامًا فليأتِكُمْ بِقُوتٍ منهُ، ولْيَتَلَطَّفْ في شرائِه مع البائعِ؛ حتّى لا نَنْكَشِفَ ويَظهَرَ أمرُنا، ولا يُعْلِمَنَّ بِكُم أحداً من الناسِ.

(إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا) إنّ قومَكُمْ إنْ يَطَّلِعُوا عليكُم يَرجُموكُم بالحجارَةِ فيَقْتُلوكُم أو يَرُدُّوكُم إلى دِينِهم فتَصيرُوا كفّارًا، ولن تَفُوزوا بِمَطلَبِكُم مِن دُخولِ الجنَّةِ إنْ فَعلْتُم ذلكَ أبداً.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ وكما أنمْناهُم سِنينَ كثيرةً وأيقظْناهُم بعدَها أطْلَعنا عليهِم أهلَ ذلك الزمانِ، بعدَ أن كَشَفَ البائعُ نوعَ الدَّراهِم التي جاء بها مَبعُوثُهم؛ لِيعْلَمَ الناسُ أنَّ وَعْدَ اللهِ بالبعثِ حقٌّ، وأنّ القيامةَ آتيةٌ لا شكَّ فيها إذ يتنازعُ المُطَّلِعُونَ على أصحابِ الكهفِ في أمرِ القيامةِ؛ فمِنْ مُثْبِتٍ لها ومِن مُنْكِرٍ؛ فجَعلَ اللهُ اطْلاعَهُم على أصحابِ الكهفِ حُجَّةً للمُؤمِنينَ على الكافِرينَ. وبعدَ أن انكشَفَ أمرُهُم وماتُوا، قال فريقٌ من المُطَّلِعينَ عليهِم: ابْنُوا على بابِ الكهفِ بناءً يَحجُبُهم واتْرُكُوهُم وشأنَهُم رَبُّهُم أعلَمُ بِحالِهِم، وقال أصحابُ الكلمةِ والنفوذِ فيهِم لَنَتَّخِذَنَّ على مكانِهم مَسجِداً للعبادةِ. وقد نهَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن اتِّخاذِ قُبورِ الأنبياءِ والصالحِينَ مساجِدَ، ولَعَنَ مَن فَعَلَ ذلكَ في آخرِ وصاياهُ لأمَّتِه، كما أنّه نهَى عن البناءِ على القُبورِ مُطلَقًا وعن تَجْصيصِها والكتابةِ عليها؛ لأنّ ذلك مِن الغُلوِّ الذي قد يؤدِّي إلى عبادةِ مَن فيها.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ سيقولُ بعضُ الخائِضينَ في شأنِهم من أهلِ الكتابِ هُمْ ثلاثةٌ رابعُهُم كلبُهُم، ويقولُ فريقٌ آخرُ هُمْ خَمْسةٌ سادِسُهُم كلْبُهُم، وكلامُ الفريقَينِ قولٌ بالظَّنِّ مِن غيرِ دليلٍ، وتقولُ جماعةٌ ثالثةٌ هُمْ

سَبْعَةٌ وثامنُهُمْ كَلْبُهُم. قُلْ – أيُّها الرَّسولُ – ربِّي هُو الأعلَمُ بِعَددهِم، ما يعلَمُ عددَهُم إلاّ قليلٌ مِن خلقِه؛ فلا تجُادِلْ أهلَ الكتابِ في عَددِهِم إلاّ جِدالاً ظاهِرًا لا عُمْقَ فيه بأنْ تَقُصَّ عليهِم ما أخبركَ به الوحيُ فَحسْب، ولا تسألْهُم عن عَددهِم وأحوالِهم؛ فإنَّهُم لا يعلَمونَ ذلك.

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا. إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا) ولا تقولَنَّ لِشَيءٍ تعزِمُ على فعلِه إنّي فاعلٌ ذلك الشيءَ غَداً إلاّ أن تُعَلِّقَ قولَكَ بالمشيئةِ فتقولَ "إنْ شاءَ اللّٰهُ". واذْكُرْ رَبَّكَ عندَ النسيانِ بِقَولِ: "إنْ شاءَ اللّٰهُ"، وكلَّما نسيتَ فاذْكُرِ اللّٰهَ؛ فإنّ ذِكْرَ اللّٰهِ يُذهِبُ النسيانَ، وقُل: عَسَى أنْ يَهْدِيني ربِّي لأقْرَبِ الطُّرُقِ المُوصِلَةِ إلى الهُدى والرَّشادِ.

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) ومَكثَ الشُّبَّانُ نِيامًا في كهْفِهم ثلاثمائةِ سَنةٍ وتِسْعِ سِنينَ.

(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) وإذا سُئلتَ – أيُّها الرَّسولُ – عن مُدَّةِ لُبْثِهم في الكهفِ وليسَ عِندكَ عِلْمٌ في ذلكَ وتوقيفٌ مِن اللّٰهِ فلا تتقَدَّمْ فيه بشيءٍ؛ بل قُلِ اللّٰهُ أعلَمُ بِمُدَّةِ لبْثِهم، لهُ غَيبُ السمواتِ والأرضِ، أَبْصِرْ بِه وأسمِعْ أيّ: تَعجَّبْ مِن كمالِ بَصرِه وسَمْعِه وإحاطَتِه بِكلِّ شيءٍ. ليسَ للخَلْقِ أحدٌ غيرُه يتولَّى أمورَهُم، وليس له شريكٌ في حُكْمِه وقَضائه وتَشريعِه سُبحانَه وتعالى.

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) واتْلُ – أيُّها الرَّسولُ – ما أوحاهُ اللهُ إليكَ من القُرآنِ؛ فإنّه الكتابُ الذي لا مُبدِّلَ لِكلِماتِه لِصِدْقِها وعَدلِها، ولن تجِدَ مِن دونِ رَبِّكَ مَلجأً تلجأُ إليهِ ولا ملاذًا تلوذُ به.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) واصبِر نفْسَكَ – أيُّها النبيُّ – مع أصحابِكَ مِن فُقراءِ المُؤمِنينَ الذينَ يعبدونَ ربَّهُم وَحدَهُ، ويَدعُونَه في الصباحِ والمساءِ يُريدونَ بذلكَ وجْهَه، واجْلِسْ معَهُم وخالِطْهُم، ولا تَصرِف نظرَكَ عنهُم إلى غيرِهم من الكفَّارِ لإرادةِ التمتُّعِ بزينةِ الحياةِ الدنيا، ولا تُطِعْ مَن جعلْنا قلبَهُ غافلاً عن ذِكْرِنا وآثَرَ هواهُ على طاعةِ مولاهُ وصارَ أمرُه في أعمالِه كافَّةً ضَياعًا وهلاكًا.

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) وقُلْ لهؤلاءِ الغافلينَ ما جِئْتُكُمْ به هو الحقُّ من ربِّكُم؛ فمَن أراد منكُم أن يُصَدِّقَ ويعملَ به فَلْيَفْعَلْ فَهُو خيرٌ لهُ، ومَن أراد أن يَجْحَدَ فلْيَفْعَلْ؛ فما ظَلَمَ إلاّ نفْسَه. إنّا أعتدْنا للكافِرينَ نارًا شديدةً أحاط بهِم سُورُها، وإنْ يَسْتَغِثْ هؤلاءِ الكفَّارُ في النارِ بِطَلَبِ الماءِ مِن شِدَّةِ العَطشِ يُؤتَ لهُم بماءٍ كالزيتِ

العَكِرِ شديدِ الحرارةِ يَشوي وجوهَهُم. قَبُح هذا الشرابُ الذي لا يَروي ظمأهُمْ؛ بل يَزيدُه، وقَبُحَتْ النارُ مَنزلاً لهُم ومَقامًا. وفي هذا وعيدٌ وتهديدٌ شديدٌ لِمَن أعرضَ عن الحقّ؛ فلمْ يُؤمِنْ برسالةِ مُحمَّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ ولم يعملْ بمُقتَضاها(١).

حجج دامغة

ناقشَ الباحثُ الإسلاميُّ الشيخُ "عمْرو الشاعِرُ" الرأيَ القائلَ أنّ مُحمَّدًا أخذَ قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ من قصَّةِ "نُوام أَفْسُس"، أوْ "النُّيَّام السَّبْعة" كما هُو مشهورٌ في الأدبياتِ المَسيحيّة.

فما قِصَّةُ "نُوَّام أَفْسُس" وأيّهُما أُخِذَ مِن الآخَر؟

إنّ الناظِرَ في الأدبياتِ المَسيحيّة يَجِدُ أكثرَ مِن قصَّةٍ تُقدِّمُ المُحتوى نفْسَه مع اختلافٍ في التفاصيلِ؛ فهُناك رِوايةٌ لِلقِصَّةِ عند الأقباطِ، وروايةٌ عندَ الكلدانِ، وروايةٌ عند الرُّومِ الأرثوذكس، وروايةٌ عند السِّريانِ... إلخ.

وقد ظهرتْ هذه القصَّةُ في الأدبياتِ المسيحيّةِ لأوَّلِ مَرَّةٍ في القرنِ الخامسِ الميلاديِّ على يدِ القسّ "جِيمس السَّارُوجيّ" مُلَخَّصُها: أنّ الإمبراطورَ الرُّومانيَّ "داكيوس" كان يَضطَهِدُ المَسيحيِّينَ ويَسُومُهُم سُوءَ العذابِ؛ فهَربَ سبعةُ شُبّانٍ مِن أبناءِ مدينةِ "أَفْسُس" واختبَئوا في كهفٍ قريبٍ مِن تلكَ المدينةِ فسُدَّ عليهِم الكهفُ لِيَمُوتُوا، فنامُوا قَرابةَ مائتي عامٍ، وخرجُوا منهُ في زمانِ المَلكِ "ثيودوسيوس" الثاني؛ لِيَجِدُوا أنّ المسيحيةَ قد انتشرَت انتِشارًا عظيمًا فعَجِبُوا لذلكَ؛ لأنَّهُم لمّا نامُوا كان الناسُ

١) التفسير الميسر: نخبة من أساتذة التفسير (ج١/ ص٢٩٤- ٢٩٧).

يَعتبِرُونَ الصليبَ علامةَ احتقارٍ وعارٍ، ولما استيقَظُوا رأوا أنّ رعايا المَملَكةِ الرومانيةِ كافَّةً قد دانُوا بالمسيحيةِ.

ولِلقِصَّةِ تفاصيلُ أُخرى يَعرِفُها المسلمونَ والمسيحيونَ على حدٍّ سواءٍ؛ لأنّ المُفسِّرينَ قدَّمُوا هذه القِصَّةَ كتفسيرٍ للآياتِ على الرغمِ أنّه مِن غيرِ الممكِنِ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ أن يكونَ المَعنِّيونَ هُم نُوّامُ أفسس أو أيٌّ مسيحيّينَ آخَرينَ وهذهِ هي آفَةُ فَهْمِ القُرآنِ كآياتٍ مُتقطِّعاتٍ؛ ممّا يؤدِّي في نهايةِ المطاف إلى جَعْلِ الآياتِ في عَكْسِ ما جاءتْ لأجْلِه، وذِكْرُهم القصَّةَ المسيحيةَ خيرُ مثالٍ لهذا؛ فقولُه تعالى: **(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا. قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا. وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا. فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا. إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا. أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)** يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى أنزلَ الكتابَ على عبْدِه؛ أيّ: أنَّ مُحمَّدًا عَبْدٌ وليسَ إلهًا ولا ابنَ إلهٍ، وأنَّه **صلى الله عليه وسلم** بَشرٌ يُوحَى إليهِ **(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)**؛ فهُو يُبشِّرُ المُؤمنينَ ويُنْذِرُ الذينَ قالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا – بطوائفِهم كافّةً وأبرَزُهُم المَسيحيُّونَ – وأنَّها كلمةٌ كبيرةٌ وأنَّهُم

كاذِبونَ في قولِهم هذا، وتقولُ للنبيِّ **صلى الله عليه وسلم** ألاّ يُهْلِكَ نفْسَه أسفًا إنْ لم يُؤمِنُوا. فهلْ يُعقَلُ أن يذكُرَ مُحمَّدٌ – باعتبارِه مؤلِّفَ القُرآنِ – مُعجِزةً حدثتْ لِبَعضِ المَسيحيِّينَ، ويتَّخِذَها المَسيحيُّونَ دليلاً على إنجاءِ ربِّهم للمؤمنينَ بالمسيحيّةِ؛ فيَذْكُرها كدليلٍ على تأييدِ اللهِ للمُؤمنينَ المسيحيِّين.

إنّ المنطقَ والمعقولَ أن يكونَ هؤلاءِ الفِتيةُ من المُؤمِنينَ الذينَ جاءَ القُرآنُ بِالبشارةِ لهُم، وليس مِن المسيحيِّينَ الذينَ أعلنَ القُرآنُ إنذارَهُم وكَذِبَهُم وعَدَمَ عِلْمِهِم، ومِن ثمَّ فلا يُمكِنُ أن يكونَ أصحابُ الكهفِ من المسيحيِّينَ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ.

ولو تذكَّرَ القارِئُ ما قُلْناهُ سابِقًا مِن أنَّ نبأَ هؤلاءِ الفِتيةِ كان مَعلُومًا للنبيِّ **صلى الله عليه وسلم** وللعَربِ، واللهُ يُذكِّرُه بِه ويقولُ له أنَّه ليسَ عَجبًا مِن آياتِ اللهِ، وهو ليسَ من الأسرارِ التي لا يعلَمُها إلاّ خاصَّةُ علماءِ أهلِ الكتابِ.

ومِن ثمَّ فإنّ نبأَ هؤلاءِ الفتيةِ كان مشهوراً في الثقافةِ العربيةِ، واللهُ يقصُّ عليهِ نبأهُم بالحقِّ بعيداً عن (التحويرِ أو الإنقاصِ أو الزيادةِ)؛ فيقُصَّه كما وَقَعَ فِعلاً؛ وبذلكَ يقضِي على أيِّ إمكانٍ للقولِ بأنَّ مُحمَّداً أخذَ هذه القصَّةَ وجعلَها في كتابِه؛ بل ويقلبُ الطاولةَ في وَجْهِ المسيحيِّينَ؛ لأنَّه يجعلُ المنطقَ أن يكونَ ذلك القس "جيمس" هو مَن أخذَ هذه القصَّةَ المشهورةَ في الثقافةِ العربيةِ وحَوَّرها لَمصلحةِ دِينِه، ولا مانِعَ يمنعُه من ذلكَ؛ لأنّه قدّمَها كعِظَةٍ لتأكيدِ المسيحيةِ، ولا مانعَ في الفكرِ المسيحيِّ من الكذبِ لتأكيدِ الإيمانِ، وفي هذا يقولُ الأستاذُ أحمدُ عليّ المجدوب: " ومَن يقرأُ تاريخَ الكنيسةِ المسيحيةِ الكاثوليكيةِ في الفترةِ التي أذاعَ فيها "جيمس الساروجيّ" هذه القصَّةَ يُلاحِظُ أنّها كانت في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى مُدَدٍ

جديدٍ يدعَمُ مِن مكانتِها لدى الناسِ، وتُواجِهُ بهِ الشَّكَّ الذي بدأ يُساوِرُهُم في صِحَّةِ هذه العقيدةِ التي تكوَّنَتْ من خليطٍ من الأساطيرِ والحقائقِ التي استعارَها مُؤسِّسُو الديانةِ من بُلدانٍ وثقافاتٍ مختلفةٍ.

فوجدَ "جيمس الساروجيِّ" ومِن بعدِه "جريجوري" أسقُف مدينةِ "تُور" في قصَّةِ النّيّامِ السبعةِ أو أصحابِ الكهفِ ضالَّتَهُما المَنشودَة. وبادرا: جيمس أوّلاً بصياغتِه لِلقصَّة صياغةً تُلائِمُ الأفكارَ المسيحيةَ، ثمّ جريجوري ثانيًا بترجمتِها ونَشْرِها وإضافتِها إلى التراثِ المسيحيِّ وترويجِها. والواقعُ أنَّ هذا ليس مِن قبيلِ الاستنتاجِ؛ وإنّما هو تفسيرٌ للكيفيةِ التي ظهرَت بها القصَّةُ في التراثِ المسيحيِّ".

وعلينا أن نتمَعَّنَ في القصَّةِ المسيحيَّة لِنَرى هل ثمَّةَ دلائلُ على التزويرِ؟

أوّلُ ما يلحظُه قارئُ القصَّةِ أنّ أسماءَ أصحابِ الكهفِ يونانيّةٌ " مكسملينا، يمليخا، ديمومدس، امبليكوس، مرطونس، بيرونس، كشطونس " على الرغمِ مِن أنَّهُم كانوا في تُركيّا التي لا يَسكنُها يُونانيُّون – وهذا وإنْ كان دليلاً ظاهِراً على تلاعُبِ راوي القصَّةِ في بعضِ أجزائِها –؛ ممّا يعني احتمالَ تلاعُبِه في أجزاءٍ أُخرى مِنها؛ فإنّ الدليلَ الأكبرَ على اقتباسِها وتحريفِها هو ترجمَتُها، وفي هذا يقولُ الأستاذُ المجدوب: " كذلك يوجدُ دليلٌ آخرُ على أنّ قصَّةَ النّيّامِ السبعةِ ليستْ صحيحةً؛ بلْ مُزوَّرةً، وهو الدليلُ المستمَدُّ ممّا أجمعَ عليهِ المُؤرِّخونَ والباحِثونَ الذين كتبُوا عنها؛ فقَد أجمعُوا على أنَّها كانت قد كُتبتْ بالسِّريانيّةِ لُغةِ سُكّانِ الشامِ قديمًا، ثمَّ تُرجِمَتْ إلى اللاتينيةِ بفَضْلِ عنايةِ "جريجوري" أسقُفِ مدينةِ "تور" بفرنسا، وهو أمرٌ غريبٌ حقًّا ذلك لأنّ الحادثةَ وقعَتْ في مدينةٍ رومانيةٍ كبيرةٍ هي

"أفسوس" وأبطالُها من سكَّانِ هذه المدينة؛ أيّ: مِن الرُّومِ الذين حضرَ الإمبراطورُ "ثيودوسيوس" بنفْسِه ومَعهُ الوزراءُ وكبارُ رجالِ دَولَتِه إليهِم في الكهفِ، وتكلَّمَ معهُم وسَمِعَ قصَّتَهُم العجيبةَ، ولا شكَّ أنّه تكلَّمَ معهُم باللاتينيةِ أو اليونانيةِ. فكيف لمْ تُكتبِ القصَّةُ بهذه اللغةِ أو بِتلكَ، وكُتبتْ بِالسريانيَّةِ التي هي لُغةُ شَعبٍ يستعمرُ اليونانُ بِلادَه.

إنّ هذا الذي حدثَ يُشبِه أن تكونَ حادثةً مُهِمَّةً وقعتْ في "يوركشاير" بإنجلترا في بدايةِ هذا القرنِ؛ فقام بعضُ الإنجليزِ بكتابتِها باللغةِ العربيةِ، لا لِشيءٍ إلاّ لأنّ بِلادَهُم تحتلُّ مِصرَ، فهل يُعقَلُ هذا؟"(١).

فهذهِ بعضُ الدلائلِ على اقتباسِ القصَّةِ من حضارةٍ أُخرى، – وهيَ كما قُلنا الحضارةَ العربيةَ ولا علاقةَ لها بالمسيحيِّينَ –؛ فهي تتكلَّمُ عن مُؤمنينَ خالَفُوا قومَهُم الذين اتَّخَذُوا آلهةً من دونِ اللهِ ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وليس ثمَّةَ أيُّ إشارةٍ إلى مَلِكٍ؛ وإنَّما هُم خرجُوا بسببِ قومِهم ناهيكَ عن أنّ النصَّ يُشيرُ إلى أنَّهُم يعيشونَ في مجتمعٍ عربيٍّ شرقيٍّ يستعملُ الرجْمَ عُقوبةً لِلمُخالِف ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ ولم تستخدمِ الحضارةُ الرومانيةُ الرجْمَ كعُقوبةٍ في يومٍ من الأيّامِ؛ فكلُّ هذه الدلائلِ إشارةٌ إلى أنّ الحادثةَ وقعتْ في بلدٍ عربيٍّ لا علاقةَ لِلرُّومانِ بها. وفي تراثِنا العربيِّ إشاراتٌ إلى

١) أهلُ الكهفِ في التوراةِ والإنجيلِ والقُرآنِ: أحمد علي المجدوب، (ص ١٠٧ - ١١٥).

مِثل هذهِ القصَّةِ؛ فمِن قائلٍ: أنّ الكهفَ يوجدُ في اليمنِ في جبلِ صَبْر بمُحافظةِ "تَعز"، وفيه تطابقٌ مع ما وَرَدَ مِن شُروقِ الشمسِ وغُروبِها، وفتحةٍ في أعلى الكهفِ عليها مَسجِدٌ.

قصَّةٌ ورِوايةٌ

كان فِتيةُ أصحابِ الكهفِ – من أبناءِ الأُمراءِ وسادتِهم – في رَغَدٍ من العيشِ وسعادةٍ ونَعمةٍ، وكان قومُهم يعبدونَ الأصنامَ والطواغيتَ. وفي عيدٍ من أعيادِهم خرجُوا مع قومِهم إلى ظاهرِ البلدِ؛ فلمّا نظرُوا إلى ما يصنعُ قومُهم بِعَينِ بَصيرَتِهم عَرفُوا أنّ هذا لا ينبغي إلاّ للهِ الواحدِ الأحدِ؛ فانحازَ واحدٍ منهُم على حِدَةٍ وابتعدَ عن قومِه وآوى إلى ظلِّ شجرةٍ، ثمَّ جاء آخرُ وتَبِعَهُم آخرونَ وهم لا يَعرِفونَ ما في نُفوسِ بعضِهم البعضِ؛ فقالَ أحدُهُم: واللهِ يا قومُ ما أفردَكُم عن قومكِم إلاّ أمرٌ؛ فليُظْهِرْ كلُّ واحدٍ مِنكُم أمرَه؛ فلمّا اطَّلَعُوا على ما في نُفوسِ بعضِهم تعاهَدُوا على كلمةِ التوحيدِ فصارُوا إخوانًا في دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ واتَّخذُوا لهُم مَعبداً يعبدُونَ اللهَ فيهِ؛ فلمّا عرفَ المَلِكُ بأمْرِهم استحضَرَهُم بين يديهِ وسألَهُم عن أمرِهِم؛ فدَعَوهُ إلى اللهِ؛ فأبى عليهِم ذلكَ، وتوَّعَدَهُم، وأجّلَهُم لعلَّهُم يَرجِعونَ عن دِينِهم؛ فتَمكَّنُوا في ليلةٍ من الليالي من الهَرَبِ إلى الكهفِ الذي أرشدَهُم اللهُ تعالى إليهِ، وربضَ كلبُهُم ببابِه؛ كأنَّه يَحرُسُهم، وسألُوا اللهَ من رحمَتِه وفضْلِه أن يجعلَ لهُم من أمرِهِم رَشداً؛ فألْهَمَهُم رُشدَهُم وآتاهُم تقواهُم.

إنّ كُلَّ مَن يسمعُ بكهفٍ داخلَ جبلٍ يُخيَّلُ إليهِ أنّه مغارةٌ تأوي إليها السِّباعُ والزواحفُ والثَّعابينُ مِن كلِّ نوعٍ، عدا الظلامَ الذي يُخيِّمُ على المكانِ؛ فيبعثَ في

الأنفُسِ الخوفَ والقلقَ والرهبةَ؛ إلاّ أنّ هذا الكهفَ كان على عكسِ الكهوفِ؛ كهفٌ استنارَ بنُورِ الإيمانِ واكتنفَتْه رحمةُ اللهِ تعالى؛ فأبعدَ عن أصحابه كلَّ خَوفٍ ورَهْبةٍ وقلقٍ، وآوى كلَّ زاحفةٍ وحَشرةٍ إلى جُحْرِها؛ فالتزَمَتْه بأمرِ اللهِ تعالى فقَبعَ كلُّ شيءٍ مكانَه لا يُحرِّكُ ساكِنًا.

ومعَ الهُدوءِ التامِّ شعرَ الفتيةُ بالراحةِ بعدَ التعبِ والاطمئنانِ بعد الخوفِ. وما إنْ حلَّ ظلامُ الليلِ على الكهفِ وأصحابه حتَّى تسلَّلَ النومُ إلى أعيُنِهم فغشيها واستَسْلَمُوا لِلكَرَى ونامُوا نومًا عميقًا وعُيونُهم شاخِصةٌ يَحسبُهم الناظِرُ إليهِم أنَهُم أيقاظًا وليسُوا نِيامًا، وألقى اللهُ تعالى عليهِم المهابةَ كي لا يدنُوَ منهُم أحدٌ ولا تمْسَسْهُم يدُ لامسٍ حتّى يبلُغَ الكِتابُ أجلَهُ لِما في ذلك مِن الحكمةِ البالغةِ والرحمةِ الواسِعة.

وأشرقتْ شمسُ اليومِ التالي وأضاءتْ بنُورِها الأرضَ، وتحرَّكَ كُلُّ شيءٍ إلى مَسْعاهُ عدا هؤلاءِ الفتيةِ الذينَ ظَلُّوا على نومتِهم تكتنِفُهم رحمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وتعاقبَتِ السّنونُ وهُمْ على هذهِ الحالِ. ماتتْ أجيالٌ وولدتْ أجيالٌ، زالتْ معالمُ وظهرتْ أُخرى، انهارتْ ممالِكُ وقامتْ غيرُها. وعندَما حان المَوعِدُ المقدَّرُ نفخَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهِم نسمةَ الحياةِ فعادتْ إليهِم أرواحُهم، وقامُوا مِن رَقْدَتِهم الطويلةِ – وهُمْ يَحْسبُونَ أنَّهُم لم ينامُوا إلاّ يومًا أو بعضَ يومٍ – على هيئاتِهم التي رقدُوا عليها لم يتغيَّرْ شيءٌ منها حين تساءلُوا كم لبِثتُم؟

فقالَ بعضُهم لِبعضٍ: " لَبِثْنا يومًا أو بعضَ يومٍ".

ذَكَرَ المُفسِّرونَ أنَّهم دخلُوا الكهفَ أوّلَ النهارِ، وبعثَهُم اللهُ في آخرِ النهارِ؛ فلمّا استيقظُوا ظنُّوا أنّ الشمسَ قد غربَتْ فقالُوا: لَبِثْنا يومًا، ثمَّ رأَوها لمْ تغربْ فقالُوا أو

بعضَ يومٍ، وما دَرَوا أنَّهُم نامُوا ثلاثمائةٍ سِنينَ وتِسعًا.

ثمَّ استدْرَكُوا" فقالُوا رَبُّكُمْ أعلَمُ بِما لَبِثْتُم" . ثمَّ قال قائِلٌ مِنهُم لا فائدةَ مِن ذلكَ نحنُ الآن جِياعٌ؛ فابْعَثُوا أحدَكُم إلى المدينةِ بهذهِ النقودِ الفِضِّيَّةِ؛ ليخترْ لنا أحلَّ الطعامِ وأطيبَه فَلْيَشْتَرِ مِنهُ ولْيَتلطّفْ؛ حتّى لا يشعُرَ بأمْرِنا أحدٌ.

وعندما وصلَ – الذي تطوَّعَ لشراءِ ما يأكُلونَ – إلى المدينةِ؛ وهو يظنُّ أنَّه قريبُ العهدِ بها، وكان الناسُ قد تبدَّلُوا قَرنًا بعدَ قرنٍ وجِيلاً بعدَ جيلٍ وتغيَّرتِ البلادُ ومَن عليها فلَمْ يرَ شيئًا مِن معالِمِ البلدِ التي يعرِفُها، ولم يعرِفْ أحداً مِن أهلِها. فقال في نفْسِه: أنا مِن أهلِ هذه البلدةِ وإنّ عَهدي بها عَشيَّةَ أمْسٍ على غيرِ هذه الصِّفَةِ، وإنّ تعجيلَ الخُروجِ مِنها أولى لي؛ فعمدَ إلى رَجُلٍ يبيعُ الطعامَ ودَفَعَ إليهِ ما معهَ من الورقِ، فلمّا رآها البائعُ أنكرَها فدَفعَها إلى جارِه وجعلُوا يتداولُونها بينَهُم ويقولُونَ: لعلّ هذا الرجلَ قد وَجَدَ كَنْزًا. فسألُوه عن أمْرِه فقال: أنا مِن أهلِ هذه البلدةِ، وعَهْدي بها عشيَّةَ أمسٍ؛ فتعَجَّبُوا مِن كلامِه ورَفَعُوا أمرَه إلى المَلكِ وكان مُؤمِنًا صالحًا؛ فلمّا سمعَ قِصَّتَه خرجَ مع الجُنْدِ وأهلِ البلدةِ إلى الكهفِ، وحين اقتربُوا منهُ قال لهُم: دعُوني أتقدَّمُكُم لأُعْلِمَ أصحابي. ودخلَ عليهِم المَلِكُ وسَمِعَ قِصّتَهُم وعَرَفَ أنّ اللّهَ قد بعثَهُم لِيكُونوا آيةً للناسِ. ثمَّ ألقَى اللّهُ عليهِم النومَ وتوفَّاهُم؛ فقالَ الناسُ: " لَنَتَّخِذَنَّ عليهِمْ مَسْجِداً" .

وجعلَ المَلِكُ لهُم عِيداً عظيمًا هو اليومُ الخامسُ من تشرين الثاني من كُلِّ عامٍ على الأرجحِ، وقيلَ: في السابع عشرَ من آب فاللّهُ أعلمُ أيًّا كان.

اختلافٌ في الآراءِ:

قيلَ أنّ أصحابَ الكهفِ كانُوا من أتباعِ المسيحِ عليه السلامُ الأوائلِ، وقيلَ: أنَّهم كانُوا قبلَ النصرانيةِ بالكُلِّيَّةِ. فلو كانُوا على دِينِ النصرانيةِ لَمّا اعتنَى أحبارُ اليهودِ بِحفْظِ خَبرِهم وأمرِهم لُمبايَنَتِهم لهُم.

يقولُ العالِمُ" كوخ" : إنّ قِصّةَ أصحابِ الكهفِ موجودةٌ في عِدَّةِ ثقافاتٍ، والسِّريانُ ترجَمُوها مِن كُتُبِ أرسُطو، وهو بِدَورِه ينسبُها إلى مدينةِ" ساروس" فترجَمُوها وحوَّلُوها إلى مدينةِ" أفسوس" .

ذكرَ موقِعُ أقباطِ مِصرَ على الإنترنت أنّ قِصَّةَ أهلِ الكهفِ لا تُوجَدُ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ؛ بل إنّها جاءتْ من مِصادرِ المسيحيةِ في مَخْطُوطاتِها الأثريةِ في الكنيسةِ اليونانيةِ والكنيسةِ الإنطاكيةِ والكنيسةِ القبطيّة ومنتشرةٌ انتشاراً شعبيًّا على نطاقٍ واسعٍ من أوروبةَ شمالاً وحتّى مِصرَ جُنوبًا؛ وذلك قبلَ ظُهورِ الإسلامِ بأكثرَ من ١٥٠ سنة. ويُسَمَّونَ عند المسيحيِّينَ الكاثوليكِ مِنهُم خاصَّة باسْمِ "النائمونَ السَّبْعة Seven Sleeper قيلَ: إنّهُم بُعِثُوا أيّامَ المَلِكِ الصالحِ" تيودوسيوس" الثاني عام ٤٥٠ – ٤٠٨م. وفي زمانِه تحزَّبَ الناسُ أحزابًا مِنهُم مَن يُؤمِنُ باللهِ ويُؤمِنُ بأنّ الساعةَ حقٌّ، ومِنهُم مَن يُكذِّبُ بها، ومِنهُم مَن يقولُ: لا حياةَ إلاّ الحياةُ الدُّنيا؛ وإنّما تُبْعَثُ الأرواحُ لا الأجسادُ وأنّ الأجسادَ يأكلُها التُّرابُ. فحَزِنَ المَلِكُ الصالحُ لِذلِكَ ودَعا اللهَ أن يُظهِرَ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطِلَ.

إنّ مُتوسِّطَ مُدَّةِ حُكْمِ المَلِكِ الصالِح" تيودوسيوس "كان عام ٤٢٦م؛ فإذا طَرَحْنا مُدَّةَ نومِ أصحابِ الكهفِ مِنها ١١٧ = ٢٠٩ – ٤٢٦م. وبالرُّجوعِ إلى المَصادرِ التاريخيةِ وُجِدَ أنّ الحاكِم "تراجان" حكمَ مِن عام ٩٨ إلى ١١٧م وأصدرَ مَرسُومًا

يقضِي بمُحاكَمةِ كلِّ مَسيحيٍّ يرفضُ آلهةَ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ ويحكمُ عليهِ بالموتِ.

قيلَ: أنَّهم كانوا يُرسِلُونَ أحدَهُم إلى المدينةِ التي خَرجُوا مِنها؛ لِيَتزوَّدوا بالطعامِ، ولِيتَلقَّفُوا أخبارَ القومِ؛ وذلك قبلَ أن يَضرِبَ اللهُ على آذانِهم في الكهفِ سِنينَ عَدداً.

لم تَذكُرِ المَصادِرُ السِّريانيَّةُ واليُونانيّة وُجودَ كَلْبٍ مع أصحابِ الكهفِ، وربَّما دلَّ هذا على وُجودِ قِصَّةٍ أُخْرى غَيرِ التي جاءت في القرآنِ الكريمِ.

قال السيوطيُّ: أخرجَ ابنُ أبي شَيبَةَ وابنُ المُنْذرِ وابنُ أبي حاتمٍ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنّه قال: " غَزَونا مع مُعاويةَ غَزوةَ المَضيقِ نحوَ بلادِ الرُّومِ عام ٥٢٨-؛ فمَرَرْنا بالكهفِ الذي فيهِ أصحابُ الكهفِ الذي ذَكَرَ اللهُ في القرآنِ الكريمِ. فقال مُعاويةُ: لو كُشِفَ لنا عن هؤلاءِ فَنَظَرنا إليهِم. فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: ليسَ لك ذلك، قد مَنعَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذلكَ عمَّنْ هو خَيرٌ مِنكَ فقالَ: (لو اطَّلَعْتَ عليهِم لَوَلَّيْتَ مِنهُمْ فِراراً ولَمُلِئْتَ مِنهُمْ رُعباً) الآية.

فقال معاويةُ: لا أنتهي حتّى أعلمَ عِلْمَهُم. فبَعثَ رِجالاً فقالَ: " اذهَبُوا فادخُلُوا الكهفَ فانظُروا. فذَهَبُوا، فلمّا دخلُوا الكهفَ بَعثَ اللهُ عليهِم ريحاً فأخْرَجَهُم. **فبَلغَ ذلك ابنَ** عبَّاسٍ فأنشأَ يُحدِّثُ عنهُم. وقال قتادةُ: غزا ابنُ عبَّاسٍ مع حبيبِ بنِ مَسْلَمَةَ فمَرُّوا بالكهفِ؛ فإذا فيهِ عِظامٌ، فقالَ رَجُلٌ: هذه عظامُ أصحابِ الكهفِ. فقال ابنُ عبَّاسٍ: لقد ذَهبَتْ عِظامُهم مُنذُ أكثرَ مِن ثلاثمائةِ سَنةٍ.

الإسرائيليات الدخيلة في كتب التفسير[1]

إنّ اللّهَ تعالى يومَ خلقَ البشريةَ لم يترُكْها سُدَىً، ولم يَدَعْها تتخبَّطُ في غَيرِ هُدىً؛ بل رعاها بِلُطفِه وكَرمِه وهُداها بِرُسلِه وكُتبِه، أمّةً بعدَ أمّةٍ وجِيلاً إثرَ جيلٍ؛ حتّى شاءَ لِتلكَ السلاسلِ المباركةِ أن تتوقَّفَ؛ فجعلَ خِتامَها مِسْكًا ليسَ له نظيرٌ، كرَّمَ به الإنسانيةَ، وجعلَ أمَّتَه **صلى الله عليه وسلم** خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجتْ للناسِ، وأنزلَ عليه القرآنَ هدايةً ونوراً إلى يومِ الدِّينِ. ثمَّ قيَّضَ لهذا الكتابِ عُلماءَ أجلاّءَ قامُوا بِبَيانِه وتفسيرِه وإخراجِ ما فيهِ من الحِكَمِ والأسرارِ؛ إلاّ أنّه قد وقعَ مِن بعضِهم ما لا ينبغي، فأدخَلُوا في تفسيرِه ما ليسَ منهُ من كلامِ المُزيِّفينَ وأصحابِ الأهواءِ ومَرضَى القلوبِ؛ فذهبوا كُلَّ البُعدِ عن مَقصدِ القرآنِ وهدفِه الأساسِ؛، فهُو هدايةٌ ودستورٌ إلهيٌّ.

وكتبتُ بَحثِي هذا عن الآياتِ المُتعلِّقةِ بأصحابِ الكهفِ لبيانِ الإسرائيلياتِ التي تسلَّلَتْ إليها من طريقٍ أو مِن آخرَ، وقُمْتُ بِنَقْدِها والرَّدِ عليها عن طريقِ النقلِ والعقلِ؛ حتّى لا تضيعَ المعاني والمرامي الرائعةُ التي تهدفُ إليها، وهذا ممّا لا ينبغي له أن يحصلَ.

وجاءتِ القِصَّةُ في سورةِ الكهفِ وأصحابِ الكهفِ كما ذَكرَتِ التفاسيرُ هُمْ فِتيةٌ آمنُوا باللّهِ واعتزلُوا عبادةَ الآلهةِ، والتجَأوا إلى كَهْفٍ وعَبدُوا اللّهَ فيهِ؛ فأنامَهُم اللّهُ مُدَّةً مِن الزَّمَنِ، ثمَّ بعثَهُم وأعثرَ عليهِم، ثمَّ أماتَهُم.

[1] قصَّةُ أصحابِ الكهفِ - نائلة خان (بتصرُّف)

والإسرائيليَّاتُ هي جمعُ إسرائيليّةٍ نسبةً إلى بني إسرائيلَ، والمُرادُ بها الأخبارُ التي تحدَّثَ بها أهلُ الكتابِ الذينَ دَخلُوا في الإسلامِ الحنيفِ، وأطلِقَ عليها الإسرائيليَّاتُ من بابِ تغليبِ الجانبِ اليهوديِّ على الجانبِ النصرانيِّ.

وقِصَّتُهم – وإنْ كانتْ عجيبةً – لكنَّها ليستْ من أعجبِ آياتِ اللهِ (أَمْ حَسِبْتَ أَنّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرّقِيمِ كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا).

مَنهجُ البحثِ: تَتبُّعُ الآياتِ في مختلفِ التفاسيرِ وجمعُها ودراستُها.

تعقيباتُ العلماءِ والمُفسِّرينَ عليها. مُناقشتُها والرُّدودُ عليها من مختلَفِ المَصادرِ.

حقيقةُ أصحابِ الكهفِ وعلى أيِّ دينٍ كانُوا: ذَكَرَ الأُلوسيُّ في تفسيرِه أنّ أصحابَ الكهفِ كانوا شُبّانًا من أشرافِ الرُّومِ وعُظمائِهم مُطوَّقِينَ مُسوَّرينَ بالذَّهبِ ذَوي ذوائِبَ.

وقيلَ: كانُوا من خواصِّ المَلِكِ، وأنَّهُم كانوا على دِينِ المسيحِ عِيسى بنِ مَريمَ عليه السلامُ. والظاهِرُ: أنَّهُم كانُوا قبلَ مِلَّةِ النصرانيةِ بالكُلِّيَّةِ؛ فإنَّهُم لو كانُوا على دِينِ النصرانيةِ لَما اعتنى أحبارُ اليهودِ بِحِفْظِ خَبَرِهِم وأمْرِهِم لُمباينَتِهم لهُم.

وذكرَ ابنُ عطيَّةَ في تفسيرِه مِثْلَ ذلكَ؛ حيث أخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه: (أم حسبت) كانوا من أبناءِ المُلوكِ. وأخرجَ ابن أبي حاتمٍ عن أبي جَعفَر: كان أصحابُ الكهفِ صيارِفَةً.

وقال مُجاهِدٌ: بلغَني أنّه كان في آذانِ بعضِهم "القِرْطَةُ" يعني (الحَلَقَ)؛ فألهَمَهُم اللهُ رُشدَهُم وآتاهُم تقواهُم فآمَنوا بربِّهم. وقد أبطلَ الألوسيُّ في تفسيرِه ما أخرجَهُ ابنُ مَردَويه عن ابنِ عبَّاسٍ أنّ رسولَ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** قال: "أصحابُ

الكهفِ أعوانُ المَهْدِيِّ " بِدَليلِ عَدمِ وُجودِهِم إلاّ بِالصِّفةِ والحالةِ التي بيَّنها ربُّنا عنهُم، والخِطابُ في الآياتِ لِغَيرِ مَخصُوصِينَ.

وأرى أنّ المعرفةَ إلى حقيقتِهم لا تُمكِنُ إلاّ عن طريقِ الوحي وهُو مَعدُومٌ، وأمّا الأقوالُ المذكورةُ في كُتبِ التفاسيرِ، وما رُوِيَ في تفسيرِ الآيةِ من الأعاجيبِ؛ فلا سبيلَ إلى معرفةِ صحيحِها من سقيمِها فلعلَّها من الإسرائيليّاتِ المسكوتِ عنها، والقرآنُ الكريم غنيٌّ عنها، ولفظهُ كافٍ للعِبْرَةِ والعِظَةِ.

مكانُهم الذي عاشُوا فيهِ: نقلتْ بعضُ الرِّواياتِ أنّ مدينتَهُم اسمُها "أفسوس"، وقيلَ "طرسوس". وذَكَرَ مِثلَ ذلك القرطبيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنّهُم كانُوا في مدينةٍ من مدائنِ الرُّومِ يُقالُ لها "أفسوس"، وقيلَ هي "طرسوس".

وذَكَرَ الزَّمَخْشَريُّ: أنّ مكانَهُم بين غضبانَ و"إيلةَ" دونَ فِلسطينَ. ونُقِلَ بأنّ المدينةَ هي "دقسوس" ويُقالُ لها اليومَ "طرسوس". وهذهِ كالسابقةِ في حُكْمِها؛ أيّ: أنّها مِن الآثارِ المسكوتِ عنها فلا نَجْزِمُ بِصِحَّتِها؛ فأنّها لم تُبيَّنْ في كتابِ اللهِ العزيزِ.

عددُهُم وأسماؤهُم واسمُ مَلِكِهِم: ذَكَرَ أبو السُعودِ أسماءَ أولئكَ الفِتيةِ؛ فقالَ: أنَّهُم سبعةُ نَفَرٍ "يمليخا ومكشلينا ومشلينا ومرنوش ودبرنوش وشاذنوس" والسابعُ الراعي الذي تَبِعَهُم حينَ هربُوا مِن مَلِكِهِم "دقيانوس" واسمه "كفيشطيوش".

وذَكَرَ ابنُ عطيّةَ في تفسيرِه أنّ اسمَ المَلِكِ "دقيوس"، ويُقالُ فيه "دقلدقليوس"، ويُقالُ "دقينوس".

ونقلَ الماوَرْديُّ في تفسيرِه: قال ابنُ جُريجٍ أسماؤهُم "مكسلمينا ويمليخا" وهو الذي مضَى بالوَرِقِ يشتري به الطعامَ، و"مطرونس، ومحسيميلنينا، وكشوطوش، وبطلنوس، ويوطونس، وبيرونس".

وذَكَرَ الأُلوسيُّ أنّ اسمَ المَلِكِ كان "دفيانوس"، وفي روايةٍ "دقيوس".

ونقلَ ابنُ كثيرٍ روايةً عن ابنِ عبَّاسٍ أنّه قال: كانُوا ثمانيةَ نَفَرٍ؛ "مكسلمينا" وكان أكبرَهُم؛ وهو الذي كلَّمَ المَلِكَ عنهُم، و"يمليخا ومرطونس وكسطونس وبيرونس ودنيموس ويطبونس وقالوش". ثمَّ عَقَّبَ عليها فقالَ: هكذا وقعَ في هذه الروايةِ.

ويحتملُ أنّ هذا مِن كلامِ ابنِ إسحاق أو مَن بينه وبينه؛ فإنّ الصحيحَ عن ابنِ عبّاسٍ أنّهُم كانُوا سبعةً وهو الذي يدلُّ عليه ظاهرُ الآيةِ، ويزيدُ عليه بِقَولِه: وفي تسميتِهم بهذهِ الأسماءِ واسمِ كلبِهم نَظَرٌ في صِحَّتِه؛ فإنّ غالبَ ذلك مُتلقًّى من أهل الكتابِ. وأخبرَ سُبحانَه عن اختلافِ الناسِ في عِدَّةِ أصحابِ الكهفِ؛ فَذكَرَ ثلاثةَ أقوالٍ، وضَعَّفَ القولَينِ الأوَّلَينِ بِقَولِه: "رَجْمًا بِالغَيبِ" أيّ: قولاً بِلا علمٍ، ثمَّ حكَى الثالثَ وسكتَ عليه وقرَّرَهُ بِقَولِه: "وثامنُهُم كَلْبُهُمْ" فَدلَّ على صِحَّتِه؛ وأنّه الواقعُ في الأمرِ نفسِه. وعقَّبَ ابنُ حَجَرٍ في الفتحِ بعدَ ذِكْرِ أسماءِهم بِقَولِه: وفي النُّطقِ بها اختلافٌ كثيرٌ، ولا يقعُ الوثوقُ مِن ضَبْطِها بشيءٍ.

وقالَ أبو حيّان: وأمّا أسماءُ فتيةِ أهلِ الكهفِ فأعْجَمِيَّةٌ لا تَنْضَبِطُ بِشَكْلٍ ولا نَقْطٍ، والسَّنَدُ في مَعرفتِها ضعيفٌ، والرُّواةُ مُختلِفُونَ في قَصَصِهم وكيف كان اجتماعُهُم وخُروجُهُم، ولم يأتِ في الحديثِ الصحيحِ كيفيَةُ ذلكَ ولا في القُرآنِ إلاّ ما قصَّ اللّهُ تعالى عَلَينا مِن قَصَصِهم ممّا يُعتبَرُ فيه.

مِمّا سَبَقَ نَرَى أنّ رُدودَ ابنِ حَجَرٍ وابنِ كثيرٍ وأبو حيّان لها وَزْنٌ، وقد وُفِّقَ هؤلاءِ بِفَضْلِ اللهِ.

حقيقةُ كَلْبِهِم وما اسْمُه ولَونُه: ومِن أغربِ ما قيلَ في هذا الصَّددِ أنّ المُرادَ بالكلبِ هو إنسانٌ كان طبّاخًا لهُم تَبِعَهُم، نَقلَ ذلك الماورْديُّ في تفسيرِه. وقيلَ: أنّه كلبُ راعٍ تَبِعَهُم على دِينِهِم فَتَبِعَهُ الكلبُ مَعهُ أيضًا. وقيلَ: هو كلْبُ صَيدِ أحدِهِم. وقيلَ هو كَلْبُ طبَّاخِ المَلِكِ وافقَهُم على دِينِهِم وصَحِبَهُم. وقال كَعْبٌ: مَرُّوا بِكَلْبٍ فَنَبَحَ عليهِم فَطرَدُوه خَوفًا فكلَّمَهُم الكلبُ أنْ لا تخافُوا فأنا على دِينِكُم فنامُوا حتّى أحْرُسَكُم.

وقال عُبيدُ بنُ عُميرٍ: كان ذلكَ كَلْبُ صَيدِهِم. وقال مُقاتِل: وكان الكلبُ لِمكسلمينا وكان أسنَّهُم وكان صاحِبَ غَنَمٍ.

وهذا القولُ يُبْعِدُه العقلُ السليمُ ويأباهُ، وقرينةُ بُعدِه عن الصوابِ هو تحدُّثُ الكلبِ مَعهُم، إضافةً إلى كثرةِ الأقوالِ واختلافِ بَعضِها عن بَعضٍ. وقيلَ عنهُ أيضًا: أنّه كان أسَداً وهذا غريبٌ مُستبْعَدٌ لُغَةً.

وأمّا عن اسمِ الكلبِ؛ فقَد أخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن مُجاهِدٍ أنّ اسمَهُ "قطمور". وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن الحسنِ أنّ اسمهُ "قطمير". وقيل "ريَّان"، وقيلَ "تتوه"، وقيل "ثورٌ". وعن لونُه قيلَ: أنّه أنمَرُ، وقيلَ: أصفر وقيل أصهب وقيلَ غيرُ ذلك. وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ سُفيانَ قال: قال رَجُلٌ بالكوفةِ يُقال له عُبيدٌ – وكان لا يُتَّهَمُ بِالكَذِبِ – رأيتُ كلبَ أصحابِ الكهفِ أحمرَ كأنّهُ كِساءٌ أنبجانيٌّ.

وأخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ جُوَيبرٍ عن عُبيدٍ السَّواقِ قال: رأيتُ كلبَ أصحابِ الكهفِ صغيرًا زينَبًا يعني: "صَيفيًّا باسِطًا ذِراعَيهِ.."

أقولُ هل عاشَ إلى ذلكَ الزمنِ حتّى رأى كلبَ أصحابِ الكهفِ!

وفي تفسيرِ القُرطبيِّ عن ابنِ عبَّاسٍ أنّه كلبٌ أنمَرُ فوقَ القَلْطِي ودُونَ الكُرديِّ.

وقال مُحمَّدُ بنُ المُسيَّبِ هو كلبٌ صِينيٌّ، والصحيحُ أنَّه زُبَيريٌّ.

أقولُ فكيفَ لِهَؤلاءِ بِكَلْبِ أصحابِ الكهفِ، ولم تَرِدِ الأخبارُ الثابتةُ في بيانِه! وليسَ في هذا كُلِّه مَقْصِدٌ في الدِّينِ.

وعن الحَسنِ البَصريِّ: كان اسمُ كَبْشِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ "جَريرٌ"، واسمُ هُدهُدِ سُليمانَ عليه السلامُ "عَنْقَز"، واسمُ كَلْبِ أصحابِ الكهفِ "قِطْمِيرِ"... وقد تقدّمَ عن شُعيبٍ الجبَّائيِّ أنّه سَمَّاهُ "حمران".

وعقَّبَ ابنُ كثيرٍ بعدَ هذا كُلِّه بِقَولِه: واختلَفُوا في لَونِه على أقوالٍ لا حاصِلَ لها ولا طائِلَ تحتَها ولا دليلَ عليها ولا حاجةَ إليها؛ بل هيَ ممّا يُنهَى عنهُ؛ فإنَّ مُستَندَها رَجْمٌ بالغَيبِ. وامتنعَ أبو حيّانٍ مِن ذِكْرِ أوصافِ الكلبِ وبيانِ حقيقتِه وقال مُصرِّحًا بالسببِ: إنّ الإدراكَ في مِثْلِ هذه الأُمورِ لا يكونُ إلاّ بالسمعِ، وهو مَفقودٌ؛ لأنّه لا يكونُ إلاّ عن الأنبياءِ أو الكُتبِ الإلهيةِ، ويستحيلُ فيه وُرودُ مِثْلِ هذا الاختلافِ الشاسعِ.

والظاهرُ أنّ قولَه: "وَكَلْبُهُمْ" أُريدَ به الحيوانَ المَعروفُ، وأبعدُ مَن ذهبَ إلى أنَّه أسدٌ، وأبعدُ مِن ذلكَ قولُ مَن ذَهَبَ إلى أنَّه رَجُلٌ طبَّاخٌ لهُم تَبِعَهُم، أو أحدَهُم قَعَدَ عندَ البابِ طليعةً لهُم... وأرى الصوابَ معهُ واللهُ تعالى أعلى وأعلمُ.

معنى الرَّقِيم: ذُكِرَتْ في كُتبِ التفسيرِ أقوالٌ عديدةٌ في معنى الرَّقيمِ ذَكَرَ الماورْديُّ عدداً منها فقالَ: قال ابنُ عبَّاسٍ أنّه اسمُ القريةِ التي كانُوا منها. وقال الحَسن: أنّه اسمُ الجبلِ. وقال الضَّحَّاكُ أنّهُ اسمُ الوادي. وقال عطيَّةُ هو وادٍ بالشامِ نحوَ "إيلة".

وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ أنّه اسمُ كَلْبِهِم. وقيلَ اسمُ لِكُلِّ كَهْفٍ.

وقال مُجاهِدٌ: الرَّقِيمُ الكِتابُ الذي كُتِبَ فيه شأنُهُم مأخُوذٌ مِن الرَّقْمِ في الثوبِ؛ وكان لَوحًا مِن الرَّصاصِ على بابِ الكهْفِ، أو في خَزائنِ المُلوكِ لِعجيبِ أمْرِهِم.

وقال أبو صالِحٍ هو الدَّواةُ الرُّوميَّةُ.

وعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ: الرَّقِيمُ قومٌ مِن أهلِ الشَّراةِ كانت حالُهُم مِثْلَ حالِ أصحابِ الكهفِ. وفي الدُّرِ المنثور: أخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن أنسِ بنِ مالكٍ قال: الرَّقِيمُ الكَلْبُ.

وهذا بَعيدٌ مِن ناحية اللغةِ كما سيأتي بيانُ المعنى الصحيحِ لاحِقًا بإذنِ اللهِ تعالى.

وقِيلَ: الرَّقِيمُ هُم أصحابُ الغارِ؛ ففِي الحديثِ عن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ أنَّهُ سَمِعَ الرسولَ **صلى الله عليه وسلم** يَذْكُرُ الرقيمَ فقال: "إنّ ثلاثةَ نَفَرٍ أصابَتْهُم السَّماءُ؛ فأوَوا إلى الكهْفِ؛ فانْحَطّتْ صَخْرَةٌ مِن الجبلِ فانْطبَقتْ على بابِ الكهفِ..." وذَكَرَ الحديثَ، وهو حديثُ المُستأجِرِ والعَفيفِ والبارِّ والِدَيه.

ومِن هذه الأقوالِ يُؤيِّدُ الزَّمَخْشَريُّ صاحِبُ الكشَّافِ قولَ أنسٍ أنّ الرَّقيمَ هو الكَلْبُ، وإنْ لَم يُصرِّحْ إلاّ أنّه قال و"الرَّقيمُ" اسمُ كَلْبِهِم.

لقَد تكررتْ هذه الأقوالُ عِندَ أكثرِ المُفسِّرِينَ؛ أمثالِ أبي السُّعودِ والأُلوسيِّ وابنِ كَثيرٍ وغَيرِهم، ولمْ يُعقِّبْ عليها أحدٌ مِنهُم؛ إلاّ أنّ ابنَ كثيرٍ يذكرُ الصحيحَ مِنها بِشَيءٍ مِن التفصيلِ ويَختمُ بها الأقوالَ.

وذَكَرَ ابنُ حَجَرٍ في الفتحِ ما قِيلَ في مَعنى الرَّقيمِ أنّه "القريةُ"، قال إسنادُه ضعيفٌ، وكذلك ما قِيلَ أنّه جَبلٌ. والأصحُّ في مَعنى الرَّقيمِ ما جاء عن ابنِ عبَّاسٍ في صحيحِ البُخاريِّ وأيَّدَهُ البَغويُّ في تفسيرِه أنّه لَوحٌ مِن رَصاصٍ كُتِبَتْ فيه أسماءُ أصحابِ الكهفِ لّما توجَّهوا عن قومِهم، وهو مِن الرَّقيمِ الكِتابُ، وقولُه مَرقُومٌ أيّ "مَكتوبٌ". هذا المَعنى يتَّفِقُ مع اللغةِ أيضًا، واللّهُ أعلمُ بِالصَّوابِ[1].

اجتماعُ الفِتيَةِ

أخرجَ ابنُ المُنذرِ وابنُ أبي حاتمٍ أنَّهُم خَرجُوا مِن المدينةِ فاجتمَعُوا وراءها على غَيرِ ميعادٍ؛ فقال رَجُلٌ مِنهُم: إنّي لأَجِدُ في نَفْسِي شيئًا ما أظنُّ أحداً يَجِدهُ. قالُوا وما تَجِدُ؟ قال أجِدُ في نَفْسي أنّ ربِّي ربُّ السَّمواتِ والأرضِ. فقالُوا نحنُ كذلكَ. فقامُوا جميعًا "فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرضِ".

وذَكَرَ ابنُ كثيرٍ في تفْسيرِه روايةً طويلةً تقصُّ أمرَ أصحابِ الكهفِ، وكيف أنَّهُم اجتمَعُوا ومُلخَّصُها: أنَّهُم كانُوا مِن أبناءِ مُلوكِ الرُّومِ وسادَتِهم، وأنَّهُم خَرجُوا يومًا في بعضِ أعيادِ قومِهم، وكانوا يَعبدُونَ الأصنامَ والطواغِيتَ ويَذْبَحُونَ لها، وكان لهُم مَلِكٌ "دقيانوس" وكان يأمرُ الناسَ بِذَلِكَ ويَحثُّهُم عليه. فلمَّا خَرَجَ الناسُ لِمُجْتَمَعِهِم ذلكَ وخَرجَ هؤلاءِ الفِتيةُ مع آبائِهم وقَومِهم ونَظرُوا إلى ما يَصنَعُونَ

[1] الإسرائيلياتُ الدخيلةُ في كُتبِ التفسيرِ: قصَّةُ أصحابِ الكهفِ - نائلة خان (بتصرُّف).

بأعيُنِهم، عَرَفُوا أنّ هذا الذي يَصنعُه قومُهم لا ينبغي إلاّ للهِ الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضِ؛ فجعلَ كلُّ واحدٍ مِنهُم يتخلَّصُ مِن قومِه، ويَنحازُ على ناحيةٍ؛ فكانَ أوَّل مَن جَلسَ مِنهُم وَحدَهُ؛ أحدُهُم جلسَ تحتَ ظِلِّ شَجَرةٍ فجاءَ الآخرُ فَجلسَ إليها عِندَه وهكذا كُلُّهُم، ولا يَعرِفُ واحِدٌ مِنهُمُ الآخَرُ؛ وإنّما جَمعَهُم الإيمانُ. وجعلَ كُلُّ واحدٍ مِنهُم يكتُم عن الآخَرِ؛ فتجرَّأَ أحدُهُم فسألَ أمرَ كُلِّ واحدٍ مِنهُم؛ فأظهرَ الفِتيةُ ما وَجَدُوهُ في قُلوبِهم، واتَّفَقُوا على (**رَبُّنَارَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرضِ**) فَصاروا يَدًا واحِدةً، واتَّخَذُوا لهُم مَعبدًا يَعبدُونَ اللهَ فيه؛ فعَرفَ بِهم قومَهُم وآلَ أمرُهُم إلى مَلِكِهِم؛ فاسْتَحضَرَهُم وسألَهُم عمّا هُمْ عليه؛ فأجابُوه بالحقِّ ودَعَوهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ولِهذا أخبرَ عنهُم؛ فيُقالُ: إنّ مَلِكَهُم لّما دَعَوهُ إلى الإيمانِ باللهِ أبى عليهِم وهدَّدَهُم وتوعَّدَهُم، وأمرَ بِنَزْعِ لِباسِهِم الذي كان عليهِم مِن زينةِ قومِهِم، وأجَّلَهُم لِيَنْظُروا في أمْرِهم لَعلَّهُم يَرجِعُونَ عن دِينِهِم، وكان هذا مِن لُطْفِ اللهِ بِهم؛ فإنَّهُم بِذَلِكَ توصَّلُوا إلى الهَرَبِ مِنهُ والفِرارِ بِدِينِهِم من الفِتنَةِ؛ فعِندَ ذلك خرجُوا هربًا إلى الكهفِ فأوَوا إليهِ؛ ففَقَدَهُم قومُهُم وتطلَّبَهُم المَلِكُ فلمْ يظفَرْ بِهِم وعمَّى اللهُ عليهِ خَبَرَهُم.

وقِيلَ: بلْ إنّ قومَهُم ظفَرُوا بِهم ووَقفُوا على بابِ الغارِ الذي دَخلَه الفِتيةُ فقالُوا: ما كُنّا نُريدُ مِنهُم مِن العُقوبةِ أكثرَ ممّا فعلُوا بأنفُسِهم؛ فأمرَ المَلِكُ بِسَدِّ البابِ عليهِم؛ لِيهْلكُوا فَفَعَلُوا.

ثمَّ عقَّبَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ بِقَولِه: وفي هذا نَظَرٌ. ووَرَدَتْ في الدُّرِّ المنثور روايةُ هيَ بِنَفْسِها تدلُّ على ضَعفِها أخرجَها عبدُ الرَّزَّاقِ وابنُ المُنذِرِ عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ، وذَكَرَها القُرطبيُّ والأُلوسيُّ في تفسيرِهما كذلكَ.

ولا أرى مِن المُناسِب ذِكْرَها هُنا، وبِدايتُها هي: أنّه جاءَ رَجُلٌ من حَوارِي عِيسَى عليهِ السلامُ إلى مدينةِ أصحابِ الكهفِ؛ فأرادَ أنْ يدْخُلَها فقِيلَ لهُ: على بابِها صَنَمٌ لا يَدخلُ أحدٌ إلاّ سَجَدَ لَهُ... إلخ.

وذُكِرَتْ رِواياتٌ كثيرةٌ في مختلفِ التفاسيرِ تَتحدَّثُ عن لقاءِ الفتيةِ واجتماعِهم، وهيَ مُختلِفةٌ لا تتوحَّدُ على شيءٍ؛ فَكُلُّ خَبَرٍ مُنفَصِلٌ عن الآخَرِ؛ وهذا دليلٌ على بُعدِ هذه الرِّواياتِ عن الحقيقةِ واللهُ تعالى أعلى وأعلمُ.

اسمُ الكهْفِ ومكانَهُ: هناك عِدَّةُ أقوالٍ في هذا الصَّدَدِ؛ مِنها أنّ الرَّقيمَ هو الكهفُ، وأنّهُ في بلادِ الرُّومِ. وقال ابنُ جُريجٍ عن شُعيبٍ الجُبَّائيِّ أنّ اسمَ جَبَلِ الكهفِ "بنجلوس"، واسمُ الكهفِ حَيْزَم، والكلبُ حمران، وقيلَ اسمُ الكهفِ ميرم.

وقال ابنُ عبَّاسٍ: هو قريبٌ مِن أيلة. وقال ابنُ إسحاق: هو قريبٌ من نَينَوى. وقيلَ في بلادِ الرُّومِ. وقيلَ: في البَلقاءِ.

هُنا وإنْ كانتِ الأماكنُ مُتقارِبةً؛ لكنْ بينَها اختلافٌ كبيرٌ لِمكانِ مِثْلِ هذا، ولو كان لنا فيهِ مَصلَحةٌ دِينيَّةٌ لأرشَدنا اللهُ تعالى ورَسُولُه إليهِ؛ لِقَولِه: **صلى الله عليه وسلم** "ما تَرَكْتُ شَيئًا يُقَرِّبُكُمْ إلى الجَنَّةِ ويُباعِدُكُمْ مِن النَّارِ إلاّ وقَد أعْلَمْتُكُمْ بِه"؛ فأعلَمَنا تعالى بِصِفَتِه ولمْ يُعْلِمْنا بِمَكانِه.

أمّا الوصِيدُ فقيلَ: أنّه البابُ، وقيلَ: أنّه العَتَبَةُ، ورُدَّ على ذلكَ بأنَّ الكهفَ لا يكونُ له عَتَبَةٌ ولا بابٌ؛ وإنّما أرادَ أنّ الكلبَ كان بمَوضِعِ العَتَبَةِ مِن البيتِ بالوصِيد.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ ومُجاهِدٌ وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ وقتادةُ: الوصِيدُ الفِناءُ. وقيلَ هو التُّرابُ.

والصَّحيحُ أنّه الفِناءُ وهو البابُ، ومِنه قولُه تعالى: "إنَّها عَليهِم مُؤصَدَةٌ"؛ أيّ: مُطبقةٌ مُغلَقةٌ، ويُقالُ: وَصِيدٌ وأصيدُ، رَبَضَ كَلْبُهُم على البابِ كما جَرَتْ به عادةُ الكِلاب. وقال ابنُ جُريجٍ: يَحرُسُ عليهِم البابَ؛ وهذا مِن سَجِيَّتِه وطَبيعَتِه؛ حيث يربضُ بِبابِهم كأنَّه يَحرُسُهُم، وكان جُلوسُه خارجَ البابِ؛ لأنّ الملائكةَ لا تَدخُلُ بَيتًا فيهِ كَلْبٌ(١).

الحِزْبَين: ذَكَرَتِ التفاسيرُ أقوالاً عديدةً في ذلك؛ منها: أنّ الحِزْبَينِ هُما مِن الفِتيةِ؛ أيّ: أصحابَ الكهفِ؛ بدَليلِ قولِه تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ**﴾. وقِيلَ: بأنَّ أحدَ الحِزْبَينِ هُمُ الفِتيَةُ والآخَرُ أهلُ المَدينةِ.

وقال آخرُونَ: هُما حِزْبانِ كافِرانِ اختلفا في مُدَّةِ أهلِ الكهفِ.

وقال السُّدِّيُّ: فريقٌ مِن اليهودِ وآخَرُ مِن النَّصارى الذينَ عَلِمُوا قُريشًا بالسؤالِ عن أهلِ الكهفِ.

وقال الفرّاءُ: حِزبانِ مِن المُؤمِنينَ في زَمَنِ أصحابِ الكهفِ اختلَفُوا في مُدَّةِ لُبْثِهم.

وقال ابنُ عبّاسٍ: مُلوكُ المدينةِ حِزْبٌ، وأهلُ الكهفِ حِزْبٌ.

وقال ابنُ بَحرٍ: الحِزْبانِ؛ اللهُ والخَلْقُ.

---

١) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق (٣٢٢٥)، صحيح مسلم: كتاب اللباس والزينة (٨٣).

وقال مُجاهِدٌ: قومٌ أهلُ الكهفِ كان منهُم مُؤمنونَ، ومِنهُم كافِرونَ؛ اختلَفُوا في مُدَّةِ إقامَتِهم. وقال ابنُ عطيَّةَ: الحِزْبُ الأوَّلُ هُمُ الفِتيةُ الذينَ ظنُّوا أنّ مُدَّةَ لُبْثِهم قليلٌ، والحِزْبُ الثاني هُمْ أهلُ المدينةِ الذينَ بُعِثَ الفِتيةُ على عَهدِهِم.

وجُمهورُ المُفسِرينَ مع ابنِ عطيّةَ.

وذَكَرَ السُّيوطيُّ في الدُّرِّ عن جُريجٍ: الحِزْبَينِ هُما مِن قومِ الفِتيةِ أهلِ الهُدى وأهلِ الضَّلالَة. والمُلاحَظُ أنّ في هذه الرِّواياتِ اختِلافا واضْطِرابًا؛ فكُلُّ قولٍ بعيدٌ عن الآخَر، وقَد نقلَها أبو حيّان دونَ أن يُعقِّبَ عليها.

والقارئُ حين يَجِدُ فيها هذا البُعدَ الشاسِعَ سيلتبسُ عليهُ الأمرُ أيضًا؛ وبِذَلِكَ يَضِلُّ ويَتيهُ ولا يَصِلُ إلى الهدَفِ المَرجُوِّ مِن سَرْدِ القِصَّةِ.

وأمّا عن بقاءِهِم أو بقاءِ عِظامِهِم إزاءَ قولِ اللهِ تعالى: ﴿**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**﴾؛ فقَد وردَ عن الأُلوسيِّ ما يشفِي الصُّدورَ؛ حيث قال: والذي يميلُ القلبُ إليهِ عَدَمُ وُجودِهِم اليومَ. وإنّهُم إنْ كانُوا مَوجُودينَ فَلَيْسُوا على تلكَ الحالةِ التي أشارَ اللهُ تعالى إليها. وأنّ الخِطابَ الذي في الآيةِ لِغَيرِ مُعيَّنٍ، وأن المُرادَ منها الإخبارُ عن أنَّهُم بِتلْكَ الحالةِ في ذلك الوقتِ.

ما صَحَّ سَندُها مِن الرِّواياتِ: روايةُ ابنِ عبَّاسٍ مُلَخَّصُها ما ذَكَرَهُ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ وهيَ أنّ ابنَ عبَّاسٍ غزا مع معاويةَ الصائِفةَ؛ فمَرُّوا بالكهفِ الذي جاءَ ذِكْرُه في القُرآنِ؛ فقال معاويةُ أُريدُ أنْ أدخُلَ فأنظُرَ إليهِم؛ فمَنَعَهُ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما؛ إلاّ أنّ معاويةَ أبى؛ فبَعث ناسًا فأرسل اللهُ عليهم ريحًا أخرجتهم. فبلغ ذلك ابن العباس، فبدأ يحدث عنهم فقال: أنهم كانوا في مملكة جبار يعبدون الأوثان،

والفتية في المدينة فلما رأوا ذلك خرجوا من المدينة في غير ميعاد، وسأل بعضهم بعضا حتى انتهوا إلى أمر جامع في الدين، فقعدوا وتعاهدوا حتى جاء أهلهم وطلبوهم، وعرف الملك أمرهم فكتب أسماءهم على لوح ثم طرحه في خزانته، والفتية قد دخلوا الكهف يعبدون الله، وضرب الله على آذانهم فناموا مدة، والشمس تميل عنهم. ثم قال: إن ذلك الملك الجبار ذهب وجاء آخر يؤمن بالله وينبذ عبادة الأوثان، فبعثَ اللّهُ الفِتيةَ لِما يُريدُ بِه، فأرسَلُوا واحِداً مِنهُم لِيذْهَبَ مُسْتَخْفِيًا ويأتيهِم بما يأكُلونَ، فدَخَلَ المدِينةَ وهو يرى الأمورَ قد اختلفَتْ وأنكرَ الناسَ، ودَفَعَ الدِّرهَمَ لِلخبَّازِ فاستنْكَرَ ضَربَه ورَفَعُوه إلى المَلكِ، وجِيءَ بِاللوحِ الذي كُتِبَ فيهِ أسماؤهُم، فسمَّى أصحابَه فَعرفُوهُم فكَبَّرَ الناسُ، وانطلقُوا إلى الكهفِ وسِيقَ الفتَى مَعهُم حتّى لا يَخافُوا، فلمّا دَخلُوا عمَّى اللّهُ عليهِمُ المكانَ، ولم يَعرِفُوا أينَ دخلَ الفتَى فانطلقَ رأيهُم على أن يَبْنُوا عليهِم مَسجِداً فجَعلُوا يَستَغْفِرُونَ لهُم. فهذِه الروايةُ – وإنْ صحَّ سنَدُها – إلاّ أنّنا لا نستطيعُ الجزمَ بِصحتِّها في خَبرِ القومِ؛ لأنّ اللّهَ سُبحانَه وتعالى أخبرَ في كِتابِه ما أرادَ وخَفِيَ منهُ الكثيرُ؛ فهُو الحكيمُ في أمورِه، العليمُ بأحوالِ عبادِه.

ومِن العَدلِ أن نُعطِيَ الآياتِ ما دلَّتْ عليه مِن معانٍ، ولا نُضيعُها في متاهاتِ الرِّواياتِ الإسرائيليةِ؛ سواءٌ كانت هذه الرِّواياتُ صَحِيحةً أمْ سَقِيمةً.

فالحديثُ في هذه القِصَّةِ حديثٌ عن قلوبٍ ثابتةٍ راسِخَةٍ مُطمئِنَّةٍ إلى الحقِّ الذي عَرفَتْ، مُعتزَّةٍ بالإيمانِ الذي اختارتْ، مُستنكِرةً منهجَ العقيدةِ الوثنيّةِ وما اختارَ قومُها مِن الضَّلالِ والطُّغيانِ. ولم يتبيَّنْ لهُم طريقٌ غيرُ طريقِ الفرارِ بِالدِّينِ؛

فاختارُوا الكهفَ على زينةِ الحياة؛ فإذا الكهفُ فضاءٌ فَسيحٌ رَحيبٌ وَسيعٌ تنتشرُ فيه الرحمةُ، وتتَّسعُ خُيوطُها، وتمتدُّ ظِلالُها وتشملُهم بالرِّفْقِ واللينِ والرَّخاءِ. وهكذا تمضِي القِصَّةُ بِجَمالِ سِياقِها ورَوعَةِ عَظمَتِها وجلاءِ حُسْنِها. وقد أخبرَ جلَّ جَلالُه بِفصلِ الخِطابِ ثمَّ قالَ: ﴿**فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا**﴾.

وهذه قاعِدةٌ في التأدُّبِ مع كتابِ اللهِ تعالى وفَهْمِ مَعانيه؛ فيجبُ عَدَمُ الخَوضِ فيما لا فائِدةَ فيهِ ولا طائِلَ تحتَهُ، واللهُ سُبحانَه أحاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيءٍ؛ فعَلِمَ أنّ العِبادَ سَيَخُوضُونَ في ذلكَ؛ ولهذا بينّ القولَ وأعطَى المنهجَ الصحيحَ؛ حتّى نسلَمَ مِن الزَّلَلِ. فإنّ ما يحتاجُ إليهِ المُسلِمُونَ دليلاً فقَد نَصَبَ اللهُ تعالى فيهِ لِلحقِّ دليلاً، وأمّا غيرُه ممّا لا فائِدةَ فيه؛ فإنَّه مِن فُضولِ الكلامِ وضَياعِ الوقتِ والجَهدِ؛ وذلكَ مِثل الجَدَلِ في قصَّةِ أصحابِ الكهفِ.

وأخيرًا أذكُرُ ما قالَهُ الشنقيطيُّ في تفسيرِه: واعلَمْ أنّ قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ وأسمائِهم وفي أيِّ مَحَلٍ مِن الأرضِ كانُوا كُلُّ ذلكَ لم يَثبُتْ فيه عن النبيِّ **صلى الله عليه وسلم** شَيءٌ زائِدٌ على ما في القُرآن، ولِلمُفسِّرينَ في ذلكَ أخبارٌ إسرائيليّةٌ كثيرةٌ أعرَضْنا عن ذِكْرِها؛ لِعَدَمِ الثِّقَةِ بِها.

- لقَد أكثرَ المُفسِّرونَ مِن ذِكْرِ الرِّواياتِ في هذا الموضوعِ، وأغلبُها مِن الإسرائيليّاتِ. والظاهرُ أنّهُم أوردُوها وسَكَتُوا عنها؛ فلا يُمكِنُ القولُ فيها بأنَّها باطِلةٌ، ولا يُمكِنُ أنْ يُقالَ عنها أنَّها صَحيحةٌ، ومُعظَمُها يَدخلُ في قولِه: **صلى**

الله عليه وسلم "لا تُصَدِّقُوا أهلَ الكِتابِ ولا تُكَذِّبُوهُم، وقُولُوا آمَنّا بِاللهِ وما أُنْزِلَ إلَينا" .

- مِن المُفسِّرينَ مَن امتنعَ عن ذِكْرِ الإسرائيليَّاتِ وهذا جَيِّدٌ، ومِنهُم مَن أوردَها وعقَّبَ عليها وهذا حَسنٌ؛ فاستفادَ بذلكَ القارئُ وزادَتْ مَعرفتُه بما وَرَدَ في التفاسيرِ من الرِّواياتِ الإسرائيليَّة التي لا حاجةَ لنا بِها. وعلى المُسلِم أنْ يَتنَبَّهَ إلى مِثْلِ هذه الأمورِ.
- مِن المُكثِرينَ في ذِكْرِ الرِّواياتِ الإسرائيليّةِ الإمامُ السُّيوطيُّ دُونَ أن يُعقِّبَ على شَيءٍ مِنها؛، وبذلك تضيعُ الفائِدةُ ويظنُّ القارئُ أنها صحيحةٌ فتنصَرِفُ إليها هِمَّتُهُ، ويتركُ الأهمَّ ألاَ وهو الاستفادةُ مِن إرشاداتِ القِصَّةِ والغايةِ مِنها.
- إنّ مُعظَمَ الأقوالِ والرِّواياتِ الواردةِ في قِصّةِ أصحابِ الكهفِ مُتعارِضةٌ فِيما بينَها وتُناقِضُ بَعضَها البَعضِ.
- إنّ بعضَ الآثارِ الواردةِ في قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ قد نقَدها المُفسِّرونَ نقْلاً وعقْلاً، وقَد ذكَرْتُها قَدْرَ المُستطاعِ؛ لكِنْ هناك مِن الأقوالِ لمْ أجِدْ له رَدًّا، ولمْ أستطِعْ له نقْداً، وهيَ في الأغلبِ من الإسرائيليّاتِ المَسكُوتِ عنها.
- إنّ الإسرائيليّاتِ الواردةَ في هذه القِصَّةِ لا تُفيدُ في الدِّينِ بِشَيءٍ، والقُرآنُ الكريمُ والإسلامُ الحنيفُ غنيٌّ عنها، وبعضُها غريبةٌ يَستبْعِدُها العقلُ وَيأباهُ الفِكْرُ.
- لقَد وَجَدتُ أنّ ظِلالَ القُرآنِ لا يَذكُرُ الرِّواياتِ الإسرائيليَّةَ لا في هذهِ ولا في غَيرِها؛ ولعلَّه كان مِن أحرَصِ الناسِ على الإرشاداتِ الرَّبّانيَّةِ أن تضيعَ وتُهْدَرَ بأيِّ وَجْهٍ كان.

- لقَد علَّمَ سُبحانَه وتعالى نبيَّه مُحمَّداً **صلى الله عليه وسلم** كيف يجبُ أن يتعامَلَ في مِثلِ هذه الأمورِ فقالَ: ﴿**فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾.
- ويجبُ عَلَينا نحنُ كذلِكَ أن نلتزِمَ بهذا المنهجِ الرَّبَّانيِّ.

إنّ القصْدَ مِن ذِكْرِ القَصَصِ في القُرآنِ الكريمِ هو ضَربُ الأمثالِ لأخْذِ العِبَرِ والتَّدبُّرِ، والرِّواياتُ الكثيرةُ في مِثلِ هذا المقامِ يُبْعِدنا عن الهدفِ الأساسِ الذي يُريدُه اللهُ تباركَ وتعالى.

دروس من قصة أصحاب الكهف[1]

ماذا تُعلمنا قِصَّةُ أصحابِ الكهفِ؟ كانُوا في القُصورِ، وما أدراكَ ما القُصورِ؟ كُلُّ ما لذَّ وطابَ... طعامٌ نفيسٌ وسَريرٌ فَخمٌ ومَنظرَ خلَّابٌ؛ لكِن مع المَعصيةِ والشِّركِ.

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ) انتقِلُوا مِن القُصورِ إلى كَهْفٍ في جبلٍ، يعني: مِن أعلى دَرَجَةٍ إلى أدنى دَرَجَةٍ، مِن أجملِ مكانٍ إلى أوحَشِ مكانٍ؛ لكنْ مع الكهفِ رحمةُ اللهِ.

دَعْكَ مِن زِينَةِ الحياةِ الدُّنيا، آوِ إلى بَيتِكَ آوِ إلى مَسجِدكَ، ومع رحمةِ اللهِ فأنتَ أسعدُ إنسانٍ. عِشْ مع الناسِ وقلِّبْ بينَ المحطَّاتِ الفَضائيَّةِ وأطلِقْ بَصَرَكَ فيما لا يَحِلُّ لكَ؛ لَكِنَّ المعصيةَ التي تَحجُبُكَ عن اللهِ؛ فأنتَ أشقَى الناسِ.

نحنُ الآن بِحاجَةٍ إلى كهفٍ يُبعِدُنا عن المعاصي، لا أقولُ عن شَيءٍ مُباحٌ حاشا للهِ، حتّى نكونَ أسعدَ الناسِ.

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً) هذِه الرحمةُ لا تُرَى بِالعَينِ؛ لكنَّ آثارَها مُدهِشَةٌ. إذا ألقَى اللهُ في قلبِكَ السكينةَ تسعَدُ بها ولو فقَدتَ كُلَّ شَيءٍ، وإذا حُجِبَتْ عنكَ السَّكينةُ شَقِيتَ ولو مَلكْتَ كُلَّ شَيءٍ.

القضيَّةُ واضِحةٌ؛ إمّا أن تكونَ في مكانٍ لا معاصِيَ فيه تُقبِلُ فيهِ على اللهِ، أو أنْ تكونَ في مكانٍ مُحاطٍ بِالمَعاصي مِن الجِهاتِ كُلِّها فأنتَ في حِجَابٍ عن اللهِ.

[1] د. مُحمَّد راتِب النابلسيّ (بِتَصرُّفٍ)

وهؤلاءِ الفتيةُ لّما رأَوا الشِّرْكَ والمَعاصي نَفَرُوا مِن نَعيمِ الدُّنيا، وآوَوا إلى رحمةِ اللهِ... وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ.

وأنتَ... حاوِلْ أن تكونَ مُنضَبِطًا لِفَتْرَةٍ مُعيَّنةٍ وانظُرْ بماذا تَشعُرُ؟

صِفِ الأحوالَ التي تعيشُها والقُرباتِ التي تَسعَدُ بِها والإقبالَ الذي تحظَى به.

وازِنْ بينَ حالِكَ هذا وحالِ إنسانٍ غارقٍ في الملذَّاتِ.

صَدَقَ إبراهيمُ بنُ الأدهَمُ في قولِه: "لو يَعلَمُ المُلوكُ ما نَحْنُ عليهِ لَقاتَلُونا علَيها بالسُّيوفِ". إذا أهَّلْتَ قلبَكَ لِيكونَ مَهبِطَ تجلِّياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ بِطاعَتِكَ له تجِدْ أنّ اللهَ يَغْمُرُكَ بِعَطائِه ويُسْعِدُكَ بِالقُربِ مِنهُ.

والمُؤمِنُ في هذا الزمانِ – بالذَّاتِ – أينَما تحرَّكَ يَرَى المعصيةً؛ إنْ مشَى في الطريقِ يَرَى نساءً كاسِياتٍ عارياتٍ مائِلاتٍ مُمِيلاتٍ.

إنْ أمسَكَ مَجلَّةً يَرَى ما لا يُرضِي اللهَ. إنْ طالَعَ صحيفةً، إنْ شاهدَ شاشةً، كيفما تحَرَّكَ يجدُ عَرْضًا غيرَ إسلاميٍّ، صُوراً لا تُرضِي اللهَ.

﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ فإذا آويتَ إلى بَيتِكَ – الآن لا يُوجَدُ في الجِبالِ مَغاراتٌ – أو اعتكفْتَ في المسجدِ تقرأُ القرآنَ، أو تُطالِعُ كُتُبَ العِلْمِ، أو تُصلِّي قيامَ الليلِ، أو تذكُرُ اللهَ وتُسبِّحُ وتَسْتَغْفِر... أيّهُما أسعدُ؟

أن تكونَ في كهفٍ مع اللهِ، أو تكونَ في قَصرٍ مع الشيطانِ؟ فرقٌ كبيرٌ؛ فكأنَّ مَغْزَى هذه الآياتِ أن تأوِيَ إلى رحمةِ اللهِ، أن تبتعِدَ عن فِتنَ الدُّنيا، أن تبتعِدَ عن الشهواتِ المُستعِرةِ إلى مكانٍ فيه قُربٌ مِن اللهِ.

"إنّ بُيوتي في الأرضِ المَساجِدِ، وإنَّ زُوَّارَها هُمْ عُمَّارُها؛ فَطُوبَى لِعَبْدٍ تَطَهَّرَ في بَيتِه ثُمَّ زارَني، وحَقٌّ على المَزُورِ أن يُكْرِمَ الزَّائِرَ" .

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) تطلَّعْ إلى أهلِ الحقِّ، تطلَّعْ إلى العملِ الصالِح يفتحُ اللهُ بَصيرَتَكَ ويُلْقي النُّورَ في قلبِكَ ويَهْديكَ إلى سَواءِ السبيلِ.

هُدَى التوفيقِ للصَّادِقينَ، وهُدَى المَصالِح لِلعامِلينَ، وهُدَى الجَنَّةِ لِلمُتَّقينَ، وهُدَى الوحي لِلمُؤمِنينَ؛ فالهُدى أنواعٌ أهمُّها هُدَى الوحي. إنْ أنتَ صَدَقْتَ به واستجَبْتَ للهِ عزَّ وجلَّ زادكَ هُدَى؛ أيّ: ألقَى نُورًا في قلبِكَ، وفَتَحَ بَصيرَتكَ، وهَداكَ إلى رُشْدِكَ، ومَكَّنَكَ مِن عَملٍ صالِحٍ تلقَ اللهَ به، هذا هُدَى التوفيقِ؛ فإنْ كُنْتَ كذلكَ هَداكَ إلى الجَنَّةِ.

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) في هذه الآيةِ إعجازٌ عِلميٌّ من آياتِ اللهِ: فحينَما يستلقِي الإنسانُ تَضغَطُ العَضلاتُ والهيكلُ العظميُّ على ما تحتَها فتضيقَ الأوعيةُ الدمويةُ؛ وبالتالي تَنقُصُ ترويتُها، وعِندَما يتقلَّبُ تعودُ الترويةُ إلى ما كانتْ عليه؛ فلو أنّ مريضًا مَعهُ سُباتٌ ولم يُقَلَّب؛ فسيتآكَلُ لحمُه خلالَ أيَّامٍ وهو حيٌّ.

وأصحابُ الكهفِ لَبِثُوا في كهفِهِم ثلاثَ مِئَةٍ مِن السِّنينَ، ولولا أنَّهُم يُقلَّبُونَ لَتَفَسَّخُوا، وهذا من الإعجازِ العلميِّ للقرآنِ الكريمِ.

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ

﴿فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ مَن أصحابُ الكهفِ؟ ما أسماؤهُم؟ ما أحوالُهم؟ مَن المَلِكُ الذي اضطَهدَهُم؟ ماذا كانُوا يَعملُونَ في القصرِ؟ كلُّ هذه التفاصيلُ لم تُذْكَرْ؛ لأنّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أرادَ أنْ تكونَ لهذهِ القِصَّةِ عِبْرَةٌ تقعُ كُلَّ يومٍ، وأن تجعلَ مِن هؤلاءِ الفتيَةِ نَماذِجَ مُتكرِّرةً، لا قِصَّةً غابِرةً وقَعَتْ أمْ لمْ تَقَعْ.

لا تعبأْ بالتفاصيل، انظُرْ إلى المَغزَى ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ انظُرْ إلى أنَّهُم آوَوا إلى الكهفِ، انظُرْ إلى أنَّهُم تلقَّوا رحمةَ اللهِ فيه – هذا مَغْزَى القِصَّةِ – ، أمّا التفاصيلُ فلا يُعنَى بِها إلاّ مَن شَرَدَ عن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ أيّ: شَيءٌ أغفلَهُ اللهُ لا تبْحَثْ عنهُ، وأيُّ شَيءٍ بَيَّنَهُ اللهُ دَقِّقْ فيهِ.

أستاذُ اقتصادٍ أرادَ أن يُعبِّرَ لهُم عن أركانِ التجارةِ بِقصَّةٍ؛ فقالَ لهُم: لي صديقٌ اشتَرى مَحلاً تجاريًّا في شارعٍ مُزدَحِمٍ، واختارَ بضاعةً أساسيَّةً في حياةِ الناسِ، واختارَ أصنافًا جيِّدةً جِدًّا، وكانت أسعارُها مُعتدِلَةً، ومُعاملَتُه طيِّبةً، والبيعُ نقْداً، كُلُّ واحدةٍ سَببٌ مِن أسبابِ الربحِ؛ فَرَبِحَ واشتَرى بيتًا وسيّارةً، وتزوّجَ وعاشَ بِبُحْبُوحَةٍ. فقالَ له طالبٌ: يا أستاذُ ما اسمُ هذا الصديقِّ؟ وأين مَحلُّهُ؟ وأين يَسكُنُ؟ هذه كُلُّها تفاصيلُ لا تعني مَغزَى القِصَّةِ، فمّا أغفلَهُ اللهُ أغفلَهُ أنت، المَوضوعُ: "فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ".

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ وهذا مِن الإعجازِ العلميِّ لِلقُرآنِ الكريمِ. ثلاثُمائةِ سنةٍ شمسيّة، وثلاثمائةٍ وتِسعِ سَنةٍ هِجْريّة، الفَرقُ تِسعُ سنواتٍ

بِالضَّبطِ. ثلاثُمائةِ سَنةٍ ميلاديَّةٍ شمسيَّةٍ تُساوي ثلاثَمائةٍ وتسعِ سنواتٍ هِجْريّةٍ قمريّةٍ.

وهذا يعني: أنّ هناكَ سَنةً شمسيّةً وسَنةً قمريّةً. السنةُ الشمسيةُ حقيقيَّةٌ، والشهرُ حُكْميٌّ؛ أمّا السَنةُ القَمريّةُ؛ فهيَ حُكميَّةٌ، والشهرُ حقيقيٌّ. قضيَّةٌ دقِيقةٌ.

هل مِن سَبَبٍ لِوُجودِ الكلْبِ مع أصحابِ الكهْفِ مع أنّهُ نجَسٌ؟

أوّلاً: الكلبُ نَجِسٌ في شَريعَتِنا، ولا يُعلَمُ أنّه كان نَجِسًا في الشرائعِ السابقةِ. إضافةً إلى أنّ اتِّخاذَه كان للحِراسةِ. ويُمكِنُ أن يكونَ مِن أجلِ سلامتِهم؛ حيث كانوا يَخافُونَ أن يَطَّلِعَ المَلِكُ على فِرارِهم واختفاءِهم وتَتَبُّعِ آثارِهم؛ فاتّخَذُوا معَهُم الكلبَ؛ لأنّ حاسَّةَ شَمِّهِ قويّةٌ، وينبحُ عندَما يَشَمُّ رائحةً غريبةً من بَعيدٍ فيَختفُونَ.

ثانيًا: وَردَ في بعضِ الرِّواياتِ أنّ اصطِحابَ الكلبِ معَهُم كان أمرًا عاديًّا؛ حيث أنّهُم مَرُّوا بِراعٍ في طريقِهِم فَدَعَوهُ إلى أمرِهِم فاستجابَ لهُم؛ فتَبِعَهُ كلبُه؛ لأنّ الكلبَ وفيٌّ لا يتركُ صاحِبَهُ.

هل أصحابُ الكهفِ هُمْ جماعةُ قُمْران؟

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ إنّ قِصَّةَ أصحابِ الكهفِ تُثيرُ فُضولاً وشَوقًا، ووَردَ ذِكْرُها عندَ كثيرٍ من المِلَلِ والطوائفِ؛ فَفي التراثِ المسيحيِّ السِّريانيِّ أنّ سَبْعةً مِن المُؤمِنينَ في مدينةِ "إفسوس" لجأُوا إلى كهفٍ قريبٍ هَرَبًا مِن الحاكمِ الوثنيِّ، ثمَّ بعثَهُم اللّهُ بعدَ سَنواتٍ طويلةٍ.

ويَرى البعضُ: أنَّهُم كانُوا في مدينةِ "طرسوس" في تركيّا.

وذكرَ بعضُهم: أنَّهُم كانوا في "الرَّجِيب" جنوبِ عمّانَ في الأُردنَّ؛ حيث يُوجَدُ كهفٌ وقواعِدُ لِبناءٍ لَعلَّهُ مَسجِدٌ أو كنيسةٌ. وهناك دِراسةٌ مُلفِتَةٌ لِلنظَرِ قام بها طارق عبده إسماعيل – إنجيل قمران – يُرجِّحُ فيها أنّ أصحابَ الكهفِ هُم مجموعةٌ يهوديَّةٌ لجأتْ إلى أحدِ كُهوفِ قمران بِجوارِ البحرِ الميتِ في القرنِ الثاني قبلَ الميلادِ. ويَرَى أنّ الكهفَ الرابِعَ تنطبِقُ عليهِ أوصافُ القِصَّةِ ومُجرياتُها كما جاءتْ في القرآنِ الكريمِ. ويستدِلُّ على كونِ القِصَّةِ من التراثِ اليهوديِّ أنّ اليهودَ لم يكونُوا لِيحفُلُوا بِها لو كانتْ قِصَّةُ مَجموعةً من المُسيحيِّينَ بسببِ عداءِ اليهودِ لِلمسيحيِّينَ؛ حيث ذهبَ عددٌ كبيرٌ من اليهودِ ولَجَأوا إلى الكهوفِ نفْسِها، وأقامُوا هناك مُجتمَعًا مِثاليًّا مُتقَشِّفًا، وهُم يُسمَّونَ اليومَ "الأسينيون". ومِن المُلْفِتِ لِلنظَرِ أن لا يُعرَفَ شَيءٌ عن الطائفةِ الأسينيَّةِ التي لجأتْ إلى الكهوفِ في القرنِ الثاني قبلَ الميلادِ، وظلَّتْ مئاتٍ مِن السِّنينَ تعيشُ هناك في مُجتمَعٍ خاصٍّ مَعزولٍ حتّى كان عام ١٩٤٧م عندما اكتشفتْ مكتبةٌ هائِلةٌ لهذهِ الطائفةِ " مَخطُوطات قمران أو البحرِ الميت " والتي تَصِلُ إلى أربعينَ ألفِ صفْحةٍ. وقد كُتِبَتْ بالعِبريَّةِ والآراميَّةِ واليونانيَّةِ. وهُناكَ جُزءٌ مِنها لم يُكْشَفُ عنهُ بعدُ؛ لأنّ إسرائيلَ تتحفَّظُ على هذه الوثائقِ، ولا تسمحُ لأحدٍ بالاطِّلاعِ عليه؛ فهلْ أصحابُ الكهفِ هُم "الأسينيون" الذين اعتزلُوا قومَهُم إلى الكهوفِ وعاشُوا فيها ثلاثَمائةِ سَنةٍ من القرنِ الثاني قبلَ المِيلادِ إلى القرنِ الأوَّلِ الميلاديِّ، ولمْ يُعرَفْ عنهُم شَيءٌ إلاّ في عام (١٩٤٧ – ١٩٤٩) م؟ وهل لتاريخِ اكتشافِ هذه الجماعةِ المُؤمِنةِ علاقةٌ بالأحداثِ التي جرتْ في الوقتِ نفْسِه؟.

أقوال الباحثين والمفكرين والعلماء[1]

١ – لا ينبغي أن نُمرَّ على قَصَصِ القرآنِ الكريمِ مُروراً عابِرًا؛ بل يجبُ التفكُّرُ فيها وتدبُّرها لِلعظَةِ والعِبْرَةِ واستِخلاصِ الدُّروسِ؛ لِتكونَ نِبراسًا نسيرُ على هديهِ ونستضئَ بِنُورِه؛ وإلاّ صِرْنا كمَثلِ الحِمارِ يَحمِلُ أسفاراً ! (عثمان قدري مكانسي).

٢ – ليس في قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ عَجَبٌ؛ فقُدرَةُ اللهِ تعالى لا حُدودَ لها، وخَلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ مِن خَلْقِ الناسِ، ولَئِنْ عَجِبَ الكُفَّارُ مِن بعثِهم بعدَ الموتِ؛ فإنّ الأنبياءَ يُدرِكُونَ قُدرةَ اللهِ فيزيدهُم إيمانًا. (عثمان قدري مكانسي).

٣ – مهمَّةُ المؤمنِ التفكُّرُ بآياتِ اللهِ؛ فهيَ مِفتاحُ الإيمانِ وطريقُ العلمِ والمَعرِفة. (السعدي).

٤ – لم يُذكَرْ في القرآنِ الكريمِ زمانُ أصحابِ الكهفِ ولا مكانُهُم؛ فلا فائِدةَ مِن ذلكَ وحتّى لا يُغالي الناسُ فيهِم ! (ابن جبرين).

(إذأوى الفتيةُ إلى الكَهْفِ فقالُوا ربَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِئْ لَنا مِن أمْرِنا رَشَدًا)

١ – إنّ إيوائهُم إلى الكهفِ كان تحصُّنًا وتحرُّزًا مِن فتنةِ قومِهم لهُم، وفِراراً بِدينِهم، وقد جمعُوا بين الفِرار والتضرُّعِ إلى اللهِ، ولم يتَّكِلُوا على أنفُسِهم. السعدي.

٢ – فضلُ الدُّعاءِ، وبيانُ الأدعيةِ التي دعوا اللهَ بها. ابن جبرين.

---

[1] عبد الرحمن الوشمي

٣ – أنّ اللجوءَ إلى اللهِ سِمَةُ المُؤمِن؛ فهو سُبحانَه عونُه ونصيرُه؛ فلمّا لجَؤُوا إليهِ آواهُم وحَفِظَهُم وأغدقَ عليهِم ما طلبُوا من الرحمةِ والهُدى والرَّشاد. عثمان قدري مكانسي.

٤ – أنّ كُفّارَ قُريشٍ سألُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فوَعَدَهُم بإخبارهِم؛ فأنجزَ اللهُ له وَعدَه. ابن عثيمين.

(فَضَرَبْنا عَلى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا، ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا)

١ – كرامةُ اللهِ تعالى لأصحابِ الكهفِ. ابن جبرين.

٢ – استجابةُ اللهِ لِدُعاءِ مَن دَعاهُ. السعدي.

٣ – في نَومِهِم حِفْظٌ لِقُلُوبِهِمْ مِن الاضطرابِ والخَوفِ، وحِفْظٌ لَهُم مِن الفِتنَةِ، وآيّةٌ بيِّنَةٌ. السعدي.

٤ – الحِكْمَةُ مِن الضَّربِ على آذانِهم هي حتّى لا يَسْمعُوا مَن حولَهُم؛ وهذا يدلُّ على أنّ نومَهُم كان عميقًا. ابن عثيمين.

٥ – أنّ اللهَ سُبحانَه سمَّى الاستيقاظَ مِن النومِ بَعثًا؛ لأنّ النومَ وفاةٌ قال اللهُ تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ)**. ابن عثيمين.

٦ – أنّ اللهَ عالِمٌ بِكُلِ شَيءٍ، والمُرادُ بِقَولِه تعالى **(ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ)**؛ أيّ: عِلْمَ ظُهورٍ ومُشاهَدةٍ، وإلاّ فإنَّ اللهَ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ سُبحانَه. ابن عثيمين.

٧ – تتجلَّى في هذه القِصَّةُ كمالُ قُدرَةُ اللهِ وحِكْمَتُه ورَحمَتُه، وإحاطةُ عِلْمِه بِكُلِّ شيءٍ. السعدي.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾

١ – كُلُّ ضمائرِ الجمعِ المنسوبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ يُرادُ بها التعظيمُ لِقَولِه (نَحنُ). ابن عثيمين.

٢ – أنّ ما يَقُصُّهُ اللهُ علَينا هو أكملُ القَصَصِ وأحسَنُها؛ لأنّه صادرٌ عن عِلْمٍ وصِدقٍ بأفصحِ عِبارَةٍ وأبينِها، وبأحسنِ إرادةٍ؛ حيث يُريدُ بها أن يَهدي عِبادِه. ابن عثيمين.

٣ – أنّ اللهَ شكرَ لِهؤلاءِ الفتيةِ إيمانَهُم؛ فزادَهُم هُدىً. السعدي.

٤ – كلَّما زاد العبدُ عملاً بِعِلْمِه، زادهُ اللهُ هُدىً أيّ عِلْمًا. ابن عثيمين.

٥ – أنّ هذه القِصَّةَ حقٌّ لا مِراءَ فيه، لا كما يَدَّعيه مَن يقولُ أنّها ليستْ على سبيلِ الحقيقةِ؛ بل على سبيلِ العِبْرَةِ والعِظَةِ فقط، وهو بذلكَ ينفِي حقائقَ التنزيلِ، وأحسنُ القَصَصِ ما كان حقيقةً. عثمان قدري مكانسي.

٦ – لِلشبابِ دورٌ كبيرٌ في نَشْرِ الدَّعوةِ والذَّودِ عنها؛ فإيمانُهم اندفاعيٌّ قويٌّ، ويَصدَعُونَ بالحقِّ، ويُعلِنونَ دعوةَ التوحيدِ بِثباتٍ. عثمان قدري مكانسي.

٧ – أنّ معرفةَ الحقِّ والاهتداءَ به ليسَ بِطُولِ التجربةِ ولا بِطُولِ الأعمارِ؛ فهؤلاءِ فِتيةٌ شبابٌ آمَنُوا، وفي قومِهم شيوخٌ قد يكونُ فيهِم مُسِنُّونَ وكِبارٌ ومع ذلك لم يَهْتَدُوا. ابن جبرين.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾

١ – إنّ مُخالَفةَ القومِ على ما هُمْ عليه تحتاجُ إلى تثبيتٍ – لا سِيَّما أنّهُم شبابٌ، والشَّابُّ رُبّما يتأثَّرُ. ابن عثيمين.

٢ – لَطَفَ اللهُ بهِم فَوفَّقَهُم إلى الإيمانِ والهُدى والصَّبْرِ والثباتِ والطُّمأنينةِ. السعدي.

٣ – كمالُ معرفةِ الفِتيةِ بِرَبِّهِم؛ فقَد جَمعُوا بين الإقرارِ بتوحيدِ الربوبيةِ والإلهيةِ، وتبرَّؤُوا مِن الشِّركِ. السعدي.

٤ – مَن لجأَ إلى ربِّهِ واعتمدَ عليهِ ثبَّتَهُ وأيَّدَه. عثمان قدري مكانسي.

٥ – لا بُدَّ من الجهْرِ بالدعوةِ بين الناسِ؛ لِتَصِلَ إليهِم، وتكونَ حُجَّةً عليهِم، ولنا بِهؤلاءِ الفِتيةِ الأطهارِ القُدوةُ الحسَنةُ. عثمان قدري مكانسي.

٦ – إنّ مَن ملأَ اللهُ قلبَه بالإيمانِ والتصديقِ لا يَصعُبُ عليهِ مُفارقَةُ أهلِه ووطنِه؛ ولو حصلَ له مِن الأذى ما حصلَ. ابن جبرين.

٧ – مَن أشركَ باللهِ فقَد تطاولَ على الحقِّ وابتعدَ عنهُ. ونَلحَظُ في كلمةِ "شطط" التشنيعَ على المُتطاولِينَ ال الذينَ يُغيِّرونَ الحقائقَ ويَنشُرونَ الباطِلَ. عثمان قدري مكانسي.

﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

١ – مُطالَبةُ الفِتيةِ قومَهُم بإتيانِ حُجَّةٍ وبُرهانٍ على ما هُم عليهِ من الباطلِ، ومَقتُهم لِقومِهم؛ لأنَّهم كانوا في غايةِ الجهلِ والضَّلالِ. السعدي.

٢ – أنّ كُلَّ مَن افْترَى على اللهِ كَذِبًا؛ فلا أحدَ أظلَمُ منهُ. ابن عثيمين.

٢ – لا بُدَّ لِكُلِّ فكرةٍ أو مبدأٍ من دليلٍ أو بُرهانٍ؛ وإلاّ سقطَ في أوَّلِ لقاءٍ وكان ضَعيفا. ولن تُقنِعَ أحدًا بِفكْرَتِكَ إنْ لم تُؤيِّدْها بالنورِ الساطعِ الذي يكشفُ الغِشاوةَ عن العُيونِ، ويُنيرُ سبيلَ الحقِّ.

وأمّا فَرْضُ الفكرةِ بالقوَّةِ والإرهابِ المادِّيِّ فدليلٌ على الإفلاسِ وضَحالةِ ما يدعُو إليهِ، ويُعَدُّ افتِئاتًا على الحقِّ وظُلْمًا له، والميلُ عن الحقِّ افتراءٌ على اللهِ وتضليلٌ للناسِ. عثمان قدري مكانسي.

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا).

١ – اتِّخاذُ الأسبابِ المُفضيةِ للنَّجاةِ من الشُّرورِ. السعدي.

٢ – عنايةُ اللهِ بأوليائه؛ فلمّا آمنُوا إيمانًا صحيحًا تولَّى اللهُ حِفْظَهُم وحَراسَتَهُم مِن أنْ يُصيبَهُم شيءٌ مِن البلاءِ. ابن جبرين.

٢ – اعتزالُ الناسِ في الفِتنَ، وقد جعلتْ طائفةٌ من العلماءِ العُزلَةَ اعتزالَ الشَّرِّ وأهلِه بِقلْبِكَ وعَمَلِكَ وإنْ كُنْتَ بينَ أظهُرِ الناسِ. عثمان قدري مكانسي.

٤ – لاحَظِ التوافُقَ بينَ الإيواءِ إلى اللهِ ونَشْرِ الرحمةِ، وهكذا العلاقةُ بين العبدِ وربِّه؛ فمَن لجأَ إلى ربِّهِ واعتمدَ عليهِ ثبَّتَهُ اللهُ وأيَّدَهُ. عثمان قدري مكانسي.

(وتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ اليَمِينِ وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ ومَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا، وتَحْسَبُهُمْ أيقاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ونُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليَمِينِ وذاتَ الشِّمالِ وكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرارًا ولَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)

١ – كرامةُ اللهِ لهُم وحِفظُه وتوفيقُه؛ فالغارُ الذي أوَوا إليه كان لهُ بابٌ لا يتَّجهُ للمَشرِقِ ولا للمَغرِب. سُبحانَ الله! لو اتَّجَه للمَشرِق لأكَلَتْهُمُ الشَّمسُ عندَ الشُّروقِ، ولو اتَّجَه للمَغرِب لأكَلَتْهُم عندَ الغُروبِ، وهذا دليلٌ على قُدرةِ اللهِ ورَحمَتِه وإجابتِه لِدُعائهِم. ابن عثيمين.

٢ – أنّ تعرُّضَهُم لِضَوءِ الشمسِ يمنعُ أجسادَهُم من التغيُّرِ؛ فهيَ صِحَّةٌ وفائدةٌ للأجْسام. ابن عثيمين

٣ – في قولِه عن الشَّمسِ (طَلَعَت / تَزاوَرُ / غَرَبَتْ / تَقْرِضُهُم) دليلٌ على أنَّها هيَ التي تتحرَّكُ ظاهِريًّا ابن عثيمين.

٤ – ينبغي أن لا نسألَ الهِدايةَ إلاّ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّه هو الهادي المُرشِدُ، ولا نَجْزَعَ إذا رأينا مَن هُو ضالٌّ، وعلينا أنْ نُرْشِدُ الضَّالِّينَ. ابن عثيمين.

٥ – حَفِظَ اللهُ الفتيةَ من الأرضِ بتقليبِهِم يَمينًا وشمالاً، مع قُدرَتِه سُبحانَه أنْ يَحفَظَهُم منها بِغَيرِ تقليبٍ؛ ولكنَّه حكيمٌ أراد أن تَجري سُنَّتُه في الكونِ، ولِيَرْبِطَ الأسبابَ بِمُسبِّباتِها. السعدي.

٦ – مِن كمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أن جعلَهُم كأنَّهُم أيقاظًا ليسَ عليهِم علاماتُ النَّومِ. ابن عثيمين.

٧ – أنَّ فِعْلَ النائمِ لا يُنسَبُ إليهِ، واللهُ سُبحانَه أضافَ تقلبَهُم إليهِ، والحِكْمةُ في ذلكَ؛ لحِفْظِ الجَسدِ. ابن عثيمين.

٨ – شِدّةُ خَوفِ مَن يراهُمُ بِسببِ الرُّعبِ الذي يُملَئ قلبُه؛ حتّى لا يُحاوِلَ أحدٌ أن يدنُوَ مِنهُم. ابن عثيمين.

٩ – جوازُ اتِّخاذِ الكلبِ لِلحِراسةِ. ابن عثيمين.

١٠ – ذُكِرَ هذا الكلبُ لمّا صَحِبَ أهلَ الخيرِ، وفيه دليلٌ على أنَّ مَن صَحِبَ أهلَ الخيرِ اكتسبَ خيراً، وهذا كلبٌ معلومٌ أنَّهُ نَجِسٌ ومع ذلكَ ذَكَرَهُ اللهُ وأضافَهُ إليهِم إضافةً تقتَضي فضْلاً وشَرفًا. ابن جبرين.

(وكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا؛ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا).

١ – الحثُّ على العلمِ والتباحُثِ فيه؛ لِكَونِ اللهِ بَعثهُم لأجْلِ ذلكَ. السعدي.

٢ – الأدبُ فيمَنْ اشتبَه عليهِ العلمُ أن يَرُدَّه إلى عالِمِه وأنْ يَقِفَ عندَ حَدِّه. السعدي.

٣ – صِحَّةُ الوكالةِ في البيعِ والشِّراءِ وصِحَّةِ الشركةِ في ذلكَ. السعدي.

٤ – جوازُ أكْلِ الطَّيِّباتِ والمَطاعمِ اللذيذةِ إذا لم تَخْرُجْ إلى حدِّ الإسرافِ المَنهيِ عنهُ. السعدي.

٥ – الحثُّ على التحرُّزِ والاستِخفاءِ والبُعدِ عن مواقعِ الفِتنَ، واستعمالِ الكِتْمانِ في ذلك على الشخصِ نفْسِه وعلى إخوانِه في الدِّينِ. السعدي.

٦ – ذِكْرُ ما اشتملَ عليهِ الشَّرُّ من المضارِّ والمفاسدِ الداعيةِ لِبُغْضِه وتَركِه، وأنَّ هذه هي طريقةَ المُؤمنينَ المُتقدِّمينَ والمُتأخِّرينَ (**وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا**)، السعدي.

٧ – أخْذُ الحَذَرِ من الأعداءِ بِكُلِّ وسيلةٍ؛ إلاّ الوسائلَ المُحرَّمةَ؛ فإنَّها مُحرَّمةٌ. ابن عثيمين.

٨ – الحَذرُ لا يُنجِي من القَدَرِ؛ لكِن على الإنسانِ أن يأخُذَ بالأسبابِ، ويُعِدَّ لِلأمْرِ عُدَّتَه؛ كي لا يُؤخَذَ على حينِ غِرَّةٍ. عثمان قدري مكانسي.

٩ – سُنَّةُ اللهِ أنَّه يُسلِّطُ على أوليائِه أعداءهُ؛ حتّى يَفتَتِنُوا بِذلِكَ؛ ولعلّ الحِكْمةَ في ذلك الاختبارُ لقوَّةِ الإيمانِ أو ضَعفِه؛ فعَليهِم بالصبرِ والتحَمُّلِ. ابن جبرين.

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا).

١ – أنَّ في قِصَّتِهِم زيادةَ بصيرةٍ ويقينٍ للمُؤمنينَ وحُجَّةً على الجاحِدينَ. السعدي.

٢ – اتِّخاذُ المساجدِ على القُبورِ من وسائلِ الشِّركِ حارَبَتْهُ شريعتنا. ابن عثيمين.

٢ – أنَّ مَن فرَّ بدينه من الفتنَ سلَّمَهُ اللهُ، ومَن أوى إليه آواهُ وجَعلَهُ هدايةً لغَيره، ومَن تحمَّلَ الذُّلَّ في سبيلهِ وابتغاءِ مَرضاتِه كان عاقبةُ أمرِه العزُّ من حيث لا يحتسبُ. السعدي.

٤ – أنّ الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها ولا شكَّ. ابن جبرين.

٥ – أنَّ قومَهُم استدلُّوا على أنَّهُم من أولياءِ اللهِ الصالحِينَ بعد ما فَقدُوهُم مُدَّةً طويلةً من الزَّمنِ؛ فكان هذا سببًا في أن غَلوا فيهِم (**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيهِم مَسجِدًا**). ابن جبرين.

٦ – الرَّدُّ على القُبوريينَ الذينَ استدلُّوا بهذهِ الآيةِ على جوازِ بناءِ المساجدِ على القُبورِ؛ فَيُرَدُّ عليهِم بأنَّ القومَ كانُوا مشرِكينَ، والآيةُ صريحةٌ على ذلكَ. ابن جبرين.

(**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ويَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالغَيبِ ويَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إلّا قَلِيلٌ فلا تُمارِ فِيهِمْ إلّا مِراءً ظاهِرًا ولا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أحَدًا**).

١ – اختلافُ أهلِ الكتابِ في عِدَّتِهم اختِلافًا صادِرًا عن رَجْمِهم بِالغيبِ وتقوّلِهم بِما لا يَعلَمُونَ، والاختلافُ في عدَدِهم لا فائدةَ تحتَه ولا يحصلُ به مصلحةٌ دِينيّةٌ ولا دُنيويَّة. السعدي.

٢ – إنَّهُم كانُوا سَبْعَةً وثامِنهُمْ كَلْبُهُمْ؛ لأنّ اللهَ عندَما أبطلَ القولَينِ الأولينَ بِقَولِه (**رَجْمًا بِالغَيبِ**) سكتَ عن الثالثِ؛ فدلَّ ذلكَ على أنَّه هو الصَّوابُ. ابن عثيمين.

٢ – لا ينبغي للإنسانِ أن يُجادِلَ في ما لا فائدةَ فيهِ. ابن عثيمين.

٤ – لا ينبغي للإنسانِ أن يستفتِي مَن ليسَ أهلاً للإفْتاءِ؛ حتّى وإنْ زَعَمَ أنَّ عِندَهُ عِلْمًا. ابن عثيمين.

٥ – وقْتُكَ أيُّها المسلِمُ ثمينٌ، ولن يَزِيدُكَ عِلمًا ولا فَهْمًا أن تخوضَ فيما لا فائدةَ منهُ؛ كمَعرِفةِ عَددِهِم أو أسمائِهِم، والفائدةُ المَرجوَّةُ تَجَدُها في أفعالِهِم وثَباتِهِم على المبدأِ وفِرارِهِم بِدينِهِم. عثمان قدري مكانسي.

(ولا تَقولَنَّ لِشَيءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلّا أَنْ يَشاءَ اللهُ واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ وقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذا رَشَدًا)

١ – تأخُّرُ الوحي عن النبيِّ **صلى الله عليه وسلم** في إخبارِه عنهُم يدلُّ على صِدْقِه. ابن عثيمين

٢ – ينبغي أنْ لا تقولَ لِشَيءٍ مُستقبَلٍ إنّي فاعِلُهُ إلاّ أن يكونَ مَقرُونًا بمشيئةِ اللهِ. ابن عثيمين.

٣ – أنّ في قولِ العبدِ (إنْ شاءَ اللهُ) تيسيرٌ لأمْرِه وتسهيلٌ له وحُصولُ البرَكةِ فيهِ، واستعانةُ بِرَبِّه. السعدي.

٤ – الأمرُ بذكْرِ اللهِ عند النِّسيانِ؛ لأنَّه يُزيلُه ويُذكِّرُ العبدَ ما سها عنهُ. السعدي.

٥ – افتقارُ العبدِ لِرَبِّهِ وسُؤالِهِ إيَّاه الهدايةَ والرَّشادَ؛ كي يُوفَّقَ ويُعانَ ويُسدَّدَ. السعدي.

٦ – أنّ النبيَّ **صلى الله عليه وسلم** لا يعلمُ الغيبَ، ولو كان يعلمُه لأَخبرَهُم حين سألُوه. ابن جبرين.

﴿ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا، قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾.

١ – إحاطةُ علمِ اللهِ بِكُلِّ شيءٍ، وأنّه هو الحاكِمُ في خَلْقِه قضاءً وقَدراً وخَلْقًا وتدبيراً. السعدي.

٢ – القولُ بأنّ (ثلاثَ مِائَةٍ سِنينَ) شَمسيَّةٌ و(تِسْعًا) قمريّةٌ هو قول ضعيفٌ؛ لأنّ عِدَّةَ الشُّهورِ والسَّنواتِ عندَ اللهِ بالأهِلَّةِ، والحِسابُ عِندَه واحدٌ؛ وإنَّما يُقالُ أنّ هذا مِن أجْلِ تناسُبِ رُؤوسِ الآياتِ. ابن عثيمين.

٣ – مَن ادَّعَى عِلْمَ الغيبِ فهُو كافرٌ. ابن عثيمين.

٤ – الإيمانُ بأنّ اللهَ ذُو بَصَرٍ نافذٌ لا يغيبُ عنهُ شيءٌ، وذُو سَمعٍ ثاقبٍ لا يخفَى عليهِ شيءٍ سُبحانَه؛ فالواجبُ علينا أن نَنتبِهَ لهذا بِمُراقبةِ اللهِ وخشيتِه؛ فلا يَرَى مِنَّا ولا يَسمعُ ما يكرهُه. ابن عثيمين.

٥ – انفرادُ اللهِ بالولايةِ العامَّة والخاصَّة؛ والخاصَّةُ تكونُ لِعبادِه المُؤمِنينَ يتولَّاهُم بِلُطفِه وكَرَمِه عزَّ وجلَّ. السعدي.

٦ – أنّ اللهَ يُسدِّدُ العبدَ فيفتحُ له أبوابَ العلمِ النافعِ والعملِ الصالِح. ابن عثيمين.

٧ – أنّ مقامَهُم في الكهفِ أكثرُ مِن ثلاثةِ قرونٍ دليلٌ على قُدرَةِ اللهِ في إماتتِهم وحِفظِهم مِن التلفِ، وإخافةِ مَن ينظرُ إليهِم ثمَّ على بَعثِهم؛ فسُبحانَ اللهِ مالكِ المُلكِ المُتصرِّفِ في مَخلُوقاتِه كما يشاءُ. عثمان قدري مكانسي.

٨ – وجوبُ الرُّجوعِ إلى حُكْمِ اللهِ، والشرعُ صالِحٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ولن يصلُحَ أمرُ آخرِ هذه الأُمَّةِ إلاّ ما أصلحَ أوَّلَها. ابن عثيمين[١].

الإعجازُ في آياتِ قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ:

- استعملَ القرآنُ الكريمُ كلمةَ (فِتْيَةٌ) في مَوضعٍ (وفِتْيان) في موضعٍ آخَرَ، والفتَى هو الشَّابُّ. وفِتْيةٌ جَمعُ قِلَّةٍ كما جاء في سُورةِ الكهفِ (**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**)؛ حيث كان عَددُهُمْ سَبْعَةٌ على الأرجَحِ. وفِتيان جَمعُ كَثْرَةٍ كما جاء في سُورةِ يُوسَفَ عليه السلامُ (**وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ**) (يوسف: ٦١)؛ حيث كان عددُهُم كثيراً.
- "الرَّشَدُ" بتشديدِ الراءِ وفتْحِها تُستعمَلُ في أمورِ الدِّينِ، أمّا "الرُّشدُ" بتشديد الراء وضَمِّها معناه الصَّلاحُ والاستقامةُ في الأمورِ الدُّنيويةِ والأُخرويَّة.

وهذا مِن خُصوصيَّاتِ الاستعمالِ القُرآنيِّ؛ فالفِتْيَةُ طلَبُوا مِن اللهِ عز وجلَّ أن يُهيِّئ لهُمْ مِن أمْرِهِم رَشَداً وهو صلاحُ دِينِهِم واستقامتُه؛ لأنَّهُم آثرُوا آخِرَتَهُم على دُنياهُم.

- استخدمَ القرآنُ الكريمُ تعبيرَ (**فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ**)؛ لأنَّ السَّمْعَ هي الحاسَّةُ الوحيدةُ التي لا تنامُ خلالَ نومِ الإنسانِ، والأذنُ معهُ تبقى مفتوحةً؛ فقَولُه تعالى (فَضَرَبْنا)؛ أيّ: لم يَعُودُوا يَسْمَعُونَ شيئًا؛ حتّى لا يَستَيقِظُوا؛ وكأنَّه

١) أقوالُ الباحِثينَ والمُفكِّرينَ والعُلماء: عبد الرحمن الوشمي.

ضَرَبَ حاجِزًا على آذانِهِم لِمُدَّةٍ مَعدُودةٍ من السِّنينَ قدّرَها العليمُ الخبيرُ.

- لِلمُفسِّرينَ في الآيةِ الكريمة (**ثُمَّ بَعثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَينِ أحصَى لِمَا لَبِثُوا أمَدًا**) اجتهاداتٌ؛ منها قولُ القُرطبيِّ: لِنَعلَمَ أيّ خروجَ ذلكَ الشيءِ إلى الوُجودِ ومُشاهَدتِه. وقولُ الطبريُّ: ثُمَّ بَعَثْنا هَؤلاءِ الفِتيَةِ – بعدَما ضَرَبْنا على آذانِهِمْ سِنينَ عَدداً – مِن رَقْدَتِهِم؛ لِينْظُرَ عِبادي فيعلَمُوا بالبَحثِ أيُّ الطائِفتَينِ اللتَينِ اختلفَتا في قَدْرِ مَبلَغِ مُكْثِ الفِتيَةِ في كَهْفِهِم رُقوداً. وكان الحِزبانِ جميعًا كافِرَينَ، وقال بعضُهم: بل كان أحدُهُما مُسلِمًا والآخَرُ كافِرًا. وفي تفسير المُيسَّر:(ثُمَّ أيقظْناهُمْ مِن نَومِهِم لنُظْهِرَ لِلنَّاسِ ما علِمْناهُ في الأزلِ؛ فتتميَّزَ أيُّ الطائِفتَينِ المُتنازِعتَينِ في مُدَّةِ لبثِهِم أضبَطُ في الإحصاءِ، وهل لَبِثُوا يومًا أو بعضَ يومٍ؟ أمْ لَبِثُوا مُدَّةً طويلةً؟

وفي خواطرِ الشعراويِّ: إنّ المتأمِّلَ في آياتِ أصحابِ الكهفِ يَجِدُ فيها مُلخَّصًا لِلقِصَّةِ ومُوجَزًا لها؛ وكأنَّها بَرقيَّةٌ سريعةٌ بما حَدَثَ؛ فأهلُ الكهفِ فِتيةٌ مُؤمِنونَ فرُّوا بِدينِهِم إلى كهفٍ من الكُهوفِ، وضَربَ اللهُ على آذانِهِم فَنامُوا مُدَّةً طويلةً، ثمَّ بعثَهُم اللهُ لِيُظْهِرَ مَن يُحصِي مُدَّةَ نَومِهِم. وهذه البَرقيَّةُ بالطبْعِ لمْ تُعطِنا تفصيلاً لِكُلِّ لَقطاتِ القِصَّةِ؛ لذلكَ قالَ اللهُ تعالى (**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبأَهُم بِالحَقِّ**).

- استعملَ القرآنُ الكريمُ كلمةَ (**تَزاوَرُ**)؛ أيّ: تَتَنَحَّى عنهُم، وكلمةَ (**تَقْرِضُهُمْ**)؛أيّ: تَتْرُكُهُم جانبًا ولا تَدخُلُ إليهِم في الآيةِ (**وتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عن كَهفِهِمْ ذاتَ اليَمِينِ وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي**

فَجْوَةٍ مِنْهُ). وتُشيرُ هذه الآيةُ – حسبَ المُحاضَرةِ التي ألقاها د. توفيق علوان أستاذُ التفسير وعُلومِ القُرآنِ في جامعةِ الرياضِ – على أنّ وُجودَ أصحابِ الكهفِ داخِلَ فَجْوةٍ في الكهفِ تَحميهِم من الأشعّةِ فوقَ البَنفسَجيَّة Ultra) (violetrays التي تُصدِرُها الشمسُ؛ والتي تبلغُ أشدَّها كثافةً عندما تتعامَدُ الشمسُ مع الأرضِ وقتَ الظهيرةِ ولها أثرٌ ضارٌّ على أجسادِ البَشر.

- في قولِه سُبحانَه وتعالى (**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ**) دلالةٌ على أنّ أصحابَ الكهفِ لم يمُوتُوا؛ وإنّما كانُوا نُيامًا والراقِدُ ليس بمَيتٍ جاء في قاموسِ الصَّحاحِ: الرُّقادُ: النَّومُ وقَومٌ رُقُودٌ أي: رُقَّدٌ[1].

- عن الآيةِ (**وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ**) ذَكَرَ الدكتور توفيق علوان أنّ هناك فائدةً صِحِّيَّةً لِلتَّقليبِ ألاّ وهيَ حمايةُ أجسادِهِم من مَرَضٍ عُضالٍ يُسمَّى تَقرُّحاتِ الفِراش Bed Sores وهي تقرُّحاتٌ بَشِعَةٌ يتآكَلُ منها الجِلْدُ وما تحتَه من الأنسجَةِ حتّى يبلُغَ العِظامَ.

- يظهرُ مِن قولِه تعالى: (**وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ**) أنّ عمليَّةَ التقليبِ التي كانت مُستمِرَّةً في أصحابِ الكهفِ لم تكُنْ في كلبِهِم؛ لأنّه بقِيَ باسِطًا ذِراعَيهِ بِالوَصيدِ؛ في ذلك حقيقةٌ علميةٌ تفرِّقُ بين جُلودِ البَشرِ وجُلودِ الحيواناتِ؛ حيث لا يحتاجُ جِلدُ الحيوانِ للتقليبِ؛ وذلك لِصلابَتِه وقُوَّته. ولم يكُنْ هذا معلومًا ولا ملحوظًا مِن قبلُ.

---

[1] قاموسِ الصَّحاحِ في اللغةِ والعلومِ: للعلّامةِ الجوهريِّ (ج/١ص٤٩٨).

- في الآيةِ الكريمةِ (**لو اطَّلَعْتَ عَلَيهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنهُمْ فِرارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**) حين قدَّمَ الفِرارَ على الرُّعب؛ إنَّما قدَّمَ الأهمَّ. والرَّدُّ العَفْويُّ من الرَّائي بمُجَرَّدِ الاطِّلاع عليهِم أنْ يُولِّي بِوجْهِهِ عنْهُم من الخَوفِ بعد أن يَمتَلِئَ قلبُهُ رُعبًا. وكأنّ الحِكمَةَ من ذلكَ حتّى لا يتفرَّسَ فيهِم أحدٌ أو يَعرِفَهُم أحدٌ.
- استعملَ القُرآنُ الكريمُ كلمةَ (بَناء) في مَوضِعٍ وكلمةَ (بُنيان) في مَوضِعٍ آخر؛ فاستعملَ البناءَ للسَّماءِ كما في الآيتَينِ (**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**) (البقرة: ٢٢) (**اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**) (غافر: ٦٢). واستعملَ البُنيانَ لِما بَناهُ البَشرُ (**فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيهِمْ بُنيانًا**) (الكهف: ٢١) (**قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيانًا فَأَلْقُوهُ فِي الجَحِيمِ**) (الصَّافّات: ١٧).
- في الآيةِ الكريمةِ (**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالغَيبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ**) ذَكَرَ المُفَسِّرُونَ بأنّ:

١ – الواوَ في (سَبْعَةٌ وثَامِنُهُمْ) تدلُّ على التأكيدِ، واتِّصافَهُم بِهذا هو الأمرِ الثابتِ الصَّحيحِ، وأنّ هذا القولَ هو القولُ الحقُّ؛ فقَد سَبقَهُ قولانِ ثُمَّ قال: رَجْمًا بِالغَيبِ. إذنْ هذا الغيبُ أسقطَ وأبطلَ قولَهُم. وعندما قالَ: (**وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**) لمْ يَقُلْ رَجْمًا بِالغَيبِ؛ بلْ قال (**مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ**)؛ إذنْ: هناكَ مَن

يَعلَمُهُم وابنُ عبَّاسٍ قال: أنا مِن القليلِ الذي استثنَى اللهُ عزَّ وجلَّ؛ كانُوا سَبْعَة.

٢ – الواوَ حرفُ عطفٍ ويُؤتَى بها للاهتِمامِ.

٣ – قال بعضُ النُّحاتِ أنّها واو الثمانيةِ؛ فهُم يَعُدُّونَ مِن واحدٍ إلى سَبْعَةٍ، ثُمَّ يَقولُونَ وثمانيةٌ.

٤ – عندَ العربِ أسلوبٌ في ذِكْرِ المَعدُودِ فيَقُولُونَ رابِعَ أربَعَةٍ. ولهُم أسلوبٌ آخَرُ يَقُولُونَ فيه رابعُ ثلاثةٍ وخامِسُ أربَعةٍ؛ ففي هذه الحالةِ يكونُ مُتمِّمًا للعَددِ؛ ولكنَّه ليس شرطًا أن يكونَ جُزءًا مِنهُ. لاحِظْ قولَه تعالى: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ**﴾ (المجادلة: ٧) نَجْوَى الثلاثَةِ اللهُ رابِعُهُمْ؛ فاللهُ سُبحانَه وتعالى صارَ في العددَ رابِعًا؛ لكنَّه ليسَ مِنهُم. وفي سُورةِ الكهفِ ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾ الكَلبُ ليسَ مِنهُم.

- استعملَ القرآنُ الكريمُ كلمةَ (سَنَة) في الجَدْبِ والقَحْطِ، واستعملَ كلمةَ (عام) لِما فيه الخيرُ والبَركَة. وجَمَعَ السَنَةَ على سِنِينَ فقالَ ﴿**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ**﴾ ولم يَقُلْ ثلاثَ مائةِ سَنَةٍ؛ لأنّ (سِنِينَ) بَدَلٌ مَنصوبٌ وليس تمييزَ عددٍ؛ لأنّ تمييزَ العددِ له أحكامُه بعدَ المائةِ والألفِ؛ فيكونُ مُفرَدًا مُضافًا إليه نحْو ﴿**فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**﴾ (العنكبوت: ١٤) ﴿**قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ**﴾ (البقرة: ٢٥٩).

- والقاعدةُ: إذا جاءَ البَدلُ يكونُ هناكَ شيءٌ جديدٌ للإيضاحِ بعدَ الإبهامِ،

ويكونُ في الأشياءِ المُراد لفْت النظَرِ إليها.

- قدّمَ القرآنُ الكريمُ البَصَرَ على السَّمْعِ في الآيةِ (**أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ**)؛ لأنّ الكلامَ هو عن أصحابِ الكهفِ الذينَ فرُّوا بدينِهم، ولجَأُوا إلى الكهفِ حتّى لا يَراهُم أحدٌ؛ لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كان يراهُم وهُمْ في ظُلْمَةِ الكهفِ، وكذلك طلبُوا مِن صاحبِهم أن يتلطَّفَ؛ حتّى لا يراهُ القومُ فيَعْرِفُونَهُم.

إذن مسألةُ البَصَرِ هُنا أهمُّ مِن السمعِ؛ فاقتضَى الأمرُ تقديمَ ذلكَ واللهُ أعلَمُ.

الإعجاز الغيبي في هيئة أصحاب الكهف[1]

قِصَّةُ أصحابِ الكهفِ من أعجَبِ قَصَصِ القرآنِ الكريمِ وأكثرِها تشويقًا. والحقُّ يُقالُ: أنّها وقَصصُ سُورةِ الكهفِ الأُخْرى فيها الكثيرُ من الإعجازِ (التاريخيِّ والعلميِّ والبيانيِّ). ومقالُنا هذا يُركِّزُ على الإعجازِ في هيئةِ أصحابِ الكهفِ حيث يقولُ تعالى (**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**).

أقوالُ المُفَسِّرينَ:

١ – (**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ**) وَرَدَ في تفسيرِ ابنِ كثيرٍ وتفسيرِ الجَلالَينِ وتفسيرِ التحريرِ والتنويرِ وغَيرِهم أنّ سببَ حُسبانِ ذلك هو بقاءُ عُيونِهمْ مَفتُوحةً، وأنَّ تعرُّضَها للهواءِ أبقَى لها.

وذكر البقاعيُ والزَّمَخْشريُّ والبيضاويُّ والشوكانيُّ أنّ سببَ ذلك هو انفتاحُ عُيونِهم أثناءَ النومِ إضافةً إلى تقلُّبِهم، أو أحدِ هَذيَنِ العاملينَ.

وذهبَ الأُلوسيُّ وصاحِبُ ظِلالِ القرآنِ إلى أنّ السببَ هو كثرةُ تقلُّبِهم فقط.

٢ – (**وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ**) ذكرَ أغلبُ المُفسِّرينَ نَقْلاً عن ابنِ عبَّاسٍ أنّ سببَ ذلكَ حتّى لا تأكُلَ الأرضُ أجسادَهُم، أو ما يُسمَّى اليومَ بِقُرحَةِ

[1] أ. هشام طلبة (بِتَصرُّفٍ)

الفِراشِ. ومِنهُم مَن زاد أنَّهُم كانُوا يتقلَّبُونَ مرَّةً واحدةً في العامِ – يومَ عاشُوراءَ – أو مرَّتَينِ، ومِنهُم مَن ذَكَرَ أنَّ تقلُّبَهُم كان كثيرًا مثل تفسيرِ البقاعيِّ وبعضِ ما عَرضَه الأُلوسيُّ.

٣ – (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) أسهبَ كثيرٌ من المُفسِّرينَ في وَصْفِ الكلبِ؛(لونَه واسمَه) وأنّ اللهَ أنطقَهُ بعدَ أن طَردُوه أوَّلَ مرَّةٍ، وأنَّه كان أسدًا ويُسمَّى الأسدُ كلْبًا ! كما روَى ذلك البيضاويُّ والقرطبيُّ وابنُ كثيرٍ، وهي رواياتٌ لم يذكُرْها القرآنُ الكريمُ ولا الأحاديثُ النبويةُ الشريفةُ.

أمّا تفسيرُ التحريرِ والتنويرِ؛ فقَد قال في ذلكَ كلامًا يُعتَدُّ به. قال: لم يُذْكَرِ التقلُّبُ لِكَلْبِهِم؛ بل استمرَّ في مكانهِ باسطًا ذِراعَيهِ. وعدمُ تقليبِ الكلبِ عن يَمينه وشِماله يدلُّ على أنَّ تقليبَهُم ليس مِن أسبابِ سلامَتِهم من البِلى؛ وإلاّ لكانَ كلبهُم مِثلَهُم فيه.

وإذا قيلَ إنَّهُم لم يُفْنَوا، أمّا كَلْبُهُم فَفَنِيَ وصارَ رمَّةً مَبسوطةً عظامُ ذِراعَيهِ.

أقولُ: لو كان قد بَلِيَ لَلاحَظُوا ذلكَ عند استيقاظِهِم.

٤ – (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) ذَكرَ ابنُ كثيرٍ والجَلالَينِ والبقاعيُّ والزَّمَخْشَرِيُّ أنّ سببَ ذلك هو المَهابةُ التي ألبسَها اللهُ إيَّاهُم.

أمّا البيضاويُّ فقَد أضافَ إلى الهَيْبَةِ انفتاحَ عُيونِهم ووَحْشَةَ المكانِ. وعَزَى القرطبيُّ ذلك إلى طُولِ شُعورِهِم وأظْفارِهِم.

أمّا سيِّد قُطب فقال في الظِّلالِ كلامًا مُتفرِّدًا شديدَ الإقناعِ: ثمَّ يَمضِي السياقُ يُكمِلُ المشهدَ العجيبَ وهُمْ يُقلَّبُونَ من جَنْبٍ إلى جَنْبٍ في نَومَتِهِم الطويلةِ

فيحسبُهم الرائي إيقاظًا وهُمْ رُقودٌ. وكَلْبُهُم – على عادةِ الكِلابِ – باسِطٌ ذِراعَيهِ بالفِناءَ قريبًا من بابِ الكهفِ كأنّه يحرسُهُم. وهُمْ في هَيئَتِهِم هذه يُثيرُونَ الرُّعبَ في قلبِ مَن يَطَّلِعُ عليهِم؛ إذ يَراهُم نيامًا كالأيقاظِ يتقلَّبُونَ ولا يستيقِظُونَ؛ وذلكَ مِن تدبيرِ اللهِ؛ كي لا يعبَثَ بهِم عابثٌ حتّى يحينَ الوقتُ المعلُوم.

رأي العلم الحديث:

١ – (**وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ**) لم يُؤيِّدِ العِلمُ الحديثُ ما قالَهُ المُفسِّرُونَ، كما أنّ النّصَّ لم يذْكُرْه؛ فالعَينُ على العكسِ من الأنفِ، والأُذنُ تُغلَقُ عندما ننامُ.

وأخبرني د. طارق عبده مصطفى أستاذُ طِبِّ العُيونِ: أنّ ذلك يُجَدِّدُ خلايا العَينِ، وأنّ بقاءَ العين مَفتُوحةً لِفَتراتٍ طويلةٍ يُعرِّضُها للجفافِ؛ ولذلكَ تَرمشُ عُيونُنا، ناهِيكَ عن تقرُّحِ القَرنيَّةِ. وكُلُّنا يعلمُ أنّ الفراعِنةَ في تحنيطِهِم للمُومياءِ أنَّهُم كانوا ينتَزِعُونَ العَينَ؛ لأنَّها أوَّلُ الأعضاءِ المُعرَّضةِ لِلتلَفِ. وأصحابُ الكهفِ كانُوا في مَوقعٍ جَبليٍّ تكثرُ فيه الأتربةُ؛ فإذا كان اللهُ قد ضَرَبَ على آذانِهم المُفتَّحةِ أصلاً؛ فمِن بابِ أولى أن تُغلَقَ عُيونُهُم على الأقلِّ لأغلبِ الفَتراتِ.

٢ – (**وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ**) يقولُ العِلمُ الحديثُ عكسَ ما قالَهُ المُفسِّرُونَ. يقول أستاذُ علمِ النفْسِ السويسريّ ألكسندر بوربلي Alexander A. Borbély, MD في كتابِه Secrets Of Sleep أسرار النوم[١]:

"والنومُ يكونُ عميقًا في البدايةِ؛ لكنَّهُ يُصبِحُ سطحيًّا بدَرجةٍ أكبرَ كُلَّما انقضَتِ الساعاتُ. وهذه الظاهرةُ تنْعكِسُ في حقيقةٍ نُشاهِدُها؛ وهيَ: أنّ النائمَ يُغيِّرُ

[١] أسرار النوم: (ص٢٥١).

أوضاعَهُ بمُعَدَّلِ تكرارٍ أكبرَ كُلَّما زادتِ الفترةُ التي قضاها في النومِ طُولا اه. "فما بالُنا بمَن نامُوا ثلاثَمائةٍ سِنِينَ وازدادُوا تِسْعًا؟!

كيف يكونُ مُعدَّلُ تغييرِ أوضاعِهم أثناءَ نومِهم؟

أيّ: كيف يكونُ معدَّلُ تقلُّبِهِم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ؟ لا بُدَّ أنّه كان مُعدَّلاً مُرتفعًا جدًّا.

والخُلاصةُ أن من أوجُهِ إعجازِ القرآنِ الكريمِ أنَّه يُفَسِّرُ بعضُه بَعضًا. والآيةُ التي نحنُ بِصَدَدِها تشملُ أربعَ مراحلَ تترتَّبُ كُلُّ مَرحلةٍ فيها على سابقَتِها؛ فكأنَّما تقولُ الآيةُ: وتَحْسَبُهُمْ أيقاظًا وهُمْ رُقُودٌ نتيجةَ تَقلُّبِهِم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ. وقد شكَّلَ عاملُ التقلُّبِ هذا مع عاملٍ آخَر هو كَونُ كلبِهِم باسِطًا ذِراعَيهِ بالوصيدِ كأنَّه يَحرُسُهُم من الدُّخلاءِ، تسبَّبَ هذانِ العاملانِ – التقلُّبُ والكلْبُ – في أنَّه لو اطَّلعْتَ عليهِم لَوَلَّيْتَ مِنهُم فِرارًا ولَمُلِئْتَ مِنهُم رُعبًا؛ إذ لو تخيَّلْنا أنّ أحدًا صعدَ إلى كهفِهِم في هذا المكانِ المُقفِرِ؛ فوَجَدَ أوَّلَ ما وَجَدَ كلْبًا عند مَدخلِ الكهفِ ليسَ نائمًا على جَنْبِهِ أو مُتقلِّبًا؛ بل مُتحَفِّزًا باسِطًا ذِراعَيهِ؛ فإذا لم يُخيفُه مَنظَرُ الكلبِ ومَدَّ بِبَصَرِهِ إلى الداخلِ لوجَدَ مَنظرًا عَجيبًا؛ سبْعةَ آدميِّينَ ظاهِرُهُم أنّهُم نائِمُونَ؛ لكنَّهُم يتقلَّبُونَ في نومِهِم تقلُّبًا ليسَ كتقلُّبِ النائمِ كما يَعرِفُ الناسُ؛ إذ لو سكنَ هذا تقلَّبَ الآخَرُ؛ فيَراهُمْ نيامًا كالأيقاظِ يتقلَّبُونَ ولا يستيقِظُونَ، وهذه الهيئةُ تُثيرُ الرُّعْبَ في قلبِ المُطَّلِعِ عليهِم. فأنَّى لمُحَمَّدٍ **صلى الله عليه وسلم** بِعلمِ سيكولوجيّةِ النومِ الحديثةِ ومُعدَّلِ تقلُّبِ النائِمِ؟ تأمَّلْ ترتيبَ فِقْراتِ هذه الآيةِ وتماسُكَها ودِقَّةَ ألفاظِها.

الدلالات العلمية للآية الكريمة (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا)[1]

مِن مآسي البشرية قياسُ قُدرَةِ اللهِ تعالى – التي لا تُحُدُّها حدودٌ، ولا يقفُ أمامَها عائقٌ – بقُدرةِ البَشر (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**) (يس: ٨٢) .

ومِن غيرِ المُمكِن أيضًا قياسُ أعمالِ اللهِ تعالى بأعمالِ البَشر، ومِن هُنا أنكرَ الكفَّارُ كلَّ المُعتقَداتِ الصَّحيحةِ، كما أنكرُوا كلَّ المُعجزاتِ الحِسِّيّةِ التي أجراها اللهُ تعالى على أيدي الأنبياءِ والمُرسَلِينَ، والكراماتِ التي وهبَها لِلصّالحِينَ.

وانطِلاقًا من هذا الموقفِ الخاطِئ أنكرَ المُؤرِّخُ البريطانيُّ إدوارد جيبون (Edward Gibbon) واقعةَ أصحابِ الكهفِ، واعتبَرَها من الخُرافاتِ التي ابتدَعَها الإغريقُ.

كما أنكرَها الكثيرونَ غيرُه؛ لأنّه ليسَ في مَقدُورِ الإنسانِ إبقاء جسدٍ بشريٍّ في حالةٍ من السُّباتِ العميقِ لِمُدَّةِ ثلاثمائةِ سَنةٍ ثمَّ إيقاظِه حيًّا، وإنْ كان بإمكاناتِه المحدُودةِ قد تمكَّنَ أخيرًا من حِفْظِ أعضاء من جَسدِ الإنسانِ حيَّةً بالتبريدِ؛ مِثل (القلبِ والكَبدِ والكُليتَين وقرنياتِ العُيونِ والدمِ) وغيرها؛ وذلك في عمليَّةٍ تُعرَفُ باسْمِ وَقْفِ الاستِقلابِ (Metabolic Inhibtion)، وتمكَّنَ أيضًا من تبريدِ جسدِ إنسانٍ كاملٍ بالتدريجِ إلى درجاتِ حرارةٍ مُنخفِضَةٍ جدًّا دونَ إحداثِ ضَرَرٍ لِخَلاياهُ وأنسجتِه وأجهزَتِه؛ فيُصبِحَ شبيهًا بِالمَيّت، وبتدفئةِ هذا الجسدِ المُتجمِّدِ بالتدريجِ أيضًا يُمكِنُ أن يعودَ إلى حالتِه الطبيعيَّة. وقد عاد إلى الحياةِ في زماننا هذا

[1] د. زغلول النجار، (بِتَصرُّف)

أشخاصٌ دُفِنُوا تحتَ الجليدِ لعِدَّةِ أيَّامٍ بالتدفِئَةِ التدريجيَّةِ. فإذا كان ذلك قد أصبحَ مُكِنًا في مَقدُورِ الإنسانِ، فهلْ يعجزُ ربُّ العالَمِينَ عن تحقيقِه بأيِّ طريقةٍ شاءَ؟

ولو كان أهلُ الكهفِ نيامًا نَومًا طبيعيًّا لاحتاجُوا إلى (الماءِ والغذاءِ وإخراجِ الفضلاتِ) وإلى غيرِ ذلك من النشاطاتِ الحيويَّةِ؛ ولكنَّ اللهَ تعالى أوقفَ الوظائفَ الحيويَّةَ كافّةً في أجسادِهم بِقُدرَتِه، وحَفِظَ تلكَ الأجسادَ من التحلُّلِ على مدى ثلاثمائةِ سِنينٍ وتِسْعٍ.

ويَعنينا هُنا من الآيةِ التي نحنُ بِصَدَدِها العلاقةُ بين الضربِ على الآذانِ والاستِغراقِ في سُباتٍ عَميقٍ – وإنْ كان الأمرُ قد تمَّ بمُعجزَةٍ إلهيةٍ، والمُعجِزاتُ لا تُعلَّلُ. ويُشيرُ نصُّ الآيةِ الكريمةِ إلى حالةٍ قال عنها بعضُ المُفسِّرينَ أنّها حالةٌ من الإغماءِ الطويل؛ ولكنَّ الإغماءَ العاديَّ إذا طال دونَ عنايةٍ مُركَّزةٍ يُفضِي حتْمًا إلى الوفاةِ.

وعلَّلَ البعضُ الآخرُ أنّ اللهَ تعالى قد أوقفَ وظيفةَ السمعِ لِينامُوا؛ لكنَّ الظاهرَ أنّه سُبحانَه قد أوقفَ وظيفةَ السمع ووظائفَ الجسمِ الأُخْرى كافّةً؛ فآذانُهُم لا يَسمَعُونَ بها رغمَ كونِها مَوجُودةً، وعُيونُهُم لا يُبصِرُونَ بها رغمَ كونِها مفتوحةً، وعَضلاتُهم لا يستعمِلُونَها رغمَ كونِها سليمةً؛ فهناك ارتباطٌ وثيقٌ بين النومِ ووظيفةِ السمعِ؛ فالسمعُ هي حاسَّةُ الاستقبالِ عن بُعدٍ التي لا تتعطَّلُ نِسبيًّا أثناء النومِ؛ لِتبْقَى راصِدةً لمختلَفِ المُؤثِّراتِ. والآيةُ الكريمةُ تُعتبَرُ سَبْقًا علميًّا في زمنٍ لم يكُنْ لأحدٍ من الخَلْقِ إمكانُ إدراكِ تلك العلاقةِ، ولم تكُنْ معروفةً في زمنِ الوحي ولا لِقُرونٍ عديدةٍ بعدَه، ولم تُدْرَسْ دِراسةً مِخبريَّةً إلاّ في القرنِ العِشرين، ولم تتبلورْ بعضُ نتائِجها إلاّ في العُقودِ المتأخِّرةِ منه.

وسَبْقُ القرآنِ الكريمِ بِذِكْرِ هذه العلاقةِ – وهو كتابٌ أُنزِلَ على نبيٍّ أُمِّيٍّ **صلى الله عليه وسلم** في أُمَّةٍ كانت أغلبيتُها العُظمى مِن الأُمِّيِّينَ قبلَ ألفٍ وأربعمائةِ سَنَةٍ – يَشهَدُ لهذا الكتابِ بأنَّه لا يُمكِنُ أن يكونَ صِناعةً بشريّةً؛ بل هو كلامُ اللهِ الخالقِ الذي أنزلَهُ بِعِلْمِه، وحفِظَه بِعَهْدِه الذي قطعَه على ذاتِه العَلِّيَّةِ، ولم يَقطَعْهُ لِرِسالَةٍ سابقةٍ أبداً على مدى الأربعةَ عَشَرَ قَرنًا الماضية، وتعهَّدَهُ بذلك إلى قيامِ الساعةِ؛ حتى يبقى شاهِداً على الخلقِ أجمَعِينَ[1].

الإِعجازُ الرَّقْميُّ:

يرتكِزُ الإِعجازُ الرقْميُّ في الآياتِ المُتعلِّقةِ بأصحابِ الكهفِ على عِدَّة مَحاوِرَ:

١ – التطابقُ التامُّ والتوافقُ بينَ المعنى اللغويِّ للكلماتِ وبينَ الأرقامِ الدالَّةِ عليها.

٢ – التكرارُ المُذْهِلُ لِلأرْقام ١٨ – ٢٢ – ٢٠٩.

٣ – التنبُّؤُ عن بعضِ وقائعِ المستقبَل.

٤ – الدلالةُ القاطِعةُ على أنّ القرآنَ الكريم هو كتابُ اللهِ تعالى لا يأتيه الباطِلُ من بين يديهِ ولا مِن خلفِه ولا يعتريه تبديلٌ ولا تغييرٌ ولا زِيادةٌ ولا نُقصان.

المجموعةُ الأُولى المتعلِّقةُ بالرقْم ٢٠٩:

هناك سِرٌّ يكْمُنُ في كلمةِ (لَبِثُوا) فما هو؟

إذا قُمنا بِعَدِّ الكلماتِ مع عدِّ واو العطفِ كلمةً؛ اعتباراً مِن كلمةِ (لَبِثُوا) الأُولى وحتّى كلمةِ (لَبِثُوا) الأخيرةِ فسوفَ نجِدُها ٢٠٩ كلمةً بعَددِ السنواتِ التي لَبِثَها

---

١) مِن الدّلالاتِ العِلميَّةِ للآيَةِ الكريمةِ (فَضَرَبْنا على آذانِهِمْ في الكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا): د. زغلول النجار (بِتَصرُّف).

أصحابُ الكهفِ.

ولِمَن أراد التأكُّدَ من هذه الحقيقةِ إليه ما يلي:

لَبِثُوا * أَمَدًا * نَحْنُ * نَقُصُّ* عَلَيْكَ * نَبَأَهُم * بِالْحَقِّ * إِنَّهُمْ * فِتْيَةٌ * آمَنُوا ١٠*
بِرَبِّهِمْ * وَ * زِدْنَاهُمْ * هُدًى* و* رَبَطْنَا * عَلَى * قُلُوبِهِمْ * إِذْ * قَامُوا * ٢٠
فَقَالُوا * رَبُّنَا * رَبُّ* السَّمَاوَاتِ * وَ * الأَرْضِ * لَن * نَّدْعُوَ * مِن * دُونِهِ * ٢٠
إِلَهًا * لَقَدْ* قُلْنَا * إِذًا* شَطَطًا* هَؤُلاَءِ* قَوْمُنَا* اتَّخَذُوا * مِن * دُونِهِ * ٤٠
آلِهَةً* لَّوْلاَ* يَأْتُونَ* عَلَيْهِم * بِسُلْطَانٍ * بَيِّنٍ * فَمَنْ* أَظْلَمُ* مِّمَّنِ * افْتَرَى* ٥٠
عَلَى * اللَّهِ* كَذِبًا* وَ * إِذِ * اعْتَزَلْتُمُوهُمْ * وَ * مَا * يَعْبُدُونَ* إِلَّا ٦٠*
اللَّهَ * فَأْوُوا * إِلَى * الْكَهْفِ * يَنشُرْ * لَكُمْ* رَبُّكُم * مِّن * رَّحمته * و* ٧٠
يُهَيِّئْ* لَكُم * مِّنْ * أَمْرِكُم * مِّرْفَقًا* وَ* تَرَى* الشَّمْسَ* إِذَا* طَلَعَت ٨٠*
تَّزَاوَرُ* عَن* كَهْفِهِمْ * ذَاتَ* الْيَمِينِ * وَ * إِذَا * غَرَبَت* تَّقْرِضُهُمْ* ذَاتَ * ٩٠
الشِّمَالِ * وَ * هُمْ * فِي * فَجْوَةٍ * مِّنْهُ* ذَلِكَ * مِنْ* آيَاتِ * اللَّه * ١٠٠
مَن * يَهْدِ * اللَّهُ* فَهُوَ * الْمُهْتَدِ * وَ * مَن * يُضْلِلْ * فَلَن* تَجِدَ * ١١٠
لَهُ * وَلِيًّا * مُّرْشِدًا* وَ * تَحْسَبُهُمْ* أَيْقَاظًا* وَ * هُمْ * رُقُودٌ * وَ* ١٢٠
نُقَلِّبُهُمْ * ذَاتَ* الْيَمِينِ * وَ* ذَاتَ* الشِّمَالِ * وَ * كَلْبُهُم* بَاسِطٌ * ذِرَاعَيْهِ * ١٢٠
بِالْوَصِيدِ * لَوِ* اطَّلَعْتَ * عَلَيْهِمْ * لَوَلَّيْتَ* مِنْهُمْ * فِرَارًا * وَ * لَمُلِئْتَ* مِنْهُمْ*
١٤٠
رُعْبًا * وَ * كَذَلِكَ * بَعَثْنَاهُمْ * لِيَتَسَاءلُوا * بَيْنَهُمْ * قَالَ * قَائِلٌ * مِّنْهُمْ * كَمْ *
١٥٠

لَبِثْتُمْ * قَالُوا* لَبِثْنَا* يَوْمًا* أَوْ* بَعْضَ* يَوْمٍ * قَالُوا * رَبُّكُمْ* أَعْلَمُ * ١٦٠
بِمَا*لَبِثْتُمْ*فَابْعَثُوا*أَحَدَكُم*بِوَرِقِكُمْ*هَذِهِ*إِلَى*الْمَدِينَةِ*فَلْيَنظُرْ*أَيُّهَا* ١٧٠
أَزْكَى*طَعَامًا*فَلْيَأْتِكُم*بِرِزْقٍ*مِّنْهُ*وَ*لْيَتَلَطَّفْ*وَ*لا*يُشْعِرَنَّ* ١٨٠
بِكُمْ * أَحَدًا* إِنَّهُمْ* إِن*يَظْهَرُوا * عَلَيْكُمْ* يَرْجُمُوكُمْ* أَوْ * يُعِيدُوكُمْ* فِي * ١٩٠
مِلَّتِهِمْ* وَ* لَن * تُفْلِحُوا* إِذًا * أَبَدًا * وَ* كَذَلِكَ* أَعْثَرْنَا* عَلَيْهِمْ * ٢٠٠
لِيَعْلَمُوا * أَنَّ* وَعْدَ* اللَّهِ* حَقٌّ* وَ* أَنَّ* السَّاعَةَ* لاَ * رَيْبَ* ٢١٠
فِيهَا* إِذْ * يَتَنَازَعُونَ*بَيْنَهُمْ* أَمْرَهُمْ* فَقَالُوا * ابْنُوا * عَلَيْهِم *بُنْيَانًا * رَّبُّهُمْ* ٢٢٠
أَعْلَمُ * بِهِمْ* قَالَ* الَّذِينَ* غَلَبُوا * عَلَى*أَمْرِهِمْ* لَنَتَّخِذَنَّ* عَلَيْهِم* مَّسْجِدًا * ٢٢٠
سَيَقُولُونَ *ثَلاثَةٌ* رَّابِعُهُمْ* كَلْبُهُمْ* وَ* يَقُولُونَ*خَمْسَةٌ*سَادِسُهُمْ*كَلْبُهُمْ*رَجْمًا* ٢٤٠
بِالْغَيْبِ * وَ* يَقُولُونَ* سَبْعَةٌ * وَ* ثَامِنُهُمْ * كَلْبُهُمْ* قُل *رَّبِّي * أَعْلَمُ * ٢٥٠
بِعِدَّتِهِم * مَّا* يَعْلَمُهُمْ * إِلَّا* قَلِيلٌ* فَلاَ* تُمَارِ* فِيهِمْ* إِلَّا* مِرَاءً* ٢٦٠
ظَاهِرًا* وَ* لاَ* تَسْتَفْتِ* فِيهِم* مِّنْهُمْ* أَحَدًا * وَ* لاَ* تَقُولَنَّ * ٢٧٠
لِشَيْءٍ* إِنِّي * فَاعِلٌ* ذَلِكَ* غَدًا* إِلَّا* أَن* يَشَاءَ* اللَّهُ* وَ* ٢٨٠
اذْكُر* رَّبَّكَ* إِذَا* نَسِيتَ* وَ* قُلْ* عَسَى* أَن * يَهْدِيَنِ* رَبِّي * ٢٩٠
لأَقْرَبَ* مِنْ* هَذَا* رَشَدًا * وَ* لَبِثُوا* فِي * كَهْفِهِمْ* ثَلاثَ* مِئَةٍ * ٢٠٠
سِنِينَ* وَ* ازْدَادُوا * تِسْعًا * قُلِ * اللَّهُ* أَعْلَمُ* بِمَا* لَبِثُوا٢٠٩ *

إذنْ: البُعدُ الزَّمنيُّ بدأ بكلمةِ (**لَبِثُوا**) وانتهى بكلمةِ (**لَبِثوا**) أيضًا، وجاءَ عددُ الكلمات مَساويا للزَّمنِ الذي لَبِثَه أصحابُ الكهفِ؛ والذي يؤكِّدُ صِدْقَ هذا الإعجازِ؛ وأنَّه ليسَ مُصادَفةً هو أنَّ عِبارة (**ثلاثِمِئَةٍ**) في هذه الآياتِ جاء رقْمُها ٢٠٠ وهذا التوافقُ والتطابُقُ يجزِمُ على أنّ هذا النصَّ هو كلامُ اللهِ تعالى، ولا يُمكِنُ لِبَشَرٍ أن يقومَ بهذا الترتيبِ المُحكَمِ مهما حاولَ وخاصَّةً أنّ النبيَّ **صلى الله عليه وسلم** عاش في عَصرٍ لم يكُنْ فيه علمُ الإحصَاء والأرقام مُتطوِّرًا؛ بل كان عِلمًا بسيطا. وأنّ هذا التطابُقَ المُذهِلَ دليلٌ على أنّ القرآنَ الكريمَ لم يُحرِّفْ كما يدَّعِي المُلحِدُونَ وفيه أيضًا رَدٌّ على المُشكِّكينَ بِصِدْقِ هذه القِصَّةِ؛ والذين يقولونَ أنّها أُسطورةٌ.

إنّ عددَ الكلماتِ ابتداءً من كلمةِ (**الرَّقِيم**) وحتّى كلمةُ (**تِسْعًا**) هو ٢٠٩ كلمات. ولِمَن أراد التأكُّدَ إليه ما يلي:

كلمةُ (والرَّقِيم) هي الكلمةُ رقْم ١، كلمةُ (لولا) الواردةُ في الآيةِ ١٥ تُحسَبُ كلِمَتَينِ. كلمةُ (هُدَى) الواردةُ في نهايةِ الآية ١٢ هي الكلمةُ ٤٨، كلمةُ (أحَدًا) الواردةُ في نهايةِ الآيةِ ١٩ هي الكلمةُ رقْم ١٩٩ كلمةُ (رَشَدًا) الواردةُ في نهايةِ الآيةِ ٢٤ هي الكلمةُ رقْم ٢٠١، كلمةُ (تِسْعًا) الواردةُ في نهايةِ الآيةِ ٢٥ هي الكلمةُ رقْم ٢٠٩.

ولِفَهْمِ العلاقةِ العَدديَّةِ بين السَّنَةِ الشمسيَّةِ والسَّنَةِ القَمَريَّةِ في الآيةِ (**ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا**) هناكَ احتِمالانِ:

الاحتمالُ الأوَّلُ ٢٠٠ : سَنةً شمسيّةً ٢٠٠ = سَنةً قمريَّةً ٩ + سنواتٍ قمريَّةً

الاحتمال الثاني ٢٠٠ : سَنةً شمسيّةً ٢٠٠ = سَنةً قمريَّةً ٩ + سنواتٍ شمسيّةً

مُدَّةُ لبْثِهِم في الكهفِ ٢٠٠ سنةً ٢٦٥.٢٤٢٢ X = ١٠٩٥٧٢.٦٦يومًا

مدة لبثهم في الكهف ٢٠٠ سنة ١٠٦٢١٠.١٢ = ٢٥٤.٢٦٧٠ X يومًا

الفرقُ بينَهُما هو: ٢٢٦٢.٥٤ يومًا

٢٢٦٢.٥٤ ÷ ٢٦٥.٢٤٢٢ = ٨.٩٢٢ سَنةً شمسيّةً

٢٢٦٢.٥٤ ÷ ٢٥٤.٢٦٧٠ = ٩.٢٠٦ سَنةً قمريّةً

فالرقْمُ بِالسَّنةِ الشمسيّةِ أقربُ رِياضِيًّا إلى الرقْم ٩ الواردِ في الآيةِ (**ازْدادُوا تِسْعًا**) من الرقْمِ بِالسَّنةِ القمريّةِ، وهذا هو السببُ في اختلافِ المُفَسِّرينَ.

أمَّا مِن الناحيةِ اللغويّةِ فقَد ذَكَرَ القُرآنُ الكريمُ (**ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وازْدادُوا تِسْعًا**)؛ أيّ: مِن السِّنينَ الشمسيَّةِ، ولو قال: (تِسْعَةً) لكانَ المقصودُ من الأعوامِ القمريَّةِ؛ وذلك بسببِ وُجوبِ المُخالَفةِ بين الأعدادِ من ٢ – ١٠ ومعدودُها من حيث التذكيرُ والتأنيثُ واللهُ أعلَم.

المجموعةُ الثانيةُ المتعلِّقةُ بِالرقْم ٢٢ :

– مجموعُ الأرقامِ الواردةِ في الآيةِ ٢٢ + ٢ : ٤+ ٥ + ٦+ ٧ + ٨ هو ٢٢

– عددُ كلماتِ الآيةِ ٢٢ هو ٢٢

– عددُ الكلماتِ ابتداءً من (أمْ حَسِبْتَ) إلى (عَدَدًا) في الآياتِ ٩ – ١٠ – ١١ هو ٢٢

– عددُ الكلماتِ التي تعودُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ هو ٢٢ (آياتنا – رَبَّنا – لَدُنْكَ –

فَضَرَبْنا – بَعثْناهُم – لِنَعْلَمَ – نَحْنُ – نَقُصُّ – رَبُّهُم – وزِدْناهُم – رَبَطْنا – رَبّنا – رَبُّ – اللّه – اللّه – ربّكُم – رَحمَتِه – اللّه – اللّه – نُقلِّبُهُم – بَعثْناهُمْ – ربّكُم أعْثَرْنا – اللّه – ربّهُم – ربّي – اللّه – ربّك – ربِّي – اللّه – لَه – بِه – حُكْمِه) .

– عددُ الكلماتِ التي ذُكِرَ فيها أصحابُ الكهفِ بِصيغةِ المُتحدِّثِ هو ٢٢ (كانُوا – فَقالُوا – ربّنا – آتِنا – لنا – أمْرنا – قامُوا – فقالُوا – ربّنا – نَدعُو – قُلْنا – قَومُنا – اعْتَزَلْتُمُوهُم – فأوُوا – لكُم – ربّكُم – لكُم – أمركُم – لَبِثْتُم – قالُوا – لَبِثَنا – قالُوا – ربّكُم – لَبِثْتُم – فابْعَثُوا – أحدَكُم – بِورِقِكُم – فلْيأتِكُم – بِكُم – عليكُم – يَرجُمُوكُم – يُعِيدُوكُم – تُفْلِحُوا) .

عددُ الكلماتِ التي ذُكِرَ فيها أصحابُ الكهفِ بصيغةِ الغائبِ الجمعُ هو ٢٢ (آذانِهم – بَعثْناهُم – نبأهم – بِربِّهم – زِدْناهُم – قُلوبُهم – كَهْفِهِم – تَقْرِضُهُم – تَحْسَبُهُم – نُقَلِّبُهُم – كَلبُهُم – عليهِم – مِنهُم – مِنهُم – بَعثْناهُم – بينَهُم – مِنهُم – عليهِم – عليهِم – ربّهم – بِهم – عليهِم – رابِعُهُم – كلْبُهُم – سادِسُهُم – كَلْبُهُم – ثامِنهُم – كلْبُهُم – بِعِدَّتِهِم – يَعْلَمُهُم – فيهِم – فيهِم – كهفِهِم) .

في الآيتَينِ ١٧و ١٨ جاءَت كلمتَي (اليمينِ) (والشِّمالِ) كُل مِنهُما مرَّتَينِ. وعددُ الكلماتِ المَحصُورةِ بين أوَّلِ مجيءٍ لكلمةٍ (اليمينِ) وآخرِ مَجيءٍ لكلمةِ (الشِّمال) هو ٢٢ .

المجموعةُ الثالثةُ المتعلِّقةُ بالرقْم ١٨ :

– جاءتْ سُورةُ الكهفِ في القرآنِ الكريم (١٨) ترتِيبًا (٦٩) نُزولاً عددُ آياتِها

(١١٠) آية)[1].

– عددُ آياتِ قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ هو (١٨) تبدأُ بالآيةِ (٩) وتنتهي بالآيةِ (٢٦) الذي جاءَ ترتيبُها من بدايةِ القرآنِ الكريم (٢١٦٦) وهو يُساوي (١٩ X ١١٤) والرقْم (١٩) هو عددُ أحرُفِ البَسْمَلَة، والرقْمُ (١١٤) هو عددُ سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ).

– عددُ الكلماتِ التي تتعلَّقُ بِنعَمِ اللهِ تعالى هو ١٨ : (آياتِنا – رَحْمَةً – رَشَدًا – بِالحَقِّ – هُدَىً – السَّمَواتِ – الأرْض – رَحْمَتِه – مِرْفَقًا – الشَّمْس – آياتِ – رِزْق – حقّ – مَسجِد – رَشَدًا – السَّموات – الأرْض – حِكمَة).

– عددُ الكلماتِ التي يعودُ فيها الضميرُ على اللهِ عزَّ وجلَّ أو بِلَفْظِ الجَلالةِ هو ١٨ : (آياتِنا – فَضَرَبْنا – بَعَثْناهُم – لِنَعْلَمَ – نَحْنُ – نَقُصُّ – وزِدْناهُم – رَبَطْنا – اللهِ – اللهِ – اللهِ – نُقلِّبُهُم – بَعثْناهُم – أعْثَرْنا – اللهِ – اللهِ – اللهِ).

وتجدرُ المُلاحَظةُ إلى أنَّه تمَّ استثناءُ بَعضِ الكلِماتِ التي لا تنتمِي إلى هذه المجَموعة مِثل كلِمةِ (دُونِه) بالرغمِ من أنّ الضميرَ فيها يعودُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ إلاّ أنّ الكلمةَ كَكُلٍّ تدلُّ على غَيره.

وكذلكَ كلمةُ (أعلَم) فقَد ورَدَتْ بِصيغَةِ (اللهُ أعلَمُ) فقَد أخَذ مِنها اسمُ الجَلالةِ فقط، وكذلك كلمات (يُضْلِلْ – يُهيِّئ – يَهْدِيَن).

– عددُ المَرّاتِ التي ذُكِرَ فيها مُحمَّدٌ **صلى الله عليه وسلم** هو ١٨ : (حَسِبْتَ – عَلَيكَ – وتَحْسَبُهُمْ – اطَّلَعْتَ – لَولَّيْتَ – ولَمُلِئْتَ – قُلْ – رَبِّي – تُمارِ – تَسْتَفْتِ –

[1] الموسوعةُ الإسلامية (ج٩/ ص ١٩٢٦).

تَقُولَنَّ – إنِّي – اذْكُرْ – رَبَّكَ – نَسِيْتَ – قُلْ – رَبِّي – قُل) .

– عددُ الكلماتِ المتعلِّقةِ بالأعدادِ هو ١٨ : (عَدداً – الحِزْبَينِ – يوماً – يوم – أحدكُم – أحَد – ثلاثةٌ – رابِعُهُم – خَمْسَةٌ – سادِسُهُم – سَبْعَةٌ – ثامِنُهُم – بِعِدَّتِهِم – أحَدٌ – ثلاثمائةٍ – تِسْعًا – أحَد)مع ملاحَظةِ أنَّ كلمةَ (الحِزْبَينِ) تُعتبَرُ كلمتَينِ .

عددُ الكلماتِ التي تتعلَّق بِالزَّمَنِ هو ١٨ : (سِنينَ – لَبِثُوا – أمداً – لَنْ – طَلَعَتْ – غَرَبَتْ – فَلَنْ – لَبِثْتُم – لَبِثْنا – يوماً – يومٌ – لَبِثْتُمْ – لَن – أبَداً – غَداً – لَبِثُوا – سِنِينَ – لَبِثُوا) .

– عددُ كلمةِ (مِن) بِصيغَها كُلِّها مِن، مِنهُ، مِنهُم هو ١٨ .

– عددُ الكلماتِ التي يعودُ الضميرُ فيها على قومِ أصحابِ الكهفِ هو ١٨ : (قومُنا – اتَّخَذُوا – يأتُونَ – اعْتَزَلْتُمُوهُم – يَعبُدُونَ – إنَّهُم – يَظْهَرُوا – يَرْجُمُوكُم – يُعِيدُوكُم – مِلَّتِهِم – يَتنازَعُونَ – بَينَهُم – أمْرَهُم – فقَالُوا – ابْنُوا – غَلَبُوا – أمْرَهُم – لَنَتَّخِذَنَّ) .

مَلخَّصُ المَوضُوعِ

المجموعةُ الأولى المتعلِّقةُ بالرقْم ٢٠٩ :

- عددُ الكلماتِ من (لَبِثُوا) الأولى وحتّى (لَبِثُوا) الثانيةُ هو ٢٠٩
- عددُ الكلماتِ من كلمةِ (الرَّقيم) وحتّى كلمة (تِسْعًا) هو ٢٠٩
- عددُ السَّنواتِ التي لَبِثَها أصحابُ الكهفِ هو ٢٠٩

المجموعةُ الثانيةُ المتعلِّقةُ بالرقْم ٢٢ :

- مجموعُ الأرقامِ الواردةِ في الآيةِ ٢٢ هو ٢٢
- عددُ كلماتِ الآيةِ ٢٢ هو ٢٢
- عددُ الكلماتِ من كلمةِ(أمْ حَسِبْتَ) إلى كلمةِ (عَدداً) هو ٢٢
- عددُ الكلماتِ التي تعودُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ هو ٢٢
- عددُ المرَّاتِ التي ذُكِرَ فيها أصحابُ الكهفِ بصيغةِ المتَّحَدِّث هو ٢٢
- عددُ المرَّاتِ التي ذُكِرَ فيها أصحابُ الكهفِ بضَميرِ الغائبِ الجمعُ هو ٢٢
- عددُ الكلماتِ بين كلمةِ (اليمينِ) الأولى و(الشِّمال) الثانيةُ هو ٢٢

المجموعةُ الثالثةُ المتعلِّقةُ بالرقْم ١٨ :

- ترتيبُ سورةِ الكهفِ في القرآنِ الكريمِ هو ١٨
- عددُ الآياتِ المتعلِّقةِ بأصحابِ الكهفِ هو ١٨
- عددُ المرَّاتِ التي ذُكِرَتْ فيها نِعَمُ اللهِ تعالى ١٨
- عددُ المرَّاتِ التي ذُكِرَ فيها اللهُ عزّ وجلَّ ١٨
- عددُ المَرّاتِ التي ذَكِرَ فيها مُحمَّدٌ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم ١٨
- عددُ المرَّاتِ التي ذُكِرَ فيها كلماتٌ تتعلَّقُ بالأعدادِ ١٨
- عددُ المرَّاتِ التي ذَكِرَ فيها كلماتٌ تتعلَّقُ بِالزَّمَن ١٨
- عددُ المرَّاتِ التي ذُكِرَ فيها حرْفٌ من ١٨
- عددُ المرَّاتِ التي ذُكِرَ فيها قومُ أصحابِ الكهفِ ١٨

ولقد بَشَّرَ رسولُ البشريَّةِ مُحمَّدٌ **صلى الله عليه وسلم** بفَتحِ القُسطنطينيَّةِ؛ فعَن عبدِ اللهِ بنِ بِشْرِ الخَثْعَمِيِّ عن أبيهِ أنّه سَمِعَ رَسُولَ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** يقولُ:

"لَتُفْتَحَنَّ القُسْطَنْطِينِيَّةُ فَنِعْمَ الأميرُ أميرُها، ولَنِعْمَ الجَيشُ ذلكَ الجَيشُ" (١)

ظلَّ حُلمُ فَتْحِ القُسطنطينيَّةِ يُداعِبُ خيالَ الفاتحِينَ المُسلِمينَ ثمانيةَ قُرونٍ كاملةٍ، وَجَرَتْ مُحاوَلاتٌ عَديدةٌ لِفَتْحِها؛ لكنَّها لم تتمّ؛ وذلكَ مِن عَهْدِ الصَّحابيِّ الجليلِ مُعاويةَ بنِ أبي سُفيانَ رَضِيَ اللهُ عنهُ. كلُّهُم يودُّ أن يكونُ هو صاحِبُ البِشارةِ النبويّة. فمَن صاحِبُ تلك البِشارَة؟ إنَّه السُّلطانُ العُثمانيُّ السابِعُ مُحمَّدٌ الفاتحُ بنُ السُّلطانِ مُراد الثاني (٨٢٥هـ- ١٤٢٢ / - ٨٨٦ هـ- ١٤٨١ م). فمَن ذاكَ الرَّجُلُ الذي أسَّسَ تلك المَدينةِ التي سُمِّيَتْ باسْمِه وبَشَّرَ **صلى الله عليه وسلم** بِفَتْحِها على أيدي المُسلِمينَ؟

إنّه قُسطنطِينُ الأوَّلُ، ولَقَبُه قُسطنطينُ العظيمُ الرَّجُلُ الذي حوَّلَ الإمبراطوريَّةَ الرُّومانيَّةَ إلى النَّصرانيَّةِ ومنعَ قتلَ أتْباعِ المَسيح وهَدمِ كنائِسهِم وأعادَ إليهِم حُقوقَهُم ومُتلكاتِهم. فهلْ لقُسطنطين الأوّلِ علاقةٌ بسُورةِ الكهفِ؟ دون شَكٍّ نعم.

لقد فرَّ أصحابُ الكهفِ وهُمْ مِن أتباعِ المسيح عليهِ السَّلامُ من الطُّغاةِ الرُّومانِ إلى الكهفِ، ولَبِثُوا فيه ثلاثمائةٍ سِنينَ وازْدادُوا تِسْعًا، ثُمَّ بَعثَهُمُ اللهُ في عهدِ الرُّومانيَّةِ النَّصرانيَّةِ التي أقامَها قُسطنطين.

تقعُ سُورةُ الكهفِ في منتصفِ القرآنِ الكريمِ في نهايةِ الجُزء ١٥ وبدايةِ الجُزء ١٦، والسُّورةُ التي تليها مُباشَرةً هي سورةُ مريم أمِّ المَسيح عليهِ السَّلامُ رقْمُها ١٩ وعددُ آياتِها ٩٨.

---

١ مُسنَدُ الإمامِ أحمد (١٨١٨٩)، والحاكِمُ في مُستدْرَكِه (٨٢٠٠)، والطَّبرانيُّ في مُعجَمِه الكبير(١٢١٦)، والبُخاريُّ في التاريخِ الكبيرِ (١٧٦٠).

فلو جمَعْنا رقْمَها وعددُ آياتِها لكانَ الناتجُ ١٩ + ٩٨ = ١١٧ وهذا يُمثِّلُ تاريخَ الفترَةِ الأعنفِ بالتنكيلِ بأتْباعِ المَسيحِ عليهِ السَّلامُ في ظِلِّ الطُّغيانِ الرُّومانيُّ. والسُّورةُ التي تلي سُورةَ مَريم هي سُورة طه رقْمُها ٢٠ وعددُ آياتِها ١٢٥، ولو جمَعْنا رقْمَها وعددُ آياتِها لكان الناتجُ: ٢٠ + ١٢٥ = ١٥٥، لِنجْمَع رقْمَي سُورتَي مريم وطه: ١١٧ + ١٥٥ = ٢٧٢. فماذا يعني هذا الرقْمُ؟ يعني سَنَةَ ميلادِ قُسطنطين الأوّل.

كذلكَ لو جمَعْنا أرقامَ السُّورتَينِ اللتَينِ سبَقَتا سُورةَ الكهفِ حسبَ تسلسلِ السُّوَرِ في القرآنِ الكريمِ وهُما سُورة النحلِ رقْمُها ١٦ وعددُ آياتِها ١٢٨ وسُورةُ الإسراءِ رقْمُها ١٧ وعددُ آياتِها ١١١ فيكون: ١٦ + ١٢٨ + ١٧ + ١١١ = ٢٧٢. النتيجةُ واحدةٌ وهي السَّنَةُ التي وَلِدَ فيها مُخلِّصَ النَّصارى من الاضْطهاد. وماذا بعدُ؟ في أيِّ عَهْدِ فتْحِ مُحمَّدٍ الفاتحِ القُسطنطينيَّة؟ فتحَها في عهدِ قُسطنطين الحادي عشرَ بعدَ ١١ قرنًا من تأسيسِها. إذا انطلَقْنا من سُورةِ الكهفِ ١١ سورةً تمامًا كما هو عددُ القرونِ التي عاشتْها المدينةُ في ظلِّ الرُّومانيّة، وكما هو ترتيبُ حاكِمها الذي سقطتْ في عَهدِه وهو قُسطنطين الحادي عشرَ. لنعدْ سويَّةً ولْنَشْهَدْ عظمةَ القُرآنِ الكريمِ:

العددُ	اسمُ السُّورة	رقْمُها	عددُ آياتِها	المجموعُ
١	الكهف	١٨	١١٠	١٢٨
٢	مريم	١٩	٩٨	١١٧
٢	طه	٢٠	١٢٥	١٥٥
٤	الأنبياء	٢١	١١٢	١٢٢
٥	الحجُّ	٢٢	٧٨	١٠٠
٦	المُؤمنون	٢٢	١١٨	١٤١
٧	النور	٢٤	٦٤	٨٨
٨	الفُرقان	٢٥	٧٧	١٠٢
٩	الشُّعراء	٢٦	٢٢٧	٢٥٢
١٠	النَّحل	٢٧	٩٢	١٢٠
١١	القَصَصُ	٢٨	٨٨	١١٦
المجموع: ٢٥٢ + ١٢٠٠ = ١٤٥٢				

والرقْم ٢٨ هو عددُ أحرُفِ اللغةِ العربيَّة. وتقولُ آخرُ آيةٍ في سُورةِ القَصَصِ (**ولا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) (القَصَص :٨٨) والرقْم ١٤٥٢ هو تاريخُ سُقوطِ القُسطنطينيَّةِ التي سُمِّيَتْ: "إسلامَ بول" أيّ "مدينة الإسلام"، ولا زالتْ "اسطنبول" إلى يومِنا هذا تحت حُكْمِ المُسلمينَ.

وفي مقالٍ نُشِرَ على الانترنيت رجَّحَ عطيَّة زاهِدة أنّ أصحابَ الكهْفِ والرَّقيم كانُوا ١٨ فتىً، ونامُوا ٢٩٠ سَنةً شمسيّةً فقال:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا. إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا. فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ مضى أربعة عشرَ قرنًا والمُسلِمُونَ يَجْهَلُونَ كم كان عَددُهُم، وكمْ سَنةً امتدَّ رُقودُهُم.

وقد يستغرِبُ القارئُ أنَّ آياتِ القِصّةِ نفْسها تُخبِرُ الناسَ ضِمنيًّا أنَّ عددَ الفِتيةِ ١٨ فكيفَ ذلكَ؟

١ – مِن المَعلُومِ أنَّ ترتيبَ سورةِ الكهفِ هوَ ١٨ .

٢ – وأنّ كلمةَ (بِعِدَّتِهم) جاءتْ في الآيةِ المُتحَدِّثةِ عن عَددِهِم في مَوضعِ الرَّقْم ١٨ : سَيَقُولُونَ – ثلاثةٌ – رابِعُهُم – كلْبُهُم – ويَقُولُونَ – خَمْسَةٌ – سادِسُهُم – كَلْبُهُم – رَجْمًا – بِالغَيبِ – ويَقولُونَ – سَبْعَةٌ – وثامِنُهُم – كلْبُهُم – قُل – رَبِّي – أعلَمُ – بِعِدَّتِهِم.

٣ – وأنّ مجموعَ الأعدادِ الترتيبيةِ في الأقوالِ (رابِعُهُم، سادِسُهُم، ثامِنُهُم) : ١٨ .

٤ – وأنّ عددَ آياتِ القِصّةِ هو ١٨ .

أفَلا يدلُّ كُلُّ ذلكَ على أمرٍ واحدٍ، هوَ عِدَّةُ الفِتيةِ؟ ثُمَّ أَلا يوجَدُ في القِصَّةِ نصٌّ يتضمَّنُ أنَّهم كانوا ١٨؟ نعمْ، يُوجَدُ نصٌّ يتضمَّنُ أنَّ عِدَّةَ الفِتيةِ ثمانيةَ عشرَ وهو قولُ اللهِ تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ .

فأيُّ الآياتِ هيَ هذهِ الآياتُ؟ هيَ بالتأكيدِ آياتُ القرآنِ الكريمِ. ويُعَزِّزُ ذلكَ أمرانِ:

- مُناسَبةُ نُزولِ سُورةِ الكهفِ.
- الرأيُ القائلُ بأنَّ (أمْ) في الآيةِ المَذكُورةِ هيَ المُتَّصِلَةُ لا المُنْقَطِعَةُ.

أوّلاً: كيفَ تدعمُ مُناسَبةُ النُّزولِ أنَّ الآياتِ المَقصُودةَ في الآيةِ الأولى مِنَ القِصَّةِ هيَ آياتُ القُرآنِ المجيدِ، وليسَتْ مُجَرَّدَ علاماتٍ ودلائلَ على القُدرَةِ الإلهيّةِ. فبعدَ توجيهِ السُّؤالِ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلّمَ عَنِ الرُّوحِ والرَّجُلِ الطَّوافِ والفِتيةِ وَعَدَ السَّائِلينَ بالإجابةِ في الغَدِ. وكانَ يَقصدُ أنْ يَأْتِيَهُ الوحيُ في الغَدِ بآياتٍ قُرآنيّةٍ تقودُهم إلى الإيمانِ؛ إذْ حَسِبَ أنَّ تلكَ الآياتِ القرآنيةَ ستَكُونُ ذاتَ عَجَبٍ يَجْعلُهم يَهتَدُونَ.

ثانيًا: كيفَ تُؤيِّدُ (أمْ) المُتَّصِلَةُ أنَّ الآياتِ المَقصُودةَ في الآيةِ الأولى مِنَ القِصَّةِ هيَ آياتُ القُرآنِ الكريمِ؟

اعتبرَ بعضُ العُلماءِ (أمْ) في الآيةِ مُتَّصِلَةً؛ أيْ: أنَّ الحديثَ بعدَها مُتَّصِلٌ بالحديثِ الذي جاءَ قبلَها؛ فهُناكَ صلةٌ واتِّصالٌ بينَ ما جاءَ قبلَها وبينَ ما جاءَ بعدَها. جاءَ بعدَها خطابٌ للرَّسولِ صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ) وهوَ "أمْ حَسِبْتَ" ومِنَ المَنطقيِّ أنْ يتَّصِلَ هذا الخِطابُ بِخطابٍ سَبَقَ (أَمْ) فأينَ هوَ هذا الخِطابُ الذي سَبقَها؟

لا ريبَ أنَّهُ الخِطابُ الواردُ في قولِ اللهِ تعالى (**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**). أجلْ: إنَّ المقصودَ مِنْ هذا الحديثِ هوَ آياتُ القرآنِ الكريمِ؛ لِذا فإنَّ اتِّصالَ ما بعدَ (أمْ) بِما قبلَها يقودُ إلى أنَّ (مِنْ آياتِنا) تقصدُ آياتِ القرآنِ المجيدِ.

نعودُ إلى قولِ اللهِ تعالى (**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا**) . فَمِنْ مُنْطَلَقِ ما تقدَّمَ يُمكِنُ أنْ نفْهمَ الآيةَ هكذا: أمْ حَسِبْتَ أنَّ الآياتِ المُتَّحَدِّثةَ عَنْ نبأِ أصحابِ الكهفِ والرقيمِ ستكونُ آياتٍ ذاتَ عَجَبٍ مِنْ دُونِ سائرِ آياتِ القُرآنِ المجيدِ، أوْ أنَّها ستكونُ أعجبَ منها، وأنَّها هي وَحْدَهاَ ستجعلُ قومَكَ يُؤمِنُونَ ويَهتَدونَ، ولا تعودُ بعدَ ذلكَ باخِعًا نَفْسَكَ على آثارِهِمْ. ووَفْقَ ما يَسيرُ عليهِ القُرآنُ الكريمُ منَ الإيجازِ؛ فلوْ لم يكُنِ القصدُ منَ الآياتِ هوَ آياتُ القُرآنِ نفْسِهِ ربمّا جاءَتِ الآيةُ هكذا: أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصحابَ الكهفِ والرَّقيمِ كانُوا عَجَبًا.

ممّا سَبَقَ نَصِلُ إلى أنَّ أصحابَ الكهفِ والرَّقيمِ كانوا مِنْ آياتِ القُرآنِ المجيدِ. وآياتُ القُرآنِ المجيدِ كلُّها عَجَبٌ. فَكَمْ آيةً مِنْ آياتِ القرآنِ الكريمِ كانُوا؟

إنَّهُم كانُوا ثمانيَ عشرةَ آيةً؛ وبِذلكَ فإنَّهم كانُوا ثمانيةَ عشرَ فتىً. وقِصَّةُ هؤلاءِ الفِتْيةِ هيَ مِنْ آياتِ اللهِ تعالى، وقدْ جعلَهُم آياتٍ في حديثِ القُرآنِ الكريمِ؛ فهَذهِ الآياتُ هيَ: "هُمْ". فهُمْ آياتٌ مِنَ القرآنِ الكريمِ، كانُوا آياتٍ مِنْ آياتِهِ العَجَبِ، فَعِدَّتُهُمْ هيَ عَدَدُ هذهِ الآياتِ، وعددُ هذهِ الآياتِ هوَ ١٨، فعِدَّتُهم إذنْ ١٨.

ويجدُرُ بِنا أنْ نتذكَّرَ قِصَّةَ الذي أماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ وجعلَهُ آيةً للعِبْرَةِ، وهذهِ الآيةُ صارتْ هذهِ "الآيةَ" الكريمةَ: (**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى**

حِمارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيةً للناسِ، وَانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسوها لَحْمًا. فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة : ٢٥٩) .

إنَّ "العُزَيْرَ" آيةٌ على قُدرةِ اللهِ تعالى على الإحياءِ، وجاءَ الحديثُ عَنْها في آيةٍ واحدةٍ؛ أيْ: جعلَهُ اللهُ تعالى آيةً قُرآنيةً. والفِتيةُ أيضًا هُمْ آياتٌ على قُدرةِ اللهِ تعالى على الإحياءِ، وهُمْ مُتساوُونِ؛ فكلٌّ مِنْهُمْ في ذلكَ هوَ وحدَهُ " آيةٌ " . ولَمَّا كان العُزَيْرُ " آيةً " ، وجاءَ ذِكْرُهُ في آيةٍ واحدةٍ فقط، وكانَ أمرُ الفتيةِ في الدلالةِ النهائيةِ أيضًا مُماثِلاً لأَمْرِهِ، فإنَّ عددَ الآياتِ التي ذَكَرَتْهُمْ هُوَ على قَدْرِ عِدَّتِهِمْ كَما ذُكِرَ العُزيْرُ في آيةٍ واحدةٍ على مِثلِ قَدْرِهِ. وعددُ الآياتِ التي قدْ قَصَّتْهُمْ هوَ ١٨؛ فعدَّتُهم إذًا تُساوي ١٨ أيْ إنَّ آياتِ قصتِهِمْ، آياتِ النبأِ الحقِّ، قدْ جاءتْ في عَددٍ مِنَ الآياتِ يُساويهِم في العَددِ.

وفِتيةُ الكهْفِ – في مَعرِفَتِنا – هُمْ آياتٌ قرآنيةٌ؛ فنحنُ نَعْرِفُهُمْ آياتٍ في قَصَصِ القُرآنِ المجيدِ لا أشخاصًا. فَكَمْ آيةً مِنَ الآياتِ هُمْ؟ أصحابُ الكهفِ هُمْ آياتٌ قرآنيةٌ. فَمَنْ هُمْ في عِلْمِنا؟ هُمْ تلكَ الآياتُ القرآنيةُ المجيدةُ. هُمْ آياتُ نَبَئِهم تحَوَّلوا مِنْ شُخوصٍ إلى آياتٍ، صاروا آياتٍ قُرآنيةً كريمةً. فالسُّؤالُ كَمْ هُمْ؟ هوَ سُؤالٌ مُساوٍ لهذا السّؤالِ: كَمْ هِيَ آياتُ نبئِهم؟... هم آياتُ قصتِهم، وآياتُ قصتِهم هيَ: هُمْ. فالسُّؤالُ كم هِيَ عِدَّتُهم؟ هوَ في الحقيقةِ نصٌّ آخرُ لِلسُّؤالِ القائلِ: كَمْ هُوَ عددُ آياتِ قِصَّتِهم؟ وأقولُ مُخْتَصِرًا – مُعْتَذِرًا عَنِ التكريرِ والتَّطْويلِ وعَنِ التدويرِ والتحويلِ – .

أقولُ: كانَ أصحابُ الكهفِ والرَّقيمِ" آياتٍ قرآنيّةً، وهذهِ الآياتُ: ثمانِيَ عَشرةَ آيةً، فَهُمْ إذن: ثمانيةَ عَشرَ فَتىً.

ونامَ أهلُ الكهفِ ٢٩٠ سَنةً شمسيّةً " ثلاثمائةٍ وتِسْعين " ! يقولُ عالِمُ الغَيبِ والشهادةِ في حقِّهِم (**فَضَرَبْنا عَلى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَدًا**). ويقولُ سُبحانَهُ: (**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدادُوا تِسْعًا**).

حَسَنًا: فمُدَّةُ النَّومِ تَزدادُ عَنْ ثلاثةٍ مِنَ القُرونِ بِتِسْعٍ؛ فأيُّ تِسْعٍ هيَ؟ هيَ إمَّا تِسْعٌ آحادٌ، وإمَّا تِسْعٌ منَ العَشراتِ.

أرَى أنَّ نَوْمَ الفِتيةِ هوَ أربَعةُ قُرونٍ إلاّ عَشرَ سِنينَ شَمسيّةً؛ فالآياتُ تحدَّثَتْ عَنْ تَزاوُرِ الشَّمسِ وقَرْضِها.

حَسَنًا: إذا كانتِ الثلاثُ مِنَ المِئاتِ، فمِمَّ تكونُ التِّسْعُ؟

لا ريْبَ أنَّ الأُولويَّةَ في التنازُلِ هيَ للعَشراتِ. فلا السِّياقُ ولا القَرائِنُ تُلْزِمُ بالانْصِرافِ عنها إلى الآحادِ...

واختِصاراً: لَبِثَ الفِتيةُ في الكَهفِ رُقوداً ثلاثًا منْ مِئاتِ السِّنينَ، وتِسعًا مِنْ عَشراتِها.

تِسعٌ تبلغُ التِّسعينَ: نَعودُ إلى " تِسْعًا " حيثُ لا يُمكِنُ لأحَدٍ أنْ يُنْكِرَ أنَّ مَجيئَها عاريةً مِنَ (الإضافةِ أوِ البدلِ أوِ التمييزِ). هوَ مَجيءٌ يُوجِبُ وُجودَ حَذفٍ.

وقدْ تبادرَ للمُفسِّرينَ أنَّ هناكَ مَحذوفًا واحِداً بعدَ " تِسْعًا " هوَ كلمةُ " سِنينَ ".

وهُمْ في ذلكَ على نِصفِ الحقِّ، وأمَّا الحقُّ فَيَكْتَمِلُ بوُجودِ مَحذُوفَيْنِ؛ فما المَحذُوفُ الآخرُ؟

مِنْ حقِّ "تِسْعًا" وحقِّنا أنْ نُقَدِّرَ بَعْدَها مَحْذُوفَيْنِ لأنَّ بَعْدَ "ثلاثٍ" مَذكُورَيْنِ؛ فقدْ جاءتْ "ثلاث" مضافةً إلى مِائَةٍ، وجاءتْ "مائة" مُضافةً إلى سنينَ وَفْقَ قراءةِ: "ثَلاثِ مائةِ سِنينَ"، أيْ: بقِراءةِ: "مِائة" بِكَسْرِ التاءِ لا بِتَنوينِ الكَسْرِ.

إنَّ القُرآنَ الكريمَ يُحدِّثُ العَربَ وَفْقَ أنظمةِ البيانِ وأنظِمةِ الحسابِ التي تواضَعوا عليها، ومِنْ ذلكَ النظامُ العِشريُّ؛ ففي بيانِ الحسابِ ينتقلُ الناسُ مِنَ الآحادِ إلى العَشراتِ إلى المئاتِ إلى الأُلوفِ وهكذا... أجلْ؛ فإنَّ مُعامَلَةَ "تِسْعًا" على غِرارِ مُعامَلةِ "ثلاث". وحَسَبَ النظامِ العِشريِّ تقُودُنا إلى أنَّ المَحذُوفَيْنِ هُما: كلمةُ "عَشراتٍ" أوْ "عَشرةٍ" أوْ "عَشرَةً" وكلمةُ "سِنينَ"؛ أيّ: تقديرُهُما معًا هوَ مِنْ هذه:

١ – وازْدادُوا تِسْعًا – عَشراتٍ سِنينَ – وتِسعُ عَشَراتٍ هيَ ٩٠.

٢ – وازْدادُوا تِسْعَ – عَشَرةٍ سِنينَ ــ نَقْرأُ "عَشَرة" بتنوينِ الكَسرِ، أيّ: "عَشرةٍ"؛ فتكونُ الزيادةُ بِذلكَ مُساويةً التِّسعينَ.

٣ – وازْدادُوا تِسْعَ عَشَرَةِ سِنينَ – نقْرأُ كلمةَ "عَشَرَة" بكَسْرِ التاءِ المَربُوطةِ –؛ فتكونُ الزيادةُ ثلاثةَ ثلاثِينَ (٢ × ٢٠). ولا نَقْرَأُها هكذا "تِسْعَ عَشَرةَ" بِفَتْحِ الكلِمتَينِ؛ لأنَّها بذلكَ تَعْني عِشرينَ إلاّ واحِدةً.

٤ – وازْدادُوا تِسْعًا عَشرةً سِنينَ – تاءُ "عَشَرَةً" بالفَتحِ المُنَوَّنِ – وهذا التقديرُ

لِلمحذُوفَينْ يُبقي " تِسْعًا" على حالِها مِنْ وُجودِ الألفِ المُنوَّنةِ في آخرِها، ويُظْهرُها بقيمةِ ٩ × ١٠ = ٩٠ فهُوَ أقربُها رَشَدًا.

ولا أجِدُ في التفاسيرِ الوجيهةِ اعتباراً لِتسْعٍ بغَيرِ السِّنينَ؛ فالتِّسْعُ تَتَطَلَّبُ مَعدُوداً مِنْ وَحداتِ الزَّمَنِ مُفردُهُ مؤنَّثٌ، وهذا المُفرَدُ هوَ السَّنَةُ؛ لأنَّ اللَّبثَ كانَ عدداً صحيحًا مِنَ السِّنينَ: (**فَضَرَبْنا عَلى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا**) فلمْ يَعتبِرُوها "تِسْعَ لَيالٍ"، ولا "تِسْعَ ساعاتٍ"، ولا "تِسْعَ دقائِقَ"، ولا حتّى "تِسْعَ ثوانٍ".

حَسنًا: عِندَ العدِّ بِالمِئاتِ وَفْقَ النِّظامِ العِشريِّ؛ فإنَّنَا في حالةِ التصاعُدِ ننتقِلُ مِنها إلى الأُلوفِ، وفي حالةِ التنازُلِ ننتقِلُ مِنها إلى العَشراتِ. وبما أنَّ الزيادةَ فوقَ الثَّلاثمائةِ هي – حتْمًا – أقلُّ مِنَ المائةِ؛ فإنَّنا نعتبِرُ العدَّ في حالةِ تنازُلٍ؛ أيّ: إنَّنا نُمرُّ أوّلاً بِخانَةِ العَشراتِ، لا قَفْزًا مِنَ المِئاتِ إلى الآحادِ مُباشرةً؛ فالأوْلَوِيَّةُ هيَ اعتبارُ أنَّ "تِسْعًا" تحتلُّ مَكانًا في خانةِ العَشراتِ. وفي سُورةِ الأنفالِ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ التنازُلَ في النظامِ العِشريِّ ينتقِلُ مِنْ خانةِ المِئاتِ إلى خانةِ العَشراتِ، يقولُ اللّهُ تعالى في الآية ٦٥ من سُورةِ الأنفالِ: (**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ**).

فالنِّظامُ العِشريُّ واضِحٌ في الآيةِ الكريمةِ؛ فقَدْ تمَّ التَصاعدُ مِنْ خانةِ العَشراتِ إلى خانةِ المِئاتِ، ومِنْ المِئاتِ إلى الأُلوفِ؛ فالتصاعدُ مِنْ عِشْرينَ إلى مِائتَينِ هو عَكْسُ التنازُلِ مِنْ مائةٍ إلى عَشرةٍ؛ ولكِنَّهُ مِثْلُهُ نِظامًا.

إشاراتٌ إلى ٢٩٠ :

ولا ريْبَ أنَّكَ مُدركٌ أنَّ غيرَ المَذكورِ صَريحًا في اللَّبث هوَ: تِسْعٌ، ومَدارُ البَحثِ كلِّهِ هوَ: هلْ تِسْعٌ هذهِ تِسْعٌ منَ الآحادِ، أمْ تِسْعٌ منَ العَشراتِ. ويَجري البحثُ وفقَ ثلاثةِ ضوابطَ:

١ – عددُ السِّنينَ هو أقلُّ مِنْ ٤٠٠ وأكثرُ مِنْ ٢٠٠.

٢ – اللَّبثُ عددٌ صحيحٌ منَ السِّنينَ.

٣ – لا يوجدُ في العَددِ إلاّ رقْمانِ هُما: ثلاثٌ، وتسعٌ. والثلاثُ هيَ مِئاتٌ.

وبناءً على هذهِ الضوابطِ فهُناكَ احتمالانِ لتحقيقِها هُما: ٢٠٩ و ٢٩٠. وكُلُّ ما نفعلُهُ هوَ مناصرةُ العددِ ٢٩٠ بالأدلّةِ والبراهينِ.

١ – رَقْمُ سِنينَ في سُورةِ الكهفِ هوَ ٢٩٠. نبدأُ بالعدِّ منْ أوّلِ السُّورةِ، فإذا ما وصَلْنا إلى كلمة " سِنينَ " في الآيةِ **(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)** تجدُنا نقولُ: ٢٩٠ " ثَلاثَمائةٍ وتِسْعِينَ " أيّ: إنَّ كلمةَ " سِنينَ " هذه في السُّورةِ ضُرِبَتْ في مَوضعٍ عَدَدُهُ ثَلاثُمائةٍ وتِسْعُونَ. فَما عددُ كلمةِ "سِنينَ" التي في "ثلاثِ مِائةٍ سِنينَ"؟.. ما رقمُ ترتيبِ "سنينَ"؟ كمْ عددُ كلمةِ "سِنينَ" في سورةِ الكهفِ؟ ما العددُ المَضرُوبُ على " سِنينَ " في تفصيلِ القِصَّةِ؟ إنَّ "سِنينَ" مِنْ حيثُ عدَدُها، أو رَقْمُ ترتيبِها، هيَ: ٢٩٠.

واختِصاراً: لَبِثَ الفتيةُ في الكهفِ مِنَ السِّنينَ عددَ " سِنينَ " في سُورةِ الكهفِ، وعددُ " سِنينَ " في السُّورةِ هوَ ثلاثُمائةٍ وتِسْعُونَ. والعَربُ تُسمِّي رقْمَ الترتيبِ عَدداً.

فماذا تستنتجُ منْ توافقٍ كهذا؟ لقد أخذتْ " سنين " العددَ ٢٩٠.

٢ – ٢٩٠ من الشَّمسِ والضَّمير: وتَرَى (١٨٩) الشّمسَ (١٩٠) إذا (١٩١) طَلَعَتْ (١٩٢) تَزَاورُ (١٩٢) عنْ (١٩٤) كَهْفِهِم (١٩٥) ذاتَ (١٩٦) اليَمينِ (١٩٧) وإذا (١٩٨) غَرَبَتْ (١٩٩) تَقْرِضُهُم (٢٠٠) ذاتَ الشِّمالِ...

عندَ ترقيمِ كلماتِ سُورةِ الكهفِ بَدءًا مِن " الحَمْدُ " نَجِدُ الشمسَ تحتلُّ الرَّقْمَ ١٩٠، ثُمَّ يحتلُّ آخرُ ضميرٍ عائدٍ عليْها في " تَقْرِضُهُم " الرقْمَ ٢٠٠، ومَجموعُهما ٢٩٠، وبَعدَ "تَقْرِضُهُمْ لمْ يَجْرِ لها ذِكْرٌ.

الشّمسَ (١٩٠). تقرِضُهم (٢٠٠). مجموعُهما ١٩٠ + ٢٠٠ = ٢٩٠.

لقدْ طلَعتِ الشَّمْسُ في الرَّقْمِ ١٩٠ منْ سُورةِ الكهفِ، وقدْ غَرَبَتْ في الرَّقْمِ ٢٠٠ منَ السورةِ، وفي القِصَّةِ نفْسِها – فماذا تَستنتِجُ بعدَ أنْ يخرجَ مجموعُ الرَّقْمَيْنِ ٢٩٠؟

٣ – بالعَودةِ إلى قولِ اللهِ تعالى: **(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا، قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)** يُوجَدُ بعدَ واوِ العطفِ في " **وازْدادُوا** " إلى آخرِ القِصَّةِ يُوجَدُ ٩٠ حَرْفًا " **بالرَّسْمِ** العُثمانيِّ للمُصحَفِ. ولمّا كانتِ "الواو" تأتي عندَ العَرَبِ في حِسابِهِم تأتي بَدلاً مِن قولِهم: زائد (+) فإنّني آخذُ الواوَ الأُولى – واوَ العطف – في " وازْدادُوا " آخذُها في محلّ: +. ومِن هُنا يكونُ ما بعدَ " ثلاثَ

مائَةٍ سِنِينَ " مِن عددِ الحُروفِ إشارةً إلى زيادةٍ مِن تِسْعِينَ سَنةً؛ فكأنَّها هكذا: ٢٠٠ و٩٠، أيّ: ٢٠٠ + ٩٠ = ٢٩٠

وَقَفاتٌ ودُروسٌ وعِظاتٌ

– إثباتُ صِدْقِ الرَّسُولِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فِيما يُبلِّغُه عن رَبِّه؛ حيث أخبرَ عن قِصَّةِ هؤلاءِ الفِتيَةِ، وبيَّنَ وَجْهَ الحقِّ في شأنِهم ورَدَّ على ما خاضَهُ الخائِضُونَ في أمْرِهم، وصَدَقَ اللهُ إذْ يَقولُ: (**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَقِّ**) .

– الكشفُ عن جانبٍ من بلاغةِ القُرآنِ الكريمِ في قَصَصِه؛ حيث ساقَ هذه القِصَّةَ مُجْمَلَةً في الآياتِ الأربَعِ الأُولى مِنها، ثُمَّ فَصَّلَها بعدَ ذلكَ تفصيلاً حكيمًا؛ والمُرشِدُ العاقِلُ هو الذي ينتفِعُ بهذا الأسلوبِ القُرآنيِّ وفي وَعْظِه وإرشادِه.

– إنّ الإِيمانَ متى استقرَّ في القلوبِ هان كلُّ شيءٍ في سبيلِه؛ فهؤلاءِ الفِتيَةُ آثرُوا الفِرارَ بِدينِهم على البقاءِ في أوطانِهم؛ كي تسلَم لهُم عقيدتُهم.

– إنّ التفكيرَ السليمَ والنِّيَّةَ الطَّيِّبةَ والعَزيمةَ الصادقةَ كُلُّ ذلك يؤدِّي إلى الهدايةِ، وأنّ القُلوبَ النَّقيّةَ الطاهِرةَ تتعاونُ على البرِّ والتَّقوى، وأنَّ فَضْحَ الباطِلِ والكشْفَ عن زَيفِه دليلٌ على سلامةِ اليقينِ؛ فهؤلاءِ الفتيةُ اجتمعُوا على الحقِّ، ورَبَطَ اللهُ على قلوبِهم؛ إذْ قامُوا في وَجْهِ الباطلِ، وهَداهُم تفكيرُهُم السليمُ إلى أنَّ المُستحقَّ لِلعبادَةِ هو رَبُّهُم رَبُّ السَّمواتِ والأَرْضِ، وأنّ مَن يعبُدُ غيرَه يكونُ قد افتَرَى على اللهِ كَذِبًا، وأنّ اعتزالَ الكُفْرِ يُوصِلُ إلى نَشْرِ الرَّحمَةِ والظفَرِ بالسَّدادِ والتوفيقِ.

– إنّ مُباشرةَ الأسبابِ المَشرُوعةِ لا تتنافى مع التوكُّلِ على اللهِ تعالى؛ فهؤلاءِ الفِتيَةُ عندَما خَرجُوا مِن ديارِهِم أخَذُوا معهُم نُقوداً، وبعدَ بعثِهِم مِن رُقادِهِم أرسلُوا أحدَهُم إلى المدينةِ لِيُحْضِرَ لهُم طعاماً طاهِراً حلالاً، وأوصَوهُ بِالتَّلطُفِ وكِتْمانِ أمْرِهِم؛ حتّى لا يَعْرِفَ الأعداءُ مكانَهُم. ولم يَمنعْهُم توكُّلُهُم على اللهِ تعالى مِن أخْذِ الحِيطَةِ والحَذَرِ.

– إقامةُ الأدلَّةِ على أنَّ البعثَ حَقٌّ؛ فقَد أطلَعَ اللهُ تعالى الناسَ على هؤلاءِ الفِتيةِ؛ لِيُوقِنُوا بأنَّه قادرٌ على إحياءِ المَوتى..؛ لأنّ مَن يَقْدِرُ على بَعْثِ الرَّاقِدينَ مِن رُقادِهِم بعدَ مِئاتِ السِّنينَ قادرٌ على إحياءِ المَوتى يومَ القيامةِ.

– مِن الواجبِ على المُؤمِنِ إذا أرادَ فِعْلَ شيءٍ أن يُقْرِنَ ذلكَ بِمَشيئةِ اللهِ تعالى؛ لأنّ الأمرَ كُلَّهُ بِيَدِه.

– مَشروعيَّةُ الفِرارِ بالدِّينِ والهِجْرَةِ مَخافةَ الفِتنَةِ؛ وقَد خَرَجَ النَّبيُّ **صلى الله عليه وسلم** وأصحابُه رِضْوانُ اللهِ عليهِم وتَرَكُوا أرْضَهُم وأموالَهُم وديارَهُم رجاءَ السَّلامةِ بِالدِّينِ والنَّجاةِ مِن الفِتنِ؛ فسُكنَى الجِبالِ والعُزْلَةُ عن الخَلْقِ والانفرادِ بالخالِقِ هي سُنَّةُ الأنبياءِ والرُّسُلِ عليهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ (**فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ**).

– مَشروعيّةُ الدُّعاءِ واللجوءِ إلى اللهِ تعالى خاصَّةً في وَقْتِ المِحَنِ؛ فلا كاشِفَ لِلضُّرِّ إلاّ هُو (**رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**) فجَمَعُوا بين السَّعي والفِرارِ مِن الفِتنَةِ إلى مَحلٍّ يُمكِنُ الاستِخفاءُ فيهِ وبينَ تضرُّعِهِم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ

وسؤالِهم لِتيسيرِ أُمورِهِم وعَدَمِ اتِّكالِهم على أنفُسِهم وعلى الخَلْقِ؛ فاستجابَ اللهُ لهُم دُعاءَهُم، وقيَّضَ لهُم ما لم يكُنْ في حُسبانِهم. وهذا دأَبُ الرُّسُلِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِم أجمعينَ؛ فقَد ناشَد المُصطفَى مُحمَّدٌ **صلى الله عليه وسلم** رَبّهُ يومَ بَدْرٍ، وبالَغَ في الابتِهالِ؛ حتَى سقطَ رِدائُه.

وهذا كليمُ اللهِ مُوسى عليه السلامُ قال لأصحابِه لّما تراءى الجَمعَانِ (**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**) قال مُثبِتًا لهُم (**كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**).

وهذا خليلُ اللهِ إبراهيمُ عليهِ السلامُ لَّما أُلْقِيَ في النَّارِ قال (**حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**). وقالَها مُحمَّدٌ **صلى الله عليه وسلم** كذلك عندَما قِيلَ لهُ ولِمَنْ مَعهُ (**إِنَّ النَاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ**). وهذا نبيُّ اللهِ يُونُسُ عليهِ السَّلامُ نادى في الظُّلماتِ (**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**).

– يستدلُّ أصحابُ الفِطرَةِ السليمةِ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ على توحيدِ الألوهيَّةِ؛ فهؤلاءِ الفِتيةُ نظرُوا إلى ما يصنعُ قومُهُم بِعَينِ بَصيرَتِهِم فَعرَفُوا أنَّه باطِلٌ، ولا يجوزُ السُّجودُ إلاّ للهِ تعالى؛ لهذا قالُوا (**لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا**) وهذا دليلٌ على كمالِ مَعرِفتِهِم بِربِّهِم وزيادةِ الهُدَى مِن اللهِ لهُم.

٥ – الاعتِزالُ يكونُ ب (الأديانِ) تارةً، ويكونُ ب(الأبدانِ) تارةً أُخرى (**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ**).

٦ – مَعيَّةُ اللهِ تعالى لِعبادِه المُؤمنينَ وقُربُهُ لِمَن يَتَقَرَّبُ إليهِ، واستجابَتُه لِمَن دَعاهُ وأناخَ

رِحالَهُ بِبابِه ﴿رَبَّنا آتِنا مِن لَدُنكَ رَحمَةً وَهَيِّئ لَنا مِن أَمرِنا رَشَدًا﴾ ﴿يَنشُر لَكُم رَبُّكُم مِن رَحمَتِهِ وَيُهَيِّئ لَكُم مِن أَمرِكُم مِرفَقًا﴾.

٧ – مَنْ أحبَّ أهلَ الخَيرِ نالَ مِن بَرَكَتِهِم؛ فَـ ﴿كَلْبٌ﴾ أحبَّ أهلَ فَضْلٍ وَصَحِبَهُمْ ذَكَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في القُرآنِ الكريمِ مَعَهُم.

٨ – القِصَّةُ حُجَّةٌ دامِغَةٌ على مُنكِري البعثِ والنُّشورِ إلى يومِ الدِّينِ.

٩ – الإيمانُ يزيدُ وينقصُ ﴿إِنَّهُم فِتيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِم وَزِدنَاهُم هُدًى﴾ ﴿وَالَّذِينَ اهتَدَوا زَادَهُم هُدًى وَآتَاهُم تَقوَاهُم﴾ ﴿لِيَزدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِم﴾.

١٠ – الأدبُ فِيمَنِ اشتَبَهَ عليهِ العِلْمُ أن يَرُدَّه إلى عالِمِه المُحيطِ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْمًا جُملَةً وتَفْصِيلاً ﴿كَم لَبِثتُم... رَبُّكُم أَعلَمُ بِمَا لَبِثتُم﴾.

١١ – الحثُّ على التَّحرُّزِ والاستِخفاءِ والبُعدِ عن مَواطِنِ الفِتنَ واستِعمالِ السِّرِّيَّةِ والكِتمانِ ﴿وَلْيَتَلَطَّف وَلَا يُشعِرَنَّ بِكُم أَحَدًا﴾.

١٢ – في قولِه تعالى ﴿فَابعَثُوا أَحَدَكُم﴾ دليلٌ على جوازِ الوكالةِ وصِحَّةِ الشَّراكةِ؛ لأنَّ الوَرِقَ كانَ لهُم جميعًا؛ ولأنَّهُم بَعثُوا مَن وَكَّلُوهُ بِالشِّراءِ. وتَضمَّنَتْ أيضًا جوازَ أكْلِ الرُّفقاءِ وخَلْطِ طَعامِهِم مع بَعضِهِم البَعضِ.

١٢ – البُعدُ عن الخَوضِ في ما لا يُحيطُ به عِلْمُ البَشَرِ ولا تُدرِكُهُ العُقولُ، وتُرْكُ المِراءِ فيما لا طائِلَ تحتَه ﴿قُل رَبِّي أَعلَمُ بِعِدَّتِهِم مَا يَعلَمُهُم إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِم إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَستَفْتِ فِيهِم مِنهُم أَحَدًا﴾.

١٤ – ذِكْرُ الشَّيءِ لا يَدلُّ على عَدَمِ ذَمِّهِ (**قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا على أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيهِمْ مَسْجِدًا**) وهذه الحالةُ مَحْظُورَةٌ؛ وقَد نهَى رسولُ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** عنها وذَمَ فاعِليها، ولا يدلُّ ذِكْرُها على عَدمِ نُكْرِها، وقَد وَردَتْ نُصوصٌ حذَّرَتْ من اتِّخاذِ القُبورِ مساجِدَ؛ لِقَولِه: **صلى الله عليه وسلم** "لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ والنَّصارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أنْبيائِهِمْ مَساجِدَ).

١٥ – تعليقُ الأمرِ بِمَشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ (**ولا تَقُولَنَّ لِشَيءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلّا أَنْ يَشاءَ اللهُ**).

١٦ – الهِدايةُ نِعمةٌ مِن اللهِ تعالى؛ فالفِتْيةُ لم يَبعَثِ اللهُ فيهِم رَسُولاً ولا نبيًّا، ولمْ يَرِثُوا كِتابًا يَهْديهِم إلى الحقِّ؛ ولكنَّ اللهَ تعالى قالَ فيهِم (**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدَىً**) فكانتْ هِدايتَهُم إلى الإيمانِ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى عليهِم.

وكذلكَ قال اللهُ تعالى في حقِّ سيِّدنا إبراهيمَ عليهِ السلامُ (**ولَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ**)؛ فالإيمانُ مُتقَدِّمٌ على العقلِ؛ وهو مِنحَةٌ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى.

١٧ – الضَّرْبُ على الأُذنِ والرِّباطُ على القلبِ نِعْمتانِ عَظيمَتانِ لِكُلِّ سالكٍ إلى اللهِ تعالى، ولقَد قالُوا بوَّابةُ الأُذنِ تُضْعِفُ عَمَلَ القلبِ. أمّا الرِّباطُ على القلبِ؛ فهُو مَنزِلَةٌ عظيمةٌ تتطلَّبُ (الصِّدْقَ في الطلبِ والعَزيمةِ على الثَّباتِ) قال تعالى: (**وأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسَى فارِغًا إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنا على قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ**).

١٨ – العداوةُ مُلازِمَةٌ لِدَعوةِ الحقِّ مِنذُ القِدَمِ. وهذهِ سُنَّةُ اللهِ في الحقِّ وأصْحابِه مُنذُ بَدْءِ الخليقةِ وإلى قيامِ الساعةِ؛ فالإسلامُ يُقابِلُه الكُفْرُ، والدعوةُ إلى الالتزامِ بأحكامِ الشريعةِ الغَرّاءِ يُقابِلُها حُبُّ التفلُّتِ والانْحِلالُ مِن قُيودِ الأوامِرِ والنواهي.

بلاغة الحوار القرآني ووظيفته الحجاجية

الحِوارُ في نبأِ أصْحابِ الكهْفِ: استُهِلَّ هذا النبأُ القَصَصِيُّ بمَطلعٍ حِواريٍّ أُحادي الجانبِ، على الرغمِ من أنَّهُ يقتضِي طَرَفين: اللهَ بوصْفِه مَصدَرَ الإفضاءِ السَّرديِّ، والنبيَّ **صلى الله عليه وسلم** بوصْفِه المُتلَقي الأوّلِ للخِطابِ والوسيطَ لتبْليغِه إلى الناسِ كافّةً. وقد قرَّر هذا المطلعُ الحِواريُّ بأنَّ حديثَ أصحابِ الكهفِ – وإنْ كان من عجائبِ الآياتِ والدَّلائلِ بالنسبةِ للأُفُقِ الإدراكيِّ البَشَريِّ –؛ فإنَّه ليسَ كذلكَ قِياسًا إلى الأُفقِ الإدْراكيِّ الإلهيِّ المُتميِّزِ بلا مَحدُوديَّةِ الاطلاعِ؛ فهُو أمرٌ هينٌ في غايةِ اليُسْرِ؛ بل هناكَ من البدائعِ الكونيةِ الأُخرى ما هو أكثرُ استِدعاءً للغَرابةِ والعَجَبِ من أمرِ استِحضارِ حديثِ أصحابِ الكهفِ من غابرِ العُصورِ؛ فهذا المطلعُ الحِواريُّ إفْحاميٌّ ذُو غايةٍ استِدلاليَّةٌ على عظمَةِ القُدرَةِ الإلهيَّةِ. ثمَّ ها هُو السِّياقُ يَحكي بعدَ ذلكَ دُعاءَ الفِتيةِ رَبَّهُم بعدَ أن استقرَّ بهِم المَقامُ في الكهفِ؛ فيَقُولُونَ في صَوتٍ جَماعيٍّ مُوحَّدٍ يَنُمّ عن حالِ الرَّجاءِ في نُصرَةِ اللهِ، والرَّغْبَةِ في الاستِظلالِ بظِلِّ هَدْيِه الرَّشيدِ والضَّراعةِ إليه (**رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**)؛ فمَقامُ الدُّعاءِ يَقتضِي عادةً مَوقفًا حِواريًّا أُحاديَّ الطَّرَفِ من مُرسِلٍ هو العبدُ إلى مُرسَلٍ إليه أعلى منْهُ رُتبةً هُوَ اللهُ جلّ وعَلا الأمرُ الذي نلحَظُه هُنا – وإنْ كان لا يَقتضِي تجاوُبًا كلاميًّا من هذا الأخيرِ؛ بل يفترضُ استجابةً فِعليَّةً منهُ، وهو ما حَدَثَ حقًّا لمّا أجابَهُم سُؤْلَهُمْ بأنْ ضَرَبَ على آذانِهِم، ونوَّمَهُمْ في الكَهفِ أمدًا طويلاً رَحمَةً بِهِم وحِفْظًا لَهُم من أذَى قَومِهِم، وإبقاءً على وَلائِهِم الخالِص لهُ في ظِلِّ عَقيدتِهِمُ الإيمانيّةِ الصادرةِ عن يَقينٍ مُطلَقٍ؛ ف– (الحِواريَّةُ هُنا دِعائيَّةٌ طلبيَّةٌ).

ثمَّ إنَّ أولئكَ الفِتْيةَ قائمُونَ بين يَدَي مَلِكِهِم غالِبًا، وما يُشيرُ إلى ذلكَ قولُه تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ فالرَّبْطُ على القُلوبِ يعني تقويةَ اللهِ عزَّ وجلَّ لأنفُسِهم بالشَّجاعةِ والصَّبْرِ على هَجْرِ الأوطانِ والنَّعيمِ المُقيمِ والثَّباتِ على كلمةِ الحقِّ أمامَ سُلطانٍ جائرٍ – سيَّما أنَّهُم يُجاهِرُونَ بإيمانِهِمْ أمامَ المَلأ؛ مُسفِّهينَ اعتقادَ الشِّرْكِ التي استحْكَمَتْ في قومِهم استحكامًا يتعذَّرُ زَعْزَعَتُهُ؛ فاعتقادُهُم هذا مُجرَّدُ افتراءٍ باطلٍ ظلَمُوا أنْفُسَهُم به؛ فالغَرَضُ هنا حِجَاجيٌّ بُرهانيٌّ يتضمَّنُ إقْرارًا إيمانيًّا صُرَاحًا لحالِ مَن أقامَ على الشِّرْكِ لا يُزايلُه.

وأردفَ ذلك الموقفَ الحِواريَّ بمَوقفٍ آخَرَ دُونَ أن يفصِلَ بَينَهُما، وقامَ هذه المَرَّةَ بين الفِتيَةِ أنفُسِهم ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾؛ حيثُ يتباحَثُونَ هُنا بينَهُم ما يتعيَّنُ فِعْلُه بعدَما افْتُضِحَ أمْرُهُمْ، وأنكرَ القومُ منهُم إيمانَهُم باللهِ عزَّ وجلَّ، وخُروجَهُم من مِلَّةِ الأجدادِ؛ فالسِّياقُ وإنْ لمْ يَذْكُرْ تفاصيلَ هذه المُحاوَرةِ، وَأَطرافَ الحديثِ المُتداوَلِ بينَ الفِتيةِ؛ إلاَّ أنَّه اجتزأَ بذِكْرِ الحَلِّ الذي اهتَدَوا إليه آخرَ المَطافِ ألاَ وهو ﴿هِجْرَةُ الأهلِ، وعِبادةُ الأوثانِ، والإيواءُ إلى الكهفِ﴾؛ احتِسابًا منهُم لِرَحمةِ اللهِ وعِنايَتِه بهِم، ورَجاءَ نُصرَتِه التي يَجِدُونَ فيها مِرْفَقًا يَنتَفِعونَ بهِ في مأمَنٍ مِن بَطْشِ المَلِكِ وأعوانِه.

وبعدَ انقضاءِ المُدَّةِ المَعلُومةِ لِرُقادِهِم، ها هيَ الحياةُ تَدبُّ فيهِم من جديدٍ؛ فيستيقِظُونَ ويَستعيدونَ وعيَهُم تدريجيًّا، ويتكشَّفُ السِّياقُ أوَّلَ ما يتكشَّفُ عن هذا الموقفِ الحِواريِّ العَجيبِ:

- ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟

- ﴿قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

- ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ؛ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا. إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

إنَّهُمْ يَسْتَهِلُّونَ الحديثَ فيما بينَهُم بالسُّؤالِ عن أمدِ لبْثِهِم في الكهفِ على حالِ النَّومِ، ويَظنُّونَ أنَّ ذلك لم يتعَدَّ يومًا أو بعضَ يومٍ، ولَمَّا عَجزُوا عن تقديرِ ذلك الأمدِ، رَدُّوا العِلْمَ إلى اللهِ تعالى الذي لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَومٌ؛ لأنَّهُ لا فائدةَ تُرجَى من زيادةِ الخَوضِ فيما لمْ يحصلْ لهُم بِشأنِه مَعرِفَةٌ يقينيَّةٌ؛ فالحِوارُ هُنا يتضمَّنُ إفضاءً تعليميًّا مُشبَعًا بقيمَةٍ إيمانيّةٍ دينيَّةٍ هي أصلٌ من أصولِ الاعتقادِ.

واقتضَى الشُّعورُ الرُّوحيُّ الذي جمعَ هؤلاءِ الفِتيةَ وألَّفَ بينَ قُلوبِهِم أن يكونَ الحِوارُ صادِرًا مِنهُم وإليهِم في الوقتِ نفْسِه بِصَوتٍ واحدٍ، يتعذَّرُ مَعهُ التمييزُ لِمَن هذا الصوتُ أو ذاكَ؛ فهَذا لا يَهمُّ أمامَ ما توافَقَتْ عليهِ أنْفُسُهم؛ فهُم شتّى بأجسادِهِم، وأمّا (تفكيرُهُم وهاجِسُهُم وهَمُّهُمْ وإحساسُهُم) فَواحِدٌ في مُواجَهةِ (مصيرٍ واحدٍ؛ باعتقادٍ واحدٍ في إلهٍ واحدٍ).

إنّها الذَّواتُ المُتَّحِدَةُ والمُنصَهِرَةُ في ذاتٍ شُموليَّةٍ كُلِّيَّةٍ، تتفاعلُ مع المُعطَى الواقعيِّ بِمَوقفٍ واحدٍ؛ فالسِّياقُ يُبيِّنُ أنَّهُم جميعُهم قامُوا بِعَزْوِ عِلْمِ لبْثِهِم إلى اللهِ تعالى

العليمِ الحكيمِ، ومِن ثمَّ أشارَ جميعُهم أيضًا بإيفادِ شَخْصٍ مِنهُم لإحضارِ الطعامِ مِن المدينةِ، وأوصَوْهُ بالتزامِ (التكتّمِ والتَّلَطّفِ)، والتَّحلّي ب (الحيطَةِ والحَذَرِ)؛ حتّى لا يُفتَضَحَ أمْرُهُم؛ فَيَصيرُوا عُرْضَةً لِلبَطشِ بالنفْسِ، أو الأذَى في الدِّين.

ثُمَّ إنَّ سِياقَ حكايةِ قَولِهِم لم يُعيِّنْ هذا الشَّخْصَ بذاتِه؛ بل اكتفَى بِقَولِه (أحَدَكُمْ)، ثُمَّ إنّ ذلك القولَ نُسِبَ إلى الفِتيَةِ كُلِّهِم؛ لأنَّه وإنْ كان صادِراً عن شَخصٍ واحدٍ في مُستوى المُباشرةِ الإفضائيَّةِ القوليَّةِ؛ فإنَّه – مِن دُونِ شَكٍّ – كان قائِمًا في خاطِرِ كُلِّ واحدٍ مِنهُم أيضًا، وبِما أنّ أشْخاصَهُم تحَدَّدتْ في نَسقٍ جَماعيٍّ؛ فإنّ ذلك يقتضِي أن يكونَ حِوارُهُمْ جَماعيًّا مُوحَّدًا؛ فلا مُسوّغَ هُنا لتحديدِ الشخصِ الذي أصدرَ هذا الطلبَ أو ذاكَ؛ بل المُهِمُّ هو الفَحْوى الذي تضمَّنُه؛ وهكذا تتطلَّبُ التضحيةُ والفداءُ في الأمَّةِ للثَّباتِ على المَبدأِ والدِّينِ.

وصنيعٌ كهَذا لا يخلُو مِن مَظهَرٍ أُسلوبيٍّ إعجازيٍّ؛ ذاك أنَّه تمَّ الاكتفاءُ بتسليطِ الضوءِ على لُبِّها وعُصارَتِها – دُونَ الانصرافِ إلى التفاصيلِ الجُزئيَّةِ الخاليةِ من أيِّ فائدةٍ أو قيمةٍ إفضائيّةٍ – ، ثمَّ إنّ هذا المقطعَ الحِواريَّ أكّدَ قِيَمًا إيمانيَّةً وخُلقيَّةً تحلَّى بها الفِتيَةُ كَـ– (حِفْظِ النفْسِ، والحِرْصِ على سلامَتِها مِن الأذَى، واستيفائِها حقَّها من المَعاشِ الزَّكيِّ والقُوتِ الحلالِ) ما دامتْ حيَّةً تُرزقُ.

بَعْدَ الإعْثارِ على الفِتيةِ وقَبْضِ أرواحِهِم، احتدَم بينَ القومِ الذينَ بُعِثُوا على عَهْدِهِم تنازعٌ حولَ أمرِ البناءِ عليهِم؛ فينهضَ لتصويرِ ذلك الموقفِ هذا المقطَعُ الحِواريُّ المُتَّسِمُ بالإيجازِ: (**فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ. قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا**)؛ فالمَوقِفُ الحِواريُّ هُنا طَرفاهُ فِئتانِ لمْ تتحدّدْ هُوِيَّةُ

الأُولى تحَدُّداً واضحاً، بينَما عَرَفْنا مِن أمرِ الثانيةِ أنّها الغالِبَةُ على الأمرِ، جاءَ لِيُفْضي بِالخلافِ الذي جَرَى بين الناسِ مِن بَعدِ وفاةِ الفِتيةِ، وهُنا يَقِفُ السِّياقُ مِن خلالِ هذه المُحاورَةِ المُقتضَبةِ عند الرَّأيينِ الأكثرِ شُيوعًا بينَ اليهودِ السائِلينَ عن هؤلاءِ الفِتيةِ – دُونَ الالتِفاتِ إلى التفْصِيلاتِ الأُخْرى التي لا تنْطَوي على فائدةٍ مُعيَّنةٍ، وهذا لِـ– (عَضْدِ النُّبُوَّةِ بِالوحي، وتبْكِيتًا لِليهودِ، ودَحْضًا لأيِّ شُبْهَةٍ يَرُومُونَ أن يَطعَنُوا بها الدعوةَ)؛ فالقُرآنُ الكريمُ اكتفَى هُنا بما يُؤدِّي الغايةَ الإعجازيَّةَ المَرجُوَّةَ في إطارِ الغَرضِ الدِّينيِّ؛ وبذلكَ جاء الموقفُ الحِواريُّ في غايةِ الدِّقَّةِ والتركيزِ؛ إذْ لم يَسْتَرْسِلْ في بيانِ جوانبَ تفصيليَّةٍ أُخْرى لا تتَّصِلُ اتِّصالاً وثيقًا بِهَذَينِ الافتراضَينِ اللذَينِ كانتْ الغلَبَةُ فيهِما، كما نَسْتَشِفُّه ضِمْنيًّا، للثاني لِعِدَّةِ اعتباراتٍ مِنها:

– وُرودُ الفِعلِ (**لَنَتَّخِذَنَّ**) مُؤكَّداً باللامِ ونُونِ التوكيدِ الثقيلَة.

– إنّه الاقتِراحُ الثاني والأخيرُ والكلمةُ الأخيرةُ هي الفاصِلَةُ والحاسِمَةُ والنافِذَةُ عادةً.

– أصحابُ هذا الرَّأي هُمْ أصحابُ الغَلَبَةِ على أمْرِ الفِتْيةِ؛ أيّ: أنَّهُم إذا أرادُوا أمرًا لم يتَعَسَّرْ عليهِم، ولم يَحُلْ بينَهُ وبينَهُمْ أحدٌ، كما قيلَ: (**وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**).

– تَذْكُرُ الأخبارُ أنّ مَلِكَهُم وأغلبُ الناسِ الذينَ بُعِثوا على عَهْدِهِم كانوا مُؤمِنينَ باللهِ تعالى، وما يعضدُ هذا قولُه تعالى حكايةً عنهُم (**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا**) ويلزمُ مِن هذا أنْ يُؤخَذَ باقتِراحِ هؤلاءِ.

لمسات بيانية للسامرائي[1]

ما دلالةُ كلمة (لِنَعْلَمَ) في الآيةِ (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) مع أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ مُسْبَقًا؟

العِلْمُ نَوعانِ: (عِلمٌ سابِقٌ قديمٌ) سجّلَ فيه سُبحانَه وتعالى القَدَرَ، و(عِلْمٌ لاحِقٌ يُحقِّقُ هذا العِلْمَ) وهو الذي يتعلَّقُ به الجزاءُ. فما يفعلُه الإنسانُ هُو في عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، واللهُ يعلَمُ في القَدَرِ كُلَّ شَيءٍ، وهو العِلْمُ الذي قَضاه اللهُ تعالى، وما يفعلُه الإنسانُ وما يَعمَلُه هو تصديقٌ لِعِلْمِ اللهِ هذا.

وقولُه تعالى (لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ) يعني: لِنَعْلَمَ أيًّا مِنْهُمْ يعلَمُ الحقيقةَ؛ لأنَّ هناكَ ثلاثةَ أقوالٍ كُلُّ فِئَةٍ قالت شيئًا؛ فمَن الذي يعلمُ الحقيقةَ؟

اللهُ تعالى عَلِمَ ذلك قبلَ الوُقوعِ. وأيّ: مُبتَدأٌ. وهِيَ مِن أسماءِ الاستِفهامِ، وكُلُّ الأسماءِ التي لها صَدْرُ الكلامِ لا يعملُ بها ما قبلَها إلاّ حُروفَ الجَرِّ ولكنْ يعملُ فيها ما بعدَها (وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى). وأحصَى تحتملُ أن تكونَ اسمَ تفضيلٍ أو فِعلاً ماضِيًا، وليستْ هُنالكَ قرينةٌ سِياقيَّةٌ تُحدِّدُ معنىً مُعيَّنًا، وهو مَمنوعٌ من الصَّرْفِ (أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) (المجادلة: ٦). أحصاهُ: فِعلٌ ماضٍ، أيّ: أحصَى أمدًا لِما لَبِثُوا، وأمدًا يكونُ مفعولاً بِه. أمّا اسمُ التفضيلِ فيجبُ ألاّ يكونَ هناك شيءٌ مُفَضَّلٌ على شيءٍ، وأحيانًا لا يُذْكَرُ؛ فعِندَما نقولُ: اللهُ أكبر ليسَ بِالضَّرُورَةِ أن يُذْكَرَ، وكذلكَ (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) (الأنعام: ١٢٤) وإنْ كان في

[1] د. فاضِل السّامُرائيّ

الأصلِ هو يُفَضِّلُ شَيئًا على شيءٍ. وكذلكَ في قولِ الشاعِر:

إنّ الذي سَمَكَ السَّماءَ بَنَى لَنا بَيتًا دَعائِمُهُ أعَزُّ وأطْولُ

و(أمَدًا) يحتملُ أن تكونَ تمييزَ (أحصَى أمَدًا)، ويحتملُ أن تكونَ مفعولاً بهِ لأحصَى؛ وهذا مِن بابِ التَّوسُعِ في المَعنى.

ما دلالةُ استخدامِ صِيغةِ المُضارعِ في قولِه تعالى (**وَنَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا**) مع أنّ الأحداثَ انتهَتْ ومَضَتْ؟

قد يُستخدَمُ الفِعلُ المُضارِعُ لِيُعبَّرَ بهِ عن الماضي فِيما نُسَمِّيهِ حكايةَ الحالِ، كما يُعبَّرُ عن الماضي لِلمُستقبلِ كما في قولِه تعالى (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**) (البقرة: ٩١) تَقْتُلُونَ وقال مَعَها مِن قَبْلُ. وحكايةُ الحالِ هو أنْ يُعبَّرَ عن الحالِ الماضيةِ بالفعلِ المُضارعِ لِلشَّيءِ المُهِمِّ؛ كأنْ يَجْعله حاضِرًا أمامَ السامِعِ.

في الآيةِ (**إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا**) فما الحِكمةُ مِن تكرارِ (إنْ)؟

هذا ليس تكرارًا؛ لأنّ "إنّ" شرطيَّةٌ تدخلُ على الأفعالِ، و"أنْ" تدخُلُ على الأسماءِ.

لماذا وَردَتْ كلمةُ "المُهتَد" بدُونِ ياءٍ في قوله تعالى (**وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**)؟ أوّلاً: نقولُ أنَّ خطَّ المُصحَفِ لا يُقاسُ عليه. ومع هذا فهُناكَ أُمورٌ أُخْرى. لو لاحَظْنا لفظَ الهدايةِ في سُورةِ الكهفِ نَجِدُه تكرَّرَ ٦ مرَّاتٍ، أمّا في سُورةِ الأعرافِ فقَد تكرَّرَ ١٧ مَرَّةً. فلمّا زادَ ذِكْرُ لفظِ الهدايةِ زادَ في مَبنى الكلمةِ لِلدّلالةِ على زيادةِ السِّمَةِ التعبيريَّةِ والتَّكرارِ.

ما الفرقُ بين التعليلِ ب– (كي) و(اللام) في قولِه تعالى (**وليَعْلَمُوا**)؟

في الحقيقةِ لا يبدُو هناك فرقٌ واضِحٌ بينَهُما؛ فهُما مُتقارِبانِ جِدًّا؛ لكنَّ الأصلَ في (كي) أن تُستعمَلَ لِبيانِ الغَرَضِ الحقيقيِّ المؤكَّدِ، واللامُ تُستعمَلُ لهُ ولِغَيرِه، والجمعُ بينَهُما يُفيدُ التوكيدَ؛ فاللامُ أوسَعُ استِعمالاً مِن (كي)، وهذا ما نَراهُ في الاستعمالِ القُرآنيِّ (**وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا**)؛ فأصحابُ الكهفِ يَعلَمونَ أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ ولا شكَّ، كيفَ لا وهُمْ فارَقُوا قومَهُم لإيمانِهِم باللهِ تعالى؟ فلَو قال (كي يَعْلَمُوا) لكان المَعنى أنّ هذا هو الغَرَضَ الحقيقيَّ وقد كانُوا يَجْهَلُونَ ذاك.

كيف نفهَمُ قولَه تعالى: (**وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا**)؟

سِنِينَ: بدلٌ منصوبٌ وليستْ مُضافةً، ولو كانتْ مُضافةً لقالَ "ثلاثَ مِائَةِ سَنَة"، هذا بدلٌ وليسَ تمييزَ عددٍ؛ لأنّ تمييزَ العددِ له أحكامُه؛ فبَعدَ المائةِ والألفِ يكون

مُفرداً مُضافًا إليه ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (العنكبوت: ١٤) ﴿بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ﴾ (البقرة: ٢٥٩). ونَوّنَ (ثَلاَثَ مِائَةٍ) لأنَّهُ أمرٌ عَجيبٌ، ويُسمَّى هذا تنوينَ التمكينِ، ولم يُضَفْ؛ لأنَّ الأمرَ يدعُو إلى العَجَبِ والتَّعجيبِ، وأبْهِمَت كذلكَ ويُسمَّى: الإيضاحَ بعدَ الإبهامِ؛ فإذا ما قُلْنا (ثَلاَثَ مِائَةٍ) فالسامِعُ لا يتوقَّعُ أو لا ينتظِرُ مِنْكَ شيئًا آخرَ؛ لأنَّه لو أردتَ أن تُضيفَ لأضَفْتَ بعدَ المائةِ؛ إذن انتهى السائلُ فإذا ما جِئْتَ بالبَدَلِ تكونُ أتَيتَ بشيءٍ جديدٍ ما كان يتوقَّعُه؛ لذلكَ قالُوا: (الإيضاحُ بعدَ الإبهامِ).

لماذا قدّمَ البَصَرَ على السَّمْعِ في قولِه تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾؟

مِن المعلومِ أنّ الأكثرَ استِعمالاً في القُرآنِ الكريمِ هُو (تقديمُ السمعِ على البَصرِ)؛ لأنّ السَّمعَ أهمُّ مِن البَصرِ في التكليفِ والتبليغِ؛ ففَاقِدُ البَصَرِ الذي يَسمَعُ يُمكِنُ تبليغُه، أمّا فاقِدُ السمعِ فيَصعُبُ تبليغُه.

ثُمَّ إنّ مدى السَّمعِ أقلُّ مِن مَدَى البَصَرِ؛ فمَن نَسْمَعُه يكون عادةً أقربَ مِمَّنْ نَراهُ، بالإضافةِ إلى أنَّ السمعَ ينشأُ في الإنسانِ قبلَ البَصرِ في التكوينِ. أمّا لِماذا قُدِّمَ البَصَرُ على السَّمعِ في هذه الآيةِ؛ فالسببُ يعودُ إلى أنّ الكلامَ هوَ عن أصحابِ الكهفِ الذينَ فَرُّوا مِن قومِهِم ولجَأُوا إلى ظُلْمَةِ الكهفِ؛ لِكَيلا يَراهُمْ أحدٌ؛ لكنَّ اللهَ تعالى يَراهُمْ في تقلُّبِهِم في ظُلْمَةِ الكهفِ. وكذلكَ طَلَبُوا مِن صاحِبِهِم أن

يتلطَّفَ؛ حتَّى لا يراهُ القومُ.

إذنْ: مسألةُ البَصرِ هُنا أهمُّ مِن السَّمعِ؛ فاقتضَى تقديمَ البَصرِ على السَّمْع[1].

لمسات بيانية للنعيمي[2]

ما دلالةُ الربْطِ على القلبِ في الآيةِ (وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ)؟

هؤلاءِ الفتيةُ أعلَنُوا إيمانَهُم أمامَ الناسِ (إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)؛ فرَبَطَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَى قُلُوبِهِم وصَبَّرَهُمْ على هذا الإيمانِ؛ لأنّ أصْلَ الرَّبْطِ هو الشَّدُّ والتَّقويةُ، وعندما تَشُدُّ شَيئًا تُقوِّيه؛ بمَعنى: قَوّينا قُلُوبَهُمْ بالصَّبْرِ على الإيمانِ حين قالُوا هذا الكلامَ. والرَّبْطُ على القلبِ هو التقويةُ؛ لأنَّ إعلانَ إيمانِهِم هذا كان يُمْكِنُ أن يُودِي بِحياتِهم؛ ولذلكَ (تَرَكُوا البلدَ، وفَرُّوا بِدِينِهِم، وذَهَبُوا إلى الكهفِ).

ما دلالةُ الواوِ في قولِه تعالى (سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) مع أنَّها لم تَرِدْ فيما قَبْلَها (ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَخَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ)؟

ما يميلُ إليهِ عُلماءِ اللغةِ أنّ الواوَ هذه "واوٌ عاطِفةٌ" تعطفُ جُملَةً على جُملَةٍ سابقةٍ، أو "واوٌ استئنافِيَّةٌ"؛ لأنّ الكلامَ انتهى. وهيَ (تُفِيدُ التوكيدَ والتحقيقَ، ولا تُؤثِّرُ في الإعرابِ). كما صرّحَ المُفسِّرونَ بأنَّها تدلُّ على أنّ الذينَ قالُوا أنَّما هُمْ (سَبْعَةٌ وثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) هُمُ الذينَ قالُوا القولَ الصحيحَ الصوابَ؛ ومِنهُم الزَّمَخْشَريُّ.

---

[1] لمسات بيانية: فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي(ج١/ ص٦٦- ٦٨).
[2] د. حُسام النعيميّ

إذنْ: هي "واو الحالِ"؛ ولكنَّها أفادتِ (التوكيدَ والتحقيقَ بأنَّ هذا القولَ صحيحٌ)، ويُؤتَى بها إذا تباعَدَ معنى الصِّفاتِ للدّلالةِ على التحقيقِ والاهتِمامِ (هُوَ الأوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والباطِنُ).

وإذا اقتربَ مَعنى الصِّفاتِ لا يُؤتى بالواو (هَمّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ). وفي قولِه تعالى: (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (التوبة: ١١٢) نُلاحِظُ أنَّ الواو ذُكِرَتْ مع الصِّفَةِ الأخيرةِ وهيَ الأشدُّ على النفْسِ؛ لأنَّ النهيَ عن المُنكَرِ يكونُ أشدَّ على الإنسانِ، وقد يؤدِّي إلى الإهانةِ والقتلِ أحيانًا، وسائرُ الصِّفاتِ الأُولى كُلُّها مُتقارِبةٌ.

وهُناكَ رأيٌّ يقولُ: الواو قبلَ كلمةِ "ثمانيةٌ" هيَ من آثارِ الأعدادِ القديمةِ واستعمالاتِها وكانتْ باقيةً عند قُريشٍ؛ بمعنَى: أنّ العددَ الأعلى الذي ينتهي عِندَه الحسابُ هو السبْعَة. وبِهذا فَسَّرُوا سَبْعَ سَمَواتٍ، سَبْعَ أراضَينِ، سبْعينَ مَرَّةً، سبْعمائة... والقرآنُ الكريمُ نَزَلَ بِلُغَةِ قُريشٍ فبقيتْ هذه الواوُ؛ لذلكَ سُمِّيَتْ بِ "واو الثمانية" (وثامنهم) وهذا الاستعمالُ كان خاصًّا بِها أحيانًا.

وعِندَ العربِ أسلوبٌ في ذِكْرِ المَعدودِ تُصاغ عِندَهُم على وزنِ فاعِلٍ؛ فيَقُولُونَ مَثلاً: هُو رابعُ أربَعةٍ. ولهُم أسلوبٌ آخرُ يقولُونَ: رابعُ ثلاثةٍ أو خامِسُ أربعَةٍ. في هذه الحالةِ يكونُ مُتمماً للعددِ؛ ولكنَّه ليسَ شَرْطًا أن يكونَ جُزءًا منهُ.

لاحِظ الآيةَ (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ) (المجادَلة: ٧) نجْوى الثلاثةُ اللهُ رابِعُهُم؛ فاللهُ سُبحانَه وتعالى مِن غَيرِهِم؛ لكنَّه صارَ

في العددِ بِحُضورِه رابِعًا؛ لكنّه ليسَ مِنْهُم. وفي الآية (**سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ**) الكلبُ ليسَ مِنهُم.

ما الفَرْقُ بين العامِ والسَّنَةِ؟

- تُستعملُ كلمةُ "العامِ" – على الأغلبِ – لِما فيه خَيرٌ، و"السَّنَةُ" لِما فيهِ شَرٌ؛، لكنَّها ليستْ مسألةً مُطلَقةً. وفي الاستعمالِ القرآنيِّ أحيانًا (**تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا**) (**ثُمَّ يَأْتِي عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ**) الزَّرْعُ فيهِ جهدٌ في هذه السِّنينِ. وفي قولِه تعالى عن نوحٍ عليهِ السَّلامُ (**فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**) كأنَّ الخَمْسِينَ عامًا هي الخَمْسونَ الأُولى مِن حياتِه التي كان مُرتاحًا فيها، وبقيَّةُ السِّنينَ ال ٩٥٠ كان معهُم في مَشَقَّةٍ.
- استخدمَ القرآنُ الكريمُ لفظَ (**مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا**) ولمْ تستخدمْ لفظَ خالدينَ؛ لأنّ المكْثَ في اللغةِ هو الأناةُ واللبْثُ والانتظارُ وليسَ الخُلودَ. والقَصْدُ أنَّ لَهُمْ أجْرًا حَسنًا في الجَنَّةِ، والجَنّةُ تكونُ بعدَ أن يُوفَّى الناسُ أُجورَهُم؛ فالمقامُ هُنا مقامُ انتِظارٍ وليسَ مقامَ خُلودٍ، والخُلودُ في الجَنَّةِ يكونُ بعدَ الأجْرِ. ومن حيثُ الدلالةِ اللغويّةِ "الأجْرُ" ليس هو الجَنّة؛ لذا ناسبَ أن يأتي بالمكْثِ وليسَ الخلودَ؛ للدلالةِ على التَّرَقُّبِ لِما بعدَ الأجْرِ.
- جاءتْ كلمةُ (لِشَيءٍ) مَرَّةً واحدةً بإضافةِ حَرفِ الألفِ، وجاءتْ كلمةُ (شَيء) ٢٥١ مرَّةً؛ ممّا يُوحي بأنّ هناكَ أمرًا عظيمًا يجبُ تدبُّرُه.

إنَّ زيادةَ المَبنى تدلُّ على زيادةِ المَعنى، وحتّى لا تَلُوكَ الألسنَةُ جُملةَ (إنْ شاءَ اللهُ) لأيِّ (عملٍ نَعمَلُه، أو وعْدٍ نَعِدُه) جاءتْ هكذا (لِشيءٍ) تعظيمًا لها والتزاما بأداءِ العملِ أو الوفاءِ بالعهدِ؛ وليسَ لِمُجَرَّدِ قولِ "إنْ شاءَ اللهُ" ونحنُ نعلمُ يَقينًا أنَّنا لن نقومَ بهذا العملِ أو نفِي بذلكَ الوعدِ[1].

إعراب الآيات الكريمة[2]

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَبًا).

(أمْ) هيَ المُنقَطِعةُ بمعنى بلْ، والهمزةُ للاستِفهام. (حَسِبْتَ) فعلٌ ماضٍ ساكنٌ، التاءُ فاعلٌ. (أنّ) مَصدَرِيَّةٌ للتوكيدِ والنَّصْبِ. (أصحابُ) اسمُ أنّ منصوبٌ. (الكهفِ) مضافٌ إليهِ مجرورٌ. (والرَّقِيمِ) الواوُ عاطفةٌ، الرقيم معطوفٌ على الكهفِ مجرورٌ. (كانوا) فعلٌ ماضٍ ناقصٌ مضمومٌ، الواو اسمُه. (مِن آياتِنا) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ بِحالٍ مِن عَجَبًا. (عَجَبًا) خبرُ كان منصوبٌ، وجاء بلَفظِ المُفرَدِ؛ لأنَّهُ مَصدَرٌ، والمَصدَرُ المُؤوَّلُ (أنَّ أصحابَ الكهْفِ) في مَحلِّ نَصبٍ سَدَّ مَسَدَّ مَفعولَي حَسِبْتَ. جُملةُ (حَسِبْتَ) لا مَحلَّ لها استئنافيّةٌ. جملةُ (كانُوا) في مَحلِّ رَفعِ خبر أنّ.

---

[1] لَمَساتٌ بَيانيّةٌ: د. حُسام النعيميّ.

[2] الطيب الإبراهيم، أ. د. محمد، إعراب القرآن الكريم الميسر، دار النفائس، الطبعة الثالثة ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦/ م

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾.

(إِذْ) ظرفٌ للزَّمنِ الماضي ساكنٌ مُتعلِّقٌ ب(عَجَبًا). (أوَى) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ المُقدَّرِ على الألفِ. (الفِتيَةُ) فاعلٌ مرفوعٌ. (إلى الكهفِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب(أوَى) (فقَالُوا) الفاءُ عاطفةٌ، قالُوا: فِعلٌ ماضٍ مَضمُومٌ، الواو فاعلٌ. (ربَّنا) ربَّ منادى مُضافٌ منصوبٌ، نا ضميرٌ مُضاف إليه. (آتِنا) آتِ: فِعلُ أمرٍ للدعاءِ مبنيٌّ على حذفِ حرفِ العِلَّةِ، نا ضميرٌ مفعول به، الفاعلُ مستترٌ أنت. (من) حرفُ جرٍّ. (لَدُنْكَ) لَدُنْ: اسمٌ ظرفِيٌّ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقٍ بحالٍ من رحمةٍ، الكافُ: مُضاف إليه. (رَحمَةً) مفعولٌ بهِ ثانٍ منصوبٌ. (وهيّئ) الواو عاطفةٌ، هيِّئْ: فِعلُ أمرٍ ساكن، الفاعلُ مستترٌ "أنت". (لَنا) اللامُ حرفُ جرٍّ، نا: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقٌ ب" هيِّئْ". (مِنْ أمْرِنا) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقٌ ب" هيّئ"، نا: ضميرٌ مضاف إليه. (رَشَدًا) مفعولٌ به منصوبٌ. جملةٌ (أوَى الفِتيَةُ) في محلِّ جرٍّ مضاف إليه. جملة (قالُوا) في محلِّ جرٍّ معطوفةٌ على جُملةِ أَوَى الفِتيةُ. جُملةُ (ربَّنا آتِنا) في محلِّ نَصب مَقول "قالُوا". جُملةُ (آتِنا..) لا مَحلَّ لها جوابُ النِّداء. جُملةُ (هَيِّئْ) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملةِ آتِنا.

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾.

(فَضَرَبْنا) الفاءُ عاطِفةٌ، ضَرَبَ: فعلٌ ماضٍ مبني على السكونِ، نا: فاعلٌ. (على آذانِهِمْ) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقٌ ب- " ضَرَبْنا" بِتَضْمِينِه معنى "وَضَعْنا"، هُمْ ضَميرٌ

مضاف إليه. (في الكهفِ) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ بِمَحذُوفٍ حال مِن الضميرِ في آذانِهِم. (سِنِينَ) ظرفُ زمانٍ مَنصُوبٌ مُتعلِّقٌ ب "ضَرَبْنا" وعلامةُ النَّصبُ الياءُ لأنّه مُلحَقٌ بِجُمعِ المُذكّرِ. (عددا) نعتٌ لِسنِينَ بِمَعنى "مَعدُودةٍ" أو على حَذْفِ مُضافٍ أيّ "ذَواتِ عَدَدٍ" وهو حِينَئذٍ مَصدَر. جُملةُ (ضَرَبْنا) في مَحلِّ جرٍّ معطوفةٌ على جُملةِ "قالُوا".

(ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَدًا).

(ثمَّ) حرفُ عطفٍ للتراخِي. (بَعثَناهُمْ) بَعثنا مِثل "ضَرَبْنا"، هُمْ: ضميرٌ مفعولٌ بِه. (لِنَعْلَمَ) اللامُ للتعليلِ، نَعْلَمَ: فِعلٌ مُضارعٌ منصوبٌ بأنْ مُضمَرةٌ بعدَ اللامِ، والفاعلُ "نَحنُ" للتعظيمِ، والمَصدرُ المُؤوّلُ (أنْ نَعْلَمَ) في مَحلِّ جرٍّ باللامِ مُتعلِّقٌ ب- "بَعثناهُم". (أيُّ) اسمُ استفهامٍ مبتدأٌ مرفوعٌ. (الحِزْبَينِ) مُضافٌ إليهِ مجرورٌ وعلامةُ الجرِّ الياءُ. (أحصَى) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ المُقدَّرِ على الألفِ، والفاعلُ هُو. (لِما) اللامُ حرفُ جرٍّ، ما: حرفٌ مَصدَريٌّ ظَرفيٌّ. (لَبِثُوا) مِثل "قالُوا". (أمدًا) مفعولٌ بِهِ منصوبٌ أو تمييزٌ منصوبٌ، والمَصدرُ المُؤوَّلُ (ما لَبِثُوا) في تأويلِ ظرفٍ ومَصدرٍ؛ أيّ مُدَّةَ لبْثِهِم؛ فالظَّرْفُ في محلِّ جرٍّ باللامِ مُتعلِّقانِ ب- "أحصى"، والمصدرُ في محلِّ جرٍّ بالإضافةِ. جُملةُ (بَعثناهُمْ) في محلِّ جرٍّ معطوفةٌ على جُملةِ ضَرَبْنا. جُملةُ (نَعْلَمَ) لا مَحلَّ لها صِلةُ المَوصولِ الحرفيِّ أنّ المُضمَر. جُملَةُ (أيُّ الحِزْبَينِ أحصَى) في محلِّ نَصبٍ سَدَّتْ مَسَدّ مَفعولي "نَعلَم". جُملةُ (أحصَى) في محلِّ رفعِ خبر أيّ. جُملَة (لَبِثُوا) لا مَحلَّ لها صلةُ المَوصُولِ الحرفيِّ ما.

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) .

(نَحنُ) ضميرٌ مُنفصِلٌ مَبنيٌّ في محلِّ رفْعِ مُبتدأٍ . (نَقُصُّ) مضارعٌ مرفوعٌ، والفاعلُ نحنُ للتعظيمِ . (عَلَيكَ) على حرفُ جرٍّ، والكافُ : ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقٌ ب(نَقُصُّ) . (نَبأهُمْ) نبأَ : مفعولٌ بهِ مَنصُوبٌ، هُم : ضميرٌ مضاف إليه . (بِالحَقِّ) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقٌ بِحالٍ من الفاعلِ أو المَفعول . (إنّهُم) إنَّ حرفٌ مُشبَّهٌ بالفِعل، هُم : ضميرٌ في مَحلِّ نَصبِ اسمْ إنَّ . (فِتيَةٌ) خبرٌ مرفوعٌ . (آمَنُوا) فِعل ماضٍ وفاعلُه . (بِرَبِّهِمْ) بِرَبِّ : جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ ب(آمَنُوا)، هُمْ : مضافٌ إليه . (وزِدْناهُم) الواو عاطفةٌ، زِدْناهُمْ : فِعلٌ ماضٍ وفاعِلُه، هُمْ : ضميرٌ مفعولٌ بهِ أوّل . (هُدَىً) مفعولٌ بهِ ثانٍ منصوبٌ وعلامةُ نصبِه الفتحةُ المُقدَّرةُ على الألفِ . جُملَةُ (نَحْنُ نَقُصُّ) لا مَحَلَّ لها استئنافيّةٌ . جملةُ (نَقُصُّ) في مَحلِّ رفْعِ خبرِ المُبتدأِ "نَحنُ" . جُملةُ (إنَّهُمْ فِتيَةٌ) لا مَحلَّ لها استئنافٌ بيانيٌّ . جُملَةُ (آمَنُوا) في محلِّ رفْعِ نَعْتٍ لِ "فِتية" . جُملةُ (زِدْناهُمْ) في محلِّ رفْعٍ مَعطوفةٌ على جُملةِ "آمَنُوا" .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) .

(وَرَبَطْنا) الواوُ عاطِفةٌ، ربَطْنا مِثل "زِدْنا" . (على قُلُوبِهِم) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ ب، " رَبَطْنا" ، هُم : مضافٌ إليه . (إذ) ظرْفٌ للزَّمنِ الماضي مبني على السكون في محلِّ نَصْبٍ مُتعلِّقٌ ب" رَبَطْنا" . (قامُوا) مِثل "آمَنُوا" في الآيةِ السابقةِ . (فَقالُوا) الفاءُ عاطِفةٌ، قالُوا مِثل "قالُوا" معطوفٌ عليه . (رَبُّنا) ربُّ : مبتدأٌ مرفوعٌ، نا : ضميرٌ مضافٌ إليه . (ربُّ) خبرٌ مرفوعٌ . (السَّمواتِ) مُضافٌ إليهِ مَجرورٌ . (والأرضِ)

الواو عاطفةٌ، الأرضِ: معطوفٌ على السمواتِ مجرورٌ. (لنْ) حرفُ نفيٍ ونَصبٍ. (نَدْعُوَ) فعلٌ مُضارعٌ منصوبٌ بالفتحةِ، الفاعلُ: مستترُ "نحنُ". (مِنْ دُونِهِ) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ بِحالِ مِن "إلهًا"، الهاءُ: مضافٌ إليه. (إلهًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. (لقَد) اللامُ للقسَمِ المُقدَّرِ، قَد: حرفُ تحقيقٍ. (قُلْنا) مِثل "زِدْنا". (إذًا) بالتنوينِ حرفُ جوابٍ لا عملَ لهُ. (شَطَطًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ، أو مفعولٌ مطلقٌ نائبٌ عن المَصدَرِ؛ لأنَّ نَعْتَه مَنصُوبٌ لِقُلْنا. جُملةُ (رَبَطْنا) في مَحلِّ رفعٍ معطوفةٌ على جُملةِ "آمَنُوا". جُملةُ (قامُوا) في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليه. جُملةُ (قالُوا) في محلِّ جرٍّ معطوفةٌ على جملةِ قامُوا. جُملةُ (رَبُّنا رَبُّ) في محلِّ نَصبِ مَقولِ "قالُوا". جُملةُ (لَنْ نَدْعُوَ) لا محلَّ لها استئنافٌ بيانيٌّ. جُملةُ (قُلْنا) لا محلَّ لها جوابُ قَسَمٍ مُقَدَّرٍ. وجُملَةُ القَسَمِ المُقدَّرِ جوابٌ لِشَرطٍ مُقدَّرٍ عبَّرَتْ عنهُ إذًا؛ أيّ: إنْ دَعَوناهُ فَو اللّهِ لَقَد قُلْنا شَطَطًا.

(هؤُلاءِ قَومُنا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا).

(هؤلاءِ) الهاءُ لِلتنبيهِ، أولاءِ: اسمُ إشارةٍ مَبني عل الكسرُ في محلِّ رفْعِ مُبتدأٍ. (قَومُنا) قومٌ بدلٌ من الإشارةِ مرفوعٌ، نا: مضافٌ إليه. (اتَّخَذُوا) فعلٌ ماضٍ مَضمومٌ، الواو: فاعلٌ. (مِن دُونِه) مِثل الأوَّل مُتعلِّقانِ بِمَفعولٍ بهِ ثانٍ، الهاءُ مُضافٌ إليهِ. (آلِهَةً) مفعولٌ بهِ أوّل منصوبٌ. (لولا) حرفُ تحضيضٍ. (يأتُونَ) فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، الواو: فاعلٌ. (عليهِم) على: حرفُ جرٍّ، هُم: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقٌ بِحالٍ من سُلطان. (بِسُلطانٍ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقٌ ب- "يأتُونَ". (بَينٍّ)

نعتٌ لِ "سُلطان" مجرورٌ. (فمَنْ) الفاءُ: استئنافيّةٌ، مَن: اسمُ استفهامٍ مبني على السكون في محلِّ رفْع مبتدأٍ. (أظلَمُ) خبرٌ مرفوعٌ. (مِن) حرفُ جرٍّ. (من) اسمٌ موصولٌ مبني عل السكون في محلِّ جرٍّ بِمن مُتعلِّقانِ ب" أظلَمُ". (افْتَرَى) فعلٌ ماضٍ مبني على الفتحِ المُقدّرِ على الألفِ، الفاعِلُ: هو. (على اللّهِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب- " افْتَرَى". (كَذِبًا) مفعولٌ مُطلَقٌ منصوبٌ. جُملَةُ (هَؤلاءِ قَومُنا) لا مَحلَّ لها استئنافٌ في حيّزِ قولِ الفِتيَةِ. جُملَةُ (اتَّخَذُوا) في محلِّ رفعِ خَبرِ المبتدأِ "هَؤلاءِ". جُملَةُ (لَولا يأتُونَ عَلَيهِمْ) لا محلَّ لها استئنافٌ في حيِّزِ قولِ الفِتيةِ. جُملَةُ (مَن أظلَمُ) لا محلَّ لها استئنافٌ في حيِّزِ قولِ الفِتيةِ. جُملَة (افْتَرَى) لا محلَّ لها صِلةُ المَوصولِ مِن.

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا).

(وإذِ) الواو استئنافيّةٌ، إذ: ظرفٌ للزمنِ الماضي مبني على السكون مُتعلِّقٌ بفعلٍ مَحذُوفٍ تقديرُه "اُذْكُروا"، وهذهِ الجُملةُ في محلِّ نصبِ مَقولٍ لِقَولٍ مَحذوفٍ؛ أيّ: قالَ بعضُهُم لِبَعضٍ. (اعْتَزَلْتُمُوهُمْ) اعتَزلْ: فعلٌ ماضٍ مبني على السكون، تمُ: في محلِّ رَفْعِ فاعل، الواوُ: زائدةٌ لإشباعِ حركةِ الميمِ، هُم: ضميرٌ مفعول به. (وما) الواوُ عاطفةٌ، ما: اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ على السكونِ في مَحلِّ نَصْبٍ، ومعطوفٌ على الضميرِ "هم" في "اعتَزَلْتُمُوهُمْ"؛ بمعنى (واعتَزَلْتُمْ مَعْبُودَهُمْ). (يَعْبُدُونَ) فعلٌ مُضارعٌ مرفوعٌ وعلامةُ رفْعِه ثُبوتُ النونِ، الواو: فاعلٌ.

(إلاّ) أداةُ استثناءٍ. (اللهُ) اسمُ الجَلالَةِ مُستثنى ب(إلاّ) منصوبٌ. (فأوُوا) الفاءُ فاءُ الفصيحة، أوُوا: فعلُ أمرٍ مبنيٌّ على حذفِ النونِ، الواو: فاعلٌ. (إلى الكهفِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب(أُوْوا). (يَنْشُرْ) فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ وهو جوابُ الطلبِ، الفاعلُ هو. (لَكُمْ) اللامُ حرفُ جَرٍّ، كُمْ: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقانِ ب (يَنْشُر). (رَبُّكُمْ) ربُّ: فاعلٌ مرفوعٌ، كَمْ: مُضافٌ إليهِ. (مِنْ رَحْمَتِهِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب- (يَنْشُر)، الهاءُ: مُضافٌ إليهِ. (ويُهيِّئْ) الواوُ عاطفةٌ، يُهيِّئْ: فعلٌ مضارعٌ مَجزُومٌ معطوفٌ على (يَنْشُر)، الفاعلُ هُو. (لَكُمْ مِنْ أمْرِكُمْ) جارٌّ ومجرُورٌ مُتعلِّقانِ ب- (يُهيِّئْ). (مِرْفَقًا) مفعولٌ به. جُملةُ (اعتَزَلْتُمُوهُمْ) في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه. جُملَةُ (يَعبُدُونَ) مُعترِضَةٌ، وهو إخبارٌ مِن اللهِ تعالى عن الفِتيَةِ بالتوحيدِ. جُملةُ (أوُوا) في محلّ جَزمِ جوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ؛ أيّ: إنْ اعتَزَلْتُمُ الكافِرينَ وما يَعبُدونَ فأووا. جُملَةُ (يَنْشُرْ) لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ مُقدَّرٍ غيرُ مُقترِنةٍ بالفاءِ؛ أيّ: إنْ تأوُوا يَنْشُر. جُملَةُ (يُهيِّئْ لكُم) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملَةِ (يَنْشُر).

(وَتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عن كَهْفِهِمْ ذاتَ اليَمِينِ وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ في فَجْوَةٍ مِنْهُ، ذَلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا).

(وَتَرَى) الواوُ: استئنافيّةٌ، تَرَى: مُضارعٌ مرفوعٌ وعلامةُ الرفعِ الضَّمّةُ المُقدَّرةُ على الألفِ، والفاعلُ مُستترٌ "أنت". (الشَّمْسَ) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. (إذا) ظرفٌ للزَّمنِ

المُستقبلِ ساكن متضمِّنٌ معنى الشرطِ في مَحلِّ نصبٍ مُتعلِّقٌ ب- (تَزاوَرُ) . (طَلَعَتْ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتحِ، التاءُ: للتأنيثِ، الفاعلُ هيَ. (تَزاوَرُ) مضارعٌ مرفوعٌ - حُذِفَ مِنهُ إحدى التاءينِ - والفاعلُ هيَ. (عن كَهْفِهِم) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ ب- (تَزاوَرُ)، هُم: ضميرٌ مضافٌ إليه. (ذاتَ) ظرْفُ مكانٍ منصوبٌ متعلِّقٌ ب (تَزاوَرُ) . (اليمينِ) مضافٌ إليهِ مجرورٌ. (وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ) الواوُ: عاطفةٌ، والآيةُ مِثلُ نَظيرَتِها المُتقدِّمةِ، والضميرُ "هُم" في الفعلِ مفعولٌ به. (وَهُمْ) الواو: واو الحالِ، هُمْ: ضميرٌ منفصلٌ ساكن في محلِّ رَفْعِ مُبتَدأٍ. (في فَجْوَةٍ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ بخبرِ المُبتدأِ هُمْ. (مِنهُ) من: حرفُ جرٍّ، والهاءُ: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقانِ بِنَعتٍ محذوفٍ ل- (فجْوةٍ) . (ذَلِكَ) ذا: اسمُ إشارةٍ ساكن في محلِّ رفْعِ مُبتدأٍ، اللامُ: للبُعدِ، الكافُ: للخِطاب. (مِنْ آياتِ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ بِخَبرِ المبتدأِ ذلكَ. (اللهُ) اسمُ الجلالةِ مضافٌ إليهِ مجرورٌ. (مَنْ) اسمُ شرطٍ جازمٍ مبنيٌّ في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ مُقدَّمٍ. (يَهْدِ) فعلٌ مضارعٌ مجزوم؛ لأنّه فعلُ الشرطِ، وعلامةُ جزْمِهِ حذفُ حرفِ العِلَّة. (اللهُ) اسمُ الجلالةِ فاعلٌ مرفوعٌ. (فهُو) الفاءُ: رابطةٌ لجَوابِ الشرطِ، هُو: ضميرٌ "مبتدأ" . (المُهْتَدِ) خبرُ هُو مرفوعٌ، وعلامةُ الرفْعِ الضَّمَّةُ المُقدَّرةُ على الياءِ المحَذُوفةِ للتخفيفِ مراعاةً لِلَّفْظِ في الوقْفِ. (ومَنْ يُضْلِلِ) الواوُ: عاطفةٌ، (مَنْ يُضْلِلِّ مِثلُ مَن يَهْدِ)، وعلامةُ الجَزْمِ السُّكونُ. (فَلَنْ) الفاءُ: رابطةٌ لجَوابِ الشرطِ، لنْ: حرفُ نفيٍّ ونصبٍ (تجِدَ) مضارعٌ منصوبٌ، الفاعلُ مُستترٌ "أنت" . (لهُ) اللامُ حرفُ جرٍّ، الهاءُ: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقانِ بِمَحذوفٍ مفعولٍ بهِ ثانٍ. (وَلِيًّا) مفعولٌ بهِ أوّلُ

منصوبٌ. (مُرْشِداً) نَعتٌ ل(وَلِيًّا) منصوبٌ مِثلَه. جُملَةُ (تَرَى) لا مَحلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملَةُ (طَلَعَتْ) في محلِّ جرّ مضاف إليه. جُملةُ (تَزاوَرُ) جوابُ شرطٍ غيرُ جازمٍ. جُملَةُ (غَرَبَتْ) في محلِّ جرّ مضاف إليه. جُملَةُ (تقْرِضُهُمْ) جوابُ شرطٍ غيرُ جازمٍ. جُملَةُ (هُمْ في فَجْوَةٍ) في محلِّ نَصبِ حال. جُملَةُ (ذَلِكَ مِنْ آياتِ اللّهِ) لا مَحلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملَةُ (يَهْدِ اللّهُ) لا محلَّ لها تعليليّةٌ. جُملةُ (هُوَ الْمُهْتَدِ) في محلِّ جَزْمِ جوابِ الشرطِ مُقترِنةٌ بالفاءِ. جُملَةُ (يُضْلِلْ) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملةِ (يَهْدِ اللّهُ). جُملَةُ (لَنْ تَجِدَ) في محلِّ جَزْمِ جوابِ الشرطِ الثاني مُقترِنةٌ بالفاءِ.

(وَتَحْسَبُهُمْ أيقاظًا وَهُمْ رُقُودٌ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيهِ بِالوَصِيدِ، لو اطَّلَعْتَ عَلَيهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا).

(وتَحْسَبُهُم) الواوُ: عاطفةٌ، تحسبُ: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، هُمْ: ضميرٌ مفعولٌ بهِ أوّل، الفاعلُ مُستترٌ "أنت". (أيقاظًا) مفعولٌ بهِ ثانٍ منصوبٌ. (وَهُمْ) الواوُ: حاليَّةٌ، هُمْ: ضميرٌ مُنفَصِلٌ مبتدأٌ. (رُقودٌ) خبرٌ مرفوعٌ. (ونُقَلِّبُهُمْ) الواوُ: عاطفةٌ، نُقَلِّبُ: فِعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، هُمْ: ضميرٌ مفعولٌ بهِ، الفاعلُ: مُستترٌ "نحنُ" للتعظيمِ. (ذاتَ اليَمينِ) مِثل ما جاءَ في الآيةِ السابِقَةِ مُتعلِّقٌ ب(نُقلِّبُهُمْ). (وَذاتَ الشِّمالِ) مِثل ذاتَ اليمينِ ومعطوفٌ عليه. (وكَلْبُهُمْ) الواوُ: عاطفةٌ، كَلْبُ: مبتدأٌ مرفوعٌ، هُمْ: مضافٌ إليه. (باسِطٌ) خبرٌ مرفوعٌ. (ذِراعَيهِ) ذِراعَي: مفعولٌ بهِ لاسمِ الفاعلِ "باسِطٌ" منصوبٌ؛ وعلامةُ نصبهِ الياءُ لأنّه مُثنَّى، الهاءُ: مضافٌ إليه. (بِالوَصِيدِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب(باسِطٌ).

(لـو) حـرفُ امـتناعٍ لامـتِناعٍ. (اطّـلَعْتَ) فـعلٌ مـاضٍ سـاكـن، والـتاءُ: فـاعـلٌ. (عـليهِمْ)عـلى: حـرفُ جـرٍّ، هُـمْ: ضـميرٌ في محـلِّ جـرٍّ مُتعلِّقانِ بـ- (اطّـلَعْتَ). (لَـوَلَّيْتَ) اللامُ واقعةٌ في جوابِ "لو"، (وَلَّيْتَ مِثل اطّلَعْتَ). (مِنْهُم) مِثل عليهِم مُتعلِّقانِ بـ- (وَلَّيْتَ). (فِـراراً) نـائـبُ مَـفعولٍ مُطلَقٍ، أو مـفعولٌ لأجْـلِه منصوبٌ. (ولَمُـلِئْتَ) الـواوُ: عـاطِـفةٌ، الـلامُ مِثل الأُولـى، مُـلِئْتَ: فـعلٌ مـاضٍ مـبنيٌّ لـلمجهولِ ساكن، التاءُ: نائبُ الفاعلِ. (مِنهُم) مِثل عليهِم مُتعلِّقانِ بـ- (مُلِئْتَ). (رُعْبًا) مـفعولٌ بـهِ أو تمـييزٌ مـنصوبٌ. جُـملةُ (تَحْسَـبُهُمْ) لا محـلَّ لـها معطوفةٌ عـلى جُـملةِ (تَـرَى الـشَّـمْسَ). جُـملةُ (هُـمْ رُقـودٌ) في محـلِّ نـصبٍ حـال. جُـملَةُ (نُـقلِّبُهُم) لا محـلَّ لـها معطوفـةٌ عـلى جُـملةِ (تَحْسَـبُهُمْ). جُـملَةُ (كَـلْبُهُم بـاسِـطٌ) لا محـلَّ لـها مـعطوفـةٌ عـلى جُـملَةِ تَحْسَـبُهُم. جُـملَةُ (اطّـلَعْتَ) لا محـلَّ لـها اسـتئنافـيّةٌ. جُـملَةُ (وَلَّيْتَ) لا محلَّ لها جوابُ شَرطٍ غيرُ جازمٍ.

(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا).

(وَكَذَلِكَ) الواوُ: استئنافيّةٌ، الكافُ: حرفُ تشبيهٍ وجرٍّ، ذا: اسمُ إشارةٍ ساكن في محلِّ جرٍّ بالكافِ مُتعلِّقانِ بمَحذوفِ مَفعُولٍ مُطلَقٍ عامِلُه (بَعَثْناهُمْ)؛ أيّ: بَعثْناهُمْ بَـعْثًا كَـذَلِـكَ، الـلامُ: لِـلبُعدِ، الـكافُ: للخِـطاب. (بَـعَثْناهُـمْ) بـعثَ: فـعلٌ مـاضٍ

ساكن، نا: ضميرٌ فاعلٌ، هُمْ: ضميرٌ مفعولٌ بِه. (لِيَتَسَاءَلُوا) اللامُ: لامُ التعليلِ، يَتَساءَلُوا: مضارعٌ منصوبٌ بأنْ المُضمَرةِ جَوازًا بعدَ اللامِ، وعلامةُ نصبهِ حذفُ النونِ، الواوُ: فاعلٌ. (بَينَهُم) بينَ: ظرفُ مكانٍ منصوبٌ مُتعلِّقٌ ب (يَتَساءلُوا)، هُمْ: مضاف إليه. (قالَ) فعلٌ ماضٍ مبني على الفتحِ. (قائلٌ) فاعلٌ مرفوعٌ. (مِنهُم) مِن: حرفُ جرٍّ، هُمْ: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقانِ بِنَعتٍ لِـ (قائِلٌ). (كَمْ) اسمُ استفهامٍ ساكن في محلِّ نَصبٍ على الظَّرْفيَّةِ الزَّمانيّةِ مُتعلِّقٌ بـ (لَبِثْتُمْ) وتمييزُه محذوفٌ أيّ "يَومًا". (لَبِثْتُمْ) لَبِثَ: فعلٌ ماضٍ ساكن، تم: فاعلٌ. (قالُوا) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الضَّمِّ، والواوُ: فاعلٌ. (لَبِثْنا) مِثل لَبِثْتُم. (يومًا) ظرفُ زمانٍ منصوبٌ مُتعلِّقٌ ب(لَبِثْنا). (أو) حرفُ عَطْفٍ (بَعْضَ) اسمٌ معطوفٌ على "يومًا" منصوبٌ. (يومٍ) مضافٌ إليهِ مجرورٌ. والمَصدَرُ المُؤوَّلُ (أنْ يَتساءلُوا) في مَحلِّ جرٍّ باللامِ مُتعلِّقانِ بِـ (بَعَثْناهُم). (قالُوا) مِثلُ الأوَّل. (رَبُّكُمْ أعْلَمُ) مِثل (رَبُّنا رَبٌّ). (بِما) الباءُ حرفُ جرٍّ، ما: حرفٌ مَصدَريٌّ. (لَبِثْتُمْ) مِثل "لَبِثْنا". والمَصدَرُ المُؤوَّلُ (ما لَبِثْتُمْ) في محلِّ جرٍّ ب- (الباءِ) مُتعلِّقٌ بـ- (أعْلَمُ).

(فابْعَثُوا) الفاءُ: عاطفةٌ، ابْعَثُوا: فعلُ أمرٍ مبنيٌّ على حذفِ النونِ، الواو: فاعلٌ. (أحَدَكُمْ) أحدَ: مفعولٌ بِهِ مَنصُوبٌ، كُمْ: ضميرٌ مضاف إليه. (بِوَرِقِكُمْ) بِوَرِقِ: جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ بِحال مِن (أحَدَكُمْ)، كُمْ: مضافٌ إليه.

(هذهِ) الهاءُ: حرفُ تنبيهٍ، ذهِ: اسمُ إشارةٍ مبني على الكسرِ في مَحلِّ جرٍّ عَطْفِ بيانٍ - أو بدلٌ مِنْ (وَرِقِكُمْ). (إلى المَدينةِ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ ب(ابْعَثُوا). (فَلْيَنْظُرْ) الفاءُ: عاطفةٌ، اللامُ: لامُ الأمرِ، يَنْظُرْ: مضارعٌ مجزومٌ، الفاعلُ هُو.

(أيُّها) أيُّ: اسمُ موصولٍ مبني على الضَّمِّ في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ، ها: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مضافٍ إليه. (أزْكَى) خبرٌ لمُبتدأٍ مَحذُوفٍ تقديرُه "هو" مرفوعٌ وعلامةُ رفْعِه الضَّمّةُ المُقدَّرةُ على الألفِ. (طَعامًا) تمييزٌ منصوبٌ. (فَلْيأتِكُمْ) الفاءُ: عاطفةٌ، ليَأتِ: مِثل "لِيَنْظُرْ"، وعلامةُ الجَزْمِ حذفُ حرفِ العِلَّةِ، الفاعلُ مستترٌ "هو"، كُمْ: ضميرٌ مفعول به. (بِرِزْقٍ) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ ب "يأتِكُمْ". (مِنْهُ) مِثل "مِنهُم" مُتعلِّقٌ بِنَعتٍ ل- (رِزْقٍ).

(ولْيَتَلَطَّفْ) الواوُ: عاطفةٌ، ليَتَلَطَّفْ مِثل "لِيَنْظُرْ". (ولا) الواوُ: عاطفةٌ، لا: ناهيةٌ جازِمةٌ. (يُشْعِرَنَّ) يُشْعِرَ: فعلٌ مضارعٌ مبني على الفتحِ في محلِّ جَزْمٍ، النونُ: نونُ التوكيدِ، الفاعلُ: هُو. (بِكُمْ) الباءُ حرفُ جرٍّ، كُمْ: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقانِ ب- (يُشْعِرَنَّ). (أحَدًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. جُملَةُ (بَعَثْناهُمْ) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملَةُ (يَتَساءلُوا) لا محلَّ لها صِلَةُ المَوصُولِ الحَرفيِّ "أنْ" المُضمَر. جُملَةُ (قالَ قائِلٌ) لا مَحلَّ لها استئنافٌ بيانيٌّ. جُملَةُ (كَمْ لَبِثْتُمْ) في مَحلِّ نصبِ مَقولِ (قالَ). جُملَةُ (قالُوا) لا مَحلَّ لها استئنافٌ بيانيٌّ. جملةُ (لَبِثْنا) في مَحلِّ نَصبِ مَقُولِ (قالُوا). جُملَةُ (قالُوا) الثانيةُ لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملَةُ (رَبُّكُمْ أعْلَمُ) في محلِّ نصبِ مَقولِ (قالُوا). جُملَةُ (لَبِثْتُمْ) لا محلَّ لها صلةُ المَوصولِ الحرفيِّ (ما). جُملَةُ (ابْعَثُوا) لا محلَّ لها معطوفةٌ على استئنافٍ مُقدَّرٍ؛ أيّ: (اهْتَمُّوا بِأمْرِ طَعامِكُمْ فابْعَثُوا. جُملَةُ (لِيَنْظُرْ) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملَةِ (ابْعثُوا). جُملَةُ هو (أزْكَى) لا محلَّ لها صِلةُ المَوصُولِ (أيُّها). جُملَةُ (لِيَأتِكُمْ) لا محلَّ لها

معطوفةٌ على جُملةِ "لِيَنْظُر". وجُملَةُ (لِيَتَلَطَّفْ) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملةِ (لِيَنْظُر). وجُملَةُ (ولا يُشْعِرَنَّ) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملةِ (لِيَتَلَطَّفْ).

(إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا).

(إِنّهُمْ) إنّ: حرفُ توكيدٍ ونصبٍ، هُمْ: ضميرٌ في محلِّ نصبِ اسمِ (إنّ). (إنْ) حرفُ شرطٍ جازم. (يَظْهَرُوا) مضارعٌ مَجزُومٌ وهُو فعلُ الشرطِ وعلامةُ جَزمِه حذفُ النونِ، الواو: فاعلٌ. (عليكُمْ) على: حرفُ جرٍّ، كُمْ: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقانِ ب(يَظْهَرُوا). (يَرْجُمُوكُمْ) يَرْجُمُ: فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ؛ لأنّه جوابُ الشرطِ وعلامةُ جَزمِه حذفُ النونِ، الواو: فاعلٌ، كُمْ: مفعولٌ به. (أو) حرفُ عطفٍ. (يُعِيدُوْكُمْ) مِثل "يَرْجُمُوكُم".

(في مِلَّتِهِمْ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ بحالٍ من ضميرِ المفعولِ في يُعِيدُوكُمْ، هُمْ: ضميرٌ مضاف إليه. (ولَنْ) الواو: عاطفةٌ، لنْ: حرفُ نفيٍّ ونصْبٍ. (تُفلِحُوا) مضارعٌ منصوبٌ وعلامةُ نصْبِه حذفُ النونِ، الواو: فاعلٌ. (إذًا) – بالتنوين – حرفُ جوابٍ لا عملَ لهُ. (أبدًا) ظرفُ زمانٍ منصوبٌ مُتعلِّقٌ ب– (تُفْلِحُوا). جُملَةُ (إنّهُم) لا محلَّ لها تعليليّةٌ. جُملَةُ (إنْ يَظْهَرُوا) في محلِّ رفْعِ خَبرِ "إنّ". جُملَةُ (يَرْجُمُوكُم) لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ جازمٍ غيرُ مُقترنةٍ بالفاءِ. جُملَةُ (يُعِيدُوكُم) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملَةِ يَرْجُمُوكُمْ. جُملَةُ (لنْ تُفْلِحُوا) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جملةِ جوابِ الشرطِ.

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) .

(وكَذَلِكَ أعْثَرْنا) الواوُ استئنافيّةٌ، كَذَلِكَ أعْثَرْنا مِثل كَذَلِكَ بَعَثْنا. (عليهِم) على: حرفُ جرٍّ، هُمْ: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقٌ ب(أعثَرْنا). (لِيَعْلَمُوا) مِثل لِيَتَساءلُوا. والمَصدَرُ المُؤوَّلُ (أنْ يَعْلَمُوا) في محلِّ جرٍّ باللامِ مُتعلِّقانِ ب(أعْثَرْنا). (أنّ) حرفُ توكيدٍ ونصْبٍ. (وَعْدَ) اسمُ "أنّ" منصوبٌ. (اللهِ) اسمُ الجَلالَةِ مضافٌ إليهِ. (حَقٌّ) خبرُ "أنّ" مرفوعٌ، والمَصدَرُ المُؤوَّلُ (أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ) في مَحلِّ نَصْبٍ سَدَّ مَسَدَّ مَفْعُولَي "يَعْلَمُوا". (وأنَّ السَّاعَةَ) الواو: عاطفةٌ، أنّ كالسابق، الساعةَ: اسمُها منصوبٌ. (لا) نافيةٌ لِلجنْسِ تعملُ عملَ إنَّ. (رَيْبَ) اسمُ لا مبني على الفتحِ في محلِّ نصْبٍ. (فيها) في: حرفُ جرٍّ، ها: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقانِ بِخَبرِ "لا". والمَصدَرُ المُؤوَّل (أنّ الساعةَ لا رَيبَ فِيها) في محلِّ نصْبٍ معطوفٌ على المَصدَرِ المُؤوَّلِ (أنَّ وَعْدَ).

(إذْ) ظرْفٌ للزمنِ الماضي ساكن في محلِّ نصْبٍ مُتعلِّقٌ ب "أعثَرْنا"، أو مُتعلِّقٌ ب "يَعلَمُوا". (يَتنازَعُونَ) فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ وعلامةُ رفْعِهِ ثُبوتُ النونِ، الواو: فاعلٌ. (بينَهُم) بينَ ظرفُ مكانٍ منصوبٌ مُتعلِّقٌ بِحال "مِنْ أمْرِهِمْ"، هُم: ضميرٌ مضاف إليه. (أمْرَهُمْ) أمْرَ: مفعولٌ بهِ منصوبٌ، هُمْ: مضافٌ إليه. (فَقالُوا) الفاءُ: عاطِفَةٌ، قالُوا: فعلٌ ماضٍ مبني على الضَّمِّ، الواو: فاعلٌ. (ابْنُوا) فعلُ أمرٍ مبنيٌّ على حذفِ النونِ، الواو: فاعلٌ. (عليهِم) مِثل الأوَّلِ مُتعلِّقٌ ب– "ابْنُوا". (بُنْيانًا) مفعولٌ بهِ

مَنصُوبٌ. (رَبُّهُمْ أعْلَمُ) مِثل (ربُّنا ربٌّ في الآية ١٤) مِن هذه السورة. (بِهِمْ) مِثل عليهِم مُتعلِّقانِ ب- "أعلَمُ". (قال) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ. (الذِينَ) اسمٌ موصولٌ مبني على الفتحِ في محلِّ رفْع فاعل. (غلَبُوا) مِثل (قالُوا). (علَى أمْرِهِمْ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ ب- (غَلَبُوا)، هُمْ: مضاف إليه. (لَنَتَّخِذَنَّ) اللامُ: لامُ القسَمِ لِقَسَمٍ مُقدَّرٍ، نَتّخِذَ: فِعلٌ مضارعٌ مبنيٌّ على الفتحِ، النون: للتوكيدِ، الفاعلُ نَحنُ. (عَلَيهِم) مِثل الأوّلِ مُتعلِّقانِ بمَحذوفِ مفعولٍ بهِ ثانٍ. (مَسْجِداً) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. جُملَةُ (أعثَرْنا) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملَةُ (لا رَيبَ فِيها) في محلِّ رَفْعِ خبر "أنّ" الثاني. جُملَةُ (يَتنازَعُونَ) في محلِّ جرّ مُضاف إليه. جُملةُ (قالُوا) في محلِّ جرٍّ معطوفةٌ على جُملَةِ "يَتَنازَعُونَ".

جُملَةُ (ابْنُوا) في محلِّ نصبِ مَقولِ "قالُوا". جُملَةُ (رَبُّهُمْ أعلَمُ) لا محلَّ لها استئنافٌ بيانيٌّ أو تعليليّةٌ. جُملَةُ (قالَ الذِينَ) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملَةُ (غَلَبُوا) لا محلَّ لها صِلَةُ المَوصولِ "الذين". جُملَةُ (نَتّخِذَنَّ) لا محلَّ لها جوابُ القَسَمِ المُقدَّر، وجُملَةُ القَسَمِ المُقدَّرة في محلِّ نصبِ مقولِ "قالَ".

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا).

(سَيَقُولُونَ) السِّينُ حرفُ استقبالٍ، يقولُونَ مِثل يتنازَعُونَ في الآية ٢١ . (ثلاثةٌ) خَبرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه "هُمْ" . (رابِعُهُمْ) رابعُ: مبتدأٌ مرفوعٌ، هُمْ: ضميرٌ مضاف إليه .

(كَلْبُهُمْ) كَلْبُ: خبرٌ مرفوعٌ، هُمْ: مضافٌ إليه . (ويَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) الواو: عاطفةٌ في المَوضِعَين، (يَقُولُونَ . . . كَلْبُهُم مِثل الأُولى . (رَجْمًا) مصدرٌ في مَوضعِ الحالِ من ضميرِ الفاعِل؛ أيّ: "راجِمينَ" ، أو مفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ مَحذُوفٍ؛ أيّ: "يَرْجمُونَ رَجْمًا" . (بِالغَيبِ) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ ب "رَجْمًا" . (وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) مِثل الأُولى، الواو: زائدةٌ قبلَ "ثامِنهُم" لِتوكيدِ لُصوقِ الصِّفةِ بِالمَوصوفِ، وقيلَ هي عاطفةٌ غيرُ زائدَةٍ . (قُلِ) فِعلُ أمرٍ ساكن، الفاعلُ مستترٌ "أنت" . (رَبِّي أعْلَمْ) مِثل ربُّهُم أعلَمُ في الآيةِ السابقة . (بِعِدَّتِهِم) بِعِدَّة: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ ب– "أعلَم" ، هُم: ضميرٌ مضاف إليه . (ما) نافيةٌ . (يَعْلَمُهُمْ) يعلَمُ: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، هُمْ: ضميرٌ مفعول به . (إلاّ) أداةُ حَصْرٍ . (قلِيلٌ) فاعلُ يَعلَمُ مرفوعٌ . (فلا) الفاءُ: فصيحةٌ، لا: ناهيةٌ جازِمةٌ . (تُمارِ) فعلٌ مضارعٌ مجزُومٌ وعلامةُ جزمِه حذفُ حرفِ العِلَّةِ، الفاعلُ مستترٌ "أنت" . (فيهم) في: حرفُ جرٍّ، هُمْ: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقانِ ب "تُمارِ" .

(إلاّ) مِثل الأولى . (مِراءً) مفعولٌ مطلَقٌ منصوبٌ . (ظاهِرًا) نَعتٌ لِ–"مِراءَ" منصوبٌ . (ولا تَسْتَفْتِ) مِثل "ولا تُمارِ" . (فيهِم) مِثل الأوَّل مُتعلِّقانِ ب– "تَسْتَفْتِ" . (مِنهُم) مِثل فيهِم مُتعلِّقانِ بِمَحذوفِ حالٍ مِن "أحداً" نعتٌ تقدَّمَ على مَنعُوتِه . (أحداً) مفعولٌ به منصوبٌ . جُملةُ (يَقُولُونَ) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ .

جُملةُ (هُمْ) ثلاثةٌ... في محلِّ نصبِ مفعول "يَقُولُونَ" . جُملَةُ (رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ) في محلِّ رفْعِ نَعتٍ ل"ثلاثة" . جُملَةُ (يَقُولُونَ – الثانيةُ –) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جملةِ الاستئنافِ. جُملةُ (هُمْ) خمسةٌ... في محلِّ نصبِ مَقولِ "يَقولُونَ" . جُملَةُ (سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) في محلِّ رفْعِ نعتٍ ل"خَمْسَة" . جُملَةُ (يَقولُونَ – الثالثة –) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جملةِ الاستئنافِ. جُملةُ (هُمْ) سَبْعةٌ... في محلِّ نصبِ مقولِ يَقولُونَ. جُملَةُ (ثامِنُهُم كَلْبُهُمْ) في محلِّ نصبٍ معطوفةٌ على هُمْ "سَبْعَةٌ" . جُملَةُ (قُل) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملةُ (ربِّي أعلَمُ) في محلِّ نصبِ مَقُول "قُل" . جُملَةُ (ما يَعْلَمُهُمْ إلاّ قليلٌ) لا محلَّ لها استئنافٌ بيانيٌّ. جُملةُ (لا تُمارِ) في محلِّ جزمِ جوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ مُقترِنةٌ بالفاءِ؛أيّ: إنْ حَدَّثْتَ عنهُم فلا تُمارِ. جُملةُ (لا تَسْتَفْتِ) في محلِّ جزمٍ معطوفةٌ على جملةِ لا تُمارِ.

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا) .

(ولا تَقُولَنَّ) الواو: عاطفةٌ، لا تَقولُنَّ: مِثل "لا يَشعُرَنَّ" في الآية ١٩ من هذه السورة، الفاعلُ مستترٌ "أنت" . (لِشَيءٍ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ ب" تَقُولَنَّ" . (إنّي) إنّ: توكيدٍ ونصْبٍ، الياءُ: ضميرٌ في محلِّ نصبِ اسْم "إنّ" . (فاعلٌ) خبرُ "إنّ" مرفوعٌ. (ذَلِكَ) ذا: اسمُ إشارةٍ ساكن في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ لاسْمِ الفاعلِ فاعلٌ، اللامُ: للبُعدِ، الكافُ: للخِطاب. (غداً) ظرفُ زمانٍ منصوبٌ مُتعلِّقٌ ب" فاعل" . جُملَةُ (لا تَقُولَنَّ) في محلِّ جزمٍ معطوفةٌ على جُملَةِ "لا تُمارِ" . جُملَةُ (إنِّي فاعِلٌ) في محلِّ نصْبِ مَقول "تَقُولَنَّ" .

(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا).

(إلاّ) أداةُ استثناءٍ. (أنْ) حرفٌ مَصدَريٌّ ونصْب. (يشاءَ) فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ. (اللهُ) اسمُ الجَلالةِ فاعلٌ مرفوعٌ. والمصدرُ المُؤوّلُ (أنْ يَشاءَ اللهُ) في محلِّ نصبٍ على الاستثناءِ على حذفِ مضافٍ؛ أيّ: إلاّ وقتَ مَشيئةِ اللهِ. (واذْكُرْ) الواو: عاطفةٌ، اذْكُرْ: فعلُ أمرٍ ساكن، الفاعلُ "أنت". (رَبَّكَ) ربَّ: مفعولٌ بهِ منصوبُ، الكاف: ضميرٌ مضاف إليه. (إذا) ظرفُ زمانٍ ساكن في محلِ نصْبٍ مُتعلِّقٌ ب"اذْكُر".

(نَسِيتَ) نَسِيَ: فعلٌ ماضٍ ساكن، التاءُ: فاعلٌ. (وقُلْ) الواو: عاطفةٌ، قُلْ مِثل "اذْكُر". (عَسَى) فعلٌ ماضٍ جامدٌ مبني على الفتحِ المُقدَّرِ على الألفِ.

(أنْ يَهْدِيَنِ) أنْ: مَصدَريٌّ ونصْبٌ، يَهدِي: فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ وعلامةُ نصْبِهِ الفتحةُ، النون: للوقايةِ، الياءُ المَحذُوفةُ تخفيفًا مفعولٌ بهِ. (رَبِّي) ربِّ: فاعلٌ مرفوعٌ وعلامةُ رفعِهِ الضَّمّةُ المُقدَّرةُ على ما قبلَ الياءِ، الياء: ضميرٌ مضاف إليه. والمَصدَرُ المُؤوَّلُ (أنْ يَهْدِيَنِ) في محلِّ رفْعِ فاعلِ عَسَى. (لأقْرَبَ) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ ب- "يَهدِيَنِ" وعلامةُ الجرِّ الفتحةُ لِلوصْفِيّةِ ووزنُ أفعَل. (مِن) حرفُ جرٍّ. (هذا) الهاءُ: للتنبيهِ، ذا: اسمُ إشارةٍ ساكن في محلِّ جرٍّ بِ- "مِنْ" مُتعلِّقان ب- "أقْرَبَ". (رَشَدًا) تمييزٌ منصوبٌ. جُملَةُ (اذْكُر) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جملةِ "لا تَقُولَنَّ" في الآيةِ السابقة.

جُملةُ (نَسِيتَ) في محلِّ جرّ مضاف إليه. جُملَةُ (قُلْ) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملَة اذْكُرْ. جُملَةُ (عَسَى أنْ يَهْدِين) في محلِّ نصْبِ مقولِ "قُل".

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا).

(وَلَبِثُوا) الواو: استئنافيّةٌ، لَبِثُوا: فعلٌ ماضٍ مبني على الضَّمِّ، الواو: فاعلٌ. (في كَهْفِهِمْ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب- "لَبِثُوا"، هُم: مضاف إليه. (ثلاثَ) ظرفُ زمانٍ منصوبٌ مُتعلِّقٌ ب- (لَبِثُوا). (مِائَةٍ) مضافٌ إليه مجرورٌ. (سِنِينَ) بدلٌ من ثلاثِمائةٍ مَنصُوبٌ وعلامةُ نصْبه الياء؛ لأنّه مُلْحَقٌ بِجمْعِ المذكَّر السالمِ. (وازْدادُوا) الواو: عاطفةٌ، ازْدادُوا: فعلٌ ماضٍ، الواو: فاعلٌ. (تِسْعًا) تمييزٌ منصوبٌ. جُملةُ (لَبِثُوا) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملةُ (ازْدادُوا) لا محلَّ لها معطوفةٌ على الاستئنافيّةِ.

(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا).

(قُلِ اللَّهُ أعْلَمُ) مِثل "قُلْ رَبِّي أعْلَمُ" في الآية ٢٢ مِن هذه السورة. (بِما لَبِثُوا) مِثل "بِما لَبِثْتُمْ" في الآية ١٩ مِن هذه السورة. والمَصدَرُ المُؤَوَّلُ "ما لَبِثُوا" في محلِّ جرٍّ بالباءِ مُتعلِّقٌ ب- "أعلَمُ". (لَهُ) اللامُ: حرفُ جرٍّ، الهاءُ: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقانِ بِخَبرٍ مُقدَّمٍ. (غَيبُ) مبتدأٌ مؤخَّرٌ مرفوعٌ. (السَّمواتِ) مضافٌ إليهِ مجرورٌ. (والأرضِ) الواو: عاطفةٌ، الأرضُ: معطوفٌ على السمواتِ مجرورٌ.

(أبْصِرْ) فعلٌ ماضٍ لإنشاءِ التعَجُّبِ جاء على صُورةِ الأمرِ مبنيٌّ على السكونِ. (به) الباءُ: حرفُ جرٍّ زائدٍ، الهاءُ: ضميرُ فاعِل أبصِر. (وأسْمِعْ) الواو: عاطفةٌ، أسمِعْ مِثل "أبْصِر" . (ما) نافيةٌ. (لهُم) اللامُ: حرفُ جرٍّ، هُم: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقانِ بِخَبرٍ مُقدَّمٍ. (مِن دُونِه) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ بالخَبرِ المَحذوفِ، أو بِخَبرٍ ثانٍ أو بِمَحذُوفِ حالٍ؛ لأنَّه نعتٌ تقدَّمَ على المنعُوتِ، الهاء: مضافٌ إليه. (مِن) حرفُ جرٍّ زائدٌ. (وَلِيٍّ) اسمٌ مجرورٌ لفظًا مرفوعٌ محلاً مبتدأٌ مؤخَّرٌ. (ولا) الواو: عاطفةٌ، لا: نافيةٌ. (يُشْرِكُ) فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، الفاعلُ هُو. (في حُكْمِه) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب" يُشْرِكُ" ، الهاءُ: مُضافٌ إليه. (أحدًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. جُملةُ (قُل) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملةُ (اللهُ أعلَمُ) في محلِّ نصْبِ مقولِ "قُلْ" . جُملَةُ (لَبِثُوا) لا محلَّ لها صِلةُ الموصولِ الحَرفيِّ ما. جُملةُ (لَهُ غَيبُ السَّمواتِ) لا محلَّ لها تعليليّةٌ. جملةُ (أبْصِرْ بِه) لا محلَّ لها استئنافٌ في حيِّزِ القولِ. جملة (أسْمِعْ بِه) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملةِ "أبْصِر" المُستأنَفةِ. جُملَة (ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ) لا محلَّ لها تعليليّةٌ. جملةُ (ولا يُشْرِكُ) لا محلَّ لها معطوفةٌ على التعليليّةِ الأخيرةِ.[1]

وقد أُسدِلَ السِّتارُ عن فُصولِ هذه القِصَّةِ التاريخيَّةِ المُثيرَةِ لِسنينَ لا يعلمُ عددَها إلاّ العليمُ الخبيرُ؛ حتّى يحينَ مَوعِدُ اقترابِ الساعةِ **(واقتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فإذا هِيَ شاخِصَةٌ أبْصَارُ الّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنّا فِي غَفْلَةٍ مِن هذا بَلْ كُنّا ظالِمِينَ)**

---

١) إعراب الآيات من كتاب "إعرابُ القرآنِ الكريمِ المُيسَّر": أ. د. محمّد الطيِّب الإبراهيم، دار النفائس - الطبعة الثالثة ١٤٢٧ ه - ٢٠٠٦ م

(الأنبياء: ٩٧) وَدُكَّ الرَّدْمُ وخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ **(فإذا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)** (الكهف: ٩٨)؛ ومَن ثَمَّ قيامِ المخلُوقاتِ لِلمُنتَقِمِ الجبَّارِ.

وحِينَئذٍ يَجْعلُ اللهُ عزَّ وجلَّ الرَّدْمَ الذي بناهُ ذُو القَرْنَينِ منذُ آلافِ السِّنينَ دَكًّا مُسَوًّى بالأرضِ كأنْ لمْ يَكُنْ بِالأمْسِ، ويَموجُ الناسُ بَعضُهُم ببعضٍ **(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا)** (الكهف: ٩٩) وكانَ وَعْدُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا كائنًا لا مَحالةَ، وحينَ ذاكَ تنتهي فُصولُ هذه القِصَّةِ، وتُكْشَفُ الحُجُبُ، وتُصْبِحُ المُغَيَّباتُ حقائقَ واقعيَّةً لِتَبْدأَ أهوالُ الساعةِ وشَدائِدُ يومِ القيامَةِ **(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا)** (الكهف: ١٠٠).

القصة الثانية
صاحب الجنتين

آياتُ القِصَّة:

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤).

معاني الكلمات:

الجَنَّةُ: جَمعُها جَنّاتٌ وجِنانٌ، وهيُ الحديقةُ ذاتُ النَّخْلِ والشَّجرِ. والجَنَّةُ هي البُسْتانُ. والجَنَّةُ هي دارُ النعيمِ في الآخِرةِ. وأصلُ الجنِّ سترُ الشيءِ عن الحاسَّةِ. يُقالُ جَنَّهُ الليلِ وأجنَّهُ وجنَّ عليه؛ أيَّ: سَتَرَهُ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ (الأنعام: ٧٦) وقال: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ (المجادلة: ١٦). وفي الحديثِ الشريفِ: "الصَّومُ جُنَّةٌ"(١).

العنَبُ: يُقالُ لِثَمَرةِ الكرْمِ ولِلكَرمِ نفْسِه، الواحِدةُ عِنبَةٌ والجَمعُ أعنابٌ. ويستعملُ الفقهاءُ لَفْظَ الأعنابِ في أبوابِ (الأشربةِ، والزكاة، والبيعِ)؛ ففي الأشربةِ: الخَمْرُ هو ما يُسْكِرُ قليلهُ أو كثيرهُ سواءٌ اتُّخِذَ من (العِنَبِ أو التمرِ) أو غيرِها.

وفي الزكاةِ أجمعَ العلماءُ على أنَّ في العِنَبِ زكاةً إذا تَمَّتْ شُروطُها.

وفي البيعِ أجازَ الفقهاءُ بيع العنب – وإنْ عُلِمَ إنّه سيُتَّخَذُ خَمْرًا.

وقد جاءتْ كلمةُ "عِنَبٍ" في القرآنِ الكريمِ على هيئةِ الإفرادِ مرَّتَينِ (﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾) (الإسراء: ٩١).

---

١) رواه مسلم: (١١٥١).

(وَعِنَبًا وَقَضْبًا) (عبس: ٢٨).

وجاءتْ على هَيئةِ الجمْعِ تسعَ مرَّاتٍ منها (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ) (البقرة: ٢٦٦) (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ) (الرعد: ٤).

النَّخْلَةُ: هي شجرةُ التمْرِ، والجَمعُ نَخْلٌ ونَخيلٌ وثلاثُ نخْلاتٍ[١]. قال ابنُ فارس: النُّون والخاءُ واللامُ كلمةٌ تدلُّ على انتِقاءِ الشيءِ واختِيارِه، وانْتَخَلْتُه أيّ استقْصَيتُ حتّى أخذْتُ أفضَلَهُ، وعِندَنا أنَّ النخْل سُمِّيَ بهِ؛ لأنَّه أشرفُ كُلِّ شَجَرٍ ذِي ساقٍ، والواحدةُ نَخْلَةٌ[٢]

والنخلُ اسمُ جِنْسٍ يُذكَّرُ ويُؤنَّثُ؛ فمِن التذكيرِ قولُه تعالى (أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ) (القمر: ٢٠)، ومِن التأنيثِ قولُه تعالى (أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) (الحاقة: ٧). واستعارَ أبو حنيفةَ النخْلَ لِشَجَرِ النارجِيلِ وهو جوزُ الهِنْدِ[٣]. وأبو نَخْلةَ كنيةٌ، ونَخيلَة مَوضعٌ بالباديةِ، وبَطنُ نَخْلَةٍ بالحِجازِ مَوضعٌ بين مكَّةَ والطائف[٤].

والنخلةُ سيِّدةُ الشجرِ مخلوقةٌ من طِينَةِ آدمَ أبي البَشر عليه السلامُ، وقد ضَربَها اللهُ عزَّ وجلَّ مَثلاً فقال (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً) وهيَ قولُ "لا إلهَ إلاّ

---

١ لسان العرب: (ج ١١/ص٦٥٢).
٢ مُعجَم مقاييس اللغة: (ج٥/ص٤٠٧).
٣ لسان العرب: (ج ١١/ص٦٥٦).
٤ مُعجَم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضِع (ج ٢/ص١٢٠٤)، معجم البلدان لياقوت (ج ٥/ص ٢٧٧).

اللهُ" (**كَشَجَرَةٍطَّيِّبَةٍ**) وهي النخلَةُ (إبراهيم : ٢٤)، فكما أنّ قولَ "لا إلهَ إلاّ اللهُ" سيِّدُ الكلامِ، كذلك "النخْلَةُ سيِّدةُ الشجَرِ"[١]. النخلَة شجرةٌ مُباركةٌ تُثْمِرُ في السَّنَةِ مرَّةً واحِدَةً، وثمرُها غِذاءٌ ودواءٌ، وجميعُ أجزاءِ النخلَةِ ذاتُ فائدةٍ عظيمةٍ؛ حيث يُؤكَل ثمرُها، ويُوقَدُ مِنها، ويُتَّخَذُ مِن ليفِها وخُوصِها فَرشًا وأواني فتباركَ الخالِقُ العظيمُ.

زَرَعَ: فَعَلَ. زَرَعَ يَزرَعُ زَرْعًا وزِراعةً؛ فهو زارِعٌ، والمَفعولُ مَزْروعٌ. زَرَعَ الحَبَّ: بَذَرَهُ في الأَرْضِ لِيَنْبُتَ.

زَرَعَ الأَرْضَ: أَلْقَى فيها البَذْرَ. زَرَعَ اللَّهُ الزَّرْعَ: أَنْبَتَهُ وَنَمَّاهُ، (**أَأَنْتُمْتَزْرَعونَهُأَمْنَحْنُالزَّارِعونَ**) (الواقعة: ٦٤). زَرَعَ الجَرَّاحُ قَلْبًا لِلمَريضِ: أَيِ اسْتَبْدَلَ قَلْبَ المَريضِ بِقَلْبٍ آخَرَ سليمٍ. زَرَعَ الجَيْشُ الأَلْغامَ على الحُدودِ: دَفَنَها بِالأَرْضِ. حَصَدَ ما زَرَعَ: نالَ جزاءَ

[١] كتاب النخل: لأبي حاتم السّجستانيّ (ص ٢٢).

فِعْلِه. زُرِعَ لهُ بَعدَ شَقاوةٍ: استَغْنى بَعدَ فَقْرٍ. زرَعَ الشِّقاقَ: هيَّجَ الفِتنةَ وأثارَها. زرَعَ المَعرُوفَ: أحسَنَ وأولَى خيراً. زرَعَ لك الحُبَّ في القلوبِ: كرّمَكَ وحَسَّنَ خُلُقَكَ. زرَع البستانيُّ الأشجارَ: غَرسَها. زَرْعٌ: اسمٌ. وهو مَصدَرُ زَرَعَ، الجَمعُ: زُرُوعٌ. الزَّرْعُ: المَزْرُوعُ، وهو كُلُّ غَضٍّ أخضرَ نابتٍ من الأرضِ[1].

[1] معجم المعاني الجامع.

أقوال المفسرين

تفسير الطبريُ

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾

أيّ: واضْرِبْ يا مُحَمَّدُ للمُشْرِكينَ باللهِ الذين سألُوكَ أن تَطرُدَ الذينَ يَدعُونَ ربَّهُم بالغَداةِ والعشيِّ يُريدُونَ وَجْهَهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأحَدِهِمَا بستانَينِ من كُرومٍ وأطَفناهُما بنَخلٍ وجعلَنا في وسطِهما زَرعًا.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أيّ: كِلا البُستانَينِ أطعَم ثمرَه وما فيهِ من النخْل والكرْم وصُنوفِ الزَّرْع.

قال "كِلْتا الجَنَّتَينِ" ثُمَّ قال "آتَتْ"، فَوحَّدَ الخَبَرَ؛ لأنّ "كِلْتا" لا يُفرَدُ واحِدَتُها وأصلُه كلّ.

﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أيّ: ولم تنقصْ من الأكلِ شيئًا؛ بل آتتْ ذلك تامًّا كاملاً.

قال قتادةُ: لم تنقصُ منهُ شيئًا. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أيّ: وسيَّلْنا خلالَ هَذينِ البُستانَينِ نَهَرًا؛ يعني: بينَهُما وبينَ أشجارِهما، وثِقَلُ الجيمِ؛ لأنّ التفجيرَ كان في النهرِ كُلِّه فيُسيلُ بعضُه بعضًا.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ ابنُ عبَّاسٍ وَكَانَ لَهُ ثُمُرٌ – بِضَمِّ الثاءِ والمِيم – أيّ أنواعَ المالِ، وقال مُجاهِدٌ: كان له ذَهَبٌ وفِضَّةٌ، وقال قتادةُ: كلُّ المالِ وكلُّ مالٍ إذا اجتمعَ فهُو

ثُمُرٌ، وقال آخرُونَ ذلك هو الثمرُ؛ لأنَّها أموالٌ مثمِرةٌ يعني مُكثرةٌ، وقال ابنُ زيدٍ: بل عُنِيَ به الأصلُ.

وقرأ المَدنِيُّونَ: وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ – بفتحِ الثاءِ والمِيم – جمعُ ثَمرَةٌ. والأوْلَى عِندي ثُمُرٌ بِضَمّ الثاءِ والميمِ؛ لإجماعِ القُرّاءِ عليه والمعنى: وكان لهُ مِن هذه الكُرومِ والنخْلِ والزَّرعِ ثَمَرٌ.

(فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) أيّ: قال الذي جعَلْنا له جنَّتَينِ من أعنابٍ لِصاحبِه الذي لا مالَ له وهو يُخاطِبُه. **(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا)** أيّ: أعزُّ عشيرةً ورَهْطًا، كما قال عُيينةُ والأقْرعُ لرَسولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** نحن ساداتُ العَرَب وأربابُ الأموالِ، فنَحِّ عنّا سلمانَ وخبَّابًا وصُهيبًا؛ احتقاراً لهُم وتكبُّراً عليهِم. قال قتادةُ أُمنيةُ الفاجرِ هي كثرةُ المالِ وعِزَّةُ النفر.

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) أيّ: هذا الذي جَعلَنا لهُ جنَّتَينِ من أعنابٍ دَخَلَ بُستانَه وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِه؛ لِكُفْرِه بالبعثِ، وشَكِّه في قيام الساعةِ، ونِسيانِه المَعادَ إلى اللهِ تعالى فأوجبَ بِذلِكَ سخَطَ اللهِ وأليمَ عِقابِه.

(قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) لما عاينَ جنَّتَهُ ورأى ما فيها من الأشجارِ والثِّمارِ والزُّروعِ والأنهارِ قال ما أظنُّ أن تَبِيدَ هذه الجَنَّةُ أبداً، ولا تفَنى ولا تَخْرب.

(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ) التي وَعدَ اللهُ خلْقَهُ الحشْرَ فيها. **(قَائِمَةً)** أنْ تقومَ وتحدُث.

(وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي) أيّ: رَجَعْتُ إليهِ، وهو غيرُ مُوقنٍ أنّه راجعٌ إليه.

(**لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا**) أيّ: لأجِدنَّ عندَ اللهِ خيراً من جنَّتي هذه؛ فإنَّه لم يُعطِني هذه الجنَّةَ في الدُّنيا إلاّ وَلِي عِندَه أفضلُ منها في المَعادِ إنْ رُدِدْتُ إليه كما قال ابنُ زيدٍ. قال قتادةُ: كفُورٌ لِنِعَمِ رَبِّهِ مُكذِّبٌ بِلقائِه مُتمَنٍّ عليه.

(**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ**) قال لِصاحبِ الجنَّتَينِ صاحِبُه الذي هو أقلُّ مِنهُ مالاً وولَدًا.

(**وَهُوَ يُحَاوِرُهُ**) أيّ: يُخاطِبُه ويُكلِّمُه. (**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ**) أيّ: أكفرْتَ بالذي خلقَ أباكَ آدمَ من تُرابٍ. (**ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ**) ثمَّ أنشأكَ مِن نُطفَة الرَّجُلِ والمَرأةِ. (**ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**) ثُمَّ عَدَلَكَ بَشَرًا سويًّا رَجُلاً ذكرًا لا أُنثى. (**لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا**) أمّا أنا فلا أكْفُرُ بِربِّي، وقيلَ: لكِنْ أنا هُوَ اللهُ ربِّي. وتُقرأُ "لكنّا" بتشديدِ النونِ وحُذِفَ الألفُ في حالِ الوصلِ، وتشديدِ النُّونِ وتثبيتِ الألفِ في حالِ الوقْفِ.

(**وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**) أيّ: وهلَّا إذ دَخَلتَ بُستانَكَ فأعْجَبكَ ما رأيتَ مِنهُ قُلتَ "ما شاءَ اللهُ كانَ". وفي الكلامِ محذوفٌ استغنِيَ بدلالةِ ما ظهرَ عليه مِنهُ، وهو جوابُ الجَزاءِ وذلك كان.

(**إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا**) وهو قولُ المؤمِنِ الذي لا مالَ له ولا عشيرةَ.

(**فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ**) أيّ: إنْ ترَنِ أيُّها الرَّجُلُ أنا أقلَّ مِنكَ مالاً وولَدًا في الدُّنيا عسى ربِّي أن يرزُقَني خيراً من بُستانِكَ هذا.

(**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا**) على جنَّةِ الكافِرِ التي قال لها ما أظنُّ أن تَبِيدَ هذه أبدًا.

(**حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ**) أيّ عذابًا من السَّماءِ تُرمَى بهِ رَمْيًا وتُقذَف. والحُسبانُ جُمعُ حُسْبانةَ وهيَ المَرامي. قال ابنُ عبّاسٍ وقتادةُ والضَّحَّاكُ حُسْبَانًا أي عَذابًا.

(**فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا**) أيّ: فتُصبِحَ جَنَّتُكَ هذه أرضًا ملساءً قد ذَهَبَ كلُّ ما فيها مِن غَرْسٍ ونَبْتٍ وعادتْ خَرابًا بلاقِعَ. قال قتادةُ: زَلَقًا؛ أيّ: قد حَصدَ ما فيها فلم يُترَكْ فيها شيءٌ. وقال ابنُ عبَّاسٍ صَعِيدًا زَلَقًا أيّ: مِثلَ الجُرُزِ. قال ابنُ زيدٍ: صَعِيدًا زَلَقًا وصَعِيدًا جُرُزًا واحدٌ ليسَ فيها شيءٌ من النباتِ.

(**أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا**) أيّ: غائِرًا، وضعَ الغَورِ وهو مَصدرُ مكانِ الغائِرِ، ومعنى غَوْرًا؛ أيّ: ذاهِبًا قد غارَ في الأرضِ.

(**فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا**) أيّ: لن تُدرِكَ الماءَ الذي كان في جنَّتِكَ بعدَ غَوْرِهِ بِطَلَبِكَ إيَّاه (**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ**) أيّ: وأحاطُ الهلاكُ والجوائحُ بصُنوفِ ثمارِ جنَّتِه التي كان يقولُ لها مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا.

(**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا**) فأصبحَ هذا الكافرُ يُقلِّبُ كفَّيهِ ظهرًا لِبَطنٍ تلهُّفًا وأسَفًا على ذهابِ نَفقَتِه التي أنفقَ في جَنَّتِه. قال قتادةُ: فَأَصْبَحَ يُصفِّقُ بِكَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا.

(**وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**) أيّ: وهيَ خاليةٌ على نباتِها وبُيوتِها.

﴿وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أيّ: تمنَّى هذا الكافرُ بعدَما أُصيبَ بِجَنَّته أنّه لم يكُنْ قد أشركَ بِرَبِّه أحداً، والمعنى: أنّ هذا الكافِرَ إذا هَلَكَ وزالتْ عنه دُنياهُ وانفردَ بِعَمله، ودَّ أنّهُ لم يَكُنْ قد كَفرَ باللهِ ولا أشركْ به شيئًا.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أيّ: لم يكُنْ لِصاحبِ هاتَينِ الجنَّتَينِ جماعةٌ ينصرُونَه مِن دُونِ اللهِ. قال مُجاهِدٌ: عشيرتُه، وقال قتادةُ: جُندٌ يَنصرُونَه ويَمنَعونَه من عقابِ اللهِ وعذابِه.

﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ أيّ: ولم يكُنْ مُمتَنِعًا من عذابِ اللهِ إذا عذَّبَه. قال قتادةُ: مُنْتَصِرًا أيّ مُمتَنعًا.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ وذلك حينَ حلَّ عذابُ اللهِ بِصاحبِ الجَنَّتَينِ يومَ القِيامةِ. وتُقرأُ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ بفتحِ الواو أيّ هُنالِكَ المُوالاةُ للهِ، وتُقرأُ هُنالِكَ الوِلايَةُ بكسْرِ الواو أيّ: (المُلْكِ والسُّلطان). والثانيةُ أولى القِراءتَينِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عقَّبَ ذلك خبَرهُ عن مُلكِه وسُلطانِه، وأنَّ مَن أحلَّ به نِقمَتَه يومَ القيامةِ فلا ناصِرَ له يُومئُ؛ فاتباع ذلك الخبرِ عن انفِراده بالمملكةِ والسُّلطانِ أولى من الخبَرِ عن المُوالاةِ التي لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ ولا معنىً لِقولِ مَن قال: لا يُسمَّى سُلطانُ اللهِ ولايةً؛ وإنّما يُسمَّى ذلك سُلطانُ البَشرِ؛ لأنّ الولايةَ معناها أنّه يلي أمرَ خلْقِه مُنفَرداً بِه لا أنَّه يكونُ أميراً عليهِم.

وقُرِئتْ للهِ الحَقِّ خفْضًا توجيهًا إلى أنّه مِن نَعتِ اللهِ، والمعنى: هُنالِكَ الولايةُ للهِ الحقِّ أُلوهِيَّتُه، وقُرِئَتْ للهِ الحَقُّ رفْعًا" توجيهًا" إلى أنَّه مِن نعتِ الولايةِ، والمعنى هُنالِكَ الولايةُ الحقُّ للهِ وَحدَهُ لا شريكَ لهُ. والخفْضُ أَولى.

(**هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا**) أيّ: خيرٌ للمُنيبينَ في العاجلِ والآجلِ ثوابًا.

(**وَخَيْرٌ عُقْبًا**) أيّ: وخيرُهُم عاقبةً في الآجلِ إذا صار إليه المُطيعُ له، العامِلُ بما أمرَه، المُنتهي عمّا نهاهُ عنهُ. والعُقْبُ هو العاقِبَةُ، يُقالُ: عاقبةُ أمرِ كذا وعُقْباه وعُقُبه، وذلك آخرهُ وما يَصيرُ إليه مُنتهاهُ[1].

أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي

(**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ**) أي وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً للكافرِ والمُؤمنِ حالَ رَجُلَينِ "مُقَدَّرَينِ أو مَوجُودَينِ" هُما أخوانِ مِن بني إسرائيلَ؛ كافرٍ اسمُه "قطروس"، ومُؤمِنٌ اسمُه "يَهوذا"؛ وَرِثا مِن أبيهِما ثمانيةَ آلافِ دينارٍ فتشاطَرا؛ فاشتَرى الكافرُ بها ضياعًا وعقاراً؟، وصَرفَها المُؤمِنُ في وُجوهِ الخيرِ، وآلَ أمْرُهُما إلى ما حكاهُ اللهُ تعالى. وقِيلَ: المُمثَّلُ بِهما أخوانِ من بني مخزومٍ كافرٌ وهو الأسودُ بنُ عبدِ الأسدِ، ومُؤمِنٌ وهو أبو سَلَمةَ عبدُ اللهِ زوجُ أمِّ سَلَمَةَ قَبْلَ رسولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم**.

(**جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ**) بُستانَينِ مِنْ أَعْنابٍ وكُرومٍ، والجُملَةُ بتمامِها (بيانٌ للتمثيلِ، أو صِفَةٌ للرَّجُلَينِ).

---

[1] جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ج١٨/ ص١٩- ٢٩).

(**وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعًا**) وجَعلْنا النخلَ مُحيطةً بهِما مُؤزَّرًا بها كُرومُهما، يُقالُ: حَفَّهُ القومُ إذا أطافُوا بهِ، وحَفَفْتُه بهِم: إذا جعلْتهُم حافِّينَ حولَه فتزيدُه الباءُ مَفعولاً ثانيًا، وَجَعَلْنا وسطَهُما زَرْعًا؛ ليكونَ كُلٌّ مِنهُما جامِعًا للأقواتِ والفواكِه مُتواصِلَ العمارةِ على الشكلِ الحسنِ والترتيبِ الأنيقِ.

(**كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها**) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ ثمرَها، وإفرادُ الضميرِ لإفرادِ "كِلْتَا". وقُرِئَ "كُلُّ الجنَّتَينِ آتَى أكله.

(**وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا**) ولمْ تنقصْ من أكلِها شَيْئًا يُعهَدُ في سائِرِ البساتِينِ؛ فإنَّ الثمارَ تتمُّ في عامٍ وتنقصُ في عامٍ في الأعمِّ الأغلبِ.

(**وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَرًا**) ليدومَ شربهُما فإنَّه الأصلُ، ويزيدُ بهاؤهُما.

(**وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ**) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ أنواع من المال سوى الجَنتَينِ من ثَمَرِ مالِه إذا كثَّرَه. وقرأَ عاصِمٌ بفتحِ الثاء والمِيم، وقرأ أبو عمْرٍو بِضَمِّ الثاءِ وإسكانِ المِيم، والباقُونَ بِضَمِّهما، وكذلك في قولِه وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ.

(**فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ**) فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُراجِعُه في الكلامِ مِن حارَ إذا رَجَعَ.

(**أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**) أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ حَشَمًا وأعوانًا. وقيلَ: أولاداً ذُكوراً؛ لأنَّهُم الذين ينفرونَ مَعهُ.

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ بِصاحِبه يَطوفُ به فيها ويُفاخِرُه بها، وإفرادُ الجَنَّةِ؛ لأنَّ المرادَ ما هو جَنَّتَه وما مُتِّعَ به من الدُّنيا تنبيهًا على أنَّ لا جَنّةَ له غيرُها ولا حظَّ لهُ في الجَنَّةِ التي وُعِدَ المُتَّقُونَ، أو لاتِّصالِ كُلِّ واحدةٍ من جَنَّتَيهِ بِالأُخْرى، أو لأنَّ الدُّخولَ يكون في واحدةٍ واحدةٍ.

(وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ) ضارٌّ لها بعُجبه وكُفْرِه. **(قالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَدًا)** قالَ مَا أَظُنُّ أن تَفنَى هذِهِ الجَنَّةُ أَبَدًا لِطُولِ أملِه وتمادي غَفلَتِه واغترارِه بِمُهلتِه.

(وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ كائِنةً. **(وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي)** أي وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي بالبعثِ كما زَعَمْتَ.

(لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْها) لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِن هذه الجنَّةِ، وقرأ الحِجازيَّانِ والشاميُّ منهما أيِّ مِن الجنَّتَينِ. **(مُنْقَلَبًا)** أيِّ: مَرجِعًا وعاقِبةً؛ لأنَّها فانيةٌ وتِلكَ باقيةً؛ وإنَّما أقسمَ على ذلكَ؛ لاعتِقاده أنَّه تعالى إنَّما أولاهُ ما أولاهُ لاستئهالِه واستحقاقِه إيَّاهُ لِذاتِه وهو مَعهُ أينَما تلقَّاهُ.

(قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلًا.) قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُراب؛ لأنه أصلُ مادَّتِكَ أو مادَّةُ أصْلِكَ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ؛ فإنَّها مادَّتُكَ القريبةُ، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً فَعدَلَكَ وكَمَّلَكَ إنسانًا ذَكَرًا بالِغًا مَبلَغَ الرِّجالِ. وجَعلَ كُفرَهُ بالبَعثِ كُفْرًا باللهِ تعالى؛ لأنّ

منشأهُ الشَّكّ في كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى؛ ولِذلكَ رتَّبَ الإِنكارَ على خلقِه إيَّاه من التراب؛ فإِنَّ مَن قَدَرَ على بَدَءِ خَلْقِه منهُ قَدَرَ أن يُعيدَه منهُ.

(لَكِنَّاهُوَاللَّهُرَبِّيوَلَاأُشْرِكُبِرَبِّيأَحَدًا) أصلُهُ "لكِنْ أنا" فحُذِفَتِ الهمزةُ بِنَقْلِ الحركةِ أو دُونَه فتلاقتِ النُّونانِ؛ فكان الإِدغامُ. وقَرأ ابنُ عامرٍ ويَعقُوب بالألفِ في الوصلِ؛ لِتَعْويضِها من الهمزةِ، أو لإِجراءِ الوصلِ مُجْرَى الوقْفِ، وقد قُرِئَ "لكنّا أنا" على الأصلِ وهو ضميرُ الشأنِ وهو بالجُملَةِ الواقعةِ خَبرًا له خبرُ أنا،أو ضميرُ اللَّهُ واللَّهُ بَدَلُه وربِّي خبرُه والجملةُ خبرُ أنا والاستدراكُ مِن أكَفَرْتَ كأنّه قال: أنتَ كافِرٌ باللهِ؛ لكنِّي مُؤمِنٌ بهِ، وقد قُرِئَ "لكِنْ هُوَ اللهُ رَبِّي، ولكِنْ أنا لا إلَهَ إلاّ هُوَ رَبِّي.

(وَلَوْلَاإِذْدَخَلْتَجَنَّتَكَقُلْتَمَاشَاءَاللَّهُ) وهلَّا قُلتَ عِندَ دُخُولِها "مَا شاءَ اللَّهُ الأمرُ ما شاءَ"، أو "ما شاءَ كائِنٌ" على أنَّ ما مَوصُولَةٌ، أو أيُّ شيءٍ شاءَ اللهُ كان على أنّها شرطيَّةٌ، والجوابُ محذوفٌ إقْراراً بأنّها وما فيها بمَشيئةِ اللهِ إنْ شاءَ أبْقاها وإنْ شاءَ أبادَها.

(لَاقُوَّةَإِلَّابِاللَّهِ) وقُلْتَ "لا قوَّةَ إلاّ باللهِ" اعترافًا بالعجْزِ على نفْسِكَ والقُدرَةُ للهِ، وإن ما تيسَّرَ لكَ مِن عمارتِها وتدبيرِ أمرِها فَبِمَعُونَتِه وإقْدارِه. وعن النبيِّ: **صلى الله عليه وسلم** "مَن رأى شَيئًا فأعْجَبَهُ فقالَ ما شاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إلاّ باللهِ لمْ يَضُرَّهُ".

(إِنْتَرَنِأَنَاأَقَلَّمِنْكَمَالًاوَوَلَدًا) يحتملُ أن يكونَ فَصْلاً وأن يكونَ تأكيداً للمفعولِ الأوَّل. وقُرِئَ أَقُلْ بالرَّفْعِ على أنَّه خبرُ "أَنَا" والجملةُ مفعولٌ ثانٍ لـ"تَرَنِ"، وفي قولِه "وَوَلَداً" دليلٌ لَمن فَسَّرَ النفرَ بالأولادِ.

(**فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ**) فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ في الدُّنيا أو في الآخِرَةِ لإِيماني، وهو جوابُ الشرطِ.

(**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ**) وَيُرْسِلَ على جَنَّتَكَ لِكُفْرِكَ حُسْبانًا مِنَ السَّماءِ مرامِي جمعُ حُسْبانَة وهِيَ الصَّواعِق، وقيلَ: هو مَصدَرٌ بمَعنى الحِسابِ، والمرادُ بهِ التقديرُ بتَخريبها أو عذابِ حسابِ الأعمالِ السَّيئةِ.

(**فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا**) أيّ: أرْضًا ملْساءَ يُزْلَقُ عليها باستِئصالِ نباتِها وأشجارِها.

(**أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا**) أيّ: غائِرًا في الأرضِ مصدرٌ وُصِفَ به كالزَّلْقِ.

(**فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا**) أي لَنْ تَسْتَطِيعَ رَدًّا للماءِ الغائِرِ.

(**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ**) أيّ: وأهلكَ أموالَهُ حَسبَما توقَّعَهُ صاحِبُه وأنْذَرَه مِنهُ، وهُوَ مأخُوذٌ مِن أحاطَ بهِ العدوُّ فإنَّه إذا أحاط به غلبَه وإذا غلبَهُ أهلَكَهُ، ونظيرُه أتى عليهِ إذا أهْلَكَهُ من أتى عليهِم العَدوُّ إذا جاءهُم مُستعْلِيًا عليهِم.

(**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا**) فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ظهْرًا لِبَطنٍ تلهُّفًا وتحسُّرًا عَلى مَا أَنْفَقَ في عمارتِها وهو متعلِّقٌ ب" يُقَلِّبُ"؛ لأنَّ تقليبَ الكفَّينِ كنايةٌ عن الندمِ؛ فكأنَّه قيلَ: فأصبحَ يندَمُ، أو حال أيّ مُتحَسِّرًا على ما أنفقَ فيها.

(**وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**) وَهِيَ ساقِطةٌ عَلى عُرُوشِها؛ بأنْ سقَطتْ عُروشُها على الأرضِ، وسقَطتِ الكُرومُ فوقَها عليها.

(وَيَقُولُ يالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) وَيَقُولُ عطفٌ على يُقَلِّبُ أو حالٌ من ضَميره؛ كأنَّه تذكَّرَ موعظةَ أخيهِ وعَلِمَ أنَّه أتي من قِبَلِ شِرْكِه، ولو لم يَكُنْ مُشْرِكًا لم يهلِكِ اللهُ بُستانَه، ويحتملُ أن يكونَ توبةً من الشِّرْكِ ونَدمًا على ما سبقَ مِنهُ.

(وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) قَرأ حمزةُ والكسائيُّ بالياء لِتَقدُّمِه، يَنْصُرُونَهُ؛ أيّ: يَقدرونَ على نَصرِه بدفْعِ الإهلاكِ، أو ردِّ المُهلكِ، أو الإتيانِ بمِثْلِه مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ فإنَّه القادرُ على ذلك وَحدَه.

(وَما كانَ مُنْتَصِرًا) وَما كانَ مُنْتَصِراً وما كان مُمْتَنِعًا بِقُوَّتِه عن انتقامِ اللهِ مِنهُ.

(هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ) أيّ: في ذلك المقامِ وتلك الحالِ النُّصرَةُ للهِ وَحدهُ لا يَقدرُ عليها غيرُه. قَرأ حمزةُ والكسائيُّ بالكسْر ومَعناها "السُّلطانُ والمُلْكُ"؛ أيّ: هُنالكَ السلطانُ له لا يُغلَبُ ولا يُمنَعُ مِنهُ، أو لا يُعبَدُ غَيرُه؛ كقَولِه تعالى: " فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ"؛ فيكونُ تنبيهًا على أنَّ قولَه: "يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ" كان عن اضْطرارٍ وجَزَعٍ مِمَّا دهاهُ.

ويَعضدُه قولُه (هُوَ خَيْرٌ ثَوابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) أيِّ: لأوليائِه. وقَرأ أبو عَمرو "الحقُّ" بالرفْعِ صفةً للوَلايةِ، وقُرِئَ بالنَّصبِ على المصدَرِ المؤكَّدِ، وقَرأ عاصِمٌ وحمزةُ "عُقْبًا" بالسكونِ، وقُرِئَ "عقبى" وكُلُّها بمَعنى العاقِبَةِ[1].

[1] أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ج ٣ ص ٢٨٠ - ٢٨٢).

تفسير القرطبي

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ هذا مَثلٌ لِمَن يتعزَّزُ بالدُّنيا ويَستَنْكِفُ عن مُجالَسةِ المُؤمِنينَ، وهو مُتَّصِلٌ بِقَولِه تعالى "واصْبِرْ نَفْسَكَ..." واختُلِفَ في اسْمِ هذَينِ الرَّجُلَينِ وتعيينِهما.

قال الكلبيُّ: نَزَلَتْ في أخَوَينِ من أهلِ مكَّةَ مَخزُوميينَ؛ أحدهُما مؤمنٌ وهُو أبو سَلَمَةَ زَوْجِ أُمِّ سَلَمةَ قبلَ النبيِّ، **صلى الله عليه وسلم** والآخَرُ كافرٌ وهو الأسودُ بن عبدِ الأسَد، وهُما الأخَوانِ المَذْكُورانِ في سُورةِ الصَّافَّاتِ: قال قائلٌ منهُم إنِّي كان لي قرينٌ، وَرِثَ كُلُّ واحدٍ مِنهُما أربعةَ آلافِ دينارٍ؛ فأنفقَ أحدُهُما مالَهُ في سبيلِ اللهِ، وطلبَ من أخيهِ شيئًا فقالَ ما قالَ.

وقيلَ: نَزلتْ في النبيِّ **صلى الله عليه وسلم** وأهلِ مكَّةَ.

وقيلَ: هو مَثلٌ لِجَميعِ مَن آمنَ باللهِ وجَميعِ مَن كَفَرَ.

وقيلَ: هو مثلٌ لِعُيينةَ بنِ حصنٍ وأصحابِه مع سلمانَ وصُهيبٍ وأصحابِه، شبَّهَهُمُ اللهُ بِرَجُلَينِ مِن بني إسرائيلَ أخوينِ؛ أحدُهما مُؤمِنٌ واسْمُه "يهُوذا"، والآخَر كافِرٌ واسْمُه "قرطوش"، وكانا شريكَينِ، ثمَّ اقتسَما المالَ فصارَ لكلِّ واحدٍ منهُما ثلاثةُ آلافِ دينارٍ؛ فاشتَرى المُؤمِنُ منهُما عبيداً بألْفٍ وأعتَقَهُم، وبالألفِ الثانيةِ ثِيابًا فكَسا العُراةَ، وبالألفِ الثالثةِ طعامًا؛ فأطعمَ الجائعينَ، وبنَى مساجدَ، وفعلَ خيراً. وأمّا الآخَرُ فَنَكَحَ بِمالِه نِساءً ذَواتِ يَسارٍ، واشتَرى دوابَّ وبقَرًا فاستنْتَجَها؛ فَنَمَتْ له نماءً مُفْرِطًا، واتَّجَرَ بباقِيها؛ فَرَبِحَ حتَّى فاقَ أهْلَ زَمانِه غِنَىً.

وأدركَتِ الأوَّلَ الحاجةُ؛ فأرادَ أن يستَخدِمَ نفْسَه في جَنَّةٍ يَخدمها فقالَ: لو ذَهَبْتُ لَشَرِيكي وصاحِبي فسألْتُهُ أنْ يَستخدِمَني في بعضِ جَنَّاتِه رجوتُ أن يكونَ ذلكَ أصلَحَ بي. فجاءَهُ فلَمْ يَكَدْ يَصِلُ إليه مِن غلظ الحجاب، فلمَّا دخلَ عليهِ وعَرَفَهُ وسألَهُ عن حاجَتِه قالَ لهُ: ألمْ أكُنْ قاسَمْتُكَ المالَ نِصفَينِ فما صَنعْتَ بِمالِكَ؟ قالَ: اشتَريتُ بهِ مِن اللهِ تعالى ما هُو خيرٌ مِنهُ وأبْقَى. فقالَ: أئنَّكَ لَمِنَ المُصدِّقِينَ، ما أظنُّ الساعةَ قائمةً وما أراكَ إلَّا سفيهًا، وما جَزاؤكَ عِندي على سَفاهَتِكَ إلاّ الحِرمانُ. أوَ ما تَرَى ما صَنَعْتُ أنا بِمالي حتَّى آلَ إلى ما تَراهُ مِن الثَّروَةِ وحُسْنِ الحالِ، وذلكَ أنَّي كَسَبْتُ وسفِهْتَ أنتَ، أُخرُجْ عنِّي.

وقالَ عطاء: كانا أخوَينِ شَرِيكَينِ لهُما ثمانيةُ آلافِ دِينارٍ وَرِثاها مِن أبيهِما فاقتَسَماها؛ فاشتَرى أحدُهُما أرْضًا بألفِ دينارٍ، فقالَ صاحِبُه: اللهُمَّ إنَّ فُلانًا قد اشْتَرى أرْضًا بألفِ دينارٍ؛ وإنِّي اشتَرَيتُ مِنْكَ أرْضًا في الجَنَّةِ بألفِ دِينارٍ فتَصدَّقَ بها. ثُمَّ إنَّ صاحِبَه بنَى دارًا بألفِ دِينارٍ، فقالَ: اللهُمَّ إنّ فُلانًا بنَى دارًا بألفِ دينارٍ؛ وإنِّي أشتَري مِنكَ دارًا في الجَنَّةِ بألفِ دينارٍ فتصدَّقَ بها. ثُمَّ تزوَّجَ امرأةً فأنْفَقَ عليها ألفَ دينارٍ فقالَ: اللهُمَّ إنَّ فُلانًا تَزوَّجَ امرأةً بألْفِ دينارٍ؛ وإنِّي أخطبُ إليكَ مِن نساءِ الجَنَّةِ بألفِ دينارٍ فتصدَّقَ بألفِ دينارٍ. ثمَّ اشتَرى خَدمًا ومتاعًا بألفِ دينارٍ، وإنِّي أشتَري مِنكَ خَدمًا ومَتاعًا مِن الجَنَّةِ بألفِ دينارٍ فتَصدَّقَ بألفِ دينارٍ. ثُمَّ أصابَتْهُ حاجةٌ شديدةٌ فقالَ: لعلَّ صاحِبي ينالُني مَعرُوفُه، فأتاهُ فقالَ: ما فَعَلَ مالُكَ؟ فأخْبَرَهُ قِصَّتَه فقالَ: وإنَّكَ لَمِنَ المُصدِّقِينَ بهذا الحديثِ!؛ واللهِ لا أُعطِيكَ شيئًا. ثُمَّ قالَ لهُ: أنتَ تعبدُ إلهَ السَّماءِ وأنا لا أعبُدُ إلاّ صنَمًا.

فقالَ صاحِبهُ: واللهِ لأعِظَنَّهُ؛ فَوعَظَهُ وذَكَّرَهُ وخَوَّفَه. فقالَ: سِرْ بِنا نَصْطَدِ السَّمكَ؛ فمَن صادَ أكثرَ فهُوَ على حقٍّ. فقالَ لهُ: يا أخِي؛ إنَّ الدُّنيا أحْقَرُ عِندَ اللهِ مِن أن يَجْعَلَها ثوابًا لمُحْسنٍ أو عِقابًا لكافِرٍ. قال: فأكْرَهَهُ على الخُروجِ مَعهُ؛ فابْتلاهُما اللهُ؛ فجَعلَ الكافِرُ يَرمي شَبَكَتَهُ ويُسَمِّي بِاسْمِ صَنمِهِ فتَطلُعُ متدفِّقةً سَمكًا، وجَعلَ المُؤمِنُ يَرمِي شَبكَتَهُ ويُسمِّي بِاسْمِ اللهِ فلا يَطلُعُ لهُ فيها شيءٍ. فقالَ لهُ: كيف تَرَى؟ أنا أكثرُ مِنْكَ في الدُّنيا نصيبًا ومَنزلَةً ونَفرًا، كذلكَ أكونَ أفضلَ مِنكَ في الآخِرَةِ إنْ كان ما تقولُ بِزَعْمِكَ حقًّا. قال فَضَجَّ المَلَكُ المُوكَّلُ بهِما؛ فأمرَ اللهُ تعالى جِبريلَ أنْ يأخُذَهُ فيذَهبَ به إلى الجِنانِ فَيُريهِ مَنازِلَ المُؤمِنِ فيها؛ فلمَّا رأى ما أعدَّ اللهُ لهُ قالَ: وعِزَّتِكَ لا يَضُرُّهُ ما نالَهُ مِن الدُّنيا بعدَ ما يكونُ مَصيرُه إلى هذا، وأراهُ مَنازِلَ الكافِرِ في جهنَّمَ فقال: عِزَّتِكَ لا ينفعُه ما أصابَهُ من الدُّنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا. ثم إن الله تعالى توفى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلمَّا استقرَّ المؤمِنُ في الجَنَّةِ، ورأى ما أعدَّ اللهُ لهُ أقبلَ هو وأصحابُه يتساءلُونَ؛ "فقالَ إنِّي كان لي قرينٌ يقولُ أإنَّكَ لَمِنَ المُصدِّقينَ" الآية، فنادى منادٍ: يا أهلَ الجَنَّةِ هل أنتُمْ مُطَّلِعُونَ؟ فاطَّلَعَ إلى جَهنَّمَ فَرآهُ في سَواءِ الجَحيمِ؛ فَنَزَلَتْ: "واضْرِبْ لَهُمْ مَثلاً" ".

وذَكَرَ إبراهيمُ بنُ القاسِمِ الكاتبُ في كتابِه "في عَجائبِ البلادِ" أنَّ بُحيرةَ "تنيس" كانتْ هاتَين الجَنَّتَينِ، وكانَتا لأخَوينِ؛ فباعَ أحدُهُما نَصيبَهُ من الآخَرِ فأنفَقَ في طاعةِ اللهِ؛ حتَّى عَيَّرَهُ الآخَرُ، وَجَرَتْ بينَهُما المُحاورَةُ؛ فغَرقَها اللهُ تعالى في ليلةٍ وإيَّاها عنَى بهذهِ الآيةِ.

وذَكَرَ الماورديُّ أنَّ هذا مَثلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لِهذهِ الأُمَّةِ، وليسَ بِخَبرٍ عن حالٍ مُتقدِّمَةٍ؛ لِتزْهَدَ في الدُّنيا، وتَرغبَ في الآخِرَةِ، وجَعَلَهُ زَجْرًا وإنْذارًا؛ لكنَّ سِياقَ الآيةِ يدلُّ على خِلافِ هذا واللهُ أعلمُ.

(وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ) أيّ: أطفْناهُما من جوانبهما بِنَخْلٍ. والحفافُ الجانبُ، وجَمعُه أحِفَّةٌ، ويُقالُ: حفَّ القومُ بِفُلانٍ يَحفُّونَ حَفًّا؛ أيّ: طافُوا بهِ، ومِنهُ: "حافِّينَ مِن حَولِ العَرْشِ.

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)؛ أيّ: جَعلْنا حولَ الأعنابِ النخْلَ ووسطَ الأعنابِ الزَّرعَ.

(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا)؛ أيّ: كُلُّ واحدةٍ من الجَنَّتَينِ آتتْ أُكُلَها تامًّا؛ ولذلكَ لم يقُلْ: آتَتا.

(وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا)؛ أيّ: لمْ تنقُصْ.

(وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا)؛ أيّ: أجْرَينا وشَقَقْنا وسطَ الجَنَّتَينِ بِنَهَرٍ.

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) قرأَ "أبو جَعفرَ، وشيبةَ وعاصِمٌ، ويعقوب، وابنُ أبي إسحاق" ثَمَرٌ بفَتحِ الثاءِ والمِيم، وكذلك قولُه: " وأحِيطَ بِثَمَرِهِ جمعُ ثَمَرَة. قال الجَوهريُّ: الثَّمَرَةُ واحِدةُ الثَّمَرِ والثَّمَرات، وجَمْعُ الثمَرِ ثِمارٌ؛ مِثل: جبلٌ وجِبالٌ. وقال الفرَّاءُ: جَمعُ الثِّمارِ ثُمُرٌ مِثل: كِتابٌ وكُتُبٌ، وجَمعُ الثَّمَرِ أثْمارٌ مِثل: أعناقٌ وعنقٌ.

والثَّمَرُ أيضًا: المالُ المُثْمِرُ يُخفَّفُ ويُثَقَّلُ. وقرأ "أبو عَمروٍ" وكانَ له ثَمَرٌ بِضَمِّ الثاءِ وإسكانِ المَيم؛ وفسَّرهُ بأنواعِ المالِ. والباقُونَ بِضَمِّها في الحِرَفينَ. قال ابنُ عبَّاسٍ: "ذَهبٌ وفِضَّةٌ وأموالٌ".

(**فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ**) يُحاوِرهُ؛ أيّ: يُراجِعهُ في الكلامِ ويُجاوبُهُ. والمُحاوَرةُ المُجاوبَةُ، والتَّحاورُ التَّجاوبُ.

(**أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**) أنا أكثرُ مِنْكَ مالاً وأعزُّ نَفَرًا. النَّفَرُ الرَّهْطُ وهو ما دُونَ العَشَرةِ، وأرادَ هُنا الأتباعَ والخدَم والولدَ حسبما تقدَّمَ بيانُه.

(**وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ**) قِيلَ: أخذَ بِيَدِ أخيهِ المُؤمِنِ يُطِيفُ بِهِ فيها، ويُرِيهِ إيَّاها؛ وهُوَ ظالِمٌ لِنفْسِه؛ أيِّ: بِكُفْرِه، ومَن أدخلَ نفْسَهُ النارَ بِكُفْرِه فهُو ظالِمٌ لنَفْسِه.

(**قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَدًا**) أنكرَ فَناءَ الدارِ.

(**وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً**) أيّ: لا أحسبَ البعثَ كائنًا.

(**وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْها مُنْقَلَبًا**) أيّ: وإنْ كان بَعْثٌ فكما أعطانِي هَذهِ النِّعَمَ في الدُّنيا فَسَيُعطِيني أفضلَ مِنهُ لِكَرامَتي عليهِ؛ وإنَّما قالَ ذلك لَمَّا دعاهُ أخُوهُ إلى الإيمانِ بِالحَشْرِ والنَّشْرِ.

(**قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ**) وَعظَهُ وبيَّنَ له أنَّ ما اعترفَ بِهِ مِن هذه الأشياءِ التي لا يُنْكِرُها أحدٌ أبدعُ من الإعادةِ.

(**ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**) أي: جَعَلَكَ مُعتَدِلَ القامةِ والخَلْقَ صحيحَ الأعضاءِ ذَكَرًا.

(لكِنَّاهُوَاللَّهُرَبِّي) فيه تقديمٌ وتأخيرٌ تقديرُه: لَكِنْ اللهُ هُوَ رَبِّي أنا، وحُذِفَتْ ألفُ أنا في الوَصلِ، وأُثبِتَتْ في الوقْفِ. وقرأ "نافِعٌ" لكِنّا في حالِ الوقْفِ والوصْلِ معًا بإثباتِ الألِفِ.

(وَلاأُشْرِكُبِرَبِّيأَحَدًا) دلَّ مَفهُومهُ على أنَّ الأخَ الآخَرَ كان مُشْرِكًا باللهِ تعالى يَعبدُ غيرَه، ويحتملُ: أنَّه أرادَ لا أرى الغِنَى والفَقْرَ إلاّ مِنهُ؛ ولو أرادَ أن يَسلبَ صاحبَ الدُنيا دُنياهُ قَدَرَ عليه، ويحتملُ: أنَّه أرادَ جُحودَكَ البعثَ معناهُ: أنَّ اللهَ تعالى لا يُقْدَرُ عليه؛ فهُو إشراكٌ لهُ تعالى.

(وَلَوْلاإِذْدَخَلْتَجَنَّتَكَقُلْتَماشاءَاللَّهُ) فيه مَسألتانِ:

الأُولى: توبِيخٌ ووَصِيَّةٌ مِن المُؤمِن للكافِرِ وَرَدٌّ عليه؛ إذ قالَ ما أظُنُّ أنْ تبِيدَ هذه أبدًا، وما في مَوضعِ رفْعٍ تقديرُه: " هذهِ الجَنَّةُ هيَ ما شاءَ اللهُ.

وقال الزَّجَّاجُ والفرَّاءُ: الأمرُ هو ما شاءَ اللهُ، وقيلَ: الجوابُ مُضْمَرٌ أيّ "ما شاءَ اللهُ كان وما لا يشاءَ لا يكونُ.

(لاقُوَّةَإِلاَّبِاللَّهِ) أيّ: ما اجتمعَ لكَ من المالِ فهُو بِقدْرَةِ اللهِ تعالى وقُوَّتِه لا بِقُدْرَتِكَ وقُوَّتِكَ، ولو شاءَ لنزعَ البَركَةَ منهُ فلم يَجتمِعْ.

الثانيةُ: ينبغي لكلِّ مَن دَخَلَ مَنْزِلَهُ أن يقولَ هذا. ورُويَ عن النبيِّ **صلى الله عليه وسلم** أنَّه قالَ لأبي هُريرَة: "ألاّ أَدلُّكَ على كَنْز من كُنوزِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بلى يا رسولَ

اللهِ. قالّ: لا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، إذا قالَها العَبد قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ أسْلَمَ عبْدي واسْتَسْلَمَ"[1]. أخرجهُ مسلمٌ من حديثِ أبي مُوسى.

(إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا). **(فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ)** أيّ: لَعلَّ ربِّي أنْ يُؤتِينِ خَيراً مِن جنَّتكَ في الآخِرَةِ، وقيلَ: في الدُّنيا.

(وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ) أيّ: ويُرْسِلَ على جَنَّتِكَ مرامِي من السَّماءِ، واحِدُها: حُسبانَةٌ قاله الأخفْش والقتبي وأبو عُبيدةَ. وقال ابنُ الأعرابيِّ الحُسبانَةُ السَّحابَةُ والوِسادَةُ والصَّاعِقَةُ.

وقال الجوهريُّ: الحُسبانُ بالضَّمِّ العذابُ. وقال الكلابيُّ جرادٌ، وقال الزَّجَّاجُ: الحُسْبانُ من الحِساب؛ أيّ: يُرسِلُ عليها عذابَ الحسابِ بما اكتَسبتْ يداكَ.

(فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا) يعني أرْضًا بيضاءَ لا يَنبُتُ فيها نباتٌ ولا يثبتُ عليها قَدَمٌ، وهيَ أضَرُّ أرضٍ بعدَ أن كانتْ جَنَّةً أنفعِ أرْضٍ. وزَلَقًا تأكيدٌ لِوَصْفِ الصَّعيدِ؛ أيِّ: تزلُّ عنها الأقدامُ لِملاسَتِها.

(أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا) أيّ: غائِرًا ذاهِبًا؛ فتكون أعدمَ أرضٍ للماءِ بعد أن كانتْ أوجدَ أرضٍ للماءِ، وقيلَ: يُصبِحَ ماؤها ذا غَورٍ.

[1] صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة (٤٤).

(فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا)؛ أيّ: لن تستطيعَ ردَّ الماءِ الغائرِ، ولا تَقْدرُ عليهِ بحيلَةٍ. وقيلَ: لن تستطيعَ طلبَ غيرِه بدلاً منهُ. (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) أيّ: أُهلِكَ مالُهُ كُلُّهُ، وهذا أوَّلُ ما حقَّقَ اللّٰهُ تعالى به إنذارَ أخيهِ.

(فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا) أيّ: فأصبحَ الكافرُ يَضرِبُ إحدى يديهِ على الأُخْرى ندمًا؛ وهذا يَصدُر من النادمِ، وقيلَ: يُقلِّبُ ملكه فلا يَرَى فيهِ عِوَضَ ما أنفقَ، والملكُ قد يُعبَّرُ عنه باليدِ. ودلَّ قولُه فأصبحَ على أنَّ هذا الإهلاكَ جَرَى بالليلِ؛ كقَولهِ: " فَطافَ عليها طائِفٌ مِن رَبِّكَ وَهُمْ نائِمُونَ فأصْبَحَتْ كالصَّرِيمِ، ويُقالُ: أنفقتُ في هذه الدارِ كذا وأنفقتُ عليها كذا.

(وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) أيّ: خاليةٌ قد سقطَ بعضُها على بعضٍ، ومنه قولُه تعالى: " فَتِلْكَ بُيوتُهُمْ خاوِيةٌ بِما ظلمُوا" . كما يُقالُ: هيَ خاويةٌ على عُروشِها؛ أيّ: ساقِطَةٌ على سُقوفِها؛ فجَمعَ عليهِ بين هلاكِ الثمَر والأصلِ، وهذا من أعظمِ الجوائحِ مُقابَلةً على بَغيهِ.

(وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) أيّ: يا ليتَني عَرفْتُ نِعَمَ اللّٰهِ عليَّ، وعَرَفْتُ أنَّها كانتْ بِقُدرَةِ اللّٰهِ، ولم أكفُرْ به. وهذا نَدَمٌ منهُ حين لا ينفعُه النَّدمُ.

(وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أيّ: أقوامٌ ناصِرة، ولو كان على اللفظِ لقالَ: ولمْ تكُنْ له فئَةٌ تَنصرُه أيّ: فِرقةٌ وجماعةٌ يلتجِئُ إليهِم.

(**وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا**) أيّ: مُمتنعًا قالَه قتادةُ. وقيلَ: مُستَرداً بدلَ ما ذهبَ منهُ، وقيلَ: عشيرةً يمنعونَه من عذابِ اللهِ، وضلَّ عنهُ مَن افتخَرَ بهِم من الخَدَمِ والوِلْدِ.

(**هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ**) اختُلِفَ في العامِلِ في قولِه "هُنالِكَ" وهُو ظَرفٌ، فقِيلَ: العامِلُ فيهِ، ولم تَكُنْ له فِئةٌ ولا كان هُنالِكَ؛ أيّ: ما نُصِرَ ولا انتصَرَ هُنالِكَ لِما أصَابهُ من العذابِ، وقيلَ: تمَّ الكلامُ عندَ قولِه مُنتصِراً والعامِلُ تقديرهُ على التقديمِ والتأخيرِ: الولايةُ للهِ الحقِّ هُنالِكَ يومَ القيامةِ. وقرأ "أبو عَمْرٍو والكسائيُّ" الحقُّ بالرَّفْعِ نعتًا للولايةِ، وقَرأ "أهلُ المدينةِ وحَمزةُ" (الحَقِّ) بالخفْضِ نَعتًا للهِ عزَّ وجلَّ والتقديرُ (للهِ ذي الحقِّ)، وقال الزَّجَّاجُ: ويَجوزُ الحقُّ بالنَّصبِ على المَصدَرِ والتوكيدِ كما تقولُ: هذا لكَ حقًّا. وقرأ "الأعمشُ وحمزةُ والكسائيُّ" الولايةُ بكسرِ الواو، وقرأَ الباقُونَ بِفَتْحِها؛ وهُما بمعنىً واحدٍ كالرِّضاعةِ والرَّضاعةِ). وقيلَ: الوَلايةُ بالفتْحِ من المُوالاةِ كقَولِه تعالى: "اللهُ ولي الَّذينَ آمَنُوا"، "ذَلِكَ بِأنَّ اللهَ مَولَى الَّذينَ آمَنُوا". وبالكسْرِ يعني "السُّلطانَ، والقُدرةَ، والإمارةَ"؛ كقَولِه تعالى "والأمْرُ يَومَئذٍ للهِ"؛ أيّ: "لهُ المُلْكُ والحُكْمُ يَومَئذٍ". وقال "أبو عُبيدٍ": إنَّها بفَتحِ الواو للخالِقِ، وبكَسْرِها لِلمَخلُوقِ

(**هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا**) أيّ: اللهُ خيرٌ ثوابًا في الدُّنيا والآخِرَةِ لِمَنْ آمنَ بهِ، وهو خيرُ مَن يُرجَى وخيرٌ عُقْبًا. قرأَ "عاصمٌ والأعمشُ وحمزةُ ويحيى" (عقْبًا) ساكنةَ

القافِ، وقرأ الباقُونَ بِضَمِّها، وهُما بمعنىً واحدٍ؛ أيّ: هو خيرُ عافيةٍ لِمَنْ رجاهُ وآمنَ بهِ[1].

تفسيرُ ابنِ كثيرٍ

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾

بَعدَ ذِكْرِ المُشرِكينَ المُستكبِرينَ عن مُجالَسةِ الضعفاءِ والمساكين من المسلمينَ، وافتخارِهم عليهم بأموالِهم وأحسابِهم؛ ضربَ لهُم مَثلاً رَجلَينِ جعلَ اللهُ لأحدِهما بُستانَينِ من أعنابٍ مَحفوفتَينِ بالنخلِ المُحدِقة في جنباتِهما، وجعلَ خِلالَهُما الزُّروعَ، وكُلٌّ من الأشجارِ والزُّروعِ مُثمِرٌ مُقْبِلٌ في غايةِ الجُود.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي خرجت ثمرها ولم تنقص منه شيئا.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أيّ: والأنهارُ تتخرَّقُ فيهِما هاهُنا وهاهُنا.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيلَ: المُرادُ به المال، رُوِيَ ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ ومُجاهِد وقتادةُ. وقيلَ: الثِّمارُ وهو أظْهَرُ هاهُنا، ويُؤيِّدُه القِراءةُ الأُخْرى وكان له ثُمْرٌ بِضَمِّ الثاءِ، وتسكينِ الميمِ؛ فيكون جمعُ ثَمرةٍ كخَشَبَةٍ وخُشُبٍ، وقرأ آخَرُونَ ثَمَرٌ بفتحِ الثاءِ والميم.

[1] الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي (ج ١٠/ ص ٣٩٩- ٤١١).

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فقال صاحبُ هاتَين الجنَّتَين لِصاحبِه وهو يُجادِلُه ويُخاصِمُه ويفتخِرُ عليه، ويترأسُّ أنا أكثرُ مِنكَ خَدمًا وحَشَمًا وولَدًا. قال قتادةُ: تلك واللهِ أمنيةُ الفاجِرِ كثرةُ المالِ وعزَّة النفَر.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ بِكُفْرِه وتمرُّدِه وتكبُّرِه وتجبُّرِه وإنكارِه المعادَ.

﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ اغترارٌ منه لَّما رأى فيها من (الزُّروعِ والثِّمارِ والأشجارِ والأنهار) المطَّردة في جوانبِها وأرجائِها ظنَّ أنّها لا تَفنى ولا تفرغُ ولا تهلكُ ولا تَتلفُ؛ وذلكَ لِقلَّةِ عقْله، وضَعفِ يَقينِه باللهِ تعالى، وإعجابِه بالحياة الدُّنيا وزِينَتِها، وكُفْرِه بالآخرةِ.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أيّ: وما أظنُّ الساعةَ كائنةً.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أيّ: ولئِنْ كان معادٌ ورجْعةٌ ومردٌّ إلى اللهِ ليكُونَنَّ لي هناك أحسنُ مِن هذا؛ لأني مَحظِيٌّ عِندَ ربِّي، ولولا كرامَتي عليه ما أعطاني هذا كما قال في الآيةِ ٥٠ من سُورة فُصِّلت: ﴿ولَئِنْ رُجِعت إلى ربِّي إنَّ لي عِندَه لَلحُسْنَى﴾.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ أجابَه صاحِبُه المُؤمِن واعظًا له وزاجِرًا عمَّا هو فيه مِن الكُفْرِ باللهِ، والاغترارِ (أكفرتَ بالذي خلقكَ من تُرابٍ، ثُمَّ مِن نُطفَةٍ، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً؟) وهذا إنكارٌ وتعظيمٌ لما وَقَعَ فيه من جُحودِ ربِّه؛ ولِذا قال: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي

أَحَدًا) أي أنا لا أقولُ بمَقالَتِكَ؛ بل أعترِفُ للهِ بالرُّبوبيّةِ والوحدانيَّة، ولا أُشرِكُ به أحداً؛ فهُو المعبودُ وحْدَهُ لا شريكَ له.

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ) هذا تحضيضٌ وحثٌّ؛ أيّ: هلَّا إذا أعجبتْكَ حين دخلْتَها ونَظرَت إليها حَمِدتَ اللهَ على ما أنعمَ به عليكَ، وأعطاكَ مِن المالِ والولدِ ما لم يُعطِه غيرَك.

(قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) قال بعضُ السَّلفِ: مَن أعجبَه شيءٌ من حالِه، أو مالِه أو ولَدِه؛ فلْيَقُلْ: ما شاءَ اللهُ لا قوَّة إلاّ باللهِ، وهذا مأخوذٌ من هذه الآيةِ الكريمةِ. وفي الصَّحيحِ عن أبي مُوسَى رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** قالَ له: " ألاَ أدُلُّكَ على كَنْزٍ مِن كُنوزِ الجَنَّةِ؟ لا حولَ ولا قوَّةَ إلاّ باللهِ "[1].

(إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا). **(فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ)** أيّ: عسَى ربِّي أن يُؤتِيَني خَيراً مِن جَنَّتِك في الدارِ الآخِرة.

(وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا) أي: على جنَّتِكَ في الدُّنيا التي ظننْتَ أنَّها لا تَبيدُ ولا تفْنَى.

(حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ) قال ابنُ عبَّاسٍ والضَّحَّاكُ وقتادةُ ومالكٌ عن الزُّهريِّ: عَذابًا من السماءِ، والظاهرُ أنَّه مطرٌ عظيمٌ مُزعِجٌ يَقلعُ زرعَها وأشجارَها، ولِهذا قال **(فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا)** أيٍّ: بَلقعًا تُرابًا أملسَ؛ لا يَثبُتُ فيه قَدمٌ، وقال ابنُ عبَّاسٍ: كالجُرُزِ الذي لا يُنبِتُ شيئًا.

---

[1] صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة (٤٤).

(**أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا**) أيّ: غائرًا في الأرضِ، وهو ضِدُّ النابِع الذي يطلبُ وَجْهَ الأرضِ.

(**وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ**) أيّ: ب(أمواله أو ثماره). والمقصودُ: أنَّه وقعَ بهذا الكافِر ما كان يَحذَرُ مِمَّا خوفَه به المُؤمِنُ من إرسالِ الحُسْبانِ على جَنَّتِه التي اغترَّ بها وألْهَتْهُ عن اللهِ عزَّ وجلَّ.

(**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا**) أيّ: أصبحَ يُصَفِّقُ بِكَفَّيه مُتأسِّفًا مُتلهِّفًا على الأموالِ التي أذهبَها عليها ويقولُ يا لَيتَني لمْ أُشْرِكْ بربِّي أحداً.

(**وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا**) أيّ: عَشيرةٌ أو ولدٌ – كما افتخرَ بِهِم واعتزَّ – ينصُرونَه من دُونِ اللهِ وما كان مُنتصِراً.

(**هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ**) أيّ: في ذلك الموطِن الذي حلَّ به عذابُ اللهِ؛ فلا مُنقِذَ منهُ.

واختلفُوا في قِراءة "الولاية"؛ فمِنهم مَن فتحَ الواوَ، فيكون المعنَى: هُنالكَ يرجِعُ كلُّ (مُؤمِنٍ أو كافرٍ) إلى اللهِ وإلى مُوالاتِه، والخُضوعِ له إذا وقعَ العذابُ؛ كقَولِه تعالى في الآية ٨٤ من سُورةِ غافِر: (**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ**). وقولِه إخباراً عن فِرعَونَ في الآية ٩١ من سُورةِ يُونُس: (**حَتَّى**

إذا أدْرَكَهُ الغَرَق قالَ آمَنتُ أنَّهُ لا إلهَ إلَّا الَّذي آمَنَتْ بِهِ بَنو إسْرائيلَ وأنا مِنَ المُسلِمينَ).

ومِنهُم مَن كسرَ الواوَ؛ فيكونُ المعنى: هُنالِك الحُكمُ للهِ الحَقِّ

ومِنهُم مَن رَفَعَ "الحَقّ" على أنَّه نَعْتٌ للولايةِ؛ كقولِه تعالى في الآية ٢٦ من سُورةِ الفُرقانِ: (**المُلْكُ يَومَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحمنِ وكانَ يومًا على الكافِرينَ عَسِيرًا**).

ومِنهُم مَن خَفضَ "الحقّ" على أنَّه نَعْتٌ للهِ عزَّ وجلَّ؛ كقَولِه تعالى في الآية ٦٢ من سُورةِ الأنعامِ (**ثُمَّ رُدُّوا إلى اللهِ مَولاهُمُ الحَقِّ ألا لهُ الحُكْمُ وهُو أسْرَعُ الحاسِبِينَ**).

ولِهذا قال تعالى (**هُوَ خَيْرٌ ثَوابًا**) أيّ: جزاءً (**وَخَيْرٌ عُقْبًا**) أيّ: أنَّ الأعمالَ التي تكونُ للهِ عزَّ وجلَّ ثوابُها خيرٌ، وعاقبَتُها حميدةٌ رَشِيدةٌ[1].

تفسير الجلالين

(**واضْرِبْ**) اجْعَلْ. (**لهُم**) للكفَّارِ مع المُؤمنينَ. (**مَثلًا رَجُلَينِ**) بدلٌ وهو وما بَعدَهُ تفسيرٌ للمَثلِ. (**جَعلْنا لِأحَدِهِما**) الكافرِ. (**جَنتَينِ**) بُستانَينِ. (**مِنْ أعْنابٍ وحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وجَعَلْنا بَينَهُما زَرْعًا**) يَقْتاتُ به. (**كِلْتا الجَنَّتَينِ**) كِلْتا مُفْرَدٌ يدلُّ على التثنيةِ مبتدأٌ. (**آتَتْ**) خَبرُه. (**أُكُلَها**) ثَمَرَها. (**ولَمْ تَظْلِمْ**) تنْقصْ.

[1] تفسير القرآن العظيم (ابن كثير): أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ج٥/ ص١٤٢- ١٤٥).

(**مِنهُشيئًا**). (**وفَجَّرْنا**) شَقَقْنا. (**خِلالَهُمانَهَرًا**) يجري بينَهُما. (**وكانلهُ**) مع الجَنَّتَينِ. (**ثَمَرٌ**) بِفَتْحِ الثاءِ والمِيم وبِضَمِّهما، وبِضَمِّ الأوَّلِ وسُكونِ الثاني وهو جَمْعُ ثَمَرةٍ؛ ك- (شَجَرَةٍ وشَجَرٍ) و(خَشَبةٍ وخَشَبٍ) و(بَدنَةٍ وبَدنٍ). (**فقالَلِصاحبِه**) المُؤمِن. (**وهو يُحاوِرُه**) يُفاخِرُه. (**أناأكْثَرُمِنْكَمالًاوأعزُّنَفَرًا**) عَشيرةً.

(**ودَخَلَجَنَّتَهُ**) بِصاحِبِه يطوفُ بِه فيها ويُرِيه أثمارَها، ولمْ يَقُلْ "جَنَّتَيه" إرادةً لِلرَّوضةِ، وقيلَ اكتفاء بالواحِد.

(**وهوظالِمٌلِنَفْسِه**) بِالكُفْر. (**قالماأظنُّأنْتَبِيدَهَـذِهأبدًا**) تَنعدِمُ. (**وماأظُنُّ السَّاعةَقائِمةًولَئِنْرُدِدْتُإلىرَبِّي**) في الآخِرَةِ على زَعمِكَ. (**لَأجِدَنَّخَيرًامِنها مُنْقلَبًا**) مَرْجِعًا. (**قالَلهُصاحِبُهُوهو يُحاوِرُهُ**) يُجاوِبُه. (**أكفَرتَبِالَّذيخَلقَكَ مِنتُراب**) لأنَّ آدمَ عليهِ السلامُ خُلِقَ مِنهُ. (**ثُمَّمِنْنُطْفَةٍ**) مَنِيٍّ. (**ثُمَّسَوَّاكَ**) عَدلَكَ وصَيَّرَكَ (**رَجُلًا**).

(**لَـكِنَّا**) أصْلُه "لَكِنْ أنا" نُقِلَتْ حركةُ الهمزةِ إلى النونِ، أو حُذِفَتِ الهَمزَةُ، ثُمَّ أُدْغِمَتِ النونُ في مِثلِها. (**هُوَ**) ضميرُ الشأنِ تُفَسِّرهُ الجُملةُ بعدَهُ، والمعنَى: أنا أقولُ (**اللَّهُرَبِّي-وَلاأُشْرِكُبِرَبِّيأَحَدًا**) (**ولَولا**) هلَّا. (**إذْدَخَلتَجَنَّتَكَ**) عِندَ إعْجابِكَ بِها هذا (**قُلْتَماشاءَاللهُلاقُوَّةَإلَّابِاللهِ**).

وفِي الحديثِ الشريفِ: " مَنْ أُعْطِيَ خَيراً مِن أهْلٍ أو مالٍ فيقولُ عِندَ ذلكَ ما شاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إلَّا باللهِ لم يَرَ فيهِ مَكْرُوهًا" .

(**إِنْ تَرَنِ أنا**) ضميرُ فَصْلٍ بينَ المَفْعولَينِ (**أقل منك مالًا وولدا**) . (**فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك**) جواب الشرط . (**ويرسل عليها حسبانا من السماء**) جمع حسبانة أي صواعق . (**فتصبح صعيدا زلقا**) أي أرضا ملساء لا يثبت عليها قدم . (**أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْرًا**) بمعنى غائرا عطف على يرسل دون تصبح لأن غور الماء لا يتسبب عن الصواعق .

(**فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا**) أي حيلة تدركه بها . (وأحيط بثمره) بأوجه الضبط السابقة مع جنته بالهلاك فهلَكَت . (فأصبح يقلب كفيه) ندما وتحسرا . (على ما أنفق فيها) في عمارة جنته . (وهي خاوية) ساقطة . (على عروشها) دعائمها للكرم بأن سقطت ثم سقط الكرم . (ويقول يا) للتنبيه . (ليتني لم أشرك بربي أحدا) . (ولم تكن) بالتاء والياء . (له فئة) جماعة . (ينصرونه من دون الله) عند هلاكها . (وما كان منتصرا) عن هلاكها بنفسه . (هنالك) أي يوم القيامة . (الولاية) بفتح الواو النصرة وبكسرها الملك . (لله الحق) بالرفع صفة الولاية وبالجر صفة الجلالة . (هو خير ثوابا) من ثواب غيره لو كان يثيب . (وخير عقبا) بضم القاف وسكونها عاقبة للمؤمنين ونصبهما على التمييز[1] .

[1] تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ج١/ ص٣٨٥- ٣٨٧).

في ظِلال القُرآن

إنّ قِصَّةَ والجنتين تضرب مثلا للقيم الزائلة والقِيَم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة والنفس المُعتزَّة باللهِ. وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس. فصاحِب الجنتين نموذج للرجل الثري الذي تذهله الثروة وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطرُ على أقدارِ الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى فلن تخذله القوة ولا الجاه. وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه الذاكر لربه، يرى النعمة دليلا على المنعم، موجبة لحمده وذكره لا لجحوده وكفره. وتبدأ القصة بمشهد الجنتين في ازدهار وفخامة (**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعًا. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَرًا وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ**) فهما جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل، تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر.. إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال. ويختار التعبير كلمة تظلم في معنى تنقص وتمنع لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر وازدهى وتكبر. وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما ويزدهيه النظر إليهما فيحس بالزهو، وينتفش كالديك ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير. (**فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا**) ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور; وقد نسي الله ونسي أن يشكره على ما أعطاه، وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدا،

أنكر قيام الساعة أصلا، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا فلا بد أن يكون جنابه ملحوظا في الآخرة ! ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظا ! أما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر، ولا جنة عنده ولا ثمر، فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى، معتز بعقيدته وإيمانه، معتز بالله الذي تعنو له الجباه. فهو يجيب صاحبه المتبطر المغرور منكرا عليه بطره وكبره، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم، وينذره عاقبة البطر والكبر، ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار. ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا. لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا. وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا. فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا. أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب. ويستشعر

المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع في فضل الله، وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين. وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار، ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار. فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن. ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ وهو مشهد شاخص كامل: الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء، والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة، وصاحبها يقلب كفيه أسفا وحزنا على ماله الضائع وجهده الذاهب وهو نادم على إشراكه بالله، ويعترف الآن بربوبيته ووحدانيته. ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركا ينكره الآن ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان. وهنا يتفرد الله بالولاية والقدرة: فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره، وثوابه هو خير الثواب، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يتبقى ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا. هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفا وندما، وجلال الله يظلل الموقف، حيث تتوارى قدرة الإنسان[1].

[1] في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ج٤/ ص٢٢٧٠- ٢٢٧١).

التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور

هذه الآيات عطفت على جملة وقل الحق من ربكم . فبعد أن بين الله تعالى ما أعده لأهل الشرك، وذكر ما أعده للذين آمنوا، ضرب مثلا لحال الفريقين أظهر فيه تأييده للمؤمن وإهانته للكافر – فكان ذلك المثل شبيه بمثل قصة أصحاب الكهف ومن عصر أقرب للمخاطبين فيه من عصر أهل الكهف – هو مثل رجلين كان أحدهما معجبا مؤنقا والآخر بخلاف ذلك، فكانت عاقبة صاحب الحال المؤنقة تبابا وخسارة وكانت عاقبة الآخر نجاحا، ليظهر للفريقين ما يجره الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسنن الله في العالم من التذكير والتدبر في العواقب فيكون معرضا للصلاح والنجاح.

(**واضرب لهم مثلا**) اللام في كلمة لهم يجوز أن تتعلق بفعل واضرب كقوله تعالى ضرب لكم مثلا من أنفسكم ، ويجوز أن تتعلق ب مثلا تعلق الحال بصاحبها كقوله تعالى فلا تضربوا لله الأمثال. والضمير في لهم يعود إلى المشركين من أهل مكة على الوجه الأول – ولم يتقدم لهم ذكر – ويعود إلى الكافرين والمؤمنين على الوجه الثاني. (**رجلين**) إن كان حال هذين الرجلين الممثل به حالا معروفا فالكلام تمثيل حال محسوس بحال محسوس. قال الكلبي: المعني بالرجلين رجلان من بني مخزوم من أهل مكة أخوان أحدهما كافر وهو الأسود بن عبد الأشد بشين معجمة – وقيل بسين مهملة – ابن عبد ياليل، والآخر مسلم هو أخوه أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد بن عبد ياليل. وفي الإصابة: وكان زوج أم سلمة قبل أن يتزوجها

رسول الله **صلى الله عليه وسلم**. وعن ابن عباس هما أخوان من بني إسرائيل مات أبوهما وترك لهما مالا، فاشترى أحدهما أرضا وجعل فيها جنتين، وتصدق الآخر بماله فكان من أمرهما في الدنيا ما قصه الله تعالى في هذه السورة وحكى مصيرهما في الآخرة في سورة الصافات في قوله: فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أئنك لمن المصدقين... فتكون قصتهما معلومة بما نزل فيها من القرآن في سورة الصافات قبل سورة الكهف. وإن كان حال الرجلين حالا مفروضا كما جوزه ابن عطية فالكلام تمثيل محسوس بمحسوس لأن تلك الحالة متصورة متخيلة. قال ابن عطية هذه الهيئة التي ذكرها الله تعالى لا يكاد المرء يتخيل أجمل منها في مكاسب الناس، وعلى هذا الوجه يكون هذا التمثيل كالذي في قوله تعالى: ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة. والأظهر من سياق الكلام وصنع التراكيب مثل قوله: قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب... فقد جاء فعل قال غير مقترن بفاء وذلك من شأن حكاية المحاورات الواقعة – مثل قوله تعالى: ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا – أن يكون هذا المثل قصة معلومة، ولأن ذلك أوقع في العبرة والموعظة مثل المواعظ بمصير الأمم الخالية.

(جعلنالأحدهماجنتينمنأعناب) لم يذكر المفسرون أين كانت الجنتان، ولعلهما كانتا بالطائف فإن فيها جنات أهل مكة. ومعنى جعلنا لأحدهما قدرنا له أسباب ذلك. وذكر الجنة والأعناب والنخل تقدم في سورة البقرة في قوله تعالى: أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب.

(وحففناهمابنخلوجعلنابينهمازرعا) أي أحطناهما، يقال حفه بكذا إذا جعله حافا به أي محيطا، قال تعالى: وترى الملائكة حافين من حول العرش . وفعل حف يتعدى إلى مفعول واحد فإذا أريد تعديته إلى ثان عدي إليه بالباء، مثل غشيه وغشاه بكذا. ومن محاسن الجنات أن تكون محاطة بالأشجار المثمرة. ومعنى وجعلنا بينهما زرعا ألهمناه أن يجعل بينهما. وظاهر الكلام أن هذا الزرع كان فاصلا بين الجنتين، فكانت الجنتان تكتنفان حقل الزرع، وكان المجموع ضيعة واحدة. **(كلتاالجنتينآتتأكلها)** كلتا اسم دال على الإحاطة بالمثنى يفسره المضاف هو إليه، فهو اسم مفرد دال على شيئين، نظير زوج، ومذكره كلا، ويجوز في خبر كلا وكلتا الإفراد اعتبارا للفظه وهو أفصح كما في هذه الآية، ويجوز تثنيته اعتبارا لمعناه كما في قول الفرزدق:

كلاهما حين جد الجري بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما

والمعنى أثمرت الجنتان إثمارا كثيرا. **(ولمتظلممنهشيئا)** أي لم تنقص من أكلها شيئا عن مقدار ما تعطيه الأشجار في حال الخصب، وفي الكلام إيجاز بحذف مضاف، والتقدير ولم تظلم من مقدار أمثالها، واستعير الظلم للنقص على طريقة التمثيلية بتشبيه هيئة صاحب الجنتين في إتقان خبرهما وترقب إثمارهما بهيئة من صار له حق في وفرة غلتها، بحيث إذا لم تأت الجنتان بما هو مترقب منهما أشبهتا من حرم ذا حق حقه فظلمه، فاستعير الظلم لإقلال الإغلال، واستعير نفيه للوفاء بحق الإثمار. **(وفجرناخلالهمانهرا)** النهر بتحريك الهاء لغة في النهر بسكونها.

(وكانلهثمر) الثمر بضم الثاء والميم هو المال الكثير من النقدين والأنعام والجنات والمزارع، وهو مأخوذ من ثمر ماله بتشديد الميم بالبناء للنائب، يقال ثمر الله ماله إذا كثر، وهو مشتقا من الثمرة على سبيل المجاز أو الاستعارة، لأن الأرباح وعفو المال يشبهان ثمر الشجر، وشاع هذا المجاز حتى صار حقيقة، قال النابغة:

مهلا فداء لك الأقوام كلهم وما أثمر من مال ومن ولد

والمعنى كان لصاحب الجنتين مال غير الجنتين. قرأ الجمهور ثمر بضم الثاء وضم الميم، وقرأ أبو عمرو ويعقوب بضم المثلثة وسكون الميم، وقرأه عاصم بفتح المثلثة وفتح الميم.

(فقاللصاحبهوهو يحاوره) المحاورة هي مراجعة الكلام بين متكلمين، والفاء لتفريع جملة قال على الجمل السابقة، لأن ما تضمنته الجمل السابقة من شأنه أن ينشأ عنه غرور بالنفس. والصاحب هنا بمعنى المقارن في الذكر حيث انتظمهما خبر المثل، أو أريد به الملابس المخاصم، كما في قول الحجاج يخاطب الخوارج: ألستم أصحابي بالأهواز. والمراد بالصاحب هنا الرجل الآخر من الرجلين، أي فقال من ليس له جنات في حوار بينهما، ولم يتعلق الغرض بذكر مكان هذا القول ولا سببه لعدم الاحتياج إليه في الموعظة. وضمير الغائب المنفصل عائد على ذي الجنتين، وكذلك الضمير المنصوب في يحاوره، ورب الجنتين يحاور صاحبه. ودل فعل المحاورة على أن صاحبه قد وعظه في الإيمان والعمل الصالح فراجعه الكلام بالفخر عليه والتطاول شأن أهل الغطرسة والنقائض أن يعدلوا عن المجادلة بالتي هي أحسن إلى إظهار العظمة والكبرياء.

(أناأكثر منكمالا وأعز نفرا) أعز أي أشد عزة، والعزة ضد الذل وهي كثرة عدد عشيرة الرجل وشجاعته. والنفر عشيرة الرجل الذين ينفرون معه وأراد بهم هنا ولده، كما دل عليه مقابلته في جواب صاحبه بقوله إن ترني أنا أقل منك مالا وولدا.

(ودخل جنته) أي قال ذلك وقد دخل جنته وهو مرافقا لصاحبه. وأفرد الجنة هنا وهما جنتان لأنه أول ما يدخل إنما يدخل إحداهما قبل أن ينتقل منها إلى الأخرى، فما دخل إلا إحدى الجنتين.

(وهو ظالم لنفسه) أي وهو مشرك مكذب بالبعث بطر بنعمة الله عليه.

(قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا) الظن بمعنى الاعتقاد، وإذا انتفى الظن بذلك ثبت الظن بضده. تبيد أي تهلك وتفنى. الأبد يراد منه طول المدة. والمعنى هي باقية بقاء أمثالها لا يعتريها ما يبيدها، وهذا اغترار منه بغناه واغترار بما لتلك الجنة من وثوق الشجر وقوته وثبوته واجتماع أسباب نمائه ودوامه.

(وما أظن الساعة قائمة) ثم انتقل من الإخبار عن اعتقاده بدوام تلك الجنة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة، ولا تلازم بين المعتقدين لكنه أراد التورك على صاحبه المؤمن وتخطئة ولذلك عقب بقوله: **(ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا)** تهكما بصاحبه، وقرينة التهكم هي قوله وما أظن الساعة قائمة، وأكد كلامه بلام القسم ونون التوكيد مبالغة في التهكم. والمنقلب هو

المكان الذي يرجع إليه. وضمير منها للجنتين عودا إلى أول الكلام. وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف منها بالإفراد جريا على قوله ودخل جنته، وقوله أن تبيد هذه. **(قَالَلَهُصَاحِبُهُوَهُوَيُحَاوِرُهُ)** حُكي كلام صاحبه بفعل القول بدون عطف للدلالة على أنه واقع موقع المحاورة والمجاوبة. والاستفهام في قوله **(أَكَفَرْتَبِالَّذِىخَلَقَكَ)** مستعمل في التعجب والإنكار وليس على حقيقته، لأن الصاحب كان يعلم أن صاحبه مشرك بدليل قوله: وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا. فالمراد بالكفر هنا الإشراك الذي من جملة معتقداته إنكار البعث، ولذلك عُرّف بطريق الموصولية لأن مضمون الصلة من شأنه أن يصرف من يدركه عن الإشراك به، فإنهم يعترفون بأن الله هو الذي خلق الناس فما كان غير الله مستحقًا للعبادة. ثم إن العلم بالخلق الأول من شأنه أن يصرف الإنسان عن إنكار الخلق الثاني كما قال تعالى في الآية ١٥ من سورة ق: أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد، وفي الآية ٢٧ من سورة الروم: وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه. فكان مضمون الصلة تعريضًا بجهل المخاطب. **(مِنتُرَابٍ)** إشارة إلى الأجزاء التي تتكون منها النطفة وهي أجزاء الأغذية المستخلصة من تراب الأرض، كما قال تعالى في الآية ٢٦ من سورة يس: سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض. **(ثُمَّمِن نُّطْفَةٍ)** وهي ماء الرجل، مشتقة من النطف وهو السيلان.

﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ وعدل خلقك فجعله متناسبًا في الشكل والعمل. ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ كتب في المصحف بألف بعد النون. واتفق القراء العشرة على إثبات الألف في النطق في حال الوقف، وفي حال الوصل قرأه الجمهور بدون نطق بالألف، وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ورويس عن يعقوب بإثبات النطق بالألف في حال الوصل، ورسمُ المصحف يسمح بكلتا الروايتين. ولفظ لكنا مركب من لكنْ بسكون النون الذي هو حرف استدراك، ومن ضمير المتكلم أنا. وأصله لكن أنا، فحذفت الهمزة تخفيفًا على غير قياس لا لعلة تصريفية، ونقلت حركتها إلى نون لكنْ الساكنة دليلاً على المحذوف فالتقى نونان متحركتان فلزم إدغامهما فصار لكنا. ولا يجوز أن تكون لكِنّ المشددة النون المفتوحتها أشبعت فتحتها، لأن لكن المشددة من أخوات إنّ تقتضي أن يكون الاسم بعدها منصوبًا وليس هنا ما هو ضمير نصب، ولا يجوز اعتبار ضمير أنا ضمير نصب اسم لكنّ لأن ضمير المتكلم المنصوب يجب أن يكون بياء المتكلم، ولا اعتبارهُ ضميرَ المتكلم المشارك لمنافاته لإفراد ضمائره بعده في قوله هو الله ربي.

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ أكد اعترافه بالخالق الواحد بأربعة وهي: الجملتان الاسميتان، وضمير الشأن هو، والله ربي، ولا أشرك بربي أحداً.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ عطف جملة ولولا إذ دخلت على جملة أكفرت عطف إنكار على إنكار. ولولا للتوبيخ أي كان الشأن أن تقول ﴿مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ عوض قولك ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة. وما

موصولة أي هذه الجنة شاء الله إعطاءها إياي، أو نكرة موصوفة أي هذه شيء شاءه الله لي. وجملة لا قوة إلا بالله تعليل لكون تلك الجنة من مشيئة الله، أي لا قوة لي على إنشائها، أو لا قوة لمن أنشأها إلا بالله، فإن القوى كلها موهبة من الله تعالى لا تؤثر إلا بإعانته بسلامة الأسباب والآلات المفكرة والصانعة.

(إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا) جملة ابتدائية رجع بها إلى مجاوبة صاحبه عن قوله أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا، وعظه فيها بأنه لا يدري أن تصير كثرة ماله إلى قلة أو إلى اضمحلال، وأن يصير القليل ماله ذا مال كثير. وحذفت ياء المتكلم بعد نون الوقاية تخفيفا. وأنا ضمير فصل، لذلك كان أقل منصوبا على أنه مفعول ثان ل ترن ولا اعتداد بالضمير.

(فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك) عسى للرجاء، وهو طلب الأمر القريب الحصول، ولعله أراد به الدعاء لنفسه وعلى صاحبه. **(ويرسل عليها حسبانا من السماء)** والحسبان مصدر حسب كالغفران، وهو هنا صفة لموصوف محذوف أي هلاكا مقدرا من الله كقوله تعالى: عطاء حسابا . وقيل الحسبان اسم جمع لسهام قصار يرمى بها في طلق واحد وليس له مفرد، وقيل اسم جمع حسبانة وهي الصاعقة، وقيل اسم للجراد. والمعاني الأربعة صالحة هنا. والسماء الجو المرتفع فوق الأرض.

(فتصبح صعيدا زلقا) الصعيد وجه الأرض، وذكره هنا توطئة لإجراء الصفة عليه وهي زلقا. وفي اللسان: يقال للحديقة إذا خربت وذهب شجرها قد صارت صعيدا

أي أرضا مستوية لا شجر فيها. ونظيره قوله تعالى: وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا. والزلق مصدر زلقت الرجل إذا اضطربت وزلت على الأرض فلم تستقر، ووصف الأرض بذلك مبالغة أي ذات زلق فهي مزلقة.

(أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) الغور مصدر غار الماء إذا ساخ الماء في الأرض، ووصفه بالمصدر للمبالغة، ولذلك فرع عليه فلن تستطيع له طلبا، وجاء بحرف توكيد النفي زيادة في التحقيق لهذا الرجاء الصادر مصدر الدعاء.

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) كان صاحبه المؤمن رجلاً صالحًا فحقق الله رجاءه، أو كان رجلاً محدّثًا من محدّثي هذه الأمة، أو من محدّثي الأمم الماضية على الخلاف في المعنيّ بالرجلين في الآية، ألهمهُ الله معرفة ما قدره في الغيب من عقاب في الدنيا للرجل الكافر المتجبر. ولم تعطف جملة وأحيط بفاء التفريع على رجاء صاحبه المؤمن إذ لم يتعلق الغرض في هذا المقام بالإشارة إلى الرجل المؤمن، وإنما المهم التنبيه على أن ذلك حادث حل بالكافر عقابًا له على كفره ليعلم السامعون أن ذلك جزاء أمثاله وأن ليس بخصوصية لدعوة الرجل المؤمن. والإحاطة هي الأخذ من كل جانب، مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم إذا غزاهم، والمعنى أُتلف ماله كله بأن أُرسل على الجنة والزرع حُسبانٌ من السماء فأصبحت صعيداً زلقًا وهلكت أنعامه وسُلبت أمواله، أو خسف بها بزلزال أو نحوه.

(فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنفَقَ فِيهَا) تقليب الكفين حركة فعلها المتحسر تحسراً على ما صرفه من المال في إحداث تلك الجنة.

(وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) أي خالية من الشجر والزرع، والعُروش هي السُّقُف، وعلى للاستعلاء. وهذا التركيب أرسله القرآن مثلاً للخرَاب التام وهو سقوط سقوف البناء وجدرانه، ثم جعل ذلك مثلاً لكل هلاك تام لا تبقى معه بقية من الشيء الهالك.

(وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) جملة ويقول حكاية لتندمه على ما فرط منه حين لا ينفعه الندم بعد حلول العذاب، والمضارع للدلالة على تكرر ذلك القول منه، وحرف النداء مستعمل في التلهف، وليتني تمنٍ مراد به التندم. وأصله تنزيل للكلمة منزلة من يعقل. وهذا ندم على الإشراك فيما مضى وهو يؤذن بأنه آمن بالله وحده حينئذٍ.

(وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ) موعظة وتنبيه على جزاء قوله وأعز نفرا. والفئة هي الجماعة. وجملة ينصرونه صفة، أي لم تكن له فئة هذه صفتها، فإن فئته لم تغن عنه من عذاب الله. (وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا) أي ولا يكون له انتصار تخلصه من العذاب. قرأ الجمهور ولم تكن، وقرأ حمزة والكسائي وخلف يكن. وأحاط به هذا العقاب لا لمجرد الكفر – لأن الله قد يمتع كافرين كثيرين طول حياتهم ويملي لهم ويسْتدرجهم – وإنما أحاط به هذا العقاب جزاء طغيانه وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير، ولما اعتز بتلك النعم وتوسل بها إلى التكذيب بوعد الله استحق عقاب الله بسلب تلك النعم عنه، وكان هذا المثل

موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفع عن مجالس الدعوة لأنها تجمع قومًا يرونهم أحط منهم وطلبوا من النبي طردهم عن مجلسه كما تقدم.

(هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ) تذييل للجمل التي قبلها لما في هذه الجملة من العموم الحاصل من قصر الولاية على الله تعالى المقتضي تحقيق جملة، لأن الولاية من شأنها أن تبعث على نصر المولى وأن تطمِع المولى في أن وليه ينصره. ولذلك لما رأى الكافر ما دهاه من جراء كفره التجأ إلى أن يقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا، إذ علم أن الآلهة الأخرى لم تغن وَلايتُهم عنه شيئًا، كما قال أبو سفيان يوم أسلم لقد علمت أن لو كان معه إله آخر لقد أغنَى عني شيئًا. والمعنى أن في مثل تلك الحالة تقصر الولاية على الله. والوَلاية بفتح الواو مصدر وَلِي إذا ثبت له الوَلاء. وقرأ حمزة والكسائي وخلف الوِلاية بكسر الواو وهي اسم للمصدر أو اسم بمعنى السلطان والمُلك. والحق قرأه الجمهور بالجر على أنه وصف لله تعالى كما في قوله في الآية ٣٠ من سورة يونس: وردوا إلى الله مولاهم الحق. لأن غير الله لا حقيقة له أو لا دوام له. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف الحقُّ بالرفع صفة للولاية.

(هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) خَير يجوز أن يكون بمعنى أخْيَر، فيكون التفضيل في الخيرية على ثواب غيره وعُقُب غيره، فإن ما يأتي من ثواب من غيره ومن عقبى إما زائف مفضضٍ إلى ضر وإما زائل، وثواب الله خالصٌ دائم وكذلك عقباه. ويجوز أن يكون اسمًا ضَد الشر، أي هو الذي ثوابه وعُقُبه خير وما سواه فهو شر. والتمييز تمييز نسبة الخير إلى الله. والعقب بضمتين وبسكون القاف بمعنى العاقبة أي آخرة الأمر، وهي ما يرجوه المرء من سعيه وعمله. وقرأ الجمهور عُقُبًا بضمتين وبالتنوين.

وقرأه عاصم وحمزة وخلف بإسكان القاف وبالتنوين. فكان ما ناله ذلك المشرك الجبار من عطاء إنما ناله بمساع وأسباب ظاهرية ولم ينله بعناية من الله تعالى وكرامة فلم يكن خيراً وكانت عاقبته شراً عليه(١).

خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ

(**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا**) ما زال الكلام موصولاً بالقوم الذين أرادوا أن يصرفوا رسول الله **صلى الله عليه وسلم** عن الذين يدعُونَ ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وبذلك انقسم الناس إلى قسمينْ: قسمٍ مُتكبّر حريص على جاهه وسلطانه، وقسم ضعيف مستكين لا جاهَ له ولا سلطان؛ لكن الحق سبحانه أراد استطراق آياته استطراقًا يشمل الجميع ويُسوِّي بينهم، لذلك ضرب لنا مَثَلاً موجوداً في الحياة، ففي الناس الكافر الغني والمؤمن الفقير، وعليك أنْ تتأمل موقف كل منهما. والضرب معناه أن تلمس شيئًا بشيء أقوى منه بقوة تؤلمه، ولابد أن يكون الضارب أقوى من المضروب، إلا فلو ضربتَ بيدك شيئًا أقوى منك فقد ضربتَ نفسك، ومن ذلك قول الشاعر:

وَيَا ضَارِبًا بِعَصَاهُ الحَجَر ضربْتَ العَصَا أَمْ ضربْتَ الحجَر

وضَرْب المثل يكون لإثارة الانتباه والإحساس فيُخرجك من حالة إلى أخرى، فالشيء الغامض الذي لا تفهمه ولا تعيه يضرب الحق سبحانه له مثلاً يُوضِّحه ويُنبِّهك إليه لذلك قال: واضرب لهُمْ مَّثَلاً... ويعطينا القرآن الكريم أمثالاً كثيرة

١) التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ج١٥/ص ٣١٥- ٣٣٠).

لتوضيح قضايا معينة كما في قوله تعالى في الآية ٤١ من سورة العنكبوت: (**مَثَلُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ**). وكذا قوله تعالى في الآية ٩٢ من سورة النحل عن نقض الوعد وعدم الوفاء به: (**وَلاَ تَكُونُواْ كالتي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا**). ومنه قوله تعالى في الآية ٤٥ من سورة الكهف مُصوِّرًا حال الدنيا وأنها سريعة الزوال: (**واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرياح وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**). وهنا يقول الحق سبحانه اضرب لهم يا محمد مثلاً للكافر إذا استغنى والفقير إذا رَضِي بالإيمان. (**رَجُلَيْنِ**) هما مَحَلُّ المثل. (**جَعَلْنَا لِإِحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا**) أي جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا. لكن هل هذا المثل كان موجوداً بالفعل، وكان للرجلين وجود فِعليّ في التاريخ؟ نعم، كان واقعًا عند بني إسرائيل وهما براكوس ويهوذا. كان يهوذا مؤمنًا راضيًا، وكان براكوس مستغنيًا. وقد ورثا عن أبيهما ثمانية آلاف دينار لكل منهما، أخذ براكوس نصيبه واشترى به أرضًا يزرعها وقَصْرًا يسكنه وتزوج فأصبح له ولدان وحاشية، أما يهوذا فقد رأى أنْ يتصدّق بنصيبه وأن يشتري به أرضًا في الجنة وقصراً في الجنة وفضَّل الحور العين والولدان في جنة عدن على زوجة الدنيا وولدانها وبهجتها. وهكذا استغنى

براكوس بما عنده واغتَرَّ به كما قال تعالى في سورة العلق: (**كَلَّآ إِنَّ الإنسان ليطغى أَن رَّآهُ استغنى**). وأول الخيبة أن تشغلك النعمة عن المنعِم، وتظن أن ما أنت فيه من نعيم ثمرةُ جهدك وعملك، ونتيجة سعْيك ومهارتك كما قال قارون في الآية ٧٨ من سورة القصص: (**قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ**)، فتركه الله لِعلْمه ومهارته، فليحرص على ماله بما لديه من علم وقوة. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض... ولم ينفعه ماله أو علمه. إذن هاتان صورتان واقعيتان في المجتمع، كافر يستكبر ويستغني ويستعلي بغناه، ومؤمن قَنُوع بما قسم الله له. وانظر إلى الهندسة الزراعية في قوله تعالى: (**جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا**)، فقد علَّمنا الله تعالى أن نجعل حول الحدائق والبساتين سُوراً من النخيل ليكون سياجًا يصدُّ الهواء والعواصف، وذكر سبحانه النخل والعنب وهي من الفاكهة قبل الزرع الذي منه القوت الضروري، كما ذكر من قبل الأساور من ذهب وهي للزينة قبل الثياب وهي من الضروريات. وقوله (**جَنَّتَيْنِ**...) نراها إلى الآن فيمَنْ يريد أن يحافظ على خصوصيات بيته، لأن للإنسان مسكنًا خاصًا، وله عموميات أحباب، فيجعل لهم مسكنًا آخر حتى لا يطَّلع أحد على حريمه. وكذلك في قوله تبارك وتعالى في الآية ١٥ من سورة سبأ: (**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**).

(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا) أي أعطتْ الثمرة المطلوبة منها، والأُكُل هو ما يُؤكل. ونعرف أن الزراعات تتلاحق ثمارها فتعطيك شيئًا اليوم وشيئًا غداً وشيئًا بعد غد وهكذا.

(وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) كلمة تَظْلِم تعطينا إشارة إلى عمل الخير في الدنيا، فالأرض وهي جماد لا تظلم ولا تمنعك حقًا ولا تهدِر لك تعبًا، فإنْ أعطيتَها جهدك وعملك جادتْ عليك، تبذر فيها كيلة تعطيك إردبًا، وتضع فيها البذرة الواحدة فتُغِلُّ عليك الآلاف. إذن فهي كريمة جوادة شريطة أن تعمل ما عليك من حَرْثٍ وبَذْر ورعاية وسُقْيا، وقد تريحك السماء فتسقى لك. لذلك لما أراد الحق سبحانه أنْ يضرب لنا المثل في مضاعفة الأجر قال في الآية ٢٦١ من سورة البقرة: **(مَّثَلُ الذين يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ)**. فإذا كانت الأرض تعطيك بالحبة سبعمائة حبة، فما بالك بخالق الأرض؟ لا شك أن عطاءه سيكون أعظم، لذلك قال بعدها: **(والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ)**. والحق سبحانه أيضاً يُقدِّر لك هذا التعب ويشكر لك هذا المجهود، والنبي **صلى الله عليه وسلم** لما رأى أحد الصحابة وقد تشققت يداه من العمل قال: "هذه يَدٌ يحبها الله ورسوله"، لأنها تعبت وعملت لا على قَدْر حاجتها بل على أكثر من حاجتها، عملتْ لها وللآخرين، وإلا لو عمل كُلُّ عامل على قَدْر حاجته فكيف يعيش الذي لا يقدر على العمل؟ إذن على أصحاب القدرة والطاقة

أنْ يعملوا لما يكفيهم ويكفي العاجزين عن العمل. وهَبْ أنك لن تتصدَّق بشيء للمحتاج، لكنك ستبيع الفائض عنك، وهذا في حد ذاته نوعٌ من التيسير على الناس والتعاون معهم. وما أشبه الأرض في عطائها وسخائها بالأم التي تجُزِل لك العطاء إنْ بررْتَ بها، وكذلك الأرض، بل إن الأم بطبيعتها قد تعطيك دون مقابل وتحنو عليك وإنْ كنت جاحداً، وكذلك الأرض ألاَ تراها تُخرج لك من النبات ما لم تزرعه أو تتعب فيه؟ فكيف إذا أنت أكرَمتها بالبر؟ لا شك ستزيد لك العطاء. **(وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا)** ذلك لأن الماء هو أَصْل الزرع، فجعل الله للجنتين ماءً مخصوصًا يخرج منهما ويتفجر من خلالهما لا يأتيهما من الخارج فيحجبه أحد عنهما. **(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ)** أي لم يقتصر الأمر على أنْ كان له جنتان فيهما النخيل والأعناب والزرع الذي يُؤتي أُكُله، بل كان له فوق ذلك موارد أخرى من ذهب وفضة وأولاد، لأن الولد ثمرة أبيه. **(فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ)** دليل على أن ما تقدم ذِكْره من أمر الجنتين وما فيهما من نِعَم دَعَتْهُ إلى الاستعلاء هو سبب هذا القول لِصَاحِبِهِ، والصاحب هو مَنْ يصاحبك ولو لم تكن تحبه. يُحَاوِرُهُ أي يجادله بأن يقول أحدهما فيرد عليه الآخر حتى يصلوا إلى نتيجة. فماذا قال صاحبه؟ قال **(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا)** يقصد الجنتين وما فيهما من نعم. وهكذا استغنى هذا بالمال والولد. **(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ)** عرفنا أنهما جنتان، فلماذا قال وَدَخَلَ جَنَّتَهُ؟ نقول لأن الإنسان إنْ كان له جنتان فلنْ يدخلهما معًا في وقت واحد، بل حَالَ دخوله سوف يواجه جنةً واحدة ثم بعد ذلك يدخل الأخرى. **(وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)**

قد يظلم الإنسان غيره، لكن كيف يظلم نفسه هو؟ يظلم الإنسان نفسه حينما يُرخيِ لها عنان الشهوات فيحرمها من مشتهيات أخرى ويُفوِّت عليها ما هو أبقى وأعظم، وظلم الإنسان يقع على نفسه لأن النفس لها جانبان نفسٌ تشتهي، ووجدان يردع بالفطرة. فالمسألة إذن جدل بين هذه العناصر، لذلك يقولون أعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه. فإنْ قلت كيف وأنا ونفسي شيء واحد؟ لو تأملتَ لوجدتَ أنك ساعة تُحدِّث نفسك بشيء ثم تلوم نفسك عليه وذلك لأن بداخلك شخصيتين: شخصية فطرية وشخصية أخرى استحوازية شهوانية. فإنْ مَالتْ النفس الشهوانية أو انحرفتْ قَوَّمتها النفس الفطرية وعَدلَت من سلوكها. لذلك فإن المنهج الإلهي في جميع الديانات كان إذا عَمَّتْ المعصية في الناس، ولم يَعُدْ هناك مَنْ ينصح ويرشد، أنزل الله فيهم رسولاً يرشدهم ويُذكِّرُهم، إلا في أمة محمد **صلى الله عليه وسلم** لأنه سبحانه حَمَّلهم رسالة نبيهم، وجعل هدايتهم بأيديهم، وأخرج منهم مَنْ يحملون راية الدعوة إلى الله، لذلك لن يحتاجوا إلى رسول آخر وكان **صلى الله عليه وسلم** خاتم الأنبياء والرسل.

(قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) فهل معنى هذا أنه ظالم لنفسه بالدخول؟ لا، لأنها جنتُه يدخلها كما يشاء، إنما المراد بالظلم هنا ما دار في خاطره وما حَدَّث نفسه به حالَ دخوله، فقد ظلم نفسه عندما خطر بباله الاستعلاء بالغِنَى والغرور بالنعمة فقال ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذه النعمة أو تزول هذه الجنة الوارفة أو تهلك. لقد غَرَّهُ واقع ملموس أمام عينيه استبعد معه أن يزول عنه كل هذا النعيم، ليس هذا فقط بل دعاه غروره إلى أكثر من هذا فقال: **(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً)** هكذا أطلق لغروره

العنان، وإنْ قُبلَتْ منه ما أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَدًا، فلا يُقبَل منه وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً. لذلك لما أنكر قيام الساعة هَزَّته الأوامر الوجدانية فاستدرك قائلا: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي إنْ رُددتُ إلى ربي يوم القيامة فسوف يكون لي أكثر من هذا وأعظم، وكأنه ضمن أن الله تعالى أَعدَّ له ما هو أفضل من ذلك. ولنتأمل قَوْل هذا الجاحد المستعلي بنعمة الله عليه، المفتون بها، حيث يعرف أن له ربًا سيرجع إليه، فإنْ كنت كذوبًا فكُنْ ذَكُورًا، لا تُناقِض نفسك، فما حدَث منك من استعلاء وغرور وشَكٍّ في قيام الساعة يتنافى وقولك رَبِّي ولا يناسبه، ومُنْقَلَبًا أي مرجعًا.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ هنا يردُّ عليه صاحبه المؤمن مُحَاورًا ومُجادلاً ليجُلِّيَ له وَجْه الصواب ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي كلامك السابق أنا... وما أنت فيه من استعلاء وإنكار... أتذكر هذا كله ولا تذكر بدايتك ومنشأك من تراب الذي هو أصل خَلْقك؟ ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهي أصل التناسل.

﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ أي كاملاً مُسْتويًا. والتسوية هي إعداد الشيء إعدادًا يناسب مهمته في الحياة. والهمزة في أَكَفَرْتَ ليست للاستفهام، بل هي استنكار لما يقوله صاحبه وما بدر منه من كُفْر ونسيان لحقيقة أمره وبداية خَلْقه. والتراب هو أَصْل الإنسان، وهو أيضًا مرحلة من مراحل خَلْقه، لأن الله تعالى ذكر في خلق الإنسان مرة مِّن مَّآءٍ (السجدة: ٨) ومرة مِن تُرَابٍ (آل عمران: ٥٩) ومرة مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (الحجر: ٢٦) ومرة مِن صَلْصَالٍ كالفخار (الرحمن: ١٤) لذلك يعترض البعض

على هذه الأشياء المختلفة في خَلْق الإنسان، والحقيقة أنها شيء واحد، له مراحل متعددة انتقالية، فإنْ أضفْتَ الماء للتراب صار طيناً، فإذا ما خلطْتَ الطين بعضه ببعض صار حمأ مسنوناً، فإذا تركته حتى يجفّ ويتماسك صار صَلْصَالاً، إذن فهي مرحليات لشيء واحد.

(لَكِنَّاهُوَاللَّهُرَبِّي) لكنا أي لكن أنا، فحذفت الهمزة وأُدغمت النون في النون. ولكن للاستدراك. المؤمن يستدرك على ما قاله صاحبه: أنا لستُ مثلك فيما تذهب إليه، فإنْ كنت قد كفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوَّاك رجلاً، فأنا لم أكفر بمَنْ خلقني، فقَوْلي واعتقادي الذي أومن به هُوَ الله رَبِّي. وتلاحظ أن الكافر لم يَقُلْ الله ربي، إنما جاءتْ ربي على لسانه في معرض الحديث، والفرْق كبير بين القولين، لأن الربّ هو الخالق المتولّي للتربية، وهذا أمر لا يشكّ فيه أحد ولا اعتراض عليه، إنما الشكّ في الإله المعبود المطاع، فالربوبية عطاء، ولكن الألوهية تكليف، لذلك اعترف الكافر بالربوبية، وأنكر الألوهية والتكليف. ثم يؤكد المؤمن إيمانه فيقول **(وَلَاأُشْرِكُبِرَبِّيأَحَدًا)**. ولم يكتفِ المؤمن بأن أبانَ لصاحبه ما هو فيه من الكفر، بل أراد أنْ يُعدّي إيمانه إلى الغير، فهذه طبيعة المؤمن أنْ يكون حريصاً على هداية غيره، لذلك بعد أنْ أوضح إيمانه بالله تعالى أراد أن يُعلِّم صاحبه كيف يكون مؤمناً، ولا يكمُل إيمان المؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومن العقل للمؤمن أن يحاول هداية الكافر لأن المؤمن صُحح سلوكه بالنسبة للآخرين، ومن الخير للمؤمن أيضاً أن يُصحِّح سلوك الكافر بالإيمان. لذلك من الخير بدل أنْ تدعوَ على عدوك أن تدعو له بالهداية لأن دعاءك عليه سيُزيد من

شقائك به، وها هو يدعو صاحبه فيقول: **(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ)** يريد أنْ يُعلمه سبيل الإيمان في استقبال النعمة بأنْ يردَّ النعم إلى المنعم، لأن النعمة التي يتقلّب فيها الإنسان لا فضْلَ له فيها فكلها موهوبة من الله، فهذه الحدائق والبساتين كيف آتتْ أُكُلها؟ إنها الأرض التي خلقها الله لك، وعندما حرثْتها بآلة من الخشب أو الحديد، وهو موهوب من الله لا دَخْلَ لك فيه، والقوة التي أعانتك على العمل موهوبة لك يمكن أن تُسلبَ منك في أيِّ وقت فتصير ضعيفًا لا تقدر على شيء. إذن حينما تنظر إلى كُلِّ هذه المسائل تجدها منتهيةً إلى العطاء الأعلى من الله سبحانه. ولولا بمعنى هلاَّ وهي للحثِّ والتحضيض، وعلى الإنسان إذا رأى ما يعجبه في مال أو ولد حتى لو أعجبه وجهه في المرآة عليه أن يقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله. وفي الحديث يقول رسول الله: **صلى الله عليه وسلم** "ما قيل عند نعمة ما شاء الله لا قوة إلا بالله، إلا ولا ترى فيها آفة إلا الموت". فساعة أن تطالع نعمة الله كان من الواجب عليك ألاَّ تُلهيكَ النعمة عن المنعم، كان عليك أن تقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، أي أن هذا كله ليس بقوتي وحيلتي بل فضل من الله، فتردّ النعمة إلى خالقها ومُسديها، وما دُمْتَ قد رددْتَ النعمة إلى خالقها فقد استأمنْتَهُ عليها واستحفظته إياها وضمنْتَ بذلك بقاءها. ويستطرد المؤمن فيُبيِّن لصاحبه ما عَيَّره به من أنه فقير وهو غني، وما استعلى عليه بماله وولده **(إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا)** ثم ذكّره بأن الله تعالى قادر على أنْ يُبدِّل هذا الحال فقال: **(فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ)** عسى للرجاء، فإن كان الرجاء

من الله فهو واقع لا شكَّ فيه. لذلك حينما تقول عند نعمة الغير ما شاء الله لا قوة إلا بالله يعطيك الله خيراً مما قُلْت عليه، وإن اعترفتَ بنعمة الله عليك ورددْت الفضل إليه سبحانه زادك كما جاء في الآية ٧ من سورة إبراهيم: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. فقوله فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ أي ينقل مسألة الغنى والفقر ويُحوّلها، فأنت لا قدرة لك على حفظ هذه النعمة، كما أنك لا قدرةَ لك على جَلْبها من البداية. إذن يمكن أنْ يعطيني ربي نعمة مثل نعمتك في حين تظل نعمتك كما هي، لكن إرادة الله تعالى أن يقلبَ نعمتك ويزيلها ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ هذه النعمة التي تعتز بها وتفخر بزهرتها وتتعالى بها على خَلْق الله يمكن أنْ يرسلَ الله عليها حُسْبانًا، والحُسْبان هو الشيء المحسوب المقدَّر بدقّة وبحساب، كما جاء في قوله تعالى في الآية ٥ من سورة الرحمن: الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ. وقد أرسل الله على هذه الجنة التي اغترَّ بها صاحبها صاعقة محسوبة مُقدَّرة على قَدْر هذه الجنة لا تتعدَّاها إلى غيرها، حتى لا يقول إنها آية كونية عامة أصابتني كما أصابت غيري.

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي أن هذه الجنة العامرة بالزروع والثمار المليئة بالنخيل والأعناب بعد أن أصابتها الصاعقة أصبحتْ ترابًا مُبلّلاً تنزلق عليه الأقدام، فلا يصلح لشيء حتى المشي عليه.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ أي غائراً في الأرض، فإنْ قُلْت يمكن أنْ يكونَ الماء غائراً لكن نستطيع استخراجه بالآلات، لذلك يقطع أمله في أيِّ حيلة يفكر فيها فيقول

(فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) أي لن تصل إليه بأيِّ وسيلة من وسائلك، ومن ذلك قوله تعالى في الآية ٢٠ من سورة الملك: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ). لاحظ أن هذا الكلام من المؤمن لصاحبه الكافر مجرد رجاء يخاطبه به: فعسى رَبِّي... رجاء لم يحدث بَعْد ولم يصل إلى إيقاعيات القدر.

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) هكذا انتقل الرجاء إلى التنفيذ، وكأن الله تعالى استجاب للرجل المؤمن ولم يكذب توقعه. أحيط: كأنْ جعل حول الثمر سوراً يحيط به فلا يكون له منفذ، كما قال في الآية ٢٢ من سورة يونس: (وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ). وتلاحظ أنه سبحانه قال وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ولم يقُلْ مثلاً أحيط بزرعه أو بنخله، لأن الإحاطة قد تكون بالشيء ثم يثمر بعد ذلك، لكن الإحاطة هنا جاءت على الثمر ذاته، وهو قريب الجنْي قريب التناول، وبذلك تكون الفاجعة فيه أشدَّ، والثمر هو الغاية والمحصّلة النهائية للزرع. ثم يُصوِّر الحق سبحانه ندم صاحب الجنة وأَسَفه عليها (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا) أي يضرب كَفًّا بكفٍّ، كما يفعل الإنسان حينما يفاجئه أمر لا يتوقعه فيقف مبهوتًا لا يدري ما يقول، فيضرب كفًّا بكفٍّ لا يتكلم إلا بعد أن يُفيق من هَوْل هذه المفاجأة ودَهْشتها. ويُقلِّب كفَّيْه على أيِّ شيء؟ يُقلِّب كفيه ندمًا على ما أنفق فيها (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) أي خَربة جَرْداء جَدْباء كما قال سبحانه في الآية ٢٥٩ من سورة البقرة: (أَوْ كالذي مَرَّ على قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا). ومعلوم أن العروش تكون فوق، فلما

نزلت عليها الصاعقة من السماء دكَّتْ عروشها وجعلت عاليها سافلها، فوقع العرش أولاً ثم تهدَّمتْ عليه الجدران. وبعد أن ألجمتْه الدهشة عن الكلام وراحَ يضرب كفًّا بكفٍّ، أفاق من دهشته ونزع هذا النزوع القوليّ الفوري **(وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا)** يتمنى أنه لم يشرك بالله أحداً، لأن الشركاء الذين اتخذهم من دون الله لم ينفعوه، لذلك قال بعدها **(وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)** أي ليس لديه أعوان ونُصراء يدفعون عنه هذا الذي حَلّ به، ويمنعون عنه الخراب الذي حاقَ بجنته **(وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا)** أي ما كان ينبغي له أن ينتصر، ولا يجوز له الانتصار، لماذا؟ **(هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ)** أي وقتَ أنْ نزلتْ الصاعقة من السماء فأتتْ على الجنة وجعلتها خاوية على عروشها، هناك تذكّر المنعمَ وتمنّى لو لم يشرك بالله، فقوله هُنَالِكَ أي في الوقت الدقيق وقت القمة، قمة النكَد والكَدَر. والولاية أن يكون لك ولي ينصرك، فالولي هو الذي يليك ويدافع عنك وقت الشدة، وفي قراءة أخرى هُنَالِكَ الْوِلايَةُ بكسر الواو يعني الملك كما في قوله تعالى في الآية ١٦ من سورة غافر: لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار. **(هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا)** لأنه سيجازي على العمل الصالح بثواب هو خير من الدنيا وما فيها. **(وَخَيْرٌ عُقْبًا)** أي خير العاقبة بالرزق الطيب في جنة الخلد.

هكذا ضرب الله تعالى لنا مثلاً، وأوضح لنا عاقبة الغنيّ الكافر والفقير المؤمن، وبيَّن لنا أن الإنسان يجب ألاّ تخدعه النعمة ولا يغره النعيم لأنه موهوب من الله، فاجعل

الواهب المنعِمَ سبحانه دائمًا على بالك كي يحافظ لك على نعمتك، وإلا لَكُنْتَ مثل هذا الجاحد الذي استعلى واغترّ بنعمة الله فكانت عاقبته كما رأيت. وهذا مثل في الأمر الجزئي الذي يتعلق بالمكلّف الواحد، ولو نظرتَ إليه لوجدتَه يعمُّ الدنيا كلها، فهو مثال مُصغَّر لحال الحياة الدنيا(١).

الوسيط لمُحمَّد سيِّد طنطاويّ

(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا) المثل في اللغة هو الشبيه والنظير، وفي عرف القرآن الكريم هو الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع. وضرب المثل هو إيراده، وعبر عن إيراده بالضرب لشدة ما يحدث عنه من التأثير في نفس السامع. أي واضرب أيها الرسول الكريم مثلا للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وللكافرين الذين غرتهم الحياة الدنيا، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة.

(رَّجُلَيْنِ) قال الآلوسى: المراد بالرجلين إما رجلان مقدران على ما قيل، وضرب المثل لا يقتضى وجودهما، وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه. قيل هما رجلان من بنى إسرائيل أحدهما كافر والآخر مؤمن. والمراد ضربهما مثلا للفريقين المؤمنين والكافرين لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفا، بل من أن للمؤمنين في الآخرة كذا وللكافرين فيها كذا من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم في نعم الله، وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر. أي واضرب لهم مثلا من حيثية العصيان مع النعمة والطاعة مع الفقر حال رجلين. (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا) وهو الكافر.

١) خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ (ج١٤/ ص٨٨٩٨- ٨٩٢٢).

(جَنَّتَيْنِ) بستانين، ولم يعين سبحانه مكانهما لأنه لم يتعلق بهذا التعيين غرض. (مِنْ أَعْنَابٍ) جمع عنب، والعنبة الحبة منه، والمراد من كروم متنوعة. (وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا) بيان لما أضيف إلى الجنتين من مناظر تزيدهما بهجة وفائدة. والحف بالشيء هو الإحاطة به. يقال فلان حفه القوم أي أحاطوا به، ومنه قوله تعالى: وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ... والمعنى جعلنا لأحد الرجلين، وهو الكافر منهما، جنتين من أعناب وأحطناهما بنخل ليكون كالحماية النافعة لهما، وجعلنا في وسطهما زرعا. وبذلك تكون الجنتان جامعتين للأقوات والفواكه، مشتملتين على ما من شأنه أن يشرح الصدر ويفيد الناس. (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا) كلتا اسم مفرد اللفظ مثنى المعنى عند البصريين، وهو المذهب المشهور، ومثنى لفظا ومعنى عند غيرهم. أي أن كل واحدة من الجنتين أعطت ثمارهما التي يأكلها الناس من العنب والتمر وغيرهما من صنوف الزرع. (وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) أي ولم تنقص من هذا المأكول شيئا في سائر السنين على خلاف ما جرت به عادة البساتين، فإنها في الغالب تكثر ثمارها في أحد الأعوام وتقل في عام آخر. وفي التعبير بكلمة تَظْلِمْ بمعنى تنقص وتمنع مقابلة بديعة لحال صاحبهما الذي ظلم نفسه بجحوده لنعم الله تعالى واستكباره في الأرض. (وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) أي وشققنا في وسطهما نهرا ليمدهما بما يحتاجان إليه من ماء بدون عناء وتعب. فأنت ترى أن الله تعالى قد وصف هاتين الجنتين بما يدل على جمال منظرهما وغزارة عطائهما وكثرة خيراتهما واشتمالهما

على ما يزيدهما بهجة ومنفعة. **(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ)** قال الآلوسي ما ملخصه: وَكانَ لصاحب الجنتين أنواع أخرى من المال. قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ثمر بضم الثاء والميم وهو جمع ثمار أي أموال كثيرة من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك، وبهذا تفسير ابن عباس وقتادة.

(فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) المحاورة هي المراجعة للكلام من جانبين أو أكثر. أي فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن الشاكر أنا أكثر منك مالا وأعز منك عشيرة وحشما وأعوانا. وهذا شأن المغرورين، تزيدهم شهوات الدنيا وزينتها بطرا وفسادا في الأرض. قال قتادة تلك أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر. **(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ)** لم يكتف هذا الكافر بتطاوله على صاحبه المؤمن، بل سار به نحو جنته حتى دخلها وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وغروره. قال صاحب الكشاف فإن قلت لم أفرد الجنة بعد التثنية؟ قلت دخل جنته وليس له نصيب في الجنة التي وعدها الله للمؤمنين، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما.

(وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ) أي وهو معجب بما أوتي مفتخر به، كافر لنعمة ربه، معرض بذلك نفسه لسخط الله، وهو أفحش الظلم. **(قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)** أي ما أظن أن هذه الجنة تفنى أو تهلك أبدا. **(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً)** أي وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ كائنة ومتحققة، فهو قد أنكر البعث وما يترتب عليه من حساب بعد

إنكاره لفناء جنته. ثم أكد كلامه بجملة قسمية فقال (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي) أي والله لئن رددت إلى ربي على سبيل الفرض والتقدير كما أخبرتنى يا صاحبي بأن هناك بعثا وحسابا. (لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا) أي من هذه الجنة. (مُنقَلَبًا) أي مرجعا وعاقبة. اسم مكان من الانقلاب بمعنى الرجوع والانصراف عن الشيء إلى غيره، كما في قوله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا). وفي قوله سبحانه: (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ). والمتدبر لحال صاحب الجنتين يراه قد زعم أن مدار التفاضل هو الثروة والعشيرة، وأنه بنى حياته على الغرور والبطر واعتقاد الخلود لزينة الحياة الدنيا، وأنه قد أنكر البعث والحساب والثواب والعقاب، وتوهم أن غناه في الدنيا سيكون له مثله في الآخرة. قال صاحب الكشاف: أخبر عن نفسه بالشك في بيدودة جنته لطول أمله واستيلاء الحرص عليه وتمادى غفلته واغتراره بالمهلة واطراحه النظر في عواقب أمثاله. وترى أكثر الأغنياء من المسلمين، وإن لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه. وأقسم على أنه إن رد إلى ربه – على سبيل الفرض والتقدير – ليجدن في الآخرة خيرا من جنته في الدنيا، تطمعا وتمنيا على الله.

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) أي قال الرجل الفقير المؤمن لصاحبه الجاحد المغرور على سبيل المحاورة والمجاوبة. (أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ) أي أَكَفَرْتَ بالله الذي خلق أباك آدم من تراب، كما قال سبحانه: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ

آدَمَ، خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. (ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ) ثم أوجدك من نطفة عن طريق التناسل والمباشرة بين الذكر والأنثى. (ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) ثم صيرك إنسانا كاملا ذا صورة جميلة وهيئة حسنة، كما قال سبحانه: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ). والاستفهام في قوله: أَكَفَرْتَ... للإنكار والاستبعاد، لأن خلق الله تعالى له من تراب ثم من نطفة ثم تسويته إياه رجلا يقتضى منه الإيمان بهذا الخالق العظيم وإخلاص العبادة له وشكره على نعمائه. ولا يستلزم قول صاحب الجنتين قبل ذلك: (وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا) أنه كان مؤمنا، لأنه قال ذلك على سبيل الفرض والتقدير لا على سبيل الاعتقاد واليقين بدليل تردده في إمكان قيام الساعة، ولأن اعترافه بوجود الله تعالى لا يستلزم الإيمان الحق، فالكفار كانوا يعترفون بأن الله تعال هو خالق السموات والأرض، ومع هذا يشركون معه في العبادة آلهة أخرى. وجاء التعبير بحرف ثم في الآية للإشارة إلى أطوار خلق الإنسان التي فصلها سبحانه في آيات أخرى منها قوله تعال: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ). ثم يعلن الرجل الصالح موقفه بشجاعة ووضوح فيقول لصاحب الجنتين (لَّٰكِنَّا۠ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) أي إن كنت قد كفرت بالله فأنا مؤمن، أعترف له بالعبادة والطاعة وأقول الله تعالى ربي، ولا أشرك

معه أحدا من خلقه لا في الربوبية ولا في الألوهية، لا في الذات ولا في الصفات. والأصل في لكنا هو لكن أنا، فحذفت همزة أنا وأدغمت نون لكن في نون أنا. وهو ضمير الشأن، أي والشأن أن الله ربي. فإن قلت هو استدراك لأي شيء؟ قلت لقوله أكفرت.. قال لأخيه أنت كافر بالله لكني مؤمن موحد، كما تقول زيد غائب لكن عمرا حاضر. وجمهور القراء يقرءون في الوصل لكن بدون ألف، وقرأ أبو عامر في الوصل لكنا بالألف، أما في الوقف فقد اتفق الجميع على إثبات الألف. ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي ما شاء الله تعالى كائن. وأيما كان فالمراد تحضيضه على الاعتراف بأن جنته وما فيها كانت بمشيئة الله تعالى إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها. ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أي إن ترن أنا أقل منك في المال والولد. ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ فإني أرجو الله الذي لا يعجزه شيء أن يرزقني ما هو خير من جنتك في الدنيا والآخرة.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي عذابا من السماء كالصواعق وغيرها مما يشاء الله تعالى إرساله عليها من المهلكات التي تذرها قاعا صفصفا. قال صاحب الكشاف: والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب. أي ويرسل عليها مقدارا من العذاب قدره الله وحسبه، فتصبح بعد اخضرارها ونضارتها أرضا جرداء ملساء لا نبات فيها ولا يثبت عليها قدم.

(أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا) أي غائرا ذاهبا في الأرض. والغور مصدر وصف به على سبيل المبالغة وهو بمعنى الفاعل. ومنه قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا، فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ.

(فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) أي لن تستطيع أن تحصل عليه أو تطلبه بأية حيلة من الحيل، لأنه لا يقدر على الإتيان بهذا الماء الغائر إلا الله عز وجل. والإيمان الحق يجعل المؤمن يعتز بعقيدته ويتجه إلى الله وحده ويرجو منه ما هو خير من بساتين الدنيا وزينتها.

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) أي وكانت نتيجة جحود صاحب الجنتين لنعم ربه أن أهلكت أمواله وأبيدت كلها. وجاء الفعل أحيط مبنيا للمجهول للإشعار بأن فاعله متيقن، أي وأحاط العذاب بجنته.

(فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا) أي فصار يقلب كفيه ظهرا لبطن أسفا وندما على ما أنفق في عمارتها وتزيينها من أموال كثيرة ضاعت هباء ومن جهد كبير ذهب سدى. وفي قوله: **(فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها)** تصوير بديع لما اعتراه من غم وهم وحسرة وندامة.

(وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) هي أي الجنة التي أنفق فيها ما أنفق. خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها أي ساقطة ومتهدمة على دعائمها وعلى سقوفها، وأصل الخواء السقوط

والتهدم. والعروش جمع عرش وهو سقف البيت. والمقصود أن الجنة بجميع ما اشتملت عليه صارت حطاما وهشيما تذروه الرياح.

(وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) أي صار يقلب كفيه حسرة وندامة لهلاك جنته، ويقول زيادة في الحسرة والندامة يا ليتني اتبعت نصيحة صاحبي فلم أشرك مع ربي أحدا في العبادة أو الطاعة. وهذا حال أكثر الناس، يذكرون الله تعالى عند الشدائد والمحن، وينسونه عند السراء والعافية. والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها قد صورت فجيعة الرجل الجاحد في جنته تصويرا واقعيا بديعا. فقد جرت عادة الإنسان أنه إذا نزل به ما يدهشه ويؤلمه أن يعجز عن النطق في أول وهلة، فإذا ما أفاق من دهشته بدأ في النطق والكلام. وهذا ما حدث من ذلك الرجل، عندما رأى جنته قد تحطمت أخذ يقلب كفيه حسرة وندامة دون أن ينطق، ثم بعد أن أفاق من صدمته جعل يقول: يا ليتني لم أشرك بربي أحدا. **(وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا)** أي لم تكن لهذا الجاحد المغرور، بعد أن خوت جنته على عروشها، عشيرة أو أعوان ينصرونه أو يدفعون عنه ما حل به، وإنما القادر على ذلك هو الله تعالى وحده. وما كان هذا الرجل الذي جحد نعم ربه منتصرا لأن الله سبحانه وتعالى قد حجب عنه كل وسيلة تؤدى إلى نصره وعونه بسبب إيثاره الغي على الرشد والكفر على الإيمان. فالآية الكريمة تبين بوضوح عجز كل قوة عن نصرة ذلك الرجل المخذول سوى قوة الله عز وجل، وعجز ذلك الرجل في نفسه عن رد انتقام الله تعالى منه.

(هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ) هذا تقرير وتأكيد للآية السابقة. ولفظ هنالك ظرف مكان. وكلمة الولاية قرأها الجمهور بفتح الواو بمعنى الموالاة والصلة والنصرة، كما قرأ الجمهور كلمة الحق بالجر على أنها نعت للفظ الجلالة. فيكون المعنى في ذلك المقام وتلك الحال تكون الموالاة والصلة من كل الناس لله تعالى وحده، إذ الكافر عند ما يرى العذاب يعترف بوحدانية الله تعالى كما قال سبحانه: (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا). ويجوز أن يكون المعنى في ذلك المقام وتلك الحال تكون الموالاة لله تعالى وحده، فيوالي المؤمنين برحمته ومغفرته وينصرهم على أعدائهم، كما قال سبحانه: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ). وقرأ حمزة والكسائي الْوَلَايَةُ بكسر الواو بمعنى الملك والسلطان، كما قرأ أبو عمرو والكسائي لفظ الْحَقِّ بالرفع على أنه نعت للولاية فيكون المعنى في ذلك المقام تكون الولاية الحق والسلطان الحق لله رب العالمين كما قال سبحانه: (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا). (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) أي أنه عز وجل هو خير إثابة وإعطاء لأوليائه، وخير عاقبة لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى. وعاقبة الأمر هو آخره وما يصير إليه منتهاه. وبذلك نرى أن هذه القصة التي ضربها الله تعالى مثلا للأخيار والأشرار قد بينت لنا بأسلوب بليغ أخاذ صور عاقبة الجاحدين المغرورين وحسن عاقبة الشاكرين المتواضعين، كما بينت لنا الآثار الطيبة التي تترتب على الإيمان والعمل الصالح، والآثار السيئة التي يفضى إليها

الكفر وسوء العمل، كما بينت لنا أنّ المتفرد بالولاية والقدرة هو الله عز وجل فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره، ولا مستحق للعبادة أحد سواه، ولا ثواب أفضل من ثوابه ولا عاقبة لأوليائه خير من العاقبة التي يقدرها لهم[1].

التفسير الميسر

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ واضرب أيها الرسول لكفار قومك مثلا رجلين من الأمم السابقة أحدهما مؤمن والآخر كافر، وقد جعلنا للكافر حديقتين من أعناب وأحطناهما بنخل كثير وأنبتنا وسطهما زروعًا مختلفة نافعة. ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ وقد أثمرت كل واحدة من الحديقتين ثمرها ولم تُنْقِص منه شيئًا، وشققنا بينهما نهرًا لسقيهما بسهولة ويسر. ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ وكان لصاحب الحديقتين ثمر وأموال أخرى، فقال لصاحبه المؤمن وهو يحاوره في الحديث والغرور يملؤه أنا أكثر منك مالا وأعز أنصارًا وأعوانًا. ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ودخل حديقته وهو ظالم لنفسه بالكفر بالبعث وشكه في قيام الساعة، فأعجبته ثمارها وقال ما أعتقد أن تَهْلِك هذه الحديقة مدى الحياة. ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا

[1] الوسيط لمُحمَّد سيِّد طِنطاويّ (ج٨/ ص٥١٣- ٥٢٤).

مُنْقَلَبًا) وما أعتقد أن القيامة واقعة، وإن فُرِضَ وقوعها كما تزعم أيها المؤمن ورُجعتُ إلى ربي لأجدنَّ عنده أفضل من هذه الحديقة مرجعًا ومردًا لكرامتي ومنزلتي عنده. **(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا.)** قال له صاحبه المؤمن وهو يحاوره واعظًا له كيف تكفر بالله الذي خلقك مِن تراب ثم مِن نطفة الأبوين ثم سَوَّاك بشرًا معتدل القامة والخَلْق؟ وفي هذه المحاورة دليل على أن القادر على ابتداء الخلق قادر على إعادتهم. **(لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا)** لكن أنا لا أقول بمقالتك الدالة على كفرك، وإنما أقول المنعم المتفضل هو الله ربي وحده، ولا أشرك في عبادتي له أحداً غيره. **(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا)** أي هلا حين دخَلْتَ حديقتك فأعجبتك حَمِدت الله وقلت هذا ما شاء الله لي لا قوة لي على تحصيله إلا بالله إن كنت تراني أقل منك مالا وأولاداً. **(فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا)** فعسى ربي أن يعطيني أفضل من حديقتك، ويسلبك النعمة بكفرك، ويرسل على حديقتك عذابا من السماء، فتصبح أرضًا ملساء جرداء لا تثبت عليها قدم ولا ينبت فيها نبات. **(أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا)** أو يصير ماؤها الذي تُسقى منه غائراً في الأرض. **(فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا)** فلا تقدر على إخراجه. **(وَأُحِيطَ**

بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) . وتَحَقَّقَ ما قاله المؤمن، ووقع الدمار بالحديقة فهلك كل ما فيها، فصار الكافر يُقَلِّب كفيه حسرةً وندامة على ما أنفق فيها وهي خاوية قد سقط بعضها على بعض، ويقول يا ليتني عرفت نِعَمَ الله وقدرته فلم أشرك به أحداً. وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم. (وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا) أي ولم تكن له جماعة ممن افتخر بهم يمنعونه مِن عقاب الله النازل به، وما كان ممتنعًا بنفسه وقوته. (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) في مثل هذه الشدائد تكون الولاية والنصرة لله الحق، هو خير جزاءً، وخير عاقبة لمن تولاهم من عباده المؤمنين[1].

ضرب المثل

* (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا) : لا يكاد القرآن الكريم يوقع على المثل والأمثال إلا فعلا مشتقا من مادة ضرب ابتداء من الآية : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) (البقرة : ٢٦) وانتهاء بالآية : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) (التحريم : ١١) . ولم يتأخر الضرب إلا في موضعين حيث جاء مكانه الصرف (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا

[1] تفسير الميسر: نخبة من أساتذة التفسير (ج١/ص ٢٩٧- ٢٩٨).

﴿الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ (الإسراء: ٨٩) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤). وقد جاء فعل الضرب مرتين في تركيبين متماثلين ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الروم: ٥٨). ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٢٧). فما هو السر في هذا التلازم بين فعل الضرب ومفعول المثل؟ لو تأملنا الدلالات المعجمية والإيحائية لفعل ضرب لوجدنا أن هذا الفعل هو الأنسب لكي يوقع على المثل. فثمة تشاكل بديع بين معاني الضرب ووظيفة المثل منها:

– أصل الضّرب هو إيقاع جسم على جسم آخر وقرعه به. فالضرب والقرع يقترنان بالشدة مع حدوث صوت منبه، وهذا يناسب تماما إحدى وظائف المثل وهي تنبيه الناس وإثارة أذهانهم كما في قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (الحج: ٧٢). فتشاكل فعل الضرب مع حاسة السمع والدعوة إلى الانتباه.

– ضرب قد تأتي بمعنى مثل فيتحول التشاكل إلى ترادف. قال في اللسان: الضَّرْبُ المِثْل والشَّبيهُ. ومعنى قوله عز وجل ﴿واضْرِبْ لهم مثلًا﴾ أَي اذْكُرْ لهم ومَثِّلْ لهم.

– ضرب المثل يوحي بضرب الدراهم. وهناك توافقات عجيبة بينهما على صعيد الشكل والمضمون. فالعملة منقوشة لا تتغير صياغتها وكذلك المثل المضروب لا يتغير تركيبه فهو عبارة مصكوكة ومسكوكة. والعملة تتداولها الأيدي دون أن تفقد شيئا من قيمتها، وكذلك المثل تتداوله الألسنة والأقلام في ظروف مختلفة دون أن يفقد شيئا من مخزونه المعنوي.

* **(رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ)** من هما الرجلان؟ من الذي امتلك الجنتين منهما؟ القرآن أبهم ذلك، وفي هذا الإبهام سر بياني بديع! ولن يكون التعيين إلا عرقلة لإدراك مقصد القرآن من المثل، والمقصد هو الابتلاء، والابتلاء له بعد مستقبلي. فلو عيننا الرجلين مؤمنا وكافرا مثلا، فإنّ جعْلَ الجنتين للمؤمن وحده سيجعل النفس ترى في ذلك ثوابا ما... وإن جعلناهما للكافر رأت النفس فيه استدراجا ما... وهكذا فكل تعيين لماضي الرجلين سيلقي بظله على الحدث الحاسم في المثل. الرجلان في القرآن ليس لهما ماض، والتأكيد كل التأكيد على مستقبلها. تبدأ القصة بالتشابه وتنتهي بالتباعد. **رجلين**: صيغة مثنى منكر توحد الشخصين فلا اختلاف ولا تميز. **جعلنا**: تعبير يؤكد مقصد التجنيس، فلم تجعل الجنتين لأفقرهما أو أصغرهما أو أتقاهما. **لأحدهما**: صادقة على أي منهما. فكأن البيان القرآني بأسلوب الإبهام هذا يضع أمام الفكر إحداثية المنطلق والمنتهى ليقدر بدقة اختلاف الأقدار والمصائر... لم يكن في البدء إلا رجلان، أما النهاية فسنعلمها بعد حين. **(رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ)**: هذه الجملة مبنية على

التوتر... ومن ثم كانت عمود المثل ومؤسسة للحدث والموقف، فكل التفاصيل وكل النتائج تمت بصلة إليها. رجلين/جنتين... تعادل/تشاكل. جعلنا لأحدهما/كسر للتعادل وتوتر في صورة ابتلاء. الحدث واحد لكن الابتلاء متعدد: ابتلاء لصاحب الجنتين أشكر أم بطر؟ ابتلاء للثاني أصبر أم كفر؟ ابتلاء لشاهد القصة أتسليم أم لجاجة. هنا مدخل لوسوسة الشيطان، لماذا كان التوزيع على ذلك النحو... رجل له جنتان ورجل ليس له شيء... ألم يكن أولى لو... لكنه سلطان الربوبية... جعلنا.

* **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رجلين**... المثل أيضا ابتدأ بحالة متجانسة، فقد جرد الرجلان من كل السمات الفارقة ولم يذكرا إلا بأعم صفة مشتركة وهي رجلين، ثم وقع الشرخ الاجتماعي في صورة تفاوت الملكية. فنشأت أول سمة فارقة غنى/فقر ثم تولدت عنها السمات الفارقة الأخرى تترى. وفي التنصيص على العدد اثنين تحريك للضمير وتوجيه للنظر: فهنا رجل له جنتان أي ملكية فائضة... وثمة رجل آخر ليس له من الملكية شيء. فالوضع يقتضي المواساة وجبر الخاطر، لكن الغني قال أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا. ليست هي المواساة وجبر الخاطر والسعي في تخفيف الفرق، ولكنها النكاية والتشفي والعمل على إظهاره قولا وفعلا. والحصيلة هي زيادة ألم الفقير ووقوعه تحت القهر المادي المتمثل في فقره والقهر المعنوي الناتج عن مقالة صاحبه المستكثرة من المال والنفر. فنلحظ الابتلاء المزدوج في أحكم صورة وأمتنها: تراكم المنافع المادية عند المطالب بالشكر، وتضاعف الهموم ماديا ومعنويا عند المطالب بالصبر.

* **جعلنالأحدهماجنتين**... هذا التفضيل، بدون سبب ظاهر، سيفضي إلى قياس خاطئ وقاتل إن لم يعتبر فيه مقصد الابتلاء. قال الرجل وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا. اجتمع في العبارة ثلاث مؤكدات هي القسم واللام والنون. فمن أين جاء الرجل بكل هذا الجزم؟ لم يخطر ببال الغني معنى الابتلاء فقاس حال الآخرة على حال الدنيا... توهم أنه إذا كان قد أعطي جنتان اليوم فلا شك أن الله قد رأى فيه ما يقتضي الإكرام والتفضيل، فلا بد من استصحاب القاعدة واطرادها عاجلا وآجلا. إذا كانت الآخرة خيرا من الأولى فليكن نصيبه هناك خيرا من نصيبه هنا !

* إن توزيع الضمائر والفاعلين في هذه الآيات الكريمة يكشف عن سر بياني بديع، إذ ليس للرجل صاحب الجنتين أي فعل. الأفعال كلها لله تعالى بضمير التعظيم أو للأسباب العادية. فمن النوع الأول: جعلنا، حففنا، فجرنا وهي أفعال لله الخالق المنشئ. ومن النوع الثاني: آتت، لم تظلم وهما فعلان يفيدان المطاوعة والاستجابة. أما الرجل فهو عاطل عن العمل، فليس له أدنى مجهود مذكور لاستحقاق الملكية أو بعضها. والطريف أن في الآيات السابقة ضميرين عائدين على الرجل: ضمير في البداية **أحدهما**، وضمير في النهاية **وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ**. فكأن البيان القرآني المعجز أحضر الرجل في البداية عند تسلم الجنتين وانعقاد الملكية، وأحضره في النهاية عند تسلم الناتج والغلات، وما بينهما لا عناء ولا حرث ولا سقي ولا شقاء... فلم لا يكون الرجل مدللا.

* إن وصف الجنتين بهذا الشكل عمد إلى إظهار معنى الاستمرارية والبقاء، فالناتج من الأرض عنبا وتمرا يقبل التخزين وفي ذلك تجاوز للفصول والمواسم. وأسباب استمرار الناتج قائمة في الجنة ومتوفرة فيها ومستقلة بها كما يراها الرجل متجسدة في النهر المتفجر، فلا خوف من تقلبات المناخ وعاديات الظروف. هذا الإحساس بالأمن والاستقلال خطير جدا، . فقد نشأ عنه فكر منحرف أفضى بصاحبه إلى الهلاك. فالجنة لن تبيد بفضل توفر أسباب الحياة... ولما كانت هذه الجنة جزءا من الحياة الدنيا فقد سرى حكم الجزء إلى الكل. فالدنيا مستمرة إذن فلا آخرة: (**قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**). وهب أن الدنيا لا تبيد، هل هو خالد في جنته؟ لا... فما هو السبيل لمنع الحسرة والقلق؟ إذن لا بد من افتراض حياة أخرى للنجاة، ولا بد من استئناف السعادة هناك على مستوى الخلود): (**وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا**) وهكذا أمن الرجل نفسه على كل تقدير!

* في اختيار كلمات الآيات وتركيبها مرونة مذهلة، فحيثما اتجه الفكر وغير من نهج التناول وجد الإشعاع الدال قائما. (**أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**.) يمكن أن تقرأها على قاعدة الحجاج، ويمكن أن تقرأها على قاعدة التأثير، ويمكن أن تقرأها على قاعدة التأثر. وسوف نجد:

أ – الجملة تقرير حجاجي على البعث: وهو رأي جمهور المفسرين. فذكر الخلق من التراب تنبيه على إمكان البعث عن طريق قياس الأولى. فالبعث ليس إلا إنشاء

من التراب وإخراجا منه، فكيف تنكر الإعادة مع الإقرار بالنشأة الأولى ! إن جحد النشأة الأولى هذيان، وإنكار النشأة الثانية تجديف في العقل لأن في ذلك تفرقة بين متشابهين !

ب – الجملة تقرير حجاجي على الربوبية بلفت النظر إلى القدرة على التصرف في العناصر بحيث يبهت المعطل. فالتراب غير عضوي وغير حي، والنطفة عضوي حي وغير عاقل، والرجل حي عاقل. فكيف يمكن إخراج شيء موصوف بصفة لا يتصف بها أصله !إن تحويل التراب إلى نطفة أمر مذهل، فكيف بتحويل التراب إلى رجل !من أين جاءت الحياة للتراب لتتشكل النطفة؟ ومن أين جاء العقل للنطفة ليتشكل الرجل؟ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ؟

ج – الجملة توبيخ وتأنيب: كيف تقابل النعمة بالكفر (سواك رجلا) وكان من الممكن أن يسويك امرأة فتكون في مرتبة أقل، بل كان من الممكن أن يسويك حمارا !

د – الجملة تذكير وتحقير: صاحب الجنتين طغى وتجبر بغير حق، فحق أن يذكر بأصليه الحقيرين هما التراب الذي يداس بالأقدام... والنطفة التي تخرج مما هو معروف !

ه– – الجملة استنكار: فالرجل الفقير يستنكر على صاحبه أن ينحدر إلى هذه الدرجة من الغرور والتطاول على العباد وعلى رب العباد.

و – الجملة تعجب: فيكون الاستفهام دالا على الاستغراب. فمن عجائب أحوال الإنسان أن ينطمس عقله فيجادل في البديهيات، أو تنطفئ ذاكرته فينسى أصله

ونوعه. ولعلك وقفت على شيء من إعجاز الأسلوب القرآني، وأدركت مدلول كلمة (تراب) عقلا على الخلق والمعاد، وحسا على الأصل والعنصر، وخلقيا على الوضاعة والحقارة...

* جاء المثل المضروب تصديقا وتثبيتا للسنة الإلهية في تقدم الإنذار قبل الأخذ بالذنوب، وإقامة الحجة قبل فتح باب العذاب (**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**). فالإحاطة بالثمر لم تأت عقب كفر الغني، ولكنها جاءت إثر الإنذار الطويل من قبل صاحبه المؤمن. وبذلك يكون المثل قد انتظمت فيه حالة فتح أبواب النعم على سبيل الاستدراج والابتلاء، وحالة الكفر بها والبطر، وحالة الهلاك بعد التحذير والإسراف، وحالة البعث والنشور. ومن الملاحظ إن المؤمن قد ذكر الله مرات عديدة: (**هُوَ اللَّهُ رَبِّي - وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي - فَعَسَى رَبِّي - لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ - مَا شَاءَ اللَّهُ - لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**)، فضلا عن الاسم الموصول والضمير المنفصل والضمائر المستترة العائدة على رب العزة، بينما لم يجر اسم الله على لسان الكافر إلا مرة واحدة: (**وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي...**).

نظرات وأفكار

* هذه الآيات مثالا معجزا للإطناب والإيجاز من بديع بلاغة القرآن الكريم. فعندما وصف نشأة الجنتين أسهب واسترسل وفصل: (**جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ - وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ - وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا - كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا - وَلَمْ تَظْلِمْ**

مِنْهُشَيْئًا-وَفَجَّرْنَاخِلَالَهُمَانَهَرًا-وَكَانَلَهُثَمَرٌ). سبع جمل... كذلك الحياة تنشأ شيئا فشيئا، وتنمو جزءا فجزءا، وتحتاج إلى رعاية وتربية وتدبير. لكن الموت يأتي كلمح بالبصر ليضرب ضربة واحدة: وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ. جملة واحدة فقط... لكنها كافية للإتيان على كل ما سبق. فالجنين يحتاج إلى بضعة شهور ليتكون في الرحم بإذن الله، لكنه يحتاج إلى ثانية واحدة ليموت بأمر الله. فانظر كيف عبر توزيع الجمل عن حظ الحياة وحظ الموت. ولقد بني فعل أحيط ولم يسم فاعله على عكس الأفعال السابقة إشعارا بالخفاء والغموض والبغتة... قاتل الله أبا الطيب ما أشعره عندما قال:

وما الموت إلا سارقٌ دقّ شخصه يصول بلا كفٍ ويسعى بلا رجل

ووقع فعل الإحاطة على الثمر وهي آخر ما ذكر في مسار الحياة وأشرف ما فيها، لأن لها مقام المقصد وما سبقها من باب الوسائل. ولكي يكتمل فقه المثل المضروب هناك أسئلة تحتاج لإجابات:

– في الصراع الداخلي الذي أحدثته المحاورة وظهر في حديث النفس (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال)، وطمأن نفسه (ولئن رددت إلى ربي) هل يقصد ربه الذي هو به مشرك؟ بدراسة الوجه البياني يتضح كيف يخدع الإنسان نفسه وكيف يلهه الأمل بتمني الأماني. لماذا دعا الله أن يرسل عليها حسبانا من السماء؟ ما تصنيف هذا الدعاء؟ وهل يمكن الدعاء به على الكفرة في كل الأحوال.

– ما هو الحسبان؟ هل هو حقا كما جاء في كتب التفسير عاصفة أو إعصار؟

– لماذا كان الحسبان على جنته ولم يكن على ولده أوعليه شخصيا؟

– (وأحيط بثمره) هل هو إجابة لدعاء الداعي، ولماذا لم يصبح ماؤها غورا؟ – هل هو بمثابة إنذار، وأمامه فرصه للتوبة وخاصة أنه ندم (يا ليتني لم أشرك بربي أحدا)؟

– هل هذا النموذج يتكرر في واقعنا؟ وهل يفيد هذا الدرس أم لا؟

أقوال المؤرخين والباحثين

* الأخذ بالأسباب والاعتماد على رب الأرباب – د. محمد راتب النابلسي.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ قد يكون هذان الرجلان حقيقيين أو مفترضين، ليست العبرة في وقوع القصة بل في مغزاها. تأتي الدنيا لبعض الناس من أوسع أبوابها، فما الذي يحصل؟ هناك منزلق خطير... يظن الإنسان أنه استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه بذكائه وخبرته ودهائه وحكمته وعلمه... المنزلق الخطير هو الهاوية حين يغيب عنك أن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخر لك ذلك، كما فعل قارون ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: ٧٨)، أو فرعون ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف: ٥١). لنُدقق في كلمة جعلنا، الله هو الذي جعل لهم ذلك، فالله هو الفعّال. وفي هاتين الجنتين ما لذَّ وطاب من الزروع والخضار والثمار والأعناب والنخيل. ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ كان المحصول جيداً وفي حده الأعلى، قد يقول أنا اعتنيت واستعملت الدواء الفلاني واستعنت بمهندس زراعي خبير واستخدمت البذور الهجين... ويثني في الحديث على خبرته وذكائه وماله الذي أنفقه على هذا البستان حتى أصبح جنة نضرة. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ وفوق هذا وذاك يجري الماء نهراً بين هاتين الجنتين بمياهه العذبة

الغزيرة. **(وَكَانَلَهُثَمَرٌ)** في بعض التفاسير كان له أيضا أموالا استثمرها في جهات أخرى تدر عليه أرباحًا طائلة. هذا الإنسان ذكي نجح في أعمال أخرى إضافة إلى هذه الجنة، ولكنه كان مُشركًا ليس بالمعنى الذي يعرفه الناس حين يدعي أن هناك إلهًا آخر، ولكنه الإشراك العملي، الشرك الخفي، شرك الأسباب. **(فَقَالَلِصَاحِبِهِ وَهُوَيُحَاوِرُهُ)** إنها فتنة عظيمة التكبُّرُ على الناس. حين يعتني الإنسان ببيته وبستانه ويركب مركبة فخمة تتشكل عنده رغبة جامحة آثمة هي أن يطلع على هذا أصدقاؤه ولا سيما المحرومين ليزيدهم شعوراً بالحرمان، فقال لصاحبه بصراحة ووقاحة **(أَنَاأَكْثَرُمِنْكَمَالًاوَأَعَزُّنَفَرًا)**. أيها الأخ الكريم لا ينبغي لك أن تتباهى في الدنيا لأنها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، ولو أنها تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء **(وَدَخَلَجَنَّتَهُوَهُوَظَالِمٌلِنَفْسِهِ)** ظلم نفسه وظلم عقله، وأي ظلم أشد من أن توهم نفسك بشيء أنت بعيد عنه، ظلم نفسه حينما أشرك الأسباب مع الله عز وجل فجعل الأخذ بالأسباب استغناءً عن رب الأرباب. **(قَالَمَاأَظُنُّأَنْتَبِيدَهَـٰذِهِأَبَدًا)** شعور بالتفوق وطول الأمل، أحيانًا يسيطر على الناجحين في الحياة شعور بأنهم متفوقون دائمًا وأن الحياة لن تزيدهم إلا غنىً وعلواً في الأرض وأنهم من أصحاب الحظ، هذا جهل وتفاؤل أبله. **(وَمَاأَظُنُّ السَّاعَةَقَائِمَةً وَلَئِنرُّدِدتُّإِلَىٰرَبِّيلَأَجِدَنَّخَيْرًامِّنْهَامُنقَلَبًا)** ظنَّ أنه نجح في الدنيا وسينجح في الآخرة، وكأن الآخرة امتداد للدنيا. النجاح الحقيقي هو **(إِذَاوَقَعَتْ**

الْوَاقِعَةُ)، قد يرتفع من كان في أدنى السلم الاجتماعي إلى المكانة العلية، ومن كان في أوج المكانة العالية قد يهوى إلى أسفل سافلين. كان صاحبه من المؤمنين الذين يعرفون حجمهم الحقيقي، والمؤمن من عرف حده فوقف عنده. (**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا**) أيها الإنسان لو عرفت أصلَك ما تكبَّرتَ ! كيف تغافلت عن خالقك الذي ساق هذه النعم إليك؟ لقد خلقك من تراب، ثم من نطفة قذرة فلِم التكبر؟ بئس من سها ولها ونسي المبتدى والمنتهى، بئس من تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس من طغى ولها ونسي المقابر والبلى. (**لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا**) قلب سليم وإيمان صادق لا شبهة فيه ولا شرك خفي. (**وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**) ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قد يفقد الإنسان في ثانية واحدة كل شيء، وقد يُصبح في لحظة واحدة من أهل القبور، فيجب أن لا ينسى فقره إلى الله. ورد في الحديث القدسي أن الله قال لداود عليه السلام: أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد[1].

(**إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا**) الناس فيهم القوي والضعيف، وفيهم الصحيح والمريض، وفيهم الغني والفقير، وفيهم صاحب الشأن ومغمور الشأن، هذا توزيع

---

١) نوادر الأصول للحكيم الترمذي (ج ٢/ص١٠٧).

ابتلاء ومن ثم يكون توزيع الجزاء. ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ إنَّ توزيع الحظوظ في الدنيا ليس أبديًا ولا سرمديًّا، بل ربما تغيّر في الدنيا قبل الآخرة، وسيتغير في الآخرة قطعًا لأنَّ الآخرة هي دار الجزاء. احذر أيها الإنسان أن تدور عليك الدائرة. ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ مِن يأتيك بالماء إذا غار في الأرض؟ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ هذا ما جدث لصاحب الجنتين حين كفر فاعتبروا يا أولي الأبصار. هذا هو المنظر الحزين والدمار المخيف... يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ! ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ورد أن صاحب الجنتين قد أشرك بالله حينما اعتمد على الأسباب وحدها ونسي رب الأرباب. ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ ولات ساعة مندَم. اعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة. ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ هو الولي إن تخلى عنك فمن يبقى لك؟ وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

مغزى القصة: إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين. احذروا شرك الأسباب. مشيئة الله عزّ وجل هي وحدها النافذة. الظالم يستحق التأديب من الله عز وجل. بالشكر تدوم النعم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ.

ليس من صفات المؤمن الافتخار و إطلاع المحرومين على ما عنده. الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا. وجوب شكر الله وحمده على نعمه وتنزيهه عما لا يليق به. من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه وشتت عليه شمله ولم يؤتهِ من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة.

* هذا مثل مضروب ولا يلزم أن يكون واقعا، والجمهور أنه أمر قد وقع. والمشهور أنهما رجلين مصطحبين أحدهما مؤمنا والآخر كافرا، وكان لكل منهما مال، فأنفق المؤمن ماله في طاعة الله ومرضاته، وأما الكافر فإنه اتخذ بستانين فيهما أعناب تحفهما أشجار النخيل وبينهما زرع وفيهما نهر سارح للسقاية والتنزه. فافتخر الكافر على صاحبه المؤمن الفقير قائلا له ماذا أغنى عنك إنفاقك ما كنت تملكه في الوجه الذي صرفته فيه؟ كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت أنا لتكون مثلي. ولما رأى اتساعهما وكثرة الماء وحسن النبات وجودة الثمار وثق بالحياة الدنيا الفانية وكذب بالآخرة الباقية، وقال لئن كان ثم آخرة ومعاد فسوف أجد هناك خيرا من هذا. فاغتر واعتقد أن الله لم يعطه كل ذلك إلا لحبه له وحظوته عنده، كما قال العاص بن وائل (لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا) (مريم: ٧٧) وقوله تعالى إخبارا عن الإنسان إذا أنعم الله عليه (لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى) (فصلت: ٥٠) وقول قارون: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).

فقال له المؤمن أجحدت المعاد والله خلقك من تراب ثم من نطفة ثم جعلك رجلا سويا ! كان الأولى بك أن تقول عند دخول جنتك مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. أما أنا فأقول خلاف قولك وأعتقد خلاف معتقدك (**وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدا، فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ**) في الدار الآخرة ويرسل عليها عذابا من السماء يحرق زرعها ويقتلع أشجارها فَتُصْبِحَ ترابا أملسا، أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فلا تقدر على استرجاعه. وجاءه أمر أحاط بثماره، (**فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**)، وندم على ما سلف منه وقال يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدا. فلم يكن هناك أحد يتدارك ما فرط من أمره، ولم يكن له قدرة على شيء من ذلك، فالحكم لله تعالى فهو خير ثوابا في الدنيا وَخَيْرٌ عاقبة في الآخرة. فلا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا، بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه نصب عينيه، وليكن ما في يد الله أوثق منه ما في يديه، ومن قدم شيئا على طاعة الله والإنفاق في سبيله عذب به. والواجب قبول نصيحة الأخ المشفق، فالندامة لا تنفع حين يقع القدر ويقضى الأمر(١).

الإعجاب: قص الله عز وجل في كتابه الكريم قصة رجلين كان لأحدهما بستانان وفيرا الثمر ولديه مال وعشيرة. أما الآخر فكان فقيراً لا مال له ولا عشيرة إلاّ أنه مؤمن صالح. ودار بينهما حوار حاول المؤمن من خلاله نصح الغني حتى لا يؤخذ بغناه فينسى المنعم المفضل، فرّد عليه متباهيًا مفتخرًا (**أنا أكثر منك مالًا وأعز**

١) البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ج ٢ - بتصرف).

نفرًا) . ولم يقف عند هذا الحد بل أسكرته النعمة لدرجة أنكر فيها قدرة الله عز وجل وظن بنفسه وماله الخلود **(ماأظن أن تبيد هذه أبدا)** وتمادى في غيه حتى أنكر الساعة والبعث **(وما أظن الساعة قائمة)** . وكشف عن مكنون نفسه إذ ظن أنه أهل لتلك النعمة ولذلك أعطيت له **(ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبا)** ونسي أن القانون الإلهي هو الابتلاء لكشف جواهر النفوس، فتارة يكون بالافتقار وتارة يكون بالغنى. وبذلك كشف عن مرضه الذي أعمى بصيرته وأفقده رؤية الحقيقة. قال المؤمن منطلقا من إخلاصه وإيمانه **(أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلًا)** . إنَّه الكبر الذي أصاب الرجل بسبب ما رآه من نعمة، والعلاج هو تذكيره بأصله كي لا يستعلي ولا يستكبر، ثم العودة إلى ساحة العبودية لربه ملمحًا له بأن يتأسى به **(لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدًا)** متحصنا به من أن تصيبه عدوى التكبر وسكر النعم، حيث يخشى على نفسه من اختيال الكافر وتفاخره عليه، وحتى لا يظن أن في نفسه غضاضة من أن يعطي الله غيره ما لم يعطه **(إن ترن أنا أقل منك مالًا وولدًا، فعسى ربي أن يؤتين خيرًا من جنتك)** ومذكرًا له بأن الذي أعطى يمكن أن يأخذ ويعاقب على التكبر والاستعلاء **(ويرسل عليها حسبانًا من السماء فتصبح صعيدًا زلقًا)** . ولكن هيهات أن ينفع النصح أو يجدي الوعظ فقد مضى الرجل في غيه، وكان ما حذره صاحبه منه

(وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهي خاوية على عروشها)

فقد أدركه الندم والأسف على ما فرط، وعاد إليه رشده (**ياليتني لم أشرك بربي أحدًا**). وهنا أدرك أنَّه بنسبة الفضل إلى نفسه قد أشرك فندم ولات ساعة مندم.

* إن النعمة التي يخولها الله للإنسان لا تدل على فضله ومكانته، كما أن الفقر لا يدل على وضاعته وذله، والمعطي هو الرزاق الكريم وفقا لسنن الحياة وقانون الابتلاء (**لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**) (الكهف: ٧). فالمال والبنون والنعم جميعًا لا تصلح لأن تكون ميزانًا للتفاضل بين الخلق، بل إن ميزان التفاضل هو التقوى.

* إن النعمة تسكر الإنسان فتعمى بصيرته، وتنسيه المنعم فيستكبر ويتباهى، ويجعل نفسه شريكًا لله عز وجل في الإنعام، بل قد يرى في نفسه استقلالاً في ذلك فيقول إنَّما أوتيته على علم عندي. * علينا أن نذكّر أنفسنا دائمًا بحقيقتها ومكانتها وأننا لا بد ميتون (**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) (القصص: ٨٨) وسنرد إلى خالقنا فنسأل عما كنا نفعل (**وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) (النحل: ٩٢)[١].

جنان القرآن

* (**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ**) (الرعد: ٤)

رسمت هذه الآية الملامح العامة لنظام زراعي متكامل خاص بالبيئة الصحراوية،

[١] الأخذ بالأسباب والاعتماد على رب الأرباب - د. محمد راتب النابلسي (بتصرف).

وبينت أنه يتكون من ثلاثة عوامل أساسية هي النخيل والزرع والأعناب، لكنها لم تبين طريقة ترابطها والعلاقة التفاعلية بينها، فجاءت الآية الكريمة **(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)** وأوضحت أن الأعناب مزروعة في الجوانب وتحيط بها أشجار النخيل وفي الوسط الزرع والأعشاب.

* كما بينت الآية الكريمة **(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا)** أن النتيجة الحتمية لهذا الترابط هو رفع مستوى الإنتاج لتوفر كل العوامل الملائمة.

* ويعد هذا النظام تركيبة زراعية فريدة لها تأثيرات إيجابية على المناخ والتربة مما يساهم في تحقيق التوازن البيئي للكائنات التي تعيش في المنطقة.

التأثير على المناخ:

- إحداث مناخ مصغر أقل حدة من المناخ العام السائد.
- تخفيف حدة الرياح، حيث يلعب النخيل دور جدار أولي لصدها.
- تخفيض حدة الجفاف، حيث يوفر جواً أكثر رطوبة.
- تخفيض درجة الحرارة والفارق الحراري بين الليل والنهار.
- تخفيض نسبة التبخر وبالتالي اقتصاد أكثر في كمية مياه الرّي.

التأثير على التربة:

– إن تعديل درجات حرارة التربة وتخفيض الفارق الحراري يؤدي إلى تحسين عمل الكائنات المجهرية داخلها، وبالتالي تحسين نسبة تحلل المواد العضوية.

– لهذا التنوع لنباتي ثلاث مستويات للامتصاص مما يؤدي إلى نوع من توازن المواد الكيميائية في التربة.

الفوائد الاقتصادية:

– إن تنوع الإنتاج يؤدي إلى الاكتفاء الذاتي الغذائي وتوفير كلفة النقل.

– إن تنوع المحاصيل يعمل على تخفيف الخسائر في حالة الكوارث الطبيعية والتقلبات المناخية والاقتصادية.

– استعمال أمثل للأرض واليد العاملة طيلة أيام السنة.

– تناسق الأنواع يعطي منظرا طبيعيا رائعا وظروف أكثر رفاهية وجمالا.

* يمكن تطبيق هذا النظام على الواقع وبلورته على شكل مزرعة نموذجية، مع الاستفادة من الوسائل التقنية الموجودة بحيث تشمل:

– الزرع: يتوسط المزرعة على شكل دائري بعدّة محاصيل مثل القمح والشعير – العلف والبرسيم – البطاطا والشمندر السكري – الذرّة والشوفان... مع الالتزام بدورة زراعية معينة لتفادي السلبيات الزراعية.

– الأشجار المثمرة: تحيط بالمساحة الدائرية، ويمكن غرس العنب والزيتون والرمان والتين... واستخدام طريقة الري بالتنقيط للاقتصاد في كمية المياه المستعملة، ويمكن إقحام الزراعات البلاستيكية وتربية الماشية.

– النخيل: ويزرع في مستطيلين محيطين بالأشجار المثمرة.

هندسة الحدائق

– وجود نبات أصلي في الحديقة، وقد مثل الله له بالعنب (جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب) .

– وجود سياج حول النبات الأصلي لحمايته، وقد مثل الله له بأشجار النخيل (وحففناهما بنخل) .

– الاستفادة من الأرض الخالية من النبات الأصلي الموجودة بين صفوف الأشجار وزراعتها بالمحاصيل الحقلية، وقد مثل الله له بالزرع (وجعلنا بينهما زرعا) .

– الري المنظم، وقد مثل الله له بتفجير نهر (وفجرنا خلالهما نهرا) . فالحديقة مقسمة هندسيا إلى حافة وهي السياج، وخطوط طولية وهي النبات الأصلي، وخطوط عرضية وهي شبكة الري، والفراغ بينهما وهو الزرع.

الزراعة الربانية :

إذا تأملنا الآيتين الكريمتين من وجهة نظرة زراعية نجد أنفسنا أمام حديقتين أو بستانين محاطتين بالنخيل، والنخيل من أقوى مصدات الرياح خصوصًا في المناطق الصحراوية. وفصل البستانين بزرع لأن الزرع يعمل كمصفاة يمنع انتقال الآفات والحشرات بينها فهو وسيلة من وسائل الوقاية. وفجر خلالهما نهراً لهدفين أولهما توفير مياه الري، وثانيهما للوقاية والحجر الزراعي. فالماء يعمل أيضا كمصفاة يمنع انتقال الآفات والأمراض ووسيلة من وسائل الحجر الزراعي بحيث قسمهما إلى أربع أجزاء... إنها زراعة ربانية !

التضحية في عالم النبات :

فيما مضى كان نظر العلماء إلى النباتات على أنها مخلوقات غير عاقلة وليس لديها شعور أو تمييز أو معرفة. ولكن الدراسات الحديثة أظهرت أن النباتات تميز بين الأشقاء والغرباء ! فعندما نزرع نوعين مختلفين من النبات في منطقة ما نجد أن كل نوع يحاول السيطرة على المنطقة بمفرده، ونجد التنافس بينهما واضحًا. ولقد لاحظ العلماء أن النبات في حالة التنافس يحاول مدّ جذوره للحصول على أكبر كمية من الغذاء الموجود في التربة. ولكن عندما تزرع نباتين متماثلين فإن كل منهما يراعي شعور الآخر! ونجد أن كل نبات يفسح المجال لأخيه ليتمكن من تناول الغذاء. وهنا نستطيع التحدث عن العدل والظلم ! فالنباتات تكون عادلة أحيانًا وظالمة تعتدي على غذاء غيرها أحيانا أخرى ﴿ **كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا** ﴾ فسبحان الذي أخبرنا عن العدل والظلم في عالم النبات قبل أن يكتشفه العلماء. فإذا كان النبات يعدل فماذا عنا نحن البشر؟

بلاغة لفظة تبيد في قصة صاحب الجنتين

﴿ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا** ﴾ السياق هو قصة الرجلين والجنتين يضربها الله تعالى مثلاً لنموذجين متقابلين من البشر تراهما دائمًا في دنيا الواقع ماثلين أمامنا كما صورهما القرآن. الأول: غنيٌ متبطر فرحٌ بجاهه مغترٌ بماله منكرٌ للبعث ظالمٌ لنفسه إذ حرمها الإيمان. والثاني: فقير متواضع مؤمن بربه معتمد عليه موقن بأن الأرزاق مقدّرة وأن الشكر على النعم سبيل دوامها

وبقائها. إن من يتأمل في الفعل (تبيد) يجد أنه واقع في أسلوب النفي (**قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا**) والنفي واقع على مجرد الظن وهذا يدل على غرورٍ متناهٍ واطمئنان زائد إلى ديمومة نعيم الدنيا، ويؤكد ذلك بلفظ (أبدا) الذي يوحي بطول الأمد. ولا يتوقف هذا الغرور عند حد الدنيا بل يمتد إلى التشكيك في البعث (**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**) والتطاول على الله عز وجل بأنه لو بُعث فسوف يجد في الآخرة جنة خيراً من جنته في الدنيا (**وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا**) وذلك لتوهمه بأنه ما دام في الدنيا صاحب منزلة فإنه في الآخرة كذلك أو أفضل. ولفظة (تبيد) في سياقه متفرد بأداء كل هذه المعاني إذ لا يغني عنه فعلٌ آخر من مثل ما أظن أن تفنى، أو تنتهي، أو تذبل أشجارها... لأن نفي الإبادة أعمّ وأشمل مما سواه حيث إنها اقتلاع من الجذور ومحو من الوجود، ولهذا السبب سميت الصحراء المهلكة بالبيداء لأن من يجتازها يعرض نفسه لخطر الإبادة.

(**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا**) لنتأمل كلمة (بَيْنَهُمَا) أي بين الجنتين ونتساءل: هل يمكن أن تأتي هذه الكلمة بين كلمات النص في المنتصف بما يتفق مع معناها اللغوي؟ إذا قمنا بعدّ كلمات النص القرآني سوف نجده يتألف من ٢٥ كلمة، وكلمة (بَيْنَهُمَا

)يأتي ترتيبها بين كلمات النص في المنتصف تمامًا! حيث نلاحظ أن قبل هذه الكلمة يوجد ١٢ كلمة وبعدها يوجد ١٢ كلمة: (**وَاضْرِبْ-لَهُمْ-مَثَلًا-رَجُلَيْنِ-جَعَلْنَا-لأَحَدِهِمَا-جَنَّتَيْنِ-مِنْ-أَعْنَابٍ-وَحَفَفْنَاهُمَا-بِنَخْلٍ-وَجَعَلْنَا-بَيْنَهُمَا-زَرْعًا-كِلْتَا-الْجَنَّتَيْنِ-آتَتْ-أُكُلَهَا-وَلَمْ-تَظْلِمْ-مِنْهُ-شَيْئًا-وَفَجَّرْنَا-خِلَالَهُمَا-نَهَرًا**). ولو تأملنا كلمات القرآن الكريم وجدنا أن كل كلمة قد رتبها الله تعالى بطريقة يعجز البشر عن الإتيان بمثلها وبما يشهد على إعجاز هذا الكتاب العظيم.

دروس وفوائد وعبر

* ليس في معرفة الرجلين وزمانهما ومكانهما فائدة، العبرة في القصة.
* المال والبنون لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله.
* على العبد أن ينسب النعمة إلى الله عز وجل ويشكره عليها فبالشكر تدوم النعم.
* أن الله ينعم على عباده ليبتليهم، هل يشكرون أم يكفرون؟
* الاطمئنان إلى الدنيا ينسي الآخرة، ومنكر البعث كافر.
* من ظن أن من أنعم الله عليه في الدنيا لابد أن ينعم عليه في الآخرة مخطئ.
* إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا من يحب.
* عجبا لمن يكفر بمن خلقه في أحسن تقويم وسخر له ما في السماوات والأرض !
* المؤمن عزيز بالله، معترف بفضله، مقر بربوبيته.
* موعظة عظيمة أن يذكر الإنسان أطوار خلقه ومبدأ أمره.

* النعمة الحقيقية هي نعمة الإيمان والإسلام ولو مع قلة المال والولد.

* تفويض الأمر إلى الله لا إلى حول الإنسان وقوته (**مَاشَاءَاللَّهُلَاقُوَّةَإِلَّابِاللَّهِ**).

* من اعترف بفضل الله عليه بارك له فيما أعطاه ومن بطر واستغنى يحبط عمله.

* ما عند الله عز وجل خير وأبقى، وما يُرجى من خيره وإحسانه أفضل من الدنيا.

* الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه.

* كان دعاء المؤمن على جنة الكافر غضبا لله عز وجل لا لنفسه.

* ما جاء من الأرض قد يدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه ويتعذر.

* جنة الدنيا هي الفرح بفضل الله والتلذذ بطاعته والاغتباط بالأعمال الصالحة.

* استجابة الله لدعاء من دعاه (**وَقَالَرَبُّكُمُادْعُونِيأَسْتَجِبْلَكُمْ**) (غافر: ٦٠).

* الندم بعد فوات الأوان لا ينفع، وما افتخر به لم يدفع عنه من العذاب شيئا.

* قد يكون صاحب الجنتين أناب إلى الله عز وجل بدليل ندمه على شركه بربه.

* إن ولاية الله وعدمها تتضح إذا حقَّ الجزاء، ووجد العاملون أجورهم.

* المؤمن التقي كان الله له وليا ويكرمه ويدافع عنه، والكافر يخسر دينه ودنياه.

* لا نُصرة يوم القيامة ولا مُلك إلا لله الحق، وكل من دونه لا يفيد شيئا.

إعراب الآيات الكريمة[1]

﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾.

(واضرب) الواو استئنافيّة، اضرب فعل أمرساكن، الفاعل مستتر أنت. (لهم) اللام حرف جرّ، هم ضمير في محلّ جرّ متعلّقان ب اضرب. (مثلا) مفعول به منصوب. (رجلين) بدل من مثلا منصوب وعلامة النصب الياء. (جعلنا) جعل فعل ماض ساكن، نا ضمير فاعل. (لأحدهما) اللام حرف جر، أحد اسم مجرور متعلّقان بمحذوف مفعول ثان، هما ضمير مضاف إليه. (جنّتين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء لأنه مثنى. (من أعناب) جارّ ومجرور متعلّقان بنعت محذوف ل جنّتين. (وحففناهما) الواو حاليّة، حففنا مثل جعلنا، هما ضمير مفعول به. (بنخل) جارّ ومجرور متعلّقان ب حففنا. (وجعلنا) الواو عاطفة، جعلنا مثل الأول. (بينهما) بين ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف مفعول به ثان، هما ضمير مضاف إليه .(زرعا) مفعول به. جملة (اضرب) لا محلّ لها استئنافيّة. جملة (جعلنا) في محلّ نصب نعت لرجلين. جملة (حففناهما) في محلّ نصب معطوف على جعلنا. جملة (جعلنا) الثانية في محلّ نصب معطوفة على جملة حففناهما.

[1] مرجع سابق، الطيب.

(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) .

(كلتا) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف للتعذر . (الجنّتين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء . (آتت) آت فعل ماض مفتوح، التاء للتأنيث، الفاعل ضمير مستتر تقديره هي . (أكلها) أكل مفعول به منصوب، ها مضاف إليه . (ولم) الواو عاطفة، لم حرف نفي وجزم وقلب . (تظلم) فعل مضارع مجزوم، الفاعل هي . (منه) من حرف جرّ، الهاء ضمير في محلّ جرّ متعلّقان ب تظلم . (شيئا) مفعول به منصوب . (وفجرنا) الواو عاطفة، فجرّنا مثل جعلنا . (خلالهما) خلال ظرف مكان منصوب متعلّق ب فجّرنا، هما ضمير مضاف إليه . (نهرا) مفعول به منصوب . جملة (كلتا الجنّتين آتت) لا محلّ لها استئناف بيانيّ . جملة (آتت) في محلّ رفع خبر المبتدأ كلتا . جملة (لم تظلم) في محلّ رفع معطوفة على جملة آتت . جملة (فجّرنا) في محلّ رفع معطوفة على جملة آتت .

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) .

(وكان) الواو استئنافيّة، كان فعل ماض ناقص مفتوح . (له) اللام حرف جرّ، الهاء ضمير في محلّ جرّ متعلّقان بخبر كان . (ثمر) اسم كان مؤخّر مرفوع . (فقال) الفاء عاطفة، قال فعل ماض مفتوح، الفاعل هو . (لصاحبه) جارّ ومجرور متعلّقان ب قال، الهاء مضاف إليه . (وهو) الواو حاليّة، هو ضمير منفصل مبتدأ . (يحاوره) يحاور فعل مضارع مرفوع، الهاء مفعول به، الفاعل هو . (أنا) ضمير منفصل مبتدأ . (أكثر) خبر مرفوع . (منك) من حرف جرّ، الكاف ضمير في

محلّ جرّ متعلّقان ب أكثر. (مالا) تمييز منصوب. (وأعزّ) الواو عاطفة، أ عز معطوف على أكثر مرفوع. (نفرا) تمييز منصوب. جملة (كان له ثمر) لا محلّ لها استئنافيّة. جملة (قال) لا محلّ لها معطوفة على المستأنفة. جملة (هو يحاوره) في محلّ نصب حال. جملة (يحاوره) في محلّ رفع خبر المبتدأ هو. جملة (أنا أكثر) في محلّ نصب مقول قال.

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَدًا).

(ودخل) الواو عاطفة، دخل ماض مفتوح، الفاعل هو. (جنّته) حنة مفعول به منصوب، الهاء مضاف إليه. (وهو) الواو حاليّة، هو ضمير منفصل مفتوح مبتدأ. (ظالم) خبر مرفوع. (لنفسه) اللام جار زائد، نفس مجرور لفظا منصوب محلاّ مفعول به لاسم الفاعل ظالم، الهاء مضاف إليه. (قال) مثل ادخل (ما) نافية (أظنّ) فعل مضارع مرفوع، الفاعل مستتر أنا. (أن) حرف مصدريّ ونصب. (تبيد) فعل مضارع منصوب بالفتحة. (هذه) ها للتنبيه، ذه اسم إشارة مكسور في محلّ رفع فاعل. (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل تبيد. والمصدر المؤوّل (أن تبيد) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي أظنّ. جملة (دخل جنّته) لا محلّ لها معطوفة على جملة كان له ثمر. جملة (هو ظالم) في محلّ نصب حال من فاعل دخل. جملة (قال) لا محلّ لها استئناف بيانيّ. جملة (ما أظنّ) في محلّ نصب مقول قال. جملة (تبيد) لا محلّ لها صلة الموصول أن.

(وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْها مُنْقَلَبًا).

(وما أظن) الواو عاطفة، ما أظنّ مثل الأولى. (الساعة) مفعول به أوّل منصوب.

(قائمة) مفعول به ثان منصوب . (ولئن) الواو عاطفة، اللام موّطئة للقسم، إن حرف شرط جازم . (رددت) ردد فعل ماض مبنيّ للمجهول ساكن في محلّ جزم فعل الشرط، التاء ضمير نائب الفاعل . (إلى ربّي) جارّ ومجرور متعلّقان ب رددت، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء، الياء مضاف إليه . (لأجدن) اللام رابطة لجواب القسم، أجد فعل مضارع مبنيّ على الفتح، النون للتوكيد، الفاعل مستتر أنا . (خيرا) مفعول به منصوب . (منها) من حرف جرّ، ها ضمير في محلّ جرّ متعلّقان ب خيرا . (منقلبا) تمييز منصوب . جملة (ما أظنّ الساعة) في محلّ نصب معطوفة على جملة ما أظن الأولى . جملة (رددت) في محلّ نصب معطوفة على جملة ما أظنّ الساعة . جملة (أجدنّ) لا محلّ لها جواب القسم، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب الشرط .

(قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلًا)

(قال) فعل ماض مفتوح .(له) جار ومجرور متعلّقان ب قال . (صاحبه) صاحب فاعل مرفوع، الهاء مضاف إليه . (وهو يحاوره) مرّ إعرابها في الآية ٢٤ . (أكفرت) الهمزة للاستفهام التوبيخيّ، كفر فعل ماض ساكن، التاء فاعل . (بالذي) الباء حرف جرّ، الذي اسم موصول ساكن في محلّ جرّ بالباء متعلّقان ب كفرت .) خلقك)خلق فعل ماض مفتوح، الكاف مفعول به، الفاعل هو . (من تراب) جارّ ومجرور متعلّقان ب خلقك . (ثمّ) حرف عطف . (من نطفة) جارّ ومجرور متعلّقان ب خلق . (ثمّ) مثل الأولى للتراخي . (سوّاك) سوا فعل ماض مفتوح

بالفتح المقدر على الألف، الكاف مفعول به، الفاعل هو. (رجلا) مفعول به ثان منصوب. جملة (قال له صاحبه) لا محلّ لها استئناف بيانيّ. جملة (هو يحاوره) في محلّ نصب حال. جملة (يحاوره) في محلّ رفع خبر المبتدأ هو. جملة (كفرت) في محلّ نصب مقول قال. جملة (خلقك) لا محلّ لها صلة الموصول الذي. جملة(سوّاك) لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

(لكِنَّاهُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا).

(لكنا) لكن حرف استدراك، أنا ضمير منفصل ساكن مبتدأ. (هو) ضمير الشأن مفتوح في محلّ رفع مبتدأ. (اللّٰه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع. (ربّي) رب خبر المبتدأ اللّٰه مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء، الياء مضاف إليه. (ولا) الواو عاطفة، لا نافية. (أشرك) فعل مضارع مرفوع، الفاعل مستتر أنا. (بربّي) جارّ ومجرور متعلّقان ب أشرك، الياء مضاف إليه. (أحدا) مفعول به منصوب. جملة (لكن أنا هو) لا محلّ لها استئناف في حيّز القول. جملة (هو اللّٰه ربّي)في محلّ رفع خبر المبتدأ أنا. جملة (اللّٰه ربّي) في محلّ رفع خبر المبتدأ هو. جملة (لا أشرك) في محلّ رفع معطوفة على جملة اللّٰه ربّي.

(وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا).

(ولولا) الواو عاطفة، لولا حرف تخضيض للتوبيخ. (إذ)ظرف للزمن الماضي ساكن في محلّ نصب متعلّق ب– قلت. (دخلت) دخل فعل ماض ساكن، التاء فاعل. (جنّتك)جنة مفعول به منصوب، الكاف مضاف إليه. (قلت) مثل

دخلت. (ما) اسم شرط جازم ساكن في محلّ نصب مفعول به مقدّم. (شاء)فعل ماض مفتوح في محلّ جزم فعل الشرط باعتبار ما شرطية. (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع. (لا) نافية للجنس (قوة) اسم لا مفتوح في محلّ نصب. (إلا) أداة حصر (باللّه) جارّ ومجرور متعلّقان ب خبر لا. (إن) حرف شرط جازم. (ترن) تر فعل مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة، النون للوقاية، الياء المحذوفة للتخفيف ضمير في محلّ نصب مفعول به. (أنا) ضمير فصل أو ضمير منفصل ساكن في محل نصب توكيد للياء المحذوفة في ترن. (أقل) مفعول به ثان منصوب. (منك) من حرف جرّ، الكاف ضمير في محلّ جرّ متعلّقان ب– أقلّ. (مالا) تمييز منصوب. (وولدا) الواو عاطفة، ولدا معطوف على مالا منصوب. جملة (دخلت) في محلّ جرّ مضاف إليه. جملة (قلت) لا محلّ لها معطوفة على المستأنفة لكنا هو. جملة (ما شاء اللّه) في محلّ نصب مقول قلت وجواب الشرط محذوف تقديره كان أو وقع. جملة (شاء الله) صلة ما. جملة (لا قوّة إلاّ باللّه) لا محلّ لها استئناف في حيّز القول. جملة (إن ترن) لا محلّ لها استئناف في حيّز القول والجواب في الآية بعدها.

(فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا) .

(فعسى) الفاء رابطة لجواب الشرط، عسى فعل ماض جامد ناقص مفتوح بالفتح المقدر على الألف. (ربّي)رب اسم عسى مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء، الياء مضاف إليه. (أن) حرف مصدريّ ونصب. (يؤتين) يؤتي فعل

مضارع منصوب. النون للوقاية، الياء ضمير في محلّ نصب مفعول به محذوفة للتخفيف. (خيرا) مفعول به ثان منصوب. (من جنّتك) جارّ ومجرور متعلّقان ب خيرا، الكاف مضاف إليه. والمصدر المؤوّل (أن تؤتين) في محلّ نصب خبر عسى. (ويرسل) الواو عاطفة، يرسل فعل مضارع معطوف على يؤتين منصوب بالفتحة، الفاعل هو. (عليها) على حرف جرّ، ها ضمير في محلّ جرّ متعلّقان ب يرسل. (حسبانا) مفعول به منصوب. (من السماء) جارّ ومجرور متعلّقان بمحذوف نعت ل حسبانا. (فتصبح) الفاء سببية، تصبح فعل مضارع ناقص منصوب بأن المضمرة، اسمه ضمير مستتر تقديره هي. (صعيدا) خبر تصبح. (زلقا) نعت ل- صعيدا منصوب. جملة (عسى ربّي) في محلّ جزم جواب الشرط إن السابقة. جملة (يؤتين) لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ أن. جملة (يرسل) لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤتين. جملة (تصبح)لا محلّ لها معطوفة على جملة يرسل.

(أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا).

(أو) عاطفة. (يصبح) مثل تصبح ومعطوف عليه. (ماؤها) ماء اسم يصبح مرفوع، ها مضاف إليه. (غورا) خبر يصبح منصوب. (فلن) الفاء عاطفة، لن حرف نفي ونصب. (تستطيع) فعل مضارع منصوب، الفاعل مستتر أنت. (له) اللام حرف جرّ والهاء ضمير في محلّ جرّ متعلّقان ب طلبا. (طلبا) مفعول به. جملة (يصبح) لا محلّ لها معطوفة على جملة تصبح. جملة (لن تستطيع) لا محلّ لها معطوفة على جملة يصبح ماؤها.

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) .

(وأحيط) الواو استئنافيّة، أحيط فعل ماض مبنيّ للمجهول مفتوح، نائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو . (بثمره) جارّ ومجرور متعلّقان ب أحيط، الهاء ضمير مضاف إليه . (فأصبح) الفاء عاطفة، أصبح فعل ماض ناقص مفتوح، اسمه ضمير مستتر تقديره هو . (يقلّب) فعل مضارع مرفوع، الفاعل هو . (كفّيه) كفي مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء، الهاء مضاف إليه . (على) حرف جرّ (ما) اسم موصول ساكن في محلّ جرّ متعلّقان ب يقلّب، أو مصدرية . (أنفق) فعل ماض مفتوح، الفاعل هو، والمصدر المؤول ما أنفق في محل جر بعلى متعلقان ب يقلب . (فيها) في حرف جرّ، ها ضمير في محلّ جرّ متعلّقان ب أنفق . (وهي) الواو حاليّة، هي ضمير منفصل مفتوح في محلّ رفع مبتدأ . (خاوية) خبر مرفوع . (على عروشها)جارّ ومجرور متعلّقان ب خاوية، ها مضاف إليه . (ويقول) الواو عاطفة، يقول مثل يقلّب . (يا ليتني) يا للتنبيه، ليت حرف تمنّ ونصب، النون للوقاية، الياء ضمير اسم ليت في محلّ نصب . (لم) حرف نفي وجزم وقلب . (أشرك)فعل مضارع مجزوم، الفاعل مستتر أنا . (بربّي) جارّ ومجرور متعلّقان ب– أشرك، الياء مضاف إليه . (أحدا) مفعول به منصوب . جملة (أحيط) لا محلّ لها استئنافيّة . جملة (أصبح) لا محلّ لها معطوفة على المستأنفة . جملة (يقلّب) في محلّ نصب خبر أصبح . جملة (أنفق) لا محلّ لها صلة الموصول ما جملة (هي خاوية) في محلّ نصب حال . جملة (يقول) في

محلّ نصب معطوفة على جملة يقلّب. جملة (ليتني لم أشرك) في محلّ نصب مقول يقول. جملة (لم أشرك) في محلّ رفع خبر ليت.

(وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا).

(ولم) الواو استئنافيّة، لم حرف نفي وجزم وقلب. (تكن) فعل مضارع ناقص مجزوم. (له) اللام حرف جرّ، الهاء ضمير في محلّ جرّ متعلّقان ب خبر تكن مقدّم. (فئة) اسم تكن مؤخر مرفوع. (ينصرونه) ينصرون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، الواو فاعل، الهاء ضمير مفعول به. (من دون) جار ومجرور متعلقان بمحذوف نعت لفئة. (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه. (وما كان) الواو عاطفة، ما نافية، كان فعل ماض ناقص، اسمه ضمير مستتر تقديره هو (منتصرا) خبر كان منصوب. جملة (لم تكن له فئة) لا محلّ لها استئنافيّة. جملة (ينصرونه) في محلّ رفع نعت ل فئة. جملة (ما كان منتصرا) لا محلّ لها معطوفة على المستأنفة.

(هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا).

(هنالك) هنا اسم إشارة ساكن في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بخبر مقدّم، اللام للبعد، الكاف للخطاب. (الولاية) مبتدأ مؤخّر مرفوع. (للّه) لفظ الجلالة جارّ ومجرور متعلّقان ب- حال من الولاية. (الحقّ) نعت للفظ الجلالة مجرور. (هو) ضمير منفصل مفتوح في محلّ رفع مبتدأ. (خير) خبر مرفوع. (ثوابا) تمييز منصوب. (وخير) الواو عاطفة، خير معطوف على الأول مرفوع. (عقبا)

تمييز منصوب. جملة (هنالك الولاية) لا محلّ لها استئنافيّة. جملة (هو خير) لا محلّ لها تعليليّة.

فإن خير ما نذرت له الأعمار، وجالت فيه الأبصار، ورنت إليه الأنظار والأفكار، هذا الكتاب الحكيم[1].

[1]) إعراب الآيات: من كتاب إعراب القرآن الكريم الميسر: أ. د. محمد الطيب الابراهيم، دار النفائس - الطبعة الثالثة ١٤٢٧ هـ-/٢٠٠٦ م.

القصة الثالثة

نبي الله موسى عليه السلام والعبد الصالح

قِصَّةُ التصميمِ والصَّبْرِ والتَّواضُعِ والأسْرارِ والعَجائِب والمُعجِزاتِ في طَلَبِ العِلْمِ والتعليمِ

مِمّا لا شكَّ أنَّ البحثَ في كتابِ اللهِ سُبْحانَه وتعالى لِفَهْمِ مَعانيه، ومَعرِفةِ مَقاصِدِه هو عملٌ صَعْبٌ وشاقٌّ، ويتطلَّبُ المزيدَ من العِلم والورعِ والتقوى فَضْلاً عن الخُشوعِ والخَشية مِن اللهِ. والقُرآنُ الكريمُ مليءٌ ب(الأسرارِ والحِكَمِ) التي تحارُ فيها العُقولُ، ومِن البديهيِّ أنْ نقولَ: أنَّه ما مِن كتابٍ عَرَفَتْهُ البشريةُ استأثرَ باهتمامِ المُستنبِطينَ والمُتعبِّدينَ أكثرَ مِن القُرآنِ الكريمِ.

وبَعْدُ:

فهذهِ هي القِصَّةُ الثالثةُ مِن قَصَصِ سُورةِ الكهفِ، قِصَّةُ لقاءٍ بينَ حَبْرَينِ من أحبارِ العِلم والمَعرِفةِ، حَبْرُ عِلْمِ الشَّريعةِ وحَبْرُ عِلْمِ الحقيقةِ. وهِيَ لونٌ مِن ألوانِ التوجيهِ الهادفِ والتأثيرِ الجاذبِ؛ لِكَونِها قِصَّةً واقعيَّةً، وليستْ من أساطيرِ الأوَّلينَ؛ لأنَّ الذي رَواها هو العليمُ الخَبيرُ، والغَرضُ مِنها هو استقرارُها في الذِّهنِ وثُبوتُ ما تصبُو إليهِ في النفْسِ، لا مَعرفةَ (زمانِها، ومكانِها، وأشخاصِها)، كيف لا وقَد ذُكِرَتْ في سُورةِ الكهفِ... كهفِ المُغيَّباتِ والإسْرارِ؛ فجاءتْ على مِنوالِ قَصَصِ السُّورةِ وعلى مَنهجِها مُتميِّزةً ب (الواقعيةِ التاريخيةِ، والجاذبيَّةِ في العَرْضِ، والشموليَّةِ في الموضوعِ، والسُّموِّ في الهدفِ، والتنوُّعِ في المَقصدِ والغَرَضِ). إضافةً

إلى مدلولِها اللغويِّ والسِّمَاتُ التي تميَّزتْ بها عامَّةُ القَصَصِ القُرآنيةِ مِن (جَلالةٍ، وقداسةٍ، وبلاغةٍ، وإعجازٍ، وتأثيرٍ)، وبهذه الخَصائِص استحقَّتْ أن تُوسَمَ بأحْسنِ القَصَصِ كما قال تعالى : (**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أحْسَنَ القَصَصِ**) .

ونَحْنُ أمامَ قِصَّةٍ من روائعِ القَصَص القرآنيةِ؛ فالحِوارُ الذي جَرَى بين مُوسَى والعَبدِ الصالِح عليهِما السلامُ (قوامُه الإخبارُ)، واستعمالُ همَزاتِ الاستِنكارِ، والإيجازُ والاقتصارُ، واستعمالُ "أمّا" التفصيليَّة لشرحِ غوامِض القِصَّةِ التي تنتظِرُ مَن يَستخْرِجُ دُرَرَها، ويُقدِّمُها إلى مَن يَجِدُ في فنِّ القصَّة مِن المُتعةِ ما لا يَجِدُ في غَيرِه مِن الفُنونِ.

ولقَد حقَّقتْ هذه القِصَّةُ غاياتٍ ساميةً في إطارِ ما صوّرتْه مِن مواقِفَ، وتضمَّنَتْه من معانٍ؛ فكانت مَثلاً أعلى في عَرْضِ حقائِقَ تاريخيَّةٍ، وتصويرِ معالِمَ بشريَّةٍ، وتأمُّلاتٍ في المواقفِ مِن (خيرٍ وشَرٍّ، وصَلاحٍ وفَسادٍ)؛ فكان لهذا الفنِّ القَصصيِّ فَضْلُ الكشفِ عمَّا طَمسَتْهُ الأيَّامُ والسُّنونُ، ومَحاهُ النِّسيانُ والتقادُمُ مُستنِداً على أسلوبِ قصِّ الأثرِ وتتَّبُعِهُ والنظرِ فيه (**قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا**) .

وامتازتْ هذه القصَّةُ بالبدايةِ المُشوِّقة (**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**)، وهذا ينقلُنا إلى الحديثِ عن المُفاجآتِ التي تميَّزَتْ بتنوُّعِ الأساليبِ، فكتمتِ الآياتُ سِرَّها حتَّى تكشَّفَتْ في نهايةِ القِصَّةِ بألفاظٍ قليلةٍ ذاتَ مَعانٍ جَزْلَةٍ ودَلالاتٍ كثيرةٍ.

وجاء فيها أيضًا ما عبَّرَتْ عنه القِصَّةُ بالفعلِ المُضارعِ المَسبوقِ بالسِّينِ (**قالَ سَتجِدُني إنْ شاءَ اللهُ صابِرًا ولا أعصِي لكَ أمْرًا**)؛ فكأنَّنا في انتظارِ ما سيحدُثُ، هل سيصْبِرُ مُوسى؟ أمْ أنَّه لن يَصبِر؟ إذْ يُعطي هذا الفِعلُ فُسحةً للانتِظارِ في خِضَمِّ الأحداثِ المُتصارِعةِ مع العبدِ الصالِحِ الذي وَهَبَهُ اللهُ مِنَ العِلمِ اللدنِّيِّ مُقابلَ مُوسَى الذي أعطاه اللهُ مِنَ العِلْمِ البَشريِّ.

ولقد تضمَّنَتِ الآياتُ تَكرارًا لِمعنىً واحدٍ في قولِ العبدِ الصالحِ: (**إنَّكَ لَنْ تستطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)؛ وذلك حينَ وضعَ "الصَّبْرَ" شرطًا للصُّحبَةِ والتذكيرِ بهِ بَعدَ كُلِّ فِعْلٍ يقومُ بهِ (إنَّكَ لَنْ تستطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا – ما لمْ تَسْتَطِعْ عَلَيهِ صَبْرًا – ما لمْ تَسْطِعْ عَلَيهِ صَبْرًا). ومِن أمثِلَةِ ذلكَ أيضًا التَّكْرارُ في ألفاظِ العِلْمِ (عَلَّمْناهُ – عِلْمًا – تُعَلِّمنُي – عُلِّمْتَ).

آياتُ القِصَّةِ:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا. فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا. فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا. قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا. قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا. فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. قَالَ

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا. قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا. قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا. قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا. أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) (الكهف: ٦٠ – ٨٢)

البَلاغةُ

تضمَّنَتِ الآياتُ الكريمةُ مِن وُجوهِ البيانِ والبديعِ ما يلي:

١ – الطِّباق: بين نَسيتُ... واذْكُرْ.

٢ – اللَّفُّ والنَّشْرُ المُرتَّبُ: (أمَّا السَّفينةُ – وأمّا الغُلامُ – وأمَّا الجِدارُ)؛ فقَد جاءَ بها مَرتبةً بعدَ ذِكْرِ (رُكوبِ السفينةِ، وقتْلِ الغُلامِ، وبِناءِ الجِدارِ) وهُو مِن المحُسِّناتِ البديعيَّةِ.

٢ – الحَذْفُ بالإيجازِ: كُلُّ سفينةٍ أيّ: صالحةٍ حُذِفَ لِدلالةِ لفْظِ أعيبُها، وكذلك حَذْفُ لفظِ "كافِرٍ" مِن وأمَّا الغُلامُ لِدلالةِ قولِه تعالى: (فكانَ أبَواهُ مُؤمِنينَ).

٤ – التغليبُ: أبواهُ، المُرادُ باللفظِ (أبوهُ وأُمُّه).

٥ – الاستِعارةُ: (يُريدُ أن يَنقضَّ)؛ لأنَّ الإرادةَ من صِفاتِ العُقلاءِ، وإسنادُها إلى الجِدارِ من لطيفِ الاستعارةِ، وبليغِ المجَازِ.

٦ – التنكيرُ للتفخيمِ والإضافةُ للتشريفِ: (عَبْداً مِن عِبادِنا).

٧ – السَّجْعُ مُراعاةً لِرُؤوسِ الآياتِ مِثل: (نَصَبًا، سَرَبًا، عَجَبًا).

٨ – تعليمُ الأدَبِ: (فأرَدْتُ أنْ أعِيبَها). وهناكَ قال: (فأرادَ رَبُّكَ)؛ حيث أسندَ ما ظاهِرُه شَرٌّ لِنَفْسِه، وأسندَ الخيرَ إلى اللهِ تعالى؛ وذلك لتعليمِ العبادِ الأدبَ مع اللهِ جلَّ وعَلا[١].

[١] صفوة التفاسير: (ص ٢٠١ - ٢٠٢).

تراجمُ الأعلامِ

مُوسَى عليهِ السَّلامُ:

هو نبيُّ اللهِ مُوسَى بنُ عِمرانَ "عِمرام بالعِبْرية" بن يصهر بن قاهِت "قاهات بالعِبْريّة " بن لاوي بن يَعقوب بن إسحاقِ بن إبْراهيم عليهِم السلامُ، وأصلُ الاسمِ في لُغةِ القِبْطِ مُركَّبٌ من شِقَّينِ "مُو" بمعنى الماءِ و" شَا " بمَعنى الشجَر، وسُمِّيَ بذلكَ؛ لأنَّ التابوتَ الذي كان فيه مُوسَى وُجِدَ بينَ الماءِ والشجرِ على نهرِ النيلِ. وباللغةِ العربيةِ يعني "مُنْقِذَ مِصْرَ"، وباللغةِ الإنجليزيةِ Moses.

وقال أهلُ العِلْمِ بأخبارِ الأوَّلِينَ: أنَّ عِمرانَ بنَ يَصهر تزوَّجَ نخيبَ بنتَ إشموئيلَ بنِ بركيا بن يقشان بن إبراهيمَ؛ فَوَلَدَتْ لهُ (هارونَ ومُوسَى) عليهِما السلامُ وشقيقةً اسمُها (مريمُ) كانت فوقَ سِنِّ الإدراكِ حينما وُلِدَ مُوسَى.

واختُلِفَ في اسمِ أمِّ مُوسَى فقيل "نخيب"، وقيلَ "أفاحية"، وقيلَ "ناجية"، وقيلَ "أيارخا"، وقيلَ "يوخابد" أو "يوكابد" بنت لاوي عمَّةِ عِمران وهو المَشهور " ولم يكن الزواجُ بالعَمَّةِ حينئذٍ مُحرَّمًا، ثمَّ نَزَلَ تحريمُ ذلك على مُوسَى". وعاشَ عِمرانُ مائةً وسَبْعًا وثلاثِينَ سنةً، وعِندما وُلِدَ لهُ مُوسَى كان لهُ مِن العُمُرِ سبْعُونَ سنةً[1].

وقيلَ: إنَّ مُوسَى وُلِدَ بعدَ ٦٤ سَنةٍ من وَفاةِ يُوسُفَ عليهِ السلامُ؛ أيّ: بعدَ ٤٢٥ سَنة من ميلادِ إبراهيمَ الخَليلِ وبَعدَ ٢٥٠ سَنة مِن وَفاتِه.

وَرَدَ اسمُ مُوسَى عليهِ السلامُ في القرآنِ الكريمِ ١٢٦ مرَّةً، ولعلَّ قِصَّتَهُ مع بَني إسرائيلَ هيَ أكثرُ قَصَصِ القُرآنِ الكريمِ تكراراً؛ لِما فيها من (الأحداثِ، والمُعانَدةِ،

---

١) عرائِس الثعلبي (ص ١٠٥)/ كامل التواريخ: (ج١/ص٨٥).

والجَدَلِ) التي أبْداها بنُو إسرائيلَ لِموسَى؛ فكانتْ تنبيهًا لِمُشركي مكَّةَ واليهودِ وتذكيرِهم بِفِعْلِ مَن سبَقَهُم، وأنَّ فِعلَهُم هو امتدادٌ تاريخيٌّ لأسْلافِهِم الذينَ هَلَكُوا بِظُلْمِهِم أنفُسَهُم.

ويأتي ترتيبُ بعثةِ مُوسَى عليهِ السلامُ بين الرُّسلِ الذينَ قصَّهُمُ القُرآنُ الكريمُ عَلَينا الثاني عشر بعدَ "شُعَيبٍ" وقبْلَ "داوودَ" عليهما السلامُ.

وقد جاءتْ قِصَّةُ مُوسَى عليهِ السلامُ مِنذُ ولادتِه إلى غَرَقِ فِرْعَون ومَلَئِه كاملةً في سُورةِ القَصَصِ مِن قولِه تعالى (**نَتْلُو عَلَيكَ مِن نَبأِ مُوسَى وفِرْعَونَ بِالحَقِّ... وأتْبَعْناهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنيا لَعْنَةً ويَومَ القِيامَةِ هُمْ مِنَ المَقْبُوحِينَ**) (القَصَص: ٢ – ٤٢). وجاءتْ تفاصيلُ جوانبها مِن سِيرَتِه عليهِ السلامُ في سُوَرٍ أُخْرى، قِصَّةِ البقرة (البقرة: ٦٧)، قِصَّة أصحابِ السبت (الأعراف: ١٦٢)، قِصَّة بلعاءِ بنِ باعوراء (الأعراف: ١٧٦)، قِصَّةِ قارُون (القصص: ٧٧)، قِصَّة مُوسَى والخَضِر (الكهف: ٦٠).[1]

ووَرَدَ في كتابِ النبوَّةِ والأنبياءِ: هو نبيُّ اللهِ مُوسَى بنُ عِمرانَ بنِ يصهر بن قاهث، وينتهي نَسَبُهُ إلى يَعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ عليهِم أفضلُ الصلاةِ والسلامِ.

وُلِدَ في عَهْدِ فِرعَونَ الوليدِ بن مُصعَب – الذي اشتهَر بـ(الطُّغيانِ والجَبَروت، ونازعَ اللهَ في مُلْكِه، وادَّعَى الرُّبوبيَّةَ) – في السَّنَةِ التي كان يذبحُ فيها ذكورَ بَني إسرائيلَ، بينما وُلِدَ أخاهُ هَرونَ في السَّنَةِ التي لا يُذْبَحُ فيها أحدٌ؛ وذلكَ لِرُؤيا رآها فِرعَونُ في منامِه أفزَعَتْهُ فاهتمَّ بِها واغتمَّ؛ إذْ رأى كأنَّ ناراً قد أقبلَتْ مِن بيتِ

[1]) الموسُوعة الإسلامية الميسَّرة: (ج١٠/ص ٢١٠٦ - ٢١٠٩).

المقْدسِ حتّى وصلتْ إلى بلادِ مِصْرَ، فأحاطتْ بِدُورِها وبُيوتِها؛ فأحْرَقَتْها وأحرَقَتِ القِبْطَ، وتَرَكَتْ بني إسرائيلَ دُونَ أذىً.

وقد وَلَدَتْهُ أمُّهُ خُفْيَةً وأرْضَعَتْهُ ثلاثةَ أشهُرٍ، ثمَّ لَمَّا خافَتِ افتِضاحَ أمْرِها وَضَعَتْهُ في صُنْدُوقٍ، وألْقتْهُ في النيلِ، وأمرَتْ أخْتَهُ أن تتَّبِعَ أثرَهُ. كُلُّ ذلكَ كان ب (إلهامٍ مِن اللهِ وإرشادٍ)؛ فحَملَتْه إحدى الجَواري، وقيلَ حملتْه ابنةُ فِرعَون، إلى "آسيا" زَوجة فرعون، فألقى اللهُ تعالى مَحبَّتَه في قلبِها، وطلبَتْ مِن فِرعونَ أن يُبْقِيه على قَيْدِ الحياةِ؛ لِيكُونَ قُرَّةَ عَينٍ لها ولهُ وقالتْ لهُ: (**عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ**). وأسْمَوهُ "مُوسَى" أيّ: (المُنْتَشَل مِن الماءِ).

وقيلَ: أنَّ أصلَ ذلك الاسمِ في اللغةِ المِصريةِ القديمةِ "مُوريس" أخذاً مِن "مُو" بمعنى (ماء)، و" أوريس" بمَعنى (مُنْتَشَل).

وحَرَّمَ اللهُ تعالى عليهِ المَراضِعَ، ثمَّ رَدَّهُ إلى أُمِّه لِتُرْضِعَهُ وهِيَ آمِنَةٌ مُطمئنَّةٌ تحتَ كَنَفِ فِرعَونَ ورِعايتِه. وقَد شبَّ مُوسَى عليه السلامُ في قصرِ فِرْعَونَ، وعاشَ عِيشةَ أبناءِ المُلوكِ؛ حتَّى دَعاهُ الناسُ (مُوسَى بنَ فِرعَون)؛ لكنَّه ظلَّ على صِلَةٍ بِمُرْضِعَتِه – أُمِّه – التي عَرَفَ مِنها قِصَّةَ وِلادَتِه ونَشأتِه وأنَّهُ إسرائيليٌّ مِن الشَّعْبِ المُضطَهَدِ المُسَخَّرِ. حتَّى إذا بلغَ أشُدَّهُ قَتلَ قِبْطيًّا كان يتشاجَرُ مع إسرائيليٍّ؛ فَحزِنَ مُوسَى ونَدِمَ على ما حَدَثَ، وأصبحَ خائِفًا يترقَّبُ الإخبارَ؛ لكنَّ أمرَهُ انكشَفَ عندَما حاولَ قتْلَ قِبطيٍّ آخرَ استغاثهُ الإسرائيليُّ ذاتهُ عليه؛ فَخرَجَ مُوسَى مِن مِصرَ مُتوجِّهًا نحوَ "مَدْيَنَ" عملاً بِنصيحةِ رَجُلٍ مِن آلِ فِرعَونَ يُدعَى "حزقيل".

قال ابنُ عبَّاسٍ: خرجَ مُوسَى مِن مِصْرَ إلى "مَدْيَنَ" وبينَهُما مَسيرةُ ثماني لَيالٍ، لمْ يأكُلْ إلاّ البَقْلَ وَوَرقَ الشجَرِ، وكان حافيًا فسَقَطَتْ نَعلا قَدَمَيهِ مِن الحَفاءِ، وجلسَ في الظِّلِّ وهُو صَفْوةُ اللهِ مِن خَلْقِه؛ وإنَّ بَطْنَهُ لاصِقٌ بِظَهْرِهِ من الجُوعِ، وإنَّ خُضْرَةَ البَقْلِ تلمعُ مِن داخلِ جَوفِه، وإنَّه لمُحتاجٌ إلى شِقِّ تَمْرَةٍ. وبينَما هو كذلِكَ سقَى لامْرَأتَينِ أغنامَهُما، وجَلَسَ يدعُو رَبَّهُ، فجاءتْه إحداهُما تمشِي على استحياءٍ فقالتْ له إنّ أبي – نبيَّ اللهِ شُعَيبًا – يَدْعُوكَ لِيَجْزِيكَ أجْرَ ما سَقَيْتَ لنا، فَلمّا جاءَهُ وقَصَّ عليه قِصَّتَهُ قالَ لهُ: (**لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَومِ الظَّالِمينَ**).

ثمَّ زَوَّجَهُ إحدَى ابنتَيهِ على رِعايةِ الغَنَمِ وتُدْعَى "صفورا"، وأنجبَ منها وَلَدَينِ؛ هُما "جرشون" ومعناهُ: غريبُ المَولدِ، و"عازر". فلمَّا أتمَّ السنواتِ العَشْرَ خَرَجَ إلى مِصرَ مع أهلِه. وفي ليلةٍ مُظلِمةٍ باردةٍ أنسَ مِن جانبِ الطُّورِ نارًا، فلمَّا اقتربَ رأى نُورًا عظيمًا مُمتدًّا مِن عَنانِ السماءِ إلى شَجرةٍ هناك فارتعَدتْ فرائِصُه، وسَمِعَ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ يأمرُه بأن يَخْلَعَ نعلَيه أنَّه بالوادي المُقَدَّسِ طُوَى. فأوحى إليه ثم أرسلَهُ إلى فِرعَونَ لِيبلِّغَهُ رِسالتَهُ، وأعطاهُ مُعجزةَ العَصا واليدِ؛ لتدلَّ على صِدقِ نبوَّتِه وَشَدِّ عَضُدِه بأخيهِ. ورَجعَ مُوسَى بأهلِه إلى مِصرَ، ثمَّ انطلَقا إلى فِرعَونَ وبلَّغاهُ رِسالةَ ربِّهِ فاستهْزأ بهِما بعدَ أن تحقَّقَ مِن أنَّهُ هو مُوسَى الذي تربَّى في بيتِه. وأخذَ يتهَدَّدُه ويتوَّعُدُه بالسَّجْنِ والتعذيبِ. فقالَ له مُوسَى أوَلَوْ جِئْتُكَ بِبُرهانٍ؟ فألقَى عَصاهُ فإذا هيَ ثُعبانٌ مُبينٌ، وأدْخلَ يدَه إلى صَدْرِه ثُمَّ أخرَجَها فإذا بها بيضاءُ مُضيئةٌ. ففَزِعَ فِرعُونَ وجُمِعَ السَّحَرَةُ يومَ الزِّينَةِ "عيدِ شمِّ النَّسيمِ"؛ لِيُبْطِلُوا بِسحْرِهِمْ ما جاءَ به مُوسَى عليهِ السلامُ؛ لكنَّهُم ما لبِثُوا إلاّ أنْ سَجدَوا للهِ عزَّ وجلَّ وأقرُّوا لهُ بالوحْدانيّةِ

ولِمُوسَى بالرِّسالةِ. ولَّما تمادَى فِرعونُ الطاغيةُ وقومُه الذينَ – استخفَّ بهِ فرعونُ – في كُفْرِهِم وضَلالهِم ابْتلاهُم ب(القحْطِ ونقْصِ الثمراتِ والطُّوفانِ والجَراد، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمِ) فلمْ يُؤمِنُوا، فأوحَى اللّهُ إلى مُوسَى أنْ يُخْرِجَ بني إسرائيلَ مِن مِصرَ ليلاً، فلحِقهُمْ فِرعَونُ بِجُنودِه حتَّى إذا ما أدركَهُم أوحَى اللّهُ إلى مُوسَى أنْ يَضْرِبَ البحرَ بِعصاهُ، فانفلقَ فكان كلُّ فِرْقَ كالطَّودِ العظيمِ، وسار مُوسَى ومَن مَعهُ على أرضِ البحرِ بعد أن صار يابسًا، ولَّما خَرَجَ أخَّرَهُم أرادَ مُوسَى أن يَضْربَ بِعَصاهُ البحرِ لِيرْجِعَ كما كان حتَّى لا يَسْلكُه فِرعُونَ وجُنودُه، فأوحَى اللّهُ إليه أن يَتْرُكَهُ على حالِه. خافَ فِرعُونَ مَن أنْ يَسلُكَ البحرَ؛ لكنَّه أظهرَ الشجاعةَ أمامَ جُنودِه فاقتَحَمُوهُ مُسْرِعينَ، فأوحَى اللّهُ عزَّ وجلَّ إلى مُوسَى أنْ يَضْرِبَ البحرَ بِعصاهُ، فارتطمَ عليهِم فلمْ ينجُ مِنهُم أحدٌ. أمَّا فِرعُونَ لَّما أصبحَ على وشكِ الغرقَ أعلنَ إيمانَه فلمْ يَنفَعُه ذلكَ وهَلَكَ مع الهالِكينَ.

توجَّهُ موسَى ببَني إسرائيلَ إلى بيتِ المقْدِس، وفي الطريقِ اسْتسْقاهُ قومُه، فأمَرهُ اللّهُ أن يَضْرِبَ بِعصاهُ الحجَرَ فانْفَجَرتْ مِنهُ اثنَتا عَشْرَةَ عَينًا لِكُلِّ سِبْطٍ عَينٌ يَشْرَبُ منها، وأرسلَ اللّهُ لهُم المَنَّ والسَّلْوى. ثُمَّ أمرَه أنْ يدخُلَ بهِمُ الأرضَ المُقَّدسَة، فقالوا: "إنّ فِيها قومًا جَبّارِينَ"، فأمَرَهُم مُوسَى بِقتالِهم وإجلائهُم فأبَوا "وقالُوا اذْهَبْ أنتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إنّا ها هُنا قاعِدُونَ". فضيَّعَهُم الله في الصحراءِ أربعينَ سنةً عُقوبةً لهم. وكان لِمُوسَى قَصَصٌ ومَواقِفُ مَشهُودةٌ مع بني إسرائيلَ.

تُوفِّي مُوسَى بعدَ أخيهِ هارونَ عليهِما السَّلامُ في أرضِ التيهِ، ولم يَدخُلِ الأرضِ المُقدَّسةَ، وكان عُمُرُهُ حين وفاتِه ١٢٠ سَنةً[١].

وقد روى الإمامُ البُخاريُّ في قِصَّةِ وَفاتِه حديثَ مَلَكِ الموتِ الذي جاءهُ لِيقبِضَ رُوحَه، وفيه يقولُ الرَّسولُ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "لو كُنْتُ ثَمَّ لأرَيتُكُمْ قَبْرَهُ إلى جانبِ الطريقِ عِندَ الكَثِيبِ الأحمرِ قَدْرَ رَمْيةٍ بِحَجَرٍ"[٢].

ويُروَى أنَّ "يُوشُعَ بنَ نُونٍ" رآه بعدَ مَوتِه في مَنامِه فقالَ لهُ: "كيف وَجدْتَ الموتَ يا نبيَّ اللهِ"؟ قال: "كشاةٍ تُسْلَخُ وهيَ في الحياةِ".

و قَد ذَكَرَ مَوقِعُ "مُلتقى أهلِ التفسيرِ" أنَّ عددَ المرَّاتِ التي ذُكِرَ فيها اسمُ مُوسَى عليهِ السلامُ في القرآنِ الكريمِ ١٢٦ مَرَّةً، وأنَّ عددَ المرَّاتِ التي ذُكِرَتْ فيها التوراةُ ١٨ مَرَّةً، وأنَّ عددَ المرَّاتِ التي ذُكِرَتْ فيها قِصَّةُ مُوسَى عليهِ السلامُ ١٠ مرَّاتٍ وهي (الأعراف: ١٠٢ – ١٥٧) (يُونُس: ٧٥ – ٩٢) (هود: ٩٦ – ١٠١) (طه: ٩ – ٩٩) (المؤمنون: ٤٥ – ٤٩) (الشعراء: ١٠ – ٦٨) (النمل: ٧ – ١٤) (القَصَص: ٢ – ٤٤) (غافر: ٢٢ – ٥٤) (الزُّخرف: ٤٦ – ٥٦).

وذَكَرَ المَسعُوديُّ: فكانَ مُوسَى بنُ عِمرانَ بنِ قاهِث بنِ لاوي بنِ يَعقُوب بمِصْرَ في زمنِ الوليدِ بنِ مُصعَبِ بن مُعاويةَ؛ وهُوَ الرابعُ مِن فراعِنَة مِصْرَ، وقَد (طالَ عُمُرُهُ، وعَظُمَ جِسْمُهُ)، وكان بنُو إسرائيلَ قد استُرِقُّوا بعدَ مُضي يُوسُفَ عليهِ السلامُ واشتدَّ عليهِمُ البلاءُ، وأخبرَ أهلُ الكهانةِ والنُّجومِ والسِّحْرِ فِرعونَ أنَّ مَولُوداً سيُولَدُ ويُزِيلُ مُلْكَهُ، ويُحدِثُ ببلادِ مِصرَ أُموراً عظيمةً؛ فجَزِعَ لذلكَ فِرعَونُ، وأمرَ بِذبْحِ

[١] النبوة والأنبياء: (ص ٢٢٦ - ٢٤٩) (بِتَصرُّفٍ).
[٢] صحيح البخاري: كتاب الجنائز(١٢٥٢).

الأطفالِ، وكان من أمرِ مُوسَى ما أوحَى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى أُمِّهِ أنْ اقْذِفِيهِ في اليَمِّ) إلى آخَرِ ما قصَّ من خَبَرِه على لِسانِ نبيِّهِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ.(١)

وذَكَرَ أهلُ التوراةِ والكُتبِ الأُولى أنّ مُوسَى بنَ ميشاهِ بنِ يُوسُف بنِ يعقوب كان نبيًّا قبلَ مُوسَى بنِ عِمْرانَ، وأنَّه هُو الذي طَلَبَ الخَضر بنَ ملكانِ بنِ فالغِ بنِ ارفخشد بنِ سامِ بنِ نُوحٍ(٢).

حجُّ مُوسَى عليهِ السلامُ وصِفَتُه

عن عبْدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) مَرَّ بوادي الأزرقِ فقال: "أيُّ وادٍ هذا"؟ فقالُوا: "هذا وادي الأزرق". قال: "كأنِّي انظُرُ إلى مُوسَى عليهِ السلامُ هابِطًا من الثنيةِ؛ ولهُ جُؤارٌ إلى اللهِ بالتلْبِيةِ"(٣).

وعَنْهُ – أيضًا – أنّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: "وأمَّا مُوسَى؛ فَرجلٌ آدمُ جَعْدٌ على جَمَلٍ أحمَرَ مَخْطُومٌ بِخلبةٍ؛ كأنِّي أنظُرُ إليهِ إذْ انْحَدَرَ في الوادي يُلبِّي"(٤).

وعن عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضِيَ اللهُ عنهُما أنَّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم قال: "رأيتُ عِيسَى ومُوسَى وإبراهِيمَ؛ فأمّا عِيسَى فأحمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ، وأمَّا مُوسَى فآدمُ جَسِيمٌ سَبْطٌ؛ كأنَّهُ مِنْ رِجالِ الزُّطِّ"(٥).

---

١ مروج الذهب: (ص ٦١).
٢ مروج الذهب: (ص٦٠).
٣ صحيحُ مُسْلِمٍ: كتاب الإيمان (٢٤١).
٤ صحيحُ البُخارِيّ: كتاب اللباس (٥٤٥٨).
٥ صحيحُ البُخارِيِّ: كتاب أحاديث الأنبياء (٢١٨٢).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللّٰهُ عنهُ عن رَسُولِ اللهِ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ ليلةَ أُسْرِيَ بهِ قال: "لَقِيتُ مُوسَى فَنَعَتَّهَ؛ فإذا هُوَ رَجِلُ الرأسِ؛ كأنَّهُ مِنْ رِجالِ شَنوءةَ"[1].

شنوءة/؟: قبيلةٌ كانت تسكُنُ في أقصَى جنوبِ الجزيرةِ العربيةِ، ومِن صِفاتِهم أنَّهُم غِلاظٌ شِدادٌ فِيهِم طولُ قامةٍ. رَجِلٌ: بِفتْحِ الرَّاءِ وكَسْرِ الجِيم؛ أيّ: دَهِينُ الشَّعَرِ مُسْتَرْسِلَهُ. قال ابنُ السكِّيت: شَعَرٌ رَجِلٌ؛ أيّ: غيرُ جَعدٍ. سَبْطَ: شَعَرٌ سَبْطٌ وسبط؛ أيّ: مُسْتَرْسِلٌ غَيرُ جَعدٍ. وسَبْطُ الجِسْمِ اذا كان حَسَنَ القَدِّ والاسْتِواءِ. الآدمَ مِن الناسِ: أيّ الأسْمَرُ. الجُؤارُ: مِثلُ الخُوارِ، وجأرَ الرَّجُلُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أيّ: تَضرَّعَ بالدُّعاءِ. الخَطْمُ مِن كُلِّ دابَّةٍ: مُقَدَّمُ أنْفِهِ وفَمِهِ. الخطامُ: الزّمامُ، وخَطَمْتُ البعيرَ؛ أيّ: زَمَمْتُهُ. الخلبُ: الليفُ، والليفةُ: خُلبَةٌ وخلبةٌ.

وعن هِشامِ بنِ العاصِ الأمويِّ قال: بَعَثْتُ أنا ورَجُلٌ آخَرُ إلى هِرقْلَ صاحِبِ الرُّومِ نَدْعُوهِ إلى الإسلامِ، فَخَرَجْنا حتَّى قَدِمْنا الغُوطَةَ – غُوطَةَ دِمَشْقَ – فَنَزَلْنا على جَبَلَةَ بنِ الأيهَمِ الغسَّانيّ، فَدَخَلْنا عليهِ؛ فإذا هُو على سَريرٍ لهُ، فأرسلَ إلينا بِرَسُولٍ نُكَلِّمُه، فقُلْنا: "واللهِ لا نُكَلِّمُ رَسُولاً؛ إنَّما بَعَثْنا إلى المَلِكَ؛ فإنْ أذنَ كلَّمْناهُ، وإلاّ لنْ نُكَلِّمَ الرَّسُولَ". فرَجَعَ إليهِ الرَّسُولُ فأخبَرَهُ بذلكَ؛ فأذنَ لنا. فقالَ: "تكلَّمُوا"؟ فَكلَّمْناهُ وَدَعُوناهُ إلى الإسلامِ، فإذا عليهِ ثِيابُ سَوادٍ، فقُلْنا لهُ: "وما هذهِ التي عليكَ"؟ فقالَ: "لَبِستُها وحَلَفْتُ أنْ لا أنْزعَها حتّى أُخْرِجَكُمْ مِن الشامِ".

قُلْنا: "ومَجْلِسُكَ هذا واللهِ لَنأخُذَنَّهُ مِنْكَ، ولَنأخُذَنَّ مُلْكَ المَلِكِ الأعْظَمِ إنْ شاءَ اللّٰهُ" أخْبَرَنا بذلكَ نَبيُّنا صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ. قال: "لَسْتُمْ بِهِمْ؛ بلْ هُمْ قَومٌ يَصُومُونَ

[1] صحيحُ البُخاريّ: كتاب أحاديث الأنبياء (٢١٨٢)

بالنهارَ ويَقُومُونَ بالليلِ، فكيفَ صَومُكُمْ"؟ فأخْبَرْناهُ، فمُلِئَ وَجْهُه سَواداً فقالَ: "قُومُوا، وبَعَثَ مَعَنا رَسُولاً إلى المَلِكَ، فَخَرَجْنا حتّى إذا كُنَّا قريبًا مِن المَدينةِ قال لنا الذي مَعنا: "إنَّ دوابَّكُمْ هذهِ لا تدخلُ مَدِينةَ المَلِكِ؛ فإنْ شِئْتُمْ حَملْناكُمْ على بَراذِين وبِغالٍ"؟ قُلْنا: "واللهِ لا نُدْخُلُ إلاّ عَلَيها".

فأرسلوا إلى المَلِكِ أنَّهُمْ يأبَونَ ذلكَ ! فَدَخَلْنا على رَواحِلِنا مُتَقلِّدِينَ سُيوفَنا حتّى انتهَينا إلى غُرْفَةٍ، فأنَخْنا في أصْلِها وهُو يَنظُرُ إلينا. فَقُلْنا: "لا إلهَ إلاّ اللهُ واللهُ أكبَر"؛ فاللهُ يعلَمُ قَد تنفضتِ الغُرْفةُ حتّى صارَتْ كأنَّها عذقٌ تَصفقُه الرِّياحُ.

فأرسلَ إلينا: ليس لكُمْ أنْ تجْهَرُوا عَلَينا بِدِينِكُمْ، وأرسلَ إلينا أن ادْخُلُوا. فَدَخَلْنا عليهِ وهُو على فِراشٌ لهُ وعِندَهُ بَطارقَتهُ مِن الرُّومِ، وكلُّ شيءٍ في مَجْلِسِه أحمَرُ، وما حَولَهُ حُمْرَةٌ، وعَليهِ ثِيابٌ مِن الحُمْرَة، فدَنَونا منه فَضَحِكَ.

فقالَ: "ما كانَ عَلَيكُمْ لو حيَّيتُمُوني بتحيَّتِكُم فيما بينَكُم"؟

وإذا عِندَهُ رَجُلٌ فَصِيحُ بالعربيةِ كثيرُ الكلامِ، فَقُلْنا: "إنَّ تحيَّتَنا فيما بينَنا لا تَحِلُّ لكَ، وتحَيَّتُكَ التي تُحَيَّى بِها لا تَحِلُّ لنا أنْ نُحيِّيكَ بِها"

قال: "كيفَ هِيَ تحيَّتُكُم فِيما بينَكُم"؟ قُلْنا: "السلامُ عَلَيكَ".

قال: "وكيفَ تَحُيُّونَ مَلِكِكُمْ"؟ قُلْنا: "بِها". قال: "وكيفَ يَرُدُّ عليكُمْ؟ قُلْنا: "بِها".

قال: "فما أعظمَ كلامَكُمْ"؟ قُلْنا: "لا إلهَ إلاّ اللهُ، واللهُ أكبَرُ".

فلمَّا تَكلَمَّنا بها – واللهُ يَعلَمُ – لقد تنفضتِ الغُرفةُ حتَّى رَفَعَ رأسَهُ إليها.

قال: "فهَذه الكلمةُ التي قُلتمُوها حيثُ تنفضتِ الغُرفَةُ، كلمَّا قُلْتُمُوها في بُيوتِكُم تنفضَتْ عليكُمْ غُرَفُكُمْ"؟ قُلْنا: "لا ما رأيْناها فَعَلَتَ هذا قطُّ إلاّ عِنْدَكَ".

قال: "لَوَددتُ أنَّكُمْ كلما قلتم تنفض كل شيء عليكم وأني خرجت من نصف ملكي. قلنا: لم؟ قال: لأنه كان أيسرَ لِشأنِها وأجدرَ ألا تكونَ مِن أمرِ النُّبوَّةِ، وأنَّها تكونُ من حِيَلِ الناسِ. ثمَّ سألَنا عمَّا أرادَ فأخْبَرْناهُ. ثمَّ قال: "كيفَ صلاتُكُمْ وصَومُكُمْ؟ فأخْبَرْناهُ. فقالَ: "قُومُوا". فقُمْنا، فأمَرَ لنا بِمَنْزِلٍ حَسَنٍ ونُزُلٍ كثيرٍ، فأقَمْنا ثلاثًا، فأرسلَ إلينا ليلاً فدَخَلْنا عليهِ، فاستعادَ قولَنا فأعَدْناهُ. ثمَّ دعا بِشيءٍ كهيئةِ الرَّبْعَة العظيمةِ مُذهَّبَةٍ فيها بُيوتٌ صِغارٌ عليها أبوابٌ، ففتحَ بَيتًا وقُفْلاً فاسْتَخْرَجَ حَريرةً سَوداءَ فَنَشَرَها فإذا فِيها صُورةٌ حَمراءُ وإذا فِيها رَجَلٌ ضَخْمُ العَينَينِ عَظيمُ الأليَتَينِ لمْ نَرَ مِثْلَ طُولِ عُنُقِه، وإذا لبست لهُ لحيَةٌ، وإذا لهُ ضَفيرَتانِ أحْسَنُ ما خَلَقَ اللّهُ قالَ: "تَعرِفُونَ هذا"؟ قُلْنا: "لا". قالَ: "هذا آدمُ عليهِ السلامُ"؛ وإذْ هُو أكثرُ الناسِ شَعَرًا.

ثمَّ فتحَ بابًا آخرَ فاسْتَخْرَجَ مِنهُ حَريرةً سَوداءَ، وإذا فيها صُورةٌ بَيضاءُ، وإذا له شَعَرٌ كشَعَرِ القِطَطِ، أحمَرُ العَينَينِ، ضَخْمُ الهامَةِ، حَسَنُ اللحيَةِ، فقالَ: "أتعرِفُونَ هذا"؟ قُلْنا: "لا". قالَ: "هذا نُوحٌ عليهِ السلامُ".

ثمَّ فَتحَ بابًا آخرَ فاسْتَخْرَجَ حَريرةً سَوداءَ، وإذا فيها رَجُلٌ شديدُ البَياضِ، حَسَنُ العَينَينِ صَلْتَ الجَبينِ، طويلَ الخَدِّ، أبيضَ اللحيةِ؛ كأنَّهُ يَبْتَسِمُ، فقالَ: "أتعرِفُونَ هذا"؟ قُلْنا: "لا". قال: "هذا إبراهيمُ عليهِ السلامُ"

.ثمَّ فتحَ باباً آخرَ؛ فإذا فيهِ صُورةٌ بيضاءُ، وإذا واللهِ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالَ: "أتعرِفُونَ هذا"؟ قُلْنا: "نَعَمْ؛ مُحمَّدُ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ"، وبَكينا. واللهُ يَعلَمُ أنَّه قامَ قائِماً ثمَّ جَلَسَ وقالَ: "واللهِ إنَّهُ لَهُوَ"؟ قُلْنا: "نَعَمْ؛ إنَّهُ لَهُوَ كأنَّكَ تَنظُرُ إليهِ". فأمْسَكَ ساعةً يَنظُرُ إليها، ثمَّ قالَ: "أما إنَّهُ كان آخِرَ البُيوتِ؛ ولكنِّي عَجَلْتُهُ لكُمْ لأنْظُرَ ما عِنْدَكُمْ". ثمَّ فَتَحَ باباً آخَرَ؛ فاسْتَخْرَجَ مِنهُ حَريرةً سَوداءَ؛ فإذا فِيها صُورةٌ أدْماءُ سَحْماءُ، وإذا رَجُلٌ جَعْدٌ قَطَطٌ غائِرُ العَينَينِ حَديدُ النَّظَرِ، عابِسٌ مُتراكِبُ الأسْنانِ مُقلَّصُ الشَّفَةِ؛ كأنَّهُ غَضْبانُ. فقال: "هل تَعرِفُونَ هذا"؟

قُلْنا: "لا". قالَ: "هذا مُوسَى عليهِ السلامُ" وإلى جانبِهِ صُورةٌ تُشْبِهُهُ؛ إلاّ أنَّهُ مِدْهانُ الرأسِ عَريضُ الجَبينِ في عَينَيهِ قبل، فقالَ: "هل تَعرِفُونَ هذا"؟ قُلْنا: "لا". قالَ: "هذا هارونُ بنُ عِمرانَ عليهِ السلامُ"

ثمَّ فتحَ باباً آخرَ؛ فاسْتَخْرَجَ مِنهُ حَريرةً بيضاءَ؛ فإذا فِيها صُورةُ رَجُلٍ آدمَ سَبْطٍ رَبْعةً. كأنَّهُ غَضْبانُ، فقالَ: "هل تَعرِفُونَ هذا"؟ قُلْنا: "لا". قالَ: "هذا لوطٌ عليهِ السلامُ"

ثمَّ فتحَ باباً آخرَ فاسْتَخْرَجَ مِنهُ حَريرةً بيضاءَ؛ فإذا فِيها صُورةُ رَجُلٍ أبيضَ مُشرَبٍ حُمْرَةً، أقنَى، خَفيفُ العارِضَينِ حَسَنُ الوجْهِ. فقالَ: "هل تَعرِفُونَ هذا"؟

قُلْنا: "لا". قالَ: "هذا إسْحاقُ عليهِ السلامُ".

ثمَّ فتحَ باباً آخرَ؛ فاسْتَخْرَجَ حَريرةً بيضاءَ؛ فإذا فِيها صُورةٌ تُشْبِهُ إسْحاقَ؛ إلاّ أنَّهُ على شَفَتِهِ خالٌ. فقالَ: "هل تَعرِفُونَ هذا"؟ قُلْنا: "لا". قالَ: "هذا يَعقوبُ عليهِ السلامُ".

ثمَّ فتحَ باباً آخرَ؛ فاسْتَخْرَجَ مِنهُ حَرِيرةً سَوداءَ فيها صُورةُ رَجُلٍ أبيضَ حَسَنُ الوجْهِ أقنَى الأنفِ حَسَنُ القامةِ، يَعلُو في وَجْهِهِ نُورٌ، يُعْرَفُ في وَجْهِهِ الخُشوعُ، يَضْرِبُ إلى الحُمْرَةِ، قال: "هل تَعرِفُونَ هذا"؟ قُلْنا: "لا".

قالَ: "هذا إسْماعِيلُ جَدُّ نبيِّكُمْ عليهِما السلامُ".

ثمَّ فتحَ باباً آخَرَ؛ فاسْتَخْرَجَ مِنهُ حَريرةً بيضاءَ فيها صُورةٌ كأنَّها آدمُ عليهِ السلامُ، كأنَّ وَجْهُهُ الشمسُ، فقالَ: "هل تَعرِفُونَ هذا"؟ قُلْنا: "لا". قالَ: "هذا يُوسُفُ عليهِ السلامُ".

ثمَّ فتحَ باباً آخرَ؛ فاسْتَخْرَجَ مِنهُ حَريرةً بيضاءَ؛ فإذا فيها صُورةُ رَجُلٍ أحمرَ حَمْشَ الساقَينِ، أخْفَشَ العَينَينِ، ضَخْمَ البَطْنِ رَبْعَةً مُتقلِّدٌ سَيفًا، فقالَ: "هل تَعرِفُونَ هذا"؟ قُلْنا: "لا". قالَ: "هذا داودٌ عليهِ السلامُ".

ثمَّ فتحَ باباً آخَرَ فاسْتَخْرَجَ حَريرةً بيضاءَ فيها صُورةُ رَجُلٍ ضَخْمُ الأليتَينِ طويلُ الرِّجْلَينِ راكِبٌ فَرسًا، فقالَ: "هل تَعرِفُونَ هذا"؟

قُلْنا: "لا". قالَ: "هذا سُلَيمانُ بنُ داودَ عليهِما السلامُ".

ثمَّ فتحَ باباً آخرَ؛ فاسْتَخْرَجَ مِنهُ حَريرةً سَوداءَ فيها صُورةٌ بيضاءُ؛ وإذا شابٌّ شديدُ سَوادِ اللحيةِ، كثيرُ الشَّعَرِ، حَسَنُ العينَينِ، حَسَنُ الوجْهِ.

فقالَ: "هل تَعرِفُونَ هذا"؟ قُلْنا: "لا". قالَ: "هذا عيسَى بنُ مَريمُ عليهِ السلامُ".

قُلْنا: "مِن أينَ لكَ هَذهِ الصُّوَرُ"؟ لأنَّا نَعلَمُ أنَّها على ما صُوِّرَتْ عليهِ الأنبياءُ عليهِمُ السلامُ، لأنَّا رأيْنا صُورةَ نبيِّنا عليهِ السلامُ مِثلَهُ، فقالَ: "إنَّ آدمَ عليهِ السلامُ سألَ رَبَّهُ أنْ يُريهُ الأنبياءَ مِن ولدِهِ، فأنْزَلَ عليهِ صُوَرَهُم؛ فكانتْ في خِزانةِ آدمَ عليهِ

السلامُ عندَ مَغرِبِ الشَّمْسِ، فاسْتَخْرَجْها ذُو القَرْنَينِ من مَغرِبِ الشَّمْسِ فَدَفَعَها إلى دانيال. ثمَّ قالَ: "أمَا واللهِ إنَّ نَفْسِي طابتْ بالخُروجِ من مُلْكِي، وإنِّي كُنْتُ عَبْدا لأشركم ملكة حتى أموت. ثمَّ أجازَنا فأحْسَنَ جائزَتَنا وسَرحنا. فلمَّا أتَينا أبا بَكْرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عنهُ، وحدَّثْناهُ بما أرانا وبما قالَ لنا وما أجازَنا، بَكَى وقالَ: مسكين ! لو أرادَ اللهُ به خَيرًا لَفَعلَ. ثمَّ قال: "أخْبَرَنا رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُم واليهودُ يَجدُونَ نَعْتَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عِندَهُم. الراوي: أبو أُمامةَ الباهليُّ – المُحدِّث: ابنُ كثيرٍ[1] خُلاصةُ حُكْمِ المُحدِّثِ: إسنادُه لا بأسَ بهِ.

وتُفيدُ الآياتُ الكريمةُ والأحاديثُ النبويّةُ أنَّ "مُوسَى" عليهِ السلامُ كان (رَجُلاً أسمرَ اللونِ، جَسيمَ البَدَنِ من غَيرِ سُمْنَةٍ، وأنَّهُ مُتناسِقُ الشَّعَرِ، ذُو مَهابةٍ، وكانَ بلِسانِه عُقْدَةُ ثِقلٍ، وكانتْ فيه سُرْعَةٌ وعَجَلٌ).

هارونُ عليهِ السلامُ

هو "هارونُ بنُ عِمرانَ بنِ قاهثِ بن لاوي بنِ يَعقُوب بنِ إسحاقٍ بنِ إبراهيمَ الخليلِ" عليهِم السلامُ.

وُلِدَ قبلَ مُوسَى بثلاثِ سِنينَ على الأرجَحِ، وهو من أنبياءِ بَني إسرائيلَ. اسمُه يعني (مَوطِنَ القوَّةِ)، واسمُه بالإنكليزية Aaron.

كان وزيرَ أخيه مُوسَى ومُساعِدَه والمُتحدِّثَ عنهُ.

زوجتُه هي "البشيبُ"، وأبناؤهُ؛ "بِشْرٌ، وبَشيرٌ، ومُبشِّرٌ، والعازرُ".

[1] تفسيرُ القرآنِ: (ج ٢ /٤٨١).

كان قَيِّمَ الهيكلِ، وكان عِندَهُ تابوتُ السَّكِينَةِ وفِيهِ الألواحُ التي أنْزَلَها اللهُ عزَّ وجلَّ على مُوسَى مِن زُمرُّدٍ أخضرَ، وكِتابتُها بالذَّهبِ.

قبضَ اللهُ عزَّ وجلَّ هارونَ في التِّيهِ؛ وهُو ابنُ مائةٍ وثلاثٍ وعِشرينَ سَنةً، وقيلَ: إنَّهُ قُبِضَ وهُو ابنُ مائةٍ وعِشرينَ، ودُفِنَ في مَغارةِ موات قُرْبَ جبلِ الشَّراةِ مِمَّا يلي الطُّورِ، وقبْرُه مشهورٌ هناكَ، ويُسمَعُ مِنها في بعضِ الليالي دويٌّ عظيمٌ يجزعُ مِنهُ كُلُّ ذِي رُوحٍ، وقيلَ: "إنَّهُ دُفِنَ بجَبلِ هارونَ بالبتْراءِ بالأُردنِّ".

وكان ذلكَ قبْلَ وفاةِ مُوسَى بسَبْعَةِ أشهُرٍ. (١)

عَلَى ثناءِ اللهِ تعالى على مُوسَى وهارُونَ عليهِما السلامُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤). ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٤). ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا. وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا. وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (مريم: ٥١ – ٥٢). ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ. وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ. وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ. وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى مُوسَى

١) مروج الذهب: (ص٦١- ٦٢).

وَهَارُونَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) (الصَّافَّات : ١١٤ – ١٢٢) . (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ) (غافر: ٥٢) .

الخَضرُ عليهِ السلامُ

الخَضرُ "نبيٌّ" عندَ الجُمهورِ، والآيةُ الكريمةُ تشْهَدُ بذلكَ (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) و "الرَّحمةُ هِيَ النُّبوَّةُ" ؛ لأنّ بواطِنَ أفعالِه كانت بِوَحيٍ، و(لا يَجوزُ أن يكونَ فوقَ النبيِّ مَن ليسَ بِنبيٍّ) .

وقيلَ: هُو "عَبْدٌ صالِحٌ" ، وقيلَ: "كان مَلِكًا أمرَ اللّهُ مُوسَى عليهِ السلامُ على أنْ يأخُذَ عَنهُ مِمّا حَملَهُ مِن عِلْمِ الباطِنِ، و(الأوَّلُ هُو الصَّحيحُ)، و(عَلَّمَهُ اللّهُ مِن لَدُنْهُ عِلْمًا)، قال ابنُ عطيَّة: "أوحِي إلى الخَضرِ عِلْمُ مَعرِفةِ باطِنِ الإحكامِ، وكان مُوسَى على عِلْمِ بِظاهِرِها واللّهُ أعلمُ" .

وقال السُّهيليُّ: "واختُلِفَ في اسْمِ الخَضرِ اختِلافًا مُتباينًا؛ فعَنِ ابْنِ مُنبِّهٍ أنَّه قالَ: "الخَضرُ هُو أبليا بنُ مَلكانِ بنِ فالغِ بنِ شالخِ بنِ أرفخشذِ بنِ سامِ بنِ نُوحٍ" .

وقيلَ: "هُو ابنُ عامِيلِ بنِ سماقحين بنِ أريا بنِ علقما بنِ عيصُو بنِ إسحاقٍ" ، وأنَّ أباهُ كان مَلِكًا، وأمُّهُ فارسيَّةٌ اسْمُها "أَلَى" ، وَلدَتْهُ في مَغارةٍ، وأرضعَتْهُ شاةَ رَجُلٍ مِن القريةِ فأخَذهُ الرَّجُلُ ورَبَّاهُ. ثُمَّ إنَّ المَلِكَ جَمَعَ أهلَ المَعرِفةِ؛ لِيَكتُبَ الصُّحُفَ التي أُنْزِلَتْ على شِيثٍ وإبْراهيمَ، وكان مِن بينِهم ابنُه الخَضرُ وهُو لا يَعْرِفُهُ، فلمَّا اسْتَحْسَنَ خَطَّهُ ومَعرِفَتهُ بَحَثَ عَنهُ فَعَرفَ أنَّهُ ابنُهُ فَضَمَّهُ إليهِ ووَلَّاهُ أمرَ الناسِ. ثُمَّ إنَّ

الخَضرَ فرَّ مِن المَلِكِ لأسبابٍ يَطُولُ ذِكرُها إلى أنْ وَجَدَ عَينَ الحياةِ فَشَرِبَ منها؛ فهُو حيٌّ إلى أنْ يَخْرُجَ الدَّجَّالُ، وأنَّهُ هو الرَّجُلُ الذي يَقتُلُهُ الدَّجَّالُ، ويَقطَعُه ثمَّ يُحْييهِ اللهُ تعالى.

وقيلَ: لمْ يُدركْ زمنَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) وهذا لا يَصِحُّ.

وقالَ البُخاريُّ وطائفةٌ مِن أهْلِ الحديثِ مِنهُم شيخُنا أبو بَكْرٍ بنِ العربيِّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى: "إنَّهُ ماتَ قَبْلَ انقِضاءِ المائةِ مِن قولِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ: " إلى رأسِ مِائَةِ عامٍ لا يبْقَى على هذهِ الأرضِ مِمَّنْ هُوَ علَيها أحدٌ "؛ يعني: مَنْ كان حَيًّا حينَ قال هذه المَقالةَ(١)

ووَرَدَ في المَوسُوعةِ الإسلاميةِ المُيسَّرةِ أنَّ الخَضرَ هو عَبْدٌ صالِحٌ كان في عَهدِ مُوسَى عليهِ السلامُ، اختلِفَ في اسْمِه اختِلافًا كثيرًا، واتُّفِقَ على لَقَبِهِ وهُو "الخَضرُ"؛ فعَن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " إنَّما سُمِّيَ الخَضرُ؛ لأنَّهَ جَلَسَ على فَرْوَةٍ بَيضاءَ – الأرضِ التي لا نباتَ فيها – فإذا هِيَ تهتزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْراءُ ".(٢)

وأخرجَ البُخاريُّ عن أُبيِّ بنِ كَعْبٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: " إنَّ مُوسَى قامَ خَطِيبًا في بني إسْرائيلَ، فسُئِلَ: "أيُّ الناسِ أعلَمُ"؟ قالَ: "أنا". فعَتبَ اللهُ عليه؛ إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إليهِ تعالى.

فأوْحَى اللهُ إليهِ أنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَينِ هُو أعلَمُ مِنكَ. فَرَحَلَ إليهِ مُوسَى طلَبًا لِما عِنْدَهُ مِن العِلْمِ.

---

١) تفسيرُ القرطبيِّ.
٢) صحيحُ البُخاريّ: كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٠٢)

وقد قصَّ اللهُ عَلَينا في القُرآنِ الكريمِ خَبَرَ هذه الرِّحلَةِ (**وَإِذْقَالَمُوسَىلِفَتَاهُ...ذَلِكَ تَأْوِيلُمَالَمْتَسْطَعْعَلَيْهِصَبْرًا**) (الكهف : ٦٠ – ٨٢) .

وقَد اختُلِفَ في نُبوَّتِه فأثبَتَ بعضُهُم ذَلِكَ، ونَفاها آخَرُونَ وقالُوا : "بلْ هُوَ وَلِيٌّ مِن أولياءِ اللهِ الصَّالِحِينِ" .

كما قَد اختُلِفَ في حَياتِه؛ فَذَهَبَ قومٌ إلى أنَّهُ (حَيٌّ حتَّى هذهِ اللحظَةِ)، ونَفَى آخَرُونَ ذلكَ .

قال الألوسيُّ في "رُوحِ المَعاني" : وسُئِلَ البُخاريُّ عَنْهُ وعَن إلياسٍ عليهِما السلامُ هل هُما حَيّانِ؟ فقالَ : "كيفَ يكونُ هذا؛ وقَد قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ – أيّ قَبْلَ وَفاتِه بِقَلِيلٍ – "لا يَبْقَى على رأسِ المائةِ مِمَّنْ هُوَ اليومَ على ظَهْرِ الأرْضِ أحدٌ" .

والذي في صَحيحِ مُسلِمٍ عن جابرٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : " ما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ يأتي عَلَيها مائةُ سَنَةٍ وهِيَ يَومَئِذٍ حَيَّةٌ " وهذا أبعدُ عن التأويلِ .

وسُئِلَ عن ذلكَ غَيرُه مِن الأئمَّةِ فَقَرأ (**وَمَاجَعَلْنَالِبَشَرٍمِنْقَبْلِكَالْخُلْدَ**) (الأنبياء : ٢٤) .

ولِلخَضرِ مَقاماتٌ ومَزاراتٌ في مُختلَفِ البُلدانِ؛ مِنها في الهِندِ يَتبَرَّكُ بها المُسلِمُونَ والهُندُوسُ ويُسمُّونَه خُوجَه خَضر، ويُصوِّرُونَهُ ويَعتَقِدُونَ أنَّهُ رُوحٌ تَسْكُنُ الآبارَ ومَجاري المِياهِ .

وفي مدينة "حَلَبَ" مَقامانِ لِلخَضرِ؛ الأوَّلُ في بابِ النَّصْرِ، والثاني في مَدخَلِ القلعةِ[١] .

---

١ الموسوعةُ الإسلامية المُيسَّرة: (ج٥/ص ١٠٠٢ - ١٠٠٣).

وذَكَرَ بعضُ أهلِ الكِتابِ أنَّ الخَضرَ هو خَضْرُونُ بنُ عميائيلِ بنِ النفرِ بن العيصِ بنِ إسحاق بن إبراهيمَ؛ وأنَّهُ أرسلَ إلى قَومِهِ فاستَجابُوا لهُ(١).

وقَد رَجَّحَ "هِشامُ عَبْدِ الحَميدِ" في مَقالتِه عن أسرارِ الأقْدارِ الإلهيَّةِ في قِصَّةِ مُوسَى والخَضِرِ أنَّ اسمَ الخَضِرِ الذي وَردَ في الرِّواياتِ الإسلاميَّةِ قد يحلُّ بعضَ ألغازِ شَخصيَّتِه؛ فَحَرْفُ الخاءِ يَتبادلُ مع حرفِ الكافِ، والكافُ يَتبادلُ مع القافِ، والضَّادُ يتبادلُ مع الدالِ. وعلى ذلكَ يُمْكِنُ نُطْقُ اسْمِهِ (الكدر أو القدر)، ويُنطَقُ اسمُه في الإنجليزيةِ alked (الكدر – القدر).

فهلْ هيَ لفظٌ آخرُ لِكلِمَة "القدر" في لُغَةٍ أُخْرَى ثُمَّ نُقِلَتْ إلى العربيةِ بعدَ دُخولِ حُروفِ التبادُلِ اللغويِّ إليها؟

وهلِ "الخَضرُ" هو المَلاكُ القدر، أو رَجُلُ الأقدارِ الإلهيةِ أرسلَهُ اللهُ إلى مُوسَى؛ لِيُعَلِّمَهُ شيئًا مِن حِكَمٍ وخَفايا وأسْرارِ المَشيئةِ والقَدَرِ الإلهيِّ؟ وهل كان مُوسَى عليهِ السلامُ على مَوعدٍ مع ذلكَ؟

وما قِيلَ عن اغْتِرارِ مُوسَى وفِتْنَتِه في عِلْمِه ما هُوَ إلاّ مُجرَّدُ قَصَصٍ خُرافيَّةٍ مِثل الكثيرِ من القَصَصِ والإسرائيلياتِ التي تمتلِئُ بها كتُبُ التفاسيرِ والرِّواياتِ؟ هذا ما أُرجِّحُه واللهُ أعلَمُ(٢).

---

١) مُروج الذهبِ: (ص٦٠ - ٦١)

٢) وَوردَ في تَرجَمةِ القرآنِ الكريمِ the holy quran text, translathon & commenta y by a. yusuf ali page ٧٤٧ أنَّ اسْمَهُ في اللغةِ الإنكليزية khidh

يُوشع عليهِ السلامُ

هو يُوشعُ بنُ نونٍ بنِ افراييم بنِ يُوسُفَ بنِ يَعقُوبٍ عليهِما السلامُ. واسْمُه يعني "الخَلاصَ"، واسْمُه بالإنكليزية Joshua أُرْسِلَ إلى بلادِ الشامِ في مُنتصَفِ القَرْن ١٢ قَبْلَ المِيلادِ، وهو نقيبُ السِّبْطِ الخامِس من أسباطِ بني إسرائيلَ الاثني عَشَرَ؛ وهو سِبْطُ الصِّدِّيقِ يُوسُفَ عليهِ السلامُ. جاءَ ذِكْرُهُ في القُرآنِ الكريمِ: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَا عَشَرَ نَقِيبًا**﴾ (المائدة: ١٢) وهُوَ ابنُ أُختِ مُوسَى عليهِ السلامُ وفَتاهُ الذي رافقَهُ بِأسْفارِه – لقاءَ مُوسَى بالخَضر – وهُو أوَّلُ أنبياءِ بني إسرائيلَ بعدَ مُوسَى وهارونَ، تولَّى قِيادتَهُم وعَبَرَ بِهِم مِن التِّيهِ إلى الأرضِ المُقدَّسةِ مع خَليفَتِه كالبِ بنِ يوقِنا زَوجِ مَريمَ أُخْتِ النبيِّ مُوسَى، وبلغَهُم أن يدخُلُوا بابَ المَدينةِ سُجَّداً خاشِعينَ شاكِرينَ مُستَغْفِرينَ وأنْ يَقُولُوا: "حِطَّة"، وهُو الذي انتصرَ على العَمالِقة الجَبابِرَةِ في بلادِ الشامِ بَعْدَ حُروبٍ طاحِنةٍ. وحَدثَتْ لهُ إحدَى المُعجِزاتِ الإلهيَّة؛ عِندَما تأخَّرَ وقتُ غُروبِ الشَّمْسِ يومَ الجُمُعَةِ قبلَ فَتحِ بيتِ المَقْدِسِ. دُفِنَ بأحدِ ضَواحي مَنطقةِ السلطِ غَربِ الأُرْدنّ.

ويُقالُ: "إنَّ يُوشعَ هُو اليسَعَ الذي جاءَ ذِكْرُه في القُرآنِ الكريمِ مَرَّتَينِ في عِدادِ الأنبياءِ؛ وذلكَ في قولِه تعالى: ﴿**وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ (الأنعام: ٨٦) وقولِه سُبْحانَه وتعالى: ﴿**وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ**﴾ (ص: ٤٨).

وذَكَرَ ابنُ كَثيرٍ في قَصَصِ الأنبياءِ: استقرَّ بَنُو إسْرائِيلَ في بَيتِ المَقْدِسِ وبَينَ ظَهْرانيهِم نَبيُّ اللهِ يُوشعُ يَحْكُمُ بَينَهُمْ بِكتابِ اللهِ التوراةِ؛ حتَّى قَبَضَهُ اللهُ إليهِ وهُو ابْنُ مِئةٍ وسَبْعٍ وعِشْرينَ سَنةً(١).

وذَكَرَ ابنُ الجَوزيِّ أنّ يُوشَع بنَ نُونٍ هُو خادِمُ مُوسَى وخَليفَتُه عِندَ اليَهودِ حَسبَ النصِّ التوراتي، وسُمِّيَ سِفْرَ يَشُوعٍ بِاسْمِه. ويبدُو أنَّ قُدماءَ بني إسرائيلَ عَرَفُوهُ بِاسْم "ابنِ نُونٍ" ثُمَّ نَسُوا خَبَرَهُ.

والنونُ هو الحُوتُ ب- (العربية، والآرامية، والأشورية) فضْلاً عن العِبْرية، وب- (المِصرية) لفظٌ قريبٌ مِن ذلكَ.

وأخطأَ كَتبَةُ التوراةِ والمدراش فجَعلُوا نُونَ اسْم والِد يهوشع، وتبِعَهُم بعضُ مُفسِّري المُسلِمينَ. وارتابَ بعضُ الأحبارِ في كونِ "نُون" اسْمَ والدِ يهوشع فاخترَعُوا رِوايةً أُسطُوريَّةً مُقتبَسةً مِن خَبَرِ ذي النونِ عليهِ السلامُ رَبَطَتْ يهوشع بِنُونٍ؛ أيّ: بِ (حُوتٍ ابتلَعَهُ ثمَّ لفَظَهُ)، كأنَّهُم يُفَسِّرُونَ بِها مَنشأَ اللقَبِ ابنِ نُونٍ. ورغمَ اقترابِ تلكَ الأُسطُورةِ مِن الحقيقةِ وتلميحِها أنَّ "نونَ" ليسَ اسمَ والدِ "يهوشع"؛ وإنَّما نونُ هو حُوتٌ التقمَهُ فسَمّاهُ الناسُ "ابنَ نُونٍ"؛ أيّ: ابنَ ذلك الحُوتِ لجَهْلِهِم بأصلِه؛ إلاّ أنَّهُم لم يَتذكّرُوا الخَبَرَ الحقيقيَّ المَنسيَّ الذي لولا أنْ قَصَّهُ القُرآنُ الكريمُ لَظلَّ في غياهِبِ النِّسيانِ (**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ**).

ف "النونُ" إذنْ ليسَ هُو اسمُ والدِ الفتَى، وليسَ حُوتًا ابتلَعَهُ؛ ولكنَّه طعامُ غداءٍ نَسِيَهُ فتَى مُوسَى عليهِ السلامُ عندَ الصَّخْرَةِ (نَسِيَا حُوتَهُمَا/نَسِيتُ الحُوتَ).

---

١) الموسوعةُ الإسلامية المُيسَّرة: (ج١٠/ص ٢٢٢٧).

وقَد عَلِمَ قُدماءُ بَني إسرائيلَ ذلك الخَبرَ؛ فلقَّبُوا فتَى مُوسَى بِلقَبِ "ابْنِ الحُوتِ"، أو كما بِلِسانِهِم "ابنِ نُون"، ثمَّ ضاعَ الخبرُ، وطَواهُ النِّسيانُ بِمُضي القُرونِ، ولمْ يَبْقَ بِالذاكِرَةِ اليهوديةِ إلاّ اللقبُ الشهيرُ "ابنُ نُون" الذي تناقلَتْهُ الألسنَةُ جيلاً بعدَ جيلٍ، فَظَنَّ الكتَبَةُ والأحبارُ أنَّ الاسمَ "نُون" هو اسمُ والدِه، مع ارتيابٍ مِن بَعضِهم إخراجَ أسطورةِ حادثةِ الحُوتِ.

وأمّا اسمُه الأوَّلُ "يهوشع"؛ فلعلَّهَ لقبٌ متأخِّرٌ أطلقَهُ عليه اليهودُ، بعدَ أن ألّفُوا خُرافةَ فُتوحاتِه لبلادِ كنْعانَ التي لم يَدْخُلُوها إلاّ بَعْدَهُ بِقَرْنَينِ (موقِعُ البيان – ابن نون – الخيمة)

ووَردَ في كتابِ "مُروجِ الذهبِ" للمَسعُوديِّ أنَّه لَّما قبضَ اللّهُ عزَّ وجلَّ موسَى بنَ عِمرانَ سارَ يُوشَعُ بنُ نُونٍ بِبَني إسرائيلَ إلى بلادِ الشامِ، وكانَ قَد غلبَ علَيها الجبابِرَةُ مِن مُلوكِ العماليقِ وغَيرِهِم مِن مُلوكِ الشامِ، فأسْرَى إليهِم يُوشع بنُ نُونٍ سَرايا، وكانتْ لهُ معهُم وقائعُ؛ فافتتَحَ بلادَ أريحاء وزغر مِن أرضِ الغورِ وهي أرضُ البُحيرةِ المُنتنةِ التي لا تَقْبَلُ الغَرْقَى... وسارَ مَلِكُ الشامِ وهُو السُّمَيدعُ بنُ هُوبر بنِ مالكٍ إلى يُوشعِ بنِ نُونٍ؛ فكانتْ بينَهُم حُروبٌ إلى أنْ قَتلَهُ يُوشعُ واحتَوى على جميعِ مُلْكِه وألحقَ بهِ غَيرَهُ مِن الجبابِرَةِ والعَماليقِ، وشَنَّ الغاراتِ بأرضِ الشامِ، وكانت مُدَةُ يُوشع بنِ نُون في بني إسرائيلَ بعدَ وفاةِ مُوسَى بنِ عِمرانَ تِسْعًا وعِشْرينَ سَنةً، وهُو "يُوشع بنُ نونٍ بنِ أفرائيمِ بنِ يُوسُفَ بنِ يَعقوببنِ إسحاقٍ بنِ إبراهيمَ.

وقيلَ: إنّ يُوشعَ بنَ نُونٍ كان بَدءُ مُحارَبَته لِمَلِكِ العَماليقِ – السُّمَيدع – ببلادِ أيلةَ نَحْوَ مَدْيَن، وفي ذلك يقولُ عَوفُ بنُ سَعدٍ الجُرْهُمِيُّ:

ألمْ تَرَ أنَّ العَملقيَّ ابنَ هوبَر بأيلةِ أمْسَى لَحمُهُ قد تَمَزَّعا

تداعَتْ عليهِ مِن يَهُودٍ جَحافِلُ ثمانينَ ألفًا حاسِرينَ ودُرَّعا

فأمْسَتْ عِداداً لِلعَماليقَ بَعْدَهُ على الأرْضِ مَشْيًا مُصْعِدينَ وفُزَّعا

كأنْ لم يَكُونوا بينَ أجْبالِ مَكَّةَ ولمْ يَرَ راءٍ قَبْلَ ذاكَ السُّمَيدعا

وكان بِقَريةٍ مِن قُرَى البلقاءِ من بلادِ الشامِ رَجَلٌ يُقالُ له "بَلْعَمُ بنُ باعُوراءَ بنِ سنور بنِ وسيمِ بنِ ناب بنِ لوطِ بنِ هارانَ"، وكان مُستجابَ الدَّعوةِ؛ فحَملَهُ قومُه على الدُّعاءِ على "يُوشعَ بنِ نُونٍ"، فلمْ يتأتَّ لهُ ذلكَ وعَجَزَ عنهُ، فأشارَ على بعضِ مُلوكِ العَماليقِ أن يُبْرِزُوا الحِسانَ مِن النِّساءِ نحوَ عَسْكَرِ "يُوشعِ بنِ نُونٍ"، ففَعلُوا، فتَسَرَّعُوا إلى النِّساءِ فَوقَعَ فيهمُ الطاعونُ فَهلَكَ منهُم سبْعونَ ألفًا، وقيلَ: أكثرُ مِن ذلكَ. و"بَلْعَمُ" هو الذي أخبرَ اللهُ عنهُ أنَّه آتاهُ الآياتِ فانْسلَخَ منها.

وقيلَ: أنَّ يوشعَ بنَ نونٍ قُبِضَ وهُو ابنُ مائةٍ وعِشْرينَ سَنةً[1].

شُعيبٌ عليهِ السلامُ

وكان في ذلكَ الزَّمانِ النبيُّ شُعَيبٌ عليهِ السلامُ، وهو "شُعَيبُ بنُ نويتِ بنِ رعوايل بنِ مر بنِ عنقاءَ بنِ مَدْيَن بنِ إبراهيمِ"، وكان لِسانُهُ عربيًّا، وكان مَبْعُوثًا إلى أهلِ

[1] مُروج الذهبِ: (ص٦٢ - ٦٥).

مَدْيَنَ. ولَّما خَرجَ مُوسَى عليهِ السلامُ هاربًا مِن فِرعَونَ مَرَّ بهِ وكان مِن أمْرِهِ مَعَهُ وتَزْويجِه ابنَتِه ما ذَكَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ[1].

ووَرَدَ في كتابِ النُّبوَّةِ والأنبياءِ: هُو "شُعَيبُ بنُ ميكيلِ بنِ يشجَر بنِ مَدْيَن أحدُ أولادِ إبراهيمَ الخَليلِ عليهِ السلامُ، وأُمُّهُ بِنتُ لُوطٍ عليهِ السلامُ، وقَد كانتْ بعثتُه بَعدَ لُوطٍ لِقَولِه تعالى: (**وَمَاقَومُ لُوطٍ مِنكُم بِبَعِيدٍ**) (هود: ٨٩) وقَبْلَ رِسالةِ مُوسَى عليهِ السلامُ لأنَّ اللهَ تعالى لَّما ذَكَرَ نُوحًا، ثُمَّ هُودًا، ثُمَّ صالحًا، ثُمَّ لُوطًا، ثُمَّ شُعَيبًا أعْقَبَ ذلكَ بقَولِه تعالى: (**ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بآياتِنا إلى فِرْعَونَ ومَلائه**) (الأعراف: ١٠٢) فدلَّ على أنَّ شُعَيبًا كان مِن قَبْلِ زَمنِ مُوسَى وهارُونَ عليهِما السلامُ.

وقَد أخطأَ بعضُ المُؤرِّخِينَ فظنَّ أنَّ شُعَيبًا كان زَمَنِه بَعدَ مُوسَى بِعِدَّةِ قُرونٍ، وهذا يُنافِي النصَّ السابقَ، وقَد التبسَ الأمرُ عليهِم بينَ شُعَيبٍ وبينَ شعيا أحدِ الأنبياءِ الذينَ لمْ يَذْكُرْهُمُ القُرآنُ الكريمُ فظنُّوا أنّ شعيا هو شُعَيبٌ، ومِن هُنا جاء الخطأُ كما نبَّهَ عليه بعضُ المُحقِّقينَ من العُلماءِ.

وقَد جاءَ ذِكْرُهُ في القُرآنِ الكريمِ عَشْرَ مرَّاتٍ في مَواطِنَ مُتفرِّقةٍ مِن السُّورِ (الأعرافِ، وهُود، والشُّعراء، والعنكبوت)، وقَد أرسلَهُ اللهُ الى مَدْيَنَ (**وإلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعَيبًا قالَ ياقَومِ اعْبُدُوا اللهَ مالَكُم مِنْ إلهٍ غَيرُهُ**) (الأعراف: ٨٥) ويُعرَفُونَ – أيضًا – بأصحابِ الأيكةِ؛ لِقَولِه تعالى: (**كَذَّبَ أصْحابُ الأيْكَةِ المُرْسَلِينَ، إذْ قالَ لَهُمْ شُعَيبٌ**

[1] مُروج الذهبِ: (ص٦١)

أَلَا تَتَّقُونَ) (الشُّعراء: ١٧٦ – ١٧٧) و(أهلُ مَدْيَنَ قومٌ عَرَبٌ) كانوا يَسكُنونَ في الأرضِ المُسمَّاةِ اليومَ "معانَ" جنوبَ فِلسطينَ، ويُنسَبُونَ إلى مَدْيَنَ وهُو أحدُ أولادِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ. ويُسمَّى في التوراة "مَديان"، وسُمِّيَتْ هذه القبيلةُ باسْمِ "مَدْيَن" نِسبةً إليهِ؛ حيثُ عاشَ مَعهُم وصاهَرَهُم؛ فصارَ لهُ فيها رَهْط وأُسْرَةٌ؛ فَسُمُّوا "أهلَ مَدْيَن". وكانُوا على دِينهِم الذي وَرِثُوهُ عن إبراهيمَ، ثمَّ غَيَّرُوا وكَفرُوا باللهِ، وكَذَّبُوا شُعَيبًا، وفَشَتْ فِيهِمُ المُنْكَراتُ؛ فأهْلَكَهُم اللهُ بِعَذابِ يومِ الظُّلَّةِ (**فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) (الشُّعراء: ١٨٩). عاشَ شُعَيبٌ عليهِ السلامُ بعدَ هلاكِ قومِهِ مُدَّةً مِن الزَّمنِ إلى أنْ توفَّاهُ اللهُ تعالى في الفترةِ الواقِعَةِ بينَ وفاةِ يُوسُفَ ونشأةِ مُوسَى عليهِما السلامُ[١].

فِرْعَونُ الطاغِيةُ

كلمةٌ مَنحُوتةٌ مِن لفْظَينِ هُما "بر" و"عو" أيّ: "البيتُ العظيمُ"، ثُمَّ أُطلِقَ اللفظُ نَعتًا على القصْرِ المَلكِيِّ منذُ أيَّامِ الدولةِ المِصريَّةِ القديمةِ، وأصبحَ عَلَمًا بعدَ ذلكَ على مُلوكِ مِصرَ منذُ الألفِ الأوَّلِ قبلَ الميلادِ، مَثَلُهُ في ذلكَ مَثلُ لقبِ البابِ العالي الذي أطلِقَ على السُّلطانِ العُثمانيِّ إبّانَ الدولةِ العُثمانيةِ.

ويَذكُرُ المُؤرِّخُونَ أنَّ عددَ الأُسَرِ الحاكِمَةِ في مِصْرَ مِن الفراعِنَةِ ثلاثونَ أُسْرةً، وتَذكُرُ التوراةُ أنّ فِرْعَونَ مِصْرَ الذي اضطهدَ بني إسرائيلَ هُو "رعمَسِيسُ" الثاني، وزَوجَتُه

[١] النبوَّة والأنبياء: (ص٢٤٠ - ٢٤٢).

هِيَ "آسيا بِنتُ مُزاحِمَ بنتِ عُبَيدٍ بِنْتِ الوليدِ بنِ الرَّيانِ"، وقَد سخَّرَهُم لِبناءِ مَدينَتَينِ لهُ؛ هُما "رمْسيس" و"بيتوم"، وأمَرَهُمْ بِقتْلِ كُلِّ طِفْلٍ مَولُودٍ ذَكَرٍ.

وفِي زَمَنِهِ وُلِدَ نبيُّ اللهِ مُوسَى عليهِ السلامُ وقِصَّتُه شَهيرةٌ في القُرآنِ الكريمِ.

كما تَذكُرُ التوراةُ أنَّ لِمُوسَى فِرْعَونَينِ؛ "فِرعَونُ القَهْرِ" و"فِرعَونُ الخُروجِ"؛ إذ أنَّ فِرعَونَ القهْرِ ماتَ؛ فخَلَفَهُ ابنُهُ "منفتاح" أو "منبتاح"، واضطهدَ بني إسرائيلَ ولاحَقهُم، فأطْبَقَ عليهِ البَحرُ.

وجَاءَ ذِكْرُهُ في القُرآنِ الكريمِ أربعةً وسَبْعينَ مَرَّةً في سَبْعٍ وعِشْرِينَ سُورةً، ولَمْ يَرِدْ تفصيلُ عَددِهِم ومَن هُو فِرعَونُ مُوسَى.

وأيًّا ما كانَ فِرعَونُ مُوسَى هذا؛ فهُو اليومَ ماثِلٌ بِبَدَنِه في قاعةِ المُومياءِ المَلكيةِ في المُتحفِ المِصريِّ بالقاهِرة، والذي اكتُشِفَتْ جُثَّتَهُ سليمةً في نهايةِ القرنِ التاسِعِ عشرَ؛ وكأنَّهُ خَرَجَ لِتَوِّهِ مِن البحرِ مِصداقَ قولِه تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ؛ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً**﴾ (يُونُس: ٩٢)[١]

قال الضَّحَّاكُ: عاشَ فِرعَونُ أربعمائةِ سَنةً، وكان قَصِيرًا دَمِيمًا، وهُو أوَّلُ مَن خَضبَ بالسُّوادِ.

١) المَوسُوعة الإسلامية الميسَّرة: (ج٨/ ص١٧٨١).

أقوال المفسرين

تفسيرُ الطبريِّ

(**وَإِذْقَالَمُوسَىلِفَتَاهُ**) أيّ: وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قَالَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ لِفَتَاهُ يُوشَع

(**لَاأَبْرَحُ**) أيّ: لاَ أَزَالَ أَسِيرُ. وقَالَ ابْن زَيْدٍ: لا أَنْتَهِي.

وقال بَعْضُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّة: لا أَزُولُ، وَيَسْتَشْهَد لِذَلِكَ بِبَيْتِ الْفَرَزْدَق:

فَمَا بَرِحُوا حَتَّى تَهَادَتْ نِسَاؤُهُم ... بِبَطْحَاء ذِي قَارٍ عِيَاب اللَّطَائِم

أيّ: مَا زَالُوا. (**حَتَّىأَبْلُغَمَجْمَعَالْبَحْرَيْنِ**) أيّ: اِجْتِمَاعَ بَحْرِ فَارِسَ وَالرُّوم، وَالمجْمَعُ مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: جَمَعَ يَجْمَعُ. وَبَحْرُ الرُّومِ مِمَّا يَلِي الْمَغْرِبَ، وَبَحْرُ فَارِسَ مِمَّا يَلِي الْمَشْرِقَ.

وعَنْ مُجَاهِدٍ: هُما بَحْرُ الرُّومِ، وَبَحْرُ فَارِس؛ أَحَدُهُمَا قِبَلَ الْمَشْرِقِ، وَالآخَرُ قِبَلَ الْمَغْرِبِ.

وعَنْ اِبْن عَبَّاسٍ قَالَ: مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ طَنْجَةُ. وعَنْ قَتَادَةَ: بَحْرُ فَارِسَ وَبَحْرُ الرُّومِ.

(**أَوْأَمْضِيَحُقُبًا**) أيّ: أَسِيرُ زَمَانًا وَدَهْرًا، وَهُوَ وَاحِدٌ، وَيُجْمَعُ كَثِيرُه وَقَلِيلُه على أَحْقَابٍ. وَتَقُولُ الْعَرَبُ: كُنْتَ عِنْدَه حُقْبَةً مِنْ الدَّهْرِ، وَيَجْمَعُونَهَا حُقُبًا.

وَذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ: أَنَّ الْحُقُبَ فِي لُغَةِ قَيْسٍ سَنَةٌ.

أَمَّا أَهْلُ التَّأْوِيلِ فَإِنَّهُمْ اِخْتَلَفُوا؛ فَقَالَ بَعْضُهمْ: ثَمَانُونَ سَنَةً، وَقَالَ آخَرُونَ: سَبْعُونَ سَنَةً، وعَنْ مُجَاهِدٍ: سَبْعِينَ خَرِيفًا، وعَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ: دَهْرًا، وعَنْ قَتَادَةَ وابنِ زَيدٍ: زَمَانٌ.

(**فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا**) أيّ: فَلَمَّا بَلَغَ مُوسَى وَفَتَاهُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، وعَنْ مُجَاهِد: بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ. (**نَسِيَا حُوتَهُمَا**) أيّ: تَرَكَاهُ. وعَنْ مُجَاهِدٍ: أَضَلَّاهُ.

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ قَولُه عزَّ وجلَّ: "يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ"؛ إِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ الْمِلْحِ دُونَ الْعَذْب.

وجَازَ عِنْدِي أَنْ يُقَالَ: نَسِيَا؛ لأَنَّهُمَا تَزَوَّدَاهُ مَعًا لِسَفَرِهِمَا، فَكَانَ حَمْلُ أَحَدِهِمَا ذَلِكَ مُضَافًا إِلَى أَنَّهُ حَمْلٌ مِنْهُمَا، كَمَا يُقَالُ: خَرَجَ الْقَوْمُ وَحَمَلُوا مَعَهُمْ كَذَا مِنْ الزَّادِ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُ أَحَدُهُمَ؛ وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ عَنْ رَأْيِهِمْ وَأَمْرِهِمْ أُضِيفَ ذَلِكَ إِلَى جَمِيعِهِمْ، وكَذَلِكَ إِذَا نَسِيَهُ حَامِلُهُ فِي مَوْضِعٍ قِيلَ نَسِيَ الْقَوْمُ زَادَهُمْ، فَأُضِيفَ ذَلِكَ إِلَى الْجَمِيعِ بِنِسْيَانِ حَامِله ذَلِكَ، فَيُجْرَى الْكَلَامُ عَلَى الْجَمِيع وَالْفِعْل مِنْ وَاحِد. وكَذَلِكَ لأَنَّ اللَّهَ عَزَّ ذِكْرُهُ خَاطَبَ الْعَرَبَ بِلُغَتِهَم وَمَا يَتَعَارَفُونَهُ بَيْنَهُمْ مِنْ الْكَلَام

(**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**) أيّ: أَنَّ الْحُوتَ اتَّخَذَ طَرِيقَهُ الَّذِي سَلَكَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا؛ أيّ: يَذْهَبُ فِيهِ وَيَسْلُكُهُ. قَالَ بَعْضُهُمْ صَارَ طَرِيقُهُ الَّذِي يَسْلُك فِيهِ كَالْجَحْرِ. وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَثَرُهُ كَأَنَّهُ حَجَرٌ؛ فكانَ لاَ يَمَسُّ شَيْئًا مِنْ الْبَحْرِ إِلَّا يَبِسَ؛ حَتَّى يَكُونَ صَخْرَةً.

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضيَ اللّٰهُ عنهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ حِين ذَكَرَ حَدِيثَ ذَلِكَ: "مَا انْجَابَ مَاءٌ مُنْذُ كَانَ النَّاسُ غَيْرُهُ ثَبَتَ مَكَانَ الْحُوتِ الَّذِي فِيهِ فَانْجَابَ كَالْكُوَّةِ حَتَّى رَجَعَ إِلَيْهِ مُوسَى؛ فَرَأَى مَسْلَكَهُ فَقَالَ ذَلِكَ "مَا كُنَّا نَبْغِ". وعَنْ ابْن عَبَّاسٍ قَالَ: "جَاءَ فَرَأَى أَثَرَ جَنَاحَيْهِ فِي الطِّينِ حِين وَقَعَ فِي الْمَاءِ" وَحَلَّقَ بِيَدِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ صَارَ طَرِيقهُ فِي الْبَحْرِ مَاءً جَامِداً.

وعَنْ قَتَادَةَ: قَالَ سَرَبَ مِنْ الْجُرِّ حَتَّى أَفْضَى إِلَى الْبَحْرِ، فَجَعَلَ لاَ يَسْلُكُ فِيهِ طَرِيقًا إِلَّا صَارَ مَاءً جَامِدًا.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ إِنَّمَا اتَّخَذَ سَبِيلَهُ سَرَبًا فِي الْبِرِّ إِلَى الْمَاءِ؛ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِ لا فِي الْبَحْرِ. وقَالَ ابْن زَيْد: حُشِرَ الْحُوتُ فِي الْبَطْحَاءِ بَعْد مَوْتِهِ حِين أَحْيَاهُ اللَّهُ. وَالصَّوَابُ مِنْ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: "وَاتَّخَذَ الْحُوتُ طَرِيقَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا"، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ السَّرَبُ بِانْجِيَابٍ عَنْ الأَرْضِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُون بِجُمُودِ الْمَاءِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ بِتَحَوُّلِهِ حَجَرًا.

وَأَصَحُّ الأَقْوَالِ فِيهِ مَا رُوِيَ الْخَبَرُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّذِي ذَكَرْنَا (فَلَمَّا جَاوَزَا) أيّ: مُوسَى وَفَتَاهُ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ (قَالَ) مُوسَى (لِفَتَاهُ) يُوشَع (آتِنَا غَدَاءَنَا) أيّ: جِئْنَا بِغَدَائِنَا وَأَعْطِنَاهُ، كَمَا يُقَال أَتَى الْغَدَاءَ وَأَتَيْتُهُ، مِثْلُ: ذَهَبَ وَأَذْهَبْتُهُ (**لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**) أيّ: لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا عَنَاءً وَتَعَبًا، وَقَالَ ذَلِكَ مُوسَى فِيمَا ذَكَرَ بَعْدَ مَا جَاوَزَ الصَّخْرَةَ حِين أُلْقِيَ عَلَيْهِ الْجُوعُ؛ لِيَتَذَكَّر الْحُوتَ، وَيَرْجِعَ إِلَى مَوْضِعِ مَطْلَبِه.

(**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ**) أيّ: قَالَ الفَتَى لِمُوسَى "أَرَأَيْت إِذَا أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ هُنَالِكَ".

عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ الصَّخْرَةَ الَّتِي أَوَى إِلَيْهَا مُوسَى هِيَ الَّتِي دُونَ نَهَر الذِّئْبِ عَلَى الطَّرِيقِ (**وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ**) أيّ: وَمَا أَنْسَانِي الْحُوتَ إِلَّا الشَّيْطَانُ (**أَنْ أَذْكُرَهُ**) فَأَنْ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ رَدًّا عَلَى الْحُوتِ؛ لأَنَّ مَعْنَى الْكَلاَمِ: "وَمَا أَنْسَانِي أَنْ أَذْكُرَ الْحُوتَ

إِلَّا الشَّيْطَانُ، سَبَقَ الْحُوتُ إِلَى الْفِعْلِ، وَرَدَّ عَلَيْهِ قَوْلَه أَنْ أَذْكُرهُ (**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**) أيّ: فَكَانَ مُوسَى لَمَّا اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ يَعْجَبُ مِنْ سَرَبِ الْحُوتِ.

وعَنْ مُجَاهِدٍ: كان مُوسَى يَعْجَبُ مِنْ أَثَرِ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ وَدَوْرَاته الَّتِي غَابَ فِيهَا فَوَجَدَ عِنْدهَا خَضِرًا.

وقَالَ ابْن زَيْدٍ: أَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبُ مِنْ حُوتٍ كَانَ دَهْرًا مِنْ الدُّهُورِ يُؤْكَلُ مِنْهُ، ثُمَّ صَارَ حَيًّا حَتَّى حُشِرَ فِي الْبَحْرِ.

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: جَعَلَ الْحُوتُ لاَ يَمَسُّ شَيْئًا مِنْ الْبَحْرِ إِلَّا يَبِسَ؛ حَتَّى يَكُون صَخْرَةً، فَجَعَلَ نَبِيُّ اللَّه مُوسَى يَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ، فكَانَ سَرَبُ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ لِمُوسَى عَجَبًا.

(**قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ**) أيّ: قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ إِنَّ نِسْيَانك الْحُوتَ هو الَّذِي كُنَّا نَلْتَمِسُ وَنَطْلُبُ؛ لأَنَّ مُوسَى كَانَ قد قِيلَ لَهُ صَاحِبكُ الَّذِي تُرِيدهُ حَيْثُ تَنْسَى الْحُوتَ.

وعَنْ مُجَاهِدٍ: قَالَ مُوسَى فَذَلِكَ حِين أُخْبِرْتُ أَنِّي وَاجِدٌ خَضِرًا؛ حَيْثُ يَفُوتنِي الْحُوتُ أو حَيْثُ يُفَارِقنِي الْحُوتُ. وَقَوْلُه (**فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا**) أيّ: فَرَجَعَا فِي الطَّرِيقِ الَّذِي كَانَا قَطَعَاهُ نَاكِصَيْنِ عَلَى أَدْبَارِهِمَا يَقُصَّانِ آثَارِهِمَا الَّتِي كَانَا سَلَكَاهُمَا. وعَنْ مُجَاهِدٍ: اتَّبَعُ مُوسَى وَفَتَاهُ أَثَرَ الْحُوتِ بِشِقِّ الْبَحْرِ وَهُما رَاجِعَانِ.

وعَنْ قَتَادَةَ: رَجَعَا عَوْدَهُمَا عَلَى بَدْئِهِمَا.

وعَنْ أُبَيِّ بْن كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فِي قَوْلِه (فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) أَيّ: يَقُصَّانِ آثَارَهِمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى مَدْخِلِ الْحُوتِ.

وَقَوْلُه: (**فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا**) أيّ: وَهَبْنَا لَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا (**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**) أيّ: وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ عِنْدِنَا أَيْضًا عِلْمًا.

وعَنْ قَتَادَة: مِنْ عِنْدِنَا عِلْمًا. وقَوْله تَعَالَى (**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**) أيّ: قَالَ مُوسَى لِلْعَالِمِ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي عَلَّمَكَ اللَّهُ مَا هُوَ رَشَادٌ إِلَى الْحَقِّ وَدَلِيلٌ عَلَى الهُدَى؟

وَكَانَ سَبَبُ سَفَرِ مُوسَى عليه السلامُ وَفَتَاهُ وَلِقَائِهِ هَذَا الْعَالِمِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فِيمَا ذَكَرَ أَنَّ مُوسَى سُئِلَ هَلْ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ؟ فَقَالَ: لا، أَوْ حَدَّثَتْهُ نَفْسُه بِذَلِكَ فَكُرِهَ ذَلِكَ لَهُ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعْرِيفَهُ أَنَّ مِنْ عِبَادِهِ فِي الأَرْضِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يُحَتِّمَ عَلَى مَا لا عِلْم لَهُ بِهِ، وَلَكِنْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكِلَ ذَلِكَ إِلَى عَالِمِه.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ سَأَلَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى عَالِمٍ يَزْدَادُ مِنْ عِلْمِه إِلَى عِلْمِ نَفْسِه.

وعَنْ ابْن عَبَّاسٍ قَالَ: سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ وَقَالَ: رَبُّ أَيُّ عِبَادِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟

قَالَ: الَّذِي يَذْكُرُنِي وَلا يَنْسَانِي. قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَقْضَى؟ قَالَ: الَّذِي يَقْضِي بِالْحَقِّ وَلا يَتَّبِعُ الْهَوَى. قَالَ: أَيْ رَبُّ؛ أَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟

قَالَ: الَّذِي يَبْتَغِي عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِ نَفْسِه عَسَى أَنْ يُصِيبَ كَلِمَةً تَهْدِيه إِلَى هُدىً أَوْ تَرُدَّهُ عَنْ رَدىً. قَالَ: رَبُّ فَهَلْ فِي الأَرْضِ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: رَبُّ فَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: الْخَضِرُ. قَالَ: وَأَيْنَ أَطْلُبهُ؟ قَالَ: عَلَى السَّاحِلِ عِنْد الصَّخْرَة الَّتِي يَنْفَلِتُ

عِنْدَهَا الْحُوتُ. فَخَرَجَ مُوسَى يَطْلُبهُ حَتَّى كَانَ مَا ذَكَرَ اللَّهُ، وَانْتَهَى إِلَيْهِ مُوسَى عِنْد الصَّخْرَةِ، فَسَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَسْتَصْحِبَنِي. قَالَ: إِنَّك لَنْ تُطِيق صُحْبَتِي. قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَإِنْ صَحِبْتَنِي فَلاَ تَسْأَلنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا".

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: دَخَلْتُ على ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِنْدَهُ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب فَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَا أَبَا الْعَبَّاس؛ إِنَّ نَوْفًا ابْنَ امْرَأَةِ كَعْبٍ يَزْعُمُ عَنْ كَعْبٍ أَنَّ مُوسَى النَّبِيَّ الَّذِي طَلَبَ الْعَالِمَ إِنَّمَا هُوَ مُوسَى بْن ميشَا.

قَالَ ابْن عَبَّاسٍ: أَنَوْفٌ يَقُولُ هَذَا؟ فَقُلْتُ لَهُ: نَعَمْ؛ أَنَا سَمِعْتُ نَوْفًا يَقُولُ ذَلِكَ.

قَالَ: أَنْتَ سَمِعْتُه يَا سَعِيدُ؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَ: كَذَبَ نَوْفٌ؛ حَدَّثَنِي أُبَيٌّ بْنُ كَعْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَالَ: "إِنَّ مُوسَى نَبِيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ رَبَّهُ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ إِنْ كَانَ فِي عِبَادِكَ أَحَدٌ هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي فَدُلَّنِي عَلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ فِي عِبَادِي مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، ثُمَّ نَعَتَ لَهُ مَكَانَهُ وَأَذِنَ لَهُ فِي لُقِيّهِ. فَخَرَجَ مُوسَى وفَتَاهُ وَمَعَهُ حُوتٌ مَلِيحٌ، وَقَدْ قِيلَ لَهُ: إِذَا حَيِيَ هَذَا الْحُوتُ فِي مَكَانٍ فَصَاحِبُكُ هُنَالِكَ، وَقَدْ أَدْرَكْتَ حَاجَتَكَ. فَسَارَ حَتَّى جَهَدَهُ السَّيْرُ وَانْتَهَى إِلَى الصَّخْرَةِ وَإِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ، مَاءِ الْحَيَاة مَنْ شَرِبَ مِنْهُ خَلَدَ، وَلا يُقَارِبهُ شَيْءٌ مَيِّتٌ إِلا حَيِيَ. فَلَمَّا نَزَلاَ وَمَسَّ الْحُوتُ الْمَاءَ حَيِيَ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا. فَانْطَلَقا، فَلَمَّا جَاوَزَا مُنْقَلَبَهُ قَالَ مُوسَى آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا. قَالَ الْفَتَى: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا.

فَظَهَرَ مُوسَى عَلَى الصَّخْرَةِ حِينَ انْتَهَيَا إِلَيْهَا؛ فَإِذَا رَجُلٌ مُتَلَفِّفٌ فِي كِسَاءٍ لَهُ، فَسَلَّمَ مُوسَى فَرَدَّ عَلَيْهِ الْعَالِمُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا جَاءَ بِكَ؟ إِنْ كَانَ لَكَ فِي قَوْمِكَ لَشُغْلٌ؟ قَالَ لَهُ مُوسَى: جِئْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا.

وقولُه: (**قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) أيّ: إِنَّكَ لَنْ تُطِيقَ الصَّبْرَ مَعِيَ، وَذَلِكَ أَنِّي أَعْمَلُ بِبَاطِنِ عِلْمٍ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ وَلاَ عِلْمَ لَكَ إِلاّ بِظَاهِرٍ مِنْ الأُمُورِ فَلا تَصْبِرُ عَلَى مَا تَرَى مِنْ الأَفْعَال. فَقَالَ مُوسَى: بَلَى.

وقَولُه: (**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**) أَيّ: لأَنَّكَ إِنَّمَا تَعْرِفُ ظَاهِرَ مَا تَرَى مِنْ الْعَدْلِ، وَلَمْ تُحِطْ مِنْ عِلْمِ الْغَيْب بِمَا أَعْلَمُ. قَالَ: (**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**) وَإِنْ رَأَيْتَ مَا يُخَالِفُنِي (**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ**) وَإِنْ أَنْكَرْتَهُ (**حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**).

وقَوْله تَعَالَى: (**فَانْطَلَقَا**) أيّ: مُوسَى وَالْعَالِم يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْر يَتَعَرَّضَانِ النَّاسِ يَلْتَمِسَانِ مَنْ يَحْمِلهُمَا (**حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ**) أيّ: حَتَّى مَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ جَدِيدَةٌ وَثِيقَة لَمْ يُمَرّ بِهِمَا مِنْ السُّفُن أَحْسَنَ وَلا أَجْمَلَ وَلا أَوْثَقَ مِنْهَا فَسَأَلا أَهْلَهَا أَنْ يَحْمِلُوهُمَا فَحَمَلُوهُمَا (**خَرَقَهَا**) أيّ: فَلَمَّا اطْمَأَنَّا فِيهَا وَلَجَتْ بِهِمَا مَعَ أَهْلِهَا أَخْرَجَ العالِمُ مِنْقَارًا لَهُ وَمِطْرَقَةً ثُمَّ عَمَدَ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْهَا فَضَرَبَ فِيهَا بِالْمِنْقَارِ حَتَّى خَرَقَهَا، ثُمَّ أَخَذَ لَوْحًا فَطَبَّقَهُ عَلَيْهَا ثُمَّ جَلَسَ عَلَيْهَا يُرَقِّعُهَا (**قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا**) أيّ: قَالَ لَهُ مُوسَى وَقد رَأَى أَمْرًا فَظِعَ بِهِ أَخَرَقْتهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا بَعْد مَا

لَجَجْنَا فِي الْبَحْرِ (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**) أيّ: لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا عَظِيمًا، وَفَعَلْتَ فِعْلاً مُنْكَرًا.

وعَنْ قَتَادَةَ: عَجَبًا، أو نُكْرًا، أو مُنكَرًا. وَ"الإِمْرُ" فِي كَلاَمِ الْعَرَبِ هو "الدَّاهِيَةُ"، وَمِنْهُ قَوْلُ الرَّاجِز:

قَدْ لَقِيَ الأَقْرَانُ مِنِّي نُكْرًا دَاهِيَةً دَهْيَاءَ إِدًّا إِمْرًا

وَقال بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِكَلاَمِ الْعَرَبِ أَصْلُهُ: (كُلُّ شَيْءٍ شَدِيدٍ كَثِيرٍ)، وَقِيلَ لِلْقَوْمِ قَدْ أَمِرُوا إِذَا كَثُرُوا وَاشْتَدَّ أَمْرُهمْ. وَالْمَصْدَرُ مِنْهُ الآمِرُ، وَالاِسْمُ الإِمْرُ.

وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؛ فَقَرَأَ ذَلِكَ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ وَبَعْضُ الْكُوفِيِّينَ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا بِالتَّاءِ فِي لِتُغْرِقَ وَنَصَبَ الأَهْل بِمَعْنَى: لِتُغْرِقَ أَنْتَ أَيُّهَا الرَّجُلُ أَهْلُ هَذِهِ السَّفِينَةِ بِالْخَرْقِ الَّذِي خَرَقْتْ فِيهَا. وَقَرَأَهُ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْكُوفَةِ لِيَغْرَقَ بِالْيَاءِ وأَهْلهَا بِالرَّفْعِ، عَلَى أَنَّ الأَهْلَ هُمُ الَّذِينَ يَغْرَقُونَ.

وَالصَّوَاب مِنْ الْقَوْل فِي ذَلِكَ عِنْدِي أَنْ يُقَال: إِنَّهُمَا قِرَاءَتَانِ مَعْرُوفَتَانِ مُسْتَفِيضَتَانِ فِي قُرَّاءِ الأَمْصَارِ، مُتَّفِقَتَا الْمَعْنَى وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَلْفَاظُهمَا، فَبأَيِّ ذَلِكَ قَرَأَ الْقَارِئ فَمُصِيبٌ.

(**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) (**قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ**) أيّ: مَا تَرَكْتُ مِنْ عَهْدِكَ (**وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**) ثُمَّ خَرَجَا مِنْ السَّفِينَةِ (**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ**) أيّ: فلَمَّا أَتَيَا قَرْيَةً فَإِذَا بغِلْمَانٍ يَلْعَبُونَ خَلْفَهَا فِيهِمْ غُلاَمٌ لَيْسَ فِي الْغِلْمَانِ أَظْرَفَ مِنْهُ وَلا أَثْرَى وَلا أَوْضَأَ مِنْهُ، فَأَخَذَهُ بِيَدِهِ وَأَخَذَ حَجَرًا

فَضَرَبَ بِهِ رَأْسَهُ حَتَّى دَمَغَهُ فَقَتَلَهُ، فَرَأَى مُوسَى أَمْرًا فَظِيعًا لا صَبْرَ عَلَيْهِ، صَبِيٌّ صَغِيرٌ لا ذَنْبَ لَهُ (**قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ**) أَيْ: صَغِيرَةً (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**) (**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) (**قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا**) أيّ: قَدْ أُعْذِرْتَ فِي شَأْنِي (**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ**) فَهَدَمَهُ، ثُمَّ قَعَدَ يَبْنِيهِ، فَضَجِرَ مُوسَى مِمَّا رَآهُ يَصْنَعُ مِنْ التَّكْلِيفِ لِمَا لَيْسَ عَلَيْهِ صَبْرٌ (**قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**) أَيْ: قَدْ اسْتَطْعَمْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا، وَضِفْنَاهُمْ فَلَمْ يُضَيِّفُونَا، ثُمَّ قَعَدْتَ فِي غَيْرِ صَنِيعَةٍ، وَلَوْ شِئْتَ لأُعْطِيتَ عَلَيْهِ أَجْرًا فِي عَمَلِهِ (**قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**) (**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**) وَإِنَّمَا عِبْتُهَا لأَرُدَّهُ عَنْهَا، فَسَلِمَتْ حِين رَأَى الْعَيْبَ الَّذِي صَنَعْتُ بِهَا (**وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**). (**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**) كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: مَا كَانَ الْكَنْزُ إلا عِلْمًا (**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**) أَيْ مَا فَعَلْته عَنْ نَفْسِي (**ذَلِكَ**

تَأْوِيلُ مَالَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) وعَنْ عِكْرِمَةَ: قِيلَ لابْنِ عَبَّاسٍ لَمْ نَسْمَعْ لِفَتَى مُوسَى بِذِكْرٍ مِنْ حَدِيثٍ وَقَدْ كَانَ مَعَهُ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شَرِبَ الْفَتَى مِنْ الْمَاءِ فَخَلَدَ، فَأَخَذَهُ الْعَالِمُ فَطَابَقَ بِهِ سَفِينَةً، ثُمَّ أَرْسَلَهُ فِي الْبَحْرِ؛ فَإِنَّهَا لَتَمُوجُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَشْرَبَ مِنْهُ فَشَرِبَ(١).

تفسيرُ أنوارِ التنزيلِ وأسرارِ التأويلِ لِلبَيضاويِّ

(**وإذْقالَمُوسَى**) مُقدَّرٌ ب – أذْكُرْ – (**لِفَتاهُ**) يُوشَعَ بنِ نُونٍ بنِ إفرائيمِ بنِ يُوسُفَ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ؛ فإنَّه كان يَخدُمُهُ ويتبعُه؛ ولذلكَ سمَّاهُ "فَتاهُ"، وقيلَ عَبْدُهُ (**لاأبْرَحُ**) أيّ: لا أزالُ أسيرُ؛ فَحُذِفَ الخبرُ لِدلالةِ حالِه وهيَ السَّفَرُ، ويجوزُ أنْ يكونَ أصلُهُ لا يَبْرَحُ مَسيري (**حتَّىأبْلُغَ**) وهو الخَبرُ، فَحُذِفَ المُضافُ وأُقِيمَ المُضافُ إليهِ مُقامَهُ؛ فانقلبَ الضميرُ والفعل، أوْ أنْ يكونَ بمعنَى: "لا أزُولُ عَمَّا أنا عَلَيهِ مِنَ السَّيرِ والطلبِ ولا أُفارِقُهُ فلا يسْتَدْعي الخبرَ

(**مَجْمَعَالبَحْرَينِ**) هو مُلتقَى بَحْرَي "فارِس والرُّوم" مِمَّا يلي المَشْرِقَ وَعْدَ لِقاءِ الخَضرِ فيهِ، وقيلَ: هُما البَحْرانِ "مُوسَى والخَضرُ" عليهِما السلامُ؛ فإنَّ مُوسَى كان بَحْرَ عِلْمِ الظاهِرِ، والخَضرَ كان بَحْرَ عِلْمِ الباطِنِ.

١) تفسير الطبري: (ج١٨/ص٥٥- ٨٨).

وقُرِئَ "مَجْمِعِ" بكَسْرِ المِيمِ على الشُّذوذِ مِن يَفعَلُ كـ"المَشْرِقِ والمَطْلِعِ" (**أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**) أوْ أسيرُ زَمانًا طويلاً؛ حتَّى يقعَ (بلوغُ المجْمَعِ، أوْ مُضِي الحِقَبِ، أو التيقُّنُ بِفَواتِ المجْمَع). والحُقْبُ هو "الدَّهْرُ" وقيلَ: ثمانونَ سَنةً، وقيلَ: سبْعُونَ.

رُوِيَ أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ خَطَبَ الناسَ بعدَ هلاكِ القِبْطِ ودُخُولِهِ مِصْرَ خُطبَةً بليغةً فأُعْجِبَ بِها فقِيلَ لهُ: "هل تعلمُ أحداً أعلمَ مِنْكَ"؟ فقالَ: "لا". فأوحَى اللهُ إليهِ بلْ أعْلَمُ مِنْكَ عَبْدُنا الخَضرُ، وهوَ بِمَجْمَعِ البَحْرَينِ. وكان الخَضِرُ في أيَّامِ "افريدونَ" وكان على مُقدِّمةِ جيشِ ذِي القَرْنَينِ، وبَقِيَ إلى أيَّامِ مُوسَى.

وقيلَ: إنّ مُوسَى عليهِ السلامُ سألَ رَبَّهُ: "أيُّ عِبادِكَ أحبُّ إليكَ"؟

قالَ: "الذي يَذْكُرُني ولا يَنْساني".

قالَ: "فأيُّ عِبادِكَ أقْضَى"؟

قالَ: الذي يقْضِي بِالحقِّ ولا يَتَّبِعُ الهَوى".

قالَ: "فأيُّ عِبادِكَ أعلَمُ"؟

قالَ: "الذي يبتَغِي عِلْمَ الناسِ إلى عِلْمِهِ؛ عَسَى أنْ يُصِيبَ كَلِمةً تَدُلُّهُ على هُدَىً، أو تَرُدُّهُ عن رَدىً".

فقالَ: "إنْ كانَ في عِبادِكَ أعْلَمُ مِنِّي فَدُلَّنِي عليهِ".

قالَ: "أعلَمُ مِنكَ الخَضرُ".

قالَ: "أينَ أطلُبُه"؟

قالَ: "على الساحِلِ عِندَ الصَّخْرَةِ".

قالَ: "كيفَ لي بهِ"؟

قالَ: " تأخُذُ حُوتًا في مِكْتَلٍ؛ فحيثُ فَقَدتَهُ فهُوَ هُناكَ" .

فقالَ لِفَتاه: " إذا فَقَدْتَ الحُوتَ فأخْبِرني فَذَهَبا يَمْشِيانِ" .

(**فلمَّابَلَغامَجْمَعَبَينِهِما**) أيّ: مَجْمَعَ البَحْرَينِ، وبينَهُما ظَرفٌ أُضِيفَ إليهِ على الاتِّساعِ، أوْ بِمعنَى الوصلِ (**نَسِياحُوتَهُما**) نَسِيَ مُوسَى عليهِ السلامُ أنْ يَطْلُبَهُ ويتعرَّفَ حالَه، ونَسِيَ يُوشَعُ أنْ يَذْكُرَ لهُ ما رأى مِن عَودَةِ الحياةِ إليهِ وَوُقوعِهِ في البحرِ.

رُوِيَ أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ رَقدَ فاضْطَرَبَ الحُوتُ المَشويُّ وَوَثبَ في البحرِ؛ وذَلِكَ مُعْجِزَةٌ لِ"مُوسَى أو الخَضرِ"، وقيلَ: توضَّأ يُوشَعُ مِن عَينِ الحياةِ فانتضَحَ الماءُ عليهِ؛ فعاشَ وَوثبَ في الماءِ،

وقيلَ: نَسِيا تَفقُّدَ أمْرِهِ وما يَكُونُ مِنهُ أمارةٌ على الظَّفرِ بالمطلوبِ (**فاتَّخَذَسَبِيلَهُفِي البَحرِسَرَبًا**) فاتَّخَذَ الحُوتُ طريقَهُ في البَحرِ مَسْلَكًا.

وقيلَ: أمْسَكَ اللهُ جَرْيَةَ الماءِ على الحُوتِ؛ فَصارَ كالطَّاقِ عليهِ، ونَصْبُهُ على المَفْعُولِ الثاني، في البَحرِ حالٌ مِنهُ أوْ مِن السبيلِ، ويَجُوزُ تعلُّقُهُ ب" اتَّخَذَ" .

(**فلمَّاجاوَزا**) مَجْمَعَ البَحْرَينِ (**قالِلِفَتاهُآتِناغَداءنا**) ما نَتغذَّى بِه (**لَقَدْلَقِينامِن سَفَرِناهذانَصَبًا**) قيلَ" لم يُنْصَبْ حتَّى جاوزَ المَوعِدَ؛ فلمَّا جاوَزَهُ وسارَ الليلةَ والغَد إلى الظُّهْرِ أُلْقِي عليهِ الجُوعُ والنَّصَبُ، وقيلَ: لم يَعِيَ مُوسَى في سفرٍ غَيرِه ويُؤيِّدُه التقييدُ باسْمِ الإشارةِ (**قالَأرأيتَإذْأوَيْنا**) أرأيتَ ما دَهانِي إذْ أوَيْنا (**إلى الصَّخْرَةِ**) يُعَيِّنُ الصَّخرَةَ التي رَقدَ عِندَها مُوسَى، وقيلَ: هي الصَّخْرَةُ التي دُونَ نهرِ

الزيتِ (**فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ**) فَقَدتُهُ أو نَسِيتُ ذِكْرَ ما رأيتُ مِنهُ (**وما أنْسانِيهِ إلَّا الشَّيطانُ أنْ أذْكُرَهُ**) أيّ: وما أنْساني ذِكْرَهُ إلَّا الشيطانُ، وأنْ أذْكُرَهُ بَدَلٌ مِن الضميرِ.

وقُرِئَ: "أنْ أذكُرَكه وهو اعتذارٌ عن نِسيانِه بِشُغْلِ الشيطانِ لهُ بِوساوسِه، والحالُ وإنْ كانتْ عَجِيبةً لا يُنْسَى مِثلُها، ولعلَّهُ نَسِيَ ذلكَ لاسْتِغْراقِه في الاستِبْصارِ والانجذابِ إلى جَنابِ القُدُسِ بما عَراهُ مِن مُشاهَدةِ الآياتِ الباهِرَةِ؛ وإنَّما نَسبَهُ إلى الشيطانِ هَضْمًا لِنَفْسِه (**واتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَبًا**) سَبيلاً عَجَبًا؛ وهُو كونُه كالسَّرَبِ، أوْ اتِّخاذًا عَجبًا، والمَفعولُ الثاني هو الظَّرفُ، وقيلَ: هُو مَصدرُ فعلِه المُضمَرِ، أيّ قالَ في آخرِ كلامِه أو قالَ مُوسَى في جَوابِه عَجَبًا، تَعجُّبًا مِن تلكَ الحالِ. وقِيلَ: الفعلُ لِمُوسَى أيّ اتَّخَذَ مُوسَى سبيلَ الحُوتِ في البَحر عَجَبًا (قالَ ذَلِكَ) أيّ: أمرُ الحُوتِ (**ما كُنَّا نَبْغِ**) نَطلُبُ؛ لأنَّه أمارةُ المَطلوبِ

(**فارْتَدَّا على آثارِهِما**) فَرَجَعا في الطريقِ الذي جاءا فيهِ (**قَصَصًا**) يَقُصَّانِ قَصَصًا؛ أيّ: يتبَعانِ آثارَهُما اتِّباعًا، أو مُتقَصِّينَ حتّى أتيا الصَّخْرةَ (**فَوَجَدا عَبْدًا مِن عِبادِنا**) الجُمهُورُ على أنَّه الخَضرُ عليهِ السلامُ واسْمُه "بليا بنُ ملكانِ"، وقيلَ: "اليَسَعَ"، وقيلَ: "إلياس" (**آتَيناهُ رَحْمَةً مِن عِنْدِنا**) هِيَ "الوحْي والنُّبوَّةُ" (**وعَلَّمْناهُ مِن لَدُنَّا عِلْمًا**) مِمَّا يختَصُّ بِنا ولا يُعْلَمُ إلَّا بِتَوفِيقِنا وهُو عِلْمُ

الغُيوبِ ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ على شَرْطِ أنْ تُعلِّمَني وهُو في مَوضِعِ الحالِ مِن الكافِ ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ عِلْمًا ذا رَشَدٍ وهُو إصابةُ الخَيرِ.

وقرأَ البَصْرِيانِ بِفتْحَتَينِ وهُما لُغَتانِ، وهو مَفعُولُ تُعلِّمَنِ مِن عِلْمِ الذي لهُ مَفعُولٌ واحد. ويجوزُ أن يكونَ رَشَدًا عِلَّةً ل"أتَّبِعُكَ"، أوْ مَصدَرًا بإضْمارِ فِعلِه. ولا يُنافي نبوَّتَه وكونَه صاحِبَ شريعةٍ أنْ يتعلَّمَ مِن غَيرِه ما لم يَكُنْ شَرْطًا في أبوابِ الدِّينِ؛ فإنَّ الرَّسُولَ ينبغي أنْ يكونَ أعلمَ ممَّنْ أرسلَ إليهِ فيما بعثَ بهِ مِن أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه لا مُطلقًا، وقَد راعَى مُوسَى عليهِ السلامُ في ذلكَ غايةَ التواضُعِ والأدبِ فاسْتَجْهَلَ نَفْسَه، واستأذنَ أن يكونَ تابِعًا لهُ، وسألَ مِنهُ أنْ يُرْشِدَهُ ويُنعِمَ عليهِ بتعليمِ بعضِ ما أنعمَ اللهُ عليهِ.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نفَى عنهُ استطاعةَ الصَّبْرِ مَعهُ على وُجوهٍ مِن التأكيدِ كأنَّها ممَّا لا يَصِحُّ ولا يَستقِيمُ، وعلَّلَ ذلكَ واعتذرَ عنهُ بِقَولِه ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أيّ: وكيفَ تَصبرُ وأنتَ نبيٌّ على ما أتولَّى مِن أُمورٍ ظواهِرُها مَناكِيرُ وبَواطِنُها لمْ يُحِطْ بِها خُبْرَكَ.

وخُبْرًا (تمييزٌ أو مَصدرٌ)؛ لأنَّ لم تُحِطْ به بمعنَى لم تُخْبِرْه.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ مَعكَ غيرَ مُنكِرٍ عليكَ ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ عَطفٌ على صابِرًا؛ أيّ: ستجِدُني صابِرًا وغيرَ عاصٍ أو على ستَجِدُني.

وتعليقُ الوعدِ بالمشيئةِ إمَّا لِلتيمُّنِ أو لِعلْمِه بِصُعوبَةِ الأمرِ؛ فإنّ مُشاهَدةَ الفسادِ والصبرَ على خِلافِ المُعتادِ شديدٌ، وفيه دليلٌ على أنّ أفعالَ العِبادِ واقعةٌ بِمَشيئةِ اللهِ

تعالى (**قالَ فإنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسأَلْنِي عنْ شيءٍ**) فلا تُفاتِحْنِي بالسُّؤالِ عن شيءٍ أنكَرْتَهُ مِنِّي ولمْ تَعْلَمْ وَجْهَ صِحَّتِه (**حتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**) حتَّى أبْتَدِئَكَ بِبَيانِه. وقرأَ "نافعٌ وابنُ عامرٍ" فلا تسألْنِّي بالنونِ الثقيلةِ.

(فانْطلَقا) على الساحلِ يَطْلُبانِ سَفِينةً (**حتَّى إذا رَكِبا في السَّفِينَةِ خَرَقَها**) أخذَ الخَضرُ فأسًا فَخَرقَ السفينةَ؛ بأنْ قَلَعَ لوحَينِ مِن ألواحِها (**قالَ أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَها**) فإنَّ خَرقَها سببٌ لِدُخولِ الماءِ فيها المُفْضِي إلى غَرَقِ أهلِها. وقُرِئَ "لِتُغَرِّقَ" بالتشديدِ للتكثيرِ، وقرأَ "حمزةُ والكِسائيُّ" لِيُغْرِقَ أهلَها على إسنادِه إلى الأهلِ (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إمْرًا**) أتيتَ أمْرًا عظِيمًا مِن أمرِ الأمرِ إذا عَظُمَ

(**قالَ ألَمْ أقُلْ إنَّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) تذكيرٌ لِما ذَكَرَهُ قَبْلُ (**قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ**) بالذي نَسِيتُه أو بِشيءٍ نَسِيتُه؛ يعني: وَصيَّتَهُ بأنْ لا يعترِضَ عليهِ أو بِنِسياني إيّاها وهُو اعتذارٌ بالنِّسيانِ أخْرَجَهُ في مَعْرِضِ النَّهي عن المُؤاخَذةِ مع قيامِ المانِعِ لها، وقيلَ: أرادَ بِالنِّسيانِ الترْكَ؛ أيّ: لا تُؤاخِذْني بِما تَرَكْتُ مِن وَصيَّتِكَ أوَّلَ مَرَّةٍ، وقيلَ: إنَّه مِن مَعاريضِ الكلامِ؛ والمُرادُ شيءٌ آخرُ نَسِيَهُ (**ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أمْرِي عُسْرًا**) ولا تغشني عُسْرًا مِن أمْري بالمُضايَقةِ والمُؤاخَذةِ على المَنسيِّ فإنَّ ذلكَ يعسرُ على مُتابَعَتِكَ.

و"عُسْرًا" مفعولٌ ثانٍ لِـ"تُرْهِق"، ويُقالُ رَهَقَهُ: إذا غَشِيَهُ وأرْهَقَهُ إيَّاهُ، وقُرِئَ "عُسُرًا" بِضَمَّتَينِ.

(**فانْطلَقا**) بعدَما خَرَجا مِن السفينَةِ (**حتَّى إذالَقِياغُلامًافَقَتلَهُ**) قِيلَ: فَتلَ عُنُقَهُ، وقِيلَ: ضَربَ بِرأسِه الحائِطَ، وقِيلَ: أضْجَعَهُ فذبَحَهُ، والفاءُ لِلدلالةِ على أنَّه عِندما لَقيَهُ قَتلَهُ مِن غَيرِ تَروٍ واستِكشافِ حالٍ؛ ولِذلكَ (**قالَأقَتَلْتَنَفْسًازَكِيَّةًبِغَيرِ نَفْسٍ**) أيّ: طاهِرةً مِن الذُّنوبِ. وقرأَ "ابنُ كثيرٍ ونافِعٌ وأبو عَمْرٍو ورُوَيْسٍ عن يَعقوب "زاكِيةً" والأوَّلُ أبْلَغُ، وقالَ "أبو عَمْرٍو" (الزَّاكِيةُ) التي لم تُذْنِبْ قطُّ، و(الزَّكِيَّةُ) التي أذنَبَتْ ثمَّ استغفَرَتْ، ولعلَّهُ اختارَ الأوَّلَ لِذلكَ؛ فإنَّها كانتْ صغيرةً ولم تبلُغْ الحُلُمَ، أوْ أنَّه لمْ يَرَها قَد أذْنبَتْ ذَنْبًا يَقتضِي قتلَها، أوْ قتلَتَ نفْسًا فَتُقادَ بِها، نَبَّهَ بِه على أنَّ القتلَ إنَّما يُباحُ (حدًّا أو قِصاصًا)، وكِلا الأمْرَينِ مُنْتَفٍ.

ولعلَّ تغييرَ النظْمِ بأنْ جعلَ في الأُولى (خَرْقَها) جزاءَ واعتِراضَ موسَى عليهِ السلامُ مُستأنَفًا، وفي الثانيةِ (قتلَهُ) مِن جُملَةِ الشرطِ واعتراضَه جزاءً؛ لأنَّ القتلَ أقبحُ والاعتراضُ عليهِ أدْخَلُ؛ فكانَ جديراً بأنْ يَجْعَلَهُ عُمْدةَ الكلامِ؛ ولِذلكَ فصَّلَهُ بِقَولِه (**لَقَدْجِئْتَشَيئًانُكْرًا**) أيّ: مُنْكَرًا.

وقرأَ "نافعٌ في روايةِ قالونَ وورشٌ وابنُ عامِرٍ ويَعقوب وأبو بكْرٍ" (نُكُرًا) بِضَمَّتَينِ (**قالَألَمْأقُلْلكَإنَّكَلنْتَسْتَطِيعَمَعِيَصَبْرًا**) زادَ فيه (لكَ) مُكافحةً بالعِتابِ على رَفْضِ الوصيَّةِ، ووُسِما بِقِلَّةِ الثباتِ والصَّبْرِ؛ لِما تكرَّرَ مِنهُ الاشمِئزازُ والاستِنكارُ، ولم يَرْعَوِ بِالتذكِيرِ أوَّلَ مرَّةٍ حتَّى زادَ في الاستِنكارِ في المرَّةِ الثانيةِ.

(**قالَ إنْ سألْتُكَ عنْ شَيءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي**) وإنْ سألْتُ صُحْبَتَكَ بعدَ ذلكَ فلا تجْعَلْنِي صاحِبَكَ (**قدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا**)؛ أيّ: قدْ وَجَدْتُ عُذْرًا مِن قِبَلِي لمّا خالَفْتُكَ ثلاثَ مرَّاتٍ.

وعن رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "رَحِمَ اللهُ أخي مُوسَى اسْتَحْيا فقالَ ذلكَ؛ لو لَبِثَ معَ صاحِبِهِ لأبْصَرَ أعْجَبَ الأعاجِيبِ".

وقرأَ "نافعٌ وأبو بكْرٍ" (مِنْ لَدُنِي) بتحريكِ النونِ والاكتفاءِ بها عن نُونِ الدّعامةِ.

(**فانْطَلَقا حتَّى إذا أتَيا أهْلَ قَرْيةٍ**) قِيلَ: "أنطاكيةَ"، وقيلَ: "أبلةُ البصْرَةِ"، وقيلَ: "باجروان أرمينية".

(**اسْتَطْعَما أهْلَها فأبَوا أنْ يُضَيِّفُوهُما**) وقُرِئَ "يُضيفُوهُما" مِن أضافَهُ، يُقالُ: ضافَهُ؛ إذا نَزَلَ بهِ ضَيفًا، وأضافَهُ وضَيَّفَهُ: أنْزَلَهُ.

(**فَوَجَدا فِيها جِدارًا يُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ**) يُدانِي أنْ يَسْقُطَ؛ فاسْتُعِيرَتِ الإرادةُ لِلمُشارَفةِ، كما استُعِيرَ لها الهَمُّ والعَزْمُ فقالَ: يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أبي بَراءٍ

ويَعْدِلُ عَن دِماءِ بَنِي عَقِيلِ

وانْقَضَّ انْفَعَلَ مِنْ قَضَضْتُهُ إذا كَسَرْتُهُ، ومِنهُ انْقِضاضُ الطَّيرِ لِهُوِيِّهِ، أوْ أفعلَّ مِن النَّقْضِ، وقُرِئَ "أنْ يَنْقَضَّ" و"أنْ يَنقاض" بالضَّادِ المُهمَلَةِ مِن انقاضَتِ السِّنُّ إذا انْشَقَّتْ طُولاً (فأقامَهُ) بِعمارَتِه أو بِعَمودِ عَمدَهُ بِهِ، وقيلَ: مَسَحَهُ بِيَدِهِ فقامَ، وقيلَ: نَقضَهُ وبَناهُ.

(**قالَ لو شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيهِ أجْرًا**) تحريضًا على أخْذِ الجعلِ لِيَنْتَعِشا به، أو تعريضًا بأنَّهُ فُضولُ لما في لو من النفيِ؛ كأنَّه لَّما رأى الحِرمانَ ومِساسَ الحاجَةِ واشتغالَهُ بما لا يَعنيهِ لم يَتمالَكْ نفْسَهُ. و"اتَّخَذَ" افْتعَلَ من تَخِذَ كاتباع من تبعَ وليس من الأخْذِ عندَ البّصريين. وقرأَ "ابنُ كثيرٍ والبصريانِ" لَتَّخَذْتَ"؛ أيّ: لأخَذْتَ.

(**قالَ هَذا فِراقُ بَيني وبَينِكَ**) وفي ذلكَ الإشارةُ إلى الفِراقِ المَوعُودِ بقَولِه "فلا تُصاحِبْني"، أوْ إلى الاعتِراضِ الثالثِ أو الوقْتِ؛ أيّ: هذا الاعتراضُ هو سَبَبُ فِراقِنا، أو هذا الوقتُ وقْتُه. وإضافةُ الفِراقِ إلى البَينِ إضافةُ المَصدَرِ إلى الظَّرْفِ على الاتِّساعِ، وقَد قُرِئَ على الأصلِ (**سأنَبِّئُكَ بِتأويلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيهِ صَبْرًا**) بالخَبرِ الباطنِ فيما لم تَستَطِعِ الصبْرَ عليه؛ لِكَونِه مُنْكرًا من حيث الظاهرُ.

(**أمّا السَّفِينَةُ فكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ في البَحْرِ**) لمَخاوِيجَ؛ وهو دليلٌ على أنّ المِسْكِينَ يُطلَقُ على مَنْ يَمْلِكُ شيئًا إذا لم يَكْفِه، وقيلَ: سُمُّوا مَساكِينَ لِعَجْزِهِم عن دَفْعِ المَلِكِ، أو لِزَمانَتِهِم؛ فإنَّها كانتْ لِعَشَرَةِ إخْوةٍ؛ خمْسةٌ زَمْنَى، وخمْسةٌ يَعملُونَ في البحرِ.

(**فأرَدتُ أنْ أعِيبَها**) أنْ أجْعلَها ذاتَ عَيبٍ (**وكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ**) قُدَّامَهُمْ أو خَلْفَهُمْ وكانَ رُجوعُهُم عليهِ واسْمُه "جلندي بن كركر"، وقيلَ: "منوار بن جلندي الأزْدِيّ".

(**يأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**) من أصحابِها، وكانَ حقُّ النَّظْمِ أن يتأخَّرَ قولُه "فأرَدتُ أنْ أعِيبَها" عنْ قولِه "وكانَ وراءَهُمْ مَلِكٌ"؛ لأنَّ إرادةَ التعيُّبِ مُسبَّبةٌ عن خَوفِ

الغَصْبِ، وإنَّما قُدِّمَ لِلعِنايَةِ، أوْ لَمَّا كان مَجمُوعُ الأمْرَينِ (خَوفُ الغَصْبِ ومَسْكَنُهُ الملاك رَتَّبَهُ على أقْوى الجَزأينِ وادَّعاهُما وعَقَّبَهُ بالآخَرِ على سبيلِ التقييدِ والتتميمِ). وقُرئَ "كُلَّ سَفِينَةٍ صالِحَةٍ" والمَعنى عَلَيها.

(**وأمَّا الغُلامُ فكانَ أبَواهُ مُؤمِنَينِ فَخَشِينا أنْ يُرهِقَهُما**) أنْ يُغْشِيهِما (**طُغيانًا وكُفْرًا**) بِعُقوقِه فَيلْحَقهُما شرًّا، أوْ يَقْرِنَ بإيمانِها طُغيانَهُ وكُفْرَهُ؛ فيجتمعَ في بيتٍ واحدٍ مُؤمِنانِ وطاغٍ كافِرٌ، أو يُعَدِّيهِما بِعِلَّتِهِ فَيَرْتدَّا بإضْلالِه أو بِمُمالأتِه على طُغيانِه وكُفرِه حِيالَهُ؛ وإنّما خَشِيَ ذلكَ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى أعلَمَهُ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللّهُ تعالى عنهُما أنَّ نَجْدةَ الحروريَّ كتبَ إليهِ كيفَ قتلَهُ وقَد نهَى النبيُّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ عن قتْلِ الوالدانِ فكتبَ إليهِ إنْ كُنْتَ عَلِمْتَ مِن حالِ الولدانِ ما عليهِ عالم مُوسَى فَلَكَ أنْ تَقْتُلَ.

(**فأرَدْنا أنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيرًا مِنْهُ**) أنْ يَرزقَهُما وَلَدًا خيرًا مِنهُ (**زكاةً**) طهارةً من الذُّنوبِ والأخلاقِ الرديئَة (**وأقرَبَ رُحْمًا**) رَحْمةً وعَطفًا على والِدَيه.

قيلَ: وُلِدَتْ لهُما جاريةٌ فتَزوَّجَها نبيٌّ فَولَدَتْ لهُ نبيًّا هدَى اللّهُ بهِ أُمَّةً مِن الأُمَمِ.

وقرأَ "نافعٌ وأبو عَمْرٍو" و(يُبْدِّلَهُما) بالتشديدِ، وقرأ "ابنُ عامرٍ ويعقوبُ وعاصمٌ" "رَحْمًا" بالتخفيفِ، وانتصابُه على التمييزِ والعامِلُ اسمُ التفضيلِ، وكذلك "زكاةً".

(**وأمّا الجِدارُ فكانَ لِغُلامَينِ يَتِيمَينِ في المَدِينةِ**) قيلَ: اسْمُهُما "أصرم وصريم"، واسمُ المَقْتولِ "جيسُور" (**وكانَ تَحتَهُ كَنْزٌ لَهُما**) مِنْ ذَهَبٍ وفِضَّةٍ رُوِيَ ذلكَ

مَرفُوعًا، والذَّمُّ على كَنْزِهما في قولِه تعالى (والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ)؛ لِمَنْ لا يُؤدِّي زَكاتَهُما وما تعلَّقَ بِهما مِن الحُقوقِ.

وقيلَ: من كتب العلم وقيلَ: كانَ لوحٌ مِن ذَهَبٍ مَكتُوبٌ فيهِ عَجِبْتُ لِمَنْ يُؤمِنُ بالقَدَرِ كيفَ يَحْزَنُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤمِنُ بِالرِّزْقِ كيفَ يَتْعَبُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤمِنُ بالحسابِ كيفَ يَغْفُلُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤمِنُ بِالمَوتِ كيفَ يَفْرَحُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ يَعْرِفُ الدُّنيا وتَقلُّبَها بِأهْلِها كيفَ يَطمَئِنُ إليَها. لا إلَهَ إلاّ اللّهُ مُحمَّدٌ رَسُولُ اللّهِ

(**وكانَأبُوهُماصالِحًا**) تنبيهٌ على أنَّ سَعيَهُ ذلكَ كان لِصَلاحِه. قيلَ: كانَ بينَهُما وبينَ الأبِ الذي حُفِظا فيهِ سَبْعَةُ آباء وكان سيَّاحًا واسمُهُ كاشِحٌ (**فأرادَرَبُّكَأنْ يَبْلُغاأشُدَّهُما**)؛ أيّ: الحُلُمَ وكَمالَ الرَّأيِ (**ويَسْتَخْرِجاكَنْزَهُمارَحْمَةًمِنْرَبِّكَ**) مَرحُومَينِ مِن ربِّكَ، ويجوزُ أنْ يكونَ عِلَّةً أو مَصدَرًا لِ (أرادَ)؛ فإنَّ إرادةَ الخيرِ رَحمَةٌ، وقيلَ: مُتعلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ تقديرُه (لقَدْ فَعَلْتُ ما فَعَلْتُ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)، ولعلَّ إسنادَ الإرادةِ أوَّلاً إلى نفْسِه؛ لأنَّه المُباشِرُ للتعييبِ، وثانيًا إلى اللّهِ تعالى ثُمَّ إلى نفْسِه؛ لأنّ التبديلَ بإهلاكِ الغُلامِ وإيجادِ اللّهِ بَدَلَهُ، وثالثًا إلى اللّهِ وَحْدَهُ؛ لأنَّهُ لا مَدخلَ له في بُلوغِ الغُلامَينِ. أوْ لأنَّ الأوَّلَ شرٌّ، والثالثُ خيرٌ، والثاني مُمتَزِجٌ، أو لاختلافِ حالِ العارفِ في الالتفاتِ إلى الوسائطِ

(**ومافَعلْتُهُ**) وما فَعلْتُ ما رأيْتَهُ (**عنْأمْرِي**) عنْ رأيي؛ وإنَّما فَعَلْتُهُ بأمْرِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، ومبنى ذلكَ: على أنَّه إذا تعارضَ ضَرَرانِ يجبُ تحمُّلُ أهونِهما لِدَفْعِ

أعظَمِهما وهو أصلٌ مُمهّد؛ غيرَ أنَّ الشرائعَ في تفاصيلِه مختلفةٌ (**ذلكَتأويلُمالم تَسطِععَلَيهِصَبرًا**)؛ أيّ: ما لمْ تَسْتَطِعْ فَحَذَفَ التاءَ تخفيفًا.

ومِن فوائدِ هذه القِصَّةِ أنّ لا يَعجَبَ المرءُ بِعِلْمِه، ولا يُبادِرَ إلى إنكارِ ما لمْ يَسْتَحْسِنْه؛ فلَعلَّ فيه سِرًّا لا يَعرفُه، وأنْ يُداوِمَ على التعلُّمِ ويتذلَّلَ لِلمُعَلِّمِ ويُراعيَ الأدبَ في المُقابِل، وأنْ يُنبَّهُ المُجْرِمُ على جُرْمِه ويَعفُوَ عنهُ؛ حتَّى يتحقَّقَ إصرارُه ثُمَّ يُهاجِرَ عنهُ[1].

تفسيرُ القُرطبيّ

هناك أربعُ مسائلَ في قولِه تعالى (**وإذْقالَمُوسَىلِفتاهُ**):

الأُولى: الجُمهورُ مِن العُلماءِ وأهلِ التاريخِ قالوا: أنّه مُوسَى بنُ عِمرانَ المذْكورُ في القرآنِ ليس فيه مُوسَى غيرهُ.

وقالتْ فِرقَةٌ مِنها نوفٌ البكالي إنَّه ليسَ ابنَ عِمرانَ؛ وإنَّما هُو مُوسَى بنُ مَنشا بنِ يُوسُفَ بنِ يَعقوب وكان نبيًّا قبلَ مُوسَى بنِ عِمرانَ.

وقد ردَّ هذا القولَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللّهُ عنهُما في صحيحِ البُخاريِّ وغَيرِه.

وفَتاهُ هُو يُوشَعُ بنُ نونٍ، وقَد مضَى ذِكْرُهُ في سُورتَي المائدةِ ويُوسُفَ.

ومَن قالَ هُو ابنُ منشا فليسَ الفتى يُوشَع بنُ نونٍ (**لاأبْرَحُ**)؛ أيّ: لا أزالَ أسِيْرُ.

قال الشاعرُ:

وأبرح ما أدامَ اللّهُ قومِي بِحَمْدِ اللّهِ مُنتَطقًا مجيدا

[1] تفسير البيضاوي: (ج٣/ص٢٨٦- ٢٩١).

وقيلَ: لا أُفارِقْكَ (**حتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَينِ**)؛ أيّ: مُلتَقاهُما. قال قتادةُ: هو بَحْرُ فارِسَ والرُّومِ. وقالَ مجاهدٌ عن ابنِ عطيَّةَ هو ذِراعٌ يَخْرُجُ مِن البحرِ المُحيطِ مِن شمالٍ إلى جنوبٍ في أرضِ فارسَ مِن وراءِ أذربيجانَ؛ فالرُّكْنُ الذي لاجْتِماعِ البَحْرَينِ مِمَّا يلي بَرَّ الشامِ هو مَجْمَعُ البَحرَينِ على هذا القولِ.

وقيلَ: هُما بَحْرُ الأُردنِّ وبَحْرُ القلزمِ. وقيلَ: مَجْمَعُ البَحْرَينِ عندَ طنْجَةَ.

ورُوِيَ عن أُبيٍّ بنِ كَعْبٍ أنَّه بأفريقيَّة. وقالَ السُّدِّيُّ: هُما الكرّ والرسّ بأرمينية.

وقال النَّقَّاشُ هو بحرُ الأندلسِ مِن البحرِ المُحيطِ.

وقالتْ فِرقةٌ: إنّما هُما مُوسَى والخَضرُ، وهذا قولٌ ضعيفٌ.

وحُكِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ ذلكَ لا يصحُّ؛ فإنَّ الأمرَ بَيِّنٌ مِن الأحاديثِ أنَّه إنَّما وُسِمَ لهُ بَحرُ ماءٍ.

وسببُ هَذهِ القِصَّةِ ما أخرجَهُ البُخاريُّ عن أُبيِّ بنِ كَعْبٍ أنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ يقولُ: " إنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ قامَ خَطِيبًا في بَني إسرائيلَ فَسُئِلَ أيُّ الناسِ أعلَمُ؟

فقالَ: أنا. فعَتَبَ اللهُ عليهِ؛ إذْ لمْ يَرُدَّ العِلْمَ إليهِ.

فأوحَى اللهُ إليهِ: إنَّ لي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَينِ هُوَ أعْلَمُ مِنْكَ.

قالَ مُوسَى: يا ربِّ كيفَ لِي بِهِ؟

قالَ: تأخُذ مَعكَ حُوتًا فتَجْعلَهُ في مِكْتَلٍ؛ فحيثُما فَقدتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ... " .

وقال ابنُ عبَّاسٍ: لمّا ظهرَ مُوسَى أنزلَ قومَهُ مِصرَ، فلمَّا استقرَّتْ بِهِمُ الدارُ أمَرَهُ اللهُ أن يُذَكِّرَهُمْ بأيَّامِ اللهِ، فخَطبَ في قومِهِ فذَكَّرَهُمْ بِما آتاهُمُ اللهُ مِن الخَيرِ والنِّعمَةِ؛ إذْ

نجَّاهُمْ مِن آلِ فِرعَونَ وأهْلَكَ عَدوَّهُمْ واسْتَخْلفَهُمْ في الأرضِ. ثمَّ قالَ: وكَلَّمَ اللهُ نبيَّكُمْ تكْليمًا، واصْطفاهُ لِنَفْسِه، وألقَى عليهِ مَحبَّةً مِنهُ، وآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سألْتُمُوهُ، وجَعلَكمُ أفْضَلَ أهلِ الأرضِ، ورزَقَكُمُ العِزَّ بَعْدَ الذُّلِّ، والغِنَى بَعْدَ الفَقْرِ، والتَّوراةَ بعدَ أنْ كُنْتُمْ جُهَّالاً. فقالَ لهُ رَجُلٌ مِن بَني إسرائيلَ: عَرَفْنا الذي تقولُ، فهلْ على وَجْهِ الأرضِ أحدٌ أعلمَ مِنْكَ يا نبيَّ اللهِ؟ قالَ: لا.

فعَتبَ اللهُ عليهِ حينَ لمْ يَرُدَّ العِلْمَ إلى اللهِ، فبَعَثَ اللهُ جِبْرِيلَ أنْ يا مُوسَى وما يُدْرِيكَ أينَ أضَعُ عِلْمِي؟ بَلَى؛ إنّ لي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحرَينِ أعلمُ مِنكَ... الحديث

قال العُلماءُ الأجلاّءُ: قولُه هُو أعلَمُ مِنْكَ؛ أيّ: بأحكامِ وَقائِعَ مُفَصَّلَةٍ وحُكْمِ نَوازِلَ مُعيَّنةٍ، لا مُطلَقًا؛ بدليلِ قولِ الخَضرِ لِمُوسَى: إنَّكَ على عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أعْلَمُهُ أنا، وأنا على عِلْمٍ عَلَمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أنتَ.

وعلى هذا فيَصْدُقُ على كُلِّ واحدٍ مِنهُما أنَّهُ أعلَمُ مِن الآخَرِ بالنسبةِ إلى ما يَعْلمُهُ كُلُّ واحدٍ مِنهُما ولا يَعلَمُه الآخَرُ. فلمَّا سَمِعَ مُوسَى هذا تشوَّقَتْ نفْسُه الفاضِلَةُ وهِمَّتُهُ العاليةُ لِتحصيلِ عِلْمِ ما لمْ يَعلَمْ، ولِقاءِ مَن قِيلَ فيهِ إنَّهُ أعلَمُ مِنْكَ.

فعَزمَ وسألَ سؤالَ الذليلِ كيفَ السبيلُ؟ فأمرَ بالارتِحالِ، وقيلَ لهُ: احمِلْ مَعكَ حُوتًا مالِحًا في مكتلٍ – وهو الزّنبيلُ – فحيثُ يَحيا وتفقدُهُ فَثَمَّ السَّبيلُ، فانطلقَ مع فتاهُ مُجتهِدًا قائلاً: لا أبرحُ حتَّى أبلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَينِ (**أوْ أمْضِي حُقُبًا**) بِضَمِّ الحاءِ والقافِ وهو الدَّهْرُ، والجَمعُ أحقابٌ. وقَد تُسكَّنُ قافُهُ فيُقالُ (حُقْبٌ).

قال عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهُما الحُقبُ: ثمانونَ سَنَةً. ويُقالُ: أكثرُ مِن ذلكَ. والجَمعُ حقابٌ. والحِقْبَةُ بكَسْرِ الحاءِ واحدةُ الحقبِ وهي السُّنونُ. وقالَ مجاهدٌ:

سبْعُونَ خريفًا. وقالَ قتادةُ: زمانٌ. وقال النَّحَّاسُ: الذي يَعرِفُه أهلُ اللغةِ أنّ الحقبَ والحقبَةَ زمانٌ مِن الدهرِ مُبْهَمٌ غيرُ مَحدُودٍ، كما أنَّ رهْطًا وقَومًا مُبْهَمٌ غيرُ مَحدُودٍ.

الثانية: في هذا مِن الفِقهِ رحلةُ العالِم في طلبِ الازديادِ مِن العِلْمِ، والاستعانَةِ على ذلك بالخادمِ والصَّاحبِ، واغتنامِ لقاءِ الفُضلاءِ والعُلماءِ – وإنْ بَعُدَتْ أقطارُهُم –؛ وذلكَ كان في دأبِ السَّلَفِ الصالِح، وبسببِ ذلك وَصَلَ المُرتَحِلُونَ إلى الحظِّ الراجحِ، وحصَلُوا على السعي الناجحِ؛ فَرَسخَتْ لهُم في العُلومِ أقدامٌ، وصحَّ لهُمْ مِن الذِّكْرِ والأجْرِ والفضْلِ أفضَلُ الأقسامِ.

قال البُخاريُّ: ورَحلَ جابرُ بنُ عَبْدِ اللهِ مَسيرَةَ شهْرٍ إلى عَبْدِ اللهِ بنِ أنيسٍ في حديثٍ.

الثالثة: الفتى في كلامِ العَرَبِ الشَّابُّ، ولَّما كانَ الخَدَمةُ أكثرَ ما يكُونُونَ فِتيانًا قِيلَ لِلخادمِ فتىً على جِهَةِ حُسْنِ الأدَبِ، ونَدبَتِ الشريعةُ إلى ذلك في قولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " لا يَقُلْ أحدُكُمْ عَبْدِي وَلا أمَتِي وليقلْ: فَتَاي وفَتاتِي " فَهذا نَدْبٌ إلى التواضُعِ، وقَد تقدَّم هذا في سُورةِ يُوسُفَ.

والفتى في الآيةِ هو الخادمُ وهو يُوشَعُ بنُ نونٍ بنِ إفراثيم بنِ يُوسُفَ عليهِ السلامُ. ويقالُ: هو ابنُ أختِ مُوسَى عليهِ السلامُ. وقيلَ: إنَّما سُمِّيَ فتى مُوسَى؛ لأنَّهُ لَزِمَهُ لِيتعلَّمَ مِنهُ وإنْ كانَ حُرًّا، وقيلَ: إنَّما سمَّاهُ فتىً؛ لأنَّه قامَ مَقامَ الفتى وهو العَبدُ، قال: (**تُراوِدُ فَتاها عنْ نَفْسِهِ..**) . (**وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ..**) .

قالَ ابنُ العربيِّ: فَظاهِرُ القُرآنِ يقتضِي أنَّهُ "عَبْدٌ" . وفي الحديثِ الشريفِ: أنَّهُ كان

يُوشَعُ بنُ نونٍ، وفي التفسيرِ: أنَّه ابنُ أخْتِهِ، وهذا كُلُّهُ مِمَّا لا يُقْطَعُ بهِ والتوقُّفُ فيهِ أسْلَمُ.

الرابعةُ: (**فلمَّابَلَغامَجْمَعَبَيْنِهِما**) الضميرُ في قولِه "بَينِهِما" لِلبَحرَينِ (**نَسِيا حُوتَهُما**) إنَّما كان النِّسيانُ مِن الفتَى وَحْدَهُ، والمَعنى: نَسِيَ أنْ يُعْلِمَ مُوسَى بِما رأى مِن حالٍ، فَنَسَبَ النِّسيانَ إليهِما لِلصُّحْبَةِ؛ مِثل قولِه تعالى: (يَخْرُجُ مِنْهُما اللؤْلُؤُ والمَرْجانُ)؛ وإنَّما يَخْرُجُ مِن المالِح، وقولِه: (يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ ألَمْ يأتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ..)؛ وإنَّما الرُّسلُ مِن الإنسِ لا مِن الجِنِّ

(**فاتَّخَذَسَبِيلَهُفِيالبَحْرِسَرَبًا**) عن سعيدٍ قالَ: فَبَيْنا هُو في ظِلِّ صَخْرَةٍ إذْ تَضْرِبُ الحُوت ومُوسَى نائِمٌ، فقالَ فَتاهُ: لا أُوقِظُهُ. حتَّى إذا استيقظَ نَسِيَ أنْ يُخْبِرَهُ، وتضربُ الحوتُ حتَّى دَخَلَ البَحرَ، فأمْسَكَ اللهُ عَنهُ جَريةَ البحرِ حتَّى كأنَّ أثَرَهُ في حجرٍ وحَلَّقَ بينَ إبْهامَيهِ واللَّتَينِ تَليانهما.

وفي روايةٍ: وأمسكَ اللهُ عن الحُوتِ جريةَ الماءِ فصارَ مِثلَ الطَّاقِ، فلمَّا استيقظَ نَسِيَ صاحِبُهُ أنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ. قال مُجاهِدٌ: والسِّرْبُ: المَسْلَكُ. وقالَ قتادةُ: جَمَدَ الماءُ فصارَ كالسِّرْبِ. وعندَ جُمهورِ المُفسِّرينَ: بَقِيَ مَوضِعُ سُلوكِ الحُوتِ فارِغًا، وأنَّ مُوسَى مَشَى عليهِ مُتبِّعًا لِلحُوتِ حتَّى أفضَى بهِ الطريقِ إلى جَزيرةِ في البَحرِ، وفيها وَجَدَ الخَضرَ. وظاهِرُ الرِّواياتِ: أنَّه إنَّما وَجَدَ الخَضرَ في ضفَّةِ البحرِ (**فلمَّاجاوَزا**)؛ أيّ: الحُوت مَنْسِيًّا مَتروكًا، وانطلَقا بَقيَّةَ يَومِهِما ولَيلتِهما حتّى إذا كان مِن الغَدِ (**قال**) مُوسَى (**لِفَتاهُآتِناغَداءَنالقَدْلَقِينامِنْسَفَرِناهذانَصبًا**) ولمْ يَجِدْ مُوسَى

النَّصبَ حتَّى جاوزَ المكانَ الذي أمرَ اللهُ بهِ، فقالَ لهُ فتاهُ (**أرأيتَ إذْ أوَينا إلى الصَّخرةِ فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ**) قِيلَ: إنَّ النِّسيانَ كان مِنهُما لِقَولِه تعالى: (نَسِيا) فَنَسَبَ النِّسيانِ إليهِما، وذلكَ لأنَّ مُوسَى هو الذي أمرَ بهِ فلمَّا مَضيا كان فَتاهُ الحامِل له حتَّى أوَيا إلى الصَّخرَةِ.

فلمَّا سألَ مُوسَى الغَداءَ نَسَبَ الفتَى النِّسيانَ إلى نَفْسِهِ عندَ المُخاطَبةِ؛ وإنَّما ذَكَرَ اللهُ نِسيانَهُما عندَ بُلوغِ مَجْمعَ البَحرينِ وهُو الصَّخْرةُ؛ فقَد كان مُوسَى شريكًا في النِّسيانِ؛ لأنَّ النِّسيانَ هو التأخيرُ؛ فلمَّا مَضيا مِن الصَّخرَةِ أخَّرا حُوتَهُما عن حَمْلِه فلمْ يَحْمِلْهُ واحِدٌ مِنهُما فجازَ أنْ يُنْسَبَ إليهِما؛ لأنَّهُما مَضيا وتَرَكا الحُوتَ.

وقولُه تعالى: (آتِنا غَداءَنا) فيهِ مسألةٌ واحدةٌ؛ ألاّ وهيَ اتِّخاذُ الزادِ في الأسفارِ؛ فهذا مُوسَى نبيُّ اللهِ وكليمُه قد اتَّخذَ الزادَ مَع مَعرِفَتِه بِرَبِّهِ وتَوكُّلِه عليهِ. واختلفَ في زادِ مُوسَى فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: كان حُوتًا مُمْلُوحًا في زنبيلٍ، وكانا يُصيبانِ مِنهُ غَداءً وعشاءً، فلمَّا انتهيا إلى الصَّخْرةِ على ساحلِ البحرِ، وَضَعَ فتاهُ المِكْتلَ، فأصابَ الحوتَ جَريُ البحرِ فتحرَّكَ الحوتُ في المِكْتَلِ، فَقلَبَ المِكْتَلَ وانْسَرَبَ الحُوتُ، ونَسِيَ الفتَى أنْ يَذْكُرَ قِصَّةَ الحُوتِ لِمُوسَى. وقيلَ: إنَّما كان الحُوتُ دليلاً على مَوضِعِ الخَضرِ لِقَولِه في الحديثِ الشريفِ: "احْمِلْ مَعَكَ حُوتًا في مِكْتَلٍ؛ فحيثُ فَقدتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ" وعلى هذا يُمْكِنُ أنْ يكونَ قد تزوَّدا شيئًا آخرَ غيرَ الحُوتِ.

وقال ابنُ عطِيَّةَ عن أبيهِ، سَمِعْتُ أبا الفضْلِ الجَوهريَّ يقولُ في وَعْظِهِ: مَشَى مُوسَى إلى المُناجاةِ فَبَقِيَ أربعينَ يومًا لم يَحْتَجْ إلى طعامٍ، ولَمَّا مَشَى إلى بشر لَحِقَهُ الجُوعُ في يومٍ أو بَعضِ يَومٍ. والنَّصَبَ: هو التَّعَبُ والمَشقَّةُ، وقيلَ: عنَى بهِ هُنا الجُوعَ، وفي

هذا دليلٌ على جوازِ الإخبارِ بما يَجِدُهُ الإنسانُ من الألمِ والأمراضِ، وأنَّ ذلك لا يقدحُ في الرِّضا ولا في التسليمِ لِلقَضاءِ إذا لمْ يَصدُرْ ذلكَ عن ضَجَرٍ ولا سَخَطٍ.

وفي روايةٍ: وأمسكَ اللهُ عن الحُوتِ جريةَ الماءِ فصارَ مِثلَ الطَّاقِ، فلمَّا استيقظَ نَسِيَ صاحِبُهُ أنْ يُخْبِرَهُ بالحُوتِ فانْطلَقا بَقيَّةَ يَومِهما وليلتِهما؛ حتَّى إذا كانَ من الغَدِ (قال مُوسَى لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لقَدْ لقِيْنا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَبًا). ولمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصبَ حتَّى جاوزَ المكانَ الذي أمرَ اللهُ بهِ، ف- (قالَ لهُ فَتاهُ أرأيتَ إذْ أوَيْنا إلى الصَّخْرَةِ فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وما أنْسانِيهِ إلاّ الشَّيطانُ أنْ أذْكُرَهُ).

(**وما أنْسانِيهِ إلّا الشَّيطانُ أنْ أذْكُرَهُ**) أنْ مع الفعلِ بتأويلِ المَصدَرِ، وهو منصوبٌ بدلَ اشتمالٍ من الضميرِ في أنْسانِيهِ، وهو بدلُ الظاهرِ من المُضْمَرِ؛ أيّ: وما أنْسانِي ذِكْرَهُ إلاّ الشَّيطانُ. وهذا إنَّما ذَكَرَهُ يُوشَعُ في مَعرِضِ الاعتذارِ لِقَولِ مُوسَى لا أُكلِّفُكَ إلاّ أنْ تُخْبِرَني بحيثُ يُفارِقُكَ الحُوتُ. فقالَ ما كلفت كثيراً، فاعتذرَ بذلكَ القولِ. وقولُه تعالى (**واتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَبًا**) يحتملُ أنْ يكونَ من قولِ يُوشَعَ لِمُوسَى؛ أيّ: اتَّخَذَ الحُوتُ سَبيلَهُ عَجَبًا للناسِ، ويحتملُ أن يكونَ تمامَ الخَبرِ، ثمَّ استأنفَ التعجيبَ فقالَ من نفْسِه عَجَبًا لهذا الأمرِ.

ومَوضِعُ العَجَبِ أن يكونَ حُوت قد ماتَ فأكَلَ شقَّهُ الأيسرَ ثمَّ حَيِيَ بعدَ ذلكَ.

قال أبو شُجاعٍ في كتابِ الطَّبريّ: رأيتهُ فإذا هُو شقُّحُوتٍ وعَينٌ واحدةٌ، وشقٌّ آخرُ ليسَ فيهِ شيءٌ. وقال ابنُ عطيَّةَ: وأنا رأيتُهُ والشقُّ الذي ليسَ فيهِ شَيءٌ عليهِ قِشْرَةٌ رَقيقةٌ ليستْ تحتَها شوكَةٌ.

ويحتملُ أنْ يكونَ قولُه: (**واتَّخَذَ سَبِيلَهُ**) إخباراً مِن اللهِ تعالى، وذلكَ على وَجْهَينِ:

إمّا أنْ يُخْبِرَ عن مُوسَى أنَّهُ اتَّخَذَ سبيلَ الحُوتِ من البحرِ عَجَبًا أيّ تعجب مِنهُ، وإمَّا أنْ يُخْبِرَ عن الحُوتِ أنّه اتَّخَذَ سَبِيلَهُ عَجَبًا لِلنَّاسِ.

ومِن غَريبِ ما رُويَ في البُخاريِّ عن ابنِ عبَّاسٍ مِن قَصَصِ هذه الآيةِ أنَّ الحُوتَ إنَّما حَيِيَ؛ لأنَّهُ مَسَّهُ ماءُ عَينٍ هناك تُدعَى عَينَ الحياةِ، ما مَسَّتْ قطُّ شيئًا إلاّ حَيِيَ. وفي التفسيرِ: إنَّ العلامةَ كانتْ أنْ يحيا الحُوتَ، فقيلَ: لَمَّا نَزَلَ مُوسَى بعدَ ما أجْهَدَهُ السَّفرُ على صَخرةٍ إلى جَنْبِها ماءُ الحياةِ أصابَ الحوتَ شيءٍ مِن ذلكَ الماءِ فحَيِيَ.

وقال التِّرمذيُّ في حَديثِه عن سُفيانَ يَزْعُمُ ناسٌ أنَّ تلك الصَّخْرةَ عِندَها عَينُ الحياةِ، ولا يُصيبُ ماؤها شيئًا إلاّ عاشَ، قال: وكانَ الحوتُ قد أكلَ مِنهُ فلمَّا قَطَرَ عليهِ الماءُ عاشَ.

وذكرَ صاحِبُ كتابِ العَروسِ في الصفحة ٢٩٠ أنّ مُوسَى عليهِ السلامُ توضَّأَ مِن عَينِ الحياةِ فقَطَرَتْ مِن لحْيَتِهِ على الحُوتِ قَطْرَةٌ فحَيِيَ فاللهُ أعلمُ

(قال) مُوسَى لِفَتاهُ (**ذلكَ ما كُنَّا نَبْغِ**) أيّ: أنّ أمرَ الحُوتِ وفَقْدَهُ هو الذي كُنّا نطلبُ فإنَّ الرَّجُلَ الذي جِئْنا لَهُ ثَمَّ (**فارتَدَّا على آثارِهِما قَصَصًا**)؛ أيّ: فَرَجَعا يَقُصَّانِ آثارَهُما؛ لِئلَّا يُخْطِئا طَريقَهُما (**فَوَجَدا عَبْدًا مِنْ عِبادِنا**) كما في صَحيحِ البُخاريِّ" ... وَجَدا خَضراً على طَنْفَسَةٍ خَضْراءَ على كَبِدِ البَحْرِ مُسَجًّى بِثَوبِهِ قَد جَعَلَ طَرْفَهُ تحتَ رِجْلَيهِ وطَرْفَهُ تحتَ رأسِه، فَسَلَّمَ عليهِ مُوسَى، فَكشَفَ عنْ وَجْهِهِ

وقالَ هلْ بِأرْضِكَ مِن سلامٍ؟ مَن أنتَ؟ قالَ: أنا مُوسَى. قالَ: مُوسَى بَني إسرائيلَ؟ قالَ: نعمْ. قالَ: فما شأنُكَ؟ قالَ: جِئْتُ لِتُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا... " الحديث.

وقال الثعلبيُّ في كتابِ "العرائسِ": إنّ مُوسَى وفَتاهُ وَجَدا الخَضرَ وهُوَ نائِمٌ على طَنْفَسَةٍ خَضْراءَ على وَجْهِ الماءِ وهُوَ مُتَّشِحٌ بِثَوبٍ أخضَرَ فسَلَّمَ عليهِ مُوسَى، فَكشَفَ عن وَجْهِهِ فقالَ: وأنَّى بأرْضِنا السَّلامُ؟ ثَمَّ رَفَعَ رأسَهُ واسْتَوى جالِسًا وقالَ: وعليكَ السلامُ يا نَبيَّ بَني إسرائيلَ، فقالَ لهُ مُوسَى: وما أدراكَ بي؟ ومَن أخْبَرَكَ أنِّي نَبيُّ بني إسْرائيلَ؟ قال: الذي أدْراكَ بِي ودَلَّكَ عليَّ. ثُمَّ قالَ: يا مُوسَى؛ لقَد كان لكَ في بني إسرائيلَ شُغُلٌ، قال مُوسَى: إنَّ رَبِّي أرسَلَنِي إليكَ لأتَّبِعَكَ وأتعَلَّمَ مِنْ عِلْمِكَ، ثمَّ جَلَسا يتَّحَدَّثانِ، فجاءتْ خطَّافةٌ وحملتْ بِمِنْقارِها مِن الماءِ... وذَكَرَ الحديثَ على ما يأتي.

والعَبْدُ الصالِحُ هو الخَضرُ عليهِ السلامُ في قولِ الجُمهورِ بِمقتضَى الأحاديثِ الثابتةِ. وخالفَ ذلكَ مَن لا يُعتَّدُ بِقَولِه فقالُوا: ليسَ صاحبَ مُوسَى بِالخَضرِ؛ بلْ هُو عالِمٌ آخرُ، وحكَى أيضًا هذا القولَ القُشيريُّ. والصَّحيحُ: أنَّه كان الخَضرُ لِما وَرَدَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ.

وقال مُجاهِدٌ: سُمِّيَ الخَضرُ؛ لأنَّه كان إذا صلَّى اخْضَرَّ ما حَولَهُ.

وروَى التِّرمذيُّ عن أبي هُريرةَ قال: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " إنّمَا سُمِّيَ الخَضرُ؛ لأنَّهُ جَلَسَ على فَرْوَةٍ بَيضاءَ فإذا هِيَ تهتَزُّ تَحتَهُ خَضْراءَ " وقال هذا حديثٌ صحيحٌ غَريبٌ. والفَروةُ هُنا وَجْهُ الأرضِ قالهُ الخَطَّابيُّ وغَيرُه

(**آتَيناهُرَحمَةً مِنْ عِندِنا**) الرَّحْمَةُ في هذهِ الآيةِ النُّبوَّةُ، وقيلَ هِيَ النِّعمَةُ (**وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**)؛ أيّ: عِلْمَ الغَيبِ، قال ابنُ عطيَّةَ: كان عِلْمُ الخَضرِ عِلْمَ مَعرِفةِ بَواطنِ الأُمورِ قدْ أُوحِيَتْ إليه، لا تُعطِي ظواهِرُ الأحكامِ أفعالَهُ بِحَسْبِها، وكان عِلْمُ مُوسَى عِلْمَ الأحكامِ والفُتيا بظاهِرِ أقوالِ الناسِ وأفعالِهِم.

(**قالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**) فيهِ مَسألَتانِ:

الأُولى: هذا سُؤالُ المُلاطِفِ والمُخاطِبِ المُستنْزِلِ المُبالِغِ في حُسْنِ الأدبِ، المَعنى: هل يتَّفِقُ لكَ وَيَخْفَ عليكَ؟ وهذا كما في الحديثِ الشريفِ: هلْ تستطيعُ أنْ تُرِيَنِي كيفَ كانَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَتوَضَّأُ؟

وكذلكَ قولِه تعالى: (**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَينا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ..**).

الثانيةُ: في هذهِ الآيةِ دليلُ أنَّ المُتعلِّمَ تَبَعٌ لِلعالِمِ وإنْ تفاوَتتِ المَراتِبُ، ولا يُظَنَّ أنَّ في تَعَلُّمِ مُوسَى مِن الخَضرِ يدلُّ على أنَّ الخَضرَ كانَ أفضلَ مِنهُ، فقَد يَشُذُّ عن الفاضِلِ ما يَعلَمُهُ المَفْضُولُ، والفَضْلُ لِمَنْ فَضَّلَهُ اللهُ؛

فالخَضرُ إنْ كان ولِيًّا فمُوسَى أفضلُ مِنهُ؛ لأنَّهُ نبيٌّ، والنبيُّ أفضلُ مِن الوليِّ، وإنْ كان نبيًّا فمُوسَى فَضَّلَهُ بالرِّسالةِ واللهُ أعلمُ.

(**رُشْدًا**) مفعولٌ ثانٍ لـ- (**تُعَلِّمَنِي**) (**قالَ**) الخَضرُ (**إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)؛ أيّ: إنَّكَ يا مُوسَى لا تُطِيقُ أنْ تَصْبِرَ على ما تَراهُ مِن عَمَلِي؛ لأنَّ الظواهِرَ التي هِيَ عِلْمُكَ لا تُعطِيه، وكيفَ تَصْبِرُ على ما تَراهُ خَطأً ولم تُخْبَرْ بِوَجْهِ الحِكْمَةِ فيهِ ولا طريقِ الصَّوابِ؛ وهذا مَعنى قولِه (**وكَيفَ تَصْبِرُ على ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**).

والأنبياءُ لا يُقِرُّونَ مُنْكَرًا، ولا يجوزُ لهمُ التقريرُ، ولا يَسَعُكَ السُّكوتُ جَرْيًا على عادَتِكَ وحُكْمِكَ. وانتصبَ خَبَرًا على التمييزِ المنقولِ عن الفاعلِ، وقيلَ: على المَصدرِ الملاقى في المعنى؛ لأنَّ قولَهُ (لم تُحِطْ) مَعناهُ: لم تُخْبَرْهُ؛ فكأنَّهُ قالَ: لمْ تُخْبَرْهُ خبرًا وإليه أشارَ مُجاهِدٌ.

والخَبيرُ بالأمورِ هُوَ العالِمُ بِخَفاياها وبِما يُختبَرُ منها.

(**قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صابِرًا**)؛ أيّ: سأصْبِرُ بِمَشيئةِ اللهِ (**ولا أَعْصِي لكَ أَمْرًا**)؛ أيّ: قد ألزَمْتُ نفْسِي طاعَتكَ.

وقد اختلفَ في الاستثناءِ: هلْ هُو يشملُ قولَهُ (**ولا أَعْصِي لكَ أَمْرًا**)، أمْ لا؟

فَقيلَ: يشمَلهُ كَقولِه تعالى: (**والذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا والذَّاكِراتِ**).

وقيلَ: استثنَى في الصَّبرِ فَصَبرَ، وما استثنَى في قولِه: (**ولا أَعْصِي لكَ أَمْرًا**) فاعترضَ وسألَ.

قال العُلماءُ الأجلاّءُ: إنَّما كان ذلكَ منهُ؛ لأنَّ الصبرَ أمرٌ مُستقبَلٍ ولا يدرى كيف يكونُ حالهُ فيه، ونفيُ المَعصيةِ مَعزُومٌ عليه حاصلٌ في الحالِ؛ فالاستثناءُ فيه يُنافِي العزمَ عليه، ويُمكِنُ أن يُفرَقَ بينَهُما بأنَّ الصبْرَ ليس مُكتسَبًا بِخلافِ فِعْلِ المَعصيةِ وتركِها؛ فإنَّ ذلكَ كُلَّهُ مُكْتسَبٌ لنا واللهُ أعلمُ

(**قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لكَ مِنْهُ ذِكْرًا**)؛ أيّ: حتّى أكونَ أنا الذي أُفَسِّرُه لكَ، وهذا مِن الخَضرِ تأديبٌ وإرشادٌ لِما يقتضِي دوامَ الصُّحبَةِ، فلو صَبَرَ ودأبَ لَرَأى العَجَبَ؛ لَكَنَّهُ أكثرَ مِن الاعتِراضِ فتعيَّنَ الفراقِ والإعراضُ.

(**فانطلَقا حتَّى إذا رَكِبا في السَّفِينَةِ خَرَقَها**) وَرَدَ في الصَّحِيحَين: فانْطلَقا يمْشِيانِ على ساحلِ البَحرِ، فمَرَّتْ بِهما سَفِينةٌ فَطلَبا أنْ يَحْملاهُما، فَعَرَفُوا الخَضرَ فَحَمَلُوهُما بِغَيرِ نَوْلٍ، فلَمَّا رَكِبا في السَّفِينةِ لمْ يفْجأ مُوسَى إلاّ والخَضرُ قَدْ قَلَعَ مِنها لوحًا مِن ألواحِها بِالقَدُومِ

(قالَ) لهُ مُوسَى: قومٌ حَمَلُونا بِغَيرِ نَوْلٍ فَعَمدتَ إلى سَفِينَتِهِم فَخَرَقْتَها (**أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيئًا إمْرًا**)

وَجَاءَ عُصفورٌ فَوقَعَ على حَرْفِ السَّفِينةِ فَنَقَرَ في البَحْرِ، فقالَ لهُ الخَضرُ: ما عِلْمِي وعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إلَّا مِثْلُ ما نَقَصَ هذا العُصفورُ مِن هذا البَحْرِ.

قالَ العُلماءُ: حرفُ السَّفِينةِ طَرَفُها. والعِلْمُ هُنا بمَعنى المَعلُومِ كما قالَ (**ولا يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلْمِهِ**) أيٍّ مِن مَعلُوماتِه. وهذا مِن الخَضرِ تمثيلٌ؛ أيّ مَعلُوماتي ومَعلُوماتِكَ لا أثرَ لها في عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، كما أنَّ ما أخذَ هذا العُصفورُ مِن هذا البحرِ لا أثرَ له بالنِّسْبَةِ إلى ماءِ البحرِ؛ وإنَّما مَثَّلَ لهُ ذلكَ بِالبَحرِ؛ لأنَّهُ أكثرُ ما يُشاهَدُ مِمّا بينَ أيدِينا. وإطلاقُ لفظِ النقصِ هُنا تَجَوُّزٌ قَصدَ به التمثيلَ والتفهيمَ؛ إذْ لا نقْصَ في عِلْمِ اللهِ ولا نِهايةَ لِمَعلُوماتِه. وقَد أوضحَ هذا المَعنى البُخاريُّ فقالَ: " واللهِ ما عِلْمي وما عِلْمُكَ في جَنْبِ عِلْمِ اللهِ إلاّ كما أخَذَ هذا الطيرُ بِمِنْقارِه مِن البَحرِ".

وفي التفسيرِ عن أبي العالية: لمْ يَرَ الخَضرُ حينَ خَرَقَ السَّفِينةَ غَيرَ مُوسَى عليهِ السلامُ، وكان عبْدًا لا تراهُ إلاّ عَينُ مَن أرادَ اللهُ لهُ أنْ يُرِيهَ، ولوْ رآهُ القومُ لَمَنَعُوهُ مِن خَرْقِها.

وقيلَ: خرجَ أهلُ السفينةِ إلى جَزيرةٍ وتَخلَّفَ الخَضرُ فَخَرَقَ السفينةَ.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: لمّا خَرَقَ الخَضرُ السَّفينةَ تنَحَّى مُوسَى ناحيةً وقالَ في نَفْسِه ما كُنْتُ أصنعُ بِمُصاحَبةِ هذا الرَّجُلِ؟ كُنْتُ في بَني إسرائيلَ أتْلُو كِتابَ اللهِ عليهِم غدوةً وعشيَّةً فَيُطِيعُوني. قالَ لهُ الخَضرُ: يا مُوسَى أتريدُ أنْ أخْبِركَ بِما حَدَّثْتَ بِه نفْسُكَ؟ قالَ: نَعمْ. قالَ: كذا وكذا. قال صَدَقْتَ. ذَكَرَهُ الثعلبيُّ في كتابِ العرائسِ. وفِي خَرْقِ السفينةِ دليلُ أنَّ لِلوليِّ أن يُنْقِصَ مالَ اليتيمِ إذا رآهُ صلاحًا؛ مِثل: أنْ يخافَ على رَيعِه ظالمًا فَيُخَرِّبَ بَعضَهُ.

وقالَ أبو يُوسُفَ: يجوزُ لِلوليِّ أنْ يُصانِعَ السُّلطانَ بِبَعْضِ مالِ اليتيمِ عن البَعضِ.

وقرأَ "حمزةُ والكسائيُّ" لِيغرقَ بالياءِ و"أهلُها" بالرَّفْعِ فاعِلُ "يغرِق"؛ فاللامُ على قراءةِ الجَماعةِ في لِتُغْرِقَ هي لامُ المآلِ؛ مِثل (**لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا**).

وعلى قراءةِ "حَمْزَةَ" لام: كي، ولمْ يَقُلْ لِتُغْرِقَنِي؛ لأنَّ الذي غلبَ الحالَ فَرْطُ الشفَقةِ عليهِم ومُراعاةُ حقِّهِم. و(**إمرًا**) مَعناهُ: عَجَبًا قالهُ "القتبيّ"، وقيلَ: مُنْكَرًا قالهُ مُجاهِدٌ، وقال أبو عُبيدةَ الإِمْرُ الداهيةُ العَظِيمةُ وأنشدَ:

قَدْ لَقِيَ الأقْرانُ مِنِّي نُكْرا داهيةً دَهْياءَ إدًّا إمْرا.

وقال الأخفشُ: يُقالُ أمر يأمرُ إذا اشتدَّ والاسْمُ الإِمْرُ (قالَ) الخَضرُ (**أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)؛ أيّ: إنَّكَ يا مُوسَى لا تُطِيقُ أنْ تَصْبِرَ على ما تَراهُ مِن عَمَلِي؛ لأنَّ الظواهِرَ التي هِيَ عِلمُكَ لا تُعطِيه، وكيفَ تَصْبِرُ على ما تَراهُ خَطأً ولمْ تُخْبَرْ بِوَجْهِ الحِكْمَةِ فيهِ ولا طريقِ الصَّوابِ

(قالَ) مُوسَى (**لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**) وفِي ذلكَ قولانِ:

أحدُهُما: أنّ هذا مِن مَعاريضِ الكلامِ، والآخَرُ: أنَّهُ نَسِيَ فاعتذرَ لِقولِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ " وكانَتِ الأُوْلَى مِن مُوسَى نِسيانًا" وفِي ذلكَ ما يَدُلُّ على أنّ النِّسيانَ لا يقتضِي المُؤاخَذةَ، وأنَّهُ لا يدخلُ تحتَ التكليفِ، ولا يتعلَّقُ بهِ حُكْمُ طَلاقٍ ولا غَيرُه وقَد تقدَّمَ، ولو نَسِيَ في الثانيةِ لاعتَذرَ.

(**فانْطَلَقا حتَّى إذا لَقِيا غُلامًا فَقَتَلَهُ**) وَردَ في صحيحِ البُخاريِّ أنَّهُ وَجَدَ غِلمانًا يَلْعَبُونَ فأخذَ غُلامًا كافِرًا فأضْجَعَهُ ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ.

وفي التِّرمذيِّ: أنَّهُما خَرَجا مِن السفينةِ وبينَما هُما يَمْشِيانِ على الساحِلِ إذْ أبْصَرَ الخَضرُ غُلامًا يَلعبُ مع الغِلْمانِ فأخَذَ رأسَهُ بِيَدِهِ فاقتلَعَهُ فَقتلَهُ (قالَ) مُوسَى (**أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**) وهذهِ أشدُّ مِن الأُولى (قالَ) الخَضرُ (**أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) (قالَ) مُوسَى (**إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا**).

وقيلَ: إنَّ الخَضرَ مَرَّ بِغلمانٍ يلْعَبُونَ فأخَذَ بِيَدهِ غُلامًا ليسَ فيهِمْ أضوأ مِنهُ، وأخذَ حَجَرًا فَضَرَبَ بهِ رأسَهُ حتَّى دَمَغَهُ فَقتلَهُ. قالَ أبو العالية: لم يَرَهُ إلاّ مُوسَى، ولو رأَوْهُ لَحَالُوا بَينَهُ وبينَ الغُلامِ.

قلتُ: ولا اختلافَ بينَ هذهِ الأحوالِ الثلاثةِ؛ فإنَّه أنْ يكونَ دَمَغَهُ أوَّلاً بِالحَجَرِ، ثُمَّ أضْجَعَهُ فَذبَحَهُ، ثُمَّ اقتَلَعَ رأسَهُ.

وقرأَ الجُمهورُ (زاكِيةً) بِالألِف، وقرأَ "الكُوفيونَ وابنُ عامِرٍ" (زَكِيَّةً) بِغَيرِ ألفٍ وتشديدِ الياءِ، وقيلَ: المعنى واحدٌ.

قال "الكسائيُّ" (الزَّكِيَّةُ) أبلغُ.

وقال "أبو عَمْرٍو" الزاكيةُ التي لم تُذْنِبْ قَطُّ، والزَّكِيَّةُ التي أذْنَبَتْ ثُمَّ تابَتْ.

واختلفَ العُلماءُ في الغُلامِ هل كان بالِغًا أمْ لا؟

فقالَ الكَلبيُّ: كان بالِغًا يقطعُ الطريقَ بينَ قَرْيَتَينِ، وأبوهُ مِن عُظماءِ إحْدَى القَرِيَتَينِ، وأُمُّهُ مِن عُظماءِ القَرِيَةِ الأُخْرَى، فأخَذَهُ الخَضرُ فَصَرعَهُ ونَزَعَ رأسَهُ عنْ جَسَدِهِ. قال الكلبيُّ: اسمُ الغُلامِ "شمعُون"، وقالَ الضَّحَّاكُ: "حيسون"، وقالَ وَهْبٌ: اسْمُ أبيهِ "سلاس" واسْمُ أُمِّهِ "رحمى"، وحكَى السُّهيليُّ: أنّ اسمَ أبيهِ "كازير"، واسْمَ أُمِّهِ "سهوى"،

وقالَ الجُمهورُ: لم يَكُنْ بالِغًا؛ ولذلكَ قالَ مُوسَى (زاكِيةً) لمْ تُذْنِبْ وهُوَ الذي يقتضيهِ لفظُ الغُلامِ؛ فإنَّ الغُلامَ في الرِّجالِ يُقالُ على مَنْ لمْ يَبْلُغْ، وتُقابِلُهُ الجارِيةُ في النِّساءِ، وكان الخَضرُ قَتلَهُ لِما عَلِمَ مِن سَيْرِهِ وأنَّه طُبِعَ كافِرًا كما في الحديثِ، وأنَّهُ لو أدركَ لأَرْهَقَ أبَويهِ كُفْرًا، وقَتْلُ الصَّغِيرِ غيرُ مُستحِيلٍ إذا أذِنَ اللهُ في ذلكَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى الفعَّالَ لِما يُريدُ القادِرُ على ما يشاءُ.

وفي كتاب العرائسِ: إنَّ مُوسَى لَمَّا قالَ لِلخَضرِ أقتلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةَ... الآية، غَضِبَ الخَضرُ واقتلَعَ كَتِفَ الصَّبيِّ الأيسَرِ، وقَشَرَ اللحمَ عَنْهُ وإذا في عَظْمِ كَتِفِه مَكتُوبٌ "كافِرٌ لا يُؤمِنُ باللهِ أبدًا".

وقَدِ احتجَّ أهلُ القولِ الأوَّلِ بأنَّ العربَ تُبْقِي على الشَّابِ اسْمَ الغُلامِ، ومِنهُ قولُ ليلى الأخيليّة:

شَفاها مِن الدَّاءِ العُضالِ الذي بِها غُلامٌ إذا هَزَّ القناةَ سَقاها

وقالَ صفوان لِحسَّان:

تلقَّ ذبابَ السَّيفِ عنِّي فإنَّنِي غُلامٌ إذا هُوجِيتَ لسْتَ بِشاعِرِ

وفي الخَبَرِ: إنَّ هذا الغُلامَ كانَ يُفْسِدُ في الأرضِ ويُقْسِمُ لأبَويهِ أنَّهُ ما فَعلَ فَيُقْسِمانِ على قَسَمِهِ ويَحْمِيانِهِ ممَّنْ يَطْلُبُهُ.

وقولهُ بِغَيرِ نَفْسٍ يقتضِي أنَّهُ لو كانَ عنْ قَتْلِ نَفْسٍ لمْ يَكُنْ بهِ بأسٌ، وهذا يدلُّ على كِبَرِ الغُلامِ؛ وإلاّ فلَو كانَ لمْ يَحْتلِمْ لمْ يَجِبْ قَتْلهُ بِنَفْسٍ؛ وإنَّما جازَ قتْلُهُ؛ لأنَّهُ كان بالِغًا عاصيًا. قال ابنُ عبَّاسٍ: كان شابًّا يقطعُ الطريقَ. وذَهَبَ ابنُ جُبيرٍ: إلى أنَّهُ بَلَغَ سِنَّ التكليفِ؛ لِقراءةِ "أُبَيٍّ وابنِ عبَّاسٍ" (وأمَّا الغُلامُ فكانَ كافِرًا وكانَ أبَواهُ مُؤمِنَينِ). والكفرُ والإيمانُ مِن صفاتِ المُكلَّفينَ، ولا يُطلَقُ على غيرِ مُكلَّفٍ إلاّ بِحُكْمِ التَّبَعيَّةِ لأبَويهِ، وأبَوا الغُلامِ كانا مُؤمِنَينِ بالنَّصِّ فلا يَصدُقُ عليهِ اسمُ الكافِرِ إلاّ بالبُلوغِ، فتعيَّنَ أن يُصارَ إليهِ، والغُلامُ مِن الاغتِلامِ؛ وهُو شِدَّةُ الشَّبَقِ.

واختلفَ الناسُ في أيُّهُما أبلغُ (إمْرًا) أو (نُكْرًا)؛

فقالتْ فِرقةٌ: هذا قَتْلٌ بيِّنٌ وهناكَ مُتَرقَّبٌ فـ(نُكْرًا) أبلَغُ.

وقالتْ فِرقةٌ: هذا قَتْلُ واحدٍ، وذاك قَتْلُ جَماعَةٍ فـ(أمْرًا) أبلَغُ.

قال ابنُ عطيَّة أنَّهُما لِمَعْنَيَينِ؛ فقَولُه (إمْرًا) أفظعُ وأهولُ مِن حيثُ هو متوقَّعٌ عظيمٌ، و(نُكْرًا) بيِّنُ في الفسادِ؛ لأنَّ مَكْرُوهَهُ قَد وَقَعَ.

وقولهُ تعالى : (**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**) فيهِ ثلاثَ عَشْرَةَ مسألةً :

الأُولى : (**فانْطلَقا حتّى إذا أتيا أهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أهَلَها فأبَوا أنْ يُضَيِّفُوهُما**)؛ أيّ : طافا في المجَالِسِ فاسْتَطْعَما أهْلَها فأبَوا أنْ يُضَيِّفُوهُما .

وعن أُبيٍّ بنِ كَعْبٍ عن النبيِّ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ أهلُ القريةِ لِئامًا فَوجَدا فِيها جِداراً يُريدُ أنْ يَنْقَضَّ؛ أيّ : مائِلاً فأقامَهُ الخَضرُ بِيَدِه .

قالَ لهُ مُوسَى : "قومٌ أتَيْناهُمْ فَلَمْ يُضيفُونا، ولمْ يُطْعِمُونا؛ لو شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عليهِ أجْرًا" قالَ الخَضرُ : (**هذا فِراقُ بَينِي وَبَينِكَ سأُنَبِّئُكَ بِتأوِيلِ ما لَمْ تَستَطِعْ عليهِ صَبْرًا**) قالَ رسولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ : "يَرْحَمُ اللّهُ مُوسَى؛ لَوَدِدْتُ أنَّهُ كانَ صَبَرَ حتَّى يَقُصَّ عَلَينا مِن أخْبارِهِما " .

الثانيةُ : اختلفَ العُلماء الأجلاّءُ في القريةِ؛ فقيلَ : هِيَ "أبلة" .

وقال "قتادةُ ومحمَّدُ بنُ سِيرينَ" هي أبخلُ قَريةٍ وأبعدُها مِن السَّماءِ . وقيلَ : "أنطاكية" ، وقيلَ : بِجَزيرةِ الأنْدلُسِ" رُوِيَ ذلك عنْ أبي هُريرةَ وغَيرِه ويَذْكُرُ أنَّها "الجزيرةُ الخَضْراءُ" ، وقالتْ فِرقةٌ : هي "باجروان" بِناحِيةِ أذربيجانَ، وقالَ السُّهيليُّ إنَّها "بَرْقةُ" ، وقال الثعلبيُّ : هي قريةٌ مِن قُرَى الرُّومِ يُقالُ لها "ناصِرَةٌ" وإليها تُنْسَبُ النَّصارَى .

وهذا كُلُّهُ بِحَسَبِ الخِلافِ في أيِّ ناحيةٍ مِن الأرضِ كانتْ قِصَّةُ مُوسَى واللهُ أعلمُ بحقيقةِ ذلكَ.

الثالثةُ: كان مُوسَى عليهِ السلامُ حين سقَى لِبِنْتَي شُعَيبٍ أحوجَ مِنهُ حينَ أتَى القَريةَ مع الخَضرِ، ولمْ يسألْ قُوتًا؛ بلْ سقَى ابتداءً، وفي القريةِ سألا القُوتَ، وفي ذلكَ لِلعلماءِ إنفصالات توسعٌ كثيرٌ؛ مِنها: أنّ مُوسَى كان في حديثِ مَدْيَنَ مُنْفَرِدًا، وفي قِصَّةِ الخَضرِ تَبَعًا لِغَيرِه. قلتُ وعلى هذا المَعنى يتمَشَّى قولُهُ في أوَّلِ الآيةِ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَبًا؛ فأصَابَهُ الجُوعُ مُراعاةً لِصاحِبِهِ يُوشَع واللهُ أعلمُ. وقيلَ لَمَّا كان هذا سفرَ تأديبٍ وُكِلَ إلى تَكَلُّفِ المَشقَّةِ، وكان ذلكَ سفَرَ هِجْرَةٍ فَوُكِلَ إلى العَونِ والنُّصْرَةِ بِالقُوتِ.

الرابعةُ: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على سؤالِ القُوتِ، وأنَّ مَن جاعَ وَجَبَ عليهِ أنْ يَطلُبَ ما يَرُدُّ جُوعَهُ خِلافًا لِلجُهَّالِ. والاستِطعامُ هو سؤالُ الطعامِ، والمُرادُ بِهِ هُنا سُؤالُ الضِّيافةِ بِدليلِ قولِه تعالى: (**فأبَوا أنْ يُضَيِّفُوهُما**) فاستحقَّ أهلُ القريةِ لذلكَ أن يُذَمُّوا ويُنْسَبُوا إلى اللؤمِ والبُخْلِ، كما وَصَفَهُمْ بذلكَ نَبيُّنا عليهِ الصلاةُ والسلامُ.

قال قتادةُ: في هذهِ الآيةِ شرُّ القُرَى التي لا تُضيفُ الضَّيفَ ولا تَعْرِفُ لابْنِ السَّبيلِ حَقَّهُ.

ويَظهرُ مِن ذلكَ أنَّ الضِّيافةَ كانت عليهِم واجِبةً، وأنَّ الخَضرَ ومُوسَى إنَّما سألا ما وَجَبَ لهُما مِن الضِّيافةِ، وهذا هو الأليقُ بِحالِ الأنبياءِ ومَنصِبِ الفُضلاءِ والأولياءِ.

الخامسةُ: فوجَدا فيها جِداراً، الجِدارُ والجدرُ: بمعنىً واحدٍ. وفي الخَبَرِ حتَّى يبلُغَ الماءُ الجدرَ. ومكانٌ جديرٌ بُنِي حَوالَيهِ جِدارٌ وأصلهُ الرَّفْعُ. وأجْدَرتِ الشَّجَرةُ أيّ: طَلعَتْ، ومِنهُ الجدريُّ.

السادِسةُ: يُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ؛ أيّ: قَرُبَ أنْ يَسْقُطَ، وهذا مَجازٌ وتَوسُّعٌ، وقَد فَسَّرَهُ في الحديثِ بِقَولِه مائِلٌ؛ فكانَ فيه دليلٌ على وُجودِ المجَازِ في القُرآنِ وهُوَ مَذْهبٌ الجُمهورِ، وجميعُ الأفعالِ التي حقُّها أنْ تكونَ للحيِّ الناطقِ متى أُسْنِدَتْ إلى جمادٍ أو بهيمةٍ فإنَّما هي استعارةٌ؛ أيّ: لو كان مكانَهُما إنسانٌ لكانَ مُتمثِّلاً لذلكَ الفِعل، هذا كلامُ العَربِ وأشعارُها كثيرة في هذا. ومِن ذلك قولُ الشاعرِ:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أبي بَراءٍ ويَرْغَبُ عن دِماءِ بَني عَقيلِ

وقال شاعرُ الإسلامِ حسَّانُ بنُ ثابتٍ رَضِيَ اللّٰهُ عنهُ:

لو أنَّ اللؤمَ يُنْسَبُ كان عبْداً قبيحَ الوجْهِ أعورَ مِن ثقيفٍ

وقال عنترةُ:

فازْوَرَّ مِن وَقْعِ القَنا بِلَبانِه وَشَكا إليَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

وذهبَ قومٌ إلى مَنعِ المجَازِ في القُرآنِ الكريمِ مِنهُم أبو إسحاقَ الإسْفَرايينيّ وأبو بَكْرٍ مُحمَّدِ بنِ داودٍ الأصبهانيِّ وغَيرُهُما؛ فإنَّ كلامَ اللّٰهِ عزَّ وجلَّ وكلامَ رَسُولِه صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ حَملُه على الحقيقةِ أوْلَى بِذي الفَضْلِ والدِّينِ؛ لأنَّهُ الحقُّ كما أخبرَ اللّٰهُ تعالى في كِتابِه. ومِمَّا احتجُّوا بِه أنْ قالُوا: لو خاطَبَنا اللّٰهُ تعالى بالمجَازِ لَزِمَ وَصْفُهُ بأنَّهُ مُتجَوِّزٌ أيضًا؛ فإنَّ العُدولَ عن الحقيقةِ إلى المجَازِ يقتضي العجْزَ عن الحقيقةِ، وهو على اللّٰهِ تعالى مُحالٌ. قال اللّٰهُ تعالى: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ**

وأرجُلِهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ). وقالَ عزَّ وجلَّ: (**وتَقُولُ هلْ مِنْ مَزِيدٍ**). وقالَ سُبحانَه وتعالى: (**تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى**). و(**اشْتَكَتِ النَّارُ إلى رَبِّها**). و(**احْتَجَّتِ النَّارُ والجَنَّةُ**). وما كانَ مِثلَها حقيقةً وأنَّ خالِقَها الذي أنطقَ كُلَّ شَيءٍ أنطقَها.

السابعةُ: فأقامَهُ؛ أيّ: هَدمَهُ ثُمَّ قَعَدَ يُبْنِيهِ. قال مُوسَى لِلخَضرِ لو شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَليهِ أجْرًا؛ لأنَّهُ فِعلٌ يَسْتَحِقُّ الأجْرَ.

وقال سعيدُ بنُ جُبيرٍ: مَسحَهُ بِيدِهِ وأقامهُ فقامَ، وهذا القولُ هو الصَّحيحُ، وهو الأشبَهُ بأفعالِ الأنبياءِ عليهِم الصَّلاةُ والسلامُ؛ بل والأولياءِ. وفي بعضِ الأخبارِ إنَّ سِمْكَ ذلكَ الحائِطِ كان ثلاثِينَ ذِراعًا بِذراعِ ذلك القَرْنِ، وطُولهُ على وَجْهِ الأرْضِ خَمسمائةِ ذِراعٍ، وعَرْضُهُ خَمسُونَ ذِراعًا، فأقامَهُ الخَضرُ عليهِ السلامُ؛ أيّ: سوَّاهُ بَيدِهِ فاسْتَقامَ.

وقال وَهْبُ بنُ مُنبِّهٍ كانَ طُولُ الجِدارِ في السَّماءِ مائة ذِراعٍ.

قالَ الثعلبيُّ في كتابِ العرائسِ: فقالَ مُوسَى لِلخَضرِ لو شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عليهِ أجْرًا طعامًا تأكُلُهُ. وفي هذا دليلٌ على كَراماتِ الأولياءِ. وقولُه تعالى: (**وما فَعلتُهُ عَن أمْرِي**) يدلُّ على نُبوَّتِه، وأنَّهُ يُوحَى إليهِ بالتكليفِ والأحكامِ، كما أوحَى للأنبياءِ عليهِم الصَّلاةُ والسلامُ غيرَ أنَّهُ ليسَ بِرَسُولٍ، واللهُ أعلمُ.

الثامِنةُ: على الإنسانِ ألاّ يَجْلِسَ تحتَ جِدارٍ مائلٍ يخافُ سُقوطهُ؛ بلْ يُسْرِعُ في المَشي إذا كان مارًّا بهِ؛ لِقَولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ): "إذا مَرَّ أحدُكُمْ بِطِرْبالٍ

مائلٍ فَلْيُسْرِعِ المَشيَ" . وفي الصَّحاحِ: الطِّرْبالُ القِطعةُ العاليةُ مِن الجِدارِ، والصَّخْرَةُ العظيمةُ المُشْرِفةُ مِن الجَبلِ، وطَرابيلُ الشَّامِ صَوامِعُها.

التاسعةُ: كَراماتُ الأولياءِ ثابتةٌ على ما دلَّتْ عليه الأخبارُ والآياتُ المُتواتِرةُ، ولا يُنْكِرُها إلاّ المُبْتَدِعُ الجاحِدُ أو الفاسِقُ الحائِدُ؛ فقَد أخبرَ اللّهُ تعالى في حقِّ مَريمَ عليها السلامُ مِن ظُهورِ الفواكِه الشَّتويَّةِ في الصَّيفِ والصَّيفيَّةِ في الشِّتاءِ، وما ظهرَ على يدِها؛ حيث أمَرَتِ النخْلَةَ وكانتْ يابِسةً فأثمرَتْ، وهيَ ليْسَتْ بِنَبِيَّةٍ، وما ظَهرَ على يدِ الخَضرِ من خَرْقِ السَّفينةِ وقَتْلِ الغُلامِ وإقامةِ الجِدارِ.

العاشِرةُ: اختلفَ الناسُ هل يجوزُ أنْ يعلمَ الوليُّ أنَّهُ وليٌّ أمْ لا؟ على قَولَينِ: أحدُهُما أنَّهُ لا يجوزُ، وأنَّ ما يَظهَرُ على يديهِ يجبُ أنْ يُلاحِظَهُ بِعَينِ خَوفِ المَكْرِ؛ لأنّه لا يأمَنُ أن يكونَ مكْرًا واستِدراجًا له.

القولُ الثاني: أنَّهُ يجوزُ للوليّ أنْ يعلَمَ أنَّهُ وليٌّ؛ فقَد أخبرَ النبيُّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ عَشَرةً مِن أصحابِه أنَّهُم مِن أهلِ الجنَّةِ، ثمَّ لمْ يكُنْ في ذلكَ زَوالِ خَوفِهِم؛ بلْ كانُوا أكثرَ تعظيمًا للّهِ سُبحانَه وتعالى وأشدَّ خَوفًا وهَيبةً. فإذا جازَ لِلعَشرةِ ذلكَ ولمْ يُخْرِجْهُم عن الخوفِ فكذلكَ غَيرُهُم.

والفرقُ بينَ المُعجزَةِ والكرامةِ أنّ الكرامةَ مِن شرطِها الاستِتارُ، والمُعجِزةَ مِن شرطِها الإظهارُ، والكرامةُ تظهرُ مِن غيرِ دعوى، والمُعجِزةُ تظهرُ عندَ دعوى الأنبياءِ فَيُطالَبُونَ بالبُرهانِ فيظهر أثرُ ذلك. وأمَّا الأحاديثُ الواردةُ في الدلالةِ على ثُبوتِ الكَراماتِ فكثِيرةٌ.

الحادية عَشرَ: لا يُنْكَرُ أن يكونَ لِلوليِّ مالٌ وضَيعةٌ يَصُونُ بها مالَهُ وعِيالَهُ، وحَسْبُكَ بِالصَّحابةِ وأموالِهم مع وِلايتِهم وفَضْلِهم، وَهُمُ الحُجَّةُ على غَيرِهم.

وفي صَحيحِ مُسْلمٍ عن أبي هُريرةَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: " بَينَما رَجُلٌ بِفلاةٍ مِن أرضٍ فَسَمِعَ صَوتًا في سَحابةٍ اسْقِ حديقةَ فُلانٍ، فتنَحَّى ذلك السَّحابُ فأفرغَ ماءَهُ في حَرَّةٍ فإذا شَرْجَةٌ مِن تلك الشِّراجِ قَد اسْتَوعَبَتْ ذلكَ الماءَ كُلَّهُ، فتتَبَّعَ الماءَ فإذا رَجُلٌ قائمٌ في حَديقتِه يُحوِّلُ الماءَ بِمِسْحاتِه، فقالَ: يا عَبْدَ اللهِ ما اسْمُكَ؟ قالَ: فلانٌ – الاسْمُ الذي سَمِعَهُ في السَّحابةِ – ، فقالَ لهُ: يا عَبْدَ اللهِ! لِمَ سألْتَنِي عن اسْمِي؟ قالَ: إنِّي سَمِعْتُ صَوتًا في السَّحابِ الذي هذا ماؤهُ يقولُ: اسْقِ حديقةَ فُلانٍ لاسْمِكَ، فما فِيها؟!

قال: أمَا إذْ قُلْتَ هذا؛ فإنِّي أنْظُرُ إلى ما يَخْرُجُ مِنْها فأتَصَدَّقَ بِثلُثِهِ وآكُلُ أنا وعِيالي ثُلثَهُ وأردُّ فيها ثُلُثَهُ.

قلتُ وهذا الحديثُ لا يُناقِضُه قولُه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "لا تَتَّخِذُوا الضَيعَةَ فَتَرْكَنُوا إلى الدُّنيا" أخرَجهُ التِّرمذيُّ مِن حديثِ ابْنِ مَسْعُودٍ؛ فإنّهُ مَحمولٌ على مَن اتَّخَذَها مُسْتَكْثِرًا أوْ مُتَنعِّمًا ومُتَمَتِّعًا بِزَهْرَتِها، وأمَّا مَنْ اتَّخَذَها مَعاشًا يَصُونُ بِها دِيْنَهُ وعِيالَهُ؛ فهِيَ مِن أفْضَلِ الأعمالِ وهِيَ مِن أفْضَلِ الأمْوالِ.

قال عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: " نِعْمَ المالُ الصَّالِحِ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ".

الثانيةَ عَشرَ: (**لاتَّخَذْتَ عَلَيهِ أجْرًا**)، فيهِ دليلٌ على صِحَّةِ وجَوازِ الإجارةِ.

وقرأ الجُمهورُ: (**لاتَّخذْت**).

وقرأَ "ابنُ مَسعودٍ والحَسنُ وقتادةُ" : (لتخذْت)، وهُما لُغتانِ بمَعنىً واحدٍ مِن الأخْذِ مِثلَ قَولِكَ: تَبعَ واتَّبَعَ، وتَقى واتَّقَى. وأدغَمَ بعضُ القُرَّاءَ الذالَ في التاءِ ولمْ يَدغَمُها بعضُهُم. وفي حديثِ أُبَيٍّ بنِ كَعْبٍ: (**لَوشِئْتَلأوتِيْتَأجْرًا**).

وهذهِ صَدرَتْ مِن مُوسَى سُؤالاً على جِهَةِ العَرْضِ لا الاعتِراضِ؛ فعِندَ ذلكَ قالَ الخَضرُ: هذا فِراقُ بَينِي وبينِكَ بِحُكْمِ ما شَرَطْتَ على نَفْسِكَ. وتكْرِيرهُ بَينِي وبَينِكَ وعُدولُه عن بَينِنا لِمعنى التأكيدِ. قال سِيبَويهِ كما يُقالُ أخْزَى اللهُ الكاذِبَ مِنِّي ومِنْكَ أيّ مِنَّا.

قال ابنُ عبَّاسٍ: وكان قولُ مُوسَى في السفِينةِ والغُلامِ للهِ، وقولُه في الجِدارِ لِنَفْسِه لِطلَبِ شَيءٍ مِن الدُّنيا فكانَ سَببَ الفِراقِ.

الثالثةَ عَشرَة: قولُه تعالى: (**سأنَبِّئُكَبِتأويلِمالمْتَسْتَطِعْعَلَيهِصَبْرًا**).

تأويلُ الشيءِ مآلُهُ؛ أيّ: قالَ لهُ إنِّي أُخْبِرُكَ لِمَ فَعَلْتَ ما فَعَلْتَ.

وقيلَ في تفسيرِ هذه الآياتِ التي وَقَعْتْ لِمُوسَى مع الخَضرِ: إنَّها حُجَّةٌ على مُوسَى وعَجَبًا لهُ، وذَلكَ أنّهُ لَمَّا أنكرَ أمرَ خَرْقِ السفينةِ نُوديَ يا مُوسَى أينَ كان تَدْبِيرُكَ هذا وأنتَ في التابوتِ مَطرُوحًا في اليمِّ؟ فلمَّا أنكرَ أمْرَ الغُلامِ قيلَ لهُ: أينَ إنْكارُكَ هذا مِن وَكْزِكَ القُبْطِيِّ وقَضائِكَ عليهِ؟ فلمَّا أنكَرَ إقامةَ الجِدارَ نُودِي أينَ هذا مِن رَفْعِكَ حَجَرَ البِئرِ لِبناتِ شُعيبٍ دُونَ أجْرٍ.

وقولُه تعالى: (**أمَّاالسَّفِينةُفكانتْلِمَساكِينَيَعْمَلُونَفِيالبَحْرِ**) اسْتدلَّ بهذا مَن قالَ: إنَّ المِسْكِينَ أحْسَنُ حالاً مِن الفقيرِ، وقيلَ: إنَّهُمْ كانوا تُجَّارًا؛ ولكِنْ مِن حيث أنَّهُمْ مسافرون عن قلَّةٍ في لُجَّةِ بَحْرٍ وبِحالِ ضَعْفٍ عن مُدافَعةِ خَطْبٍ، عَبَّرَ عنهُمْ

بمساكينَ إذْ هُمْ في حالةٍ يُشْفَقُ عليهِمْ بِسَبَبِها. وهذا كما تقولُ لِرَجُلٍ غنيٍّ وَقَعَ في وَهْلَةٍ أو خَطْبٍ مِسْكِينٌ. وقال كَعْبٌ وغَيرُهُ" كانتْ لِعَشَرة إخوةً مِن المساكِينِ، وقيل كانوا سبعة. وقد ذكر النقاش صفاتهم، فأما العمال منهم فأحدهم كان مجذوما والثاني أعور والثالث أعرج والرابع آدر والخامس محموما لا تنقطع عنه الحمى الدهر كله وهو أصغرهم، والخمسة الذين لا يطيقون العمل فأعمى وأصم وأخرس ومقعد ومُجنون، وكان البحر الذي يعملون فيه ما بين فارس والروم، ذكره الثعلبي. وقرأتْ فِرْقَةٌ لَمساكينَ بتَشْديدِ السِّينِ، واختلفَ في ذلكَ فقيلَ: هُمْ ملَّاحُو السَّفينةِ؛ وذلك أنَّ المساك هو الذي يمسكُ رجلَ السفينةِ، وكُلُّ الخِدمَةِ تصلُحُ لإمْساكِه فسمِّيَ الجميعُ مساكِينَ.

وقالتْ فِرقةٌ: أراد بالمساكينِ دبْغَهُ المُسوكَ وهِيَ الجُلودُ واحِدُها مسكٌ.

والأظهرُ قراءةُ "مساكِينَ" بالتخفيفِ جمعُ مِسكينٍ، ومَعناها: إنَّ السفينةَ كانتْ لِقَومٍ ضُعفاءَ ينبغي أن يُشْفَقَ عليهِمِ واللّٰهُ أعلمُ

(**فأردْتُ أنْ أعِيبَها**)؛ أيّ: أجْعلَها ذاتَ عَيبٍ، يُقالُ: عِبْتُ الشَّيءَ فَعابَ إذا صارَ ذا عَيبٍ؛ فَهُوَ معِيبٌ وعائِبٌ (**وكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يأخُذُ كُلَّ سَفِينةٍ غَصْبًا**) وراءَ بمَعنى خَلْف، قالَ بعضُ المُفسِّرينَ: إنَّه كانَ خَلْفَهُم وكان رُجُوعُهُم عليه.

وقالَ قتادةُ أمامَهُمْ. وقالَ الماوَرْدِيُ: اختلفَ أهلُ العربيةِ في استعمالِ وراءَ موضِعَ أمام على ثلاثةِ أقوالٍ: أحدِها يجوزُ استعمالُها بِكُلِّ حالٍ وفي كلِّ مكانٍ وهُوَ مِن الأضْدادِ، قال تعالى: " ومِنْ وَرائِهِم"؛ أيّ: مِن أمامِهِم. وقالَ الشاعرُ:

أتَرْجُو بَنُو مَروانَ سَمْعِي وطاعَتِي وقَومِي تميم والفَلاةُ وَرائِيا

يعني: أمامِي.

والثاني: أنَّ وَراءَ في مَوضِعِ أمامَ في المَواقِيتِ والأزمانِ؛ لأنَّ الإِنْسانَ يَجُوزُها فتصيرُ وراءَهُ ولا يَجُوزُ في غَيرِها.

الثالثُ: أنَّه يَجُوزُ في الأجْسامِ التي لا وَجْهَ لها كَحَجَرِينِ مُتَقابِلينَ كُلُّ واحدٍ مِنْهُما وراءَ الآخَرِ ولا يَجوزُ في غَيرِهِما.

وذَكَرَ البُخاريُّ: أنَّ اسْمَ المَلِكَ "هدد بن بدد"، وقيلَ: الجلندي. والغُلامُ المقتولُ اسْمُهُ "جَيْسُور". وقيلَ: "حَيسُور"، وقيلَ: "حَيْسُون".

وفي هذا جوازُ العملِ بالمَصالِحِ إذا تحقَّقَ وَجْهُها، وجوازُ إصلاحِ كُلِّ المالِ بإِفْسادِ بَعضِه.

(**وأمَّاالغُلامُفَكانَأبَواهُمُؤمِنَينِ**) جاءَ في صَحيحِ الحَديثِ: "... أنَّهُ طُبِعَ يومَ طُبِعَ كافِرٌ". وهذا يُؤيِّدُ ظاهِرَهُ أنَّه غيرُ بالغٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ خبْرًا عنهُ مع كَونِه بالِغًا وقد تقدَّمَ (**فَخَشِينا أنْ يُرْهِقَهُما طُغْيانًا وَكُفْرًا**) قيلَ: هو مِن كلامِ الخَضرِ عليهِ السلامُ وهُوَ الذي يَشْهَدُ له سِياقُ الكلامِ، وهُوَ قولُ كثيرٍ مِن المُفَسِّرينَ؛ أيّ: خِفْنا أنْ يُرْهِقَهُما طُغيانًا وكُفْرًا، وكانَ اللّهُ قد أباحَ له الاجتهادَ في قَتْلِ النُّفُوسِ على هذهِ الجِهَةِ.

وقيلَ: هُو مِن كلامِ اللّهِ تعالى وعَنْهُ عبر الخَضرُ، قالَ الطَّبَريُّ: مَعناهُ فَعَلِمْنا، وكذا قالَ ابنُ عبَّاسٍ، وهذا كما كُنِّي عن العِلْمِ بِالخَوفِ في قولِه: (إلاّ أنْ يَخافا ألاّ يُقِيما حُدودَ اللّهِ). وقيلَ: الخشيةُ بمَعنى الكراهَةِ، يُقالُ: فَرَّقْتُ بينَهُما خَشْيةَ أنْ يَقْتَتِلا؛ أيّ: كراهةَ ذلك.

قال ابنُ عطيَّةَ والأظهرُ عِنْدي هُو هذا التأويلُ، وإنْ كان اللفظُ يُدافِعُه أنَّها استعارةٌ؛ أيّ: على ظنِّ المُخْلُوقِينَ والمُخاطَبِينَ، فلَو علِمُوا حالَهُ لوَقَعَتْ مِنهُم خَشيةَ الرَّهَقِ لِلأبَوينِ، وهذا نظيرُ ما ذُكِرَ في القُرآنِ مِن جِهَةِ اللهِ تعالى مِنْ لعلَّ وعَسَى وأنّ جميعَ ما في هذا كُلِّه مِن تَرَجٍّ وتَوقُّعٍ وخَوفٍ وخَشيةٍ إنَّما هُو بِحَسْبِكُمْ أيُّها المُخاطَبُونَ. يُرْهِقَهُما؛ أيّ: يُجَشِّمَهُما ويُكَلِّفَهُما، والمعنى: أنْ يُلْقِيهما حُبُّهُ في اتِّباعِه فَيَضِلَّا ويَتَدَيَّنا بِدِينِهِ (**فأرَدْنا أنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيرًا مِنْهُ زَكاةً**) قرأ الجُمهورُ بفَتْحِ الباءِ وتشديدِ الدالِ، وقرأ عاصِمٌ بِسُكُونِ الباءِ وتخفيفِ الدالِ؛ أيّ: أنْ يَرْزُقَهُما اللهُ ولَدًا. يُقالُ: بَدَلَ وأبْدَلَ مِثل مَهَلَ وأمْهَلَ ونَزَلَ وأنْزَلَ (**وأقْرَبَ رُحْمًا**) قرأ ابنُ عبَّاسٍ رُحْمًا بِالضَّمِ، قال الشاعرُ:

وكيفَ بِظلم جارِية ومِنْها اللينُ والرُّحْمُ

بِسُكُونِها. ومِنهُ قولُ رُؤبةَ بنِ العجاجِ: يا منزلَ الرحمِ على إدْرسيا ومَنْزِل اللعنِ على إبْليسا

و"رحْمًا" معطوفٌ على زكاةٍ؛ أيّ: رحْمةً. قال: "رَحْمةً ورَحْمًا"، وألِفُهُ لِلتأنيثِ، ومُذكَّرُهُ رَحمٌ. وقيلَ: الرُّحْمُ هُنا بِمَعنى الرَّحِمِ قرأها ابنُ عبَّاسٍ.

وعن ابنِ جُبَيرٍ وابنِ جُرَيجٍ أنَّهُما بُدلا جارية. قال الكلبيُّ فَتَزَوَّجَها نبيٌّ مِن الأنبياءِ فَولدَتْ له نبيًّا فَهَدَى اللهُ تعالى على يَديهِ أُمَّةً مِن الأُمَمِ.

وقال قتادةُ: وَلَدَتْ أُثنَى عَشَرَ نبيًّا، وعن ابنِ جُريجٍ أيضًا: أنَّ أُمَّ الغُلامَ يومَ قُتِلَ كانتْ حامِلاً بِغُلامٍ مُسْلِمٍ وكانَ المَقْتُولُ كافِرًا. وعن ابنِ عبَّاسٍ: فَولَدَتْ جاريةُ

ولدَتْ نبيًّا، ويُستفادُ من هذه الآيةِ تهوينُ المَصائبِ بفَقْدِ الأولادِ – وإنْ كانُوا قطعًا من الأكبادِ – ، ومَن سلَّمَ للقَضاءِ أسْفَرَتْ عاقِبَتُهُ عن اليدِ البَيضاءِ.

قال قتادةُ: لقَد فَرِحَ بهُ أبواهُ حينَ وُلِدَ وَحَزِنا عليهِ حينَ قُتِلَ، ولو بَقِيَ كان فيهِ هلاكُهُما؛ فالواجبُ على كلِّ امْرِئٍ الرِّضا بقَضاءِ اللهِ تعالى؛ فإنّ قضاءَ اللهِ للمُؤمنِ فيما يكرهُ خيرٌ لهُ من قضائِه لهُ فيما يُحِبُّ.

(**وأمَّا الجِدارُ فكانَ لِغُلامَينِ يَتِيمَينِ**) هذانِ الغُلامانِ صَغيرانِ بقَريةٍ وَصْفِهما باليُتْمِ، واسمُهُما أصْرَمُ وصَريم. وقَد قال عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: "لا يُتْمَ بَعْدَ بُلُوغٍ". وهذا هُوَ الظاهِرُ. ويحتملُ أن يَبْقَى عليهِما اسمُ اليُتْمِ بعدَ البُلوغِ إنْ كانا يَتيمَينِ على معنى الشَّفَقةِ عليهِما.

وقد تقدَّمَ أنَّ اليُتْمَ في الناسِ من قِبَلِ فقْد الأبِ، وفي غَيرِهِم من الحَيوانِ من قَبْلِ فقْدِ الأُمِّ. ودَلَّ قولُه تعالى (**فِي الْمَدِينَةِ**) على أنَّ القَرْيَةَ تُسمَّى مَدينةً، ومِنهُ الحَديثُ:

" أمِرْتُ بِقرْيَةٍ تأكُلُ القرى..." وفي حديثِ الهِجْرَة: " لِمَنْ أنتَ؟ فقالَ الرَّجُلُ: مِنْ أهْلِ المَدينَةِ يعني مَكَّةَ " (**وكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما**) اختلفَ الناسُ في الكنْزِ؛ فقالَ عِكْرِمَةُ وقتادَةُ كان مالاً جَسيمًا وهو الظاهِرُ من اسْمِ الكنْزِ؛ إذ هُوَ في اللغةِ المالُ المجموعُ، وقال ابنُ عبَّاسٍ: كان عِلْمًا في صُحُفٍ مَدفُونةٍ. وعنهُ أيضًا: كان لَوْحًا من ذَهَبٍ مَكْتُوبًا فيهِ "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عَجِبْتُ لِمَنْ يُؤمِنُ بالقَدَرِ كيفَ يَحْزَنُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤمِنُ بالرِّزْقِ كيفَ يَتْعَبُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤمِنُ بالمَوتِ كيفَ يَفْرَحُ،

وعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤمِنُ بالحِسابِ كيفَ يَغفُلُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤمِنُ بالدُّنيا وتَقلُّبِها بأهْلِها كيفَ يَطْمَئِنُّ لها، لا إلهَ إلاّ اللّٰهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ" .

ورُوِيَ نَحْوُهُ عنْ عُثْمانَ بنِ عفَّانَ وعِكْرِمَة وعُمَرَ مَولَى غفرة (**وكانَأبُوهُماصالِحًا فَأَرَادَرَبُّكَأَنْيَبْلُغَاأَشُدَّهُمَاوَيَسْتَخْرِجَاكَنْزَهُمَارَحْمَةًمِنْرَبِّكَ**) ظاهِرُ اللفْظِ والسابقِ مِنهُ أنَّهُ والِدُهُما دِنْيَةً.

وقيلَ: هُو الأبُ السابِعُ قالَهُ جَعْفرُ بنُ مُحمَّدٍ، وقيلَ العاشِرُ. فَحفِظا فيهِ وإنْ لَمْ يُذْكَرْ بِصَلاحٍ. وكان يُسَمَّى كاشِحًا. قال مقاتِلٌ: اسمُ أُمِّهِما دُنيا ذَكَرَهُ النقاشُ، وفيهِ ما يدلُّ على أنَّ اللّٰهَ تعالى يَحفَظُ الرَّجُلَ الصَّالِحَ في نفْسِه ووَلَدِهِ وإنْ بَعدُوا عنه لِقَولِه تعالى: (إنَّ وَلِيِّيَ اللّٰهُ الذي نَزَّلَ الكِتابَ وهُوَ يَتولَّى الصَّالِحِينَ (**ومافَعَلْتُهُعَنْأَمْرِي**) يقتضِي أنَّ الخَضِرَ نبيٌّ، وقد تقدَّمَ الخِلافُ في ذلكَ (**ذلكَتأوِيلُ**)؛ أيّ: تفسيرُ (**مالَمْتَسْطِعْعليهِصَبْرًا**) وقَرأتْ فِرْقَةٌ "تَسْتَطِيعُ"، وقرأَ الجُمهُورُ "تَسْطِع".

وهُنا خَمْسُ مَسائِل:

الأُولى: إنْ قالَ قائِلٌ لَمْ يُسْمَعْ لِفَتَى مُوسَى ذِكْرٌ في أوَّلِ الآيةِ ولا في آخِرِها، قِيلَ لهُ اختلِفَ في ذلِكَ، قال عِكْرِمةُ لابْنِ عبَّاسٍ: لم يُسْمَعْ لِفَتى مُوسَى بِذِكْرٍ وقَد كانَ مَعهُ؟ فقالَ: شَرِبَ الفَتى مِن الماءِ فَخُلِّدَ، وأخَذَهُ العالِمُ فطبَّقَ عليهِ سفينةً ثُمَّ أرسَلَهُ في البَحْرِ، وإنَّها لتَمُوجُ بِهِ إلى يومِ القيامةِ؛ وذلكَ: أنَّهُ لَمْ يَكُنْ لهُ أنْ يَشْرَبَ مِنهُ.

قال القُشَيريُ: وهذا إنْ ثبَتَ فليسَ الفَتى يُوشَع بنَ نُونٍ؛ فإنَّ يُوشَع بنَ نُونٍ قَد عمر بَعدَ مُوسَى وكانَ خلِيفَتَهُ.

والأظْهرُ: أنّ مُوسَى صَرَفَ فتاهُ لمّا لَقِيَ الخَضرَ. قال شيخُنا الإمامُ أبو العبَّاسِ: يحتملُ أنْ يكونَ اكتفِيَ بِذِكْرِ المَتْبُوعِ عن التابعِ واللهُ أعلمُ.

الثانيةُ: إنْ قالَ قائلٌ لماذا أضافَ الخَضرُ استِخْراجَ كَنْزِ الغُلامَينِ للهِ تعالى: (**فأرادَ رَبُّكَ..**). وفِي خَرْقِ السَّفِينةِ أضافَ العَيبَ إلى نفْسِه: (**فأرَدْتُ أنْ أعِيبَها**)؟

قيلَ لهُ: إنَّما أسندَ الإرادةَ في الجِدارِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّها غَيْبٌ مِن الغُيوبِ، والذي أعْلَمَهُ بتلكَ الإرادةِ هُوَ اللهُ تعالى.

وقيلَ: لَمَّا كان ذلكَ خَيرًا كُلُّهُ أضافَهُ إلى اللهِ تعالى، وأضافَ عَيْبَ السفينةِ إلى نفْسِه رِعايةً للأدَبِ، كما تأدَّبَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ في قولِه: "**وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**". فأسندَ المَرَضَ إلى نَفْسِه.

الثالثةُ: قال بعضُ الزَّنادِقةِ: إنّ الأحكامَ الشرعيَّةَ إنَّما يُحْكَمُ بها على الأنبياءِ والعامَّةِ، وأمَّا الأولياءُ والخاصَّةُ فلا يَحتاجُونَ إلى تلكَ النُّصوصِ؛ وإنَّما يُرادُ مِنهُم ما يَقَعُ في قُلوبِهِم، ويُحكَمُ عليهِم ما يَغْلبُ مِن خَواطِرِهِم؛ وذلكَ لِصَفاءِ قُلُوبِهِم مِن الأكْدارِ وخُلُوِّها عن الأغْيارِ؛ فتتَجلَّى لهُم العلومُ الإلهيَّةُ والحقائقُ الرَّبَّانيَّةُ، فَيَقِفُونَ على أسرارِ الكائناتِ، ويَعلَمُونَ أحكامَ الجُزْئيَّاتِ فَيَسْتَغْنُونَ بها عن أحكامِ الشرائعِ الكُلِّيَّاتِ كما اتَّفقَ لِلخَضرِ؛ فإنَّه استغْنَى بما تجلَّى لهُ مِن العلومُ عمَّا كان عِندَ مُوسَى مِن تلكَ الفُهومِ. وقالُوا: اسْتفْتِ قَلْبَكَ وإنْ أفْتاكَ المُفْتُونَ.

قال شيخُنا رَحِمَهُ اللهُ: وهذا القولُ زَنْدقَةٌ وكُفْرٌ يُقتَلُ قائلُهُ ولا يُسْتَتابُ؛ لأنَّه إنكارُ ما عُلِمَ مِن الشرائعِ. واللهُ تعالى قَد أجْرَى سُنَّتَهُ وأنفَذَ حِكْمَتَهُ بأنَّ أحكامَهُ لا تُعْلَمُ

إلاّ بواسطَةِ رُسُلِه السُّفراءِ بينَهُ وبينَ خَلْقِه، وَهُمُ المُبَلِّغُونَ عَنهُ رِسالاتِه وكلامَهُ، المُبَيِّنُونَ شرائِعَهُ وأحكامَهُ، اختارَهُمْ لِذلَكَ وخَصَّهُم بِما هُنالِكَ كما قالَ تعالى: (**اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلًا و مِنَ الناسِ إنَّ اللهَ سميعا بصيرا**) .

وقالَ: اللّهُ أعلمُ حيثُ يجْعَلُ رِسالَتَهُ. وقَد حَصَلَ العِلْمُ القطعيُّ واليقينُ الضَّرُوريُّ واجتماعُ السَّلَفِ والخَلَفِ على أنْ لا طَريقَ لِمَعْرِفةِ أحكامِ اللّهِ تعالى إلَّا مِن جِهَةِ الرُّسُلِ؛ فمَنْ قالَ: إنَّ هناكَ طُرُقًا أُخْرى تُعْرَفُ بها أوامرُ اللّهِ ونواهيه؛ بحيثُ يُسْتَغْنَى بها عن الرُّسُلِ فهُوَ كافِرٌ يُقتَلُ ولا يُسْتَتابُ، ولا يُحتاجُ مَعهُ إلى سُؤالٍ ولا جَوابٍ. وهذا يعني – أيضًا – وجودَ أنبياءٍ بعدَ نبيِّنا عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ الذي قد جعلَهُ اللّهُ خاتمَ أنبيائِه ورُسُلِه، فلا نبيَّ بَعْدَهُ ولا رَسُولَ.

فمَنْ قالَ: إنَّهُ يأخذُ عنْ قَلبِهِ، وأنَّ ما يقعُ فيه حُكْمُ اللّهِ تعالى، وأنَّهُ يعمَلُ بمُقتَضاهُ، وأنَّهُ لا يحتاجُ مع ذلكَ إلى كتابٍ ولا سُنَّةٍ؛ فقَد أثبتَ لِنَفْسِه خاصَّةَ النُّبُّوةِ، فإنَّ هذا نحْو ما قالَهُ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ: " إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي " ... الحديث.

الرابعةُ: ذهبَ الجُمهورُ إلى أنّ الخَضرَ عليهِ السلامُ قد ماتَ.

وقالتْ فِرقةٌ: هو حيٌّ؛ لأنَّه شَرِبَ مِن عَينِ الحياةِ، وأنّهُ باقٍ في الأرضِ، وأنَّهُ يحجُّ البيتَ.

قال ابنُ عطيّةَ – وقَد أطنبَ النِّقاشَ في هذا المَعنى وذَكرَ في كِتابِه أشياءَ كثيرةً عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ وغَيرِه، وكُلُّها لا تقومُ على ساقٍ – . ولو كانَ الخَضرُ عليهِ السلامُ حيًّا يحجُّ لكانَ له في مِلَّةِ الإسلامِ ظُهورٌ. وممّا يَقضِي موتَ الخَضرِ قولُه صلَّى

اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " أرأيتَكُمْ لَيلَتكُمْ هذهِ؛ فإنَّهُ لا يَبْقَى ممَّنْ هُوَ اليومَ على ظَهْرِ الأرضِ أحدٌ " .

قُلتُ: إلى هذا ذهبَ البُخاريُّ واختارَهُ القاضي أبو بَكْرٍ بنُ العربيِّ.

والصَّحيحُ: هو القولُ الثاني؛ وهو أنَّهُ حيٌّ على ما نَذْكُرُهُ.

والحديثُ خرجَهُ مُسلِمٌ في صَحيحِه عنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ قال: "صلَّى بِنا رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ ليلةٍ صلاةَ العِشاءِ في آخِرِ حياتِه فلمَّا سلَّمَ قامَ فقالَ: " أرأيْتَكُمْ لَيلَتَكُمْ هذهِ؛ فإنَّ على رأسِ مِائةِ سَنَةٍ مِنها لا يَبْقَى ممَّنْ على ظَهْرِ الأرْضِ أحدٌ " . قال ابنُ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنهُما: "فَوهلَ الناسُ في مَقالةِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تلكَ فِيما يَتحدَّثُونَ مِن هذه الأحاديثِ عن مِائةِ سَنَةٍ؛ وإنَّما قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ لا يبقَى ممَّنْ هَوَ اليومَ على ظَهْرِ الأرضِ أحدٌ يُريدُ بِذلكَ أنْ يَنْخَرِمَ ذلكَ القَرن.

ورَواهُ أيضًا مِن حديثِ جابرِ بنِ عَبْدِ اللهِ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ قَبْلَ أنْ يَمُوتَ بِشَهْرٍ: "تَسْأَلُونِي عن السَّاعةِ؛ وإنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ، وأُقْسِمُ باللهِ ما على الأرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تأتي عَلَيها مائَةُ سَنَةٍ " .

وفي روايةٍ ثانيةٍ قالَ سالِمٌ: تَذاكَرْنا أنَّها هِيَ مَخْلُوقةٌ يَومَئِذٍ.

وفي روايةٍ أُخْرى: "ما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ اليومَ يأتي عَلَيها مِائَةُ سَنَةٍ وهِيَ حَيَّةٌ يَومَئِذٍ" . وفَسَّرَها عَبْدُ الرَّحْمَنِ صاحِبُ السِّقايةِ قالَ: نَقْصُ العُمُرِ.

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ نَحْو هذا الحَديثِ.

قال العُلماءُ الأجلاّءُ: وحاصِلُ ما تَضَمَّنَهُ هذا الحديثُ أنَّهُ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ أخبرَ قَبْلَ مَوتِهِ بِشَهْرٍ أنَّ مَن كانَ مِنْ بَني آدمَ مَوجُوداً في ذلكَ لا يَزِيدُ عُمُرُهُ على مِائَةِ سَنَةٍ؛ لِقَولِه صلَّى اللّهُ عليهِ وسَلَّمَ: " ما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسةٍ"، وهذا اللفظُ لا يتناولُ المَلائِكةَ ولا الجِنّ؛ إذْ لم يَصِحَّ عَنهُم أنَّهُم كذلكَ، ولا الحَيوانَ غَيرَ العاقِلِ؛ لِقَولِه: "مِمَّنْ هُوَ على ظَهْرِ الأرْضِ أحَدٌ". وهذا إنَّما يُقالُ بأصْلِ وَضْعِهِ على مَنْ يَعْقِلُ، فتعيَّنَ أنَّ المُرادَ بَنُو آدمَ. وقد بيَّنَ ابنُ عُمَرَ رضيَ اللّهُ عنهُما هذا المعنى فقالَ: يُرِيدُ بذلكَ أنْ يَنْخَرِمَ ذلك القَرْنُ. ولا حُجَّةَ لِمَنِ استدلَّ بِه على بُطلانِ قَولِ مَن يَقولُ: إنَّ الخَضرَ حيٌّ؛ لِعُمومِ قولِه: "ما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ"؛ لأنَّ العُمومَ – وإنْ كانَ مُؤكَّدَ الاستغراقِ –؛ فليسَ نَصًّا فيهِ؛ بلْ هُو قابِلٌ لِلتخصيصِ.

وذَكَرَ الثعلبيُّ في كتابِ العرائسِ: الصَّحيح أنّ الخَضرَ نبيٌّ مُعمَّرٌ مَحجُوبٌ عن الأبصارِ. ورُوِيَ عنْ عَبْدِ اللّهِ بنِ شَوذَبٍ قولُهُ: الخَضرُ عليهِ السلامُ مِن ولدِ فارِسٍ، وإلياسُ مِن بني إسْرائيلَ يلتقِيانِ كُلَّ عامٍ في المَوسِمِ. وعنْ عَمْرو بنِ دينارٍ قال: "إنَّ الخَضرَ وإلياسَ لا يَزالانِ حَيَّينِ في الأرضِ ما دامَ القُرآنُ على الأرضِ؛ فإذا رُفِعَ ماتا".

وقد ذَكَرَ الإمامُ أبو مُحمَّدٍ اللخْميُّ في شرحِ الرِّسالةِ لِلقُشيريِّ حكاياتٍ كثيرةً عن جَماعَةٍ مِن الصَّالحِينَ والصَّالحاتِ بأنَّهُم رأوا الخَضرَ وَلَقُوهُ.

وفي صَحيحِ مُسْلِمٍ: "أنَّ الدَّجَّالَ يَنتهِي إلى بَعْضِ السِّباخِ التي تلي المَدِينَةَ فَيَخْرُجُ إليهِ يَومَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيرُ النَّاسِ أوْ مِنْ خَيرِ النَّاسِ..." الحديث،

وفي آخِرِه قالَ أبُو إسْحاقٍ: يعني أنّ هذا الرَّجُلَ هُو الخَضرُ.

وذَكَرَ ابنُ أبي الدُّنيا في كتابِ "الهَواتفِ" بِسَنَدٍ يُوقِفُهُ إلى عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللّٰهُ عنهُ: أنَّهُ لَقِيَ الخَضرَ وعَلَّمَهُ هذا الدُّعاءَ، وذَكَرَ أنّ فيهِ ثوابًا عَظِيمًا ومَغْفِرةً ورَحْمَةً لِمَنَ قالَهُ في أثْرِ كُلِّ صَلاةٍ:

"يا مَنْ لا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عنْ سَمْعٍ، ويا مَنْ لا تُغْلِطُهُ المَسائِلُ، ويا مَنْ لا يَتَبَرَّمُ مِن إلحاحِ المُلِحِّينَ، أذِقْنِي بَرْدَ عَفْوِكَ، وحَلاوةَ مَغْفِرَتِكَ".

وذَكَرَ – أيضًا – عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللّٰهُ عنهُ هذا الدُّعاءَ بِعَينِه في سَماعِه مِن الخَضرِ. وذَكَرَ أيضًا اجتماعَ إلياسٍ مع النبيِّ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ. وإذا جازَ بَقاءُ إلياسٍ إلى عَهْدِ النبيِّ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ) جازَ بقاءُ الخَضرِ. وقَد ذَكَرَ أنَّهُما يَجتَمِعانِ عندَ البَيتِ في كُلِّ حَولٍ، وأنَّهُما يقولانِ عِندَ افْتِراقِهِما "ما شاءَ اللّٰهُ. ما شاءَ اللّٰهُ. لا يَصْرِفُ السُّوءَ إلاّ اللّٰهُ، ما شاءَ اللّٰهُ. ما شاءَ اللّٰهُ. ما يَكُونُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ، ما شاءَ اللّٰهُ. ما شاءَ اللّٰهُ. توكَّلْتُ على اللّٰهِ، حَسْبُنا اللّٰهُ ونِعْمَ الوَكيلِ".

وذَكَرَ أبُو عُمَرَ بنُ عَبْدِ البَرِّ في كتابِ التمهيدِ عن عليٍّ رضيَ اللّٰهُ عَنهُ: قال لَمّا تُوفِّي النَّبيُّ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ وسُجِّيَ بِثَوبٍ هَتَفَ هاتِفٌ مِن ناحيةِ البيتِ يَسْمَعُونَ صَوتَهُ ولا يَرَونَ شَخْصَهُ: السَّلامُ عَلَيكُمْ ورَحْمَةُ اللّٰهِ وبَرَكاتُهُ، السَّلامُ عَلَيكُمْ أهْلَ البيتِ، كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوتِ، إنَّ في اللّٰهِ خَلَفًا مِنْ كُلِّ هالِكٍ، وعِوضًا مِنْ كُلِّ تالِفٍ، وعَزاءً مِن كُلِّ مُصيبَةٍ، فَباللّٰهِ فَثِقُوا، وإيَّاهُ فارْجُوا؛ فإنَّ المُصابَ مَنْ حُرِمَ الثَّوابَ. فكانَ الصَّحابةُ يَرَونَ أنَّهُ الخَضرُ. والألفُ واللامُ في قولِه على الأرضِ هِيَ لِلعَهْدِ لا لِلجِنْسِ؛ وهِيَ أرضُ العَرَبِ؛ بِدليلِ تَصرُّفِهِم فيها دُونَ أرضِ يأجُوجَ ومأجُوجَ وأقاصِي جُزُرِ الهِنْدِ والسِّنْدِ مِمَّا لا يَقْرَعُ السَّمْعَ اسْمُهُ ولا يُعلَمُ عِلْمُهُ.

الخامسةُ: لَّما قالَ الخَضرُ لِموسَى "هذا فِراقُ بَينِي وبَينِكَ"، قالَ لهُ مُوسَى: "أوصِني". قالَ: "كُنْ بَسَّامًا، ولا تَكُنْ ضَحَّاكًا، وَدَعِ اللجَاجَةَ، ولا تَمْشِ في غَيرِ حاجةٍ، ولا تَعَبَ على الخَطَّائِينَ خَطاياهُمْ، وابْكِ على خَطِيئَتِكَ يا ابْنَ عِمرانَ".

وَقد وَقَعَ لِبَعْضِ الجُهَلَة: أَنَّ الخَضِرَ أَفْضَلُ مِنْ مُوسَى تَمَسُّكًا بِهَذِهِ الْقِصَّة وَبِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ؛ وَهَذَا إِنَّمَا يَصْدُر مِمَّنْ قَصَرَ نَظَرَهُ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّة، وَلَمْ يَنْظُر فِيمَا خَصَّ اللَّه بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السلام مِن الرِّسَالَة وَسَمَاع كَلَام اللَّه وَإِعْطَائِهِ التَّوْرَاة فِيهَا عِلْم كُلّ شَيْء، وَأَنَّ أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيل كُلَّهمْ دَاخِلُونَ تَحْت شَرِيعَته، وَيُخَاطِبُونَ بِحُكْمِ نُبُوَّته حَتَّى عِيسَى.

وَأَدِلَّة ذَلِكَ فِي الْقُرْآن كَثِيرَة وَيَكْفِي مِنْ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: (يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُك عَلَى النَّاس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي). وَالخَضِرُ – وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا – فَلَيْسَ بِرَسُولٍ بِاتِّفَاقٍ، وَالرَّسُولُ أَفْضَلُ مِنْ نَبِيٍّ لَيْسَ بِرَسُولٍ، وَلَوْ تَنَزَّلْنَا عَلَى أَنَّهُ رَسُولٌ فَرِسَالَة مُوسَى أَعْظَمُ وَأُمَّته أَكْثَرُ فَهُوَ أَفْضَلُ،

وَغَايَة الخَضِرِ أَنْ يَكُونَ كَوَاحِدٍ مِنْ أَنْبِيَاء بَنِي إِسْرَائِيل وَمُوسَى أَفْضَلهمْ.

وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الخَضِرَ لَيْسَ بِنَبِيٍّ بَلْ وَلِيّ؛ فَالنَّبِيُّ أَفْضَل مِن الْوَلِيّ، وَهُوَ أَمْرٌ مَقْطُوعٌ بِهِ عَقْلاً وَنَقْلاً، وَالصَّائِرُ إِلَى خِلاَفِهِ كَافِرٌ؛ لأَنَّهُ أَمْرٌ مَعْلُومٌ مِن الشَّرْع بِالضَّرُورَةِ. وَإِنَّمَا كَانَتْ قِصَّة الخَضِرِ مَعَ مُوسَى امْتِحَانًا لِمُوسَى لِيَعْتَبِرَ.(١)

١) تفسير القرطبي: (ج١١/ص٩- ٤٥).

تفسيرُ ابنِ كثيرٍ

(**وَإِذْقَالَمُوسَىلِفَتَاهُ**) وسببُ قولِ مُوسَى عليهِ السلامُ لِفَتاهُ يُوشَع بنِ نُونٍ هذا الكلامَ أنَّهُ ذَكَرَ لهُ عَبْدًا مِن عِبادِ اللّهِ بِمَجْمَع البَحْرَينِ عِندَهُ مِن العِلْمِ لمْ يُحِطْ بهِ مُوسَى فأحبَّ الرَّحِيلَ إليهِ (**لاأَبْرَحُ**) أيّ: لا أزالُ سائِرًا (**حتَّىأَبْلُغَمَجْمَعَ البَحْرَينِ**) أيّ: المكانَ الذي فيهِ مَجْمَعُ البَحرَينِ.

قال قتادةُ وغَيرُه: هُما بَحْرُ فارِس مِمَّا يَلي المَشْرِقَ وبَحْرُ الرُّومِ مِمّا يلي المَغْرِبَ. وقال مُحمَّدٌ بنُ كَعْبٍ: مَجْمَعَ البَحْرَينِ عند طَنْجَةً في أقصَى بلادِ المَغْرِبِ (**أوأَمْضِيَ حُقُبًا**) أيّ: ولو أنَّي أسيرُ حُقُبًا مِن الزَّمانِ.

قال عَبْدُ اللّهِ بنُ عَمْرٍو: الحُقْبُ ثمانُونَ سَنَةً، وقالَ مُجاهِدٌ: سبْعُونَ خَرِيفًا،

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ دَهْرًا (**فَلَمَّابَلَغَامَجْمَعَبَينِهِمانَسِياحُوتَهُما**)؛ وذلكَ أنَّهُ كان قَد أمَرَ بِحَمْلِ حُوتٍ مَمْلُوحٍ مَعَهُ، وقيلَ لهُ: متَى فقَدتَ الحُوتَ فهُوَ ثَمَّةَ. فَسارا حتّى بلَغا مَجْمَعَ البَحْرَينِ، وكان الحُوتُ في مكتَلٍ مع يُوشَع عليهِ السلامُ فَطَفَرَ مِن المكتَلِ، فاستَيقظَ يُوشَع، وسَقَطَ الحُوتُ في البَحْرِ فَجَعَلَ يسيرُ في الماءِ، والماءُ لهُ مِثلُ الطاقِ لا يلتئِمُ بَعْدُ، والطاقُ هُو ما عُقِدَ مِن أعلَى البِناءِ وبَقِيَ تَحْتَهُ خالِيًا؛ ولهذا قالَ تعالى (**فاتَّخَذَسَبِيلَهُفِيالبَحْرِسَرَبًا**) أيّ: مِثلَ السِّرْبِ في الأرضِ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللّهُ عنهُما: صارَ أثرُهُ كأنَّهُ حَجَرٌ. وقالَ قتادَةُ: سَرَبَ مِن البحرِ حتَّى أفضَى إلى البحرِ فجَعلَ لا يَسْلُكُ فيهِ طَرِيقًا إلاّ صارَ ماءً جامِدًا

(**فلمَّاجاوَزا**) أيّ: المَكانَ الذي نَسِيا الحُوتَ فيهِ (**قال**) مُوسَى (**لِفَتاهُآتِناغَداءَنا لقَدْلَقِيْنامِنْسَفَرِناهذانَصَبًا**) أيّ: تَعبًا (**قالَأرأيْتَإذْأَوَيْنا إلىالصَّخْرَةِفإنِّي نَسِيْتُالحُوتَ،وماأنْسانِيهِإلَّاالشَّيطانُأنْأذْكُرَهُ**) ولِهذا قالَ (**واتَّخَذَسَبِيلَهُ**) أيّ: طَريقَهُ (**فِيالبَحْرِعَجَبًا**) كانَ لِلحُوتِ سَرَبًا ولِمُوسَى وفَتاهُ عَجَبًا (**قالَذَلِكَما كُنَّانَبْغِ**) أيّ: هذا هُو الذي نَطلُبُ (**فارْتدَّا**) أيّ: رَجَعا (**علىآثارِهِماقَصَصًا**) أيّ: يَقُصَّانِ آثارَ مَشْيِهِما ويَقْفُوانِ أثَرَهُما (**فَوجَداعَبْدًامِنعِبادِناآتَيْناهُرَحْمَةًمِنْ عِنْدِناوعَلَّمْناهُمِنْلَدُنَّاعِلْمًا**) وهو الخَضرُ عليهِ السلامُ كما دلَّتِ الأحاديثُ الصَّحيحَةُ عن رَسُولِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ.

روى الزُّهريُّ عن ابْنِ عبَّاسٍ أنَّه تمارَى هُو والحرُّ بنُ قيسٍ بنِ حِصْنِ الفزاريِّ في صاحبِ مُوسَى، فقالَ ابنُ عبَّاسٍ هو الخَضرُ. فمَرَّ بهِما أُبيُّ بنُ كَعْبٍ فَدَعاهُ ابنُ عبَّاسٍ فقالَ: إنِّي تَمَارَيتُ أنا وصاحِبي هذا في صاحِبِ مُوسَى الذي سألَ السَّبيلَ إلى لقيهِ، فهلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ يَذْكُرُ شأنَهُ؟

قالَ إنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: " بَينَما مُوسَى في مَلأٍ مِن بَني إسرائيلَ؛ إذْ جاءَهُ رَجُلٌ فقالَ: تَعْلَمُ رَجُلٌ أعْلَمَ مِنْكَ؟ قالَ: لا. فأوْحَى اللّهُ إلى مُوسَى: بَلَى؛ عَبدَنا خَضر. فسألَ مُوسَى السَّبيلَ إلى لقيهِ، فَجَعلَ اللّهُ لهُ الحُوتَ آيةً، وقيلَ لهُ: إذا فَقدْتَ الحُوتَ فارْجِعْ فإنَّكَ سَتلْقاهُ.

فكانَ مُوسَى يَتبَعُ أثرَ الحُوتِ في البَحرِ. فقالَ فتَى مُوسَى لِمُوسَى: أرأيْتَ إذْ أوَيْنا إلى الصَّخْرَةِ فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ، قال مُوسَى ذَلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فارْتَدَّا على آثارِهِما قَصَصًا. فَوجَدا الخَضرَ، وكانَ مِن شأنِهِما ما قصَّ اللّهُ في كِتابِه.

وروَى البُخاريُّ عنْ أُبي بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللّهُ عنهُ أنّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: " إنَّ مُوسَى قامَ خَطِيبًا في بَني إسرائيلَ، فَسُئِلَ: أيُّ النَّاسِ أعلَمُ؟ قالَ: أنا. فَعتَبَ اللّهُ عليهِ إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إليهِ. فأوحَى اللّهُ إليهِ: إنَّ لي عَبْدًا بِمَجْمعِ البَحرَينِ هُوَ أعْلَمُ مِنكَ.

قال مُوسَى: يا رَبِّ، كيفَ لي بهِ؟ قال تأخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلَهُ بِمكتَلٍ؛ فَحَيْثُما فَقدْتَ الحُوتَ فهُوَ ثَمَّ. فأخَذَ حُوتًا فَجعَلَهُ بِمكتَلٍ وانْطلَقَ مَعهُ فَتاهُ يُوشَع بنُ نُون؛ حتَّى إذا أتَيا الصَّخْرَةَ وَضَعا رُؤوسَهُما فَناما، فاضْطَرَبَ الحُوتُ في المكْتَلِ، وخَرَجَ مِنهُ فَسَقَطَ في البَحْرِ واتَّخَذَ سَبِيلَهُ سَرَبًا، وأمْسَكَ اللّهُ عنِ الحُوتِ جَريةَ الماءِ؛ فصارَ عليهِ مِثلَ الطاقِ. فلمَّا استيقظَ نَسِيَ صاحِبُهُ أنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ، فانْطَلقا بَقِيَّةَ يَومِهِما ولَيلَتِهِما؛ حتّى إذا كانَ مِن الغَدِ قالَ مُوسَى لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَبًا، ولمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حتَّى جاوزَ المكانَ الذي أمرَهُ اللّهُ بهِ، فكانَ لِلحُوتِ سَرَبًا ولِمُوسَى وفَتاهُ عَجَبًا. قالَ ذلكَ ما كُنَّا نَبغَ فارْتَدَّا على آثارِهِما قَصَصًا، فَرَجَعا يَقُصَّانِ أثَرَهُما حتّى انْتَهيا إلى الصَّخْرَةِ، فإذا رَجُلٌ مُسَجًّى بِثَوبٍ، فَسَلَّمَ عَليهِ مُوسَى، فَقالَ الخَضرُ: وأنَّى بِأرْضِكَ السَّلامُ؟ قال: أنا مُوسَى، فقالَ: مُوسَى بَني إسرائيلَ؟ قالَ: نَعَمْ..." ثُمَّ يُخبِرُ تعالى عنْ قَولِ مُوسَى عليهِ السَّلامُ

لذلكَ العالِم الذي خَصَّهُ اللهُ بِعِلْمٍ لَمْ يَطَّلِعْ عليهِ مُوسَى، كما أنَّهُ أعطَى مُوسَى مِن العِلْمِ ما لمْ يُعْطِهِ لِلخَضرِ (**قالَ لهُ مُوسَى هَلْ أتَّبِعُكَ**) أيّ: أصْحَبُكَ وأُرافِقَكَ؟ سؤالَ تلطُّفٍ لا على وَجْهِ الإلزامِ والإجْبارِ.

وهكذا يَنبغِي أنْ يكونَ سُؤالُ المُتعَلِّمِ مِن العالِم (**على أنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**) أيّ: مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ شيئًا أسْتَرْشِدُ بهِ في أمْرِي مِنْ عِلْمٍ نافِعٍ وعَمَلٍ صالِحٍ، عِندَها (**قالَ**) الخَضرُ لِمُوسَى (**إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) أيّ: إنَّكَ لا تَقْدِرُ على مُصاحَبَتِي؛ لِما تَرَى مِنِّي مِن الأفْعالِ التي تُخالِفُ شَرِيْعَتَكَ؛ لأنِّي على عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللهِّ ما عَلَّمَكُهُ اللهُ، وأنْتَ على عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللهِ ما عَلَّمَنِيهُ اللهُ؛ فَكُلٌّ مِنَّا مُكَلَّفٌ بِأُمُورٍ مِنَ اللهِ دُونَ صاحِبِهِ، وأنْتَ لا تَقدِرُ على صُحْبَتِي

(**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**) فأنا أعْرِفُ أنَّكَ سَتُنْكِرُ عليَّ ما أنْتَ مَعذُورٌ فيهِ؛ لأنَّكَ ما اطَّلَعْتَ على حِكْمَتِهِ ومَصْلَحَتِهِ الباطِنةِ التي اطَّلَعْتُ أنا علَيها دُونَكَ، (**قالَ**) مُوسَى (**سَتَجِدُنِي إنْ شاءَ اللهُ صابِرًا**) أيّ: على ما أرَى مِن أُمُورِكَ (**ولا أعْصِي لكَ أمْرًا**) أيّ: ولا أُخالِفُكَ في شَيءٍ؛ فَعِندَ ذلك شارَطَهُ الخَضرُ عَليهِ السَّلامُ (**قالَ فإنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسْألْنِي عَنْ شَيءٍ**) ابتِداءً (**حتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**) أيّ: حتَّى أبْدأكَ أنا بِهِ قَبْلَ أنْ تَسْألَنِي.

ثُمَّ يقولُ تعالى مُخْبِرًا عنْ مُوسَى وصاحِبِهِ الخَضرِ (**فانْطَلَقا**) لَمَّا تَوافَقا واصْطَحَبا (**حتَّى إذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ**) وقَد عَرَفُوا الخَضرَ فَحَمَلُوهُما بِغَيرِ أُجْرَةٍ تَكْرِمَةً لِلخَضرِ،

فلمَّا استقلَّتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ في البَحْرِ وَلججت (**خَرَقَها**) الخَضرُ واسْتَخْرَجَ لَوحًا مِن ألواحِها ثُمَّ رَقعَها، فَلَمْ يمْلِكْ مُوسَى عليهِ السلامُ نَفْسَهُ مُنكِرًا عليهِ (**قالَ أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَها**) وهذهِ اللامُ لامُ العاقِبَةِ لا لامَ التعليلِ كما قِيلَ: "لِدُوا لِلمَوتِ، وابْنُوا لِلخَرابِ"

(**لَقَدْ جِئْتَ شَيئًا إمْرًا**) قال مُجاهِدٌ "مُنْكَرًا"، وقال قتادةُ "عَجَبًا". فعِنْدَها قالَ لهُ الخَضرُ مُذَكِّرًا بِما تقدَّمَ مِن الشَّرطِ (**ألَمْ أقُلْ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) أيّ: وهذا الصَّنِيعُ فَعَلْتُهُ قَصْدًا وهُوَ مِن الأُمورِ التي اشْتَرطتَ مَعَكَ ألاّ تُنْكِرَعليّ فِيها؛ لأنَّكَ لَمْ تُحِطْ بِها خُبْرا، وفيها مَصلَحةٌ لَمْ تَعلَمْها أنتَ (**قالَ**) مُوسَى (**لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ ولا تُرْهِقْنِي مِن أمْرِي عُسْرًا**) أيّ: لا تُضيِّقْ عليَّ ولا تُشَدِّدْ.

ولهذا تقدَّمَ في الحديثِ عنْ رَسُولِ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه قالَ: "كانَتِ الأُوْلى مِنْ مُوسَى نِسيانًا". قالَ وجاءَ عُصفورٌ فَوقَعَ على حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنقَرَ في البَحْرِ نَقْرَةً أو نَقْرَتَينِ، فقالَ له الخَضرُ ما عِلْمِي وعِلْمُكَ في عِلْمِ اللهِ إلاّ مِثل ما نَقَصَ هذا العُصفُورُ مِن هذا البَحرِ.

ثمَّ يقولُ تعالى (**فانْطَلَقا**) أيّ: خَرَجا مِن السَّفِينَةِ يمْشِيانِ (**حتَّى إذا لَقِيا غُلامًا فَقَتَلَهُ**) فأبْصَرَ الخَضرُ غُلامًا، فأخَذَ رأسَهُ فاقْتَلَعَهُ بِيَدِهِ فَقَتلَهُ. وكان يَلْعَبُ معَ الغِلمانِ في قَريةٍ مِنَ القُرى، وأنَّهُ عَمدَ إليهِ مِن بَينِهِم وكانَ أحْسَنَهُمْ وأجْمَلَهُمْ، ورُوِيَ: أنَّهُ اجْتَزَّ رأسَهُ، وقِيلَ: رَضَخَهُ بِحَجَرٍ. فأنْكَرَ مُوسَى (**قالَ أقَتَلْتَ نَفْسًا**

زَكِيَّةً) أيّ: صَغِيرَةً لم تعمَلِ الحَنثَ ولا عَمِلَتْ إثْمًا بَعْدُ فَقَتَلْتُهُ (**بِغَيرِ نَفْسٍ**) أيّ: بِغَيرِ مُسْتَنَدٍ لِقَتلِهِ (**لَقَدْ جِئْتَ شَيئًا نُكْرًا**) أيّ: ظاهِرَ النَّكارةِ. فلمَّا شاهدَ مُوسَى عليهِ السلامُ هذا أنْكَرَهُ أشَدَّ مِنَ الأوَّلِ فقالَ: وهَذهِ أشدُّ مِن الأُولى (**قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) فأكَّدَ أيضًا في التِّذكارِ بِالشَّرطِ الأوَّلِ فَلِهذا (**قالَ**) لهُ مُوسَى (**إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها**) أيّ: إنْ اعْتَرَضْتُ عَلَيكَ بِشَيءٍ بَعْدَ هذهِ المَرَّةِ (**فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا**) أيّ: قَد أعْذَرْتَ إليَّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.

قال ابنُ جَريرٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ عن أُبيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللّٰهُ عنهُما: كانَ النبيُّ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ إذا ذَكَرَ أحَدًا فَدَعا لَهُ بَدأَ بِنَفْسِهِ، فقالَ ذاتَ يومٍ: "رَحْمَةُ اللّٰهِ عَلينا وعلى مُوسَى، لو لَبِثَ معَ صاحِبِهِ لأبْصَرَ العَجَبَ؛ لَكِنَّهُ قالَ: إنْ سألْتُكَ عَنْ شَيءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا".

(**فَانْطَلَقا حَتّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوا أَنْ يُضَيِّفُوهُما، فَوَجَدا فِيها جِدارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ**) أيّ: مائِلاً (**فَأَقامَهُ**) أيّ: فَرَدَّهُ إلى حالةِ الاستِقامَةِ، وقَدْ تقدَّمَ في الحديثِ أنَّهُ رَدَّهُ بِيَدَيهِ وَدَعَمَهُ حَتَّى رَدَّ مَيلَهُ وهذا خارِقٌ. فعِندَ ذَلِكَ (**قالَ**) مُوسَى لَهُ: قَومٌ أتَيْناهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونا ولَمْ يُضَيفُونا (**لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيهِ أَجْرًا**) أيّ: لأجْلِ أنَّهُمْ لمْ يُضيفُونا؛ كانَ يَنبَغِي أنْ لا تَعمَلَ لهُمْ مَجَّانًا (**قالَ هَذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيهِ صَبْرًا**). فقالَ رَسُولُ اللّٰهِ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلّمَ: "وَدِدْنا أنَّ مُوسَى كانَ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ اللّٰهُ عَلَينا مِنْ خَبَرِهِما".

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ قالَ: سألَ مُوسَى عليهِ السلامُ رَبَّهُ عزَّ وجلَّ فقالَ: أيّ رَبّ؛ أيُّ عِبادِكَ أحبُّ إليكَ؟ قالَ: الذي يَذْكُرُني ولا يَنْسانِي.

قالَ: فأيُّ عِبادِكَ أقْضَى؟

قالَ: الذي يَقضِي بِالحَقِّ ولا يَتَّبِعُ الهَوى.

قالَ: أيّ ربّ، أيُّ عِبادِكَ أعْلَمُ؟

قالَ: الذي يَبْتَغِي عِلْمَ النَّاسِ إلى عِلْمِهِ؛ عَسَى أنْ يُصِيْبَ كَلِمَةً تَهْدِيهِ إلى هُدَىً أو تَرُدَّهُ عَنْ رَدَىً.

قالَ: أيّ ربّ، هلْ في أرْضِكَ أحَدٌ أعْلَمُ مِنِّي؟

قالَ: نَعمْ.

قالَ: فمَنْ هُوَ؟

قالَ: الخَضرُ.

قالَ: وأينَ أطلُبُهُ؟

قالَ: على الساحِلِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ التي يَنْفَلِتُ عِندَها الحُوتُ.

قالَ: فَخَرَجَ مُوسَى يَطلُبُه، فانْتهَى إليهِ عِندَ الصَّخْرَةِ فَسَلَّمَ كُلُّ واحدٍ مِنهُما على صاحبِه، فقالَ لهُ مُوسَى: إنّي أُحِبُّ أنْ أصْحَبَكَ،

قالَ: إنَّكَ لَنْ تُطِيقَ صُحْبَتِي.

قالَ: بَلَى.

قالَ: فإنْ صَحِبْتَنِي فلا تَسْأَلَنْي عَنْ شَيءٍ حتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا.

فَسارَ به على شاطِئِ البَحْرِ حتَّى انتَهَى إلى مَجْمعِ البَحرَينِ، وليسَ في الأرْضِ مَكانٌ أكثر ماءً مِنهُ، قالَ: وبَعثَ اللهُ الخطّافَ فجَعلَ يَسْتَقِي مِنهُ بِمِنْقارِهِ، فقالَ لِمُوسَى: كمْ تَرَى هذا الخطَّافَ رَزأ مِن هذا الماءِ؟

قالَ: ما أقلَّ ما رزأَ.

قالَ: يا مُوسَى؛ فإنَّ عِلْمِي وعِلْمِكَ في عِلْمِ اللهِ كَقَدْرِ ما اسْتَقَى هذا الخطَّافُ مِن هذا الماءِ.

وكانَ مُوسَى قَد حَدَّثَ نَفْسَهُ أنَّهُ ليسَ أحدٌ أعلَمُ مِنْهُ أو تُكَلَّمَ بهِ، فَمِنْ ثَمَّ أمرَ أنْ يأتي الخَضرُ. وذَكَرَ تمامَ الحَديثِ في خَرْقِ السَّفِينَةِ، وقَتْلِ الغُلامِ، وإصْلاحِ الجِدارِ، وتفسيرِه لهُ ذلكَ.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ هذا تفسيرُ ما أشكلَ أمْرُهُ على مُوسَى عليهِ السلامُ، وما أنكَرَ ظاهِرَهُ، وقَد أطلَعَ اللهُ تعالى الخَضرَ على حِكمَةٍ باطِنَةٍ. فقالَ إنَّ السفينةَ إنَّما خَرَقتُها لأعيبَها؛ لأنَّهُم كانوا يمُرُّونَ بها على مَلِكٍ مِن الظَّلَمَةِ يأخذُ كُلَّ سَفينةٍ صالِحَةٍ جيِّدةٍ غَصْبًا، فأرَدْتُ أنْ أعيبَها لأرُدَّهُ عنها لِعَيبِها فَينتفِعَ بها أصحابُها المساكينُ الذينَ لمْ يَكُنْ لهُمْ شَيءٌ ينتفِعُونَ بهِ غيرُها.

وروى ابنُ جُريجٍ أنَّ اسْمَ ذلكَ المَلِكَ "هدد بن بدد" وهُو مَذكُورٌ في التوراةِ مِن ذُرِّيَّةِ "العيص بن إسحاق" ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أيّ: يَحْمِلُهُما حُبُّهُ على مُتابَعَتِه الكفْرَ.

وقيلَ: إنّ اسمَ أبو الغُلامِ المقتولِ "أبرأ"، واسمَ أُمِّهِ "سهوا"، وقد أبْدلَهُما اللهُ خيراً منهُ بجاريةٍ ولَدَتْ نبيًّا كان بعدَ مُوسَى اسمهُ "شمعون".

وقال قتادةُ: قد فَرِحَ بهُ أبواهُ حينَ وُلِدَ وحَزِنا عليهِ حينَ قُتِلَ، ولو بَقِيَ لكانَ فيهِ هلاكُهُما؛ فلْيرْضَ امْرؤٌ بِقَضاءِ اللهِ فإنَّ قضاءَ اللهِ لِلمُؤمنِ فِيما يَكْرَهُ خيرٌ لهُ مِن قضائهِ فيما يُحِبُّ.

وقّد وَردَ في الحديثِ الشريفِ الصحيح: "لا يَقْضِي اللهُ لِمُؤمنٍ قَضاءً إلاّ كان خَيراً لهُ..."؛ لهذا قال اللهُ تعالى في الآيةِ ٢١٦ من سُورَةِ البقرةِ: (**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**). وقولُه سُبحانهُ وتعالى: (**فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**) أيّ: وَلَداً أزْكَى مِن هذا وْهُما أرْحَمُ بهِ منهُ.

قال قتادةُ: أبَرَّ بوالِدَيهِ. وقيلَ: لَمّا قَتلَهُ الخَضرُ كانتْ أُمُّهُ حاملاً بِغُلامٍ مُسْلِمٍ.

وعنِ ابنِ جُريجٍ عن أُبيٍّ بنِ كَعْبٍ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: "الغُلامُ الذي قَتلَهُ الخَضرُ طُبِعَ يومَ طُبِعَ كافِراً"

(**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ، وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي، ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**).

في هذه الآيةِ دليلٌ على إطلاقِ القريةِ على المَدينةِ؛ لأنَّه قالَ أوَّلاً: (**حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ**)، وقالَ هُنا: (**فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ**). كما قالَ اللهُ تعالى في

الآيةِ ١٢ من سُورةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾.

وقالَ في الآيةِ ٢١ من سُورةِ الزُّخْرف: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؛ يعنيّ (مَكَّةَ والطائفَ).

قال السُّهيليُّ في الغُلامَينِ اليتيمَينِ هُما "أصْرَم وصَرِيم" ابْنا كاشِح، والأبُ الصالِحُ الذي حُفِظَ كَنْزُهُما مِن أجْلِهِ كان بينَهُما وبينَهُ سبْعةُ آباءٍ، ولم يَكُونا ابْنَيهِ مِن صُلْبِهِ فيما ذُكِرَ عن ابْنِ عبَّاسٍ.

ومعنى الآيةِ: أنّ هذا الجِدارَ إنَّما أصْلَحْتُه لأنَّهُ كان لِغُلامَينِ يتيمَينِ في المَدينةِ، وكان تحْتَهُ كَنْزٌ لهُما. قال عِكْرِمةُ: كان تحْتَهُ مالٌ مَدفُونٌ لهُما وهو ظاهِرُ السِّياقِ مِن الآيةِ وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وقال ابنُ عبّاسٍ: كان تحْتَهُ كَنْزُ عِلْمٍ.

وقال الحَسَنُ البَصريّ: كان لَوحًا مِنْ ذَهَبٍ مَكتُوبٌ فيهِ: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عَجِبْتُ لِمَنْ يُؤمِنُ بِالقَدَرِ كيفَ يَحْزَنُ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالمَوتِ كيفَ يَفْرَحُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ يَعْرِفُ الدُّنْيا وتَقَلُّبَها بِأهْلِها كيفَ يَطْمَئِنُّ إلَيها، لا إلهَ إلاّ اللهُ مُحمَّدٌ رَسُولُ اللهِ". أخْرَجَهُ ابنُ جريرٍ في تفْسيرِه.

وَوَرَدَ في حديثٍ مَرفوعٍ رواهُ الحافِظُ البزَّارُ عن أبي ذَرٍّ بِمِثْلِه، وذَكَرَ أنَّهُما حُفِظا بِصلاحِ أبيهِما ولَمْ يُذْكَرْ مِنْهُما صلاحٌ، وكانَ بينَهُما وبينَ الأبِ الذي حُفِظا بِه سَبْعَةُ آباءٍ وكانَ نَسَّاجًا.

وهذا الذي ذُكِرَ – إنْ صُحَّ – لا يُنافِي قولَ عِكْرِمَةَ: إنَّهُ كان مالاً؛ لأنَّهُم ذَكَرُوا أنَّهُ كان لَوحًا مِنْ ذَهَبٍ، وفيهِ مالٌ جزيلٌ أكثرَ كان مُودَعًا فيهِ عِلْمٌ؛ وهُوَ حِكَمٌ ومَواعِظُ واللهُ أعلمُ.

وقَولُهُ تعالى: (**وكانَ أبُوهُما صالِحًا**) فيهِ دليلٌ على أنَّ الرَّجُلَ الصالِحَ يُحفَظُ في ذُرِّيَّتِه، وتَشْمَلُهُمْ بَرَكَةُ عِبادَتِه في الدُّنيا، وفي الآخِرَةِ بِشَفاعَتِه فِيهِمْ ورَفْعِ دَرَجَتِهِمْ إلى أعلى دَرَجَةٍ في الجَنَّةِ؛ لِتَقرَّ عَينُهُ بِهِمْ كما جاءَ في القُرآنِ الكريمِ وَوَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ المُطهَّرةُ.

وقولُهُ سُبْحانهُ وتعالى: (**فأرادَ رَبُّكَ أنْ يَبْلُغا أشُدَّهُما**)، هُنا أسندَ الإرادةَ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّ بُلوغَهُما الحُلُمَ لا يَقْدِرُ عليهِ إلَّا اللهُ، بينَما قالَ في الغُلامِ (**فأرَدْنا أنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيرًا مِنهُ زَكاةً**).

وقالَ في السَّفِينةِ (**فأرَدْتُ أنْ أعِيبَها**) فاللهُ أعلَمُ. وقولُه تعالى: (**رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُه عن أمْرِي**): أيّ هذا الذي فَعَلْتُهُ في هذهِ الأحوالِ الثلاثةِ إنَّما هُوَ رَحْمَةُ اللهِ بِمَنْ ذَكَرْنا مِن أصْحابِ السَّفِينةِ، ووالِدَي الغُلامِ، وَوَلَدَيّ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وما فَعَلْتُهُ عنْ أمْري؛ لِكنِّي أمَرْتُ بِه ووَقَفْتِ عليهِ.

وفيهِ دلالةٌ لِمَنْ قالَ بِنُبوَّةِ الخَضرِ عليهِ السلامُ مع ما تقدَّمَ مِن قَولِهِ: (**فَوَجَدا عَبْدًا مِنْ عِبادِنا آتَيناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْمًا**).

وذهبَ كثيرُونَ إلى أنّهُ لمْ يَكُنْ نَبيًّا؛ بلْ كانَ وَلِيًّا.

وحُكِيَ في كَونهِ باقيًا إلى الآنّ ثمَّ إلى يومِ القيامةِ قَولانِ، ومالَ النوويُّ وابنُ الصلاحِ إلى بَقائِه، وَرَجَّحَ آخَرُونَ مِن المحُدِّثينَ وغَيرُهُم خلافَ ذلكَ، واحْتجُّوا بِقَولِه تعالى في الآيةِ ٢٤ مِن سُورةِ الأنبياء: (**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ**). وبِقَولِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وَسلَّمَ يومَ بَدْرٍ: " اللهُمَّ إنْ تَهْلك هذهِ العِصابَةُ لا تُعْبَدُ في الأرْضِ "، وبأنَّهُ لم يُنْقَلْ أنَّه جاءَ إلى رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا حَضَرَ عِنْدَهُ ولا قاتَلَ مَعَهُ، ولو كانَ حَيًّا لَكانَ مِن أتْباعِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ؛ لِكَونِه مَبْعُوثًا إلى الثقلَينِ الجِنِّ والإنْسِ، وقَد قالَ: "لو كانَ مُوسَى وعِيْسَى حَيَّينِ لَما وَسِعَهُما إلاّ اتِّباعي". وأخبرَ قَبْلَ مَوتِهِ بِقَليلٍ: "أنّهُ لا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ على وَجْهِ الأرضِ إلى مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ لَيلَتِه تلكَ عَينٌ تَطْرُفُ"، إلى غَيْرِ ذلكَ مِن الدلائِل.

والرَّاجِحُ: هُوَ قولُ أهلِ الحَديثِ بِمَوتِ الخَضرِ لِلأدلَّةِ المَذكُورَة. وقَولُه تعالى (**ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**): أيّ: هذا تفسيرُ ما ضِقْتَ بِهِ ذَرْعًا، ولَمْ تَصْبِرْ حتّى أُخْبِرَكَ بِهِ ابتداءً. ولَّما فَسَّرَهُ وبَيَّنَهُ ووَضَّحَهُ وأزالَ المُشْكِلَ قالَ (**تَسْطِعْ**)، وقَبْلَ ذلكَ كانَ الإشكالُ قويًّا ثقيلاً فقالَ (**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**). فقابَلَ الأثقلَ بالأثقلِ والأخفَّ بالأخفِّ.

فإنْ قيلَ: ما بالُ فتَى مُوسَى ذُكِرَ في أوَّلِ القِصَّةِ ثُمَّ لَمْ يُذْكَرْ بعدَ ذلكَ؟

فالجَوابُ: أنَّ المَقْصُودَ بِالسِّياقِ إنَّما هُوَ قِصَّةُ مُوسَى مع الخَضرِ وذِكْرَ ما كان بينَهُما، وفتَى مُوسَى مَعهُ تَبَعٌ[1].

---

١) تفسير ابن كثير (ج٥/ص١٥٦- ١٦٩).

تفسيرُ الجلالَين

(و) اذْكُرْ (**إذْقالَمُوسَى**) هُوَ ابْنُ عِمْرانَ (**لِفَتاهُ**) يُوشَع بنِ نُونٍ كان يَتبَعُهُ ويَخْدُمُهُ ويأخُذُ عَنهُ العِلْمَ (**لاأبْرَحُ**) لا أزالُ أسِيرُ (**حتَّىأبْلُغَمَجْمَعَالبَحْرَينِ**) مُلتقَى بَحْرِ الرُّومِ وبَحْرِ فارسٍ مِمّا يلي المَشْرِقَ؛ أيّ: المكانَ الجامِعِ لِذَلِكَ (**أوأمْضِيَحُقُبًا**) دَهْرًا طويلاً في بُلوغِهِ إنْ بَعُدَ.

(**فَلَمَّابَلَغامَجْمَعَبَينِهِما**) بينَ البَحْرَينِ (**نَسِياحُوتَهُما**) نَسِيَ يُوشَعُ حَمْلَهُ عِندَ الرَّحيلِ، ونَسِيَ مُوسَى تذكيرَه (**فاتَّخَذَ**) الحُوتُ (**سَبِيلَهُفِيالبَحْرِسَرَبًا**) أيّ: جَعَلَهُ اللّهُ مِثْلَ السَّرَبِ وهُوَ الشّقُّ الطويلُ لا نَفاذ له؛ وذلكَ أنَّ اللّهَ تعالى أمْسَكَ عن الحُوتِ جَرْيَ الماء **فانجابَ** عنهُ فبَقِيَ كالكُوَّةِ لَمْ يلْتئِمْ وجَمدَ ما تَحتَه مِنهُ (**فَلَمَّاجاوَزا**) ذلكَ المكانَ بالسَّيرِ إلى وَقْتِ الغَداءِ مِن ثاني يَومٍ (**قال**) مُوسَى (**لِفَتاهُآتِناغَداءنا**) وهُوَ ما يُؤكَلُ أوَّلَ النهارِ (**لَقَدْلَقِينامِنْسَفَرِناهذانَصَبًا**) تَعبًا وحُصُولِهِ بعدَ المُجاوَزةِ.

(**قالأرأيتَ**) أيّ: تَنَبَّهْ (**إذْأوَيْنا إلىالصَّخْرَةِ**) بذلكَ المكانِ (**فإنِّينَسِيتُالحُوتَ وماأنْسانِيهُإلَّاالشَّيطانُ**) بِبَدَلٍ مِن الهاءِ (**أنْأذْكُرَهُ**) بَدَلَ اشتِمالٍ؛ أيّ: أنساني ذِكْرَهُ (**واتَّخَذَ**) الحُوتُ (**سَبِيلَهُفِيالبَحْرِعَجَبًا**) مَفعولٌ ثانٍ؛ أيّ: يتعجَّبُ مِنهُ مُوسَى وفَتاهُ لِما تَقدَّمَ في بَيانِه (**قالَ**) مُوسَى (**ذَلِكَ**) أيّ: فَقْدِنا الحُوتَ (**ما**) أيّ:

الذي (**كُنانَبْغِ**) نَطْلبُه فإنَّه علامةٌ لنا على وُجودِ مَن نَطْلبُه (**فارْتدَّا**) رَجَعا (**على آثارِهِما**) يَقُصّانِها (**قَصَصًا**) فأتيا الصَّخْرةَ **(فَوَجَداعَبْدًامِنْعِبادِنا**) هُوَ الخَضرُ (**آتَيْناهُرَحْمَةًمِنْعِنْدِنا**) نُبوَّةً في قولٍ، وولايةً في آخَر، وعليهِ أكثرُ العُلماءِ **(وعَلَّمْناهُمِنْلَدُنّا**) مِن قِبَلِنا (**عِلْمًا**) مَفعولٌ ثانٍ؛ أيّ: مَعلُومًا مِن المُغيَّباتِ.

روى البُخاريُّ: "إنَّ مُوسَى قامَ خَطِيبًا في بَني إسْرائيلَ فَسُئِلَ أيُّ الناسِ أعلَمُ؟ فقالَ: أنا، فَعَتَبَ اللّٰهُ عليهِ؛ إذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إليهِ. فأوْحَى اللّٰهُ إليهِ: إنّ لي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحرَينِ هُوَ أعْلَمُ مِنْكَ.

قالَ مُوسَى: يا رَبِّ؛ فكيفَ لي بِهِ؟

قالَ: تأخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلْهُ في مكْتَلٍ فَحَيْثُما فقَد الحُوتَ فُهُوَ ثَمَّ.

فأخَذَ حُوتًا فَجعَلَهُ في مكْتَلٍ ثُمَّ انْطلَقَ وانْطَلَقَ مَعَهُ فَتاهُ يُوشَع بنُ نُونٍ حتّى أتَيا الصَّخْرَةَ وَوَضَعا رأسَيهِما فَناما واضْطَرَبَ الحُوتُ في المكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ في البَحْرِ فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ سَرَبًا، وأمْسَكَ اللّٰهُ عنِ الحُوتِ جَريةَ الماءِ فَصارَ عليهِ مِثلَ الطَّاقِ. فلمَّا استيقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ فانْطلَقا بَقيَّةَ يَومِهِما ولَيلَتِهِما. حتّى إذا كانا مِن الغَداةِ (**قالَلِفَتاهُآتِنا غَداءَنا...واتَّخَذَسَبِيلَهُفِي البَحْرِعَجَبًا**).

قالَ: "وكان لِلحُوتِ سَرَبًا ولِمُوسَى ولِفَتاهُ عَجَبًا"

(**قالَلَهُمُوسَىهَلْأتَّبِعُكَعلىأنْتُعَلِّمَنِمِمَّاعُلِّمْتَرُشْدًا**) أيّ: صَوابًا أرْشُدُ بِه.

وفي قراءةٍ: بِضَمِّ الراءِ وسُكونِ الشينِ وسألَه ذلكَ؛ لأنَّ الزِّيادةَ في العلمِ مَطلُوبَةٌ.

(**قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) . (**وَكَيفَ تَصْبِرُ عَلَى مالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**) وفي الحديثِ السابقِ عَقِبَ هذه الآيةِ: يا مُوسَى إنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ، وأنتَ على عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أعْلَمُهُ.

وقولُهُ (خُبْرًا) مصدرٌ بمعنَى: "لم تُحِطْ"؛ أيّ: لمْ تُخْبَرْ حقيقتَه

(**قال سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ صابِرًا ولا أعْصِي**) أيّ: وغَيرَ عاصٍ (**لَكَ أمْرًا**) تأمُرُني بهِ، وقَيَّدَ بالمَشيئَةِ؛ لأنَّهُ لمْ يَكُنْ على ثِقَةٍ مِن نَفْسِه فيما التزَمَ، وهذه عادةُ الأنبياءِ والأولياءِ ألاّ يَثِقُوا إلى أنْفُسِهِم طَرْفَةَ عَينٍ.

(**قالَ فإنِ اتَّبَعْتَنِي فلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيءٍ**) أيّ: ابتداءً (**حتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**) أيّ: حتَّى أبدأكَ أنا بهِ قَبْلَ أن تَسألني.

وعنِ ابْنِ عبَّاسٍ قالَ: سألَ مُوسَى عليهِ السلامُ رَبَّهُ عزَّ وجلَّ فقالَ: أيّ ربّ؛ أيّ عِبادِكَ أحبُّ إليكَ؟

قالَ: الذي يَذْكُرُني ولا يَنْساني. قالَ: فأيّ عبادِكَ أقْضَى؟

قالَ: الذي يقْضِي بالحَقِّ ولا يتَّبِعُ الهَوى.

قالَ: أيّ ربّ؛ أيّ عِبادِكَ أعْلَمُ؟

قالَ: الذي يَبتغِي عِلْمَ النَّاسِ إلى عِلْمِهِ؛ عَسَى أنْ يُصِيبَ كَلِمةً تَهْدِيهِ إلى هُدىً أو تَرُدَّهُ عن رَدَىً.

قالَ: أيّ ربّ؛ هلْ في أرضِكَ أحدٌ أعلمُ مِنِّي؟ قالَ: نعمْ.

قالَ: فمَنْ هُوَ؟ قالَ: الخَضرُ.

قالَ: وأينَ أطْلُبُهُ؟

قالَ: على السَّاحِلِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ التي يَنْفَلِتُ عِنْدَها الحُوتُ.

فَخَرَجَ مُوسَى يَطْلُبُهُ حتَّى كانَ ما ذَكَرَ اللهُ، وانتهَى مُوسَى إليهِ عِنْدَ الصَّخْرَةِ؛ فَسَلَّمَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما على صاحِبِهِ، فَقالَ لهُ مُوسَى: إنِّي أُحِبُّ أنْ أصْحَبَكَ،

قالَ: إنَّكَ لنْ تُطيقَ صُحْبَتي. قالَ: بلى.

قالَ: فإنْ صُحبْتَنِي فلا تُسْألْنِي عَنْ شَيءٍ حتَّى أُحْدِثَ لكَ مِنْهُ ذِكْرًا.

قالَ: فَسارَ بِهِ في البَحْرِ؛ حتَّى انتهَى إلى مَجْمَعِ البَحْرَينِ، وليسَ في الأرْضِ مَكانٌ أكثرَ ماءً مِنْهُ، فَبَعَثَ اللهُ الخطَّافَ؛ فَجَعلَ يَسْتَقِي مِنْهُ بِمِنْقارِهِ، فَقالَ لِمُوسَى: كَمْ تَرَى هذا الخطَّافَ رَزأَ مِن هذا الماءِ؟ قالَ: ما أقلّ ما رُزِأَ قالَ: يا مُوسَى فإنَّ عِلْمِي وعِلْمِكَ في عِلْمِ اللهِ كَقَدْرِ ما اسْتَقَى هَذا الخطَّافُ مِن هذا الماءِ.

وكان مُوسَى قَدْ حَدَّثَ نَفْسَهُ أنَّهُ ليسَ أحَدٌ أعْلَمَ مِنْهُ أو تَكَلَّمَ بِهِ، فَمِنْ ثَمَّ أمَرَ أنْ يأتيَ الخَضرُ، وذَكَرَ تمامَ الحديثِ في خَرْقِ السَّفِينَةِ، وقَتْلِ الغُلامِ، وإصْلاحِ الجِدارِ، وتفْسِيرهُ لهُ ذلكَ. أخْرَجَهُ ابنُ جريرٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.

(**فانْطَلَقا**) يَمْشِيانِ على شاطِئِ البَحْرِ(**حتَّى إذارَكِبافِي السَّفِينَةِ**) التي مَرَّتْ بِهِما (**خَرَقَها**) الخَضرُ بأنْ اقْتلَعَ لوحًا أو لوحَينِ مِنْها مِن جِهَةِ البَحْرِ بِفأسٍ لَمَّا بَلَغَتِ اللُّجَجَ (**قالَ**) لَهُ مُوسَى (**أَخَرَقْتَهالِتُغْرِقَأهْلَها**) وفي قِراءةٍ بِفَتْحِ التَّحتانِيَّةِ والرَّاءِ ورَفْعِ أهْلِها (**لَقَدْجِئْتَشَيئًاإمْرًا**) أيّ: عَظِيمًا مُنْكَرًا. ورُوِيَ أنَّ الماءَ لمْ يَدْخُلْها.

(**قالَألَمْأقُلْإنَّكَلَنْتَسْتَطِيعَمَعِيَصَبْرًا**). (**قالَلاتُؤاخِذْنِيبِمانَسِيتُ**) أيّ: غَفَلْتُ عن التسليمِ لَكَ وتَرْكِ الإنْكارِ عَلَيكَ (**ولاتُرْهِقْنِي**) تُكَلِّفْني (**مِنْأمْرِي**

عُسْرًا) مَشَقَّةً في صُحْبَتِي إيَّاكَ؛ أيّ: عامِلْنِي فيها بالعَفْوِ واليُسْرِ (**فانْطَلَقا**) بَعْدَ خُرُوجِهِما مِن السَّفِينةِ يَمْشِيانِ (**حتَّى إذا لَقِيا غُلامًا**) لم يَبْلُغِ الحِنْثَ يَلْعَبُ مع الصِّبْيانِ أحْسَنَهُمْ وَجْهًا (**فَقَتَلَهُ**) الخَضِرُ بأنْ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ مُضْطَجِعًا أوْ اقْتَلَعَ رأسَهُ بِيَدِهِ أوْ ضَرَبَ رأسَهُ بِالجِدارِ على أقوالٍ.

وأتَى هُنا بِالفاءِ العاطِفَةِ؛ لأنَّ القَتْلَ عَقِبَ اللقاءِ وَجوابَ إذا. (**قالَ**) لهُ مُوسَى (**أقَتَلْتَ نَفْسًا زاكِيَةً**) أيّ: طاهِرةً لَمْ تبلُغْ حَدَّ التكليفِ، وفي قِراءةٍ "زكيَّةً" بتشْديدِ الياءِ بِلا ألِفٍ (**بِغَيْرِ نَفْسٍ**) أيّ: لَمْ تَقْتُلْ نَفْسًا (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**) بِسُكونِ الكافِ وَضَمِّها؛ أيّ: مُنْكَرًا.

(**قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) زادَ لكَ على ما قَبْلَهُ لِعَدَمِ العُذْرِ هُنا. ولِهذا (**قالَ إنْ سألْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها**) أيّ: بَعْدَ هذهِ المَرَّةِ (**فلا تُصاحِبْنِي**) أيّ: لا تَتْرُكْني أتْبَعكَ.

(**قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي**) بالتشديدِ والتخفيفِ مِن قِبَلِي (**عُذْرًا**) في مُفارَقَتِكَ لي (**فانْطَلَقا حتَّى إذا أتَيا أهْلَ قَرْيَةٍ**) هِيَ أنطاكيَّة (**اسْتَطْعَما أهْلَها**) أيّ: طَلَبا مِنْهُمُ الطَّعامَ بِضِيافَةٍ.

(**فأبَوا أنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِدارًا**) ارتفاعُهُ مِائَةُ ذِراعٍ (**يُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ**) أيّ: يَقْرُبُ أنْ يَسْقُطَ لِمَيلانِهِ (**فأقامَهُ**) الخَضِرُ بِيَدِهِ (**قالَ**) لَهُ مُوسَى (**لَوْ شِئْتَ**

(**لاتَّخَذْتَ**) وفي قِراءةٍ لَتَخِذْتَ (**عَليهِأجْرًا**) جُعْلاً؛ حيثُ لمْ يُضَيِّفُونا معَ حاجَتِنا إلى الطَّعامِ (**قالَ**) لهُ الخَضرُ (**هذافِراقُ**) أيّ: وَقْتَ فِراقٍ (**بَيني وبَيْنِكَ**) فيهِ إضافةٌ بينَ إلى غَيرِ مُتعدِّدٍ سَوَّغَها تكْريرُه بِالعطْفِ بالواو (**سأُنَبِّئُكَ**) قَبْلَ فِراقي لَكَ (**بِتأويلِمالَمْتَسْتَطِعْعَليهِصَبْرًا**).

(**أمَّاالسَّفِينَةُفكانَتْلِمَساكِينَ**) عَشَرَةً (**يَعْمَلُونَفِيالبَحْرِ**) بِها مُؤاجَرَةٌ لها طَلَبًا لِلكَسْبِ (**فأرَدْتُأنْأعِيبَهاوكانَوَراءَهُمْ**) إذا رَجَعُوا أو أمامَهُمُ الآنَ (**مَلِكٌ**) كافِرٌ (**يأخُذُكُلَّسَفِينَةٍ**) صالِحَةٍ (**غَصْبًا**) نَصَبَهُ على المَصْدَرِ المُبَيِّنِ لِنَوعِ الأخْذِ (**وأمّا الغُلامُفَكانَأبَواهُمُؤمِنَينِفَخَشِينَاأنْيُرْهِقَهُماطُغْيانًاوكُفْرًا**)؛ فإنَّهُ كما في حديثِ مُسْلِمٍ "طُبِعَ كافِرًا؛ ولوَ عاشَ لأرْهَقَهُما ذلكَ لمَحَبَّتِهَما لهُ يَتْبَعانِهِ في ذلكَ (**فأرَدْناأنْيُبْدِلَهُمارَبُّهُما**) بالتشديدِ والتخفيفِ (**خَيرًامِنْهُزَكاةً**) أيّ: صلاحًا وتُقَىً (**وأقْرَبَ**) مِنْهُ (**رُحْمًا**) بِسُكُونِ الحاءِ وَضَمِّها رَحْمَةً وهيَ البِرّ بِوالِدَيهِ. فأبْدَلَهُما تعالى جارِيَةً تَزَوَّجَتْ نَبيًّا فَوَلَدَتْ نَبيًّا فَهَدَى اللّٰهُ تعالى بِهِ أُمَّةً

(**وأمَّاالجِدارُفَكانَلِغُلامَينِيَتِيمَينِفِيالمَدِينَةِوكانَتَحْتَهُكَنْزٌلَهُما**) مالٌ مَدْفُونٌ مِنْ ذَهَبٍ وفِضَّةٍ (**وكانَأبُوهُماصالِحًا**) فَحُفِظا بِصَلاحِهِ في أنْفُسِهِما ومالِهِما (**فأرادَرَبُّكَأنْيَبْلُغاأشُدَّهُما**) أيّ: إيناسَ رُشْدِهِما.

(**وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**) مَفْعُولٌ لَهُ عامِلُهُ أرادَ (**وَمَا فَعَلْتُهُ**) أيّ: ما ذُكِرَ مِنْ خَرْقِ السَّفِينَةِ وقَتْلِ الغُلامِ وإقامَةِ الجِدارِ (**عَنْ أَمْرِي**) أيّ: اخْتِباري؛ بلْ بأمْرِ إلهامٍ مِنَ اللهِ (**ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**) يُقالُ: اسْطاعَ واسْتَطاعَ بِمعنَى (أطاقَ)؛ ففِي هذا وما قَبْلَهُ جَمْعٌ بينَ اللغَتَينِ ونُوِّعَتِ العبارةُ في فأرَدْتُ، فأرَدْنا، فأرادَ رَبُّكَ[1].

في ظِلالِ القُرآنِ

هذه الحلقةُ من سيرةِ مُوسَى عليهِ السلامُ لا تُذْكَرُ في القُرآنِ الكريمِ كُلِّه إلاّ في هذا الموضِعِ مِن هذه السورةِ. والقُرآنُ الكريمُ لا يُحدِّدُ المكانَ الذي وَقَعَتْ فيهِ إلاّ بأنَّه "مَجْمَعُ البَحْرَينِ"، ولا يُحدِّدُ التاريخَ الذي وَقَعَتْ فيهِ مِن حياةِ مُوسَى عليهِ السلامُ، هل كان ذلكَ وهو في مِصْرَ قبلَ خُروجِه بِبني إسرائيلَ أمْ بَعْدَ خُرُوجِه بِهِم مِنها؟ ومتى بعدَ الخُروجِ: هل قبلَ أن يَذهَبَ بِهِم إلى الأرضِ المُقدَّسةِ، أمْ بعدَما ذهبَ بهِم إليها فَوقَفُوا حِيالَها لا يَدْخُلُونَ؛ لأنَّ فيها قومًا جَبَّارِينَ أمْ بعدَ ذهابِهِم في التِّيهِ مُفرَّقِينَ مُبدَّدِينَ؟

كذلكَ لا يَذْكُرُ القُرآنُ الكريمُ شيئًا عن العبدِ الصَّالحِ الذي لَقِيَهُ مُوسَى مَن هُوَ؟، وما اسْمُهُ؟ هل هُوَ نبيٌّ أو رسولٌ؟ أمْ عالِمٌ أمْ وليٌّ؟

فهُناكَ رِواياتٌ كثيرةٌ عن ابْنِ عبَّاسٍ وعن غَيرِه في هذه القِصَّةِ.

---

١) تفسير الجلالين (ج١/ ص٣٨٩- ٣٩٣).

ونحنُ نَقِفُ عندَ نُصوصِها في القُرآنِ الكريمِ؛ لِنَعيشَ في ظِلالِها، ونَعْتَقِدُ أنَّ لِعَرْضِها على النَّحْوِ الذي عُرِضَتْ بِه دُونَ زيادةٍ ودُونَ تحديدٍ لِلمكانِ والزَّمانِ والأسماءِ حِكمَةٌ خاصَّةٌ.

لِنتأمَّلِ النَّصَّ القُرآنيَّ (**وإذْقالَمُوسَىلِفَتاهُلاأبْرَحُحَتَّىأبْلُغَمَجْمَعَالبَحْرَيْنِ**) الأرْجَحُ أنَّ مَجمَعَ البَحرَينِ هُو بَحْرُ الرُّومِ وبَحرُ القلزمِ؛ أيّ: البحرَ الأبيضَ المُتوسِّط والبحرَ الأحمَر. ومَجْمَعُهما هو مكانُ التقائِهما في منطقةِ البُحَيراتِ المُرَّةِ وبُحيرَةِ التِّمساحِ، أوْ أنَّهُ مَجْمَعٌ خليجَي العَقبَةِ والسُّويسِ في البحرِ الأحمرِ؛ فهذهِ المنطقةُ كلُّها كانت مَسْرحَ تاريخِ بَني إسرائيلَ بعدَ خُروجِهم مِن مِصْرَ.

ونَفهمُ مِن سِياقِ القِصَّة فِيما بَعدُ أنَّهُ كانَ لِموسَى عليهِ السَّلامُ هَدَفٌ مِن رِحْلَتِه هذهِ التي اعتزَمَها، وأنَّهُ كان يَقْصِدُ مِن وَرائِها أمْرًا؛ فهُوَ يُعْلِنُ تَصميمَه على بُلوغِ مَجمَعِ البَحْرَينِ مَهما تَكُنِ المَشقَّةُ، ومَهما يَكُنِ الزَّمَنُ الذي يَسْتَغْرِقُهُ للوُصولِ إليهِ، ويُعبِّرُ عن هذا التصميمِ بِما حَكاهُ القُرآنُ مِن قولِه (**أوْأمْضِيَحُقُبًا**) والحُقْبُ قِيلَ: عامٌ، وقيلَ: ثمانُونَ عامًا. على أيَّةِ حالٍ فَهُو تعبيرٌ عن التصميمِ لا عنِ المُدَّةِ على وَجْهِ التحديدِ (**فَلَمَّابَلَغامَجْمَعَبَيْنِهِمانَسِيا حُوتَهُمافاتَّخَذَسَبِيلَهُفِيالبَحْرِسَرَبًا.فلَمَّا جاوَزاقالَلِفَتاهُآتِناغَداءَنالَقَدْلَقِينامِنْسَفَرِناهذانَصَبًا.قالَأرأيْتَإذْأوَيْنا إلى الصَّخْرَةِفإنِّينَسِيتُالحُوتَوماأنْسانِيهِإلَّاالشَّيطانُأنْأذْكُرَهُواتَّخَذَسَبِيلَهُفِيالبَحْرِ عَجَبًا**).

والأرجَحُ كذلك: أنّ هذا الحُوتَ كان مَشْوِيًّا، وأنَّ إحياءَهُ واتِّخاذَهُ سَبِيلَهُ في البَحْرِ سَرَبًا كانَ آيةً مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ لِمُوسَى عليهِ السلامُ يَعْرِفُ بِهما مَوعِدَهُ؛ بِدليلِ عَجَبِ فَتاهُ مِن اتِّخاذِهِ سَبيلَهُ في البَحْرِ، ولو كان يَعني أنَّهُ سَقَطَ مِنهُ فَغاصَ في البَحرِ ما كانَ في هذا عَجَبٌ، ويُرَجِّحُ هذا الوجْهُ أنَّ الرِّحْلَةَ كُلَّها مُفاجآتٌ غَيبيَّةٌ وهذهِ إحداها.

وأدركَ مُوسَى أنَّهُ جاوزَ المكانَ الذي حدَّدَهُ رَبُّهُ لَهُ لِلقاءِ عَبْدِهِ الصَّالِحِ، وأنَّهُ هُنالِكَ عندَ الصَّخْرَةِ؛ فعادَ على أثْرِهِ هُو وفَتاهُ فَوجَداهُ (**قالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ. فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا. فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**) ويَبدُو أنَّ ذلكَ اللقاءَ كان سِرَّ مُوسَى وَحدَهُ معَ رَبِّهِ عزَّ وجلَّ، فلمْ يطلع عليهِ فَتاهُ حتَّى لَقِياهُ، ومِن ثَمَّ يَنْفَرِدُ مُوسَى والعَبْدُ الصالِحُ في المَشاهِدِ التاليةِ لِلقِصَّةِ (**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**)؛ كأنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ يُعلِّمُنا أدبَ تلقّي العِلمِ وأدبَ التلميذِ معَ مُعلِّمِه؛ فَمَعَ أنَّ اللهَ تعالى أمَرَهُ أنْ يَتَّبِعَ الخَضِرَ لمْ يَقُلْ لهُ – مَثلاً – إنَّ اللهَ أمَرَني أنْ أتَّبِعَكَ؛ بلْ تلطَّفَ مَعهُ واستَسْمَحَهُ بِهذا الأسلوبِ (**هَلْ أَتَّبِعُكَ..**).

والرُّشْدُ هُوَ حُسْنُ التَّصَرُّفِ في الأشياءِ، وسَدادُ المَسْلَكِ في عِلَّةِ ما أنتَ بِصَدَدِه، وسبقَ أنْ قُلْنا إنَّ الرُّشْدَ يكونُ في سِنِّ البلوغِ؛ لكِنْ لا يعني هذا أنَّ كُلَّ مَنْ بلغَ يكونُ راشِداً؛ فقَد يكونُ الإنسانُ بالِغًا وغيرَ راشدٍ، وقَد يكونُ سَفيهًا.

إذنْ ف (**الرُّشْدُ**) الذي طلبَهُ مُوسَى مِن العَبدِ الصالِح هو سَدادُ التصرُّفِ والحِكمَة في تناوُلِ الأشياءِ؛ لكنْ هل يعني ذلكَ أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ لم يكُنْ راشِداً؟ لا؛ بل كان راشِداً في مَذهَبِهِ كَرَسُولٍ، راشِداً في تبليغِ الأحكامِ الظاهِريَّة. أمَّا الرُّشدُ الذي طَلَبَهُ فهُوَ الذي في مَذْهَبِ العبدِ الصالِح، وقَد دلَّ هذا على أنَّهُ طَلَبَ شَيئًا لمْ يَكُنْ مَعلُومًا له، وهذا لا يَقْدحُ في مَكانةِ النبوَّةِ؛ لأنَّ (**فوقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**)، (**وَقُلْ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**). (**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**). وفي ذلكَ يقولُ الشاعِرُ:

كُلّما ازْدَدْتُ عُلُومًا زِدْتُ إيقَانًا بجَهْلي

ومعنَى ازدادَ عِلْمًا اليومَ أنَّهُ كان ناقِصًا بالأمْسِ، وكذلك هُوَ ناقِصٌ اليومَ لِيَعْلَمَ غَدًا. والإنسانُ حِينَما يكونُ واسِعَ الأُفُقِ مُحِبًّا لِلعِلْمِ تَراهُ كُلَّما عَلِمَ قضيَّةً اشتاقَ لِغَيرِها؛ فهُو في نَهَمٍ دائِمٍ لِلعِلْمِ لا يَشْبَعُ مِنهُ، كما قالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "مَنْهُومانِ لا يَشْبَعانِ: طالِبُ عِلْمٍ، وطَالِبُ مالٍ".

بهذا الأدبِ اللائقِ بِنَبيٍّ يَسْتَفْهِمُ ولا يَجْزمُ، ويطلبُ العِلْمَ الراشِدَ مِن العبْدِ الصَّالِحِ العالِم؛ ولكنَّ عِلْمَ الرَّجُلِ ليس هُوَ العِلْمَ البَشَريَّ الواضِحَ الأسبابِ القريبَ النتائِج؛ إنَّما هو جانبٌ مِن العِلْمِ اللدنيِّ بِالغَيبِ أطْلَعَهُ اللهُ عليهِ بِالقَدْرِ الذي أرادَهُ، ولِلحِكْمةِ التي أرادَها، ومِنْ ثَمَّ فلا طاقةَ لِمُوسَى بِالصَّبْرِ على الرَّجُلِ وتَصَرُّفاتِه ولوْ كان نبيًّا رَسُولاً؛ لأنَّ هذهِ التصرُّفاتِ حسبَ ظاهِرِها قد تصْطَدِمْ بالمَنطِقِ العقليِّ وبالأحكامِ الظاهِرةِ؛ ولا بُدَّ مِن إدراكِ ما وراءَها مِن الحِكْمَةِ المُغيَّبةِ؛ وإلَّا بَقِيَتْ عَجِيبةً تُثيرُ الاستِنكارَ.

لذلكَ يَخْشَى العبدُ الصالحُ الذي أُوتِيَ العِلْمَ اللدُنيُّ على مُوسَى ألَّا يَصبِرَ على صُحْبَتِه وتَصرُّفاتِه (**قالَ إنَّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. و كيفَ تَصْبِرُ عَلَى ما لمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**) ويَعزمُ مُوسَى على الصَّبْرِ والطاعةِ ويستعينُ اللهَ ويُقدِّمُ مَشيئَتَهُ (**قالَ سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ صابِرًا و لا أعْصِي لكَ أمْرًا**) فيزيدُ الرَّجلَ توكيدًا وبَيانًا، ويَذْكُرُ لهُ شَرطَ صُحْبَتِه قبلَ بَدْءِ الرِّحلَةِ وهُوَ أنْ يَصْبِرَ فلا يَسْألْ ولا يَسْتَفْسِرْ عنْ شَيءٍ من تصَرُّفاتِه؛ حتَّى يَكْشِفَ لهُ عَنْ سِرِّها (**قالَ فإنْ اتبَعْتَني فَلا تَسْألْنِي عنْ شَيْءٍ حتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**) ويَرْضَى مُوسَى عليهِ السلامُ.

وإذا نحنُ أمامَ المَشهَدِ الأوَّلِ لهُما (**فانْطَلَقا حتَّى إذا رَكِبا في السَّفِينَةِ خَرَقَها**)؛ سَفينةٍ تَحمِلُهُما وتَحمِلُ مَعهُما رُكَّابًا، وهُمْ في وَسْطِ اللجَّةِ يَجِيءُ هذا العَبْدُ الصَّالِحُ فَيَخْرِقَ السفينةَ !

إنَّ ظاهِرَ الأمرِ هُنا: أنَّ هذهِ الفَعْلَةَ تعْرِضُ السَّفينةَ ورُكَّابُها لخَطرِ الغَرَقِ، وتُؤدِّي بهِم إلى هذا الشَّرِّ؛ فلماذا يُقَدِّمُ الرَّجُلُ على هذا الشَّرِّ؟

لقَد نَسِيَ مُوسَى ما قالَهُ هُوَ وما قالَهُ صاحِبُهُ أمامَ هذا التصرُّفِ العجيبِ الذي لا مُسوِّغَ له في نَظَرِ المَنطِقِ العقليِّ! والإنسانُ قَد يَتصوَّرُ المعنَى الكُلِّيَّ المجُرَّدَ؛ ولكنَّهُ عِندَما يَصْطَدِمُ بالتطبيقِ العمليِّ لهذا المعنَى والنموذجِ الواقعيِّ منهُ يَسْتَشْعِرُ لهُ وَقْعًا غيرَ التصوُّرِ النظريِّ؛ فالتجربةُ العمليَّةُ ذاتُ طَعْمٍ آخَرَ غيرَ التصوُّرِ المجُرَّدِ. وها هوَ ذا مُوسَى الذي نبَّهَ مِن قَبْلُ إلى أنَّه لا يَستَطِيعُ صَبْرًا على ما لمْ يُحِطْ به خُبْرًا؛ ف(اعتزَمَ الصبْرَ، واستعانَ بالمَشيئةِ، وبَذَلَ الوعْدَ، وقَبِلَ الشرطِ).

ها هُوَ ذا يَصْطَدِمُ بالتجربة العمليَّة لِتصرُّفات هذا الرَّجُلِ فَيندَفِعَ مُسْتَنْكِرًا.

أجل: إنَّ طبيعةَ مُوسَى عليهِ السلامُ طبيعةٌ انْفِعاليَّةٌ اندفاعيَّةٌ كما يظْهَرُ مِن تصرُّفاته في كُلِّ أدوارِ حياته مُنذُ أنْ وَكَزَ الرَّجُلَ المِصريَّ الذي رآهُ يَقتتِلُ مع الإِسرائيليِّ فَقتَلَهُ مِن انْدِفاعِه. ثُمَّ أنابَ إلى رَبِّهِ مُسْتَغْفِرًا مُعْتَذِرًا حتَّى إذا كانَ اليومُ الثاني ورأى الإِسرائيليُّ يَقْتَتِلُ مع مِصريٍّ آخَرَ هم بالآخَر مرَّةً أُخْرى !

أجل: إنَّ طبيعةَ مُوسَى هيَ هذه الطبيعةُ. ومِنْ ثَمَّ لمْ يَصْبِرْ على فَعلَةِ الرَّجُلِ، ولمْ يَستَطِعِ الوفاءَ بِوَعدِه الذي قَطعَهُ أمام غَرابَتِها؛ ولكنَّ الطبيعةَ البشريةَ كُلَّها تلتقِي في أنَّها تجَدُ للتَجْرِبةِ العمليَّة وَقْعًا وطَعْمًا غيرَ التصوُّرِ النظريّ، ولا تُدْرَكُ الأُمورُ حقَّ إدراكِها إلاّ إذا ذاقَتْها وَجَرَّبَتْها.

ومِن هُنا انْدَفَعَ مُوسَى مُسْتنْكِرًا (**قالَ أخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيئًا إمْرًا**) وفي صَبْرٍ ولُطْفٍ يَذكُرُهُ العَبْدُ الصَّالِحُ بِما كانَ قَدْ قالَهُ مِنذُ البدايةِ (**قالَ ألَمْ أقُلْ إنَّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) ويَعْتَذِرُ مُوسَى بِنِسْيانِه، ويَطلُبُ إلى الرَّجُلِ أنْ يَقْبَلَ عُذْرَهُ ولا يُرْهِقَهُ بِالمُراجَعَةِ والتذكيرِ (**قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ ولا تُرْهِقْنِي مِنْ أمْرِي عُسْرًا**) ويَقْبَلَ الرَّجُلُ اعتذارَهُ.

ثُمَّ نجِدُنا أمامَ المَشْهَدِ الثاني:

(**فانْطَلَقا. حتَّى إذا لَقِيا غُلامًا فَقَتَلَهُ**) وإذا كانتِ الأُولى خَرْقَ سَفِينَةٍ واحتمالَ غَرَقِ مَنْ فِيها فَهَذِهِ قَتْلُ نَفْسٍ، قَتْلٌ عَمْدٍ لا مُجَرَّدَ احتمالٍ. وهِيَ فَظِيعَةٌ كبيرةٌ لم يَسْتَطِعْ مُوسَى عليهِ السلامُ أنْ يَصْبِرَ عَلَيها على الرَّغمِ مِن تَذَكُّرِهِ لِوَعْدِه.

﴿ **قالَ أقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيرِ نَفْسٍ؛ لَقَد جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا** ﴾ فليسَ ناسيًا في هذهِ المَرَّةِ ولا غافلاً؛ ولَكِنَّهُ قاصِدٌ. قاصِدٌ أنْ يُنْكِرَ هذا النُّكْرَ الذي لا يَصْبِرُ على وُقُوعِهِ ولا يَتأوَّلُ لهُ أسْبابًا. والغُلامُ في نَظَرِهِ بَرِيءٌ لَمْ يَرْتَكِبْ ما يُوجِبُ القَتْلَ؛ بلْ لَمَ يبْلُغِ الحُلُمَ حتَّى يكونَ مُؤاخَذًا على ما يَصْدُرُ مِنهُ.

ومَرَّةً أُخْرى يَردُّهُ العَبْدُ الصَّالِحُ إلى شَرْطِهِ الذي شَرَطَ ووَعْدِهِ الذي وَعَدَ، ويُذَكِّرُهُ بِما قالَ لهُ أوَّلَ مَرَّةٍ والتَّجْرِبةُ تُصَدِّقهُ بعدَ التجْرِبةِ.

﴿ **قالَ ألَمْ أقُلْ لكَ إنَّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ﴾ وفي هذهِ المَرَّةِ يُعَيِّنُ، قالَ: ﴿ لَكَ ﴾ أنتَ على التعيينِ والتحديدِ. فلمْ تَقْتَنِعْ وطَلَبْتَ الصُّحْبَةَ وقَبِلْتَ الشَّرْطَ.

ويَعودُ مُوسَى إلى نفْسِهِ ويَجِدُ أنَّهُ خالَفَ عن وَعْدِهِ مرَّتَينِ، ونَسِيَ ما تعَهَّدَ بِهِ بَعْدَ التذكيرِ والتفكيرِ؛ فَيَنْدَفِعَ ويقْطعَ على نفْسِهِ الطريقَ، ويَجْعلَها آخِرَ فُرْصَةً أمامهُ.

﴿ **قالَ إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيءٍ بَعْدَها فلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا** ﴾.

ويَنْطَلِقُ السِّياقُ فإذا نَحنُ أمامَ المَشْهَدِ الثالثِ:

﴿ **فانْطَلَقا. حتَّى إذا أتَيا أهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أهْلَها فأبَوا أنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِدارًا يُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ فأقامَهُ** ﴾؛ إنَّهُما جائِعان، وهُما في قريةٍ أهْلُها بُخلاءُ، لا يُطْعِمُونَ جائِعًا، ولا يَسْتَضِيفُونَ ضَيفًا. ثُمَّ يَجِدُ أنَّ جِداراً مائِلاً يَهُمُّ أنْ يَنْقَضَّ. والتعبيرُ يَخْلَعُ على الجِدارِ حياةً وإرادةً كالأحياءِ؛ فيقُولُ: يُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ، فإذا الرَّجُلُ الغريبُ يُشْغِلُ نَفْسَهُ بإقامةِ الجِدارِ دُونَ مُقابِلٍ!

وهُنا يَشعُرُ مُوسَى عليهِ السلامُ بالتناقُضِ في المَوقفِ. ما الذي يَدْفَعُ هذا الرَّجُلَ أنْ يُجْهِدَ نَفْسَهُ ويُقِيمَ جِداراً يَهمُّ بالانقِضاضِ في قَريةٍ لم يُقدِّمْ لهُما أهلُها الطَّعامَ؛ وهُما جائِعانِ، وقَد أبَوا أنْ يَسْتَضيفُوهُما؟

أفلا أقلَّ مِن أنْ يَطْلُبَ عَليهِ أجْراً يأكُلانِ منهُ؟

(**قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيهِ أجْرًا**) وكانتْ هيَ الفاصِلةُ فلمْ يَعُدْ لِموسَى مِن عُذْرٍ، ولمْ يَعُدْ لِلصُّحْبَةِ بَينَهُ وبينَ الرَّجُلِ مَجالٌ (**قالَ هَذا فِراقُ بَيني وَبَينِكَ. سأُنَبِّئُكَ بِتأويلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيهِ صَبْرًا**).

وإلى هُنا كان مُوسَى ونحنُ الَّذينَ نُتابِعُ سِياقَ القُرآنِ الكريمِ أمامَ مُفاجآتٍ مُتَوالِيةٍ لا نَعلَمُ لها سِرًّا. ومَوقِفُنا مِنها كَمَوقفِ مُوسَى؛ بلْ نحنُ لا نَعرِفُ مَن هُو هذا الذي يتصرَّفُ تلكَ التصرُّفاتِ العجيبةِ، فَلَمْ يُنَبِّئنا القُرآنُ الكريمُ باسْمِه تَكْمِلَةً لِلجَوِّ الغامضِ الذي يُحيطُ بِنا، وما قيمةُ اسْمِه؟

إنَّما يُرادُ بِه أن يُمثِّلَ الحِكمةَ الإلهيَّةَ العُليا التي لا تُرتِّبُ النتائِجَ القريبةَ على المُقدِّماتِ المَنظُورةِ؛ بلْ تهدفُ إلى أغراضٍ بَعيدةٍ لا تَراها العَينُ المَحدُودةُ؛ فَعدَمُ ذِكْرِ اسْمِه يَتَّفِقُ مع الشخصيَّةِ المعنويَّةِ التي يُمثِّلُها.

وإنَّ القُوى الغيبيَّةَ لَتتَحكَّمُ في القِصَّةِ مُنذُ نشأتِها. فها هُو ذا مُوسَى عليهِ السَّلامُ يُريدُ أن يلقَى هذا الرَّجُلَ المَوعُودَ فيمضيَ في طريقِه؛ ولكنَّ فتاهُ ينسَى غَداءهُما عِندَ الصَّخْرةِ، وكأنَّما نَسيَهُ لِيَعُودا، فيَجِدَ هذا الرَّجُلَ هناكَ، وكان لِقاؤهُ يَفُوتُهُما لو سارا في وِجْهَتهُما ولمْ تَردّهُما الأقدارُ إلى الصَّخْرةِ كَرَّةً أُخْرى.

كلُّ الجَوِّ غامِضٌ مَجهُولٌ، وكذلك اسْمُ الرَّجُلِ الغامِضِ المَجْهُولِ في سِياقِ القُرآنِ الكريمِ.

ثمَّ يأخُذُ السِّرُّ في التجلِّي (**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**)؛ فبِهذا العَيْبِ نجَتِ السَّفِينةُ مِن أنْ يأخُذَها ذلكَ المَلِكُ الظالِمُ غَصْبًا، وكان الضَّرَرُ الصغيرُ الذي أصابَها اتِّقاءً لِلضَّررِ الكبيرِ الذي يُكِنُّهُ الغَيبُ لها لو بَقِيتْ على سلامَتِها.

(**وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**) فَهذا الغُلامُ الذي لا يَبْدُو في حاضِرِهِ ومَظْهَرِهِ أنَّهُ يَسْتَحِقُّ القتلَ قَد كشف سترَ الغَيبِ عن حقيقتِه لِلعَبدِ الصالِحِ، فإذا هُوَ في طَبيعتِه كافِرٌ طاغٍ، تَكْمُنَ في نفْسِه بذُورُ الكُفْرِ والطُّغيانِ، وتزيدُ على الزمنِ بُروزًا وتحقُّقًا؛ فلو عاشَ لأرهَقَ والِدَيهِ المُؤمِنَينِ بِكُفْرِه وطُغيانِه، وقادَهُما بِدافعِ حُبِّهِما لهُ أن يتبعاهُ في طَريقِه. فأرادَ اللهُ تعالى وَوَجَّهَ إرادةَ عَبْدِه الصَّالِحِ إلى قَتْلِ هذا الغُلامِ الذي يحملُ طبيعةً كافِرةً طاغيةً، وأنْ يُبْدِلَهُما اللهُ خَلَفًا خَيرًا منهُ وأرحمَ بِوالِدَيهِ. ولو كان الأمرُ مَوكُولاً إلى العلمِ البَشريِّ الظاهِرِ لما كان لهُ إلاّ الظاهِرِ مِن أمْرِ الغُلامِ، ولما كانَ لهُ عليهِ مِن سُلطانٍ، وهُو لم يرتَكِبْ بَعْدُ ما يستحِقُّ عليهِ القتْلَ شَرعًا، وليسَ لِغَيرِ اللهِ، ثمَّ لِمَنْ يطلِعُه مِن عِبادِه على شَيءٍ مِن غَيبِه أنْ يَحْكُمَ على الطبيعةِ المُغيَّبةِ لِفَردٍ من الناسِ، ولا أنْ يُرتِّبَ على هذا العِلْمِ حُكْمًا غيرَ حُكْمِ

الظاهرِ الذي تأخُذُ بهِ الشريعةُ الغرَّاءُ؛ ولكنَّهُ أمْرُ اللهِ تباركَ وتعالى القائمِ على عِلْمِه بالغَيبِ البعيدِ

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي. ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾؛ فَهذا الجِدارُ الذي أتعبَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ في إقامَتِه ولمْ يَطْلُبْ عليهِ أجْرًا مِنْ أهْلِ القريةِ وهُما جائِعانِ وأهلُ القريةِ لا يُضيِّفُونهُما كان يُخبِّئُ تحتَهُ كَنْزًا، ويُغيِّبُ وَراءهُ مالاً لِغُلامَينِ يتيمَينِ ضَعيفَينِ في المَدينةِ، ولو تَركَ الجِدارَ ينقضَّ لظَهَرَ مِن تحَتِه الكنْزُ فلمْ يَسْتَطِعِ الصَّغيرانِ أنْ يَدْفَعا عَنهُ. ولَمَّا كانَ أبُوهُما صالحًا فقَد نَفَعَهُما اللهُ بِصلاحِه في طُفُولتِهما وَضَعْفِهما، فأرادَ أن يَكْبَرا ويَشْتَدَّ عُودُهُما، ويَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما وهُما قادرانِ على حِمايَتِه.

ثمَّ ينفضُ الرَّجُلُ يَدهُ مِن الأمرِ؛ فهِيَ رحمةُ اللهِ التي اقتضَتْ هذا التصَرُّفَ، وهُو أمْرُ اللهِ لا أمْرَه؛ فقَد أطْلعَهُ على الغَيبِ في هذه المسألةِ وفِيما قَبْلَها، وَوَجَّهَهُ إلى التصرُّفِ فيها وفقَ ما أطْلَعَهُ عليهِ مِن غَيبِه ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾؛ فالآنَ ينكَشِفُ الستْرُ عن حِكْمَةِ ذلك التصرُّفِ، كما انكشفَ عن غَيبِ اللهِ الذي لا يُطلِعُ عليهِ أحداً إلاَّ مَن ارْتَضَى.

وفي دَهْشَةِ السِّرِّ المَكْشُوفِ والسترِ المرفُوعِ يختفِي الرَّجُلُ مِن السِّياقِ كما بَدا.

لقَد مَضَى في المجْهُولِ كما خَرَجَ مِن المجْهُولِ؛ فالقِصَّةُ تُمثِّلُ الحِكْمةَ الكُبْرَى، وهذه الحِكْمةُ لا تَكْشِفُ عن نَفْسِها إلَّا بمِقدارٍ، ثمَّ تبقَى مُغيَّبةً في عِلْمِ اللهِ وَراءَ الأستارِ.

وهكذا ترتبطُ في سِياق السُّورةِ قِصَّةُ مُوسَى والعَبْدِ الصَّالحِ بِقِصَّةِ أصحابِ الكهْفِ في تَرْكِ الغَيبِ للهِ الخبيرِ اللطيفِ الذي يُدَبِّرُ الأمْرَ بِحِكْمَتِه وفْقَ عِلْمِه الشامِلِ الذي يقصرُ عَنهُ البَشَرُ الواقِفُونَ وراءَ الأسْتارِ، لا يَكْشِفُ لهُمْ عمَّا وَراءها مِن الأسْرارِ إلاّ بِمِقدارٍ.(١)

التحريرُ والتنويرُ المَعرُوفُ بِتفسِير ابن عاشُور

لَّما ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتعالى قِصَّةَ خَلْقِ آدمَ وأمَرَ الملائِكَةَ بالسُّجودِ لهُ، وما عُرِضَ لِلشَّيطانِ من الكِبْرِ والاعتِزازِ بِعُنْصُرِه جَهْلاً منهُ بأسبابِ الفَضائِلِ ومُكابَرةً في الاعترافِ بها وحَسداً على التكريمِ والفضْلِ؛ فَضَرَبَ بِذلِكَ مَثلاً لأهْلِ الضَّلالِ عَبيدِ الهَوى والكِبْرِ والحَسَدَ أعقبَ تلك القِصَّةَ بِقِصَّةِ طلبِ ذِي العِلْمِ والكمالِ، واعترافًا للفاضِلِ بِفَضْلِه؛ وذَلِكَ لِلمُقابَلَةِ بين الخلقينِ ولإقامةِ الحُجَّةِ على المُماثلَةِ والمُخالَفةِ بينَ الفَريقَينِ المُؤمنينِ والكافِرينَ، وفي ذلكَ تعظيمٌ لشأنِ العِلْمِ والعُلَماءِ وتَرْبيةٌ لِلمتَّقينَ.

ولأنَّ سُورةَ الكهفِ نَزَلَتْ لِلرَّدِّ على ما سألَ المُشْرِكُونَ، والذينَ أملوا عليهِم مِن أهلِ الكتابِ، عن أصحابِ الكهفِ وعن ذِي القرنَينِ؛ فقَد ذَكرتْ القصَّةُ الأُولى وما ذُيِّلَتْ بِه، وقُدِّمَتْ لِلقِصَّةِ الثانية قِصَّةً لها شَبَهٌ بها في أنَّها تطْوافٌ في الأرضِ لِطَلَبِ علمٍ صالِحٍ وهِيَ قِصَّةُ رِحْلَةِ مُوسَى عليهِ السلامُ لِلقاءِ مَن هُو على عِلْمٍ لا يَعْلَمُهُ مُوسَى.

١) في ظلال القرآن (ج٤/ص٢٢٧٧- ٢٢٨٢).

وفي سياقِ هذه القِصَّةِ تعريضٌ بأهلِ الكتابِ؛ لأنَّهُ كان مِن الأولى لهُم أنْ يَدلُّوا الناسَ على أخبارِ أنبياءِ بني إسرائيلَ، وعلى سَفَرٍ لِتَحصيلِ العِلْمِ والحِكْمَةِ لا سَفَر من أجْلِ بَسْطِ المُلْكِ والسُّلطانِ.

(**وَإِذْقَالَمُوسَىلِفتَاهُ**) الجُملةُ مَعطُوفةٌ على جُملَةِ (**وَإِذْقُلْنَالِلْمَلائِكَةِ**) الوارِدَةِ في الآيةِ الخمْسِين مِن السورةِ نَفْسِها؛ حيث عطفَ قِصَّةً على قِصَّةٍ، والتقديرُ: واذكُرْ يا مُحمَّدُ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ ذلكَ الزمنَ وما جَرَى فيهِ حينِ (**قالَمُوسَىلِفَتاهُ**)، وناسَبَها تقديرُ فِعْلَ (**اذْكُرْ**)؛ لأنَّ في هذهِ القِصَّةِ مَوعِظةً وذِكْرَى كما هيَ الحالُ في قِصَّةِ خَلْقِ آدَمَ، فانتصَبَ (إذْ) على المَفعُوليَّةِ بهِ. والفَتَى هو الذَّكَرُ الشَّابُ، والأنْثَى فَتاةٌ، وهو مُسْتَعْمَلٌ مَجازاً في التابعِ والخادمِ، وقد تقدَّمَ ذلكَ في سُورةِ يُوسُفَ عليهِ السلامُ في قولِه تعالى: (**تُرَاوِدُفَتَاهَا**).

وفَتَى مُوسَى هو خادِمُهُ وتابِعُهُ، وإضافةُ الفتَى إلى ضَميرِ مُوسَى على معنَى الاختصاصِ كما يُقالُ "غُلامُهُ". وفتَى مُوسَى هُو يُوشَع بنُ نُونٍ مِن سِبْطِ أفرايم. وقيلَ: إنَّه ابنُ أخْتِ مُوسَى، كان اسْمهُ الأصليُّ هُوَشع فدَعاهُ مُوسَى يُوشَعَ، ولعلَّ ذلك التغيُّرَ في الاسمِ تلطَّفَ بهِ كما قالَ رَسُولُ اللّهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ لأبي هُرَيرةَ يا "أبا هِرٍّ".

وفي التوراةِ: أنَّ إبْراهِيمَ كان اسْمُه "أبرام" فلمَّا أمَرَهُ اللّهُ تعالى بِخصالِ الفِطْرَةِ دعاهُ "إبْراهام". ولعلَّ هذه التغييراتِ في العِبرانيَّةِ تُفيدُ معانِي غيرَ مَعاني الأسماءِ الأولى فتَكُونُ كما دَعا النبيَّ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ "زَيْدَ الخَيلِ، زَيْدَ الخَيرِ".

ويُوشَعُ هو أحدُ الرِّجالِ الاثني عَشرَ الذينَ بَعثهُم مُوسَى عليهِ السلامُ إلى أرضِ كنعانَ؛ لِيَخْتَبِرُوا بأسَ أهْلِها وخَيراتِها. وهُوَ أحدُ الرَّجُلَينِ اللذَينِ شَجَّعا بني إسْرائيلَ على دُخولِ أرضِ كنعانَ اللذينَ ذَكَرَهُما القُرآنُ الكريمُ في سُورةِ المائدةِ: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾.

وُلِدَ يُوشَعُ حوالَي عام ١٤٦٢م قبلَ المَسيحِ وكانتْ وَفاتهُ حوالَي عام ١٢٥٢م، وعُمِّرَ مِائةً وعَشْرَ سَنَةٍ. وقَد قَرَّبَهُ مُوسَى عليهِ السلامُ إلى نَفْسِه واتَّخَذَهُ تلميذًا وخادِمًا، فكانَ أحدُ الرَّجُلَينِ اللذينِ عَهِدَ إليهِما بأنْ يَقْسِما الأرضَ بينَ أسباطِ بَني إسرائيلَ بَعْدَهُ. وأمرَ اللهُ مُوسَى بأنْ يَعْهَدَ إلى "يُوشَعَ" بتدبيرِ أمرِ بني إسرائيلَ بعدَ وفاتِه؛ فَصارَ نبيًّا مِن يَومِئذٍ، وأقامَ فيهِم حوالَي سَبْعًا وعِشْرينَ سَنَةً. وكتابُ يُوشَعُ هُو أوَّل كُتبِ الأنبياءِ بَعدَ مُوسَى عليهِ السلامُ.

وابتدأتِ القِصَّةُ ابتداءً عَجيبًا في الإيجازِ بكلامِ مُوسَى عليهِ السلامُ مُصَمِّمًا على أنْ لا يَزُولَ عمَّا هوَ فيهِ ولا يَشتغِلَ بِشَيءٍ آخرَ حتَّى يَبْلُغَ مَجمَعَ البَحْرَينِ،

وقولُه ذلكَ يدلُّ على أنَّهُ كان في مهمَّةِ سَفَرٍ نهايتُها بلوغَ ذلك المكانِ. ويدلُّ كذلك على أنَّ فتاهُ استعظمَ هذهِ الرِّحلةَ وخَشِيَ أنْ تنالَهُما فيها مَشَقَّةٌ تعوقهُما عن إتمامِها، أوْ أنَّهُ استعظمَها لِلعِلْمِ كونَها رحلةً بعيدةً، وأنَّ المكانَ الذي يسيرُ إليهِ سَيجدُ عِندَهُ مَطْلبَهُ.

﴿لَا أَبْرَحُ﴾ أيّ: لا أتْرُكُ أو لا أكُفُّ عن السَّيرِ حتَّى أبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَينِ.

وأبْرَحُ مُضارِعُ بَرِحَ بِكَسْرِ الراءِ؛ بمعنَى: زالَ يَزُولُ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مُضارِعُ بَرِحَ الذي هُو فِعلٌ ناقِصٌ لا يُسْتَعْمَلُ ناقِصًا إلَّا مع النفي ويكونُ الخبرُ مَحذُوفًا بِقَرينةِ الكلامِ؛ أيّ: لا أبْرَحُ سائِرًا. وعن الرَّضيِّ أنَّ حَذْفَ خَبَرِها قليلٌ.

وحُذِفَ ذِكْرِ الغَرَضَ الذي سارَ لأجْلِهِ مُوسَى عليهِ السلامُ؛ لأنَّهُ سَيُذْكَرُ فيما بعدُ، وهو حذفُ إيجازٍ وتشويقٍ لهُ موقعٌ عَظيمٌ في حكايةِ القِصَّةِ لإخراجِها عن مَطرُوقِ القَصَصِ إلى أسلوبٍ بَديعِ الحِكَمِ والأمثالِ قَضاءً لحَقِّ بلاغةِ الإعجازِ.

وتفصيلُ هذه القِصَّةِ كما وَرَدَ في صَحيحِ البُخاريِّ عن ابْنِ عبَّاسٍ عنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ عن النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ قامَ خَطِيبًا في بَني إسرائيلَ فَسُئلَ: أيُّ الناسِ أعلَمُ؟ فقالَ: أنا.

فَعَتبَ اللهُ عليهِ إذْ لمْ يَرُدَّ العِلْمَ إليهِ. فأوْحَى اللهُ إليهِ بَلَى؛ عَبْدُنا خَضرٌ هُوَ أعْلَمُ مِنْكَ. قالَ: فأينَ هُوَ؟ قالَ: بِمَجْمَعِ البَحْرِينِ.

قالَ مُوسَى: يا ربُّ اجْعَلْ لي عِلْمًا أعلَمُ ذلكَ بهِ. قالَ: تأخُذُ مَعكَ حُوتًا في مكْتَلٍ فحيثُ ما فَقَدتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ. فأخَذَ حُوتًا فَجعَلَهُ في مكْتَلٍ وقالَ لِفَتاهُ يُوشَع بنِ نُونٍ: لا أُكلِّفُكَ إلاّ أنْ تُخْبِرَني بحيثُ يُفارِقكَ الحُوتُ، قالَ فَتاهُ: ما كَلَّفْتَ كثيراً.

ثُمَّ انطلقَ بِفَتاهُ حتَّى إذا أتيا الصَّخْرَةَ وَضَعا رُؤوسَهُما فَناما واضْطَرَبُ الحُوتُ في المكتلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ في البَحْرِ فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ سَرَبًا ومُوسَى نائِمٌ، فقالَ فتاهُ – وكانَ لمْ يَنَمْ – : لا أُوقِظُهُ.

وأمْسَكَ اللهُ عن الحُوتِ جَريةَ الماءِ؛ فَصارَ الماءُ عليهِ مِثْلَ الطاقِ.

فلمَّا استيقظَ مُوسَى نَسِيَ صاحِبُهُ أنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ، فانْطلَقا بَقِيَّةَ يَومِهِما ولَيلتِهِما حتَّى إذا كانَ مِن الغَدِ قالَ مُوسَى لِفَتاهُ: ﴿آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هَذا نَصَبًا﴾. قالَ: ولَمْ يَجِدْ مُوسَى النصبَ حتَّى جاوزَ المكانَ الذي أمَرَهُ اللهُ بِهِ؛ لأنَّ اللهَ مُيَسِّرُ أسبابِ الامتِثالِ لأولِيائِه. فقالَ لهُ فَتاهُ: ﴿أرأيتَ إذْ أوَيْنا إلى الصَّخْرَةِ فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وما أنْسانِيهِ إلّا الشَّيطانُ أنْ أذْكُرَهُ واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ عَجَبًا﴾.

قالَ: فكانَ لِلحُوتِ سَرَبًا ولِمُوسَى ولِفَتاهُ عَجَبًا.

فقالَ مُوسَى: ﴿ذلكَ ما كُنَّا نَبْغِ فارْتَدَّا على آثارِهِما قَصَصًا﴾. قالَ: رَجَعا يَقُصَّانِ آثارَهِما حتَّى انْتَهيا إلى الصَّخْرَةِ فإذا رَجُلٌ مُسَجَّى ثَوبًا فَسَلَّمَ عليهِ مُوسَى. فقالَ الخَضِرُ: وأنّى بِأرْضِكَ السَّلامُ..." الحديثُ. وقولُهُ: "وأنَّى بِأرْضِكَ السَّلامُ" هُو استفهامُ تَعجُّبٍ، والكافُ خِطابٌ للذي سلَّمَ عليهِ؛ فكانَ الخَضِرُ يَظُنُّ ذلك المكانَ لا يُوجَدُ بِهِ قومٌ تحيَّتُهُم السلام؛ إمَّا لِكَونِ ذلكَ المكانِ كانَ خلاءً، وإمَّا لِكَونِهِ مأهُولاً بِأمَّةٍ لَيسَتْ تَحَيَّتهُمُ السَّلامُ.

وإنَّما أمْسَكَ اللهُ عن الحُوتِ جَريةَ الماءِ؛ لِيَكُونَ آيةً مَشهُودةً لِمُوسَى وفَتاهُ زِيادةً في أسبابِ قُوَّةِ يَقِينِهِما، ولأنَّ المكانَ لَمَّا كان ظَرْفًا مُناسِبًا لِظُهورِ مُعجِزاتِ عِلْمِ النُّبوَّءةِ ناسبَ أنْ يُحَفَّ بِهِ ما هُوَ خارِقٌ لِلعادةِ إكْرامًا لِنُزلاءِ ذلك المكانِ.

﴿حتَّى أبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ﴾ لا يَنبَغِي أنْ يختَلِفَ في أنَّهُ مكانٌ ما مِن أرضِ فِلسطِينَ. والأظهرُ: أنَّهُ مَصبُّ نهرِ الأُردنِّ في بُحَيرةِ طبريَّةَ؛ لأنَّهُ النهرُ الذي يَمُرُّ في الأرضِ التي نَزَلَ بها مُوسَى عليهِ السلامُ وقومُه، وكان يُسمَّى عندَ الإسْرائيليِّينَ "بَحرَ

الجليلِ"، وقَد بلغَهُ مُوسَى عليهِ السلامُ راحِلاً بعدَ مَسيرِ يومٍ وليلةٍ؛ إذْ لمْ يَكُنْ مكانًا بعيدًا جِدًّا. وأرادَ مُوسَى أنْ يبلغَ ذلكَ المكانَ؛ لأنَّ اللهَ أوحَى إليهِ أنَّهُ سَيَجِدُ فيهِ العبدَ الصالِحَ الذي هوَ أعْلَمُ منهُ فَجعَلَهُ ميقاتًا لهُ. ومَعنى كونِ هذا العبدِ أعلمَ مِن مُوسَى هُوَ أنَّهُ يَعلَمُ عُلومًا لم يُعَلِّمْها اللهُ لِمُوسَى. فالتفاوتُ في العِلْمِ في هذا المقامِ هوَ تفاوتٌ نِسبيٌّ بِفُنونِ العُلومِ.

والخَضرُ رَجُلٌ صالِحٌ. وقيلَ: هوَ نبيٌّ مِن أحفادِ عابرِ بنِ شالخِ بنِ أرفخشدِ بنِ سامٍ. فيكونُ ابنَ عمِّ الجَدِّ الثاني لإبراهيمَ عليهِ السلامُ. أمَّا اسْمُهُ فهُوَ "بليا أو إيليا"، وقيلَ: إنَّ الخَضرَ هو إلياسُ المذكورُ في سُورةِ يس.

واتَّفقَ المُفسِّرونَ على أنَّه كان مِن المُعمَّرِينَ، ثُمَّ اختلَفُوا في أنَّهُ لمْ يَزَلْ حَيًّا اخْتِلافًا لمْ يُبنْ على أدلَّةٍ مَقْبُولةٍ مُتعارَفةٍ؛ ولكنَّهُ مُستنَدٌ إلى أقوالِ بَعضِ الصُّوفيَّةِ، ولا يَنبغِي اعتمادُها لِكثْرَةِ ما وَقَعَ في كلامِهِم مِن رُموزٍ وخَلْطٍ بينَ الحياتَينِ (الرُّوحيَّةِ والمادِّيَّةِ) والمُشاهَداتِ الحِسِّيَّةِ والكشْفِيَةِ، وقد جَعلُوه رَمْزَ العُلومِ الباطنيَّةِ كما سيأتي بإذنِ اللهِ تعالى.

وزعمَ بعضُ العُلماءِ أنَّ الخَضرَ هو جرْجس مِن ذُرِّيَّةِ عيسو بنِ إسحاقِ والمَعرُوفُ باسْمِ "مارْجرجس"، والعربُ يُسَمُّونَه "مارسرجس" كما في كتابِ سِيبَوَيهِ، وهوَ مِن أهلِ فِلسطِينَ، وُلِدَ في الرَّمْلَةِ في النصفِ الثاني من القرنِ الثالثِ بعدَ مَولِدِ عِيسَى عليهِ السلامُ وتُوفِّي سَنةَ ٢٠٢ وهذا يُنافِي كَونَهُ في زَمَنِ مُوسَى عليهِ السلامُ. وقيلَ: هو نبيٌّ بُعِثَ بعدَ شُعَيبٍ.

والخَضرُ لَقَبٌ لهُ؛ لأنَّهُ كان إذا جَلَسَ على الأرضِ اخضرَّ ما حَولَهُ مِن بَركَتِهِ. وفي دائرةِ المَعارفِ الإسلاميَّة ذكرَتْ تَخرُّصاتٍ تلصقُ قِصَّةَ الخَضرِ بِقَصَصٍ فارسيَّةٍ وأُخْرى رُومانيَّة، ولا ينبغِي إطلاقُ الأوهامِ وراءَ أمثالِها.

والمُحَقَّقُ: أنَّ قِصَّةَ مُوسَى والخَضرَ يهوديَّةُ الأصلِ؛ ولِكنَّها غيرُ مَسطُورةٍ في كُتُبِ اليهودِ المُعبَّرِ عنها بالتوراةِ أو العَهدِ القديم. ولعلَّ عدمَ ذِكْرِها في تلكَ الكُتُبِ هوَ الذي أقدمَ "نَوفًا البكاليّ" على أنْ قالَ: إنَّ مُوسَى المذكورَ في هذه الآياتِ هو غُيرُ مُوسَى بَني إسرائيلَ كما ذُكِرَ ذلك في صَحيحِ البُخاريّ، وأنَّ ابنَ عبَّاسٍ كَذَّبَ نَوفًا وساقَ الحديثَ المُتقدِّمَ.

واختلفَ اليهودُ في أنّ صاحِبَ الخَضرِ هُو مُوسَى بنُ عِمرانَ الرَّسُول، وأنَّ فَتاهُ هو يُوشعُ بنُ نُونٍ، فقيلَ: نعمْ هُوَ، وأيَّدَ ذلكَ ما رواهُ أُبيٌّ بنُ كَعْبٍ عن النبيِّ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ. وقيلَ: هو رَجُلٌ آخرُ اسْمُهُ مُوسَى بنِ ميشا أو منسه بن يُوسُف بن يعقُوب.

وقَد زَعمَ بعضُ عُلماءِ الإسلامِ أنَّ الخَضرَ لَقِيَ النبيَّ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ وَعُدَّ مِن صَحابَتِه؛ وذلك توهُّمٌ وتتبُّعٌ لِخَيالِ القَصَّاصِينَ.

ولا يَصحُّ أنْ يكونَ الخَضرُ مِن بَني إسرائيلَ؛ إذْ لا يَجوزُ أنْ يكونَ مُكلَّفًا بِشَريعةِ مُوسَى ويقومُ بأفعالٍ لا تُبيحُها شَريعَتُه؛ بلْ يتعيَّنُ أنْ يكونَ نبيًّا مُوحَى إليهِ بِوحْيٍ خاصٍّ.

وقَد عَلِمَ مُوسَى أنّ الخَضرَ مِن أُمَّةٍ غَيرِ مَبْعُوثٍ هو إليها مِمَّا أوحَى اللهُ إليهِ مِن قولِه: "بَلَى؛ عَبدُنا خَضرٌ هُو أعْلَمُ مِنْكَ" كما في حديثِ أُبيٍّ بنِ كَعْبٍ لَمْ يَصْرِفْهُ عَنهُ ما رأى مِن أعمالِه التي تُخالِفُ شريعةَ التوراةِ؛ لأنَّهُ كان على شَريعةٍ أُخْرى.

وأمَّا وُجُودهُ في أرضِ بَني إسرائيلَ فَهُو مِن السِّياحةِ في العِبادة، أوْ أنَّ اللهَ أمَرَهُ بأنْ يَحضُرَ إلى المكانِ الذي قَدَّرَهُ لِلقاءِ مُوسَى رِفْقًا بِه عليهِ السلامُ.

(**أَوَ أَمْضِيَ حُقُبًا**) أيّ: أسيرَ. والمُضِيُّ هو الذَّهابُ والسَّيرُ.

والحُقُبُ بِضَمَّتَينِ اسْمٌ للزمانِ الطويلِ غَيرُ مُنْحَصِرِ المِقدار، وجَمعُه أحقابٌ. وعطفَ "أمْضِيَ" على "أبلُغَ" بِ أوْ فَصارَ المعطُوفُ إحدى غايتَينِ للإقلاعِ عن السَّيرِ، أيّ: إمَّا أنْ أبلُغَ المكانَ، أوْ أمضِيَ زَمَنًا طويلاً.

ولَمَّا كان مُوسَى لا يُخامِرُهُ الشَّكُّ في وُجودِ مَجمعٍ لِلبَحرَينِ وإلقاءِ طُلْبَتِه عِندهُ؛ لأنَّهُ عَلِمَ ذلك بِوَحيٍ مِن اللهِ تعالى، تعيَّنَ أنْ يكونَ المَقْصُودُ بِحَرفِ الترديدِ تأكيدَ مُضيِّهِ زَمنًا يتحقَّقُ فيه الوُصولُ إلى ذلكَ المكانِ. فالمَعنى: "لا أبْرَحُ حتَّى أبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَينِ بِسَيرٍ قَريبٍ أو سَيرٍ أزمانًا طويلةً؛ فإنِّي بالِغٌ مَجمَعَ البَحْرَينِ، وكأنَّه أرادَ بهذا تأييسَ فتاهُ مِن مُحاوَلةِ رُجوعِهما كما دلَّ عليهِ قولُه بعدَ (**لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**)، أوْ أرادَ شَحْذَ عَزيمةِ فَتاهُ؛ لِيُساويهِ في صِحَّةِ العَزْمِ حتَّى يكُونا على عَزْمٍ مُتَّحدٍ.

(**فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا**) الفاءُ للتفريعِ، وتُسمَّى الفَصيحةَ؛ لأنَّها تُفْصِحُ عن كلامٍ مُقدَّرٍ؛ أيّ: فَسارا حتَّى بلَغا مَجمَعَ البَحرَينِ. وضميرُ "بينَهُما" عائدٌ على البَحرَينِ، أيّ: مَحلاًّ يَجْمَعُ بينَ البَحرَينِ.

وأُضيفَ "مَجْمَعُ" إلى "بينَ" على سبيلِ التوسُّعِ؛ فإنَّ "بينَ" اسْمٌ لِمكانٍ مُتوسِّط شيئينِ، وشأنهُ في اللغةِ أنْ يكونَ ظَرْفًا للفعلِ؛ ولكنَّهُ قد يُستعْمَلُ لمجُرَّدِ مكانٍ مُتوسِّطٍ؛ إمَّا بالإضافةِ أو بدُونِها.

(**نَسِيَا حُوتَهُمَا**) والحُوتُ هو الذي أمَرَ اللهُ مُوسَى باستِصْحابِه مَعهُ؛ لِيَكُونَ له علامةً على المكانِ الذي فيهِ الخَضرُ كما تَقدَّمَ في سِياقِ الحديثِ. ومَعنى "نِسيانِهِما" أنَّهُما نَسِيا أنْ يُراقِبا حالَهُ، هلْ هُوَ باقٍ في مكتلِه حينئذٍ؛ حتَّى إذا فقَداهُ في مَقامِهِما ذلكَ تحقَّقا أنَّ ذلكَ المَوضِعَ الذي فَقداهُ هو المَوضِعُ المُوقَّتُ لهُما بتلكَ العلامةِ فلا يَزيدا تعبًا في المَشي؛ فإسنادُ النِّسيانِ إليهِما حقيقةٌ؛ لأنّ يُوشَعَ – وإنْ كانَ هُو الموكَّلَ بِحِفْظِ الحُوتِ وعليهِ مُراقبتُه –؛ إلَّا أنَّ مُوسَى هو القاصِدُ لهذا العملِ فكان يَهمُّهُ تعهُّدُهُ ومُراقَبَتُه.

وهذا يدلُّ على لأنّ صاحبَ العملِ أو الحاجةِ إذا وكل إلى غَيرِه لا ينبغي لهُ تَرْكُ تَعَهُّدِه (**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**) ثمَّ إنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ نامَ وبَقِيَ فَتاهُ يقظانَ فاضْطَرَبَ الحُوتُ، وجَعلَ لِنَفْسِه طَريقا في البحرِ.

والسَّرَبُ هُوَ النَّفَقُ. والاتِّخاذُ هو الجَعْلُ.

وقد انْتَصَبَ سَرَبًا على الحالِ مِن "سَبِيلِه" مُراداً بالحالِ التشبيه؛ كَقَولِ امْرئِ القَيْسِ:

إذا قامَتْ تَضوَّعَ المِسْكُ مِنْها نَسيمَ الصّبا جاءتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ

وقد مرَّ تفسيرُ كيف اتَّخذَ البَحرُ "سَرَبًا" في الحديثِ السابقِ عن أبيٍّ بنِ كَعْبٍ

(**فَلَمَّا جَاوَزَا**) أيّ: جاوَزا مَجْمَعَ البَحْرَينِ، وحُذِفَ مَفعُولُ جاوَزا لِلعِلْمِ.

(**قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا**) الغَداءُ هو طعامُ النهارِ مُشْتقٌّ مِنَ الغَدْوةِ؛ لأنَّهُ يُؤكَلُ في وَقْتِ الغُدوِّ، وضِدُّهُ العَشاءُ وهو طَعامُ العَشيِّ.

(**لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**) النَّصَبُ هوَ التَّعَبُ (**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ**) الصَّخْرَةِ وهيَ مَعهُودةٌ لهُما، وقَد أوَيا إليها في سَيْرِهما عندَ مَجْمَعِ البَحرَينِ. قيلَ: إنَّ مَوضِعَها دُونَ نَهْرٍ يُقالُ لهُ "نَهْرَ الزَّيتِ"؛ لِكَثْرَةِ ما عِندَهُ مِن شَجرِ الزَّيتُونِ.

(**فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ**) أيّ: نَسِيتُ حِفْظَهُ وتَفَقُّدَهُ فانْقلَبَ في البَحْرِ.

(**وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**) هذا نِسيانٌ آخرُ غيرُ النِّسيانِ الأوَّلِ؛ فهُو نِسيانُ ذِكْرِ الإخبارِ عَنهُ. وقرأَ "حَفْصٌ عن عاصِمٍ" (**وَمَا أَنْسَانِيهُ**) بِضَمِّ هاءِ الضميرِ على أصلِ الضميرِ وهيَ لُغَةٌ. والكَسْرُ أشْهَرُ؛ لأنَّ حركةَ الكسرةِ بعدَ الياءِ أخفُّ. و (**أَنْ أَذْكُرَهُ**) بدلُ اشتمالٍ مِن ضميرِ (**أنسانيهِ**) لا مِن الحُوتِ، والمعنَى: ما أنْساني أنْ أذْكُرَهُ لكَ إلاّ الشَّيطانُ؛ فالذِّكْرُ هُنا ذِكْرُ اللسانِ، وإسنادُ هذا النِّسيانِ إلى الشيطانِ مع كَونهِ أُعجُوبةً شأنُها أنْ لا تُنْسَى يتعيَّنُ أنَّ الشيطانَ يَسُوءه التقاءُ هذَينِ العبْدَينِ الصالحَينِ وما لهُ مِن الأثرِ في بَثِّ العلومِ الصالحةِ؛ فَهُو يُحاوِلُ صَرْفَهُما عنهُ ولوْ بتأخيرِ وُقوعِه طَمعًا في حُدوثِ العوائِقِ.

(**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ**) هذه الجملةُ عَطفٌ على جُملةِ (**فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ**) وهيَ بقيَّةُ كلامِ فتَى مُوسَى؛ أيّ: اتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ سِباحةً بعدَ أنْ كان مَيْتًا زَمَنًا طويلاً. وقولهُ (**عَجَبًا**) جُملةٌ مُستأنَفةٌ، وهيَ مِن قولِ الفتَى أيّ: أعْجَبُ لهُ عَجَبًا؛ فانتصبَ على المفعولِ المطلقِ الآتي بَدلاً مِن فِعلِه.

(**قَالَ**) جوابٌ عن كلامِه، والإشارةُ ب (**ذَلِكَ**) إلى ما تَضمَّنَهُ خبرُ الفتَى مِن فَقْدِ الحُوتِ(**مَا كُنَّا نَبْغِ**) ومعنَى كونِه المُبتغَى أنَّهُ وسيلةُ المُبتَغِي، والمُبتغَى هو لِقاءُ العبدِ الصالحِ في المكانِ الذي يَفقدُ فيهِ الحُوتَ.

وكُتِبَتْ "نَبْغِ" في المُصحفِ بِدُونِ ياءٍ في آخرِها لِمُراعاةِ حالةِ الوقفِ؛ لأنَّ الأحسَنَ في الوقفِ على ياءِ المنقُوصِ أن يُوقفَ بِحَذْفِها. وقيل أرادوا التنبيهَ على أنَّها رُويتْ مَحذُوفةً في هذه الآيةِ. والعربَ يَميلُونَ إلى التخفيفِ؛ فقرأَ "نافعٌ وأبو عَمْرٍو والكِسائيُّ وأبو جَعفَرَ" بِحَذْفِ الياءِ في الوقفِ وإثباتِها في الوصْلِ.

وقرأَ "عاصِمٌ وحَمزَةُ وابنُ عامرٍ" بِحذْفِ الياءِ في الوصلِ والوقْف. وقرأَ "ابنُ كثيرٍ ويَعقُوب" بإثباتِها في الحالَينِ، والنونُ نونُ المُتكلِّمُ المُشاركُ أيّ ما أبْغِيهِ أنا وأنتَ، وكِلاهُما يبغي ملاقاة العبد الصالح (**فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا**) الارتِدادُ مُطاوِعُ الرَّدّ كأنْ رادا رَدَّهُما، وإنَّما رَدتُهُما إرادتُهُما أيّ: رَجعا على آثارِ سَيْرِهِما في طَريقِهِما الذي أتَيا مِنهُ

(**قَصَصًا**) القَصَصُ مَصدَرُ قَصَّ الأثرَ إذا توخَّى مُتابَعتَهُ كَيلا يُخْطِئَ الطريقَ الأوَّلَ (**فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا**) المُرادُ بِالعَبدِ الخَضرُ، ووُصِفَ بأنَّه مِن عبادِ اللهِ تَشْريفًا له،

كما تقدَّمَ عند قولِه تعالى في سُورةِ الإسراءِ: (**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ**). وعَدَلَ عن الإضافةِ إلى التنكيرِ والصِّفَةِ؛ لأنَّهُ لمْ يَسبِقْ ما يَقتضِي تعريفَه، وكذلكَ للإشارةِ إلى أنَّ هذه الحالَ الغريبةَ العظيمةَ الذي ذُكِرَ مِن قِصَّتِه ما هوَ إلاّ مِن أحوالِ عبادٍ كثيرينَ للهِ تعالى. وما مِنهُم إلاّ لهُ مَقامٌ مَعلُومٌ.

(**آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا**) إيتاءُ الرَّحمَةِ قد يكونُ أنَّه جُعِلَ مَرحُومًا بأنْ رَفَقَ اللهُ بهِ في أحوالِه، وقَد يكونُ تصرُّفُه تصرُّفًا يجلِبُ الرَّحمةَ العامَّةَ. (**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**) العِلْمُ مِنْ لدُنِ اللهِ هُوَ الإعلامُ بِطَريقِ الوحي.

و"عِنْدَ" و"لَدُن" كِلاهُما حقيقتُه اسمُ مكانٍ قريبٍ ويُستَعْمِلانِ مَجازًا في اختِصاصِ المُضافِ إليهِ بِمَوصُوفِهما، و"مِن" ابتدائيةٌ؛ أيّ: آتيْناهُ رَحْمَةً صَدرَتْ مِن مكانِ القُرْبِ، وهُو قُرْبُ تشريفٍ بالانتسابِ إلى اللهِ، وعِلْمًا صَدَرَ مِنهُ أيضًا؛ وذلكَ أنَّ ما أُوتِيهُ مِن الولايةِ أو النُّبوءةِ رَحْمةٌ عَزيزةٌ، أو ما أُوتِيهِ مِن العِلْمِ عَزيزٌ فكأنَّهُما مِمَّا يُدَّخَرُ عِندَ اللهِ في مكانِ القُرْبِ التشريفيِّ فلا يُعطَى إلاّ للمُصْطفين.

والمُخالَفةُ بينَ "مِنْ عِنْدِنَا" و"بينَ مِن لَدُنَّا" هيَ لِلتفنُّنِ تَفاديًا مِن إعادةِ الكلمةِ

(**قَالَ لَهُ مُوسَى**) هذه جملةُ ابتداءِ المُحاورَةِ، وهيَ استِئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لذلكَ لمْ يَقَعِ التعبيرُ ب "قالَ" مُجرَّدةً عن العاطِف. والاستفهامُ في قولِه (**هَلْ أَتَّبِعُكَ**) مُستعمَلٌ في العَرْضِ بِقَرينةِ أنَّه استفهامٌ عن عَملِ نفسِ المستفهم، والاتِّباعُ مَجازٌ في المُصاحَبةِ، ويتضمَّنُ معنَى الاشتراطِ؛ لأنَّهُ استعلاءٌ مَجازيٌّ؛ فَجُعِلَ الاتِّباعُ كأنَّهُ مُستَعْمَلٌ فوقَ التعليمِ لِشدَّةِ المُقارَنةِ بينهُما؛ فَصِيغَةُ "أفعلُ كذا على كذا" مِن

صِيغِ الالتزامِ والتعاقُد. ويُؤخَذُ مِن الآيةِ جواز التعاقُدِ على تعليمِ القُرآنِ الكريمِ والعِلْمِ كما وَرَدَ في حديثِ تَزويجِ المرأةِ التي عَرَضَتْ نَفْسَها على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فلمْ يَقْبَلْها؛ فَزَوَّجَها مَن رَغِبَ فيها على أنْ يُعلِّمَها ما مَعهُ من القُرآنِ.

وفيهِ أنَّه التزامٌ يجبُ الوفاءُ بهِ. وقَد تَفرَّعَ عن حُكْمِ الالتزامِ أنَّ العُرْفَ فيهِ يقومُ مقامِ الاشتراطِ؛ فيجبُ على المُنتَصبِ للتعليمِ أنْ يُعامِلَ المُتعلِّمِينَ بما جَرَى عليهِ عُرْفُ أقاليمِهم.

وفيهِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ حقَّ المُعلِّمِ على المُتعلِّمِ اتِّباعُه والاقتِداءُ بهِ.

(**عَلَىٰٓ أَنۡ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا**) وانتصَبَ "رُشْداً" على المفعُوليَّةِ لِتُعلِّمَنِي؛ أيّ: ما بهِ الرُشْدُ والخَيرُ. وهذا العلمُ الذي سألَ مُوسَى تعلُّمَهُ هو مِن العلمِ النافعِ الذي لا يتعلَّقُ بالتشريعِ لِبَني إسرائيلَ؛ فإنَّ مُوسَى مُسْتَغْنٍ عن الازديادِ مِنهُ إلاّ مِن وَحي اللهِ إليهِ مُباشَرةً، وبذلكَ أرسلَهُ وما عدا ذلكَ لا تقتضِي الرسالةُ عِلمَه. وإنَّما رام مُوسَى أنْ يعلَمَ شيئًا مِن العلمِ الذي خَصَّ اللهُ بهِ الخَضرَ؛ لأنَّ الازْدِيادَ مِن العُلومِ النافِعَةِ هُو من الخَير.

وقَد قالَ اللهُ تعالى في سُورةِ طه تعليمًا لِنَبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلّمَ (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا). والعِلْمُ الذي أُوتيهِ الخَضرُ هو عِلْمُ سِياسةٍ خاصَّةٍ تتعلَّقُ بِمَعينَين؛ إمّا لِ(جَلْبِ مَصلَحةٍ أوْ لِدَفْعِ مَفْسَدَةٍ)؛ وذلكَ بحسبِ ما تُهيِّئُه الحوادثُ لا بِحَسْبِ ما يُناسِبُ المصلحةَ العامَّة. فلعلَّ اللهَ يَسَّرَهُ لِنَفْعِ مُعيَّنِينَ مِن عِنْدِه كما جَعلَ مُحمَّداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم رَحمَةً عامَّةً لِلنَّاسِ كافَةً، ومِن هُنا فارقَ سياسةَ التشريعِ العامَّةِ.

وقرأَ الجُمهورُ "رُشْدًا" بِضَمِّ الراءِ وسُكونِ الشينِ، وقرأَ أبو عَمْرٍو ويعقوبٌ بِفَتحِ الراءِ وفَتْحِ الشِّين، وهُما لُغتانِ كما تقدَّمَ (**قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) أكَّدَ الجُملَةَ ب"إنّ" و"لنْ" تحقيقًا لِمَضْمُونها مِن تَوقُّعِ ضيقِ ذَرْعِ مُوسَى عن قَبولِ ما يُبْدِيهِ إليه؛ لأنَّهُ عَلِمَ أنَّهُ سَتصْدُرُ منهُ أفعالٌ ظاهِرُها المُنكَرُ وباطِنُها المَعرُوفُ.

ولَمَّا كان مُوسَى عليهِ السلامُ مِن الأنبياءِ الذينَ أقامَهُم اللهُ لإجْراءِ الأحكامِ على الظاهِرِ عَلِمَ أنَّهُ سَيُنْكِرُ ما يُشاهِدُه مِن تَصرُّفاتِه لاختلافِ المَشرَبَينِ؛ لأنّ الأنبياءَ لا يُقرُّونَ المُنكرَ.

(**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**) ليسَ المَقْصُودُ مِنهُ الإخْبارَ؛ بلْ هُو تحذيرٌ مِن الخَضرِ لِمُوسَى، وتنبيهٌ لهُ على ما يَستقبِلُهُ منهُ؛ حتَّى يُقْدِمَ على مُتابَعَتِه على بَصيرةٍ ودُونَ اغْتِرارٍ؛ فمَناطُ التأكيداتِ في جُملَةِ (**إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) إنَّما هو تحقيقُ خُطورةِ أعْمالِه وغَرابَتِها في المُتعارَفِ عليهِ؛ بحيث لا تحتَملُ، ولو كان خَبرًا على أصلِهِ لم يُقْبَلْ فيهِ المُراجَعةُ؛ ولذلكَ (**قَالَ**) مُوسَى (**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا**) وفي هذا أصْلٌ مِن أصولِ التعليمِ أنْ يُنبِّهَ المُعلِّمُ المُتعلِّمَ بِعَوارضِ مَوضُوعاتِ العُلومِ المُلقنَّة لا سيَّما إذا كانتْ في مُعالجَتِها مَشقَّة. وزادَها تأكيداً عُمومُ الصبرِ المنفيِّ؛ لِوقُوعِه نكرةً في سِياقِ النفي؛ فأفادَ هذا التركيبُ نفيَ حُصولِ الصبرِ مِنهُ في المستقبَلِ على آكدِ وَجْهٍ. وزيادةُ "مَعِي" إيماءٌ إلى أنَّهُ سَيَجِدُ مِن أعمالِه ما لا يَجِدُ مِثلَهُ مع غَيرِه؛ فانتفاءُ الصبْرِ على أعمالِه أجدرُ. وجُملةُ (**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**) في مَوضعِ الحالِ مِن اسْمْ "إنَّ" أو مِنْ ضميرِ "تَسْتطِيعُ"؛ فالواو

واو الحالِ وليست واوَ العطفِ، وشأنُ هذه الجُملةِ أنْ لا تُعطَفَ على التي قبلَها؛ لأنَّ بينهُما كمالَ الاتصالِ؛ إذِ الثانيةُ كالعِلَّةِ لِلأُولى. وكيفَ للاستفهامِ الإنكاريِّ في معنى النفيّ؛ أيّ: وأنتَ لا تَصبرُ على ما لمْ تُحِطْ به خُبْرًا. والخُبْرُ بِضَمِّ الخاءِ وسُكونِ الباء هو العِلْمُ، وهو منصوبٌ على أنَّهُ تمييزٌ لِنسْبةِ الإحاطةِ في قولِه (**مَالَمْ تُحِطْ بِهِ**)؛ أيّ: إحاطةً مِن حيثُ العِلْمُ. والإحاطةُ مَجازٌ في التمكُّنِ، تشبيهًا لِقُوَّةِ تمكِّنِ الاتِّصافِ بِتَمكُّنِ الجسمِ المُحيطِ بما أحاطَ بهِ.

وقولُه (**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا**) أبْلَغُ في ثُبوتِ الصبْرِ مِن نَحْوِ "سأصْبِرُ"؛ لأنَّه يدلُّ على حُصولِ صَبْرٍ ظاهرٍ لِرَفيقِه ومَتبُوعِه. وظاهرُ مُتعلَّقُ الصبْرِ هُنا هوَ الصَّبْرُ على ما مِن شأنِه أنْ يُثيرَ الجَزَعَ أو الضَّجَرَ في المُتابَعةِ، ومِن مُشاهَدةِ ما لا يتحمَّلُهُ إدراكُهُ، ومِن تَرقُّبِ بيانِ الأسبابِ والعِلَلِ والمَقاصِدِ.

ولَمَّا كان هذا الصبْرُ الكاملُ يقتضِي طاعةَ الآمِرِ فيما يأمُرُهُ بِهِ عطفَ عليهِ ما يُفيدُ الطاعةَ إبلاغًا في الاتِّسامِ بأكْمَلِ أحوالِ طالبِ العِلْمِ

(**وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**) الجُملَةُ مَعطُوفةٌ على جُملَةِ "سَتَجِدُني"، أو هُوَ مِن عَطفِ الفعلِ على الاسْمِ المُشتقِّ عَطفًا على صابِرًا فيُؤوَّلُ بِمَصدَرِ أيّ وغَيرِ عاصٍ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ أهمَّ ما يتَّسِمُ به طالبُ العِلْمِ هو الصَّبْرُ والطاعةُ لِلمُعلِّمِ، وأكَّدَ ذلكَ بالتعليقِ على مَشيئةِ اللهِ؛ لأنّ الصبْرَ والطاعةَ مِن المُتعَلِّمِ الذي لهُ شيءٌ مِن العِلْمِ أعسرُ مِن صَبْرِ وطاعةِ المُتعلِّمِ الساذَجِ؛ لأنَّ خُلُوَّ ذِهْنِه مِن العِلْمِ لا يُحرِجُهُ مِن مُشاهَدةِ الغَرائبِ؛ إذْ ليسَ في ذِهْنِه مِن المَعارفِ ما يُعارِضُ قَبولَها؛ فالمُتعلِّمُ

الذي لهُ نَصيبٌ مِن العِلْمِ وجاءَ طالِبًا الكمالَ في عُلومِه إذا بَدا لهُ مِن عُلومِ أُستاذِه ما يُخالِفُ ما تقرَّرَ في عِلْمِه يُبادِرُ إلى الاعتِراضِ والمُنازَعةِ؛ وذلكَ قد يُثيرُ النُّفْرَةَ بينَهُ وبينَ أستاذِه؛ فلتَجَنُّبِ ذلك خَشِيَ الخَضرُ أن يَلقَى مِن مُوسَى هذه المُعامَلةَ فقالَ لهُ (**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**). فأكَّدَ لهُ مُوسَى أنَّهُ سَيَصْبرُ ويُطيعُ أمْرَهُ إذا أمَرَهُ.

والتزامُ مُوسَى بِذلكَ مبنيٌّ على ثِقَتِه بِعِصمَةِ مَتْبُوعِه؛ لأنَّ اللهَ أخْبَرَهُ بأنَّهُ آتاهُ عِلْمًا.

والفاءُ في قولِه (**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي**) تفريعٌ على وَعدِ مُوسَى إيَّاهُ بأنَّهُ سَيَجِدُهُ صابِرًا؛ ففَرَّعَ على ذلكَ نَهيهُ عن السؤالِ عن شيءٍ مِمَّا يُشاهِدُه مِن تَصرُّفاتِه حتَّى يُبيِّنَهُ لهُ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، وأكَّدَ النهيَ بِحرفِ التوكيدِ (**فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ**) تحقيقًا لِحُصولِ أكملِ أحوالِ المُتعلِّمِ مع المُعلِّمِ؛ لأنَّ السؤالَ قد يُصادِفُ وقتَ اشتِغالِ المسؤُولِ بإكمالِ عَملِه فتَضيقَ لهُ نَفْسُه؛ فلرُبَّما كان الجوابُ عنهُ بِدُونِ رِضا نَفْسٍ، ورُبَّما خالَطَهُ بعضُ القلقِ فيكونُ الجوابُ غيرَ شافٍ (**حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**) أرادَ الخَضرَ أنْ يتولَّى هو بيانُ أعمالِه في الإبانِ الذي يَراهُ مُناسِبًا لِيكُونَ البيانُ أبسطَ والإقبالُ أبهجَ؛ فيزيدَ الاتِّصالَ بين القرينَين.

والذِّكْرُ هُنا هُو ذِكْرُ اللسانِ. وإحداثُ الذِّكْرِ إنشاؤهُ وإبرازُه، وقرأَ "نافعٌ" (**فَلَا تَسْأَلْنِي**) بالهَمْزِ وفَتْحِ اللامِ وتشديدِ النُّونِ على أنَّهُ مُضارِعُ سألَ المَهمُوز مُقترِنا بنونِ التوكيدِ الخَفيفةِ المُدْغَمةِ في نُونِ الوقايةِ وبإثباتِ ياءِ المُتكلِّم.

وقرأَ "ابنُ عامرٍ" مِثلَهُ؛ لكنْ بِحَذْفِ ياءِ المُتكلِّمِ.

وقرأَ البقيَّة (**تَسألْني**) بالهمْزِ وسُكونِ اللامِ وتَخفيفِ النونِ وأثبتُوا ياءَ المُتكلِّم.

(**فانْطَلَقَا**) الانطلاقُ هو الذَّهابُ والمَشيُ، مُشتقٌّ مِن الإطلاقِ وهو ضِدُّ التقييدِ

(**حَتَّى**) غايةٌ للانطلاقِ؛ أيّ: إلى أنْ رَكِبا في السفينةِ، وهيَ ابتِدائيةٌ؛ ففِي الكلامِ إيجازٌ دلَّ عليهِ قولُه (**إِذَارَكِبَافِي السَّفِينَةِ**) فأصلُ الكلامِ حتَّى استأجَرا سفِينةً رَكِباها، فَلمَّا رَكِبا في السفِينَةِ (**خَرَقَهَا**) إذا ظَرْفٌ للزمانِ الماضي وليستْ مُتضمِّنةً معنى الشرطِ.

وهذا التوقيتُ يُؤذِنُ بِأخْذِه في خَرْقِ السفينَةِ حين رُكُوبِهما، وفي ذلكَ ما يُشيرُ إلى أنَّ الرُّكوبَ فيها كان لأجْلِ خَرْقِها؛ لأنَّ الشيءَ المَقصُودَ يُبادِرُ بِه قاصِدهُ؛ لأنَّهُ يكونُ قَد دَبَّرَهُ وارْتآهُ مِنْ قَبْلُ.

وبُنِيَ نَظْمُ الكلامِ على تقديمِ الظرفِ على عاملِه لِلدلالَةِ على أنَّ الخَرْقَ وَقَعَ بِمُجَرَّدِ الرُّكوبِ في السفينةِ؛ لأنَّ في تقديمِ الظرفِ اهتماماً بِه، فَيَدُلُّ على أنَّ وَقْتَ الرُّكوبِ مَقصُودٌ لإيقاعِ الفِعلِ فيهِ.

والرُّكوبُ هُنا بِمعنَى الدُّخولِ؛ لأنَّهُ رُكوبٌ مَجازيٌّ؛ لِذلِكَ عُدِّيَ بِحَرفِ "في" الظرفيةِ نظيرَ قولِه تعالى (**وقَالَارْكَبُوافِيهَا**)، دُونَ قولِه (**وَالْخَيْلَوَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَلِتَرْكَبُوهَا**). والخَرْقُ الثقْبُ والشَّقُّ، وهو ضِدُّ الالتئامِ. والاستفهامُ (**قَالَ أَخَرَقْتَهَا**) هو للإنكارِ. ومَحلُّ الإنكارِ هو العِلَّةُ بِقَولِه (**لِتُغْرِقَأَهْلَهَا**)؛ لأنَّ العِلَّةَ مُلازِمةٌ لِلفعلِ المُستفْهَمِ عنهُ؛ ولذلكَ تَوجَّهَ أنْ يُغيِّرَ مُوسَى عليهِ السلامُ هذا المُنكَرَ

في ظاهِرِ الأمْرِ. وتأكيدُ إنكارِه بِقَولِه (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**) والإِمْرُ بِكَسْرِ الهمْزةِ هو العظيمُ الفظيعُ؛ لأنَّ المقامَ دالٌّ على شيءٍ ضارٍّ، ومَقامُ الأنبياءِ في تغييرِ المُنكَرِ مَقامُ شِدَّةٍ وصَراحةٍ.

وقرأَ الجُمهورُ "لِتُغْرِقَ" بِمُثنَّاةٍ فوقيَّةٍ مَضمُونُه على الخِطابِ، وقرأه "حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ" (**لِيُغْرِقَ**) بِتَحتيَّةٍ مفتُوحةٍ ورَفْعِ أهلِها على إسنادِ فِعْلِ الغَرَقِ للأهلِ.

(**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) استفهامُ تقريرٍ وتعريضٍ باللومِ على عَدَمِ الوفاءِ بما التزمَ؛ أيّ: أتقرُّ أنِّي قُلْتُ إنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ مَعِيَ صَبْرًا.

ومَعِي ظرفٌ متعلِّقٌ ب "تستطيع"؛ فاستطاعةُ الصبْرِ المَنفيَّة هي التي تكونُ في صُحْبَتِه؛ لأنَّهُ سَيَرَى أُموراً عَجيبةً لا يُدْرَكُ تأويلُها، وحَذْفُ مُتعلَّقِ القولِ تنزيلاً لهُ مَنزلةُ اللازمِ؛ أيّ: ألمْ يَقَعْ مِنِّي قولٌ فيه خِطابٌ لكَ بِعدَمِ الاستطاعةِ.

(**قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ**) اعتذرَ مُوسَى بالنِّسيانِ وكان قَد نَسِيَ التزامَهُ بما غَشِيَ ذِهْنَهُ مِن مُشاهَدةِ ما يُنْكِرُه. والنهي مُستعمَلٌ في التعطُّفِ والتماسِ عَدمِ المُؤاخَذةِ؛ لأنَّهُ قَد يُؤاخِذُه على النِّسيانِ مُؤاخَذةَ مَن لا يَصلُحُ لِلمُصاحَبةِ لِما ينشأُ عن النِّسيانِ من خَطرٍ؛ ولذلكَ بُنِيَ كلامُ مُوسَى على طلبِ عَدمِ المُؤاخَذةِ بِالنِّسيانِ ولمْ يَبنِ على الاعتذارِ بالنِّسيانِ؛ كأنَّه رأى نفْسَه مَحقُوقًا بِالمُؤاخَذةِ فكانَ كلامًا بديعَ النسيجِ في الاعتذارِ.

والمُؤاخَذةُ مُفاعَلةٌ مِن الأخْذِ وهِيَ هُنا لِلمُبالَغةِ؛ لأنَّها مِن جانبٍ واحدٍ؛ كقَولِه تعالى في سُورةِ النحلِ: (**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ**). و"ما" مَصدَرِيَّةٌ؛ أيّ: لا

تُؤاخِذْني بِنِسْياني (**وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**) الإرهاقُ تعديةُ رَهِقَ إذا غَشِيَ ولَحِقَ؛ أيّ: لا تُغْشِني عُسْرًا، وهُو هُنا مَجازٌ في المُعامَلَةِ بِالشِّدَّةِ. والإرهاقُ مُستعارٌ لِلمُعامَلةِ والمُقابَلةِ. والعُسْرُ الشِّدَّةُ وهُو ضِدُّ اليُسْرِ.

والمُرادُ هُنا عُسْرُ المُعامَلَةِ؛ أيّ: عدمَ التسامُحِ مَعهُ فيما فَعلَهُ؛ فهُوَ يَسألُه الإغْضاءَ والصَّفحَ. والأمرُ الشأنُ.

و"مِن" يجوزُ أن تكونَ ابتدائيَّةً؛ فيكونُ المُرادُ بأمْرِه نِسيانَهُ؛ أيّ: لا تجْعَلْ نِسْياني مَنْشأ لإرهاقي عُسْرًا.

ويجوزُ أنْ تكونَ بيانيَّةً فيكونُ المُرادُ بأمْرِه شأنَهُ مَعهُ؛ أيّ: لا تجْعَلْ شأني إرهاقَكَ إيَّايَ عُسْرًا.

ويدلُّ قولُه (**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا**) عن اعتذارِ مُوسَى، وأنَّ الخَضرَ قَد قَبِلَ عُذْرَهُ، فانْطَلَقا مُصْطَحبينَ. والقولُ في (**حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا**) كالقَولِ في (**حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ**) (**فَقَتَلَهُ**) تعقيبٌ لِفعلِ "لَقيا" وتأكيداً لِلمُبادَرةِ المفهُومةِ مِن تقديمِ الظرْفِ؛ فكانتِ المُبادَرةُ بِقَتْلِ الغُلامِ عِندَ لِقائِه أسْرَعَ مِن المُبادَرةِ بِخَرْقِ السفينةِ حينَ رُكوبِها (**قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**) وكلامُ مُوسَى في إنكارِ ذلكَ جَرَى على نَسْقِ كَلامِه في إنكارِ خَرْقِ السفينةِ سِوى أنَّهُ وَصَفَ هذا الفِعلَ بأنَّهُ "نُكُر" بِضَمَّتَينِ وهوَ الذي تُنْكِرُهُ العُقولُ وتَسْتَقْبِحُه؛ فهُو أشدُّ مِنَ الشَّيءِ الإمْرِ؛ لأنَّ هذا فسادٌ حاصِلٌ والآخَرُ ذَريعةُ فسادٍ كما تقدَّمَ.

ووَصَفَ النفْسَ بالزَّاكيةِ؛ لأنَّها نَفْسُ غُلامٍ لمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ، ولمْ يَقْتَرِفْ ذَنْبًا فكان زكيًّا طاهرًا. والزَّكاءُ هو الزِّيادةُ في الخَيرِ.

وقرأَ "نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمْرٍو وأبو جَعفرَ ورُويسٌ عن يعقُوب" (زاكِيةً) بألفٍ بعدَ الزَّاي اسمُ فاعلٍ مِن زَكا، وقرأَ الباقُونَ (زَكِيَّةً) وهُما بمعنىً واحدٍ.

قال "ابنُ عطيَّةَ" النونُ مِن قَولِه (نُكْرًا) هي نِصفُ حُروفِ القُرآنِ، وهذا مُخالِفٌ لقولِ الجُمهورِ: إنَّ نِصْفَ القُرآنِ هو حَرفُ التاءِ مِن قولِه تعالى (وَلْيَتَلَطَّفْ) في السُّورةِ نفسِها.

(قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي) كان جوابُ الخَضرِ هذا على نَسْقِ جَوابِه السابقِ؛ إلاّ أنَّه زادَ ما حُكِيَ في الآيةِ بِكلمةِ (لَكَ) وهو تصريحٌ بمتعلّقِ فعلِ القولِ. وإذْ كان المَقولُ لهُ مَعلُومًا مِن مقامِ الخِطابِ كان في التصريحِ بمُتعلّقِ فِعْلِ القولِ تحقيقٌ لِوُقوعِ القولِ وتثبيتٌ لهُ وتقويةٌ، والداعي لذلكَ أنَّه أهملَ العملَ بهِ.

واللامُ في قولِه (لكَ) هي لامُ التبليغِ، وهيَ تَدْخُلُ على اسْمٍ أو ضَميرِ السامِعِ عندما يكونُ الكلامُ مَعلُومًا مِن السِّياقِ؛ فيكونُ ذِكْرُ اللامِ لِزيادةِ تقويةِ الكلامِ وتبليغِه إلى السامعِ؛ ولذلكَ سُمِّيَتْ لامَ التبليغِ. ألاَ تَرَى أنَّ اللامَ لمْ يَحتَجْ لِذكْرِها في جَوابِه أوَّلَ مَرَّةٍ، فكانَ التقريرُ والإنكارُ مع ذِكْرِ لامِ تعديةِ القولِ أقوى وأشَدَّ.

وهُنا لم يَعتذرْ مُوسَى بِالنِّسيانِ؛ إمَّا لأنَّهُ لم يكنْ نَسِيَ؛ لَكنَّهُ رَجَّحَ تغييرَ المُنكَرِ العظيمِ وهو قَتْلُ النفْسِ بِدُونِ مَوجِبٍ على واجبِ الوفاءِ بالالتزامِ، وإمَّا لأنَّهُ نَسِيَ وأعْرَضَ عن الاعتذارِ بالنِّسيانِ لِسَماجةِ تَكرُّرِ الاعتذارِ بهِ.

وعلى الاحتمالينَ فقَد عَدَلَ إلى المُبادَرةِ باشتِراطِ ما تطمَئِنُّ إليهِ نَفْسُ صاحبِهِ بأنَّه إنْ عادَ لِلسُّؤالِ الذي لا يَبتَغِيه صاحبهُ فقَد جعلَ لهُ أنْ لا يُصاحِبَهُ بَعدَهُ.

وفي الحديثِ الشريفِ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " كانَتِ الأُوْلَى مِن مُوسَى نِسْيانًا والثانيةُ شَرْطًا " فاحتملَ كلامُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الاحتمالَينِ المذْكُورَينِ (**قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا**) أيّ: قَد وَصَلْتُ مِن جِهَتِي إلى العُذْرِ في قَطْعِ الصُّحْبَةِ بِمَكانٍ ينتهي إليه السائرُ على طريقةِ المَكْنِيَّةِ وأثبتَ لهُ البلوغَ تخييلاً، أوْ استعارَ البُلوغَ لِتعيُّنِ حُصولِ الشيءِ بعدَ المُماطلَةِ.

وأنصفَ مُوسَى إذْ جَعَلَ لِصاحِبِهِ العُذْرَ في تَرْكِ مُصاحَبَتِهِ في الثالثةِ تجَنُّبًا لإحْراجِه.

وقرأَ الجُمهورُ (**مِنْ لَدُنِّي**) بتشديدِ النونِ وهيَ قِراءةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على قولِ "ابنِ عَطيَّة"، وقرأَ "نافعٌ وأبو بَكْرٍ وأبو جَعفَرَ" (**مِنْ لَدُنِي**) بتخفيفِ النونِ؛ فَحُذِفَ منهُ نونُ الوقايةِ تخفيفًا.

ونظْمُ قولِه (**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا**) كَنَظْمِ نَظيرَيهِ السابِقَينِ. والاستِطعامُ هو طَلَبُ الطَّعامِ. ومَوقِعُ جُملَةِ (**اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا**) كمَوقِعِ جُملَةِ (**خَرَقَها**) وجُملَةِ (**فَقَتَلَهُ**)؛ فهُو مُتعلّقُ إذا. وإظهارُ لَفْظِ (**أَهْلِها**) دونَ الإتيانِ بِضَميرِهِم بأنْ يُقال (**استَطْعماهُم**) هوَ لِزيادةِ التصريحِ، وتشنيعًا بهِمِ في لُؤمِهِم.

(**فَأَبَوْاأَنْيُضَيِّفوهُمَا**) والضِّيافةُ شائعةٌ في الأُمَمِ من عَهْدِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ، وهيَ من العاداتِ المُتَّبعَةِ عندَ الناسِ؛ فإبايَةُ أهلِ قريةٍ كُلِّهم من الإضافةِ لؤمٌ لتلْكَ القريةِ.

وفي الآيةِ دليلٌ على إباحةِ طلبِ الطعامِ لِعابرِ السبيلِ؛ لأنَّهُ شَرْعُ مَنْ قَبْلَنا، وحَكاهُ القُرآنُ الكريمُ ولمْ يَرِدْ ما يَنْسَخُهُ.

ودلَّ لومُ مُوسَى الخَضرَ على أنَّه أرادَ مُقابَلَةَ حِرمانِهِم لحَقِّ الضِّيافةِ بِحِرمانِهِم من إقامةِ الجِدارِ في قريَتِهِم. وفي الآيةِ الكريمةُ مَشْرُوعِيَّةُ ضِيافَةِ عابرِ السَّبِيلِ إذا نَزَلَ بأحدٍ من الحيِّ أو القَريَةِ.

وفي "المُوطَّأ" أنّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: "مَنْ كانَ يُؤمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جائِزَتُهُ يَومٌ وليلةٌ وضِيافَتُهُ ثلاثةُ أيَّامٍ" أيّ: إطعامٌ وإيواءٌ بما حَضَرَ من غيرِ تَكَلُّفٍ كما يَتكلَّفُ في أوَّلِ ليلةٍ؛ فما كانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ.

(**فوَجَدَافيهَاجِدَارًا**) الجِدارُ الحائِطُ المبنيُّ. ومَعنَى (**يُرِيدُأَنْيَنْقَضَّ**) أشرفَ على الانقِضاضِ؛ أيّ: السُّقوطِ، وعَبَّرَ عن إشرافِه على الانقِضاضِ بإرادةِ الانقِضاضِ على طريقةِ الاستعارةِ المُصرِّحةِ التبعيَّةِ بتشبيهِ قُرْبِ انقِضاضِه بإرادةِ مَنْ يَعْقِلُ فِعْلَ شيءٍ فهُوَ يُوشِكُ أن يَفْعَلَهُ حيثُ أرادَهُ؛ لأنَّ الإرادةَ هي طلبُ النفْسِ حُصولَ شيءٍ ومَيلُ القلبِ إليهِ

(**فأَقَامَهُ**) وإقامةُ الجِدارِ تسويةُ مَيلِه. وكانتْ إقامَتُه بِفِعْلٍ خارقٍ لِلعادةِ؛ بأنْ أشارَ إليهِ بِيَدِهِ كالذي يُسوِّي شيئًا ليِّنًا – كما وَرَدَ في بَعضِ الآثارِ.

(**قال لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**) لَوْمٌ؛ أيّ: كانَ في مُكْنَتِكَ أنْ تجْعلَ لِنَفْسِكَ أجْرًا على إقامةِ الجِدارِ تأخُذهُ مِمَّنْ يمْلِكُهُ مِن أهْلِ القريةِ، ولا تُقيمُه مَجَّانًا؛ لأنَّهُم لم يَقُومُوا بِحقِّ الضِّيافةِ ونحنُ بِحاجةٍ إلى ما نُنْفِقهُ على أنفُسِنا.

وهذا اللومُ يتضمَّنُ سُؤالاً عن سببِ تَرْكِ المُشارَطَةِ على إقامةِ الجِدارِ عندَ الحاجةِ إلى الأجْرِ، وليس هُو لَومًا على مُجرَّدِ إقامتِه مَجَّانًا؛ لأنَّ ذلكَ مِن فِعْلِ الخيرِ وهوَ غيرُ مَلُومٍ.

وقرأَ الجُمهورُ (**لَتَّخَذْتَ**) بهَمزةِ وَصْلٍ بعدَ اللامِ، وبتشديدِ المُثنَّاةِ الفوقيَّةِ على أنَّه ماضِي "اتَّخَذَ".

وقرأَ "ابنُ كثيرٍ وأبو عمْروٍ ويَعقُوب" (**لَتَخِذْتُ**) بِدُونِ هَمزةٍ على أنَّهُ ماضِي (تَخِذَ) أوَّلُه فوقيَّةٌ.

(**قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**) المُشارُ إليهِ بلفظِ (هذا) مُقدَّرٌ في الذِّهْنِ حاصلٌ مِن الموصُوفِ إلى الصِّفةِ، وأصلُ (فِراقُ بيني)؛ أيّ: حاصلٌ بينَنا، أو مِن إضافةِ المَصدرِ العاملِ في الظرفِ إلى مَعمُولِه، كما يُضافُ المَصدرُ إلى مَفعُولِه.

وقَد تقدَّمُ خروجُ (بينَ) عن الظرفيةِ عندَ قَولِه تعالى (**فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا**).

(**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**) الجُملَةُ مُستأنفةٌ استِئنافًا بيانيًّا تقعُ جَوابًا لسؤالٍ يَهْجِسُ في خاطِرِ مُوسَى عليهِ السلامُ عن أسبابِ الأفعالِ التي فعلَها الخَضرُ وسألَهُ عنها مُوسَى؛ فأنَّهُ قَد وَعَدهُ أن يُحْدِثَ لهُ ذِكْرًا ممَّا يَفعلَهُ.

وفي صِلَةِ المَوصُولِ مِن قَولِه ﴿مَالَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ هو تعريضٌ بِاللومِ على الاستِعجالِ وعَدَمِ الصَّبْرِ إلى أنْ يأتيهِ إحداثُ الذِّكْرِ حسبَما وَعدَهُ بِقَولِه ﴿فلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ المَساكِينُ هُنا بِمعنَى ضُعفاءِ المالِ الذينَ يَرتَزِقُونَ مِن جُهْدِهِم، وَيُرَقُّ لهُم؛ لأنَّهُم يَكْدَحُونَ دَهْرَهُم لِتَحصيلِ عَيشِهِم. وكانَ أصحابُ السفينةِ هؤلاءِ عَمَلَةً يأجرونَ سفينَتَهُم لِلحَملِ أو لِلصَّيدِ.

ومعنَى ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ هُو مَلِكُ بلادِهِم كانَ بِالمِرْصادِ مِنهُم ومِن أمثالِهِم يُسَخِّرُ كُلَّ سَفينةٍ يَجِدُها غَصْبًا وبِدُونِ عِوَضٍ لِنَقْلِ ما يَسْتَعْمِلُه المَلِكُ في مَصالِحِه وشَهواتِه. ولو كان ذلكَ لِمَصلَحةٍ عامَّةٍ لِلأمَّةِ لجازَ التسخيرُ مِن كُلٍّ بِحَسْبِ حالِه مِن الاحتياجِ؛ لأنَّ ذلكَ فَرْضَ كِفايَةٍ بِقَدْرِ الحاجةِ وبعدَ تحقُّقِها. ووراءَ اسْمِ الجِهَةِ التي خَلَفَ ظَهْرِ مَن أُضِيفَ إليه ذلك الاسْمُ، وهو ضِدٌّ أمامَ وقُدَّامَ. ويُستعارُ الوراءُ لِحالِ تَعقُّبِ شيءٍ شيئًا، وفَسَّرَ البَعضُ ﴿وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ بِمعنَى أمامَهُم مَلِكٌ. فَتوَهَّمَ بَعضُ اللغويِّينَ أنَّ وَراءَ مِن أسماءِ الأضْدادِ، وأنْكَرَهُ "الفرَّاءُ" وقالَ: لا يجوزُ أنْ تقولَ للذي بينَ يدَيكَ هُو وَراءكَ؛ وإنَّما يَجوزُ ذلك في المَواقِيتِ مِن الليالي فتقولُ وَراءكَ بَرْدٌ شديدٌ، وبينَ يَديكَ بَرْدٌ شَديدٌ على المجَازِ، قال الزَّجَّاجُ: ليسَ هُو مِن الأضْدادِ كما زَعمَ بعضُ أهلِ اللغَةِ.

ومعنَى (**يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**) أيّ: صالحةً بِقَرينةِ قَولِه (**فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا**) . وقَد ذَكَّرُوا في تعيينِ هذا المَلِكِ وسَبَبِ أخْذِهِ لِلسُّفُنِ قَصَصًا وأقوالاً لم يَثْبُتْ شَيءٍ مِنها بِعَينِه ولا يتعلَّقُ بِهِ غَرَضٌ في مَقامِ العِبْرَةِ.

وجُملَةُ (**فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا**) مُتفرِّعةٌ على كُلٍّ مِن جُمْلتَي (**فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ**)، (**وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ**)؛ فكانَ حَقُّها التأخيرَ عن كِلْتا الجُمْلَتَينِ بِحَسْبِ الظاهِرِ؛ ولَكِنَّها قدَّمَتْ خِلافًا لِمُقتَضَى الظاهِرِ لِقَصْدِ الاهتمامِ والعنايةِ بإرادةِ إعابةِ السفينةِ؛ حيثُ كان عَمَلاً ظاهِرُهُ الإنكارُ وحقيقتُه الصَّلاحُ زِيادةً في تَشْويقِ مُوسَى إلى عِلْمِ تأويلِه؛ لأنَّ كَونَ السفينةِ لِمَساكِينَ مِمَّا يَزيدُ السامِعَ تعجُّبًا في الإقدامِ على خَرْقِها.

والمعنَى: فأرَدْتُ أنْ أعيبَها وقَد فَعَلْتُ. ولمْ يَقُلْ فَعِبْتُها لِيَدُلَّ على أنَّ فِعْلَهُ وَقعَ عن قَصْدٍ وتأمُّلٍ. وقَد تُطلَقُ الإرادةُ على القَصْدِ أيضًا. وفي لسانِ العَرَبِ عَزْو ذلكَ إلى سِيبَويه.

وتَصرُّفُ الخَضرُ في أمرِ السفينةِ هو تَصرُّفُ رَعي المَصلَحةِ الخاصَّةِ بإذنٍ مِن اللهِ؛ إذْ كانَ عالِمًا بِحالِ المَلِكِ، أوْ أنَّ اللهَ أعْلَمَهُ بِوُجُودِهِ وَقْتَئِذٍ. فَتَصرُّفُ الخَضرِ قائمٌ مَقامَ تَصرُّفِ المَرءِ في مالِه بإتلافِ بَعْضِه لِسلامةِ الباقي. فتَصرُّفُه هذا في الظاهِرِ إفسادٌ وفي الواقعِ إصلاحٌ؛ لأنَّهُ مِن ارتكابِ أخفِّ الضَّرَرينِ، وهذا أمرٌ خفيٌّ لم يَطَّلِعْ عليهِ إلاّ الخَضرُ لِذلكَ أنْكَرَهُ مُوسَى.

(**وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا**) وأمَّا تَصرُّفُهُ في قَتْلِ الغُلامِ فتَصَرُّفٌ بِوحْيٍ مِن اللهِ جارٍ على قَطْعِ فَسادٍ خاصٍ عَلِمَهُ اللهُ وأعلمَ بِهِ

الخَضرَ بالوحْي وليسَ مِن مقامِ التشريعِ؛ وذلكَ أنَّ اللهَ عَلِمَ مِن تركيبِ عَقْلِ الغُلامِ وتفكيرِه أنَّهُ عَقْلٌ شاذٌّ وفِكْرٌ مُنحَرِفٌ طُبِعَ عليهِ وسَوفَ ينشأُ طاغيًا كافِرًا (**فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**) أيّ: أرادَ اللهُ اللطفَ بأبَويه بِحِفْظِ إيمانِهما وسَلامةِ العالَمِ مِن هذا الطاغي لُطفًا أرادَهُ اللهُ خارِقًا لِلعادةِ جاريًا على مُقتضَى سَبق عِلْمِه، وهو مَصلَحةٌ خاصَّةٌ فيها حِفظُ الدِّينِ، ومَصلَحةٌ عامَّةٌ؛ لأنَّهُ حقٌّ للهِ تعالى فهُو كَحُكْمِ قتْلِ المُرتَّدِ. والزكاةُ هي الطَّهارةُ، مُراعاةً لِقَولِ مُوسَى (**أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً**). والرُحْمُ بِضَمِّ الراءِ وسُكونِ الحاءِ هو نظيرُ الكُثْرِ لِلكَثْرَةِ. والخَشْيَةُ هيَ تَوقُّعُ ذلكَ لو لمْ يتداركَ بِقَتْلِه.

وضَميرا الجماعةِ في قولِه (**فَخَشِينا**) وقولِه (**فأرَدْنا**) عائِدانِ إلى المُتكلِّمِ الواحدِ بإظهارِ أنَّهُ مُشارِكٌ لِغَيرِه في الفِعلِ. وهذا الاستعمالُ يكونُ مِن التواضُعِ لا مِن التعاظُمِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ الإعلامِ بأنَّ اللهَ أطلَعَهُ على ذلكَ وأمَرَهُ، فَناسَبَهُ التواضُعُ فقالَ (**فَخَشِينا...فأرَدْنا**)، ولم يَقُلْ مِثْلَهُ عِندَما قال (**فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا**)؛ لأنَّ سببَ الإعابةِ إدراكُه لِمَن لهُ عِلْمٌ بِحالِ تلك الأصْقاعِ. وقرأَ الجُمهورُ (**أَنْ يُبْدِلَهُمَا**) بِفتْحِ المُوحَّدةِ وتشديدِ الدالِ من التبديلِ، وقرأهُ "ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وعاصِمٌ وحَمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ" بِسكُونِ المُوحَّدةِ وتخفيفِ الدالِ من الإبْدالِ.

(**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا**) وأمَّا قضيَّةُ الجِدارِ؛ فالخَضرُ تَصرَّفَ في شأنِها عن إرادةِ اللهِ وهيَ اللطْفُ بِاليتيمَينِ جَزاءً لأبيهِما على

صلاحِه؛ إذْ عَلِمَ اللهُ أنَّ إيَّاهُما كان يَهمُّه أمرُ عَيشِهِما بَعدَهُ، وكانَ قد أُودِعَ تحْتَ الجِدارِ مالاً. ولَعلَّهُ سألَ اللهَ أنْ يُلْهِمَ وَلَدَيهِ عِندَ بُلُوغِ أشُدِّهِما أنْ يَبْحثا عَن مَدفنِ الكَنْزِ تحتَ الجِدارِ بِقَصْدٍ أو بِمُصادَفةٍ؛ فلو سقطَ الجِدارُ قَبْلَ بُلُوغِهِما لَتناولَتِ الأيدي مَكانَهُ بِالحَفْرِ ونَحْوِه فَعثَرَ عليهِ عاثِرٌ؛ فَذلِكَ أيضًا لُطْفٌ خارقٌ لِلعادَةِ.

وقَد أسندَ الإرادةَ في قِصَّةِ الجِدارِ إلى اللهِ تعالى دُونَ القِصَّتَينِ السابِقتَينِ؛ لأنَّ العملَ فيهِما هو دَفْعُ فَسادٍ عن الناسِ بِخلافِ قِصَّةِ الجِدارِ؛ وتِلكَ كرامةٌ مِن اللهِ لأبي الغُلامَينِ.

وقَولهُ (**رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**) تصريحٌ بِما يُزيلُ إنكارَ مُوسَى عليهِ تصرُّفاتِه تلكَ بِأنَّها رَحمةٌ ومَصْلَحةٌ، فلا إنكارَ فيها بعدَ مَعرِفَةِ تأويلِها. ثُمَّ زادَ بأنَّهُ فَعلَها عن وَحْيٍ مِن اللهِ؛ لأنَّهُ لَمَّا قالَ (**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**) عَلِمَ مُوسَى أنَّ ذلكَ بِأمْرٍ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّ النبيَّ إنَّما يَتصرَّفُ عن اجتهادٍ أو عنْ وَحْيٍ، فلمَّا نفَى أنْ يكونَ فِعلُه ذلكَ عن أمْرِ نَفْسِه تعيَّنَ أنَّه عن أمْرِ اللهِ تعالى. وإنَّما أُوثِرَ نفيُ كَونِ فِعلِه عن أمْرِ نَفْسِه تكملَةً لِكَشْفِ حَيْرَةِ مُوسَى وإنكارِه؛ لأنَّه لَمَّا أنكرَ عليهِ فَعلاتِه الثلاثَ كان يُؤيِّدُ إنكارَه بما يقتضِي أنَّه تصرَّفَ عن خطأٍ.

وانتصبَ رَحْمَةً على المفعُولِ لأجْلِهِ فَيُنازِعُه كُلّ (مَن أرَدْتُ، وأرَدْنا، وأرادَ رَبُّكَ).

وجُملَةُ (**ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**) فَذْلَكَةٌ لِلجُمَلِ التي قبْلَها ابتداءً مِن قولِه (**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ**)؛ فالإشارةُ بِذلِكَ إلى ما ذُكِرَ في الكلامِ السابقِ وهوَ تلخيصٌ لِلمَقْصُودِ.

وتَسْطِعْ مُضارِعُ اسْطاعَ بمعنَى اسْتطاعَ، وحَذْفُ تاءِ الاستِفعالِ تخفيفًا لِقُرْبِها مِن مَخْرجِ الطاءِ. والمُخالَفةُ بينَهُ وبينَ قولِه (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) هي لِلتفنُّنِ تجَنُّبًا لإعادةِ لَفْظٍ بِعَينِه مع وُجودِ مُرادِفِه.

وابتُدِئبأ شْهرِهِما استِعمالاً وَجِيءَ بالثانيةِ بالفعلِ المُخَفَّفِ؛ لأنّ التخفيفَ أوْلى بِه؛ لأنَّه إذا كَرَّرَ تَسْتطِعْ يَحصلُ مِن تكريرِها ثِقَلٌ، وأكَّدَ المَوصُولَ الأوَّلَ الواقِعَ في قولِه (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) تأكيدًا للتعريضِ باللَّومِ على عَدَمِ الصَّبْرِ.

واعلمْ أنَّ قِصَّةَ مُوسَى والخَضرِ قد اتَّخَذَتْها طوائِفُ مِن أهلِ النِّحَلِ الإسلاميَّةِ أصلاً بَنَوا عليهِ قواعِدَ مَوهُومةً؛ فَمِنها:

أنَّ الخَضرَ لَمْ يَكُنْ نبيًّا؛ وإنَّما كان عَبْدًا صالحًا، وأنَّ العِلْمَ الذي أُوتيَهُ ليسَ وَحْيًا ولَكنَّهُ إلهامٌ، وأنَّ الذي تصرَّفَهُ في المَوجُوداتِ أصلٌ لإثباتِ العُلومِ الباطنيَّةِ، وأنَّ اللهَ مَنحَهُ البقاءَ إلى انتهاءِ الدُّنيا؛ لِيكُونَ مَرْجِعًا لِتلقِّي العُلومِ الباطنيَّةِ، وأنَّهُ يظهرُ لأهْلِ المَراتبِ العُليا مِن الأولياءِ فَيُفِيدُهُم مِن عِلْمِه ما هُمْ أهْلٌ لِتلقِّيه. وبَنَوا على ذلكَ أنَّ الإلهامَ ضَرْبٌ مِن ضُروبِ الوحي، وسَمَّوهُ "الوحيَ الإلهاميّ"، وأنَّهُ يجيءُ على لِسانِ مَلَكِ الإلهامِ.

وقَد فصَّلَ ذلكَ الشيخُ مُحْيِيُ الدِّينِ ابْنُ العربيِّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى في كتابِه "الفُتوحاتِ المَكِّيَّةِ"، وبيَّنَ الفرقَ بينَه وبينَ وحْيِ الأنبياءِ بِفُروقٍ وعلاماتٍ، وجَزَمَ بأنَّ هذا الوحْيَ الإلهاميَّ لا يكونُ مُخالِفًا لِلشَّريعةِ، وأطالَ في ذلكَ ولا يَخْلُو ما قالهُ مِن غُموضٍ ورُموزٍ.

وقد انتصب علماءُ الكلامِ وأصولِ الفِقْهِ لإبطالِ كَونِ ما يُسمَّى بالإلهامِ حُجَّةً؛ لِعَدَمِ الثقةِ بِخَواطِرِ مَن ليسَ مَعصُومًا، ولِتفاوُتِ مَراتبِ الكَشْفِ عِندَهُم. وقَد تَعرَّضَ لها النَّسْفيُّ في عقائِده، وكُلُّ ما قالَهُ النسفيُّ في ذلك حَقٌّ، ولا يُقامُ التشريعُ على أُصولٍ مَوهُومةٍ لا تنضَبِطُ.

والأظْهرُ: أنَّ الخَضرَ كان نبيًّا مُوحَى إليهِ لِقَولِه (**وَمَافعَلْتُهُعَنْأَمْرِي**)، وأنَّهُ قَد انقضَى خَبرُه بعدَ تلكَ الأحوالِ التي قُصّتْ في هذهِ السُّورةِ، وأنَّه قَد لَحِقَهُ الموتُ الذي يلحقُ البَشرَ في أقصَى غايةٍ من الأجَلِ يُمْكِنُ أن تُفْرَضَ، وأنْ يحملَ ما يُعزَى إليه مِن بَعضِ الصُّوفيَّةِ المَوسُومِينَ بِالصِّدْقِ أنَّهُ مَحوكٌ على نَسْجِ الرَّمْزِ المُعتادِ لدَيهِم، أو على غِشاوَةِ الخَيالِ التي قَد تخيَّمَ عليهِم؛ فكُونُوا على حَذَرٍ مِّمَّنْ يقولُ: أخبَرني الخَضرُ.(١)

خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ

قولُه تعالى (**وَإِذْقَالَمُوسَىلِفَتَاهُ**) أيّ: اذْكُرْ يا مُحمَّدُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلّمَ وَقْتَ أنْ قالَ مُوسَى لِفَتاهُ، وفَتَى مُوسَى هُوَ خادِمُهُ "يُوشَع بنُ نُونٍ" مِن نَسْلِ يُوسُفَ عليهِ السلامُ، وكان يتبعُهُ ويَخدُمُه لِيَتعلَّمَ مِنهُ. فما حِكايةُ مُوسَى مع فَتاهُ؟ وما مُناسَبتُها؟

١) التحرير والتنوير (ج١٥/ص٣٥٨- ج١٦/ص١٦).

مُناسَبةُ قِصَّةِ مُوسَى هُنا أنّ كفَّارَ مَكَّةَ بَعثُوا لِيَهودِ المَدينةِ يَسْألونَهُم عنِ خَبرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلّمَ؛ لأنَّهُم أهلُ كتابٍ وأعلمُ بِالسَّماءِ؛ فأرادُوا رأيهُم في مُحمَّدٍ أهُوَ مُحِقٌّ أمْ لا؟

فقالَ اليهودُ لِوفْدِ مكَّةَ: اسْألُوهُ عنْ ثلاثةِ أشياءَ؛ فإنْ أجابَكُمْ فَهُوَ نبيٌّ.

اسْألُوهُ عن الفِتْيَةِ الذينَ ذَهَبُوا في الدَّهْرِ، والرَّجُلِ الطَّوَّافِ الذي طافَ البِلادَ، وعنِ الرُّوحِ. فمَا كانَ مِنْهُم إلَّا أنْ سألُوا رَسُولَ اللهِ هذه الأسئلَةَ، فقالَ لهُمْ: في الغَدِ أُجِيبكُمْ.

إذنْ: إجابةُ هذه الأسئلةِ ليستْ عِندَهُ، وهَذهِ تُحسَبُ لهُ لا عليهِ؛ فلَو كانَ مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يَضرِبُ الكلامَ هكذا دونَ عِلْمٍ لأجابَهُم؛ لَكِنَّهُ سَكَتَ إلى أنْ يأتيَ الجوابُ مِن اللهِ تعالى، وهذا مِن أدبِه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مع رَبِّهِ الذي أدَّبَهُ فأحْسَنَ تأديبَهُ.

ومَرَّتْ خَمسةَ عَشَرَ يومًا دُونَ أن يُوحَى لِرَسُولِ اللهِ في ذلكَ شَيءٌ؛ حتَّى شَقَّ الأمرُ عليهِ، وفَرِحَ الكفَّارُ والمُنافِقُونَ؛ لأنَّهُم وَجَدُوا على رَسُولِ اللهِ مأخَذًا فانْتَهَزُوا هذهِ الفُرْصَةَ لِيُنَدِّدُوا بِرَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ.

إنَّما أدَبُ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ لِرَسُولِه المُصطفَى فوقَ كُلِّ شَيءٍ؛ لِيُبيِّنَ لهُم أنَّ رَسُولَ اللهِ لنْ يتكلَّمَ في هذهِ المسألةِ إلَّا بِوَحيٍ مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنَّهُ لا يَنْطِقُ عنِ الهَوى ولا يَصدُرُ عن رأيهِ. ولو كانَ لِهَؤلاءِ القومِ عُقولٌ لَفَهِمُوا أنَّ البُطْءَ في هذهِ المَسألةِ دليلُ صِدْقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لِذلكَ جاءتْ قِصَّةُ مُوسَى هُنا لِتَرُدَّ على مُهاتَراتِ

القومِ، وتُبيِّنَ لهُم أنَّ النبيَّ لا يَعلَمُ كُلَّ شيءٍ، وهل المَفْرُوضُ فيهِ أنْ يُجيبَكُمْ عنْ كُلِّ شيءٍ؟ وهل يَقْدَحُ في مكانتِه أنَّهُ لا يَعرِفُ مسألةً ما؟

جاءتْ هذه الآياتُ لِتَقُولَ لِيَهودَ ومَنْ لَفَّ لَفَّهُم مِنْ كُفَّارِ مكَّةَ أنتمْ مُتعصِّبُونَ لِمُوسَى وللتوراةِ ولليهوديةِ، وها هُو مُوسَى يتعلَّمُ ليسَ مِن اللهِ تعالى؛ بل يتعلَّمُ مِن عَبْدٍ مِثْلِه، ويسيرُ تابعًا لهُ طَلَبًا لِلعلْمِ. جاءتِ الآياتُ لِتقُولَ لهُم (يا مَنْ لَقَّنْتُمْ كُفَّارَ مَكَّةَ هذهِ الأسئلةَ وأظْهَرْتُمُ الشماتَةِ بِمُحمَّدٍ حينما أبْطأَ عليهِ الوحيُ، اعلَمُوا أنَّ إبْطاءَ الوحْيِ لِتَعْلَمُوا أنَّ مُحمَّدًا لا يَقولُ شيئًا مِنْ عِنْدِ نَفْسِه؛ فكان مِن الواجبِ أنْ تلفِتَكُمْ هذهِ المسألةُ إلى صِدْقِ مُحمَّدٍ وأمانتِه، وما هُوَ على الغَيْبِ بِضَنِينٍ.

وسَببُ قِصَّةِ مُوسَى عليهِ السلامُ أنَّهُ سألَ اللهَ، وكانَ لهُ دَلالٌ على رَبِّه: (**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**). والذي أطمَعَهُ في هذا المَطلبَ أنَّ اللهَ كلَّمَهُ: (**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسَى**) فأطالَ مُوسَى الكلامَ مع رَبِّه، ومَنْ الذي يُكَلِّمُهُ اللهُ ولا يُطِيلُ أمَدَ الأُنْسِ بِكلامِ اللهِ؟ لِذلكَ قالَ مُوسَى: (**هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**). وهكَذا أطالَ مُوسَى مُدَّةَ الأُنْسِ باللهِ والحَديثِ مَعهُ سُبْحانَهُ؛ لِذلِكَ سألهُ يا رَبِّأيُوجَدُ في الأرضِ أعْلَمُ مِنِّي؟

فأجابَهُ رَبُّهُ تبارَكَ وتعالى: نعمْ؛ في الأرْضِ مَنْ هُوَ أعْلَمُ مِنْكَ. فاذْهَبْ إلى مَجْمَعِ البَحْرَينِ، وهُناكَ سَتَجِدُ عَبْدًا مِن عَبيدي هُوَ أعْلَمُ مِنْكَ.

فأخَذَ مُوسَى فَتاهُ وذَهَبَ إلى مَجْمَعِ البَحْرَينِ. وقَد وَردَ في حديثِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ خَطَبَ مَرَّةً فَسُئِلَ: مَنْ أعْلَمُ؟ فقالَ: أنا يعني

مِن البَشَرِ – فأخْبَرَهُ اللهُ تعالى أنَّ في الأرْضِ مَنْ هُوَ أعْلَمُ مِنْكَ؛ وذلكَ حتَّى لا يَغتَرَّ مُوسَى عليهِ السلامُ بِما عَلَّمَهُ اللهُ.

(**لاأَبْرَحُ**) أيّ: لا أتْرُكُ، والبَعضُ يَظُنُّ أنْ (**لاأبْرَحُ**) تعني: لا أتْرُكُ مَكاني الذي أنا فيهِ؛ لكنَّها تعني: لا أتركُ ما أنا بِصَدَدِه؛ فإنْ كُنْتُ قاعِداً لا أتْرُكُ القُعودَ، وإنْ كُنْتُ ماشِيًا لا أتْرُكُ المَشْي، وقَد قالَ مُوسَى عليهِ السلامُ هذا القولَ وهو يبتغي بينَ البَحرَينِ ويَسيرُ مُتَّجِهًا إليهِ؛ فيكونُ المعنى: لا أتركُ السيرَ إلى هذا المكانِ حتَّى أبْلُغَ مَجْمَعَ البَحرَينِ.

وقَد وَرَدتْ هذهِ الكلِمةُ في قولِه تعالى في قِصَّةِ يُوسُفَ عليهِ السلامُ: (**فَلَنْأَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىيَأْذَنَلِيأَبِي**) قالَها كبيرُهُم بَعْدَ أنْ أخَذَ يُوسُفُ أخاهُ بِنْيامِينَ ومَنعَهُ من الذهابِ مَعهُم؛ فهُنا استَحَى الأخُ الأكبَرُ مِن مُواجَهةِ أبيهِ الذي أخَذَ عليهِم العهدَ والمِيثاقَ أنْ يأتُوا بهِ ويُعيدُوهُ إليهِ.

(**حَتَّىأَبْلُغَمَجْمَعَالْبَحرَينِ**) أيّ: مَوضِعَ التقائِهما؛ بحيثُ يَصيرانَ بَحْرًا واحِداً، كما يلتقِي – مَثلاً – دِجْلَةُ والفُراتُ في شَطِّ العَرَبِ

(**أَوْأَمْضِيَحُقُبًا**) الحُقُبُ جَمْعُ حِقْبَةٍ وهي الفَتْرَةُ الطويلةُ مِن الزَّمنِ، وقَد قدَّرُوها بِسَبْعِينَ أو ثمانِينَ سَنَةٍ، فإذا كان أقلَّ الجمعِ ثلاثةَ؛ فمَعنَى ذلكَ: أنْ يسيرَ مُوسَى عليهِ السلامُ مائتَينِ وعَشرة سِنينَ. والمَعنى: لا أتركُ السيرَ إلى هذا المكانَ ولَوْ سِرْتُ مائتينِ وعَشْرة سنينَ؛ لأنَّهُ عليهِ السلامُ كان مَشُوقًا إلى رُؤيةِ ذلكَ الرَّجُلِ الأعلَم مِنهُ،

كيف لا وهو النبيُّ الرَّسُولُ الذي أوْحَى اللهُ إليهِ وأخْبَرَهُ أنَّ عِلْمَ هذا الرَّجُلِ هُوَ عِلْمٌ مِنَ اللهِ لا مِنَ البَشَرِ.

ثمَّ يقولُ الحقُّ سُبْحانَه (**فَلَمَّا بَلَغَا**) أيّ: مُوسَى وفَتاهُ (**مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا**) أيّ: مَجْمَعَ البَحْرَينِ (**نَسِيَا حُوتَهُمَا**) أيّ: حَدَثَ النِّسْيانُ مِنهُما مَعًا، وإنْ كانَ حَمْلُ الحُوتِ مَنُوطًا بِفتَى مُوسَى وقَد نَسِيهُ؛ فكانَ على مُوسَى أنْ يُذكِّرَهُ بهِ؛ فَرَئِيسُ القومِ لا بُدَّ أنْ يَتنَبَّهَ لِكُلِّ جُزئِيَّةٍ مِن جُزئيَّاتِ الرَّكْبِ،

وكانتِ العادةُ أنْ يكونَ هُوَ آخرَ المُبارِحينَ لِلمَكانِ لِيَتفقَّدَهُ ويَنظُرَ لَعَلَّ واحِداً نَسِيَ شيئًا،

إذنْ: كان على مُوسَى أنْ يَعقبَ ساعةَ قِيامِهِم لِمُتابَعةِ السَّيرِ، ويُذكِّر فَتاهُ بِما مَعهُم مِن لوازمِ الرِّحلَةِ. والحُوتُ نوعٌ مِن السَّمكِ مَعرُوفٌ، وفي بعضِ البلادِ يُطلِقونَ على كُلِّ سَمَكٍ حُوتًا، وقَد أعدُّوهُ للأكْلِ إذا جاعُوا أثناءَ السَّيرِ، وكان الفتَى يَحمِلُهُ وهُوَ مَشْويٌّ في مكتلٍ.

وقولهُ تعالى (**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**) أيّ: خَرَجَ الحُوتُ المَشْويُّ مِن المكْتَلِ وتَسَرَّبَ نَحْوَ البَحْرِ.

والسَّرَبُ مِثْلُ النَّفَقِ أو السِّردابِ أو المُنْحَدَرِ، كما نَقولُ: تَسَرَّبَ الماءُ مِن القِرْبَةِ مَثلاً؛ ذلكَ لأنَّ مُستَوى الماءِ في القِرْبةِ أعلَى فَيَتَسرَّب مِنها، وهذهِ مِن عجائبِ الآياتِ أن يَقْفِزَ الحُوتُ المَشْويُّ، وتَعُودَ لهُ الحياةُ، ويتوجَّهَ نَحْوَ البحرِ؛ لأنَّهُ يعلَمُ أنَّ الماءَ مَسْكنُهُ ومَكانُهُ.

ثمَّ يقولُ الحقُّ سُبْحانَه ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**﴾ أيّ: جاوَزا في سَيرِهما مَجْمَعَ البَحْرَينِ وهُو مكانُ المَوعِد، قال مُوسَى عليهِ السلامُ لِفَتاهُ: أحضِرْ لنا الغَداءَ؛ فَقَدْ تَعِبْنا مِن السَّفَرِ، والنَّصَبُ هو التَّعَبُ، ومَعنَى ذلكَ: أنَّهُما سارا حتَى مَجمَعَ البحرينِ ثُمَّ اسْتراحا، فلمَّا جاوَزا هذا المكانَ بَدا عليهِما الإرهاقُ والتَّعَبُ؛ لِذلِكَ طَلَبَ مُوسَى الطَّعامَ.

وهُنا تَذَكَّرَ الفتَى ما كانَ مِن نِسْيانِ الحُوتِ ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ**﴾ أيّ: أتَذْكُرُ إِذْ لَجَأنا إلى الصَّخْرَةِ عِنْدَ مَجْمَعِ البَحْرَينِ لِنَسْتَرِيحَ ﴿**فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ**﴾ ونُلاحِظُ أنَّهُ قالَ هُنا ﴿نَسِيتُ﴾ وقالَ في الآيةِ السابقةِ ﴿نَسِيَا﴾؛ ذَلِكَ لأنَّ الأُوْلَى إخْبارٌ مِن اللهِ تعالى، والثانيةَ كلامُ فتَى مُوسَى عليهِ السلامُ؛ فكَلامُ اللهِ تبارَكَ وتعالى يَدُلُّنا على أنَّ رَئيسًا مَتبُوعًا لا يتركُ تابِعَهُ لِيَتصرَّفَ في كُلِّ شَيءٍ؛ لأنَّ تابِعَهُ قَد لا يَهمُّهُ أمرُ المَسيرِ، وقَد يَنْشَغِلُ ذِهْنُهُ بِأشْياءَ أُخْرَى تُنسِيهِ ما هُوَ مَنُوطٌ بِهِ مِن أمرِ الرِّحلَةِ.

ثُمَّ يَعتَذِرُ الفتَى عمَّا بَدَرَ مِنهُ مِن نِسْيانِ الحُوتِ ويَقُولُ ﴿**وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ**﴾؛ فالشَّيطانُ هو الذي لَعِبَ بأفكارِهِ وخَواطِرِهِ حتَّى أنساهُ واجِبَهُ وأنساهُ ذِكْرَ الحُوتِ.

وقولهُ تعالى ﴿**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**﴾ أيّ: اتَّخَذَ الحُوتُ طَرِيقَهُ في البحرِ عَجَبًا، في الآيةِ السابقةِ قالَ ﴿**سَرَبًا**﴾ وهذهِ حالُ الحُوتِ، وهُنا يقولُ ﴿**عَجَبًا**﴾؛ لأنَّهُ يحكِي ما حَدَثَ ويتَّعَجَّبُ مِنهُ، وكيفَ أنَّ الحُوتَ المَشويَّ تَدبُّ فيه الحياةُ فَيَقفِزَ مِن

المكتلِ ويتَّجهَ صَوْبَ الماءِ، فهذا حقًّا عَجيبةٌ مِن العجائبِ؛ لأنَّها خَرَجَتْ عنْ المألوفِ (**قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ**) أيّ: قالَ مُوسَى عليهِ السلامُ: ذَلكَ ما كُنَّا نَطْلُبُ؛ فهذا المكانُ الذي فُقِدَ فيهِ الحُوتُ هو المكانُ المُرادُ؛ فكأنَّ الحُوتَ كان أعلمَ بِالمَوعدِ مِن مُوسَى، وهكذا عُرِفَ عُنوانُ المكانِ وهو مَجْمَعُ البَحْرَينِ.

وهذه الصُّورةُ لا تُوجَدُ إلاَّ في مَسْرَحِ بني إسرائيلَ في سَيناءَ؛ فهُناكَ خليجُ العَقَبَةِ وخليجِ السُّويسِ؛ حيث يلتقيانِ في بَحْرٍ واحدٍ عِندَ رأسِ مُحمَّدٍ.

ثُمَّ يقولُ تعالى (**فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا**) أيّ: عادا على أثرِ الأقْدامِ كما يَفْعَلُ قَصَّاصُو الأثرِ، ومَعنَى (**قَصَصًا**)؛ أيّ: بِدِقَّةٍ إلى أنْ وَصلا إلى المكانِ الذي تَسَرَّبَ فيهِ الحُوتُ، وهو المَوعِدُ الذي ضَرَبَهُ اللهُ تعالى لِمُوسَى عليهِ السلامُ حيثُ سَيَجِدُ هناكَ العبدَ الصالِحَ.

ثمَّ يقولُ الحقُّ تباركَ وتعالى (**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا**) سَبَقَ أنْ تَحَدَّثْنا عن العُبوديَّةِ، فإنْ كانتْ للهِ تعالى فهِيَ العِزّ والشَّرَفُ، وإنْ كانتْ لِغَيرِ اللهِ فهِيَ الذُّلُّ والهَوانُ، وقُلْنا إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمْ يأخُذْ حَظْوةَ الإسراءِ والمِعراجِ؛ إلَّا لأنَّهُ عَبْدٌ للهِ، كما قالَ سُبْحانَه: (**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**).

كما أنَّ العُبوديَّةَ للهِ يأخُذُ فيه العبْدُ خَيْرَ سَيِّدِه، أمَّا العُبوديَّةُ لِلبَشَرِ فيأخُذُ السَّيِّدُ خَيْرَ عَبْدِه.

ثُمَّ وَصَفَ الحقُّ سُبْحانَه هذا العبْدُ الصالحُ فقالَ (**آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا**) وقَد تكلَّمَ العُلماءُ الأجلاّءُ في مَعنَى الرَّحمَةِ هُنا فَقالُوا: الرَّحْمَةُ جاءتْ في القرآنِ الكريمِ

بمعنى النبوَّةِ كما في قولِه تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)، فكانَ رَدُّ اللهِ عليهم: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ..) أيّ: النُّبوَّةَ.

ومُطلَقُ الرَّحمَةِ تأتي على يدِ أمينِ الوحْي جبْريلَ عليهِ السلامُ وعلى يَدِ الرُّسُلِ الكرامِ، أمَّا هذه الرَّحمَةُ فَمِنْ عِنْدِنا مُباشَرةً دُونَ واسطةِ المَلَكِ؛ لِذلكَ قالَ تعالى: (آتَيْنَاهُ..نحن، وقال مِّنْ عِندِنَا)؛ ف(الإتيانُ والعِنْدِيَّةُ) مِن اللهِ مُباشَرةً

(وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) أيّ: مِن عِندنا لا بِواسِطَةِ الرُّسُلِ؛ لِذلِكَ يُسمُّونَهُ "العِلْمَ اللدُنيَّ"؛ كأنَّهُ لا حَرَجَ على اللهِ تعالى أنْ يختار عَبْداً من عِبادِه ويُنعِمَ عليهِ بِعِلْمٍ خاصٍّ مِن وَراءِ النُّبوَّةِ.

إذنْ: عَلَينا أنْ نَفْرِقَ بينَ (عِلْمٍ وفُيوضَاتٍ تأتي عن طريقِ الرَّسُولِ وتوجيهاتِه، وعِلْمٍ وفُيوضاتٍ تأتي مِن اللهِ تعالى مُباشَرةً لِمَنِ اختارَهُ مِن عِبادِه)؛ لأنَّ الرَّسُولَ يأتي بأحكامٍ ظاهِريَّةٍ تتعلَّقُ بالتكاليفِ "افْعَلْ كذا ولا تَفْعَلْ كذا"؛ لكِنْ هُناكَ أحكامٌ أُخْرى غيرُ ظاهِريَّةٍ لها عِلَلٌ باطِنَةٌ فوقَ العِلَلِ الظاهِريَّةِ، وهذهِ هي التي اختصَّ اللهُ بها هذا العبدُ الصالِحُ الخَضِرُ كما سمَّاهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. والدليلُ على ذلكَ: أنَّ النبيَّ يأتي بأحكامٍ تُحرِّمُ القتْلَ وتُحرِّمُ إتْلافَ مالِ الآخَرِ؛ فأتَى الخَضِرُ وأتْلَفَ السفينةَ وقتَلَ الغُلامَ، وقَد اعترَضَ مُوسَى عليهِ السَّلامُ على هذهِ الأعمالِ؛ لأنَّهُ لا عِلْمَ لهُ بِعِلَّتِها، ولو أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ عَلِمَ العِلَّةَ في خَرْقِ السفينةِ لَبادَرَ هوَ إلى خَرْقِها.

إذنْ: فِعلْمُ مُوسَى غُيرُ عِلْمِ الخَضرِ؛ لذلكَ قالَ لهُ (**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**). فهَذا عِلْمٌ ليسَ عِنْدَكَ، ف (عِلْمِي مِنْ كِيسِ الوِلايةِ، وعِلْمُكُ مِن كِيسِ الرُّسُلِ)، وهُما في الحقيقةِ لا يتعارَضانِ، وإنْ كانَ لِعِلْمِ الوِلايةِ عِلَلٌ باطِنَةٌ، ولِعِلْمِ الرِّسالةِ عِلَلٌ ظاهِرةٌ.

ثُمَّ يقولُ تعالى (**قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**) كأنَّ مُوسَى عليهِ السَّلامُ يُعلِّمُنا أدبَ تلقّي العِلْمِ وأدبَ التلميذِ معَ مُعلِّمِه؛ فمَع أنَّ اللهَ تعالى أمرَهُ أنْ يتبعَ الخَضرَ، فَلَمْ يَقُلْ لهُ "إنَّ اللهَ أمَرَني أنْ أتبعكَ؛ بلْ تلطَّفَ مَعهُ واسْتَسْمَحَهُ بهذا الأسلوبِ (**هَلْ أَتَّبِعُكَ..**).

والرُّشْدُ هو حُسْنُ التَّصَرُّفِ في الأشياءِ، وسَدادُ المَسلَكِ في عِلَّةِ ما أنتَ بِصَدَدِه، وسَبقَ أنْ قُلْنا: إنَّ الرُّشْدَ يكونُ في سِنِّ البُلوغِ؛ لكنْ لا يَعني هذا أنَّ كُلَّ مَنْ بَلَغَ يكونُ راشِدًا؛ فقَد يكونُ الإنسانُ بالِغًا وغَيرَ راشدٍ، وقد يكونُ سفيهًا؛ فالرُّشْدُ الذي طَلَبَهُ مُوسَى مِن العَبْدِ الصَّالِح هو سَدادُ التصرُّفِ والحِكْمَةُ في تناولِ الأشياءِ؛ لكنْ هلْ يعني ذلكَ أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ لمْ يَكُنْ راشِدًا؟ لا؛

بلْ كان راشِدًا في مَذْهَبِه فهُوَ رَسُولٌ راشِدٌ في تبليغِ الأحكامِ الظاهِريَّة.

أمَّا الرُّشْدُ الذي طَلَبَهُ فهُو الرُّشْدُ في مَذهَبِ العبْدِ الصالِح، وقَد دلَّ هذا على أنَّهُ طلبَ شيئًا لمْ يَكُنْ مَعلُومًا لهُ، وهذا لا يَقْدَحُ في مَكانةِ النبوَّةِ؛ لأنَّ الحقَّ سُبحانَهُ وتعالى قالَ: (**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**).

وقالَ لِلنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**)، وفي ذلك يقولُ الشاعِرُ:

كُلّما ازْدَدْتُ عُلومًا زِدْتُ إيقَانًا بِجَهْلِي

لأنَّ معنَى أنَّهُ ازدادَ عِلْمًا اليومَ أنَّهُ كانَ ناقِصًا بالأمْسِ، وكذلكَ هو ناقِصٌ اليومَ لِيَعْلَمَ غَدًا.

والإنسانُ حِينما يكونُ واسِعَ الأُفقِ مُحِبًّا لِلعِلْمِ تَراهُ كُلَّما عَلِمَ قضيَّةً اشتاقَ لِغَيرِها؛ فهُو في نَهَمٍ دائِمٍ لِلعِلْمِ لا يشبعُ مِنهُ، كما قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " مَنْهُومانِ لا يَشْبَعانِ: طالِبُ عِلْمٍ، وطالِبُ مالٍ ".

والشاعِرُ تنبَّهَ لِنَفْسِه حينما دَعَتْهُ إلى الغُرورِ والكِبْرياءِ والزَّهْوِ بِما لَدَيهِ مِن عِلْمٍ قليلٍ وكانَ مُتيقِّظًا لِخداعِها فقالَ:

قالتِ النَّفْسُ قَدْ عَلِمْتُ كَثيرًا قُلْتُ هَذَا الكثيرُ نَزْعٌ يَسيرُ

ثُمَّ يَقُولُ الحَقُّ سُبْحانَه (**قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) هُنا يبدأُ العبْدُ الصالِحُ يُمْلِي شُرُوطَ هذهِ الصُّحْبَةِ، ويُوضِّحُ لِمُوسَى عليهِ السلامُ طبيعةَ عِلْمِهِ ومَذْهَبِه، فَمَذْهَبُكَ يا مُوسَى غَيرُ مَذْهَبي، وعِلْمِي مِنْ كِيسٍ غَيرِ كِيسِكَ، وسَوفَ تَرَى مِنِّي تَصرُّفاتٍ لِنْ تَصْبِرَ عليها؛ لأنَّهُ لا عِلْمَ لَكَ بِبَواطِنها، وكأنَّهُ يلتَمِسُ له عُذْرًا على عَدَمِ صَبْرِهِ مَعهُ؛ لذلكَ قالَ (**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**) فلا تَحْزَنْ لأنِّي قُلْتُ إنَّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؛ لأنَّ التصرُّفاتِ التي سَتَعْتَرِضُ عليها ليسَ لكَ خُبْرٌ بِها، وكيفَ تَصبِرُ على شَيءٍ لا عِلْمَ لكَ بِه؟

ونُلاحِظُ في هذا الحديثِ الذي جَرَى بينَ مُوسَى والخَضرِ عليهِما السلامُ أدبَ الحِوارِ واختلافَ الرأي بينَ طَريقتَينِ: طريقةِ الأحكامِ الظاهِريَّة، وطريقةِ ما خَلْفَ الأحكامِ الظاهريَّة، وأنَّ كُلاًّ مِنهُما يَقْبَلُ رأيَ الآخَرِ ويَحْتَرِمُهُ ولا يَعْتَرِضُ عليهِ أو يُنْكِرُهُ كما

نرى أصحابَ المَذاهبِ المُختلفةِ يُنكِرُ بَعضُهُم على بعضٍ؛ بلْ ويُكفِّرُ بَعضُهُم بَعضًا. فإذا ما رأَوْا مَثلاً عَبْدًا مِنْ عبادِ اللهِ اختارَهُ اللهُ بِشَيءٍ مِن الفُيوضاتِ، وكانتْ له طريقةٌ وأتْباعٌ نَرَى مَن يُنْكِرُ عليهِ ذلكَ، وربَّما وَصَلَ الأمرُ إلى الشتائمِ والتجريحِ؛ بل والتكفيرِ.

لقَد تجلَّى في قولِ الخَضرِ (**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**) مَظهرٌ مِن مظاهرِ أدبِ المُعلِّم مع المُتعلِّم؛ حيث احترمَ رأيَهُ والتمسَ له العُذْرَ إنْ اعترَضَ عليهِ؛ فَلِكُلٍّ مِنهُما مَذهَبُه الخاصُّ، ولا يُحْتجُّ بِمَذْهَبٍ على مَذهَبٍ آخَرَ.

فماذا (**قَالَ**) المُتعلِّمُ بعدَ أنْ استمَعَ إلى هذهِ الشُّروطِ (**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا**) أيّ: أنا راضٍ بِشُروطِكَ أيُّها المُعلِّمُ فاطْمَئِنَّ؛ فلنْ أُجادِلُكَ ولنْ أعارِضْكَ في شَيءٍ، وقَدّمَ المَشيئةَ فقالَ (**إن شاء اللَّهُ..**). ليَسْتَمْيلَهُ إليهِ ويُحنّ قلبهُ عليهِ، صَابِرًا على ما تفعلُ مَهما كان (**وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**) وهكذا جَعَلَ نَفْسَهُ مأمُورًا والمُعلِّمَ آمِرًا.

وهذا تأكيدٌ مِن الخَضرِ لِمُوسَى وبيانُ الطريقةِ التي يَجِبُ اتِّباعُها في مُصاحَبَتِه (**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**) أيّ: إنْ اتَّبَعْتَني فلا تَسْألْني عنْ شَيءٍ حتَّى أُخْبِرَكَ أنا، وكأنَّهُ يُعلِّمُهُ أدبَ تناوُلِ العِلْمِ والصَّبْرِ عليهِ، وعَدَمِ العَجَلَةِ لِمَعْرِفةِ كُلِّ أمْرٍ مِن الأُمورِ على حِدَةٍ، وهذا مِن الخَضرِ تأديبٌ وإرشادٌ لِما يقتضِي دوامَ الصُّحْبَةِ، فلو صَبَرَ ودَأبَ لَرأى العَجَبَ؛ لَكِنَّه أكثرَ مِن الاعتِراضِ فتعيَّنَ الفِراقُ والإعْراضُ.

ثُـمَّ يـقولُ الحـقُّ سُـبْحانَـه (**فَـانْـطَلَقَا**) أيّ: سـارا مَـعًا (**حَـتَّـى إِذَا رَكِـبَا فِي السَّـفِينَةِ خَرَقَهَا**) أيّ: حتَّى رَكِبا سفينةً كانت مُعَدَّةً لِنَقْلِ الرُّكَّاب، فما كانَ مِنَ الخَضرِ إلاّ أنْ بادَرَ إلى خَرْقِها وإتلافِها. عِندَها لم يُطِقْ مُوسَى هذا الأمرَ وكَبُرَتْ هذهِ المَسألةُ في نفْسِه فلمْ يَصْبِرْ عليها (**قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**) أيّ: أمْرًا عَجِيبًا أو فظِيعًا، ونَسِيَ مُوسَى ما أخَذَهُ على نَفْسِهِ من طاعةِ العَبْدِ الصالحِ وعَدَمِ عِصيانِه والصَّبْرِ على ما يَرَى مِن تَصرُّفاتِه.

وكأنَّ الحقَّ تباركَ وتعالى يُريدُ أنْ يُعلِّمَنا أنَّ الكلامَ النظريَّ شَيءٌ والعملَ الواقعيَّ شَيءٌ آخَرُ؛ فقَد تَسمَعُ مِن أحَدِهِم قَولاً جميلاً يُعْجِبكَ، فإذا ما جاءَ وَقْتُ العَملِ والتنفيذِ لا تَجِدُ شيئًا؛ لأنَّ الكلامَ قد يُقَالُ في أوَّلِ الأمرِ بِعبارةِ الأريحيَّةِ كمَنْ يقولُ لكَ: أنا رَهْنُ أمْرِكَ ورَقَبَتِي لكَ، فإذا ما أحْوجَكَ الواقعُ إليهِ كُنتَ كالقابِضِ على الماءِ لا تَجِدُ مِنهُ شَيئًا.

ونُلاحِظُ هُنا أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ لم يكتفِ بالاستفهامِ: (**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا**)؛ بلْ تعدَّى إلى اتِّهامِه بأنَّه أتى أمْرًا مُنْكرًا فظِيعًا؛ لأنَّ كلامَ مُوسَى النظريّ شَيءٌ ورُؤيتُه لخَرْقِ السفينةِ وإتْلافِها دُونَ مبرر شَيءٌ آخَرُ؛ ولأنَّ مُوسَى استحضَرَ بالحُكْمِ الشرعيِّ إتلافَ مالِ غيرِه؛ فضْلاً عن إغراقِ رُكَّابِ السفينةِ، فَرأى الأمرَ ضَخْمًا والضَّررَ كبيرًا.

(**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) وهذا دَرْسٌ آخرُ مِن الخَضرِ لِمُوسَى عليهِما السلامُ يَقُولُ: إنَّ كلامي لَكَ كانَ صادِقًا، وقَدْ حَذَّرْتُكَ أنَّكَ لنْ تَصْبِرَ على ما تَرَى

مِنْ تَصرُّفاتي، وها أنتَ تَعترِضُ عليَّ، وقَد اتَّفَقْنا وأخَذْنا العَهْدَ ألَّا تَسْألني عَنْ شَيءٍ حتَّى أُخْبِرَكَ أنا.

(قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) لاحَظَ أنَّ الاعتِداءَ الأوَّلَ مِن الخَضرِ كان على مالٍ أتْلَفَهُ، وهُنا صَعَّدَ الأمْرَ إلى قَتْلِ نَفْسٍ زَكيَّةٍ دُونَ حَقٍّ، فبأيِّ جَريرةٍ يُقتَلُ هذا الغُلامُ الذي لَمْ يَبْلُغْ رُشْدَهُ؟ لذلكَ قال في الأُولى (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)، أمَّا هُنا فقالَ: (لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا)؛ أيّ: مُنكَرًا؛ لأنَّ الجريمَةَ كبيرةٌ والنفْسَ الزكيةَ الطاهِرةَ الصافِيةَ التي لَمْ تُلوِّثْها الذُّنوبُ ومُخالَفةُ التكاليفِ الإلهيَّة.

وكذلك يأتي الرَّدُّ مِن الخَضْرِ مُخالِفًا لِلرَّدِّ الأوَّلِ؛ ففِي المَرَّةِ الأُولى قالَ (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)، كان كلامًا عامًّا، أمَّا هُنا (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) وأكَّدَها بالكلامِ؛ أيّ: قُلْتُ لكَ أنتَ.

ثُمَّ بَعدَ المَرَّةِ الثانيةِ التي يُقاطِعُ فيها مُوسَى مُعلِّمَهُ الخَضرَ يأخُذُ عَهْدًا جَديدًا على نَفْسِهِ (قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا) وهكذا قطعَ مُوسَى عليهِ السلامُ الطريقَ على نَفْسِه، وأعطَى لها فُرصَةً واحِدةً يتمُّ بَعدَها الفِراقُ.

وفي الحديثِ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: "رَحِمَنا اللهُ، ورَحِمَ أخي مُوسَى لو صَبَرَ لَعَرَفْنا الكثيرَ". فهذهِ هي الثالثةُ وليسَ لِمُوسَى عُذْرٌ بعدَ ذلكَ.

ومعنى (**قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا**)؛ أيّ: قَد فَعلْتَ مَعي كُلَّ ما يُمكِنُ فِعلُه، وليسَ لي عُذْرٌ بعدَ ذلكَ.

ثمَّ يقولُ سُبْحانَه (**فانْطَلَقا حتَّى إِذَا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها**) اسْتَطْعَمَ أيّ: طَلَبَ الطَّعامَ، وطلَبُ الطَّعامِ هو أصدقُ أنواعِ السُّؤالِ، فلا يَسألُ الطَّعامَ إلَّا جائِعٌ مُحتاجٌ، فلو سألَ مالاً لَقُلْنا إنَّهُ يَدَّخِرُه؛ إنَّما الطعامُ لا يَعترِضُ عليهِ أحدٌ،

ومَنْعُ الطَّعامِ عن سائلهِ دليلُ بُخْلٍ ولُؤْمٍ مُتأصِّلٍ في الطِّباعِ، وهذا ما حدثَ مِن أهْلِ هذه القريةِ التي مَرّا بها وطلبَا الطعامَ فَمُنعُوهُما.

والمُتأمِّلُ في الآيةِ يَجِدُ أنَّ أُسلوبَ القُرآنِ الكريمِ يُصوِّرُ مَدى بُخْلِ هَؤلاءِ القَومِ ولُؤْمِهِم وسُوءِ طِباعِهم، فلمْ يَقُلْ مَثلاً فأبَوا أنْ يُطْعِمُوهُما؛ بلْ قال (**فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا**) وفَرْقٌ بينَ الإطعامِ والضِّيافةِ؛ أَبَوْا الإطعامَ يعني مَنعُوهُما الطَّعامَ؛ لكنْ أَبَوْا أنْ يُضيِّفُوهُما يعني كلَّ ما يُمكِنُ أنْ يُقدَّمَ لِلضَّيفِ حتَّى مُجَرَّدَ الإيواءِ والاستِقبالِ، وهذا مُنْتَهى ما يُمكِنُ تَصوُّرُهُ مِن لُؤمِ هَؤلاءِ النَّاسِ.

وتلحظُ أيضًا تكرارَ كلمةِ (**أَهْلَ**)، فلمَّا قالَ (**أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ**) فكانَ المقامُ لِلضَّميرِ فيقولُ: "اسْتَطْعَمُوهُم"؛ لكنَّهُ قالَ: (**اسْتَطْعَما أَهْلَها**)؛ لأنَّهُمْ حينَ دَخَلُوا القريةَ هلْ قابلُوا كُلَّ أهْلِها، أمْ قابَلُوا بَعضَهُم الذينَ واجهُوهُم أثناءَ الدُّخُولِ؟

بالطبعِ قابَلُوا بَعضَهُم، أمَّا الاستِطعامُ فكانَ لأهْلِ القريةِ جَميعًا؛ كأنَّهُما مَرّا على كُلِّ بَيتٍ في القريةِ وسألا أهْلَها جَميعًا واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ دُونَ جَدْوى، كأنَّهُم مُجْمِعُونَ على البُخْلِ ولُؤْمِ الطِّباعِ.

ثمَّ يقولُ الحقُّ سُبْحانَه وتعالى (**فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ**) أيّ: لمْ يَلْبَثا بينَ هؤلاءِ اللئامِ حتَّى وَجَدا جِداراً يُريدُ أنْ يَنْقَضَّ، ونحنُ نَعْرِفُ أنَّ الإرادةَ لا تكونُ إلاّ لِلمفكِّرِ العاقِلِ، فإنْ جاءتْ لِغَيرِ العاقلِ فهيَ بمَعنى قَرُبَ؛ أيّ: جِداراً قاربَ أنْ يَنْهارَ، لِما نَرَى فيهِ مِن علاماتٍ كـ(التصدُّعِ والشُّروخِ) مِثلاً.

وهذا الفهمُ يتناسَبُ مع أصحابِ التفكيرِ السَّطحيِّ وضَيِّقي الأُفقِ، أمَّا أصحابُ الأُفقِ الواسعِ الذين يعطون للعقل دوره في التفكير والنظر ويُدققون في المسائل فلا مانع لديهم أنْ يكونَ لِلجدارِ إرادةٌ على أساسِ أنَّ لِكُلِّ شيءٍ في الكونِ حياةً تُناسِبُه، ولله تعالى أن يُخاطِبَهُ ويكونَ بينَهُما كلامٌ. ألمْ يَقُلِ الحقُّ سُبْحانَه: (**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ**) فإذا ما كانتِ السَّماءُ تبْكي فقَد تَعَدَّتْ مُجَرَّدَ الكلامِ، وأصبحَ لها أحاسيسَ ومشاعِرَ، ولَدَيها عواطِفُ قَد تسمُو على عَواطفِ البَشر، وفيها دليلٌ على أنَّها تبْكِي على فَقْدِ الصَّالحِينَ.

وقد سُئِل الإمامُ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عنهُ عن هذه المسألةِ فقالَ: نعمْ، إذا ماتَ المُؤمِنُ بكَى عليهِ مَوضِعانِ: مَوضِعٌ في السَّماءِ ومَوضِعٌ في الأرضِ؛ أمَّا مَوضِعُه في الأرضِ فمَوضِعُ مُصَلاَّهُ، أمَّا مَوضِعُه في السَّماءِ فَهُو مَصعَدُ عَملِه.

وهذا دليلُ انسجامِ العبْدِ المُؤمنِ مع الكَوْنِ مِن حَولِه؛ فالكَونُ ساجِدٌ للهِ، مُسبِّحٌ للهِ، طائعٌ للهِ، يُحِبُّ الطائِعينَ وينْبُو بالعاصِينَ ويَكْرَهُهُمْ ويَلْعنُهُم، والعَربُ تقولُ: نَبَا بهِ المكانُ؛ أيّ: كَرِهَهُ؛ لأنَّهُ غيرُ مُنْسجِمٍ مَعهُ؛ فالمكانُ طائعٌ وهو عاصٍ، والمكانُ مُسبِّحٌ وهو غافِلٌ. وعلى هذا الفهمِ فقولُه تعالى: (**يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ**) قولٌ على حَقيقتِه.

إذنْ فالمخلوقاتُ لها إحساسٌ ولها بكاءٌ، وتحْزنُ لِفَقدِ الأحبَّةِ، وفي الحَديثِ الشَّريفِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: "إنِّي لأعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أنْ أُبعَثَ".

ورُوِيَ في السيرةِ حَنينُ الجذعِ إلى رَسُولِ اللهِ وتَسْبيحُ الحصَى في يَدهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ.

وسبقَ أنْ أوضَحْنا هذه المسألةَ فقُلْنا: "لا ينبغي أنْ نقولَ سَبَّحَ الحَصَى في يدِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ؛ لأنَّ الحصَى يُسَبِّحُ أيضًا في يدِ أبي جَهْلٍ؛ لكنْ نقولُ: سَمِعَ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ السلامُ تسبيحَ الحصَى في يديهِ.

ولا غَرابةَ أنْ يُعطِينا القُرآنَ أمثلةً لِكلامِ هذه الأشياءِ؛ فقَد رأيْنا العُلماءَ في العصْرِ الحديثِ يَبْحَثُونَ في لُغَةٍ للأسْماكِ، ولُغَةٍ لِلطَّيرِ، ولُغةٍ لِلوطاويطِ التي أخَذُوا مِنها فِكْرَةَ الرادارِ؛ بلْ وتوصَّلُوا إلى أنَّ الحَيواناتِ تَشْعُرُ بِقُرْبِ وُقُوعِ الزَّلزالِ؛ وخاصَّةً الحِمارِ، وأنَّها تَفِرّ مِن المكانِ قَبْلَ وُقُوعِها مُباشرةً.

إذنْ: لهُمْ وَسائلُ إدراكٍ، ولَهُم لُغةٌ يَتفاهَمُونَ بها، ولَهُم مَنطِقٌ يَعَبِّرُونَ بِه.

ثمَّ يقولُ الحَقُّ سُبْحانَه عن فِعْلِ الخَضرِ مع الجِدارِ الذي قاربَ أنْ يَنقَضَّ (فَأَقَامَهُ) أيّ: أصْلَحَهُ ورَمَّمَهُ

(**قَالَ**) مَوسَى (**لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**) لقَد طَلَبْنا مِنهُم الطَّعامَ فَلَمْ يُطْعِمُونا، ولمْ يُقَدِّمُوا لنا مأوىً؛ فكيفَ نَعمَلُ لهُمُ مِثلَ هذا العَملِ دُونَ أُجْرَةٍ؟

وجاءَ هذا القَولُ مِن مُوسَى عليهِ السلامُ؛ لأنَّهُ لا يَعلَمُ الحِكْمَةَ مِن وَراءِ هذا العَملِ.

(**قَالَ**) العبْدُ الصّالِحُ (**هـذافِرَاقُبَيْنِي وَبَيْنِكَ**) لِقَولِكَ (**لَوْشِئْتَلَتَّخَذْتَعَلَيْهِ أَجْرًا**). وقد سبقَ أنَّ اشْترطَ مُوسَى عليهِ السلامُ على نَفْسِه إنْ اعترَضَ على مُعلِّمِه هذهِ المرة فسيكون الفِراقُ بينهما.

وقولُه (**هـذافِرَاقُبَيْنِي وَبَيْنِكَ**) تُعد دُسْتُوراً مِن الحقِّ سُبْحانَه وتعالى ودَلِيلاً على أنَّ هذينِ المَذْهَبَينِ لا يلتقِيانِ؛ فيظلُّ كُلٌّ مِنهُما لهُ طريقهُ، ولا ينبغِي أنْ يَعترِضَ أحدُهُما على الآخَرِ؛ بلْ يلزمُ أدَبُهُ في حُدودِ ما علَّمَهُ اللهُ.

ثمَّ يقولُ تعالى على لِسانِ الخَضرِ (**سَأُنَبِّئُكَبِتَأْوِيلِمَالَمْتَسْتَطِععَّلَيْهِصَبْرًا**) أيّ: لنْ أتْرُكَكَ وفِي نَفْسِكَ هذهِ التساؤلات حتَّى لا يكونَ في نفْسِكَ مِنِّي شَيءٌ، سوفَ أُخْبِرُكَ بِحَقيقةِ هذه الأفعالِ التي اعتَرَضْتَ عليها لِتعْلَمَ أنَّ اللهَ أرسَلَكَ إلى مَنْ يُعلِّمُكَ شيئًا لمْ تكُنْ تَعلَمُهُ.

ثمَّ أخَذَ العَبْدُ الصالِحُ يَكشِفُ لِمُوسَى الحِكْمَةُ مِن هذه الأفعالِ واحداً تِلْوَ الآخَرِ، كما لو عَتبَ عليكَ صاحِبُكَ في أمرٍ ما وأنتَ حَريصٌ على مَودَّتِه فتقولُ لهُ: أمْهِلْنِي حتَّى أُوضِحَ لكَ ما حَدَثَ، لقَد فَعلتُ كذا مِنْ أجْلِ كذا؛ لِتُريحَ قلبَهَ وتُزيلَ ما التَبَسَ عليهِ مِن هذا الأمرِ. وقالُوا: إنَّ هذا مِن أدَبِ الصُّحْبَةِ؛ فلا يَجُوزُ بعدَ المُصاحَبَةِ أنْ نَفترِقَ على الخِلافِ، ينبغي أنْ نَفْترِقَ على وِفَاقٍ ورِضًا؛ لأنَّ الافتِراقَ على الخِلافِ يُنمِّي الفجْوَةَ ويَدعُو لِلقَطِيعةِ.

إذنْ: فَقبْلَ أنْ نَفْتَرِقَ المسألةُ كيتَ وكيتَ؛ فَتتَّضِحَ الأُمورُ وتَصفُوَ الأنفُسُ.

وقولُه (**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ**) لَمساكِينَ اللامُ هُنا لِلملكيَّةِ، يعني مَملُوكةً لهُم. وقد حَسَمَتْ هذه الآيةُ الخِلافَ بينَ العُلماءِ حولَ تعريفِ (الفقيرِ والمِسْكينِ)، وأيُّهُما أشدُّ حاجةً مِن الآخَر، وعليها فالمِسكينُ هو مَنْ يَمْلِكُ شيئًا لا يَكْفيه؛ كهَؤلاءِ الذينَ كانُوا يَملِكُونَ سفينةً تعملُ في البَحْرِ، وسمَّاهُمُ القُرآنُ الكريمُ "مَساكِينَ"، أمَّا "الفقيرُ" فهُوَ مَنْ لا يَمْلِكُ شَيئًا.

ومعنَى (**يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ**) أيّ: مجالُ عَملِهم البَحْرِ، يَعملُونَ فيه بِنقْلِ الرُّكَّابِ أو البضائعِ أو الصَّيدِ أو خِلافِه.

وقولُه (**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**) المُتكلِّمُ هُنا هُوَ الخضْرُ عليه السلامُ فَنَسَبَ إرادةَ عَيْبِ السفينةِ إلى نَفْسِه، ولمْ يَنْسِبْها إلى اللهِ تعالى تنزيهًا لهُ عَمَّا لا يَليقُ

(**وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**) إنَّ كَلِمَةَ (**كُلّ**) تُرسُمُ سُورًا كُلِّيًّا لا يَتْرُكُ شَيئًا؛ فالمُرادُ يأخُذُ كُلَّ سفينةٍ سواءٌ أكانتْ (مَعيبَةً أمْ غَيرَ مَعيبَةٍ)؛ لكنَّ الحقيقةَ أنَّهُ يأخُذُ السفينةَ الصالحةَ للاستعمالِ فحَسْب، ولا حاجةَ لهُ في المَعيبَةِ غَيرِ الصَّالحَةِ، وكأنَّ في سياقِ الآيةِ صِفَةً مُقدَّرَةً أيّ: يأخُذُ كُلَّ سَفينَةٍ صالحَةٍ غَصْبًا مِن صاحِبها. والغَصْبُ هو ما أُخِذَ بِغَيرِ حَقٍّ عُنْوةً وقَهْرًا ومُصَادَرةً، وله صُوَرٌ مُتعَدِّدةٌ. وما دامَ الأمرُ غَصْبًا فلا بُدَّ لِمالِكِ الشيءِ أنْ يُقاوِمَ ولو بَعضَ مُقاوَمةٍ يُدافِعُ بها عنْ حَقِّه، وقَد يتوسلُ إليه أنْ يَتْرُكَ لهُ مالَهُ؛ فالمَسألةُ إذنْ فيها كلامٌ وأخْذٌ وَرَدٌّ؛ فخَرْقُ السفينةِ في ظاهِرِه اعتداءٌ على مِلْكٍ مُقوَّمٍ، وهذا مَنْهِيٌّ عنهُ شَرعًا؛ لكنْ إذا كانَ هذا الاعتِداءُ سيكونُ سَببًا في نجَاةِ السفينةِ كُلِّها مِن الغاصِبِ فلا بأسَ إذنْ، وسَفينةٌ

مَعيبةٌ خيرٌ من عَدَمِها، ولو عَلِمَ مُوسَى عليه السلامُ هذه الحِكْمَةَ لَبادَرَ هُوَ إلى خَرْقِها. وما دامَ الأمرُ كذلكَ فعَلَينا أنْ نُحوِّلَ السفينةَ إلى سَفينةٍ غَيرِ صالحَةٍ ونَعيبَها بِخَرْقِها أو بِخَلْعِ لَوْحٍ منها لِنَصْرِفَ المِلْكَ المُغتَصبَ عن أَخْذِها.

وكلمةُ وَراءَهُم هُنا بِمعنَى أمامَهُم؛ لأنَّ هذا الظالِمَ كان يَترَصَّدُ لِلسفُنِ التي تمرُّ عليه، فما وَجدَها صالحَةً غَصبَها؛ فهُو في الحقيقةِ أمامَهُم، كما في قولِه تعالى: (**مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ**). وهلْ جهنَّمُ وراءَه أمْ أمامَه؟

وتُستعْمَلُ وراءَ بمعنَى بَعْدَ: (**فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**).

وتأتي "وَراءَ" بمعنَى "غَير": (**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وراء ذلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**).

وقَد تُستعْمَلُ بمعنَى خَلْف: (**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ**).

إذنْ: كلمةُ "وَرَاءَ" جاءتْ في القُرآنِ الكَريمِ على أربعةِ معَانٍ: (أمامَ، خَلْفَ، بَعْدَ، غَيرَ). وهذا ممَّا يُميِّزُ العربيةَ عن غَيرِها مِن اللُّغاتِ، والمَلَكَةُ العربيَّةُ قادرةٌ على أنْ تُميّزَ المعنَى المُناسبَ لِلسِّياقِ.

ثُمَّ يقولُ الحقُّ سُبْحانَه (**وَأَمَّا الْغُلاَمُ**) الغُلامُ: هُو الوَلَدُ الذي لمْ يبْلُغِ الحُلُمَ وسِنَّ التكليفِ، وما دامَ لم يُكلَّفْ فَما يَزالُ في سِنِّ الطَّهارةِ والبَراءةِ مِن المَعاصي؛ لِذلِكَ لَمَّا اعترَضَ مُوسَى على قَتْلِه (**قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً**)؛ أيّ: طاهِرةً

ولا شَكَّ أنَّ أخْذَ الغُلامِ في هذهِ السِّنِّ خَيْرٌ لهُ ومَصلَحةٌ قبلَ أنْ تُلَوِّثُه المَعاصِي ويَدخُلُ دائِرةَ الحِسابِ. إذنْ: فطَهارَتُه هيَ التي دَعَتْنَا إلى التعجيلِ بأخْذِه.

هذا عن الغُلامِ فماذا عن أبيهِ وأُمِّه؟

يقولُ تعالى: (**فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ**) وكثيراً ما يكونُ الأولادُ فِتنَةً لِلآباءِ كما قالَ تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**). والفِتْنَةُ بالأولادِ تأتي مِن حِرْصِ الآباءِ عليهِم والسَّعي إلى جَعْلِهِم في أحْسَنِ حالٍ، ورُبَّما كانتِ الإمكاناتُ غيرَ كافيةٍ؛ فيُضطُرُ الأبُ إلى الحرامِ مِن أجْلِ أولادِه.

وقَد عَلِمَ الحقُّ سُبْحانَه وتعالى أنَّ هذا الغُلامَ سَيَكُونُ فِتنَةً لأبَويهِ، وهُما مُؤمنانِ ولمْ يُرِدِ اللهُ تعالى لَهُما الفِتْنَةُ، وقضَى أنْ يَقبِضَهُما إليهِ على حالِ الإيمانِ. وكأنَّ قضاءَ اللهِ جاءَ خَيراً لِلغُلامِ وخَيراً لِلوالِدينِ، وجَميلاً أُسْدِيَ إلى كِليْهِما، وحِكْمَةٌ بالِغَةٌ تَسْتترُ وَراءَ الحَدَثِ الظَّاهِرِ الذي اعترَضَ عليهِ مُوسَى عليهِ السلامُ؛ لِذلِكَ يُعَدُّ مِن الغَباءِ إذا ماتَ لَدَينا طِفْلٌ أو غُلامُ الصَّغيرِ أَنْ يَشْتَدَّ الحُزْنُ عليهِ، ونَنْعِي طُفُولتِه التي ضاعَتْ وشَبابَه الذي لم يَتمتَّعْ بهِ، ونحنُ لا نَدْري ما أُعِدَّ لهُ مِن النَّعيمِ، لا نَدْري أنَّ مَنْ أُخِذَ مِن أولادِنا قَبْلَ البُلوغِ لا يُحدِّدُ لهُ مَسْكَنٌ في الجَنَّةِ؛ لأنَّها جَميعًا لهُ يَجْري فيها كما يَشاءُ، ويَجْلِسُ فيها أينَ أحب، يَجلِسُ عِندَ الأنبياءِ وعِندَ الصَّحابَةِ لا يَعترِضُه أحدٌ؛ ولِذلِكَ يُسمَّوْنَ "دَعامِيصَ الجَنَّةِ".

ثمَّ يقولُ تعالى (**فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا**) خَشِينا أيّ: خِفْنا. فالواحِدُ مِنَّا يُولَدُ لَهُ ابْنٌ فَيكُونَ قُرَّةَ عَينٍ وسَنداً، وقَد يكونُ هذا الابْنُ سَبَبًا في فَسادِ دِينِ أبيهِ، ويَحْمِلُهُ على الكَذِبِ والرِّشْوةِ والسَّرقةِ؛ فهَذا الابْنُ يَقُودُ أباهُ إلى الجَحِيم، ومِن الخَيرِ أنْ يُبْعِدَ اللهُ هذا الولَدَ مِن طريقِ الوالدِ فلا يَطْغَى. ولا يَفُوتُ الخَضرُ عليهِ السلامُ أنْ يَنْسِبَ الخَيرَ هُنا أيضًا إلى اللهِ تعالى فيَقولَ – مَثلاً – : أنا أُحِبُّ هذا العَمَلَ وأُريدهُ؛ إنَّما الذي يُبدِّلُ في الحَقيقةِ هُو اللهُ تعالى (**فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ**) فَهذا الخَيرُ مِن اللهِ، وما أنا إلَّا وَسِيلةٌ لِتَحقيقِه. زَكَاةً أيّ: طُهْرًا (**وَأَقْرَبَ رُحْمًا**)؛ لأنَّهُما أرادا الولدَ لِيَنْفَعَهُما في الدُّنيا، ولِيَكُونَ قُرَّةَ عَينٍ لَهُما، ولَمَّا كانتِ الدُّنيا فاتِنةً لا بقاءَ لها، وقَد ثَبَتَ في عِلْمِه تعالى أنَّ هذا الولَدَ سيَكُونُ فِتنَةً لأبَوَيْه، وسَيَجْلِبُ لهُما المَعاصي والسِّيئاتِ، وسَيَجُرّهُما إلى العَذابِ، كانتِ الرَّحْمةُ الكاملةُ في أخْذِه بَدلَ أنْ يَتَمتَّعا بهِ في الدُّنيا الفانية، ويَشْقيَا بهِ في الآخِرةِ الباقيةِ.

ثمَّ يقولُ الحقُّ سُبْحانُه (**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا**) لِغُلَامَيْنِ أيّ: أنَّهُما لمْ يَبْلُغا سِنَّ الرُّشْدِ، وفوقَ ذلكَ هُما يَتيمانِ. وكانَ تحتَ هذا الجِدارِ المائلِ كَنْزٌ لِهَذَيْنِ الغُلامَيْنِ غَيرِ القادِرينَ على تدبيرِ شأنِهما، ولكَ أنْ تتصوَّرَ ما يَحْدُثُ لو تَهَدَّمَ الجِدارُ وانكَشَفَ هذا الكَنْزُ ولَمَعَ ذَهَبُهُ أمامَ عُيونِ هَؤلاءِ القَومِ الذينَ عرفت صفاتهُم، إنَّ أقلَّ ما يُوصَفُونَ بهِ أنَّهُم لِئَامٌ لا يُؤتَمَنُونَ على شيءٍ.

إذنْ: فلا شَكَّ أنَّ ما قامَ بهِ العبْدُ الصالحُ مِن بناءِ الجِدارِ وإقامَتِه أو تَرميمِه يُعَدُّ بمَثابةِ صَفْعةٍ لِهَؤلاءِ اللئامِ تُناسِبُ ما قابَلُوهُمْ بهِ مِنْ تَنَكُّرٍ وسُوءِ استِقْبالٍ، وتَرُدُّ لهُمُ الصَّاعَ صاعَينِ حينَ حَرَمَهُم الخَضرُ مِن هذا الكَنْزِ.

فَعِلَّةُ إصْلاحِ الجِدارِ ما كان تَحَتَهُ مِن مالٍ يَجِبُ أنْ يُحفَظَ لحِينِ أنْ يَكبُرَ هذانِ الغُلامانِ ويتمكَّنا مِن حِفْظِه وحِمايَتِه في قريةٍ مِن اللئامِ. وكأنَّ الحقَّ سُبْحانَه وتعالى أرسَلهُ لِهذَينِ الغُلامَينِ في هذا الوقْتِ بالذَّاتِ؛ حيث أخَذَ الجِدارُ في التَّصَدُّعِ، وظَهَرتْ عليهِ علاماتُ الانهيارِ لِيَقُومَ بإصلاحِه قَبْلَ أنْ يَقَعَ ويَنْكَشِفَ أمْرُ الكنْزِ وصاحِبَيهِ في حالِ الضَّعْفِ وعَدَمِ القُدْرَةِ على حِمايَتِه. ثمَّ إنَّ العبْدَ الصالِحَ أصْلَحَ الجِدارَ ورَدَّهُ إلى ما كانَ عليهِ رَدَّ مَنْ علَّمهُ اللهُ مِنْ لَدُنْهُ، فيُقالُ: إنَّهُ بَنَاهُ بِناءً مَوقُوتًا يتناسَبُ وعُمُرَ الغُلامَينِ؛ وكأنَّهُ بناهُ على عُمُرٍ افْتِراضيٍّ ينتهي بِبُلُوغِ الغُلامَينِ سِنَّ الرُّشْدِ والقُدْرَةِ على حمايةِ الكَنْزِ فَينْهارَ.

وهذهِ في الواقِعِ عمليةٌ دقيقةٌ لا يَقْدِرُ على حِسابِها إلاَّ مَنْ أُوتِي عِلْمًا خاصًّا مِن اللهِ تعالى.

ويَبدُو مِن سِياقِ الآيةِ أنَّهُما كانا في سِنٍّ واحِدةٍ توأمَينِ؛ لقولِه تعالى: (**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا**)؛ أيّ: سَويًّا، ومَعنَى "الأشُدّ" القوَّةُ؛ حيثُ تكتمِلُ أجهزةُ الجِسْمِ وتَسْتَوي، وأجهزةُ الجِسْمِ تكتمِلُ حِينَما يُصبِحُ المَرءُ قادِرًا على إنجابِ مِثْلِه.

وتُلاحِظُ: أنَّ الحقَّ سُبْحانَه وتعالى قالَ هُنا (**يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا**) ولَمْ يَقُلْ "رُشْدَهُما"؛ لأنَّ هُناكَ فَرْقًا بينَ "الرُّشْدِ" و"الأَشُدّ"؛ فـ"الرُّشْدُ" هوَ حُسْنُ التَّصَرُّفِ في الأمورِ، أمَّا "الأشُدُّ" فهُو القوَّةُ.

و(الغُلامانِ) هُنا في حاجةٍ إلى القوَّةِ التي تَحَمِي كَنْزَهُما مِن هَؤلاءِ اللئامِ؛ فَناسَبَ هُنا (أَشُدَّهُمَا)،

ثُمَّ يقولُ تعالى (**وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**) أيّ: يَسْتَخْرِجاهُ بِما لَدَيهِما مِن القُوَّةِ والفُتوَّة.

والرَّحمَةُ صِفَةٌ تُعطَى لِلمَرحُومِ لِتَمْنَعَهُ مِن الداءِ، كما في قولِه تعالى: (**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**..) (شِفاءٌ)؛ أيّ: يَشْفي داءً مَوجُودًا ويُبرِئُهُ. و(رَحْمةٌ)؛ أيّ: رَحْمةٌ تمنعُ عَودَةَ الدَّاءِ مَرَّةً أُخْرى، وكذلكَ ما حَدَثَ لِهَذَينِ الغُلامَينِ كانَ رَحْمَةً مِن اللهِ؛ لِحمايةِ مالِهِما وحِفْظِ حَقِّهِما. ثُمَّ لَمْ يَفُتْ العَبْدَ الصالحَ أنْ يُرجِعَ الفضْلَ لأهْلِه، ويَنْفي عن نَفْسِهِ الغُرورَ بِالعِلْمِ والاسْتِعلاءِ على صاحِبِه فيَقولُ (**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**) أيّ: أنَّ ما حَدَثَ كان بأمْرِ اللهِ، وما علَّمْتُكَ إيَّاهُ كان مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَلَيْسَ لِي مَيْزةٌ عليكَ،

وهذا دَرسٌ في أَدبِ التواضُعِ ومَعرِفَةِ الفَضْلِ لأهْلِه. ثُمَّ يقولُ (**ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**) (تأويلُ) أيّ: إرجاعُ الأمْرِ إلى حقيقتِه، وتفسيرُ ما أشكلَ منهُ[1].

[1] خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ (ج١٤/ص٨٩٤٧- ٨٩٧٢).

الوسيطِ لمُحمَّد سيِّد طِنطاوي

(**وَإِذْقَالَمُوسَىلِفَتَاهُ**) قالَ الإمامُ الرَّازيُّ ما مُلخَّصُه: "اعْلَمْ أنَّ هذا ابتداءَ قِصَّةٍ ثالثةٍ ذَكَرَها اللهُ تعالى في هذه السورةِ، وهيَ أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ ذَهبَ إلى الخَضرِ لِيتعَلَّمَ مِنهُ، وهذا وإنْ كان كلامًا مُستقِلًّا في نَفْسِه؛ إلاّ أنَّهُ يُعينُ على ما هُوَ المَقْصودُ في القِصَّتَينِ السابقتَينِ؛ إمَّا في الرَّدِّ على الكُفَّارِ الذينَ افتخَرُوا على فُقراءِ المُسلِمينَ؛ فها هُوَ مُوسَى عليهِ السلامُ مع كثرَةِ عِلْمِهِ وعَمَلَهِ ذَهبَ إلى الخَضرِ لِطَلَبِ العِلْمِ وتَواضَعَ لهُ.

وإمَّا في قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ؛ حيث قالَ يهودٌ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: "إنْ أخْبَرَكُمْ مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ هذهِ القِصَّةِ فهُوَ نبيٌّ، وإلَّا فلا.

وهذا ليسَ بشيءٍ؛ لأنَّهُ لا يَلْزَمُ مِن كَونِه نبيًّا أنْ يكونَ عالِمًا بِالقَصَصِ كافَّةً، كما أنَّ كَونَ مُوسَى نبيًّا لمْ يَمْنَعْهُ مِن الذَّهابِ لِيتعَلَّمَ مِنهُ.

ومُوسَى عليهِ السلامُ هو ابنُ عِمرانَ، وهو أحدُ أُولي العَزْمِ مِن الرُّسُلِ، وينتهي نَسَبُهُ إلى يَعقُوبٍ عليهِ السلامُ. وفَتاهُ هُوَ يُوشَع بنُ نُونٍ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّهُ كان مُلازِمًا لِمُوسَى عليهِ السلامُ ويأخذُ عنهُ العِلمَ.

وقولهُ (**لاأبْرَحُ**) أيّ: لا أزالُ سائِرًا. ومِنهُ قولُه تعالى: (**لَنْنَّبْرَحَعَلَيْهِعَاكِفِينَ**) مِن "بَرَحَ" الناقِص. قال الجمل: واسمُها مُستترٌ وُجوبًا، وخَبرُها مَحذوفٌ تقديرُه لا أبْرَحُ سائِرًا.

(**حتَّىأبلُغَ**) غايةً لِهذا المُقدَّرِ.

ويحتملُ أنَّها تامَّةٌ فلا تستدعي خَبراً؛ بمعنَى: لا أزولُ عمَّا أنا عليهِ مِن السَّيرِ والطلبِ ولا أُفارِقُه حتَّى أبلُغَ (**مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ**) وهُوَ المكانُ الذي يلتقِي فيهِ البَحْرُ الأحمرُ بالبَحرِ الأبيضِ المُتوسِّطِ.

قال الألوسيّ: والمجْمعُ هو المُلتقَى، وهُو اسمُ مَكانٍ، والبَحْرانِ هُما: بَحْرُ فارِسٍ والرُّومِ كما رُوِيَ عن مُجاهدٍ وقَتادَةَ وغَيرِهِما، ومُلتَقاهُما هُوَ ممَّا يلي المَشْرِقَ، ولعلَّ المُرادَ مكانٌ يَقرُبُ فيهِ التقاؤهُما.

وقيلَ: البَحْرانِ هُما بَحْرُ الأُردنِّ وبَحْرُ القلزمِ.

والأرجَحُ: أنَّ مَجْمَعَ البَحْرَينِ هو مَكانُ التقاءِ بَحْرِ الرُّومِ وبَحْرِ القلزم؛ أيّ: البَحْرَ الأبيضَ والبَحْرَ الأحمْر، ومَجْمَعُهُما مكانُ التقائِهما في منطقةِ البُحيراتِ المُرَّةِ وبُحَيرةِ التِّمْساحِ، أوْ أنَّه مَجمَعٌ خليجَي العَقَبَةِ والسُّويسِ في البَحْرِ الأحمر؛ فَهذهِ المنطقةُ كانت مَسْرحَ تاريخِ بَني إسرائيلَ بَعْدَ خُروجِهِم مِن مِصرَ، وعلى أيَّةِ حالٍ: فقَد تَرَكَها القُرآنُ مُجْملَةً؛ لذا نكتفِي بهذهِ الإشارةِ.

والمَعنَى: اُذْكُرْ أيُّها الرَّسُولُ الكريمُ لِقَومِكَ لِكي يَعتبِرُوا ويَتَّعِظُوا وَقْتَ أنْ قالَ أخوكَ مُوسَى عليهِ السلامُ لِفتاهُ يُوشَع بنِ نُونٍ: اصْحَبْنِي في رِحْلَتي هذهِ حتَّى أصِلَ إلى مكانِ التقاءِ البَحْرَينِ فَسَوفَ أَجِدُ فيه بُغْيَتِي ومَقْصدِي (**أَوْ أَمْضِيَ**) في سَيري (**حُقُبًا**) أيّ: زَمنًا طويلاً حتَّى أَجِدَ ما أبْتَغِيهِ هُناك.

والحُقُبُ بِضَمِّ الحاءِ والقافِ جَمعُه أحقابٌ، والحِقْبَةُ بِكَسْرِ الحاءِ جَمْعُها حِقْبٌ كـ(سِدْرَةٍ وسِدْرٍ)، والحُقْبَةُ بِضَمِّ الحاءِ وجَمْعِها حُقَبٌ كَ(غُرْفَةٍ وغُرَفٍ).

قِيلَ: مدَّتُها ثمانُونَ عامًا، وقِيلَ: سَبْعُونَ، وقِيلَ: زَمانٌ مِن الدهْرِ مُبْهَمٌ غَيرُ مُحدَّدٍ.

والآيةُ الكريمةُ تدلُّ بِأسلُوبِها البليغِ على أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ كان مُصمِّمًا على بُلوغِ مَجمَعِ البَحْرَينِ مَهما تَكُنِ المَشَقَّةُ، ومَهما يَكُنِ الزَّمَنُ الذي يَقْطَعُهُ في سَبيلِ الوُصولِ إلى غايَتِه؛ وهو يُعبِّرُ عن هذا التصميمِ بِما حَكاهُ عنهُ القُرآنُ الكريمُ بِقَولِه (**أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**).

وقَد أشارَ الألوسيُّ إلى سَببِ تصميمِ مُوسَى على هذه الرِّحلةِ فقالَ: وكأنَ مَنشأُ عَزيمةِ مُوسَى عليهِ السلامُ على ما رواهُ الشيخانِ وغَيرُهُما مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ عن أُبيِّ بنِ كَعْبٍ أنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: " إنَّ مُوسَى قامَ خَطِيبًا في بَني إسرائيلَ فَسُئِلَ: أيُّ الناسِ أعلَمُ؟ فقالَ: أنا.

فَعاتَبهُ اللهُ؛ إذْ لمْ يَرُدَّ العِلْمَ إليهِ سُبْحانَه. فأوْحَى اللهُ تعالى إليهِ: إنَّ لي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَينِ هُوَ أعْلَمُ مِنْكَ". وعنهُ في رِوايةٍ أُخْرى: "أنَّ مُوسَى سألَ رَبَّهُ فقالَ: أيّ ربّ إنْ كان في عِبادِكَ أحدٌ هُوَ أعْلَمُ مِنِّي فَدُلَّني عليهِ. فقالَ لهُ: نعمْ، في عِبادِي مَنْ هُوَ أعْلَمُ مِنكَ. ثُمَّ نَعَتَ لهُ مَكانَهُ وأذِنَ لَهُ في لِقائِهِ".

(**فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا**) الفاءُ في قولِه (**فلمَّا بَلَغا**)، وفي قولِه (**فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ**) هيَ الفَصيحةُ. والمَعنى: بعدَ أنْ قالَ مُوسَى لِفَتاهُ ما قالَ أخَذا في السَّيرِ إلى مَجْمَعِ البَحْرَينِ، فلمَّا بَلَغا ذلكَ المَكانَ (**نَسِيا حُوتَهُما**) أيّ: نَسِيا خَبَرَ حُوتِهِما وتَفَقُّدَ أمْرِه؛ فَحَيِيَ الحُوتُ (**فاتَّخَذَ سَبِيلَهُ**) أيّ: طَريقَهُ (**فِي البَحْرِ سَرَبًا**) السَّرَبُ هُوَ نَفَقٌ تحتَ الأرضِ، أو قناةٌ يدخلُ مِنْها الماءُ إلى البُستانِ لِسَقْيِ الزَّرْعِ.

والمَعنَى: أنَّ الحُوتَ اتَّخَذَ طَريقَهُ في البَحْرِ، وكان هذا الطريقُ كالنَّفَقِ يَسيرُ الحُوتُ فيهِ وأثرُهُ واضِحٌ.

قالَ ابنُ كثيرٍ: وقولُه (**فَلَمَّابَلَغَامَجْمَعَبَيْنِهِمَانَسِيَاحُوتَهُمَا**)؛ وذلكَ أنَّ مُوسَى كانَ قَد أمرَ بِحَمْلِ حُوتٍ مَشْويٍّ مَعهُ، وقيلَ لهُ: متَى فقَدتَ الحُوتَ فالرَّجُلُ الصَّالِحُ الذي هُوَ أعْلَمُ مِنْكَ في هذا المكانِ فَسارا حتّى بَلَغا مَجْمَعَ البَحْرَينِ، وهُناكَ عَينٌ يُقالُ لها "عَينَ الحياةِ"، فَناما هُناكَ، وأصابَ الحُوتَ مِن رَشاشِ ذلكَ الماءِ فاضْطَرَبَ، وكانَ في مكتلٍ مع يُوشَع، وطَفَرَ مِن المكْتلِ إلى البَحْرِ، فاسْتَيقَظَ يُوشَعُ، وسَقطَ الحُوتُ في البَحْرِ، وجَعلَ يَسيرُ فيهِ، والماءُ لهُ مِثلُ الطاقِ؛ أيّ: مِثلَ القَنْطَرَةِ لا يلتئِمُ بَعدَهُ؛ ولهذا قالَ (**فاتَّخَذَسَبِيلَهُفِيالبَحْرِسَرَبًا**)؛ أيّ: مِثْلَ السَّرَبِ في الأرضِ. وقال البيضاويُّ: نَسِيا حُوتَهُما؛ أيّ: نَسِيَ مُوسَى أنْ يَطْلُبَهُ ويتعرَّفَ حالَهُ ونَسِيَ يُوشَعُ أنْ يَذْكُرَ لهُ ما رأى مِن حَياتهِ وَوُقوعِه في البَحرِ

(فلمَّا جاوَزا) المكانَ الذي فيهِ مَجْمَعُ البَحرَينِ (**قال**) مُوسَى (**لِفَتاهُآتِناغَداءَنا**) أيّ: أَحْضِرْ لنا ما نأكُلُهُ مِن الحُوتِ المَشْويِّ الذي مَعنا. ثُمَّ علَّلَ هذا الطلبَ بِقَولِه (**لَقَدْلَقِينَامِنسَفَرِنَاهذانَصَبًا**) أيّ: تَعبًا وإعْياءً. واسْمُ الإشارةِ هذا مُشارٌ بهِ إلى بعضِ أجْزاءِ سَفَرِهِما المُتلبِّسينَ بهِ؛ فقَد صحَّ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قال: "لَمْ يَجِدْ مُوسَى شَيئًا مِن التَّعَبِ حتَّى جاوزَ المكانَ الذي أمرَ بهِ".

(**قالَأرأيتَ**) هوَ لِلتَّعَجُّبِ ممَّا حدثَ أمامَهُ مِن شأنِ الحُوتِ؛ حيث عادتْ إليهِ الحياةُ وقفزَ إلى البَحْرِ، ومع ذلكَ نَسِيَ أنْ يُخْبِرَ مُوسَى عن هذا الأمرِ العجيبِ

(**إِذْأَوَيْنَاإِلَى الصَّخْرَةِ**) دُونَ أنْ يَذْكُرَ مَجْمَعَ البَحْرَينِ زيادةً في تحديدِ المكانِ وتَعيينِه (**فَإِنِّيَنَسِيتُالحُوتَ**) أوقعَ النِّسيانَ على الحُوتِ دُونَ الغَداءِ للإِشعارِ بأنَّ الغِداءَ الذي طلبَهُ مُوسَى مِنهُ هو ذلكَ الحُوتُ الذي فَقداهُ

(**وَمَاأَنْسَانِيهُإِلَّاالشَّيطانُأَنْأَذْكُرَهُ**) جُملةٌ مُعترِضةٌ جِيءَ بها لِبيانِ السببِ في وُقوعِ النِّسيانِ مِنهُ. وقولهُ (**أَنْأَذْكُرَهُ**) بَدلُ اشتِمالٍ مِن الهاءِ في أنْسانِيهِ؛ أيّ: وما أنْساني تَذْكِيرُكَ بِما حَدَثَ لِلحُوتِ إلَّا الشَّيطانُ الذي يُوسْوِسُ للإِنسانِ لِيُنْسِيهِ الأُمورَ المُهمَّة.

وقولُه (**واتَّخَذَسَبِيلَهُفِي البَحْرِ عَجَبًا**) مَعطُوفٌ على قولِه (**فَإِنِّيَنَسِيتُالحُوتَ**)؛ أيّ: نَسِيتُ أنْ أخْبِرَكَ بأنَّه عِندَما أَوَينا إلى الصَّخْرةِ قَد عادَتِ الحياةُ إلى الحُوتِ، واتَّخَذَ طَرِيقَهُ في البَحرِ بِطَرِيقةٍ عَجِيبَةٍ وحيثُما سارَ فالماءُ مِن حَولِه صارَ كالقنْطَرةِ.

وعلى هذا تكونُ جملةُ (**واتَّخَذَسَبِيلَهُفِي البَحْرِ عَجَبًا**) مِن بَقيَّةِ كلامِ يُوشَع لِلتَّعَجُّبِ مِمَّا حَدَثَ مِن الحُوتِ؛ حيثُ عادتْ إليهِ الحياةُ بِقُدْرَةِ اللهِ تعالى، واتَّخَذَ طَرِيقَهُ في البَحرِ بِتلكَ الصُّورةِ العَجيبةِ.

وقِيلَ: إنَّ هذهِ الجُملةَ مِن كلامِ اللهِ تعالى لِبيانِ طَرَفٍ آخَرَ مِن أمْرِ هذا الحُوتِ العَجيبِ بعدَ بيانِ أمْرِه قبلَ ذلكَ؛ بأنَّهُ اتَّخَذَ سَبِيلهُ في البَحْرِ سَرَبًا.

ويبدُو أنَّ الرأيَ الأوَّلَ هُو الأرجَحُ؛ لأنَّ سِياقَ الآيةِ يَدلُّ عليهِ. قال الإمامُ الرازيُّ واتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَبًا فيهِ وُجُوهٌ:

الأوَّلُ: (**عَـجَبًا**) صِفةٌ لِمَصدرٍ مَحذُوفٍ، تأويلُهُ واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ اتِّخاذًا عَجَبًا، وَوَجْهُ كَونِهِ عَجَبًا انْقلابهُ مِن المكْتلِ وصَيرُورَتِه حيًّا وإلقاءُ نَفْسِه في البحرِ.

الثاني: أنْ يكونَ المُرادُ مِنهُ هو أنَّهُ تعالى جَعلَ الماءَ عليهِ كالطاقِ وكالسَّرابِ.

الثالثُ: إنَّ الكلامَ تمَّ عِندَ قولِه (**واتَّخَذَسَبِيلَهُفِيالبَحْرِ**)، ثمَّ قال بَعدَهُ (**عَجَبًا**) والمقْصُودُ مِنه تعجُّبُ يُوشَع من الحالةِ التي رآها ثمَّ نِسيانُه لها.

وهُنا يَحكي القُرآنُ الكريمُ ما يدلُّ على أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ قد أدركَ أنَّه تجاوزَ المكانَ الذي حدَّدَهُ له رَبُّهُ تعالى لِلقاءِ العبدِ الصالحِ فقالَ (**قَالَذَٰلِكَمَاكُنَّانَبْغِ**) أيّ: قال مُوسَى لِفَتاهُ إنَّ ذلك الذي ذَكَرْتُهُ لي مِن أمْرِ نِسْيانِكَ لِخَبَرِ الحُوتِ هوَ الذي كُنَّا نَبْتَغِيه ونَطْلُبُهُ؛ فإنَّ العبدَ الصالحَ الذي نُريدُ لِقاءَهُ مَوجُودٌ في ذلكَ المكانِ الذي فقَدْنا فيه الحُوتَ (**فارتَدَّاعلىآثَارِهِمَاقَصَصًا**) أيّ: رَجَعا مِن طَرِيقِهِما الذي أتيا مِنهُ يتتبَّعانِ آثارِهِما لِئلَّا يَضلَّا عنهُ؛ حتَّى انتهيا عائِدَينِ إلى الصَّخرَةِ التي فُقِدَ الحُوتُ عِندَها. و (**قَصَصًا**) مِن القَصِّ بِمعنَى اتِّباعِ الأثرِ. يُقالُ: قَصَّ فُلانٌ أثرَ فُلانٍ قَصًّا وقَصَصًا إذا تَتَبَّعَهُ (**فَوَجَدَاعَبْدًامِّنْعِبادِنا**) أيّ: وبَعدَ أنْ عادا إلى الصَّخْرةِ عِندَ مَجمَعِ البَحرَينِ وَجَدا عَبْداً مِّنْ عِبادِنا الصَّالِحينَ. والتنكيرُ في (**عَبْدًا**) هوَ للتفخيمِ، والإِضافةُ في عِبادِنا هيَ لِلتشريفِ والتكريمِ (**آتَيْنَاهُرَحْمَةًمِّنْعِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُمِنلَّدُنَّاعِلْمًا**) أيّ: هذا العبدُ الصَّالِحُ مَنَحْناهُ وأعْطَيناهُ رَحْمَةً عَظيمَةً مِن عِندِنا لا مِن عِندِ غَيرِنا، واختَصَصْناه بها دُونَ غَيرِه.

(**قَالَ لَهُ مُوسَى**) أيّ: لِلخَضرِ (**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**) أيّ: هل تأذَنُ لي في مُصاحبَتِكَ واتِّباعِكَ على أنْ تُعَلِّمْنِي شَيئًا مِن العِلْمِ الذي عَلَّمَكَ اللهُ إيَّاهُ أسْتَرْشِدُ بهِ في حَياتي وأُصيبُ بهِ الخَيرَ في دِيني. وقَد راعَى مُوسَى عليهِ السلامُ في مُخاطَبتِه لِلخَضرِ أسْمَى ألوانِ الأدَبِ اللائقِ بالأنبياءِ عليهمُ الصَّلاةُ والسلامُ؛ حيث خاطَبهُ بصِيغَةِ الاستفهامِ الدالَّةِ على التلطُّفِ، وأنْزَلَ نَفْسَهُ مِنْهُ مَنْزِلةَ المُتعلِّمِ مِن المُعلِّمِ، واسْتأذَنَهُ في أنْ يكونُ تابِعًا له لِيتعلَّمَ مِنهُ الرُّشْدَ والخَيرَ.

قال العُلماءُ الأجلَّاءُ: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ المُتعلِّمَ تَبَعٌ لِلعالِمِ – وإنْ تفاوتَتْ المَراتِبُ – ، ولا يَظنّ أحدٌ أنَّ في تَعلُّمِ مُوسَى مِن الخَضرِ ما يدلُّ على أنَّ الخَضرَ كان أفضلَ مِن مُوسَى؛ فقَد يأخُذُ الفاضِلُ عن الفاضِلِ، وقَد يأخُذُ الفاضِلُ عن المَفضُولِ إذا اختصَّ اللهُ تعالى أحدَهُما بِعلْمٍ لا يَعلَمُهُ الآخَرُ؛ فقَد كان عِلْمُ مُوسَى مُتعلِّقًا بالأحكامِ الشرعيَّةِ والقضاءِ بظاهِرِها، وكانَ عِلْمُ الخَضرِ مُتعلِّقًا بالأحكامِ الغَيبيَّةِ ومَعرِفةِ بَواطِنها.

(**قَالَ**) الخَضرُ (**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) يا مُوسَى إذا اتَّبَعْتَني ورافَقْتَني لنْ تستطيعَ مَعِيَ صبرًا بأيِّ وَجْهٍ مِن الوُجُوهِ. قالَ ابنُ كثيرٍ: يا مُوسَى إنَّكَ لا تَقْدِرُ على صُحْبَتي لِما تَرَى مِن الأفْعالِ التي تُخالِفُ شَريعَتَكَ؛ لأنَّي على عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللهِ تعالى ما علَّمَكَ إيَّاهُ، وأنتَ على عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللهِ تعالى ما علَّمَني إيَّاهُ؛ فكُلٌّ مِنَّا مُكلَّفٌ بأمُورٍ مِن اللهِ دُونَ صاحِبِه.

وقوله (**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**) أيّ: وكيفَ تَصبرُ يا مُوسَى على أُمورٍ ستَراها مِنِّي ظاهِرُها مُنكَرٌ لا يَصِحُّ السُّكوتُ عليهِ، وباطِنُها لا تَعلَمُهُ؛ لأنَّ اللهَ

لمْ يُطْلِعْكَ عليهَ؛ فالخُبْرُ بمعنَى العِلْمِ. يُقالُ خَبِرَ فُلانٌ الأمرَ يَخْبُرُهُ أيّ عَلِمَهُ. والاسْمُ الخُبْرُ وهُوَ العِلْمُ بالشَّيءِ، ومِنهُ الخَبيرُ أيّ: العالِمُ؛ وكأنَّ الخَضرَ يُريدُ بهذِهِ الآيةِ الكريمةِ أنْ يَقولَ لِموسَى إنَّني واثِقٌ مِنْ أنَّكَ لنْ تَسْتطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؛ لأنَّ ما سأفْعَلُهُ سَيَصْطَدِمُ بالأحكامِ الظاهِرَةِ والمَنطِقِ العَقليِّ وبِغَيرَتِكَ المَعْهُودَةِ فِيكَ، وأنا مُكلَّفٌ بذلكَ؛ لِما فيهِ مِن المصلَحةِ الباطِنَةِ وهيَ تخفَى عليكَ؛ ولكنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ الحَريصُ على تَعلُّمِ العِلْمِ النافِعِ يُصِرُّ على مُصاحبَةِ الرَّجُلِ الصَّالحِ

(**قالَ**) لهُ في لُطْفٍ وأدَبٍ مع تقديمِ مَشيئةِ اللهِ تعالى (**سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**). (**قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**).

وهذا بيانٌ لِما حَدَثَ بَعدَ أنْ استَمَعَ كُلُّ واحدٍ مِنهُما إلى ما قالَ صاحِبُهُ (**فانْطَلَقا**) أيّ: انطلقَ مُوسَى والخَضرُ عليهِما السلامُ على ساحلِ البَحرِ ومَعهُما يُوشَعُ بنُ نُونٍ، ولمْ يُذْكَرْ في الآيةِ؛ لأنَّهُ تابِعٌ لِموسَى، ويَرَى بَعضُهم أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ صَرَفَ فَتاهُ بعدَ أنْ التقَى بِالخَضرِ.

أخرجَ الشَّيخانِ عن ابْنِ عبَّاسٍ: أنَّهُما انْطَلَقا يَمْشِيانِ على ساحلِ البَحرِ فَمَرَّتْ بِهِما سَفِينةٌ فَكلَّمُوهُمْ أنْ يَحْمِلُوهُمْ؛ فَعرَفُوا الخَضرَ فحَمَلُوهُما بِغَيرِ نَوْلٍ أيّ: بِغَيرِ أجْرٍ. وقولُه (**حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا**) فلمَّا اسْتقرَّا فِيها ما كانَ مِن الخَضرِ إلاّ أنْ خَرَقَها بأنْ قَلَعَ لوحًا مِن ألواحِها. فما كانَ مِن مُوسَى إلَّا أنْ (**قالَ**) لهُ على سَبيلِ

الاستِنكارِ والتعجُّبِ مِمَّا فَعلَهُ (**أَخَرَقْتَهَالِتُغْرِقَأَهْلَهَا**) أيّ: أفَعَلْتَ ما فَعَلْتَ لِتكُونَ عاقبةُ الرَّاكِبينَ فيها الغَرقَ والمَوتَ

(**لَقَدْجِئْتَشَيْئًاإِمْرًا**) والإِمْرُ الداهِيةُ. وأصْلُهُ: كُلُّ شَيءٍ شديدٍ كبيرٍ، ومِنهُ قولُهم: إنَّ القَومَ قَد أَمِرُوا؛ أيّ: كثُروا واشتدَّ شأنُهم. ويُقالُ: هذا أَمْرُ إِمْرُ أيّ: مُنكَرٌ غَريبٌ

(**قالَ**) الخَضرُ (**أَلَمْأَقُلْإِنَّكَلَنْتَسْتَطِيعَمَعِيَصَبْرًا**) أيّ: ألمْ أقُلْ مِنْ قَبْلُ إنَّكَ لَنْ تَسْتطِيعَ مُصاحَبَتي، ولا قُدْرَةَ لكَ على السُّكوتِ على تصرُّفاتي التي لا تُعرِفُ الحِكمَةُ مِن ورائِها؟

لكنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ رَدَّ مُعتَذِرًا لِما فَرَطَ مِنهُ (**قَالَلَاتُؤَاخِذْنِي**) أيُّها العَبْدُ الصَّالِحُ (**بِمَانَسِيتُ**) أيّ: بِسَببِ نِسْياني لِوصِيَّتُكَ في تَرْكِ السُّؤالِ والاعتِراضِ حتَّى يكونَ لي مِنْكَ البيانُ (**وَلَاتُرْهِقْنِيمِنْأَمْرِيعُسْرًا**) أيّ: ولا تُكَلِّفْني مِن أمْرِي مَشقَّةً في صُحْبَتي إيَّاكَ.

يُقالُ: أرهقَ فُلانٌ فُلانًا إذا أتعبَهُ وأثقلَ عليهِ وحَمَّلَهُ ما لا يُطِيقُهُ.

والمُرادُ: التمِسْ لِي عُذْرًا بِسَببِ النِّسيانِ، ولا تُضيِّقْ عليَّ الأمَرَ؛ فإنَّ في هذا التضييقِ ما يَحُولُ بيني وبينَ الانتِفاعِ بِعِلْمِكَ. وكأنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ الذي اعتزَمَ الصبْرَ وقَدَّمَ المَشِيئَةَ ورَضِيَ بِشُروطِ الخَضرِ في المُصاحَبةِ؛ كأنَّه قَد نَسِيَ كُلَّ ذلكَ أمامَ المُشاهَدةِ العمليَّةِ والتصرُّفِ الغَريبِ الذي صَدرَ مِن الخَضرِ دُونَ أن يَعْرِفَ لهُ سَبَبًا.

وهكذا الطبيعةُ البشريَّةُ تجَدُ لِلتجْرِبةِ العمليَّةِ وَقْعًا وطَعْمًا يَختلِفُ عن الوقْعِ والطعْمِ الذي تجَدُهُ عِندَ التصوُّرِ النظريِّ؛ فمُوسَى عليهِ السلامُ وَعَدَ الخَضرَ بأنَّهُ سَيصْبِرُ؛ إلاّ أنَّه بعدَ أنْ شاهدَ ما لا يُرضِيهِ استنكَرَ.

(**فَانْطَلَقَا**) أيّ: مُوسَى والخَضرُ لِلمرَّةِ الثانيةِ بَعدَ خُروجِهما مِن السفينةِ وقَبولِ الخَضرِ اعتِذارَ مُوسَى (**حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا**) في طَريقِهِما فما كانَ مِن الخَضرِ إلاّ أنْ أخَذَهُ (**فَقَتَلَهُ**) وهُنا: لَمْ يَسْتَطِعْ مُوسَى عليهِ السلامُ أنْ يَصْبِرَ على ما رأى أوْ أنْ يَكظِمَ غَيظَهُ (**قَالَ**) باستِنكارٍ وغَضَبٍ (**أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً**) أيّ: طاهِرةً بَريئةً مِن الذُّنوبِ (**بِغَيْرِ نَفْسٍ**) أيّ: بِغَيرِ أن تَرْتَكِبَ ما يُوجِبُ قَتْلَها؛ لأنَّها لَمْ تَقتُلْ غيرَها حتَّى تقتصَّ مِنها، وقَتلُكَ لِهذا الغُلامِ كان بِغَيرِ حَقٍّ (**لَقَدْ جِئْتَ**) أيُّها الرَّجُلُ (**شَيْئًا نُكْرًا**) أيّ: مُنْكَرًا عَظِيمًا. يُقالُ: نَكُرَ الأمْرُ أيّ: صَعُبَ واشتدَّ.

والمَقصُودُ: لقَد جِئْتَ شيئًا أشدَّ مِن الأوَّلِ في فَظاعَتِه واستِنكارِ العُقولِ لهُ (**قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) ومَرَّةً أُخْرى يُذَكِّرُهُ الخَضرُ بِالشَّرطِ الذي اشْتَرَطهُ عليهِ وبِالوعدِ الذي قطعَهُ على نفْسِه، وأضافَ لفظَ (لكَ) زِيادةً في التحديدِ والتعيينِ والتذكيرِ؛ أيّ: ألَمْ أقُلْ لكَ يا مُوسَى على سَبيلِ التأكيدِ والتوثيقِ إنَّكَ لَنْ تَسْتطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؛ لأنَّكَ لَمْ تُحِطْ عِلْمًا بِما أفْعَلُهُ.

ويُراجعُ مُوسَى نَفْسَهُ فيَجِدُ أنَّهُ قَد خالفَ ما اتَّفَقَ عليهِ مع الرَّجُلِ الصالِح مَرَّتَين؛ فيُبادِرْ بإخبارِ صاحبِه أنْ يترُكَ لهُ فُرصَةً أخيرةً (**قَالَ إِن سَأَلْتُكَ**) أيُّها الصَّديقُ (**عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا**) أيّ: بَعْدَ هذهِ المَرَّةِ

(**فَلَا تُصَاحِبْنِي**) أيّ: فلا تجْعَلْنِي صاحِبًا أو رَفِيقًا لكَ فإنَّكَ (**قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا**) أيّ: فإنَّكَ قَد بَلغْتَ الغايةَ التي تكونُ مَعذُوراً بَعدَها في فِراقي لِكَوني قَد خالَفْتُكَ مِراراً. وهذا الكلامُ مِن مُوسَى عليهِ السلامُ يدلُّ على اعتِذارِه الشديدِ لِلخَضرِ وعلى شِدَّةِ نَدَمِهِ على ما فَرَطَ مِنهُ، وعلى الاعترافِ لهِ بِخَطَئِه. قال القُرطبيُّ: كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا دعا لأحَدٍ بَدأ بِنَفْسِهِ فقالَ يومًا: "رَحْمَةُ اللهِ عَلَينا وعَلَى مُوسَى؛ لو صَبَرَ على صاحِبِهِ لَرأى العَجَبَ؛ ولكِنَّهُ قالَ: إن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي... ".

ثمَّ تَسوقُ لنا الآياتُ الكريمةُ الحادِثَ الثالِثَ والأخيرَ في تلكَ القِصَّةِ الزَّاخِرَةِ بالمُفاجآتِ والعَجائبِ فتقولُ (**فَانطَلَقَا**) أيّ: انطلَقَ مُوسَى والخَضرُ عليهِما السلامُ يُتابِعانِ سَيْرَهُما (**حَتَّى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ**) قيلَ: هيَ أنطاكيَّة، وقيلَ: هيَ قريةٌ بأرضِ الرُّومِ (**اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا**) والاستِطعامُ هو طَلَبُ الطَّعامِ، والمُرادُ بهِ هُنا: سؤالُ الضِّيافَة؛ لأنَّهُ هوَ المُناسِبُ لِمَقامِ مُوسَى والخَضرِ عليهِما السلامُ؛ ولأنَّ قَولَهُ تعالى (**فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا**) يدلُّ على ذلكَ، أيّ: فأبَى وامْتَنَعَ أهلُ تلكَ القريةِ عن ضِيافَتِهِما بُخْلاً مِنهُمْ وشُحًّا.

وقولُه تعالى (**فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا**) معطوفٌ على (**أَتَيا**)؛ أيّ: بعدَ أن امتنَعَ أهلُ القريةِ عن استِضافَتِهما تَجَوَّلا فِيها فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا مُرتفِعًا (**يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ**) أيّ: يَنْهَدِمَ ويَسْقُطَ (**فأقامَهُ**) الخَضرُ بأنْ سوَّاهُ وأعادَ إليه اعتِدالَهُ، أو نَقَضَهُ وأخَذَ في بِنائِهِ مِن جَديدٍ.

وهُنا لم يَتمالَكْ مُوسَى عليه السلامُ مَشاعِرَهُ؛ لأنَّهُ وَجَدَ نَفْسَهُ أمامَ حالةٍ مُتناقِضَةٍ؛ قومٍ بُخلاءَ أشحَّاءَ لا يَستحِقُّونَ العَونَ، ورَجُلٍ يُتْعِبُ نَفْسَهُ في إقامةِ حائطٍ مائلٍ لهُم، فهلَّا طَلَبَ مِنهُم أجْرًا على هذا العملِ الشاقِّ؛ خُصُوصًا وهُما جائِعانِ ولا يَجِدانِ مأوىً لهُما في تلكَ القريةِ لِذلكَ (**قالَ**) لِلخَضرِ (**لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**) أيّ: هلَّا طلَبْتَ أجْرًا مِن هَؤلاءِ البُخلاءِ على هذا العملِ حتَّى تَنتفِعَ بِهِ، وأنتَ تعْلَمُ أنَّنا جائِعانِ وهُمْ لمْ يُقدِّمُوا لنا حقَّ الضِّيافَةِ. فالآيةُ الكريمةُ تحريضٌ مِن مُوسَى لِلخَضرِ على أخْذِ الأجْرِ على عَمَلِهِ، ولَومِهِ على تَرْكِهِ مع أنَّهُما في أشدِّ الحاجةِ إليهِ. وكانَ هذا التحريضُ هو نهايةَ الصُّحبَةِ بينهما؛ لِذا (**قالَ**) الخَضرُ لِمُوسَى (**هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**) أيّ: هذا الذي قُلْتَهُ يَجْعَلُنا نَفْتَرِقُ؛ لأنَّكَ قُلْتَ لِي مِنْ قَبْلُ: (إِنْ سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي) وها أنتَ تَسْأَلُنِي وتُحَرِّضُنِي على أخْذِ الأجْرِ.

ومعَ ذلكَ انتَظِرْ (**سَأُنَبِّئُكَ**) قَبْلَ مُفارَقَتي لكَ (**بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**) أيّ: بتفسيرِ وَبيانِ ما خَفِيَ عليكَ مِن الأُمورِ الثلاثةِ التي لمْ تَستَطِعْ عليها صَبْرًا؛

لأنَّكَ لمْ يَكُنْ عِندَكَ ما عِنْدِي مِن العِلْمِ بأسْرارِها الباطِنَةِ التي أطلَعَني اللهُ تعالى عَليها.

(**أَمَّا السَّفِينَةُ**) التي خَرَقْتَها ولمْ تَرْضَ عن ذلكَ العَملِ (**فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ**) أيّ: لِضُعفاءَ مِن الناسِ لا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَ الظُّلْمِ عنهُم، ولمْ يَكُنْ لهُم ما يَتعيَّشُونَ مِنهُ سِواها (**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**) أيّ: أنْ أجْعَلَها ذاتَ عَيبٍ بِالخَرْقِ الذي خَرَقْتَها فيهِ، ولمْ أُرِدْ أنْ أُغْرِقَ أهْلَها كما ظَنَنْتَ يا مُوسَى، والسَّببُ في ذلكَ أنَّهُ (**كَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ**) ظالِمٌ يَتعقَّبُ السُّفُنَ الصالِحَةَ ويَسْتَولي عَليها ويأخُذُها اغتِصاباً وقَسْراً مِن أصْحابِها؛ فالعَيبُ الذي أحْدَثتَهُ في السَّفِينةِ كان سَبباً في نجَاتِها مِن يدِ ذلكَ المَلِكِ الظَّالِمِ، وبقائِها في أيدي أصحابِها المساكِين؛ فالضَّرَرُ الذي أحدَثتَهُ فِيها هُوَ دفْعاً لِضَررٍ أكْبَرَ كان ينتظِرُ أصحابَها المساكِين لو بقيتْ سليمةً.

ويَرى بَعضُهم أنَّ المُرادَ بِالوراءِ الأمامُ، ويَرى آخَرُونَ أنَّ المُرادَ بهِ الخَلْفُ.

وقالَ الزَّجَّاجُ: وراءَ يكونُ لِلخَلْفِ والأمامِ. ومَعناهُ: ما تَوارَى عَنْكَ واسْتَتَرَ.

وظاهِرُ قولِه تعالى (**يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**) يُفيدُ بأنَّ هذا المَلِكَ كانَ يأخُذُ كُلَّ سَفينةٍ سواءٌ أكانتْ صحيحةً أمْ مَعِيبَةً؛ ولكنَّ الحقيقةَ هيَ أنَّهُ كان يأخُذُ كُلَّ سَفينةٍ سليمةٍ؛ بِدليلِ (**فَأَرَدْتُ أَنْ أَعَيبَهَا حتَّى لا يأخُذَها**)، ومِنْ هُنا قالُوا: إنَّ لفظَ (سَفينَةٍ) هُنا مَوصُوفٌ لِصفَةٍ مَحذُوفةٍ؛ أيّ: يأخذُ كُلَّ سفينَةٍ صالِحَةٍ. وغَصْبًا مَنصُوبٌ على أنَّهُ مَصدرٌ مُبيِّنٌ لِنَوعِ الأخْذِ. والغَصْبُ مِن بابِ ضَرَبَ وهُوَ أخْذُ الشَّيءِ ظُلْماً وقَهْراً.

(**وَأَمَّا الْغُلَامُ**) الذي سبقَ لي أنْ قَتَلْتُهُ واعترَضْتَ عليَّ في قَتْلِهِ يا مُوسَى (**فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ**) ولمْ يَكُنْ هُوَ كذلكَ؛ فقَد أعْلَمَنِي اللهُ تعالى أنَّهُ طُبِعَ كافِرًا (**فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا**) والخَشْيَةُ هِيَ الخَوفُ الذي يَشُوبهُ تَعظِيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ عن عِلْمٍ بِما يُخْشَى مِنْهُ. ويُرْهِقُهُما مِن الإِرهاقِ وهُوَ أنْ يُحَمَّلَ الإِنسانُ ما لا يُطِيقهُ؛ أيّ: فَخَشِينا لو بَقِيَ هذا الغُلامُ حيًّا أنْ يُوقِعَ أبَويهِ في الطُّغيانِ والكُفْرِ لِشِدَّةِ مَحبَّتِهما لهُ وحِرصِهما على إرضائِه (**فأردنا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا**) والإِبدالُ هُوَ رَفْعُ شَيءٍ وإحلالُ آخرَ مَحَلَّهُ؛ أيّ: فأرَدْنا بِقَتْلِهِ بَدَلَ هذا الغُلامِ الكافرِ الطاغي بِوَلَدٍ آخرَ

(**خَيْرًا مِّنْهُ**) أيّ: مِن هذا الغُلامِ (**زَكَاةً**) أيّ: طهارةً وصَلاحًا (**وأقْرَبَ رُحْمًا**) أيّ: وأقْرَبَ في الرَّحمَةِ بهِما والعَطفِ عليهِما والطاعةِ لهُما (**وَأَمَّا الْجِدَارُ**) الذي أتْعَبْتُ نَفْسِي في إقامَتِه ولمْ يُعْجِبْكَ هذا مِنِّي

(**فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ**) ماتَ أبُوهُما وهُما صَغيرانِ (**فِي الْمَدِينَةِ**) أيّ: وهَذانِ الغُلامانِ يَسْكُنانِ في تِلكَ المَدينةِ التي عبَّرَ عنها القُرآنُ بِالقَريةِ سابِقًا في قَولِه (**فانْطَلَقَا حَتَّى إِذَآ أَتيا أَهْلَ قَرْيَةٍ**). ولعلَّ التعبيرَ عنها بالمَدينةِ هُنا لإِظهارِ اعتدادِ ما فيها مِن اليتيمَينِ وأبُوهُما الصالِح (**وَكَانَ تَحْتَهُ**) أيّ: تحتَ هذا الجِدارِ (**كَنزٌ لَّهُمَا**) مالٌ مَدفُونٌ مِن ذَهَبٍ وفِضَّةٍ. ولَعَلَّ أباهُما هو الذي دَفَنَهُ لهُما.

(**وَكَانَأَبُوهُمَاصَالِحًا**) أيّ: رَجُلاً مِن أهْلِ الصَّلاحِ والتقْوى؛ فكانَ ذلكَ مِنهُ سَبباً في رعايةِ وَلَدَيهِ وحِفْظِ مالِهما (**فَأَرَادَرَبُّكَ**) ومالِكُ أمْرِكَ ومُدَبِّرُ شُؤونِكَ؛ والذي يجبُ عليكَ أنْ تَسْتَسْلِمَ وتنقادَ لإرادته (**أَنْيَبْلُغَاأَشُدَّهُمَا**) أيّ: كمالَ رُشْدِهما وتمامَ نُموِّهما وقُوَّتِهما (**وَيَسْتَخْرِجَاكَنزَهُمَا**) مِن تحتِ هذا الجدارِ وهُما قادِرانِ على حِمايَتِه، ولولا أنَّي أقمْتُهُ لانْقَضَّ وخَرَجَ الكَنْزُ مِن تَحَتِه قبلَ اقتدارِهما على حِفْظِه وعلى حُسْنِ التصرُّفِ فيه (**رَحْمَةًمِّنرَّبِّكَ**) أيّ: وما أرادَهُ رَبُّكَ يا مُوسَى بِهَذَينِ الغُلامَينِ هوَ الرَّحمةُ التي ليسَ بعدَها رَحمَةٌ، والحِكْمَةُ التي ليسَ بَعدَها حِكمَةٌ، و(رَحْمَةً) مَفعولٌ لأجْلِه.

ثمَّ ينفضُ الخَضرُ يدَه مِن أنْ يكونَ قَد تصرَّفَ بِغَيرِ أمْرِ رَبِّهِ فيقولُ (**وَمَافَعَلْتُهُعَنْأَمْرِيذَلِكَتَأْوِيلُمَالَمْتَسَطِععَّلَيْهِصَبْرًا**) أيّ: وما فَعَلْتُ ما فَعَلْتُهُ عن اجتهادٍ مِنِّي أو عنْ رأيِيَ الشَّخْصِيِّ؛ وإنَّما فَعَلْتُ ما فَعَلْتُ بأمْرِ ربِّي ومالِكِ أمْري؛ وذلكَ الذي ذَكَرْتُه لكَ مِن تأويلِ تلكَ الأحداثِ هوَ الذي لمْ تَسْتَطِعْ عليهِ صَبْرًا، ولمْ تُطِقِ السُّكوتَ عليه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لمْ يُطْلِعْكَ على خَفاياها وبواطِنها كما أطلَعَني.

وحُذِفَتِ التاءُ مِن تَسْطِعْ تخفيفًا. يُقالُ: استطاعَ فُلانٌ هذا الشيءَ واسْتطاعَهُ بمعنَى أطاقَهُ وقَدِرَ عليه؛ وبذلكَ انكشفَ المستُورُ لِمُوسَى عليهِ السلامُ وظَهَرَ ما كان خافيًا عليهِ[1].

---

١) الوسيط لمُحمَّد سيِّد طِنطاويّ (ج٨/ ص٥٤٥- ٥٦٠).

التفسيرُ المُيسَّرُ

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ واذْكُرْ حينَ قالَ مُوسَى لخادمِه يُوشَع بنِ نُونٍ لا أزالُ أُتابِعُ السَّيْرَ حتَّى أصِلَ إلى مُلتَقَى البَحرَينِ، أوْ أسِيرَ زَمنًا طويلاً حتَّى أصِلَ إلى العَبْدِ الصالِحِ لأتعلَّمَ مِنهُ ما ليسَ عِنْدي مِن العِلْمِ.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ وَجَدًّا في السَّيرِ، فلمَّا وَصلا مُلتقَى البَحرَينِ جَلَسا عِندَ صَخْرةٍ، ونَسِيا حُوتَهُما الذي أُمِرَ مُوسَى بِأخْذِه مَعهُ قُوتًا لَهُما وَحمَلَهُ يُوشَعُ في مكتلٍ؛ فإذا الحُوتُ يُصبِحُ حيًّا ويَنْحَدِرُ في البَحْرِ ويَتَّخِذُ لهُ فيهِ طَريقًا.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ فلمَّا فارَقا المكانَ الذي نَسِيا فيهِ الحُوتَ وشَعَرَ مُوسَى بِالجُوعِ قالَ لِخادِمِه أَحْضِرْ إلينا غَداءنا لقَدْ لَقِيْنا مِنْ سَفَرِنا هذا تَعَبًا.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قالَ لهُ خادِمُهُ أتَذْكُرُ حينَ لَجَأنا إلى الصَّخْرَةِ التي اسْتَرَحْنا عِندَها؟ فإنِّي نَسِيتُ أنْ أُخْبِرَكَ ما كانَ مِن الحُوتِ، وما أنْساني أنْ أذكُرَ ذَلِكَ لكَ إلَّا الشَّيطانُ؛ فإنَّ الحُوتَ المَيْتَ دَبَّتْ فيهِ الحَياةُ، وقَفزَ في البَحْرِ، واتَّخَذَ لهُ فيهِ طَريقًا، وكانَ أمْرُهُ مِمَّا يُعْجَبُ مِنهُ.

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال مُوسَى ما حَصَلَ هوَ ما كُنَّا نَطْلُبُهُ؛ فإنَّهُ علامةٌ لي على مكانِ العَبْدِ الصَّالِحِ فَرجَعا يَقُصَّانِ آثارَ مَشْيِهِما حتَّى انتهيا إلى الصَّخْرةِ. ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ فَوجَدا هُناكَ عَبْدًا صالحًا مِن عِبادِنا هوَ الخَضرُ عليهِ السلامُ – وهوَ نبيٌّ مِن أنبياءِ اللهِ توفَّاهُ اللهُ – آتَيناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا عَظِيمًا. ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فَسَلَّمَ عَلَيهِ مُوسَى وقالَ لَهُ أتأذَنُ لي أنْ أتَّبِعُكَ لِتُعَلِّمَني مِن العِلْمِ الذي عَلَّمَكَ اللهُ إيَّاهُ ما أسْتَرْشِدُ بِهِ وأنْتفِعُ؟

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قالَ لهُ الخَضرُ إنَّكَ – يا مُوسَى – لنْ تُطِيقَ أنْ تَصْبِرَ على اتِّباعِي ومُلازَمَتي.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ وكيفَ لكَ الصَّبْرُ على ما سأفْعَلُهُ مِن أُمورٍ تَخفَى عليكَ مِمَّا عَلَّمَنيه اللهُ تعالى؟ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قالَ لهُ مُوسَى ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا﴾ على ما أراهُ مِنْكَ، ولا أُخالِفُ لكَ (أمرًا) تأمُرُني بِهِ.

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فَوافقَ الخَضرُ وقالَ لهُ فإنْ صاحَبْتَني فلا تَسْألْني عنْ شَيءٍ تُنْكِرُهُ حتَّى أُبيِّنَ لكَ مِن أمْرِهِ ما خَفِيَ عليكَ دُونَ سُؤالٍ مِنكَ.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ فانْطَلَقا يَمْشِيانِ على السَّاحِلِ فَمرَّتْ بهِما سَفِينةٌ، فَطلَبا مِن أهْلِها أنْ يَرْكَبا مَعهُم، فلمَّا رَكِبا قَلَعَ الخَضرُ لوحًا مِن السفينةِ فَخرَقَها، فقالَ لهُ مُوسَى: أخَرَقْتَ السفينةَ لِتُغْرِقَ أهْلَها وقَد حَمَلُونا بِغَيرِ أجْرٍ؟ لقَد فَعَلْتَ أمْرًا مُنْكَرًا.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قالَ لهُ الخَضرُ: لقَد قُلْتُ لكَ مِن أوَّلِ الأمْرِ إنَّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ الصَّبْرَ على صُحْبَتي.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ قالَ مُوسَى مُعْتَذِرًا: لا تُؤاخِذْني بِنِسْياني شَرْطِكَ عَلَيَّ، ولا تُكَلِّفْني مَشَقَّةً في تَعَلُّمِي مِنْكَ، وعامِلْني بِيُسْرٍ ورِفْقٍ.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ فَقَبلَ الخَضرُ عُذْرَهُ ثُمَّ خَرَجا مِن السفينةِ، فبينَما هُما يَمْشِيانِ على الساحلِ إذْ أبصَرا غُلامًا يلعبُ مع الغِلمانِ فَقتلَهُ الخَضرُ، فأنْكَرَ مُوسَى عليهِ وقالَ: كيفَ قتلْتَ نفْسًا طاهِرَةً لمْ تبلُغْ حَدَّ التكليفِ، ولمْ تقتُلْ نفْسًا حتَّى تستحِقَّ القتلَ بِها؟ لقَد فعلْتَ أمْرًا مُنكرًا عظيمًا.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قالَ الخَضرُ لِمُوسَى مُعاتِبًا ومُذكِّرًا: ألمْ أقُلْ لكَ إنَّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا على ما تَرَى مِن أفْعالي مِمَّا لمْ تُحِطْ بِه خُبْرًا؟

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ قالَ مُوسَى

لهُ: إنْ سألْتُكَ عنْ شَيءٍ بعدَ هذهِ المَرَّةِ فاتْرُكْنِي ولا تُصاحِبْني، قَد بَلَغْتَ العُذْرَ في شأني ولمْ تُقَصِّرْ؛ حيثُ أخبرتَنِي أنَّي لنْ أستطيعَ مَعكَ صَبْرًا.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فَذهبَ مُوسَى والخَضرُ حتَّى أتيا أهلَ قريةٍ، فَطلَبا مِنهُم طعامًا على سبيلِ الضِّيافةِ، فامْتنَعَ أهْلُ القريةِ عن ضِيافَتِهما، فَوجَدا فيها حائطًا مائلاً يُوشِكُ أنْ يَسْقُطَ؛ فَعَدَّلَ الخَضرُ مَيلَهُ حتَّى صارَ مُستويًا، قالَ لهُ مُوسَى: لو شِئْتَ لأخَذْتُ على هذا العَملِ أجْرًا تَصْرِفهُ في تحصيلِ طعامِنا حيثُ لمْ يُضيِّفُونا.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قالَ الخَضرُ لِمُوسَى: هذا وقتُ الفِراقِ بَيني وبينكَ، سأخْبِركَ بِما أنكَرتَ عليَّ مِن أفْعالي التي فعلتُها؛ والتي لمْ تَستَطِعْ صَبْرًا على تَرْكِ السُّؤالِ عنها والإنكارِ عليَّ فيها.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أمَّا السفينةُ التي خَرَقْتَها فإنَّها كانت لأُناسٍ مَساكينَ يَعمَلُونَ في البحرِ عليها سَعيًا وراءَ الرِّزقِ فأرَدتُ أنْ أعيبَها بذلكَ الخَرْقِ؛ لأنَّ أمامَهُم مَلِكًا يأخُذُ كُلَّ سفينةٍ صالحةٍ غَصْبًا مِن أصحابِها.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وأمَّا الغُلامُ الذي قتلتُه فكانَ في عِلْمِ اللهِ كافرًا، وكانَ أبُوهُ وأمُّهُ مُؤمنَينِ، فَخَشِينا لو بَقِيَ الغُلامُ حيًّا لحَمَلَ والدَيهِ على الكُفْرِ والطُّغيانِ لأجْلِ مَحبَّتِهِما إيَّاهُ أو لِلحاجَةِ إليهِ.

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ فأرَدْنا أنْ يُبْدِلَ اللهُ أبوَيهِ بمَنْ هوَ خَيرٌ منهُ صَلاحًا وديناً وبِرًّا بِهما

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ وأمَّا الحائِطُ الذي عَدَّلْتَ مَيلَهُ حتَّى اسْتَوى فإنَّهُ كان لِغُلامَينِ يَتيمَينِ في القريةِ التي فيها الجِدارُ، وكان تَحْتَهُ كَنْزٌ لهُما مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ، وكان أبوهُما رَجُلاً صالِحًا، فأرادَ رَبُّكَ أنْ يَكْبَرا ويَبْلُغا قُوَّتَهُما ويَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ بهِما. وما فَعلْتُ يا مُوسَى جميعَ الذي رأيتَني فَعَلْتُهُ عن أمْرِي ومِن تلقاءِ نفْسي؛ وإنَّما فَعَلْتُهُ عنْ أمْرِ اللهِ، ذَلِكَ الذي بَيِّنْتُ لكَ أسبابَهُ هو عاقبةُ الأُمورِ التي لمْ تَسْتَطِعْ صَبْرًا على تَرْكِ السُّؤالِ عنْها والإنْكارِ عليَّ فِيها[1].

١) تفسير الميسر (ج١/ص٣٠٠-- ٣٠٢).

أقوال المؤرخين والباحثين

وَرَدَ في كتابِ "البدايةِ والنهايةِ لابْنِ كثيرٍ" أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ رَحَلَ إلى الخَضرِ في طَلَبِ ما عِنْدَهُ مِن العِلْمِ اللدُنِّيِّ، وقَصَّ اللّٰهُ تعالى مِن خَبَرِهِما في كتابِه العزيزِ في سُورَةِ الكهفِ، وأوردْنا الحديثَ المُصرِّحَ بِذِكْرِ الخَضرِ عليهِ السلامُ، وأنَّ الذي رَحَلَ إليهِ هُو مُوسَى بنُ عِمرانَ عليهِ السلامُ نبيُّ بَني إسرائيلَ الذي أُنْزِلَتْ عليهِ التوراةُ.

وقَد اختُلِفَ في الخَضرِ في اسْمِهِ ونَسَبِهِ ونُبوَّتِه وحَياتِهِ إلى الآنَ، على أقوالٍ سأذْكُرُها.

أورَدَ الإمامُ ابنُ عساكرَ عنِ ابْنِ عبَّاسٍ أنَّه قالَ: الخَضرُ ابنُ آدمَ لِصُلْبِهِ، ونُسِيءَ لهُ في أجَلِهِ حتَّى يُكَذِّبَ الدَّجَّالَ. وقالَ هذا مُنقطِعٌ وغَريبٌ.

وقيلَ: إنَّ أطولَ بَني آدمَ عُمُرًا هوَ الخَضرُ، واسمُه خَضرُونُ بنُ قابيلَ بنِ آدمَ. وذَكَرَ ابنُ إسحاق: أنَّ آدمَ عليهِ السلامُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوفاةُ أخبرَ بَنيهِ أنَّ الطُّوفانَ سيَقَعُ بالنّاسِ، وأوصاهُمْ إذا كانَ ذلكَ أنْ يَحْمِلُوا جَسَدَهُ مَعهُمْ في السفينةِ، وأنْ يَدْفِنُوهُ في مكانٍ عَيَّنَهُ لهُم. فلمَّا كانَ الطُّوفانُ حَملُوهُ مَعهُم، فلمَّا هبطُوا إلى الأرضِ، أمرَ نُوحٌ بَنيهِ أنْ يَذْهَبُوا بِبَدَنِهِ فَيَدْفِنُوهُ حيثُ أوصَى فقالوا: إنَّ الأرضَ ليسَ بها أنيسٌ وعلَيها وَحْشَةٌ. فَحَرَّضَهُمْ وحثَّهُمْ على ذلكَ وقالَ: إنَّ آدمَ دَعا لِمَنْ يَلِي دَفْنَهُ بِطُولِ العُمُرِ، فَهابُوا المَسيرَ إلى ذلك المَوضِعِ في ذلكَ الوقتِ، فلَمْ يَزَلْ جَسَدُهُ عِنْدَهُمْ حتَّى كانَ الخَضرُ هو الذي تولَّى دَفْنَهُ، وأنجَزَ اللّٰهُ ما وَعدَهُ، فهُو يُحْيَى إلى ما شاءَ اللّٰهُ لهُ أنْ يَحيى.

وذَكَرَ ابنُ قُتيبَةَ في كتابِ "المَعارِف" عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ أنَّ اسمَ الخَضرِ "بليا أوْ إيليا بنُ ملكانِ بنِ فالغِ بنِ عابرِ بنِ شالِخِ بنِ أرفخشذ بنِ سامِ بنِ نُوحٍ عليهِ السلامُ. وقالَ إسماعيلُ بنُ أبي أُويسٍ: إنَّ الخَضرَ هو المُعمَّرُ بنُ مالِكِ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ نَصْرِ بنِ الأزْدِ. وقالَ غيرُه: هو خَضْرُونُ بنُ عمياييل بنِ اليفزِ بنِ العِيْصِ بنِ إسْحاق بنِ إبْراهيمَ الخليلِ.

ويُقالُ: هُوَ أرميا بنُ حلقيا.

وقيلَ: إنَّهُ كان ابْنَ فِرعَونَ صاحِبِ مُوسَى مَلِكِ مِصرَ، وهذا غَريبٌ جِدًّا.

وقيلَ: إنَّهُ ابنُ مالكٍ أخُو إلياسٍ قالهُ السُّدِّيُّ.

قيلَ: إنَّهُ كان على مُقدِّمةِ جيشِ ذي القرنَينِ.

وقيلَ: كان ابنَ بَعضِ مَن آمنَ بإبْراهِيمَ الخليلِ وهاجَرَ مَعهُ.

وقيلَ: كان نبيًّا في زَمَنِ بَشْتاسِب بنِ لهراسب. قالَ ابنُ جَريرٍ: والصَّحيحُ أنَّهُ كانَ مُتقدِّمًا في زمنِ "أفريدون بن أثفيان" حتَّى أدرَكَهُ مُوسَى عليهِ السلامُ. ورَوَى ابنُ عساكِرَ عن سعيد بنِ المُسيَّبِ أنَّهُ قالَ: الخَضرُ أُمُّهُ رُومِيَّةٌ وأبُوهُ فارِسيٌّ.

وَوَرَدَ ما يدلُّ على أنَّهُ كانَ مِن بَني إسرائيلَ في زمانِ فِرعَونَ أيضًا.

قالَ أبُو زَرْعَةَ في "دلائِلِ النبوَّةِ" عن ابنِ عبَّاسٍ عن أُبيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ عن رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ لَيلةَ أُسْرِيَ بهِ وَجَدَ رائِحَةً طيِّبةً، فقالَ: يا جِبْريلُ، ما هذهِ الرائِحةُ الطِّيِّبَةُ؟ قالَ: هذهِ رِيْحُ قبْرِ الماشِطَةِ وابْنَيها وزَوْجِها، وكان بَدْءُ ذلك أنَّ الخَضرَ كان مِن أشرافِ بَني إسرائيلَ، وكانَ مَمَرُّهُ بِراهِبٍ في صَومَعَتِه فتَطلَّعَ عليهِ الراهِبُ فَعلَّمَهُ الإسلامَ، فلمَّا بلغَ الخَضرَ زوَّجَهُ أبوهُ امْرأةً، فَعلَّمَها

الإسلامَ وأخَذَ عليها أنْ لا تعلم أحداً، وكان لا يَقْرَبُ النِّساءَ، ثُمَّ طلَّقَها، ثُمَّ زوَّجَهُ أبُوهُ بِأُخْرَى فَعلَّمَها الإسلامُ، وأخَذَ علَيها أنْ لا تَعلمَ أحداً، ثُمَّ طَلَّقَها، فَكَتَمَتْ إحْداهُما وأفْشَتْ عليهِ الأُخْرى، فانْطلَقَ هارِبًا حتَّى أتَى جزيرةً في البَحرِ، فأقْبَلَ رَجُلانِ يَحْتَطِبانِ فرأياهُ، فَكَتَمَ أحَدُهُما وأفْشَى عليهِ الآخَرُ، قالَ: قد رأيتَ الخَضرَ. فقيلَ: ومَنْ رآهُ مَعكَ؟ قالَ: فُلانٌ. فَسُئِلَ فَكَتَمَ، وكانَ مِن دِينِهِمْ أنَّهُ مَنْ كَذَبَ قُتِلَ؛ فَقُتِلَ. وكانَ قَد تزوَّجَ الكاتِمُ المَرأةَ الكاتِمَةَ.

قالَ: فبَينَما هيَ تَمْشِطُ بنتَ فِرعَونَ؛ إذْ سَقَطَ المِشْطُ مِن يَدِها، فقالتْ: تَعِسَ فِرعُونُ. فأخبَرَتْ أباها، وكانَ لِلمَرأةِ ابْنانِ وزَوْجٌ، فأرسلَ إليهِمْ فَراودَ المَرأةَ وزَوْجَها أنْ يَرجِعا عنْ دِينِهِما فأبَيا فقالَ: إنِّي قاتِلُكُما.

فقالا: إحسانٌ مِنْكَ إلينا إنْ أنتَ قَتَلْتَنا أنْ تَجْعَلَنا في قَبْرٍ واحدٍ. فَجَعلَهُما في قَبْرٍ واحدٍ. قالَ: وما وَجَدْتُ رِيْحًا أطيَبَ مِنهُما وقَد دَخَلْتُ الجَنَّةَ. وهذا المِشْطُ في أمْرِ الخَضرِ قَد يكونُ مُدْرَجًا مِن كلامِ أُبيِّ بنِ كَعْبٍ أوْ عَبْدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ.

وقيلَ: إنَّ كُنْيَتَهُ أبُو العبَّاسِ. والأشبَهُ: أنَّ الخَضرَ لقَبٌ غَلَبَ عليهِ.

وأوردَ البُخاريُّ عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ: "إنَّما سُمِّيَ الخَضرُ؛ لأنَّهُ جَلَسَ على فَرْوَةٍ بَيضاءَ؛ فإذا هيَ تهتزُّ مِن خَلْفِهِ خَضراءَ".

والفَرْوَةُ هي الحَشيشُ الأبيضُ وما أشبَهَهُ.

وقيلَ: الفَروةُ هي الأرضُ البيضاءُ التي لا نباتَ فِيها،

وقيلَ: هيَ الهَشِيمُ اليابسُ شَبَّهَهُ بِالفَروةِ، ومِنهُ قيلَ: فروةُ الرأسِ وهيَ جِلْدَتُهُ بِما عليها مِن الشَّعَرِ كما قال الراعي:

وَلَقَدَ تَرَى الحَبَشِيَّ حَولَ بُيوتِنا جَذِلاً إذا ما نالَ يومًا مأكَلا جَعْدًا أسَكَّ كأنَّ فَرْوَةَ رأسِهِ بُذِرَتْ فأنْبَتَ جانباهُ فُلفُلا.

وقال الخَطَّابيُّ: إنَّما سُمِّيَ الخَضرُ خَضرًا لِحُسْنِهِ وإشْراقِ وَجْهِهِ.

قلتُ: وهذا لا يُنافي ما ثَبَتَ في الصَّحيحِ؛ فإنْ كانَ ولا بُدَّ مِن التعليلِ بأحَدِهِما، فَما ثَبتَ في الصَّحيحِ أوْلَى وأقْوَى؛ بلْ لا يُلْتَفَتُ إلى ما عَداه.

وَروَى ابنُ عساكِرَ – أيضًا – عن ابْنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللّٰهُ عنهُما عن النبيِّ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ: " إنَّما سُمِّيَ الخَضرُ خَضرًا؛ لأنَّهُ صلَّى على فَرْوةٍ بَيضاءَ فاهْتَزَّتْ خَضْراءَ ". وهذا غَرِيبٌ مِن هذا الوجْهِ.

وعن الإمامِ مُجاهِدٍ قالَ: إنَّما سُمِّيَ الخَضرُ؛ لأنَّهُ كان إذا صَلَّى اخْضَرَّ ما حَولَهُ.

وتقدَّمَ أنَّ مُوسَى ويُوشَع عليهِما السلامُ لَمَّا رَجَعا يَقُصَّانِ الأثرَ، وَجَداهُ على طنْفَسَةٍ خضراءَ على كَبِدِ البَحْرِ وهوَ مُسَجًّى بِثَوبٍ قَد جَعلَ طَرَفاهُ مِن تحَتِ رأسِهِ وقَدَمَيهِ، فَسَلَّمَ عليهِ مُوسَى فَكَشَفَ عنْ وَجْهِهِ، فَرَدَّ وقالَ: أنَّى بأرْضِكَ السلامُ ! مَن أنتَ؟ قالَ: أنا مُوسَى. قالَ: مُوسَى بَني إسْرائيلَ؟ قالَ: نعمْ. فكانَ مِن أمْرِهِما ما قَصَّهُ اللّٰهُ في كِتابِهِ عنهُما. وقَد دلَّ سِياقُ القِصَّةِ على نُبوَّتِهِ مِن وُجُوهٍ:

أحدُها: قولُه تعالى: ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾.

الثاني: قولُ مُوسَى لهُ: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ**

صابِرًا ولا أعْصِي لَكَ أمْرًا* قالَ فإنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْألْنِي عَنْ شَيءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا).

فلَو كانَ وَلِيًّا وليسَ بِنَبيٍّ لمْ يُخاطِبْهُ مُوسَى بِهَذهِ المُخاطَبةِ، ولمْ يَرُدَّ على مُوسَى هذا الرَّدَّ؛ بلْ مُوسَى إنَّما سألَ صُحْبَتَهُ لِيَنالَ ما عِنْدَهُ مِن العِلْمِ الذي اخْتَصَّهُ اللهُ بِهِ دُونَهُ، فلَو كانَ غيرَ نبيٍّ لمْ يَكُنْ مَعْصُومًا، ولمْ تَكُنْ لِمُوسَى وهوَ نبيٌّ عَظِيمٌ ورَسُولٌ كريمٌ واجِبُ العِصْمَةِ كبيرُ رَغْبَةٍ ولا عَظِيمُ طلبةٍ في عِلْمِ وَلِيٍّ غيرِ واجِبِ العِصْمَةِ، ولَمَّا عَزَمَ على الذَّهابِ إليهِ والتفتيشِ عليهِ ولوْ أنَّهُ يمضِي حُقُبًا مِن الزَّمانِ.

الثالِثُ: ثُمَّ لَمَّا اجتمعَ بهِ تواضَعَ لهُ وعَظَّمَهُ واتَّبعَهُ في صُورَةِ مُسْتَفيدٍ مِنهُ؛ فدَلَّ على أنَّهُ نبيٌّ مِثْلُهُ يُوحَى إليهِ كما يُوحَى إليهِ، وقَد خُصَّ مِن العُلومِ اللدُنيَّةِ والأسرارِ النبويَّةِ بِما لمْ يُطْلِعْ اللهُ عليهِ مُوسَى نَبيَّ بَني إسرائيلَ الكريمِ.

وقَد احتجَّ بِهذا المَسْلَكِ بِعَينهِ "الرُّمانيُّ" على نبوَّةِ الخَضرِ.

الرابِعُ: أنَّ الخَضرَ أقدمَ على قَتْلِ الغُلامِ وما ذاكَ إلَّا لِلوحْيِ إليهِ مِن المَلِكِ العَلَّامِ.

وهذا دليلٌ مُستَقِلٌّ على نبوَّتِه وبُرهانٌ ظاهِرٌ على عِصْمَتِهِ؛ لأنَّ الوليَّ لا يَجُوزُ لهُ الإقدامُ على قَتْلِ النُّفوسِ بِمُجَرَّدِ ما يلقَى في خَلَدِهِ؛ لأنَّ خاطِرَهُ ليسَ بِواجِبِ العِصْمَةِ؛ إذْ يَجُوزُ عليهِ الخَطأُ بالاتِّفاقِ.

ولَمَّا أقدمَ الخَضرُ على قَتْلِ ذلكَ الغُلامِ الذي لمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ – عِلْمًا مِنْهُ بِأنَّهُ إذا بَلَغَ يَكْفُرُ ويَحْمِلُ أبَويهِ على الكُفْرِ لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِما لهُ فيُتابِعانه عليهِ؛ فَفِي قتْلِه مَصلَحةٌ عَظِيمةٌ تربُو على بقاءِ مُهْجَتِهِ صِيانَةً لأبَويهِ عنِ الوقوعِ في الكُفْرِ وعُقوبَتِه، دَلَّ ذلكَ على نبوَّتِه وأنَّهُ مُؤيَّدٌ مِن اللهِ بِعِصْمَتِه.

وقَد سَلكَ أبُو الفَرَجِ ابْنُ الجَوزيِّ طُرُقَ هذا المَسْلَكِ في الاحتِجاجِ على نبوَّةِ الخَضرِ وصَحَّحَهُ.

الخامِسُ: لَمَّا فَسَّرَ الخَضرُ تأويلَ تلكَ الأفاعيل لِمُوسَى وَوَضَّحَ لهُ عنْ حقيقةِ أمْرِه وَجَلَّى، قالَ بعدَ ذلكَ (**وَمافَعَلْتُهُعَنْأَمْرِي**) يعنِي: ما فَعَلْتُهُ مِنْ تِلْقاءِ نفْسِي؛ بلْ أُمِرْتُ بهِ وأُوحِيَ إليَّ فيهِ، فَدَلَّتْ هذهِ الوُجُوهُ على نُبوَّتِه.

ولا يُنافي ذلكَ حُصول وِلايَتِه؛ بلْ ولا رِسالَتِه كما قالَ آخَرُونَ.

وأمَّا كَونُهُ مَلَكًا مِن الملائِكَةِ فَغَريبٌ جِدًّا.

وإذا ثَبَتَتْ نُبوَّتُهُ كما ذَكَرْنا، لمْ يَبْقَ لِمَنْ قالَ بِوِلايَتِه – وإنَّ الوليَّ قَد يطلعُ على حقيقةِ الأُمورِ دونَ أربابِ الشرعِ الظاهرِ – مُسْتَنَدٌ يَسْتَنِدُونَ إليهِ، ولا مُعْتَمَدٌ يَعتَمِدُونَ عليهِ.

وأمَّا الخِلافُ في وُجُودِه إلى زمانِنا هذا؛ فالجُمهُورُ على أنَّهُ باقٍ إلى اليومِ.

قيلَ: لأنَّهُ دَفَنَ آدمَ عليهِ السلامُ بعدَ خُروجِهم مِن الطُّوفانِ فَنالَتْهُ دَعْوةُ أبيهِ آدمَ بِطُولِ الحياةِ.

وقيلَ: لأنَّهُ شَرِبَ مِن عَينِ الحَياةِ فَحَيِيَ.

وذَكَرُوا أخباراً اسْتَشْهَدُوا بِها على بقائِه إلى الآنَ سَنُورِدُها مع غَيرِها إنْ شاءَ اللّٰهُ تعالى.

قال البيهقيُّ: لَمَّا أرادَ مُوسَى أنْ يُفارِقَ الخَضرَ قالَ لهُ مُوسَى: أوْصِنِي.

قالَ: "كُنْ نَفَّاعًا ولا تَكُنْ ضَرَّاراً، كُنْ بَشَّاشًا ولا تَكُنْ غَضْبانا، ارْجِعْ عَنِ الَّلجاجَةِ ولا تَمْشِ في غَيرِ حاجةٍ.

وفي رواياتٍ أُخْرى: "ولا تَضْحَكْ إلَّا مِنْ عَجَبٍ".

وعنْ وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ أنّ الخَضرَ قالَ يا مُوسَى: "إنَّ النَّاسَ مُعذَّبُونَ في الدُّنيا على قَدْرِ اهتِمامِهِمْ بِها.

وقالَ بِشْرُ بنُ الحارثِ الحافيِّ رَحِمَهُ اللّٰهُ تعالى: "قالَ مُوسَى لِلخَضرِ أوصِني.

فقالَ: يَسَّرَ اللّٰهُ علَيكَ طاعَتَهُ.

وقَد وَرَدَ في ذلكَ حديثٌ مَرفُوعٌ رَواه الإمامُ ابنُ عساكرَ عنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللّٰهُ عنهُ أنَّ رَسُولَ اللّٰهِ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ: " قالَ أخِي مُوسَى: يا رَبِّ، وذَكَرَ كَلِمَةً، فأتاهُ الخَضرُ وهوَ فتىً طيِّبُ الرِّيحِ حَسَنُ بَياضِ الثِّيابِ مُشَمِّرها فقالَ: السلامُ عليكَ ورَحمَةُ اللّٰهِ يا مُوسَى بنَ عِمْرانَ، إنَّ ربَّكَ يقرأُ عليكَ السلامُ. قالَ مُوسَى: هوَ السلامُ وإليهِ السلامُ والحَمدُ للّٰهِ رَبِّ العالَمِينَ الذي لا أُحصِي نِعَمَهُ ولا أقْدِرُ على أداءِ شُكْرِهِ إلَّا بِمَعُونَتِه، ثُمَّ قالَ مُوسَى: أُرِيدُ أنْ تُوصِيني بِوَصيَّةٍ يَنفعُنِي اللّٰهُ بِها بَعْدَكَ. فقالَ الخَضرُ: يا طالبَ العِلْمِ؛ إنَّ القائلَ أقَلُّ مَلالةً مِن المُسْتَمِعِ، فلا تملّ جُلَساءكَ إذا حَدَّثْتَهُم.

واعْلَمْ أنَّ قَلْبَكَ وِعاء فانْظُرْ ماذا تَحْشُو بِه وِعاءكَ؟

واعْزِفْ عن الدُّنيا وأنْبِذْها وَراءكَ؛ فإنَّها لَيْسَتْ لكَ بِدارٍ، ولا لَكَ فيها مَحَلُّ قرارٍ، وإنَّما جُعِلَتْ بُلْغَةً لِلعبادِ، والتزوُّدِ مِنها لِيَومِ المَعادِ. وَرُضْ نَفْسَكَ على الصَّبْرِ تَخْلَصْ مِن الإثمِ.

يا مُوسَى: تَفرَّغْ لِلعِلْمِ إنْ كُنْتَ تُريدُهُ؛ فإنَّما العِلْمُ لِمَنْ تَفَرَّغَ لهُ. ولا تَكُنْ مِكْثاراً بِالمَنْطِقِ مِهداراً؛ فإنَّ كَثْرَةَ المَنْطِقُ تَشِينُ العُلماءُ وتُبْدِي مَساوِئَ السُّخفاءِ؛ ولَكِنْ

عليكَ بالاقْتِصادِ؛ فإنَّ ذلكَ مِن التوفيقِ والسَّدادِ، وأعْرِضْ عنِ الجُهَّالِ وباطِلِهِم، واحْلُمْ عنِ السُّفهاءِ؛ فإنَّ ذلكَ فِعلُ الحُكماءِ وزَينُ العُلماءِ.

إذا شتَمَكَ الجاهِلُ فاسْكُتْ عنهُ حِلْمًا وجانِبْهُ حَزْمًا؛ فإنَّ ما بَقِيَ مِن جَهْلِهِ عليكَ وسَبَّهُ إيَّاكَ أكثرُ وأعظمُ.

يا ابنَ عِمرانَ ولا تَرَ أنَّكَ أُوتِيْتَ مِن العِلْمِ إلَّا قليلاً؛ فإنَّ الانْدِلاثَ والتعَسُّفَ مِن الاقْتِحامِ والتَّكَلُّفِ.

يا ابْنَ عِمرانَ لا تَفْتَحَنَّ بابًا لا تَدْري ما غَلْقُهُ، ولا تُغْلِقَنَّ بابًا لا تَدْري ما فَتْحُهُ. يا ابْنَ عِمرانَ مَن لا تنتهي مِن الدُّنيا نَهَمَتْهُ ولا تَنْقَضِي مِنها رَغْبَتُهُ كيفَ يكونُ عابِدًا؟

ومَن يَحْقِرُ حالَهُ ويَتَّهِمُ اللهَ فِيما قَضَى لهُ كيفَ يكونُ زاهِدًا؟

هل يَكُفُّ عنِ الشَّهواتِ مَن غَلَبَ عليهِ هَواهُ؟ أوْ يَنْفَعُهُ طَلَبُ العِلْمِ والجَهْلُ قَد حَواهُ؟ أوْ سَعيُهُ إلى آخِرَتِه وهُوَ مُقْبِلٌ على دُنياهُ؟

يا مُوسَى: تَعَلَّمْ ما تَعلَّمْتَ لِتَعْمَلَ بهِ، ولا تَتَعَلَّمْهُ لِتُحَدِّثَ بهِ؛ فَيكُونَ عليكَ بَوارُهُ ولِغَيرِكَ نُورُهُ.

يا مُوسَى بنَ عِمرانَ اجْعَلِ الزُّهْدَ والتقوى لِباسَكَ، والعِلْمَ والذِّكْرَ كَلامَكَ، واسْتَكْثِرْ مِن الحَسَناتِ؛ فإنَّكَ مُصيبُ السَّيِّئاتِ، وَزَعْزِعْ بِالخَوفِ قلْبَكَ؛ فإنَّ ذلكَ يُرْضِي رَبَّكَ، واعْمَلْ خَيرًا؛ فإنَّكَ لا بُدَّ عامِلٌ سُوءًا. قَد وَعَظْتُ إنْ حَفِظْتَ.

قالَ: فَتَولَّى الخَضرُ وبَقِيَ مُوسَى مَحْزُونًا مَكْرُوبًا يَبْكِي".

قلتُ: لا يَصِحُّ هذا الحديثُ، وأظنُّهُ مِن صَنْعَةِ زكريَّا بنِ يحيَى الوقارِ المِصريِّ وكَذَّبَهُ غَيرُ واحدٍ مِن الأئمَّةِ، والعَجَبُ أنَّ الحافِظَ ابنَ عساكِرَ سَكَتَ عَنهُ.

وعن أبي أُمامةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأصْحابِه: ألا أُحَدِّثُكُمْ عن الخَضرِ؟ قالُوا: بلَى يا رَسُولَ اللهَ.

قالَ: "بينَما هُوَ ذاتَ يومٍ يَمْشي في سُوقِ بَني إسْرائيلَ أبْصَرَهُ رَجُلٌ مُكاتِبٌ، فقالَ: تَصدَّقْ عليَّ بارَكَ اللهُ فِيكَ.

فقالَ الخَضرُ: آمنت باللهِ، ما شاءَ اللهُ مِن أمْرٍ يكونُ، ما عِنْدي مِن شَيءٍ أُعْطِيكَهُ.

فقالَ المِسْكِينُ: أسألُكَ بِوَجْهِ اللهِ لَما تَصَدَّقْتَ عليَّ؛ فإنِّي نَظَرْتُ السِّيماءَ في وَجْهِكَ ورَجَوتُ البَرَكَةَ عِنْدَكَ.

فقالَ الخَضرُ: آمَنْتُ باللهِ ما عِنْدِي مِن شَيءٍ أُعْطِيْكَهُ إلَّا أنْ تأخُذَنِي فَتَبِيعَنِي.

فقالَ المِسْكِينُ: وهلْ يَسْتَقِيمُ هذا؟ قالَ: نَعمْ.

الحقّ أقولُ لكَ، لقَدْ سألتَنْي بأمْرٍ عَظِيمٍ، أمَا إنِّي لا أُخَيِّبْكَ بَوَجْهِ رَبِّي، بِعْني. فَقَدَّمَهُ إلى السُّوقِ فَباعَهُ بأرْبَعمائةِ دِرْهَمٍ؛ فَمكَثَ عِندَ المُشْتَري زَمانًا لا يَسْتَعمِلُهُ في شَيءٍ، فقالَ: لهُ إنَّكَ إنَّما ابْتَعْتَني التماسَ خَيرٍ عِنْدِي، فأوَصِني بِعَمَلٍ.

قالَ أكْرَهُ أنْ أشُقَّ عليكَ؛ إنَّكَ شَيخٌ كبيرٌ ضَعِيفٌ. قالَ: ليسَ تَشقُّ عَلَيَّ.

قالَ: فانْقُلْ هذهِ الحِجارةَ.

وكانَ لا يَنْقُلُها دُونَ سِتَّةِ نَفَرٍ في يَومٍ.

فَخَرَجَ الرَّجُلُ لِبَعْضِ حاجَتِه ثُمَّ انْصَرَفَ؛ وقَد نَقلَ الحِجارةَ في ساعَةٍ.

فقالَ: أحْسَنْتَ وأجْمَلْتَ وأطَقْتَ ما لمْ أرَكَ تُطيقُهُ. ثُمَّ عَرَضَ لِلرَّجُلِ سَفَرٌ فقالَ: إنِّي أحْسَبُكَ أمينًا فاخْلُفْني في أهْلِي خِلافَةً حَسَنَةً. قالَ فأوْصِني بِعَمَلٍ. قالَ: إنِّي أكْرَهُ أنْ أشُقَّ علَيكَ. قالَ: ليسَ تشُقُّ علَيَّ.

قالَ: فاضْرِبْ مِن اللَّبنِ لِبَيتِي حتَّى أَقْدمَ عَلَيكَ. فَمَضَى الرَّجُلُ لِسَفَرِهِ فَرَجَعَ؛ وقَد شَيَّدَ بِناءَهُ. فقالَ: أسألُكَ بِوَجْهِ اللهِ ما سَبِيلُكَ وما أمْرُكَ؟ فقالَ: سألْتَنِي بِوَجْهِ اللهِ، والسُّؤالُ بِوَجْهِ اللهِ أوْقَعَنِي في العُبُودِيَّةِ، سأخْبِرُكَ مَن أنا. أنا الخَضرُ الذي سَمِعْتَ بهِ، سألَنِي مِسْكِينٌ صَدَقةً فَلَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَيءٌ أُعْطيه، فَسألَنِي بِوَجْهِ اللهِ فأمْكَنْتُهُ مِن رَقَبَتِي فَباعَنِي، وأخْبَرَكَ أنَّهُ مَن سُئِلَ بِوَجْهِ اللهِ فَرَدَّ سائِلَهُ وهُوَ يَقْدِرُ وَقَفَ يَومَ القِيامَةِ جِلْدُهُ لا لَحْمَ لهُ ولا عَظمَ يَتَقَعْقَعُ.

فقالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ باللهِ، شَقَقْتُ عليكَ يا نَبيَّ اللهِ ولمْ أعلَمُ.

فقالَ: لا بأسَ أحْسَنْتَ وأبْقَيْتَ.

فقالَ الرَّجُلُ: بِأبي وأُمِّي يا نَبيَّ اللهِ احْكُمْ في أهْلِي ومَالي بِما أراكَ اللهُ، أوْ أُخَيِّرْكَ فأُخْلِي سَبيلَكَ.

فقالَ: أُحِبُّ أنْ تُخَلِّي سَبِيلي فأعْبُدَ رَبِّي فَخَلَّى سَبِيلَهُ.

فقالَ الخَضرُ: الحَمدُ للهِ الذي أوقَعَنِي في العُبُودِيَّةِ ثُمَّ نجَّاني مِنها ".

وهذا حديثٌ رَفْعُهُ خطأٌ، والأشْبَهُ أنْ يكونَ مَوقُوفًا، وفي رِجالِهِ مَنْ لا يُعْرَفُ فاللهُ أعلمُ.

وقَد رَواهُ ابنُ الجَوزيِّ في كِتابِهِ "عُجالَةُ المُنتظر في شَرْحِ حالِ الخَضرِ" مِن طريقِ عَبْدِ الوهَّابِ بنِ الضَّحَّاكِ وهُوَ مَتْرُوكٌ عن بَقيَّةٍ.

ورَوى ابنُ عساكِر بإسناده إلى السُّدِّيِّ أنَّ "الخَضِرَ وإلياسَ" كانا أخَوينِ، وكان أبوهُما مَلِكًا، فقالَ إلياسٌ لأبيهِ: إنَّ أخِي الخَضرَ لا رَغْبَةَ لهُ في المُلْكِ، فلَو أنَّكَ زَوَّجْتَهُ لَعلَّهُ يَجِيءُ مِنْهُ وَلَدٌ يكونُ المُلْكُ لهُ. فَزَوَّجَهُ أبُوهُ بِامْرأةٍ حَسْناءَ بِكْرٍ، فقالَ لها الخَضرُ: إنَّهُ لا حاجةَ لِي في النِّساءِ؛ فإنْ شِئْتِ أطلَقْتُ سَراحَكِ، وإنْ شِئْتِ أقَمْتِ مَعِي تَعبُدِينَ اللهَ عزَّ وجلَّ وتَكْتُمِينَ عليَّ سِرِّي. فقالَتْ: نعمْ.

وأقامَتْ مَعهُ سَنَةً، فلمَّا مَضَتِ السَّنَةُ دَعاها المَلِكُ فقالَ: إنَّكِ شابَّةٌ وابْني شابٌّ فأينَ الولَدُ؟ فقالتْ: إنَّما الولدُ مِن عِنْدِ اللهِ إنْ شاءَ كانَ وإنْ لمْ يَشأْ لمْ يَكُنْ.

فأمَرَهُ أبُوهُ فَطَلَّقَها وَزَوَّجَهُ أُخْرَى ثَيِّبًا قَد وُلِدَ لها. فلمَّا زُفَّتْ إليهِ قالَ لها كَما قالَ لِلتي قبْلَها، فأجابَتْ إلى الإقامَةِ عِنْدَهُ، فلمَّا مَضَتِ السَّنَةُ سألَها المَلِكُ عن الولَدِ، فقالتْ: إنَّ ابْنَكَ لا حاجةَ لهُ في النِّساءِ. فتَطَلَّبَهُ أبُوهُ فَهَرَبَ، فأرْسَلَ وَراءهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا عليهِ، فيُقالُ: إنَّهُ قَتَلَ المرأةَ الثانيةَ؛ لِكَونِها أفْشَتْ سِرَّهُ فَهَرَبَ مِنْ أجْلِ ذَلِكَ، وأطلقَ سَراحَ الأُخْرَى فأقامَتْ تَعْبُدُ اللهَ في بَعضِ نَواحِي تلكَ المَدينةِ، فمَرَّ بِها رَجُلٌ يومًا فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: بِسْمِ اللهِ. فقالتْ لهُ: أنَّى لكَ هذا الاسْمِ؟ فقالَ: إنِّي مِن أصحابِ الخَضرِ. فَتَزوَّجَتْهُ فولدَتْ له أوْلاداً، ثمَّ صارَ مِن أمْرِها أنْ صارَتْ ماشِطَةَ بِنْتِ فِرعَونَ، فبينَما هِيَ يومًا تَمْشِطُها إذْ وَقَعَ المِشْطُ مِن يَدِها فَقالَتْ: بِسْمِ اللهِ.

فقالتْ ابنَةُ فِرعَونَ: أبِي؟ فقالتْ: لا، رَبِّي ورَبُّكِ ورَبُّ أبيكِ اللهُ. فأعْلَمَتْ أباها، فأمَرَ بِبَقَرَةٍ مِن نُحاسٍ فأُحْمِيَتْ ثُمَّ أمرَ بِها فألْقِيَتْ فيهِ، فلمَّا عايَنَتْ ذلكَ تقاعَسَتْ أنْ تقعَ فِيها، فقالَ لها ابنٌ مَعَها صغيرٌ: يا أُمَّه اصْبِري؛ فإنَّكِ على الحَقِّ. فألْقَتْ نَفْسَها في النارِ فَماتتْ رَحِمَها اللهُ.

وقَد رَوَى ابنُ عساكِرَ عن أبي داودٍ الأعمَى نفيع، وهو كذَّابٌ وضَّاعٌ، عن أنسِ بنِ مالكٍ من طريقِ كثير بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ عَوفٍ، وهوَ كذَّابٌ أيضًا، عن أبيهِ عنْ جَدِّهِ أنّ الخَضرَ جاءَ ليلةً فَسَمِعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كلامَهُ وهُوَ يدعُو ويقولُ: "اللهُمَّ أعِنِّي على ما يُنْجِيني مِمَّا خَوَّفْتَنِي، وارْزُقْنِي شَوْقَ الصَّالحِينَ إلى ما شَوَّقْتَهُمْ إليهِ".

فبَعثَ إليهِ رَسُولُ اللهِ أنَسَ بنَ مالكٍ فَسَلَّمَ عليهِ؛ فَرَدَّ عليهِ السلامَ وقالَ لهُ: "قُلْ لهُ إنَّ اللهَ فَضَّلَكَ على الأنبياءِ كَما فَضَّلَ شَهْرَ رَمَضانَ على سائرِ الشُّهُورِ، وفَضَّلَ أُمَّتَكَ على الأُممِ كَما فَضَّلَ يومَ الجُمُعَةِ على غَيرِهِ". الحديثُ وهُوَ مَكْذُوبٌ لا يَصِحُّ سَنداً ولا مَتْنًا.

كيفَ لا يتمثَّلُ بينَ يَدَي رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ويَجِيءُ بِنَفْسِهِ مُسَلِّمًا ومُتَعَلِّمًا، وَهُمْ يَذْكُرُونَ في حكاياتِهِم وما يَسْنُدُونَهُ عن بَعضِ مَشايخِهِم أنَّ الخَضرَ يأتي إليهِم ويُسَلِّمُ عليهِم، ويَعرِفُ أسماءَهُم ومَنازِلَهُم ومَحالَّهُم.

وهوَ مع هذا لا يَعرِفُ مُوسَى بنَ عِمرانَ كليمَ اللهِ الذي اصْطَفاهُ اللهُ في ذلكَ الزَّمانِ على مَنْ سِواهُ حتَّى يتعرَّفَ إليهِ بأنَّهُ مُوسَى بَني إسْرائيلَ.

وقَد قالَ الحافظُ أبُو الحُسينِ بنِ المُنادى بَعْدَ إيرادِه حديثَ أنسٍ هذا: وأهْلُ الحديثِ مُتَّفِقُونَ على أنَّهُ حديثٌ مُنكَرُ الإسنادِ سَقيمُ المَتنِ يَتبَيَّنُ فيهِ أثرُ الصَّنْعَةِ.

وأمَّا الحديثُ الذي رَواهُ الحافظُ أبُو بَكْرٍ البيهقيُّ عن أنَسِ بنِ مالكٍ أنَّهُ لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أحدَقَ بهِ أصْحابُهُ فَبَكَوا حَوْلَهُ واجْتَمَعُوا، فَدَخَلَ رَجُلٌ أشْهَبُ اللِّحْيَةِ جَسِيمٌ صَبِيحٌ فَتَخَطَّى رِقابَهُمْ، فَبَكَى ثُمَّ الْتفَتَ إلى أصحابِ

رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فَقالَ: "إنَّ في اللهِ عَزاءً مِنْ كُلِّ مُصيبَةٍ وعَوضًا مِنْ كُلِّ فائتٍ وخَلَفًا مِنْ كُلِّ هالِكٍ؛ فإلى اللهِ فأنيبُوا وإليهِ فارْغَبُوا، ونَظَرُهُ إليكُمْ في البَلاءِ فانْظُرُوا؛ فإنَّ المُصابَ مَنْ لمْ يُجْبَرْ، وانْصَرَفَ. فَقالَ بَعضُهُم لِبَعضٍ: تَعْرِفُونَ الرَّجُلَ؟ فقالَ أبُو بَكْرٍ وعليٌّ نَعمْ.

هذا أخُو رَسُولِ اللهِ صلَّى الخَضرُ عليهِ السلامُ. وقَد رَواهُ أبُو بَكْرِ بنُ أبي الدُّنيا عنِ كاملِ بنِ طَلْحَةَ وفِي مَتْنِهِ مُخالفَةٌ لِسياقِ البيهَقيِّ. قالَ البيهقيُّ: هذا مُنكَرٌ، وقال البُخاريُّ: مُنكَرُ الحديثِ، وقالَ أبُو حاتمٍ: ضعيفُ الحَديثِ جِدًّا مُنْكَرُهُ، وقالَ ابنُ عديٍّ: ضَعيفٌ غالٍ في التشَيُّعِ.

وقالَ الشافِعيُّ في مُسْنَدِه عن عليٍّ بنِ الحُسينِ: لَّما تُوفِّي رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وَجاءَ التعزِيةَ سَمِعُوا قائلاً يقولُ: "إنَّ في اللهِ عَزاءً مِن كُلِّ مُصيبَةٍ، وخَلَفًا مِن كُلِّ هالِكٍ، ودَركًا مْنْ كُلِّ فائتٍ؛ فبِاللهِ فَثِقُوا وإيَّاهُ فارْجُوا؛ فإنَّ المُصابَ مَنْ حُرِمَ الثوابَ".

قال عليٌّ بنُ الحُسينِ: أتَدْرُونَ مَن هذا؟ هذا الخَضرُ.

قالَ شيخُ الشافعيِّ القاسِمُ العُمرِيُّ: مَتْرُوكٌ.

وقالَ أحمدُ بنُ حَنْبَلَ ويَحيَى بنُ مَعينٍ: يَكْذِبُ، زادَ أحمدُ: ويَضَعُ الحديثَ، ثُمَّ هُوَ مُرْسَلٌ ومِثْلُهُ لا يُعْتَمَدُ عليهِ ها هُنا واللهُ أعلَمُ.

وقَد رُوِيَ مِن وَجْهٍ آخرَ ضَعيفٍ عن جَعْفَرَ بنِ مُحمَّدٍ عن أبيهِ عَن جَدِّهِ عَن أبيهِ عَن عليٍّ ولا يَصِحُّ.

وقد رَوَى عَبْدُ اللهِ بنُ وَهْبٍ عَمَّنْ حَدَّثَهُ أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنهُ بينَما هوَ يُصلِّي على جِنازةٍ إذْ سَمِعَ هاتِفًا وهُو يقولُ: "لا تَسْبِقْنا يَرْحَمُكَ اللهُ".

فانْتَظرَهُ حتَّى لحِقَ بِالصَّفِّ، فَذكَرَ دُعاءَهُ لِلمَيْتِ "إنْ تُعَذِّبْهُ فَكثيراً عَصاكَ، وإنْ تَغْفِرْ لهُ فَفَقِيرٌ إلى رَحْمَتِكَ". ولَمَّا دُفِنَ قالَ: "طُوبَى لكَ يا صاحِبَ القبْرِ؛ إنْ لمْ تَكُنْ عَرِيفًا، أو جابِيًا، أو خازِنًا، أو كاتِبًا، أو شُرَطِيًّا". فقالَ عُمَرُ: خُذُوا الرَّجُلَ نَسْألهُ عن صَلاتِهِ وكَلامِهِ عَمَّنْ هُوَ. فَتَوارَى عَنْهُم، فَنَظَروا فإذا أثَرُ قَدَمِهِ ذِراعٌ. فقالَ عُمَرُ: هذا واللهِ الخَضرُ الذي حدَّثَنا عَنهُ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهذا الأثرُ فيهِ مُبْهَمٌ، وفيهِ انقِطاعٌ، ولا يَصحُّ مِثْلُهُ.

ورَوَى ابنُ عساكِر عنْ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ أنَّهُ قالَ: "دَخَلْتُ الطَّوافَ في بَعْضِ الليلِ، فإذا أنا بِرَجُلٍ مُتعَلِّقٌ بأسْتارِ الكَعْبَةِ وهُوَ يَقولُ: "يا مَنْ لا يَمْنَعُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، ويا مَنْ لا تُغْلِطُهُ المَسائِلُ، ويا مَنْ لا يُبْرِمُهُ إلحاحُ المُلِحِّينَ ولا مَسألَةُ السائِلينَ؛ ارْزُقْنِي بَرْدَ عَفْوِكَ وحَلاوةَ رَحْمَتِكَ".

فَقُلْتُ: "أعِدْ عليَّ ما قُلْتَ". فقالَ لي: "أوَ سَمِعْتَهُ؟ قُلْتُ: "نعمْ".

فقالَ لي: "والذي نَفْسُ الخَضرِ بِيَدِهِ"، وكانَ هوَ الخَضرُ، لا يَقولُها عَبْدٌ خَلْفَ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ إلَّا غَفَرَ اللهُ لهُ ذُنُوبَهُ؛ ولو كانتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ ووَرَقِ الشَّجَرِ وعَدَدَ النُّجومِ لَغَفَرَها اللهُ لهُ". وهذا ضعيفٌ ومِثْلُ هذا لا يَصِحُّ واللهُ أعلمُ.

ورَواهُ أبُو إسماعيلَ التِّرْمِذيُّ قالَ: بينَما عليُّ بنُ أبي طالبٍ يَطُوفُ بالكَعْبَةِ، إذا بِرَجُلٍ مُتعَلِّقٌ بأسْتارِ الكَعبةِ وهوَ يقولُ: "يا مَنْ لا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، ويا مَنْ لا

يُـغْلِطُهُ الـسَّائِـلُونَ، ويـا مَـنْ لا يَـتَبَرَّمُ بِـإلحـاحِ المُـلِحِّينَ، أذِقْـنِي بَـرْدَ عَـفْوِكَ وحَـلاوَةَ رَحْمَتِكَ" . فقالَ لهُ عليٌّ: "يا عَبْدَ اللهِ أعِدْ دُعاءكَ هذا" . قالَ: "أوَ قَدْ سَمِعْتَهُ؟" قالَ: "نعمْ" . قالَ: "فادْعُ بِهِ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ؛ فَو الذي نَفْسُ الخَضرِ بِيَدِهِ، لو كانتْ عليكَ مِن الذُّنوبِ عَددَ نجُومِ السَّماءِ ومَطرِها، وحَصباءِ الأرضِ وتُرابِها، لَغَفَرَ لكَ أسرعَ مِن طَرْفَةِ عَينٍ" .

وهذا – أيضًا – مُنقَطِعٌ وفي إسنادِه مَن لا يُعرَفُ واللهُ أعلمُ.

وقَد أورَدَهُ ابنُ الجَوزيِّ مِن طريقٍ آخَرَ ثُمَّ قالَ: وهذا إسنادٌ مَجْهُولٌ مُنقَطِعٌ، وليسَ فيه ما يدلُّ على أنَّ الرَّجُلَ هُوَ الخَضرُ.

وقالَ ابنُ عساكِر عن عطاءٍ عن ابنِ عبَّاسٍ ولا أعلَمُهُ إلَّا مَرفُوعًا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ: يلتقِي الخَضرُ وإلياسُ كُلَّ عامٍ في المَوسِمِ، فَيَحْلِقُ كُلُّ واحدٍ مِنهُما رأسَ صاحِبِهِ، ويَتَفَرَّقانِ عن هَؤلاءِ الكَلماتِ: "بِسْمِ اللهِ ما شاءَ اللهُ، لا يَسُوقُ الخَيرَ إلاَّ اللهُ، ما شاءَ اللهُ لا يَصْرِفُ الشَّرَّ إلَّا اللهُ، ما شاءَ اللهُ ما كانَ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ، ما شاءَ اللهُ لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ" .

قال ابنُ عبَّاسٍ: "مَنْ قالَهُنَّ حينَ يُصْبِحُ وحِينَ يُمْسِي ثلاثَ مَرَّاتٍ آمَنَهُ اللهُ مِنْ الغَرَقِ والحَرَقِ والسَّرَقِ، وأحْسَبُهُ قالَ: "ومِنَ الشَّيطانِ والسُّلطانِ والحَيَّةِ والعَقَرَبِ" . قال الدارقُطنيُّ في الأفرادِ: هذا حديثٌ غريبٌ وليسَ بِالمَعْرُوفِ.

وقالَ أبُو جَعفَر العُقَيليُّ: مجهولٌ وحَديثهُ غيرُ مَحفُوظٍ.

وقال أبو الحُسينِ ابنُ المُنادي هو حَديثٌ واهٍ.

وقَد رَوَى ابنُ عساكِر نحوهُ من طريقِ عليٍّ بنِ الحَسَنِ الجهضميّ، وهُوَ كذَّابٌ، عن عليٍّ بنِ أبي طالِبُ مَرفُوعًا قال: "يَجْتَمِعُ كُلَّ يومِ عَرَفَةَ بِعَرَفاتٍ جِبْرِيلُ ومِيكائِيلُ وإسْرافِيلُ والخَضرُ"، وذَكَرَ حَدِيثًا طويلاً مَوضُوعًا تَرَكْنا إيرادَهُ قَصْدًا ولله الحَمدُ.

ورَوَى ابنُ عساكِر من طريقِ هِشامِ بن خالِد قالَ: "إلياسُ والخَضرُ يَصُومانِ شَهْرَ رمضانَ في بَيتِ المَقْدِسِ، ويَحُجَّانِ في كُلِّ سَنَةٍ، ويَشْرَبانِ من ماءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً واحِدَةٍ تكْفِيهِما إلى مِثْلِها من قابلٍ".

ورَوَى ابنُ عساكِر: أنَّ الوليدَ بنَ عَبْدِ المَلِكِ بنِ مَروانَ، بانِي جامعِ دِمَشْقَ، أحَبَّ أنْ يَتعَبَّدَ ليلةً في المَسْجِدِ فأمَرَ القَومَةَ أن يُخْلُوهُ لهُ فَفَعَلُوا، فلمَّا كانَ من الليلِ جاءَ من بابِ السَّاعاتِ فَدَخَلَ الجامِعَ فإذا رَجُلٌ قائِمٌ يُصلِّي فِيما بَينَهُ وبينَ بابِ الخَضْراءِ، فقالَ لِلقَومةِ: ألمْ آمُرُكُمْ أنْ تُخْلُوهُ؟ فقالُوا: يا أميرَ المُؤمِنينَ هذا الخَضرُ يَجِيءُ كُلَّ ليلةٍ يُصلِّي ها هُنا.

وقالَ ابنُ عساكِر عن رباحِ بنِ عُبيدَةَ قالَ: رأيتُ رَجُلاً يُماشِي عُمَرَ بنَ عَبْدِ العَزيزِ مُعتمِداً على يديهِ فَقُلْتُ في نفْسِي إنَّ هذا الرَّجُلَ جافٍ.

فلمَّا انْصَرَفَ منَ الصَّلاةِ قُلْتُ: مَن الرَّجُلُ الذي كانَ مُعتَمِداً على يَدِكَ آنفًا؟

قالَ: وهلْ رأيْتَهُ يا رَباحُ؟ قُلْتُ: نَعمْ. قالَ: ما أحْسَبُكَ إلاّ رَجُلاً صالحًا. ذاكَ أخِي الخَضرُ بَشَّرَني أنَّي سألي وأعدلُ.

قالَ ابنُ الجَوزيُّ: الراوي مَجْرُوحٌ عِندَ العُلماءِ، وقَدَحَ ابنُ المُنادي في رياحٍ، ثمَّ أورَدَ من طُرُقٍ أُخْرى عنْ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزيزِ أنَّه اجتمَعَ بالخَضرِ وضَعَّفَها كُلَّها. ورَوَى ابنُ

عساكر – أيضًا – أنَّهُ اجتمعَ بإبراهيمَ التيميِّ وسُفْيانَ بنِ عُيينَةَ وجَماعةٍ يَطُولُ ذِكْرُهُم.

وهذهِ الرِّواياتُ والحِكاياتُ هِيَ عُمْدَةُ مَن ذَهبَ إلى حَياتهِ إلى اليومِ.

وكُلٌّ مِن الأحاديثِ المَرفُوعةِ ضَعيفةٌ جِدًّا لا يَقُومُ بِمِثْلِها حُجَّةٌ في الدِّينِ، والحِكاياتُ لا يَخلُو أكثَرُها عن ضَعْفٍ في الإسنادِ، وقُصاراها أنَّها صَحيحَةٌ إلى مَن ليسَ بِمَعْصُومٍ مِن صَحابيٍّ أو غَيرِهِ؛ لأنَّهُ يَجُوزُ عليهِ الخَطأُ واللهُ أعلمُ

وعن أبي سَعيدٍ أنَّهُ قالَ: حَدَّثنا رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حَديثًا طويلاً عنِ الدَّجَّالِ، فقالَ فِيما حَدَّثنا يأتِي الدَّجَّالُ، وهُوَ مُحَرَّمٌ عليهِ أنْ يَدْخُلَ نِقابَ المَدينةِ، فَيَخْرُجُ إليهِ يَومَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيرُ النَّاسِ أوْ مِن خَيرِهِم، فَيَقُولُ: أشْهَدُ أنَّكَ أنتَ الدَّجَّالُ الذي حَدَّثنا رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بِحَديثِهِ. فيَقُولُ الدَّجَّالُ: أرأيتُمْ إنْ قَتَلْتَ هذا ثمَّ أحْيَيْتُهُ أتَشُكُّونَ في الأمْرِ؟ فيَقُولُونَ: لا. فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فيَقُولُ حينَ يَحْيى واللهِ ما كُنْتُ أشَدَّ بَصيرةً فيكَ مِنِّي الآنَ. قالَ: فيُريدُ قَتْلَهُ الثانيةَ فَلا يُسَلَّطُ عليهِ. قالَ: بَلَغَنِي أنَّهُ يَجْعَلُ على حَلْقِهِ صَفيحَةٍ مِن نُحاسٍ، وبَلَغَني أنَّهُ الخَضرُ الذي يَقْتُلُهُ الدَّجَّالُ ثُمَّ يُحْيِيهِ. وهذا الحديثُ مُخَرَّجٌ في الصَّحيحَينِ.

وقالَ أبُو إسحاقٍ الفَقيهُ الرَّاوي: الصَّحيحُ أنْ يُقالَ إنَّ هذا الرَّجُلَ الخَضر.

وقولُ مَعْمَرٍ وغَيرُهُ: بَلَغَني ليسَ فيهِ حُجَّةٌ.

وقَد وَرَدَ في بَعضِ ألفاظِ الحَديثِ: فيأتي بِشَابٍّ مُمْتَلِئٍ شَبابًا فَيَقْتُلَهُ.

وقولُه: الذي حَدَّثنا عنهُ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يَقتَضِي المُشافَهةَ؛ بلْ يكفي التواترُ.

وقَد تَصدَّى ابنُ الجَوزيِّ في كِتابهِ "عُجالةُ المُنتظرِ في شَرْحِ حالةِ الخَضرِ" للأحاديثِ الواردةِ في ذلكَ مِن المَرفُوعاتِ فبيَّنَ أنَّها مَوضُوعاتٌ، ومِن الآثارِ عنِ الصَّحابةِ والتابعينَ ومَن بَعْدَهُم فبيَّنَ ضَعْفَ أسانيدِها بِبَيانِ أحوالِها وجَهالةِ رِجالِها. وقَد أجادَ في ذلكَ وأحْسَنَ الانتِقادَ.

وأمَّا الذينَ ذَهَبُوا إلى أنَّهُ قَد ماتَ مِنهُم البُخاريُّ وإبراهيمُ الحَرْبيُّ وأبُو الحُسينِ ابنُ المُنادي وابنُ الجَوزيِّ، وقَد انتصَرَ لِذلكَ وألَّفَ فيهِ كِتابًا سَمَّاهُ "عُجالةُ المُنتظرِ في شَرْحِ حالةِ الخَضرِ" فيُحتَجُّ لهُمْ بأشياءَ كثيرةٍ مِنْها قولُه تعالى في سُورةِ الأنبياءِ: (**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ**)؛ فالخَضرُ إنْ كانَ بَشَرًا فقَد دَخَلَ في هذا العُمومِ لا مَحالةَ، ولا يَجُوزُ تَخْصِيصُهُ مِنهُ إلَّا بِدليلٍ صَحيحٍ والأصلُ عَدَمُهُ حتَّى يَثبُتَ، ولمْ يُذْكَرْ ما فيهِ دليلٌ على التخصِيصِ عنْ مَعصُومٍ يَجِبُ قَبُولُه.

ومِنها قولُه تعالى في سُورةِ آلِ عِمْرانَ: (**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**).

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: "ما بَعَثَ اللهُ نبيًّا إلَّا أخَذَ عليهِ المِيثاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ، وأمَرَهُ أنْ يأخُذَ على أُمَّتِهِ المِيثاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أحياءٌ لَيُؤمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ". فالخَضرُ إنْ كانَ نبيًّا أوْ وَليًّا فَقَدْ دَخَلَ في هذا المِيثاقِ، فَلَو كان حيًّا في زَمَنِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لكانَ أشرفُ أحوالِه أنْ يكونَ بينَ

يَديه يُؤمِنُ بِما أنْزَلَ اللهُ عليه ويَنْصُرَهُ أنْ يَصِلَ أحدٌ مِن الأعداءِ إليه؛ لأنَّهُ إنْ كانَ وليًّا فالصِّدِّيقُ أفْضَلُ مِنْهُ، وإنْ كانَ نَبيًّا فَمُوسَى أفْضَلُ مِنهُ.

وقَد رَوَى الإمامُ أحمدُ في مُسْنَدِه عنْ جابرِ بنِ عَبْدِ اللهِ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وَسلَّمَ قالَ: "والذي نَفْسِي بيَدِه، لوْ أنَّ مُوسَى كانَ حيًّا ما وَسِعَهُ إلَّا أنْ يَتَّبِعَني".

وهذا الذي يُقطَعُ بهِ ويُعْلَمُ مِن الدِّينِ عِلْمَ الضَّرُورة، وقَد دلَّتْ عليه هذه الآيةُ الكريمةُ، وأنَّ الأنبياءَ كُلَّهُمْ لو فَرَضَ أنَّهُمْ أحياءُ مُكلَّفُونَ في زَمَنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَكانُوا كُلُّهُم أتْباعًا لهُ وتحتَ أوامرِه وفي عُمومِ شَرْعِه، كما أنَّهُ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليه لَمَّا اجْتمَعَ مَعهُمْ ليلةَ الإسراءِ رُفِعَ فَوقَهُم كُلِّهِم، ولَمَّا هَبَطُوا مَعَهُ إلى بَيتِ المَقْدسِ وحانَتِ الصَّلاةُ أمَرَهُ جبْرِيلُ عنْ أمرِ اللهِ أنْ يَؤمَّهُم، فَصَلَّى بِهِم في مَحَلِّ ولايَتِهِم ودارِ إقامَتِهِم، فَدَلَّ على أنَّهُ الإمامُ الأعظَمُ والرَّسُولُ الخاتمُ المُبَجَّلُ المُقَدَّمُ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليه وعليهِم أجْمَعِينَ.

فإذا عُلِمَ هذا، وهُوَ مَعلُومٌ عِندَ كُلِّ مُؤمِنٍ عُلِمَ أنَّهُ لو كانَ الخَضرُ حَيًّا لكانَ مِن جُمْلَةِ أمَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وممَّن يَقتَدي بشَرْعِه لا يَسَعُهُ إلَّا ذلكَ.

وهذا عِيسَى بنُ مَريمَ عليه السلامُ إذا نَزَلَ في آخرِ الزَّمانِ يَحكُمُ بِهَذهِ الشريعةِ المُطهَّرةِ لا يَخرُجُ مِنْها ولا يَحِيدُ عنها، وهوَ أحدُ أُولي العَزْمِ الخَمْسَةِ المُرْسَلِينَ وخاتمُ أنبياءِ بَني إسْرائيلَ.

والمَعلُومُ أنَّ الخَضرَ لم يُنْقَلْ بِسَنَدٍ صَحيحٍ ولا حَسَنٍ تَسْكُنُ النَّفْسُ إليه أنَّهُ اجتمَعَ بِرَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في يومٍ واحدٍ، ولمْ يَشْهَدْ مَعهُ قِتالاً في مَشْهَدٍ مِن المَشاهدِ، وهذا يومُ بَدْرٍ يقولُ الصَّادِقُ المَصدُوقُ فيما دعا بِهِ لِرَبِّهِ عزَّ وجَلَّ واسْتَنْصَرَهُ

واسْتَفْتَحَهُ على مَنْ كَفَرَهُ: "اللهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هَذهِ العِصابَةَ لا تُعْبَدُ بَعْدَها في الأرضِ"، وتِلكَ العِصابةُ كان تحتَها سادةُ المُسلِمينَ يَومَئذٍ، وَسادَةُ المَلائِكَةِ حتَّى جبريلَ عليهِ السلامُ، كما قالَ حسَّانُ بنُ ثابتٍ رَضِيَ اللّٰهُ عنهُ في قَصيدةٍ لهُ في بَيتٍ يُقالُ: إنَّهُ أفخَرُ بَيتٍ قالتْهُ العَرَبُ:

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ إذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوائِنا وَمُحَمَّدُ

فلَو كانَ الخَضرُ حيًّا لكانَ وُقُوفُه تحتَ هذه الرايةِ أشرفَ مَقاماتِه وأعظمَ غَزواتِه.

قال القاضي أبو يَعلَى الحَنْبَليّ: سُئِلَ بَعضُ أصحابِنا عن الخَضرِ هل ماتَ؟

فقالَ: نعمْ.

واحتجَّ: بأنّه لو كانَ حَيًّا لجَاءَ إلى رَسُولِ اللهِ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ نقلَهُ ابنُ الجَوزيِّ في كتابِه "العُجالةِ".

فإنْ قِيلَ: فَهلَّا يُقالُ إنَّهُ كان حاضِراً في هذه المَواطِن كُلِّها؛ ولكِنْ لمْ يَكُنْ أحدٌ يَراهُ؟ فالجوابُ: أنَّ الأصلَ عدمُ هذا الاحتمالِ البعيدِ الذي يَلْزَمُ مِنهُ تَخْصيصُ العُموميَّاتِ بِمُجرَّدِ التوهُّماتِ. ثُمَّ ما الحامِلُ لهُ على هذا الاختِفاء؟

وظُهورُه أعظمُ لأجْرِهِ وأعلى في مَرْتَبَتِه وأظْهرُ لِمُعْجِزَتِه.

ثُمَّ لو كانَ باقيًا بَعدَهُ لَكانَ تبليغُه عن رَسُولِ اللهِ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ الأحاديثَ النبويَّةَ والآياتِ القُرآنيَّةَ، وإنكارُهُ لِما وَقَعَ مِن الأحاديثِ المَكْذُوبةِ والرِّواياتِ المَقْلُوبَةِ والآراءِ البِدْعِيَّةِ والأهواءِ العَصبيَّةِ، وقِتالِه معَ المُسلمينَ في غَزواتِهم، وشُهودِه جُمَعَهم وجَماعاتِهم، ونفْعِه إيَّاهُم ودَفْعِه الضَّرَرَ عنهُم ممَّنْ سِواهُم، وتَسْديدِه العُلَماءَ والحُكَّامَ، وتقريرَه الأدلَّةَ والأحكامَ، أفْضَلُ مِمَّا يُقالُ عنهُ مِن كُنُونِه في

الأمصارِ، وَجَوبهِ الفيافي والأقطارِ، واجتماعِه بِعبادٍ لا يَعْرِفُ أحوالَ كثيرٍ مِنهُم، وجَعْلِه لهُم كالنقيبِ المُترجِمِ عنهُم.

وهذا الذي ذَكَرْناهُ لا يَتوقَّفُ أحدٌ فيهِ بعدَ التفهُّمِ، واللهُ يَهْدي مَن يشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ.

ومِن ذلكَ ما ثَبتَ في الصَّحيحَينِ عن عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صلَّى ليلةَ العِشاءِ ثمَّ قالَ: "أرأيْتُمْ لَيْلتَكُمْ هَذهِ؛ فإنَّهُ إلى مِائةِ سَنَةٍ لا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ على وَجْهِ الأرْضِ اليومَ أحَدٌ". وفي روايةٍ: عَينٌ تَطْرُفُ.

قالَ ابنُ عُمَرَ: فَوَهِلَ النَّاسُ في مَقالةِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هذهِ، وإنَّما أرادَ انْخِرامَ قَرْنِه.

قالَ الإمامُ أحمدُ: وعنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنْهُما قالَ: صلَّى رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ ليلةٍ العِشاءَ في آخِرِ حَياتِه، فلَمَّا سَلَّمَ قامَ فقالَ: " أرأيتُمْ لَيلَتَكُمْ هَذهِ؛ فإنَّ على رأسِ مِائَةِ سَنَةٍ لا يَبْقَى مِمَّنْ على ظَهْرِ الأرضِ أحَدٌ " . أخْرَجَهُ البُخاريُّ ومُسْلِمٌ من حديثِ الزُّهريِّ.

وقالَ الإمامُ أحمدُ: عن جابرِ بنِ عَبْدِ اللهِ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَبْلَ مَوتِهِ بِقَليلٍ أو بِشَهْرٍ: " ما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، أوْ ما مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ اليومَ مَنْفُوسَةٍ، يأتي عَليها مِائَةُ سَنَةٍ وَهِيَ يومَئذٍ حَيَّةٌ " .

وعن جابرٍ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ قَبْلَ أنْ يَموتَ بِشَهْرٍ: " يَسْأَلُونَني عن السَّاعةِ؛ وإنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ، أُقْسِمُ بِاللهِ ما على الأرْضِ نَفْسٌ مَنْفُوسَةٍ اليومَ يأتي عَليها مِائَةُ سَنَةٍ " . رَواهُ مُسلِمٌ

وقالَ التِّرمذيُّ عن جابرٍ قالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "ما على الأرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ يأتي عَليها مِائَةُ سَنَةٍ... "، وهذا أيضًا على شَرْطِ مُسْلِمٍ.

قالَ ابنُ الجَوزيِّ فهَذهِ الأحاديثُ الصِّحاحُ تَقطَعُ دابِرَ دَعوى حَياةِ الخَضرِ؛ فالخَضرُ إنْ لمْ يَكُنْ قَد أدْركَ زمانَ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كما هُو المَظْنُونُ الذي يترقَّى في القوَّةِ إلى القطعِ فلا إشكالَ، وإنْ كان قَد أدركَ زمانَه فهذا الحديثُ يقتضِي أنَّهُ لمْ يَعِشْ بَعْدَهُ مِائةَ سَنَةٍ؛ فيَكُونُ الآنَ مَفْقُوداً لا مَوجُوداً؛ لأنَّه داخِلٌ في هذا العُمومِ، والأصلُ عَدمُ المُخصِّصِ لهُ حتَّى يَثبُتَ بِدليلٍ صَحيحٍ يَجِبُ قَبُولُه واللهُ أعلمُ.

وحَكَى الحافِظُ السُّهيليُّ في كتابهِ "التعريف والإعلام عن البُخاري وشَيخِه أبي بَكْرٍ ابنِ العربيِّ" أنَّهُ أدركَ حياةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ؛ ولكنْ ماتَ بَعدَهُ لهذا الحديثِ. وفي كَونِ البُخاريِّ يَقولُ بهذا وأنَّهُ بَقِيَ إلى زمانِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نَظَرٌ. وأمَّا اجتِماعُه مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وتَعْزِيتِه لأهْلِ البيتِ بَعْدَهُ، فمَرْوِيٌّ مِن طُرقٍ صَحاحٍ. ثُمَّ ذَكَرَ ما تقدَّمَ ممَّا ضَعَّفْناهُ، ولمْ يُورِدْ أسانِيدَها واللهُ أعلَمُ.

حقائق بين يدي قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح[1]

الحقيقةُ الأُولى: عِلْمُ الحَقيقَةِ وعِلْمُ الشَّريعَةِ

لَمَّا عَرَضَ اللهُ سُبْحانَهُ وتعالى على الإنسانِ الأمانةَ قَبِلَها؛ لِقَولِه عزَّ وجلَّ في سُورةِ الأحزابِ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

ومَعنَى "قَبِلَها" أيّ: كُلِّفَ بِمَعْرِفَةِ اللهِ تعالى والسَّيرِ على مَنْهَجِهِ والتقرُّبِ منهُ لِيَسْعَدَ في الدُّنيا والآخِرَةِ. وحِينَما قَبِلَ الأمانةَ مَنَحَهُ اللهُ إرادةً حُرَّةً وعَقْلاً مُفَكِّرًا، ونَصَبَ له آياتٍ في أرجاءِ الكَونِ، وأنْزَلَ لهُ الكِتابَ أيّ: أنْزَلَ لهُ التشْرِيعَ، والتشريعُ ضوابِطُ في العلاقاتِ بينَ العَبْدِ وربِّهِ، وبينَ العَبْدِ والعَبْدِ، وقَد نَزَلتْ هذه الشرائِعُ تِباعًا على أنبياءِ اللهِ وَرُسُلِه؛ فمُوسَى عليه السلامُ عالِمٌ بالشَّريعةِ يَعْرِفُ الحَلالَ والحَرامَ، ما يَجُوزُ وما لا يَجُوزُ، ما يَنبغِي وما لا يَنبغِي، والأمْرَ والنهيَ، والحقَّ والباطِلَ، والخَيرَ والشَّرَّ.

الحَقيقةُ الثانِيةُ: يجبُ أن تُضْبَطَ أفْعالُ العِبادِ بالشَّريعَةِ

سَيِّدُنا مُوسَى عليهِ السلامُ نبيٌّ عظيمٌ، ورَسُولٌ كريمٌ مِن أُولي العَزْمِ، وهُوَ أعْلَمُ أهْلِ الأرضِ في زَمانِه في الشريعةِ؛ لكنَّ اللهَ سُبْحانَه وتعالى يَتصرَّفُ في الكَونِ، ويَتصرَّفُ مع عِبادِه تَصرُّفًا لا يَعلَمُ حِكْمَتَهُ إلاّ هُوَ؛ أيّ: لا يَعلَمُ سِرَّ القَضاءِ والقَدَرِ إلاّ اللهُ؛ فَسِرُّ التَّصرُّفاتِ الإلهيَّةِ وحِكْمَةُ الأفعالِ الإلهيَّةِ عِلْمٌ مُستقِلٌّ قائِمٌ بِذاتِه، وقَد

[1] أ. د. مُحمَّد راتب النابلسيّ (١٢٥٧ هـ - ١٩٢٨ م)

آتى اللهُ عزَّ وجلَّ الخَضرَ عليه السلامُ، وهوَ نبيٌّ في رأي مُعظَمِ العُلماءِ، مِنْ لَدُنْهِ عِلْمًا؛ فكأنَّ هَذهِ القِصَّةُ لِقاءٌ رائِعٌ بينَ قُطبٍ عَظيمٍ مِن أقطابِ الشريعةِ وقُطبٍ عَظيمٍ من أقطابِ الحقيقةِ؛

فالشريعةُ والحقيقةُ التقتا، ومِن خلالِ هذا اللقاءِ اتَّضَحَتْ بعضُ الحقائقِ المُهمَّةِ التي نحنُ جَميعًا في أمَسِّ الحاجةِ إليها، ومِن لِقاءِ قُطبَي الشريعَةِ والحقيقةِ اتَّضَحَتْ لنا بعضُ أسْرارِ القضاءِ والقدَرِ، ومِنها مَعرِفةُ معنَى قولِه تعالى في سُورةِ البقرَة: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

سَببُ اللقاءِ

وَرَدَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقُولُ: "بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟

قَالَ مُوسَى: لا. فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ إِلَى مُوسَى: بَلَى عَبْدُنَا خَضِرٌ.

فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْحُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾.

قالَ مُوسَى: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا خَضِرًا فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِي قَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ فِي كِتَابِهِ".

سَيِّدُنا مُوسَى عليهِ السلامُ نبيٌّ مُرسَلٌ، وما دامَ نبيًّا مُرسَلاً فهُوَ بالبديهَةِ أعلَمُ عُلَماءِ الأرضِ، فَما كانَ مِن هذا النبيِّ العظيمِ إلاّ أنْ قالَ: أنا أعْلَمُ عُلَماءِ الأرضِ.

فأوْحَى اللهِ إليهِ ما أوْحَى... أعْلَمُ مِنْكَ في عِلْمِ الحَقيقةِ، وأنتَ أعْلَمُ مِنهُ في عِلْمِ الشريعةِ.

خُروجُ مَوسَى عليهِ السلامُ وفَتاهُ

(**وَإِذْقَالَمُوسَىلِفَتَاهُ**) أيّ: صَاحِبِهِ لِيتعلَّمَ مِنهُ ولِيَخْدِمَهُ؛ فكانَ في الوقْتِ نَفْسِه خادِمًا ومُتعلِّمًا (**لاأَبْرَحُحَتَّىأَبْلُغَمَجْمَعَالْبَحْرَيْنِأَوْأَمْضِيَحُقُبًا**) أيّ: لا أبْرَحُ أسيرُ إلى أنْ أصِلَ إلى المَكانِ الذي حَدَّدَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لِي في مَجْمَعِ البَحرَينِ، وإنْ لمْ أبْلُغْ هذا المجْمَعَ سأسِيرُ سَنواتٍ إلى أنْ ألتقِي بِهذا العبْدِ الصَّالِحِ. وكانتْ عَلامةُ هذا المَكانِ فيما أوحَى اللهُ لِهذا النبيِّ العظيمِ أنْ يَفْتَقِدا حُوتًا لَهُما كانا قَد أعَدَّاهُ لِلطَّعامِ، فإذا افْتقداهُ في مَكانٍ ما فهُوَ مكانُ اللقاءِ.

(**فَلَمَّابَلَغَامَجْمَعَبَيْنِهِمَا**) لِ (**مَجْمَعَالبَحْرِيْنِ**) مَعْنَيانِ؛

المَعنى الأوَّلُ: مكانُ التقاءِ البَحرَينِ، والمَعنَى الثاني: اجتماعُ بَحْرَي الشريعَةِ والحَقيقةِ. وهذا وَجْهٌ مِن وُجُوهِ التسميةِ (**نَسِيَاحُوتَهُمَا**) كانا قَد أعدَّا حُوتًا وجَهَّزاهُ لِلطَّعامِ وَوَضَعاهُ في حَقيبةٍ إنْ صَحَّ التعبيرُ، ووَضَعَ هذا الحُوتَ عِندَ مَجْمَعِ البَحْرَينِ، وهوَ مكانُ التقاءِ البَحرِ الأحمرِ والبَحرِ الأبيضِ المُتوسِّطِ على رأي أحدِ الأقوالِ. ونَسِيَ سَيِّدُنا مُوسَى أنْ يَتفقَّدَ الحُوتَ، ورأى فَتاهُ مِن الحُوتِ مَنْظرًا عَجِيبًا نَسِيَ أنْ يُخْبِرَ مُوسَى بهِ.

(**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**) قالَ بعضُ المُفسِّرينَ: إنَّ الحُوتَ وَقَعَ في البَحْرِ. وقالَ آخَرُونَ: كانتْ مُعجزَةُ أنْ عادَتْ لهُ الحياةُ فَسَقَطَ في البَحرِ، ورأى الفَتَى بِأُمِّ عَينِهِ أنَّ الحُوتَ قد اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا.

وقَد تكونُ عَودةُ الحياةِ إلى الحُوتِ ووُثُوبِهِ إلى مياهِ البَحرِ أيضًا علامةً مِن علاماتِ اللقاءِ مع العبْدِ الصالِحِ. وليسَ في الآيةِ قرينةٌ على أنَّ الحياةَ قَد عادَتْ لهُ؛ لكنَّ الآيةَ التي تليها تُشيرُ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ إلى أنَّ هُناكَ شيئًا عَجيبًا؛ إذْ كيفَ وَقَعَ هذا الحُوتُ في البَحرِ؟

مِن هُنا استنبطَ المُفسِّرُونَ أنَّهُ رُبَّما عادَتِ الحياةُ إلى الحُوتِ بَعْدَ شَيِّهِ، وَوَثَبَ في البحرِ.

دلائِلُ الآياتِ

فَضْلُ العِلْمِ: كَمْ هُوَ ثمينٌ هذا العِلْمُ في نَظَرِ هذا النبيِّ العَظيمِ.

بينَما يَصْرِفُ أحَدُنا نَفْسَهُ عَن حُضورِ مَجالسِ العِلْمِ والذِّكْرِ لِسَببٍ تافهٍ جِدًّا.

(وما اجْتمعَ قومٌ في بَيتٍ مِن بُيوتِ اللهِ يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إلَّا غَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وحَفَّتْهُمُ المَلائِكةُ ونَزَلَتْ عليهِمُ السَّكِينَةُ وذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وما اجْتَمَعَ قَومٌ في مَجْلِسٍ ولمْ يَذْكُرُوا اللهَ فيهِ إلاّ قامُوا عنْ أنْتنَ مِن جِيفَةٍ".

وُجُوبُ السَّفَرِ وتَحَمُّلِ المَشاقِّ لِطَلَبِ العِلْمِ:

هذا النبيُّ العظيمُ قالَ: (**لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**). أرادَ أنْ يُسافِرَ ويَقْطَعَ المَسافاتِ ولَو أمْضَى في ذلكَ حُقُبًا لِلقاءِ العَبْدِ الصَّالِحِ.

إعدادُ الزَّادِ: يَجُوزُ؛ بلْ يُنْدَبُ لِمَنْ أرادَ السَّفَرَ أنْ يُعِدَّ الزَّادَ، وليسَ في إعدادِ الزَّادِ تناقُضًا مع التوكُّلِ، "اعْقِلْ وتَوكَّلْ".

(**فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آَتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**) أنْساهُما اللهُ عزَّ وجلَّ ذِكْرَ الحُوتِ حتَّى جاوَزا المكانَ وشَعَرا بالتَّعَبِ، حينئذٍ طَلَبَ مُوسَى عليهِ السلامُ الحُوتَ لِلغَداءِ، فَتذكَّرَ الفتَى أنَّ الحُوتَ الذي أعدَّاهُ لِلطَّعامِ قَد سَقَطَ في البَحْرِ

(**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**) كيفَ اتَّخَذَ الحُوتُ سَبِيلَهُ في البَحْرِ عَجَبًا؟

هُناكَ شَيءٌ عَجِيبٌ وخارِقٌ لِلعادَةِ، سَمَكَةٌ مَشْوِيَّةٌ تعودُ لها الحَياةُ وتَثِبُ في البَحْرِ! اللهُ أعلمُ ما إذا كانتِ الحياةُ قَد عادَتْ لها أوْ لمْ تَعُدْ؛ لكنَّ الشيءَ الثابِتَ أنَّ الحُوتَ قَد اتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحرِ.

عِندَئذٍ عَرَفَ سَيِّدُنا مُوسَى عليهِ السلامُ أنَّ هذا المكانَ الذي نَسِيا فيهِ الحُوتَ هُو مَجْمَعُ البَحْرَينِ

(**قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ**) أيّ: ذلكَ ما كُنَّا نَبتغِي مِن هذا السَّفَرِ الطويلِ، وهذا هُوَ الهدفُ؛ لأنَّ المكانَ الذي افْتقدْنا فيهِ الحُوتَ هو مكانُ اللقاءِ كما أخْبَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ بالوَحْيِ (**فَارْتَدَّا عَلَى آَثَارِهِمَا قَصَصًا**) بَعدَ أنْ قَطعا يومًا ولَيلةً بَعيدًا عن مَجْمَعِ البَحْرَينِ ارتدَّا وعَكَفا راجِعَينِ إلى مكانِ افتقادِ الحُوتِ؛ لأنَّ هذا المكانَ هو مكانُ اللقاءِ المُنتظَرِ الذي يَحرصُ عليهِ سيِّدُنا مُوسَى عليهِ السلامُ كما أخْبَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ.

(فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا) إنَّ أعلَى مَرتَبةً ينالُها الإنسانُ في الحياةِ الدُّنيا أنْ يكونَ عَبْدًا للهِ تعالى، وأنْ تتحقَّقَ فيهِ العُبوديَّةُ للهِ سُبْحانَه وتعالى.

والعُبوديَّةُ هي مَعرِفةٌ يقينيَّةٌ تُفْضِي إلى طاعةٍ طوعيَّةٍ، وتنتهِي بِسَعادةٍ أبديَّةٍ.

مَعرِفةٌ يقينيَّةٌ؛ فَطاعةٌ طوعيَّةٌ؛ فَسَعادةٌ أبديَّةٌ.

(آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) العِلْمُ يُكْتَسَبُ بالمُدارَسَةِ والمُطالَعةِ وحُضُورِ مَجالِسِ العِلْمِ والتأمُّلِ والتفكُّرِ؛ فإذا ما حازَ الإنسانُ العِلْمُ بهذِهِ الأسبابِ فَهذا العِلْمُ الذي نَعْرِفُه جَميعًا.

أمَّا العِلْمُ الذي يَحُوزهُ الإنسانُ مِن دُونِ أسبابٍ أرضيَّةٍ فُهوَ العِلْمُ اللدُنيُّ. فهذا العَبْدُ الصالِحُ آتاهُ اللهُ رَحْمَةً مِن عِنْدِهِ وعَلَّمَهُ مِنْ لَدُنْهُ عِلْمًا.

هل الخَضرُ عليهِ السلامُ نبيٌّ؟

هُناكَ إشاراتٌ ودلالاتٌ كثيرةٌ يقينيَّةٌ على أنَّ الخَضرَ عليهِ السلامُ كان نبيًّا؛

إمَّا أنَّهُ نبيٌّ مُرْسَلٌ أو غَيرُ مُرْسَلٍ فهذا مَوضُوعٌ خلافيّ(فيه سَعَةٌ)،

وبعضُ العُلماءِ يَظنُّونَهُ وليًّا. فهُو بينَ أنْ يكونَ وَليًّا، أوْ نبيًّا مُرْسَلاً، أوْ نبيًّا غيرَ مُرْسَلٍ، هُناكَ قرائنُ ستأتي بعدَ قليلٍ تُبيِّنُ أنَّ هذا العبدَ الصالِحَ كان نبيًّا.

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) بأدبٍ جَمٍّ، نبيٌّ مُرْسَلٌ يتأدَّبُ معَ مَنْ أعْلَمَهُ اللهُ أنَّهُ أعْلَمُ مِنْهُ، (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)، والأدبُ مع مَن يُعَلِّمُكَ مِن لوازمِ التعليمِ، والاستِفهامُ فيهِ أدبٌ. هلْ تسمَحُ لي بالتعلُّمِ؟

لمْ يَقُلْ: أنا سأتْبَعُكَ يَجِبُ أنْ تُعَلِّمَني.

الخَضرُ (**قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) يَبدُو أنَّ الخَضرَ كانَ يَعلَمُ أنَّ مُوسَى لا يَصبِرُ عليه؛ لأنَّهُ عالِمٌ بالشريعةِ، وأنَّ الأفعالَ التي سوفَ يَفْعلُها هذا العبدُ الصالِحُ رُبَّما لا تُفسَّرُ على ضَوءِ الشريعةِ، فقالَ لهُ (**إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)؛ فَعِلْمُكَ الشرعيُّ لا يَسْمَحُ لكَ بِقَبولِ أعمالي، ومِزاجُكَ العَصبيُّ لا يَسْمَحُ لكَ بِالصَّبْرِ.

وَردَ في بَعضِ الكُتبِ عن الشيخِ مُحْيي الدِّينِ بنِ العربيِّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى أنَّ الخَضرَ قَد أعدَّ لِهذا النبيِّ العظيمِ ألفَ مَسألةٍ؛ فلمَّا كانتِ الثالثةُ فَقَد سَيِّدُنا مُوسَى صَبْرَهُ؛ لذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: "يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، وَدِدْنَا لو صَبَرَ حتَّى يَقُصَّ عَلَينا مِنْ خَبَرِهِما"[1].

ولمْ يَقُلْ إنَّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ كَمالَ الصَّبْرِ؛ بلْ قالَ صَبْرًا على التنكيرِ؛ أيّ: لا تَسْتَطيعُ حتَّى الجُزْءَ البسيطَ مِن الصَّبْرِ. ثمَّ بيّنَ العِلَّةَ

(**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**)؟ فما كانَ مِن هذا النبيِّ الكريمِ إلَّا أنْ أظهرَ الجَلَدَ والصَّبْرَ والعَزيمةَ على مُتابَعةِ هذا العبْدِ الصالِحِ كي يتعلَّمَ مِنهُ فقالَ

(**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**) انظُرْ إلى الأدبِ معَ اللهِ عزَّ وجلَّ في قولِه (إنْ شاءَ اللهُ).

وتدُلُّ هذهِ الآيةُ على أنَّ الذي يَحضُرُ مَجالِسَ العِلْمِ ينبغِي عليهِ أن يتأدَّبَ ويَصْبِرَ وألاّ يَعترِضَ. عِندَئذٍ شَرَطَ الخَضرُ في قَبولِ اتِّباعِ مُوسَى لهُ.

---

[1] أخْرَجَهُ البُخاريُّ: كتاب العِلْمِ، بابُ ما يُسْتَحَبُّ للعالِمِ إذا سُئِلَ أيُّ الناسِ أعلَمُ؟ فَيَكِلَ العِلْمَ إلى اللهِ ح ١٢٢، وأخْرَجَهُ مُسلِمٌ: كتاب الفضائلِ "بابُ فضائلِ الخَضرِ": ح ١٧٠.

(**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**) اُنْظُرْ بِعَينِكَ، اتبِعْنِي ولا تَعترِضْ، لا تُبادِرْ بِالسُّؤالِ، أنا سَأخْبِرُكَ عنْ كُلِّ شَيءٍ.

(**فَانْطَلَقَا**) انْطلقا لِيَعْرِفا الحَقيقةَ، وقال بَعضُهُم: انْطَلَقا مِن عِقالِ المادَّةِ

(**حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ**) تَرْوي بَعضُ الكُتبِ أنَّهُما رَكِبا في سَفينَةٍ لِمَساكِينَ فُقراءَ، وأنَّ عُصْفُورَينِ وَقَفا على طَرَفِ السفِينَةِ وغَمَسا مِنْقارَيهِما في الماءِ غَمْسَتَينِ، فقالَ الخَضرُ لِمُوسَى عليهِما السلامُ ما عِلْمي وعِلْمُكَ في جانبِ عِلْمِ اللهِ إلاَّ كَهاتَينِ النُّقرَتينِ في البَحرِ؛ أيّ: بِماذا يَرجِعُ هَذَينِ العُصفُورَينِ إذا غَمَسا مِنْقارَهُما في البحرِ؟ واستنبَطُ العُلَماءُ الأجلَّاءُ مِن هذه الآيةِ جوازَ رُكوبِ البحرِ.

(**خَرَقَهَا**) أيّ: قلَعَ مِن السفينةِ لَوحًا بالقَدُومِ، وهذا عَملٌ غيرُ مَنطِقيٍّ وغَيرُ مَعقُولٍ مع أنَّ صاحِبَ السفينةِ لَمْ يأخُذْ مِنهُما أُجْرَةً، أركَبَهُما ضِيافَةً وفوقَ هذا العملِ الطيِّبِ والضِّيافةِ الكريمةِ جاءَ الخَضرُ عليهِ السلامُ واقتلعَ أحدَ ألواحِ السفينةِ فَقَد سَيِّدُنا مُوسَى عليهِ السلامُ صَوابَهُ و (**قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**) هذا عَمَلٌ غيرُ صَحيحٍ، ماذا فَعلَ مَعكَ صاحِبُ السَّفِينَةِ؟ أهكَذا تُكافِئُه على عَمَلِهِ الطيِّبِ؟ هذا العملُ لا يُمكِنُ أنْ يُقْبَلَ، دعاكَ إنسانٌ مِسْكِينٌ فقيرٌ إلى رُكوبِ السفينةِ بلا مُقابلٍ، وهُو يَكتَسِبُ مِن هذهِ السفينةِ ثُمَّ تَخرِقُها لهُ !هذا إمرًا فَظيعًا غَريبًا.

استدلَّ العُلماءُ الأجِلاّءُ على أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ لَمْ يَقُلْ هذا بِدافعِ حِرْصٍ على حياتِه لا؛ بلْ نَسِيَ نَفْسَهُ. فَذَكَّرَ الخَضرُ مَوسَى بِعَدمِ صَبْرِه وشَرَطَهُ عليهِ (**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ**

﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ لقد قُلْتُ ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فتذكَّرَ مُوسَى عليهِ السلامُ الوعدَ والاتِّفاقَ والعهْدَ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أنا تَسَرَّعْتُ ومَعَكَ الحَقُّ. هذا أوَّلُ دَرْسٍ.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ تَذْكُرُ الكُتُبُ: أنَّهُ كانَ هُناكَ غِلْمانٌ يَلْعَبُونَ، وبينَهُم غُلامٌ جَميلٌ جِدًّا، نَظِيفٌ وهادِئٌ، فأخَذَهُ الخَضرُ وذَبَحَهُ ذَبْحَ النِّعاجِ، فتَفَرَّقَ الأطفالُ مِن حَولِهُ وفَزِعُوا، عِندَئذٍ اشتدَّ بِسَيِّدِنا مُوسَى الغَضبُ ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أنكرَ مُوسَى عليهِ السلامُ على الخَضرِ قَتْلَهُ لِلغُلامِ. فلا بُدَّ أنْ يكونَ القَتْلُ قِصاصًا نَفْسٌ بِنَفْسٍ، هذهِ جريمةٌ: ماذا فَعلَ لكَ هذا الغُلامُ؟

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ خَرَجْتَ عَن صَوابِكَ مَرَّةً ثانيةً، هذا درسٌ ثانٍ، تَذَكَّرَ هذا النبيُّ العظيمُ أنَّهُ خالَفَ العهْدَ والاتِّفاقَ

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ ليسَ لي عُذْرٌ في المَرَّةِ الثالثةِ.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ كانا جائِعَينِ جِدًّا، قال العُلماءُ: يَجُوزُ لِصاحِبِ الحاجةِ أنْ يَطْلُبَ ما يَسُدُّ حاجَتَهُ

﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ كانُوا أهْلَ قريةٍ بُخلاءَ لُؤماءَ امْتَنَعُوا عن إطعامِهِم.

(**فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ**) نَظرَ مُوسَى والخَضرُ عليهِما السلامُ إلى جدارٍ كادَ أنْ يَتداعَى؛ فَشَمَّرَ الخَضرُ عن ساعِدِ الجِدِّ وبَنى هذا الجِدار. هذا مَوقِفٌ غريبٌ؛

فَفِي المَوقِفَينِ الأَوَّلَينِ عَمَلٌ مُنكَرٌ، أمَّا هُنا فَقَد رَفَضَ أهلُ القريةِ اللُؤماءُ البُخلاءُ الأشحَّاءُ أنْ يُطْعِمُونا الطَّعامَ وتَبنِي لَهُمْ جِداراً بِلا مُقابِلٍ، ما هذا التناقُضُ؟

كأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُريدُ أنْ يقولَ لنا: إنَّ تصرُّفاتِه لها حِكْمَةٌ بالِغَةٌ، لو اطْلَعْتُمْ على الغَيبِ لاخْتَرْتُمُ الواقِعَ (**قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**) لِنَشْتَرِي طَعاماً فَنأكُلَ.

قالَ العُلماءُ: إنَّ مُقابَلَةَ الإساءةِ بالإحْسانِ وارِدٌ في عِلْمِ الشريعَةِ، فلماذا خالفَ مُوسَى شَريعَتَهُ؟ لماذا اعترضَ عليهِ في بناءِ الجِدارِ ردًّا على الإساءةِ؟

قَتْلُ غُلامٍ بِغَيرِ نَفْسٍ هذا خِلافُ عِلْمِ الشريعةِ، خَرْقُ سفينَةٍ مُقابِلَ ضِيافَةٍ هذا خِلافُ عِلْمِ الشريعَةِ؛ ولكنْ أنْ تَرُدَّ على الإساءةِ بالإحْسانِ فهَذا مِن عِلْمِ الشريعةِ.

إذا كُنْتَ قَد لُمْتَنِي على بناءِ جِدارٍ لأهْلِ قريةٍ أساؤوا إلينا؛ فأنْتَ سَقَيْتَ لامْرَأتَينِ في مَدْيَنَ مِن دُونِ مُقابِلٍ.

ثلاثةُ مَواقِفَ لِمُوسَى مع الخَضرِ: (**خَرْقُ سفِينَةٍ، قَتْلُ غُلامٍ، بِناءُ جِدارٍ**).

الأوَّلُ: لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. الثاني: لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا. الثالث: لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. (**قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**).

تفسيراتُ الخَضرِ وحُجَجُهُ في أفعالِه التي أنْكَرَها مُوسَى عليهِ السلامُ:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ هؤلاءِ الناسُ مَساكِينُ – مع أنَّهُم يَمْلِكُونَ سفينةً –؛ ذلكَ لأنَّهُم يَعيشُونَ مِن دَخْلِها، وإذا مَلَكَ إنْسانٌ بَيتًا يَسْكُنُهُ فَهُوَ مُسْتَهْلِكُهُ ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أرَدْتُ أنْ أجْعَلَ فِيها عَيْبًا

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ كانَ المَلِكُ يُصادِرُ كُلَّ سَفينةٍ أعْجَبَتْهُ ويأخُذُها غَصْبًا؛ فَحِينَما خَرَقْتُها فَوَّتُ على المَلِكِ مُصادَرَتَها وأبقَيْتُها لأصحابِها يَقْتاتُونَ مِن دَخْلِها، فما قولُكَ؟ أينَ الغَضَبُ؟ هَذهِ إرادةُ اللهِ عزَّ وجلَّ.

أحيانًا يُلغَى إيفادُ الطالبِ إلى أوربةَ لِعَلامةٍ واحدةٍ؛ فَيغْضَبُ ويُزَمْجِرُ، جَعَلَتْكَ هذهِ العَلامةُ تبقَى في بَلَدِكَ كي يَبْقَى لكَ دِيْنُكَ فلا تَغْضَبْ؛ فَلِكُلِّ شَيءٍ حَقيقةٌ، وما بَلَغَ عَبْدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يَعْلَمَ أنَّ ما أصابَهُ لمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وما أخْطأهُ لمْ يَكُنْ لِيُصيبَهُ.

وأحيانًا يُفْسَخُ عقدُ الزواجِ لِسبَبٍ تافهٍ؛ فقَد يكونُ في هذهِ الزوجةِ الدمارُ والشَّقاءُ. إذا جاءتِ الأُمورُ كما تَشْتَهِي قُلِ "الحَمْدُ للهِ الَّذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحاتُ"، وإنْ جاءتْ على خِلافِ ما تَشْتَهِي فَقُلِ "الحَمْدُ للهِ على كُلِّ حالٍ".

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ كان أبَواهُ مُتعلِّقينَ بهِ تعلُّقًا شديدًا، وكانا مُؤمِنَينِ، فإذا كَبرَ هذا الغُلامُ وصارَ كافِرًا، وتعلَّقَ الأبُ والأمُّ بابْنِهِما الكافِرِ؛ فربَّما يُهْلِكُهُما مع هَلاكِهِ.

وهذا يُؤكِّدُ عِلْمَ اللهِ بِما كانَ وبِما سَيَكُونَ، وإنْ كانَ كيفَ يكُونَ، وعِلْمُ اللهِ قديمٌ ليس عِلْمًا كَسْبيًّا كَعِلْمِ البَشرِ؛ فالإنسانُ بِدُونِ شَكٍّ مُخَيَّرٌ، واللهُ يَعْلَمُ بِلا كَيفٍ ما في هذا مِن شَكٍّ، وعِلْمُ اللهِ لا يُؤثِّرُ في اخْتيارِ الإنسانِ.

﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أبدَلَهُما اللهُ عزَّ وجلَّ غُلامًا مُؤمِنًا طاهِرًا؛ فإذا ما حَدثَ التعلُّقُ بهِ كانَ التعلُّقُ صَحيحًا وسليمًا.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ قال: يا عَبْدِي؛ أعْطَيتُكَ مالاً فَماذا صَنَعْتَ فيهِ؟

قالَ: يا رَبّ أنْفَقْتُهُ على كُلِّ مُحتاجٍ ومِسْكِينٍ لِثِقَتي بِأنَّكَ خَيرٌ حافِظًا وأنتَ أرحَمُ الرَّاحِمينَ. قالَ: يا عبْدِي؛ أنا الحافِظُ لأولادِكَ مِن بَعْدِكَ، وكانَ أبُوهُما صالحًا. الأُبوَّةُ الصالحَةُ تعودُ بِالخَيرِ على البُنوَّةِ الصالحَةِ؛ فَهذا الأبُ الصالِحُ استحقَّ أنْ يَطْمَئِنَ على وَلَدَيهِ اليتيمَينِ، وأنَّهُما سيأخُذانِ الكَنْزَ الذي خبَّأهُ لهُما تحتَ الجِدارِ، وحيثُ إنَّ الجِدارَ كان على وَشكِ الوقُوعِ جاءَ هذا العبْدُ الصالِحُ وبَنى هذا الجِدارَ بِلا مُقابِلٍ.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ هُنا الدِّقَّةُ!

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ ليسَ في عِلْمِ الشريعةِ كُلِّها أنْ تَقتُلَ غُلامًا لِعِلْمِكَ بأنَّهُ سَيكُونُ كافِرًا، مِن هُنا استنبَطَ العُلَماءُ: أنَّ الخَضرَ هوَ نبيٌّ؛ لأنَّ خَواطِرَ الأولياءِ ليستْ مَعصُومةً، لا بُدَّ أنَّ اللهَ أوحَى إليهِ بِقَتْلِ هذا الغُلامِ، ولا يُمكِنُ أن يُقْبَلَ قَتْلٌ

بِخاطِرٍ، الوليُّ يأتيهِ خاطِرٌ، أمَّا النبيُّ فيأتيهِ الوحْيُ؛ فَقَتْلُ نَفْسٍ زَكيَّةٍ لا يُمكِنُ أنْ يكونَ بِخاطِرٍ مِن وليٍّ؛ بلْ لا بُدَّ أنْ يكونَ وَحْيًا مِن نبيٍّ

(**ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**) الأُوْلَى (**تَسْتَطِعْ**)، كان مُتألِّمًا جِدًّا، أمّا الثانيةُ (**تَسْطِعْ**)؛ فقَد هَدأتْ نَفْسُه بعدَ أنْ عَرَفَ التأويلَ.

"ما أصابَكَ لمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وما أخْطأكَ لمْ يَكُنْ لِيُصيبَكَ".

يجبُ أنْ تكونَ هذه القَصَصُ الثلاثُ في ذِهْنِ كُلٍّ مِنَّا؛ لأنَّ الإنسانَ أحيانًا يُواجِهُ عَقَباتٍ ومُشْكِلاتٍ وضُغُوطًا، أحيانًا يَحْرِمُهُ اللهُ الوَلَدَ، أوْ يَحْرِمُهُ اللهُ الذُّكُورَ، أوْ تأتيهِ زَوجَةٌ مُشاكِسَةٌ، أوْ يكونُ دَخْلُهُ قليلاً، لا تَخْلُو حياةُ المُؤمِنِ مِن عَقَباتٍ وأزماتٍ.

وَرَدَ في الحديثِ الشريفِ: " أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أوحَى إلى الدُّنيا أنْ تَكَدَّرِي وتَمَرْرِي وتَضَيَّقِي وتَشَدَّدِي على أوليائِي؛ حتَّى يُحِبُّوا لِقائِي".

هذا فِعْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ (أكْرَمَ الأبَوينِ، وأكْرَمَ أصحابَ السفينةِ، وأكْرَمَ الغُلامَينِ اليتيمَينِ)؛ فأعمالُه كُلُّها إكْرامٌ.

وَوَرَدَ في بَعضِ الأحاديثِ الشريفةِ – أيضًا –: "الإيمانُ بِالقَدَرِ يُذْهِبُ الهَمَّ والحَزَنَ"

وأمَّا هَذهِ القَصَصُ الثلاثُ فَهِيَ تفسيرٌ لِلقَضاءِ والقَدرِ.

قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ: "كُلُّ شَيءٍ بِقَضاءٍ مِنَ اللهِ وَقَدَرٍ".

وَوَرَدَ في الأثَرِ: "واللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لا يَقْضِي إلَّا بِالخَيرِ، قَد يَكُونُ الخَيرُ ظاهِرًا، وقَد يَكُونُ غَيرَ ظاهِرٍ" وهُنا مَعنى قولِه تعالى في سُورةِ لُقمان: (**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ**

نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)؛ فالنِّعَمُ الظاهِرَةُ هيَ الظاهِرةُ لِلعَيانِ، والنِّعَمُ الباطِنَةُ هيَ المَصائِبُ؛

فَكَمْ مِن مُصِيبَةٍ غَيَّرَتْ مَجْرَى حياةِ الإنسانِ مِن الضَّياعِ إلى الهُدى، ومِن الشَّقاءِ إلى النَّعيمِ، ومِن المَعصِيةِ إلى الطاعَةِ، وكَمْ مِن مُصِيبَةٍ حَمَلَتْ صاحِبَها على الطاعةِ؛ فَما مِن عَثْرَةٍ، ولا اخْتلاجِ عَرْقٍ، ولا خَدْشِ عُودٍ إلَّا بِما قَدَّمَتْ أيديكُمْ كما جاءَ في سُورةِ الشُّورى: (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ).

ويومَ القِيامَةِ يُكْشَفُ الغِطاءُ كما جاءَ في سُورةِ ق: (فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ). عِندَئذٍ تُعْرَفُ الحقيقةُ على ما هِيَ عليهِ، ولو كُشِفَ الغِطاءُ لاَخْتَرْتُمُ الواقِعَ.

ما مِنَّا أحدٌ إلَّا ويُعاني مِن بَعضِ المُشكِلاتِ،

هَذهِ القِصَّةُ إجابةٌ شافيةٌ لِكُلِّ المُشكِلاتِ التي يُعانِيها المُؤمِنُ؛ إنَّها مُشكِلاتٌ في ظاهِرِها، ومُعالجَاتٌ في باطِنِها، وإكرامٌ إلهيٌّ في حَقيقَتِها.

الشَّيءُ المُلْفِتُ لِلنَّظَرِ في هذه الآياتِ أنَّ الخَضرَ عَليهِ السلامُ على عِلْمٍ بِالشريعةِ؛ لِذلكَ قَالَ: (إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)؛ لَكنَّهُ بِالحقيقةِ أعلمُ.

ومُوسَى عليهِ السلامُ على عِلْمٍ بِالحقيقةِ؛ لَكِنَّهُ بِالشريعةِ أعلَمُ.

وما هذا اللقاءُ إلاّ لقاءُ بَحْرَينِ في العِلْمِ؛ عِلْمِ الشريعةِ... وعِلْمِ الحقيقةِ...،

فَعِلْمُ الشريعةِ المَنهَجُ الدَّقيقُ الذي يجبُ أنْ تسيرَ عليهِ أفعالُ الإنسانِ المُكلَّفِ،

وعِلْمُ الحقيقةِ تفْسِيرٌ لِفِعْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي لا يَنْطَوي إلَّا على الرَّحمةِ والعَدلِ والُّلطْفِ والخَيرِ. ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

[1] حقائِقُ بين يَدِي قِصَّةِ مُوسَى عليه السَّلامُ مع العبْدِ الصالِح: أ. د. مُحمَّد راتب النابلسيّ.

روعة الجمع بين الدين والأدب والتاريخ في القصص القرآني[1]

لا يُمْكِنُ لِكاتِبٍ يَتحدَّثُ عن مَجالاتِ الجَمالِ في كتابِ اللهِ الحَقِّ الخالِدِ أنْ يُغْفِلَ الحديثَ عن الجانبِ القَصَصيِّ فيه، وما تحتويه هذهِ المجَالاتُ مِن سَردِ الأحداثِ وتصويرِ الشَّخْصيَّاتِ وعَرْضِ المحُاوَراتِ وغَيرِها مِن العناصِرِ التي تقومُ عليها القِصَّةُ القُرآنيَّةُ. وهُناكَ سَببانِ يُحتِّمانِ الحديثَ عن جَمالِ القِصَّةِ القُرآنيَّةُ ألاَ وهُما:

أوَّلاً: أنَّ القَصَصَ القُرآنيَّ يُخاطِبُ حاسَّةَ الوجْدانِ الدِّينيَّةِ بِلُغَةِ الجَمالِ الأدبيَّةِ، عارَضا أمامَها أحداثًا مِن التاريخِ وَصَفَها مُنَزِّلُها جلَّ شأنُهُ بأنَّها مِن أنباءِ الغَيبِ التي ما كان يَعْلَمُها النبيُّ ولا أحدَ مِن قَومِهِ قَبْلَ نُزُولِها؛ فَهِيَ وثائِقُ تاريخيَّةٌ؛ بلْ أوثقُ ما يكونُ بينَ يدَي التاريخِ مِن وثائقَ على مرِّ العُصورِ وَكَرِّ الدُّهورِ.

ثانيًا: أنَّ القَصَصَ القُرآنيَّ قَد نَعتَهُ مُنَزِّلُهُ بِأنَّهُ (**أَحْسَنَ الْقَصَصِ**)؛ حيثُ قالَ جلَّ شأنُه في سُورةِ يُوسفَ: (**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**). والمَعنى: أنَّ القَصَصَ القُرآنيَّ هو غايةٌ في الحُسْنِ والكَمال والجَلالِ.

ولَمَّا كانَ الحديثُ عن القَصَصِ القُرآنيِّ وما فيهِ مِن (جَمالٍ وجَلالٍ وكَمالٍ) حَديثًا مُتشعِّبَ الأطرافِ، ويحتاجُ إلى مُجلَّداتٍ وأسفارٍ؛ فإنِّي آثَرْتُ أنْ أقِفَ عِندَ خُصوصيَّةٍ يَتفرَّدُ بها ويتميَّزُ؛ ألاَ وهِيَ جَمعُه بينَ (الدِّينِ والأدبِ والتاريخِ).

---

[1] د. عبد الجواد المحص، قِصَّةُ مُوسَى والخَضِرِ نال بِها جائزةَ الإمامُ الشِّعْراويُّ - رَحِمَهُ اللهُ تعالى - مِن مَجْمَعِ اللُّغةِ العَربيَّةِ بِالقاهِرَةِ عام ٢٠٠٥م.

فنَحنُ إذْ نَنْظُرُ إلى القَصَصِ القُرآنيِّ مِن زاويةِ الأحداثِ التي يَعرِضُها أوْ يُشيرُ إليها، يتأكَّدُ لَدَينا أنَّ هذا القَصَصَ قَصَصٌ تاريخيٌّ يَسْتَمِدُّ لَبَناتِه مِن حقائِق التاريخِ، بِالقَدْرِ الذي يُؤدِّي الوظيفةَ الأساسيَّةَ المقصُودةَ مِن البيانِ القُرآنيِّ العَظيمِ.

ويَتضمَّنُ القَصَصُ القُرآنيُّ تَوجيهاتٍ دِينيَّةً تدعمُ سائِرَ ما جاءتْ بِهِ الشريعةُ الإسلاميَّةُ الغرَّاءُ مِن مَبادِئَ وعقائِدَ، وكُلِّ ما أنْكَرَتْهُ مِن خُلُقٍ وعاداتٍ وآراءٍ زائفةٍ وعقائِدَ فاسِدَةٍ وعِباداتٍ باطِلَةٍ... نلمحُ ذلكَ ونَحسُّهُ أغراضًا وأهْدافًا تأتي بينَ طيَّاتِ هذا القَصَصِ وفي ثناياهُ وحَواياهُ.

والقَصَصُ القُرآنيُّ قَصَصٌ أدبيٌّ باعتبارِ قالَبِهِ البيانيِّ الذي يَصُبُّ فيهِ أحداثَهُ، أوْ باعتبارِ اشتمالِه على سائرِ مُقوِّماتِ القوَّةِ الفنيَّةِ في أرقَى دَرجاتِها، وعلى سائِرِ أسبابِ التأثيرِ التعبيريِّ التي عَرَفَها المَخلُوقُ وما سَوفَ يَعْرِفُ، وهو الأستاذُ الحَقُّ لأُدباءِ القِصَّةِ كافَّةً أينما حَلُّوا وفِي أيِّ زَمانٍ هَلُّوا.

على أنَّ هذا القَصَصَ في مَجمُوعِ آياتِهِ التي تَزيدُ على ألفٍ وخَمْسمائةٍ يُمثِّلُ رُبُع القُرآنِ الكريمِ – كتابِ العربيةِ الأكبَر – ذلكَ الذي جَعلَ الجَمالَ الأدبيَّ أداةً مَقصُودةً لِلتأثيرِ الوجدانيِّ؛ فَخاطبَ في هذا القَصَصِ وغَيرِه مِن الجوانبِ التي تضمَّنَها حاسَّةَ الوجدانِ الدِّينيَّةِ بِلُغَةِ الجَمالِ الأدبيَّةِ، مُعتَمِدًا على أنَّ الدِّينَ والأدبَ صِنوان في أعماقِ النَّفْسِ وقَرارةِ الحِسِّ، وعلى أنَّ أشدَّ المَواعِظِ الدِّينيَّةِ نَفاذًا إلى القلوبِ ما عُرِضَ في أُسلوبٍ قَصَصيٍّ جَذَّابٍ يَحمِلُ على المُشارَكةِ الوجدانيَّةِ لِلأشخاصِ والتأثُّرِ بالأحداثِ والانْفِعالِ بِالمواقفِ، ويَمْلِكُ القُدرةَ الباهِرةَ على إخْراجِ قارئِهِ أوْ سامِعِهِ مِن حُدودِ نَفْسِهِ إلى تلكَ الأجواءِ؛ فَيعِيشَ فيها ويَندَمِجَ معَها.

ويَصعُبُ على المَرءِ أنْ يُبْرِزَ هذهِ الثُلاثيَّةَ الرائعةَ: (الدِّينِ والأدبِ والتاريخِ) في كُلِّ قِصَّةٍ قُرآنيَّةٍ؛ فإنَّ ذلكَ يَحتاجُ إلى أسفارٍ تنوءُ بِحِمْلِها الجِبالُ؛ لِذلِكَ أكتفِي هُنا بِقِصَّةٍ واحدَةٍ أسوقُها مِثالاً يُغْني القارئَ عن عَشراتِ الأمثلةِ؛ ألاّ وهيَ قِصَّةُ مُوسَى مع العبدِ الصالحِ الذي يُسَمِّيهِ المُفَسِّرونَ الخَضرَ عليهِ السلامُ.

وقَد آثَرتُها هِيَ بِالذّاتِ؛ لأنَّها وثيقةٌ تاريخيَّةٌ فريدةٌ؛ حتَّى إنَّ اليهودَ الذينَ يَدَّعُونَ الإحاطةَ التامَّةَ بأخبارِ مُوسَى لمْ يَعرِفُوها إلَّا بَعدَ نُزُولِها على الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةِ والسلامِ.

ونبدأُ أوّلاً بِما قالُه الحقُّ فِيها، ثمَّ نُتبِعُ ذلكَ بِالدِّراسةِ والتحليلِ الكاشِفَينِ عمَّا فيها مِن أحداثٍ تاريخيَّةٍ سِيقَتْ بِلُغَةِ الجَمالِ الأدبيَّةِ تحقيقًا لِلعِبْرَةِ الدِّينيَّةِ.

هذه القِصَّةُ الفَريدةُ تُمَثِّلُ حَلقةً مِن سِيرَةِ سَيِّدِنا مُوسَى عليهِ السلامُ الذي تَحَدَّثَتْ عنهُ التوراةُ، ومع ذلكَ فإنَّ ما جَرَى بينَ مُوسَى والخَضرِ مِن أحداثٍ لا نَسْمَعُ لهُ ذِكْرًا في الكُتبِ التي بينَ أيدي اليهودِ والنَّصارى اليومَ؛ فَهِيَ صَفحةٌ ساقِطةٌ مِن تاريخِ مُوسَى في هذهِ الكُتبِ. إنَّها وثيقةٌ تاريخيَّةٌ لا تُوصَفُ إلَّا بأنَّها أوثقُ ما بينَ يدَي التاريخِ مِن وثائقَ، ولمْ تَرِدْ إلَّا في القُرآنِ الكريمِ.

والرائِعُ حقًّا أنَّ الخَضرَ عليهِ السلامُ قَد قال لِمُوسَى وهُوَ يُودِّعُه في نهايةِ الرِّحلَةِ:

"يا مُوسَى دَعْكَ مِن اللَّجاجةِ، ولا تَمْشِ في غَيرِ حاجةٍ، واشْتَغِلْ بِعُيوبِكَ عَن عُيوبِ الناسِ". مُشيرًا بذلكَ إلى أنَّ جميعَ ما اعترضَ عليهِ مُوسَى ولمْ يَصْبِرْ حتَّى يَعْرِفَ وَجْهَ الحِكْمَةِ مِنهُ قَد جَرَى لِمُوسَى في حياتِه؛ بلْ إنَّ كُلًّا مِن الأحداثِ الثلاثةِ:

(خَرْقِ السفينةِ، وقَتْلِ الغُلامِ، وبِناءِ الجِدارِ بِدُونِ أجْرٍ) قَد حَدَثَ ما يُقابِلُهُ في حياةِ مُوسَى وسِيرَتِه؛

فَخَرَقَ السفينةَ الذي خافَ مُوسَى على أهْلِها مِن الغَرَقِ يُقابِلُهُ نَجَاتُهُ مِنَ الغَرَقِ وهُوَ رَضيعٌ بعدَ أنْ وَضَعَتْهُ أُمُّهُ في التابوتِ وألْقَتْهُ في اليمِّ؛ فمَنْ نَجَّاهُ قادرٌ على أنْ يُنَجِّي هَؤلاءِ.

وقَتْلُ الخَضرِ لِلغُلامِ بِغَيرِ نَفْسٍ يُقابِلُهُ في تاريخِ مُوسَى قَتْلُهُ لِلمِصريِّ حينَ دَخَلَ المَدِينةَ على حينِ غَفْلَةٍ مِن أهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَينِ يَقْتَتِلانِ أحَدُهُما مِن شِيْعَتِهِ والآخَرُ مِن عَدَوِّهِ فَوكَزَهُ مُوسَى فَقضَى عليهِ. وكانَ هذا قَبْلَ أنْ يُوحَى إليهِ.

وبِناءُ الخَضرِ لِلجدارِ بِلا أجْرٍ لِيَحْفَظَ مالَ اليتيمَينِ يُقابِلُهُ سَقْيُهُ لِغَنَمِ بِنْتَي شُعَيبٍ بِلا أجْرٍ؛ بلْ إنَّ شُعَيبًا عليهِ السلامُ أرسلَ إحْدَى بِنْتَيهِ تدعُو مُوسَى لَيَجْزِيَهُ أجْرَ ما سَقَى لهُما.

فالأحداثُ الثلاثةُ التي نَراها في سُورةِ الكهفِ نَرى ما يُقابِلُها في حياةِ مُوسَى عليهِ السلامُ، وقَد جاءتْ بِالترتيبِ نَفْسِه في سُورةِ القَصَصَ؛ حيثُ قال سُبحانَه وتَعالى: (**وأوْحَيْنا إلى أُمِّ مُوسَى أنْ أرْضِعِيهِ**).

وقالَ عزَّ مِن قائلٍ: (**وَدَخَلَ المَدِينَةَ على حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَينِ يَقْتَتِلانِ...**).

وقالَ جلَّ جَلالُهُ: (**وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ**)؛

فتَرتِيبُ الأحداثِ هُنا كَترتيبِ الأحداثِ هُناكَ.

وعلى أيِّ حالٍ فإنَّ ما يَلْفِتُ النظرَ ويَسْتَرْعِي الانتباهَ أنَّ القُرآنَ الكريمَ في قَصَصِه المُعْجِزِ قَد رَكَّزَ على سَيِّدِنا مُوسَى عليهِ السلامُ تركيزًا قويًّا؛ حتَّى إنَّ المواضِعَ التي ذُكِرَ فيها اسْمُهُ قَد بَلَغَتْ ستَّةً وثلاثينَ ومِائةً مَوضِعًا، توزَّعَتْ على أربعٍ وثلاثينَ سُورةٍ. ولمْ يَظْفَرْ اسمُ نبيٍّ في القُرآنِ الكريمِ بِمِثْلِ ذلكَ النصيبِ الأكْبَرِ الذي ظَفِرَ بهِ سيِّدُنا مُوسَى عليهِ السلامُ.

ويُعَدُّ النَّصُّ السابقُ إحدَى الحَلقاتِ التي جاءتْ في القُرآنِ الكريمِ عن هذا الرَّسُولِ الكريمِ؛ فَهِيَ تُمَثِّلُ قِصَّةً قَصيرةً مِن قَصَصِ هذه السُّورةِ، وتتكوَّنُ مِن ثلاثٍ وعِشرينَ آيةً لمْ تَرِدْ في غَيرِ سُورةِ الكهفِ.

ولقَد جاءَ ذِكْرُها في هذهِ السُّورةِ بِالذَّاتِ صُورةً رائِعَةً مِن صُوَرِ الجَمالِ ومَعلَمًا بارِزًا مِن مَعالِمِ الإعجازِ القُرآنيِّ، ومَظهَرًا مِن مظاهِرِ العنايةِ الإلهيَّةِ الفائِقَةِ بِوَضْعِ القِصَّةِ في المكانِ الذي يُناسِبُها ويليقُ بها مِن سُورِ القُرآنِ الكريمِ.

فالقِصَّةُ من ناحيةٍ تحتوي على جُملةٍ مِن الحقائِقِ في كُهوفٍ؛ ولكنَّ الكُهوفَ التي تسترُ الحقيقةَ تأتي أوَّلاً ومِن ثَمَّ تأتي الحقائِقُ،

ومِن هُنا فإنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ عِندَما يَرى الكُهوفَ ولا يَرى الحقائِقَ التي تَسْتُرُها لا يَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ على ذلكَ؛ فالعَبْدُ الصالِحُ حَكَمَ بِعِلْمِهِ الذي عَلَّمَهُ اللهُ تعالى، ومُوسَى عليهِ السلامُ حَكَمَ بِما يَعْلَمُهُ؛ ولِذلِكَ اصْطَدَمَ الحَكَمانِ؛ فالعَبْدُ الصالِحُ كانَ يَقُومُ بِعَملِ خَيرٍ حقيقةٌ مستورةٌ في كهفٍ ظاهِرُهُ الشَّرُّ،

ومُوسَى عليهِ السلامُ كان يَرى في هذهِ الأعمالِ ما هوَ ظاهِرٌ فحَسْب ويَحْكُمُ بِهِ؛ لأنَّهُ لا يَعلَمُ بواطِنَ الأُمورِ.

وتُمثِّلُ القِصَّةُ – مِن ناحيةٍ ثانيةٍ – الحِكْمةَ الكُبْرَى التي لا تَكْشِفُ عنْ نَفْسِها إلَّا بمِقْدارٍ، ثُمَّ تبقَى مُغيَّبةً في عِلْمِ اللهِ وراءَ الأستارِ؛ فَهِيَ إذنْ ترتبِطُ بقِصَّةِ أصحابِ الكهفِ والرَّقِيم في تَرْكِ الغَيبِ للهِ عَلَّامُ الغُيوبِ الذي يُدَبِّرُ الأمْرَ بِحِكْمَتِه، وَفْقَ عِلْمِهِ الشاملِ الذي يَقْصُرُ عَنهُ البَشَرُ الواقِفُونَ وَراءَ الأسْتارِ.

ولا يُكْشَفُ لهُم عمَّا وَراءها مِن الأسْرارِ إلَّا بمِقْدارٍ.

وتُشيرُ القِصَّةُ – مِن ناحيةٍ ثالثةٍ – إلى العِلْمِ الذي يُعمِّقُ الإيمانَ باللهِ عَلَّامِ الغُيوبِ؛ ألاَ وهوَ العِلْمُ اللدنُّيُّ الذي لا يَنْكَشِفُ إلَّا لِمَنْ آتاهُ اللهُ رَحْمَةً مِن عِنْدِهِ وعَلَّمَهُ مِنْ لَدُنْهُ عِلْمًا.

ومِن ناحيةٍ رابعةٍ؛ فإنَّ سُورةَ الكهفِ قَد احتَوتْ مِن بينِ ما احْتوتْ على قِصَّتَي أصحابِ الكهفِ وذِي القَرْنَين، وهُما قِصَّتانِ نَزَلَتا حِينَما أوَعزَ اليَهُودُ لِلمُشْرِكِينَ أنْ يسألُوا النبيَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنهُما وعنِ الرُّوحِ،

وقالُوا لهُم: "إنْ أخْبَرَكُمْ بِهِنَّ فَهُوَ رَسُولٌ فاتَّبِعُوهُ، وإلَّا كانَ رَجُلاً مُتقوِّلاً تَصنَعُونَ بِهِ ما بَدا لَكُمْ".

فلمَّا أنزلَ اللهُ سُورةَ الكهفِ مُشتمِلَةً على قِصَّتَي أصحابِ الكهفِ وذِي القَرْنَين جَعلَها مُشتَمِلَةً – أيضًا – على قِصَّةِ مُوسَى مع العَبْدِ الصَّالِحِ لِيُنبِّهَ المُشتركين واليهودَ مَعًا وكذلك المُسلِمينَ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لا يَلْزَمُهُ أنْ يكونَ عالِمًا بِالقَصَصِ والأنباءِ كُلِّها؛

فَها هُوَ مُوسَى الذي يَعترِفُ به اليهودُ في المَدينةِ ولا يَعترِفُونَ بِمُحمَّدٍ رَسُولاً، يلتقِي مع الخَضرِ ويخْفِي عليه تفسيرُ الأحداثِ الثلاثةِ التي وقعتْ مِن الخَضرِ؛ بلْ إنَّ اليهودَ أنفُسَهُم لمْ يَعرِفُوا هذهِ القِصَّةَ إلَّا عن طريقِ القُرآنِ الكريمِ.

ومِن ناحيةٍ خامِسَةٍ؛ فإنَّ الآياتِ الكريمةَ التي سَبقتْ هذهِ القِصَّةَ في سُورةِ الكهفِ قَد ذَكَرَتْ أنَّ الإنسانَ أكثرُ شَيءٍ جَدَلاً، يَثِقُ في آرائِه ولا يَعتَدُّ بِغَيرِه، وحينَ تأتيهِ الرُّسلُ بالآياتِ – مُبَشِّرِينَ ومُنذِرِينَ – يلجأُ إلى الجِدالِ بِالباطلِ؛ لِيُدْحِضَ بِه الحقَّ مُعرِضًا عنهُ استهزاءً وسُخْرِيةً، ثِقَةً فِيما يتعاطَى مِن الجَدلِ والمِراءِ، ناسِيًا أنَّ لِكُلِّ عِلْمٍ نِهايةٌ، وأنَّ ذَوي اللَّجاجِ مِن هَؤلاءِ لا يَبْلُغُونَ مِن العِلْمِ شَيئًا مَهْما ادَّعَوهُ؛ فَناسبَ ما ذَكرَهُ القُرآنُ الكريمُ في هذهِ الآياتِ الكريمةِ أنْ يَذْكُرَ مِن بَعدِه قِصَّةَ مُوسَى مع العَبْدِ الصالِحِ؛ لأنَّها قِصَّةٌ تدلُّ على أنَّ نبيَّ اللهِ المُختارَ مُوسَى وكليمَه المُجتبَى لمْ يَصِلْ في العِلْمِ إلى مَبْلَغِ ما تَمَكَّنَ بِه سِواهُ مِن البَصَرِ والدِّرايةِ والنَّفاذِ.

فَلهذهِ الأسبابِ كُلِّها وغَيرِها مِن مُراداتِ الحكيمِ الخَبيرِ ذُكِرَتْ هذهِ القِصَّةُ في سُورةِ الكهفِ دُونَ غَيرِها مِن سُورِ القُرآنِ الكريمِ.

ولقَد عَرَضَها القُرآنُ الكريمُ عَرْضًا فَريداً يَعجزُ الأُدَباءُ والبُلغاءُ عن الإتيانِ بِمِثْلِه؛ فقَد صَوَّرتْ بِبَراعةٍ لا مَثيلَ لها فِكْرَةَ الرِّحلَةِ في طلبِ العِلمِ والاجتهادِ في كَشْفِ الحقائقِ والأسرارِ، وكانتْ في هذا المجَالِ مِن أروعِ القَصَصِ الذي يُمكِنُ تَسْمِيَتُهُ بِ"قَصَصِ المُوازَنةِ بينَ ما نَعْلَمُ وما لا نَعْلَمُ، وما نُدْرِكُ مِن الأسبابِ الظاهِرَةِ، وما يَغِيبُ عنَّا مِن الأسبابِ الخَفيَّةِ".

إنَّها قِصَّةُ رِحْلَةٍ عِلميَّةٍ تُنْبِئُ بِسَبْقِ القُرآنِ الكريمِ إلى ما يُسَمَّى في عَصْرِنا الحديثِ ب "أدبِ الرِّحلاتِ" . . . وهيَ رِحْلَةٌ عِلميَّةٌ يُخْلِصُ فيها – كما نَرى – التابِعُ والمَتبُوعُ الطاعةَ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، ولا يبتغِي فيها الأستاذُ مِن تلميذِهِ سِوى الأجْرِ مِنِ اللهِ تعالى .

إنَّها قِصَّةٌ تُعلِّمُنا كيفَ نَتحمَّلُ المَشقَّةَ في تحصيلِ العِلْمِ،

وكيفَ نُذَلِّلُ الصُّعُوباتِ كافَّةً والتي تَعترِضُنا في التحصيلِ،

وكيفَ يَسْتَدرُّ طالِبُ العِلْمِ السَّماحَ مِن أُستاذِهِ لِيَدْخُلَ في تبعيَّتِهِ، ويُلِحَّ في ذلكَ؛ حتَّى يأذَنَ لهُ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ .

وكيفَ يَتحمَّلُ طالِبُ العِلْمِ بالتواضُعِ وحُسْنِ الاستِجابَةِ والإنْصاتِ لأُسْتاذِه، والاسْتِرْشادِ بِنَصائحِه والتزامِ أوامرِه، والمُسارَعةِ بالاعتِذارِ حينَ يَشْعُرُ أنَّهُ قَصَّرَ فِيما يجبُ عليهِ نَحْوَهُ .

وتُعلِّمُنا القِصَّةُ – كذلكَ – كيفَ يُبَصِّرُ الأُستاذُ مُرِيديهِ بآدابِ التعَلُّمِ،

وكيفَ يَرُدُّ الصَّوابَ في أيِّ خَطأٍ يقعُ فيهِ التلميذُ،

وكيفَ لا يَتْرُكُهُ جاهِلاً بِمَسائلِ الدَّرْسِ وقَضايا العِلْمِ،

وكيفَ يَنْسِبُ العِلْمَ والفَضْلَ إلى اللهِ العليمِ فِيما يَشرَحُهُ مِن دُروسٍ وعِبَرٍ.

لقَد أشارَتِ القِصَّةُ بِتَصْويرِها المُعْجِزِ وإيماءاتِها النَّفَّاذةِ إلى هذهِ الآدابِ كافَّةً، وتلكَ الأصولِ الأصيلةِ في (التربيةِ والتعليمِ والتهذيبِ) .

ومِمَّا لا شَكَّ فيهِ أنَّ القِصَّةَ تمتازُ ب (الإيجازِ، والشُّمولِ، والوُضوحِ، والصَّفاءِ) .

كما تمتازُ ب (جاذبيَّةِ العَرْضِ، وقُوَّةِ النَّظْمِ، وإعجازِ التصويرِ، ودِقَّةِ الاختيارِ للألفاظِ والتعبيراتِ المُوحِيَةِ المُؤثِّرةِ) .

ويكْفِينا في هذا المجالِ أنْ نُشيرَ – مَثلاً – إلى روعةِ التعبيرِ بلفْظِ (الفتى) عن يُوشَع بنِ نُونٍ خادمِ سَيِّدِنا مُوسَى عليهِ السلامُ الذي رافَقهُ في هذهِ الرِّحلةِ الشاقَّةِ الطويلةِ؛ وذلكَ أنَّ لفظَ (الخادمِ، والعَبْدِ، والأَمَةِ) يَرفُضُه الخُلقُ القُرآنيُّ الرفيعُ، وينبُو عنهُ الذَّوقُ الإسلاميُّ بِدليلِ قولِه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "لا يَقُلْ أحَدُكُمْ عَبْدِي وأَمَتِي؛ بلْ يَقُلْ فَتايَ وفَتاتِي" .

فالقُرآنُ الكريمُ بِهذا التعبيرِ قَد أضْفَى على يُوشَع أجْملَ لِباسٍ يتحلَّى بهِ؛ ألاَ وهُوَ (لِباسُ الفُتوَّةِ والشبابِ) مَوطنُ الإعزازِ في الإنسانِ، وأنضرُ حلقاتِ العُمُرِ.

وهُوَ مُتلائِمٌ تمامًا ولو كان شَيخًا وقْتَئذٍ معَ ما عَهِدَ إليهِ في الرِّحلةِ مِن عَمَلٍ؛ إذْ كانتْ لهُ مَهمَّةٌ لا ينهضُ بأعبائِها إلاّ مَن كانَ في قوَّةِ الفتى وعُنفُوانِ الشبابِ...

وهُو بهذهِ الصِّفةِ قَد استطاعَ أن يُواصِلَ السَّيْرَ مع رَسُولٍ مِن أُولي العَزْمِ أخَذَ على نَفْسِه ومعهُ فَتاهُ أنْ يظلَّ سائِرًا حتَّى يلتقِي بأُستاذِه الخَضِرِ ولو أمْضَى العُمُرَ كُلَّهُ في سبيلِ ذلكَ، فما أروعَ التعبيرَ بالفتى في هذهِ القِصَّةِ المُصوِّرةِ لِرَحْلَةٍ عِلميَّةٍ شاقَّةٍ طويلةٍ.

ولْنَنْظُرْ – أيضًا – إلى قولِه تعالى: (**آتِنَا غَدَاءَنَا**)! وكيفَ لمْ يَقُلْ آتِني غِذائيّ؛ لأنَّ الطعامَ مُشتركٌ بينَ مُوسَى وفَتاهُ لا يَختصُّ بهِ السَّيِّدُ تفضُّلاً، ثُمَّ يُلْقِي نفايتَهُ وفَضْلَتهُ إلى الخادمِ؛ إذْ ليسَ هذا مِن خُلُقِ الهُداةِ.

ولَنَنْظُرْ إلى قولِه تعالى: (**أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ**)! وكيفَ لمْ يَكُنِ اللجوءُ إلى السَّهْلِ مِن الأرضِ، وكانَ ذلكَ في الإمكانِ حتَّى لا يتجَشَّمَ مُوسَى وفَتاهُ المَتاعِبَ؛ لكنَّها رِحلةُ العِلْمِ التي يَركَبُ فيها الإنسانُ أشقَّ المَراكبِ، ويَصعَدُ إليها أوعرَ الصُّخورَ؛ لأنَّ ثوابَ العِلْمِ على قَدْرِ المَشقَّةِ.

ولله درُّ الشاعرِ إذْ يقولُ:

سَيُدْرِكُها مَتى شابَ الغُرابُ ومَنْ طَلَبَ العُلُومَ بِغَيرِ كَدِّ

وما أروعَ التصويرَ القُرآنيَّ في قَولِه تعالى على لِسانِ مُوسَى عليهِ السلامُ: (**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**).

فَسَيِّدُنا مُوسَى شخصيَّةٌ في القِصَّةِ تمتازُ بالأدبِ البالغِ في التعبيرِ، لم يَطْلُبِ التلمذةَ مع سَيِّدِنا الخَضرِ بأسلوبِ الطلبِ العادِّيِّ؛ وإنَّما بأسلوبٍ إنشائيٍّ طريقهُ الاستفهامُ المُوحِي بعَدَمِ الإلزامِ لِلأُستاذِ أو الإلحاحِ عليه في قَبُولِ التلمذةِ على يَديه.

ثُمَّ يبلُغُ الأدبُ بِنبيِّ اللهِ مُوسَى عليهِ السلامُ أنَّه لا يَجعَلُ التماسَهُ العِلْمَ مِن الخَضرِ تلمَذةً فحَسب؛ وإنَّما تبعيَّةٌ مُطلَقةٌ وامتثالٌ لأِسْتاذِه مُقابِلَ كَلِمَةٍ مِنهُ.

على أنَّ سَيِّدَنا مُوسَى عليهِ السلامُ لا يَطلُبُ مُجَرَّدَ عِلْمٍ؛ فَلَدَيهِ مِن العِلْمِ الكثيرِ؛ وإنَّما يطلبُ نوعًا خاصًّا مِن العِلْمِ، ومِن هُنا لمْ يَقُلْ لِلخَضرِ (**عَلى أَنْ تُعلِّمَنِي مُطْلَقًا، أَوْ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِي عِلْمًا**)؛ وإنَّما قالَ لهُ (**عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ**) فَلَفْظُ

(مِنْ) لِلتبْعِيضِ؛ أيّ: (**عَلى أنْ تُعَلِّمَنِي بَعْضًا مِن الَّذي تَعَلَّمْتَهُ**)؛ وكأنَّهُ يَطلُبُ نَوعًا مِمَّا نُسَمِّيهِ الآنَ بِـ (التخَصُّصِ أو الدِّراساتِ العُليا).[1]

ونُلاحِظُ في هذا التعبيرِ القُرآنيِّ المُعجِزِ – أيضًا – أنَّ سَيِّدَنا مُوسَى عليهِ السلامُ يَطلُبُ العِلْمَ لِغايةٍ نَبيلةٍ وهَدفٍ سَامٍ مُحدَّدٍ ألاَ وهُو "الرُّشْدُ"؛ فليسَ عِلْمُهُ لِمُجَرَّدِ (الترَفِ النفْسيِّ، أو لِلمُكاثَرةِ بِهِ، أو لِلعِلْمِ لِذاتِه)؛ وإنَّما لِيَصِلَ بِهِ إلى غايةٍ نَبيلةٍ مُحدُودةٍ وهي "الرَّشادُ الدِّينيُّ".

ويَستَرْعِي انتباهَنا أنَّ الحَقَّ سُبْحانَهُ قالَ: (**فَوَجَدا عَبْدًا مِن عِبادِنا**)؛ فأتَى بِفاءِ العَطْفِ المُرَتِّبةِ لِوُقوعِ الأحداثِ والدالَّةِ على نتيجةِ بَحْثِهِم، على حينِ أنَّهُ لمْ يأتِ بِها في قولِه: (**قالَ لَهُ مُوسَى**)؛ فَلَمْ يَقُلْ (**فَقالَ لَهُ مُوسَى**)؛ فأفادَ ذلكَ: أنَّ زَمنَ رُؤيةِ مُوسَى لِلخَضرِ هُو زَمنُ قولِه: (**هَلْ أتَّبِعُكَ**)؟؛ فَشِدَّةُ حُبِّهِ لِلعِلْمِ واستِعْجالِه لِلتَّعلُّمِ لمْ يَتْرُكا لِفاءِ الترتيبِ والتعقيبِ وقْتًا؛ فَمُوسَى عليهِ السلامُ طلبَ العِلْمَ والتبَعِيَّةَ لِلخَضرِ في الوقْتِ نَفْسِهِ الذي رأتْهُ فِيهِ عَيناهُ.

وما أروعَ التصويرَ القُرآنيُّ في قَولِه تعالى على لِسانِ العَبْدِ الصالِحِ: (**لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)؛ فإنَّهُ تعبيرٌ كان الهدفُ مِنهُ تنبيهَ سَيِّدِنا مُوسَى إلى حقيقةِ الفارقِ بينَ (العِلْمِ اللدُنِّيِّ والعِلْمِ البَشَرِيِّ)؛ فالعِلْمُ اللَّدُنِّي ثقيلٌ، ولنْ يَصْبِرَ عليهِ مُوسَى، ولنْ يَصبِرَ بالتالي على اتِّباعِ الخَضرِ، ولَمَّا كانَ هذا الحُكْمُ يَحْوِي شيئًا مِن (الغَرابةِ، أو

[1] عن مقالٍ لِلدكتور: عبد الحليم حفني في مجلة "منبر الإسلام" عدد المُحرَّم ١٤٠٠ هـ، ص ٢٠.

عَدَمِ الاقتناعِ بهِ)؛ فإنَّ الخَضرَ لجَأ إلى تحليلِ هذا الحُكْمِ وتَعليلِه بِقَولِه لِمُوسَى: (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)؟

ونَظَرًا لأنَّ الخَضرَ كان على دِرايةٍ تامَّةٍ بِثِقَلِ العِلْمِ اللَّدُنِّي على مُوسَى عليهِ السلامُ؛ فقَد قالَ لهُ: (فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)؛

فنُلاحِظُ أنَّ نَغمةَ الشَّكِّ التي يُوحِيها لفظُ (إنْ) ليستْ مُنْصَبَّةً على الاتِّباعِ ذاتِه؛ وإنَّما نَبَعَتْ مِن دِقَّةِ الخَضرِ في التعبيرِ عن شَيءٍ يَعْلَمُهُ ويَتوقَّعُه؛ فهُو يَتوقَّعُ أنَّ مُوسَى عليه السلامُ لنْ يستطيعَ السُّكوتَ على ما سَيصدُرُ عنهُ مِن أُمورٍ ظاهِرُها مُنكَرٌ – وإنْ كانتْ – في الحقيقةِ التي لا يُدْرِكُها مُوسَى عليهِ السلامُ – خَيرًا مَعرُوفًا يُثيبُ اللهُ عليه.

هذا ويَسترْعِي انتباهَنا أنَّ الحقَّ سُبْحانَهُ لمْ يُصَرِّحْ باسْمِ الخَضرِ؛ وإنَّما ذَكَرَهُ بِصفاتِه الثلاثِ:

(عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)؛ لأنَّ العُبوديَّةَ هيَ أشرفُ المَقاماتِ؛ بدليلِ وَصْفِ رَسُولِنا بِها في حديثِ الإسراءِ والمِعراجِ؛ ولأنَّ الرَّحمةَ هيَ الأساسُ الذي نَبعَتْ مِنهُ أفعالُ الخَضرِ؛

فَ(خَرْقُه للسفينةِ رَحْمَةٌ بأصحابِها المساكينِ، وقَتْلُ الصَّبيِّ رَحْمَةٌ بِوالِدَيه، وبِناءُ الجِدارِ رَحمةٌ بالغُلامَينِ اليتيمَينِ).

وكذلك العِلْمُ اللدُنِّيُّ هُوَ العِلْمُ الذي تَمَيَّزَ بهِ الخَضرُ، كذلك يَسْتَرْعي انتباهَنا في إعجازِ التصويرِ القُرآنيِّ البديعِ لِهَذهِ القِصَّةِ أنَّ سَيِّدَنا مُوسَى عليهِ السلامُ قَد وَصفَ خَرْقَ السفينةِ بِأنَّهُ شَيءٌ "إمْرٌ"؛ أيّ: "عَجيبٌ"، ووَصْفُ قَتْلِ الغُلامِ بِأنَّهُ شَيءٌ

"نُكُرًا" أيّ: "تُنْكِرُهُ العُقولُ والشَّرائِعُ"، ولمْ يَصِفْ بِناءَ الجِدارِ بِإِحْدَى هاتَينِ الصِّفَتَينِ؛ وإنَّما عَقَّبَ عليه بِقَولِه: (لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا).

وهَذه التعبيراتُ كُلُّها بَلَغتْ غايةَ الدِّقَّة، ولا يَصلُحُ واحِدٌ مِنها في مَوضِعِ الآخَرِ؛ فَلِكُلِّ تعبيرٍ حِكْمَةٌ تُخَصِّصُهُ بِمَكانِه؛ فالحادِثُ الثالثُ لا يتعارضُ مع الشريعةِ، أمّا الأوَّلُ والثاني فيُناقَضانِ الأحكامَ الثابتةَ في الشرائعِ الإلهيَّةِ؛

فليسَ هُناكَ شريعةٌ تُبيحُ لإنسانٍ إفسادَ شَيءٍ مَملُوكٍ لآخَرَ، ولا قَتْلَ نَفْسٍ بِغَيرِ ذَنْبٍ.

ولَمَّا كان خَرْقُ السفينةِ التي لم يَغْرَقْ مِنها أحدٌ أهونَ مِن قَتْلِ الغُلامِ الذي هَلَكَ بِالفِعلِ؛ فإنَّ مُوسَى عليه السلامُ وَصَفَ خَرْقَ السفينةِ بأنَّهُ شيءٌ عَجِيبٌ، ووَصَفَ قَتْلَ الغُلامِ بأنَّهُ شَيءٌ مُنْكَرٌ؛ فما أروعَ الإعجازَ القُرآنيَّ في استخدامِ الكلماتِ الخاصَّةِ وانتقائِها بِكُلِّ حَدَثٍ مِن أحداثِ القِصَّةِ.

كذلك يَسترْعي انتباهَنا في قِراءتِنا وتَدبُّرِنا لِهَذه القِصَّةِ المُعجِزَةِ أنَّ الخَضرَ عليه السلامُ لَمَّا أرادَ ذِكْرَ العَيبِ لِلسفينَةِ نَسَبَهُ لِنَفْسِه أدَبًا معَ الرُّبُوبيَّةِ فقالَ: (فأرَدْتُ)، ولَمَّا كانَ قَتْلُ الغُلامِ مُشتَرِكَ الحُكْمِ بينَ المَحمُودِ والمَذمُومِ، اسْتَتْبَعَ نَفْسَهُ مع الحقِّ فقالَ في الإخبارِ بِنُونِ الاسْتِتْباعِ: (فأرَدْنا)؛ لِيكُونَ المَحمودُ مِن الفِعْلِ – وهُو راحةُ الأبَوينِ المُؤمِنَينِ مِن كُفْرِ غُلامِهِما – عائِداً على الحقِّ سُبْحانَهُ وتعالى، والمَذمومُ ظاهِرًا – وهو قَتْلُ الغُلامِ بِغَيرِ حقٍّ – عائِداً على الخَضرِ.

وفي إقامةِ الجِدارِ كان البناءُ خَيراً مَحْضًا فَنَسَبَهُ الخَضرِ لِلحقِّ وَحدهُ فقالَ: ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ**﴾، ثُمَّ بيَّن أنَّ الجميعَ مِن حيثُ العِلْمُ التوحيديُّ مِن الحقِّ بِقَولِه: ﴿**وَمَافَعَلْتُهُ عَنْأَمْرِي**﴾.

ويَسترْعِي انتباهَنا كذلكَ أنَّ الفِعْلَ المُضارِعَ المُشتَقَّ مِن الاستِطاعةِ قَد جاءَ في القِصَّةِ مَرَّةً بالتاءِ هكذا: ﴿**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَالَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**﴾.

وَجاءَ مرَّةً ثانيةً بِدُونِ التاءِ هَكذا: ﴿**ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَالَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**﴾؛

أيّ: هذا تفسيرُ ما ضِقْتُ بِهِ ذَرْعًا، ولمْ تَصبرْ حتَّى أُخْبِرَكَ بِهِ ابتِداءً.

والحِكْمَةُ مِن هذا التنويعِ في التعبيرِ هيَ أنَّ الأحداثَ التي وَقعَتْ مِن الخَضرِ كانت قويَّةً ثقيلةً على نَفْسِ مُوسَى عليه السلامُ؛ ولَكِنْ لَمَّا فَسَّرَ الخَضرُ لِمُوسَى وبيَّنَ ووضَّحَ هانَ عليهِ (خَرْقُ السفينةِ، وقتْلُ الغُلامِ، وبِناءُ الجِدارِ بِلا أجْرٍ)، ومِن هُنا قابلَ الخَضرُ الأثقلَ في التعبيرِ بالأثقلِ في النفْسِ، والأخفَّ في التعبيرِ بالأخفِّ في النفْسِ.

هَذهِ لمحاتٌ بَلاغيَّةٌ وإشراقاتٌ بيانيَّةٌ وصُوَرٍ جَماليَّةٍ نَسْتَشِفُّها حينَ قِراءتِنا لِهذَهِ القِصَّةِ في القُرآنِ الكريمِ كتابِ العربيَّةِ الأكْبَرِ.

أمَّا عن عُنْصُرِ الأحداثِ فيها فَنَجِدُ أنَّ القِصَّةَ قَد رَكَّزَتْ في بِنائِها على أحداثٍ غامِضَةٍ وخَوارِقَ رَهيبَةٍ تُنبهَم وجوه الرأي فِيها على كُلِّ مُفكِّرٍ حتَّى وإنْ كانَ مُوسَى كليمَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

ولـقَد كـانَ مـن أثـرِ ذلـكَ أنْ جـاءتِ الـقِصَّةُ مُـبهَمةً أعـظمَ الإبـهامِ، غـامِضةً أشـدَّ الغُموضِ، ولَولا أنَّ الأحداثَ الغامِضَةَ فِيها قَد فُسِّرَتْ في الخِتامِ لَظلَّ الجُوُّ الداخليُّ لَها مَشحُونًا بالأسرارِ مُلتفًّا بالغُموضِ والضَّبابِ.

ونُلاحِظُ مِن التأمُّلِ في الأحداثِ أنَّ الخَوارِقَ الرَّهِيبَةَ قَد تجَلَّتْ بِصُورةٍ أكثرَ في القِسْمِ الثاني مِن القِصَّةِ؛ أيّ: بَعدَ لقاءِ مُوسَى والخَضرِ؛ أمَّا في القِسْمِ الأوَّلِ فلَمْ تَكُنْ هُناكَ إلَّا خارِقةً واحِدةً تتمثَّلُ في عَودةِ الحُوتِ المَشْويِّ المُمَلَّحِ إلى الحياةِ وإلى اتِّخاذِه سَبيلهُ في البحرِ سَرَبًا.

وقَد بُنِيَتِ القِصَّةُ كُلُّها على الخَوارقِ لِيَرى مُوسَى بِعَينِه كيفَ تكونُ المُعجِزاتُ وخَوارقِ العاداتِ، وكانَ ذلكَ تَمْهِيداً لِرسالتِه المليئةِ بالخَوارقِ؛ كـ (انقلابِ العَصا حيَّةً، وإخراجِ يَدِهِ مِن جَيبِه بَيضاءَ مِن غَيرِ سُوءٍ، وانفلاقِ البَحرِ والحَجرِ بِالعَصا)، فبَدا خَوارقُ الخَضرِ تدريبًا عمليًّا لِمُوسَى عليهِ السلامُ، يتمرَّسُ مِن خلالِه على رُؤيةِ المُعجِزاتِ!

ولقَد اعتمَدتِ القِصَّةُ في عَرْضِ أحداثِها المُتلاحِقَةِ المُتتابِعَةِ على طريقةِ السَّرْدِ وطَريقةِ الحِوارِ مَعًا؛ لكنَّ عُنصُرَ الحوارِ الجذَّابِ المُفْصِحِ عن المَشاعِرِ والخَلَجاتِ هو الغالبِ عَليها.

ونَرى الحِوارَ في البَدءِ يَدُورُ بينَ مُوسَى وفَتاهُ، ثُمَّ بَعدَ أنْ يُؤدِّي الفَتى دَوْرَهُ ويَختفِي مِن مَسْرَحِ الأحداثِ يَدُورُ الحِوارُ ويَحتَدِمُ بينَ أهمِّ شَخصيَّتَينِ في القِصَّةِ وهُما مُوسَى والخَضرُ عَليهِما السلامُ.

وحينَ نتأمَّلُ هاتَينِ الشَّخْصيَّتَينِ الأساسيتَينِ في القِصَّةِ نَجِدُ أنَّهُما تُصوِّرانِ اتِّساعَ الهُوَّةِ المُنفرِجَةِ بينَ (عالَمِ الغَيبِ وعالَمِ الشهادةِ)؛ فمُوسَى يَقِفُ وراءَ أسوارِ المَحْدُودِ المُشاهَد، أمَّا الخَضرُ فيَتخطَّى الأسوارَ المَحدُودةَ إلى فَضاءِ اللانهائيَّةِ الرَّحيبِ؛ لِيَرى ما لا يَراهُ النَّاظِرُونَ.

ولقَد ظَهرَ مُوسَى ومَعهُ فَتاهُ يُوشَع بنُ نُونٍ في بدايةِ القِصَّةِ، أمَّا الخَضرِ فقَد ظَهَرَ بعدَ ذلكَ؛ حيث أخذَ مكانَ البُطولةِ جَميعًا، وفي ذلكَ دلالةٌ على أنَّ هذَهِ القِصَّةِ مِن القَصَصِ التي تَظهَرُ فيهِ الشَّخصيَّاتُ شيئًا فَشيئًا بِتتابُعٍ.

ويَستَرعي انتباهَنا أنَّ القُرآنَ الكريمَ لمْ يَذْكُرْ أسماءَ الشَّخصيَّاتِ الواردةِ في القِصَّةِ باستثناءِ مُوسَى عليهِ السلامُ، وهَذهِ مِيزَةٌ كُبْرَى مِن مزايا القَصصِ القُرآنيِّ؛ فإنَّ أهمَّ شَيءٍ هو العِبْرَةُ والمَغْزَى مَهما اختلفَتْ وتنوَّعَتِ الشَّخصيَّاتُ، ومِن هُنا نَسْتَخْلِصُ أنَّ القُرآنَ الكريمَ قَد سبقَ إلى ذلكَ اللونِ القَصَصيِّ المُسمَّى عِندَ النُّقَّادِ المُعاصِرينَ بِالقِصَّةِ ذاتِ التوجيهِ المَعنويِّ، وهيَ التي تتركَّزُ حولَ مَغْزَىً مُعَيَّنٍ، وتَعْرِضُ بِالقَدْرِ الذي يبلغُ هذا المَغْزَى، ويُغْفَلُ فيها تحديدُ شخصيَّاتِ الأبطالِ.

كذلك تعَدُّ مِن قَصَصِ الكِفاحِ المُنتهيةِ بتحقيقِ الآمالِ؛ إذِ انتهَتِ رحلةُ مُوسَى عليهِ السلامُ الشَّاقَّةُ بِلقاءِ الخَضرِ والتلْمَذةِ على يَدَيهِ.

ويُلاحظُ الدَّارسُ لِلقِصَّةِ أنَّها لمْ تُحدِّدِ التاريخَ الذي وَقَعَتْ فيهِ أحداثُها مِن حياةِ مُوسَى عليهِ السلامُ؛ هل كانَ ذلكَ وهُو في مِصرَ قبلَ خُروجِهِ بِبَني إسرائيلَ؟

أمْ كانَ ذلكَ بعدَ خُروجِهِ بِهِم عنها؟

ومتى هذا الخروجُ قبلَ أنْ يذهبَ بهم إلى الأرضِ المُقَدَّسةِ؟ أمْ بعدَ ما ذهبَ بهِم إليها؟ فَوقَفُوا حِيالَها لا يَدْخُلُونَ؛ لأنَّ فيها قومًا جبَّارينَ، أمْ بعدَ ذهابِهم في التِّيهِ مُفرَّقِينَ مُبدَّدِينَ؟

كذلكَ يُلاحِظُ الدارسُ أنَّ القِصَّةَ لمْ تُحدِّدِ المكانَ الذي وَقَعَتْ فيهِ أحداثُها إلَّا بِأنَّهُ مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ، وهُوَ عِندَ الصَّخْرَةِ التي أوَى إليها مُوسَى عليه السلامُ وفَتاهُ، واتَّخَذَ عِندَها الحُوتُ سَبيلَهُ في البَحْرِ سَرَبًا؛ ولكنْ أينَ كانتِ الصخْرةُ هذهِ؟

وأينَ كانَ مَجْمَعُ البَحرَينِ ذاك؟ لا نَدْري.

ومَعنى هذا: أنَّ القُرآنَ الكريمَ قد حَدَّدَ مكانَ هذهِ القِصَّةِ ولمْ يُحَدِّدْها لِحِكْمَةٍ خاصَّةٍ تَسْتَوجِبُ أنْ نَقِفَ عِندَ نُصوصِها كما جاءتْ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا نُقَلِّدَ أولئكَ الذينَ راحُوا يتفنَّنُونَ في النَّصِّ على هذا المكانِ؛ فَزَعَمَ بَعضُهُم: أنَّهُ "مُلْتَقى بَحرِ فارس مِمّا يَلي المَشْرِقَ وبَحرِ الرُّومِ مِمَّا يلي المَغْرِب"، وزَعمَ آخَرُونَ: أنَّه في "أقصَى بلادِ المَغْرِبِ عِندَ طَنْجَةَ..." .

فَكُلُّ هَذهِ المَزاعمِ وأمثالها مِن بابِ (الحَدْسِ والتخْمِينِ)؛ فَضْلاً عمَّا بينَها مِن تناقُضٍ وتَضارُبٍ، وفَضْلاً عن أنَّها تَصْرِفُنا عمَّا في لفْظَةِ "مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ" مِن مَعنىً إشاريٍّ كريمٍ زائدٍ عن المَعنَى الأصليِّ لها؛ فهِيَ تُشيرُ إلى حَقيقةِ العَبْدِ الذي جَمَعَ اللهُ فيهِ بَحْرَ الحقيقةِ وهو المِلْحُ الأُجاجُ الذي لمْ يَقْوَ على الشُّرْبِ مِنهُ أحدٌ إلَّا إذا تَصفَّى مِن مِلْحِه، أوْ مُزِجَ بِماءِ النهرِ العذْبِ الفُراتِ وهُو الشريعةُ السائغةُ لِلنَّاسِ كافَّةً؛ والتي لمْ يَختلِفْ عليها أحدٌ لِمُلاءمَتِها لِكُلٍّ مِن (العقلِ والعادةِ والعُرفِ).

والعَبْدُ الكاملُ قَد مَزَجَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ البَحْرَينِ؛ لَيتناولَ منهُما ما يُحْي بِه كُلَّ الحقائقِ التي خُلِقَ منها مِن (جِسْمٍ وحِسٍّ وعَقْلٍ ورُوحٍ)، وهذا العبدُ الصالحُ يُعطي مِن شَرابِه هذا مَن كانَ على شاكِلَتِه، ومَن كانَ يُريدُ الحياةَ الكامِلَةَ لِجَميعِ قِواهُ ومَعالِمِه.

ولعلَّ مِمَّا يُؤكِّدُ هذا التفسيرَ أنَّ البَحْرَينِ لا يُذْكَرانِ في القُرآنِ الكريمِ إلَّا بِهذا المَعنى؛ أيّ: أحدَهُما عَذْبٌ فُراتٌ، والآخَرُ مِلْحٌ أُجاجٌ.

قالَ تعالى في سُورةِ الفُرقانِ: (**وَهُوَ الذي مَرَجَ البَحْرَينِ هَذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهَذا مِلْحٌ أُجاجٌ**) ومَهما يَكُنْ مِن أمرِ هذا المكانِ؛ فإنَّ القِصَّةَ قَد اكتفَتْ بالإشارةِ في مَطلعِها إلى أنَّ سَيِّدَنا مُوسَى عليهِ السلامُ قَد قرَّرَ أمْرًا مُفاجِئًا حينَ قالَ لِفَتاهُ أنَّهُ سَيُمْضِي حُقُبًا ومَسافاتٍ حتَّى يَصِلَ إلى هذا المكانِ المسمَّى "مَجمَعَ البَحْرَينِ".

ونُلاحِظُ أنَّ القِصَّةَ لمْ تَذْكُرْ لنا في البَدءِ سِوى هذا، ثُمَّ نُفاجَأُ بعدَ سُطورٍ مِن بَدئِها أنَّ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ هذا كائنٌ عندَ الصخرةِ.

كذلك نُلاحِظُ أنَّ القِصَّةَ لمْ تَذْكُرْ لنا في البَدءِ سِرَّ ذَهابِ مُوسَى عليهِ السلامُ إلى مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ وإصرارِه على الوُصولِ إليهِ؛ لَكِنَّنا نُفاجَأُ بعدَ سُطورٍ مِن بَدئِها كذلكَ بهذا السِّرِّ حين يلتقي مُوسَى بِالخَضرِ، ويَطلُبُ منهُ أنْ يَتَّبِعَهُ لِيتَعَلَّمَ مِنْهُ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ رُشْدًا.

فإذا كانَ النُّقَّادُ اليومَ يقولونَ: إنَّ عُنصُرَ المُفاجأةِ في القِصَّةِ هُو مَصدَرُ الجاذِبِيَّةِ والتشويقِ، فَها هُو ذا القُرآنُ الكريمُ يَسْبِقُهُمْ إلى العنايةِ التامَّةِ بهذا العُنصرِ؛ فَنحْنُ نَجِدُ مِن تأمُّلِنا لِلجَوِّ الخارجيِّ والداخليِّ لهذهِ القِصَّةِ أنَّ هذا العُنْصُرَ يَشيعُ فيها

شُيوعًا يكادُ يكونُ تامًّا؛ حتَّى لتَحُوطُها المُفاجآتُ مِن مَطلعِها إلى نهايتِها؛ بلْ إنَّ المُفاجأةَ قَد أعلَنتْ عنْ نفْسِها قبلَ أن يلتقِيَ التلميذُ والأُستاذُ؛

لأنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ فُوجِئَ بِأنَّهُ وهوَ كليمُ اللهِ لا يَبْلُغُ مَبلَغَ بَشَرٍ سِواهُ في (العِلْمِ والمَعرِفَةِ والاستِبصارِ). ومِن هُنا بادَرَ إلى البحثِ عن الخَضِرِ، وما دَرَى أنَّهُ سَيتعَرَّضُ هُو وقارِئُ القِصّةِ بالتأكيدِ لِمُفاجآتٍ أُخْرى تُصبِحُ معَها المُفاجأةُ الأُولى كلَّ شَيءٍ، وأيُّ مُفاجأةٍ أكبرُ مِن أنْ يَعْمدَ الخَضِرُ إلى (خَرْقِ سفينةٍ لِمساكِينَ يَعْمَلُونَ في البحرِ، وقَتْلِ نَفْسٍ زَكيَّةٍ حَرَّمَ اللهُ قَتْلَها بِلا ذَنبٍ، وبِناءِ جِدارٍ بِلا أجْرٍ في قريةٍ سائرُ أهلِها بُخلاءُ أبَوا أنْ يُضَيِّفُوهُما).

إنَّ قارِئَ هَذهِ القِصَّةِ أو سامِعَها لا يستطيعُ أنْ يأخُذَ أنْفاسَهُ مُرتاحًا بعضَ الراحةِ بعدَ أنْ يَبْتَدِئُها؛ وإنَّما يَشعُرُ بِدافعٍ يُحَفِّزُ ويُولِّدُ عِندَهُ ألوانًا شتَّى من التشويقِ الرائعِ، ويَقودُ نَفْسَهُ إلى التطلُّعِ السريعِ لِحلِّ ما تَضَمَّنَتْهُ القِصَّةُ مِن مُفاجآتٍ مُتواليةٍ وألغازٍ خارقةٍ، وما يزالُ كذلكَ حتَّى يُفاجأَ بِما فُوجِئَ بِه سَيِّدُنا مُوسَى نَفْسُه حينَ قالَ لهُ الخَضِرُ: (هَذا فِراقُ بَينِي وبَينِكَ).

وعِندَئذٍ يَشعرُ القارئُ أنَّ هذا البطلَ قد انتهَى دَورُه، وأنَّ القِصَّةَ قَد لَوَّحَت بِقُربِ خِتامٍ، وأنَّ القُرآنَ الكريمَ قَد احتَوى على قِصَّةٍ مُحتَشدَةٍ بِالصِّراعِ والحَركةِ والمُفاجآتِ والأحداثِ؛ فَضْلاً عمَّا فِيها مِن (إعجازِ التصويرِ، وجَلالِ التعبيرِ، ورَوعةِ الأداءِ، وكَمالِ الإحكامِ، وسُموِّ المَضمُونِ)، ثمَّ رَوعةِ الرَّمْزِ إلى حقيقةِ القَدَرِ الذي يُسيطِرُ على الكونِ بِتدبيرِهِ الخاصِّ وإرادتِهِ العُليا وقُدرَتِه الخارِقَةِ المُطلَقةِ. وهكذا يتَّضِحُ لنا مِن خلالِ التحليلِ الأدبيِّ لِهذهِ القِصَّةِ أنَّنا أمامَ قِصَّةٍ قُرآنيةٍ عَظيمةٍ، تُعَدُّ بِحَقٍّ مِثالاً

رائِعًا لِضَرْبٍ مِن ضُروبِ القَصَصِ في القرآنِ الكريمِ. وفِيها مِن صُورِ (الجَمالِ والجَلالِ والكَمالِ) ما يَعجَزُ البَشرُ والجِنُّ عن الإتيانِ بِمِثْلِهِ، (**وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**).

هذا وقَد زعمَ الدكتور "نجيب البهبيتي" في كتابِه "المُعَلَّقَةُ العربيَّةُ الأُولى" أنَّ مُوسَى في هذه القِصَّةِ ليسَ هُو مُوسَى بن عِمرانَ الذي أرسلَهُ اللّٰهُ إلى فِرعَونَ؛ وإنَّما هُوَ مُوسَى بنُ ميشا... وهذا زَعْمٌ يَدْحَضُهُ دليلٌ مِن السُّنَّةِ النبويَّةِ الصحيحةِ، كذلكَ يَدْحَضُهُ دليلٌ مِن التاريخِ، ودليلٌ مِن القُرآنِ الكريمِ ذاتِه؛

أمَّا الدليلُ مِن السُّنَّةِ المُطهَّرةِ فَهُوَ ذِكْرُ هذهِ القِصَّةِ في صَحيحَي البُخاريِّ ومُسْلِمٍ، وفي الحديثِ الشريفِ أنَّه مُوسَى بنُ عِمرانَ.

وأمَّا الدليلُ التاريخيُّ فقَد قالَ أهلُ العِلْمِ بِالتاريخِ: لَّما ماتَ يَعقُوب ويُوسُفُ عليهِما السلامُ، وآلَ الأمرُ إلى الأسباطِ كثُرُوا ونَمُوا وظَهَرَ فِيهِم مُلوكٌ؛ فَغيَّرُوا سِيرَتَهُم، وأفْسَدُوا في الأرضِ، وفَشا فِيهِمُ السِّحْرُ والكَهانَةُ؛ فَبعثَ اللّٰهُ تعالى إليهِم مُوسَى بنَ ميشا بنِ يُوسُفَ عليهِ السلامُ يَدْعُوهُمْ إلى (عبادةِ اللّٰهِ وَحْدَهُ، وأداءِ أوامِرِه، وإقامةِ سُنَّتِه)؛ وذلكَ قَبْلَ مَولدِ مُوسَى بنِ عِمرانَ بِمائتَي سَنة.

وأضافَ أهلُ العِلمِ بالتاريخِ: أنَّ مُوسَى بنَ ميشا يُسمَّى "مُوسَى الأوَّل" وليسَ هُو صاحِبَ الخَضرِ عليهِ السلامُ؛ وإنَّما الصاحِبُ هو "مُوسَى الثاني".

وأمَّا الدليلُ القُرآنيُّ فنَحنُ إذْ نَنْظُرُ إلى قِصَّةِ مُوسَى مع الخَضرِ نَجِدُ فيها ما يُؤكِّدُ أنَّ مُوسَى هُنا هو مُوسَى بنُ عِمرانَ الذي تَحَدَّثَ عنهُ القُرآنُ الكريمُ في مَواضِعَ عديدةٍ؛ فنحنُ نَجِدُ سَيِّدَنا مُوسَى عليهِ السلامُ في هَذهِ القِصَّةِ يَعِدُ الخَضرَ بِالصَّبْرِ وعَدمِ السُّؤالِ عن شيءٍ حتَّى يُحْدِثَ لهُ الخَضرُ مِنهُ ذِكْرًا؛ ولَكنَّهُ حينَ يَرى الخَضرَ يَخْرِقُ

السفينةُ ينْسَى ذلكَ كُلَّهُ أمامَ هذا التصرُّفِ العجيبِ الذي لا مُسوِّغَ لهُ في نَظَرِ مَنطقِهِ العقليِّ ويَندفِعُ مُسْتَغْرِبًا غيرَ صابرٍ على فِعْلَةِ الرَّجُلِ، ثُمَّ يَندَفِعُ مُستنْكِرًا حينَ يَراهُ يَقتلُ الغُلامَ، ومُعاتِبًا حينَ يَراهُ يَبنِي الجِدارَ بِلا مُقابلٍ في قريةٍ أهلُها بُخلاءُ.

ومَعنى هذا: أنَّ مُوسَى في هَذهِ القِصَّةِ ذُو طبيعةٍ انفعاليَّةٍ اندفاعيَّةٍ تغضبُ لِلحَقِّ، وتلكَ الطبيعةُ هي ذاتُها طبيعةُ مُوسَى بنِ عِمرانَ في بقيَّةِ ما قصَّهُ اللهُ عنهُ في القُرآنِ الكريمِ، وكما تَظهَرُ مِن تصرُّفاتِه في أغلبِ أدوارِ حياتِه؛ مِثل وَكْزِه الرَّجُلَ المِصريّ في اندفاعةٍ من اندفاعاتِه، وسُرعةِ انفعالِه حينَما عَلِمَ أنَّ قَومَهُ عَبدُوا العِجْلَ فألقَى ألواحَ التوراةِ، وأخَذَ بِرأسِ أخيهِ يَجُرُّهُ إليهِ... وهَذهِ الطبيعةُ لمْ يُحدِّثنا التاريخُ بِمثلِها عن مُوسَى بنِ ميشا.

كذلك فإنَّ هَذهِ الأحداثَ التي فَعَلَها الخَضرُ كانتْ مِن بينِ ألفِ مسألةٍ أعدَّها الخَضرُ بأمرِ اللهِ تعالى لِمُوسَى بنِ عِمرانَ مِمَّا جَرَى عليهِ مِن أوَّلِ ما وُلِدَ إلى زمانِ اجْتماعِه بهِ، فإنْ حَدَثَ خَرْقُ السفينةِ الذي ظاهِرُه الهلاكُ وباطنهُ النَّجاةُ مِن يدِ المَلِكِ الغاصبِ الذي كان يأخُذُ كُلَّ سفينةٍ غَصْبًا إنَّما كانَ كما سَبَقَ القولُ في مُقابَلةِ التابُوتِ الذي أطبقَ على سَيِّدِنا مُوسَى في اليمِّ؛ فَظاهِرُه الهلاكُ وباطِنُه النَّجاةُ مِن فِرعَونَ الطاغية.

كذلك فإنَّ أوَّلَ ما ابتلَى اللهُ بهِ مُوسَى قَتْلَهُ القِبْطيَّ بِما ألْهَمَهُ اللهُ ووَفَّقَهُ لهُ في سِرِّهِ وإنْ لمْ يَعلَمْ ذلكَ؛ ولِهذا أراهُ الخَضرُ قَتْلَ الغُلامِ فأنْكَرَ عليهِ قَتْلَهُ، ولمْ يَتذَكَّرْ قَتْلَهُ القِبْطيّ. وقَد أراهُ الخَضرُ إقامةَ الجِدارِ مِن غَيرِ أجْرٍ فَعاتبَهُ على ذلكَ، ولمْ يتذَكَّرْ سِقايَتَهُ مِن غَيرِ أجْرٍ لِبِنْتَي شُعيبٍ عليهِ السلامُ.

فهَذهِ الأحداثُ المُوسويّةُ الخَضريَّةُ تُؤكِّدُ أنَّ مُوسَى المَذكور في سائِر المَواضِع القُرآنيَّةِ التي تَناولَتْهُ إنَّما هُو مُوسَى بنُ عِمرانَ ليسَ غير.

فوائِدُ مِن قِصَّةِ مُوسَى والخَضرِ عليهِما السلامُ

١ – أَنَّ اللَّه يَفْعَلُ فِي مُلْكِه مَا يُرِيدُ، وَيَحْكُمُ فِي خَلْقِه بِمَا يَشَاءُ؛ مِمَّا يَنْفَعُ أَوْ يَضُرُّ؛ فَلا مَدْخَلَ لِلْعَقْلِ فِي أَفْعَاله وَلا مُعَارَضَة لأَحْكَامِه؛ بَلْ يَجِبُ عَلَى الْخَلْقِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمُ؛ فَإِنَّ إِدْرَاكَ الْعُقُولِ لأَسْرَارِ الرُّبُوبِيَّة قَاصِرٌ فَلا يَتَوَجَّهُ عَلَى حُكْمِه لِمَ؟ وَلاَ؟ وكَيْفَ؟.

٢ – استِحبابُ الرِّحلَةِ لِلعلْمِ، والتَّزوُّدِ لِلسَّفَرِ.

٣ – فضيلةُ طلبِ العِلْمِ والأدب مع العالِمِ.

٤ – جَوازُ سُؤالِ الطعامِ عِندَ الحاجةِ.

٥ – جَوازُ الإجارةِ.

٦ – جَوازُ رُكوبِ البَحْرِ ونحوِ ذلكَ بِغَيرِ أُجْرَةٍ بِرِضا صاحِبِه.

٧ – الحُكْمُ بِالظَّاهِرِ حتَّى يتبيَّنَ خِلافُه.

٨ – إذا تعارَضَتْ مَفْسَدَتانِ يَجُوزُ دَفْعُ أعظَمِهِما بِارتِكابِ أخَفِّهِما.

٩ – وُجوبُ التسليمِ بِكُلِّ ما جاءَ بِهِ الشرعُ الحَنيفُ – وإنْ كانَ بَعضُه لا تَظْهرُ حِكْمَتُهُ لِلعُقولِ، ولا يَفهَمُه أكثرُ الناسِ، وقَد لا يَفْهَمُونَهُ كُلُّهُم كالقَدَرِ.

١٠ – ما تَعَبَّدَ اللّهُ تعالى بِهِ خَلْقَهُ مِن شَرِيعَتِه يَجِبُ أنْ يكونَ حُجَّةً على العُقولِ، ولا تكونُ العُقولُ حُجَّةً عليه؛ ألاَ تَرَى أنَّ إنكارَ مُوسَى عليهِ الصلاةُ والسلامُ كانَ صَوابًا في الظاهِرِ وغَيرَ مَلُومٍ فيه؛ فَلَمَّا بينّ الخَضرُ وَجْهَ ذَلِكَ صارَ الصَّوابُ الذي ظَهرَ

لِموسَى في إنكارِه خطأ، والخَطأُ الذي ظَهَرَ لهُ مِن فِعْلِ الخَضرِ صَوابًا، وهذا حُجَّةٌ قاطِعةٌ في وُجوبِ التسليمِ للهِ تعالى في دِينِه ولِرَسُولِه في سُنَّتِه واتِّهام العُقولِ إذا قَصَّرَتْ عن إدراكِ وَجْهِ الحِكْمَةِ فيه.

١١ – أنَّ قولَ الخَضرِ: (**ومافَعَلْتُهُعنْأمْرِي**) يدلُّ على أنَّهُ فِعْلَهُ كانَ بِالوحْيِ؛ فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يَقتُلَ نَفْسًا لِما يُتوَقَّعُ وُقوعُه مِنها؛ لأنَّ الحُدودَ لا تَجِبُ إلَّا بعدَ الوُقوعِ. وكذا لا يُقْطَعُ على أحدٍ قَبْلَ بُلُوغِه؛ لأنَّهُ إخبارٌ عن الغَيبِ.

وكذا الإخبارُ عن أخْذِ المَلِكِ السفينةَ، وعن استِخْراجِ الغُلامَينِ الكَنْزَ؛ لأنَّ هذا كُلَّهُ لا يُدْرَكُ إلَّا بِالوحْيِ، وفيهِ حُجَّةٌ لِمَنْ قالَ بِنبوَّةِ الخَضرِ عليهِ السلامُ وهُو قولُ الجُمهورِ.

١٢ – جوازُ إفسادِ بعضِ المالِ لإصلاحِ باقيهِ[١].

[١] رَوعةُ الجَمْعِ بينَ الدِّينِ والأدَبِ والتاريخِ في القَصَصِ القُرآنيِّ: د. عبد الجواد المحص.

تأملات تربوية في قصة موسى والرجل الصالح[1]

القِصَّةُ مِن بِدايتِها إلى نِهايتِها نَبْعٌ ثَرٌّ مِن المَعاني التربَويَّةِ القُرآنيَّةِ الرَّائِعَةِ؛ ففِي كُلِّ كَلِمَةٍ مَنحَىً بديعٌ ولفتَةٌ راقِيةٌ؛ فهلُمَّ إليها مِن بِدايتِها:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا):

– كانَ لِموسَى عليهِ السَّلامُ هَدَفًا مُحدَّدًا يسعَى لِتَحقيقِه؛ فهُوَ يُريدُ أنْ يلقَى مُعَلِّمًا يتعلَّمُ مِنهُ صَلاحَ أمْرِهِ في دُنياهُ وآخِرَتِه في مَكانٍ مُحدَّدٍ وفي وَقْتٍ يَنتظِرُهُ المُعلِّمُ فيهِ.

فعلَى التلميذِ أنْ يسعَى إلى العِلْمِ لا أنْ يَسْعَى العِلْمُ إليهِ، وهذا أكْرَمُ لِلعِلْمِ والمُعَلِّمِ والمُتعلِّمِ؛ فالعِلْمُ إنْ جاءَ سَهْلَ المُتناوَلِ زَهِدَ المُتعلِّمُ فيهِ.

وأعظمُ لِلمُعلِّمِ في عَينِ المُتعلِّمِ أنْ يَسْعَى الأخيرُ إلى الأوَّلِ لِيَعْرِفَ قَدْرَهُ وقَدْرَ ما يَحْمِلُهُ فيتعلَّقَ بهِما.

– ونَرى الإصرارَ العَجيبَ على لقاءِ المُعلِّمِ والنَّهْلِ مِن عِلْمِه في قولِه: **(لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا)**؛ فهُو مُصمِّمٌ على بَذْلِ الجُهْدِ لِيَصِلَ إلى مُبْتَغاهُ؛ ألاَ وهُو لِقاءُ الأُستاذِ في المَكانِ المَنْشُودِ ولوْ أمْضَى عُمُرَهُ يَبْحَثُ عنهُ: أوْ أمْضِيَ حُقُبًا. والحُقْبَةَ أرْبَعُونَ سَنةً كما قالَ العُلماءُ، فَما بالُكَ بِذِكْرِ الجَمْعِ (حُقُبًا)!

إنَّهُ دليلٌ على الهِمَّةِ العاليةِ والسَّعي الحثيثِ إلى العِلْمِ والعُلماءِ.

---

[1] د. عثمان قدري مكانسي

وما يزالُ العِلْمُ بِخَيرٍ ما دامَ طالِبُوهُ يَطْلُبونَهُ في مَجالِسُه ويُوقِّرُونَ حامِليهِ.

ألـمْ يَـرِدْ فـي الأثَـرِ: "نِـعْمَ الأُمـراءُ عـلى أبـوابِ الـعُلماءِ، وبِـئْسَ الـعُلماءُ عـلى أبـوابِ الأمراءِ".

وهذا نبيٌّ كريمٌ مُوسَى عليهِ السلامُ على جلالِ قَدْرِهِ وعُلُوِّ مَكانَتِه يَسْعَى إلى الرَّجُلِ الصالِح حينَ عَلِمَ أنَّ لَدَيهِ عِلْمًا يُستَفادُ مِنهُ لمْ يَحُزْهُ مُوسَى (**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**). وفي مُصاحَبةِ الكبيرِ لِلصَّغيرَ فائدةٌ لِكليَهِما؛ فالأوَّلُ يُشْرِفُ على تربيتِه ويُعَلِّمُهُ الحياةَ ويُصَوِّبُ أخْطاءَهُ ويُسدِّدُ خُطاهُ، والثاني يَخْدُمُهُ ويُعينُه على قَضاءِ حَوائِجِه. وقَد أفلحَ مُوسَى في تربيةِ فَتاهُ يُوشَع بنِ نُونٍ عليهِ السلامُ؛ إذْ بَعَثَهُ اللّهُ تعالى نَبيًّا؛ فقادَ مَسيرَةَ المُؤمنينَ وحَمْلِ لواءِ الدَّعوةِ بعدَ أُستاذِه، وفَتحَ اللّهُ على يَدَيهِ القُدْسَ الشريفَ.

(**فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**):

– مَجْمَعَ بينَهُما حارَ فيهِ كثيرٌ مِن المُفَسِّرينَ؛ فمِنْهُم مَن جَعَلَهُ الأرضَ الشاسِعَةَ بينَ بحرِ قزوين وخليجِ فارس، ومِنْهُم مَن قالَ: إنَّهُ بينَ خليجِ اسكندرونَ وبَحْرِ إيجةَ، ومِنهُم مَن ذَكَرَ أنَّها الأرضُ بينَ بحرِ غَزَّةَ وخليجِ العَقَبَةِ.

وقَد ظنُّوا بِكلِمَةِ البَحْرَينِ المِياهَ المالِحَةَ فَتاهُوا في أقوالِهم؛ إذْ ليسَ مِن المُمْكِنِ أنْ يلتقِي أحدٌ بِمَن يُريدُ على مساحاتٍ ضَخْمَةٍ شاسِعَةٍ تبلغُ آلافَ الكيلومتراتِ المُرَبَّعةِ تضيعُ فيها الجُيوشُ والأُمَمُ ! وهلْ مِن المَعقُولِ أنْ يُضْرَبَ مَوعِدٌ لِرَجُلَينِ في صَحراءِ سَيناءَ الواسِعَةِ الشاسِعَةِ، أوْ أنْ يشُدَّ مُوسَى عليهِ السلامُ الرِّحالَ إلى إيرانَ أو آسيةَ الوسْطَى وهُوَ في فِلسطينَ؟

وقَد غابَ عنْ كثيرٍ مِنهُم أنَّ البحرَ يُطلَقُ على الماءِ المالِح والماءِ الحُلو، كما في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

والنهرُ حينَما يَصبُّ في البَحْرِ فهُوَ مَجْمَعهُما؛ أيّ: في قِطْعَةٍ مِن الأرضِ لا تتجاوزُ عشراتِ الأمتارِ قريبَةٍ مِن مَقامِ مُوسَى عليه السلامُ يَقْطَعُها إنْ جَدَّ السَّيْرَ بِساعاتٍ قليلةٍ أوْ بِبَعْضِ يومٍ، وسِياقُ الحديثِ يدلُّ على ذلكَ.

وهل يَجُوزُ لِمُوسَى أنْ يَدعَ قَومَهُ اليهودَ أيَّامًا وشُهُورًا وهُمْ على ما هُمْ عليه مِن ضَعفِ الإيمانِ وشَوائبِ العقيدةِ، ويلتقي بِرَجُلٍ مُدَّةً لَيْسَتْ باليَسيرةِ قَد تطُولُ أيَّامًا وشُهورًا أيضًا فَيَعُودُ لِيَجِدَهُمْ قَد تاهُوا في الضَّلالةِ وهُوَ العالِمُ بِشُؤونِهم الحَريصِ على هِدايتِهم؟

– الإنسانُ ضَعِيفٌ على الرّغْمِ مِن جَلَدِهِ في كثيرٍ مِن أُمُورِه ولو كانَ مِن أُولي العَزْمِ. وأوَّلُ دليلٍ على ذلكَ أنّ مُوسَى أصَرَّ على لقاءِ الرَّجُلِ – ولو طَوى الأرْضَ في سبيلِ هذا الهَدَفِ –؛ لكنَّهُ حينَ شَعرَ بالجُوعِ بعدَ السَّيرِ الطَّويلِ واجتيازِ مكانِ اللقاءِ دُونَ أنْ ينتبِها إليه قالَ لِفَتاهُ: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

وكانَ غداؤُهُ السَّمكَةَ المشوية التي تَحَرَّكَتْ بعدَ أنْ عادتْ إليها الرُّوحُ بإذنِ اللهِ تعالى حينَ اسْتَلْقَى نائمًا على الصَّخْرَةِ التي كان مِن المَفْرُوضِ أنْ يلتقِيَ بِصاحِبِه عليها، وعادتْ إلى الماءِ بِقُدْرَةِ خالِقِها وبارئِها الذي يُعيدُ الخَلْقَ كما بدأهُ وقْتما يشاءُ.

والدليلُ الثاني: أنَّ النِّسيانَ ضَعْفٌ يُضيِّعُ على الإنسانِ كثيراً مِمَّا خَطَّطَ ودَبَّرَ؛ فقَد نامَ مُوسَى على الصَّخْرَةِ حينَ سَرَبَ الحُوتُ إلى الماءِ ولمْ يَكُنِ الفتَى نائمًا؛ فَرأى بِأمِّ

عَينه الأمرَ الغَريبَ، ولمْ يَشَأْ أنْ يُوقِظَ نَبيَّهُ الكريمَ احتِرامًا وتقديرًا وسَوفَ يُخْبِرُهُ حينَ يَسْتَيقِظُ.

– ولا بُدَّ أنْ نُشيرَ هُنا إلى الأدبِ الذي رُبِّيَ عليهِ الصَّغيرُ في التعامُلِ مع الكبيرِ، وإلى آفةِ النِّسْيانِ التي ابْتُلِيَ بها الإنسانُ لِلدّلالةِ على ضَعْفِه؛ فلمَّا اسْتيقَظَ مُوسَى عليهِ السلامُ وسارا بَحْثًا عن الرَّجُلِ الصالِحِ نَسِيَ الفتَى قِصَّةَ السَّمكَةِ على غَرابَتِها وعَجيبِ أمْرِها.

– ومِن الأدبِ أيضًا مع اللهِ تعالى أنْ نَسَبَ الفتَى نِسيانَهُ أمرَ السَّمَكَةِ إلى الشيطانِ، واعتبرَ هذا النِّسيانَ عَيبًا. والعَيبُ كُلُّهُ في الشيطانِ عَدوِّ الإنسانِ، مع أنَّ اللهَ تعالى كانَ قَد أخبرَ نبيَّهُ مُوسَى أنَّه سَيلقَى الرَّجُلَ الصالِحَ في المكانِ الذي يَفْقِدُ فيهِ الحُوتَ؛. فهُوَ أمرٌ مُخطَّط لهُ كي يُحددُ المكانَ فلا يُخْطِئُه.

– ويَبْدُو أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ وفَتاهُ نَسِيا المكانَ وسارا؛ لأنَّهُما لمْ يَقُولا "إنْ شاءَ اللهُ" فِيما عَزَما عليهِ؛ فمُوسَى أخبرَ فَتاهُ عن عَزْمِه على بُلُوغِ مَجْمَعِ البَحْرَينِ دُونَ أنْ يَرْبِطَ ذلكَ بِمَشيئةِ اللهِ تعالى،

وكذلكَ فعلَ فَتاهُ فَدَمَجَهُما اللهُ تعالى بِذِكْرِهِما في النِّسيانِ: (**نَسِيا حُوتَهُما**).

وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَد قالَ لِمَنْ سألَهُ عنِ (الرُّوحِ والفِتْيَةِ وذِي القَرْنَينِ) إنَّهُ سَيُعْطِيهِم الجَوابَ غَدًا دُونَ أنْ يَرْبِطَ ذلكَ بِمَشيئَةِ اللهِ، فتأخَّرَ الجَوابُ خمسةَ عَشَرَ يَومًا ثُمَّ نَزَلَ عليهِ قولُهُ تعالى: (**وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ**

اللهُ). وأمرَهُ أنْ يَذْكُرَ اللهَ تعالى فقالَ: (**واذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسِيتَ وقُلْ عَسَى أنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأقْرَبَ مِنْ هَذا رَشَدًا**).

– ومِن الأدبِ التربَويِّ في هذه القِصَّةِ كذَلِكَ أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ حينَ عَلِمَ بِخَطَئِه وخَطأ فَتاهُ لمْ يَشْتَغِلْ بِلَومِ نَفْسَهُ أو بِلَومِ صَاحِبِهِ؛ فَهُناكَ أمْرٌ مُهِمٌّ جِدًّا عَلَيهِما تَدارَكَهُ قبلَ فَواتِه؛ إنَّهُ لقاءُ الرَّجُلِ المُعلِّمِ. فماذا فَعلا؟ إنَّهُما:

أ – عادا سَرِيعًا ولمْ يُضَيِّعا الوقْتَ، والدليلُ على ذلكَ قَولهُ تعالى: (**فارْتَدَّا**).

وهَذهِ الكلمةُ مع الفاءِ الذي هو حَرْفُ عَطْفٍ وتَرتيبٍ وتَعْقِيبٍ تَدلَّانِ على سُرْعةِ الحَرَكَةِ والعَزْمِ على الوُصُولِ بِقُوَّةٍ إلى الهَدَفِ.

ب – عادا مِن حيثُ جاءا يَسْتَهْدِيانِ بآثارِ الخُطواتِ التي مَشياها كي لا يَنْحَرِفا عَن الصَّخْرَةِ: (**على آثَارِهِما قَصَصًا**).

ج – فكانَ عاقِبَةُ سُرْعَتِهِما وَجَدَهما أنْ وَصَلا إلى الهدَفِ فَوراً: (**فَوَجَدا عَبْدًا مِنْ عِبادِنا**).

بَعْضُ صِفاتِ المُعَلِّمِ الرَّبَّانيِّ

أ – هوَ عَبْدٌ مِن عِبادِ اللهِ تعالى، والعُبوديَّةُ للهِ أعلى مَراتبِ الإنسانيَّةِ؛ لأنَّ صِلَةَ العَبْدِ بِرَبِّهِ تَسْمُو بهِ وتَفْتَحُ لهُ مَغاليقَ الأمورِ.

وقَد وَرَدَ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّ هذا الرَّجُلَ الصَّالِحَ هوَ الخَضرُ؛ فقَد رَوى التِّرمذيُّ عن أبي هُريرةَ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ: "إنَّما سُمِّيَ الخَضرُ؛ لأنَّهُ جَلَسَ على فَرْوَةٍ بَيضاءَ فإذا هِيَ تَهْتَزُّ تَحْتَهُ خَضْراءَ"، والفَرْوَةُ هُنا وَجْهُ

الأرْضِ. وقِيلَ: إنَّهُ "عَبْدٌ صالِحٌ نبيٌّ" والآيةُ تشهَدُ بِنُبوَّتِه؛ لأنَّ بَواطِنَ أفْعالِه لا يُمكِنُ أنْ تكونَ إلَّا بِوَحْيٍ.

والإنسانُ يَتعلَّمُ عادةً مِمَّنْ فَوقَهُ، ولا يَتعلَّمُ نبيٌّ إلَّا مِن نبيٍّ، ولا يَجُوزُ أنْ يكونَ فوقَ النبيِّ مَن ليسَ بِنَبيٍّ. وقيلَ غَيرُ ذَلِكَ، ولا يَهُمُّنا هذا الأمرُ بِشَيءٍ، وذَكَرْناهُ لِلعِلْمِ بِهِ فقَط.

ب – (**آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا**). قيلَ: هيَ "النبوَّةُ"، وقيلَ: هيَ "النِّعمَةُ"؛ فهُو رَحِيمٌ، والمُعلِّمُ الرَّحِيمُ بِتلامِيذِهِ يَترفَّقُ بِهِم، ويَتقرَّبُ مِنهُم، ويَتحبَّبُ إليهِم؛ لِيأنَسُوهُ فَيُحِبُّوهُ ويأخُذُوا عَنهُ عِلْمَهُ.

ج – كان عِلْمُ مُوسَى مَعرِفةَ ظواهِرِ الأحكامِ، وعِلْمُ الخَضِرِ معرِفةَ بواطِنِها.

كما أنَّ العِلْمَ اللدُنِّيَّ مِن اللهِ مُباشَرةً ليسَ لأحدٍ مِن البَشَرِ فَضْلُ تعليمِه.

مِن أدبِ التعلُّمِ

أ – التلطُّفُ في الطَّلَبِ: فلمْ يَفْرِضْ مُوسَى عليهِ السلامُ نَفْسَهُ على الخَضِرِ على الرَّغْمِ مِن أنَّ اللهَ تعالى أخْبرَ الخَضرَ بِلقائِه لِيتعلَّمَ مِنهُ؛ إنَّما تلطَّفَ في عَرْضِهِ بِصيغَةِ الاستفهامِ التي تَتْرُكُ مَجالاً لِلمَسْؤولِ أنْ يَتنَصَّلَ إنْ أرادَ.

ب – جَعلَ نَفْسَهُ تابِعًا حينَ سألهُ هلْ أتَّبِعُكَ...؟؛ فالتلميذُ تابِعٌ أستاذِه، مُسلِّمٌ إليهِ قِيادَه، وهَذا أدعَى إلى التناغُمِ بينَهُما.

ت – العِلْمُ يَرْفَعُ صاحِبَهُ: وهذا ما أقرَّ بِه مُوسَى لِلخَضِرِ حينَ عَرَضَ عليهِ أنْ يَتَبِّعَهُ شَرْطَ أنْ يُعَلِّمَهُ (**عَلَى أنْ تُعَلِّمَنِ**).

وهَذهِ التبعيَّةِ ترفَعُ المُتعلِّمَ. أمَّا التبعيَّةُ مِن ذُلٍّ أو لعاعَةٍ مِن دُنْيا يُصيبُها فَسُقوطٌ لِلمَتْبُوعِ وكِبْرٌ لِلتابِع.

ث – الواقعيَّةُ في الطلبِ: فهُو لمْ يَطلُبْ مِنهُ أنْ يُعلِّمَهُ كُلَّ شَيءٍ؛ إنَّما طلبَ أنْ يُعلِّمَهُ شيئًا ممَّا عَلَّمَهُ اللهُ تعالى (**مِمَّاعُلِّمْتَ..**). وهذا تواضُعٌ في الطلبِ؛ فهُو عليهِ السلامُ لمْ يُكلِّفْ أستاذَهُ شَطَطًا؛ لقَد طَلَبَ العِلْمَ المُفيدَ الذي تَسمَحُ بهِ نَفْسُ مُعلِّمُه.

ج – طلبُ النفيسِ مِن العِلْمِ: فاللهُ تعالى عَلَّمَ الخَضرَ عِلْمًا لَدُنِّيًا نفيسًا يُريدُ مُوسَى بَعْضَهُ، ولمْ يَطلُبِ العِلْمَ الدُّنيويَّ وإنْ كانَ مُفيدًا؛ إنَّما طَلَبَ الهُدَى والرَّشادَ الذي يَبْلُغُهُ المَقامَ الأعلى في الدُّنيا والآخِرَةِ، وحَدَّدَ نوعَ العِلْمِ فقالَ: (**مِمَّاعُلِّمْتَ رُشْدًا**). وضِدُّ الرُّشْدِ الهَوى والضَّلالِ، وهذا ما لا نُريدُهُ.

ح – قولُه تعالى: (**مِمَّاعُلِّمْتَرُشْدًا**) تذكيرٌ لِلمُعَلِّمِ أنَّ اللهَ تعالى أنعمَ عليهِ بالرَّشادِ والهُدى والسَّدادِ. ومِن شُكْرِ النِّعَمِ أنْ يُعلِّمَ عِبادَ اللهِ بَعْضًا ممَّا أكْرَمَهُ اللهُ بهِ؛ فتَزْدادَ حُظْوَتُهُ عِندَ خالِقِهِ، ويَزيدَهُ عِلْمًا. ومَنْ دَلَّ على خَيرٍ كانَ لَهُ مِثْلُ أجْرِ فاعِلِهِ.

خ – وقَد يَشترِطُ المُعلِّمُ على تلميذِهِ أنْ لا يَسْتَعْجِلَ في السُّؤالِ عنْ أمرٍ مِن الأُمورِ إلى أنْ يَحِينَ الوقتُ المُناسِبُ لِشَرْحِه وإيضَاحِه (**قالَفإنِاتَّبَعْتَنِيفلاتَسْأَلْنِيعَنْشَيْءٍ حتَّىأُحْدِثَلَكَمِنْهُذِكْرًا**)؛ فقَد لا يَرْغَبُ بالتوضيحِ حتَّى يَسْتَكْمِلَ الأمرَ، وقَد يَرى المُعلِّمُ اختبارَ تلميذِهِ في الصَّبْرِ، وقَد يكونُ المُعلِّمُ نَفْسُهُ قليلَ الكلامِ، وقَد يكونُ مِمَّنْ يَعْتَمِدُونَ في التعليمِ على المُلاحَظَةِ. ولِكُلِّ مُعَلِّمٍ طَريقتَهِ إنْ جارَيتَهُ فِيها

تَـعلَّمْتَ مِـنهُ، وإنْ خـالَـفْتَهُ فـارَقَـكَ وفـارَقْـتَهُ. واللهُ المُـعَلِّمُ والمُـلْهِمُ لِمَـنْ أرادَ الهُـدى والرَّشادَ.

د – لا بُدَّ أن يُخطِئَ الإنسانُ؛ فقَد خُلِقَ مِن عَجَلٍ؛ أيّ: مِن النُّقصانِ؛ فَوجَبَ أنْ يُتْرَكَ لهُ فُسحَةٌ يَستدْرِكُ فيها خطأهُ؛ فقَد اتَّفَقَ النَّبيَّانِ في صُحْبَتِهما على أنْ يَرَى مُوسَى عليهِ السلامُ ما يَجْرِي دُونَ أنْ يَتدخَّلَ (مُسْتنْكِرًا أو مُعلِّقًا) على ما يَراهُ إلى أنْ يَرَى الأُستاذُ رأيَهُ في توضيحِ بَعضِ الأُمورِ؛ لكنَّ التلميذَ لم يَفِ بالوعدِ فقالَ في الأُوْلى: (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**). وشَدَّدَ النكيرَ في الثانيةِ حِينَ قالَ: (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**)، وقالَ في الثالثَةِ مُعْتَرِضًا ومُقْتَرِحًا: (**لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**).

ونَبَّهَهُ أُسْتاذهُ في الأُولى فقالَ: (**أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ عَلَيهِ صَبْرًا**)، وَعاتبَهُ في الثانيةِ فقالَ: (**أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)، وأعلنَ في الثالثةِ أنَّ الفُرْصَةَ المَمنُوحةَ انتهتْ فلا بُدَّ مِن الفِراقِ فقالَ: (**هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**)؛ ولَكِنَّهُ لمْ يَشأْ أنْ يَتْرُكَهُ يَجْهَل أسبابَ الحَوادثِ فأخْبَرَهُ بِها فقالَ: (**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**).

ذ – زِيادةُ المَبْنى لِزيادَةِ المَعنَى: قَبْلَ أنْ يُخْبِرَهُ بالأسبابِ أضافَ لِلفعْلِ "تاءَ التعدِيةِ": (تَسْتَطِعْ) على وَزْنِ "تَفْتَعِلْ"، وحِينَ أخْبَرَهُ بها حَذفَ التاءَ؛ لأنَّ المَعنى انتهَى: (تَسْطِعْ) على وَزْنِ "تَفْعِلْ".

ر – وانظُرْ – رَعاكَ اللهُ – إلى أدبِ الأُستاذِ مع رَبِّهِ؛ فقَد نَسَبَ عَيْبَ السَّفينَةِ إلى نَفْسِه فقالَ: (**فأرَدْتُ أنْ أعِيبَها**)، كما فعلَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ ذَلِكَ في المَرضِ وأسندَ الشِّفاءَ إلى اللهِ تعالى تأدُّبًا فقالَ: (**وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**).

وفِي قَتْلِ الغُلامِ نَسَبَ الخَيرَ في البَدليَّةِ إلى اللهِ تعالى فقالَ: (**فأرَدْنا أنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْرًا مِنْهُ زَكاةً وأقْرَبَ رُحْمًا**).

ولَمَّا كانَ العملُ في الثالثةِ كُلُّهُ بِناءٌ وخَيرًا نَسِيَ نَفْسَهُ وأفْرَدَ اللهُ تعالى بالخَيرِ فقالَ: (**فأرادَ رَبُّكَ أنْ يَبْلُغا أشُدَّهُما ويَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**)؛ مع أنَّ الأمرَ كُلَّهُ مِن اللهِ تعالى وهُوَ لمْ يَفْعَلْ إلَّا ما أمَرَهُ اللهُ بِهِ: (**وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أمْرِي**).

ز – قِيلَ: إنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ قبلَ أنْ يُفارِقَ الخَضرَ قالَ لهُ أوْصِني.

قال: "كُنْ بَسّامًا ولا تَكُنْ ضَحّاكًا، وَدَعِ اللجَاجَةَ ولا تَمْشِ في غَيرِ حاجةٍ، ولا تَعِبْ على الخَطَّاءِينَ خَطاياهُم وَابْكِ على خَطِيئَتِكَ يا ابْنَ عِمْران".

وقِيلَ: إنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ لَمَّا أنْكَرَ خَرْقَ السَّفِينَةِ نُودِيَ يا مُوسَى: أينَ كان تدبِيرُكَ هذا وأنْتَ في التابوتِ مَطْرُوحًا في اليمِّ؟

فلمَّا أنكرَ قَتْلَ الغُلامِ قِيلَ لهُ: أينَ إنْكارُكَ هذا مِن وَكْزِكَ القِبْطِي وقَضائِكَ عَليهِ؟

فلمَّا أنكرَ الجِدارَ نُودِيَ: أينَ هذا مِن رَفْعِكَ حَجَرَ البِئْرِ لِبَناتِ شُعَيبٍ دُونَ أجْرٍ؟

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " رَحْمَةُ اللهِ عَلَينا وعَلَى مُوسَى؛ لو لَبِثَ مع صاحِبِهِ لأبْصَرَ العَجَبَ؛ لَكنَّه قالَ: "إنْ سألْتُكَ عَنْ شَيءٍ بَعْدَها فلا تُصاحِبْني قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ".

س – صَلاحُ الآباءِ يُرَى في الأبْناءِ؛ فقَد حَفِظَ اللهُ تعالى الولَدَينِ بِصَلاحِ أبيهِما: (**وكانَ أبُوهُما صالِحًا**). فأمرَ الخَضرُ عليهِ السلامُ أنْ يَرفَعَهُ إلى أنْ يَكْبَرا فلا يأخُذ الكَنْزَ أحَدٌ وَهُما صَغيرانِ، ويَظلَّ بَعيداً عن أعينِ الآخَرينَ؛ حتَّى يَشْتَدَّ عُودُهُما فيَكُونَ لهُما.

وحِينَ عَلِمَ اللهُ – وهو العليمُ الحكيمُ – أنّ الولدَ خُلِقَ مَطْبُوعًا على الكُفْرِ، وأنَّهُ سَيُسِيءُ إلى والِدَيهِ المُؤْمِنَيْنِ ويَجْعَلُ حَياتَهُما جَحِيمًا أماتَهُ وأبْدَلَهُما خَيراً مِنْهُ فَتاةً مُؤمِنَةً طيِّبةً كانتْ زوجةً لِنَبيٍّ كَريمٍ.

ش – ونَرَى التَّدرُّجَ في هَذهِ القِصَّةَ بأسلوبٍ تَربَويٍّ راقٍ؛ فقد أبَى مُوسَى عليهِ السلامُ إلَّا أنْ يُصاحِبَ الخَضرَ، ثُمَّ كان التخلُّصُ من هذه الصُّحْبَة؛

فالخَضرُ يفعلُ أُموراً غامِضةً وغَيرَ مُعلَّلةٍ لا تُعْرَفُ إلَّا بَعْدَ شَرْحِها؛ فلا بُدَّ أنْ يَنْفَرِطَ عِقْدُ هَذهِ الصُّحْبةِ (عاجِلاً أمْ آجِلاً)... كانتِ اعتِراضاتُ مُوسَى المُتكَرِّرةُ، وتَنبيهاتُ الخَضرِ المُتدَرِّجةُ في إيقاعاتِها سَبَبًا في ذَهابِ كُلٍّ مِنهُما في سَبيلِه.

لماذا كان المَلِكُ وَراءهُم: (**وكانَ وَراءَهُم مَلِكٌ**)؟

لقَد كانتِ السَّفينةُ تَحمِلُ أصحابَها ومَعَهُم مُوسَى والخَضرُ إلى الميناءِ التالي. كانُوا مُتوَجِّهِينَ إلى الأمامِ. وكان المَلِكُ في الميناءِ الذي يَقصدُونَه، فلِماذا قال: (**وكانَ وَراءهُم مَلِكٌ**)؟

أعتقدُ أنَّ الجَوابَ على شِقَّينِ؛

الأوَّل: فَلأنَّهُم كانُوا مُتَّجِهِينَ إلى غَيْبٍ لا يَدرُونَ ما يَنْتَظِرُهُم، وكُلُّ غَيْبٍ وإنْ كان أمامٌ فهُو وَراءٌ لا يُرَى.

وأمَّا الثاني: فَلأنَّ المَلِكَ ظالِمٌ مُتجَبِّرٌ مُغْتَصِبٌ لحُقوقِ العِبادِ: (**يأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**). والمَلِكُ ينبغي أنْ يَكُونَ رَحِيمًا بِرَعِيَّتِه عَطُوفًا عَليها يُريدُ بها الخَيرَ، ويَسْعَى لِصَلاحِها؛ فإنْ كان على النَّقيضِ مِن ذلكَ فلا يَسْتَحِقُّ أن يكونَ في الأمامِ؛ بل مكانُه الحقيقيُّ في الخَلْفِ؛ وقَد قيلَ: "إنْ كُنْتَ إمامِي فَكُنْ أمامِي"؛ ولِذا كان الوراءُ وَراء. واللهُ تعالى أعلَى وأعلَمُ[1].

[1] تأمُّلاتٌ تَربَويَّةٌ في قِصَّةِ مُوسَى والرَّجُلِ الصَّالِحِ: د. عثمان قدري مكانسي.

عجائب الماء[1]

إنَّ المُتأمِّلَ في آياتِ القُرآنِ الكريمِ المُتعلِّقةِ بمُوسَى عليهِ السلامُ يَجِدُ أنَّ عَجائِبَ الماءِ مُلازِمةً لهُ في مَراحلِ حياتِه كُلِّها:

– فهُو طِفْلٌ رَضِيعُ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص: ٧).

– وهُوَ في شَبابِه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القَصَص: ٢٢ – ٢٤).

– وحِينَما اسْتَسْقاهُ قَومُه: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: ٦٠).

– وفِي مَجْمَعِ البَحْرَين: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (الكهف: ٦٠)

[1] مدونة د. هالة صوفي، (بتصرف)

– وحِينَ انْفِلاقِ البَحْرِ: (**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**) (الشُّعراء: ٦٢).

فَمِن عَجائِب الماءِ في حَياةِ نبيِّ اللهِ مُوسَى عليه السلامُ عِندَ مَجْمَعِ البَحْرَينِ لِقَاءهُ مع العَبدِ الصالِح الذي آتاهُ اللهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ وعَلَّمَهُ مِنْ لَدُنْهُ عِلْمًا.

ويَعرضُ القُرآنُ الكريمُ هَذهِ القِصَّةَ في سُورةِ الكهْفِ دُونَ تحديدٍ لِلزَّمانِ والمكانِ، وهذا هُو أسلوبُ القَصَصِ القُرآنيِّ عُمومًا؛ كي لا تَضيعَ المَعالِمُ التربَويَّةُ لِلقِصَّةِ، ولِتكونَ صالِحَةً لِكُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ – أيضًا – .

ومع ذلكَ فإنَّ العُلماءَ اجْتَهَدُوا في تَحديدِ مَسْرَحِ القِصَّةِ بِتَتبُّعِ جُغرافيَّةِ الأحداثِ التي حَصَلَتْ لِنبيِّ اللهِ مُوسَى عليه السلامُ، فقالُوا عَنْ مَجْمَعِ البَحْرَينِ: "إنَّهُ مكانُ التقاءِ البحرِ الأبيضِ مع البحرِ الأحمرِ في منطقةِ البُحيراتِ المُرَّةِ وبُحيرَةِ التِّمساحِ، أو مكانُ التقاءِ خَليجَيْ العَقَبَةِ والسُّويسِ في البحرِ الأحمرِ عِندَ رأسِ مُحمَّدٍ، أو مَصَبِّ نَهْرِ النيلِ في البحرِ الأبيضِ المُتوسِّطِ بِفَرعَيهِ "الرَّشيدِ ودُمياط"، ولِكُلٍّ مِنهُم دليلُه وشَواهِدُه.

والقُرآنُ الكريمُ لَمْ يُحدِّدِ التاريخَ الذي وَقعَتْ فيهِ القِصَّةُ مِن حياةِ مُوسَى عليهِ السلامُ، هلْ كانَ ذلكَ وهُوَ في مِصرَ قَبْلَ خُروجِه بِبَني إسرائيلَ؟ أمْ بعدَ خُروجِه بِهِم مِنها؟ وإذا كانَ بعدَ الخُروجِ؛ هل كانَ قبلَ ذهابِهِم إلى الأرضِ المُقدَّسةِ؟ أمْ بعدَ ذهابِهِم إليها ووُقُوفِهِم حِيالَها لا يَدْخُلونَها؛ لأنَّ فيها قَومًا جَبَّارِينَ؟ أمْ بعدَ ذَهابِهِم في التِّيهِ؟

أمَّا سَبَبُ الرِّحْلَةِ إلى مَجْمَعِ البَحْرَيْنِ؛ فهُو ما أخْرَجَهُ البُخاريُّ في صَحيحِه عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَليهِ وسلَّمَ: " إنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى يَا رَبِّ فَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ. فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ ومَعَهُ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُما فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الحُوتُ فِي المِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي البَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الحُوتِ جِرْيَةَ المَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الغَدِ، قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، قَالَ: وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَا المَكَانَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ (**أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ عَجَبًا**)، قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ مُوسَى ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا، قَالَ: رَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّى انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُسَجًّى ثَوْبًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ الخَضِرُ: وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ، قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَتَيْتُكَ لِتُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا، يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ

لاَ أَعْلَمُهُ، فَقَالَ مُوسَى: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا، وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، فَقَالَ لَهُ الخَضِرُ: فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا " .

إذاً سَيُعَلِّمُ الخَضرُ مُوسَى عليهِما السلامُ بَعضَ الأمورِ التي أذنَ اللّهُ سُبْحانَه وتعالى لهُ بِها.

وهُنا: لا بُدَّ لنا مِن بيانِ مَن هُوَ الخَضرُ؟ وهل ما يَزالُ حَيًّا إلى يَومِنا هذا؟

المُرجَّحُ: أنَّ الخَضِرْ هُو "بليا بن ملكان"، وكُنْيَتُه "أبو العَبَّاسِ".

وسَببُ تَسْميَتِه الخَضر هُو ما جاءَ في حَديثِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ:

"إنَّما سُمِّيَ الخَضرُ؛ لأنَّهُ جَلَسَ على فَرْوَةٍ بَيضاءَ فإذا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضْراء".

مُتَّفَقٌ عليهِ.

وقَد ذَهبَ جُمهورُ العُلماءِ والمُحَقِّقينَ إلى أنَّه "نَبيٌّ".

فقال الحافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: أوَّلُ عُقْدَةٍ تُحَلُّ مِن الزَّندَقةِ هِيَ اعتقادُ كَونِ الخَضرِ نَبيًّا؛ لأنَّ الزَّنادِقةَ يَتَذَرَّعُونَ بِكَونِه غَيرَ نبيٍّ. والوليُّ أفضلُ مِن النبيِّ كما قالَ ابنُ عربيٍّ: مَقامُ النُّبوَّةِ في بَرْزَخٍ فُويْقَ الرَّسُولِ ودُونَ الولي !

وهناك أدلة على نبوة الخضر عليه السلام لا بد من ذكرها:

أوَّلاً: قولُه تعالَى: ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾. ذَكَرَ الألوسيُّ أنّ الرَّحمَةَ هُنا عِندَ جُمهُورِ العُلماءِ والمُحَقِّقينَ هيَ الوحي والنبوَّةُ؛ لِقَولِه تعالى في سُورةِ هُودٍ عليهِ السلامُ: ﴿**وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾. ولِقَولِه عزَّ وجلَّ في سُورةِ الأنبياءِ:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ). وقوله تعالى في سُورةِ مَريمَ: (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا). وقَولِه عَزَّ مِن قائلٍ في سُورة القَصَصِ: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ). وقَولِه تعالى في سُورةِ الزُّخْرُف: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ).

ثانيًا: قولُ مُوسَى لِلخَضرِ عليهِما السلامُ: (هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا. قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا. قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا). فلَو كانَ الخَضرُ وَلِيًّا وليسَ بِنَبيٍّ لَما خاطَبَهُ مُوسَى عليهِ السلامُ بهَذهِ الطريقةِ، ولَمْ يَرُدَّ الخَضرُ على مُوسَى بِهذا الرَّدِّ؛ بلْ سألَ مُوسَى صُحْبَتَه؛ لِينالَ ما عِنْدَهُ مِن العِلْمِ الذي اخْتَصَّهُ اللهُ بِهِ دُونَهُ؛ فلَو كانَ غَيرَ نبيٍّ لَمْ يَكُنْ مَعصُومًا، ولَمْ يَكُنْ لِمُوسَى، وهُوَ نبيٌّ عَظِيمٌ ورَسُولٌ كَرِيمٌ واجِبُ العِصْمَةِ، كبيرَ رَغْبَةٍ في عِلْمِ وَلِيٍّ غَيرِ واجِبِ العِصْمَة.

ثالثًا: إنّ الخَضرَ أقدمَ على قَتْلِ الغُلامِ بِوحْيٍ مِن اللهِ تعالى. فلا يَجُوزُ لِوليٍّ قَتْل نَفْسٍ بِمُجَرَّدِ ما يُلقَى في خاطِرِهِ؛ لأنَّ الوليَّ لا يُوحَى إليهِ، وخاطِرَهُ ليسَ بِواجبِ العِصمَةِ؛ إذ يَجُوزُ عليهِ الخطأُ بالاتِّفاقِ.

رابعًا: لمّا فسَّرَ الخَضرُ لِموسَى أسبابَ تَصرُّفاتِه ووَضَّحَ لهُ حقيقةَ تلكَ الأفعالِ قال: (**رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**)؛ أيّ: ما فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي؛ بلْ أُمرْتُ بهِ وأُوحِي إليَّ فيهِ. وقَد قالَ عزَّ وجلَّ في سُورةِ الجِنِّ: (**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**). وقدّ دَلَّتِ القِصَّةُ على أنَّ الخَضرَ كان مُطَّلِعًا على بَعضِ الغَيبِ وليسَ ذَلِكَ لأحدٍ مِن الأولياءِ.

خامسًا: قولُ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الصَّحِيحَينِ: "وَدِدْتُ أنَّ مُوسَى صَبَرَ حتَّى يَقُصَّ عَلَينا مِنْ أمْرِهِما"؛ فَفِي تَمَنِّيهِ هذا دليلٌ على أنَّ الخَضرَ كان مُوحَىً إليهِ، ولو لمْ يَكُنْ كذلِكَ لَما تمنَّى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِن إنسانٍ غَيرِ مُوحَىً إليهِ!

سادسًا: تأويلُ الخَضرِ عليهِ السلامُ في قَتْلِ الغُلامِ كما جاءَ في صَحيحِ مُسلِمٍ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " وأمَّا الغُلامُ فَطُبِعَ يَومَ طُبِعَ كافِرًا، وكانَ أبواهُ قَد عَطَفا عليهِ؛ فلَو أنَّهُ أدْرَكَهُما أرهَقَهُما طُغْيانًا وكُفْرًا ".

إذنْ: إخبارهُ أنَّ الغُلامَ طُبِعَ كافِرًا هُوَ مِن الأُمورِ الغَيبيَّةِ المَحْضَةِ التي لا مَجالَ للاطِّلاعِ عليها إلَّا مِن النبوَّةِ والوحي؛ وذلكَ مِن أقوى الأدلَّةِ على أنَّ الخَضرَ كان نبيًّا إنْ لمْ يَكُنْ رَسُولاً.

سابعًا: قولُه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لَمَّا لَقِيَ مُوسَى الخَضرَ عليهِما السلامُ: "جاءَ طَيرٌ فألقَى مِنْقارَهُ في الماءِ فقالَ الخَضرُ لِموسَى: " تَدْرِي ما يَقُولُ هذا الطَّيرُ؟

قالَ: وما يَقُولُ؟ قالَ: يقولُ ما عِلْمُكَ وعِلْمُ مُوسَى في عِلْمِ اللهِ إلَّا كَما أخَذَ مِنْقارِي مِن الماءِ ". أخْرَجَهُ الحاكِمُ وقالَ "صَحِيحٌ على شَرْطِ الشَّيخَينِ وَ وافَقَهُ الذَّهبيُّ".

فهذا صَريحٌ في أنَّ الخَضرَ قد عُلِّمَ مَنْطِقَ الطيرِ، وهُو مِن الغَيبِ الذي لا يَعْلَمُهُ البَشَرُ؛ فهُوَ في هذا على نَحْوِ النبيِّ سُلَيمانَ الذي قالَ عَنهُ القُرآنُ الكريمُ: (**يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيرِ**).

ثامنًا: قولُه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "فأوْحَى اللهُ إليهِ إنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَينِ هُو أعْلَمُ مِنْكَ". دليلٌ على تخصيصِ اللهِ تعالى الخَضرَ دُونَ مُوسَى عليهِما السلامُ مع أنَّهُ مِن أُولي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ.

تاسعًا: الضَّمير (نا) الدالُّ على الجَماعةِ في الآيةِ الكريمةِ: (**فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**).

هُنا يتَّحدَّثُ الخَضرُ بصيغةِ الجَمعِ ليسَ لأنَّه شَريكٌ للهِ سُبحانَه وتعالى؛ بلْ لأنَّهُ نبيٌّ مَنْهَجُهُ هُوَ شَرْعُ اللهِ تعالى، تمامًا كما نَقولُ "لا إلهَ إلاّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ"، وهذا رَفْعُ ذِكْرٍ كما قال تعالى: (**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**).

ولا يفوتُ الخَضرَ المتأدِّبَ بأدبِ النبوَّةِ أنْ يَنْسبَ الخيرَ إلى اللهِ تعالى عِندَما قالَ: (**فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**)؛ فالخَيرُ مِن اللهِ، وما إرادةُ الخَضرِ لهُ إلَّا وسيلةٌ لِتَحقيقِه. ومِثلُها في قَولِه تعالى: (**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**). بينما نَسَبَ إرادةَ عَيبِ السَّفينَةِ إلى نَفْسِه ولمْ يَنسبْها للهِ تنْزيهًا له عَمّا لا يَليقُ فقالَ: (**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ**

فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا). وفي نهايةِ القِصَّةِ يُرْجِعُ كُلَّ ما فَعَلَهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ فيقولُ: (**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**).

وفيما يتعلَّقُ بِحياةِ الخَضرِ عليهِ السلامُ؛ فالكثيرُونَ يَزْعُمونَ أنَّه ما زالَ حَيًّا إلى الآنَ، ويَنْسجُونَ القَصَصَ عن لِقاءاتِهم بهِ وزِياراتِهم لهُ في الفَلَواتِ والبراري والأوديةِ والصَّحاري، وأنَّه يرحلُ إلى الأمصارِ وينتقلُ في البُلدانِ، ويبذلُ النُّصْحَ لِلنَّاسِ ويُعَلِّمُهُم الأدعيةَ...!

فهلْ حياةُ الخَضرِ مُستمرَّةٌ إلى الآنَ؟

وما الدليلُ؟ (**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**).

يقولُ الإمامُ ابنُ حَجَرٍ العسقلانيُّ في كتابِه "الزهر النّضر في حالِ الخَضر":

"إنَّ الأحاديثَ المرفُوعةَ والموقُوفةَ الواردةَ في استمرارِ حياةِ الخَضرِ، وكذلكَ الأخبارَ والرِّواياتِ الواردةَ بهذا الصَّدَدِ، واهيةُ الصُّدورِ والأعْجازِ لا تقومُ بِمِثْلِها حُجَّةٌ كما هو مُقرَّرٌ في قواعدِ النقْدِ والتمحيصِ والبحثِ والدِّراسة.

ويقول ابنُ الجوزيّ: "اعْلَمْ أَنَّ البليَّةَ فِي مِثْلِ هَذِه الأَشْيَاءِ تَقَعُ مِن ثَلاَثِ جِهَاتٍ:

الأولى: الجَهْلُ بالمَنُقولاتِ؛ فَتَرَى خَلقًا كثيراً يَرْوونَ الشَّيءَ مُسْنداً فَيَبْنُونَ عَلَيْهِ، وَلاَ يَعْرِفُونَ صِحَّتَهُ مِن سَقَمِه. وَهَذِه عِلّةٌ قد عَمَّتْ جُمْهُورَ الْعُلَمَاءِ الْيَوْمَ فِي كُلِّ فنٍّ مِن الْعُلُومِ، فَإِذا قِيلَ لأَحَدِهِم، قَالَ: "هُوَ سَمَاعي وَعِنْدِي بِإِسْنَادٍ". وَكَمْ قد أَدخلَ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ. فَكيفَ بِمثل هَذَا؟

الثَّانية: سَلامَة الصُّدُورِ وَكَثْرَةُ الْغَفْلَة عِنْدَ قومٍ مِن الأخيارِ؛ فَيَرَى أحدُهُم شخْصًا فيغيبُ عَنهُ، أَوْ يَرَى مِنْهُ مَا يُشْبِهُ الْكَرَامَةَ وَقَد سَمِعَ أَقْوَامًا يَقُولُونَ الْخَضرُ حَيٌّ، فَيَقُولُ رَأيتُ الْخَضرَ. وَرُبَّمَا رأى أحَدُهُمْ شخْصًا اسْمُه الْخَضرُ فيَتوَّهَمُه خَضر مُوسَى، وَرُبَّمَا لَقِيَهُ شَيْطَانٌ مِن الإِنْسِ أَو مِن الجِنّ فَقَالَ لَهُ أَنا الْخَضر، يُرِيه أَنَّه رَجُلٌ صَالِحٌ.

الثَّالِثَة: حُبُّ الصِّيتِ وَالذِّكْرِ، وَهُوَ يخْتَصُّ بالْمُلَتَمِّسِينَ، فَيَقُولُ قَائِلهُمْ لقِيتُ الْخَضرَ، يَجْعَل لَهُ جاهًا بَين الْعَوامِ، وَهَؤُلاَءِ قَد اختصَرُوا على دني الثِّيَابِ لِيُرَوا بِعَينِ الزّهْد، واستعمَلُوا خُشوعَ الأبدَانِ لِيُقالَ عَنْهُم أهل تقْوى، وَلَمْ يُتْعِبُوا جَوارِحَهُم فِي التَّعَبُّدِ، وَأَنَّ التَّعَبُّدَ نَصَبٌ صَعْبٌ، وادِّعاءُ الزُّهدِ نَصيبٌ سَهْلٌ، وَقَد حَذَّرْتُ مِنْهُ فِي كتابِي الْمُسَمّى ب "تلبيس إبليس".

وقالَ ابنُ قيِّمٍ الجَوزيَّة: "لَمْ يَصِحَّ فِي حياةِ الخَضرِ حديثٌ واحدٌ. واستنكرَ ابنُ الجوزيِّ استمرارَ حياةِ الخَضرِ بأدلَّةٍ مِن القُرآنِ والسُّنَّةِ والمَعقُولِ وإجْماعِ المُحقِّقينَ؛

– فَمِن القُرآنِ الكريمِ قولُ اللهِ تعالى لِرَسُولِه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في سُورةِ الأنبياءِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾؛ فلو دامَ الخَضرُ لكانَ خالِدًا.

– ومِن السُّنَّةِ قولُه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "ما مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ يأتي عَلَيها مِائةُ سَنَةٍ وَهِيَ يَومَئذٍ حَيَّةٌ". مُتَّفَقٌ عليه.

و "أرأيْتَكُمْ لَيلَتَكُمْ هَذهِ؛ فإنَّ على رأسِ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْها لا يَبْقَى على ظَهْرِ الأرْضِ مِمَّنْ هُوَ اليومَ عليها أحَدٌ". مُتَّفَقٌ عليهِ.

– ومِن المَعقُولِ: هُناكَ عشرةُ وُجوهٍ يَطولُ شَرحُها؛ فمَن أراد أنْ يَطَّلِعَ عليها فهِيَ في كتابِ "الزهر النَّضر في حال الخَضر" للإمامِ ابنِ حَجَرٍ العسقلانيّ.

– وأمّا العُلماءُ المُحَقِّقُونَ فقالُوا: "إنّ الخَضرَ ماتَ كما ماتَ غَيرُه مِن الأنبياءِ والصَّالِحِينَ، وأشهرُ هؤلاءِ العُلماءِ البُخاريُّ وإبراهيمُ الحربيُّ وابنُ المنادي وأبو طاهرٍ العباديّ وأبو يَعلى الحنبليُّ وأبو بكرٍ ابنُ العربيِّ، وهو غَيرُ ابنِ عربيٍّ الصُّوفيِّ، وشَرفُ الدِّينِ أبو عَبدِ اللهِ المرسيّ وأبو بكرٍ النقاش.

وقَد سألَ إبراهيمُ الحربيُّ الإمامَ أحمدَ بنَ حَنْبَلَ عن تعميرِ الخَضرِ وإلياسِ يَرْوِيانِ ويُرْوَى عنهُما ! فقالَ: "مَن أحالَ على غائبٍ لمْ يُنصفْ مِنهُ وما ألقَى هذا إلاّ شيطانٌ".

ولَمّا سُئِلَ البُخاريُّ عن الخَضرِ وإلياسٍ عليهِما السلامُ هلْ هُما في الأحياءِ قال: "كيفَ يَكُونُ هذا وقَد قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " لا يَبْقَى على رأسِ مِائَةِ سَنَةٍ مِمَّنْ هُوَ اليومَ على ظَهْرِ الأرْضِ أحَدٌ".

ونقل ابنُ القيِّمِ عن مُعلِّمه شيخِ الإسلامِ الحَرَّانيّ: الصَّوابَ الذي عليهِ المُحَقِّقونَ أنَّه لم يُدْرِكِ الإسلامَ؛ ولَو كانَ مَوجُوداً في زَمَنِ النبيِّ لَوَجَبَ عليهِ أنْ يُؤمِنَ بِه ويَتَعَلَّمَ مِنهُ ويُجاهِدَ مَعهُ كما أوْجَبَ اللهُ ذلكَ عليهِ وعلى غَيرِه.

وَوَرَدَ في الصَّحِيحينِ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ يومَ بَدْرٍ: "اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هَذهِ العِصابَةُ لا تُعْبَدُ في الأرْضِ". وكانُوا في بَدْرٍ ثلاثَمائةٍ وثلاثةَ عَشرَ رَجُلاً مَعرُوفِينَ بأسمائِهم وأسماءِ آبائِهم وقبائِلِهم فأينَ كان الخَضرُ حِينئذٍ؟

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: "لَو كانَ مُوسَى حَيًّا بينَ أظْهُرِكُمْ ما حَلَّ لَهُ إلَّا أنْ يَتَّبِعَنِي" رواهُ أحمدُ.

والآنَ نَعودُ لِنَجْمَعَ خُيوطَ القِصَّةِ مُنذُ أنْ قالَ مُوسَى عليهِ السلامُ لِفَتاهُ سأبْقَى سائِرًا إلى مَجْمَعِ البَحْرَينِ ولو مَشيتُ سِنينَ عَدداً ! وما ذلكَ إلَّا لأنَّه كانَ مُتَشَوِّقًا لِلقاءِ العَبدِ الصالِحِ الأعلَمِ مِنهُ، وكانتْ علامةُ بُلوغِ ذلك المكانِ فقْدانَ السمكَةِ التي كان يَحمِلُها فَتاهُ. فلمَّا جاوَزا مَجْمَعَ البَحْرَينِ قالَ مُوسَى لِفَتاهُ آتِنا طَعامَنا فقَد تَعِبْنا وشَعَرْنا بِالجُوعِ،

عِندَها تَذكَّرَ الفتَى أمْرًا عَجِيبًا قَد حَدَثَ مَعهُ وأنْساهُ الشَّيطانُ ذِكْرَهُ لِمُوسَى؛ ألاَ وهُو أنَّ السمكَةَ التي كانتْ مَعَهُما اضطرَبَتْ في المِكْتَلِ وعادتْ إليها الحياةُ واتَّخَذَتْ طَرِيقَها في البحرِ. وكانَ ذلكَ آيةً مِن آياتِ اللهِ في هَذهِ الرِّحلَةِ المَليئَةِ بِالمُفاجآتِ؛ ففي حديثٍ رواهُ الشَّيخانِ: "أنَّ اللهَ تعالى قالَ لِمُوسَى: خُذْ نُونًا مَيْتًا وحَيثُما يُنْفَخُ فيهِ الرُّوحُ فهُوَ"؛ أيّ: الخَضرُ. فأخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ في مِكْتَلٍ وقال لِفَتاهُ "لا أُكَلِّفُكَ إلَّا أنْ تُخْبِرَني بِحَيثُ يُفارِقُكَ الحُوتُ". قالَ: "ما كَلَّفْتَ كَثِيراً".

فبينَما هُما في ظِلِّ الصَّخْرَةِ إذ اضْطَرَبَ الحُوتُ فَدَخَلَ البَحْرَ ومُوسَى نائِمٌ. فقالَ فَتاهُ لا أُوقِظُهُ حتَّى إذا اسْتَيقَظَ نَسِيَ أنْ يُخْبِرَهُ.

وأمْسَكَ اللهُ تعالى عَن الحُوتِ جريةَ الماءِ فَصارَ عَلَيهِ مِثْلَ الطَّاقِ وهُو البِناءُ المُقَوَّسُ كالقَنْطَرَةِ. وعادَ مُوسَى وفَتاهُ أدْراجَهُما مِن حَيثُ أتَيا، وعِنْدَ الصَّخْرَةِ وَجَدَ مُوسَى عليهِ السلامُ الرَّجُلَ الذي سَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ بِأمْرٍ مِن اللهِ تعالى،

قالَ لهُ مُوسَى: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾

ولَكِنَّ عِلْمَ العَبْدِ الصالِح ليسَ هُو العِلْمَ البَشَرِيَّ الواضِحَ الأسبابِ القريبَ النتائِج؛ إنَّما هُوَ (جانِبٌ مِن العِلْمِ اللدنِّي الغَيبيِّ أطلَعَهُ اللهُ عليهِ بِالقَدْرِ الذي أرادَهُ وللحِكْمَةِ التي قَدَّرَها)، ومِنْ ثَمَّ لا طاقةَ لِموسَى بِالصَّبْرِ على الرَّجُلِ وتَصَرُّفاتِه حتَّى وإنْ كانَ نبيًّا مِن أُولي العَزْمِ؛ لأنَّ ظاهِرَ هَذهِ التصرُّفاتِ قَد يَصطَدِمُ بِالمَنْطِقِ العقليِّ، ولا بُدَّ مِن إدراكِ ما وَراءها مِن الحِكْمَةِ الغَيبيَّة؛ وإلَّا بَقِيَتْ عَجِيبَةً تُثيرُ الاستنكارَ؛ ولِهذا نَجِدُ أنَّ المُعَلِّمَ خَشِيَ على مُوسَى أنْ لا يَصبرَ فقالَ لهُ: (**إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**). ولَكِنَّ مُوسَى يَعْزِمُ على الصَّبرِ والطاعةِ فقَالَ: (**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**). فيزيدُ الرَّجُلُ توكيداً وبَيانًا، ويَذكُرُ لهُ شَرْطَ صُحْبَتِه قبلَ بَدءِ الرِّحْلَةِ، قالَ: (**فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**).

وجَاءتْ سَفِينةٌ حَملَتْهُما مِن غَيرِ أجْرٍ، فمَا كانَ مِن المُعَلِّمِ إلَّا أنْ خَرَقَها، فاسْتَنْكَرَ مُوسَى ذَلِكَ ناسِيًا وَعْدَهُ فقالَ: (**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا**) ! ويُذَكِّرُهُ المُعَلِّمِ بِقَولِه: (**أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) على أعمالِي التي تبدُو في ظاهِرِها أذى وإلحاقُ الضَّرَرِ بِالآخَرينَ. ويَعتذِرُ مُوسَى المُتأدِّبُ بأدبِ النُّبوَّةِ طالِبًا من المُعلِّمِ عدمَ مُؤاخَذَتِه، وألاّ يُتْعِبَهُ بالمُراجَعةِ والتذكيرِ.

ثُمَّ انْطلَقا مَعًا فَوجَدا غُلامًا فَقَتلَهُ المُعَلِّمُ ! فَثارَتْ ثائِرةُ مُوسَى مَرَّةً ثانِيةً أمامَ هذا الفِعْلِ المُنكَرِ الشنيعِ قائِلاً: (**أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**).

وهل هُناكَ أفظعُ مِن قَتْلِ غُلامٍ صَغيرٍ لم يَفْعلْ شَيئًا؟ فَيُذَكِّرُهُ مُعَلِّمُهُ قائلاً: ﴿**أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾. ولْنَنْظُرْ إلى كلمةِ ﴿**مَعِي**﴾ في السِّياقِ الذي أخذَ مَعنىً مُختلفًا لِوُجُودِها؛ أيّ: إنَّ صَبْرَكَ مَعِي بِالذَّاتِ غَيرُ مُمْكِنٍ، فلنْ تَقْدِرَ على رُؤيةِ ما أصْنَعُ وتبْقَى ساكِتًا؛ لأنَّ ظاهِرَ الذي أصْنَعُهُ مُسْتَنْكَرٌ ما لمْ تَعْرِفْ حَقيقتَهُ. ويَقطعُ مُوسَى عليهِ السلامُ على نَفْسِهِ الطريقَ ويَجْعلُها آخِرَ فُرصَةٍ أمامَهُ قائِلاً لِمُعَلِّمِهِ: ﴿**إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا**﴾.

ثُمَّ يَسْتَمِرَّانِ في المَسيرِ ويَدْخُلانِ قريةً وَهُما في حالةِ جُوعٍ شديدةٍ، فيَطْلُبانِ مِن أهلِها الطَّعامَ فَيَرْفُضونَ، مع أنَّ طلبَ الطعامِ أصدقُ أنواعِ السُّؤالِ، فلا يَسألُ الطعامَ إلاّ جائِعٌ مُحتاجٌ، وانْظُرْ إلى الدِّقَّةِ البلاغيَّةِ لِلقُرآنِ الكريمِ: ﴿**فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا**﴾، لم يَقُلْ "فأبَوا أنْ يُطْعِموهُما" وهذا تصويرٌ ليسَ لِبُخْلِ أهْلِ هَذهِ القريةِ؛ بلْ إلى لُؤمِهِم المُتأصِّلِ في طِباعِهِم؛ فَهُمْ رَفَضُوا أنْ يُقَدِّمُوا كُلَّ ما يَتعلَّقُ بِواجبِ استقبالِ الضَّيفِ مادِّيًّا ومَعنويًّا، ولا حتَّى طلاقةَ وَجْهٍ لِلغَريبِ!

ونُلاحِظُ – أيضًا – تكرارَ كلمةِ أهْل: ﴿**أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ... اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا**﴾ مَع أنَّهُما لمْ يُقابِلا كُلَّ أهلِ القريةِ؛ وذلكَ للتأكيدِ على أنَّهُم مُجمِعُونَ على البُخْلِ ولُؤمِ الطِّباعِ. وفي هَذهِ القريةِ يَجِدانِ جِداراً آيلاً للسُّقوطِ والانهيارِ، وإذا بالمُعَلِّمِ يُصْلِحُ الجِدارَ ويُقيمُه مِن جَديدٍ.

ويُعلِّقُ مُوسَى: كيفَ تُصْلِحُ لِهَؤلاءِ الشَّحِيحِينَ جِدارَهُم دُونَ أُجْرةٍ وقَد رَفَضُوا إطعامَنا وإيواءَنا؟

وهُنا يُعلِنُ الخَضرَ الفِراقَ؛ لِعَدمِ التزامِ مُوسَى بِشُروطِ التعليمِ التي اشترَطَها عليهِ قائلاً: (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) .

ومَع ذلكَ فالمُعَلِّمُ لمْ تَكْتَمِلْ مهمَّتُهُ بَعدُ؛ إذْ لا بُدَّ لهُ مِن شَرْحِ أسبابِ تَصرُّفاتِه التي اسْتَنْكَرَها مُوسَى وجَعَلَتْهُ يَفقدُ صَبْرَهُ؛ لِيكْشِفَ له جانِبًا من الحِكْمَةِ كانت خافِيةً عليهِ. وهكذا يُعلِّمُنا القُرآنُ الكريمُ أنَّ تفسيرَنا للأحداثِ الدنيويَّةِ ليستٍ هي الحقيقةَ؛ بلْ نُفَسِّر الأشياءَ على ظواهِرها، وما يَعلَمُ حقائِقَ الأشياءِ ووظيفتَها الفِعليةَ إلاّ اللهُ سُبْحانَه وتعالى عالِمُ الغَيبِ والشَّهادَةِ؛ ولِهذا قالَ اللهُ تعالى في سُورةِ الرُّومِ عن بَني آدمَ: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)؛ لذلك عَلينا ألاّ نَغْتَرَّ بما لَدَينا مِن المعرفةِ الدُّنيويَّةِ البسيطةِ، ولِنَعْلَمَ – يَقينًا – أنَّ نِسبةَ عِلْمِ الشُّهودِ الدُّنيويِّ إلى عِلْمِ الغَيبِ الأُخْرَويِّ هُوَ تمامًا كَنِسبَةِ الزَّمنِ الذي سَتقضيه البشريةُ على الأرضِ إلى الخُلودِ الأبديِّ، وهذا بديهيٌّ في عِلْمِ الرِّياضِيات؛ فكُلُّ ما هُو مَنسُوبٌ إلى اللانهايةِ يتلاشَى إلى الصِّفْر، وما عُمُرُ الإنسانِ نِسْبةً إلى عُمُرِ الكَونِ إلَّا أقلّ مِن وَمْضَةٍ ! فهلْ نقضِي هذه الوَمْضَةَ بالمَعاصي؟

ويبدأُ العبدُ الصالحُ بِشَرحِ حقيقةِ ما حَدَثَ، فتتهيَّأَ النُّفوسُ لِسَماعِ صَوتِ الحِكْمَةِ الإلهيَّةِ التي لا تُرَتِّبُ النتائجَ القريبةَ على المُقدِّماتِ المَنظُورةِ؛ بلْ تُبيِّنُ أنَّ هُناكَ أهدافًا بعيدةً لا نَراها؛ ولِهذا فإنَّ القُرآنَ الكريمَ لمْ يَذْكُر اسمَ العبدِ الصالِحِ الذي عَلَّمَ مُوسَى عليهِ السلامُ لِيَتناسبَ ذلكَ مع الشخصيَّةِ المعنويَّةِ الرفيعةِ ذاتِ التصرُّفاتِ الغريبةِ، ثمَّ تأخُذَ الأسبابُ بالانكشافِ شيئًا فَشيئًا، ويَنْقَشِعَ ضَبابُ الشَّكِّ والتخمينِ لِتحلَّ مَحلَّهُ الحقيقةُ واليقينُ.

يقولُ القرآنُ الكريمِ على لسانِ الخَضرِ عليهِ السلامُ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

فالسفينةُ تعودُ لمساكينَ يَعْمَلُونَ في البَحرِ، وكان هُناكَ مَلِكٌ يَغْتَصِبُ السُّفُنَ من أصحابِها؛ فأرادَ الخَضرُ أنْ يُلْحِقَ بِها ضَرراً طَفِيفًا اتِّقاءً لِلضَّررِ الكبيرِ الذي سَيَلْحَقُ بِها لو بَقِيتْ سليمةً.

وأمَّا الغُلامُ الذي تَقِيه بَراءتُه من التفكيرِ بِقَتلِه فَهُو في الحقيقةِ يَحمِلُ بُذورَ الكُفْرِ والطُّغيانِ في أعماقِه، وسوفَ تزيدُ مع الزمنِ نُمُوًّا وتَحَقُّقًا؛ فلو عاشَ لأتعَبَ والِدَيهِ المُؤمِنَيْنِ بِكُفْرِه وطُغْيانِه وآلَمَهُما بِفَسادِه؛ بلْ وَقادَهُما إلى طريقِه بدافعِ التعلُّقِ بِه فَيَتستَّرانِ عليهِ وعلى أفعالِه!؛ ولأنَّ اللهَ رَحمَنٌ رَحِيمٌ أرادَ أنْ يأخُذَهُ في طُفُولَتِه فَيَرْحَمهُ من الإجرامِ وعَواقبِه، ويَرْحَمَ أبَويهِ؛ بلْ ويُبْدِلَهُما بِنَفْسٍ زَكيَّةٍ طاهِرَةٍ مَطبُوعَةٍ على الإيمانِ.

أمَّا الجِدارُ الذي أتعَبَ المُعَلِّمُ نَفْسَه في إقامَتِه وإصلاحِه؛ فهُو لِغُلامَينِ يَتيمَينِ يَسْكُنانِ في المدينةِ بَعيداً عنهُ، وكان تحتَ هذا الجِدارِ كَنْزٌ لهُما، فَحَفِظُ اللهُ لهُما كَنْزَهُما رَيْثَما يَكْبُرانِ ويَسْتَخْرِجانِه؛ لأنَّ أبُوهُما كانَ صالِحًا استودعَ أولادَهُ عِندَ رَبِّهِ

فما ضاعتِ الوديعةُ، وكانَ صلاحُ أبويهما وِقايةً لهُما مِن الضَّياعِ، وهذا مِصداقُ قولِه تعالى في سُورةِ النِّساءِ: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ﴾.

والآنَ بعدَ أنْ انكشَفَ الستْرُ عنْ حِكْمةِ هذه التصرُّفاتِ، وعن الغيبِ الذي لا يُطلِعُ اللهُ عليه أحداً إلَّا مَن ارتضَى مِن عِبادِه، غابَ العبدُ الصالِحُ فجْأةً في المجْهُولِ، كما ظهرَ فجأةً حامِلاً مَعهُ أسرارَ الوُصولِ، وبَقيَتِ الحِكْمَةُ مُغيَّبَةً في عِلْمِ اللهِ وراءَ سِتارٍ مَجْهُولٍ! ويبقَى عِلْمُ الغَيبِ للهِ وَحدَهُ، وهَذهِ صِفاتُ الواحدِ الأحدِ الذي يُدَبِّرُ الأمورَ بِحِكْمَتِه وفقَ علمِه الشاملِ الذي لا يُحيطُ به البَشرُ؛ لأنَّهُم مَحجُوبُونَ بالأستارِ لا يَكْشِفُ لهُم عن الأسرارِ إلَّا بمِقْدارٍ.

والمُؤمِنُ الذي قيَّدَ نَفْسَه بعَقْدِ الإيمانِ يُؤمِنُ بالغَيبِ كما ذَكَرَ القُرآنُ الكريمُ في أوَّلِ سُورةِ البقرةِ: ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾؛ ولكنَّ إيمانَه بالغيبِ واستِسلامَهُ لِرَبِّه لا يَعني عدمَ عَملِه؛ بل يَجبُ عليه أنْ يأخُذَ بالأسبابِ المُتاحَةِ، ويَعملَ ما في وُسْعِه ثُمَّ يَتوكَّلَ على اللهِ تعالى، وعِندَها فحسب يَشعرُ بِقيمةِ العَملِ وحَلاوةِ الإيمانِ.

ولا بُدَّ مِن التنبيهِ إلى الحَرْبِ التي يَشنُّها العقلُ الغربيُّ على الإسلامِ، فَيَعيبَ على المُسلمِينَ أنَّهُم يُؤمِنونَ بالغَيبِ، ويَتَّهِمُهُم بالقُصورِ في تَصوُّراتِهم العقليَّة، وبِالجَهْلِ في القواعدِ العِلميَّة، ويخلطُ خَلْطًا مُتَعَمَّداً بينَ المُسلِمينَ والإسلامِ، وَيضَعُ كلمةَ

"الغَيبِ" مُقابِلَ كَلِمةِ "العِلْم"، وهذا افتراءٌ وُضِعَ بِطَريقةٍ شيطانيَّةٍ خَبيثةٍ، وجَعَلَ مِنهُ شَبكةً لِصَيدِ مُدَّعِي الكمالِ في المَعرفةِ ومُقدِّسي العقلِ الغربيّ ... !"[1].

[1] مدونة د. هالة صوفي (بتصرف).

بلاغةُ الحوار في لقاءِ موسى والعبد الصالح[1]

لا شكَّ أنَّ الأسلوبَ الحِواريَّ يُعَدُّ مِن ضَرورات الكلامِ في مُستواهُ النفعيِّ الذي يتواصَلُ بهِ الناسُ، ومِن ثَمَّةَ اكتسَى أهميةً وقِيمةً جماليَّةً بالِغةً فَطِنَ لها أهلُ اللغةِ والنقدِ والبلاغةِ؛ بسببِ ما ينطَوي عليهِ مِن مهاراتٍ تُحَقِّقُ التأثيرَ والإقناعَ والتجاوبَ والاستمالةَ؛ لذا احتفَى به الفلاسِفةُ والمتكلِّمونَ والشُّعراءَ والكُتَّابُ والعُلماءُ، وقد ألَّفَ لِفَهْمِه والاهتمامِ به خلالَ العصرِ الحديثِ المَسرحيُّونَ الذين أقامُوا على أساسِه أعمالَهُم الفنِّيَّة.

والخطابُ القُرآنيُّ يحفلُ بنماذِجَ زاخرةٍ وبديعةٍ مِن الفنِّ الحِواريِّ، يَسْتَدْعِيها لنا تارةً مِن مَشاهِدَ غيبيَّةٍ ماضيةٍ ومستقبليَّةٍ، وتارةً ثانيةً يَجْتَزِئُها مِن مواقِفَ مُسايرَةٍ لِزَمنِ الوحي، وتارةً ثالثةً يَسوقُها مِن رياضِ الأمثالِ، وتارةً أُخْرى يَسْتَحْضِرُها مِن شريطِ قَصَصِ السابِقينَ؛ وذلكَ لتقريرِ قِيَمٍ دِينيَّةٍ رُوحيَّةٍ وخُلقيَّةٍ سُلوكيَّةٍ لا تخلُو مِن نفَحاتِ الجَمالِ الفنِّيِّ.

وتهدفُ هذه المُداخَلةُ إلى تَحَسُّسِ جَماليَّةِ الأداءِ في الأسلوبِ الحِواريِّ الواردةِ في القَصَصِ القُرآنيِّ مِن خلالِ التطبيقِ على قَصَصِ سُورةِ الكهفِ الأربعِ:

(أصحابِ الكهفِ، المُؤمنِ وصاحبِ الجَنَّتَينِ، مُوسَى والعبدِ الصالِحِ، ذِي القرنَينِ)؛ على اعتبارِ أنَّ الحِوارَ مُقوِّمٌ سَرديٌّ شأنُه شأنُ المُقوِّماتِ الأُخْرى؛ لِذلكَ يَتعيَّنُ علينا الانطلاقُ من الإشكالاتِ الآتيةِ:

ما طبيعةُ الحِوارِ القَصصيِّ في الخطابِ القُرآنيِّ؟ وما مُستوياتُه التواصليَّة؟

[1] أ. نور الدين دحماني

وكيفَ تَتراءى خَصائِصُه الأسلوبيَّةُ؟ وفِيمَ تَتحدَّدُ وظيفتُه الجَماليَّة؟

وإلى أيِّ مدىً يُمكِنُ لهُ أن يَستجيبَ لِضَرورات الغايةِ الحِجاجيَّة؟

وفي لقاءِ موسَى والخَضرِ عليهِما السلامُ استُهِلَّ ذِكْرُ هذا النبأِ القَصصيِّ بِمطلعٍ حِواريٍّ مُلؤهُ الإثارةُ والتشويقُ (**وَإِذْقَالَمُوسَىلِفَتَاهُلَاأَبْرَحُحَتَّىأَبْلُغَمَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِأَوْأَمْضِيحُقُبًا**)؛ وذلكَ على طريقةِ الخِطابِ القُرآنيِّ في سَردِ بعضِ الأنباءِ أو وقائِعَ مُجتَزأةٍ من قَصصِ الغابِرينَ.

والمحُاوَرةُ – وإنْ اقتضَتْ شَخْصَينِ هُما مُوسَى الطَّرفُ المُرسِلُ والفتَى الطَّرَفُ المُتلقّي؛ إلاّ أنَّها هُنا أُحاديةُ الجانب، فلمْ يُجْرِ القُرآنُ حَديثًا لِلفتى؛ ذلكَ أنَّ السِّياقَ الإعجازيَّ قصدَ اطْلاعَنا من خلالِ المحُاوَرةِ بِما عَزمَ عليهِ مُوسَى، فأفسحَ لهُ المجالَ بشكلٍ مُباشرٍ كي يُفْضِيَ بِعَقْدِه العَزْمَ على السفرِ إلى مَجْمَعِ البَحرَينِ، وأنَّه لن يَحِيدَ عن هذه الغايةِ مَهما استغرَقهُ المُضيُّ فيها مِن وَقْتٍ طويلٍ، فكانتِ الغايةُ مِن نَظْمِ هذا المَطلعِ الحِواريِّ إفضائيَّةً تتوخَّى إحداثَ الإثارةِ والفُضولِ في نُفوسِ المُتلقِّينَ؛ كي يَتشوّقوا إلى الاطلاعِ على التفاصيلِ اللاحِقَةِ.

ولمْ تكتنفْ هذه الحِواريةُ المَطلعَ الاستهلاليَّ فحسب؛ بلْ امتدَّتْ لاكْتِساحِ مُعظَمِ أطرافِ الخِطابِ وقارعتْ فاعليَّةَ السَّرْدِ ذاتَها بِشكلٍ مَحسُوسٍ؛ بل طَغَتْ عليها وأزاحَتْها عن مَكانتِها الرِّياديَّةِ ضِمنَ السردِ القَصصيِّ القُرآنيّ، وبذلكَ تأتّى لها الاطلاعُ بِعَرضِ الأحداثِ والمَشاهدِ السرديَّةِ، وتصويرِ المواقفِ والانفِعالاتِ والمقاصِد.

وتَوزّعُ الخِطابُ القَصصيُّ هُنا في أربعٍ وعِشرينَ آيةً قُرآنيةً، شَغلَ فيها السردُّ بِمُفرَدِه آيتَينِ هُما:

١ – ﴿فلمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيَا حُوتَهُما فاتّخَذَ سَبيلَهُ في البَحْرِ سَرَبًا﴾.

٢ – ﴿فَوَجَدَا عبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

بينما بلغَ عددُ الآياتِ القُرآنيةِ التي تَماهَى فيها السردُ مع الحِوارِ خَمْسًا؛ ألاَ وهِيَ:

١ – ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذا نَصَبًا﴾.

٢ – ﴿قالَ ذَلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ، فارْتَدّا على آثارِهِما قَصَصًا﴾.

٣ – ﴿فانطَلَقَا حَتّى إذا رَكِبَا في السَّفِينَةِ خَرَقَها، قالَ﴾.

٤ – ﴿فانْطَلَقَا حَتّى إذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ، قالَ﴾.

٥ – ﴿فانطَلَقَا حَتّى إذَا أتَيَا أهْلَ قَرْيةٍ اسْتَطْعَمَا أهْلَهَا فأَبَوا أنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ، قالَ﴾.

أمَّا الفضاءُ الخِطابيُّ المُتبقِّي فهُوَ حِواريٌّ بِرُمَّتِه، وقَد تَرَكَّزَ امْتِدادُه في سَبع عَشرة آيةً؛ إلاّ أنَّ هذه الحِواريةَ تَمَظْهَرَتْ في عِدَّةِ مواقِفَ سِياقِيّةٍ يُمْكِنُ حَصرُها وإجمالُها في مُستويَينِ اثنَينِ:

أوّلاً: الموقفِ الحِواريِّ القائمِ بينَ مُوسى وفَتاهُ أثناءَ السَّفَرِ:

وقَد كشفَ لنا بِشكلٍ تدريجيٍّ عن الغايةِ التي عَزمَ مُوسَى لأجْلِها على السَّفَرِ؛ فبَعدَ أنْ عَرَفْنا مِن سياقِ السردِ القُرآنيِّ أنَّهُما أضاعا الحُوتَ الذي أحضَراهُ مَعهُما لَمَّا بَلغا مَجْمَعَ البَحرَينِ، يكشفُ لنا سِياقَ الحوارِ عن إحساسِ الرَّجُلَينِ بِالنَّصَبِ

الشديدِ الذي يقتضي تَوقّفهُما لِتناوُلِ الغَداءِ، فما أنْ يلتَمِسْهُ مُوسَى حتّى يَذْكُرَ الفتَى تِلكَ الحادِثةَ المُدهِشةَ التي نَسِيَ إخبارَهُ بأمْرِها؛ لِينتَبِهَ هذا الأخيرُ إلى أنَّ في ذلكَ الأمرَ العُجابَ تَحَقّقُ الأَمارةِ الإلهيَّةِ المَوعُودةِ للظفَرِ بالعبدِ الصالحِ، وهُو ما تأكَّدَ.

– مُوسَ عليهِ السلامُ: (**آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**).

– الفتى: (**أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**).

– مُوسَى: (**ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ**).

فهذا المُستوى الحِواريُّ ينطَوي عن تفاعُلٍ إفضائيٍّ تجاذب طرفَيهِ مُوسَى وفَتاهُ، وغايتهُ إماطةُ اللثامِ عن سرِّ هذا السَّفَرِ نحوَ غايةٍ ومَوضعٍ مُحَدَّدَينِ؛ لكنَّ السبيلَ نَحْوَهُ مَجهُولٌ؛ فَفَتحَ لنا الحِوارُ مَنفذاً لِمُعايَنةِ أطوارِ هذه المحطَّةِ القَصصيَّةِ قَصدَ تمكينِنا من المُتابَعةِ المُباشِرة لها بمَنأىً عمَّا قَد يَختَزِلُه السردُ من حوادثَ ومَواقِفَ؛ ذلك أنَّ المنحَى الحِواريَّ أنسبُ للتبليغِ بِفَضْلِ إيحاءاتِه النابِضَةِ بِالحيويَّةِ، ولَعلَّ الغايةَ من ذلكَ هي إحداثُ التأثيرِ في المُتلقِّينَ لِلتجاوبِ مع المُقرَّراتِ العَقَديَّةِ لِلقُرآنِ الكريمِ.

ثانيًا: المَوقِفُ الحِواريُّ القائمُ بينَ مُوسَى والخَضرَ:

بعدَ أنْ عثرَ مُوسَى على الخَضرِ اختفَى الفتَى، فلا نَدْري؛

هلْ واصَلَ رفقَتهُ لِموسَى، ولم يُجْرِ السِّياقُ ذِكْرًا لهُ؛ لِكَونهِ في حُكْمِ التابعِ لِموسَى؟ أمْ تراهُ قَفلَ عائِدًا مِن حيثُ أتَى بِرَغْبةٍ مِنهُ؟ أمْ بِطَلَبٍ مِن مُوسَى؟

المُهِمُّ أنَّ القُرآنَ الكريمَ أقصَى حُضورَهُ بعدَ أنْ استوفَى أداءَ وظيفتِه في سِياقِ الأحداثِ القَصصيَّة، وهذهِ إحدى المظاهرِ الإعجازيةِ لأسلوبِ القَصصِ القُرآنيّ الفريدِ؛ فهُو يَسردُ الوقائعَ بِدِقَّةٍ فائقةٍ وتركيزٍ شديد، وينتَقي مِن الأحداثِ ما يُؤدِّي وظيفةً لها أثرٌ حيويٌّ ويَستغْني عن الأحداثِ الثانويةِ التي لا تَخدمُ البعدَ المَضمُونيَّ ولا تَعضُدهُ.

وهكذا تحوَّلَ مسارُ الحِوارِ من ثُنائيةِ (مُوسَى/الفَتى) إلى ثُنائيةِ (مُوسَى/الخَضر) بعدَ أنْ اكتشَفْنا الغايةَ مِن السَّفَر.

وقَد تأسَّسَ هذا المُستوى الحِواريُّ في أربعةِ مواقِفَ مُتباينةٍ:

المَوقفِ الأوَّل: التقاءِ مُوسَى بالخَضرِ:

– مُوسَى: (**هلْ أتَّبِعُكَ على أنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**)؟

– الخَضر: (**إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**)!

– مُوسَى: (**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا ولا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**).

– الخَضرُ: (**فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**).

فمَوقِفٌ كهَذا لهُ حَيويَّتُهُ وأهمِّيَّتُه في التأسيسِ لِلأحداثِ اللاحِقَةِ، وباعتبارِه مُنْطلقًا حاسِمًا لتلكَ الرحلةِ العِلميَّةِ الاستكشافيَّةِ ذاتِ المَحطّاتِ المَشْهَديَّةِ الثلاثِ لا

يُسوَّغُ عَرْضُه العَرَضَ الحَيَّ إلاّ في قالَبٍ حِواريٍّ يُتيحُ لِلمُتلَقّي الانْخِراطَ في عُمقِ الأحداثِ والتماهي الوجدانيِّ في أجوائِها.

المَوقفِ الثاني: خَرقِ السَّفِينَة:

– مُوسَى: (**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا**) سُؤالٌ استنكاريٌّ (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**) نُقِضَ فيه اتفاقٌ تَضمَّنَ شَرْطَ اتِّباعِ مُوسَى عليه السلامُ لِلخَضر.

– الخَضر: (**أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) تذكيرٌ باتِّفاقٍ سابقٍ، وتأكيدٌ على صِحَّةِ ما تَوقَّعَهُ الخَضرُ مِن مُوسَى مُنذُ بَدءِ اللقاءِ.

– مُوسَى: (**لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**) اعتذارٌ ضِمنيٌّ مُعلَّلٌ بِالنِّسيانِ، وعَدَمِ القُدرَةِ على احتمالِ الصَّبْرِ على ما يُخالِفُ شريعةَ مُوسَى عليهِ السلامُ.

المَوقِفِ الثالث: قَتْلِ الغُلام:

– مُوسَى: (**أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**) سُؤالٌ استنكاريٌّ ثانٍ، وعَودةٌ إلى نَقْضِ الاتّفاقِ السابقِ.

– الخَضر: (**أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) تذكيرٌ ثانٍ بِالاتِّفاقِ نَفْسِه، وتأكيدٌ آخرُ على صِحَّةِ ما تَوقَّعَهُ الخَضرُ مِن عَدمِ قُدرةِ مُوسَى واستطاعتِه على الصَّبرِ.

– مُوسَى: (**إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا**) إقرارٌ ضِمنيٌّ بالعَجْزِ عنِ الصَّبْرِ، والتماسُ عُذْرٍ آخَرَ يَشفَعُ لهُ بِصُحبَةِ الخَضرِ.

المَوقفِ الرَّابِع: إقامةِ الجِدار:

– مُوسَى: (**لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**) سُؤالٌ ضِمنِيٌّ عن سَببِ قيامِ الخَضرِ بهذا العملِ مِن دُونِ مُقابلٍ لأولئكَ القومِ اللِّئامِ.

– الخَضر: (**هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**) استِنفادُ الخَضرِ أعذارَ مُوسَى، ووَضْعِه حَدًّا نِهائيًّا لِصُحْبَتِه، وكَشْفِه السِّتارَ عن باطنِ الأفعالِ المُنكَرَةِ (**ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**)[1].

[1] بلاغةُ الحِوارِ في لقاءِ مُوسَى والعبدِ الصالِح: أ. نور الدين دحماني.

دراسة لتحديد موقع لقاء نبي الله موسى والخضر عليهما السلام

بمنطقة رأس محمد عند التقاء خليجي العقبة والسويس منذ حوالي ٢٢٠٠ سنة

تَستنِدُ هذهِ الدِّراسةُ في أدلَّتِها على المَصادرِ التاليةِ:

أوَّلاً: القُرآنُ الكريمُ والأحاديثُ النبويةُ الشريفةُ.

ثانيًا: الدِّراساتُ التاريخيةُ والأثريةُ.

ثالثًا: الدِّراساتُ الجُغرافيةُ والجيولوجيةُ لِطَبيعةِ منطقةِ سَيناءَ.

منهجُ البَحثِ:

١ – التحليلُ التاريخيُّ: ويَعتمِدُ على جَمعِ النُّصوصِ القُرآنيةِ والمَعلُوماتِ التاريخيّةِ وتحليلِها، وَوَضْعِ الفَرْضيَّاتِ ومُناقَشَتِها.

٢ – البحثُ الاستردادِيُّ: ويقومُ على استردادِ المعلُوماتِ التاريخيةِ التي تعودُ الى حَوالي ١٢٠٠ سَنة قبلَ الميلادِ ومُناقشةِ أحداثِها.

٢ – المَسحُ التصويريُّ بالأقمارِ الصناعيةِ لِلمنطقةِ المَذكُورةِ والاستفادةِ مِن برنامجِ جوجل ايرث.

٤ – مُناقَشةُ النظرياتِ السابقةِ والرَّدُّ عليها بالنقدِ العِلميِّ والتحليلِ المنطقيِّ، وإثباتُ صِحَّةِ نظريةِ موقعِ رأس مُحمَّدٍ بالأدلَّةِ التاريخيةِ والجُغرافيّة.

أهدافُ وتَوصِياتُ الدِّراسةِ:

١– بيانُ الإعجازِ العلميّ لِلقُرآنِ الكريمِ في دِقَّةِ وَصفِ وتحديدِ المَوقعِ. والاكتشافُ التاريخيُّ لمنطقةِ رأسِ مُحمَّد " مَجْمَع البَحْرَين " لِيُضافَ إلى مَكانتِها الطبيعيَّةِ العالَميَّةِ مَكانةٌ تاريخيةٌ ودِينيةٌ وتَسجيلُها منطقةَ تُراثٍ عالميةٍ.

٢ – الكشفُ عن الشواهدِ الأثريةِ التاليةِ:

أ – صَخرةِ الحُوتِ (مَوقِع اللقاء).

ب – المَمَرُّ المائيُّ لِمُعْجِزَةِ الحُوتِ.

ج – صخرةِ الارتدادِ (صَخرَةِ رأسِ مُحمَّد).

د – الرصيفِ البَحريّ (الميناءِ القديمِ).

٣– أنْ يكونَ هذا البحثُ نواةً لِمَزيدٍ من الأبحاثِ التاريخيةِ، ورَسْمِ خارطةٍ تاريخيةٍ وأثريةٍ لِلمنطقةِ.

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ، وسُبحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ العظيمِ، سُبحانَ الذي تَقدَّسَتْ عن الأشباهِ ذاتُه، وتنَزَّهَتْ عن مُشابَهةِ الأمثالِ صِفاتُه، ولا تَخفَى عليهِ الأسرارُ، ولا تُدرِكُه الأبصارُ، (**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**)، وصَلَّى اللهُ وسلَّمَ على سَيِّدِنا مُحمَّدٍ النبيِّ المُختارِ وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا وبَعدُ:

ما مِن أسرارٍ وعُلومٍ وَقفَ عِندَها العقلُ البَشريُّ حائرًا مُستغْرِبًا إلَّا ولَها ذِكْرٌ في القُرآنِ الكريمِ، وسَردَ أحداثًا وقَصَصًا وَقَعَتْ قبلَ بعثتِه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بآلافِ السِّنينِ بأدقِّ التفاصيلِ وأعجزِ بيانٍ، وأمرَنا بالاعتبارِ مِن أُممٍ كانتْ تمشِي على الأرضِ نَفْسِها وتحتَ السماءِ نَفْسِها مُخلِّفةً ورائَها تاريخًا وماضيًا لا يُنْسَى كما قال تعالى في

سُورةِ النُّورِ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وسَيظلُّ هذا القُرآنُ الكتابَ الخالِدَ حاوِيًا في أعماقِه أسرارَ كُنوزٍ دَفِينَةٍ مِن العُلومِ والمَعرِفةِ لِمَنْ أرادَ البحثَ عن الحقيقةِ.

ولقَد كَرَّمَ اللهُ تعالى أرضَ الكِنانَةِ بأنْ جَعلَها أرضَ الدِّياناتِ والأنبياءِ، ومِنْ أهمِّ القَصصِ التي حَدثتْ وقائِعُها على هذهِ الأرضِ وذُكِرَتْ في القُرآنِ الكريمِ قِصَّةُ نبيِّ اللهِ مُوسَى عليهِ السلامُ وهُو أحدُ أُولي العَزْمِ مِن الرُّسُلِ. ولَقد ذَكَرَها اللهُ تعالى وذَكرَ أحداثَ بَني إسرائيلَ في أكثرَ مِن سُورةٍ؛ خاصَّةً بعدَ التحريفِ الذي تَعرَّضَتْ لهُ التوراةُ، وتَسبَّبَ في اختلافاتٍ وأخطاءٍ تاريخيَّةٍ فادِحَةٍ، كما جاءَ في سُورةِ النَّملِ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وأحداثُ قِصَّةِ مُوسَى والخَضرِ عليهِما السلامُ لم تَحْظَ بالدِّراسَةِ والبحثِ الكافِيَينِ؛ نتيجةً لإغفالِ وتجاهُلِ التوراةِ لِهذا الحَدثِ المُهمِّ مِن حياةِ مُوسَى عليهِ السلامُ.

ومِن أسبابِ إغفالِها هيَ إنكارُ أهلِ الكتابِ لِتعلُّمِ نبيِّ اللهِ مُوسَى مِن الخَضرِ لاعتقادِهِم أنَّ ذلكَ انتقاصٌ مِن قَدْرِه، على النقيضِ عمَّا جاءَ به الإسلامُ الحنيفُ؛

فقَد وَردَ في صَحيحِ البُخاريِّ أنَّ الخَضرَ قالَ لِمُوسَى: "يا مُوسَى إنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ اللهُ لا تَعْلَمُهُ أنتَ، وأنتَ على عِلْمٍ مِن عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أعْلَمُهُ". وكانَ مِن نتيجةِ إغفالِ هذه الأحداثِ في التوراةِ أنَّه لَمْ يَتقدَّمْ أحدٌ مِن الباحِثينَ الغَربيِّينَ بِدراسَتِها وتحديدِ مَوقِعِ اللقاءِ الذي يُعَدُّ واحِداً مِن أهمِّ المناطقِ الأثريةِ والتاريخيةِ والدينيةِ في العالَم، وظلَّ موقعُ الحَدَثِ مَجْهُولاً وعُرْضَةً لِلعابِثينَ

بالتاريخِ حتى جاءَ القُرآنُ الكريمُ فأظهرَ الحقائقَ التاريخيةَ المجهُولةَ "مَكانًا وزَمنًا"، وأجابَ بالعلمِ والمَنطِق على التساؤلاتِ كُلِّها التي حَيَّرتِ المُؤرِّخينَ، قالَ تعالى في سُورةِ يُوسُف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وبالرغمِ ممَّا أُوتيَ مُوسَى مِن مُعجِزاتٍ رَبَّانيَّةٍ؛ إلَّا أنَّهُ تحَوَّلَ في لِقائهِ الخَضر مِن نَبيٍّ مُرسَلٍ إلى طالبِ عِلْمٍ، صَبَرَ على مَشقَّته وتَواضَعَ لمُعلِّمه.

ويَتَّبِعُ المُعلِّمُ أسلوبَ الصَّمْتِ المُبْهَمِ، يَفْعَلُ ولا يُفَسِّرُ؛ حتَّى وَصَلَتْ أفْعالهُ في نَظَرِ مُوسَى إلى مَرتبةِ الجَرائمِ التي لا يُصَدِّقُها العقلُ؛ فالعلمُ الذي سَيتَعَلَّمُه مُوسَى عليهِ السلامُ ليسَ قائمًا على الحسابِ والتحليلِ العلميِّ ولُغةِ الأرقامِ والمَنطقِ للحُكْمِ على ظواهِرِ الأحداثِ؛ بلْ سيتعلَّمُ منهُ علمًا آخرَ ألاَ وهُو عِلْمُ الغَيبيَّاتِ الذي يَصعُبُ على العقلِ فَهْمُه وإدراكُه.

وتُعتبَرُ رِحلةُ مُوسَى عليهِ السلامُ هذهِ مِن أهمِّ الرِّحلاتِ التاريخيةِ، ولِموقعه هذا أهميةٌ عظيمةٌ تُناسِبُ عَظمةَ ذِكْرِه في القُرآنِ الكريمِ وحُدوثِ مُعجِزاتٍ خَرَقَتْ قوانينَ الطبيعةِ.

ولقَد جاءتْ هذه الدِّراسةُ مُحاولَةً مُتواضِعةً لإثباتِ حقائِقَ طواها الزَّمانُ ودَرَسَ أثرَها النِّسيانُ. ﴿رَبُّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

عَرْضُ النَّظَريَّاتِ القديمةِ، والرَّدُّ عليها

إنَّ النقدَ التاريخيَّ وتصحيحَ النظرياتِ القديمةِ لا يَعني الانتقاصَ مِن قَدْرِ العُلماءِ الأجلَّاءِ والمُؤرِّخينَ السابقينَ الذين بَنَوا نظريَّاتِهم على اجتهاداتٍ شخصيَّةٍ في عَصرٍ كان يَفتقِرُ فيه للتِّقنياتِ الحديثةِ كما هوَ عليهِ اليومَ مِن وسائلَ لِلبحثِ والتنقيبِ والتحليلِ والتصويرِ الفضائيِّ وغَيرِهِ من العُلومِ المُتطوِّرةِ.

ولقَد حثَّ القُرآنُ الكريمُ في آياتٍ كثيرةٍ على ضَرورةِ إعمالِ العقلِ وإقامةِ الحُجَّةِ والبُرهانِ ووُجوبِ التثبُّتِ والتأمُّلِ في أحوالِ الأُممِ السابقَةِ والاستفادةِ مِن الماضي، قال تعالى في سُورةِ الحجِّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

وقال عزَّ وجلَّ في سُورةِ فاطِر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

ولقد اختلفَ العُلماءُ والمُفَسِّرُونَ في تحديدِ مَوقعِ مَجمَعِ البَحْرَينِ، وثَارَ جَدَلٌ حولَ هذه القضيَّةِ المُهمَّةِ المُهمَّشةِ تاريخيًّا، وظلَّ مَوقعُ الحَدَثِ مَجْهُولاً مِن الناحيةِ الجُغرافيةِ. وظَهرتْ في الآونةِ الأخيرةِ على شبكةِ الانترنت عِدَّةُ مَواقعَ تَبُثُّ النظرياتِ القديمةَ والمعلُوماتِ المُتداولَةِ دونَ التحقُّقِ مِنها، أو الاستنادِ إلى أدلَّةٍ تاريخيةٍ أو علميةٍ.

أوَّلاً: ذَكَرَ المُفسِّرُونَ ك (الألوسيّ والطبريّ) عن مُجاهدٍ وقَتادةَ أنّ مَجْمَعَ البَحرَينِ هُما بَحرُ فارِس ممَّا يلي المَشْرِقَ وبَحرُ الرُّومِ ممَّا يلي المَغْرِبَ.

وقال مُحمَّدٌ بنُ كَعْبٍ القرَظيُّ مَجْمَعُ البَحْرَينِ عِندَ طَنْجَةَ في أقصَى بِلادِ المَغْرِب، مَضيقِ جَبَلِ طارقٍ حاليًّا.

وقال غَيرُهُم: هُما الكرُّ والرّسّ بأرمنيةَ، وقِيلَ: "بَحرُ القلزمِ" أيّ: البحرَ الأحمَر.

نَستخلِصُ من هذه الأقوالِ نَظريَّتَينِ هُما الأكثرُ شُيوعًا بينَ المُفَسِّرينَ والمُؤرِّخينَ:

– نظريةُ طَنْجَة عِندَ مَضيقِ جَبلِ طارقٍ مكانَ التقاءِ البحرِ الأبيضِ المُتوسِّط والمحيطِ الأطلسيِّ.

– نظريةُ الخليجِ العربيِّ في منطقةِ رأسِ الخَيمَةِ.

ثانيًا: تحليلٌ ونَقْدٌ:

١ – استنَدتِ النظرياتُ السابقةُ إلى رواياتٍ منقولةٍ عن مَعلوماتٍ وخرائِطَ جُغرافيةٍ مُشوّشةٍ ومَغلُوطةٍ رُسمَتْ منذُ قُرونٍ.

٢ – تُؤكِّدُ الحقائقُ التاريخيةُ ما جاءَ في الكُتبِ المُقدَّسةِ من وُقوعِ أحداثِ بَني إسرائيلَ على أرضِ مِصرَ وسَيناءَ من حينِ دُخولِ يُوسفَ ويَعقوبٍ عليهما السلامُ حتَّى بعثةِ مُوسَى والخُروجِ من أرضِ مِصرَ إلى سَيناء والتِّيهِ فيها لِمُدَّةِ أربعينَ سَنَةٍ، ثمَّ الخُروجِ من أرضِ مِصرَ بقيادةِ خليفةِ مُوسَى يوشَع بنِ نُونٍ.

وعلى هذا فإنَّ النظرياتِ المذكورةَ سابقًا يَشُوبُها الخطأُ التاريخيُّ لِبُعدِها عن مَسرحِ الأحداثِ داخلَ أراضي مِصرَ وسَيناءَ كما جاءَ في قولِه تعالى في الآيتَين ٧٧ – ٧٨ من سُورةِ طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ

يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى. فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) .

وفي الآية ١٢٨ من سُورةِ الأعراف : (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ..) .

إذنْ : مُعظَمُ أحداثِ بَني إسرائيلَ وَقعَتْ بعدَ خُروجِهم من مِصرَ. وعِندَما يَسرُد القرآنُ الكريمُ مَراحِلَ تلكَ الأحداثِ في غايةِ الدِّقَّةِ نَجِدُها لا تتناسَبُ مَنطقيًّا مع نظريتَي طنجةَ والخليجِ العربيِّ لِبُعدِ المسافةِ ! فكيفَ يَنتقلُ مُوسَى سَيرًا على الأقدامِ من صَحراءِ سَيناءَ إلى المَغرِب أو الى مَنطقةِ الخليجِ العربيِّ؟

وكمْ من الزمنِ يَلزَمُه لِبُلوغِه تلكَ المناطِق؟

وكيفَ يعبرُ حُدودَ مِصرَ في ظِلِّ حُكْمِ "رَمسيس الثاني" وتَعرُّضِه لِلخَطر؟

وكيف يغيبُ طوالَ هذه الفترةِ عن قومِه ولهُم أكثرُ من سابقةِ تَمَرُّدٍ وتَذَمُّرٍ وهو يَعلمُ طبيعةَ قومِه؟

كما أنَّ القُرآنَ الكريمَ وَصَفَ مَوقِعَ اللقاءِ بإعجازٍ لُغويٍّ بالِغِ الدِّقَّةِ، وهذا الوَصفُ لا يَنطبِقُ جُغرافيًا على أيِّ مكانٍ في العالمِ إلاّ على "رأسِ مُحمَّدٍ" .

فالمَواقِعُ والعلاماتُ والأدلَّةُ والمُعجِزاتُ المَذكُورةُ تُبيِّنُ ضَعْفَ نظريَّتَي اللقاءِ في طنجةَ أو في الخليجِ العربيّ.

٢ – الأدلَّةُ والشواهدُ الطبيعيةُ والأثريةُ:

تَبيَّنَ من المَسحِ الجُغرافيِّ لِمنطِقَتَي طنجةَ والخليجِ العربيِّ خُلُوِّهما من أيِّ شواهدَ طبيعيةٍ وأثريةٍ تنطبقُ مع أحداثِ اللقاءِ؛، حيث تُوضِّحُ الطبيعةُ الجغرافيةُ لِموقعِ طنجةَ أنَّها منطقةٌ جبليةٌ خصبةٌ، وهذا لا تنطبِقُ مع الوصفِ القُرآنيِّ لِمَجْمَعِ البَحرين.

أمَّا منطقةُ الخليجِ العربيِّ فالمَوقِعُ ذُو طبيعةٍ صَخريةٍ ساحليةٍ مُعقَّدةٍ لِوجودِ العديدِ مِن الجُزُرِ، وتفتقِرُ كذلك إلى الشواهدِ الطبيعيةِ المذكُورةِ في أحداثِ اللقاءِ.

رَدٌّ على شُبْهه:

ذكرَ العُلماءُ والباحِثُونَ أنَّ القُرآنَ الكريمَ قَد أبهمَ مكانَ وزمانَ أحداثِ اللقاءِ؛ لكنَّ الحقيقةَ خلافُ ذلكَ؛ فالمدلولُ اللفظيُّ:

١. ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾.

٢. ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾.

٣. ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾.

٤. ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

٥. ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

والمَدلولُ الزَّمنيُّ:

١. ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾.

٢. ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

هُما في مُنتَهى الدِّقَّةِ والوصفِ لِفترَةٍ تاريخيةٍ حدثتْ قبلَ نُزولِ القُرآنِ الكريمِ بآلافِ السِّنينِ.

منهجُ الدِّراسةِ: مُقدِّمةٌ تاريخيَّةٌ

بدأتْ رحلةُ مُوسَى عليهِ السلامُ معَ بني إسرائيلَ على أرضِ سَيناءَ بمُعجزَةِ انفلاقِ البَحرِ وعُبورِه، وغَرَقِ فِرْعَونَ وجُنودِه كما بَيَّنَتْ ذلكَ الآية ٥٠ مِن سُورةِ البَقرة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

ولقَد ذُكِرَتْ أحداثُ بني إسرائيلَ في الكُتُبِ المُقَدَّسةِ، بينَما لمْ يذكُرِ التاريخُ المِصريُّ شيئًا عَنها إلاّ في أثرٍ لِلمَلِكِ "مرنبتاح"، وبالرغمِ مِن إثارةِ الجَدلِ حَولَه؛ إلَّا أنَّه يُعتبَرُ الشاهدَ التاريخيَّ الوحيدَ.

و"مرنبتاح" هو ابنُ "رمسيس الثاني" وخليفتُه في الحُكْمِ، وقَد جاءَ ذِكْرُ بني إسرائيلَ في السَّطرِ رقْم ٢٧ في لوحةِ "مرنبتاح" المحفوظةِ بالمُتحَفِ المِصريِّ ما نَصُّه: "وسَهْلُ يزريل أقفَرُ ولمْ يَعُدْ لَهُ بُذُورٌ".

وهذا يعني أنَّ "مرنبتاح" قادَ جيشَه لمُطارَدةِ بني إسرائيلَ والانتقامِ منهُم بعدَ غَرقِ والدِهِ رمسيس الثاني. وتُشيرُ المَصادرُ التاريخيَّةُ كذلك إلى قيامِ المَلِكِ "مرنبتاح" في أوَّلِ حِكمَةٍ بِحَملَةٍ تأديبيَّةٍ في فِلسطينَ.

وفي الجانبِ الآخَرِ مِن سيناءَ تَوجَّهَ مُوسَى عليهِ السلامُ وبني إسرائيل جنوبًا بمُحاذاةِ الساحلِ الشرقيِّ لخليجِ السُّويس، ولمْ يَتَّجِهْ مُباشرةً إلى أرضِ فِلسطينَ الواقعةِ تحتَ النُّفوذِ المِصريِّ؛ وذلكَ لِموعدٍ قَدَّرَهُ اللهُ تعالى كما ذَكَرَ في الآية ٨٠ مِن سُورةِ طه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾.

إذنْ: سَلَكَ المَلِكُ "مرنبتاح" وجيشُه الطريقَ الحَربيَّ بمنطقةِ السُّهولِ الشماليَّة، بينَما كان مُوسَى وقومُه في مأمَنٍ منهُ بين جبالِ جنوبِ سَيناء. وبَقِيَ مُوسَى وبني إسرائيلَ على أرضِ سَيناءَ لُمدَّةِ ٤٠ سَنة كما ذَكَرَ عَزَّ وجلَّ في الآية ٢٦ من سُورةِ المائدة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

والمُرَجَّحُ: أنَّ دُخولَ بني إسرائيلَ سَيناءَ كان في عام ١٢٢٥ قبلَ الميلادِ، ومنذُ ذلكَ الزمنِ سَجَّلَ التاريخُ على أرضِ سَيناءَ أهمَّ الأحداثِ الدينيةِ والتاريخيةِ التي شَهِدَتْها البشريةُ، ومِن هذه الأحداثِ لِقاءُ نبيِّ اللهِ مُوسَى والعبدِ الصالِح وهو مَوضِعُ هذه الدِّراسةِ.

قِصَّةُ اللقاءِ التاريخيِّ بينَ مُوسَى والخَضِرِ

حَسْبَما جاءتْ في الكتابِ العزيزِ ووَرَدَتَ في السُّنَّةِ المُطهَّرةِ

ذُكِرَتْ هَذهِ القِصَّةُ في القُرآنِ الكريمِ في سُورةِ الكهفِ في ١٢ أيه، بدأتْ بِذِكْرِ مَوقعِ اللقاءِ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾.

وذُكِرَتْ في السُّنَّةِ الشريفةِ عن أُبيّ بنِ كَعْبٍ أنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: "إنَّ مُوسَى قامَ خَطِيبًا في بَني إسرائيلَ فَسُئِلَ: أيُّ النَّاسِ أعلمُ؟ فقالَ:

"أنا" . فَعَتَبَ اللهُ عليهِ؛ إذ لمْ يَرُدَّ العِلمَ إليهِ، فأوحَى اللهُ إليهِ: إنَّ لي عَبْدًا بِمَجْمَعِ البَحْرَينِ هُوَ أعْلَمُ مِنْكَ..."[1].

التحليلُ اللغويُّ والمَوضُوعيُّ لِلنَّصِّ القُرآنيّ:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا):

المُتَّحَدِثُ هُو "مُوسَى" عليهِ السلامُ؛ حيثُ قالَ لِفَتاهُ ورَفيقِ رِحْلَتِه "يوشَع بنِ نُونٍ" لا أبْرَحَ؛أيّ: لنْ أتوقَّفَ عن السَّيرِ حتَّى أصِلَ إلى ما أُريدُ.

مَجْمَعَ: أيّ ما جَمَعَ بينَ اثنَينِ أو أكثرَ، وجَمَعْتُ الشيءَ إذا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَهُنا وهَهُنا. ومَجْمَعُ البَحْرَينِ أيّ: مُلْتَقاهُما.

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا):

بَلَغا: أيّ وَصَلا وانْتَهَيا، فَحِينَما وَصَلَ مُوسَى وفَتاهُ إلى نُقطةِ التقاءِ البَحْرَينِ، اطمَئنَّ إلى أنَّهُ وَصَلَ إلى المَوقعِ الذي وَصَفَهُ اللهُ لهُ.

والظاهِرُ أنَّ وُصُولَهُما كان ليلاً فَغَلَبَ على مُوسَى التعبُ فنامَ، بينَما شاهدَ الفتَى المُعجِزةَ التي خَرقَتْ قوانينَ الطبيعة؛ حيثُ قَفزَ الحُوتُ مِن المِكْتَلِ وسارَ في البَحْرِ سَرَبًا، وكانَ لهُ عَجَبًا.

وفي السُّنَّةِ الشريفةِ عن هذا الحَدَثِ قَولُ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عَليهِ وسلَّمَ: "حَتَّى إذا أتَيا الصَّخْرَةَ وَضَعا رُؤوسَهُما فَناما، واضْطَرَبَ الحُوتُ في المِكْتَلِ، فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ في البَحْرِ، واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ سَرَبًا. وأمْسَكَ اللهُ عنِ الحُوتِ جريةَ الماءِ، فَصارَ عليهِ مِثلَ الطَّاقِ. فَلمَّا استيقَظَ نَسِيَ صاحِبُهُ أنْ يُخْبِرَهُ بِالحُوتِ.

[1] صحيح البُخاريّ: (ح ٤٢٥).

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ :

فلمَّا جاوزَ مُوسَى وفَتاهُ نقطةَ اللقاءِ قالَ لِفَتاهُ (**آتِنا غَدائَنا**) ولَمْ يَقُلْ "آتِنا طَعامَنا"، والغَداءُ هو الطعامُ الذي يُؤْكَل أَوّلَ النهارِ، وفي القامُوسِ المُحيطِ الغُدْوَةُ بالضَّمِّ: ما بينَ صَلاةِ الفَجْرِ وطُلوعِ الشمسِ.

وهذا المِعيارُ الزَّمنيُّ يُساعِدُ لُغويًّا على رَسْمِ خريطةٍ زَمنيَّةٍ للأحداثِ؛ أيّ: أنّ مُوسَى وفَتاهُ رُبَّما يَكُونا قَد وَصلا إلى المَوقعِ فَجْرًا ثُمَّ حَدَثتْ واقعةُ الحُوتِ ومُوسَى نائِمٌ، وفي الصَّباحِ مع شُروقِ الشمسِ انطلَقا ومِنْ ثمَّ اكتشَفا فقدانَ الحُوتِ فَعادا إلى الصَّخْرَةِ.

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ :

في هذه الآيةِ الكريمةِ وصفٌ دقيقُ للصَّخرةِ. قال الفتى لِمُوسَى أتَذْكُرُ حينَ أوَينا إلى الصَّخْرةِ فإنِّي نَسيتُ أنْ أُخْبِرَكَ بما حَدَثَ لِلحُوتِ، حَدَثَتْ لهُ آيةٌ عَجيبةٌ.

الصَّخْرَة: هي الحَجرُ الصُّلْبُ الكبيرُ. ولَفْظُ (أوَينا) مِن المأوَى: وهُو المكانُ الذي يُأوى إليهِ ليلاً أو نهارًا؛ للاحتماءِ مِن الأخطارِ، وهذا يعني: أنّ هَذهِ الصَّخرةَ كان فيها تجويفٌ طبيعيٌّ، أوْ أنَّها كبيرةُ الحجمِ؛ بحيثُ تصلحُ للاحتِماء بها والإيواءِ إليها. (**واتَّخذَ سَبيلَهُ في البَحرِ عَجَبًا**) تكرَّرتْ مَرَّتَينِ؛ مَرَّةً لِوصفِ الحُوتِ سَرَبًا، ومَرَّةً لِموقفِ الفتَى عَجَبًا. والعَجَبُ هُوَ شَيءٌ غُيرُ مألوفٍ ولا مُعتادٍ كقَولِه تعالى:

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا). (بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ). (وَقَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ).

(قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا):

قال مُوسَى لِفتاهُ هذا ما كُنا نُريدُه؛ حيثُ العلامةُ التي أخبرَهُ اللهُ عَنها بِفَقْدِ الحُوتِ، (فارتدا): الارتدادُ هو الرُّجوعُ عن الشيءِ والعُدولُ عنهُ.

ويَبْدُو أنَّهُما دَخَلا في منطقةٍ قريبةٍ مِن صَخرَةِ الحُوتِ تُوجَدُ فيها صُخورٌ وتِلالٌ عديدةٌ فَحَجَبَتْ عنهُما مكانَ الصَّخرةِ. وقَصَّ آثارَهُم؛ أيّ: تَتَبَّعَها.

ومعنى (فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا) أَيّ: رَجَعا مِن الطريقِ الذي سَلَكاهُ يَتبعانِ آثارَهُما.

الاستِنتاجاتُ والمُناقَشةُ

نظرًا لتطابُقِ الشواهدِ والأدلَّةِ الأثريةِ والطبيعيةِ والتاريخيةِ والجغرافيةِ لِموقعِ الأحداثِ مع ما جاء في الآياتِ القرآنيةِ المُتعلِّقةِ بذلكَ، وما هو مَوجُودٌ في رأسِ مُحمَّدٍ على النحْو التالي:

١ – مَجمعُ البَحْرَين: هو مَوقِعُ اللقاءِ بين مُوسَى والخَضرِ.

٢ – صَخرةُ الحُوتِ: هي نقطةُ اللقاءِ بين مُوسَى والخَضرِ.

٢ – الممرُّ المائيُّ: هو طريقُ الحُوتِ لِلخُروجِ إلى المياهِ.

٤ – صَخرةُ الارتِدادِ: هي نقطةُ الارتدادِ واكتشافِ فقْدانِ الحُوت.

٥ – الرَّصيفُ البَحريُّ: هو موقعُ انطلاقِ رحلةِ مُوسَى مع الخَضرِ.

استنتجُ ما يلي:

١ – مَجمعُ البَحرَينِ وهو موقعُ اللقاءِ:

جاءَ ذِكْرُ مَجمَعِ البَحرينِ مَرَّتَينِ في القُرآنِ الكريمِ (**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا. فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**). وكلمةُ (مَجمَع) تعني جَمَعْتُ الشَّيءَ المُتفرِّقَ.

وهذا الوصفُ لا ينطبقُ جُغرافيًا على أيِّ مكانٍ في العالَمِ إلَّا على رأسِ مُحمَّدٍ، وهو مَجمعُ مياهِ خليجَي العَقبةِ والسويسِ في بحرٍ واحدٍ وهو البحرُ الأحمرُ.

ولفظُ (مَجْمَع) يختلفُ عن لفظِ "التقاء"؛ كالتقاءِ البحرِ الأبيضِ المُتوسِّطِ مع المحُيطِ الأطلسيِّ عندَ مَضيقِ جَبلِ الطارق في نظريَّةِ طَنْجَةَ القديمةِ، أو التقاءِ خليجِ البحرَينِ مع خليجِ عُمانٍ في نظريةِ الخليجِ العربيِّ وهُما خليجانِ يلتقيانِ مع بَعضِهما البعضِ؛ لكنَّهُما لا يجتمعانِ في بحرٍ واحدٍ.

ويتبيَّنُ دِقَّةُ التعبيرِ القُرآنيِّ وإعجازُه "اللفظيُّ والعلميُّ" في وَصْفِ المكانِ في اختلافِ المَعنى بين مَرَجِ البَحرينِ والتقائِهما وبينَ مَجمَعِ بينَهُما كما قالَ تعالى في الآية ٢٠ من سُورةِ الرَّحمنِ: (**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ**).

وقد أيَّدَتِ الصُّوَرُ الجَويَّةُ لهذهِ البُقْعَةِ التطابُقَ الجغرافيَّ بينَ أحداثِ اللقاءِ كما جاءتْ في القُرآنِ الكريمِ وَوَرَدَتْ في السُّنَّةِ النبويةِ وبينَ رأسِ مُحمَّدٍ، مَجمع البحرين. وهي بَقْعَةٌ رَسَمَتْها قُدْرةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى، فتناغمَتْ فيها الطبيعةُ الساحِرةُ، وتنوَّعتِ الكائناتُ الحيَّةُ، واختلفتِ الأعماقُ، وتباينَتْ مُلُوحةُ المياهِ،

وتعانَقتْ مياهُ الخليجَين، وحَضنَتْ على أرضِها عِلْمَ النبوَّةِ والعِلْمَ اللدُنيَّ بِلقاءِ مُوسَى والعبدِ الصالحِ عليهِما السلامُ.

٢ – صَخرةُ الحُوتِ وهي نُقطةُ اللقاءِ:

ويَنطبِقُ وَصفُها مع الصَّخرةِ المُشارِ إليها في الآيةِ الكريمةِ مِن حيثُ مَوقِعُها الجغرافيّ، وحجمُها الذي يَصلحُ للإيواءِ، ومَوقِعُها على البُحيرةِ المائيَّةِ الذي يتناسبُ مَنطقيًّا مع سَرَبِ الحُوتِ. وهيَ تتوسَّطُ أيضًا طريقَ الدُّخولِ إلى رأسِ مُحمَّدٍ، وتُمثِّلُ نقطةَ مُشاهَدةٍ لمَجمعِ البَحرَينِ، كما تُمثِّلُ لمُوسى نقطةَ اليقينِ لبُلوغِه مَجمعَ البَحرَينِ.

والمُلفِتُ للنَّظرِ أنّ المسافةَ المُرجَّحةَ التي قطعَها الحوتُ مِن الصَّخرةِ حتَّى المياه العميقة تبلغُ حوالَي ٢ كيلو متر، والمسافةُ التي قطعَها مُوسَى مِن الصخرةِ حتَّى نقطةِ الارتدادِ وتَذكُّرِ فقدانِ الحُوتِ ٢ كيلو متر أيضًا.

ويُلاحَظُ أنَّ هذه الصخرةَ تَتوسَّطُ الأحداثَ داخلَ رأسِ مُحمَّدٍ، وهي نُقطةُ الجَمعِ بين أطرافِ القِصَّةِ.

٢ – الممرُّ المائيُّ وهو طريقُ الحُوتِ – الخليج الخَفيّ:

في القُرآنِ الكريمِ ذُكِرَ الطريقُ الذي اتَّخَذَهُ الحُوتُ مَرَّتَينِ، في قولِه تعالى: (**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**). وفي قولِ الفتَى: (**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**). وفي الآيتَينِ جاء التأكيدُ على اتِّخاذِ الحُوتِ سبيلاً لِلخُروجِ مِن المياهِ الضَّحْلَةِ إلى المياهِ العَميقةِ بالوصفِ المُناسبِ. ف "السَّبيلُ" في لسانِ العَربِ هو الطريقُ وما وَضَحَ مِنهُ، وهوَ وسيلةُ العُبورِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ آخرَ كما جاءَ في الآية ١٥٢ مِن سُورةِ

الأنعامِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ومِن المَعرُوفِ أنَّ منطقةَ الخليجِ الخفيِّ بِجنُوبِ رأسِ مُحمَّدٍ تَتعرَّضُ لِلمدِّ والجَزْرِ، وهذا ما يُفَسِّرُ وُجودَ مَجرىً مائيٍّ دائمٍ في تلكَ المنطقةِ، ولَرُبَّما استطاعَ الحُوتُ بأمرِ رَبِّهِ مِن شَقِّ طريقٍ لهُ حتَّى بلغَ المِياهَ العَميقةَ.

وإذا ما رَسَمْنا خَطًّا مُستقيمًا مِن الصَّخْرةِ حتَّى المياهَ العميقةَ نَجِدُ أنَّ المَجرى المائيَّ المُشارَ إليهِ يَخترقُه ويُشكِّلُ قناةً مائيَّةً مُتعرِّجةً لا تَجِفُ عنها المياهُ، وهُنا تكمنُ المُعجزةُ، ولِتبقَى شاهداً طبيعيًّا على سَرَبِ الحُوتِ في هذا المَوقعِ.

والسبيلُ الذي اتَّخَذَهُ الحُوتُ طريقًا لهُ إلى المياهِ العميقةِ يَنطبِقُ وَصفِهِ على المَمرِّ المائيِّ المُسمَّى بِ "الخليجِ الخفيّ" وهو ذُو طبيعةٍ خاصَّةٍ جِدًّا، وتبلغُ المسافةُ مِن مَوقعِ سَرَبِ الحُوتِ عِندَ الصخرةِ حتَّى المياه العميقةِ حوالي ٢ كيلو متر.

٤ – صَخرةُ الارتِدادِ أو صَخرةُ رأسِ مُحمَّدٍ:

يبدُو واضِحًا من التتابُعِ الزمنيِّ للأحداثِ في الوصفِ القُرآنيِّ البالغِ الدِّقَّةِ أنَّ وصولَ مُوسَى عليهِ السلامُ إلى الصخرةِ، وما حدثَ لِلحُوتِ أثناءَ نَومِه، ونِسيانَ الفتَى أنْ يُخْبِرَهُ بِالحَدثِ، كُلُّ ذلكَ كان ليلاً على الأرجَحِ. وعِندَما استيقظا صَباحًا مع شُروقِ الشمسِ كان مُوسَى مُتشوِّقًا لِمُلاقاةِ العبدِ الصالحِ.

ويُبيِّنُ الموقعُ الجغرافيُّ للصخرةِ أنَّ المنطقةَ الجنوبيةَ الغربيةَ منها كانتْ مكشوفةً لِمُوسَى لِسُهولِها المُنبسِطَةِ المُمتدَّةِ حتَّى شاطئِ البحرِ؛ مِمَّا جَعَلَه يَتَّجِهُ إلى الناحيةِ الشرقيةِ؛ لأنَّ المنطقةَ الشماليةَ الشرقيةَ تُعتبَرُ مَجهُولةً لهُ بِسببِ هِضابِها الرمليةِ

وصُخورِها الوَعِرَة التي تحجبُ رُؤيتَها ورُؤيةَ الجِهةِ الجنوبيةِ الغربيةِ منها، وهذا ما يُفسِّرُ تقصِّي آثارَ أقدامِهما كي يتمَكَّنا مِن الرُّجوعِ إليها.

٥ – الرصيفُ البحريُّ أو مَوقعُ الانطلاقِ:

يُعتبَرُ هذا الرصيفُ الشاهدَ الأثريَّ الوحيدَ الذي تَركَهُ الإنسانُ في هذا الموقعِ، وهو يُمكِنُّنا من تحديدِ خطِّ سَيرِ سفينةِ الخَضرِ إلى رأسِ مُحمَّدٍ.

يقعُ هذا الرصيفُ على بُعد ٢٠٠ متراً تقريباً من صخرةِ اللقاءِ، ويخترق الحائطَ المرجانيَّ الموجودَ على الشاطئِ لمسافةِ ٥٠ متراً بعَرضٍ يتراوحُ من ٦ – ٨ متراً، ويتكوَّنُ مِن صُخورِ الجرانيتِ والحِجارةِ الرمليةِ المَنقولةِ مِن مواقِعَ أُخْرى خارجَ رأسِ مُحمَّدٍ.

يتوسَّطُ الرصيفُ البحريُّ شاطئَ الميناءِ على الساحلِ الغربيِّ لِرأسِ مُحمَّدٍ، ويُطلُّ على خليجِ السويسِ على شكلِ نِصفِ دائرةٍ مساحتُها حوالَي كيلو مِتر مُربَّعٍ واحدٍ، وربَّما كان رأسُ مُحمَّد هذا محطَّةَ راحةٍ لِلسُّفُنِ العابِرة من خليجِ السويسِ إلى خليجِ العَقبَة أو البحرِ الأحمرِ.

نظريَّاتُ خطِّ السَّيرِ إلى رأسِ مُحمَّدٍ:

١ – الانطلاقُ مِن الساحلِ الغربيِّ لِسَيناءَ بمُحاذاةِ ساحلِ خليجِ السويسِ.

٢ – الانطلاقُ مِن وَسطِ سَيناءَ؛ أيّ: مِن هِضبَة التِّيهِ الوسْطَى.

٢ – الانطلاقُ مِن الساحلِ الشرقيِّ لِسَيناءَ بمُحاذاةِ خليجِ العَقَبةِ.

والنظريةُ الثالثةُ هي الأقْوى لِعَدَّةِ أسبابٍ مِنها:

١ – الطعامُ الذي تَزوَّدَ به مُوسَى عليهِ السلامُ لِرِحلَتِه هو الحُوتُ، ويُسْتَدَلُّ من ذلكَ على أنَّ اقوامًا مِن بني إسرائيلَ كانتْ مُستوطِنةً على ساحلِ البحرِ أو قريبةً منهُ وتَتغذَّى على الأسماكِ.

٢ – قُربُ ساحلِ خليجِ العَقبةِ مِن الأراضي المُقدَّسةِ.

٢ – قُربُ ساحلِ خليجِ العَقبةِ مِن هَضَبةِ التِّيهِ في وَسْطِ سَيناءَ.

٤ – قُرْبُ منطقةِ استيطانِ أقوامٍ مِن بَني إسرائيلَ مِن مَحطَّةِ الوصولِ النهائيةِ لِسَفينةِ الخَضرِ على الساحلِ الشرقيِّ لخليجِ العَقبَةِ.

النتائجُ

نَستخلِصُ مِن هذه الدراسةِ التاريخيةِ ما يلي:

١ – إثباتُ الإعجازِ في الكتابِ الكريمِ والسُّنَّةِ المُطهَّرةِ، وأهميةُ الحضارةِ الإسلاميةِ بينَ الحضاراتِ الإنسانيةِ والدِّياناتِ القديمةِ.

٢ – الاكتشافُ التاريخيُّ لمَحَمِيَّةِ رأسِ مُحمَّدٍ في شَرمِ الشيخِ؛ لِيُضافُ إلى مكانتِها الطبيعيةِ العالَمية مكانةٌ تاريخيةٌ ودِينيةٌ مَذكورةٌ في القُرآنِ الكريمِ، مجمع البحرين.

٢ – اكتشافُ شَواهِدَ أثريةٍ طبيعيةٍ بِمَوقعِ رأسِ مُحمَّدٍ تستوجبُ التسجيلَ التاريخيَّ والأثريَّ العالَميَّ.

التوصيات:

١ – يَستلزِمُ لتحقيقِ أهدافِ هذه الدِّراسةِ النظريةِ إجراءَ حَفْرِيَّاتٍ ودِراساتٍ علميَّةٍ لإثباتِ صِحَّتِها.

٢ – العملُ على اكتشافِ مواقعِ الاستيطانِ البشريِّ للحَضاراتِ القديمةِ في سَيناءَ؛ خاصَّةً وأنَّ القُرآنَ الكريمَ غنيٌّ بالأدلَّة والبراهينِ العلميَّة.

٢ – تفعيلُ البحثِ العلميِّ، وإعادةُ دراسةِ الكثيرِ من الأحداثِ التاريخيةِ التي وَقعَتْ على أرضِ سَيناءَ لأهميَّتِها الكبيرةِ ومَوقعِها الاستراتيجيِّ؛ ولِكَونِها أرضَ الدِّياناتِ والأنبياءِ والمُقدَّساتِ.

دروس وعبر وعظات

ذَكَرَ "موقعُ منتدياتِ الشيخِ عَرب" أنَّ ثلاثينَ فائِدةً استنبَطها الأئمَّةُ مِن هذه القِصَّةِ تضمَّنَتْ سبعةَ أنواعٍ ألاَ وهِيَ:

النوعُ الأوَّل: ما يتعلَّقُ بِجَلالِ اللهِ وعَظمَتِه:

١ – الأدبُ مع اللهِ لِقَولِه: "فَعَتَبَ اللهُ عَلَيهِ"؛ حيث استعملَ أوْلَى الألفاظِ في الأدبِ مع اللهِ سُبحانَه، فإذا ما وَردَتْ ألفاظٌ كثيرةٌ لها معنىً مُتقارِبٌ فالواجِبُ علينا اختيارُ اللفظِ الأكثرِ أدبًا مع اللهِ تعالى والإخبارِ بِهِ عنهُ سُبحانَه وتعالى.

٢ – الأدبُ مَعهُ تعالى بِمَعرِفةِ أنَّ له أسراراً في خلقِه قد تَخْفَى على الأنبياءِ عليهِم السلامُ، وهذا يظهرُ مِن قولِ الخَضرِ لِمُوسَى عليهِما السلامُ: "ما عِلْمِي وعِلْمُكَ في عِلْمِ اللهِ إلاَّ كما نَقَرَ هذا العُصْفُورُ في البَحْرِ".

ويُفِيدُ – أيضًا – في عَدمِ الاعتراضِ والسُّخْطِ على أقدارِ اللهِ؛ لأنَّنا نجْهَلُ الحِكمَةَ مِمّا يُقدِّرُه ربُّنا سُبحانَه وتعالى.

النوعُ الثاني: ما يَتعلَّقُ بأحوالِ الأنبياءِ:

٣ – أنَّ النبيَّ يجوزُ عليهِ الخَطأُ.

٤ – أنَّ النبيَّ يجوزُ عليه النِّسيانُ.

٥ – أنَّهُ لا يُنْكَرُ إصابةُ الشيطانِ للأنبياءِ بِما لا يَقْدَحُ في النبوَّةِ لِقَولِه: **(نَسِيا حُوتَهُما)**. وقولِه: **(وماأنْسانِيهِإلّاالشَّيطانُ)**. ويَظهرُ هذا مِن خلالِ اعتراضاتِ مُوسَى عليه السلامُ على الخَضرِ في كُلِّ مَرَّةٍ، وأنَّه نَسِيَ بأنْ لا يَسألَهُ حتَّى يُخْبِرَهُ

الخَضرُ. وكذلك قولِه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " فكانَتِ الأُوْلى مِن مُوسَى نِسْيانًا ". ونبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قَد سَها عِدَّةَ مَرَّاتٍ في الصَّلاةِ؛ – لِبَيانِ التشريعِ – ، وعاتَبَهُ اللهُ جلَّ جَلالُهُ في اجتهادِهِ في أُسارى بَدْرٍ ولَمْ يُقرُّهُ اللهُ سُبحانَه وتعالى على ذلكَ، وهذا نتيجةٌ بَشريَّةِ الأنبياءِ عليهم السلامُ؛ فالأنبياءُ بَشَرٌ وتَعْرُضُ لهُم ما يَعرضُ لِلبَشرِ مِن مَرضٍ وإعياءٍ ومَشقَّةٍ؛ لكنَّ الاختلافَ يكمُنُ في دَرجةِ التحمُّلِ والصبْرِ لِقَولِه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " أشَدُّ النَّاسِ بلاءً الأنبياءُ ثُمَّ الأمْثَلُ فالأمْثَلُ" . وكذلك فقَد سُحِرَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِن قِبَلِ اليهودِ؛ لكنَّ الضابِطَ هو أنْ لا يَقْدَحَ ذلكَ في تبليغِ الرِّسالةِ.

النوعُ الثالثُ: ما يتعلَّقُ بالأُصولِ:

٦ – إثباتُ كراماتِ الأولياءِ على القولِ بِعَدَمِ نبوَّةِ الخَضرِ.

وكراماتُ الأولياءِ لا تَرْفَعُهُم إلى مَنزلَةِ الألوهيَّةِ فَيُسْتَغاثُ بِهِم ويُسْتَشْفَعُ بِهِم عِندَ اللهِ كما يَفعلُهُ الجُهَّالُ ومَنْ تَبِعَهُم مِن ضُلَّالِ هذه الأُمَّةِ؛ فمُوسَى عليهِ السلامُ لو رأى ذلكَ خَيراً لَسَبَقَنا إليهِ واسْتَغاثَ بِالخَضرِ.

٧ – أنَّه قد يكونُ عِندَ غَيرِ النبيِّ من العِلْمِ ما ليسَ عِندَ النبيِّ. ودليلُ ذلكَ في قولِ الخَضرِ لِمُوسَى عليه السلامُ: "يا مُوسَى إنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أنتَ".

وفي هذا تربيةٌ لنا بحَيثُ لا نَتكبَّرُ على أحدٍ بِمَنزلَتِنا أو جاهِنا أو عِلْمِنا؛، فرُبَّما يُوجدُ عِندَه ما ليسَ عِندَكَ، ويُوجَدُ في النهرِ ما لا يُوجَدُ في البحرِ.

٨ – إذا احتملَ اللفظُ عِدَّةَ معانٍ فأظْهَرُها أوْلاَها كما قالَ الإمامُ الشافعيُّ: والدليلُ أنَّ نَوفًا البكاليُّ قد زَعمَ أنَّ مُوسَى ليسَ هو النبيَّ المذكورَ في سُورةِ الكهفِ، وهذا صَرْفُ اللفظِ عن ظاهِره. ويُقيِّدُنا هذا في آياتِ الصِّفاتِ خاصَّةً؛ حيث لا تُصرَفُ عن ظاهِرِها إلَّا بِقَرائِنَ.

النوعُ الرَّابِعُ: ما يتعلَّقُ بالتفسيرِ:

٩ – لا يجوزُ تفسيرُ القُرآنِ الكريمِ بالإِسْرائيليَّاتِ، وإنْ وَقعَ فيهِ مَن وَقعَ.

وهذا في تفسيرِ نَوفٍ البكاليّ وزَعمِه أنَّ مُوسَى ليسَ هو مُوسَى المذكورَ في سُورةِ الكهفِ.

والرَّدُّ على نَوفِ البكاليّ هو: فقالَ: أنا مُوسَى. فَقالَ: مُوسَى بَني إسرائيلَ؟

قال نَعمْ؛ لذلكَ قالَ ابنُ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهُ: "كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ".

١٠ – الوعدُ على العملِ الصالحِ ليسَ مُختَصًّا بالآخِرةِ؛ بلْ يدخلُ فيه أمورُ الدُّنيا حتَّى في الذُّرية بعد موتِ العامِل. وهذا ظاهِر في حَفْظِ اللهِ لِمالِ الغُلامَينِ المَدفُونِ تحتَ الجِدارِ حتَى يكبَرا؛ فقَد كانَ أبُوهُما صالحًا فَجازاهُ اللهُ في دُنياهُ أنْ حَفِظَ أبناءهُ مِن الضَّياعِ والفقْرِ.

النوعُ الخامِسُ: ما يتعلَّقُ بأدبِ العالِم مع المُتعلِّمِ:

١١ – تسميةُ التلميذِ الخادمِ فَتَىً. وهذا في قَولِه: "حتَّى إذا كانَ مِن الغَدِ قال مُوسَى لِفَتاهُ".

١٢ – التعلُّمُ بعدَ الرِّياسةِ؛ فمُوسَى عليه الصلاةُ والسلامُ لمْ يَمنَعْهُ بُلوغُه مِن السِّيادَةِ المحلَّ الأعلى مِن طلبِ العِلْمِ ورُكوبِ البَرِّ والبَحرِ لأجْلِه، قالَهُ ابنُ حَجَرٍ في الفتحِ.

وأيضًا في قولِ الخَضرِ لِمُوسَى: "أمَا يَكْفِيكَ أنَّ التوراةَ بِيَدَيكَ، وأنَّ الوحْيَ يأتِيكَ يا مُوسَى". فحسبَ كلامِ الخَضرِ أنَّ مَن حازَ التوراةَ في ذلكَ الزَّمانِ فقَد أصبحَ سَيِّدًا في قَومِه، وهذا مِن بَركةِ العِلْم.

١٢ – رُكوبُ البحرِ لِطَلَبِ العِلْمِ؛ فقَد أبحرَ مُوسَى عليهِ السلامُ مع الخَضرِ من أجلِ ذلكَ.

١٤ – قَبولُ نَصيحةِ العالِمِ لِعلْمِه مِنْكَ ما لا تَعْلَمُه مِنْ نَفْسِكَ وإنْ كُنْتَ أفْضَلَ مِنْهُ. ويظهرُ هذا في نَصيحةِ الخَضرِ لِمُوسَى بِقَولِه: ﴿**إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾.

وقَولِه: ﴿**فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾.

١٥ – إعفاءُ المُتعلِّمِ مِمَّا يَكْرَهُ؛ فَقد لا يَسْتَطِيعُ الطالِبُ تَحَمُّلَ بعضِ مسائلِ العِلْمِ، وعلى العالِمِ أنْ يُعْفِيه مِمَّا يَشقُّ عليهِ.

النوعُ السادِسُ: ما يَتعلَّقُ بِالفِقْه:

١٦ – يجوزُ عملُ الإِنسانِ في مالِ غَيرِه بِغَيرِ إذنِه إذا خافَ عليهِ الهلاكَ. ويَظهَرُ ذلكَ في بناءِ الجِدارِ.

١٧ – ليسَ مِن شَرْطِ الجوازِ خوفَ الهلاكِ؛ بلْ قد يجوزُ للإِصلاحِ لِقِصَّةِ الجِدار.

١٨ – لا بأسَ بالسُّؤالِ في بعضِ الأحوالِ لِقَولِه تعالى: ﴿**اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا**﴾.

١٩ – مَنْ لَمْ يُعْطَ فَلْيتَّعِظْ بِهَذهِ القِصَّةِ، وكَمْ مِمَّنْ هانَ على الناسِ وهوَ جليلٌ عِندَ اللهِ، وقد قِيلَ:

فإِنْ رُدِدْتَّ فَما فِي الرَّدِّ مَنْقَصَةٌ عَليكَ قَدْ رُدَّ مُوسَى قَبْلُ والخَضرُ

٢٠ – الإجارةُ تجوزُ بِغَيرِ الشُّروطِ التي شَرطَها بعضُ الفقهاءِ.

٢١ – يجوزُ أخْذُ الأجرةِ على العملِ الذي لا يُكلفُ خِلافَ ما تَوهَّمَهُ بَعضُهم.

٢٢ – التَّرَحُّمُ على الأنبياءِ لا يُنْقِصُ مِن قَدْرِهِم خِلافَ ما توهَّمَهُ بَعضُهُم لِقولِه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "رَحِمَ اللهُ مُوسَى".

٢٢ – خَطأُ مَن قالَ: "تخلُو الأرضُ مِن مُجْتَهِدٍ".

٢٤ – قولُه: (**لَقَدْلَقِينامِنْسَفَرِناهَذانَصَبًا**)، لا تُعَدُّ مِن الشَّكْوى.

٢٥ – سَفَرُ الاثنَينِ مِن غَيرِ ثالثٍ لِلحَاجَةِ.

قال الألبانيُّ بتحريمِ سَفَرِ المُسْلِمِ وَحْدَهُ، وقال الطبريُّ: هذا زَجْرُ أدبٍ وإرشادٍ لِما يُخافُ على الواحدِ مِن الوحْشَةِ وليسَ بِحَرامٍ؛ فالسائرُ وَحدَهُ في فَلاةٍ، والبائتُ في بَيتٍ وَحدَهُ، لا يأمَنُ الاسْتِيحاشَ سيَّما إنْ كانَ ذا فِكْرَةٍ رَديئةٍ أو قلبٍ ضعيفٍ. والحقُّ: أنَّ الناسَ يتفاوتُونَ في ذلكِ؛ فيُكْرَهُ الانفِرادُ سدًّا للبابِ والكراهةِ، وفي الاثنينِ أخفُّ منها في الواحدِ.

النوعُ السابعُ: ما يَتعلَّقُ بِالمَنْثورِ الجامِعِ:

٢٦ – أنَّ الشيطانَ يَتسلَّطُ تَسلُّطًا لا يُعْرَفُ؛ لِكَونِه تَسلَّطَ على يُوشَعَ بِالنِّسيانِ العَجيبِ.

٢٧ – الرَّدُّ على مُنْكِري الأسبابِ؛ لأنَّه سُبحانَه وتَعالى قادرٌ على إنجاءِ السَّفِينَةِ وتثبيتِ أبَوَي الغُلامِ وإخراجِ الكَنْزِ لَهُما بِدُونِ ما جَرَى. وقَد أخَذَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالأسبابِ في حياتِه؛ فجعلَ عَليًّا مَكانَهُ عِندَما هاجَرَ، وكان يَلْبَسُ الدِّرْعَ أثناءَ الحَربِ، وقامَ بِكِراءِ غُلامٍ لِيَمْحُوَ أثَرَهُ وأثَرَ أبي بَكْرٍ عِندَ الهِجْرَةِ...

وقَد أرشَدَنا سُبحانَه وتعالى في القُرآنِ الكريمِ إلى اتِّخاذِ الأسبابِ؛ فَفِي قِصَّةِ مَرْيَمَ أمرَها بِهَزِّ الجِذْعِ مع إمكانِ تَساقُطِ الرُّطَبِ مِن دُونِ عَناءٍ ولا سَبَبٍ، وكذلك إنباتِ الزَّرعِ يكونُ بِنُزُولِ المطرِ لِقَولِه: **(فأَنْبَتْنابِهِ)**، فالباءُ لِلسَّبَبيَّةِ، واحتملَ مُوسَى مَشاقَّ السفَرِ وهو سببٌ فقط لِيَصِلَ إلى الخَضِرِ.

٢٨ – الحُكْمُ بالظاهِرِ لقولِه عليهِ السلامُ: **(نَفْسًازَكِيَّةً)**.

٢٩ – تسميةُ المَدينةِ قَريةً.

٣– أنَّ المالَ قَد يكونُ رَحْمَةً وإنْ كانَ مَكْنُوزًا.

وقالَ ابنُ حَجرٍ في "فَتْحِ الباري" بِجَوازِ التجادُلِ في العِلْمِ إذا كانَ بِغَيرِ تَعنُّتٍ، والرُّجوعِ إلى أهلِ العِلْمِ عِندَ التنازُعِ، والعملِ بِخَبرِ الواحدِ الصَّدُوقِ، ورُكوبِ البحرِ في طلبِ العِلْمِ؛ بل في طَلَبِ الاستِكثارِ مِنهُ، ومَشروعيَّةِ حَمْلِ الزادِ في السَّفَرِ، ولُزُومِ التواضُعِ في كُلِّ حالٍ؛ ولِهذا حَرصَ مُوسَى على الالتقاءِ بِالخَضِرِ عليهما السلامُ وطَلَبَ التعلُّمَ مِنهُ تعليمًا لِقَومِهِ أنْ يَتأدَّبُوا بأدبِه وتنبيهًا لِمَنْ زَكَّى نَفْسَهُ أنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ التواضُعِ[١].

فَوائِدُ ونَصائِحُ

– أنَّهُ **(فَوقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)**. والإنسانُ مَهْما أُوتِيَ مِن العِلْمِ عليهِ أن يَطلُبَ المَزيدَ وأنْ لا يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ. **(وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا)**.

[١] فَتْحِ الباري: ابن حَجرٍ (ج ١/ ص١٦٩).

– السَّعيُ لِلعِلْمِ والتعلُّمِ والصَّبْرِ عليهِ؛ فَمُوسَى عليهِ السلامُ – وهُوَ مِن أُولِي العَزْمِ مِن الرُّسُلِ – صَمَّمَ على تذليلِ العَقَباتِ وتَحَمُّلِ المَشاقِّ كي يلتقِيَ بِالرَّجُلِ الصالِحِ؛ لِيَنْتفِعَ بِعلمِه بِدليلِ قَولِه: (**لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**).

– الأخذُ بالأسبابِ.

– عَدمُ التكبُّرِ.

– التأدُّبُ والتواضُعُ لِلمُعلِّمِ والامتِثالِ لأوامِرِه، وعلى المُتعلِّمِ أن يَخْفِضَ جَناحَهُ لِلمُعَلِّمِ، وأنْ يُخاطِبَهُ بأرقِّ العِباراتِ وألطفِها حتَّى يَحصلَ على ما عِندَهُ مِن عِلْمٍ بِسُرورٍ وارتياحٍ، تأمَّلْ ما قالَهُ مُوسَى لِلخَضرِ: (**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**)؛ فقَد أخرجَ الكلامَ بِصُورةِ المُلاطَفةِ والمُشاورَةِ؛ فكأنَّه يقولُ لهُ: "هل تأذَنُ لي في ذَلِكَ أمْ لا، مع إقرارِه بأنَّهُ يَتعلَّمُ مِنهُ".

– عَدمُ التسرُّعِ في الحُكْمِ على ظاهِرِ الأحداثِ، والتريُّثُ لِمعرِفَةِ الحِكْمةِ مِن ذلكَ.

– أخْذُ العَفْوِ مِن أخلاقِ الناسِ ومُعاملاتِهم وما سَمحَتْ بِه نُفوسُهم.

– يجوزُ دفعُ الضَّررِ الأكبرِ بارتكابِ الضَّررِ الأصغرِ، ويُراعى في ذلكَ المصلحةُ. و"دَرْءُ المَفسدَةِ مُقدَّمٌ على جَلْبِ المَنفعَة"؛ فإنَّ خَرْقَ السفينةِ فيهِ ضَرَرٌ؛ ولَكنَّهُ أقلُّ مِن ضَررِ أخْذِ المَلِكِ لها غَصْبًا، وإنَّ قَتْلَ الغُلامِ شَرٌّ؛ ولكنَّهُ أقلُّ مِن الشَّرِّ الذي سَيترتَّبُ على بَقائِه حيًّا وهو إرهاقُه لأبَويهِ وحَمْلِهِما على الكُفْرِ.

– المِسكينُ مَن لهُ مالٌ؛ لكنْ لا يَسُدُّ حاجَتَهُ.

– قَتْلُ النفْسِ مِن الكبائرِ؛ ولكنَّ القتلَ قِصاصًا غَيرُ مُنكَرٍ.

– لِخِدْمَةِ الصالِحينَ فضلٌ كبيرٌ.

– التأدُّبُ مع اللهِ تعالى في اختيارِ الألفاظِ.

– ينبغي على المُسْلِمِ أنْ يَنْسبَ العِلْمَ للهِ تعالى.

– جَوازُ إخبارِ الإنسانِ عمَّا هُوَ مِن مُقتضَى الطبيعةِ البشريةِ ك (الجُوعِ والعَطشِ والتعبِ والنسيانِ)؛ فقَد قالَ مُوسَى لِفَتاهُ: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾. وَرَدَّ عليهِ فتاهُ بِقَولِه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾. وفي هذا الرَّدِّ – أيضًا – مِن الأدبِ ما فِيه؛ فقَد نَسَبَ سَبَبَ النسيانِ إلى الشيطانِ وإنْ كانَ كُلُّ ما حَصلَ بِقَضاءٍ مِن اللهِ تعالى وقَدَرِه.

– لا بأسَ على العالِمِ إذا اعتذرَ لِلمُتعلِّمِ عن تعليمِه؛ فقَد لا يُطيقُ المُتعلِّمُ ذلكَ لِجَهْلِه بالأسبابِ التي حَملَت العالِمَ على فِعْلِ أُمورٍ ظاهِرُها يُخالِفُ الحَقَّ والعَدلَ والعَقلَ، وأنَّ معرفةَ الأسبابِ تُعينُ على الصَّبْرِ فقَد قالَ الخَضرُ لِمُوسَى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؛ فَجَعلَ المَوجِبَ لِعَدَمِ صَبْرِه عَدمَ إحاطتِه خُبْرًا بالأمْرِ.

– مِن علاماتِ الإيمانِ أنْ يُقدِّمَ الإنسانُ المَشيئةَ عِندَ الإقدامِ على الأعمالِ، وأنَّ العزمَ على فِعْلِ الشيءِ ليسَ بِمَنزِلةِ فِعْلِه؛ فقَد قالَ مُوسَى لِلخَضرِ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. ومعَ ذلكَ فَعِندَما رأى مِنهُ أفْعالاً يُخالِفُ ظاهِرُها الحَقَّ والصَّلاحَ لمْ يَصْبِرْ.

– لا بأسَ على العالِم أنْ يَشْتَرِطَ على المُتعلِّمِ أُموراً مُعيَّنةً قبلَ أنْ يبدأَ في تعليمِه؛ فقَد قال الخَضرُ لِموسَى: (**فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**).

– يَجُوزُ للإِنسانِ أنْ يَعمَلَ في مِلْكِ غَيرِه بِلا إذنِه؛ بِشَرْطِ أنْ يكونَ هذا العملُ فيهِ مَصلَحةٌ وخيرٌ؛ كأنْ يَرَى حَريقًا في دارِ إنسانٍ فَيُقْدِمَ على إطفائِه بِلا إذنِه.

– قَد يُحْرَمُ العبدُ الخيرَ بِسَببِ تَسرُّعِه وعَدَمِ صَبْرِه؛ ف (التأنِّي في الأحكامِ، والتثبُّتُ مِن الأُمورِ، ومَعرفةُ العِلَلِ والأسبابِ) كُلُّ ذلكَ يُؤدِّي إلى صِحَّةِ الحُكْمِ وسلامةِ القولِ والعملِ.

وصدقَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قال: "رَحْمَةُ اللهِ عَلَينا وعلَى مُوسَى، لو صَبَرَ على صاحِبِه لَرأى العَجَبَ".

– مِن دَأْبِ الصالحِينَ الأدبُ مع اللهِ تعالى في التعبيرِ؛ فالخَضرُ أضافَ عَيبَ السَّفِينَةِ إلى نفْسِه فقالَ: (**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**). وأضافَ فِعْلَ الخَيرِ لِلغُلامَينِ اليتيمَينِ إلى اللهِ فقالَ: (**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**). وشَبيهٌ بِهذا ما حَكاهُ اللهُ تعالى عن صالحِي الجِنِّ في قولِهم: (**وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا**).

– يَحفَظُ اللهُ العبدَ الصالحَ في نَفْسِه وفِي ذُرِّيَتِه، وصَلاحُ الآباءِ يَنْفَعُ الأبناءَ؛ بِدليلِ قولِه تعالى: (**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**).

– على الصاحبِ أنْ لا يُفارِقَ صاحِبَهُ حتَّى يُبيِّنَ لهُ الأسبابَ التي حَمَلَتْهُ على ذلكَ؛ فالخَضرُ عِندَما قالَ لِموسَى: (**هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**) اتْبَعَ ذلكَ بِقَولِه: (**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**)؛ أيّ: قبلَ مُفارَقَتِي لكَ سأخْبُرُكَ عن الأسبابِ التي حَمَلَتْنِي على فِعْلِ ما فَعَلْتُ مِمَّا لمْ تَسْتَطِعْ مَعَهُ صَبْرًا[1].

الآداب المستقاة من قصة موسى والخضر عليهما السلام[2]

ما أكثرَ مواضِعَ الأدبِ في القُرآنِ الكريمِ!

ومِن هَذهِ المَواضعِ قِصَّةُ مُوسَى والخَضرِ عليهِما السلامُ؛ فَحِينَما قالَ مُوسَى لِلخَضرِ (**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**) فقَد راعَى كثيراً مِن الأدبِ واللُّطْفِ مِنها:

– جَعَلَ نَفْسَهُ تَبَعًا لهُ فقالَ لهُ (**هَلْ أَتَّبِعُكَ**)؟ لمْ يَقُلْ: " أنا تابِعٌ لَكَ"؛ وإنَّما تَلَطَّفَ وقالَ: هل تأذَنُ لِي أنْ أجْعَلَ نَفْسِي تَبَعًا لَكَ؟

وهَذهِ – بِلا شَكٍّ – مُبالغةٌ عَظِيمةٌ في التواضُعِ مِن مُوسَى عليهِ السلامُ.

– الإقرارُ على نَفْسِه بالجَهْلِ ولأُستاذِه بِالعِلْمِ (**عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ**)؛ فهُناكَ "عالِمٌ" وهُناكَ "مُتعلِّمٌ مُفتَقِرٌ إلى هذا العِلْمِ".

– المُتابَعةُ المُطلَقةُ في الأُمورِ كُلِّها دُونَما قَيدٍ.

– العِلْمُ اللَّدُنِّيُ فَضْلٌ مِن اللهِ سُبْحانَه وتعالى يَهَبُهُ لِمَنْ يَشاءُ (**مِمَّا عُلِّمْتَ**)

[1] موقعُ منتدياتِ الشيخِ عَرب.
[2] مُنتدى فُرسان

مِن: هُنا للتبعيضِ، يعني: مِن بَعضِ ما عَلَّمَكَ اللهُ سُبْحانَه وتعالى.

– الشُّعورُ بِالتَّواضُعِ؛ وكأنَّهُ يقولُ: "لا أطلُبُ مِنْكَ أن تجْعَلَنِي مُساوِيًا لَكَ في العِلْمِ؛ بلْ أطلُبُ أنْ تُعطِيني جُزءًا مِن عِلْمِكَ، كما يطلبُ الفقيرُ مِن الغنيِّ أنْ يدفعَ إليهِ جُزءًا مِن مالِه". ولَمَّا أتَى مُوسَى الخَضرَ قالَ لهُ: مَنْ أنتَ؟

قال: مُوسَى.

فقالَ: مُوسَى بَني إسرائيلَ؟ فالخَضرُ عَرَفَ أنَّ الذي يُكلِّمُهُ هُو مُوسَى صاحِبُ التوراةِ، وهو الرَّجُلُ الذي كَلَّمَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِن غَيرِ واسطةٍ، وخَصَّهُ بِالمُعجِزاتِ الباهرةِ، ثمَّ إنَّهُ عليهِ السلامُ مع هذهِ المَناصِبِ الرَّفيعةِ والدَّرجاتِ العاليةِ الشريفةِ أتى بِهذا التواضُعِ، فَدَلَّ على أنَّهُ عليهِ السلامُ آتى في طلبِ العلمِ بِأرفَعِ درجاتِ التواضُعِ، وهذا هُو اللائِقُ بِهِ.

– الاعترافُ بأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هوَ الذي عَلَّمَه ذلكَ العِلْمَ، وفي ذلك نِسبَةُ الفضلِ إلى صاحبِهِ وهُو اللهُ عزَّ وجلَّ.

– المُعامَلةُ بِالمِثْلِ. طَلبَ مِنهُ أنْ يُعامِلَهُ بِمِثْلِ ما عامَلَهُ اللهُ بِهِ، لم يَقُلْ "عَلِّمْنِي مِمَّا تَعلَّمْتَ"، أوْ "عَلِّمْنِي مِمَّا عِنْدَكَ مِنَ العِلْمِ"؛ بلْ "عامِلْنِي بِمِثْلِ ما عامَلَكَ اللهُ بِهِ، "أفاضَ اللهُ عَليكَ بِهذا العِلْمِ فأفِضْ عَلَيَّ مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ؛ فيَكُونَ إنعامُكَ عَلَيَّ بِهذا التعليمِ شَبِيهًا بإنعامِ اللهِ تعالى عَلَيكَ فيهِ". وهذا غايةُ التهذيبِ والأدبِ والتواضُعِ،

– مَن كانتْ إحاطَتُه بِالعُلومِ أكثرَ كان شُعُورهُ بالبَهجَةِ والسعادةِ أكثرَ، وطَلَبُهُ لها أشدَّ، وتعظيمُهُ لأربابِ العِلْمِ أعظمُ؛ لأنَّهُ يَعْرِفُ قِيمةَ العِلْمِ.

وفي ذلك يقولُ الإمامُ الشافعيُّ: "أدَّبَنِي الدَّهْرُ فأَرانِي نَقْصَ عَقْلِي، وكُلَّما ازْدَدْتُ عِلْمًا ازْدَدْتُ عِلْمًا بِجَهْلِي"[1].

– الاختصاصُ. لمْ يَطلُبْ على تِلكَ المُتابَعةِ سِوى التعليمِ، كأنَّه قالَ: "لا أطلبُ مِنْكَ المالَ والجاهَ، ولا غَرَضَ لِي إلاّ طَلَب العِلْمِ"[2].

لمسات بيانية

قال أبو حَيَّان: "السفينةُ" معروفةٌ، وتجْمَعُ على سُفُنٍ وسَفائِنَ، وقَد تحْذَفُ تاءُ التأنيثِ فيُقالُ "سَفِينٌ" وهو كثيرٌ في المخلوقِ نادرٌ في المصنوعِ، نحو عِمامةٌ وعِمامٌ. وقالَ الشاعرُ:

متَى تأتِهِ تأتِ لُجَّ بَحْرٍ تقاذَفَ في غوارِ بهِ السَّفِينُ

والألف واللام في السفينة لتعريف الجنس إذ لم يتقدم عهد في سفينة مخصوصة.

عابَ الرَّجُلَ: ذَكَرَ وَصفًا فيهِ يُذَمُّ بهِ، وَعابَ السفينةَ أحدثَ فيها ما تَنقُصُ بهِ.

الإمْرُ: البَشِعُ مِن الأُمورِ ك (الداهيةِ والإدِّ) ونَحْوِهِ.

الجِدارُ: معروفٌ ويُجمَعُ على جُدُرٍ وجُدران.

انقضَّ: سَقَطَ، ومِن أبياتِ الأعرابِ:

مَرَّ كَما انْقَضّ على كَوكبٍ عِفْرِيتُ جِنٍّ في الدُّجَى الأجَدْل

اللامُ في (لِتُغْرِقَ): لامُ العاقِبَةِ، وقِيلَ: لامُ العِلَّةِ.

---

[1] مُنتدى فُرسان - الآدابُ المُستقاةُ مِن قِصَّةِ مُوسَى والخَضرِ عليهِما السلامُ.
[2] هذا ما ذَكَرَهُ الفخْرُ الرازيُّ في هذا البابِ (بِتَصرُّفٍ).

قرأَ (زيدُ بنُ عليٍّ والأعمشُ وطَلحَةُ وابنُ أبي ليلى وحَمْزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ وأبو عبيدٍ وابنُ سَعدان وابنُ عِيسى الأصبهانيُّ) (لِيَغْرَقَ) بِفتحِ الياءِ والراءِ وسُكونِ الغَينِ، و(أهْلُها) بالرَّفْعِ. وقَرأ باقي السبعةِ بِضَمِّ تاءِ الخِطابِ وإسكانِ الغَينِ وكسرِ الراءِ ونَصبِ لامِ أهْلِها. وقرأ (الحَسَنُ وأبو رجاءٍ) كذلكَ؛ إلَّا أنَّهُما فَتَحا الغينَ وشدَّدا الراءَ.

(**لاتُؤاخِذْنِي بِمانَسِيْتُ**) : الظاهرُ حملُ النِّسيانِ على وَضْعِه، وقَد قال عليهِ الصلاةُ السلامُ: "كانتِ الأُولى مِن مُوسَى نِسْيانًا". والمَعنى: أنَّهُ نَسِيَ العَهْدَ الذي كانَ بَينَهُما مِن عَدَمِ سُؤالِه حتَّى يكونَ هوَ المُخبِرَ لهُ أوَّلاً وهذا قولُ الجُمهورِ.

وعن أُبيّ بنِ كَعبٍ أنَّهُ ما نَسِيَ؛ ولَكِنَّ قولَهُ هذا مِن مَعاريضِ الكلامِ.

وقالَ الزَّمَخْشَريُّ: أرادَ أنَّهُ نَسِيَ وَصِيَّتَهُ ولا مُؤاخَذَةَ على النَّاسي، أوْ أَخْرَجَ الكلامَ في مَعرِضِ النهي عن المُؤاخَذةِ بالنِّسيانِ تَوهُّمُهُ أنَّه نَسِيَ لِيَبْسُطَ عُذْرَهُ في الإنكارِ وهو مِن مَعاريضِ الكلامِ التي ينفي بها الكذبَ مع التوصُّلِ إلى الغَرضِ كقَولِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ "هَذهِ أُخْتي"، و"إنِّي سَقِيمٌ". أوْ أرادَ بالنِّسيانِ التركَ؛ أيّ: لا تُؤاخِذْني بِما تَرَكْتُ مِن وَصِيَّتِكَ أوَّلَ مَرَّةٍ.

(**ولاتُرْهِقْني**) : لا تَغْشَنِي وتُكَلِّفْنِي، مِن أمْري وهُو اتِّباعُكَ،

(**عُسْرًا**) أيّ: شَيئًا صَعَبًا؛ بلْ سَهِّلْ عليَّ في مُتابَعَتِكَ بِتَرْكِ المُناقَشةِ.

وقرأ أبو جَعفَر (**عُسُرًا**) بِضَمِّ السينِ؛ حيثُ وقعَ في الكلامِ حَذْفٌ تقديرُه "فَخَرَجا مِن السفينةِ ولمْ يَقَعْ غَرَقٌ بأهْلِها"

غُلامًا: قيلَ هذا الغُلامُ لمْ يبلُغِ الحُلُمَ؛ ولهذا قالَ (**أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً**)؟

وقيلَ: كانَ الغُلامُ بالِغًا شابًّا، والعَربُ تُبْقي على الشَّابِّ اسْمَ الغُلامِ،

ومِنهُ قولُ ليلَى الأخيليَّة في الحَجَّاجِ:

شَفاها مِن الدَّاءِ الذي قَدْ أصابَها غُلامٌ إذا هَزَّ القناةَ سَقاها

وقيلَ: أصْلُهُ مِن الاغْتِلامِ وهُوَ شِدَّةُ الشَّبَقِ؛ وذلكَ إنَّما يكونُ في الشبابِ الذينَ قَد بَلَغُوا الحُلُمَ، ويتناولُ الصَّبيَّ الصغيرَ تجَوّزًا تسميةً لِلشيءِ باسْمٍ ما يَؤولُ إليهِ.

وجاءَ في "ملاك التأويل": قولهُ حينَ خَرَقَ السفينةَ: (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**)،

وقولُه عِندَ قَتْلِ الغُلامِ: (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**). الفَرقُ بينَ الوصْفَينِ: أرادَ في خَرْقِ السفينةِ إبقاءها على مالِكِها ودَفْعِ الغاصِبِ إذا رأى ما بِها مِن العَيبِ فَوصَفَها بإِمْرٍ وهو دُونَ النُّكْرِ.

وأمَّا الظاهِرُ مِن قَتْلِ الغُلامِ فَفِي طيِّهِ فِعْلٌ شَنيعٌ وَوِزْرٌ فَوصَفَهُ بالنُّكْرِ؛ فَوقَعَ التعبيرُ في المَوضِعَينِ بِما يُناسِبُ الفِعلَينِ كِلَيهِما.

وفي قولِ الخَضرِ لِموسَى حينَ خَرَقَ السفينةَ: (**أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)،

وحينَ قَتَلَ الغُلامَ: (**أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**). إنَّ ما أوجَبَ زِيادةً لكَ في القولِ الثاني هُو أنَّهُ عِندَما خَرَقَ الخَضرُ السفينةَ كان مِن مُوسَى ما كانَ مِن الإنكارِ؛ فَذَكَّرَهُ الخَضرُ بِما قالَهُ لهُ؛ فاعتذرَ مُوسَى عليهِ السلامُ بِقَولِه: (**لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**). فلمَّا وَقَعَ مِنْهُ بعدَ ذلكَ إنكارُ قَتْلِ الغُلامِ وأبلغَ في وَصْفِ الفَعْلَةِ بِقَولِه (**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**)، قابلَ الخَضرُ ذلكَ بِتأكيدِ

الكلامِ المُتقدِّمِ فقالَ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾؛ فالضميرُ المجرورُ بيانٌ جِيءَ بهِ تأكيداً لِيُقابِلَ بالكلامِ ما وَقَعَ جَوابًا مِن قولِ مُوسَى زيادةً لِلتناسُبِ، وتعلُّقُ الجْرورِ الواقِعِ بيانًا مُختلَفٌ فيهِ؛ فمنهُم مَن يُعلِّقُه بِفِعْلٍ مُضمَرٍ، ومِنهُم مَن يُجْريهِ كَحرفِ جَرٍ زائدٍ؟ فلا يُعلِّقُهُ بِشَيءٍ.

وقولُه: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، على هذا لا مَأخذَ مَعمُولاً لِلقَولِ مِن قولهِ ﴿أَلَمْ أَقُل﴾. ويُمكِنُ عِندي فيهِ وَجْهٌ آخرُ ألاَ وهوَ أن يكونَ قولُه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾ كلامًا مُستقِلاً مَحذُوفًا مِنهُ مَعمولُ القولِ؛ وكأنَّه في تقديرِ "ألمْ أقُلْ لكَ ما قُلْتُ"، ثمَّ استأنفَ المقالةَ فقالَ: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. وعلى هذا فَهُو ليسَ مَعمُولاً للقولِ مِن قولِه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾؛ إنَّما مَعمولٌ مَحذُوفٌ مُقدَّرٌ، كما حُذِفَ معمولُ القولِ مِن قولِه تعالى في سُورةِ يُونُس: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾. ومَعمولُ القولِ مَحذوفٌ تقديرهُ "أتَقُولُونَ لِلحَقِّ لَمَّا جاءكُمْ سِحْرٌ مُبينٌ"، ثمَّ قال لهُمْ تقْريعًا وتوبيخًا (أَسِحْرٌ هَذَا)، فَ (سِحْرٌ مُبينٌ) هوَ معمولٌ للقولِ وهُو مِن قولِهم. وقولُه: (أَسِحْرٌ هَذَا) هُو مِن قولِ مُوسَى عليهِ السلامُ توبيخًا لهُمْ كما ذَكَرْنا[1].

ومِن لطائفِ القُشيريِّ في الآيةِ: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾. أنَّه لَّما رَكِبُوا الفُلْكَ خَرَقَها وكانَ ذَلِكَ

[1] ملاك التأويل: حمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي (ج٢/ص٣٢٢).

إبقاءً على صاحبِها؛ لِئلَّا يَرغَبَ في السَّفينةِ المَخْرُوقةِ المَلِكُ الطامعُ في السُّفُنِ. وقولُه (**لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا**)؛ أيّ: لِتُؤدِّيَ عاقِبةُ هذا الأمرِ إلى غَرَقِ أهلِها؛ لأنَّهُ عَلِمَ أنَّهُ لمْ يَكُنْ قَصَدَ إغْراقَ أهلِ السفينةِ. وقَولَهُ: (**أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**). أيّ: أنتَ تنظرُ إلى هذا مِن حيثُ العِلْمُ، وإنّا نجْزِيهِ مِن حيثُ الحُكْمِ. وقَولَه: (**لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**)، طالَبَهُ بِما هوَ شَرْطُ العِلْمِ؛ لأنَّ الناسيَ لا يَدْخُلُ تحتَ التكليفِ، وأَيَّدَ ذلكَ بِما قَرَنَ بهِ قولَه: (**وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**)؛ فالمُتَمَكِّنُ مِن حَقِّهِ التكليفُ، ومَن لا يَصِحُّ مِنهُ الفِعْلُ والتَرْكُ لا يَتوَّجَهُ... والناسُ مِن جُمْلَتِهِم.

وفي الآيةِ: (**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**). كان بِخُلُقِ العِلْمِ واجبًا على مُوسَى عليهِ السلامُ قَصْرُه حيثُ يَرَى في الظاهرِ ظُلْمًا؛ ولكنْ فيما عُرِفَ مِن حالِ الخَضرِ مِن حَقِّهِ التوقُّفُ رَيثما يَعْلَمُ أنَّه أَلَمَّ بِمَحظُورٍ أو مُباحٍ؛ ففي ذلكَ الوقتِ كان قلبَ العادةِ[1].

وقال السَّمينُ الحلبيُّ في تفسيرِه "الدُّرُّ المَصُونُ في عُلومِ الكِتابِ المَكنُونِ": (**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**). قولُه (**لِتُغْرِقَ**) في اللامِ وَجْهانِ؛ أحدُهما: هِيَ لامُ العِلَّةِ، والثاني: هِيَ لامُ الصَّيْرورةِ.

[1] لطائف الإشارات تفسير القشيري: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ج٢/ص٤٠٩).

وقرأ الأخَوان (ليَغْرَقَ) بِفَتْحِ الياءِ وسُكونِ الغَين وفَتْحِ الراء، (أهْلُها) بالرَّفْعِ فاعِلاً. والباقونَ بِضَمِّ التاءِ وكَسْرِ الراءِ؛ أيّ: (لِتُغْرِقَ أنتَ أهْلَها) بِالنصبِ مَفعُولاً بِهِ، والحَسنُ وأبو رجاءٍ كذلكَ؛ إلَّا أنَّهُما شَدَّدا الرَّاءَ.

والسفينةُ مَعرُوفةٌ، وتُجمَعُ على سُفُنٍ وسَفائِنَ نَحو: صَحِيفةٍ وصُحُفٍ وصَحائِفَ. وتُحذَفُ مِنها التاءُ مُراداً بها الجمعُ؛ فتكونُ اسمَ جنسٍ نَحو: ثَمَرَ وبَلَح؛ إلَّا أنَّهُ هذا المَصنُوعُ قليلٌ جِدًّا نَحو: جَرَّة وجَرٍّ، وعِمامة وعِمام.

قال الشاعرُ:

مَتَى تَأْتيهِ تأتي لُجَ بَحْرٍ تقاذَفُ في غَوارِبِه السَّفينُ

واشتقاقُها مِن السَّفْنِ وهُوَ القَشْرُ؛ لأنَّها تَقْشُرُ الماءَ. كما سُمِّيَتْ بِنْتَ مَخْرٍ؛ لأنَّها تَمْخُرُ الماءَ؛ أيّ: تَشُقُّهُ.

وقولُه (إمْرًا)؛ أيّ: شيئًا عَظيمًا، يُقالُ: أَمِرَ الأَمْرُ؛ أيّ: عَظُمَ وتفاقَمَ. ويُقالُ داهِيَةً دَهْياءَ إمْرًا.

وقَولَه: (**لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**). عُسْرًا مَفعولٌ بِهِ ثانٍ لِتُرْهِقْنِي، مِنْ أَرْهَقَه كذا إذا حَمَّلَهُ إيَّاهُ وغَشَّاهُ بِه.

(بِما نَسِيْتَ) ما مَصدَريةٌ أو بِمعنَى الذي، والعائِدُ مَحذُوفٌ.

وقولهُ: (..**أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ**) قَرأها (زاكِيَةً) بِألِفٍ وتَخفيفِ الياءِ (نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عَمْرٍو)، وبِدُونِ الألفِ وتشديدِ الياءِ الباقونَ؛ فمَن قَرأها (زاكِيَةً) فهِيَ اسمُ فاعلٍ على أصْلِه، ومَن قَرأها (زَكِيَّةً) فَقد أخْرَجَها إلى فَعِيلَةٍ لِلمُبالَغَةِ.

والغُلامُ: مَنْ لم يَبْلُغْ. وقد يُطْلق على البالغِ الكبيرِ، فقِيلَ: مجازاً باعتبارِ ما كانَ، ومِنه قولُ ليلَى:

شَفاها مِنَ الدَّاءِ الذي قَدْ أصابَها غُلامٌ إذا هَزَّ القناةَ شَفاها

وقالَ آخَرُ:

تَلَقَّ ذُبابَ السَّيْفِ عَنِّي فإنَّني غُلامٌ إذا هُوجِيْتُ لَسْتُ بِشاعِرِ

وقيلَ: بلْ هوَ حقيقةٌ؛ لأنَّهُ مِن الإِغلامِ وهو الشَّبْقُ؛ وذلكَ إنَّما يَكُونُ في الإِنسانِ المحْتَلِمِ.

قال الزَّمَخْشَرِيُّ: لِمَ قيل: حتَّى إذا رَكِبا في السَّفِينَةِ خَرَقَها، بِغَيرِ فاءٍ و: (**حَتَّى إذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ**) بالفاءِ؟

الجوابُ: جَعَلَ (خَرَقَها) جَزاءً لِلشرطِ، وجَعَلَ (قَتَلَهُ) مِن جُملَةِ الشرطِ مَعطُوفًا عليه، والجَزاءُ: (قال أَقْتَلْتَ). وخُولِفَ بينَهُما؛ لأنَّ الخَرْقَ لمْ يتعقَّبِ الرُّكُوبَ، وقَد تَعقَّبَ القَتْلُ لِقاءَ الغُلامِ.

وقولهُ: (بِغَيْرِ نَفْسٍ) فيهِ ثَلاثةُ أوْجُهٍ:

أحَدُها: إنَّها مُتعلِّقةٌ ب (قَتَلْتَ).

الثاني: أنَّها مُتعلِّقةٌ بِمَحذُوفٍ على أنَّها حالٌ مِنَ الفاعلِ أو مِن المَفعُولِ؛ أيّ: قَتَلْتَهُ ظالِمًا أو مَظلُومًا، كذا قَدَّرَه أبو البقاءِ وهو بَعِيدٌ جِدًّا.

الثالثُ: أنَّها صِفةٌ لِمَصدَرٍ مَحذُوفٍ؛ أيّ: قَتْلاً بِغَيرِ نَفْسٍ.

وقولهُ: (نُكْرًا) قَرأ (نافِعٌ وأبو بَكْرٍ وابنُ ذكوانَ) بِضَمَّتَينِ، والباقونَ بِضمَّةٍ وسُكونٍ. وهُما لُغتانِ، وقَد يكونُ أحدُهُما أصل.

شيئًا: يجوزُ أنْ يُرادَ بهِ المَصدَرُ؛ أيّ: مَجيئًا نُكْرًا، أو المَفعُولُ بهِ أيّ: جِئْتَ أمرًا مُنْكَرًا. وهل النُّكْرُ أَبْلَغُ مِن الإِمْرِ أو بالعكس؟

فَقِيلَ: الإِمْرُ أبلغُ؛ لأنَّ قَتْلَ أَنْفُسٍ بِسبَبِ الخَرْقِ أعظَمُ مِنْ قَتْلِ نَفْسٍ واحِدَةٍ.

وقيلَ: بل النُّكْرُ أبلغُ؛ لأنَّ مَعهُ القَتْلَ الحَتْمَ، بِخلافِ خَرْقِ السفينةِ؛ فإِنَّهُ يُمكِنُ تَدارُكُهُ؛ ولِذلكَ قالَ: (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ) ولَمْ يأتِ ب (لَكَ) مع (إمْرًا)[1].

لمسات بيانية للسامرائي والنعيمي[2]

– ما الفرقُ بينَ (رَحْمَةً مِنَّا)، وَ(رَحْمَةً مِن عِنْدِنا)؟

(رَحْمَةً مِن عِنْدِنا) أَخَصُّ مِن (رَحْمَةً مِنّا)، ولا يَستعمِلُ القُرآنُ الكريمُ (رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا) إلَّا معَ المُؤمِنينَ فقط؛ فقالَ على لسانِ نُوحٍ: (وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ) (هود: ٢٨) (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) (الكهف: ٦٥) (وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ) (الأنبياء: ٨٤).

أمَّا (رَحْمَةً مِنَّا) فَيستَعمِلُها معَ المُؤمِنينَ والكافِرينَ (وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ. إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) (يس: ٤٢ – ٤٤) (فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ) (الزُّمَر: ٤٩)

[1] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف السمين الحلبي (ج ٧/ ص ٥٢٧).
[2] د. فاضل صالح السامُرائيّ، ود. حسام النعيميّ

عامة (**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**) (فُصِّلَت : ٥٠) حتَّى (نِعْمَةً مِنَّا) عامَّةٌ و(نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا) خاصَّةٌ .

– ما المقصودُ بكلمةِ (غُلامًا) في الآيةِ الكريمةِ (فانْطَلَقا حَتَّى إذا لَقِيا غُلامًا فَقَتَلَهُ) :

كَلِمةُ (غُلامٍ) يُقصَدُ بِها جِنْسُ الذَّكَرِ، وهو الذي يَغْتَلِمُ يعني يَصِلُ إلى سِنٍّ يَشْتَهِي فيها الأُنْثى، ولمْ تُحَدِّدْ لنا الآيةُ كَمْ كانَ سِنُّ هذا الغُلامِ؛ لَكِنْ مَن يُرْهِقُ أبَويهِ "طُغْيانًا وكُفْرًا" ويُخْشَى أنْ يَسْتَمِرَ في هذا لا شَكَّ أنَّهُ كان "بالِغًا أوَ قرِيبًا" مِن سِنِّ البُلوغِ .

– ما الفرقُ بينَ قَولِهِ تعالى لِرَسُولِه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعالَمِينَ**)، وعنِ العَبْدِ الصالِحِ (**آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا**)؟

الرَّجُلُ الصالِحُ آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ رَحْمَةً وعِلْمًا، والرَّسُولُ أكْرَمَهُ اللهُ تعالى بالرَّأفةِ والرَّحْمةِ، و (رَحْمَةً لِلعالَمِينَ)؛ أيّ: كُلُّهُ رأفَةٌ ورَحمَةٌ .

وهُناكَ فارقٌ كبيرٌ بينَ أنْ يُعطَى الإنسانُ شَيئًا، وبينَ أنْ يكونَ الإنسانُ هوَ الشَّيءَ كُلَّهُ .

– لِماذا نَكَّرَ الغُلامَ وعَرَّفَ السَّفينةَ في قولِه تعالى : (**حتى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا**) . (**حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ**)؟

حَسْبما وَرَدَ في التفاسيرِ فإنّ مُوسَى والخَضرَ عليهِما السلامُ لمْ يَجِدا سَفِينَةً لَمَّا جاءا إلى الساحلِ، ثُمَّ جاءتْ سفينةٌ مارَّةٌ فَنادَوْهُما فَعَرَفا الخَضرَ فَحَمَلُوهُما بِلا أجرٍ؛

ولِهذا جاءتِ السفينةُ مُعَرَّفةً؛ لأنَّها لمْ تَكُنْ أيَّةَ سَفينةٍ. أمَّا الغُلامُ فَلَقِياهُ في طَرِيقِهِما وليسَ غُلامًا مُحدَّدًا مُعَرَّفًا.

– ما الفرقُ بينَ (شَيئًا إمْرًا) و(شَيئًا نُكْرًا)؟

وَصَفَ خَرْقَ السفينةِ بأنَّهُ (شَيءٌ إمْرٌ)، وَوَصَفَ قَتْلَ الغُلامِ بأنَّهُ (شَيءٌ نُكْرٌ)؛ وذلكَ أنَّ خَرْقَ السفينةِ ونَزْعَ لوحِ خَشَبٍ مِنها دُونَ قَتْلِ الغُلامِ شَناعَةٌ؛ فإنَّه إنَّما خَرَقَ السفينةُ لِتبْقَى لِمالِكيها وهذا لا يبلغُ مَبْلَغَ قَتْلِ الغُلامِ بِغَيرِ سَببٍ ظاهرٍ. و (الإِمْرُ) دُونَ (النُّكْرِ) فَوضَعَ التعبيرَ في كُلِّ مَوضعٍ بما يُناسِبُ كُلَّ فِعْلٍ.

وعن قَتادةَ: النُّكْرُ أشَدُّ مِن الإِمْرِ؛ فَجاءَ كُلٌّ على ما يُلائِمُ، ولمْ يَكُنْ لِيَحْسُنَ مَجِيءُ أحدِ الوصفَينِ في مَوضِعِ الآخَرِ.

وهذا الاختلافُ يدخلُ في فواصِلِ الآي في القُرآنِ الكريمِ.

– ما دلالةُ عَدمِ وُجودِ الفاءِ في كَلمةِ (خَرَقَها) ووُجُودِها في كَلمةِ (فَقَتَلَهُ)؟

الخَرْقُ لمْ يَعْقِبْ رُكُوبَ السفينةِ مُباشرةً؛ وإنَّما حَصلَ بعدَ أنْ رَكِبا فِيها، والفاءُ للتعقيبِ. أمّا الغُلامُ فَقَتَلَهُ أوَّلَ ما لَقِيَهُ فَجاءَ بِالفاءِ.

– ما اللمْسةُ البيانيَّةُ في استخدامِ: (فأرَدْتُ، فأرَدْنا، فأرادَ رَبُّكَ)؟

المُلاحَظُ في القُرآنِ الكريمِ كُلِّه أنَّ السُّوءَ لا يُنْسَبُ إلى اللهِ تعالى، أمَّا الخَيرُ والنِّعَمُ فَتُنْسَبُ إليهِ كما في قَولِه تعالى: (**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا**).

ولا نجِدُ في القُرآنِ الكريمِ (**زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ**)؛ إنَّما نجِدُ (**زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ**). وكذلكَ في قولِ إبراهيمَ عليهِ السلامُ: (**وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**). ولَمْ يَقُلْ "يُمْرِضْنِي" تأدُّبًا معَ اللهِ تعالى. وكذلكَ الأمرُ في الآيةِ: (**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**)؛ فَقَد نَسَبَ الخَضرُ عَيبَ السفينةِ إلى نَفْسِه فَجاءَ الفِعْلُ مُفْرَدًا.

أمَّا في قولِه: (**فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**) فقَد جاءَ بالضَّميرِ الدَّالِّ على الاشتراكِ؛ لأنَّ فيهِ قَتْلَ الغُلامِ مِن جانبِ الخَضرِ والإبدالَ بِخَيرٍ منهُ مِن جانبِ اللهِ تعالى؛ لِذا جاءَ الفعلُ مُثنّىً.

بَينما في قولِه: (**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**). الجِدارُ كُلُّهُ خَيرٌ، وقَد سَبَقَ في عِلْمِ اللهِ تعالى أنَّ تحتَ هذا الجِدارِ كَنزًا لِلغُلامَينِ، وأنَّهُ لو انْفَضَّ لأَخَذَهُ أهلُ القريةِ منهُما ظُلْمًا. وبما أنَّ هذا الفعلَ ليسَ فيهِ اشتراكٌ فَنَسَبَهُ للهِ سُبحانَه وتعالى وَحْدَهُ؛ فكانَ خَيرًا لِلغُلامَينِ وأبيهِما الصالِح، واللهُ تعالى هو الذي يَسُوقُ الخَيرَ. وجاءَ بِكلمَة (رَبّ) بَدَلَ اسْمِ الجَلالَةِ (الله) لِلدلالةِ على أنَّ "الرَّبَّ" هوَ المُربِّي والمُعلِّمُ والرَّاعِي والرَّازِقُ، والآياتُ كُلُّها في مَعنَى الرِّعايةِ والتعهُّدِ والتربيةِ؛ لِذا ناسبَ بينَ الأمرِ المطلوبِ واسْمِه الكريمِ سُبحانَه وتعالى.

– ما الفَرقُ بينَ القَرْيةِ والمَدينَة؟

القريةُ قد تكونُ صَغيرةً وقَد تكونُ كبيرةً، وإذا اتّسَعْت تُسَمَّى مَدينَةً (**حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا... وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ**) اسْتَطْعَمَ مُوسَى والخَضرُ أهلَ القريةِ على سَعَتِها؛ أيّ: أنَّهُما جالا فِيها كُلِّها، وبَلَغَ بِهِم الجُوعُ كثيراً حتَّى اسْتطْعَما أهْلَها.

– لِماذا لَمْ يَحْذِفِ التاءَ في قولِه تعالى: (**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**). وحَذَفَها في قولِه: (**ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**)؟

كان ذلكَ لأنَّ المَقامَ في الآيةِ الأُولى مقامُ شَرْحٍ وإيضاحٍ وتِبْيانٍ فَلَمْ يَحْذِفِ التاءَ مِن الفِعلِ، أمَّا في الآيةِ الثانيةِ فهِيَ مَقامُ مُفارَقةٍ، فلمْ يتكلَّم الخَضرُ بَعدَها؛ بل فارقَ مُوسَى عليهِ السلامُ.

– لِماذا قال (سَأُنَبِّئُكَ) بالتشديدِ، ولمْ يَقُلْ (سَأنْبِئُكَ) بالتخفيفِ؟

فَعَلَ وفَعَّلَ. عَلَّمَ وأعْلَمَ، نَبّأ وأنْبأ. وفِي قولِه: (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا). هذا ليسَ "إنباءً" وإنَّما تِبيانٌ مِن (نبّأ)؛ لِما يَليهِ مِن كلامٍ كثيرٍ: (أمَّا السَّفِينَةُ... أمَّا الغُلامُ... أمّا الجِدارُ) فَهِيَ ليسَتْ مُختصَرَةً، وجاءتْ بِالتشديدِ؛ لأنَّ فيها تَوضيحًا، ولمْ يَقُلْ "أُنْبِئُكَ"؛ لأنَّ الإنباءَ لِلشيءِ المُوجَزِ المُخْتَصَرِ.

وجاءتْ في ستَّةٍ وأربعينَ مَوضِعًا في القُرآنِ الكريمِ كما في الآيةِ ٢٦ مِن سُورةِ يُوسُف: (**نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**)؛ لأنَّهُم يُريدُونَ شَرْحًا مُفَصَّلاً لِلرُّؤيا. وحَيثما جاءتْ لا تُقْرَأُ بِالتخفيفِ ما دامَ فيها تَلبُّثٌ وزَمَنٌ.

أمَّا (أنبأ) فلمْ تَرِدْ إلَّا في أربعةِ مَواضِعَ. وكان باسْتِطاعَتِه أنْ يقولَ "هَذا فِراقُ بَينِي وبَينِكَ" ويذهبُ وتنتهي القِصَّةُ؛ لَكنَّهُ أرادَ أنْ يُبيِّنَ لِمُوسَى عليهِ السلامُ تأويلَ تلكَ التصرُّفاتِ التي لمْ يَسْكُتْ عنْها وهِيَ أمورٌ غيبيَّةٌ لا يَعلَمُها.

وكلمةُ تأويلٍ لها مَعنَيانِ:

الأوَّلُ: هو "البيانُ والتفسيرُ". والثاني: هو مَعرِفةُ حقيقةِ الأُمورِ. والمُرادُ هُنا بيانُ الحقيقةِ.

– لِماذا قال (خَشِينا) ولمْ يَقُلْ "خَشِيتُ"؟

في الآيةِ الكريمةِ (**قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا**) أيّ: شَيءٌ عَظِيمٌ. ومِن النظرِ في هَذهِ العَظَمةِ فإنَّنا نَميلُ إلى أنَّ الخَضرَ لَّما أرادَ أنْ يُنْبِئَ مُوسَى بِتأويلِها عَظَّمَ نَفْسَهُ فقالَ (خَشِيْنا)؛ لأنَّها مَسألةٌ عظيمةٌ.

– ما اللمسةُ البيانيَّةُ في كَلمَةِ (خَشِيْنا)؟

فَخَشِينا أنْ يُرْهِقَهُما: فِيها وَجْهانِ؛

الوجْهُ الأوَّلُ: هو اشتراكُ الخَضرِ مع الأبَوينِ في الخَشيةِ والإرادةِ.

والوجْهُ الثاني: هو إدخالُ مُوسَى عليهِ السلامُ معهُ باعتبارِه تابِعًا لهُ.

– وَرَدَ في الحديثِ أنَّ اسمَ الرَّجُلِ الصالحِ هو الخِضْرُ: بِكَسْرِ الخاءِ وسُكُونِ الضَّادِ وهذا هو الأفْصَحُ.

– كلمةُ (فَتاهُ) لمسةٌ قُرآنيةٌ استعملَها في الوقتِ الذي كانتْ فيه عُبوديَّةُ الإنسانِ وتَبَعيَّتُهُ لِغَيرِهِ. والرَّسُولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نَهَى أنْ يقولَ المرءُ "عَبْدِي أوْ أمَتي"؛ وإنَّما يقولُ: "فَتايَ وفَتاتِي" كأنَّه ابنٌ حتَّى يَشْعُرَ بِقِيمَتِه الإنسانيةِ.

والقُرآنُ الكريمُ إنَّما ذَكَرَ هذا لِيُؤدِّبَ المُسلمينَ ويُبيِّنَ لَهُم كيفيَّةَ التعامُلِ مع الناسِ.

– لا أبْرَحُ حَتَّى: هَذهِ كلمةٌ تُقالُ لِبَيانِ الإِصرارِ على الشَّيءِ؛

أيّ: سأبْذُلُ جُهْدِي وسأستَمِرُّ إلى أنْ أفْعَلَ هذا الأمْرَ.

– مَجْمَعَ البَحْرَينِ: هو مكانٌ يجتمعُ فيهِ بَحْرانِ، مع مُراعاةِ أنَّ العَرَبَ تُسمِّي النهرَ الكبيرَ بَحْرًا؛ فالنِّيلُ في لِسانِ العَرَبِ "بَحْرٌ"، والفُراتُ "بَحْرٌ"، ودِجْلَةُ "بَحْرٌ"؛

لكنْ عِندَما يأتي إلى الأنهارِ الصغيرةِ يقولُ نَهْرٌ، وقَد يُسَمِّيهِ "اليَمَّ"، وقَد يُطلَقُ اليَمُّ على البحرِ أو على النهرِ الكبيرِ.

هُناكَ إذنْ نقطةُ التقاءٍ أو نُقطةُ افتراقٍ؛ لأنَّه المكانُ الذي يَجتمِعُ فيه فَرعانِ. ومُوسَى عليهِ السلامُ عاشَ في مِصْرَ وفِلسطِينَ وسَيناءَ. وليسَ هُناكَ دليلٌ قطعيٌّ على تعيينِ المكانِ، ولا فائدةَ مِن ذلكَ.

– الحُقُبُ: جمعُ حِقْبَةٍ، وهِيَ مُدَّةٌ مِن الوقْتِ. قِيلَ: سَنَةٌ وقِيلَ ليسَ لها وَقْتٌ مُحدَّدٌ؛ كأنَّهُ يقولُ سَأُمْضِي (وَقْتًا أو دَهْرًا؛ أو زَمَنًا)؛ وإنَّما قالَ ذلكَ لِيُعلِمَ الفتى بِما يَنتَظِرُهُ مِنْ مَشَقَّةٍ، وفيه نَوعٌ مِن التخييرِ وهُو: إن شِئْتَ تَمْضِيَ مَعِي وإنْ شِئْتَ فَلا.

– لِماذا قالَ (بَينِهِما) ولمْ يَقُلْ "بَينَهُما"؟

كلمةُ (بَينْ) بِكَسْرِ النونِ تُشيرُ إلى المساحةِ التي اجتمعَ فيها البَحْرانِ؛ لَكِنَّ هَذهِ المساحةَ تابعةٌ لِلبَحرَينِ كِليهِما لاخْتِلاطِ مِياهِهِما؛ فهُو بَينٌ لِهذا وبَينٌ لِذاكَ؛ فَجَمَعَهُ بكلمةِ (بَيْنِهِما). وأصلُ كلمةِ "البَينْ" هُو البِعادُ والمُفارَقةُ، ومِنهُ قولُ الشاعرِ في مَدْحِ الرَّسُولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "بانَتْ سُعادُ فَقَلْبِي اليَومَ مَتْبُولُ"

ومَعنَى (البَينْ) هو الفاصلُ وقَد جَعلَهُ لِلبَحْرَينِ مَعًا؛ لأنَّ لِكُلِّ واحدٍ مِنهُما جُزْءًا مِنهُ؛ ففي (مَجْمَعِ بَينِهِما) جَعَلَ البَينْ واحِدًا، وفِي هذا فِراقُ (بَينِي وبَينِكَ) جَعَلَهُ بَيْنَينِ. وليسَ مِن السَّهْلِ أنْ تَفْصِلَ بينَ هذا عنْ بينِ ذاكَ؛ ولِهذا فإنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ في القُرآنِ الكريمِ هيَ في مَوضِعِها المُناسبِ لها.

– لِماذا قالَ (نَسِيا): النِّسْيانُ هُنا شِقَّانِ، نَسِيَ مُوسَى عليهِ السلامُ وَنَسِيَ الفتَى؛ لَكِنَّ نِسيانَ مُوسَى عليهِ السلامُ غَيرُ نسيانِ الفتَى؛ إذ كانَ مِن المُفْتَرَضِ أنْ يَسألَ مُوسَى عن الحُوتِ هل بَقِيَ أمْ فُقِدَ؛ لأنَّ فقْدانَه علامةُ لُقياهُ بالعبدِ الصالِحِ فَنِسْيانهُ ليسَ بِمعْنَى حَدَثِ شَيءٍ ولمْ يَتَذَكَّرْهُ؛ وإنَّما غَفُلَ عَن ذِكْرِه أوْ أهْمَلَهُ.

أمَّا الفتَى فقَد رأى عَجَبًا بينَما كان مُوسَى نائِمًا، رأى الحُوتَ يَقْفِزُ مِن المِكْتَلِ وهُو مَشْويٌّ ومأكُولٌ مِنهُ، ويمْضِي في الماءِ مُسْرِعًا وصارَ الماءُ كالنَّفَقِ؛ فكانَ ينبغي عليهِ أنْ يُخْبِرَ مُوسَى عِندَ اسْتِيقاظِه؛ لأنَّهُ أمرٌ عظيمٌ؛ لَكنَّهُ نَسِيَ وغابَ عَنهُ؛ فِكلاهُما نَسِيَ وَكُلٌّ نَسِيَ بِما يُناسِبُهُ مِن النِّسيانِ.

– ما المقصودُ ب (**آتِناغَداءنا**): الغَداةُ في اللغةِ هو "ما بينَ الفَجْرِ وشُروقِ الشَّمْسِ"، وهو غَيرُ ما نَسْتَعْمِلُهُ اليومَ أيّ وَقْتَ الظهيرةِ.

والغَداءُ هُو أوَّلُ وَجْبَةِ طعامٍ كان يَتناولُها العَربُ بينَ الفَجْرِ وشُروقِ الشَّمْسِ، ومَعنَى ذلكَ أنَّهُما ناما بَعْضًا مِن الليلِ، ثُمَّ خَرَجا قُبَيلَ الفَجْرِ إلى أنْ أُنهَكَما التعبُ فقالَ (آتِنا غَداءنا)، هُنا تَذَكَّرَ الفتَى. انْظُرْ إلى أدبِ النبوَّةِ، مع أنَّهُ مُتعَبٌ لمْ يَفْقِدْ أسلوبَ الرِّقَّةِ والمُجامَلَةِ مع فَتاهُ فقالَ (آتِنا) ولمْ يَقُلْ "أعْطِنا"؛ ففِي كلمةِ (آتِنا) نوعٌ مِن الرِّقَّةِ واللِّينِ.

– ما صِفةُ اللامِ في قولِ مُوسَى (**لَقَدْلَقِينامِنْسَفَرِناهَذانَصَبًا**). هذا تأكيدٌ على ظُهورِ التَّعَبِ الشديدِ عليهِ لِوُجودِ لامِ التأكيدِ.

و(قَد) للتحقيقِ؛ كأنَّهُ قَسَمٌ مَحذُوفٌ تقديرُه: "واللهِ لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هَذا نَصَبًا". والنَّصَبُ هُو أشدُّ حالاتِ التَّعَبِ.

– ما معنىَ كلمةِ (أرأيْتَ)؟

كلمةُ (أرأيتَ) صِيغَتُها صِيغةُ سُؤالٍ وحقيقتُها تَعجُّبٌ؛ بِمَعنَى "أعْجَبُ مِن أمْري"؛ لأنَّهُ سَيَذْكُرُ لهُ أمْرًا عَجَبًا.

– كيفَ نَسِيَ الحَوتَ وأمْرُهُ كانَ عَجَبًا؟

هذا نِسيانٌ حقيقيٌّ؛ فهُو لمْ يَنْسَ الحُوتَ؛ وإنَّما نَسِيَ أنْ يُخْبِرَ مُوسَى عليهِ السلامُ بأمْرِه. فهَلْ كان الفتَى يَعلَمُ أنَّ العلامةَ هِيَ ذهابُ الحوتِ؟

لا بُدَّ أنْ يكونَ مُوسَى عليهِ السلامُ قد أعلَمَ فَتاهُ بِذلِكَ بدليلِ قَولِه: (**أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**). ونَسَبَ النِّسْيانَ لِنَفْسِه تأدُّبًا؛ لأنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ قَد نَسِيَهُ أيضًا.

– (وَما أنْسانِيهُ): جُمهورُ القُرَّاءِ قالُوا (أنْسانيه).

والمُصحَفُ الذي بينَ أيدِينا بِروايةِ حَفْصٍ، وحَفْصٌ قرأَ (أنْسانِيهُ). الضَّمَّةُ قَطعًا أثقلُ الحَركاتِ؛ ولَّما كانَ الأمرُ ثقيلاً: سَمَكَةً مَشْوِيَّةً مأكُولٌ منها تَدخُلُ في البَحْرِ بهذهِ الصُّورةِ ويُنْسَى ذِكْرُها !؛ لِذلِكَ جاءتِ الضَّمَّةُ على (أنْسانِيهُ) فناسبَ ثِقلُ الضَّمَّةِ ثِقَلَ الواقِعَةِ. وجاءَ بأنْدَرِ حالاتِ التعبيرِ لأنْدَرِ حالاتِ النِّسيانِ. و(إنسانيه) مبنيٌّ على الضَّمِّ، وكُسِرَ لِلمُجانَسةِ، وهُوَ في محلِّ نَصبِ مَفعولٍ بِهِ.

– لماذا حُذِفَتِ الياءُ في قولِه: (ذَلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ)؟

(نَبْغِ) يُفْتَرَضُ أنْ يكونَ فيها ياءٌ، بَغَى يَبْغِي. حُذِفَتِ الياءُ هُنا في الخطِّ مع أنَّ كُتّابِ المُصحَفِ أثبَتُوها في مَواضِعَ أُخْرى: (سَتَجِدُنِي، ولا أعْصِي) فاخْتصَرَها ولمْ يُشْبِعْها، وهَكذا قَرأها الرَّسُولُ مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. وهُنا كانَ مُوسَى عليهِ السلامُ مُسْتَعْجِلاً إلى لقاءِ الرَّجُلِ فاختَصرَ وأسْرعَ في الكلامِ، (نَبْغِ، فارْتَدَّا)؛ فَناسَبَها سُرْعَةُ نُطْقِ الكلمةِ بِعدَمِ إشباعِ الياءِ؛ لأنَّ مَعناها واضِحٌ وهُو نوعٌ مِن الاختصارِ.

– ما الفَرقُ بينَ كلمَتَي (عِباد) و"عَبِيد"؟

كلمةُ (عَبْد) في اللغةِ تَعني إنْسانًا؛ سواءٌ كان مَمْلُوكًا أو حُرًّا. لمْ يَقُلْ بَشَرًا أو إنْسانًا؛ وذلكَ لِيَرْبِطَهُ بالعُبوديَّةِ للهِ تعالى وهِيَ أسْمَى المَراتبِ لِلبَشرِ كما قالَ تعالى في سُورةِ الإسراءِ: (**سُبْحانَ الَّذِي أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا**)؛ ففِي أروعِ المَواطِن سَمَّاهُ (عَبْدًا). وجَمْعُ عَبْدٍ: عَبيدٌ وعِبادٌ. وكانَ مِن المُمكنِ أنْ يقولَ "عَبيدِنا"؛ لكنْ جَرَى استعمالُ الناسِ كلمةَ "عَبيدٍ" لِلمَمْلُوكِينَ، وكلمةَ (عِبادٍ) لِعِبادِ اللهِ. واللهُ سُبْحانَهُ وتعالى يريدُ أنْ يُكْرِمَ هذا الإنسانَ فاستخدمَ لهُ كلمةَ (عِبادِنا)، وهذا يَدلُّنا على اهتمامِ القُرآنِ الكريمِ لِما يَسْتَعْمِلُهُ الناسُ.

وألِفُ كلمةِ (عِباد) فِيها عِزَّةٌ وشُموخٌ وسُمُوٌّ، وياءُ كلمةِ "عَبيد" فيها انكسارٌ وخُضوعٌ وهُبوطٌ. وكانَ العَربُ يُدرِكُونَ هذا؛ لأنَّها لُغَتُهُم؛ لِذا وَقَفُوا عاجِزينَ أمامَ القُرآنِ الكريمِ. و(عَبْدًا) مِن عِبادِنا إكْرامًا لَهُ أنَّه مِن عِبادِ اللهِ تعالى.

– ما الفَرقُ بينَ (مِن عِنْدِنا) و(مِنْ لَدُنَّا)؟

في قولِه تعالى: (**آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**).

الإيتاءُ غَيرُ الإعطاءِ بالرَّغْمِ مِن تقارُبِهِما في المَعنَى، وفِيها تَرفُّقٌ وتَلَطُّفٌ وَلِينٌ.

وكذلكَ (عِنْدَ) و(لَدُن) فَهُما مُتقارِبانِ في المعنَى؛ لكنْ بَينَهُما فَرقٌ لُغويٌّ دَقيقٌ؛ ف(لَدُن) أقربُ مَكانًا مِن (عِندَ) وتُستعمَلُ عِندَ للشيءِ البعيدِ فيُقالُ: عِنْدِي مالٌ؛ لَكنَّهُ يَسْرَحُ في البرِّيَّةِ، وتقولُ: عِنْدِي إبلٌ؛ لَكِنْ لا تقولُ: لَدُنِّي إبلٌ؛

فالفَرقُ بينَ (عِنْدَ) و(لَدُن) هوَ مسافةُ القُربِ مِن المُتكلِّمِ؛ وبِما أنَّ اللهَ سُبْحانَه وتَعالى مُنَزّهٌ عن المكانِ فالمسالةُ هي مسألةُ قُرْبٍ مَعنَويٍّ؛ فَقُرْبُ (عِنْدَ) غيرُ قُرْبِ (لَدُن)؛ لِذلكَ قالَ مُوسَى: (قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)؛ أيّ: مِن أعماقِي، ولَمْ يَقُلْ "مِن عِنْدِي"؛ لأنَّ (لَدُن) أقْرَبُ.

و (رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا): الرَّحمَةُ واسِعةٌ وشامِلَةٌ فاستعملَ لها (عِنْدَ). أمَّا (مِن لَدُنَّا عِلْمًا)؛ فالغَيبُ خاصٌّ باللهِ عزَّ وجلَّ ومِن لَدُنْهُ. وفِي غَيرِ القُرآنِ الكريمِ يُمكِنُ أنْ نقولَ "مِن عِنْدِنا عِلْمًا"؛ لكنَّ كلماتِ القُرآنِ الكريمِ لها نسيجٌ خاصٌّ. فلَو عَكَسَ ذلكَ لا يستقيمُ المَعنَى؛ لأنَّ الرحمةَ ليستْ خاصَّةً بالخِضْرِ؛ وإنَّما هِيَ عامَّةٌ، ومُوسَى عليهِ السلامُ يدخلُ فيها مع غَيرِهِ مِن البَشرِ. أمَّا عِلْمُ الغَيبِ فَخاصٌّ بالخِضْرِ أوحاهُ اللهُ سُبحانَه وتعالى إليهِ، وعَلَّمَهُ إيَّاهُ ولمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ.

– ما "العِلْمُ اللدُنّيُّ" المُشارُ إليهِ في الآيةِ الكريمةِ: (**فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**)؟

العِلْمُ اللدُنّيُّ هو عِلْمٌ مُباشرٌ مِن اللهِ تعالى وليسَ مِن الكَسْبِ الشخصيِّ. وهذا المُصطلَحُ يَستعملُهُ البعضُ ويُشيرونَ بذلكَ إلى أنَّ الرَّجُلَ قَد بَلَغَ مِن مَراتبَ التَّقرُّبِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى والانْصِرافِ إليهِ أنْ أطْلعَهُ على عِلْمٍ لمْ يُطلِعْ عَليهِ غَيرَهُ.

والشيطانُ في كثيرٍ من الأحيانِ يُوسْوِسُ إلى الإنسانِ بأشياءَ بحيثُ يظنُّ أنَّهُ وَصَلَ إلى "العِلْمِ اللدُنِّيِّ أو العِلْمِ الذي لمْ يُعْطَ إلى الآخَرينَ حتَّى إلى الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ.

– هل رافقَ الفتَى مُوسَى في رِحلتِه مع العبدِ الصالحِ؟

لم يَذْكُرِ القُرآنُ الكريمُ أنَّ الفتَى رافقَ مُوسَى والخِضر عليهِما السلامُ؛ لأنَّ الكلامَ صارَ بِصيغَةِ المُثنَّى: (انْطَلَقا، رَكِبا، وَجَدا، أتَيا). ولمْ يَقُلْ "انْطَلَقُوا، رَكِبُوا، وَجَدُوا..." وهذا معناهُ: أنَّ الفتَى وَقفَ عِندَ هذا الحَدِّ ولمْ يُرافِقْهُ.

– ما اللَّمَساتُ البيانيةُ في الآيةِ الكريمةِ: (**قالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)؟

عِندَما قالَ لهُ ذلكَ كان يَعْلَمُ أنَّ لهُ مَوعِداً مع العَبْدِ الصَّالِح، وأنَّهُ سَيَتعلَّمُ مِنهُ، ولمْ يَقُلْ لهُ بالرَّغْمِ مِن أنِّي عَلَى عِلْمٍ إلَّا إنَّنِي سأُرافِقكَ، وهذا مِن أدَبِ التَّعَلُّمِ. وسُؤالهُ هل أتَّبِعُكَ؟ هُو سُؤالُ المُؤدَّبِ؛ حيثُ جَعَلَ مِن نَفْسِه تابِعًا وخادِمًا حتَّى يَتَعلَّمَ. وهَذا الأسلوبُ هوَ الذي سارَ عليهِ سَلفُنا الصَّالِحُ.

فينبغي أن يكونَ لدَينا أدبُ التلمَذةِ وأدبُ التعلُّمِ.

(**عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ**): هذا الذي أُريدهُ واشْتَرِطُه لِنفْسِي.

إذنْ: مُوسَى عليهِ السلامُ يَعلَمُ أنَّ هذا الرَّجُلَ قَد عُلِّمَ شَيئًا لمْ يَعْلَمْهُ مُوسَى فأراد أن يتعلَّمَ مِنهُ.

(رُشْدًا): أيّ ما يُؤدِّي بِي إلى الرشادِ، وقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ للاهتمامِ بهِ، ولِلعنايةِ بهذا الذي عُلِّمَهُ؛ لأنَّهُ حريصٌ على العلمِ، ويَعلَم أنَّه سَيكونُ رُشْدًا.

هُنا كلمةُ (تُعَلِّمَنِ) قراءةً وهُناك قِراءاتٌ أُخْرى تُعَلِّمَني بالإشباعِ. ولنا أنْ نسألَ أيضًا لمَ اختلَسَ وقال (تُعَلِّمَنِ)؟ ليسَ هُنا مَوضِعَ سُرعةٍ؛ ولكنْ حتَّى يُعطِي صُورةَ تضاؤلِ التلميذِ أمامَ مُعلِّمِه. قابلَ هذا الأدبَ أدبٌ مِن المُعلِّمِ في قَوله تعالى: (مَعِيَ صَبْرًا). لمْ يَقُلْ "مَعِي" بالمَدِّ؛ لأنَّه وَجَدَهُ مُهذَّبًا مُؤدَّبًا يُصَغِّرُ مِن نَفْسِه فتَواضَع مَعهُ أيضًا؛ فضَميرُ المُتكلِّمِ هُنا جاءَ مُقتضَبًا؛ لأنَّ "مَعِي" فيها مَدٌّ بالياءِ، أمّا (مَعِيَ) الياءُ ليستْ مَدِّيَّة؛ وإنَّما قِيمَتُها قيمةُ حَرفٍ صامتٍ؛ فهُو إذنْ ناسبَ بينَ (تُعَلِّمَنِ) و(مَعِيَ).

– كيف عَلِمَ الخِضرُ أنَّ مُوسَى لنْ يَسْتطِيعَ مَعَهُ صَبْرًا؟

مُوسَى عليهِ السلامُ نبيٌّ وصاحِبُ شريعةٍ ويَحكُمُ على ظاهِرِ الأمورِ، أمَّا الخِضرُ فقَد أُعطِيَ في هَذهِ الجُزْئيَّاتِ عِلْمَ الغَيبِ. ولا يُمكِنُ لِمُوسَى أنْ يَصْبِرَ على شَيءٍ مُخالِفٍ لِشَرِيعَتِه فيما يَراهُ ظاهِرًا؛ ولِذلكَ كان الخِضرُ مُطمَئِنًّا إلى أنَّ مُوسَى لنْ يَصْبِرَ، لا سِيَّما أنَّ طَبيعَتَهُ عليهِ السلامُ فيها شَيءٌ مِن الانفعالِ والشِّدَّةِ نَجِدُها في قولِه: (**إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي**). فَسَدَّ على نَفْسِه المَنافذَ.

ثُمَّ إنَّهُ بيّنَ لهُ: (**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**)؟ شَيءٌ لا تَعْلَمُهُ ولا تَعْلَمُ بَواطِنَهُ كيفَ تَسْكُتُ عليهِ؟ قالَ: (**سَتَجِدُنِي**)... ذَكَرَ الياءَ كامِلَةً؛ لأنَّهُ مَوطِنُ مُعاهَدةٍ وينبغي أن يُظهِرَ بِشَخْصِيَّتِه الكامِلَةِ.

(**إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا**): عَلّقَ الأمرَ على المَشيئةِ.

(**وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**). ومَجالُ عهدِ أنِّي سأكُونُ تابِعًا لَكَ.

وهُنا نُلاحِظُ أنَّ تَوظِيفَ الأصواتِ مِن (إطنابٍ وإيجازٍ وإطالةٍ واختِلاسٍ ومَدٍّ) لها دَخْلٌ بإيحاءِ المَعنَى؛ لِذلِكَ فإنَّ المُدودَ التي في الآياتِ لها نوعٌ مِن الظِّلالِ على مَعنَى اللفظِ وإيحائِه. أمَّا في قَولِه: (**فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**). اشْتَرطَ عليهِ شَرْطًا فقالَ: "إنْ أرَدْتَ أنْ تَتَّبِعَنِي فلا تَسْأَلْنِي" فلمْ يَخْتَصِرْ؛ لأنَّهُ في حالةِ مُعاهَدةٍ، وفي المُعاهَدةِ كُلُّ شَخْصٍ لهُ كِيانُهُ.

– لِماذا كان مُوسَى الوحيدَ الذي اعترَضَ على خَرْقِ السَّفِينَةِ؟

بالتأكيدِ كان الخِضرُ وَحْدَهُ؛ بحيثُ لمْ يَرَهُ أحَدٌ، ولو أرادَ أنْ يَخْرِقَ السفينةَ على مَرأىً مِن رُكَّابِها لأَخَذُوا على يَدَيهِ. وربَّما نَزَلَ وَحْدَهُ إلى الأسْفلِ وخَرَقَها فلَمْ يَرَهُ إلَّا مَوسَى؛ فالسفينةُ ما زالتْ قريبةً مِن شاطئِ النهرِ، وفي الحديثِ: أنَّهُ جاءَ عُصفورٌ فَوقفَ على حافَّتِها أو حَرْفِها فَنَقَرَ نَقْرَةً مِن الماءِ... وماءُ النهرِ حُلْوٌ؛ لأنَّ العُصفورَ لا يُمْكِنُ أنْ يَنْقرَ مِن ماءِ البَحرِ المالِحِ.

– ما دلالةُ كلمةِ (لَكَ) في قَولِه تعالى: (**أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)؟

الزِّيادةُ هَذهُ لِلأهمِّيَّةِ، قال في المَرَّةِ الأُولى: (**أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**). وهذا القولُ عامًّا وليسَ مُوجَّهًا لِمُوسَى عليهِ السلامُ وفيهِ تَلَطُّفٌ. وفِي الثانيةِ قالَ: (**أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**)؛ فَقَد وَجَّهَ إليهِ القَولَ مُباشَرةً وفِيهِ شِدَّةٌ. وفي الثالثةِ قالَ: (**هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ**)؛ فَصارَ الترتيبُ طَبِيعيًّا.

– لِماذا عَرَّفَ "الجِدارَ" و"المَدِينةَ"، ونَكَّرَ "الغُلامَينِ"؟

(**وأمَّاالجِدارُ**): أيّ الجِدارُ الذي ذَكَرْتهُ مِن قَبْلُ، وتُسمَّى هَذهِ "ألَ العَهْدِيَّة"؛ لأنَّ العَهْدَ إمَّا أنْ يكونَ "ذِهْنِيًّا"؛ أيّ (حاضِرًا في الذِّهْنِ)، أو يَكُونَ "ذِكْرِيًّا"؛ أيّ: (أنْ يُذْكَرَ الشَّيءُ مِنْ قَبْلُ).

(**فِيالمَدِينَةِ**): إمَّا أنْ يُرادَ بها القَريةُ التي دَخَلاها؛ حيثُ نَكَّرَها أوَّلاً ثُمَّ عَرَّفَها لِيُشِيرَ إلى أنَّها كانتْ قريةً كبيرةً فقالَ "مَدِينة"، ثُمَّ أن فيها تنويعٌ. وإمّا أنْ تكونَ الألفُ واللامُ لِلعَهْدِ الذِّهنيِّ؛ أيّ: المَدِينةَ التي مَرَرْنا بِها مِن قَبْلُ؛ كأنَّما في ذِهْنِهما مَدِينةٌ مُعيَّنَةٌ مَرّا بِها مِنْ قَبْلُ.

(**لِغُلامَينِيَتِيمَينِ**): مُثنَّى "غُلام" وهي نَكِرَةٌ، ثُمَّ ذَكَرَ أنَّهُما يَتِيمان، هذا المِقدارُ يكفِي. أمَّا أنَّهُ لو قالَ لِلغُلامَينِ سيُقالُ لهُ: أيُّ غُلامَينِ؟؛ فمُوسَى والخِضرُ عليهِما السلامُ جاءا إلى قَريةٍ، وهذا الجِدارُ يُريدُ أنْ يَنْقَضَّ، واللّهُ سُبْحانَه وتعالى يَعْلَمُ أنَّهُ لِطِفْلَينِ ماتَ أبُوهُما ولمْ يَتَحَدَّثْ عنهُما سابِقًا، ولو ذَكَرَهُما سابِقًا لَعادَ لِلتَّعريفِ ب–"ألَ العَهدِيَّة"؛ كأنْ يُقالُ لكَ: سألَ عَنْكَ رَجُلٌ. فتقول: لَقِيتُ الرَّجُلَ؛ أيّ: الذي سألَ عَنِّي. بَدأ بِنَكرةٍ ثمَّ عُرِّفَ.

– لِماذا قالَ: (**فَأَرَادَرَبُّكَ**) ولمْ يقُلْ "فَأرَدْتُ" أو "فَأرَدْنا"؟

في قولِه: (**فَأَرَادَرَبُّكَأَنْيَبْلُغَاأَشُدَّهُمَاوَيَسْتَخْرِجَاكَنْزَهُمَارَحْمَةًمِنْرَبِّكَ**). نَسَبَ الإرادةَ إلى اللّهِ تعالَى؛ لأنَّ بُلُوغَ الغُلامَينِ أشُدَّهُما واسْتِخراجَ كَنْزِهِما لا يَمْلكُهُ إلَّا اللّهُ تعالى، ولا دَخْلَ لِلخِضرِ فيهِ حتَّى لو عَظَّمَ نَفْسَه. و(يَسْتَخْرِجا) مَعطوفةٌ على (يَبْلُغا).

(**رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ**): مَفْعُولٌ لأجْلِه؛ أيّ: فُعِلَ هذا كُلَّهُ رَحْمَةً مِن اللهِ سُبْحانَه وتعالى بِاليتيمَين. ويُمكِنُ أن تكونَ عامَّةً على المحَاورِ الثلاث: العِنايةِ بِالمَساكِين، والعِنايةُ بالأبَوين، والعِنايةُ بالغُلامَين اليتيمَين كُلُّها مِن عِنايةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ورَحمَتِه.

ثُمَّ وَضَّحَ: (**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**)؛ أيّ: هذا ما أمَرَني بِهِ اللهُ تعالَى فَفَعَلْتهُ؛ ولأنَّ هذا غَيبٌ فلا يَجوزُ لأحَدٍ أنْ يقولَ: يبدُو أنَّ هذا الغُلامَ شِرِّيرٌ سَأقْتُلُه تأسِّيًا بالخِضرِ وأدعُو اللهَ أنْ يَهبَ والِدَيه خَيرًا مِنهُ، لا.

– ماذا يَعني التأويلُ في قَولِه: (**ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا**)؟

التأويلُ هُنا بمَعنَى بيانِ الحقيقةِ التي غابتْ عنْ مُوسَى عليهِ السلامُ وعَمَّنْ حَولَهُ؛ ولأنَّه يُريدُ أنْ يُفارِقَه لمْ يَقُلْ هذا تأويلُ الكلامِ الذي تَكَلَّمْتُهُ؛ بلْ قالَ: ذلكَ. وجاءَ كَذلِكَ بِالفِعلِ المُختصَر (تَسْطِعْ).

– هل الغَيبُ كان فقط في قَتْلِ الغُلامِ ولمْ يَكُنْ في "خَرْقِ السَّفِينَةِ" أو "إقامةِ الجِدار"؟

كُلُّ ما غابَ عَنَّا فَهُو غَيبٌ. والأحداثُ التي جَرَتْ كانتْ مِن عِلْمِ الغَيبِ لَمْ يَكُنْ يعلمُها مُوسَى عليهِ السلامُ ولا مِن حَولِه، وعَلِمَها العَبدُ الصالحُ بِعِلْمٍ مِنَ اللهِ سُبْحانَه وتَعالى؛ فالمَساكِينُ ورُكَّابُ السفينةِ لم يَكُونُوا يَعلَمُونَ، والغُلامُ وأبواهُ لمْ يَكُونُوا يَعلمُونَ، والكَنْزُ والغُلامانِ اليتِيمانِ وأهلُ القريةِ لمْ يَكُونُوا يَعلَمُونَ. كُلُّ ذَلِكَ كان غَيبًا.

– هل يَجُوزُ أنْ نقولَ سَيِّدنا الخِضر؟

قال بَعضُهم: إنَّ مسألةَ السِّيادةِ هَذهِ لا تصحُّ أنْ تُقالَ حتَّى مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ؛ لَكِنَّ حُبَّ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يَجْعَلُنا نَقُولُها دائِمًا؛ ولأنَّه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ استَعمَلَها مع سَعدِ بنِ مُعاذٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ لَّما جُرِحَ في غَزوةِ الخَندَقِ وجِيءَ بِه مَحمُولاً لِيقضِي في بَني قُريظَةَ فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "قُومُوا لِسَيِّدِكُمْ" أيّ: لِسَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ.

ويُقالُ سَيِّد الأوْسِ، وسَيِّد الخَزْرَج، وسَيِّدُ الشُّهداءِ حَمْزَةُ، وسَيِّدُ المُهاجِرينَ والأنصارِ. ونحنُ نقولُ: إذا لمْ يَكُنْ هُناكَ مانعٌ شَرعيٌّ فلا مانِعَ مِن إظهارِ هَذهِ المَودَّةِ وهذا الحُبّ؛ فنَقول "سَيِّدنا رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قُرَّةُ العَينِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ".

– هل كان "خَرْقُ السَّفِينَةِ" و"قَتْلُ الغُلامِ" و"إقامةُ الجِدارِ في العالِمِ المَنظُورِ"؟

لا شَكَّ أنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كان في العالمِ المَنظُورِ، ومِن أجْلِ هذا كانَ اعتِراضُ مُوسَى عليهِ السلامُ في المرَّةِ الأُولى والثانيةِ، أمَّا في الثالِثَةِ فكانَ اعتِراضُه نَوعًا مِن التعليمِ أو الإفهامِ بأنْ عَلِمَهُ مُنحصِرٌ في مسائلِ الشريعةِ وفي نظامِ حَياةِ الناسِ. وأنَّ هناكَ أشياءَ غائِبةً عنهُ؛ لَكِنَّها – قَطعًا – في حياةِ الناسِ وليسَ في عِلْمِ الغَيبِ. حتَّى الجِدار لو رأوهُ لنْ يَعتَرِضَ عليهِ أحدٌ؛ لأنَّهُ عَملُ خَير، أمَّا مُوسَى عليهِ السلامُ فاعترضَ عليهِ لأنَّهُ جائعٌ.

الفرق بين المدينة والقرية - نظرة حضارية واجتماعية[1]

مِن المُلاحَظِ دِقَّةُ التعبيرِ القُرآنيُّ في التمييزِ بين كَلِمَتَي (مَدِينَة) و(قَرْيَة) كَما وَرَدَ في قِصَّةِ "مُوسَى والخِضرِ" عَليهِما السلامُ (**فانْطَلَقا حَتَّى إذا أتَيا أهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أهْلَها فأبَوا أنْ يُضَيِّفُوهُما**) وفِي آيةٍ لاحِقَةٍ (**وأمَّا الجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ**) فمَا الفَرْقُ بينَ الكَلمَتَينِ، وماذا يَعنِي ذلك؟

في البدايةِ لا بُدَّ مِن الإشارةِ إلى أنَّ كلمةَ (قَرية) الواردةُ في القُرآنِ الكريمِ لا تعني البتَّةَ مَفهومَ القَريةِ الرِّيفيَّةِ الذي نَعرِفُه اليومَ؛ بلْ إنَّ التفاسيرَ والمَعاني تَدلُّ على المدنيةِ ووُجودِ مُجتمَعٍ حَضَريٍّ ذي كيانٍ اجتماعيٍّ واقتصاديٍّ ونَظامِ حُكْمٍ سِياسيٍّ إلى غَيرِ ذَلِكَ مِمَّا يُقيمُ أوَدَ المجُتمَعِ المُتحضِّرِ.

إذنْ لِماذا فَرقَ القُرآنُ الكريمُ بين الكلِمَتَينِ؟

لَعلَّ مِن أبرزِ الأسبابِ هُو التفريقَ بينَ طَبيعةِ مُجتمَعِ سُكَّانِ القريةِ وطَبيعةِ مُجتمَعِ سُكَّانِ المَدينةِ على الرغمِ مِن أنّ اللفظَتَينِ أُطلِقَتا على المكانِ نَفْسِهِ كما تَقدَّمَ في الآيتَينِ الكريمتَينِ؛ فحينَما قَدِما إلى البلدةِ تَوسَّما الخيرَ في أهلِها، فَطلَبا مِنهُم الطعامَ فلمْ يُطْعِمُوهُما؛ لِذلِكَ حينَما بيَّنَ الخِضرُ لِمُوسَى عليهِما السلامُ سببَ إقامَتِه لِلجدارِ – في البلدةِ التي أبَى أهلُها أنْ يُطْعِمُوهُما – استعملَ تعبيرَ المَدِينَةِ ولمْ يَسْتَعْمِلْ تعبيرَ القريةِ، وفي هذا دلالةٌ على اختلافِ طبائعِ وخَصائِصِ المجُتمَعِ في المكانَينِ؛ فالقريةُ يَغلبُ على أهْلِها الطِّباعُ والعاداتُ والتقاليدُ الأصيلةُ، أمَّا أهلُ

[1] د. وليد أحمد السيِّد - مهندسٌ مِعمارٌ - جامعة لندن

المَدينَةِ فقَد تَغيَّرَ عِندَهُم ذلكَ فانْعَزَلُوا عن الغُرباءِ مِن ناحيةٍ وعن جِيرانِهِم مِن ناحيةٍ أُخْرى. وبالمقارَنةِ بين المُجتمَعَينِ – مَجتمَعِ القريةِ الرِّيفيِّ ومُجتمَعِ المَدينةِ الحَضرِيِّ بِالمفهُومِ الذي نَعرِفهُ اليومَ – يَسهُلُ تمييزُ مجموعةٍ من الخَصائصِ المُتباينَةِ التي يبدُو أنَّها انعكاسٌ لِطبيعَةِ المكانِ والبِنيَةِ التركيبيَّةِ اجتماعيًّا واقتصاديًّا...؛

فأهْلُ القريةِ يَعرفُ بَعضُهم بَعضًا، وتَسُودُ بَينَهُم علاقاتٌ اجتماعيَّةٌ وطيدةٌ وحَميمةٌ في الأعمِّ الأغلبِ، ويُعَدُّ عِندَهُم إطعامُ الطعامِ ومُساعَدةُ الغُرباءِ وعابِري السبيلِ مِن الشَّهامةِ والنُّبْلِ، فِيما تُفْتَقَدُ هَذهِ العلاقاتُ في مُجتمَعِ المَدينةِ وتَضمَحِلُّ رُويداً رُويداً مع اتِّساعِها ليسَ مع الغُرباءِ فَحَسْب؛ بلْ بينَ الجِيرانِ والأقاربِ والأرحامِ في بَعضِ الأحيانِ.

وبِمُقارَنةِ البَساطةِ لَدَى سُكَّانِ القريةِ مِن ناحيةِ المُتطلَّباتِ المادِّيَّةِ، تجَدُ أنَّ سُكَّانَ المَدينةِ يَركُضُونَ في الاتِّجاهاتِ كُلِّها سَعيًا وراءَ لُقمَةِ العَيشِ لتلبيةِ الاحتياجاتِ المادِّيَّةِ المُتزايدَةِ. ويبدُو أنَّ الاستِعمالَ القُرآنيَّ قَد حَسمَ الأمرَ؛ فبالنَّظَرِ إلى التعبيراتِ القُرآنيَّةِ المُختلفةِ يَتبيَّنُ أنَّه حَيثُما جاءتْ لفظ (قَرية) نجَدُ الخيرَ أو النَّزْعَةَ نحوَ الخَيرِ؛ ولِذلكَ وُصِفَتْ مَكَّةُ المُكَرَّمةُ في القُرآنِ الكريمِ بِ (أُمِّ القُرَى).

أمَّا لفْظُ (مَدِينة) فَنَجِدُ أنَّها تدلُّ على تَغيُّرِ طبيعةِ المجتمَعِ ومَيلِه نَحْوَ الدُّنيا وابتعادِه عن الخَيريَّةِ؛ فالقُرآنُ الكَريمُ لمْ يستَعملْ لفظَ (القُرَى) جَمعَ "قَريةٍ" في قِصَّةِ سَحَرَةِ مُوسَى إنَّما استعملَ لفظَ (المَدائِنَ) جَمع "مَدِينَة".

﴿ وَأَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ ويدلُّ هذا اللفظُ أيضًا على تَنوُّعِ المِهَنِ التي تَتطلَّبُها طبيعةُ العَيشِ في المَدينةِ والتي تخلُو منها القريةُ[1].

الخضر بين الأسطورة والحقيقة

إلى الشمالِ من مدينةِ "سلمية" يقبعُ الجَبلُ الخضرُ الذي يَجْثمُ فوقَ ذُرْوَتِه "مَقامُ الخِضرِ" أو "كنيسةُ القِدِّيسِ مارْ جرجس"؛ حيث تُشاهَدُ أطلالُ الكنيسةِ، وآثارٌ لِلمَذبَحِ، والبِرْكَةُ التي كانَ يُعَمَّدُ فيها الأطفالُ – هَذه حقيقةٌ ولَيْسَتْ خَيالاً – ثُمَّ تَحَوَّلَتْ فِيما بَعدُ إلى جامعٍ مع الفُتوحاتِ الإسلاميةِ، وعُرِفَ باسْمِ "الخِضر" الحيِّ في الخيالِ الشعبيِّ.

الجبلُ الخضرُ:

هوَ آبِدةٌ أثريةٌ تَعرّضَ خلالَ الفتَراتِ الزمنيَّةِ السابقةِ إلى أعمالِ التنقيبِ والنَّهْبِ، ولمْ يَبْقَ مِنهُ إلاّ أطلالُ جُدرانٍ لِبَقايا مَقامِ الخِضرِ مِن حِجارَةٍ سَوداءَ مَرصُوفةٍ فَوقَ بَعضِها البعضِ بِمَهارةٍ وفَنٍّ فوقَ التلِّ الذي تُقارِبُ مَساحَتُه الألفَ مِتر مربَّع.

وتُوجَدُ على سُفُوحِه الشَّرقيةِ والغَربيةِ آثارٌ لِحُفَرٍ ومَغاوِرَ رُبَّما تكونُ بَقايا قُبورٍ بِيزنطيّةٍ، أهمُّها مَغارةُ الغُرَفِ السبعةِ في السفْحِ الغربيِّ مِن التلِّ، وقَد حُفِرَتْ بِغَرضِ البحثِ عن كُنوزٍ أثريَّةٍ، أوْ أنَّها مَوجُودةٌ مُنذُ القِدَمِ، وتَعُودُ لِلعَصرِ الحَجَريِّ الأوسطِ. وعِندَ قدمِ الجبلِ قريةُ الخضيرةِ نِسبةً إلى الخِضرِ.

أُسطُورةُ الخِضرِ أو القِدِّيس مارْ جرجس:

[1] الفَرقُ بينَ المَدِينَةِ والقَريةِ - نَظرةٌ حَضاريَّةٌ واجتِماعيَّةٌ: د. "وليد أحمد السيِّد" مهندسٌ مِعمارٌ - جامعة لندن.

تقولُ الأُسطُورةُ: إنّ الخِضرَ هُو أحدُ أبناءِ آدمَ أبي البَشرِ عليهِ السلامُ، وعِندَما دَنا أجلُه قالَ لأولادِه: "مَنْ يَغْسِلُ جَسَدِي ويُكَفِّنُنِي دُونَ أنْ يَنْظُرَ إلى عَورَتِي فَسوفَ أهَبُهُ الحياةَ الأبديةَ في الدُّنيا. وهَذا ما حَدثَ لِلخِضر، كما عُرِفتْ هَذهِ الشخصيةُ في تاريخِنا القديمِ تحتَ أسماءٍ مُختلفَةٍ مِنها "الإلَهُ الابْنُ والراعي الصَّالِحُ" في الأختامِ ما قَبْلَ السُّومريَّة، وتموز في ثقافةِ الرافِدَينِ، و"بَعل" في الثقافةِ السُّوريةِ القديمةِ، و"أدونيس" وُصُولاً إلى المَرحلةِ المَسيحيَّة. وكان دائِمًا نَصيرًا لِلضُّعفاءِ واليتامَى والأراملِ، ثمَّ قاتلَ الوَثنيِّينَ الرُّومانِ، وربَّما كانت نِيَّتُه في البدايةِ هيَ الانتقامَ مِن قَتَلَةِ أبيهِ؛ غَيرَ أنَّهُ ما لَبِثَ أنْ تَحَوَّلَ هَدفُه إلى رِسالتِه الإنسانيَّةِ الكُبْرَى، ورَفَضَ مُساعَدةَ الرُّومانِ في القَضاءِ على المَسيحيِّينَ في تِلكَ البلادِ المُقدَّسَةِ.

وتقولُ الأُسطُورةُ: أنَّهُ كُلَّما قاتلَ الرُّومانَ، قَتلُوهُ ومَزَّقُوهُ إرْبًا؛ لَكِنْ سُرعانَ ما يَجِدُونَهُ حَيًّا يُرْزَقُ أمامَهُمْ ويُقاتِلُهُمْ مِن جَديدٍ، ومِن هُنا وُهِبَتْ لهُ دَيمُومةُ الحَياةِ الدُّنيا

ومَعنى "الخِضر" جاءَ مِن الخُضْرَةِ والنَّماءِ؛ لِذلِكَ كان يُصوَّرُ على هَيئةِ فارسٍ مُتجَوِّلٍ يَحمِلُ رُمْحًا عِبارةً عن سُنْبُلَةِ قَمْحٍ. وكُلَّما استراحَ ذَلِكَ الفارِسُ في مكانٍ حَضَّ أهْلَهُ على زِراعَةِ القمحِ، ونَشَرَ النَّماءَ والخُضْرَةِ والجَمالَ في رُبُوعِهِم.

وبَعدَ رَحيلِه يَبنِي لهُ السُّكَّانُ مَقامًا يُدعى بِ "مَقام الخِضر" اعترافًا مِنهُم بِفَضْلِهِ عليهِم وعلى نَماءِ بِلادِهِم؛ فتَعدّدَتْ مَقاماتهُ وانتَشرَتْ في سُوريةَ وفِلسطِينَ.

و يَعتقِدُ المَسيحيُّونَ أنّ الخِضرَ هو "القدِّيسُ مار جرجس" نَفْسُهُ، وحَيثُما كان يُوجَدُ تُوجَدُ أطلالُ كنيسةٍ شُيِّدتْ في المكانِ نَفْسِه الذي أقامَ فيه هذا القدِّيسُ؛ حتى أنّ اسْمَ "جرجس" في اللاتينيةِ يَعنِي "الخُضْرةَ والنَّماءَ".

وتُتابِعُ الأُسطُورةُ قولَها: "ومِن أرضِ فِلسطِينَ المُقدَّسةِ سَمِعَ الخِضرُ بأنَّ مَدِينَةً في تُونُسَ يَحكُمُها مَلِكٌ عادِلٌ، وأنَّ مَمْلَكَتَهُ تُواجِهُ خَطَرَ تِنِّينٍ ضَخْمٍ يَسْبَحُ في بُحَيرَةٍ مَوجُودةٍ بِالقُربِ مِن مَدِينَتِهِم.

وقَد فَرَضَ التِّنِّينُ على أهْلِ المدينةِ تقديمَ قُربانٍ لهُ كُلَّ يَومٍ وإلَّا هاجَمَهُم وقَضَى عليهِمِ جَميعًا؛ فأذْعَنَ السُّكَّانُ لِوَحْشِيَّتِه، وَصاروا يُقَدِّمُونَ لهُ ذَبِيحَةً مِن حَيواناتِهِم. وعِندَما نَفَقَتْ جَميعًا لمْ يَجِدِ السُّكَّانُ بُدًّا مِن تَقديمِ قُربانٍ مِن أولادِهِمْ لِذَلِكَ التِّنِّينِ الشِّرِّيرِ، وعلى الأُسرَةِ التي يقعُ عليها الدَّورُ أنْ تُقدِّمَ أحدَ أولادِها قُربانًا اتِّقاءً لِشَرِّ ذلكَ التِنِّينِ؛ حتَّى لمْ تَبْقَ أُسرةٌ في المَدينةِ إلَّا وقَدَّمَتْ أحدَ أبنائِها قُرْبانًا.

ومِنْ بابِ المُساواةِ بينَ الحاكِمِ والمَحكُومِ قالَ الأهالي لِلمَلِكِ: "كُلُّنا قَدَّمَ أحدُ أبنائِه قُرْبانًا لِلتِّنِّينِ ولَمْ يَبْقَ غَيرُكَ؛ فلِماذا لا نَتساوى في هذا البلاءِ وتُقدِّمَ مِثْلَنا ابْنَتَكَ الوحيدةَ قُرْبانًا لهُ؟؛ فابْنَتُكَ لَيْسَتْ غاليةً عَليكَ أكثرَ مِن غَلاءِ أولادِنا عَلَينا.

وكانَ المَلِكُ طَيلةَ فَترةِ زَواجِهِ لمْ يُرْزَقْ مِنَ الأولادِ إلَّا بِفَتاةٍ جَميلةٍ رَبَّاها حتَّى أصبَحتْ في رَيعانِ شَبابِها.

بَلَعَ المَلِكُ رِيقَهُ وأحَسَّ كأنَّ سِكِّينًا تُغْرَسُ في فُؤادِهِ؛ فابْنَتُهُ الوحِيدَةُ الرَّقيقةُ الناعِمةُ سوفَ تكونُ اليومَ وَجْبَةً شَهِيَّةً لِلتِّنِّينِ المُتَوحِّشِ وهُو عاجِزٌ لا يَستطِيعُ فِعْلَ شَيءٍ لإنْقاذِها.

ونَظرَ إلى شَعْبِهِ بمَرارةٍ وألمٍ؛ وكأنَّهُ يَستَجْديهِم أنْ يَرْحَمُوهُ، وأنْ يُبْقُوا لهُ ابْنَتَهُ على قَيدِ الحياةِ؛ ولكنْ لا سَبيلَ إلى التَّرَدُّدِ والضَّعْفِ أمامَ شَعْبِهِ إذا أرادَ أنْ يَكُونَ مَلِكًا عادلاً، وعِندَها عَذَرَ شَعْبَهُ وعَلِمَ كَمْ كانُوا يُعانُونَ ويَتألَّمُونَ عِندَما يُقدِّمُونَ أولادَهُم قُرْبانًا لِلتِّنِّينِ. ثُمَّ قالَ – وهُوَ يَتَلَعْثَمُ –: "هَذا حَقٌّ وعَدْلٌ".

وَدَّعَتِ الفتاةُ أباها بأجْمَلِ لِباسٍ وأبْهَى زِينَةٍ، ثُمَّ تَوجَّهَتْ نَحْوَ ضِفافِ البُحَيرةِ وهِيَ تَنْظُرُ خَلْفَها نَحْوَ أبِيها مُسْتَغِيثةً مُسْتَنْجِدَةً؛ ولَكِنَّ الأبَ لَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً لِتَقديمِ المُساعَدةِ لَها إلَّا ذَرْفَ الدُّمُوعِ عَليها والاستغاثةَ بِالخِضرِ الذي كانَ قَدْ سَمِعَ عَنْهُ مُساعَدَتَهُ لِلضُّعفاءِ والمُحتاجينَ وتَلبيتِه استغاثةَ المَظْلُومينَ والمُسْتَعْبَدينَ.

كانتْ عَينُ المَلِكِ تَرْمُقُ ابْنَتَهُ وهِيَ تَبْتَعِدُ عَنْهُ وتَتَقدَّمُ شَيئًا فَشَيئًا نَحْوَ حَتْفِها، وبَدأ التِّنِّينُ بِالاقترابِ مِن شَطِّ البُحَيرَةِ وهُوَ فاغِرٌ فاهُ لابْتلاعِ ضَحِيَّتِهِ الشَّابَّة.

وقَبْلَ أنْ يَصِلَ إليها نادَى المَلِكُ بِأعلَى صَوتِهِ الخِضرَ، وفَجْأةً انْشَقَّتِ السَّماءُ عَن نُورٍ أضاءَ المكانَ، وظَهَرَ فارِسٌ على جَوادِهِ وَبِيَدِهِ هَذهِ المَرَّة رُمْحٌ حَقِيقيٌّ وليسَ سُنْبُلَةَ قَمْحٍ. وسُرعانَ ما أبْعَدَ الفارِسُ الفَتاةَ وتَقَدَّمَ نَحْوَ التِّنِّينِ الذي أصبحَ على شاطِئِ البُحَيرَةِ، وَوَجَّهَ لَهُ طَعْناتٍ قاتِلَةً حَتَّى صَرَعَهُ، مُغَطِّيًا سَطحَ مِياهِ البُحَيرةِ بِدَمِهِ الأسودِ النَّتِنِ.

وبِذلكَ أنقذَ المَدينةَ وأهْلَها مِن شَرِّهِ، وأنقذَ الفتاةَ مِن مَوتٍ مُحَتَّمٍ، وشَعَرَ الأهالي بِالأمنِ والأمانِ، وانْحَنَوا جَميعًا تقديرًا لِشَجاعةِ هذا الفارِسِ المِغْوارِ. ولَمْ يَكُنْ هذا الفارِسُ سِوى الخِضر.

ومِن ذَلِكَ اليومِ نَرَى لوحاتٍ جِداريَّةً عَليها صُورةُ الخِضرِ على جَوادِه وبِيَدَيهِ رُمْحٌ يَطْعَنُ تِنِّينًا ضَخْمًا وخَلفَهُ تَقِفُ فَتاةٌ صَبِيَّةٌ بِثَوبِ الزِّفافِ !

وأورَدَ المُؤرِّخُ العُمانيُّ العوتبي في كتابِه "الأنساب" عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عليه إنَّ مالك هو الذي جاء ذِكْرُه في القُرآنِ الكريمِ بِأنَّه كان يأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا، فَحِينَما انطلقَ مُوسَى والخِضر ويُوشَع بنُ نُونٍ وركِبُوا السَّفِينَةَ وَلججوا خَرَقَ الخِضرُ السفينةَ ومُوسَى عليه السلامُ نائِمٌ. فقالَ أهلُ السفينةِ ماذا صَنَعْتَ؟ خَرَقْتَ سَفِينَتنا وأهْلَكْتَنا ! فأيَقَظُوا مُوسَى وقالُوا: ما صَحِبَ الناسُ أشرَّ مِنْكُمْ. خَرَقْتُمْ سَفِينَتنا في هذا المكانِ !

فَغضَبُ مُوسَى واحْمَرَّتْ عَيناهُ وخَرَجَ مِن مِدْرَعَتِه وأخَذَ الخِضرَ لِيُلْقِيه في البَحرِ وقالَ: (**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**) قالَ لهُ يُوشَع: يا نَبيَّ اللهِ أُذْكُرِ العَهْدَ الذي عاهَدتَه. قالَ: صَدَقْتَ. فَسَكَنَ غَضَبُهُ، وجَعَلَ القومُ يَنْزِفُونَ مِن سَفِينَتِهِم الماءَ وهُمْ مِنها على خَطَرٍ عَظيمٍ، وجَلَسَ مُوسَى في ناحيةِ السفينةِ يَلُومُ نَفْسَهُ ويقولُ: لقَد كُنْتُ في غِنَىً عنْ هذا؛ لو كُنْتُ في بَني إسرائيلَ أقْرأ لَهُمْ كِتابَ اللهِ غدوةً وعَشيَّةً فَما أدْناني إلى ما صَنَعتُ؟

فَعَلِمَ الخِضرُ ما يُحدِّثُ بِه نَفْسَهُ فَضَحِكَ ثُمَّ (**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) لقَد حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ بِكذا وكذا؟ قال مُوسَى (**لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**) فانْطَلَقُوا حَتَّى انْتَهَوا إلى عفان وكان المَلِكُ يُريدُ أنْ يَنتَقِلَ مِنها، وكان كُلَّما مَرَّتْ سَفِينَةٌ أخَذَها وألقَى أهْلَها، فإذا النَّاسُ على ساحلِ

البحرِ كالغَنَمِ لا يَدْرُونَ ما يَصْنَعُونَ. فلمَّا قَدِمَتْ سَفِينَتهُم قالَ أعوانُ المَلِكِ: أُخْرُجُوا عن هَذهِ السَّفِينَةِ. قالوا: إنْ شِئْتُمْ فَعَلْنا؛ ولَكِنَّها مخرقة. فلمَّا رأَوْها قالُوا: لا حاجَةَ لَنا بِها.

فقالَ أصحابُ السفينةِ: جَزاكُمُ اللهُ عَنَّا خَيرًا؛ فَما صَحِبَ قَومٌ قَومًا أعْظَمَ بَرَكَةً مِنْكُمْ. وأصْلَحَ الخِضرُ السفينةَ فَعادَتْ كما كانتْ. ولمْ يَكُنْ المَلِكُ الذي يأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا سوى مالِكِ بنِ فهمٍ واللهُ أعلمُ.

فلسفة المصيبة في قصة موسى والخضر عليهما السلام[1]

هذه القِصَّةُ رَمْزِيَّةٌ، ولِكَي نَفْهَمَ الحِكْمَةَ مِنها لا بُدَّ مِن فَكِّ رُمُوزِها على النَّحْوِ التالي:

الخِضرُ: هو القَدَرُ وما يَسُوقهُ مِن مَصائِبَ قد يكونُ في ظاهِرِها العذابُ وفي باطِنِها الرَّحمَةُ.

نبيُّ اللهِ مُوسَى عليهِ السلامُ: هُو الذي يَتعجَّبُ مِن فِعْلِ القَدَرِ ويَسْتعْجِلُ الحِكْمَةَ مِن وَرائِه.

خَرْقُ السفِينَةِ – خَسارةُ المالِ:

مَشْهَدُ المُصِيبَةِ: (**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا**) مَجمُوعةٌ مِن البحَّارةِ يَعملُونَ في البحرِ، مَصدَرُ رِزْقِهم الوحيد هو هَذهِ السفينةُ، أصابَها القَدَرُ الخِضرُ؛

[1] د. عمرو خالد

ولكنْ ما جَعَلَ هَذهِ المُصيبةَ أكبرَ هُو أنَّهُم مساكِينُ (**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ**) .

اسْتِنكارُ المُصِيبَةِ : (**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**) استنْكَرَ مُوسَى على القَدَرِ – الخِضرِ – فَعلَتَهُ، وطلبَ بيانَ الحِكْمَةِ في أسْرَعِ وَقْتٍ .

تأخُّرُ الحِكْمَةِ : رَفْضُ القَدَرِ – الخِضرُ – إظهارُ الحِكْمَةِ لاختبارِ ثِقَةِ أهلِ السفينةِ في أنَّ فِعْلَ اللهِ كُلُّهُ خَيرٌ (**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) .

الحِكْمَةُ البالِغَةُ : (**فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**) حَقًّا : فِعلُ اللهِ كُلُّهُ خَيرٌ .

قَتْلُ الغُلامِ – خَسارَةُ الأحْبابِ :

مَشْهَدُ المُصِيبَةِ : (**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ**) ثُمَّ سَارا على شاطِئِ البَحرِ حَتَّى لَقِيا مَجمُوعةً مِن الفِتْيانِ، ظَلَّ الخِضرُ يَبْحَثُ فيهِم عنْ فَتَىً بِعَينِه وما أنْ وَجَدَهُ حتَّى قَتَلَهُ .

اسْتِنكارُ المُصِيبَةِ : (**قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**) اسْتَنْكَرَ مُوسَى على القَدَرِ – الخِضرِ – فَعْلَتَهُ، وطَلَبَ بيانَ الحِكْمَةِ في أسْرَعِ وَقْتٍ .

تأخُّرُ الحِكْمَةِ : رَفْضُ القَدَرِ – الخِضرُ – إظهارُ الحِكْمَةِ لاختبارِ ثِقَةِ أهْلِ الغُلامِ في أنَّ فِعْلَ اللهِ كُلَّهُ خَيرٌ (**قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**) .

الحِكْمَةُ البالِغَةُ: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فلَو أنَّ الغُلامَ ظَلَّ حَيًّا لأَرْهَقَ أبَويهِ في الدُّنْيا وفي الآخَرَةِ، وكانَ الكُفْرُ سَبَبًا في دُخُولِهِم النَّارِ؛ ولَكِنَّ صَبْرَ الأبوانِ قليلاً كان سَبَبًا في دُخُولِهم الجَنَّةَ، حقًّا: فِعْلُ اللهِ كُلُّهُ خَيرٌ، ليسَ في الدُّنيا فَحَسب؛ بلْ في الآخِرَةِ أيضًا.

إقامةُ الجِدارِ – تأخُّرُ الرِّزْقِ:

مَشْهَدُ المُصيبَةِ: يَتيمانِ في مَدينةٍ أهلُها مِن البُخلاءِ، تَركَ أبُوهُما كَنْزًا لَهُما، وبَنى عَليهِ جِداراً لِيُخْفيه مِن أهْلِ القريةِ اللِّئامِ.

شَارَفَ هذا الجِدارُ على السُّقوطِ وبالتالي سَيحْصلُ اليتيمانِ على الكَنْزِ.

وهُنا يَظْهَرُ القَدَرُ – الخِضر – ويُقيمُ الجِدارَ ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ ويتأخَّرُ حُصولُ اليتيمَينِ على أموالِهم؛ ولَكِنْ ما جعلَ هذه المُصيبَةَ أكْبرَ هُو أنَّهُما يتيمانِ يَحتاجانِ لِلمُساعَدةِ وأهلُ القريةِ لا يُساعِدُونَهُم.

اسْتِنكارُ المُصيبةِ: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ اسْتَنْكَرَ مُوسَى على القَدَرِ – الخِضر – فَعْلَتَهُ، وطلبَ بيانَ الحِكْمَةِ في أسْرَعِ وَقْتٍ.

تأخُّرُ الحِكْمَةِ: رَفْضُ القَدَرِ – الخِضر – إظهارُ الحِكْمَةِ و ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

الحِكْمَةُ البالِغَةُ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ فلَو سَقَطَ

الجِدارُ وظَهَرَ الكَنْزُ لَفَرِحَ الغُلامانِ قليلاً؛ ولَكِنَّ أهلَ القريةِ اللِّئام سَيأخُذُونَهُ مِنْهُم. وَشاءَ رَبُّكَ عزَّ وجلَّ أنْ يَتأخَّرَ هذا الرِّزْقُ حتَّى يَكْبَرا ويَشْتَدَّ عُودُهُما ويَسْتَطِيعا حِمايةَ كَنْزِهِما. فهَذا التأخيرُ كان لِحمايَةِ هَذا الرِّزْقِ. حقًّا: فِعلُ اللهِ كُلُّهُ خَيرٌ.

الخُلاصَةُ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦)[1].

دلالة الأحداث في لقاء موسى والخضر عليهما السلام[2]

لقَد انْفَرَدَتْ سُورةُ الكَهْفِ مِن بينِ سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ بِذلك اللقاءِ الذي لَمْ يَتَكَرَّرْ في شَخصيَّاتِه وأحداثِه ومُناسَباتِه. وتظهرُ الآياتُ الكريمةُ بِبَيانٍ ساحرٍ وإيجازٍ بَليغٍ، في الأحداثِ الثلاثةِ، نماذجُ مِن التصرُّفِ كان يَراهُ مُوسَى ويَراهُ النَّاسُ في الشرائعِ السماويةِ التي تَحَكُمُ السلوكَ الإنسانيّ أعمالاً تَسْتَحِقُّ الإنكارَ أو العُقُوبَةَ!

وإنَّ الأسبابَ التي غابَتْ عن مُوسَى عليهِ السلامُ والتي تغيبُ عن مَنطِقِ البَشَرِ وتقديراتِهم في عالَمِ الشهادةِ لا يَعْلَمُ حِكْمَةَ تَدبيرِها إلاّ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ!

وإنَّ كَشْفَ التَّأويلِ عن حِكْمَةِ التَّدبيرِ الإلهيِّ يُعَلِّمُنا بأنَّ كُلَّ ما يقعُ في الكونِ مِن أحداثٍ يَتَّسِمُ بالعَدْلِ والحِكْمَةِ والرَّحْمةِ – وإنْ بَدا في ثَناياها شَيءٌ مِن الألمِ والقَسْوَةِ.

وفي تَحليلِنا للأحداثِ يَتراءى لَنا فِعلانِ:

---

[1] فلسَفةُ المُصيبَةِ في قِصَّةِ مُوسَى والخِضرِ عَليهِما السلامُ: د. عمرو خالد.

[2] مُصطفى مُحمَّد ياسِين

الأفعالُ الإِنْسانيَّةُ وتَتمثَّلُ في:

– رَغْبَةِ المَلِكِ في الاسْتِيلاءِ على السفينةِ دُونَ وَجْهِ حَقٍّ،

– سُلوكِ الغُلامِ الذي سَيُرْهِقُ والِدَيه طُغْيانًا وكُفْرًا،

– بُخْلِ أهْلِ القريةِ وشُحِّهِم الذي مَنَعَهُمْ مِن إطعامِ مُوسَى والخِضرِ عليهِما السلامُ.

ويُقابِلُها الأفعالُ التي جاءتْ عن أمْرِ اللهِ سُبْحانَه وتعالى وتَتمثَّلُ في:

– خَرْقِ السَّفِينَةِ،

– قَتْلِ الغُلامِ،

– إقامةِ الجِدارِ.

وحِينَما نُمْعِنُ ونُنْعِمُ النَّظَرَ في ذلكَ نَجِدُ أنَّ الأفعالَ الإِنسانيَّةَ قَد اتَّسَمَتْ بِالظُّلْمِ... وأنَّ الأفعالَ التي جاءتْ عن الأمرِ الإِلهيِّ قَد انْتَصَرَتْ لِلمَظْلُومِ... وفِي ذَلِكَ فَهْمٌ لِدلالاتِ الأحداثِ التي تقعُ في الكَونِ ويُفَسِّرُها المَنْطِقُ الإِنسانيُّ مِن الوجْهَةِ الشرعِيَّةِ التي فَرضَتْها الإِرادةُ الإِلهيّةُ، كما هِيَ الحالُ في التَّأويلِ الذي جاءَ بِهِ الخِضرُ عَلَيهِ السلامُ عنْ أمْرِ رَبِّهِ سُبْحانَه وتَعالى.

فَفِي قَولِه تَعالى (**رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**) أيّ: أنَّ هذا الذي فَعَلْتُهُ إنَّما هُوَ مِن رَحْمَةِ اللهِ تعالى بأصحابِ السفينةِ وأبَوَي الغُلامِ وَوَلَدَي الأبِ الصالِحِ، وما فَعَلْتُهُ عَن أمْرِي؛ لَكِنَّنِي أُمِرتُ بِه.

والإِنسانُ في حَياتِهِ الدُّنيا لَه مِن الحُرِّيَّة والإِرادةِ ما يَجْعَلُهُ مَسْؤُولاً عنْ أفْعالِه، وَجاءتِ الشرائِعُ السماويَّةُ وبَيَّنَتْ ذلكَ فقالتْ: (افْعَلْ) أوْ (لا تَفْعَلْ)، وفَرَضَتِ

العُقُوباتِ على المُخالَفاتِ والمَمْنُوعاتِ، وأجْزَلَتِ الأجْرَ والثوابَ على الطاعاتِ والقُرُباتِ.

وأحداثُ الكَونِ فيها مِن الخَيرِ وفِيها مِن الشَّرِّ على ما يَظْهَرُ لِلبَشَرِ ويَبْدُو لَهُم؛ لِذلِكَ كان مِن مُقتَضَياتِ الإيمانِ أنْ يُؤمِنَ المُسْلِمُ بِالقَضاءِ والقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ.

ذَلِكَ الشَّرُّ وهُوَ في ظاهِرِهِ هكذا في نَظَرِ المُؤمِنِ وغَيرِ المُؤمِنِ؛ لَكِنَّ المُؤمِنَ كما في التَّصَوُّرِ الإسلاميِّ لا يَرَى في ذَلِكَ إلَّا الخَيرَ مَهما بَدَتْ قَسْوَتُه وآلامُهُ... وبِذَلِكَ يَنْقُضُ التصوُّرُ الإسلاميُّ ما جاءَ بِهِ الفلاسِفَةُ فِي قَولِهم: إنَّ الشَّرَّ في الكونِ لا يَتَّفِقُ مع الرَّحْمةِ الإلهيَّةِ؛ لأنَّ قُصورَ التصوُّرِ المادِّيِّ الفَلسفِيِّ هوَ سَببُ الفَشلِ في إدراكِ الإنسانِ لِحقيقةِ التدبيرِ الإلهيِّ والعَدالةِ فِيما يَراهُ مِن الأحداثِ خَيرِها وشَرِّها.

وانَّ أساسَ الوُجودِ هو الإيمانُ باللهِ تَعالى واتِّباعُ مَنهَجِه، وكُلُّ تَصوُّرٍ لِهَذا الوُجودِ خارجَ إطارِ التصوُّرِ الإسلاميِّ هو تصوُّرٌ خاطِئٌ مَرفُوضٌ.

سُؤالٌ وجَوابٌ:

السؤال: جاءَ في آياتِ الأحداثِ التي وَقَعَتْ بينَ نبيِّ اللهِ مُوسَى والعَبدِ الصالِحِ عليهِما السلامُ أنَّ الخِضرَ قَتَلَ الغُلامَ خَوْفًا مِن أنْ يُرْهِقَ أبويهِ بِطُغيانِهِ وكُفْرِهِ، فَهَلْ هذا يُعَدُّ مبرراً / مُسوِّغًا لِقَتْلِ نَفْسٍ زَكِيَّةٍ بِغَيرِ نَفْسٍ؟

وإذا كانَ ذلكَ الغُلامُ مُسالِمًا حِينذاكَ فلِماذا قَتَلَهُ؟

وإذا كان قَتْلُهُ قَد تمَّ على أساسِ ما سَيقُومُ بِهِ مُسْتَقْبَلاً، فَهلَ يصحُّ تنفيذُ العُقوبةِ قَبْلَ وُقوعِ الجَرِيمَةِ؟

وإذا كانتْ هُناكَ أسبابٌ أُخْرَى نَرْجُو توضِيحَها.

الجوابُ: يبدُو من الآيات الكريمة في هَذه القصَّة أنَّ مَوضُوعَ إيمانِ الأبَوينِ كان يَحْتَلُّ مَكانةً رَفيعَةً عندَ اللهِ تعالى؛ لِذَلِكَ كان أمْرُ إرهاقِهِما بِطُغيانه وكُفْرِه داعِيًا لِقَتْلِه. وقَد ذَكَرَ المُفَسِّرُونَ عَدداً من الأسباب لِتسْويغِ هذا القتْلِ منها:

لم تَكُنْ أحكامُ العبدِ الصالحِ مَبنيَّةً على ظَواهرِ الأُمورِ؛ بلْ كانتْ مَبْنِيَّةً على أسبابٍ حَقيقةٍ وَاقِعَةٍ.

أنَّهُ تدبيرٌ اقتضَتهُ الرَّحمةُ والعنايةُ الإلهيةُ؛ فَفِي عِلْمِ اللهِ تعالى الأزليِّ أنَّ أبَوَي هذا الغُلامِ لا يَثْبُتانِ على الإيمانِ إلَّا بِقَتْلِه، فَتَعَيَّنَ وَجْهُ الوجُوبِ في القتلِ.

وهُناكَ اتِّجاهٌ آخرُ يُسمَّى "الاتِّجاهَ التمثيليَّ لِلقَصصِ القُرآنيِّ"، ويَعتمِدُ على مُقدِّمَتَينِ اثنتَينِ:

الأُولى: أنَّ للوجُودِ مَراتِبَ مُتعدِّدةً تَختلِفُ من حَقيقةٍ أُخْرى.

الثانيةِ: أنَّ طبيعةَ الإدراكِ البَشريِّ مَحدودةٌ، وغالبًا ما تقعُ أسيرةَ أدواتِ الحِسِّ ومَفاهيمه.

ولو طَبَّقْنا هاتَينِ المُقدِّمَتَينِ على قِصَّةِ مُوسَى والخِضرِ عليهِما السلامُ لَوجَدْنا أنَّها تُشيرُ إلى حَقائِقَ إلهيةٍ ساميةٍ يَجبُ فهمُها على نَحوٍ أعمقَ من كَونِها مُجرَّدَ تفاصيلَ سَرديةٍ؛ وإنَّما عَرَضَ القُرآنُ الكريمُ تلكَ الحقائقَ بهذا النَحوِ أخْذاً بالاعتبارِ مُستوى الفَهمِ البَشريِّ الذي تستعصِي عليهِ الحَقائقُ المُجرَّدةُ[1].

[1] دلالةُ الأحداثِ في لِقاء مُوسَى والخِضرِ عليهِما السلامُ: مُصطفى مُحمَّد ياسِين.

الهندسة الايمانية في جدار الغلامين اليتيمين[1]

أوّلاً: قِصَةُ بِناءِ الجِدارِ في القُرآنِ الكريمِ.

قالَ تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ وقالَ عَزَّ ثَناؤهُ أيضًا: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

ثانيًا: الجِدارُ في السُّنَّةِ النبويَّةِ المُطهَّرَةِ.

١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهُما قال: حدَّثَنِي أُبَيٌّ بْنُ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه: " فَانْطَلَقَا فَوَجَدَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ. قَالَ سَعِيدٌ بِيَدِهِ هَكَذَا، وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَاسْتَقَامَ، قَالَ يَعْلَى حَسِبْتُ أَنَّ سَعِيداً قَالَ: فَمَسَحَهُ بِيَدِهِ فَاسْتَقَامَ. قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ سَعِيدٌ أَجْرًا نَأْكُلُهُ".

وهذا الفعلُ أشَبهُ بأفعالِ الأنبياءِ عليهِمُ الصلاةُ والسلامُ؛ بلْ والأولياءِ.

ثالثًا: النِّسبَةُ الإلهيَّةُ في بناءِ الجِدارِ.

إنَّ في قِصَّةِ بِناءِ الجِدارِ خَمسةَ مُتغيِّراتٍ هِيَ: طُولُهُ، وعَرْضُه، وارتِفاعُه، وعُمُرُهُ مِن لَحْظَةِ إتمامِ بنائِه إلى حينِ وُقوعِه، وعُمُرِ الغُلامَينِ أثناءَ انقِضاضِ الجِدارِ، إضافةً إلى عُلومٍ أُخْرَى لها صِلَةٌ في بِنائِه مِنها (الهَندسةُ والرِّياضيَّاتُ..).

[1] شَبكةُ مُنتدَياتِ الوطنِ الموريتانية

والغَريبُ هُنا ليسَ في بِناءِ الجِدارِ بِ (طُولٍ أو عَرْضٍ أو ارتفاعٍ)؛ فقَد كان مُتناسِبًا مع الأبنيةِ المَوجُودةِ في المدينةِ؛ حتَّى لا يَلْفِتَ نَظرَ أهلِها؛ ولكنَّ الغَريبَ هو تَحَديدُ عُمُرِ الجِدارِ إلى حينِ سُقوطِه! إنَّ القُرآنَ الكريمَ لم يُحدِّد الزمنَ في الآيةِ الكريمةِ (**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**) فهلْ يَسقطُ الجِدارُ عندما يبلغُ الغُلامُ الأوَّلُ سِنَّ الرُّشْدِ؟ أمْ عِندَما يبلغُ ذلكَ الغُلامُ الآخَرُ؟

وهل الغُلامانِ مُختلِفانِ في العُمُرِ؟

ولو سَقطَ الجِدارُ وكان الأوَّلُ أكبرَ مِن أخيهِ فَهلْ يَحتفِظُ بالكنْزِ حتَّى يبلُغَ أخاهُ عُمَرَهُ نفْسهُ حِينما سَقطَ الجِدارُ؟

أمْ هل كانَ الغُلامانِ توأمَينِ فَوقَعَ الجِدارُ في لحْظَةِ بُلوغِهِما سِنَّ الرُّشْدِ مَعًا؟

إذا كانتْ هَذهِ المُتغيِّراتِ في العُنصرِ الخامسِ فقط، فما هوَ الذي يَجْعَلُ الجِدارَ يَنقَضّ حِينما يبلغُ الغُلامانِ أشُدَّهُما؟

إنَّه توقيتٌ إلهيٌّ... إنَّها إرادةُ الخالِقِ... إنَّه عِلْمٌ لَدُنيٌّ لا يُقاسُ بِمَقاييسِ ومَعاييرِ البَشرِ، ولا يَخضَعُ لِقَوانين رياضيةٍ أو حساباتٍ هَندسيةٍ أو آراءٍ فلسفيةٍ.

حقًّا إنَّها أبعادٌ تَحارُ فِيها العُقولُ، ولا يُمْكِنُ أنْ تُضبَطَ هَذهِ المُتغيِّراتُ كُلُّها إلَّا مِن لَدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ. وَوَرَدَ في بَعضِ الأخبارِ إنَّ طُولَ الجِدارِ خَمسمائة ذِراعٍ، وسمكُهُ ثلاثونَ ذِراعًا، وارتفاعُهُ خَمسُونَ ذِراعًا بِذراعِ ذلكَ الزمنِ فأقامَهُ الخِضرُ أيّ: سَوَّاهُ بِيَدِهِ فاسْتَقامَ.

فَعِندَما نتعَرّضُ لِقضيَّةِ التوحيدِ نجَدُ أنْفُسَنا أمامَ أمْرَينِ في غايةِ الأهمِّيَّة:

أوَّلهما: إنَّ الذي يُطيعُ اللهَ ورَسُولَهُ يُسخَّرُ لهُ كُلُّ ما في الكونِ حتَّى الجماد.

لاحِظْ قولَه تعالى (**جِدَارًا يُرِيدُ**) مَن الذي يُريدُ؟ إنَّه جِدارٌ، إنَّ لفْظَةَ (يُريدُ) تُسْتَخْدَمُ لِلعاقِل؛ كأنَّ الجِدارَ يُخاطِبُ البَشرَ بِلُغَتِهِم وقَولِهِم... الجِدارُ جَمادٌ والإرادةُ لِلبَشرِ...؛ فعالَمُ القوانينِ والمُسلَّماتِ والمُعطياتِ يختلفُ عن عالَمِ الرُّوحِ...؛ إنَّهُ تحوَّلَ مِن عالَمٍ إلى عالَمٍ آخَر... فما سببُ هذا التحوُّل؟

اِقْرأ قولَه تعالى: (**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**) إنَّهُ الصَّلاحُ والاستقامةُ على شَرْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يكونُ الصلاحُ إلَّا بِتَوحيدِ اللهِ تعالى، وإنَّ الذي يُطِيعُ اللهَ ورُسُلَهُ يُسَخَّرُ لهُ الكونُ كُلُّهُ.

ثانِيهما: تأمَّلْ قولَ اللهِ تعالى في الآية ٤٥ مِن سُورةِ هُودٍ: (**وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**). إنَّ هُناكَ تَحَوُّلٌ آخَرَ؛ ولَكنَّهُ عكسَ ما جاءَ في سُورةِ الكهفِ؛ فالأبُ نبيٌّ مِن أُولي العَزْمِ مِن الرُّسُلِ، والابنُ جاحِدٌ بِاللهِ وعاقٌّ لِوالدِه، وكانَ يَظُنُّ أنَّ الجبلَ سَيعْصِمُهُ مِن الماءِ فلَجأَ إلى غَيرِ اللهِ تعالى، لجَأَ إلى الجَمادِ فَجَرَّدَ اللهُ منهُ الرُّوحَ بِقَولِه: (**إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**) أصبحَ ابنُ نُوحٍ (عَمَلاً)... إنَّ لفظَ (عَمَل) تُطلَقُ على

الأشياءِ والجَماداتِ؛ فكأنَّ الذي لا يُطيعُ اللهَ ورُسُلَهُ يَحُولهُ مِن عالَمِ الرُّوحِ إلى عالَمِ المادَّة... فهذا تجريدٌ، وفي سُورةِ الكهفِ تسخيرٌ.

ولا بُدَّ وأنْ نُنوِّهَ هُنا على أنَّ العِلمَ الذي كان عِندَ الرَّجُلِ الصالحِ هو "عِلْمٌ لَدُنيٌّ"، وبَينَ العِلْمِ اللّدُنيّ والعِلمِ الدُّنيويِّ اختلافاتٌ كثيرةٌ مِنها:

العِلْمُ اللدُّنّيّ: العِلْمُ الدُّنيويُّ:

– مَوهُوبٌ – مُكْتَسَبٌ.

– مِن عِندِ اللهِ الوَهَّابِ – مِن الطَّبيعةِ والرُّسُلِ والعُلماءِ.

– لا يَصطَدِمُ بالواقعِ – قَد يَصطَدِمُ بالواقعِ.

– لا يَخْضَعُ لِقوانينِ السببيَّةِ في الكونِ – يَخضَعُ لِقوانينِ السببيّةِ في الكونِ.

– غَيرُ قابلٍ لِلنقْدِ والنقْضِ – قابلٌ لِلنقْدِ والنقْضِ.

– غَيرُ مَحدُودٍ – مَحدُودٌ.

– يبدُو مُناقِضًا لِلواقعِ ظاهِريًّا – ليسَ مُناقِضًا للواقعِ ظاهِريًّا.

– كُلُّ نتائجِه إيجابيَّةً – بعضُ نتائجِه إيجابيَّةٌ.

– يَهبُهُ اللهُ لِعبادِه مِن الأنبياءِ والمُؤمنينَ – يُعطِيهِ اللهُ لِعَبيدِه مُؤمِنِهم وكافِرِهم.

– مَظاهِرُه تُثيرُ الدَّهْشَةَ عِندَ الناسِ – مَظاهِرُه لا تُثيرُ الدَّهْشَةَ عِندَ الناسِ.

– أحكامُه باطِنيَّةٌ وعِلَلُهُ باطِنيَّةٌ – أحكامُه ظاهِريَّةٌ وعِلَلُه ظاهِريَّةٌ[1].

[1] شَبكةُ مُنتدَياتِ الوطنِ الموريتانية: الهندسةُ الإيمانيَّةُ في جِدارِ الغُلامَينِ اليتيمَينِ.

حقيقة العلم اللدني[1]

قال الإمامُ الهرويُّ صاحبُ كتابِ مَنازل:

العِلْمُ اللَّدُنيُّ هو العِلْمُ الذي يَقْذِفُهُ اللهُ تَعالى في القلبِ بِلا سَببٍ مِن العَبدِ ولا استِدلالَ؛ ولِهذا سُمِّيَ "لَدُنِّيًّا". قالَ تعالى: (عَلَّمَ الإِنْسانَ مالَمْ يَعْلَمْ). وهَذا العِلْمُ أخصُّ مِن غَيرِه؛ لِذلكَ أضافهُ اللهُ إليهِ سُبْحانَه وتعالى كَ (بَيتِهِ وناقَتِهِ وبَلَدِهِ وعَبْدِهِ) ونَحْوِ ذلكَ. فتضمحلُ العلومُ المُستنِدَةُ إلى الأدلَّةِ والشواهدِ في العِلْمِ اللدُنيِّ الحاصِلِ بِلا سَبَبٍ ولا استدلالٍ.

وقال الإمامُ ابنُ القيِّمِ: إنَّ العِلْمَ الحاصِلَ بالشواهدِ والأدلَّةِ هو العِلْمُ الحقيقيُّ، وأمَّا ما يُدعَى حُصولُه بِغَيرِ شاهدٍ ولا دَليلٍ فلا وُثوقَ بِهِ وهُو ليسَ بِعِلْمٍ.

نعمْ قَد يَقْوَى العِلْمُ الحاصِلُ بالشواهدِ ويتزايدُ؛ بحيثُ يَصيرُ (المعلومُ كالمَشْهُودِ، والغائبُ كالمُعايَنِ، وعِلْمُ اليقينِ كعَينِ اليقينِ)؛ فيكونُ الأمرُ "شُعُورًا"، ثُمَّ "تجْوِيزًا"، ثُمَّ "ظَنًّا"، ثُمَّ "عِلْمًا"، ثمَّ "مَعرِفةً"، ثمَّ "عِلْمَ يَقينٍ"، ثمَّ "حَقَّ يَقينٍ"، ثمَّ "عَينَ يقينٍ"، ثمَّ تَضْمَحِلُّ كُلُّ مَرتبَةٍ في التي فَوقَها؛ حَيثُ يَصيرُ الحُكْمُ لها دُونَها فَهذا "حَقٌّ".

وأمَّا دَعوَى وُقوعِ نَوعٍ مِن العلمِ بِغَيرِ سَببٍ مِن الاستدلالِ فَليسَ بِصَحيحٍ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتَعالى ربطَ الكائناتِ والمَعرِفاتِ بأسبابِها، ولا يحصلُ لِبَشرٍ عِلْمٌ إلاّ بِدَليلٍ يَدلُّهُ عليهِ، وقَد أيَّدَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى رُسُلَهُ بِأنواعِ الأدلَّةِ والبَراهينِ التي أثبتتْ على أنَّ ما جاءهُم هُو مِن عِندِ اللهِ تعالى، ودَلَّتْ أُمَمَهُمْ على ذلكَ أيضًا، واللهُ تَعالى

[1] مَوقِع القرضاويّ

شَهِدَ بِصِدْقِهِم بِما أقامَ على ذلكَ مِن الشواهِد؛ ف(كُلُّ عِلْمٍ لا يَستندُ إلى دليلٍ فَهُوَ دَعوى لا بُرهانَ عليهِ)، وما كانَ كذلِكَ لَمْ يَكُنْ عَلَمًا، فَضْلاً عنْ أنْ يكونَ لدَنيا.

فالعِلْمُ اللدُنِّيُّ: هُو ما قامَ الدليلُ الصحيحُ على أنَّهُ جاءَ مِن عِند اللهِ على لِسَانِ رُسُلِه، وما عَداهُ فَلَدُنِّيٌّ مِن لَدُنِ الإنسانِ نَفْسِه، منهُ بدأ وإليهِ يَعودُ.

وقَد انبثقَ سَدُّ العِلْمِ اللدُنِّيُّ ورَخَّصَ ثَمنُهُ؛ حتَّى ادَّعَتْ كُلُّ طائفةٍ أنَّ عِلْمَهُم لَدُنِّيٌّ، وَصارَ كُلُّ مَن تَكلَّمَ في حقائِقِ الإيمانِ والسُّلوكِ وبابِ الأسماءِ والصِّفاتِ بِما يَسْنَحُ لهُ ويُلقيهِ شَيطانه في قلبهِ يَزْعُمُ أنَّ عِلْمَهُ لَدُنِّيٌّ !؛ فَالملاحِدَةُ والزَّنادِقةُ يَقُولُونَ: إنَّ عِلْمَهُم لَدُنِّيٌّ. صَدَقُوا وكَذَبُوا – فإنَّ اللَدُنِّيَّ مَنسُوبٌ إلى (لَدُن) بِمَعنَى (عِنْدَ)؛ فَكأنَّهُم قالُوا (العِلْمَ العِنْدِيَّ). وقَد ذَمَّ اللهُ تَعالى مَن يَنْسبُ إليهِ ما ليسَ مِن عِنْدِهِ قال جَلَّ جَلالُهُ: ﴿**وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ**﴾. ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ**﴾. فَكُلُّ مَن قالَ هذا العِلْمُ مِن عِنْدِ اللهِ وهَو كاذِبٌ في هَذهِ النِّسْبَةِ فَلَهُ نَصيبٌ وافِرٌ مِن هَذا الذَّمِّ الشَّنِيعِ. وذَكَرَ العَلَّامةُ الأُلوسيُّ في تَفسيرِه عن الإمامِ الشِّعْرانيِّ قولَهُ: "وقَد زَلَّ في هَذا البابِ خَلْقٌ كَثيرٌ فَضَلُّوا وأضَلُّوا؛ فَمَنْ احتجَّ بالإلهامِ وَحْدَهُ على حُكْمٍ شَرْعِيٍّ فَاحتِجاجُهُ مَرْدُودٌ علَيهِ"[1].

[1] حَقِيقةُ العِلْمِ اللَّدُنيّ: مَوقِع القرضاويّ.

العلم اللدني[1]

العِلْمُ اللَّدُنِّيُّ: هُوَ كُلُّ عِلْمٍ مَوهُوبٍ مِن اللهِ سُبحانَه وتَعالى على سَبيلِ الخُصُوصِيَّةِ؛ فإنْ اقتَرَنَتْ كَلِمَةُ (لَدُن) مع الوَهْبِ الإلهيِّ فَهِيَ دلالةُ العطاءِ الخاصِّ، ومِنهُ قَولهُ تعالى في الآيةِ ٨ مِن سُورةِ آلِ عِمرانَ: (**هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً**)؛ أيّ: "خُصَّنا برَحْمَةٍ مِنْكَ"، وقَولُه في الآية ٤٠ مِن سُورةِ النِّساءِ: (**يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أجْرًا عَظِيمًا**) دَليلٌ على الخُصُوصِيَّةِ في الأجْرِ والمُكافأةِ.

والعِلْمُ اللَّدُنِّيُّ عِلْمٌ ثابِتٌ ولا يَصحُّ إنكارُهُ؛ لِقَولِه تعالى: (**وعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**)، وقَولِ العَبدِ الصالحِ لِنَبيِّ اللهِ مُوسَى عليه السلامُ: "إنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لا تَعْلَمُهُ أنْتَ، وأنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ اللهُ لا أعْلَمُهُ". (٢)

وفي الحديثِ الشَّريفِ: " اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أوْ أنْزَلْتَهُ في كِتابِكَ، أوْ عَلَّمْتَهُ أحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أوْ اسْتأثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيبِ عِنْدَكَ... "(٣)؛ لَهُوَ دَليلٌ على خُصوصِيَّةِ التعليمِ الإلهيِّ لآحادٍ أوْ خَواصٍّ مِن الخَلْقِ.

وَقَولِه صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: " مَنْ عَمِلَ بِما عَلِمَ أوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ ما لَمْ يَعْلَمْ"(٤).

---

[1] د. عبد الرزاق آيت ناجم - باحثٌ في الشأنِ الصُّوفيِّ

[2] صَحيحُ البُخاريّ، كِتابُ العِلم، بابُ "ما يُستَحَبُّ لِلعَالِمِ إذا سُئِلَ أيُّ الناسِ أعلَمُ فَيَكِل العِلْمَ إلى الله، (رقْم ١٢٢).

[3] مُسنَدُ الإمامِ أحمد: (٢٧١٢).

[4] إتحافُ السادَةِ المُتَّقِين بِشَرحِ إحياءِ عُلومِ الدِّينِ (ج١/ص٦٦٢).

وقَولِه صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: "إنَّ لِلقُرآنِ ظَهْرًا وبَطْنًا وَحَدًّا ومَطْلِعًا"(١).

وقَد دَعا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لِعَبْدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: "اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ التأويلَ"(٢).

والتأويلُ هُوَ فَهْمُ باطِنِ الكِتابِ، كما أنَّ التَّفْسَيرَ هُوَ فَهْمُ ظاهِرِهِ.

وكَذلِكَ قَولِه صَلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ: "إنَّهُ قَد كانَ فِيما مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ؛ وإنَّهُ إنْ كانَ في أُمَّتِي هَذهِ مِنْهُمْ فإنَّهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ"(٣).

وقَد وَرَدَ عن عَددٍ مِن صَحابَةِ رَسُولِ اللهِ الحديثُ عن نَوعِيَّةٍ خاصَّةٍ مِن العُلومِ لَيْسَتْ لِلعَوامِ، ومِن ذلكَ قولُ الإمامِ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: "انْدَمَجْتُ عَلَى مَكْنُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لاضْطَرَبْتُمُ اضْطِرابَ الأرْشِيَةِ في الطَّوِيّ البَعِيدَةِ". الأرشِيَةُ جَمعُ رِشَاءٍ وهُوَ الحَبْلُ. الطوي: جَمْعُ طَوِيَّةٍ وهِيَ البِئرُ. البَعيدَةُ: العَميقَةُ(٤).

وقولُ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما: "لَوْ فَسَّرْتُ لَكُمْ قَولَهُ تعالى: ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَواتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ**﴾؛ لَرَجَمْتُمُونِي"(٥).

وقَول أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: "حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ وِعاءينِ؛ فأمَّا أحَدُهُما فَبَثَثْتُهُ، وأمَّا الآخَرُ فَلَو بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذا البُلعُومُ"(٦).

---

١ تفسيرُ الطبريِّ: (ج١/ص٢٢).
٢ المُسْتَدْرَكُ على الصَّحِيحَينِ، كِتابُ مَعرِفَةِ الصَّحابةِ: (٦٢٨٧).
٣ تاريخُ مَدينةِ دِمَشقَ، لِلحافِظِ ابنِ عَساكِر: (ج٤٤/ص٩٤).
٤ نهجُ البلاغةِ: (ج١/ص٤١).
٥ تفسيرُ ابنِ كثيرٍ: (ج٨/ص١٥٦).
٦ صَحيح البُخاريِّ: (كِتابُ العِلم، بابُ حِفظ العِلم: ١٢٠).

قال الإمامُ ابنُ حجرٍ العَسقلانيُّ في شَرحِ هذا الحَديثِ: "وَيحتَملُ أنَّه أرادَ مع الصِّنْفِ المَذكُورِ ما يَتعلَّقُ بأشراطِ الساعةِ وتغيُّرِ الأحوالِ والملاحِمِ في آخِرِ الزَّمانِ؛ فَيُنْكِر ذَلِكَ مَنْ لمْ يألَفْهُ، ويَعْتَرِض عَليهِ مَنْ لا شُعُورَ لَهُ بِهِ"[1].

فهَذهِ كُلُّها أدِلّةٌ على وُجودِ عِلْمٍ خَفِيٍّ خاصٍّ يُكاشِفُ بِهِ اللهُ سُبْحانَه وتعالى مَنْ شاءَ مِن عِبادِهِ. وقَد اصْطُلِحَ على تَسْمِيتِهِ بِـ "العِلْمِ اللَّدُنِّيِّ"؛ أيّ: العِلْمَ الخَفِيَّ الباطِنَ الذي اختصَّ اللهُ بِهِ الخَواصَّ مِن خَلْقِهِ، وقَد يُسَمِّيهِ البعضُ "العِلْمَ الباطِنِيَّ" و"العِلْمَ الوَهْبِيَّ".

أمّا الحقائِقُ فإنَّها تُعتبَرُ عِلْمًا لَدُنِّيًا إنْ كانتْ وَهْبًا مِن اللهِ على سَبيلِ الاختِصاصِ، ولا تكُونُ عِلْمًا لَدُنِّيًا إنْ كانتْ غَيرَ ذَلِكَ؛ لِقَولِه تَعالى: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾؛ فَشَرْطُ هذا العِلْمِ أنْ يَكُونَ المُعَلِّمُ هُوَ اللهَ تعالى، والحَقُّ سُبْحانَهُ وتعالى يُعَلِّمُ عِبادَهُ عن طَريقِ أُمُورٍ كَثيرةٍ؛ مِنها (الرُّؤيا، والإلْهامُ، والكَشْفُ، والإلْقاءُ، والمُنازَلَةُ، والفَهْمُ)؛ فأكثرُ العِلْمِ اللَّدُنِّيِّ لا يأتي إلَّا مِن الفَهْمِ في كِتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فَكُلُّ مَن ألمَّ بِعِلْمِ الحَقائِقِ عن طَريقِ (الدِّراسَةِ أو القِراءةِ أو التفكيرِ والاستِنباطِ) فليسَ مِن العِلْمِ اللَّدُنِّيِّ في شَيءٍ. وأمَّا (ما يُكاشَفُ بِه أو يُطالَعُ بِهِ أو يُلْقَى إليهِ) مِن رَبِّهِ فَهُوَ مِنْ لَدُنِ اللهِ رَبِّ العالَمِينَ.

وهَذهِ العُلومُ والحقائِقُ لا تَتعارَضُ معَ قَولِه تعالى في الآيةِ ٣ مِن سُورةِ المائِدَةِ: ﴿**اليَومَ أكمَلتُ لَكُم دِينَكُم**﴾؛ فإنَّ الدِّينَ هُو الدُّسْتُورُ الإلهيُّ والقانُونُ السَّماويُّ الذي يُدانُ بِهِ العِبادُ يَومَ الدَّينُونةِ الكُبْرَى، وقَد اكتَملَ هذا الدِّينُ في

[1] فتحُ الباري بِشَرحِ صَحيحِ البُخاريّ: (ج١/ص٢٦٢).

عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ مَنْهَجًا وشَريعةً، أمَّا الفَهْمُ في الكتابِ فإنَّ بابَهُ مَفتوحٌ لا يُغْلَقُ إلى قيامِ الساعةِ. والعِلْمُ مُمْتَدٌّ؛ لأنَّ عِلْمَ اللهِ لا نِهايةَ لهُ، وَوَحْيُ اللهِ لِعِبادِهِ المُسَمَّى ب "الإلْهامِ" لا يَنقطِعُ؛ لِقَولِه تعالى في الآيةِ ٧٢ مِن سُورةِ الأنبياءِ: (**وأوْحَيْنا إليهِمْ فِعْلَ الخَيراتِ**).

أمّا الدِّينُ فَهُوَ (التوحيدُ والتكليفُ والتشريعُ)؛ كـ (الحَلالِ والحَرامِ والحُقوقِ) وغَيرِها، و"ليسَ كُلُّ عِلْمٍ هُو تكليفيٌّ تشرِيعيٌّ"؛ فإنَّ مِن العُلومِ ما هوَ "تحقيقيٌّ"، ومِنها ما هُوَ غَيرُ ذَلِكَ. و (لا يَتعارَضُ العِلمُ مع الدِّينِ؛ بل هُوَ مِن الدِّينِ).

والحقُّ سُبْحانَه وتَعالى يَقُولُ في الآيةِ ٢٨٢ مِن سُورةِ البَقرَة: (**واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ**).

هَناكَ مَلحُوظةٌ مُهمَّةٌ جِدًّا: إنَّ أيَّ عِلْمٍ يُخالِفُ شَريعةَ اللهِ فَهُوَ باطِلٌ؛ حَتَّى لو كانَ ذَلِكَ العِلْمُ مَرْوِيًّا عن أيِّ أحَدٍ مِن (الأكابِرِ أو الأولياءِ أو المُكاشَفِينَ أو الخَواصِّ) أو غَيرِهِم؛ ف "الدِّينُ والشَّرْعُ يَعْلُوانِ على كُلِّ شَيءٍ ولا يَعْلُوهُما شَيءٌ".

وما وَرَدَ في قِصَّةِ العَبدِ الصالِحِ ونبيِّ اللهِ مُوسَى عليهِما السلامُ ليسَ بِحُجَّةٍ على عُلُويَّةِ اللَّدُنِّيَّاتِ على الشَريعةِ الرَّبَّانيَّةِ؛ وإلاّ لَما اعترضَ مُوسَى عليهِ السلامُ على الخِضرِ، ولولا أنَّ اللهَ سُبحانَه وتَعالى قَد أمرَهُ بِذَلِكَ قَبْلَ الذَّهابِ إليه لأقامَ سَيِّدُنا مُوسَى عليهِ السلامُ عليهِ الحَدَّ الشَّرْعِيَّ. واللهُ تعالى أعلَى وأعلَمُ.

إعراب الآيات الكريمة[1]

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾

(وإذ) الواوُ: اسْتِئنافِيَّةٌ، إذْ: اسمُ ظَرْفٍ ساكنٌ في مَحلِّ نَصبِ مَفعُولٍ بِهِ لِفِعْلٍ مَحذُوفٍ تقديرُه "اُذْكُرْ" .

(قالَ) فِعلٌ ماضٍ مَبنيٌّ على الفتْحِ.

(مُوسَى) فاعلٌ مرفوعٌ وعلامةُ رفْعِهِ الضَّمَّةُ المُقدَّرةُ على الألفِ لِلتعذُّرِ.

(لِفَتاهُ) اللامُ: حرفُ جرٍّ، فَتَاهُ: اسمٌ مَجرُورٌ وعلامةُ جَرِّهِ الكسرةُ المُقدّرةُ على الألفِ لِلتعذُّرِ مُتعلِّقانِ ب (قال)، الهاءُ: ضميرٌ في مَحلِّ جرٍّ مُضافٍ إليهِ.

(لا) نافيةٌ. (أبْرَحُ) فِعلٌ مُضارِعٌ مَرفُوعٌ، والفاعِلُ ضميرٌ مُستترٌ تقديرُه أنا.

(حتّى) حرفُ غايةٍ وجَرٍّ. (أبْلُغَ) فِعلٌ مُضارِعٌ مَنصُوبٌ بأنْ مُضمَرة بعدَ حتَّى، والفاعلُ أنا، والمَصدرُ المُؤوَّلُ "أنْ أبْلُغَ" في محلِّ جرٍّ ب(حتَّى) مُتعلِّقٌ ب (أبْرَح).

(مَجْمَعَ) مَفعُولٌ بِهِ مَنصُوبٌ. (البَحْرَينِ) مُضافٌ إليهِ مَجرورٌ وعلامةُ جَرِّهِ الياءِ؛ لأنَّهُ مُثنَّى. (أوْ) حَرفُ عَطفٍ (أمْضِيَ) فِعلٌ مُضارِعٌ مَنصُوبٌ؛ لأنَّه مَعطُوفٌ على (أبْلُغَ).

(حُقُبًا) ظَرفُ زَمانٍ مَنصُوبٌ مُتعلِّقٌ ب (أمْضِيَ). جُملَة (قالَ مُوسَى) في مَحلِّ جَرٍّ مُضافٍ إليهِ.

جُملةُ (لا أبْرَحُ) في مَحلِّ نَصبِ مَقُولِ (قالَ).

جُملَةُ (أبْلُغَ) صِلةُ المَوصُولِ الحَرفيِّ "أن" لا مَحَلَّ لها.

[1] مرجع سابق، الطيب.

جُملَةُ (أمْضِيَ . .) مَعطُوفةٌ على جُملةِ صِلَة المَوصولِ الحَرفيِّ(أبْلُغَ) لا مَحلَّ لها .

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا)

(فَلَمّا) الفاءُ: حرفُ عَطفٍ، (لَمّا) ظرفُ زمانٍ مبني على السكونِ في مَحلِّ نَصْبٍ مُتضمِّنٌ مَعنَى الشرطِ مُتَعلِّقٌ ب (نَسِيَا) .

(بَلَغَا) فِعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، والألفُ: ضميرٌ بارزٌ مُتّصِلٌ في مَحلِّ رَفْع فاعل .

(مَجْمَعَ) مفعولٌ بهِ منصوبٌ . (بَينِهِما) بَينِ: ظرفُ مكانٍ مَجرورٌ وهُو مُضافٌ إليهِ، هِما: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليهِ .

(نَسِيَا) إعرابُها كَإعرابِ (بَلَغَا) . (حُوتَهُما) حُوتَ: مفعولٌ بهِ منصوبٌ، هُما: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليهِ .

(فاتّخَذَ) الفاءُ: حرفُ عطفٍ، اتَّخَذَ: فعلٌ ماضٍ مبني على الفتْحِ، والفاعِلُ هُوَ؛ أيّ (الحُوت) .

(سَبِيلَهُ) سبيلَ: مفعولٌ بهِ مَنصُوبٌ أو مفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ مَحذُوفٍ، والهاءُ: ضمير في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليهِ .

(في البَحْرِ) جارٌّ ومَجْرُورٌ مُتَعَلِّقانِ بِحالٍ مِن (سَبيل) أو مِن (سَرَبًا) .

(سَرَبًا) مَفعولٌ بهِ ثانٍ مَنصُوبٌ أو مَفعُولٌ مُطلَقٌ لفعلٍ مَحذُوفٍ . جُملَةُ (بَلَغا) في مَحَلِّ جَرّ مُضافٍ إليه .

جُملَةُ (نَسِيا) جَوابُ شَرطٍ غَيرُ جازمٍ لا مَحلَّ لها .

جُملَةُ (اتَّخَذَ . .) لا مَحلَّ لها معطوفةٌ على جُملةِ جَوابِ الشرطِ .

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾

(فَلَمّا جاوَزا) الفاءُ: حرفُ عطفٍ، (لَمّا جاوَزا) مِثل فَلَمَّا (بَلَغا).

(قالَ) فِعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، والفاعلُ "هوَ".

(لِفَتاهُ) مَرَّ مِثلُه في الآية ٦٠.

(آتِنا) آتِ: فِعلُ أمرٍ مَبنيٌّ على حَذْفِ الياءِ، والفاعلُ ضميرٌ مُستترٌ تقديرهُ أنْتَ، نا: ضميرٌ بارزٌ مُتصِلٌ في محلِّ نَصبِ مَفعولٍ بهِ.

(غَداءَنا) غداءَ: مفعولٌ بهِ ثانٍ مَنصوبٌ، نا: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليهِ.

(لَقَدْ) اللامُ: رابطةٌ لجَوابِ قَسَمٍ مُقدَّرٍ، قَد: حرفُ تحقيقٍ.

(لَقِيْنا) لَقِيْ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ، نا: ضميرٌ في محلِّ رفْع فاعل.

(مِنْ سَفَرِنا) جارٌّ ومَجرُورٌ مُتعلِّقانِ ب (لَقِيْنا)، نا: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليهِ. (هَذا) الهاءُ: حرفُ تنبيهٍ، ذا: اسمُ إشارةٍ مَبنيٌّ على السكونِ في مَحلِّ جرٍّ بَدَلٍ مِن (سَفَرِنا).

(نَصَبًا) مَفعولٌ بهِ ل (لَقِيْنا) منصوبٌ.

جُملةُ (جاوَزا) في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليه. جُملةُ (قالَ) جوابُ شرطٍ غَيرُ جازمٍ لا محلَّ لها.

جُملةُ (آتِنا) في مَحلِّ نَصبِ مَقولِ (قال) جُملةُ (لَقِيْنا) جوابُ قَسَمٍ مُقدَّرٌ لا محلَّ لها، والقَسمُ وجَوابُه استئنافٌ تعليليٌّ.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾

(قالَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، والفاعلُ: هوَ أي "الفَتَى" .

(أرأيْتَ) الهمزةُ للاستِفهامِ التعَجُبيِّ، رأيتَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ، والتاءُ: ضميرٌ بارزٌ مُتَّصِلٌ في محلِّ رفْع فاعل.

(إذْ) ظرفُ زَمانٍ مبنيٌّ على السكونِ في مَحلِّ نَصبٍ مُتعلِّقٌ بِصِلَةِ المفعولِ المحذُوف.

(أوَيْنا) أوَي: فعلَ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ رفْع فاعل، نا: ضميرٌ بارزٌ مُتَّصِلٌ في محلِّ رفْع فاعل.

(إلى الصَّخْرَةِ) جارٌّ ومَجرُورٌ مُتعلِّقان ب (أوَيْنا) .

(فإنِّي) الفاءُ: استِئنافيّةٌ، إنِّ: حرفُ توكيدٍ ونَصْبٍ، الياءُ: ضميرٌ بارزٌ مُتَّصِلٌ في محل نصبِ اسم (إنّ) .

(نَسِيْتُ) مِثل (رأيتُ) . (الحُوتَ) مفعولٌ بهِ منصوبٌ.

(وَما) الواو: اعتراضيّةٌ، ما: نافيةٌ. (أنْسَانِيه) أنسى: فعلٌ ماضٍ مبني على الفتحِ المُقدَّرِ على الألفِ للتعذُّرِ، النونُ: للوقايةِ، الياءُ: ضميرٌ بارزٌ مُتَّصِلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ أوّل، الهاءُ: مفعولٌ بهِ ثانٍ منصوبٌ. (إلاّ) أداةُ حَصرٍ

(الشَّيطانُ) فاعلٌ مرفوعُ. (أنْ) حرفٌ مَصدَرِيّ ونَصْبٍ.

(أذْكُرَهُ) أذْكُرَ: فعلٌ مُضارِعٌ منصوبٌ، والهاءُ: مفعولٌ بهِ منصوبٌ، والفاعلُ ضميرٌ مُستترٌ تقديرُه "أنا"، والمَصدَرُ المُؤوَّلُ (أنْ أذْكُرَهُ..) في مَحلِّ نَصْبِ بَدَلِ اشتمالٍ مِن الهاءِ في (أنْسانِيه) .

(واتَّخَذَ) الواو : حرفُ عطفٍ ، (اتّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ عَجَبًا) مِثل (اتّخَذَ سَبِيلَهُ في البَحْرِ سَرَبًا) في الآية ٦١ . جُملةُ (قالَ) استئنافيةٌ بيانيّةٌ لا محلَّ لها .

جُملةُ (أرأيْتَ) في محلِّ نَصْبِ مَقولِ (قال) . جُملةُ (أوَيْنا) في مَحلِّ جرِّ مُضافٍ إليهِ . جُملةُ (إنِّي نَسِيْتُ) استئنافيّةٌ لا محلَّ لها . جُملةُ (نَسِيتُ) في محلِّ رفْع خَبرِ "إنّ" . جُملةُ (ما أنْسانيهِ إلَّا الشَّيطانُ) اعتراضيّةٌ لا مَحلَّ لها . جُملةُ (أذْكُرَهُ) صِلةُ الموصولِ الحَرفيِّ "أنْ" لا محلَّ لها .

جُملةُ (اتّخَذَ) معطوفةٌ على جُملةِ (إنِّي نَسِيتُ) لا محلَّ لها .

(قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصًا . فَوَجَدا عَبْدًا مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)

(قالَ) فِعلٌ ماضٍ مبني على الفتحِ ، والفاعلُ "هُوَ" أيّ مُوسَى .

(ذَلِكَ) ذا : اسمُ إشارةٍ مَبنيٌّ على السكونِ في محلِّ رفْع مبتدأ ، اللامُ : لِلبُعدِ ، الكافُ : للخطابِ . (ما) اسمٌ مَوصُولٌ مبني على السكونِ في محلِّ رفْع خبر .

(كُنَّا) كُن : فعلٌ ماضٍ ناقصٍ مبنيٌّ على السكونِ ، (نا) المُدغَمةُ اسمُه .

(نَبْغِ) فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ وعلامةُ رفْعِهِ الضَّمّةُ المُقدّرةُ على الياءِ المَحذُوفةِ مِن الرسْمِ تَخْفِيفًا ، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرُه "نَحْنُ" .

(فارْتَدَّا) الفاءُ : حرفُ عطفٍ ، ارْتَدَّا مِثل (بَلَغا) في الآية ٦١ .

(على آثارِهِما) جارٌّ ومَجرُورٌ مُتعلِّقانِ ب (ارْتَدّا) ، (هِما) ضميرٌ بارزٌ مُتَّصلٌ في محلِّ جَرّ مُضافٍ إليهِ . (قَصَصًا) مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ مَحذُوفٍ منصوبٌ .

جُملةُ (قالَ) استئنافيّةٌ لا محلَّ لها. جُملةُ (ذَلِكَ ما كُنَّا) في محلِّ نَصبِ مَقول (قال). جُملةُ (نَبْغِ) في محلِّ نصبِ خَبر (كُنّا).

جُملةُ (ارْتَدّا) معطوفةٌ على الاستئنافيّةِ لا محلَّ لها.

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥).

(فَوَجَدا) الفاءُ حرفُ عطفٍ، وَجَدا: مِثل (ارْتَدَّا) السابقة. (عَبْدًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. (مِنْ عِبادِنا) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ بِمحذُوفٍ نَعتٍ ل (عَبْدًا)، نا: ضميرٌ بارزٌ متَّصلٌ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليهِ. (آتَيْناهُ) آتَ: فِعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ، نا: ضميرٌ بارزٌ مُتصلٌ في محلِّ رفْع فاعل، الهاءُ: ضميرٌ بارزٌ مُتصلٌ في محل نصبِ مفعولٍ بهِ. (رَحْمَةً) مفعولٌ بهِ ثانٍ منصوبٌ. (مِنْ عِنْدِنا) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ بنَعتٍ ل (رَحْمَة)، نا: ضميرٌ بارزٌ مُتصلٌ في محلّ جرٍّ مُضافٍ إليهِ. (وَعَلَّمْناهُ) الواو: حرفُ عطفٍ، عَلَّمْناهُ: مِثل (آتَيناهُ).

(مِنْ لَدُنَّا) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (عَلَّمْناهُ). نا: ضميرٌ بارزٌ مُتَّصلٌ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليهِ. (عِلْمًا) مفعولٌ بهِ ثانٍ منصوبٌ. جُملةُ (وَجَدا) معطوفةٌ على جُملةِ (ارْتَدّا) لا محلَّ لها. جُملةُ (آتَيناهُ) في محلِّ نَصبِ نَعتٍ ل (عَبْدًا). جُملةُ (عَلَّمْناهُ) معطوفةٌ على جُملةِ آتيناهُ في محلِّ نَصبٍ.

(قالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)

(قالَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتحِ. (لهُ) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (قالَ).

(مُوسَى) فاعلٌ مَرفُوعٌ وعلامةُ رَفْعِهِ الضَّمَّةُ المُقدَّرةُ على الألفِ لِلتعذُّرِ.

(هلْ) حرفُ استفهامٍ. (أتّبِعُكَ) أتَّبِعُ: فعلٌ مُضارعٌ مَرفوعٌ، الكافُ: ضميرٌ بارزٌ مُتصِلٌ في مَحلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ، وفيهِ ضميرٌ مُستترٌ تقديرُه أنا في محلِّ رفْع فاعل. (على) حرفُ جرٍّ. (أنْ) حرفُ مَصدريٌّ ونَصبٍ.

(تُعَلِّمَنِ) تُعَلِّمَ: فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ، النونُ: للوقايةِ، الياءُ المحذُوفةُ للتَّخفيفِ ضميرٌ مستترٌ في محلِّ نصب مفعولٍ بهِ، والمَصدرُ المُؤوَّلُ (أنْ تُعَلِّمَنِ) في محلِّ جرٍّ ب (عَلَى) مُتعلِّقانِ بِحالٍ من "الكافِ" في (أتَّبِعُكَ)؛ أيّ: مُثابِرًا على تَعلِيمِي.

(مِنْ) حرفُ جرٍّ. (ما) اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ جرّ ب(مِن) مُتعلِّقانِ ب (تُعَلِّمَنِ).

(عُلِّمْتَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهولِ مبنيٌّ على السكونِ، التاء: ضميرٌ بارزٌ مُتصِلٌ مبني على الفتح في محلِّ رفْع نائبِ فاعل. (رُشْدًا) مفعولٌ بهِ ثانٍ منصوبٌ ل (تُعَلِّمَنْ). جُملةُ (قالَ لهُ مُوسَى) استئنافيّةٌ لا محلَّ لها.

جُملةُ (هلْ أتّبِعُكَ..) في محلِّ نصبِ مَقولِ (قال).

جُملةُ (تُعَلِّمَنِ) صِلةُ الموصولِ الحَرفيِّ (أنْ) لا محلَّ لها.

جُملةُ (عُلِّمْتَ) صِلةُ الموصولِ (ما) لا محلَّ لها.

(قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)

(قالَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، والفاعلُ ضميرٌ مُستَترٌ تقديرُه "هوَ" أيّ الرَّجُلَ العالِمَ.

(إنّكَ) إنّ: حرفُ توكيدٍ ونَصْبٍ، الكافُ: ضميرٌ في محلِّ نصبِ اسْم (إنّ).

(لـنْ) حـرفُ نـفيٍ ونـصب (تَسْـتطِيعَ) فـعلٌ مـضارعٌ مـنصوبٌ، والـفاعـلُ ضـميرٌ تقديـرُه "أنتَ" . (مَعِيَ) معَ: ظرفُ منصوبٌ وعلامةُ نَصبهِ الفتحةُ المُقدَرةُ على ما قبل الياءِ مُتعلِّقٌ بِحالٍ مِن الفاعلِ، الياءُ: ضمير في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه

(صَبْرًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. جُملةُ (قالَ) استئنافيةٌ بيانيّةٌ لا محلَّ لها. جُملةُ (إنّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ) في مَحلِّ نَصبِ مَقولِ (قالَ) .

جُملةُ (تَستطِيعَ) في مَحلّ رفْع خبر (إنَّ) .

(وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)

(وكَيفَ) الواو: حرفُ عطفٍ، كيفَ: اسمُ استفهامٍ مبنيٌّ على الفتحِ في محلِّ نَصبِ حالٍ مِن فاعلِ (تَصْبِرُ) .

(تَصْبِرُ) فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ "أنتَ" .

(عَلَى) حرفُ جرٍّ. (ما) اسمُ موصولٌ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ جرّ ب(عَلَى) مُتعلِّقٌ ب(تَصْبِرُ) . (لمْ) حرفُ نفيٍ وجَزْمٍ وقَلْبٍ.

(تُحِطْ) فعلٌ مُضارعٌ مجزومٌ، والفاعلُ ضميرٌ مُستترٌ تقديرهُ أنتَ.

(بِهِ) جارٌّ ومجرُورٌ مُتعلِّقانِ ب (تُحِطْ) .

(خُبْرًا) مفعولٌ مطلقٌ منصوبٌ نائبٌ عن المصدرِ؛ لأنَّهُ مُرادِفٌ لهُ.

جُملةُ (تَصْبِرُ) معطوفةٌ على جُملةِ (إنّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ) في محلِّ نصبٍ.

جُملةُ (تُحِطْ) صِلةُ الموصولِ (ما) لا محلَّ لها.

(قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)

(قالَ) مِثل سابقتِها . (سَتَجِدُنِي) السينُ: حرفُ استقبالٍ، تجِدُ: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، النونُ: لِلوِقايةِ، الياءُ: ضميرٌ بارز متصل في محلِّ نصبِ مفعولٍ بِه، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ أنتَ. (إنْ) حرفُ شرطٍ جازم.

(شاءَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ في مَحلِّ جَزمِ فعلِ الشرطِ.

(اللهُ) اسمُ الجَلالةِ فاعلٌ مرفوعٌ. (صابِرًا) مفعولٌ بِه ثانٍ منصوبُ ل (تجِد).

(وَلا) الواو: حرفُ عطفٍ، لا: نافيةٌ. (أعْصِي) فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ وعلامةُ رفْعِه الضَّمّةُ المُقدَّرةُ على الياءِ للثِّقلِ، الفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ أنا.

(لَكَ) اللامُ: حرفُ جرٍّ، والكافُ: ضميرٌ بارزٌ مُتَّصِلٌ في محلِّ جرّ مُتَعلِّقانِ ب (أعْصِي). (أمْرًا) مفعولٌ بِه منصوبٌ.

جُملةُ (قالَ) استئنافيةٌ بيانيّةٌ لا محلَّ لها. جُملةُ (سَتَجِدُنِي) في محلِّ نَصبِ مقولِ (قالَ). جُملةُ (إنْ شاءَ اللهُ) اعتراضيّةٌ لا محلَّ لها، وجوابُ الشرطِ مَحذُوفٌ دلَّ عليهِ جُملةُ (تجِدُنِي). جُملةُ (أعْصِي) في محلِّ نصبٍ معطوفةٌ على المفعولِ الثاني (صابِرًا)؛ أيّ: "صابِرًا وغَيرَ عاصٍ".

(قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا)

(قالَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ هوَ.

(فَإِنِ) الفاءُ: فاءُ الفصيحةِ، إنْ: أداةُ شرطٍ جازِمة.

(اتَّبَعْتَنِي) اتَّبَعْ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ جزمِ فعلِ الشرطِ، التاء: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفْع فاعل، النون: لِلوقاية، الياء: ضميرٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ بِه. (فَلا) الفاءُ: رابطةٌ لِجَوابِ الشرطِ، لا: حرفُ نَفيٍّ ونَهيٍ. وجزمٍ.

(تسألني) تسألْ: فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ، النون: لِلوقايةِ، الياء: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ بِه، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ أنتَ.

(عَنْ شَيءٍ) جارٌّ ومجرورٌ مُتَعلِّقانِ ب (تَسْألْني). (حتَّى) حرفُ غايةٍ وجرٍّ.

(أُحْدِثَ) فعلٌ مضارعٌ منصوبُ بِأنْ المُضمَرة بعدَ حتَّى، والفاعلُ ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفع تقديرهُ أنا، والمَصدَرُ المُؤَوَّلُ "أنْ أُحْدِثَ" في محلِّ جرٍّ ب (حتَّى) مُتعلِّقانِ ب (تَسْأل). (لَكَ) اللامُ: حرفُ جرٍّ، والكافُ: ضميرٌ بارزٌ مُتصلٌ في محلِّ جرٍّ مُتعلِّقانِ ب (أُحْدِثَ).

(منهُ) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ بِحالٍ مِن (ذِكْرًا).

(ذِكْرًا) مفعولٌ بِهِ منصوبٌ. جُملةُ (قالَ) استئنافيّةٌ بيانيةٌ لا محلَّ لها، جُملةُ (إنْ اتَّبَعْتَنِي) جوابُ شرطٍ مُقدَّرٍ في محلِّ جَزمٍ؛ أيّ: إنْ عَزمْتَ على الصبرِ. جُملةُ (لا تَسْأَلْنِي) جوابُ شرطٍ مُقترنٍ بالفاءِ في محلِّ جَزمٍ.

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا)

(فانْطَلَقا) الفاءُ: استئنافيّةٌ، انْطَلَقا: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، الألف: ضميرٌ بارزٌ مُتصلٌ في محلِّ رفْعِ فاعلٍ. (حتّى) للابْتداء. (إذا) ظرفُ زمانٌ لِلمُستقبَلِ مُتضمِّنٌ معنَى الشرطِ مبنيٌّ على السكونِ مُتعلِّقٌ بِ (خَرَقَها). (رَكِبا) مِثل (انْطَلَقا). (في السَّفِينَةِ) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (رَكِبا).

(خَرَقَها) خَرَقَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، والهاء: ضميرٌ في محلِّ نَصبِ مفعولٍ به، والفاعلُ هُوَ؛ أيّ "الرَّجُلُ العالِمُ". (قالَ) كسابِقَتِها.

(أَخَرَقْتَها) الهمزةُ للاستفهامِ الإنكاريِّ، خَرَقَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ، التاءُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في مَحلِّ رفْعِ فاعلٍ، الهاء: مفعولٌ بهِ.

(لِتُغْرِقَ) اللامُ: لامُ التعليلِ، تُغْرِقَ: فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ بأنْ المُضمَرة بعدَ لامِ التعليلِ، وفيه ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ أنت في محلِّ رفْع فاعلٍ. (أهْلَها) أهلَ: مفعولٌ بهِ منصوبٌ، ها: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليه، والمَصدَرُ المُؤوّلُ (أنْ تُغْرِقَ) في محلِّ جرٍّ باللامِ مُتعلِّقٌ بِ (خَرَقْتَها). (لقَد) اللامُ: لامُ القَسَمِ لِقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، قَد: حرفُ تحقيقٍ. (جِئْتَ) مِثل خَرَقْتَ. (شَيئًا) مَفعولٌ بهِ منصوبٌ.

(إمْرًا) نعتٌ ل (شَيئًا) منصوبٌ. جُملةُ (انْطَلَقا) استئنافيّةٌ لا محلَّ لها.

جُملةُ (رَكِبا) في محلِّ جَرّ مُضافٍ إليهِ. جُملةُ (خَرَقَها) جوابُ شرطٍ غيرُ جازمٍ لا محلَّ لها. جُملةُ (قالَ) استئنافيةٌ بيانيّةٌ لا محلَّ لها.

جُملةُ (خَرَقْتَها) في محلِّ نصبِ مَقولِ (قال).

جُملةُ (تُغْرِقَ) صِلةُ المَوصُولِ الحَرفيِّ (أنْ) المُضمَرة لا محلَّ لها.

جُملةُ (جِئْتَ شَيئًا) جوابُ قَسمٍ مُقدَّرٍ لا محلَّ لها.

قالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢).

(قال) كسابقتِها. (ألمْ) الهمزةُ: للاستفهامِ الإنكاريِّ، لم: حرفُ نفيٍّ وجَزمٍ وقلبٍ. (أقُلْ) فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ، والفاعلُ: تقديرهُ أنا. (إنَّكَ) إنَّ: حرفُ توكيدٍ ونصبٍ، الكافُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ نصبِ اسمها. (لنْ) ناصبةٌ، (تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) مرَّ إعرابُها في الآية ٦٧.

جُملةُ (قالَ) استئنافيةٌ بيانيّةٌ لا محلَّ لها.

جُملةُ (ألمْ أقُلْ) في محلِّ نصبِ مقولِ (قالَ) .

جُملةُ (إنَّكَ لنْ تَسْتَطِيعَ) في محلِّ نصبِ مقولِ (أقُل) .

جُملةُ (لنْ تَسْتَطِيعَ) في محلِّ رفْع خَبر (إنَّ) .

(قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا)

(قالَ) كإعرابِها السابق . (لا) ناهيةٌ جازمةٌ . (تُؤاخِذْنِي) تُؤاخِذْ : فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ، النونُ : لِلوقايةِ، الياء : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به، الفاعلُ تقديرهُ "أنتَ" . (بِما) الباءُ : سببيَّةٌ لِلجَرِّ، ما : اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ جرٍّ بالباءِ . (نَسِيتُ) نَسِي : فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ، التاء : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفْع فاعل .

(ولا تُرْهِقْنِي) الواو : حرفُ عطفٍ، (لا تُرْهِقْنِي) مِثل لا تُؤاخِذْنِي .

(مِن أمْري) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ بِحالٍ مِن ضميرِ الفاعلِ؛ أيّ : ضائقًا مِن أمْري، الياءُ : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه . (عُسْرًا) مفعولٌ بهِ ثانٍ منصوبٌ . جُملةُ (قالَ) استئنافيةٌ بيانيّةٌ لا محلَّ لها . جُملةُ (لا تُؤاخِذْنِي) في محلِّ نصبِ مقولِ (قال) . جُملةُ (نَسِيتُ) صِلةُ الموصولِ الحَرفيِّ (ما) لا محلَّ لها . جُملةُ (لا تُرْهِقْنِي) معطوفةٌ على (لا تُؤاخِذْنِي) في محلِّ نصبٍ .

(فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلامًا فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا)

(فانْطَلَقا حتَّى إذا لَقِيا) مَرَّ إعرابُ نَظيرِها في الآية ٧١ .

(غُلامًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ . (فَقَتَلَهُ) الفاءُ : حرفُ عطفٍ وتعقيبٍ،

قَتَلَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، الهاءُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ، الفاعلُ تقديرهُ (هُو)؛ أيّ: الخِضر. (قالَ أقَتَلْتَ نَفْسًا) مِثل (قالَ أخَرَقْتَها).

(زَكِيَّةً) نَعتٌ لـ(نَفْسًا) منصوبٌ. (بِغَيرِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ بحالٍ مِن الفاعلِ.

(نَفْسٍ) مُضافٌ إليهِ مجرورٌ. (لقَد جِئْتَ شَيئًا نُكْرًا) مِثل (لقَد جِئْتَ شَيئًا إمْرًا).

جُملةُ (انْطَلَقا) استئنافيّةٌ لا محلَّ لها. جُملةُ (لَقِيا) في محلِّ جرّ مُضافٍ إليهِ.

جُملةُ (قَتَلَهُ) معطوفةٌ على (لَقِيا) في محلِّ جرٍّ.

جُملةُ (قالَ) جوابُ شرطٍ غيرُ جازمٍ لا محلَّ لها.

جُملةُ (أقَتَلْتَ) في محلَّ نصبِ مَقولِ (قالَ).

جُملةُ (جِئْتَ شَيئًا) جوابُ قسمٍ مُقدَّر لا محلَّ لها.

(قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

(قالَ) كسابقتِها. (ألَمْ) الهمزةُ: للاستفهامِ الإنكاريِّ، لمْ: حرفُ نفيٍ وجَزمٍ وقلبٍ. (أقُلْ) فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ، والفاعل ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ (أنا).

(لَكَ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ بـ(أقَلَّ). جُملةُ (قالَ) استئنافيةٌ بيانيّةٌ لا محلَّ لها.

جُملةُ (أقُلْ) في محلِّ نصبِ مَقولِ القولِ لفِعلِ (قالَ).

جُملةُ (إنّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ) في مَحلِّ نصبِ مقولِ القولِ لِفعلِ (أقُلْ).

جُملةُ (لنْ تَسْتَطِيعَ) في محلِّ رفْع خبر (إنَّ).

(قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا)

(قالَ) كسابقتِها. (إنْ) شرطيةٌ جازمةٌ.

(سألْتُكَ) سألْ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ جزمِ فعلِ الشرطِ،

التاءُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفْع فاعل، الكاف: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ. (عَنْ شَيءٍ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (سَأَلْتُكَ).

(بَعْدَها) بعدَ: ظرفُ زمانٍ منصوبٌ مُتعلِّقٌ بفعل (سألْتُكَ)، الهاءُ: ضميرٌ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليهِ. (فَلا) الفاءُ: رابطةٌ لجَوابِ الشرطِ، لا: ناهيةٌ جازمةٌ.

(تُصاحِبْنِي) تُصاحِبْ: فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ وعلامةُ جزمِهِ السكونُ، النونُ: للوقايةِ، الياءُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محل نصبِ مفعولٍ بهِ، الفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ "أنتَ". (قَد) للتحقيقِ. (بَلَغْتَ) بَلَغَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ، التاءُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفْعِ فاعلٍ.

(مِن لَدُنِّي) مِن: حرفُ جرٍ، لَدُن: ظرفُ مكانٍ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ جرٍّ ب (مِن) مُتعلِّقٌ ب(بَلَغْتَ) أو بِحال مِن (عُذْرًا)، النونُ المُدغَمةُ للوقايةِ، الياءُ مُضافٌ إليهِ. (عُذْرًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. جُملةُ (قالَ) استئنافيّةٌ لا محلَّ لها.

جُملةُ (سَأَلْتُكَ) في محلِّ نصبِ مقولِ (قالَ).

جُملةُ (لا تُصاحِبْنِي) جوابُ الشرطِ مُقترنةٍ بالفاءِ في محلِّ جزمٍ.

جُملةُ (بَلَغْتَ) استئنافيةٌ تعليليّةٌ لا محلَّ لها.

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا)

(فانْطَلَقا) الفاءُ: استئنافيّةٌ، انْطَلَقا: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، الألفُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفْعِ فاعلٍ.

(حتّى) حرفُ ابتداءٍ. (إذا) ظرفٌ لما يستقبَلُ مِن الزمانِ مبنيٌّ على السكونِ مُتضمِّنٌ معنى الشرطِ مُتعلِّقٌ ب (اسْتَطْعَما). (أتَيا) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، الألفُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفْعِ فاعل، (أهْلَ) مفعولٌ بهِ منصوبٌ.

(قريةٍ) مُضافٌ إليهِ مجرورٌ. (اسْتَطْعَما) مِثل (انْطَلَقا). (أهْلَها) مفعولٌ بهِ منصوبٌ، الهاءُ: مُضافٌ إليهِ مجرورٌ. (فأبَوا) الفاءُ: حرفُ عطفٍ، أبَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الضمِّ المُقدَّرِ على الألفِ المَحذُوفةِ منعًا لالتقاءِ الساكنَينِ، ا فاعل. (أنْ) حرفٌ مصدريٌّ ونَصْبٍ.

(يُضَيِّفُوهُما) يُضيِّفُ: فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ وعلامةُ نَصبهِ حذفُ النونِ، الواو: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفْع فاعل، هُما: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ. والمَصدرُ المُؤوَّلُ (أنْ يُضَيِّفُوهُما) في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ مُتعلِّقٌ ب (أبَوا). (فَوَجَدا) الفاءُ: حرفُ عطفٍ، وَجَدا: مِثل (أتَيا). (فِيها) جارٌ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (وَجَدا). (جِداراً) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. (يُرِيدُ) فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، الفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ "هوَ". (أنْ) حرفُ مَصدَريٌّ ونَصبٍ.

(يَنْقَضَّ) فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ "هوَ"، والمَصدرُ المُؤوّلُ (أنْ يَنْقَضَّ) في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ ل (يُريدُ)

(فأقامَهُ) الفاءُ: حرفُ عطفٍ، أقامَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ "هوَ"، الهاءُ: ضميرٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ. (قالَ) كسابقتِها.

(لو) حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ. (شِئْتَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ، التاءُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفْع فاعل. (لَتَّخَذْتَ) اللامُ: رابطةٌ لجَوابِ (لو)، (اتَّخَذْتَ)

مِثل (شِئْتَ) . (عَلَيهِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ بِمَحذوفٍ مفعولٍ بِهِ ثانٍ لِفعلِ (اتّخَذَ) . (أجْرًا) مفعولٌ بِهِ أوّل منصوبٌ . جُملةُ (انْطَلَقا) استئنافيّةٌ لا محلَّ لها .

جُملةُ (أتَيا) في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه . جُملة (استطعما) جوابُ شرطٍ غيرُ جازمٍ لا محلَّ لها . جُملةُ (أبَوا) معطوفةٌ على جُملةِ (اسْتَطْعَما) لا محلَّ لها . جُملةُ (يُضَيّفُوهُما) صِلةُ الموصولِ الحَرفيِّ (أنْ) لا محلَّ لها .

جُملةُ (وَجَدا) معطوفةٌ على جُملةُ (أبَوا) لا محلَّ لها .

جُملةُ (يُرِيدُ) في محلِّ نصبِ نَعتٍ ل (جِدارًا) .

جُملةُ (أقامَهُ) معطوفةٌ على جُملةِ (وَجَدا) لا محلَّ لها .

جُملةُ (قالَ) استئنافيّةٌ لا محلَّ لها .

جُملةُ (شِئْتَ) في محلِّ نصبِ مقولِ (قالَ) .

جُملةُ (اتَّخَذْتَ) جوابُ شرطٍ غيرُ جازمٍ لا محلَّ لها .

(قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)

(قالَ) كسابقتِها . (هَذا) الهاءُ : للتنبيهِ، ذا : اسمُ إشارةٍ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ رفْع مبتدأ . (فِراقُ) خبرٌ مرفوعٌ .

(بَينِي) بينِ : مُضافٌ إليهِ مجرورٌ وعلامةُ جرِّهِ الكسرةُ المُقدَّرةُ على ما قبلَ الياءِ، الياءُ : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه .

(وبَيْنِكَ) الواو : حرفُ عطفٍ، بَينِ : معطوفٌ على (بَينِ) مجرورٌ وعلامةُ جرِّهِ الكسرةُ، الكافُ : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ جرّ مُضافٍ إليهِ .

(سَأُنَبِّئُكَ) السينُ: للاستقبالِ، أُنَبِئُ: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، الفاعلُ: ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ "أنا"، الكافُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به.

(بِتأويلِ) جارٌّ ومَجرورٌ مُتعلِّقانِ ب(أَنَبِّئُكَ).

(ما) اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إي محلِّ رفْع.

وجُملةُ (يُبْدِلَهُما رَبُّهُما) صِلةُ الموصولِ الحَرفيِّ (أنْ) لا محلَّ لها.

(وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحًا فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)

(وأمَّا الجِدارُ فَكانَ) مِثل (وأمَّا الغُلامُ فَكانَ)، واسمْ (كانَ) هوَ. (لِغُلامَينِ) اللامُ: حرفُ جرٍّ، غُلامَينِ: اسمٌ مجرورٌ وعلامةُ جَرِّهِ الياءِ مُتعلِّقانِ بِمحذُوفٍ خبر (كانَ). (يَتِيمَينِ) نَعتٌ لِغُلامَينِ مجرورٌ وعلامةُ جرِّهِ الياء؛ لأنَّه مثنَّى والنونُ عِوضٌ عن التنوينِ في الاسمِ المُفردِ.

(في المَدِينَةِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ بِنَعتٍ ثانٍ لِ (غُلامَينِ).

(وكان) الواو: حرفُ عطفٍ، كانَ: فعلٌ ماضٍ ناقصٌ مبنيٌّ على الفتحِ.

(تَحْتَهُ) تحتَ: ظرفُ مكانٍ منصوبٌ مُتعلِّقٌ بِخَبر (كانَ)، الهاء: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه. (كَنْزٌ) اسمْ (كانَ) مُؤخَّرٌ مرفوعٌ.

(لَهُما) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ بِنَعت لِ (كَنْز). والمَصدرُ المُؤوَّلُ (أنْ يَبْلُغا) في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ ل (أرادَ). (وكانَ) مِثل الأوَّل.

(أبُوهُما) أبُو : اسمُ (كان) مرفوعٌ وعلامةُ رفْعهِ الواو؛ لأنَّه مِن الأسماءِ الخَمْسةِ، هُما : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ جرّ مُضافٍ إليهِ. (صَالِحًا) خَبرُ(كانَ) منصوبٌ.

(فأرادَ) الفاء : عاطفةٌ أو استئنافيةٌ، أرادَ : فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ.

(رَبُّكَ) ربُّ : فاعلٌ مرفوعٌ، الكافُ : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ جرّ مُضافٍ إليهِ.

(أنْ) حرفٌ مصدريٌّ ونَصب. (يَبْلُغا) فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ وعلامةُ نَصبهِ حذفُ النونِ، الألفُ : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفْع فاعل،

(أشُدَّهُما) أشُدَّ : مفعولٌ بهِ منصوبٌ، هُما : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ جرّ مضافٍ إليه. (وَيَسْتَخْرِجَا) الواو : حرفُ عطفٍ، يَسْتَخْرِجَ : فعلٌ مضارعٌ معطوفٌ على (يَبْلُغا) منصوبٌ وعلامةُ نَصبهِ حذفُ النونِ، الألفُ ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفْع فاعل. (كَنْزَهُما) كَنْزَ : مفعولٌ بهِ منصوبٌ، هُما : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه. (رَحْمَةً) مفعولٌ لأجْلِهِ منصوبٌ.

(مِنْ رَبِّكَ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ بمَحذوفٍ نَعتٍ ل (رَحْمَة)، الكافُ : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ جرّ مضافٍ إليه. (وَما) الواو : حرفُ عطفٍ، ما : نافيةٌ.

(فَعَلْتُهُ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ، التاءُ : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ رفْع فاعلٍ، الهاءُ : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ بِهِ.

(عَنْ أمْرِي) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ بِحالٍ مِن (التاءِ) في (فَعَلْت) أيّ : مُستَقِلاً أو مُنفَرِدًا، الياءُ : ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليه.

(ذَلِكَ) ذا : اسمُ إشارةٍ مبني على السكونِ في محلِّ رفْع مبتدأ، اللامُ : لِلبُعدِ، الكافُ : لِلخِطابِ. (تأويلُ) خَبرُ(ذا) مرفوعٌ. (ما) اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ على

السكونِ في محلِّ جرّ مُضاف إليه (لَمْ) حرفُ نفيٍ وجزمٍ وقلبٍ. (تَسْطِعْ) فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ، الفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ "أنتَ". (عَلَيهِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (صَبْرًا).

(صَبْرًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ.

جُملةُ (أمَّا الجِدارُ فَكانَ) معطوفةٌ على جُملة (أمَّا الغُلامُ فكانَ) لا محلَّ لها.

جُملةُ (كانَ لِغُلامَينِ) في محلِّ رفْع خبرِ (الجِدار).

جُملةُ (كانَ تحْتَهُ كَنْزٌ) معطوفةٌ على جُملةِ (كانَ لِغُلامَينِ) في محلِّ رفْع.

جُملةُ (كانَ أبُوهُما صَالِحًا) معطوفةٌ على جُملةِ (كانَ لِغُلامَينِ) أو مستأنفةٌ في محلِّ رفْع.

جُملةُ (أرادَ رَبُّكَ) معطوفةٌ على جُملةِ (كانَ لِغُلامَينِ) في محلِّ رفْع.

جُملةُ (يَبْلُغا) صِلةُ الموصولِ الحَرفيِّ (أنْ) لا محلَّ لها.

جُملةُ (يَسْتَخْرِجَا) معطوفةٌ على جُملةِ (يَبْلُغا) لا محلَّ لها.

جُملةُ (ما فَعَلْتُهُ) معطوفةٌ على جُملةِ (أمّا الجِدارُ فَكانَ) لا محلَّ لها.

جُملةُ (ذَلِكَ تأويلُ) استئنافيةٌ في حَيّزِ القولِ لا محلَّ لها.

جُملةُ (لمْ تَسْطِعْ) صِلةُ الموصولِ (ما) لا محلَّ لها.[1]

إنَّها الحقيقةُ... إنَّهُ القانونُ الإلهيُّ...

كُلُّ مخلوقٍ يظهرُ فَجْأةً مِن العالَمِ المجَهولِ لِيُؤدِّي دَورَهُ في الحياةِ في الموعدِ الذي قَدَّرَهُ الخالِقُ عزَّ وجلَّ (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمَر: ٤٩) ثمَّ يَخْتَفِي فجْأةً

[1] إعْرابِ القُرآنِ الكَريمِ المُيَسَّر: أ. د: مُحمَّد الطَّيِّب الإبراهيم، دار النفائِس - الطبعة الثالثة ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.

لِيَعُودَ إلى المجهولِ الذي أتَى مِنهُ (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) (مريم : ١٩) .

كـمَا ظَهـرَ الخِضرُ عـليهِ السلامُ فَجْأَةً واخْتفَى فَجْأَةً بَعدَما أدَّى دَوْرَهُ المُقَدَّرَ لهُ (قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) (الكهف : ٧٨) .

وهُنا يَكمُنُ مَعنَى قولِ الحقِّ تباركَ وتعالى (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَينْ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً) (الأحزاب : ٧٢) .

وظَنَّ مُعظمُ البَشرِ أنَّما خُلِقُوا لِيَأكُلُوا ويَشْرَبُوا ويَلْهَو ويَلْعَبُوا، وما هِيَ إلَّا أيّامٌ مَعدُوداتٌ حتَّى يَنْدَثِرُوا في باطنِ الأرضِ كما انْدثَرَ الذينَ مِن قَبْلِهِم، وتجَاهَلُوا أنَّ وراءَ ذلكَ يَومًا يَجْعَلُ الوِلدانَ شِيبًا، غَرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا كَما غَرَّتْ غَيرَهُم؛ فَطَغَوا وتَجَبَّرُوا، واسْتَعْلَوا واسْتَكْبَرُوا، وخاصَمُوا وفَجَرُوا، وارْتَفَعَ صَوتُهُمْ بِالباطِلِ؛ لِيُطفِئُوا نُورَ الحقِّ، وظَنُّوا أنَّهُم تَمكَّنُوا في الأرضِ، وتَحَقَّقَ لهُمْ ما يَصبُونَ إليهِ، وأيْقَنُوا أنَّ كُلَّ ذلكَ سَيَدُومُ لَهُمْ ويَخْلُدُ، ونَسُوا أنَّ اليقينَ يَنتَظِرُهُم، وأنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعالى في خَلْقِهِ سَتَنالُهُمْ كما نالَتْ غَيرَهُمْ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُور) (آل عِمران : ١٨٥) .

يا حَسرةً على العِبادِ، يا حَسرةً على العِبادِ ما يأتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ .

القصة الرابعة

ذو القرنين ويأجوج ومأجوج

شَخْصِيَّةٌ فَذَّةٌ حَيَّرَت المُفَسِّرِينَ والمُؤرِّخِينَ والباحِثِينَ

سُبحانَ اللهِ الذي عَلَّمَ القُرآنَ، والحَمدُ للهِ الذي خَلَقَ الإِنْسانَ وعَلَّمَهُ البَيانَ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ الذي جَعَلَ الشَّمْسَ والقَمَرَ بِحُسْبانٍ، ولَهُ النَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدانِ، وهُوَ الَّذِي رَفَعَ السَّماءَ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَوَضَعَ المِيزانَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خَيرِ الأنامِ مُحَمَّدٍ بنِ عَبْدِ اللهِ عَلَيهِ أفْضَلُ الصَّلاةِ وأزْكَى السَّلامِ.

أمَّا بَعدُ:

حقًّا إنَّها لَمُتعَةٌ عظيمةٌ وسعادةٌ كبيرةٌ أن يبحثَ كاتبٌ في قِصَّةٍ تمتدُّ جُذورُها عَبرَ التاريخِ، وتَتشابَكُ أغصانُها لِتَتلاقَى في آخرِ الزمانِ، يَستظِلُّ في ظِلِّها المُؤمِنونَ المُوَحِّدُونَ، ويَحترِقُ في لَهيبِها المُنافِقُونَ والكافِرُونَ.

إنَّها قِصَّةُ الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطلِ، بينَ الشِّركِ والتوحيدِ مُنذُ أنْ خَلَقَ سُبْحانَهُ وتَعالى آدمَ وحَوَّاءَ عليهِما السلامُ وانْتشَرتْ ذُرِّيتُهُما في أرجاءِ الأرضِ وحتَّى قيامِ الساعةِ وفَناءِ البَشريَّةِ.

إنَّها قِصَّةُ شخصيَّةٍ فريدةٍ مِن نَوعِها مَكَّنَها اللهُ سُبحانَه وتَعالى في الأرضِ، وآتاها مُقوِّماتِ الغَلَبَةِ والقَهْرِ والسُّلطانِ؛ لِتَنْشُرَ العَدلَ والإيمانَ في رُبوعِ المَعمُورةِ مِن شَرْقِها إلى غَرْبِها، وتَبسُطَ عليها دَواعيَ الأمنِ والاستقرارِ، ثُمَّ تَمتدَّ يدُ المَنُونِ على تلكَ الشخصيةِ فَتطْويها كما طَوتْ غَيرَها مِن المَخْلُوقاتِ؛ إلَّا أنَّ تَبِعاتِها وما تَرَتَّبَ على

أعمالِها سَتُصِيبُ البشريةَ كُلَّها في آخرِ الزَّمانِ، وسَيدخلُ الخوفُ والفزعُ قلبَ كُلِّ إنسانٍ إلاّ ما شاءَ الرَّحيمُ الرَّحمنُ.

ومِمَّا لا شَكَّ فيهِ أنّ "ذا القَرنَينِ وفُتوحاتِه في المَغْرِب والمَشْرِق، وأُمَّتَي يأجُوجَ ومأجُوجَ"، حقائقٌ قُرآنيةٌ ثابتةٌ لا جِدالَ في صِحَّتِها، وقَد حَدَّثَ الصادِقُ المَصدُوقُ عَنها، ونحنُ المُسلِمينَ نُؤمِنُ بِما جاءَ في القُرآنِ الكريمِ وما صَحَّتْ رِوايتُه عن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم؛ لكنَّ السُّؤالَ الذي ما انْفَكَّ يُسْألُ مِنَ القِدَمِ:

مَنْ يأجُوجُ ومأجُوجُ؟ وكيفَ كانتْ رِحلَةُ ذي القَرنَينِ؟

وقَد اتَّخَذَ المُلْحِدُونَ في ذلكَ والمُشكِّكُونَ في صِدقِ القُرآنِ الكريمِ مادَّةً لِلطَّعنِ في الدِّينِ وإضلالِ الناسِ بِغَيرِ عِلْمٍ، ولا يَزالُ يَتصدَّرُ جِدالَهُم السؤالُ الآتي:

إذا كانَ القُرآنُ الكريمُ صادِقًا فأينَ يأجُوجُ ومأجُوجُ؟

وليسَ مِن إجابةٍ مُقْنِعَةٍ لهُم حتَّى الآنَ.

إنَّ قِصَّةَ "ذي القَرنَينِ" هِيَ القِصَّةُ الرابعةُ التي جاءتْ في سُورةِ الكهفِ؛

فـ(شَخصيَّتُه وجِنسيَّتُه وحَياتُه وعَبقريَّتُه) العِلميةُ والعَسكريةُ، وعُلومُه في شَتَّى مَجالاتِ الحياةِ، وتمكينُه مِن قِبَلِ اللهِ سُبحانَه وتعالى في الأرضِ والأقوامِ التي غَلَبَها، ويأجُوجُ ومأجُوجُ، وبِناءُ السَّدِّ وخُروجُهُم في آخرِ الزَّمانِ ووَفاتُه كُلَّها مِن المُغيَّباتِ.

ولا يَستطيعُ مَخلُوقٌ في الدُّنيا أنْ يُعطِيَ الإجابةَ الصحيحةَ؛

لِذَلِكَ لا يَسَعُنا إلَّا الإيمانُ بِالغَيبِ ﴿**أَلَمَ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ (البَقرة: ١ – ٢)

فَمَنْ آمَنَ وصَدَّقَ فَعَسَى أنْ يَكُونَ مِن المُهْتَدِينَ، ومَنْ كَفَرَ فَعَلَيهِ كُفْرُهُ، ولا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ كُفُرُهُمْ إلَّا خَسارًا.

آياتُ القِصَّةِ:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا. فَأَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا. قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا. قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا. ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا. كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا. ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ (الكهف: ٨٢ – ٩٢).

المُناسَبةُ وسَببُ النُّزولِ:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ قِصَّةَ مُوسَى عليهِ السلامُ مع العبدِ الصالحِ أعقبَها بِقِصَّةِ ذي القَرنَينِ ورِحلاتِه الثلاثِ إلى الغَربِ والشَّرقِ وإلى السَّدَّينِ وبِنائِه لِلرَّدْمِ في وَجْهِ يأجُوجَ ومأجُوجَ.

وهِيَ القِصَّةُ الرابعةُ مِن القَصَصِ المُذكُورةِ في سُورةِ الكهفِ وجَميعُها تَرتبِطُ بالعَقيدةِ والإيمانِ وهُو الهدفُ الأساسُ لِلسُّورةِ الكريمةِ.

ذَكَرَ مُحمَّد بنُ إسحاقٍ عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهُما قالَ:

بَعثتْ قُريشٌ النَّضْرَ بنَ الحارثِ وعُقْبَةَ بنَ أبي مُعَيطٍ إلى أحبارِ يَهُودٍ بِالمَدِينَةِ وقالُوا لهُم: سَلُوهُمْ عنْ مُحمَّدٍ وَصَفُوا لَهُمْ صِفَتَهُ وأخْبَرُوهُم بِقَولِه فإنَّهُم أهلُ الكتابِ الأوَّلِ وعِندَهُم ما ليسَ عِندَنا مِن عِلْمِ الأنبياءِ.

فَخَرَجا حَتَّى أتَيا المَدِينَةَ فَسألُوا أحبارَ يَهُودٍ عنْ رَسُولِ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** ووَصَفُوا لَهُمْ أمْرَهُ وبَعْضَ قَولِه وَقالا: إنَّكُمْ أهْلُ التَّوراةِ وَقَدْ جِئناكُمْ لِتُخْبِرُونا عنْ صَاحِبِنا هَذا.

قالَ: فَقالُوا لَهُمْ: ثَلاثٌ نأمُركُمْ بِهِنَّ؛ فإنْ أخْبَرَكُمْ بِهِنَّ فَهُوَ نبيٌّ مُرْسَلٌ؛ وإلَّا فَرَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ فَتَرَوا فِيهِ رأيَكُمُ،

سَلُوهُ عنْ فِتْيَةٍ ذَهَبُوا في الدَّهْرِ الأوَّلِ ما كانَ مِنْ أمْرِهِمْ؛ فإنَّهُمْ قَدْ كانَ لَهُمْ حَدِيثٌ عَجِيبٌ، وسَلُوهُ عَن رَجُلٍ طَوَّافٍ بَلَغَ مَشارِقَ الأرْضِ وَمَغارِبَها ما كانَ نَبَؤُهُ، وسَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ ما هُوَ؛ فإنْ أخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ فَهُوَ نَبِيٌّ فاتَّبِعُوهُ، وإنْ لمْ يُخْبِرْكُمْ؛ فإنَّهُ رَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ فاصْنَعُوا في أمْرِهِ ما بَدا لَكُمْ.

فأقبلَ النَّضرُ وعُقبَةُ حتَّى قَدِما على قُرَيشٍ فَقالا: يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ قَد جِئْناكُمْ بِفَصْلِ ما بَينَكُمْ وبينَ مُحمَّدٍ، قَد أَمَرَنا أحبارُ يَهودٍ أنْ نَسْأَلَهُ عنْ أُمورٍ فأخْبَرُوهُم بِها، فَجاءوا رَسُولَ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** فَقالُوا: يا مُحمَّدُ أخْبِرْنا، فَسألُوهُ عَمَّا أمَرُوهُمْ بِهِ.

فقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** أخْبِركُمْ غَداً عَمَّا سَألْتُمْ عَنْهُ ولَمْ يَسْتَثْنِ، فانْصَرَفُوا عَنْهُ، ومَكَثَ رَسُولُ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** خَمْسَ عَشرةَ لَيلَةً لا يُحْدِثُ اللهُ لهُ في ذَلِكَ وَحْيًا ولا يأتِيهِ جِبْرِيلُ عليهِ السلامُ؛ حتَّى أُرْجِفَ أهْلُ

مَكَّةَ وقالُوا: وَعَدَنا مُحمَّدُ غَداً واليوم خَمْسَ عَشرةَ قَد أصبَحْنا فِيها لا يُخْبِرُنا بِشَيءٍ عَمَّا سَألْناهُ عَنهُ، وحَتَّى أحْزَنَ رَسُولَ اللهِ **صلى الله عليه وسلم** مَكْثُ الوحْي عَنْهُ وشَقَّ عَلَيهِ ما يَتَكَلَّمُ بِهِ أهلُ مَكَّةَ، ثُمَّ جاءهُ جِبْرِيلُ عليهِ السلامُ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ بِسُورةِ الكهفِ وفيها مُعاتَبةُ إيَّاهُ على حُزْنِهِ عَلَيهِم وخَبَرِ ما سَألُوهُ عَنهُ مِن أمْرِ الفِتْيَةِ والرَّجُلِ الطَّوَّافِ، وقَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ**﴾[1].

اللُّغةُ ومَعاني الكَلِمات:

حَمِئَةٍ: كثيرةُ الحَمأةِ وهي الطِّينَةُ السَّوداءُ.

ومِن الأسبابِ التي دَعَتِ القُرآنَ الكريمَ إلى استخدامِ تعبيرِ "العَينِ الحَمِئَة":

١ – إنَّ مِياهَ الأنهارِ المُحمَّلَة بِالوحلِ والطِّينِ؛ والتي تَصبُّ في البحارِ تجَعلُ سَواحِلَها مُنتِنَةً وعَكِرَةً.

٢ – عِندَما تَسقطُ أشعةُ الشمسِ أثناءَ غُروبِها على مِياهِ البِحارِ يَتغيَّرُ لَونُها.

٢ – كُلَّما ازدادتِ المِياهُ عُمْقًا بَدَتْ سَوداءَ مِن شِدَّةِ زُرْقَتِها، وبِما أنَّ المِياهَ التي كانَ يَنظرُ إليها "ذُو القَرنَينِ" عَمِيقةٌ؛ لِذا كانت تبدُو لهُ كأنَّها سَوداءُ وكَدِرةٌ، فَعَبَّرَ عَنها القُرآنُ الكريمُ بِـ "العَين الحَمِئَة"[2].

البَلاغةُ:

تَضمَّنَت الآياتُ الكريمةُ وُجُوهًا مِن (البيانِ والبديعِ) نُوجزُها فِيما يلي:

---

[1] مختصر تفسير ابن كثير (ج٢/ص٤٠٨).

[2] تفسير المراغي: (١٦ - ١٧)، تفسير مجمع البيان: (ج ٧ / ص ٤٩٠)، الطنطاوي: (ج ٩ / ص ٢٠٠) (المنجد ومفردات الراغب).

الطِّباقُ: بينَ (**مَطْلَعَ...ومَغْرِبَ**).

التشبيهُ البليغُ: (**جَعَلَهُنارًا**) أيّ: كالنَّارِ في الحَرارةِ وشِدَّةِ الاحمِرارِ، حُذِفَتْ أداةُ التشبيهِ وَوَجْهُ الشَّبَهِ.

المُقابَلَةُ اللطيفَةُ: (**وأَمَّامَنْآمَنَوعَمِلَصَالِحًافَلَهُجَزاءًالحُسْنَى**) تُقابِلُ (**أَمَّامَنْ ظَلَمَفَسَوفَنُعَذِّبُهُثُمَّيُرَدُّإِلىرَبِّهِفَيُعَذِّبُهُعَذابًانُكْرًا**).

التكرارُ: (فأتْبَعَ سَبَبًا) تَكرَّرَتْ مَرَّةً واحِدةً. (ثُمَّ أتْبَعَ سَبَبًا) تَكرَّرتْ مَرَّتَينِ.

(**حتَّىإذابَلَغَ**) تَكرَّرَتْ ثلاثَ مَرَّاتٍ. (**حَتَّىإذاسَاوَىبَينَالصَّدَفَيْنِ**) (**حَتَّىإذا جَعَلَهُنارًا**) والمَقصودُ مِنها جميعًا وَصْلُ المُنقَطِعِ وقَطعُ المَوصولِ؛ وذلكَ للانتِقالِ مِن مَشهَدٍ إلى مَشهَدٍ ضِمنَ سِياقٍ واحدٍ.

الحَيويَّةُ والجَمالُ: ويَسْأَلُونَكَ... فِيها حَيويَّةٌ وجَمالٌ للآيةِ؛ وكأنَّها نَزَلَتِ الآنَ غَضَّةً طَرِيَّةً وفيها سِحْرٌ يتغلغلُ في أعماقِ النفْسِ.

أقوال المفسرين[1]

تفسيرُ الطبريِّ

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

أيّ: ويَسألُكَ يا مُحمَّدُ هَؤلاءِ المُشرِكُونَ عن ذِي القَرنَينِ ما كان شأنُه؟ وما كانتْ قِصَّتُه؟ فَقُلْ لهُم: سأقُصُّ عليكُمْ مِنهُ خُبْرًا. قِيلَ: إنَّ الذِينَ سألُوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن أمرِ ذِي القَرنَينِ كانوا قومًا مِن أهلِ الكتابِ.

وعن أبي الطُّفَيلِ قال: سُئِلَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عنْ ذِي القَرنَينِ فَقالَ: كان عَبْدًا ناصَحَ اللهَ فَناصَحَهُ، فَدعا قومَه إلى اللهِ فَضَرَبُوهُ على قَرْنِه فَماتَ، فأحياهُ اللهُ، فَدعا قَومَهُ إلى اللهِ فَضَرَبُوهُ على قَرنِه فَماتَ، فَسُمِّيَ "ذَا القَرْنَينِ".

وقالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٌ كان ذُو القَرنَينِ مَلِكًا، فَقيلَ لهُ: فَلِمَ سُمِّيَ ذا القَرنَينِ؟ قالَ اختلفَ فيهِ أهلُ الكتابِ، فقالَ بَعضهُم: مَلَكَ الرُّومَ وفارِسَ.

وقالَ بَعضُهم: كان في رأسِه شبْه القَرنَينِ.

وقالَ آخَرُونَ: إنَّما سُمِّيَ ذلكَ؛ لأنَّ صَفْحَتَي رأسِه كانَتا مِن نُحاسٍ.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾

أيّ: إنَّا وَطَّأنا لهُ في الأرضِ وآتَيناهُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ يَتسبَّبُ إليهِ وهُوَ العِلْمُ بِه.

وعن ابنِ عبَّاسٍ وقَتادةَ وابنِ زَيدٍ وابنِ جُريجٍ والضَّحَّاك: سَبَبًا؛ أيّ: "عِلْمًا".

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

[1] (بِتَصرُّف)

قرأَ عامَّةُ قُرّاءِ المَدينةِ والبَصرَةِ (**فاتْبَعَ**) بِوصْلِ الألفِ وتشديدِ التاءِ بِمعنَى "سَلَكَ وسارَ"، وقرأَ عامَّةُ قُرّاءِ الكُوفةِ (**فَأَتْبَعَ**) بِهَمْزِ الألفِ وتخفيفِ التاءِ بِمعنَى "لَحِقَ".

وأَوْلَى القِراءتَينِ (**فَاتَّبَعَ**) بِوصْلِ الألفِ وتشديدِ التاءِ؛ لأنَّ ذلكَ خَبرٌ مِن اللهِ تعالى ذَكَرَهُ عن مَسيرِ ذي القَرنَينِ في الأرضِ التي مُكِّنَ لهُ فِيها، لا عنْ لَحَاقِه السبَب. وعن ابنِ عبَّاسٍ: (**فَاتَّبَعَ سَبَبًا**) يعني بِالسببِ المَنْزِلَ.

وعن مُجاهدٍ: مَنزلا وطَريقًا ما بينَ المَشرقِ والمَغربِ.

وعن قَتادةَ والضَّحَّاكِ: اتبعَ مَنازِلَ الأرضِ ومَعالِمَها.

(**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**)

أيّ: حَتَّى إِذَا بَلَغَ ذُو القَرنَينِ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَينِ ماءٍ ذاتِ حَمأةٍ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: حارَّةٍ. وقالَ مُجاهدٌ: ثأطةٍ. وقالَ كَعبٌ: طِينةٍ سَوداءَ.

وقال قَتادةُ: حمأةٍ سَوداءَ.

وقَرأَ قُرَّاءُ المَدينةِ والكُوفةِ فِي "عَينٍ حامِيَةٍ" يعني أنَّها تَغرُبُ في عَينِ ماءٍ حارَّةٍ.

(**وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا**) ذَكَرَ أنّ أُولئِكَ القومَ يُقالُ لهُم "ناسك".

(**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ**) أيّ: إمَّا أنْ تَقتُلَهُم إنْ هُمْ لَمْ يَدْخُلُوا في الإقرارِ بِتَوحيدِ اللهِ ويُذْعِنُوا لَكَ بِما تَدْعُوهُمْ إليهِ مِن طاعةِ رَبِّهِم.

(**وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**) وإمَّا أنْ تأسرَهُم فَتُعَلِّمَهُم الهُدَى وتُبَصِّرَهُم الرَّشادَ.

(**قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ**)

أيّ: أمَّا مَن كَفرَ فَسوفَ نَقْتُلُه، قالَ قتادةُ: هُو القَتْلُ.

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾

أيّ: ثُمَّ يَرْجِعُ إلى اللهِ تعالى بَعدَ قَتْلِه فَيُعَذِّبُهُ عَذابًا عَظِيمًا وذلكَ عذابُ جهنَّمَ.

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾

أيّ: وأمَّا مَن صَدَقَ اللهَ مِنهُم ووَحَّدَهُ وعَمِلَ بِطاعَتِه؛ فَلَهُ عِندَ اللهِ الحُسنَى وهِيَ الجَنَّةُ ثوابًا على إيمانه وطاعته رَبَّه.

قرأَ عامَّةُ قُرّاءِ أهلِ المَدينةِ والبَصرةِ والكُوفةِ فَلَهُ جَزَاءُ الحُسْنَى بِرَفْعِ الجَزاءِ وإضافَتِه إلى الحُسْنَى، يعني: جَزاءَ هذه الأفعالِ الحَسَنَةِ، أو يكونُ مَعناها "الجَنَّة".

وقرأَ آخَرُونَ: ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ بِمعنَى: لهُ الجَنَّةُ جَزاءً.

والصوابُ عِندي قراءةُ ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ بِنَصبِ الجَزاءِ وتَنوينِه أيّ: أنَّ لهُم الجَنَّةَ جَزاءً.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أيّ: وسَنُعَلِّمُهُ في الدُّنيا ما يُقَرِّبُهُ إلى اللهِ ونُلِينُ لهُ مِن القولِ. قالَ مُجاهِدُ: مَعرُوفًا.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أيّ: سَلَكَ ذُو القَرنَينِ طُرُقًا ومَنازِلَ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: مَنْزِلاً، وقالَ قتادةُ: مَنازِلَ الأرضِ ومَعالِمَها.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أيّ: وَجَدَ ذُو القَرْنَينِ الشَّمْسَ تَطْلُعُ على قَومٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْرًا؛ وذَلِكَ أنَّ

أرضَهُمْ لا جَبلَ فيها ولا شَجَرَ، ولا تَحتَملُ بِناءً فَيَسْكُنُوا البُيوتَ؛ وإنَّما يَغُورُونَ في المِياهِ، أو يَسْرَبُونَ في الأسرابِ. قال قتادةُ: هُمُ الزِّنْجُ.

(كَذَٰلِكَ) أيّ: ثُمَّ أتبعَ سَبَبًا كذلكَ والمَعنَى: ثُمَّ أتبعَ سَبَبًا حتَّى بَلَغَ مَطْلِعَ الشمسِ، كما أتبعَ سَبَبًا حتَّى بَلَغَ مَغْرِبَها.

(وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) أيّ: وقَد أحَطْنا بما عندَ مَطلِعَ الشمسِ عِلْمًا لا يَخفَى عَلَينا ما هُنالكَ مِنَ الخَلْقِ وأحْوالِهم وأسْبابِهم ولا مِن غَيرِهِم شَيءٌ.

قال مُجاهِدٌ وابنُ زَيدٍ: عِلْمًا.

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) أيّ: سَلَكَ ذُو القَرْنَينِ طُرُقًا ومَنازِلَ.

قالَ ابنُ عبَّاسٍ: مَنزِلاً. وقال قتادةُ: مَنازِلَ الأرضِ ومَعالِمَها.(١)

تفسيرُ "أنوارِ التنزيلِ وأسرارِ التأويلِ" للإمامِ البيضاويّ

(وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ) يعني: إسكندرَ الرُّوميَّ مَلِكَ فارِسَ والرُّومَ، وقيلَ: المَشرِقَ والمَغرِبَ؛ ولِذَلِكَ سُمِّيَ "ذَا القَرنَينِ"، أو لأنَّهُ طافَ قَرْنَي الدُّنْيا شَرْقَها وغَرْبَها، وقيلَ: لأنَّهُ انقرضَ في أيَّامِه قَرْنانِ مِن الناسِ، وقيلَ: كانَ لهُ قَرنانِ؛ أيّ: ضَفِيرَتانِ، وقيلَ: كان لِتاجِه قَرنانِ. ويحتملُ أنَّه لُقِّبَ بِذَلِكَ لِشَجاعَتِه.

واختُلِفَ في نُبوَّتِه مع الاتِّفاقِ على إيمانِه وصَلاحِه، والسَّائِلُونَ هُمُ اليهودُ سألُوهُ امتِحانًا أو مُشْرِكُو مكَّةَ.

(قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا) خِطابٌ لِلسَّائِلِينَ والهاءُ لِذِي القَرنَينِ، وقيلَ: للهِ.

---

١) تفسيرُ الطبريِّ: (ج١٨/ ص٩١- ٩٩).

(**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ**) أيّ: مَكَّنا لهُ أمْرَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيها كيفَ شاءَ فَحُذِفَ المفعولُ.

(**وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ**) أرادَهُ وتَوجَّهَ إليهِ.

(**سَبَبًا**) وَصلَةً تُوصِلُهُ إليهِ مِن العِلْمِ والقُدْرَةِ والآلةِ.

(**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**) أيّ: فأرادَ بُلُوغَ المَغرِبِ فاتْبَعَ سَبَبًا يُوصِلُهُ إليهِ، وقَرأ الكُوفيُّونَ وابنُ عامرٍ بِقَطعِ الألفِ مُخفَّفةَ التاءِ.

(**حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**) أيّ: ذاتَ حَمأٍ؛ مِن حَمِئتِ البِئْرُ إذا صَارتْ ذاتَ حَمأةٍ.

قرأَ ابنُ عامرٍ وحَمزةُ والكِسائيُّ وأبُو بَكْرٍ حامِيةً أيّ: حارَّةً، ولا تَنافِيَ بَينَهُما لجَوازِ أنْ تكونَ العَينُ جامِعةً لِلوصْفَينِ أو حَمِيَّةً على أنَّ ياءها مَقلُوبةٌ عن الهمزةِ؛ لِكَسْرِ ما قَبْلَها. ولَعلَّهُ بَلَغَ ساحِلَ المُحيطِ فَرآها كَذلِكَ؛ إذْ لمْ يَكُنْ في مَطمَحِ بَصَرِه غَيرُ الماءِ ولِذلِكَ قالَ (**وَجَدَهَا تَغْرُبُ**) ولمْ يَقُلْ كانتْ تَغْرُبُ.

قيلَ: إنَّ ابنَ عبَّاسٍ سَمِعَ مُعاويةَ يَقرأُ "حامي" فقالَ (**حَمِئَةٍ**). فَبَعَثَ مُعاويةُ إلى كَعبِ الأحبارِ كيفَ تَجِدُ الشَّمْسَ تَغْرُبُ؟ قالَ: في ماءٍ وطِينٍ؛ كَذَلِكَ نَجِدُهُ في التوراةِ.

(**وَوَجَدَ عِندَهَا**) عِنْدَ تِلْكَ العَينِ.

(**قَوْمًا**) قيلَ: كانَ لِباسُهُمْ جُلُودَ الوَحْشِ وطَعامُهُم ما لَفَظَهُ البَحرُ، وكانُوا كُفَّارًا فَخَيَّرَهُ اللهُ بينَ أنْ يُعَذِّبَهُمْ أوْ يَدْعُوهُمْ إلى الإيمانِ كَما حَكَى بِقَولِه (**قُلْنَا يَاذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ**) أيّ: بِالقَتْلِ على كُفْرِهِم.

(**وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**) بالإرشادِ وتعليمِ الشَّرائِع. وقيلَ: خَيَّرَهُ اللهُ بينَ القَتْلِ والأسْرِ، وسَمَّاهُ إحْسانًا في مُقابَلَةِ القَتْلِ ويُؤَيِّدُهُ الأوَّل قوله (**قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا**) فاختارَ الدَّعوةَ وقالَ أمَّا مَنْ دَعَوتُه فَظَلَمَ نَفْسَهُ بالإصْرارِ على كُفْرِه أو استمرَّ على ظُلْمِهِ الذي هُو الشِّرْكُ فَنُعَذِّبُهُ أنا ومَنْ مَعِيَ في الدُّنْيا بِالقَتْلِ، ثُمَّ يُعَذِّبُهُ اللهُ في الآخِرَةِ عَذابًا مُنْكَرًا لمْ يُعْهَدْ مِثْلُهُ.

(**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**) وهُو ما يَقتضِيهِ الإيمانُ. (**فَلَهُ**) في الدَّارَينِ.

(**جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ**) فعْلَتِهِ الحُسْنَى.

وقَرأ حمزةُ والكِسائيُّ ويَعقُوبُ وحَفصٌ (**جَزاءً**) مُنَوَّنًا مَنصُوبًا على الحالِ؛ أيّ: فَلَهُ المَثُوبةُ الحُسْنَى مَجْزِيًّا بِها، أو على المَصدرِ لِفِعْلِهِ المُقَدَّرِ حالاً؛ أيّ: يُجْزَي بها جزاءً أو التمييزَ.

وقرأَ الآخَرُونَ جَزاءَ مَنصُوبًا غَيرَ مُنوَّنٍ على أنَّ تَنوينَهُ حُذِفَ لالتقاءِ الساكِنَينِ، ومُنَوَّنًا مَرفُوعًا على أنَّهُ المُبتدأ و (**ٱلْحُسْنَىٰ**) بَدَلُه، ويَجوزُ أنْ يكونَ "**أَمَّا**" لِلتقسيمِ دُونَ التخييرِ؛ أيّ: لِيَكُنْ شأنُكَ مَعَهُم؛ إمَّا التعذيبَ، وإمَّا الإحْسانَ؛ فالأوَّلُ لِمَنْ

أصرَّ على الكُفرِ، والثاني لَمَنْ تابَ عَنهُ، ونِداءُ اللهِ إيَّاهُ إنْ كانَ نَبيًّا فَب(وحْيٍ)، وإنْ كانَ غَيرَهُ فَب(إلهامٍ) أوْ على (لِسانِ نبيٍّ).

(**وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**) بما نأمُرُ بهِ، ويُسْرًا سَهْلاً مُيَسَّرًا غيرَ شاقٍّ، وتقديرُه ذا يُسْرٍ.

(**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا**) ثُمَّ أتبعَ طَرِيقًا يُوصِلُهُ إلى المَشْرِق.

(**حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ**) يعنيَ المَوضِعَ الذي تَطلُعُ الشمسُ عَليهِ أوَّلاً مِن مَعمُورةِ الأرضِ، وقُرِئَ بِفَتحِ اللامِ على إضْمارِ مُضافٍ؛ أيّ: مكانَ مَطلِعِ الشَّمْسِ؛ فإنَّهُ مَصدَرٌ.

(**وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا**) مِن اللباسِ أو البِناءِ؛ فإنَّ أرضَهُم لا تُمْسِكُ الأبنيةَ، أو أنَّهُم اتَّخَذُوا الأسْرابَ بَدَلَ الأبْنِيةِ.

(**كَذَٰلِكَ**) أيّ: أمْرُ ذِي القَرنَينِ كما وَصفْناهُ في رِفْعَةِ المكانِ وبَسْطَةِ المُلْكِ، أوْ أمْرُهُ فيهِم كأمْرِه في أهلِ المَغرِب مِن التخييرِ والاختيارِ. ويجوزُ أن يكونَ صِفةَ مَصدَرٍ مَحذُوفٍ لِ(وَجَدَ) أو (نَجْعَل)، أو صِفةَ (قَوم)؛ أيّ: على قَومٍ مِثل ذلك القَبيلِ الذي تَغرُبُ عليهِم الشمسُ في الكُفْرِ والحُكْمِ.

(**وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ**) مِن الجُنودِ والآلاتِ والعَدَدِ والأسبابِ.

(**خُبْرًا**) عِلْمًا تَعلَّقَ بِظَواهِرِه وخَفاياهُ، والمُرادُ: أنَّ كثرةَ ذلكَ بَلَغَتْ مَبْلَغًا لا يُحيطُ بهِ إلاّ عِلْمُ اللطيفِ الخَبيرِ.

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ يعني: طَريقًا ثالِثًا مُعترِضًا بينَ المَشْرِق والمَغرِب آخِذًا مِن الجنوبِ إلى الشِّمالِ[1].

تفسيرُ "الجامع لأحكام القُرآن" القُرطُبيِّ

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾ قالَ ابنُ إسحاقٍ: وكانَ مِن خَبَرِ ذي القَرنَينِ أنَّه أُوتِيَ ما لمْ يُؤْتَ غَيرُهُ؛ فَمُدَّتْ لهُ الأسبابُ حتَّى انتهَى مِن البلادِ إلى مَشارقِ الأرضِ ومَغاربِها، لا يَطأُ أرضًا إلَّا سُلِّطَ على أهْلِها، حتَّى انتهَى مِن المَشرِق والمَغرِب إلى ما ليسَ وراءهُ شَيءٌ مِن الخَلْقِ.

وقيلَ: هُوَ نبيٌّ مَبعُوثٌ فتحَ اللهُ تعالى على يَديهِ الأرضَ.

قيلَ: إنَّه كانَ ذا ضَفيرَتَينِ مِن شَعَرٍ فَسُمِّيَ بِهِما،

وقيلَ: إنَّه رأى في أوَّلِ مُلْكِهِ كأنَّهُ قابِضٌ على قَرْنَي الشمسِ فَفُسِّرَ أنَّهُ سَيَغْلِبُ ما ذَرتْ عَليهِ الشمسُ فَسُمِّيَ ذا القَرنَينِ.

وقيلَ: إنَّما سُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لأنَّهُ بلغَ المَغرِبَ والمَشرِقَ فَكأنَّهُ حاز قَرْنَي الدُّنيا،

وقالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ: كانَ لهُ قَرنانِ تَحتَ عِمامَتِه، وسألَ ابنُ الكواءِ عَليًّا رَضِيَ اللهُ عَنهُ عنْ ذي القَرْنَينِ: أنَبيًّا كانَ أمْ مَلِكًا؟

فقالَ: كانَ عَبْدًا صالِحًا دَعا قَومهُ إلى اللهِ تَعالى فَشَجُّوهُ على قَرْنِهِ، ثُمَّ دَعاهُمْ فَشَجُّوهُ على قَرْنِهِ الآخَرِ؛ فَسُمِّيَ "ذا القَرنَينِ"،

---

١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوي (ج ٣/ ص ٢٩١- ٢٩٢).

وقيلَ: إنَّما سُمِّيَ "ذا القَرنَينِ"؛ لأنَّه كانَ كريمَ الطَّرفَينِ مِن أهلِ بَيتٍ شَريفٍ مِن قِبَلِ أبيهِ وأُمِّهِ، وقيلَ: لأنَّهُ انقرضَ في وَقْتِهِ قَرْنانِ مِن الناسِ وهُو حَيٌّ،

وقيلَ: لأنَّهُ كان إذا قاتَلَ قاتَلَ بِيَدَيهِ ورِكابَيهِ جَميعًا،

وقيلَ: لأنَّه أُعطِيَ عِلْمَ الظاهِرِ والباطِنِ، وقيلَ: لأنَّه دَخَلَ الظُّلْمَةَ والنُّورَ،

وقيلَ: لأنَّه مَلَكَ فارسَ والرومَ. قيلَ: أنَّه كان في الفترةِ بعدَ عِيسَى،

وقيلَ: كانَ في زَمنِ إبراهِيمَ وإسْماعِيلَ وكانَ الخِضرُ صاحِبَ لِوائِه.

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)

قالَ عليٌّ رَضِيَ اللّٰهُ عنهُ: سُخِّرَ لهُ السَّحابُ، ومُدَّتْ لهُ الأسبابُ، وبُسِطَ لهُ في النُّورِ؛ فكانَ الليلُ والنهارُ عَليهِ سَواءً..

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ: مِنْ كُلِّ شَيءٍ عِلْمًا يَتسبَّبُ بِه إلى ما يُرِيدُ.

وقال الحَسنُ: بلاغًا إلى حيثُ أرادَ.

وقيلَ: مِن كُلِّ شَيءٍ يحتاجُ إليهِ الخَلقُ. وقيلَ: مِن كُلِّ شَيءٍ يَستعِينُ بِه المُلوكُ مِن فتحِ المَدائنِ وقَهْرِ الأعداءِ.

وأصلُ السببِ الحَبْلُ فاسْتُعِيرَ لِكُلِّ ما يُتوصَّلُ بِه إلى شَيءٍ

(فَأَتْبَعَ سَبَبًا) تُقْرأُ "فأتْبَعَ سَبَبًا" مَقطُوعةَ الألفِ،

وتُقْرأُ "فاتْبَعَ سَبَبًا" بِوصْلِها؛ أيّ: "اتْبَعْ سَبَبًا مِن الأسْبابِ التي أُوتِيها.

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا)

قرأَ ابنُ عاصمٍ وعامرٌ وحَمزةُ والكِسائيُّ "حامِية"؛أيّ: حارَّة، وقَرأ الباقُونَ "حَمِئَةٍ" أيّ: كثيرةَ الحَمأةِ وهيَ الطِّينَةُ السَّوداءُ.

قالَ السُّهيليُّ: المُرادُ أنَّه انتهَى إلى آخرِ العمارةِ مِن جِهَةِ المَغرِب فَوجَدَها في رأي العَينِ تَغْرُبُ في عَينٍ حَمِئَةٍ، وَوَجَدَ عِندَها قَومًا وهُمْ أهلُ "جابرس" ويُقالُ لها بالسِّريانيَّة "جرجيسا" يَسْكُنُها قومٌ مِن نَسلِ ثَمودٍ بَقيَّتُهُم الذينَ آمَنُوا بِصالِح.

وقالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ: كانَ ذُو القَرنَينِ رَجُلاً مِن الرُّومِ ابنُ عَجُوزٍ مِن عَجائزِهِم ليسَ لها وَلَدٌ غَيرُه وكانَ اسْمُه "الإِسْكَنْدرُ" وكان عَبْدًا صالحًا،

قالَ اللّٰهُ تعالى: (يا ذا القَرْنَينِ إنِّي باعِثُكَ إلى أُممَ الأرْضِ وَهُمْ أُممٌ مُخْتَلِفَةٌ ألْسِنَتُهُمْ، وَهُمْ أصْنافٌ: أُمَّتانِ بَينَهُما طُولُ الأرْضِ كُلُّه، وأُمَّتانِ بَينَهُما عَرْضُ الأرضِ كُلُّهُ، وأُممٌ في وَسطِ الأرضِ مِنهُم الجِنُّ والإِنْسُ ويأجُوجُ ومأجُوجُ ; فأمَّا الَّلتانِ بَينَهُما طُولُ الأرضِ فَأمَّةٌ عِندَ مَغرِب الشَّمسِ يُقالُ لها "ناسِكٌ"، وأمَّا الأُخْرَى فَعِنْدَ مَطْلِعِها ويُقالُ لها "منسك". وأمَّا الَّلتانِ بينَهُما عَرْضُ الأرضِ فأُمَّةٌ في قُطْرِ الأرضِ الأيْمَنِ يُقالُ لها "هاويل"، وأمَّا الأُخْرَى التي في قُطْرِ الأرضِ الأيْسَرِ يُقالُ لها "تاويل".

فقالَ ذُو القَرنَينِ: إلهِي قَد نَدَبْتَنِي لأمْرٍ عَظيمٍ لا يَقدرُ قَدرهُ إلَّا أنتَ، فأخْبِرْني عَنْ هَذهِ الأُممِ بأيِّ قُوَّةٍ أُكاثِرُهُم؟ وبِأيِّ صَبْرٍ أُقاسِيهِم؟ وبِأيِّ لِسانٍ أُناطِقُهُم؟

فَكيفَ لِي بِأنْ أفْقَهَ لُغَتَهُمْ وَلَيسَ عِنْدِي قُوَّةٌ؟

فقالَ اللّٰهُ تعالى: سَأُظْفِرُكَ بِما حَمَّلْتُكَ، أشْرَحُ لكَ صَدْرَكَ فَتَسْمَعَ كُلَّ شَيءٍ، وأُثْبِّت لَكَ فَهْمَكَ فَتَفْقَهَ كُلَّ شَيءٍ، وأُلْبِسَكَ الهَيبَةَ فَلا يُرَوِّعُكَ شَيءٍ، وأُسَخِّرُ لَكَ النُّورَ والظُّلْمَةَ فَيَكُونانِ جُنْدًا مِن جُنُودِكَ، يَهْدِيكَ النُّورَ مِن أمامِكَ، وتَحْفَظُكَ الظُّلْمَةُ مِنْ وَرائِكَ.

فَلَمَّا قِيلَ لهُ ذَلِكَ سارَ بِمَنِ اتَّبَعَهُ فانْطَلَقَ إلى الأُمَّةِ التي عِنْدَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ؛ لأنَّها كانتْ أقْرَبَ الأُمَمِ مِنْهُ وهِيَ "ناسك"، فَوَجَدَ جُمُوعًا لا يُحْصِيها إلَّا اللهُ تَعالى وقُوَّةً وبَأسًا لا يُطِيقُهُ إلَّا اللهُ، وألْسِنَةً مُخْتَلِفَةً وأهْواءَ مُتَشتِّتةً فَكاثَرَهُمْ بِالظُّلْمَةَ، فَضَرَبَ حَولَهُمْ مِنْ جُنْدِ الظُّلْمَةِ حَتَّى جَمَعَتْهُمْ في مَكانٍ واحدٍ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيهِمْ بِالنُّورِ فَدعاهُمْ إلى اللهِ تَعالى؛ فَمِنْهُم مَن آمَنَ بِهِ، ومِنْهُم مَنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَنْهُ، فأدْخَلَ على الَّذِينَ تَولَّوا الظُّلْمَةَ فَغَشِيَتْهُمْ مِن كُلِّ مَكانٍ، فَتَحَيَّروا وماجُوا وأشْفَقُوا أنْ يَهْلِكُوا، فَعَجُّوا إلى اللهِ تعالى بِصَوتٍ واحِدٍ "إنَّا آمَنَّا" فَكَشَفَها عَنْهُم، وأخَذَهُم عُنْوةً ودَخَلُوا في دَعْوَتِه، فَجَنَّدَ مِنهُم أُمَمًا عَظِيمَةً ثُمَّ انطلقَ بِهِم والظُّلْمَةُ تَسُوقُهُم وتَحْرُسُه مِن خَلْفِهِ، والنُّورُ أمامَهُم يَقُودُه ويَدُلُّه، وهُوَ يَسيرُ في ناحيةِ الأرضِ اليُمنَى حتَّى انتهَى إلى "هاويل"، ففَعلَ بِهِم كَفِعلِه بِ "ناسك" فآمَنُوا وأخَذَ جُيوشَهُم وانطلَقَ إلى ناحيةِ الأرضِ الأُخْرى حتَّى انتهَى إلى "منسك" عِندَ مَطْلِعَ الشَّمسِ، فَعَملَ فِيها وجَنَّدَ مِنها جُنُوداً ثُمَّ كَرَّ مُقْبِلاً على ناحيةِ الأرضِ اليُسْرَى يُرِيدُ "تاويلَ"، وهِيَ الأُمَّةُ التي تُقابِلُ "هاويلَ"، فَفَعلَ فِيها كَفِعْلِهِ فِيما قَبْلَها. ثُمَّ عَطفَ إلى الأُممِ التي في وَسطِ الأرضِ مِن الجِنِّ والإنْسِ ويأجُوجَ ومأجُوجَ، فلمَّا كانَ في بَعضِ الطَّرِيقِ قالتْ لهُ أُمَّةٌ صالِحَةٌ مِن الإنْسِ: يا ذا القَرنَينِ إنَّ بَينَ هَذَينِ الجَبَلَينِ خَلْقًا كَثِيراً مِن خَلْقِ اللهِ تَعالى ليسَ لَهُمْ عدد، وليسَ فِيهِم مُشابَهةٌ مِن الإنْسِ وهُمْ أشْباهُ البَهائِم يأكُلُونَ العُشْبَ ويَفترِسُونَ الدَّوابَّ، وليسَ للهِ تَعالى خَلْقٌ يَنْمُو نَماءهُم؛ فإنْ طالتِ المُدَّةُ فَسَيَمْلئونَ الأرضَ ويُجلُّونَ أهْلَها، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا على أنْ تَجْعَلَ بَينَنا وبَينَهُمْ سَدًّا؟... الحديث.

(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ) إنْ كانَ نَبيًّا فَهُوَ وَحْيٌ، وإنْ لَمْ يَكُنْ نَبيًّا فَهُو إلهامٌ مِنَ اللهِ تَعالى. (إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) خَيَّرَهُ بينَ هَذَينِ الحُكْمَينِ.

(قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا)

أيّ: مَن أقامَ على الكُفْرِ مِنْكُمْ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ بِالقَتْلِ، ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ يومَ القِيامَةِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيداً في جَهنَّمَ.

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)

قَرأَ أهلُ المَدينةِ وأبي عَمْرٍو وعاصِمٌ "فَلَهُ جَزاءٌ الحُسْنَى" بِالرفْعِ؛ أيّ: لهُ جزاءُ الحُسْنَى عِندَ اللهِ تعالى في الآخِرةِ وهِيَ الجَنَّةُ، ويُمكِنُ أنْ يكونَ الجزاءُ مِن ذي القَرنَينِ؛ أيّ: أُعْطِيهِ وأتَفضَّلُ عَليهِ.

وقَرأَ الكُوفيُّونَ "فَلَهُ جَزاءَ الحُسْنَى" مَنصُوبًا مُنوَّنًا؛ أيّ: "فَلَهُ الحُسْنَى جَزاءً".

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) أيّ: سَلَكَ طَريقًا ومَنازِلَ.

(حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا)

المَطْلِعُ والمَطْلَعُ مَوضِعُ طُلُوعِها. والمَعنَى: أنَّه انتهَى إلى مَوضعِ قَومٍ لمْ يَكُنْ بَينَهُم وبينَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ أحدٌ مِن الناسِ، ولا حِجابًا يَسْتَتِرُونَ مِنها عِندَ طُلوعِها.

قالَ قتادةُ: لمْ يَكُنْ بَينَهُم وبينَ الشَّمْسِ سِتْرًا.

وقالَ الحَسنُ: كانتْ أرضُهُم لا جَبلَ فِيها ولا شَجَرَ ولا تَحمِلُ البِناءَ؛ فإذا طَلَعَتْ عَلَيهِمُ الشَّمْسُ نَزَلُوا في الماءِ، فإذا ارتَفَعَتْ عَنهُم خَرَجُوا، فَيَتراعَونَ كما تَتراعَى البهائِمُ.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ لا يُوجَدُ تفسيرٌ لِهَذهِ الآيةِ الكريمةِ.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أيّ: سَلَكَ طَريقًا ومَنازِلَ.(١)

تفسيرُ ابنِ كثيرٍ

﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يا مُحمَّدُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. ﴿عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ أيّ: عَن خَبَرِهِ.

قالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ: كان مَلِكًا، وسُمِّيَ "ذا القَرنَينِ"؛ لأنَّ صَفْحَتَي رأسِهِ كانَتا مِن نُحاسٍ، وقيلَ: لأنَّهُ مَلَكَ الرُّومَ وفارسَ.

وقالَ بَعضُهم: كانَ في رأسِهِ شِبْهُ القَرنَينِ،

وقالَ سُفيانُ الثوريُّ: سُئِلَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَن ذي القَرْنَينِ فقالَ: كانَ عَبْدًا ناصَحَ اللهَ فَناصَحَهُ، دَعا قَومَهُ إلى اللهِ فَضَرَبُوهُ على قَرْنِهِ فَماتَ، فأحْياهُ اللهُ، فَدعا قَومَهُ إلى اللهِ فَضَرَبُوهُ على قَرْنِهِ فَماتَ؛ فَسُمِّيَ "ذا القَرنَينِ".

ويُقالُ: إنَّما سُمِّيَ "ذا القَرنَينِ"؛ لأنَّهُ بَلَغَ المَشارِقَ والمَغارِبَ مِن حيثُ يَطلُعُ قَرنُ الشمسِ ويَغرُبُ.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أيّ: أعطَيناهُ مُلْكًا عَظيمًا فيهِ مِن جَميعِ ما يُؤتَى المُلُوكُ مِن التمكينِ والجُنودِ وآلاتِ الحَربِ؛ ولِهَذا مَلَكَ مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها، ودانَتْ لهُ البلادُ، وخَضَعَتْ لهُ مُلُوكُ العِبادِ، وخَدَمَتْهُ العَرَبُ والعَجَمُ.

---

١) تفسيرُ "الجامع لأحكام القُرآن" القُرطُبيِّ (ج١١/ص٤٥- ٥٥).

(**وَآتَيْنَاهُمِن كُلِّشَيْءٍسَبَبًا**) قالَ ابنُ عبَّاسٍ ومُجاهدٌ وسَعيدٌ وعِكرِمَةُ والسُّدِّيُّ وقَتادةُ والضَّحَّاكُ: آتَيْناهُ عِلْمًا. وقالَ قتادةُ: مَنازِلَ الأرضِ وأعلامَها.

وقالَ عَبْدُ الرَّحمَنِ بنُ زَيدٍ: تعليمَ الألْسِنَةِ، كانَ لا يَغْزُو قَومًا إلَّا كَلَّمَهُمْ بِلِسَانِهِم. والمَعنَى: أنَّ اللهَ يَسَّرَ لهُ الطُّرُقَ والوَسائِلَ إلى فَتْحِ الأقاليمِ والبلادِ والأراضي، وكَسْرِ الأعداءِ، وكَبْتِ مُلُوكِ الأرضِ، وإذلالِ أهْلِ الشِّرْكِ، وأُوتِيَ مِن كُلِّ شَيءٍ يَحتاجُ إليهِ. وفي "المُختارَةِ للحافظِ الضياءِ المَقدسيِّ أنَّ رَجُلاً سألَ عليًّا رَضِيَ اللهُ عَنهُ عن ذي القَرنَينِ كيفَ بَلَغَ المَشارِقَ والمَغارِبَ؟

فقالَ سُبْحانَ اللهِ! سَخَّرَ لهُ السَّحابَ، وقَدَّرَ لهُ الأسبابَ، وبَسطَ لهُ اليدَ.

(**فَأَتْبَعَسَبَبًا**) قالَ ابنُ عبَّاسٍ: يعني بالسببِ المَنْزِلَ. وقال مُجاهدٌ: مَنْزِلاً وطَريقًا في الأرضِ ما بينَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ. وقال قَتادةُ: أتبعَ مَنازِلَ الأرضِ ومَعالِمَها.

وقال الضَّحَّاكُ: أيّ المَنازِلَ. وقال سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ وعِكْرِمَةُ والسُّدِّيُّ: عِلْمًا.

(**حَتَّىٰإِذَابَلَغَمَغْرِبَالشَّمْسِ**) أيّ: سَلَكَ طَريقًا حتَّى وَصَلَ إلى أقصَى ما يُسْلَكُ فيهِ مِن الأرضِ مِن ناحيةِ المَغربِ، وأمَّا الوُصولُ إلى مَغربِ الشمسِ مِن السماءِ فَمُتَعذِّرٌ.

(**وَجَدَهَاتَغْرُبُفِيعَيْنٍحَمِئَةٍ**) أيّ: رأى الشمسَ في مَنظَرِه تَغرُبُ في البَحرِ المُحيطِ. والحَمَئَةُ مُشْتَقَّةٌ مِن الحَمأةِ وهُوَ الطِّينُ.

قال ابنُ عبَّاسٍ ذاتَ حَمأةٍ، وفي رِوايةٍ عَنهُ: وَجدَها تَغْرُبُ في عَينٍ حَامِيةٍ يَعنِي حارَّةً.

. وقالَ كعبُ الأحبارِ في طِينةٍ سَوداءَ.

قُلْتُ: ولا مُنافاةَ بينَ مَعنَييهِما؛ إذْ قَد تكونُ حارَّةً لمُجاورَتِها وَهْجَ الشمسِ عِندَ غُروبِها ومُلاقاتِها الشُّعاعَ بِلا حائلٍ، وقَد تكونُ في ماءٍ وطِينٍ أسودَ.

(**وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا**) أيّ: أُمَّةً مِن الأُمَمِ، ذَكَرُوا أنَّها كانتْ أُمَّةً عَظِيمةً مِن بني آدمَ عليهِ السلامُ.

(**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**)

المَعنى: أنَّ اللهَ تعالى مَكَّنَهُ مِنهُم وحَكَّمَهُ فيهِم وأظْفَرَهُ بهِم وخَيَّرَهُ: إنْ شاءَ قَتَلَ وسَبَى، وإنْ شاءَ مَنَّ أوْ فَدَى؛ فَعَرَفَ عَدْلَهُ وإيمانَهُ فِيما أبْداهُ عَدْلُهُ وبَيانُه.

(**قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ**) أيّ: مَن استمرَّ على كُفْرِهِ وشِرْكِهِ بِرَبِّهِ فَسوفَ نُعَذِّبُه.

قال قتادةُ: بِالقَتْلِ، وقالَ السُّدِّيُّ: يَحمِي لهُم بَقَرَ النُّحاسِ ويَضَعُهُم فِيها حتَّى يَذُوبُوا، وقالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٌ: يُسَلِّطُ الظَّلَمَةَ فَتَدْخُل أفواهَهُم وبُيوتَهُم وتَغْشاهُم مِن جَميعِ جِهاتِهِم.

(**ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا**) أيّ: شَديداً بَليغًا وَجيعًا أليمًا. وفيهِ إثباتُ المَعادِ والجَزاءِ.

(**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**) أيّ: تابَعَنا على ما نَدْعُوهُ إليهِ مِن عبادةِ اللهِ وَحْدَهُ لا شَريكَ لهُ.

(**فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى**) في الدارِ الآخِرَةِ.

(وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) قال مُجاهدُ: مَعرُوفًا.

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) أيّ: سَلَكَ طَريقًا فسارَ مِن مَغرِب الشَّمْسِ إلى مَطلِعها وكانَ كُلَّما مَرَّ بِأُمَّةٍ قَهَرَهُم وغَلبَهُم ودَعاهُم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنْ أطاعُوهُ وإلَّا أذلَّهُم واستباحَ أموالَهُم وأمْتِعَتَهُم واستخدمَ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ما تَسْتَعِينُ بِه جُيوشُه على قتالِ الإقليمِ المُتاخِم لهُم.

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ) لَمَّا انتهَى إلى مَطْلِعِ الشمسِ مِن الأرضِ.

(وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا) أيّ: أُمَّةً ليسَ لهُم بِناءٌ يُكِنُّهُم ولا أشجارٌ تُظِلُّهُم وتَسْتُرُهُم مِن حَرِّ الشَّمسِ.

قال سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ: كانُوا حُمرًا قِصارًا، مَساكِنُهُم الغِيرانِ، وأكثرُ مَعيشَتِهِم مِن السمكِ. قال سَمُرَةُ: إنَّ أرضَهُم لا تحملُ البِناءَ؛ فإذا طلعَت الشمسُ تَغوَّرُوا في المِياهِ، فإذا غَرَبَتْ خَرجُوا يَتراعَونَ كما تَرعَى البَهائِمُ. وقالَ قتادةُ: ذُكِرَ لَنا أنَّهُم بِأرْضٍ لا تُنْبِتُ لَهُم شَيئًا؛ فَهُم إذا طَلَعَتِ الشمسُ دَخَلُوا في أسْرابٍ، حتَّى إذا زالَتِ الشمسُ خَرَجُوا إلى حُرُوثِهِم ومَعايِشِهِم، وهُمُ الزِّنجُ.

(كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) قال مُجاهدٌ والسُّدِّيُّ: عِلْمًا؛ أيّ: نحنُ مُطَّلِعُونَ على جَميعِ أحوالِه وأحوالِ جَيشِه لا يَخفَى عَلَينا مِنها شَيءٌ، وإنْ تَفَرَّقَتْ أُمَمُهُمْ وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأرضُ.

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) أيّ: سَلَكَ طَريقًا مِن مَشارِقِ الأرضِ.[1]

---

١) تفسيرُ ابنِ كثيرٍ(ج٥/ص١٧٠- ١٧٤)

تفسيرُ الجَلالَين

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ أَيّ: الْيَهُودَ. ﴿ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ اسْمُه الإِسْكَنْدَرُ وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا.

﴿ قُلْ سَأَتْلُو ﴾ أيّ: سَأَقُصُّ. ﴿ عَلَيْكُمْ مِنْهُ ﴾ أيّ: مِنْ حَالِه. ﴿ ذِكْرًا ﴾ خَبَرًا.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ بِتَسْهِيلِ السَّيْرِ فِيهَا.

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ. ﴿ سَبَبًا ﴾ طَرِيقًا يُوصِلُهُ إِلَى مُرَادِهِ.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ سَلَكَ طَرِيقًا نَحْوَ الْغَرْبِ.

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ مَوْضِعَ غُرُوبِهَا.

﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ذَاتَ حَمْأَةٍ وَهِيَ الطِّينُ الأَسْوَدُ وَغُرُوبُهَا فِي الْعَيْنِ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ؛ وَإِلَّا فَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ الدُّنْيَا. ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا ﴾ أَيّ: الْعَيْنِ.

﴿ قَوْمًا ﴾ كَافِرِينَ. ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ بِإِلْهَامٍ.

﴿ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ﴾ الْقَوْمَ بِالْقَتْلِ. ﴿ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ بِالأَسْرِ.

﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ بِالشِّرْكِ. ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ نَقْتُلُهُ.

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ بِسُكُونِ الْكَافِ وَضَمِّهَا شَدِيدًا فِي النَّارِ.

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى ﴾ أَيّ: الْجَنَّةَ وَالإِضَافَةُ لِلْبَيَانِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِنَصْبِ جَزَاءً وَتَنْوِينِهِ، قَالَ الْفَرَّاءُ: وَنَصْبُه عَلَى التَّفْسِيرِ؛ أَيّ لِجِهَةِ النِّسْبَةِ.

﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أَيّ: نَأْمُرُهُ بِمَا يَسْهُلُ عَلَيْهِ.

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) نَحْوَ الْمَشْرِقِ.

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ) مَوْضِعَ طُلُوعِهَا.

(وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ) هُمُ الزَّنْجُ. (لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا) أَيِّ: الشَّمْسَ.

(سِتْرًا) مِنْ لِبَاسٍ وَلاَ سَقْفَ؛ لأَنَّ أَرْضَهمْ لاَ تَحْمِلُ بِنَاءً، وَلَهُمْ سُرُوبٌ يَغِيبُونَ فِيهَا عِنْد طُلُوعِ الشَّمْسِ وَيَظْهَرُونَ عِنْد ارْتِفَاعِهَا. (كَذَلِكَ) أَيِّ: الأَمْرَ كَمَا قُلْنَا.

(وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ) أَيِّ: عِنْدَ ذِي الْقَرْنَيْنِ مِنْ الآلاَتِ وَالْجُنْدِ وَغَيْرِهِمَا.

(خُبْرًا) عِلْمًا. (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا)[1].

في ظِلال القُرآنِ

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا)

عن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: بَعثَتْ قُريشٌ النَّضْرَ بنَ الحارِثِ، وعُقْبَةُ بنُ أبي مُعَيطٍ إلى أحبارِ يَهودٍ بِالمَدِينةِ، فقالُوا لَهُم: سَلُوهُمْ عَن مُحمَّدٍ وَصفُوا لَهُمْ صِفَتَهُ وأخْبَرُوهُمْ بِقَولِهِ؛ فإنَّهُم أهْلُ الكِتابِ الأوَّلِ وعِنْدَهُم ما ليسَ عِندَنا مِن عِلْمِ الأنبياءِ. فَخَرَجا حتَّى أتَيا المَدِينَةَ فَسألُوا أحبارَ يَهُودٍ عنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَوَصَفُوا لَهُم أمْرَهُ وبَعْضَ قَولِهِ وَقالا: إنَّكُمْ أهلُ التوراةِ وقَد جِئْناكُمْ لِتُخْبِرُونا عَن صَاحِبِنا هَذا. فَقالُوا لَهُم: سَلُوهُ عَن ثلاثٍ نأمُرُكُمْ بِهِنَّ؛ فإنْ أخْبَرَكُمْ بِهِنَّ فَهُوَ نَبيٌّ مُرسَلٌ وإلَّا فَرَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ تَرَوا فِيهِ رأيَكُمْ: سَلُوهُ عَن فِتيةٍ ذَهَبُوا في الدَّهْرِ الأوَّلِ ما كانَ مِن أمْرِهِمْ؟؛

[1] تفسيرُ الجَلالَينِ: (ج١/ص٣٩٣).

فإنَّهُم كانَ لَهُم حَديثٌ عَجيبٌ، وَسَلوهُ عَن رَجُلٍ طَوَّافٍ بَلَغَ مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها ما كانَ نَبَؤُهُ؟ وَسَلُوهُ عَن الرُّوحِ ما هُوَ؟ فإنْ أخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ فَهُوَ نَبِيٌّ فاتَّبِعُوهُ، وإنْ لَمْ يُخْبِرْكُمْ فإنَّهُ رَجُلٌ مُتَقَوِّلٌ فاصْنَعُوا في أمْرِهِ ما بَدا لَكُم. فأقْبَلَ النَّضْرُ وعُقْبَةُ حتَّى قَدِما على قُريشٍ فَقالا: يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ قَد جِئْناكُمْ بِفَصْلِ ما بَينَكُمْ وبينَ مُحمَّدٍ. قَد أمَرَنا أحبارُ يَهُودٍ أنْ نَسْألَهُ عَن أُمُورٍ، فأخْبَرَهُم بِها. فَجاءُوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقالُوا: يا مُحمَّدُ أخْبِرْنا... فَسألُوهُ عَمَّا أمَرَهُمْ بِه. فَقالَ لَهُم رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أخْبِرُكُمْ غَداً عَمَّا سَألْتُمْ عَنْهُ، ولَمْ يَسْتَثْنِ فانْصَرَفُوا عَنهُ. ومَكَثَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَمْسَ عَشَرَةَ لَيلَةً لا يُحدثُ اللهُ لَهُ في ذَلِكَ وَحياً ولا يأتيهِ جِبْرِيلُ عليهِ السلامُ، حتَّى أُرجِفَ أهلُ مَكَّةَ وقالُوا: وَعَدَنا مُحمَّدُ غَداً واليومَ خَمْسَ عَشَرَةَ قَد أصْبَحْنا فِيها لا يُخْبِرُنا بِشَيءٍ عَمَّا سألْناهُ عَنهُ.

وحتَّى أحْزَنَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحْي عَنهُ، وَشَقَّ عَليهِ ما يَتَكَلَّمُ بِهِ أهْلُ مَكَّةَ. ثُمَّ جاءهُ جِبْرائِيلُ عَليهِ السلامُ مِن اللهِ عَزَّ وجلَّ بِسُورةِ الكَهْفِ فِيها مُعاتَبَتُهُ إيَّاهُ على حُزْنِهِ عَلَيهِم، وخَبَرِ ما سألُوهُ عَنهُ مِن أمْرِ الفِتيَةِ، والرَّجُلِ الطَّوَّافِ، وقَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ويَسْألُونَكَ عَن الرُّوحِ.

ولِتَعَدُّدِ رِواياتِ أسبابِ النُّزولِ نُؤثِرُ أنْ نَقِفَ في ظِلِّ النَّصِّ القُرآنيِّ المُسْتَيقَنِ، ومِن هذا النَّصِّ نَعلَمُ أنَّهُ كانَ هُناكَ سُؤالٌ عَن ذِي القَرْنَينِ لا نَدْري عَلى وَجْهِ التحقيقِ مَن الذي سألَهُ، والمَعرِفةُ بِه لا تَزِيدُ شَيئًا في دِلالةِ القِصَّةِ فَلْنُواجِه النَّصَّ بِلا زِيادةٍ.

إنَّ النَّصَّ لا يَذْكُرُ شَيئًا عن شَخصيَّةِ ذي القَرنَينِ ولا عَن زَمانِه أو مَكانِه، وهَذهِ هِيَ السِّمَةُ المُطَّرِدَةُ في قَصَصِ القُرآنِ؛ فالتَّسْجِيلُ التاريخيُّ ليسَ هُو المَقصُودَ؛ إنَّما المَقصودُ هُو العِبرَةُ المُستفادةُ مِن القِصَّةِ، والعِبْرَةُ تَتحقَّقُ دُونَ حاجةٍ إلى تحَديدِ الزمانِ والمَكانِ في أغلبِ الأحيانِ. والتاريخُ المُدوَّنُ يَعرِفُ مَلِكًا اسْمُهُ الاسْكَندرُ ذُو القرنَينِ، ومِن المَقطُوعِ بِه أنَّه ليسَ ذا القَرنَينِ المَذكورَ في القُرآنِ؛ فالإسكندرُ الإغريقيُّ كان وَثَنيًّا وهَذا الذي يَتحدَّثُ عَنهُ القُرآنُ مُؤمِنٌ بِاللهِ وَحدَهُ، مُعتَقِدٌ بِالبَعثِ والآخِرَةِ.

ويقولُ أبُو الرَّيحانِ البَيرونيُّ المُنجِّمُ في كتابِ "الآثارِ الباقيةِ عَنِ القُرونِ الخاليةِ":

إنَّ ذا القَرنَينِ المَذكُورَ في القُرآنِ كان مِن حِمْيَر مُسْتَدلًّا بِاسْمِه؛ فَمُلوكُ حِمْيَر كانُوا يُلَقَّبُونَ بِذِي، كَ (ذِي نُواسٍ، وذِي يَزَنٍ). وكانَ اسْمُهُ أبُو بَكْرِ بنِ افريقش، وأنَّهُ رَحَلَ بِجُيوشِه إلى ساحلِ البحرِ الأبيضِ المُتوسِّطِ فَمرَّ بِتُونُسَ ومراكِش وغَيرِهِما فَسُمِّيَتِ القارَّةُ كُلُّها بِاسْمِه. وسُمِّيَ "ذا القَرنَينِ"؛ لأنَّهُ بَلَغَ قَرنَي الشمسِ.

قَد يكونُ هذا القولُ صَحيحًا؛ ولَكِنَّنا لا نَمْلِكُ وَسائِلَ تَمحيصِه؛ ذَلِكَ أنَّه لا يُمْكِنُ البحثُ في التاريخِ المُدوَّنِ عَن ذِي القَرنَينِ الذي يَقُصُّ القُرآنُ طَرَفًا مِن سِيرَتِه، شأنُه شأنُ كَثيرٍ مِن القَصَصِ الواردِ في القُرآنِ؛ كَقَصَصِ قَومِ نُوحٍ وقَومِ هُودٍ وقَومِ صالِحٍ وغَيرِهِم. فالتاريخُ مَولودٌ حَديثُ العَهدِ جِدًّا بِالقياسِ إلى عُمُرِ البَشريةِ. وقَد جَرتْ قبلَ هذا التاريخِ المُدَوَّنِ أحداثٌ كثيرةٌ لا يُعرَفُ عَنها شَيئًا؛ فَلَيسَ هُو الذي يُسْتفْتَى فِيها ! ولو سَلِمَتِ التوراةُ مِن التحريفِ والزِّياداتِ لَكانتْ مَرْجِعًا يُعتمَدُ عليهِ في شَيءٍ مِن تِلكَ الأحداثِ؛

ولَكِنَّ التوراةَ أُحِيطَتْ بِالأساطيرِ، وشُحِنَتْ بِالرِّواياتِ التي لا شكَّ في أنَّها مَزيدةٌ على الأصلِ المُوحَى بهِ مِن اللهِ تعالى؛ فَلَمْ تَعُدِ التوارةُ مَصدَرًا مُسْتيقَنًا لِما جاءَ فِيها مِن القَصَصِ التاريخيِّ. وإذنْ فَلَمْ يَبْقَ إلَّا القُرآنُ الكريمُ – الذي حُفِظَ مِن التحريفِ والتبديلِ – هُو المَصدرَ الوحيدَ لِما جاءَ فيهِ مِن القَصَصِ التاريخيِّ. ومِن البَديهيِّ أنَّه لا تَجُوزُ مُحاكَمةُ القُرآنِ الكريمِ إلى التاريخِ لِسَبَبَينِ أوَّلهما: أنَّ التاريخَ مَولودٌ حَديثُ العَهدِ فاتَتْهُ أحداثٌ لا تُحْصَى في تاريخِ البشريةِ ولَمْ يُعْلَمْ عَنها شيئًا والقُرآنُ يَروي بَعضَها. وثانيهما: أنَّ التاريخَ – وإنْ وعَى بعضَ هَذهِ الأحداثِ – هُو عَملٌ مِن أعمالِ البَشرِ يُصيبُه ما يُصيبُ جَميعَ أعمالِ البَشرِ مِن القُصورِ والخَطأِ والتحريفِ.

وفِي زَمانِنا هذا الذي تَيسَّرَتْ فيهِ وَسائلُ الاتِّصالِ نَجِدُ أنَّ الخبرَ الواحِدَ أو الحادثَ الواحدَ يُروَى على أَوْجُهٍ شَتَّى، وَيُنْظَرَ إليهِ مِن زَوايا مُختلفَةٍ، ويُفَسَّرَ تفْسيراتٍ مُتناقِضَةً. ومِن مِثْلِ هذا الرُّكامِ يُصنَعُ التاريخُ!

فاستفتاءُ التاريخِ عمَّا جاءَ به القُرآنُ الكريمُ مِن القَصصِ كَلامٌ تُنْكِرُهُ القواعدُ العِلْميَّةُ قبلَ أنْ تُنْكِرَهُ العَقيدةُ التي تُقرِّرُ أنَّ القُرآنَ الكريمَ هُو القولُ الفَصْلُ. ولقَد سألُوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَن ذِي القَرنَينِ، فأوحَى اللهُ إليهِ بِما هو وارِدٌ هُنا مِن سِيرَتِه، وليسَ أمامَنا مَصدَرٌ آخرُ غَيرُ القُرآنِ في هَذهِ السِّيرَةِ، ولا نَمْلِكُ التوسُّعَ فيها بِغَيرِ عِلْمٍ.

وقَد وَردَتْ في التفاسيرِ أقوالٌ كثيرةٌ؛ لَكِنَّها لا تَعتمِدُ على يَقينٍ، فَينبَغي أنْ تُؤخَذَ بِحَذَرٍ لِما فيها مِن إسرائيليَّاتٍ وأساطيرَ.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ لقد مَكَّنَ اللهُ لهُ في الأرضِ؛ فأعطاهُ سُلطانًا وَطيدَ الدَّعائمِ، ويَسَّرَ لهُ أسبابَ الحُكْمِ والفتْحِ، وأسبابَ البِناءِ والعُمرانِ، وأسبابَ السُلطانِ والمَتاعِ وسائرِ ما هُو مِن شأنِ البَشَرِ أنْ يُمكَّنُوا فيهِ في هَذهِ الحَياةِ.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ مَضَى في وَجْهٍ مِمَّا هُوَ مُيَسَّرٌ لَهُ، وسَلَكَ طَرِيقَهُ إلى الغَرْبِ.

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾

مَغرِبُ الشمسِ هُو المكانُ الذي يَرى الرائي أنَّ الشمسَ تَغربُ عِندَهُ وَراءَ الأُفُقِ.

وهُو يَختَلِفُ بِالنسبةِ للمَواضِعِ؛ فبَعضُ المَواضِعِ يَرَى الرائي فيها أنَّ الشمسَ تَغرُبُ خلفَ جَبلٍ، وفي بَعضِ المَواضِعِ يَرى أنَّها تَغرُبُ في الماءِ كما في المُحيطاتِ الواسِعَةِ والبِحار، وفي بَعضِ المَواضِعِ يَرى أنَّها تَغرُبُ في الرِّمالِ إذا كانَ في صَحراءَ مَكشُوفةٍ على مَدِّ البَصَرِ.

والظاهِرُ مِن النَّصِّ أنّ "ذا القَرنَينِ" غَربَ حتَّى وَصَلَ إلى شاطِئِ المُحيطِ الأطلَسيِّ وظنَّ أنّ اليابِسَةَ تَنتهِي عِندَهُ فَرأى الشمسَ تَغرُبُ فيهِ.

والأرجحُ أنَّه كانَ عِندَ مَصبِّ أحدِ الأنهارِ؛ حيثُ تكثرُ الأعشابُ ويَتجمَّعُ حَولَها طِينٌ لَزِجٌ هُو الحَمأُ، وتُوجَدُ البركُ كأنَّها عُيونُ الماءِ، فَرأى الشمسَ تَغرُبَ هُناكَ. ويَتعذَّرُ عَلينا تحديدُ المكان؛ لأنَّ النَّصَّ لا يُحدِّدُه، وليسَ لَنا مَصدَرٌ آخرُ مَوثُوقٌ بِه نَعتمِدُ عَليهِ في تحَديدِه، وكُلُّ قَولٍ غَيرِ هذا ليسَ مأمُونًا؛ لأنَّه لا يَستنِدُ إلى مَصدَرٍ صَحيحٍ.

﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ عِندَ هَذهِ العَينِ الحَمِئَةِ وَجَدَ ذُو القَرنَينِ قَومًا.

﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾

كيفَ قالَ اللهُ هذا القولَ لِذي القَرنَينِ؟ أكانَ ذَلِكَ وَحْيًا إليهِ؟ أمْ إنَّه حِكايةُ حالٍ إذْ سَلَّطَهُ اللهُ على القومِ، وتَرَكَ لهُ التَّصرُّفَ في أمْرِهِم؛ فَكأنَّما قِيلَ لهُ: دُونَكَ وإيَّاهُم؛ إمَّا أنْ تُعَذِّبَ، وإمَّا أنْ تَتَّخِذَ فِيهِم حُسْنًا؟

القولانِ كِلاهُما مُمْكِنٌ، ولا مانِعَ مِن فَهْمِ النَّصِّ على هَذا الوجْهِ أو ذاكَ.

والمُهِمُّ أنَّ "ذَا القَرنَينِ" أعلنَ دُسْتُورَهُ في مُعامَلَةِ البِلادِ المفتُوحةِ التي دانَ لهُ أهلُها وسَلَّطَهُ اللهُ عَليها.

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾

أعْلَنَ أنَّ لِلمُعتَدِينَ الظالِمينَ عَذابَه الدُّنيويَّ وعِقابَه، وأنَّهُم بعدَ ذلكَ يُردُّونَ إلى رَبِّهِم فَيُعذِّبَهُم عَذابًا فَظِيعًا لا نَظيرَ لهُ فِيما يَعرفُه البَشَرُ. أمَّا المُؤمِنُونَ الصَّالِحُونَ فَلَهُم الجَزاءُ الحَسَنُ والمُعامَلَةُ الطَّيِّبَةُ والتكريمُ والمَعُونةُ والتيسيرُ. وهذا هُو دُستورُ الحُكْمِ العادِلِ؛ فالمُؤمِنُ الصالِحُ ينبغي أن يَجِدَ الكرامةَ والتيسيرَ والجزاءَ الحَسَنَ، والمُعتدِي الظالِمُ يَجِبُ أن يَلقَى العذابَ والإيذاءَ.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا. كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾

وما قِيلَ عَن مَغرِب الشمسِ يُقالُ عَن مَطلعها؛ فالمَقصُودُ هو مَطلعُها مِن الأُفقِ الشرقيِّ في عَينِ الرَّائي. والقُرآنُ الكريمُ لَمْ يُحدِّدِ المكانَ؛ لَكِنَّهُ وَصَفَ طَبِيعَتَه وَحالَ القومِ الذي وَجدَهُم ذُو القَرنَينِ هُناكَ؛ فَهِيَ أرضٌ مَكشُوفةٌ لا تَحجبُها عن الشمسِ مُرتفَعاتٌ ولا أشجارٌ؛ فالشمسُ تطلعُ على القومِ فيها حِينَ تطلُعُ بِلا ساتِرٍ، وهَذا الوصفُ يَنطَبِقُ على الصَّحارَى والسُّهولِ الواسِعَة.

وهُناكَ احتِمالٌ لأنْ يكونَ المَقصُود أنَّهُم قَومٌ عُراةُ الأجسامِ لَمْ يَجعَلْ لَهُم سِتْرًا مِن الشمسِ.

ولقَد أعلنَ "ذُو القَرنَينِ" مِن قَبْلُ دُستُورَهُ في الحُكْمِ فَلَمْ يَتكرَّرْ بيانُه هُنا، ولا تَصرُّفُه في رِحْلةِ المَشرِق؛ لأنَّه مَعرُوفٌ مِن قَبْلُ، وقَد عَلِمَ اللهُ – وهُو عَلَّامُ الغُيوبِ – كُلّ ما لَدَيه مِن أفكارٍ واتِّجاهاتٍ.

ونَقِفُ هُنا أمامَ ظاهِرة التناسُقِ الفنِّيِّ في العَرْضِ؛ فالمَشْهَدُ الذي يَعرضُه السِّياقُ هُو مَشْهَدٌ مَكشُوفٌ في الطبيعة: الشمسُ ساطِعةٌ لا يَسترُها عن القومِ ساتِرٌ، وكَذلِكَ ضَمير ذي القَرنَينِ ونَواياهُ كُلُّها مَكشُوفةٌ لِعِلْمِ اللهِ. وبِذلِكَ يَتناسَقُ المَشهَدُ في الطبيعةِ مع ضَميرِ ذي القرنَينِ على طَريقةِ التنسيقِ القُرآنيَّةِ الدقيقةِ.

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) مَضَى في وَجْهٍ مِمَّا هُو مُيَسَّرٌ لَهُ.[1]

التحريرُ والتنويرُ - تفسيرُ ابنِ عاشُور

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ)

[1] في ظِلال القُرآنِ (ج ٤/ ص ٢٢٨٨- ٢٢٩٣).

افتتاحُ هَذهِ القِصَّةِ ب (**وَيَسْأَلُونَكَ**) يَدلُّ على أنَّها مِمَّا نَزَلَتِ السُّورةُ لِلجَوابِ عَنهُ كَما كانَ الابتِداءُ بِقِصَّةِ أصحابِ الكهفِ اقتِضابًا وتَنْبيهًا على مِثلِ ذَلِكَ؛ فالسائِلُونَ هُم قُرَيشٌ لا مَحالةَ، والمَسؤُولُ عَنهُ خَبَرُ رَجُلٍ مِن عُظماءِ العالَمِ عُرِفَ بِلَقبِ "ذِي القَرنَينِ"، كانتْ أخبارُ سِيرَتِه خَفِيَّةً مُجْمَلَةً مُغلَقةً، فَسألُوا النَّبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم عَن تحقيقِها وتَفْصِيلِها، وأذِنَ لهُ اللهُ أنْ يُبيِّنَ مِنها ما هُو مَوضِعُ العِبْرَةِ لِلنَّاسِ في شُؤونِ الصَّلاحِ والعَدلِ، وفي عَجيبِ صُنعِ اللهِ تعالى في اختلافِ أحوالِ الخَلْقِ. وكانَ أحْبارُ اليهُودِ مُنْفَرِدينَ بِمَعرِفةٍ إجماليَّةٍ عن هَذهِ المَسائلِ الثلاثِ وكانتْ مِن أسْرارِهِم؛ فَلِذَلِكَ جَرَّبُوا بِها نُبوءةَ مُحمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم. ولَمْ يَتجاوزِ القُرآنُ الكريمُ ذِكْرَ هذا الرَّجُلِ بِأكْثرَ مِن لَقَبِهِ المُشتهِرِ بِه إلى تَعيينِ اسْمِه وبِلادِه وقَومِه؛ لأنَّ ذَلِكَ مِن شُؤونِ أهْلِ التاريخِ والقَصَصِ وليسَ مِن أغراضِ القُرآنِ الكريمِ، فكانَ مِنهُ الاقتِصارُ على ما يُفِيدُ الأُمَّةَ مِن هَذهِ القِصَّةِ عِبْرَةً حِكْمِيَّةً أو خُلقيَّةً؛ فَلِذَلِكَ قالَ اللهُ (**قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا**) المُرادُ بِالسُّؤالِ عن "ذِي القَرنَينِ" السؤالُ عن خَبَرِه، فَحُذِفَ المُضافُ إيجازًا لِدلالةِ المقامِ، وكذلك حُذِفَ المُضافُ في قَولِه (**مِنْهُ**) أيّ: مِن خَبَرِه ومِنْ "تَبْعِيضيَّةٌ". والذِّكْرُ هو التَّذَكُّرُ والتَّفَكُّرُ؛ أيّ: سَأتْلُو عَليكُم ما بِهِ التَّذَكُّرُ؛ فجَعلَ المَتلُوَّ نَفْسَهُ ذِكْرًا مُبالَغةً بِالوصفِ بِالمَصدَرِ؛ ولَكِنَّ القُرآنَ الكريمَ جاءَ بِالحقِّ الذي لا تَخليطَ فيهِ مِن حالِ الرَّجُلِ الذي يُوصَفُ بِ "ذي القَرنَينِ" بِما فيهِ إبطالٌ لِما خلطَ بِه الناسُ بينَ أحوالِ رجالٍ عُظماءَ كانُوا في عُصورٍ مُتقارِبةٍ أو كانتْ قَصَصُهُم تُساقُ مَساقَ مَن جاسُوا خِلالَ بِلادٍ مُتقارِبَةٍ مُتماثِلَةٍ وشَوَّهُوا تَخليطَهُم بالأكاذيبِ.

واختلفَ المُفسِّرُونَ في تعيينِ المُسمَّى بِـ "ذي القَرنَين" اختِلافًا كثيراً، والذي يَجِبُ الانفصالُ فيهِ بادِئَ ذِي بَدءٍ أنَّ وَصْفَهُ بِـ "ذِي القَرنَين" يتعيَّنُ أنْ يكونَ وَصْفًا ذاتيًّا لـهُ، وأنْ لا يُحـملَ الـقَرنـانِ عـلى الحـقيقةِ؛ بـلْ هُـما عـلى (التشـبيهِ) أو عـلى (الصُّورَةِ).

فالأظهرُ أنْ يكُونا ذُؤابتَينِ مِن شَعَرِ الرأسِ مُتدلِّيتَينِ، وإطلاقُ القَرْنِ على الضَّفِيرَةِ مِن الشَّعَرِ شائِعٌ في العربيةِ.

وقيلَ: هُما شِبْهُ قَرْنَي الكَبْشِ مِن نُحاسٍ كانا في خُوذةِ هذا المَلِكِ فَنُعِتَ بِهِما.

وتأتي الأقوالُ في تعيينِ ذِي القَرنَينِ؛

مِنها: أنَّه الإِسكندرُ المَقدُونيُّ حيثُ كان يلبسُ خُوذةً في الحَربِ بها قَرنانِ،

وقِيلَ: رسمَ ذاتَهُ على بَعضِ نُقودِهِ بِقَرنَينِ في رأسِه تَمثِيلاً لِنَفْسِه بالمَعبودِ "آمُون"؛ وذلكَ حينَ مَلَكَ مِصرَ.

ومِنها: إنَّه مَلِكٌ من مُلوكِ حِمْيَر في عصرٍ مُتوغِّلٍ في القِدَمِ هو تُبّعُ أبو كَرْبٍ.

ومِنها: أنّه مَلِكٌ من مُلوكِ الفُرس وهو أفريدون.. وهذه القِصَّةُ القُرآنيّةُ تُعطي صفاتٍ منها أنّه كان مَلِكًا صالِحًا عادِلاً، وأنّه كان مُلْهَمًا مِن اللهِ، وأنّ مُلْكَهُ شَمِلَ أقطاراً شاسِعةً، وأنَّه بَلَغَ في فُتوحِه من جِهةِ المَغْرِبِ مَكانًا كان مَجهولاً وهو "عَينُ حَمِئةٍ"، وأنّه بلغَ بِلادَ يأجُوج ومأجوج، وأنَّه أقام سَدًّا يَحُولُ بين يأجُوج ومأجُوج وبينَ قومٍ آخرِينَ، وأنَّ يأجوجَ ومأجوجَ كانوا عائِثِينَ في الأرض فساداً، وأنَّه كان معهُ قومٌ أهلُ صِناعةٍ مُتقَنَةٍ في الحديدِ والبِناء، وأنَّ خَبرَه خَفيٌّ دقيقٌ لا يَعلَمُه إلاّ الأحبارُ عِلْمًا إجماليًّا كما دلَّ عليه سببُ النزولِ. ومَن تدبَّرَ هذه الأحوالَ نفَى أن يكونَ ذُو

القرنَين "إسكندَر المقدونيّ" ؛ لأنَّه لم يَكُنْ مَلِكًا صالحًا؛ بل كان وَثنيًّا فلَم يكُنْ أهلاً لتلقِّي الوحي مِن اللهِ، ولا يُعرَفُ في تاريخِه أنَّه أقام سَدًّا بين بلدَين، ولا يَعرِفُ أنَّ "مَملكةَ إسكندر" كانت تبلغُ في الغربِ إلى "عَينٍ حَمئَةٍ" وفي الشرقِ إلى قومٍ مجهُولينَ عُراةٍ أو عَديمِي المساكِن، ولا أنَّ أُمَّتَه كانت تُلقِّبُه بِ "ذي القرنَين" .

وقد تَوهَّمَ بعضُ المفسِّرينَ أنه كان مُعاصِرًا لإبراهيمَ عليه السلامُ، وكانت بلادُه التي فتحَها مجهولةَ المواقِع؛ ولكنْ يبْعدُ أن يكونَ هو المرادَ؛ لأنَّ العربَ لا يَعرِفونَ مِن خَبرِهِ مِثلَ هذا، وقَد ظهرَ مِن أقوالِهم أنّ سببَ هذا التوهُّمِ هو وجودُ كلمةِ "ذو" التي اشتهرَ وُجودُ مِثلها في ألقابِ مُلوكِ اليمنِ وتبابِعَتِه. والذي يظهرُ لي أنَّ "ذا القرنَين" كان مَلِكًا من مُلوكِ الصِّينِ لِوُجوهٍ؛ مِنها أنَّ الصِّينيِّين اشتهروا مُنذُ القِدَمِ بأنَّهُم أهلُ تدبيرٍ وصنائِعَ. وأنَّ مُعظَم مُلوكِهم كانوا أهلَ عَدلٍ وتدبيرٍ لِلمَملَكةِ. وأنَّ مِن سِماتِهم تطويلُ شَعَرِ رُؤوسِهم، وجَعْلِها في ضَفِيرتَينِ فيظهرُ وَجْهُ تعريفِه بِ "ذي القرنَين. وأنّ سَدًّا ورَدْمًا عظيمًا لا يُعرَفُ له نظيرٌ في العالَم مَوجُودٌ بينَ بلادِ الصِّين وبلادِ المَغُولِ المشهُور ب "السُّورِ الأعظَم" . وما روتْ أمُّ حبيبةَ عن زَينَب بنتِ جَحْشٍ رضيَ اللهُ عنهُما، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم خرجَ ذاتَ ليلةٍ فقال: "وَيلٌ لِلعَربِ مِن شَرٍّ قَد اقتَرَبَ، فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يأجُوجٍ ومأجُوجٍ هكذا" وأشارَ بِوضْعِ طَرَفِ السبَّابةِ على طَرَفِ الإبهام. وقَد كان زوالُ عَظمةِ سُلطانِ العَرَبِ على يدِ المَغولِ في بغدادَ فتَعيَّنَ أنَّ يأجُوجَ ومأجُوجَ هُمُ "المَغولُ" ، وأنَّ الردْمَ المذكورَ في القُرآنِ هو الرَّدْمُ الفاصلُ بين بلادِ المَغولِ وبلادِ الصِّينِ وبانيه مَلِكٌ من مُلوكِهم، وأنَّ وَصْفَه في القرآنِ بِذي القرْنَينِ توصيفٌ لا تلقيبٌ. والأمرُ في قولِه "قُلْ سأتْلُو

عَلَيْكُمْ" إذنْ من اللهِ لِرَسُولِه بأنْ يَعِدَ بالجوابِ عن سُؤالِهم، والسِّينُ لتحقيقِ الوعدِ. وجَعْلَ خَبَرَ ذي القرنين تِلاوةً وذِكْرًا للإشارة إلى أنَّ المُهِمَّ من أخبارِه ما فيه تذكيرٌ وما يَصلُحْ لأنْ يكونَ تِلاوةً حسبَ شأنِ القُرآنِ فإنّه يُتلَى لأجْلِ الذِّكْرِ ولا يُساقُ مَساقَ القَصَصِ. وَقولُه "مِنْهُ ذِكْرًا" تنبيهٌ على أنَّ أحوالَه وأخبارَه كثيرةٌ، وأنَّهم إنَّما يَهمُّهُم بعضُ أحوالِه المُفيدَة ذِكْرًا وَعِظَةً؛ ولذلكَ لم يَقلْ في قِصَّةِ أصحابِ الكهفِ "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ مِنْ نبئِهم"؛ لأنَّ قِصَّتَهُم مُنْحَصِرةٌ فيما ذُكِرَ، وأحوالُ ذِي القرنَينِ غيرُ مُنحَصرةٍ فيما ذُكِرَ هُنا. و مِن للتبعيض.

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) معنى التمكينِ في الأرضِ هُو إعطاءُ المَقدرةِ على التصرُّف، والمرادُ بالأرضِ أهلُ أرضِ مُلكِه. والسببُ حقيقتُه الحَبْلُ، وأُطلِقَ هُنا على ما يُتوسَّلُ بهِ إلى الشيءِ من (عِلْمٍ أو مَقْدِرَةٍ أو آلاتِ التسخيرِ) على وَجْهِ الاستعارةِ.

(فَأَتْبَعَ سَبَبًا) السببُ هو الوسيلةُ، والمُرادُ هُنا معنىً مجازيٌّ وهو الطريقُ؛ لأنَّ الطريقَ وسيلةٌ إلى المكانِ المقصُود، والدليلُ على إرادةِ غَيرِ معنى السببِ في قولِه تعالى: (وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) إظهارُ اسمِ السببِ دُونَ إضمارِه؛ لأنَّه لَمَّا أُريدَ به معنىً غيرَ ما أُريدَ بالأوَّلِ حَسُنَ إظهارُ اسْمِه تنبيهًا على اختلافِ المَعنَيين؛ أيّ: فاتبعَ طريقًا للسَّيرِ وكان سيرُه للغَزوِ.

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ) حيث يلوحُ الغُروبُ من طريقِ غَزوتِه؛ إذ ليسَ للشمسِ مَغرِبٌ حقيقيٌّ. والأشبهُ أنَّه بلغَ "بحرَ الخَزَرِ" وهو (بُحيرةُ قزوينَ)؛ فإنها غربُ بلادِ الصِّين.

(**وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**) العَينُ هي منبعُ ماءٍ، والمعنى: عَينٌ مُختلِطٌ ماؤها بالحَمأة؛ فهُو غَيرُ صافٍ، ويظهرُ أنَّها عَينٌ من عُيونِ النِّفْطِ الواقعةِ على ساحلِ بحرِ الخَزَرِ، والمُؤرِّخونَ المسلِمُون يُسمُّونَها (البلادَ المُنتِنَة).

(**وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا**) تنكيرُ "قَوْمًا" يُؤذِنُ بأنَّهُم أُمّةٌ غيرُ مَعرُوفةٍ ولا مألُوفةٍ حالةُ عقائِدِهِم.

(**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**) دَلَّ ذلك على أنَّهُم مُستحِقُّونَ للعَذاب، وأنَّ أحوالَهُم كانت في كُفْرٍ وفَسادٍ. وإسنادُ القولِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ يَحتمِلُ أنَّه "إلهامٌ"؛ أيّ: ألقَينا في نفْسِه تردُّداً بين أن (يُعذِّبَهُم أو يمْهِلَهُم) ويدعُوهُم إلى الإيمانِ وحُسْنِ العملِ. وإنْ كان ذُو القرنَين "نبيًّا" فيكونُ القول كَلامًا مُوحىً بهِ إليهِ يُخيّرُه فيه بين الأمرَين، وقد أرادَ اللهُ إظهارَ سَدادِ اجتهادِه.

(**قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ**) الظُّلْمُ هو الشِّرْكُ، ويكونُ قولُه هذا جَوابًا منهُ إلى رَبِّهِ، ويُشيرُ حرفُ الاستقبالِ "سَوفَ" إلى أنَّه سَيدعُوه إلى الإيمانِ؛ فإنْ أصرَّ على الكُفرِ يُعذِّبُه عذابَ الدُّنيا.

(**ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا**) وذلكَ عذابُ الآخرةِ.

(**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى**) حُسْنًا مَصدَرٌ، وعَدَلَ عنْ أنْ تُحْسِنَ إليهِم إلى أن تَتَّخِذَ فِيهِم حُسْنًا مُبالَغةً في الإحسانِ إليهِم؛ فإنْ كان المُرادُ مِن الحُسنَى (الخِصالَ الحُسنَى) فمَعنى ذلك أنَّه يُجازَى بالإحسانِ والثناءِ مِن ذي القرنَينِ، وإنْ كان المُرادُ من الحُسْنَى (ثوابَ الآخرةِ) فذلكَ مِن أمرِ اللهِ تعالى؛ وإنَّما

ذُو القرنَينِ مُخبَرٌ به على مَعنى (إنَّا نُبشِّرُهُ بِذلِكَ)؛ أيّ: أنَّي أعلَمُ جزاءَه عِنْدَك الحُسنَى. وعَطفَ عليهِ (**وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**) لِبيانِ حَظِّ المَلِكِ من جَزائِه، وأنَّه البِشارة والثناءُ. (**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا**) تقدَّم بيانُه.

(**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ**) مَطلِعُ الشمسِ هو مكانُ طُلوعِها من جِهة المَشرِق من سُلطانِه ومَملكتِه؛ أيّ: بلغَ جِهةً قاصِيةً مِن الشرقِ؛ حيث يُخالُ أنْ لا عمرانَ وَراءها، والظاهرُ أنَّه بلغَ ساحلَ بَحْرِ اليابانِ.

(**وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا**) وَجَدَ قَومًا تطلعُ عليهِم الشمسُ لا يَسترُهُم شيءٌ مِن حَرِّها فهيَ أرضٌ مَكشُوفةٌ، ويجوزُ أن يكون المعنى أنَّهُم كانوا قَومًا عُراةً فكانُوا يَتّقُونَ أشعَّةَ الشمسِ في (الكُهوفِ) أوْ في (أسرابٍ) يتَّخِذُونَها في التراب، وكانوا قَد تعوَّدُوا مُلاقاةَ حَرِّ الشَّمسِ؛ لِيدْفعُوا عن أنفُسِهم ما يُلاقُونَه مِن القُرِّ لَيلاً. وفي هذه الحالةِ عِبرةٌ من اختلافِ الأُمَمِ في الطبائعِ والعوائدِ وسِيرتِهم على نَحْوِ مناخِهم. (كَذَلِكَ) الكافُ للتشبيه، والمُشبَّهُ به شيءٌ تَضمَّنَه الكلامُ السابقُ بِ(لفظِه أو مَعناهُ). والكافُ ومَجرُورها يجوزُ أن يكون شِبْهَ جُملَةٍ وَقعَ صِفةً لِمَصدرٍ محذوفٍ يدلُّ عليه السِّياقُ؛ أيّ: تشبيهًا مُماثِلاً لِما سَمِعْتَ. واسمُ الإشارةِ يُشيرُ إلى المحذوفِ، والمَعنى: مَن أرادَ تشبيهَه لمْ يُشبِّهْهُ بأكثرَ مِن أنْ يُشبِّهَهُ بِذاتِه. ويجوزُ أن يكونَ جُزءَ جُملَةٍ، والتقديرُ: أمرُ ذي القرنَينِ كذلكَ؛ أيّ: كما سَمِعْتَ. ويجوزُ أن يكونَ صِفةً لِقَومِه؛ أيّ: قَومًا كذلكَ القومِ الذينَ وَجَدَهُمْ في مَغرِبِ الشَّمْسِ في كَونِهم كُفَّارًا، وفي تخييرِه في إجراءِ أمْرِهم على (العِقابِ أو

الإمهالِ). ويجوزُ أن يكونَ المجرورُ جُزءَ جُملَةٍ أيضًا جُلبَت للانتقالِ من كلامٍ إلى كلامٍ فيكونُ فصلَ خِطابٍ كما يُقالُ هذا الأمرُ كذا. وعلى الوُجوهِ كُلِّها فهو اعتراضٌ بينَ جُملةِ (ثُمَّأتبَعَسَبَبًاحتَّىإذابَلَغَمَطلِعَالشَّمسِ) وجُملةِ (ثُمَّأتبَعَسَببًا حتَّىإذابَلَغَبَينَالسَّدَّينِ..). (وَقَدْأَحَطْنَابِمَالَدَيْهِخُبْرًا) أيّ بما عندَه من عَظمةِ المُلكِ من (جُندٍ وقُوّةٍ وثَروةٍ). و"الخُبْرُ" بضَمِّ الخَاء وسُكونِ المُوحَّدة هو (العِلْمُ والإحاطةُ بالخَبرِ)، كِنايةٌ عن كَونِ المعلُومِ عظيمًا؛ لأنَّه لا يُحيطُ به علمًا إلَّا عَلَّامُ الغُيوبِ.(١)

خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ

(وَيَسْأَلُونَكَعَنذِيالقَرنَينِقُلْسَأَتْلُوعَلَيْكُمْمِنْهُذِكْرًا) لُقِّبَ بِ "ذي القرنَين" رُبَّما كان في (تَكوينه ذا قرنَين)، أو كان (يلبسُ تاجًا له اتِّجاهان)، أو لأنَّه (بَلَغَ قَرْنَي الشَّمْسِ في المَشْرِق وفي المَغْرِب. (وليسَ من صالِح القِصَّةِ حَصرُها في شَخْصٍ بعَينه؛ لأنَّ ذلك يُضْعِفُ من تأثيرها، ويَصبُغُها بِصِبْغَةٍ شَخْصِيَّةٍ لا تتعدَّى إلى الآخَر؛ فَنَرى مَن يقولُ بأنها مسألةٌ شخصيَّة لا تتكرَّرُ. والحَقُّ سُبحانَه وتعالى يُريدُ أنْ يَضْرِبَ لنا مَثلاً يَعُمُّ أيَّ شَخصٍ ماذا سيكونُ مَسلَكُهُ وتَصرُّفُه إنْ مَكَّنَ اللهُ لهُ ومَنحَهُ قوَّةً وسُلطةً؟ ولو كان في تعيينه فائدةٌ لَعيَّنَه اللهُ لنا. إذنْ: الحقُّ سُبحانَه وتعالى أتى بِهَذِه القِصَّةِ غَيرَ مُشخَّصةٍ؛ لِتكُونَ مِثالاً عَمليًّا وأُسوةً يَحتذِي بها كلُّ أحدٍ في أيِّ زمانٍ أو في أيِّ مكانٍ، أمّا حِينما تكلَّمَ عن السيِّدة "مَريَمَ" فَنراهُ حدَّدها

١) التحريرُ والتنويرُ - تفسيرُ ابنِ عاشُور(ج ١٦/ ص ١٧- ٢٨).

باسْمِها واسْمِ أبيها؛ ذلك لأنَّ ما حَدثَ لها مسألةٌ خاصَّةٌ بها، ولن تَحَدُثَ بعدَها أبداً في بَناتِ آدمَ عليهِ السلامُ؛ لِذلكَ (عَيَّنَها وشخَّصَها)؛ لأنَّ التشخيصَ ضروريٌّ في مِثل هذا المَوقفِ.

(**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ**) أيّ: أعطيناهُ إمكاناتٍ يستطيعُ بها أن يَصرِّفَ أمورَه التي يُريدُها حسبَ مَنهجِ اللهِ عزَّ وجلَّ، كما قالَ تعالى في الآية ٥٦ مِن سُورة يُوسُفَ: (**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ**).

(**وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**) أيّ: أعطَيناهُ أسبابًا يَصِلُ بها إلى ما يُريدُ، فَما مِن شَيءٍ يُريدُه إلَّا ويَجْعَلُ اللهُ لهُ وَسيلةً مُوصِلةً إليهِ. فماذا صَنَعُ هُو؟ (**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**) أتبعَ السَّبَبَ؛ أيّ: لا يَذهَبُ لِغايةٍ إلَّا بالوسيلةِ التي جعلَها اللهُ لهُ، ومَع ذلك لمْ يَرْكَنْ إلى ما أُعطِيَ، ولمْ يَتقاعَسْ، ولمْ يكْسَلْ؛ بل أخذَ مِن عَطاءِ اللهِ لهُ بِشيءٍ مِن كُلِّ سَببٍ.

(**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ**) بُلوغُه مَغرِبَ الشمسِ دليلٌ على أنَّه لم يَكُنْ بِهذا المكانِ؛ بل كان قادِمًا إليه مَن المَشرِق. وهل تغربُ الشمسُ؟ نعمْ تغربُ في عَينِ الرائي في مكانٍ واحدٍ، وغُروبُها بمعنى (غِيابها مِن مَرأى العَين)؛ لأنَّ الشمسَ لا تغيبُ أبداً فهِيَ دائِمًا شارِقةٌ غارِبةٌ؛ بِمعنَى أنَّها حِينَ تغربُ على قَومٍ تُشرِقُ على آخرِينَ؛ لهذا تتعدَّدُ المَشارقُ والمَغارِبُ ويدومُ ذِكْرُ اللهِ على الألسنةِ في كلِّ الأوقاتِ؛ فَحِينَ نُصلِّي الظُّهرَ يُصلِّي غَيرُنا العصرَ ويُصلِّي غيرُهُم المَغرِبَ وهكذا. فالحقُّ سُبحانَه يُذكِّرُ في كلِّ وقتٍ بِكُلِّ وقتٍ، فلا ينتهي الظهرُ للهِ، ولا ينتهي العصرُ للهِ،

ولا ينتهي المَغرِبُ للهِ؛ بل لا ينتهي الإعلامُ بِواحدةٍ منها طوالِ الوقتِ وعلى مرِّ الزمنِ.

(**وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**) أيّ: في عَينٍ فيها ماءٌ، وقُلنا: إنَّ الحَمأ المَسنُونَ هو الطِّينُ الذي اسودَّ لِكثرةِ وُجودِه في الماءِ.

(**وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا**) أيّ: عندَ هَذهِ العَينِ.

(**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ**) هذا تفويضٌ له مِن اللهِ، ولا يُفوَّضُ إلَّا المأمونُ على التصرُّفِ.

(**إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**) لا بُدَّ أنَّهُم كانُوا (كَفرَةً أو وَثنِيِّينَ) لا يُؤمِنُونَ بإلهٍ؛ فإمَّا أنْ تأخُذَهُم بِكُفْرِهِم، وإمَّا أنْ تتَّخِذَ فيهِم حُسْنًا.

لكنْ ما وجهُ الحُسْنِ الذي يُريدُ اللهُ أن يتَّخِذَه؟ قد يكونونَ مِن أهلِ الغفْلةِ الذين لمْ تَصلْهُم الدَّعوةُ فبيَّنَ لَهُمْ وَجْهَ الصوابِ ودلَّهُمْ على دِينِ اللهِ؛ فمَن آمنَ مِنهُم فأحسنَ إليهِ، ومَن أصرَّ على كُفْرِه فَعَذَّبَهُ. إذنْ عليكَ أن تأخُذَهُم أوَّلاً بالمَوعظةِ الحَسنَةِ والبيانِ الواضحِ، ومِن ثَمَّ تحكُم بعدَ ذلك على تصرُّفاتِهم.

(**قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ**) هذا يُعطِينا إشارةً إلى المُهلةِ التي سيُعطِيها لهؤلاءِ، مُهلةً تُمكِّنُه أن يَعِظَهُم ويُذكِّرَهُم ويُفهِّمُهُم مُتطلَّباتِ دِينِ اللهِ. والظُّلْمُ أنواعٌ أفظعُها وأعلاها الشِّركُ باللهِ كما قالَ تعالى في الآية ١٢ من سُورةِ لُقمان: (**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**). ولنْ نُعذِّبَه على قَدْرِ ما فَعلَ؛ بل نُعَذِّبُه عُقوبةً دُنيويَّة فقط؛ لأنَّ العُقوباتِ الدُّنيويَّةَ شُرِعَتْ لحِفْظِ توازنِ المجتمَع ورَدْعِ مَن لا يَرتدِعُ بالمَوعظةِ، وإلَّا فما فائدةُ المَوعظةِ في غَيرِ المُؤمنِ؟

لذلك نَرى الأُمَمَ التي لا تُؤمِنُ بإلهٍ ولا بالقيامةِ والآخرَة تشرعُ هذه العُقوباتِ الدُّنيويّةَ؛ لتستقيمَ أوضاعُها. وبعدَ عذابِ الدُّنيا هُناك عقوبةٌ أشدُّ في الآخِرَة.

(**ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا**) والشَّيءُ النُّكُرُ هو الذي لا نَعْرِفُهُ ولا عَهْدَ لنا به أو ألفةَ؛ لأنَّنا حِينما نُعَذَّبُ في الدُّنيا نُعذَّبُ بِفِطرَتِنا وطاقتِنا، أمَّا عذابُ اللهِ في الآخرةِ فهُو شيءٌ فوق مداركِنا وإمكاناتِنا.

(**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ**) أيّ: نُعطِيه الجزاءَ الحَسنَ.

(**وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**) نقولُ له الكلامَ الطَّيِّبَ الذي يُشجِّعُه ويُحفِّزُه، وإن كَلْفَّناهُ كَلْفَّناهُ بالأمرِ اليسيرِ غَيرِ الشاقِّ. وهذه الآيةُ تضعُ لنا أساسَ عمليَّةِ الجَزاءِ التي هي ميزانُ المجتمَع وسببُ نَهضَتِه. والحُسنى هي أفعلُ التفضيلِ المؤنَّث لِ "حسن"، فإذا أعطيناهُ الحُسنَى فالحسنُ مِن بابِ أولى، ومِن هذا قولُه تعالى في الآية ٢٦ من سُورةِ يُونُس: (**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**).

(**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا**) أيّ ذَهبَ إلى مكانٍ آخرَ.

(**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ**) كما هي الحالُ في مَغربِها فهِيَ دائمًا طالعةٌ؛ لأنَّها لا تطلعُ من مكانٍ واحدٍ؛ بل لكُلِّ مكانٍ مَطلعٌ ومَغربٌ حسبَ اتِّساعِ الأُفق.

(**وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا**) السِّتْرُ هو الحاجزُ بينَ شَيئين؛ فقد ذهبَ "ذُو القرنَين" إلى قَومٍ مِن المُتبدين الذين يَعيشُونَ عُراةً أو ليسَ عِندهُم ما يَسترُهُم مِن الشمسِ؛ مِثل البيوتِ يَسكُنونَها أو الأشجارِ يَستظِلُّونَ بها. وهؤلاءِ قومٌ نُسمِّيهِم ضاحُونَ أيّ ليسَ لهُم ما يأويهِم مِن حَرِّ الصيفِ أو بَردِ الشِّتاء، وهُمْ

أُناسٌ مُتأخِّرونَ بِدائيُّونَ. ونلحظُ هُنا أنَّ القُرآنَ لم يَذكُرْ لنا عن هؤلاءِ القومِ شيئًا وماذا فعلَ ذُو القرنَينِ معهُم، وإنْ قِسْنا الأمرَ على القومِ السابقِينَ الذين قابَلُهُم عِندَ مَغربِ الشمسِ نقولُ ربَّما حَضَرَهُمْ ووَفَّرَ لَهُم أسبابَ الرُّقي.

ويَرَى بعضُ المُفسِّرينَ أنّ ذا القرنَين ذَهبَ إلى أقصى الشّمالِ في موضعٍ نهارُه ستَّةُ أشهُرٍ، وليلُه ستَّةُ أشهُرٍ، فصادفَ وُصولُه وُجودَ الشمسِ فلمْ يَرَ لها غُروبًا طِيلةَ وُجودِه، ولمْ يَرَ لها سِترًا يَسترُها عَنهُم.

(كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) يعني كما ذَهَبَ لِلمَغرِب ذَهَب لِلمَشرِق.

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) ذَهبَ إلى مَكانٍ آخرَ.[1]

الوسيط لمُحمَّد سيِّد طنطاويّ

(وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا) قولُه عزَّ وجلَّ هذا معطوفٌ على قِصَّةِ مُوسَى والخِضْرِ عَطفُ القِصَّةِ على القِصَّة. قال الإمامُ "البقاعيّ" كانت قِصَّةُ مُوسَى مع الخِضْرِ مُشتملَةً على الرِّحلاتِ من أجْلِ العِلْم، وكانت قِصَّةُ ذِي القرنَينِ مُشتمِلَةً على الرحلاتِ من أجْلِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، ولَمَّا كان العِلْمُ أساسَ الجِهادِ تَقدَّمَتْ قِصَّةُ مُوسَى والخِضْرِ على قِصَّةِ ذي القرنَين.

والسائِلُونَ هُمْ كفَّارُ قُريشٍ بتلقينٍ من اليَهود، وَجاءَ التعبيرُ بِصيغةِ المُضارِعِ مع أنَّ الآياتِ نزلتْ بعدَ سُؤالِهِم لاستحضارِ الصُّورةِ الماضيةِ، أو للدّلالةِ على أنَّهُم استمرُّوا

١) خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ (ج١٤/ص٨٩٧٤- ٨٩٨٦).

في لجاجِهم إلى أنْ نزلَت الآياتُ التي تردُّ عليهِم. أمَّا "ذُو القرنَينِ" فقد اختلفَ في شأنِه المُفسِّرونَ اختلافًا كبيرًا؛ مِنها:

أنَّ ذا القرنَينِ هو "أبو كريب الحِمْيَري" وليس الإِسكندرَ المقدونيّ.

والرأيُ الراجحُ أنَّه كان عبْدًا صالحًا ولم يَكُنْ نبيًّا.

ويَرَى بَعضُهُم أنَّه كان بعدَ مُوسَى عليهِ السلامُ، ويَرَى آخرونَ غيرَ ذلك. ومِن المَعروفِ أنَّ القرآنَ الكريمَ يهتمُّ في قَصَصِه ببَيانِ العِبَرِ والعِظاتِ المُستفادةِ من القِصَّةِ لا بـبَيانِ (الزمان أو المكانِ) للأشخاصِ. وسُمِّي بِ "ذي القَرنينِ" على الراجحِ لِبُلوغِه في فتوحاتِه قرنَي الشمسِ من أقصَى المَشرِق والمَغرِب.

والمعنى: ويَسألُكَ قومُكَ يا مُحمَّدُ عن خَبَرِ ذِي القرنَينِ وشأنِه فقُلْ لهُمْ على سبيلِ التعليمِ والرَّدِّ على تحدِّيهم لكَ سأتُلُو عليكُمْ مِن خَبرِه وسأقصُّ عليكُمْ مِن أنبائِه عن طريقِ هذا القُرآنِ الذي أوحاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى ما يُفيدُكُمْ، ويكون فيه ذِكرى وعِبْرةً لكُم إنْ كنتُم تَعقِلُونَ. والضميرُ في "مِنهُ" يعودُ على ذِي القرنَينِ، ومِن للتبعيض.

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) قولُه مَكَّنا مِن (التمكينِ)؛ بمعنى: إعطائه الوسائلَ التي جَعلَتْهُ صاحبَ (نُفوذٍ وسُلطانٍ) في أقطارِ الأرضِ المختلفةِ. والمفعولُ محذوفٌ؛ أيّ: إنَّا مَكَّنا له أمرَهُ مِن التصرُّفِ فيها كيف يشاءُ؛ بأن أعطيناهُ سُلطانًا وطيدَ الدعائمِ، وآتيناهُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ أرادَه في دُنياهُ لِتقويةِ مُلكِه. وسَببًا؛ أيّ: سبيلاً وطريقًا يُوصِلُه إلى مَقصُودِه؛ ك (آلاتِ السَّيْرِ وكَثرَةِ الجُنْدِ ووسائلِ البناءِ والعمران).

وهذه الأسبابُ التي أعطاها اللهُ إيَّاها لم يَرِدْ حديثٌ صحيحٌ بتفصيلِها.

(**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**) الفاءُ هي الفصيحةُ؛ أيّ: فأرادَ أن يزيدَ في تدعيمِ مُلكِه فسلكَ طريقًا لكي يُوصلَه إلى المكانِ الذي تغربُ فيه الشمسُ.

(**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ**)؛أيّ: حتَّى إذا وَصَلَ إلى مُنتهَى الأرضِ المَعمُورةِ في زَمنِه من جهةِ المَغرِب

(**وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**) أيّ: رآها في نَظرِه عندَ غُروبِها كأنَّها تَغرُبُ في عَينٍ مُظلِمَةٍ، وإن لمْ تكُنْ هيَ في الحقيقةِ كذلكَ.

وهذا هو المُعتادُ لِمن كان بينَه وبينَ أُفقِ الشمسِ ماءٌ؛ فإنَّه يَراها كأنَّها تُشرِقُ منهُ وتَغربُ فيه، كما أنَّ الذي يكونُ في أرضٍ مَلساءَ واسعةٍ يَراها كأنَّها تطلعُ من الأرضِ وتغيبُ فيها. و(حَمِئةٍ)؛ أيّ: ذات حَمأةٍ وهيَ الطِّينُ الأسودُ. يُقالُ: حَمأتِ البِئرُ إذا صارتْ فيها الحمأةُ وهي الطِّينةُ السوداءُ. وقرأَ (ابنُ عامرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ): (وَجدَها تَغرُبُ في عَينٍ حامية)؛ أيّ: حارَّةٍ.

(**وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا**)؛ أيّ: وَوَجَدَ عندَ تلكَ العَينِ على ساحلِ البحْرِ قومًا.

الظاهرُ أنَّ هؤلاءِ القومَ كانُوا من أهلِ الفتْرة، فدَعاهُم ذُو القرنَينِ إلى عِبادةِ اللهِ تعالى وَحدَهُ؛ فِيهِم مَن آمنَ، وفِيهِم مَن كفرَ.

(**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ**) خَيَّرَهُ اللهُ تعالى عن طريقِ الإلهامِ أو على لسانِ مَلَكٍ أخبرَهُ بذلكَ.

(**إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**) إمّا أن تُعذِّبَ هؤلاءِ القومَ (الكافرينَ، أو الفاسقِينَ) بالقتْل أو غَيرِه، وإمَّا أن تتَّخِذَ فيهِم أمرًا ذا حُسْنٍ، أو أمرًا حَسنًا تقتضيهِ المصلحةُ والسياسةُ الشرعيةُ.

(**قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا**) قال ذُو القرنَينِ في الرَّدِّ على تخييرِ رَبِّه له في شأنِ هؤلاءِ القومِ: يا ربُّ؛ أمّا مَن ظَلَمَ نفْسَه بالإصرارِ على الكُفْرِ والفُسوقِ والعِصيان فسَوفَ نُعَذِّبُه في هذه الدُّنيا بالقتْل أو ما يُشْبِهُه، ثُمَّ يُرَدُّ هذا الظالِمُ إلى رَبِّهِ سُبحانَه فيُعذِّبُه في الآخرةِ عَذابًا فَظيعًا عظِيمًا مُنكَرًا وهُو عذابُ جهنَّم.

(**وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**)؛ أيّ: ومَن آمنَ وعَمِلَ عَملاً صالحًا يقتضيهِ إيمانُه.

(**فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ**)؛ أيّ: لهُ في الدارَينِ المثوبة الحُسنَى وهيَ الجَنَّةُ.

(**وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**)؛ أيّ: وسنَقُولُ لِمَنْ آمنَ وعَمِلَ صالحًا مِمَّا نأمرُه بهِ قولاً لا صُعوبةَ فيهِ ولا مشقَّةَ ولا عُسْرَ.

وبذلك اتَّبَعَ ذُو القرنَين في حُكْمِه الطريقَ القويمَ والأسلوبَ الحكِيم، الذي يدلُّ على (قوَّةِ الإيمانِ وصِدْقِ اليقينِ وطَهارةِ النفْسِ). فيُعذِّبَ ويقتصَّ ويُرْهِبَ النفوسَ المنحرفةَ حتَّى تعودَ إلى رُشْدِها وتقفَ عِندَ حُدودِها، ويُقابِلَ إحسانَهُم بإحسانٍ وصَلاحِهِم بِصلاحٍ واستقامَتهُم بالتكريمِ والقولِ الطَّيِّبِ والجزاءِ الحَسَنِ.

(**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا**)؛ أيّ: بعدَ أن بَلغَ مَغرِبَ الشمسِ ونالَ مَقصِدَهُ كَرَّ راجِعًا من جِهةِ غُروبِها إلى جِهةِ شُروقِها.

(**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ**)؛ أيّ: حتَّى إذا بلغَ مُنتهَى الأرضِ المعمورةِ في زَمنِه من جهةِ المَشرِق.

(**وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا**)؛ أيّ: وَجَدَ الشمسَ تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها ما يَستتِرُونَ به مِن (البِناء أو اللّباسِ)؛ فهُم قومٌ عُراةٌ يَسكنُونَ الأسرابَ والكُهوفَ.

(**كَذَٰلِكَ**) خَبرٌ لِمُبتدأٍ مَحذُوفٍ تقديرُه: "أمرُ ذِي القرنَينِ كذلكَ من حيثُ إنَّ اللهَ آتاهُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ سَببًا فَبَلَغَ مُلْكَ مَشارقِ الأرضِ ومغارِبها.

(**وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا**) بيانٌ لِشُمولِ عِلْمِ اللهِ تعالى بأحوالِ ذِي القرنَينِ وأحوالِ غَيرِه؛ أيّ: أنَّنا أحَطْنا إحاطةً تامَّةً وعَلِمنا عِلْمًا لا يَعزُبُ عَنهُ شَيءٌ بما كان لَدَى ذِي القرنَينِ مِن (جُنودٍ وقوَّةٍ وآلاتٍ) وغَير ذلكَ من أسبابِ المُلكِ والسُّلطان.

(**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا**) بيانٌ لِما فَعلَهُ بعدَ أنْ بلغَ مَغرِبَ الشمسِ ومشرِقَها. (١)

التفسيرُ المُيسَّر

(**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا**) ويَسألُكَ – أيُّها الرَّسُولُ – هؤلاءِ المُشرِكُونَ مِن قَومِكَ عن خَبرِ ذِي القرنَينِ المَلِك الصَّالِح، قُلْ لهُم سأقصُّ عليكُمْ مِنهُ ذِكْرًا تَتذكَّرُونَه وتعتبِرُونَ به.

١) الوسيط لمُحمَّد سيِّد طِنطاويّ (ج٨/ص٥٦٨- ٥٧٥).

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ إنَّا مَكَّنا له في الأرضِ، وآتيناه مِن كُلِّ شَيءٍ أسبابًا وطُرقاً يَتوصَّلُ بها إلى ما يُريدُ من فَتْحِ المدائنِ وقَهْرِ الأعداءِ وغَيرِ ذلكَ.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ فأخذَ بتلكَ الأسبابِ والطُّرُقِ بِجِدٍّ واجتهادٍ.

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ حتَّى إذا وَصلَ ذُو القرنَينِ إلى مَغربِ الشَّمْسِ وَجدَها في مَرأى العَينِ كأنَّها تَغرُبُ في عَينٍ حارَّةٍ ذاتِ طينٍ أسودٍ، ووَجدَ عِندَ مَغربِها قومًا. قُلْنا يا ذا القرنَينِ؛ إمَّا أنْ تُعذِّبَهُم ب (القتْلِ أو غَيرِه) إنْ لمْ يُقرُّوا بتوحيدِ اللهِ، وإمَّا أن تُحْسِنَ إليهِم ف (تُعلِّمَهُم الهُدى وتُبصِّرَهُم الرَّشادَ).

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ قال ذُو القرنَينِ: أمَّا مَن ظَلَمَ نَفْسَهَ مِنهُم فكَفَرَ بِربِّهِ فَسَوفَ نُعَذِّبهُ في الدُّنيا، ثُمَّ يَرجِعُ إلى رَبِّهِ فَيُعذِّبَهُ عذابًا عظيمًا في نارِ جهنَّمَ.

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ وأمَّا مَن آمنَ مِنهُم بِربِّهِ فَصدَّقَ بِهِ وَوَحَّدَهُ وعَمِلَ بِطاعَتِه فَلَهُ الجَنَّةُ ثوابًا مِن اللهِ، وسَنُحْسِنُ إليهِ، ونُلِينُ له في القَولِ ونُيسِّرُ له المُعامَلةَ.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ ثمَّ رَجَعَ ذُو القرنَينِ إلى المَشرِقِ مُتَّبعًا الأسبابَ التي أعطاهُ اللهُ إيَّاها.

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ حتَّى إذا بَلَغَ مَطلِعَ الشمسِ وَجَدَها تَطلُعُ على قَومٍ لمْ نَجْعَلْ لهُم مِن دُونِها سِتراً) حتَّى إذا

وَصَلَ إلى مَطلعَ الشمْسِ وَجَدَها تَطلُعُ على قَومٍ ليسَ لهُم بِناءٌ يَستُرهُم، ولا شجرٌ يُظلُّهُم مِن الشمسِ.

﴿ **كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا** ﴾ كذلك وقد أحاطَ عِلمُنا بما عِندَه من الخَيرِ والأسبابِ العظيمةِ حيثُما توجَّه وسارَ.

﴿ **ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا** ﴾ ثمَّ سارَ ذُو القرنَينِ آخِذاً بالطُّرقِ والأسبابِ التي مَنحْناها إيَّاهُ[1].

---

١) تفسير الميسر: (ج١/ص٣٠٢- ٣٠٣).

أقوال المؤرخين والباحثين

ذَكَرَ ابنُ كثيرٍ أنّ "ذا القرنَين" كان في زمنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهِ السلامُ، وطافَ معهُ بالبيتِ، وقرَّبَ إلى اللهِ قُربانًا، وأنَّه حَجَّ ماشِيًا؛ فلمَّا سَمِعَ إبراهيمُ عليهِ السلامُ بِقُدومِه تلقَّاهُ ودَعا لهُ. وقيلَ: جِيءَ له بِفَرَسٍ لِيَرْكَبَها فقالَ: لا أركبُ في بَلدٍ فيهِ الخليلُ، فَسَخَّرَ اللهُ لهُ السَّحابَ فكانتْ تحملُه حيثُ أرادَ.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: كان ذُو القرنَينِ مَلِكًا صالحًا منُصُوراً أثنى اللهُ عليهِ في كِتابِه، وكان الخِضْرُ على مُقدِّمةِ جَيشِه، وكان عِندَه بِمَنزلةِ الوزيرِ. أمَّا المقدونيُّ الثاني فهو "اسكندر بنُ فليبس" اليونانيّ باني الإسكندرية الذي يُؤرِّخُ بأيَّامِه الرومُ كان وزيرُه أرسطُو، وهو الذي أذلَّ مُلوكَ الفُرْسِ ووَطِئَ أرضَهُم. وإنَّما نبَّهنا على ذلكَ؛ لأنَّ كثيراً من الناسِ يَعتقِدُ أنَّهُما واحدٌ، وأنَّ المذكورَ في القرآنِ الكريمِ هو المقدوني الثاني فيقعُ بذلك في خَطأٍ كبيرٍ؛

فالأوَّلُ كان (مُؤمِنًا صالحًا ومَلِكًا عادِلاً) وكان وزيرَه الخِضرُ،

أمّا الثاني فكان (مُشرِكًا ظالِمًا)، وكان وزيرَه أرسطو وبينَ زمنيهِما أزيَدُ مِن ألفَي سَنةٍ. فأينَ هذا مِن هذا؟

وذَكَرَ بعضُ أهلِ الكتابِ أنَّه مَكَثَ ألفًا وستمائةِ سَنة يَجُوبُ الأرضَ ويَدْعُوا أهلَها إلى عبادةِ اللهِ وَحدَه، وفي ذلك نَظرٌ[1].

قال السهلي: كان اسمُه الصَّعب بن ذي مراثد؛ ففي خُطبة قِسّ:

---

١) البداية والنهاية: (ج ٢/ص٤ - ٨).

يا مَعشرَ إيادِ بن الصَّعب ذُو القرنَينِ مَلَكَ الخافِقَينِ، وأذلَّ الثقلَينِ، وعَمَرَ ألفَينِ، ثُمَّ كانَ كلَحظَةِ عَينٍ[1].

سُئِلَ كعبُ الأحبارِ عن ذِي القرنَينِ فقال: الصَّحيحُ عِندَنا مِن أحبارِنا وأسلافِنا أنَّه مِن حِمْيَر، وأنَّه الصَّعبُ بنُ ذي مرائد، أمَّا الإسكندرُ فكانَ رَجُلاً من اليونانِ مِن ولد عيصُو بن إسحاقِ بن إبراهيمَ الخليل، ورِجالُه أدركُوا المسيحَ بنَ مريمَ عليهِ السلامَ؛ ومِنهم (جالينُوس وأرسطو).

رَوَى سُفيانُ الثوريُّ عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أنَّه سُئِلَ عن ذِي القرنَينِ فقال: كان عبْداً ناصَحَ للهِ فَناصَحَهُ، دَعا قومَه إلى اللهِ فَضَرَبُوهُ على قَرْنِه فماتَ، فأحياهُ اللهُ فدَعا قومَه إلى اللهِ فَضرَبُوهُ على قَرنِه فَماتَ، فسُمِّيَ ذا القرنَينِ. وعن حبيبِ بنِ حمَّادٍ قال: كُنْتُ عِندَ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ فسألَه رَجُلٌ عن ذِي القرنَينِ كيف بَلَغَ المَشرِقَ والمَغرِبَ؟ فقالَ لهُ: سَخَّرَ لهُ السَّحابَ، ومُدَّتْ لهُ الأسبابُ، وبُسِطَ لهُ في النُّورِ وقال أزيدُكَ؟ فسَكَتَ الرَّجُلُ وسَكَتَ عَلِيٌّ[2].

ذُو القرنَينِ عربيٌّ مِن نَسْلِ هُودٍ عليهِ السلامُ، وأنَّ ذِكْرَه قد كثُرَ في أشعارِ العَربِ، وأنَّ اسمُه الصَّعبُ بنُ ذي مرائد بنِ الحارث، وأنَّه مَلِكٌ مِن مُلوكِ اليمنِ، ولَّما وَلِيَ المَلِكُ تجبَّرَ، ثمَّ تواضَعَ للهِ، واجتمعَ بالخِضْر. وقَد غلطَ مَن ظَنَّ أنَّ الإسكندرَ بنَ فيلبسِ هو ذُو القرنَينِ الذي بنى السَّدَّ، فإنَّ لفظةَ "ذُو" عربيةٌ، و"ذُو القرنَينِ مِن ألقابِ مُلوكِ اليمنِ، وذاكَ يونانيٌّ لم يُعمَّرْ أكثرَ مِن ٢٠ عامًا، وسِيرَتُه معروفةٌ ولا داعِيَ للخَلْطِ (المقريزي في خطَطه).

---

١) البداية والنهاية: (ج ٢/ص٦).
٢) مختصر تاريخ دِمشقَ (ج ٨/ص٢١٤ - ٢١٥).

آمن "ذُو القرنَين" برسالة إبراهيمَ عليهِ السلامُ، وطافَ بالبيتِ معهُ. وإذا سلَّمْنا بذلكَ أدركْنا قِدَمَ زَمنِ ذي القرنَين؛ لأنَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ عاشَ في الألفيةِ الثانيةِ قبلَ الميلادِ، وقد وَرَدَ ذِكْرُه في التوراةِ التي أُنْزِلَتْ قبلَ "قُورش" الفارسيِّ بتِسعَةِ قُرونٍ على أقلِّ تقديرٍ (الأزرقي – أخبار مكَّة).

ذَكَرَ "المسعوديُّ" أنَّ الناسَ قد تنازعُوا فيهِ؛ فمِنهُم مَن رأى أنَّه الاسكندرُ، ومِنهُم مَن رأى أنَّه غيره، وتنازعُوا في تسميتِه فقالَ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: إنَّه سُمِّيَ بِذي القرنَين لِبُلوغِه أطرافَ الأرضِ، وأنَّ المَلَكَ المُوكَّلَ بِجَبلِ قاف سَمَّاه بهذا الاسمِ، ومِنهُم مَن رأى أنَّه مِن الملائكةِ(١).

كان أرسطُو قبلَ المسيحِ ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ بِنَحْوِ ثلاثمائةِ سَنة، وكان وزيرَ الإسكندر بنِ فيلبس المقدونيّ الذي غَلَبَ الفُرْسَ، وليس "ذُو القرنَين" المذكورُ في القرآنِ كما يَظنُّ ذلك طائفةٌ من الناسِ، وذُو القرنَين الذي بنَى سَدَّ يأجوج ومأجوج كان مُسلِمًا ومُتقدِّمًا على المقدونيِّ الذي لم يَصِلْ إلى السَّدِّ، وكان مُشرِكًا يَعبُد الكواكبَ والأوثانَ(٢)

اُخْتُلِفَ فِي ذِي الْقَرْنَيْنِ. فَقِيلَ: كَانَ (نَبِيًّا)، وَقِيلَ: كَانَ (مَلَكًا مِنْ الْمَلاَئِكَةِ)، وقيلَ: لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا وَلاَ مَلَكًا؛ بل (كَانَ مِنْ الْمُلُوك) وَعَلَيْهِ الأَكْثَر.

أمَّا الإِسْكَنْدَرُ الْيُونَانِيّ فكَانَ قَرِيبًا مِنْ زَمَنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَبَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى أَكْثَرُ مِنْ أَلْفَيْ سَنَةٍ. وَالَّذِي يَظْهَر أَنَّ الإِسْكَنْدَر الْمُتَأَخِّر لُقِّبَ ب "ذِي الْقَرْنَيْنِ" تَشْبِيهًا بِالْمُتَقَدِّمِ لِسَعَةِ مُلْكِه وَغَلَبَته عَلَى الْبِلاَد الْكَثِيرَة، أَوْ لأَنَّهُ لَمَّا غَلَبَ

١) مُروج الذهب (ج١/ص٢١٨).
٢) ابن تيميَّة - منهاج السُّنَّة النبوية: (ج١/ص٢٢٠).

الْفُرْسُ وَقَتَلَ مَلِكَهُمْ انْتَظَمَ لَهُ مُلْك الْمَمْلَكَتَيْنِ الْوَاسِعَتَيْنِ الرُّوم وَالْفُرْس فَلُقِّبَ "ذَا الْقَرْنَيْنِ" لِذَلِكَ.

والحَقُّ أَنَّ الَّذِي قَصَّ اللَّهُ نَبَأَهُ فِي الْقُرْآنِ هُوَ الْمُتَقَدِّمُ. وَالْفَرْقُ بَيْنُهمَا مِنْ أَوْجُهٍ أَحَدهَا مَا ذَكَرْتُه، والثَانِي: أنّ الإِسْكَنْدَرَ كَانَ (كَافِرًا) وَكَانَ مُعَلِّمُهُ أَرَسْطَو، والثَالِث: أن ذُا الْقَرْنَيْنِ مِنْ الْعَرَب، أَمَّا الإِسْكَنْدَر فَهُوَ مِنْ الْيُونَان (الحافظُ ابنُ حَجَر).

كان "ذُو القرنَين" مَلِكًا صالحًا على عَهْدِ الخليلِ إبراهيمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، ويُقالُ: إنَّه طافَ مَعهُ بالبيتِ(١).

أمَّا ما رواهُ الحاكمُ والبيهقيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال: " مَا أَدْرِي أَتُبَّعٌ نَبِيًّا كانَ أَمْ لاَ، وَمَا أَدْرِي ذَا الْقَرْنَيْنِ أَنَبِيًّا كانَ أَمْ لاَ، وَمَا أَدْرِي الحُدُودُ كَفَّارَاتٌ لأَهْلِهَا أَمْ لاَ "(٢) فقَد أعلَّه الإمامُ البُخاريّ.

لَّما تولَّى تُبَّعًا المَلِكُ تجبَّرَ ثُمَّ تواضعَ، واجتمعَ بالخِضْرِ ببيتِ المَقدسِ، وسار معهُ إلى مَشارقِ الأرضِ ومغاربِها، وأُوتي أسبابَ كلِّ شيءٍ كما أخبرَ اللهُ تعالى، وبنَى السَّدَّ على يأجوج ومأجوج(٣).

قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " مَلَكَ الأرضَ أربعةٌ؛ مُؤمنانِ وكافرانِ؛ فالمُؤمنانِ "ذُو القرنَينِ وسُليمانُ"، والكافرانِ "نمرود وبُخْتِ نصَّر"، وسَيَمْلِكُها خامِسٌ مِن أهلِ بيتي ". وفي مجموع الفتاوى لابْنِ تيميَّة: مَلَكَ الأرضَ مُؤمنانِ

١) ابن عُثيمِين - فتاوى نُور على الدَّرب: (ج٤ /ص٦٠).
٢) رواهُ الحاكمُ (١٠٤) والبيهقيُّ (١٨٠٥٠).
٣) التِّيجان في مَعرفة مُلوك الزَّمان.

وكافِران؛ فالمُؤمنانِ "سُليمانُ وذُو القرنَينِ"، والكافِرانِ بُخْت نصَّر ونُمرود"، وسَيَمْلِكُها خامسٌ مِن هذهِ الأُمَّةِ(١).

ذُو القرنَينِ هو الهميسع بنُ عَمْرِو بنِ عريبٍ، ويعودُ نَسَبُه إلى كَهلانَ بنِ سبإٍ ويُكْنَى "أبا الصَّعْبِ". بينَما تقولُ عُلماءُ هَمدانَ أنَّ ذا القرنَينِ هو الصَّعْبُ بنُ مالكٍ. فمِنَ المُمكِن أن يكونَ عربيًّا؛ لكنْ لا يُوجَدُ دليلٌ قطعيٌّ يُؤكِّدُ ذلكَ حتَّى وإنْ كان البعضُ يَنسِبُوه إلى قبائلِهم وأُصولِهم ويَذكُرونَه في أشعارِهم(٢).

إذنْ الخِلافُ بينَ العُلماءِ يكادُ ينحصِرُ في رأيَينِ:

الرأي الأوَّل: أنَّه اليُونانيُّ الإسكندرُ المقدونيّ، وهذا باطلٌ لأدلَّة منها:

* أنّ الإسكندرَ المقدونيَّ كان (كافِرًا وثنيًّا غَشُومًا ظَلُومًا) باتِّفاقِ العُلماءِ، وكانَ وزيره أرسطُو (٣) بينما المذكورُ في القرآنِ الكريمِ كان مُؤمِنًا مُوحِّدًا عَظَّمَهُ اللهُ تعالى وأثنَى عليهِ(٤)

فإنْ كان المقصودُ هو الإسكندرَ المقدونيَّ فتعظيمُ اللهِ إيَّاهُ يُوجِبُ الحُكْمَ بأنَّ مذهبَ أرسطو حقٌّ؛ وذلكَ ممّا لا سبيلَ إليهِ(٥)

* لم يَملِك الإسكندرُ المقدونيُّ الأرضَ، ولا وَصَلَ إلى أطرافِها، ولمْ يَرْحَلْ إلى جِهةِ الشمالِ. قال ابنُ تيميَّة: يظنُّ بعضُ الناسِ أنَّ الإسكندرَ المقدونيَّ هو ذُو القرنَينِ

---

١) ابنُ الجوزيِّ في تاريخه.
٢) كتابُ الأنساب.
٣)البحر المديد: (ج٤/ص١٨٩)، فتح القدير: (ج٢/ص٤٢٨)، تاريخ ابنِ خلدون: (ج٢ /ص٢٠٢)، فتح الباري: (ج٦/ص٢٨٢)،
٤) جامع المسائل: (ج٥/ص٢٨٦)، ذُو القرنَين القائدُ الفاتحُ والحاكِم الصالح: (ص ١٤٨ - ١٦٢).
٥) تفسير الرازي: (ج٢١/ص١٤٠)، تفسير اللباب: (ج١/ص٥٥٥)، فتح القدير: (ج٢ص/٤٢٨).

المذكورُ في القُرآنِ وهذا مِن جَهْلِهم؛ لأنَّ الإسكندرَ لم يَصِلْ إلى بلادِ التركِ، ولمْ يَبنْ السَّدَّ؛ وإنَّما وَصلَ إلى بلادِ الفُرْسِ وذَهبَ إلى القُدسِ، وذُو القرنَينِ المذكورُ في القرآنِ وَصلَ إلى شَرقِ الأرضِ وغَربِها(١)

ويقولُ "الحِمْيَريُّ" : لمْ يُوغِل الإسكندرُ في الشمالِ؛ وإنَّما كانتْ له غزوتانِ؛ واحدةٌ للمَغربِ، والثانيةُ للمَشرقِ وفِيها ماتَ. ومِمَّا يدلُّ على أنَّه ليسَ بِذي القرنَينِ الذي ذَكَرَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ في كِتابهِ رِواية العَجَمِ لِغَدْرِه(٢)

* أسبقيَّةُ زمنِ ذِي القرنَينِ على زمنِ الإسكندرِ المقدونيِّ؛ ف "ذُو القرنَينِ" عايشَ خليلَ اللهِ إبراهيمَ، وقَد ذَكَرَهُ البُخاريُّ، وجَعَلَهُ في الترتيبِ قبْلَ إبراهيمَ(٣).

قال الحافظُ: وفي إيرادِ المُصنِّفِ ترجمةُ ذِي القرنَينِ قَبْلَ إبراهيمَ إشارةً إلى توهينِ قولِ مَن زَعَمَ أنَّه "الإسكندرُ اليُونانيُّ"؛ لأنَّ الإسكندرَ كان قريبًا مِن زَمنِ عِيسَى عليهِ السلامُ(٤).

وقالَ الإمامُ ابنُ حَجَرٍ: والحقُّ أنَّ الذي قصَّ اللهُ نبأهُ في القُرآنِ هُو المُتقدِّم. ثُمَّ أوردَ أدلَّةً على هذا الترجيحِ مِنها:

روايةُ عُبيدِ بنِ عُمَيرٍ أحدِ كِبارِ التابِعينَ أنَّ "ذا القرنَينِ" حجَّ ماشِيًا فسَمِعَ به إبراهيمُ فَتلَقّاهُ.

---

١) مجموع الفتاوى (ج٤/ص١٦١، ج٩/١٧٥، ١١/٥٧١، ١١/١٧٢)، الجوابُ الصحيحُ لِمَن بَدَّلَ دِينَ المسيح: (ج١/ص٢٤٥ - ٢٤٦).
٢) مُلوكُ حِمْيَر وأقيالُ اليَمن: (١٢٢).
٣) صحيح البُخاريّ: (ج ٢/ص ١٢٢٠ - ١٢٢٢).
٤) فتح الباري: (ج ٦/ص ٢٨٢).

وروايةُ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: أنَّ "ذا القرنَينِ" دخلَ المسجِدَ الحرامَ فَسَلَّمَ على إبراهيمَ وصافَحَهُ.

وروايةُ عُثمانَ بنِ ساجٍ: أنّ "ذا القرنَينِ" سألَ إبراهيمَ أنْ يدعُو لهُ، فقالَ: كيفَ وقَد أفْسَدْتُمْ بِغْري؟ فقالَ: لمْ يَكُنْ ذلك عَن أمري؛ يعني: أنَّ بعضَ الجُندِ فعلَ ذلكَ بِغَيرِ عِلْمِه.

وروايةُ ابنِ هِشامٍ أن إبراهيم تحاكَمَ إلى ذِي القرنَينِ في أمرٍ فحَكَمَ لهُ.

وروايةُ ابنِ أبي حاتمَ: أنّ "ذا القرنَينِ" قَدِمَ مَكَّةَ فَوجَدَ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهِما السلامُ يَبنيانِ الكعبَةَ فاسْتَفْهَمَهُما عن ذلكَ، فقالا: نحنُ عبْدانِ مأمُورانِ، فقالَ: مَن يشهدُ لكُما؟ فقامَتْ خَمسةُ أَكْبُشٍ فشَهِدَتْ، فقالَ: صَدَقْتُما.

قالَ الحافظُ "ابنُ حَجَرٍ": وهذهِ الآثارُ يَشُدُّ بَعضُها بَعضًا، ويدلُّ على قِدَمِ عَهْدِ ذِي القرنَينِ[1]

وقد جَزَمَ "نَشْوانُ الحِمْيري" بِهذا حِينَ قال: وَما رأيتُ أحدًا مِن العُلماءِ – على اختلافِهم في نَسَبِ الإسكندرِ ذِي القرنَينِ – شَكَّ أنَّ ذا القرنَينِ الذي ذَكَرَهُ اللهُ تعالى في كِتابِه، وذَكَرَتْهُ العَربُ في (أشعارِها)، وسمَّاهُ العربُ (البنَّا والمُصْلِحَ) هُو غيرُ الإسكندرِ وأقدمُ مِنهُ، وإنَّ بينَ الإسكندرِ بن فيلبوس وبينَ إبراهيمَ عليهِ السلامُ عِشْرِينَ بَطنًا. [2]

١) فتح الباري: (ج٦/ص٢٨٢) المرجع السابق.
٢) مُلوكُ حِمْيَر وأقيالُ اليَمن: (١٢٢- ١٢٣).

* عن كَعْب الأحْبارِ أنَّ الخِضْر كان وزيراً لِذي القرنَينِ [١]، أمَّا "الإسكندرُ المقدونيُّ" فكان أرسطُو وزيرَه ومُستشارَه في المهمَّاتِ، ويَعمَلُ برأيهِ، ولمْ يُذكَرْ أنَّه اجتمعَ مع الخِضْر فَضْلاً عن اتِّخاذِه إيَّاه وزيراً[٢]، وكيفَ يجتمعُ به أصلاً والخِضْر كان في زمانِ إبراهيمَ ومُوسَى عليهما السلامُ؛ فقَد أدركَ إبراهيمَ في شَبابِه ومُوسَى في شَيخُوخَتِه، وبينَ الإسكندرِ والخِضْر أكثرُ مِن ألفِ عامٍ.

* ومِمَّا يُؤكِّدُ أنَّ "ذا القرنَينِ" غيرُ الإسكندرِ هو ذِكْرُهُ في التوراةِ، ومِن المعلومِ أنَّ مُوسَى عليهِ السلامُ سبقَه بِقُرونٍ عَديدةٍ؛ بلْ إنَّ سُؤالِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم عنه جاءَ مِن يَهُودِ أهلِ الكتابِ[٣]

* لمْ يُسَمَّ "الإسكندرُ المقدونيُّ" بِذي القرنَينِ قطُّ؛ بلْ كان يُسمَّى "الإسكندرَ الأعظمَ أو الأكبرَ"، والذين كَتبُوا تاريخَه لم يُطْلِقُوا عليهِ لقبَ "ذِي القرنَينِ" على الإطلاقِ، وتسميةُ الإسكندرِ المَقدُونيِّ بِ "ذي القرنَينِ" موجودةٌ فقط في كُتبِ الثقافةِ الإسلاميةِ عِندَ بعضِ المُفسِّرينَ، وقد جَزمَ شيخُ الإسلامِ "ابنُ تيميَّةَ" بأنَّه لمْ يُسَمَّ بِذي القرنَينِ أبداً[٤].

* إنَّ إضفاءَ اللقبِ عليهِ جاء مِن المُؤرِّخينَ العربِ والمُسلِمينَ لِلخَلطِ الذي وقَعُوا فيهِ[٥].

---

١) الإصابةُ في تمييزِ الصَّحابة: (ج٢/ص٢٩٢)
٢) رُوح المعاني: (ج٨/ص٢٤٨)،
٣) تفسير الطبريّ (ج١٧/ص٥٩٢).
٤) الجواب الصحيح لِمَن بدَّل دِين المسيح: (ج١/ص٢٤٥).
٥) هذا هو تاريخ اليَمن (ص ٢٤٥).

وقال غيرُه: اعلمْ أنَّ اللّٰهَ تعالى لـمْ يَذْكُرْ في القرآنِ الكريمِ اسمَ الإسكندرِ حتَّى يُقالَ إنَّه "اليونانيّ أو المقدونيّ"، ويُؤوِّلُونَ الآيةَ عليه؛ وإنَّما سمَّاهُ "ذا القرنَينِ" وإنَّ المُؤرِّخينَ مِن عِند أنفُسِهِم لَقَّبُوهُ بالإسكندرِ؛ ولِهذا حصلَ الالتباسُ بينَه وبينَ الإسكندرِ المقدونيِّ.

والصحيحُ – واللّٰهُ أعلمُ – أنَّه أبو كَرْبٍ الصَّعْبِ الحِمْيَريُّ[1].

* شَكَّكَ "ابنُ إسحاق" فيما رُويَ حَولَ تسميةِ ذي القرنَينِ ب "الإسكندرِ" أو غَيرِه من الأسماءِ[2] ولو صحَّ أنَّ "الإسكندرَ المقدونيّ" المتأخِّرَ كان يُلقَّبُ بِ "ذي القرنَينِ" كما افترضَ "ابنُ حَجَرٍ" فرُبَّما كان ذلك تَشبيهًا لهُ بِ "ذي القرنَينِ" المُتقدِّمِ لِسَعَةِ مُلْكِه وغَلبَتِه على بلادٍ كثيرةٍ، أو لأنَّه غَلَبَ الفُرْسَ، وانتظمَ لهُ أمرُ المَمْلَكَتَينِ الواسِعَتَينِ الرُّومِ والفُرسِ[3].

* وَرَدَ أنّ "ذا القرنَينِ" لقبٌ أُطلِقَ على كثيرينَ، والقَرنانِ كِنايةٌ عن السُّلطانِ، وإنْ صحَّ هذا القولُ فإنَّ سببَ اشتراكِ مَجموعةٍ من عُظماءِ التاريخِ بِلقَبِ ذي القرنَينِ هو اشتِراكُهُم بِقوَّةِ السُّلطانِ وشِدَّةِ البأسِ وعَظمَةِ دُولِهِم وقُوَّتِها؛ لكنْ يَنفرِدُ عنهُم ذُو القرنَينِ الصَّعْبُ بنُ الحارثِ الواردِ ذِكْرُهُ في القرآنِ الكريمِ بإيمانِه وسُلْطانِه على عُمومِ الأرضِ بِما قَد عَرفْناهُ من الأدِلَّةِ[4].

---

١) عبدُ الله الكميم - بيان المعاني: (ج٤/ص٢٠٥).
٢) شُبهاتُ المُشكِّكينَ: شُبهة (رقم ٤٢)
٣) فتح الباري: (ج٦/ص٢٨٢).
٤) الموسوعة العربية الميسَّرة: (ج ١/ص٨٤٧)

* إنَّ الخَلْطَ في جَعْلِ الإسكندرِ المقدونيِّ هو ذا القرنَينِ المذكور في القرآنِ الكريمِ قد يكونُ مقصُودًا؛ وذلكَ لِرَفْعِ شأنِه وشأنِ مَذْهَبِه، ويُضْفي على مَذهبِه وأفكارِه نوعًا مِن القداسةِ؛ لِكَونِه وزيرًا لِنبيٍّ أو لوليٍّ على أقلِّ تقديرٍ. وقَد فَطِنَ لذلكَ الإمامُ "ابنُ تيميَّةَ" حينَ اعتبرَ أنَّ ذلك إنَّما كان لِيَعْظُم قَدرُه(١).

الرأي الثاني: أنَّه أحدُ التابعةِ اليَمنيِّين لأدلَّةٍ منها:

* عَرَّفَه القرآنُ الكريمُ بِ "ذي القرنَين"، ولَقبُ "ذُو" خاصٌّ بمُلوكِ اليمنِ لم يُعرَفْ به غَيرُهُم (٢).

وقَد أفردَ الإمامُ "المُبَرِّدُ" بابًا لِذِكْرِ (الأذواءِ) من اليَمنِ فقالَ: أمَّا في الجاهليَّةِ فمِنهُم ذِي يَزن، وذِي كلاع، وذي نُواس، وذِي رعين، وذِي أصبح، وذِي المناور، وذِي القرنَين. وأمَّا في الإسلامِ فمِنهُم خُزيمةُ بنُ ثابتٍ ذُو الشهادتَينِ، وقَتادةُ بنُ النُّعمانِ الأنصاريّ ذُو العينِ، وأبو الهَيثمِ بنُ التَّيهانِ الأنصاريّ ذُو السيفَينِ، وحُبابُ بنُ المُنذرِ ذُو الرأي، وأبو دُجانةَ سِماكُ بنُ خرشة ذُو المشهَرة(٣)

* قِدَمُ زَمَنِ ذِي القرنَينِ دليلٌ على يَمَنيَّتِه؛ فاليَمنيُّونَ سبقُوا غيرَهُم في مَيدانِ (التقدُّمِ والعِلم والإبداع)، وقَد أشادَ القرآنُ الكريمُ بما تَركُوهُ من حَضاراتٍ مشهُودةٍ، ومِن أبرزِها السُّدودُ. ومِن أهمِّ معالِم قِصَّةِ "ذِي القرنَينِ" بِناؤهُ سَدَّ يأجُوج ومأجُوج؛ وهذا ما يُؤكِّدُ كونَه يَمَنيًّا بِشكلٍ لا غُبارَ عليه(٤)

---

١) مجموع الفتاوى: (ج ١٧/ص٢٢٢).
٢) تاريخ ابن الورديِّ: (ج ١/ص٢٩)، مُلوكِ حِمْيَر وأقيالُ اليَمن: (ص ١٢٢)، الآثار الباقية عن القرون الخالية: (ص ٤١).
٣) الكاملُ في اللغة والأدب: (ج٤/ص٨٤).
٤) هذا هو تاريخ اليمن: (ص٢٤٥).

يقولُ المُختصُّونَ: يُمكِنُنا التأكيدُ بأنَّ تكنولوجيا بناءِ السُّدودِ والخَزَّاناتِ كانت وَقْفًا على أبناءِ جُنوبِ جزيرةِ العَربِ، وإذا كان لهذهِ التكنولوجيا أنْ تَصْدَّرَ آنذاكَ فإنَّ مُصدِّرها يجبُ أن يكونَ مِن أهلِ الخِبْرَة الذين تفوَّقُوا (علميًّا وعَمليًّا) في تنفيذِ مِثلِ تلك المشاريع. وإنَّ اليمنَ كانت رائدةً في هذا المجالِ مُنذُ أكثرَ مِن خَمسةِ آلافِ سَنةٍ، ولا يُعْلَمُ أنَّ أحداً قامَ بإنشاءِ عَملٍ فنِّيٍّ مِن هذا النوعِ في أيِّ بلدٍ آخرَ قبلَ ذلكَ التاريخِ ولا بَعدَهُ بمُدَّةٍ طويلةٍ(١)

* أنَّ صَهْرَ الحديدِ والنّحاسِ معًا لإنتاجِ سَبيكةِ البرونزِ هو (اختراعٌ يمنيٌّ) لا مِريةَ فيه(٢).

وأنَّ استخدامَ "القِطْرِ" في تقويةِ المُنشآتِ المِعماريَّة كان شائِعًا عِندَ اليمنيِّين القُدامى، ولا تزالُ تلك السبيكةُ ظاهرةً إلى اليومِ تُقاومُ عادياتِ الزمنِ في سَدِّ مأرب(٣)

* أنَّ سِياقَ قِصَّةِ "ذي القرنَين" وزَمانِها يتَّفِقُ مع سِياقِ التاريخِ اليمنيِّ القديمِ(٤).

يقولُ العلَّامةُ "ابنُ خلدون": وكانَ هؤلاءِ التبابِعةُ مُلوكًا عِدَّةً في عُصورٍ مُتعاقبةٍ وأحقابٍ مُتطاوِلَةٍ لمْ يَضْبِطْهُم الحَصرُ، وربَّما كانوا يتجاوزُونَ مُلْكَ اليمنِ إلى ما بَعُدَ عنهُم من العِراقِ والهِند والمَغرِب تارةً، ويَقتَصِرُونَ على يَمَنِهم تارةً أُخرى كما أنشدَ تُبَّعٌ الأكبرُ:

---

١) بلاد سبأ وحضارات العرب الأولى: ١١٧).
٢) هذا هو تاريخ اليمن: (ص٢٤٦).
٣) رحلةٌ أثريّة إلى اليمن: (ص ١٠١ - ١٠٢).
٤) هذا هُو تاريخُ اليمن: (ص ٢٥٦)، الذَّخيرةُ في مَحاسنِ أهلِ الجزيرة: (ج٦/ص٧٢٨ - ٧٢٩).

أنا تُبَّع الأملاك مِن نَسْلِ حِمْيَر مَلَكْنا عِبادَ اللهِ في الزَّمنِ الخالي

مَلَكْناهُمْ قَهْرًا وَسارَتْ جُيوشُنا إلى الهِنْدِ والأتراكِ تُردِي بأبطالِ

وَكُلُّ بِلادِ اللهِ قَد وَطِئَتْ لنا خُيولٌ لَعَمْري غَيرَ نَكْسٍ وأعزالِ (١)؛ بل إنَّ قارَّةَ أفريقيَّة يكادُ يتَّفِقُ المُؤرِّخونَ على أنَّها سُمِّيَتْ بهذا الاسمِ نِسبةً إلى إفريقيسِ بنِ صيفيٍّ بنِ سبأِ بنِ يَشْجُب بنِ يَعْرُبِ بنِ قَحْطانَ؛ لأنَّه هو الذي افتتَحَها(٢).

يقولُ الإمامُ "محمود شُكري الألوسيُّ" : وتبابِعةُ اليمنِ وأذواؤها بلغَ تسلُّطُهُم على البلادِ، واستِيلاؤهُم على الأقطارِ إلى ما يَكلُّ القلمُ عن وَصْفِه، ومِنهُم الذي ساوَى بينَ الصَّدفَينِ وطافَ بلادَ الأرضِ ما بين المَشْرِقَينِ والمَغرِبَينِ وكان يُلَقَّبُ بِ "ذي القرنَينِ" . والشِّعرُ القديمُ شاهدٌ لِما قُلناهُ؛ بل هُو أقوى دليلٍ على ذلكَ...(٣).

* كثرةُ وُرودِ اسْمِ "ذِي القرنَينِ" في التُراثِ اليمنيِّ خاصَةً، والعربيِّ عامَّةً والاستشهادِ به على ألسنةِ الشُّعراءِ والحُكماءِ كقائدٍ أيَّدَهُ اللهُ بِنَصْرِهِ ومَكَّنَ لهُ في أرْضِه.

يقولُ الإمامُ "ابنُ حَجَرٍ" : والذي يُقوِّي أنَّ ذا القرنَينِ كان مِن العرَبِ هو كثرةُ ما ذَكَرُوهُ في أشعارِهِم؛ فقَد جاء على لسانِ تُبَّعٍ:

قَد كانَ ذُو القرنَينِ قَبْلِي مُسْلِمًا مَلِكًا تَدِينُ لهُ المُلوكُ وتَخْشُدُ

طافَ المَشارِقَ والمَغارِبَ عالِمًا يَبْغِي عُلومًا مِن كَرِيمٍ مُرْشِدِ

---

١) تاريخ ابن خلدون: (ج٢/ص٥٠)، مُلوكُ حِمْيَر وأقيالُ اليمن: (ص١٤٢).
٢) مُعجَم البُلدان: (ج١/ص٢٢٨)، الرَّوضُ المِعطارُ في خَبر الأقطار: (ج١/ص٤٧)، مُعجَم ما استُعْجِم: (ج١/ص١٧٦).
٣) بُلوغُ الأرَبِ في مَعرفةِ أحوالِ العرب: (ج٢/ص١٧٧).

وأتَى مَغارَ الشّمْسِ عِندَ غُرُوبِها في عَينِ ذِي خَلْبٍ وثأطِ حَرْمَدِ
مِنْ بَعْدِهِ بِلْقِيسُ كانت عَمَّتِي مَلَكَتْهُم حتَّى أتاها الهُدْهُدُ

الخلبُ: الطِّينُ. الثأطُ: الطِّينُ الرِّخْو. الحَرْمَد: الأسْودُ(١).

وقال النعمانُ بنُ بشيرٍ:

ومَن ذا يُعادِلُنا مِن النَّاسِ مَعْشَرٌ كِرامٌ وذُو القرنَينِ مِنَّا وحاتمَ وقالَ الحكيمُ اليمانيُّ "قِسُّ بنُ ساعِدة" : أيُّها النَّاسُ، هلْ أتاكُمْ ما لمْ يأتِ آبائكُمُ الأوَّلِينَ، أوْ أخَذْتمْ عَهْدًا مِن السِّنِينِ، أمْ عِنْدَكُمْ مِن ذلكَ يَقينٌ، أمْ أصْبَحْتُمْ مِن رَيبِ المَنُونِ آمِنينَ؛ بلْ أصْبَحْتُمْ واللهِ في غَفْلَةٍ لاَعِبينَ، أينَ الصَّعْبُ ذُو القرنَينِ، جَمَعَ الثَّقَلَينِ وأداخَ الخافِقَينِ وعُمِّرَ ألفَينِ ولمْ تَكُنِ الدُّنيا عِندَهُ إلَّا كَلَمْحَةِ عَينٍ، مَنْ لمْ يَتَّعِظْ اتَّعَظَ بِهِ.

وأنشدَ:

والصَّعْبُ ذُو القرنَينِ أصبحَ ثاويًا بِالحِنْوِ بين ملاعِبِ الأرياحِ

ثَوَى بِالمكانِ: أقامَ فيهِ. الحِنْو: مكانٌ في العراقِ تَسمَّى حِنْو ذِي قارٍّ أو حِنْو قراقر، يُريدُ المكانَ الذي ماتَ فيهِ ذُو القرنَينِ(٢)

* أقوالُ الصَّحابةِ والتابِعينَ فحِينَ سُئِلَ عَبْدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عن ذِي القرنَينِ مِّمن كان؟ قال: كانَ مِن حِمْيَر(٣).

---

١) مُلوك حِمْيَر وأقيال اليمن: (ص١٢٥)، فتح الباري: (ج٦/ص٢٨٤ - ٢٨٥)، البداية والنهاية: (ج٢/ص١٢٤).
٢) معجم البلدان: (ج ٢/ص٢١٢)، تاج العروس: (ج١٢/ص٤٠١)، فتح الباري: (ج ٦/ص٢٨٤)، مُلوكُ حِمْيَر وأقيال اليمن: (ص ١٢٧) وهذا غَيضٌ مِن فَيضٍ.
٣) ملوك حِمْيَر وأقيال اليمن: (ج١٢٤)، رِجال المُعلَّقات العَشْر: (ج ٢٢).

وسُئِلَ كَعْبُ الأحبارِ عن ذِي القرنَينِ فقال: الصحيحُ عِندَنا مِن عُلومِ أحبارِنا وأسلافِنا أنَّه مِن حِمْيَر(١).

* رَجَّحَ ذلك كثيرٌ من العُلماء القُدامى؛ مِنهُم: "ابن تيميَّة، وابنُ حَجَرٍ، وابنُ كثيرٍ، وابنُ هِشامٍ"(٢)، والبَيروني(٣)، والمَقريزي(٤)، وابنُ الورديِّ في تاريخِه(٥)، وَوَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ وعُبيدُ بنُ شريةَ(٦)، ونشوانُ الحِمْيَري(٧)، والمُبَرِّدُ(٨)، ومُلاّ حُويش آلِ غازي(٩)، ومِن المُعاصِرينَ "محمود شُكري الألوسيّ"(١٠)، ومُحمَّد راغب الطَّبَّاخ(١١).

ولا شَكَّ أنَّ مَن سواهم كثيرٌ.

* نقلَ العلَّامةُ "الحِمْيَريُّ" الإجماعَ على ذلكَ بِقَولِه: والصحيحُ هو ما جاءتْ به الشواهدُ من كتابِ اللهِ تعالى ومِن أشعارِ العَرَبِ. وقَد وَقَعَ الإجماعُ فيه على أنَّه مِن وُلْدِ قَحْطان بنِ هُودٍ عليهِ السلامُ؛ ولكنَّ الاختلافَ وَقَعَ في نَسَبِهِ إلى حِمْيَر أو إلى كَهلان(١٢).

---

١) ملوك حِمْيَر وأقيال اليمن: (ج ١٢٥)، هذا هو تاريخ اليمن: (ص ٢٨٧).
٢) البداية والنهاية: (ج ٢/ص١٢٤).
٣) الآثارُ الباقية عن القُرونِ الخالية: (ص٤١)، التفسير المُنير: (ج١٦/ص٢٢)، تفسيرُ البحر المحيط: (ج٦/ص١٤٩ - ١٥٠)، تفسير الخازن: (ج٤/ص٢٢٨)
٤) سُبُلُ الهُدَى والرَّشادِ في سِيرة خَير العِباد: (ج٢/ص٢٤٨)
٥) تاريخ ابن الوردي (ج١/ص٢٩)
٦) التيجان في ملوك حِمْيَر: (ص ٤٤٦)
٧) ملوك حِمْيَر وأقيال اليمن: (ص١٢٥)
٨) الكامل في اللغة والأدب: (ج٤/ص٨٤).
٩) بيان المعاني: (ج٤/ص٢٠٥).
١٠) بلوغُ الأرَب في معرفةِ أحوال العرب: (ج٢/ص١٧٧)
١١) ذُو القرنَين وسَدُّ الصِّين.
١٢) ملوك حِمْيَر وأقيال اليمن: (ص١٤٠)

وهُناكَ دليلٌ آخرُ ألاَ وهو: إذا كانت رحلاتُ "ذِي القرنَين" استكشافيَّةً لأطرافِ الأرضِ (شَرقِها وغَربها وشمالِها)، فلماذا لم يَستكشِفْ جُنوبَ الأرضِ؛ حيث تقعُ جزيرةُ العَرب؟ الجوابُ: لأنَّه مِنها، فهُو مِن أقصَى جُنوبِ الجزيرة العربية، وبَدأ رحلاتِه مِن هُناك.

* أنَّ التبابِعةَ مَلَكُوا الدُّنيا في زَمانِهم، وأنَّ أحدَهُم ويُدعَى "تُبَّعَ الأقرَن" هو نفْسُه ذُو القرنَينِ الذي حَكَمَ الدُّنيا وَجاءَ ذِكْرُهُ في القرآنِ الكريمِ(١)

ردَّ العالمُ الهِنديُّ "أبو الكلامِ آزاد" كُلَّ هذهِ الأقوالِ، وقالَ: إنَّها قامتْ على افتراضٍ مُخطئٍ لا يدعَمُه دليلٌ، وأنَّ المُفسِّرينَ لم يَصلُوا إلى نَتيجةٍ مُقنِعَةٍ في بَحثِهم عن ذِي القرنَينِ؛ فالقُدماءُ مِنهُم لم يُحاوِلُوا التحقيقَ، والمُتأخِّرونَ حاولُوا ولكِنْ كان نصيبَهُم الفشلُ. وبِما أنَّ السُّؤالَ عن "ذِي القرنَينِ" كان مِن قِبَلِ اليهودِ فَمِنَ الأولى أن يَرجِعُوا إلى أسفارِهِم ويَبْحَثُوا عنهُ وهذا ما اتَّجهتُ إليهِ، فَوجَدْتُ ما يُشيرُ إلى تسميةِ "ذِي القرنَينِ" أو لوقرانائيم كما جاءَ في التوراةِ، وما يُشيرُ كَذلِكَ إلى المَلِكَ الذي أطلقُوا عليهِ هذه الكُنْيَة وهو "كورش". وبَعدَ أنْ شاهَدتُ الآثارَ الفارسيَّةَ وطالَعتُ مُؤلَّفاتِ عُلمائِها ثَبَتَ لدَيَّ أنَّ المقصودَ بِ "ذِي القرنَينِ" ليسَ إلَّا المَلِكُ كورش" نفْسُه. إنَّهُ تِمثالٌ بِطُولِ القامةِ ظَهرَ فيه "كورش" على جانبَيهِ جناحانِ كَجناحَي العُقابِ، وعلى رأسِه قَرنانِ كَقَرنَي الكَبْشِ، وهذا يُثبِتُ – بِلا شَكٍّ – أنّ تصوُّرَ اليهودِ للمَلِكِ "كورش" قد شاعَ وعُرِفَ حتَّى لَدَى "كورش" نفْسِه على أنَّه المَلِكُ ذُو التاجِ الذي يُشْبِه القرنَينِ.

---

١) محمّد عليّ البارّ - إضاءاتٌ قرآنية ونبويةٌ في تاريخ اليَمن.

وبما أنَّ المَصادرَ الفارسيَّةَ لا يُمكِنُ الاعتمادُ عليها وَحدَها، كان لا بُدَّ من الرُّجوعِ إلى الكُتُبِ التاريخيةِ اليُونانية لعلَّ شهادتَها أوثقَ وأدعَى للتصديقِ؛ فاليُونانيُّونَ كان بينَهُم وبينَ الفُرْسِ عِداءٌ مُسْتَحْكَمٌ ومُستَمِرٌّ، فإذا شَهِدُوا لِ "كورش" فإنَّ شهادتَهُم تكونُ شهادةَ حقٍّ لا تَحَيُّزَ فيها. وقد أجمعُوا على أنَّه كان (مَلِكًا عادِلاً كريمًا سَمْحًا نبيلاً) مع أعدائِه، صَعدَ إلى المَقامِ الأعلى من الإنسانيَّة، وهذا يتطابقُ مع صِفات "ذِي القرنَين" التي ذَكرَها القرآنُ الكريمُ.

ولقَد ظَهَرَ "كُورش" في منتصفِ القرنِ السادسِ قبلَ الميلادِ في وَقْتٍ كانت فيه بِلادُه مُنقسِمةً إلى دُويلتَين تقعانِ تحتَ سَيطرةِ البابليِّينَ والآشوريِّينَ، فاستطاعَ توحِيدَهُما تحتَ حُكْمِه، وَضمَّ إليها البلادَ (شَرقًا وغَربًا) بِفُتوحاتِه التي أشارَ إليها القرآنُ الكريمُ وأسَّسَ أوَّلَ إمبراطوريةٍ فارسيةٍ. وحينَ هزم ملك بابل سَنة ٥٢٨ ق.م سَمَحَ للأَسْرى اليهودِ بالرُّجوعِ إلى بِلادِهِم مُزوَّدِينَ ب(عَطْفِه ومُساعَدتِه وتكريمِه)، وظلَّ (حاكِمًا فريداً في شَجاعتِه وعَدلِه) حتَّى تُوفِّيَ سَنةَ ٥٢٩ ق. م.

ذُو القرنَين هو المَلِكُ الفرعونيّ "أخناتون" نفْسُه؛ حيث تُشيرُ المَصادرُ التاريخيةُ إلى أنَّ "أخناتون" قد عاصرَ النبيَّ مُوسَى عليهِ السلامُ، وأنَّهُما عاشا معًا في قَصْرِ والدِ أخناتون. وعِندَما خَرجَ مُوسَى عليهِ السلامُ إلى مَدْيَنَ ثُمَّ عاد مِنها بعدَ عَشْرِ سَنواتٍ مَبْعُوثًا بالرسالةِ إلى فِرعَونَ وقومِه كان عُمُرُ أخناتون ٢٥ عامًا، ولَمَّا عَرَضَ دَعوتَه على فِرْعون الأبِ رَفَضَها، أمَّا أخناتون فقَد آمنَ بِمُوسَى وصَدَّقَهُ وقامَ بِنَشْرِ دَعوتِه حتَّى بَلَغَ الصِّينَ، وذلكَ بين عامَي (١٢٧٠ – ١٢٥٢) ق. م، فتوجَّه نَحْوَ مَغرِب الشَّمسِ فوَجدَها تَغْرُبُ في عَينٍ حَمِئَةٍ تُسمَّى اليومَ "جُزُرَ المالديف"؛ حيث

تتكوَّنُ في مياهِ المحيطِ حَلقاتٌ حَلزونيةٌ أشبَه بالبركِ الحاميةِ؛ بسببِ البراكينِ ممَّا جعلَه يَرَى الشمسَ تغربُ في أعماقِها، فَدَعا سُكَّانَ تلك البلادِ إلى عِبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فمَن آمنَ بِدَعوتِه أحسنَ إليهِ وأكرَمَهُ، ومَن كفرَ بها عَذَّبَه وتَركَ أمرَه إلى اللهِ سُبحانَه. ثمَّ تَوجَّهَ نحوَ مَطلعِ الشَّمسِ حتَّى بلغَ جزيرةً لا يُوجدُ فيها مُرتفعاتٌ تحجزُ البصرَ عن أشعَّتِها، تُسمَّى اليومَ "جزيرةَ كيربياتي"، ولا تزالُ في هذه الجزيرةِ حتَّى الآنَ بعضُ الأسماءِ التي تدلُّ على ذلكَ؛ مِثل (فندق) اسمُه "مَطلِع الشَّمسِ" ويُنطَق "اوتن تاي"، وهي قريبةٌ في لَفْظِها من كلمةِ "أخناتون". ثمَّ تابعَ سَيرَهُ حتَّى وَصلَ الصِّينَ فطلبَ مِنهُ أهلُها بِناءَ سَدٍّ يَفْصِلُ بينَهُم وبينَ يأجُوج ومأجُوج سُكَّانِ "قارَّةِ آسية أو قارَّةِ الخيلِ" قُرْبَ مدينةِ "جنج جو" في مُقاطَعةِ خنان في وَسطِ الصِّين حاليًّا. والرَّدْمُ ما زال مَوجُودًا فيها ارتفاعُه ما بين ثمانية إلى تسعةِ أمتارٍ، وعَرْضُ قاعدتِه ٢٦ مترًا، ويتكوَّنُ مِن هيكلٍ ضَخمٍ له ضِلعانِ بينهُما زاويةٌ، ويبلغُ طولُه حوالَي سبْعة كيلومتراتٍ، وكان مُهندسُ الرَّدمِ: ذُو القرنَينِ" نفْسُه كما ذَكَرَ القرآنُ الكريمُ، وهو الذي وَضَعَ مُواصفاتِه، واختارَ أن يكونَ رَدْمًا بعدَ أن طَلَبَ مِنهُ الصِّينيِّونَ أنْ يكونَ سَدًّا؛ لأنَّ السَّدَّ لا يَصلُحُ إلَّا لِحَجْزِ المياهِ، أمَّا الرَّدْمُ فهُو الأنسبُ لِصَدِّ هَجماتِ الغُزاةِ والمُعتَدِينَ، وأنَّه مِن الحديدِ الذي صُهِرَ بِطَريقةِ النَّفْخِ بالنَّارِ، ثُمَّ أُفرِغَ عليهِ القِطْرُ.

ومدينةُ "جنج جو" تمتازُ بِوُجودِ احتياطيٍّ كبيرٍ من (الحديدِ والفحْمِ الحَجَريِّ والصَّلصالِ) وهُو ما يُعتقَدُ أنَّه القِطْرُ الذي ذُكِرَ في القُرآنِ الكريمِ، وليس النَّحاس

كما ذَكَرَ بعضُ المُفسِّرينَ (حمدي أبو زيد – فكُّ أسرارِ ذو القرنين ويأجوج ومأجوج) .

كان "ذُو القرنَين" مَلِكًا مِن مُلوكِ الصِّينِ لِوُجوهٍ عديدةٍ :

– إنَّ عِبارةَ "يأجوج ومأجوج" هي نفْسُها باللغةِ الصينيةِ وما زالتْ تُستخْدَمُ .

– إنَّ الذينَ طلبُوا مِن "ذِي القرنَين" بناءَ السَّدِّ هُم الصَّينيُّونَ أنفسُهم .

– إنَّ سُكَّانَ "قارَّةِ آسيةَ أو قارَّة الخيل" هُمُ الذينَ كانوا يُفْسِدُونَ في الأرضِ .

– إنّ "ذا القرنَين" كان نبيًّا طوَّافًا أُرسِلَ إلى العديدِ مِن الأُمَمِ ومِنها الصِّينِيُّون .

– اشتهرَ الصِّينيُّونَ مُنذُ القِدَمِ بأنَّهُم أهلُ (عِلْمٍ وتدبيرٍ وصَنائِعَ) .

– أنَّ مُعظَم مُلوكِهِم كانوا يَتَّصِفُونَ ب(العَدلِ والحِكْمَة) .

– مِن سِماتِهِم تطويلُ شَعَرِ رُؤوسِهِم، وجَعْلِها في ضَفِيرَتَين .

– زوالُ مُلْكِ العربِ على يدِ "هُولاكو" يُؤكِّدُ أنَّ "يأجُوج ومأجُوج" هُمُ (المغُول) .

– أنَّ وَصْفَه بِ "ذِي القرنَين" هو (توصيفٌ لا تلقيبٌ) .

– كانت دِيانةُ "كنفيشيوس" هي السائدةَ؛ فلا جَرَمَ أن يكونَ أهلُ شريعتِه صالحِينَ .

– الردمُ المذكورُ في القُرآن بُنِيَ عام ٢٤٧ ق .م؛ أيّ: قبلَ الاسكندرِ المقدونيِّ بِقَرْنٍ .

عُلومُه وما آتاه اللّهُ مِن الأسبابِ

كان "ذُو القرنَين" عالِمًا في الدِّينِ، وخَبيراً في العلومِ الكونيَّة واللغاتِ، وهِيَ مِن الأسبابِ التي ساعَدَتْهُ في فُتوحاتِه .

يـقول أ. د. زغـلول الـنجَّار: بـعد أنْ أكـرمَـه اللهُ عـزَّ وجـلَّ ب(الـعِلْمِ والحِـكْمَةِ والسُّـلطانِ) ويَسَّـرَ لـهُ أسبابَ المُلْكِ والفتْح، ودانـتْ لـهُ الـبلادُ، وخَـدَمَتْهُ الأُممُ مـن العَربِ والعَجَمِ، تَوَجَّهَ نَحْوَ الغرْبِ مِن مَوطِنه الذي يبدُو – واللهُ أعلمُ – أنَّه كان في جَزيرةِ العربِ؛ حتَّى وَصَلَ إلى شاطئِ المُحيطِ الأطلسيِّ، وكان يُظَنُّ أنَّ اليابسةَ تنتهي عِندَه، فَرأى الشمسَ تَغرُبُ عِندَ أحدِ شَواطئِه؛ حيث تنتشرُ الأعشابُ، ويَتجمَّعُ حولَها الطِّينُ، وتكثرُ فيها عُيونُ المِياهِ الحارَّة. ثُمَّ سارَ إلى أقسى الشرقِ حتَّى وَصلَ إلى صَحارى مُستويةٍ مكشوفةٍ مليئةٍ بالرَّملِ الناعمِ الذي تَسُوخُ فيه الأقدامُ، ويُغطِّي مساحاتٍ شاسعةً في شَرقِ الصِّينِ وشمالِها؛ حيث تطلعُ الشمسُ فلا يكادُ ساكِنُوها أنْ يَجِدُوا لـهُم سِتْرًا مِنها. ثُمَّ سارَ حتَّى وَصلَ إلى حاجِزَينِ طَبيعيَّينِ بينهُما ثُغرَةٌ ينفذُ منها يأجُوجُ ومأجُوجُ، وكانوا قَد اشتهُروا ب(الهَمجيَّة والعُنْفِ) مع كثرةِ عَددِهِم؛ ف(يَقتُلونَ ويَسلُبونَ ويُفْسِدُونَ) في الأرضِ إفساداً كبيراً. فَعَرَضَ قومٌ لا يفقَهُونَ قولاً على "ذِي القرنَينِ" أن يُقيمَ لهُم سَدًّا في وَجْهِ يأجُوج ومأجُوج مقابلَ خَراجٍ من المالِ يدفعونَه إليه، فَرَدَّ عليهِم عَرْضَهُم، وَرَدَمَ الثُّغرةَ التي بين الحاجِزَينِ بِسَبيكةٍ من الحديدِ والنّحاسِ المَصهُورَينِ، وهِيَ مِن أشدِّ أنواعِ السبائكِ المعرُوفةِ لنا اليومَ (صَلابةً ومَلاسةً)، ويُعتبَر هذا وَمْضةً مِن وَمضاتِ الإعجازِ العِلميِّ في كتابِ اللهِ تعالى، وبذلك التحمَ الجانبانِ، وسُدَّ الطريقُ على يأجُوج ومأجوج حتَّى يشاءَ اللهُ فَيدُكَّ ذلك الردْمَ، ويَخرجَ يأجوجُ ومأجوجُ؛ لِيُعاوِدُوا إفسادَهُم في الأرضِ، وخُروجُهم هُو إحدى العلاماتِ الكُبْرى لِلساعةِ.

ولقَد تَوصَّلَتْ باحِثةٌ مِصريَّة إلى تركيبةٍ من الخرسانةِ المُسلَّحةِ استخدَمتْ فيها الموادَ نفْسَها التي اعتمدَ عليها "ذُو القرنَينِ" في إقامة سَدِّ يأجُوج ومأجُوج، وتتكوَّنُ مِن إحدى المُنتجاتِ البترولية مُضافًا إليها الحديدُ المُنْصَهِرُ مع الإسفلتِ، وتتَّصِفُ بأنَّها شديدةُ التماسُكِ، ولها قُدرةٌ على مُقاوَمةِ الزلازلِ وعواملِ التعْريةِ (بتصرُّف).

ذو القرنين والخضر

وَرَدَ في كتابِ "عجائبِ المَلَكُوتِ" أنَّه كان لِ "ذي القرنَينِ" خليلٌ من الملائكةِ يُدعَى "رُوفائيل" يأتيهِ وَيزُورُه، وذاتَ يومٍ قال له ذُو القرنَينِ: حَدِّثني عن عِبادتِكُمْ في السَّماءِ. فبَكَى "رُوفائيلُ" وقال يا ذا القرنَينِ: وما عِبادَتكُم عِندَ عِبادَتِنا ! إنَّ في السَّماءِ مِن الملائكةِ مَن هُوَ قائمٌ لا يجلسُ أبداً، ومَنْ هوَ ساجدٌ لا يَرفَعُ رأسَهُ أبداً، ومَن هُو راكعٌ لا يَستوي أبداً يَقُولونَ: سُبحانَ القُدُّوسِ؛ ربِّ الملائكةِ والرُّوحِ، رَبَّنا ما عَبَدْناكَ حَقَّ عِبادَتِكَ.

بَكَى ذُو القرنَينِ وقال: إنِّي أُحِبُّ أنْ أعيشَ وأعبُدَ رَبِّي حَقَّ عِبادَتِه.

قال رُوفائيلُ: إنَّ للهِ عَيناً في الأرضِ تُسمَّى "عَينَ الحَياةِ"؛ مَن يَشرَبُ مِنها شرْبَةً لا يَمُوتُ حتَّى يسألَ ربَّهُ المَوتَ.

وإنَّنا نَتحدَّثُ في السَّماءِ أنَّ للهِ في الأرضِ ظُلْمَةً لمْ يَطَأْها إنْسٌ ولا جانٌّ، ونَظُنُّ أنَّ تِلكَ العَينَ في تِلكَ الظُّلْمَةِ. جَمَعَ "ذُو القرنَينِ العُلماءَ والفلاسِفةَ وقالَ لهُم: هلْ سَمِعْتُم أو قَرأتمْ أنَّ للهِ في الأرضِ عَيناً تُسمَّى "عَينَ الحياةِ"؟

قال عالِمٌ مِنهُم: إنِّي قرأتُ وَصِيَّةَ آدمَ عليهِ السلامُ فَوجَدْتُ أنَّ اللهَ خَلَقَ في الأرْضِ ظُلْمَةً لمْ يَطَأْها إنْسٌ ولا جانٌّ وأجْرَى فِيها عَينَ الخُلْدِ، وهِيَ في الأرضِ التي على قُرنِ الشمْسِ.

حَشَدَ "ذُو القرنَينِ" الفُقهاءَ والأشرافَ والمُلوكَ وطَلبَ مَغرِبَ الشَّمسِ حتَّى بَلَغَ طَرَفَ الظُّلْمَةِ فَعَسْكَرَ هُناكَ وقالَ: إنِّي أُريدُ أنْ أَسْلُكَ هَذهِ الظُّلْمَةَ.

فقالوا أيُّها المَلِكُ: إنَّكُ تَطلُبُ أمْرًا ما طَلَبَهُ أحدٌ قَبْلَكَ. أصَرَّ ذُو القرنَينِ عَلَى رأيهِ فأعَدَّ عُدَّتَهَ، وعَقَدَ لِلخِضْرِ رايةً، وجَعَلَهُ في مُقَدِّمةِ ألفَينِ مِن رِجالِه، ومَضَى في طَلَبِ عَينِ الحياةِ.

وبينَما كان الخِضْرُ يسيرُ إذ عَرَضَ لهُ وادٍ فَوَجَدَ العَينَ فيهِ فإذا هِيَ أشدُّ بَياضًا مِن اللَّبنِ وأحلَى مِن الشَّهْدِ، فَشَرِبَ مِنْها واغْتَسَلَ وتَوضَّأ. أمَّا "ذُو القرنَينِ" فقَد أخطأَ الوادي وَسَلَكَ معَ رِجالِه تِلْكَ الظُّلمَةِ في أربعينَ يومًا، ثُمَّ خَرَجُوا مِنها إلى ضَوءٍ ليسَ كَضَوءِ الشَّمْسِ ولا القَمَرِ؛ فإذا هُمْ بِقَصْرٍ مَبْنيٍّ في تِلكَ الأرضِ.

نَزَلَ "ذُو القرنَينِ" بِعَسْكَرِه، ودَخَلَ القَصْرَ وَحْدَهُ فإذا بِرَجُلٍ عليهِ ثِيابٌ بِيضٌ رافِعًا وَجْهَهُ إلى السَّماءِ. فَلَمَّا أحسَّ بِ "ذي القرنَينِ" قالَ مَن هذا؟ قالَ: أنا ذُو القرنَينِ. قالَ الرَّجُلُ: يا ذا القرنَينِ؛ إنَّ الساعةَ قَرُبَتْ، وأنا مُنتظِرٌ أمرَ رَبِّي كَي أنفُخَ في الصُّوَرِ. ثُمَّ ناولَ ذا القرنَينِ حَجَرًا وقالَ لهُ: خُذْ هذا الحَجَرَ؛ فإنْ شَبِعَ شَبِعْتَ أنْتَ، وإنْ جاعَ جِعْتَ أنتَ.

أخذ "ذُو القرنَينِ" الحَجَرَ وعادَ إلى أصحابِه فأخْبَرَهُم بِما حَدَثَ لهُ، ثُمَّ جَمعَ العُلماءَ وقالَ لهُم: أخبِرُوني ما آمرُ هذا الحَجَرِ؟

فوَضَعَ العُلماءُ الحَجَرَ في كِفَّةِ مِيزانٍ، وأخَذُوا حَجَرًا مِثْلَهُ وَوَضَعُوهُ في الكِفَّةِ الأُخرى فإذا الحَجَرُ الذي جاءَ بِهِ "ذُو القرنَينِ" أثقلُ، فَلَمْ يَزالُوا يَضَعُونَ حَجَرًا فوقَ حَجَرٍ وما زالَ الحَجَرُ أثقلَ، فقالَ العُلماءُ: انقطعَ عِلْمُنا.

عِندَئذٍ أخذَ الخِضْرُ الحَجَرَ الذي جاءَ بِهِ "ذُو القرنَينِ" فوَضَعَهُ في إحدَى كِفَّتَيّ المِيزانِ، ثُمَّ أخَذَ كَفًّا مِن التُّرابِ وَوَضَعَهُ في الكِفَّةِ الأُخْرى فاسْتَوى المِيزانُ.

فقالَ العُلماءُ: سُبحانَ اللهِ؛ هذا أمرٌ لمْ يَبْلُغْهُ عِلْمُنا. قال الخِضْرُ: أيُّها المَلِكُ إنَّ سُلطانَ اللهِ قاهرٌ لِخَلْقِهِ، وأمْرُهُ نافذٌ فيهِم، وحُكْمُهُ جارٍ عَلَيهِم، ولقَد ابْتلاكَ اللهُ بِي كَما ابْتلانِي بِكَ. قالَ ذُو القرنَينِ: صَدَقْتَ، فأخْبِرْني ما هذا الحَجَر؟

قالَ الخِضْرُ: هذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ لكَ صاحِبُ الصُّورِ. إنَّ اللهَ مَكَّنَ لَكَ في الأرْضِ وأعطاكَ مِنْها ما لَمْ يُعْطِ أحداً مِنْ خَلْقِهِ فَلَمْ تَشْبَعْ. إنَّ ابنَ آدمَ لا يَشْبَعُ أبداً؛ حتَّى يُحْثا عَليهِ التُرابُ، ولا يَملأُ جَوفَهُ إلَّا التُرابُ.

بَكَى "ذُو القرنَينِ" وقالَ: صَدَقْتَ، واللهِ لا طَلَبْتُ أمراً في البلادِ بَعدَ مَسِيري هذا حتَّى أموتَ. ورَجَعَ معَ أصحابِهِ في وَسطِ الظُّلْمَةِ، ومَرُّوا في وادٍ مَملوءٍ بالزَّبَرْجَدِ فسألَهُ أصحابُهُ: ما الذي تحْتَنا؟

قال ذُو القرنَينِ: مَنْ يأخُذْ مِنْهُ يَنْدَمْ، ومَن لا يأخُذْ مِنْهُ يَنْدَمْ؛ فمِنْهُم مَنْ أخَذَ، ومِنهُمْ مَنْ لمْ يأخُذْ. ولَّما خَرَجُوا مِن الظُّلْمَةِ نَظَرُوا إلى ما أخَذُوهُ فَوجَدُوا أنَّه "زَبَرْجَد" فَنَدِمَ الآخِذُ والتارِكُ. قالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: " رَحِمَ اللهُ ذا القرنَينِ، لو ظَفِرَ بِوادي الزَّبَرْجَدِ في مَبْدأِ أمْرِهِ ما تَرَكَ مِنْهُ شَيئًا؛ حتَّى كانَ يُخْرِجَهُ إلى النَّاسِ؛ لأنَّهُ كان راغِبًا في الدُّنيا؛ لَكِنَّهُ ظَفِرَ بِهِ وهُوَ زاهِدٌ فِيها ولا حاجةَ لهُ مِنْها (بتصرُّف)[1].

[1] تفسير العيَّاشي: (ج ٢/ص٢٤٢ - ٢٤٩)، عرائسُ المجالِس: (ص ٢٧٠)، الإصابة: (ج ١/ ص٤٢٠).

دراسة فريدة ونهج علمي

قام د. "أحمد منصور" بدراسةٍ فريدةٍ من نَوعِها، ونهجَ منهجًا علميًّا بدلائلَ من القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النبويَّةِ فقالَ: إنَّ الجَدَلَ الذي يَدورُ حولَ شخصيَّةِ ذي القرنَين، هل هو (الاسكندرُ المقدونيُّ أمْ كورش الفارسيُّ أمْ الحِمْيَريُّ العَربيّ أم أخناتون المِصريّ) هو جَدلٌ في غَيرِ مَوضِعِه؛ لأنَّنا لمْ نَتدَبَّر معاني الآياتِ التي تخصُّ سِيرَتَهُ، ولمْ نَطَّلِعَ على ما فِيها مِن بَديعِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

(**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**) لا شَكَّ أنَّ اللهَ تعالى قد مَكَّنَ لِذي القرنَين في الأرضِ، وآتاهُ أسبابَ كُلِّ شَيءٍ، فلا عَجَبَ مَن تَمكُّنِه في عُلومِ (الفيزياءِ والكيمياء والرِّياضيَّاتِ والطِّبِّ والصِّناعة والطَّيران) وغيرِها؛ بلْ وأكثرَ ممَّا نحنُ فيهِ مِن تمكينٍ.

(**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**) فما هذا السبَبُ؟

السَّببُ لغةً هو الحَبْلُ، وكُلُّ شَيءٍ يُتوصَّلُ بهِ إلى غَيرِه. وقَد فُسِّرَتْ هذه الآيةُ على أنّ "ذا القرنَين" قد أتْبَعَ طريقًا في الأرضِ؛ لكنَّ هذه الكلمةَ جاءتْ في الآيةِ ١٥ من سُورةِ الحجِّ: (**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**). وفي الآية ١٠ من سُورة ص: (**أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ**). وفِي الآيتَين ٢٦ – ٢٧ من سُورةِ غافِر: (**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ**.

أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ). مَنْ أنعم النظرَ وتَدبَّرَ وأمعنَ العقلَ في الآياتِ السابقةِ يتَّضِحُ له أنَّ (السببَ إنَّما هو الطريقُ في السَّماءِ)، بينَما (السبيلُ قد يأتي بمَعنى الطريقِ في الأرضِ). قالَ تعالى في الآية ٢٩ من سُورة العنكبُوت : (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ). وقالَ في الآيتَينِ ١٩ – ٢٠ من سُورةِ نُوح : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا). لاحِظْ أنَّ المَسالِكَ في الأرضِ هي السُّبُلُ، جَمْعُ سَبيلٍ، ولمْ يَرِدْ في آياتِ القُرآنِ الكريمِ إشارةٌ إلى أنَّ الأسبابَ جَمْعُ سَبَبٍ، هي طُرُقٌ في الأرضِ؛ بل هِيَ طُرُقٌ في السَّماءِ واللهُ أعلمُ.

إذنْ نفهمُ ممّا سبقَ: أنَّ رِحلَةَ "ذي القرنَين" كانت رحلةً فضائيةً سماويةً، ولا نَعرِفُ على وَجْهِ التحديدِ ما الوسيلةُ التي تحرَّكَ بها مُتَّبِعًا (السببَ أو الطريقَ) السَّماويّ. هل كان طَبقًا طائرًا أمْ غَيرَه، وهل كان بمُفرَدِه أمْ بمَعيَّةِ جيشِه؛ فاللهُ مَكَّنَ لهُ كلَّ الوسائلِ. وفِي قولِه تعالى (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) فأينَ مَغرِبُ الشَّمسِ على وَجْهِ التحديدِ على كُرَتِنا الأرضيَّةِ هذه؟

إنَّ كُلَّ بُقعةٍ من الكُرةِ الأرضيَّةِ تَصلُحُ لأنْ تكونَ مَغْرِبًا للشمسِ كما تصلحُ لأنْ تكونَ مَشرِقًا لها – أيضًا –؛ نَظرًا لِكُرويَّةِ الأرضِ.

إذنْ: ليسَ ثَمَّ مَكانا يُسمَّى بِعَينِه مَغرِبَ الشمسِ؛ ولَكِنَّ (المُرجَّحَ) أنْ يكونَ ذلكَ ظرفَ زمانٍ؛ أيّ: وقتَ غُروبِ الشمسِ، وأنَّ "ذا القرنَينِ" المُمكَّنِ لهُ مِن لَدُنِ العليمِ القديرِ قَد سارَ عَبْرَ الفضاءِ مُتَّبِعًا طريقًا في السَّماءِ (**سَبَبًا**) مُغادِرًا الكُرةَ الأرضيَّةَ إلى كوكبٍ آخرَ أو مَجَرَّةٍ أُخْرى، وكان وُصولُه وَقْتَ غُروبِ الشَّمسِ في العَينِ الحَمِئَةِ. والعَينُ الحَمِئَةُ قد تكونُ إشارةً إلى عَينِ ماءٍ تحوي الطِّينَ، وقَد تكونُ شيئًا آخرَ لمْ يَتَّضِحُ أمرُه بَعْدُ واللهُ أعلمُ.

ثُمَّ لِنتأمَّل قولَه تعالى (**وَجَدَهَا تَغْرُبُ**) قالَ (**وَجَدَها**) ولمْ يَقُلْ "رآها" فلِماذا يا تُرَى؟

فلو كان "ذُو القرنَينِ" يسيرُ على أرضِنا هَذهِ مُتَّجِهًا في رحلتِه نحوَ الغربِ لَرأى الشمسَ وهيَ تغيبُ، ولَقيلَ بَدَلَ (**وَجَدَها**) رآها تَغْرُبُ في عَينٍ حَمِئَةٍ، والواقعُ أنَّه جاءَ ف (**وَجَدَها**)؛ أيّ أنَّه لمْ يَكُنْ على الأرضِ لِيُواكِبَ حركةَ الشمسِ؛ بلْ جاء مِن عُمقِ الفضاءِ إلى ذلك النظامِ الشمسيِّ وحَطَّ في توقيتٍ مُعيَّنٍ في بُقعَةٍ مُعيَّنةٍ ووَجَدَ ما وَجَدَ، وهُنا نستطيعُ فهمَ التعبيرِ القُرآنيِّ الدقيقِ أنَّه بَلَغَ بعدَ ما قَطَعَ مِن سَفَرٍ عَبْرَ الزَّمنِ في السَّببِ السَّماوي بلغَ هذا التوقيتَ؛ أيّ: غُروبَ شَمسِ تلكَ الأرضِ في تِلكَ البُقعَةِ. لِنتأمَّلْ قولَه تعالى في الآية ٢٢ من سُورةِ الإسراء: (**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**). وقولَه في الآية ٥٩

مِن سُورةِ النُّور: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

نَقولُ: بَلَغَ الرَّجُلُ الكِبَرَ، وبَلَغَ الغُلامُ الحُلُمَ؛ أيّ: أنَّ كُلاًّ مِنهُما يسيرُ عبْرَ الزَّمنِ في سَفَرٍ لِيبلُغَ (الكِبَرَ أو الحُلُمَ)؛ أيّ: أنَّها رِحلةُ زَمنٍ وليسَ رِحلةَ مكانٍ، وهذا يقودُنا إلى السؤالِ التالي: ما السببُ الذي سافرَ فيه "ذُو القرنَين" عبرَ الزَّمنِ؟

هل هُو الثقبُ الدُّوديّ؟ هلْ هُو مِعراجٌ من مَعارجِ السماءِ؟ حقًّا وما أُوتِينا مِنَ العِلْمِ إلَّا قليلاً. ثُمَّ أنَّه وَجَدَ عِندَ العَينِ الحَمِئَةِ قَومًا، وقَومٌ تُطلَقُ على الإنسِ والجِنِّ، قال اللهُ تعالى في الآيتَين ٢٩ – ٢٠ مِن سُورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. فهلْ كانُوا إنسًا أمْ جنًّا؟

قد يقولُ البعضُ إذا كانُوا "جنًّا" فكيفَ يَحكُمُ "ذُو القرنَين" الجِنَّ وهذا لِسُليمانَ عليهِ السلامُ فقط؟

نقولُ: الأمرُ مُتعلِّقٌ هل كان "ذُو القرنَين" قَبْلَ سُليمانَ أمْ بَعدَهُ؟

إذا كان بَعدَ سُليمانَ عليهِ السلامُ فيُستبْعَدُ ذلكَ؛ لأنَّ نبيَّ اللهِ سُليمانَ عليهِ السلامُ طلبَ مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ مِن بَعدِه. على أيِّ حالٍ جَرى ما جَرى ل "ذِي القرنَين" مع هؤلاءِ القومِ؛ ولكنْ قد يتساءلُ البعضُ: كيفَ استطاعَ – إذا كانَ بِمُفْرَدِه – حُكْمَهُم وتعذيبَ الظالِمِ مِنهُم؟ ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ

يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) .

نَقولُ جوابًا على هذا السُّؤالِ: رُبَّما كان بمَعيَّته جيشُه، وربَّما كان لدَيه مِن الأسلحةِ ما يستطيعُ السيطرةَ عليهِم؛ حتَّى لو كانَ بمُفرَده.

تَخيَّلْ أحدَهُم يمتلكُ "طائرةَ أباتشي" مُزوَّدةً بالمعدَّاتِ كافَّةً ضدَّ قبيلةٍ مِن قبائلِ العربِ قبلَ إلفِ عامٍ. ثُمَّ لنتأمَّلْ قولَه تعالى (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا. كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) "ثُمَّ" هُنا تُفيد التراخِي؛ أيّ: سارَ في سَببٍ من أسبابِ السماءِ مُنتَقِلاً مِن تلكَ المجموعةِ الشمسيةِ حتَّى بلغَ أرضًا أُخْرى في نِظامٍ شَمسيٍّ آخرَ وكان منهُ ما كان.

مِن نتائجِ المُؤتَمرِ العِلْميِّ للإعجازِ القُرآنيّ

١ – إن ذا القرنين هو كورش الأخميني الذي بدأ رِحلتَه من الغرب (القارَّة الأمريكية) إلى الشرق (آسية) مُرورًا بمضيق "بيرنج" الذي يصل بين أقصى شَمال غَرب أمريكة وبين آسية؛ حيث يكون هذا المضيقُ يابسًا في الفتراتِ الجليديّة.

٢ – مرَّ ذُو القرنَين بسيبيريا وهيَ المنطقةُ القُطبيَّة التي تظلُّ فيها الشمسُ مُشرِقةً لمُدَّةٍ طويلةٍ، وفيها سُكَّانُ الأسكيمو.

٢ – وصلَ ذُو القرنَين إلى جبالِ القُوقاز فوجدَها معزُولةً عن الحضارةِ التي لم تصلْها خلالَ الفُتوحاتِ، وفي هذه الجِبال يُوجدُ ردْمُ "دربند" الذي يحتوي على الحديد، والمنطقةُ المحيطة به غنيَّةٌ بالحديدِ أيضًا.

٤ – إنّ يأجُوجَ ومأجُوجَ قومٌ من البَشر سكنُوا المنطقةَ الجنوبيَّة من القُوقاز وكانوا ذا قوَّةٍ وبطْشٍ وإفسادٍ.

وفاتُه:

قِيلَ: أنَّ الخِضْر لَّما شَرِبَ مِن عَينِ الحياةِ التي ذهبَ إليها وفاتَ ذلك ذا القرنَين قال له الحُسّابُ: لا تحَزَنْ؛ إنَّا نَرَى أنَّ لكَ مُدَّةً، وإنَّكَ لن تموتَ إلاّ على أرضٍ مِن حديدٍ وسَماءٍ مِن خَشَبٍ، فانصرفَ راجعًا يُريدُ الرُّومَ؛ فصارَ يدفنُ كُنوزَ كُلِّ أرضٍ بها، ويكتبُ ما دَفَنَ ومَوضِعَهُ، وحَملَ الكِتابَ مَعهُ. حتَّى إذا بلغَ بابلَ رَعفَ وهو في مسيرِه فسقطَ عن دابَّتِه وعليهِ دِرْعٌ، وكانت الدُّروعُ آنذاك صفائحَ، فنامَ على تلك الدِّرعِ فآذَتْهُ الشمسُ فحَجَبُوها عنه بِتُرسٍ مِن خَشبٍ، فلمَّا استيقظَ وَجَدَ نفْسَه مُضْطجِعًا على حديدٍ وفَوقَه خشبٌ فقالَ: هذه أرضٌ مِن حديدٍ وسَماءٌ من خشبٍ؛ إنّه الموتُ.

ورُويَ عن كعب الأحبارِ أنَّه قال لِمُعاويةَ بنِ أبي سُفيان: إنَّ ذا القرنَينِ لَّما حَضَرتْه الوفاةُ أوصَى أُمَّهُ إذا هو مات أن تصنعَ طعامًا وتجمعَ نساءَ أهلِ المدينةِ وتضَعَهُ بين أيديهنَّ وتأذنَ لهُنَّ فيه؛ إلَّا مَن كانت ثَكلَى فلا تأكُل مِنهُ شيئًا. فلمَّا فعلتْ ذلك لم تضعْ واحدةٌ منهُنَّ يدَها فيه فقالت لهُنَّ: سُبحانَ اللهِ كُلُكُنَّ ثَكْلَى ! فقُلْنَ: أيْ واللهِ ما مِنَّا إلَّا مَن أثكَلَتْ فكان ذلك تسليةً لأُمِّه.

وذَكرَ إسحاقُ بنُ بِشْرٍ عن عبدِاللهِ بنِ زيادٍ عن بعضِ أهلِ الكِتاب وصيَّةَ ذي القرنَين، ومَوعِظةَ أُمِّه مَوعِظةً بليغةً طويلةً[١].

وقال ابنُ عساكِر: بلغَني مِن وَجْهٍ آخرَ أنَّه عاش ستًّا وثلاثينَ سَنَةً، وقيلَ: اثنتَين وثلاثينَ سَنَةً، وكان بعدَ داوودَ عليه السلامُ بسبعمائةٍ وأربعينَ سَنة، وكان بعدَ آدمَ بِخَمسةِ ألافٍ ومائةٍ وإحدى وثمانينَ سَنة، وكان مُلْكُه ستَّ عشرةَ سَنةً[٢].

يقول ابنُ كثيرٍ: وهذا الذي ذَكرَهُ ابنُ عساكر إنّما ينطبقُ على الاسكندرِ الثاني لا الأوَّل، وقد خلط بينهما في أوَّل الترجمةِ وفي آخرِها.

وذكرَ المسعوديُّ أنّه لّما مات ذُو القرنَين طافت به الحكماءُ مِمَّن كان معهُ مِن عُلماءِ الأُممِ، وكان يجمعُهم ويستريحُ إلى كلامِهم ولا يُصدرُ الأمورَ إلاّ عن رأيهِم، وجعلَ بعد أن مات في تابوتٍ من الذهبِ ورُصِّعَ بالجَوهرِ بعد أن طُلِيَ جِسْمُه بالأطلية الماسكةِ لأجزائِه. فقال عظيمُ الحكماءِ والمقدَّم فيهم: لِيتكلَّم كلُّ واحدٍ منكُم بكلامٍ يكون للخاصَّةِ معزيًّا وللعامَّةِ واعظًا ثمَّ وضعَ يدَه على التابوتِ فقال: أصبح آسرُ الأسراءِ أسيرًا. ثمَّ قام حكيمٌ آخرُ فقال: هذا الاسكندرُ الذي كان يُخبئ الذهبَ فصار الذهبُ يخبؤهُ. وقال الحكيمُ الثالثُ: ما أزهدَ الناسِ في هذا الجسدِ وأرغبَهم في هذا التابوتِ. وقال الحكيمُ الرابعُ: مِن أعجبِ العَجَبِ أنَّ القويَّ قد غلب والضعفاءُ لاهُونَ مغترُّون. وقال الخامسُ: قد كنتَ لنا واعظًا فما وعظْتنا موعظةٌ أبلغَ من وفاتكَ؛ فمَن كان له عقلٌ فليعقلْ، ومَن كان مُعتبِرًا فلْيَعتبِرْ[٣].

---

١) مختصر تاريخ دمشق(ج ٨/ص٢٢٩).
٢) المصدر السابق.
٣) مروج الذهب ومعادِن الجوهر: (ج ١/ص٢٢٠).

وبذلك تنتهي سيرةُ ذي القرنَين النموذجِ الطِّيِّبِ للحاكمِ الصالحِ الذي مكَّنَه اللهُ في الأرضِ، ويسَّرَ له الأسبابَ فاجتاحَها شرقًا وغربًا؛ لكنَّه لم يتجبَّرْ، ولم يتكبَّرْ، ولم يطغَى، ولم يبطرْ، ولم يتَّخِذْ مِن الفُتوحِ وسيلةً للغُنْمِ المادِّيّ واستغلالِ الأفرادِ والجَماعاتِ والأوطانِ، ولم يُعاملِ البلادَ المفتوحةَ مُعاملةَ الرَّقيقِ، ولم يُسخِّرْ أهلَها في أغراضِه وأطماعِه؛ إنَّما نشرَ العدلَ في كلِّ مكانٍ حلَّ بهِ، وساعدَ المتخلِّفينَ ودرأَ عنهم العُدوانَ دونَ مُقابِلٍ، واستخدمَ القوَّةَ التي يسَّرَها اللهُ له في (التعميرِ والإصلاحِ ودفْعِ العُدوانِ وإحقاقِ الحقِّ). ثُمَّ أرجعَ كُلَّ خيرٍ تحقَّقَ على يديهِ إلى عطاءِ اللهِ وفَضْلِه، ولم ينسَ وهو في إبَّانِ سَطوتِه قُدرةَ اللهِ وجَبرُوتَه وأنَّه راجعٌ إليه.

وكان لسانُ الحالِ يقولُ: إلى كَمْ تُماطِلُونَ بالعملِ، وتطمعُونَ في بُلوغِ الأملِ، وتغترُّونَ بِفُسْحَةِ المُهَلِ، ولا تذكُرونَ هُجومَ الأجَلِ. ما ولدْتُمُ فإلى التُّرابِ، وما بَنيتُم فإلى الخَرابِ، وما جَمعتُم فإلى الذَّهابِ، وما عَملتُم ففي كتابٍ مُدَّخَرٍ ليومِ الحِسابِ:

ولو أنَّا إذا متْنا تُرِكْنا لَكانَ المَوتُ راحةَ كلِّ حَيّ

ولَكنَّا إذا متْنا بُعِثْنا ونُسألُ بَعدَها عن كُلِّ شَيء

وقد رثاهُ – أيضاً – امْرُؤ القيسِ الكِنديُّ، والمُنْذِرُ بنُ ماءِ السَّماءِ اللّخْميُّ مَلِكُ الحِيْرةَ، وتبَّعُ الأكبَرُ وغيرُهم.

تأملات ودروس وعظات

لـقد جَـمعتْ شـخصيَّةُ ذُو الـقرنَـينِ بـين الـعِلْمِ والـعَملِ، والحُـكْمِ والـعَدلِ، والـقَولِ والـفِعل، والـرَّأي والـشُّورى، والـقانـونِ والـدُّسـتورِ، والـصَّبْرِ والحِـكْمَة، والسُّـلْطَةِ والوَجاهةِ، والرُّوحِ والمادَّة. ولـم تَكُنْ فُتوحاتِه وسيلةً للتجبُّرِ؛ بلْ كانتْ لِرَفْعِ الظُّلْمِ والحَيفِ عن النَّاسِ وتعليمِهم أُسُسَ الصِّناعةِ والعَملِ، ولمْ يَذْكُرِ التاريخُ أنّه (تعدَّى أو ظَلَمَ أو أكَلَ مالَ أحدٍ). نَشَرَ عقيدةَ التوحيدِ، وبيَّنَ للعالَم أجْمعَ أنَّها ماضيةٌ إلى يومِ القيامةِ لا يحدُّها زمانٌ ولا مكانٌ، وأنَّها الوحيدةُ التي تستطيعُ أنْ (تجمعَ تحتَ مِظلَّتها الأجناسَ والأقوامَ كافَّةً، وتجعلَهم في دِينٍ واحدٍ إخوانًا مُتحابِّينَ)، وتبثَّ فيهم (رُوحَ التسامُحِ وأساليبَ الاستفادةِ من بعضِهم بعضًا)؛ لِبناء الحَضارةِ الراقية.

ومَن يقرأُ آياتِ القِصَّة على مُكْثٍ، ويتدبَّرُ معانيها يستنتجُ ما يأتي:

* إنَّ أسلوبَ التعظيمِ يُضْفي هالةً على الرُّموزِ التي لها دَورٌ مُتميِّزٌ في الدَّعوةِ إلى اللهِ تعالى، ويُشَجِّعُ المَدعُوِّينَ أن يتأسَّوْا بهِم ويَسيروا على هُداهُ؛ فقد أسبغَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على عبْدِاللهِ بنِ أبي قُحافةَ رضيَ اللهُ عنهُ لَقبَ "الصِّدِّيقِ" فَعُرِفَ بهِ، وعلى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ لقبَ "الفاروقِ"، وعلى عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ رضيَ اللهُ عنهُ لَقبَ "ذي النُّورَينِ"، وعُرِفَ عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ بِ "فَتى الإسلامِ"، وخَالدُ بنُ الوليدِ بِ "سيفِ اللهِ المَسلُولِ"...

والقرآنُ الكريمُ لم يَذكُرْ اسمَ ذِي القرنَينِ؛ وإنّما اكتفَى بِلَقَبِهِ فحَسب.

* (**وَيَسْأَلُونَكَ**) قد يكونُ السُّؤالُ لمجُرَّدِ المَعرفةِ، وقد يكونُ لِلتَّحدِّي، والتَّحدِّي نفْسُه أسلوبٌ يدلُّ على صِدْقِ الدَّعوةِ والداعيةِ، ولقَدْ قَبِلَ القُرآنُ الكريمُ هذا التَّحدِّي (**قُلْ سأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا**) .

* (**سأَتْلُو**) دليلٌ على المَعرفةِ بالأمْرِ والعِلْمِ به، و"التلاوةُ أثبتُ في الإجابةِ" .

* (**مِنْهُ**) دليلٌ على وُجوبِ الاقتصارِ على ما يَفي بالغَرضِ فحَسب .

* (**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ**) إيجازٌ وإطنابٌ جاءَ كُلٌّ منهُما في مَكانِه المُناسبِ . فلا داعيَ لبيانِ تفاصيلِ التمكينِ، قد يكونُ في (كَثْرةِ العَددِ والعُدَّةِ، أو المالِ والسُّلطانِ، أو العَدلِ والإحسانِ، أو الجهْد والهِمَّة) وكذلك الإيجازُ في الحديثِ عن (**مَطْلِعِ الشَّمْسِ**) بَعْدَ الإطنابِ في الحديثِ عن (**مَغْرِبِ الشَّمْسِ**)؛ ف "التّكْرارُ مُملٌّ فيما ليسَ لهُ لُزُومٌ" .

* (**وآتيناهُ**) دليلٌ على عَظمةِ أمْرِه وسُمُوِّ مَكانَته .

* (**سَبَبًا**) جاءتْ مَرَّتَينِ: الأُولى؛ لِمعرفةِ الشيءِ والطريقِ المُوصلةِ إليه . والثانية؛ لِسُلوكِ هذه الطريقِ واتِّباعِها؛ فإنَّ كُلَّ مَن عَرَفَ الطريقَ الصحيحةَ وسَلَكَها وصلَ إلى غايتِه بإذنِ اللهِ تعالى .

* (**قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**) وَكَلَ اللهُ تعالى لهُ أمانةَ التَّصَرُّفِ لِثِقَتِه وَقُدْرَتِه على تحَمُّلِ ما وُكِلَ إليه .

* ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ منهجٌ مستقيمٌ وعدلٌ يتمثَّلُ في مُعاقَبةِ الظالمِ؛ حتَّى لا يُفْسِدَ في الأرضِ، وفي مُكافأةِ المُحْسِنِ؛ حتَّى يزيدَ من إحسانِه. والحوافزُ ماديَّةٌ ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ ومَعنويَّةٌ ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

* ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ أشارَ الذِّكْرُ الحكيمُ إلى ذلك بصيغةِ النكرَةِ؛ للدِّلالةِ على أنَّ خِبراتِه مُتعدِّدةٌ ومُتنوِّعةٌ، وبلغتَ من العَظمةِ مبلغَها؛ حتَّى ذَكَرَ الحَقُّ سُبحانَه وتعالى إحاطتَه بها تشريفًا وتعظيمًا.

* ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ اجتمعَ عليهِم (الظُّلْمُ والجَهلُ)، ونالهُم (الذُّلُّ والهَوانُ) فأعانَهُم، وأقامَ لهُم رَدْمًا، ولمْ يَطلُبْ منهُم مالاً ولا أجْرًا، وهذه سِماتُ مَن استرعاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ شؤونَ العبادِ وجعلَهم أمانةً بين يديهِ سيُسألُ عنها.

* ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ كان أمينًا على ما في أيديهِم من أموالٍ. ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ ﴿ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ وعلى ما في أراضيهِم مِن ثَروات.

* ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ لم يَنْسِبِ الفَضْلَ لِنَفْسِه؛ بلْ نَسَبَهُ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأكَّدَ ذلكَ بِقَولِه ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾.

* ﴿فإذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ قُدرةُ اللهِ عزَّ وجلَّ مطلقةٌ، ومَشيئَتُه نافذةٌ.

* بما أنَّه بلغَ مَغربَ الشَّمسِ ومَطلعَها وبلغَ بينَ السَّدَّينِ فَمِن المُؤكَّدِ أنَّه كان قادراً على التعامُلِ مع أنماطٍ مُتعدِّدةٍ من البَشرِ، والتعايُش في الظروفِ والبيئاتِ كافّةً، وإجادةِ التخاطُبِ والتفاهُمِ بِلُغاتٍ مُختَلِفَةٍ.

* ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ لا يُشْترى الأمنُ بالخَراجِ؛ وإنَّما يكونُ بالقوَّةِ والعَملِ. لقَد نَفَخَ فيهِم مِن رُوحِه، وذَكَّى قُدراتِهم؛ فأكْسَبَهُم ثِقةً في أنفُسِهم، فتَحوَّلُوا إلى طاقاتٍ بَشريّةٍ هائلةٍ نفّذَتْ أكبرَ رَدْمٍ في ذلك الزَّمانِ.

* ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ شَعْبٌ لا يكادُ يَفْقُه قَولاً، وعَدُوٌّ لا طاقةَ لأحدٍ به إنَّها مُعضِلَةٌ حقّاً، فكيفَ تصرَّفَ ذُو القرنَينِ وكيف سارتِ الأُمورُ؟

– استمَعَ إلى القومِ بِكُلِّ هُدوءٍ وهُم يَعرضُونَ مُشكِلَتَهُم.

– قدَّرَ رأيَهُم؛ فلمْ يُوجِّهْ لهُم نَقْداً، ولمْ ينفَعِلْ، ولمْ يغضَبْ.

– أثنى على اللهِ عزَّ وجلَّ بِما مَنَّ عليهِ من إمكاناتٍ وطاقاتٍ؛ فأشاعَ جَوًّا من الطُمأنينةِ.

– جَذَبَ اهتمامَهُم، وأطلعَهُم على مَهامِّهِم.

– أجادَ التخاطُبَ مع القومِ الَّذينَ لا يكادُونَ يفقَهُونَ قولاً، وأثَّرَ فيهم بِ (بلاغةِ مَنطِقِه وقُوَّةِ حُجَّتِه)، وبيَّنَ لهُم أنَّ ثمرةَ جُهدِهِم هُو حُصولُهم على أمْنِهِم؛

فَحَوّلَهُم إلى قَوَّةٍ بَشريَّةٍ هائلةٍ مُتحفِّزةٍ تَنتظرُ الأوامرَ؛ لِتعمَلَ بِجدٍّ خلفَ قيادةٍ مُؤمِنَةٍ حكيمةٍ لِتنفِّذَ أكبرَ مشروعٍ على الأرضِ آنذاكَ.

* اتِّخاذُ القرارِ يستلزمُ:

– تحديدَ المُشكِلَةِ: وتكمنُ في إغارةِ يأجُوج ومأجُوج على القومِ الذين لا يكادُونَ يفقهونَ قولاً ويُفْسِدُونَ في الأرضِ، والقومُ لا يَملِكُونَ سُبُلَ استثمارِ طاقاتِهم البشريّةِ وثرواتِهم.

– جَمعَ البياناتِ: قد تكونُ بإيحاءٍ من اللهِ عزَّ وجلَّ، وقد تكونُ مُعاينةً قبلَ لقاءِ القومِ وتَثبُّتِه منها عند لقائِه بِهم، وقد تكونُ من القومِ أنفُسِهم.

– اختيارَ الحَلِّ: اختارَ بِحِكْمَتِه إقامةَ رَدْمٍ بالمَواردِ الطبيعيَّةِ المُتاحةِ.

– التخطيطَ: الاستعدادَ لِبَدءِ العملِ، استثمارَ الإمكاناتِ كافَّةً، تحديدَ مُعدَّلاتِ الأداءِ؛ لإنهاءِ العملِ على الوجهِ الأكملِ وفي المَوعدِ المُحدَّدِ.

– إصدارَ القراراتِ: (**آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ، انْفُخُوا، آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا**).

– مُتابَعةَ التنفيذِ: لقد كان ذُو القرنَينِ بينَهُم وهُم يُقيمُونَ الرَّدْمَ؛ فالاتِّصالاتُ بينَهُم من أساسياتِ إدارةِ العملِ.

* عاملَ الوقْتِ: (**آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ**) ... (**حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ**) ... (**قَالَ انْفُخُوا**) ... (**حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا**) ... (**قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا**) مراحلُ يتبعُ بعضُها بعضًا دُونَ تَوقُّفٍ.

* تكوينُ فِرَقِ العملِ:

ا – فريقُ إحضارِ زُبَرِ الحَديدِ: التنقيبُ عن خاماته، والكشفُ عن مَناجمه وإعداده بالشكلِ المُناسبِ.

ب – فريقُ المُسانَدةِ: تعبيدُ الطُّرُقِ وإعدادُها مِن مَواقِع الخامات حتَّى مَوقعِ الرَّدمِ، والإعدادُ لِلمُساواةِ بين الصَّدَفَينِ.

ج – فريقُ إيقادِ النّارِ: إعدادُ موادِّ الاشتعالِ وأدواتِ النَّفْخِ، وإشعالُ النَّارِ في الوقتِ المُحدَّد.

د – فريقُ إعدادِ القَطْرِ: التنقيبُ عن خاماته، ونقلُها إلى أفرانِ الصَّهْرِ ومِن ثَمَّ صَهْرُه ونَقْلُهُ إلى مَوقعِ الرَّدْمِ في حِينِه.

ولَنا أنْ نَتخَيَّلَ كيف شَرَحَ ذُو القرنَينِ وبيَّنَ لِكُلِّ فريقٍ عَمَلَهُ وَواجباته؛ حتَّى يُؤدِّيَ عَمَلَهُ على أكمَلِ وَجْهٍ – والقومُ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قولاً – ، وكيف تابعَ المراحلَ البعيدةَ عن مَوقعِ الرَّدْمِ. فكان لا بُدَّ لهذهِ الفِرَقِ مِن أن تتولَّى إدارةَ نَفْسِها بِنَفْسِها؛ وكأنَّه قد فوَّضَ بَعضًا من مَهامِّه لأفرادٍ من القومِ وهذا ما يُطلَقُ عليه اسمُ "التفويضِ"، وهو ما تُنادي به النظريَّاتُ الحديثةُ في القيادةِ وإدارةِ الأعمالِ.

* التغييرُ نَحْوَ الأفضلِ: حَوَّلَ القومَ مِن أُمَّةٍ تشتري سلامَتها إلى أُمَّةٍ تَصنَعُ سلامَتها، ومِن شَعبٍ خاملٍ إلى شَعبٍ يَقِظٍ نشيطٍ مُفعَمٍ بِحُبِّ العملِ والثِّقةِ في النفْسِ.

* معاييرُ عاليةٌ لتقييمِ الأداءِ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ حقَّقَ الرَّدْمُ هدَفَينِ اثنَين:

الأوَّل: أنَّه عالٍ جِدًّا؛ حيث يصعبُ عليهِم أن يَتَسلَّقُوهُ،

والثاني: أنّه من المَتانةِ والقوَّة؛ حيثُ لا يُمكِنُ أن يُحْدِثُوا فيه نَقْبًا يَنفُذُونَ منهُ.

* التأكيدُ على أهمِّيَّةِ (طلبِ العِلْمِ، والتزوُّدِ بالمَعرفةِ، والسُّؤالِ عمَّا يَجْهَلُه الإنسانُ).

* المُواجَهةُ بين العالِمِ العاملِ والجاهِلِ المُستهزِئ مُستمرَّةٌ مُنذُ القِدَمِ.

* ضَرُورةُ التحلِّي ب (الصَّبْرِ والحِلْمِ)، والإجابةِ بِكُلِّ (هُدوءٍ ورَحابةِ صَدْرٍ).

* الهدفُ من بيانِ أخبارِ الأُممِ السابقةِ هو العِظَةُ وأخْذُ الدُّروسِ والعِبَرِ.

* الأخذُ بالأسبابِ، وبَذْلُ الجهدِ – قَدْرَ المستطاعِ – واجبٌ شَرعيٌّ.

* الصَّبرُ على الابتلاءِ والمَكْرُوهِ؛ ف (**إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**).

* مِن سُبُلِ التمكينِ التزوُّدُ ب (المعرفةِ والعلومِ)، وفتْحُ أبوابِ التخصُّصِ.

* نشرُ الحضارةِ والمَدنيَّةِ والعِلْمِ مَطلبٌ فِطريٌّ للنَّاسِ.

* استشارةُ المُتخصِّصينَ وأربابِ المِهَنِ من أولويَّاتِ النجاحِ والتقدُّمِ.

* النِّيَّةُ والعَزْمُ والتعاونُ بين الجميعِ أمورٌ مُهمَّةٌ وأساسٌ لتحقيقِ الهدفِ.

* السياحةُ في الأرضِ لِ (نَشْرِ القِيَمِ وإقامةِ العدلِ وتحقيقِ الخيرِ) فيها فوائدُ جَمَّةٌ.

* شُروقُ الشمسِ وغُروبُها دليلٌ على بديعِ صُنْعِ الباري عزَّ وجلَّ.

* المَعاصي والإفسادُ في الأرضِ نتيجتُه العِقابُ الرَّبَّانيُّ مَهما طالَ الزمنُ.

* رَبْطُ العذابِ الدُّنيويِّ بِعَذابِ الآخرةِ لِيكُونَ عِبْرَةً لِلظَّالِمينَ.

* وُجودُ أقوامٍ بينَ الجِبالِ لا عِلْمَ لهُم ولا مَعرِفةَ؛ ممَّا يَمنَعُهُم من التفكيرِ السليمِ.

* ضرورةُ إبعادِ المُفْسِدينَ عن مواقعِ المسؤوليَّةِ واتِّخاذِ القرارِ لِلأُمَّةِ، والعملُ على هدايتِهم.

* المالُ ليسَ كُلّ شَيءٍ، والعقلُ المُدَبِّرُ والرَّأيُ السَّديدُ هُما السَّندُ المتينُ له.

* الحاكمُ العادلُ يُعطِي أكثرَ مِن حاجةِ الناسِ؛ لكنْ دُونَ (تبذيرٍ أو محاباةٍ أو مُداهَنةٍ).

* العَدلُ أساسُ المُلْكِ، والقانونُ فوقَ الجميعِ.

* إبداءُ الآراءِ والحِوارُ البنَّاءُ واتِّباعُ أحْسَنَ السُّبلِ هي الشورى بعَينِها.

* تكريمُ الشَّخصيَّاتِ المُتميِّزةِ والعَبْقَريَّاتِ الفَذَّةِ له دَورٌ فعَّالٌ في بناءِ المجتمَعِ.

* مساعدةُ المحُتاجِينَ والضُّعفاءِ، وتفقُّدُ أحوالِهم مِن واجباتِ الحاكِمِ العادلِ.

* وضعُ دعائِمِ الصِّناعةِ التي بها تتقدَّمُ الأُممُ وتَزدَهِرُ.

* القضاءُ على البَطالةِ والسَّعيُ لإيجادِ فُرَصِ عَملٍ – باستمرارٍ – واجبٌ شَرعيٌّ ووَطنيٌّ.

* تصديرُ الخِبْرَةِ إلى الآخَرينَ دُونَ مُقابلٍ دليلٌ على سُمُوِّ الأخلاقِ.

* رَبْطُ الأعمالِ بمَشيئةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فهُو الذي بيَدِهِ مَقاليدُ السَّماواتِ والأرضِ.

* العِبْرةُ تحقَّقتْ دُونَ الحاجةِ إلى تسميةِ الأشخاصِ وتحديدِ الزَّمانِ والمكانِ.

العَينُ الحَمِئةُ هي بُحيرةُ "إيسيك كول: Issyk kul "

مِن المُرجَّح أنَّ بُحيرةَ "إيسيك كول" الموجودةُ شَرق قيرغيزستان هي العَينُ الحَمِئةُ؛ فهي تُشْبِهُ شكلَ العَينِ العملاقة، ويصبُّ فيها حوالَي ١١٨ نهرًا؛ أكبرُها Djy galan وTyup، وتتغذَّى على الينابيعِ الساخنةِ، وفيها طِينٌ، ويَعني اسمُها بالتُّركيَّةِ القيرغستانيه "البُحيرةَ الحارّةُ أو الدافئةَ"؛ فهي لا تتجمَّدُ طوالَ السنةِ.

ويَحدُّها سلسلتانِ من الجِبال: الجنوبيةُ منها تُدعى Te skei – Alatau وترجمتُها بالإنكليزية tu ned away f om the sun وتعني باللغةِ العربيةِ "المُبتعِدَةَ عن الشمسِ"، والسلسلةُ الشماليةُ تُدعى Kungy – Alatau وترجمتُها بالانكليزية facing the sun وتَعني بالعربيةِ "المُواجِهةَ للشمسِ" أوْ ما تُعرَفُ بمِنطقةِ "مَطلِعِ الشمسِ"[١].

نظريات جديدة وأفكار غريبة

إنّ منهجَ الحديثِ عن ذِي القرنَينِ ورِحلاتِه، وعن يأجُوج ومأجُوج، وعن نظريَّاتِ (الأرضِ المجُوَّفةِ، والأرض المُقعَّرةِ، والأرضين السَّبْع والجاذبيّةِ المعكوسةِ)، وعن الرِّحلاتِ التي تَمَّتْ من فتحةِ القُطبِ الشماليِّ إلى ما تحت الأرضِ وتدوينها عِلْميًّا هو عَرْضُ حقائقَ قرآنيةٍ بالغةُ الغَرابةِ لا عِلْمَ لِليَهودِ بها أصلاً. فهلْ نعلمُ كلَّ شيءٍ عن كوكبِنا؟

ماذا نَعرِفُ عن نظريةِ الأرضِ المجُوَّفةِ أو المُقعرَّة؟

وماذا نعرف عن فتحة سميث في القطب الشمالي؟

لماذا أُخْفِيتْ مساحتانِ شاسعتان في القُطبينَ (الشماليّ والجنوبيّ) على جوجل إيرث؟ وماذا كانت الصُّورةُ مِن قَبْلُ؟ ماذا نَعرِفُ عن نظريةِ الأرضِين السَّبْع؟

أوَّلاً: حقائقُ عن ذِي القرنَين.

١) رحلة ذي القرنَين إلى المَشرق - عبد الله شُربجي.

* إنّ احتمالَ وُجودِ رَدْمِ ذي القرنَينِ شمالِ آسية أو شمالِ أوروبةَ هو احتمالٌ كبيرٌ جدًّا؛ فمُنذُ القِدَمِ تميَّزت تلك المنطقةُ بأهمِّيَّةٍ خاصَّةٍ لِمَن أراد أن يُسيطِرَ عسكريًّا على العالَمِ القديمِ.

* تنطبقُ مُعظمُ مواصفاتِ ذِي القرنَين الواردةِ في القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ المُطهَّرةِ على المَلِك "كورش الإخميني"؛ والذي يُسمَّى عند اليهودِ "لوقرانائيم".

* هناك رأيٌ آخرُ يقولُ: إنّ ذا القرنَين هو "داريوس" الذي أتى بعدَ "كورش"، ويتشابهُ الاثنانِ في رحلتيهِما شَرقًا وغربًا وفي ارتدائهِما لِلقرنَينِ؛ حيث وَردَ في سِفْرِ دانيال (٨ – ٢٠) من العَهدِ القديم ما يأتي:

"أمَّا الكَبْشُ ذُو القرنَينِ فهُو من مُلوكِ مادي وفارِس. ولكنَّ مُلوكَ مادي وفارِس كثيرونَ، فمَن هي تلك الشخصيّةُ المَعنيَّة بالتحديدِ والتي سألَ عنها اليهودُ الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم ؟ ذكرَ يعقوبُ المالِطيُّ في تفسيرِه لِسِفْرِ دانيال أنَّ "مارسيلينوس" مَلِكَ الفُرسِ كان يرتدي رأسَ كَبْشٍ عِوَضَ التاجِ حِينَما يكون على رأسِ جيشِه.

ويقولُ القِدِّيسُ "هيبوليتس" الرُّومانيُّ: "إنّ الكَبْشَ الذي ينطحُ غربًا وشمالاً وجنوبًا هو "داريوس" مَلِكُ الفُرسِ الذي غلبَ كُلَّ الأُمَمِ؛ إذ لم يَقِفْ حيوانٌ قُدَّامَهُ !

إذنْ هو المَعنيُّ من مُلوكِ فارِس بِذي القرنَينِ كما وصفَه القُرآنُ الكريمُ بِدِقَّةٍ بالغةٍ؟ وأمَّا سُؤالُ اليهودِ عنهُ بالذَّاتِ فَلأنَّ "داريوس" يُعتبَرُ شخصيَّةً مِحوريَّةً في تاريخِهم؛ حيث أكملَ تحريرَهُم مِن السَّبي البابليِّ، وأعادَ لهُم بناءَ الهيكلِ الذي

بدأهُ "كورش الإخميني"؛ وكأنَّهُم بِسُؤالِهِم النبيَّ صلى الله عليه وسلم عنهُ أرادوا استشفافَ موقفِ الإسلامِ الحنيفِ من هيكلِهم؟

ثانيًا: دِقَّةُ الألفاظِ القُرآنيةِ في قِصَّةِ ذِي القرنَينِ ورحلاته.

•إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد مكَّنَ ذا القرنَينِ في الأرضِ، وآتاهُ مِن كُلِّ شَيءٍ سَبَبًا.

فَما علامةُ تمكينِه في الأرضِ؟

إنَّ سيطرةَ ذِي القرنَينِ على ذلك الجُزءِ من العالَمِ القديمِ – هارتلاند – يُلخِّصُها الجغرافيُّ الإنجليزيّ "ماكيندر" بِقَولِه: "مَن يَحكُمُ شرقَ أوربةَ يُسيطِرُ على الهارتلاند، ومَن يَحكُمُ الهارتلاند يُسيطِرُ على الجزيرةِ العالَمِيَّة، ومَن يَحكُمُ الجزيرةَ العالَمِيَّة يُسيطِرُ على العالَم".

وهُنا تظهرُ دِقَّةُ القُرآنِ الكريمِ البالغةُ في وَصْفِه لِذي القرنَين (**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ**).

(**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ**) تُحدِّثُنا جُغرافيُّة أوكرانيا وشِبه جزيرةِ القَرْمِ عن منطقةِ ملاحاتٍ ومُستنقَعاتٍ ضَخمةٍ تُدعى Syvash. ومِن الأسماءِ الشائعةِ لهذه الملاحاتِ "البحرُ النَّتِنُ" The otten sea و"البَحرُ الآسِنُ" Put id Sea و"بَحرُ آزوف" وهي منطقةٌ يغلبُ عليها الضَّحالةُ؛ ولِكونِها ضحلةً جِدًّا فإنّ مياهَها تَسخُنُ كثيرًا في فصلِ الصيفِ فينتجُ عنها رائحةٌ نَتِنةٌ! وكذلك فإنّ تعبيرَ "مَغرِب الشمسِ" هو في حَدِّ ذاتِه إعجازٌ قرآنيٌّ آخرُ؛ فقَد ذهبَ بعضُ الباحِثينَ إلى أنَّ أصلَ كلمةِ أوروبة هو "آكادي سامي"، ومَعناهُ "مَغرِب الشمسِ أو غُروب الشمس". إذن قام ذُو القرنَينِ بِحَملةٍ تأديبيّةٍ معلومةٍ تاريخيًّا عَبَرَ فيها البلقانَ إلى أوروبة ثُمّ إلى أوكرانية وعادَ بمحاذاةِ بحر قزوين من ناحيةِ الغَرب.

* وعن القومِ الذين وَجدَهُم عندَ مَغرِب الشمسِ يذكرُ لنا القرآنُ الكريمُ تفاصيلَ تلك الرِّحلةِ التأديبيَّة (**وَوَجَدَ عِندَهَا قَومًا. قُلنَا يَا ذَا القَرنَينِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِم حُسنًا. قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكرًا. وَأَمَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الحُسنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِن أَمرِنَا يُسرًا**) وهُو سببُ الرحلةِ التأديبيَّةِ نفْسُه التي خرجَ لها "داريوس" وما قام بهِ هُناك، وكانَ أسلوبُه هو نَفْسَه في تعامُلِه مع تلك المَواقفِ خلال حياتِه؛ بل ونعجبُ مِن تشابُه الصيغةِ القُرآنية في الآياتِ المذكورةِ أعلاهُ مع ما جاء في نَقْشِ "بيهستون" : أنَّ إلهَهُ أطلقَ لهُ يدَ المَشيئةِ في التعامُلِ مَعهُم.

* وعن عودةِ ذي القرنَين إلى مطلِع الشمسِ نلتقي بعَجيبةٍ أُخرى من عجائبِ القُرآنِ الكريمِ في دِقَّةِ إخبارِه بأسماءِ الأماكنِ؛ فالمنطقةُ التي وصلَ إليها ذو القرنَينِ اسمُها "مَطلِعُ الشمسِ" Sun ise وهي ترجمةُ كلمةِ "أناضول". وأمَّا وصفُ اللهِ عزَّ وجلَّ لتلكَ المنطقةِ بأنَّ أهلَها لا يَستُرهُم مِن الشمسِ شيءٌ؛ وذلك لأنَّ مناخَ تلك المنطقةِ قارِّيٌّ حارٌّ صَيفًا؛ وهو ما يجعلُ أشعَّةَ الشمسِ مُسلَّطةً عليهِم فتراتٍ طويلةً دُونَ سَتْرٍ.

* وعن رَدْمِ يأجُوج ومأجُوج لم يذكُرِ القُرآنُ الكريمُ تفصيلاً كافيًا يُمكِّنُنا من معرفةِ مكانِه؛ بل تركَه غَيبًا لن يَخرُجَ إلى الواقعِ إلاّ في الوقتِ المعلومِ كعَلامةٍ من علاماتِ الساعةِ الكُبرى بعد أن يَقتُلَ عِيسى بنُ مَريمَ عليهِ السلامُ المسيحَ الدَّجَّالَ.

* وأمَّا عن القومِ الذينَ هُم بين السَّدَّينِ و(**لا يَكادُونَ يفقَهونَ قولًا**) فإنَّ ذلك يُوحي بِعُزْلَتهِم وتَفرُّدِ لَهجاتِهم عن الأقوامِ المحيطةِ بهِم وغَرابتِها.

ويُؤكِّد ذلك تاريخُ منطقةِ الأناضول؛ حيث كانَت هُناك لُغاتٌ سائدةٌ تُدعى ب "اللُّغاتِ الأناضوليّةِ"، ويُطلَقُ عليها – أيضًا – "اللُّغات الحيثية". ومِن المُحتَمل أنَّهُم كانوا في طريقِ عودةِ ذي القرنَين من الأناضولِ إلى بلادِه واللهُ تعالى أعلى وأعلمُ.

ثالثًا: الأرضُ المجُوَّفةُ ونظريَّاتٌ أُخرى عجيبةٌ.

أجمعَ المُفسِّرونَ على أنَّ "مَعرِفةَ مكانِ رَدْمِ يأجُوج ومأجُوج غيرُ مُمكِنٍ"، وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ غيَّبَه عن الناسِ؛ لِما يَترتَّبُ على مَعرفتِه أمورٌ جسيمةٌ تدلُّ على قُربِ قيامِ الساعةِ.

ولكنْ كيف لأُمَّتَينِ عَظيمتَينِ نِسْبَتُهم إلى المُسلِمينَ ٩٩٩ : ١ أن تعيشَ على الأرضِ مَحصُورةً خَلْفَ سَدٍّ ولا يعلمُ بِهم أحدٌ؟

العُلماءُ القُدامى لم يُعوِّلوا على ذلك الإشكالِ كثيرًا؛ لأنَّ ما خَفِيَ على الناسِ مِن الكُرَةِ الأرضيَّة في ذلك الزمانِ كان كثيرًا جدًّا. ومِن جهةٍ أُخرى تبيَّن مِن واقع جوجل إيرث أنّ هناك العديدَ من المناطقِ التي يتمُّ تشفيرُها كُلَّ فَتْرةٍ لإخفاءِ معالمِها وتفاصيلِها وعَدمِ ظُهورِها لأسبابٍ عديدةٍ سواءٌ أكانت (عسكريةً أو سياسيةً أو اقتصاديةً)، هذا إلى جانبِ المناطقِ الصحراويةِ والغاباتِ الشاسعةِ التي يَصعُبُ على الإنسانِ كشفُ كُنْهِها رغمَ أنَّه يراها بِعَينِه. ولكنْ مع تَطوُّرِ التكنولوجيا والقُدرةِ على (تصويرِ وتخطيطِ) مختلفِ مناطق الكرةِ الأرضيةِ فَقد ظَهرَتْ مِن جديدٍ مُشكِلةُ خَفاءِ تلك الأُمَّتَينِ العظيمتَينِ، وبدأت الشُّبهاتُ التي يُثيرُها أعداءُ الدِّينِ

حولَ يأجُوج ومأجُوج تأخُذ أبعادَها، وكَذَّبُوا بالنصوصِ القرآنيةِ بما لَدَيهِم مِن أدلَّةٍ ألبَسُوها – زُوراً – لِباسَ العِلْم والواقِع. أمّا المُسلِمونَ فقد ذَهبُوا إلى تأويلِ تلك النُّصوصِ لِتتماشَى مع الواقعِ العالَميِّ (المُشاهَدِ أو المحسُوس)؛ حتَّى يَضعُوا بذلك حَدًّا لتشكيكِ أعداءِ الإسلامِ فيهِ. وكان آخرُ ما نُشِرَ مِن آراءٍ حولَ يأجُوج ومأجُوج هو أنَّهُم أقوامٌ يعيشونَ في باطنِ الأرضِ، تلك الآراءُ أخذتْ مكانَها بِقوَّةٍ بعدَ أن ثبتَ التعتيمُ الأمريكيُّ العالَميُّ على منطقةِ القطبَينِ، وانتشرَت القَصَصُ والصُّوَرُ التي تُؤكِّد احتواءهُما على فتْحتَينِ كبيرتَينِ يُؤدِّيانِ إلى داخلِ الأرضِ المجوَّفة! وظهرَ جيلٌ يَرى أنَّ الرَّدْمَ الذي بناهُ ذُو القرنَينِ كان أُفقيًّا وليس رأسيًّا! وهذا لا يتعارضُ البتَّةَ مع القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ المُطهَّرة.

فيأجُوج ومأجُوج من البَشر؛ والدليلُ على ذلك هو حديثُ بَعْثِ النار الذي رواهُ البُخاريُّ ومسلمٌ، ولو لم يكونُوا من البَشرِ لَما تَرتَّبَ عليهِم عِقابٌ، ولو كانوا مِن الجِنِّ لَما مَنعهُم رَدْمُ ذِي القرنَين من الظُّهورِ عليه أو اختراقِه؛ لأنَّ الجِنَّ لا تحكمُهم الماديَّاتُ مِثل ما تحكُم البَشرَ. وهُم يَعرِفونَ اللهَ عزَّ وجلَّ؛ لكنَّ تلك المعرفةَ قد حُرِّفَتْ مع مُرورِ الزمنِ لدرجةٍ جَعلَتْهُم يُفسِدُونَ في الأرضِ بالشكلِ الذي يستدعي إقامةَ رَدْمٍ مَنيعٍ عليهم. وهُم مِن أبناءِ "يافثِ بنِ نُوحٍ" أبي التُّركِ؛ وذلك يجعلُهم في نَسَبٍ مُشتَركٍ مع المَغولِ والتَّتارِ في الخِلْقَةِ والصُّورةِ الجسديَّة، وربَّما يكونُ هذا يكونُ سببًا في الخَلْطِ بينهُما فظنَّ البعضُ أنَّهُما واحدٌ؛ لِتشابُه وَصفِهم الواردِ في الأحاديثِ النبويةِ، بينما يُثبِتُ الواقعُ أنَّهم ليسوا هُم "المَغول أو التَّتار" وإنْ كانوا ينحدِرُونَ مِثلَهُم من أصلٍ واحدٍ. إنَّهُم ليسوا مِثْلَنا في طريقةِ عيشِهم، أنَّهُم

يعيشونَ في باطنِ الأرضِ، ويخرجونُ على فتراتٍ من فتحةٍ كبيرةٍ يُغيرُونَ على مَن حولَهُم (قتْلاً وإفساداً) ثُمَّ يَعودُونَ فقامَ ذو القرنَين بِرَدْمِها، فلا ريبَ إذنْ في وُجودِها ! وأمَّا نظريةُ الأرضِ المجُوَّفةِ التي تُثيرُها فتحةُ القُطبَينِ فقد زادتْ من احتمالِ هذا الرأي لأسبابٍ منها :

١ – إنَّ وُجودَهُم في باطنِ الأرضِ يُفسِّر لنا سببَ عدمِ التفافِهم على رَدْمِ ذي القرنَين. فما الذي يمنعهُم من إيجادِ وسيلةٍ ما لِلخُروجِ بها من حِصارهم الذي قاربَ ٢٥٠٠ عامًا اللهُمَّ إلاّ إنْ كان هناكَ مانعٌ قد سلَّطَهُ اللهُ عليهِم لا نَعرِفُه؟

٢ – إنَّ وُجودَهُم في باطنِ الأرضِ بهذا الأسلوبِ الغريبِ، وانحرافَهم عن الفِطرةِ السليمةِ إلى الوحشيَّةِ والإفساد يُفسِّرُ لنا أنَّه لا يُشارِكُهم في هذه الصِّفةِ غيرُهم. ويُفسِّرُ لنا – أيضًا – عدمَ وُجودِ فتحةٍ أُخرى تُمكِّنُهم من الخُروجِ إلى سطحِ الأرض إلاّ تلك الفتحةُ التي رَدَمَها عليهِم ذُو القرنَين ب(الحديدِ والنّحاس) المُنصهِرِ وخَفِيَ على الناسِ مكانُها حتّى يومِنا هذا.

٢ – إنَّ وُجودَهُم في باطنِ الأرضِ كُلَّ هذه المُدَّةِ يُفسِّرُ لنا الوحشيةَ الزائدةَ والانتشارَ في أرجاءِ الأرضِ لِمَن سَيخْرُجُ منهُم في آخرِ الزمانِ كما أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ؛ وكأنَّهُم يُريدُونَ أن يَنتقِمُوا مِن سُكَّانِ الأرضِ؛ بل ومَن في السَّماء أيضًا!

٤ – إنَّ وُجودَهُم في باطنِ الأرضِ كُلَّ هذه المُدَّةِ يدلُّ على انقطاعِهم عن سُبُلِ التمدُّنِ وبقائِهم على هَمجيَّتِهم ووَحشيَّتِهم وطريقةِ حياتِهم نفْسها، وهي حالُ قبائلَ كثيرةٍ في (أفريقيّة وآسية وأمريكة الجنوبية) وغَيرِها حتّى يَومِنا هذا.

٥ – إنَّ أسلحةَ يأجُوج ومأجُوج هي (القِسيُّ والحِرابُ)، وهُم يَستخدِمُونها في حياتِهم اليوميةِ في باطنِ الأرضِ منذُ قُرونٍ؛ والدليلُ على ذلكَ قولُه صلى الله عليه وسلم: " سَيُوقِدُ المُسْلِمُونَ مِن قِسِيِّهِم وَنُشَّابِهِم وأتْرِسَتِهِم سَبْعَ سِنِين " . وهذا يدلُّ – أيضًا – على كَثرَتِها تناسُبًا مع كثرةِ أعدادِهِم.

٦ – قد يكونُ لِبُرودةِ الجوِّ في الأماكنِ التي يعيشونَ فيها أثرٌ، وكثرةُ الحركةِ تَمُدُّهُم بالدِّفءِ والحرارةِ.

٧ – لو كان أهلُ الصِّينِ وآسية معًا هُم يأجُوج ومأجُوج، فهل يملؤونَ الأرضَ كُلَّها إذا ما ماتُوا كما أخبرَ الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف سيقطعونَ كلَّ مسافاتِ الأرضِ مَرَّةً واحدةً؟ وكيف سيشربونَ بُحيرةَ طبريَّة بأكملِها؛ عِلْمًا بأنّ محيطَها حوالَي ٥٢ كم، وطولَها ٢١ كم، وعَرضَها ١٢ كم تقريبًا، وأقصى عُمقٍ فيها ٤٦ مترًا.

٨ – مِن المُحتمَلِ وُجودُ بَشرٍ آخرينَ يعيشونَ في باطنِ الأرضِ غيرِ يأجُوج ومأجُوج ولا يعلمُ ذلك إلاّ اللهُ علَّامُ الغُيوبِ.

لقد قدَّمتْ نظريةُ الأرضِ المجوَّفة حُلولاً أوسعَ وأكثرَ رَحابةً مِمَّا كان يُتوقَّعُ عن إمكانِ وُجودِ حياةٍ أُخرى في باطنِ الأرضِ، ولكنْ كيف؟ وما الصُّورةُ المحتملَةُ لِشَكلِ هذه الحياةِ؟ هل لهُم شمسٌ مَثلاً تحت الأرضِ؟ هل لهُم أرضٌ واحدةٌ مِن تحتِنا أمْ لهُم ستُّ أراضين.

للإجابةِ على ذلكَ سنذكرُ أوَّلاً بعضَ ما أوردَه المُؤرِّخُونَ والرَّحَّالةُ المسلمونَ؛ لأنَّهُم كانوا مِن أوائلِ مَن ضَربَ في الأرضِ لاستكشافِها ونَقْلِ أخبارِها:

١ – لقد وَصَفَ الشريفُ الإدريسيُّ (وُلد ٤٩٢ ه – ١١٠٠ م) – الجغرافيُّ الشهيرُ صاحبُ الخريطةِ التي قَدَّمَها لِـ "روجر الثاني" مَلِكِ صقلية – فتحةَ القُطبِ الشماليِّ بأنَّها تُؤدِّي إلى بلادِ يأجُوج ومأجُوج، وأنَها مُحاطةٌ بِ "جَبلِ قوقيا" الذي لا يُمكِنُ تسلُّقُه أو تخطِّيه فقالَ: "إنَّ جبلَ قوقيا الذي يحيطُ ببلادِ يأجُوج ومأجُوج هو جبلٌ قائمُ الجَنَباتِ، لا يُصعَدُ إلى شيءٍ مِنهُ البتَّةَ، وإنْ صُعِدَ لم يُتوصَّلْ إلى قِمَّتِه؛ لِكثرةِ الثلجِ المُنعقِدِ بهِ، وإنَّه لا يتحلَّلُ مِنهُ أبداً، وإنَّ أعلى هذا الجبلِ عليه شِبْهُ الضَّبابِ أبداً الدهر كلَّه لا ينجلي عنهُ ولا يزولُ مِنهُ! وخلفَ هذا الجبلِ من بلادِ يأجُوج ومأجُوج مُدُنٌ كثيرةٌ يمنعُ؛ أيّ: هذا الجبلُ أذاها من الترقِّي والصُّعودِ إلى أعلى الجبلِ. ولو رامَ أحدٌ الصعودَ إلى أعلاهُ ما أمكنَه ذلك في يومَينِ؛ بل يُمكِنُ في أكثرَ من ذلك، وربَّما تعلَّقَ بهذا الجبلِ النادرُ مِن النّاسِ؛ أيّ: القليل جداً مِن النَّاسِ) فيَرقى لِيَرى ما في أعلاهُ وما خلفَه فلا يرجعُ ! ولا يُمكِنُ رُجوعُه؛ إمّا لِعُدوانِ حيوانٍ عليه، أو لِقبْضِ الأُممِ التي خلفَ الجبلِ على مَن طَرأ عليهِم من سائرِ الأُمم. وربَّما رجعَ بالخَبرِ الشاذّ منهُم ليُخبرَ أنه رأى بالليلِ في تلك الأرضِ التي خلفَ الجبلِ نيرانًا كثيرةً ! وأمَّا بالنهارِ فلا يَرى إلَّا ضَباباً وسَراباً مُختلطًا مُتَّصِلاً.

وأمّا يأجُوج ومأجُوج فأرضُهم أسفلَ هذه الأرضِ؛ أيّ: تحتَ الأرضِ، وكُلُّهُم قِصارٌ جداً في نهاية القصرِ؛ حتَّى أنَّ طُولَ الرَّجُلِ منهُم لا يتجاوزُ ثلاثةَ أشبارٍ ! ونِساءهُم مِثلُ ذلك ! وأوجهَهُم مُستديرةٌ في غايةِ الاستدارةِ وعليهِم شِبْهُ الزَّغَبِ كثيرٌ جداً ! وآذانَهُم كِبارٌ مُستديرةٌ مسترخيةٌ؛ حتّى أنّ أُذنَ الرَّجُلِ مِنهُم إذا هي تعلَّقتْ تَلحَقُ طرفَ مَنْكِبِه !

٢ – حكى "ابنُ الورديِّ" (المُتوفَّى عام ٧٤٩هـ) وهو صاحبُ كتابِ "العجائب": "إنّ في داخلِ بلادِ يأجُوج ومأجُوج نهْرًا يُسمَّى "المشهور" لا يُعرَفُ له قَعرٌ، فإذا تقاتلُوا وأسرَ بعضُهم بَعضًا طرَحوا الأَسْرى في ذلك الوادي السَّحيق فيَرَونَ عند ذلك طُيورًا عِظامًا تخرجُ إلى مَن يُطرَحُ مِنهُم من كُهوفٍ في جَنبَتَي الوادي فتختطفُهم قبلَ أن يَصِلُوا إلى آخرِه فترتفعَ بهِم إلى تلكَ الكُهوفِ فتأكلَ جُسومَهم!

ويُقالُ: إنَّ في أسفلِ هذا الوادي نارًا تتأجَّج مع الأزمانِ ! والجبالُ المحيطةُ بهِم اسمُها "فزنان" . ثمَّ قال: وذكرَ بعضُ أهلِ العِلْم أنَّ يأجُوج ومأجُوج يُرزَقُونَ التِّنِّينَ، يقذفُه عليهِم السَّحابُ فيأكلُونَه !؛ وإنَّما يُقذَفُ عليهِم ذلك في أيَّام الربيعِ في كُلِّ عامٍ فإذا تأخَّر ذلك عن وَقْتِه المعهودِ استمطَرُوه؛ أيّ: دَعوا وابتهَلُوا لهُ) كما يستمطِرُ الناسُ الغَيثَ.

٣ – ذكر "شهابُ الدِّين النُّويريُّ" في كتابهِ (نهاية الأرَب في فُنونِ الأدب) أنّ طُولَ الأرضِ من أقصى المشرِق إلى أقصى المغرِب نحو أربعمائة مَرحلَة. وأنَّ عَرْضَها من حيث العمرانُ الذي من جهةِ الشمال وهو مساكنُ يأجُوج ومأجُوج إلى حيث العمران من جهةِ الجنوب وهو مساكنُ السودانِ مائتان وعشرون مرحلة. وما بينَ براري يأجُوج ومأجُوج والبحرِ المحيطِ في الجنوبِ خرابٌ ليس فيه عمارةٌ.

٤ – أمَّا الفلكيُّ الإنجليزيّ "إدموند هالي" Edmond Halley – ١٦٩٢ مُكتشِفُ مُذنَّب هالي فقد توصَّلَ من دراستِه لِلمَجالِ المغناطيسيِّ الأرضيِّ إلى أنَّ هناك ثلاثَ طبقاتٍ تحت أرضِنا بحَجْمِ الكواكبِ الصغيرةِ ولكُلٍّ منها حركتُها

الدائريةُ الخاصَّةُ بِها، ولكلٍّ طبقةٍ منها مجالُها الجويُّ. وقد ربطَ هالي ذلك ببعضِ مظاهرِ الانحرافِ المغناطيسيِّ وأضواءِ الشفقِ القُطبيِّ.

٥ – أمّا العالِمُ الرِّياضيُّ السويسريُّ "ليونارد يولر" ١٧٠٧ – Leonhard Eule فقَد طوَّرَ نظريةَ هالي إلى فراغٍ واحدٍ كبيرٍ في جوفِ الأرضِ به شمسٌ كبيرةٌ قُطرُها حوالي ١٠٠٠ كم تُنيرُ حياةَ مَن يعيشُ بداخلِها وتبعثُ فيهِم الدِّفءَ !

إنَّ القائلينَ بِوُجودِ حياةٍ داخلَ الأرضِ المجُوَّفةِ ووُجودِ مَخلُوقاتٍ لا يقولونَ بتَمركُزِ الجاذبيةِ الأرضيةِ في نواةِ كوكبِنا؛ بل في قِشرةِ الأرضِ التي نعيشُ عليها، وتجذبهُم مِثلَما تجذبُنا نحنُ تمامًا، ولهُم سماءٌ مُمتَّدةٌ حتَّى شمسهم في مركزِ الأرضِ أو في الخطِّ العموديِّ الضَّبابيِّ الواصلِ بين فتحتَي القُطبَين كما جاء في كتاب "إلى الضَّباب – رحلةٌ إلى العالَم الداخليِّ للمؤلِّف "ويليس ايمرسن" عن مشاهداتِ البحَّار "يانسن أولاف".

وحتَّى تتخيَّلَ سَبْعَ طِباقٍ مِن الأرضين نحنُ أوّلها وستَّة بالداخل تَدبَّرْ قولَه تعالى في الآية ١٢ من سُورةِ الطَّلاقِ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

وقولَ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم: "مَن ظَلَمَ قيْدَ شِبْرٍ طُوِّقَهُ مِن سَبْعِ أرضين"(١)

وقولَه عليه الصلاةُ والسلامُ: " مَن أخذَ شيئًا مِنَ الأرضِ بِغَيرِ حَقِّه خُسِفَ به يومَ القيامةِ إلى سَبْعِ أرضين". وتشتركُ كُلٌّ من الأرضين السبْعِ في فتحاتِ القُطبَينِ

١) رواهُ البُخاريُّ وأحمدُ.

(الشماليّ والجنوبيّ) وأمَّا المسافاتُ التي بينَها وبين السماواتِ الضَّبابيةِ فهي شاسعةٌ جِدًّا بالنسبةِ لحِجْمِ الأرضِ الهائلِ! وقد وَردتْ في العديدِ من النصوصِ والرِّواياتِ أنَّ في جوفِ الأرضِ مخلوقاتٍ عِملاقةً، وهو ما كان يعتقدُه "هتلر" عن أصلِ الألمانِ أنَّهُم جِنسٌ مُمَيَّزٌ أتى من تحت الأرضِ! ولقد كرَّسَ القائد العسكريّ "جون كليف سميث" من مواليد ١٧٨٠م حياته لإثباتِ حقيقةِ الأرضِ المجُوَّفة؛ فقامَ برحلةٍ شهيرةٍ إلى القُطبِ الشماليِّ وصلَ فيها إلى فتحةِ منفذِه، وحكى عن غرائبَ عالَمِ ما تحتَ الأرضِ، ومِن هُنا نُسِبَتْ فتحةُ القطبِ الشماليِّ إليه. وقد تأثَّرَ به الرئيسُ السادسُ للولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ "جون كوينسي آدامز" (١٨٢٥ – ١٨٢٩م) لدرجةِ أنَّه عَزَمَ على تمويلِ رحلةٍ أُخرى لِ "جون سميث" إلى القطبِ الجنوبيّ؛ ولكنْ توقَّفَ كلُّ شيءٍ في اللحظاتِ الأخيرةِ.

من غرائبِ القُطبِ الشماليّ: الأنهارُ الجليديةُ العذبةُ. الرِّياحُ الدافئةُ. هجرةُ بعضِ الكائناتِ الحيَّةِ إليه في الشتاءِ طلبًا للدفءِ بَدلاً من الابتعادِ عنه كما هو متوقَّعٌ. الأشجارُ الاستوائيةُ العملاقةُ في السواحلِ المحيطةِ به. اختلالُ بَوصلةِ الشمالِ المغناطيسيِّ وانقلابُها. الشفقُ القُطبيُّ الذي يُضيءُ الليلَ. امتدادُ خُطوطِ المجالِ المغناطيسيِّ الأرضيّ من فتحةِ القطبِ الجنوبيِّ إلى فتحةِ القطبِ الشماليِّ. انتشارُ الكثيرِ من النباتاتِ والأزهارِ وحُبوبِ اللقاحِ على سواحلِه. تَدفُّقِ السَّحابِ والرِّياحِ إلى فتحةِ القطبِ. وُجودُ أعدادٍ من جُثَثِ فيلِ الماموثِ على السواحلِ القريبةِ.

الأرضُ المجُوَّفة: hollow Earth

* طِبقًا لهذه النظريةِ فإنَّنا وجميعَ الكائناتِ الحيَّةِ نعيشُ على السطحِ الداخليِّ المُقعَّرِ للأرضِ ! وأنَّ الكونَ مُحتوى داخلَ أرضِنا وليس خارِجَها ! وقد ألَّفَ الكثيرُ من الكُتَّابِ والعُلماءِ الألمانِ كُتبًا تتحدَّثُ عن هذه النظريةِ، واقتنعَ بها "هتلر" لدرجةٍ جَعلَتْه يُرسِلُ العلماءَ إلى إحدى الجُزُرِ المواجِهةِ لبريطانية لِوَضْعِ تلسكوب مُزوَّدٍ بكاميرا وتوجيهِه عموديًا إلى السماءِ؛ لتصوير المَواقعِ البريطانية والتجسُّسِ عليها. وقد وضع د. مصطفى عبد القادر أحدُ علماءِ الرِّياضيَّاتِ المِصريِّين عِدَّةَ نماذجَ للأرضِ المجوَّفةِ فكانتَ قريبةً من الواقعِ.

* والأرضُ ليستْ إلاَّ كوكبٌ صغيرٌ لا يُمكِنُ مقارنتُه بالنجومِ والكواكبِ العِملاقةِ، أمّا نظريةُ الأرضِ المجوَّفةِ فتفترضُ أنّ الأرضَ لا تقلُّ شأنًا عنها؛ بل وتحتويها بداخلِها ! ويُؤيِّدُ ذلك القُرآنُ الكريمُ؛ حيث يذكرُ الأرضَ دَومًا مقرونةً بالسَّماواتِ وكأنَّهُما متقاربتانِ من حيثُ الأهمِّيَّةُ والحجْمُ؛ ففي الآيةِ ١٢٢ من سُورةِ آل عِمران: (**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**). وفي الآية ٢٢ من سُورة الرَّحمن: (**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**). فلماذا يَذكرُ اللّهُ تعالى الأرضَ مقرونةً بالسماواتِ إذا كانت صغيرةً جدًّا كما تُخبِرُنا النظريَّاتُ العِلميَّةُ الحديثةُ؟

* ذكرَ صاحبُ كتابِ "بدائع الزّهور في وقائع الدّهور" أنّ في بلادِ "سَمَرقَنْد: جبلاً فيه مغارةٌ يدخلُها الناسُ، ويمشونَ تحتَ الأرضِ فيَجِدُونَ سماءً قد ظهرتْ لهُم، وفي

ذلك المكانِ بُحيرةٌ عَذْبَةُ الماءِ، وحولَ تلك البُحيرةِ أُناسٌ قاطِنونَ. وفي أرضِ "خرخيز" أربعةُ أوديةٍ تجْري وتَصبُّ في وادٍ عظيمٍ يشرعُ فيما بين جبالٍ وأغوارٍ مُظلِمةٍ. وحُكِيَ أنَّ رَجُلاً رَكِبَ قاربًا، وأرسلَه في ذلك الوادي فسارَ به ثلاثةَ أيَّامٍ في ظَلامٍ لم يَرَ شمسًا ولا كوكبًا ولا ضَوءًا، ثمَّ خَلُصَ بعدَ ذلك إلى ضِياءٍ وفَضاءٍ فخَرجَ من القاربِ فسَمِعَ وَقْعَ حَوافِرَ دوابَّ فارتقَى إلى شَجرةٍ ينتظرُ الحالَ فإذا هو بِثلاثةٍ من الفُرسانِ طُولُ كُلِّ واحدٍ منهُم قيدَ رُمْحٍ طويلٍ وإذا معهُم كِلابٌ في عِظَمِ البقرةِ؛ فلمَّا قربُوا منهُ ورأوهُ ترحَّمُوا عليه، وأنزَلَهُ أحدُهُم وأخذَهُ على دابَّتِه وسَتَرَهُ عن الكِلابِ خَوفًا أن تَفتَرِسَه، وأتَوا بهِ مَوضِعَ رِحالِهم فألقَوه فوقَ ظَهْرِ خيمةٍ عظيمةٍ وأطعمُوه من طعامِهم وجعلُوا يتعجَّبُونَ منهُ؛ كأنَّهُم لم يَرَوا مِثْلَهُ، ثُمَّ احتمَلَهُ بعضُهُم وأتَى به إلى قُرْبِ مَوضِعِه، وأرشدَه الطريقَ حتَّى رجعَ إلى مَوضعِ دِيارِه، وأخبرَهُم بما رأى ولا يَعرِفُ أحدٌ ممَّن كان هؤلاءِ، وأيّ جِنسٍ هُم من الناسِ.

* وَردَ في كتاب "المسالِك والممالِك" أنَّه بأقصى شمالِ بلادِ التُّركِ نهرًا عظيمًا يدخلُ في نقبِ جبلٍ عظيمٍ لا يَدري أحدٌ أينَ مخرجُ ذلك الماءِ وأينَ مَصبُّه، وأنّ رَجُلاً منهُم اتَّخذَ ضِغْثًا ودَخَلَ في زِقٍّ عظيمٍ، وأمرَ أن يَنفُخَ فيهِ، واستوثقَ من رأسِه، ثمَّ شدَّ الزِّقَّ على الضِّغْثِ، وطرح في الماء وقالوا أنه غاصَ يومَين أو ثلاثةً، ثمَّ خرجَ ببسيطٍ من الأرضِ فلمَّا أحسَّ بِضَوءِ النهارِ شَقَّ عنه الزِّقَّ فإذا هو بأرضٍ ذاتِ شَجَرٍ وحيوانٍ لم يُرَ مِثلُها في طُولِها وعَرضِها وعِظَمِها وناسٌ طِوالُ القاماتِ عِراضُ الأجسامِ على دوابّ عِظامٍ فلمَّا بَصرُوا بهِ جَعلُوا يَضْحكُونَ تعجُّبًا منهُ ومِن خِلْقَتِه وجِسمِه فلا نَدري مِن أيِّ طريقٍ عاد إلى بلادِه وأخبرَهُم بالخَبرِ.

* والناسُ الذينَ يسكُنونَ بينَ طِباقِ الأرضينِ السَّبْع يَرَونَ سماءً مِثلَ سماءنا ذات أفقٍ عظيمٍ، وأكثر وقتِها ملبَّدة بالغيومِ والضَّبابِ كما وَصَفَ ذلك البحَّارُ "ويليس ج. أيمرسن" الذي دخلَ إلى جَوفِ الأرضِ عن طريقِ فتحةِ القُطبِ الشماليِّ فقال: أنَّ سمائهُم تبدوا طبيعيّةً تمامًا ودَومًا ما تكونُ ملبَّدةً بالغُيومِ والضَّباب، والشفقُ القُطبيُّ مُنتشرٌ فيها بالليلِ، وشمسُهُم تُشرِقُ وتغيبُ عن أرضِهم ولا أعلمُ إلى أين تغيبُ. وتبدو شمسُهم صفراءَ مِثلَ شمسِنا؛ إلاّ أنَّها أصغرُ مِنها بكثيرٍ، وحرارتُها أخفُّ مِن حَرارةِ شمسِنا.

* ولكلٍّ مِن الساكنِينَ فيما بين طِباقِ الأرضين أرضٌ يستقرُّونَ عليها، فإذا نَظرُوا فوقَهُم نحوَ أُفقِ السماءِ رأوا سماءً ذاتَ ضوءٍ وضياءٍ مِثل سمائنا ملبَّدةً بالضَّبابِ والغيومِ، فإذا ما انقشعَ الغيمُ وصار الجوُّ صَحواً رأوا سماءً خضراءَ بُنِّيَّةً وخضارها من خُضرةِ نباتِ الأرضِ التي تُقابلُهُم مِن فوقِهم، وربَّما رأوها زرقاءَ إذا كان فوقَهم محيطٌ أو بحرٌ عظيمٌ، وربَّما رأوها بيضاءَ إذا كان على سطحِ الأرضِ التي فوقَهُم غيمٌ. وأنَّ السماءَ التي يَرَونَها فوقَهُم يستقرُّ عليها أُمَمٌ كثيرةٌ من البَشرِ والحيواناتِ والكائناتِ الحيَّةِ والغاباتِ والبحارِ والمُحيطاتِ مِثلَما يُوجَدُ بالجِهةِ المُقابلةِ تماماً.

* والمَوقِعُ الذي اجتمعَ فيه ذُو القرنَين مع القومِ الذين كادُوا لا يفقهونَ قولاً في جوفِ الأرضِ كان على القِشرةِ الأرضيَّة الخامسةِ إذا كانت قِشرتُنا السابعةُ، أو على القِشرةِ الثالثةِ إذا كانت قِشْرَتنا الأولى واللهُ تعالى أعلى وأعلُم.

* يؤمن الأستاذُ الدكتور "زغلول النجار" بوجودِ سبع أرضين؛ لقولِ الحقِّ سُبحانَه وتعالى في الآية ١٢ من سُورة الطلاقِ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ

مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا). فالسماواتُ والأرضون فوقَ بعضِهنَّ البعضِ، وبين كلِّ سماءٍ وسَماءٍ أرضٌ. وجاء في تفسير الصَّنعاني "إنَّ في كلِّ سماءٍ وفي كلِّ أرضٍ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، وأمرٌ مِن أمرِه، وقضاءٌ مِن قضائِه. والرسولُ صلى الله عليه وسلم يقولُ: " مَنْ أخَذَ مِنَ الأرْضِ شَيئًا بِغَيرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يومَ القيامةِ إلى سَبْعِ أرضين ". فالخسفُ هو أنْ يهوى بالمخلوقِ من أرضِنا إلى الأرضِ السابعةِ التي بمركزِ الأرض. وهذا يدلُّ على أنَّ الأرضين في كُرَتِنا الأرضيَّة بينَها سماواتٌ(١).

* وَردَ في التقاريرِ العلميةِ أنَّ الأرضَ مُجوَّفةٌ من الداخلِ، وأنّ مركزَ جاذبيَّتِها ليس في قاعِها؛ ولكنْ في مُنتصَفِ طبقتِها الرئيسةِ، وعلى هذا فإنّ الجاذبيَّةَ تعملُ على سطحَي الطبقةِ في آنٍ واحدٍ؛ فالذينَ هُمْ في داخلِ الأرضِ لا يَسقُطونَ في جَوفِها إنّما يمشونَ عليها كما يَمشي مَن هو في خارجِها. وقد يكونُ هذا التجويفُ قد حدثَ من جرَّاءِ الانفجارِ الكونيِّ العظيمِ؛ بل رجَّحَ عُلماءُ الفيزياءِ أنْ يكون كوكبُنا مُجوَّفًا، وبِجَوفِه كوكبٌ آخرُ مُجوَّفٌ أصغرُ مِنهُ، وبِجَوفِه كوكبٌ آخرُ مُجوَّفٌ وهذا مِن جرَّاءِ تردُّداتِ الانفجارِ الكونيِّ العظيمِ الذي أنشأ عوالِمَ متوازيةً بداخلِ بعضِها البعضِ خلقَها اللهُ سُبحانَه وتعالى بِقُدرَتِه، وأطلقَ عليها العُلماءُ اسمَ "أبعادِ تردُّداتِ الانفجارِ الكبيرِ".

* وذَكَرَ أنّ ذا القرنَين اتْبَعَ سَبَبًا بعدَ مَغرِبِ الشَّمسِ فَوصلَ إلى القُطبِ الشماليِّ للأرضِ، ووَجدَ أنَّ الشمسَ هُناكَ لا تغربُ فأصبحَ مَطلعًا للشمسِ. ثُمَّ اتْبَعَ سَبَبًا

١) تفسير الصَّنعاني(ج ٢/ص٢٩٩).

واللهُ أعلمُ أنَّه اتَّخَذَ منفذَ القُطبِ الشماليِّ فَوجدَ قومًا لا يكادُونَ يَفقَهُونَ قولاً؛ أيّ: أنَّهُم لا يعلمونَ لُغةً يتخاطَبُونَ بها مع البَشرِ على سطحِ الأرضِ، وبعدَ جَهْدِ المُترجمين استطاعَ أن يفهمَ أنَّ قبائلَ يأجُوج ومأجُوج تنفذُ إليهِم على أرضِهم الخامسةِ أو السادسةِ وهُمْ مُفسِدُونَ وبأعدادٍ هائلةٍ، فقالوا: يا ذا القرنَين اجْعلَ لنا على مَنْفَذِهِم سَدًّا كي لا يَصِلُونَ إلينا... القِصَّة.

* ولقد أخطأ مَن قالَ أنّ باطنَ الأرضِ كُلِّها نارٌ تلظَّى وجِمَمٌ مُنصَهِرَةٌ؛ فالعقلُ لا يقبلُ ذلك.

نحنُ لا نُنْكِرُ أنّ في القشرةِ الأرضيَّة نيرانَ وبراكينَ؛ ولكنَّنا نُنكِرُ أنَّ جَوفَ الأرضِ كُلَّهُ نيران تتوقَّد، فلماذا لا تأكُلُ القشرةَ الأرضية ولا تبخِّرُ مياهَ البحارِ والمحيطاتِ؟

* أمَّا العَينُ الحَمِئةُ فهي فَجْوةُ القطبِ الجنوبيّ واللهُ تعالى أعلمُ؛ حيث أنَّ الشمسَ تظهرُ غاربةً وسطَ عَينِ الفجْوةِ وتُحيطُ بها الأبخرةُ، وتتدفَّقُ فيها مياهُ المحيطاتِ.

* وتدلُّ الآياتُ الكريمةُ على أنَّ الأرضَ كوكبٌ متكاملٌ بطبقاتِه السبْعِ أو أرضيهِ السَّبْعِ (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) (طه: ٥٥). (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) (نُوح: ١٧ – ١٨) (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) (غافر: ٦٤). (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (الطَّلاق: ١٢). وكذلك قولُه **صلى الله عليه وسلم**: "... مَا أَنْتُمْ فِي الأُمَمِ إِلاّ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي

جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ..." . فكيف نكونُ كشعرةٍ بين الأُممَ وعددُنا تقريبًا ثُلثَ سُكَّانِ الأرض؟ لكنْ بعدَ ظُهورِ نظريةِ الأرضِ المجوَّفةِ وأنّ هُنالِكَ ستَّة أرضين أُخرى داخلَ كوكبِنا وعليها أُممٌ كثيرةٌ لا يَعلُمُها إلاّ اللهُ عزَّ وجلَّ تكون الصورةُ قد بدأتْ في الوضوحِ. فمِن المُحتمَلِ أن تكونَ السماواتُ داخلَ تجويفِ السماءِ الدُّنيا، وقد أخطأَ الباحثونَ بِفَصلِ كلِّ سماءٍ عن كلِّ طبقةٍ واللهُ أعلم.

* ثمَّ إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ خَلَقَ ما لا نعلمُ من أنواعِ المخلوقاتِ، وجعلَ طريقةَ التنفُّسِ تختلفُ من مخلوقٍ إلى آخرَ. وكلّ كائنٍ حيٍّ على سطحِ الأرضِ أو في داخلِها خُلِقَ لِيتناسبَ مع طبيعتِه ونمطِ حياتِه. وقد يكون هناكَ أنظمةٌ أُخرى لِلتنفُّسِ أوجدَها العليمُ القديرُ للمخلوقاتِ التي تعيشُ في جوفِ الأرضِ، وجعلَ لذلكَ مصادرَ خاصَّةً.

*وللأرضِ بوَّابتان: البوابةُ الشمالية وتُوجدُ في مُنتهى أطرافِ الأرض شمالاً والبوَّابةُ الجنوبية وتُوجدُ في منتهى أطرافِ الأرض جنوبًا، وبناءً على ذلك فإنَّ لها مَشرِقَين ومغرِبَين، فإذا ما غابتِ الشمسُ عن البوَّابةِ الجنوبيةِ أشرقَت عليها من البوَّابةِ الشماليةِ، وإذا ما غابتِ عن الشماليةِ أشرقَت عليها من الجنوبيّة. وأطولُ مسافةٍ في الأرضِ هي بين هاتَين البوَّابتَين؛ لذلك يقولُ الإنسانُ لِقرينِه الشيطانِ يومَ القيامةِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (الزخرف: ٣٨).

ورَدْمُ ذي القرنَين يقعُ بين السَّدَّينِ؛ أيّ: بين نِصفَي الكرةِ الأرضيةِ، وسمَّاهُم السَّدَّينِ؛ لأنّ كُلاًّ منهُما يَسدُّ

على الآخر ضوءَ الشمسِ فيكون نِصفُه مُظلمًا والنصفُ الآخرُ مُضيئًا، والرَّدْمُ يقعُ بينهُما في مَضيقٍ في التجويفِ الأرضيِّ؛ حيث أنّ يأجُوج ومأجُوج من جهةٍ والعالَم من جهةٍ أُخرى. وأمّا ظاهرُ الأرضِ فليس لها إلَّا مَشرِقٌ ومَغرِبٌ.

* ووَردَ في الحديثِ الشريفِ الذي رواه الإمامُ التِّرمذيّ أنّ سِمْكَ كُلِّ سَماءٍ مَسيرَة خمسمائةِ عامٍ، وبُعدَ ما بينَها وبينَ التي تليها مَسيرَة خمسمائةِ عامٍ[1]. وفي قولِه عزَّ وجلَّ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ (طه: ٦) قال مُحمَّد بنُ كعبٍ؛ أيّ: ما تحتَ السابعة. وقال "الأوزاعيُّ" أنَّ كعبًا سُئِلَ ما تحتَ هذه الأرضِ؟ قال: الماءُ. قيلَ: وما تحتَ الماءِ؟ قال: الأرضُ. قيلَ: وما تحتَ الأرضِ؟ قالَ: الماءُ. قيلَ: وما تحتَ الماءِ؟ قالَ: الأرضُ. قيلَ: وما تحتَ الأرض؟ قالَ: الماءُ. قيلَ: وما تحتَ الماءِ؟ قالَ: الأرضُ. قيلَ: وما تحتَ الأرضِ؟ قالَ: الماءُ. قيلَ: وما تحتَ الماءَ؟ قالَ: الأرضُ. قيلَ: وما تحتَ الأرضِ؟ قالَ: صَخْرةٌ. قيلَ: وما تحتَ الصَّخرةِ؟ قالَ: ملك. قيلَ: وما تحتَ الملك؟ قالَ: حُوتٌ مُعلَّقٌ طَرفاهُ بالعَرْشِ. قيلَ: وما تحتَ الحُوتِ؟ قالَ: الهواءُ والظُّلْمَةُ وانقطعَ العِلْمُ.

وعن جابرِ بنِ عبْدِ اللهِ قال كُنتُ مع رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في غزوةِ تبوك إذْ عارضَنا رَجُلٌ مُترَجِّبٌ – يَعني طويلٌ – فَدنا مِن النبيِّ صلى الله عليه وسلم فأخذَ بِخُطامِ راحلتِه فقالَ: أنتَ مُحمَّد قالَ: نعمْ. قالَ: إني أُريدُ أن أسألَكَ عن خِصالٍ

[1] الجامع الكبير: التِّرمذيّ (٢٢٩٨).

لا يعلمُها أحدٌ مِن أهلِ الأرضِ إلَّا رَجُلٌ أو رَجُلانِ. فقالَ: سَلْ عمَّا شِئْتَ. قالَ: يا مُحمَّدُ ما تحتَ هذه؟ يعنى الأرضَ. قالَ: خَلْقٌ. قالَ: فما تحتهُم؟ قالَ: أرضٌ. قالَ: فما تحتَها؟ قالَ: خَلْقٌ. قالَ: فما تحتهُم؟ قالَ: أرضٌ حتّى انتهى إلى السابعةِ(١).

* ولا يُمكِنُ معرفةُ زمنِ خُروجِ يأجُوج ومأجُوج أو زمنِ خُروجِ الدَّجَّالِ أو خُروجِ الدابَّةِ في آخرِ الزمانِ؛ لأنَّ ذلك لو حدثَ – معناه – أنّ المواعيدَ التي كتبَها اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابِه العزيزِ كانت قابلةً للتغيُّرِ، وهذا لا يصحُّ الاعتقادُ بهِ. فهِي من الغَيبِ ولا يُمكِنُ الوصولُ إليه حتَّى ينكشفَ ذلك الحِجابُ (الزمنيُّ أو المكانيّ)؛ فالرَّسولُ صلى الله عليه وسلم لَمَّا سُئِلَ عن الساعةِ قالَ: ما المسؤولُ عنها بأعلَمَ مِن السائلِ.

* أفادت بعثةٌ أستراليةٌ إلى المنطقةِ القُطبيةِ الجنوبيةِ أنَّه تمَّ اكتشافُ أنواعٍ جديدةٍ وغامضةٍ من المخلوقاتِ لم تَكُنْ معروفةً من قَبْلُ لِعُلماءِ الأحياءِ. وقالت أنّها تمَكَّنَتْ من جَمْعِ عَيِّناتٍ لِقشرِيَّاتٍ ضخمةٍ وعَناكِبَ بحريَّةٍ عِملاقةٍ وأنواعٍ كبيرةٍ من الدِّيدانِ على عمقِ ١٩٠٠ م تحت سطحِ البحرِ.

وفي فبراير عام ٢٠٠٤ م اكتشفَ باحثونَ أمريكيُّونَ سُلالتَينِ جديدتَينِ من الديناصوراتِ؛ إحداهُما سريعةُ الحركةِ آكلةٌ للُّحوم، والأُخرى عِملاقةٌ آكلةٌ للنباتاتِ، وعُثِرَ على حَفْريَّاتِهما في موقِعَين بعِيدَين عن بعضِهما البعضِ، وهُناك احتمالٌ كبيرٌ أن تكونَ تلك الكائناتُ العِملاقةُ قد خرجتْ من مَنفذِ القُطبِ الجنوبيِّ للأرضِ.

---

١) الدُّرُّ المنثور: (ج ٤ /ص٢٩٠).

لمسات بيانية

(قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا) قَدَّمَ عذابَ الدُّنيا على عذابِ الآخِرةِ؛ لأنّ عذابَ الدُّنيا مُتقدِّمٌ على عذابِ الله تعالى في الآخِرة.

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى) لـمْ يَـقُلْ سأُجازيه وإنَّما قال (وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) فقولُ: جَزاكَ اللهُ خيراً ليسَ جَزاءً. فَذكَر جزاءَ الآخرةِ ولـمْ يذكُرْ جَزاءهُ؛ لأنَّ الإيمانَ والعملَ جزاؤهُ في الجنَّة، أمَّا الظُّلْمُ فينبغي أن يُحاسَبَ عليه في الدُّنيا، ثُمَّ يُعاقِبَه سُبحانَه في الآخرةِ إذا لـمْ يَستوفِ العذابَ في الدُّنيا. وذُو القرنَينِ ليس مُكلَّفًا بمُجازاةِ المُؤمنِ؛ لكنَّه مُكلَّفٌ بعقابِ الظَّالِم.

في القُرآنِ الكريم كُلمةُ "سَوفَ" أكثرُ تأكيداً مِن السِّين، وكِلاهُما يَدلَّانِ على المستقبَل. (فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ)؛ أيّ: لا بُدَّ وأن يُعاقَبَ. هَذه لُغةُ العَرَب، وهكذا كانُوا يفهمُونَها.

في النحْو "الفاءُ" تُفيدُ الترتيبَ والتعقيبَ، و"ثُمَّ" تُفيدُ الترتيبَ والتراخي.

(فَأَتْبَعَ سَبَبًا) لـمْ يُذْكَرْ قبلَ هَذهِ الآية أنَّ ذِي القرنَينِ كان في مَهمَّةٍ مُعيَّنة؛ وإنَّما جاءَ قبلَها: (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا). أمَّا (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) فقَد حَصلَتْ بعدَ أن ساقَ ذُو القرنَينِ حَملةً إلى مَغرِب الشمسِ، وحَملةً أُخرَى إلى مَطلِع الشمسِ، وحَملةً أُخرى إلى ما بينَ السَّدَّينِ، وهذه الحَملاتُ تأتي الواحدةُ بعدَ الأُخرى بمُدَّةٍ وزَمَنٍ.

الحِوارُ في نبأِ اللهِ... ذُو القرنَين: فَوَّضَ اللهُ تعالى ذَا القرنَينِ أمرَ الفصلِ في أولئكَ القومِ الذين لا نَدري ما كانَ مِن حالِهم، بينَ خيارَينِ تاركًا له حُرِّيَّةَ التصرُّفِ بمُقتضاهُما:

– اللهُ سُبحانَه وتعالى: (**يا ذا القرنَينِ إمّا أن تُعَذِّبَ وإمّا أن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**).

– ذُو القرنَين: (**أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**).

هذا الموقفُ الحِواريُّ أتاحَ لنا التعرُّفَ على أسمى مظاهِرِ فَضْلِ اللهِ وكَرمِه على هذا الرَّجُلِ المُخلِصِ لِرَبِّه، الذي أمدَّهُ بأسبابِ التمكينِ في الأرضِ بُغْيَةَ (فِعْلِ الخَيرِ، وإحقاقِ الحقِّ، ورَفْعِ الظُّلْمِ، ونَشْرِ العقيدةِ، وتحكيمِ شريعةِ الخالقِ بين العِباد). وأبانَ كذلك مَدى ثِقَةِ اللهِ بِمَنْ تَوفّرَت لَدَيهِم مِثل هذه النِّيَّاتِ والعزائمِ القويّةِ، وأكّدَ إيمانَ ذِي القرنَينِ ويقينَه المُطلَق بِرَبِّه على تحقيقِ إرادتِه.

إعراب الآيات الكريمة[1]

(ويسألونك عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سأتلو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا) (٨٢).

(**وَيَسْأَلُونَكَ**) الواوُ استئنافيّةٌ، يسألونَ: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ وعلامةُ الرفْع ثبوتُ النونِ، الواوُ: ضميرٌ في محلِّ رَفْعِ فاعلٍ، الكافُ: ضميرٌ في محلِّ نَصبِ مفعولٍ به.

[1] مرجع سابق، الطيب.

(عَن ذِي) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ ب (يسألونك) وعلامةُ جرّهِ الياءُ؛ لأنَّه من الأسماءِ الخمسةِ. (**القَرنَينِ**) مضافٌ إليهِ وعلامةُ جرِّه الياء. (**قُلْ**) فعلُ أمرٍ مبنيٌّ على السكون والفاعلُ ضميرٌ مُستترٌ تقديرُه أنتَ. (**سأَتْلُو**) السينُ: للاستقبالِ، أتْلُو: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ وعلامة رَفْعِه الضمَّةُ المقدَّرة على الواو للثقلِ، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرُه أنا. (**عَلَيكُمْ**) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقان ب (أتلو). (**مِنهُ**) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ بحالٍ من (**ذِكْرًا**). (**ذِكْرًا**) مفعولٌ بهِ ل (**أَتْلُو**). جُملةُ (**يَسْأَلُونَكَ**) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملةُ (**قُل**) لا محلَّ لها استئنافٌ بيانيٌّ. جُملةُ (**سأَتْلُو**) في محلِّ نصبِ مقولِ (قُل).

(**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**) (٨٤).

(**إنّا**) إنّ: حرفُ توكيدٍ ونصبٍ، (نا) المحذوفة نونُها تخفيفًا اسمُها. (**مَكَّنّا**) مَكّنَ: فعلٌ ماضٍ مبني على السكونِ، (نا) المُدغَمةُ فاعلٌ. (لَهُ في الأرضِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (**مَكَّنّا**). (**وآتَيناهُ**) الواوُ: حرفُ عطفٍ، آتي: فعلٌ ماضٍ مبني على السكونِ، (نا) ضميرٌ في محلِّ رفْع فاعلٍ، الهاءُ: مفعولٌ به. (مِن كُلِّ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ ب حال مِن (**سَبَبًا**). (شَيءٍ) مُضافٌ إليه. (سَبَبًا) مفعولٌ به ثانٍ. جُملةُ (إنّا مَكَّنّا) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملةُ (مَكَّنّا) في محلِّ رَفْعِ خبرِ إنّ. جُملةُ (آتَينا) في محلِّ رفْعٍ معطوفةٌ على جُملة (مَكَّنّا).

(**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**) (٨٥).

(**فَأَتْبَعَ**) الفاءُ: حرفُ عطفٍ، أتبعَ: فعلٌ ماضٍ مبني على الفتح، والفاعلُ ضميرٌ تقديرُه هو. (سَبَبًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. جُملةُ (أتْبَعَ) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملةِ (إنّا مَكَّنّا).

(**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا**) (٨٦)

(حتَّى) للابتداءِ. (إذا) ظرفٌ مستقبلٌ متضمِّنٌ معنى الشرطِ. (بَلَغَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتحِ، والفاعلُ هو. (مَغْرِبَ) مفعولٌ به. (الشمسِ) مضافٌ إليه. (وَجَدَها) وَجَدَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتح، الفاعلُ هو، (ها) ضميرٌ في محلِّ نصب مفعولٍ به. (تَغْرُبُ) فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، والفاعلُ هي. (في عَينٍ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ ب(تَغرُبُ). (حَمِئَةٍ) نَعْتٌ لِ(عَين). (وَوَجَدَ) الواوُ: حرفُ عطفٍ، وَجَدَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، الفاعلُ هو. (عِنْدَها) عندَ: ظرف مكان منصوبٌ، الهاء: ضميرٌ في محلِّ جرّ مضافٍ إليه. (قومًا) مفعولٌ بهِ لِ (وَجَدَ). (قُلْنا) قُلْ: فعلٌ ماضٍ ساكنٌ،(نا) ضمير في محل رفع فاعلٌ. (يا ذا) يا: حرفُ نداءٍ، ذا: مُنادى مُضافٌ منصوبٌ وعلامةُ النصبِ الألف؛ لأنّه من الأسماءِ الخَمسة. (القَرنَينِ) مضافٌ إليه مجرورُ علامةُ جرِّه الياء. (إمّا) للتخيير والشرطِ. (أنْ) حرفُ نصبٍ ومَصدَر. (تُعَذِّبَ) فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ، الفاعل: ضميرٌ مستترٌ تقديرُه أنت. (وإمَّا أنْ تَتَّخِذَ) الواو: عاطفةٌ، (إمّا أنْ تَتَّخِذَ) مِثل (إمّا أنْ تُعَذِّبَ). (فيهم) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ بمحذوفٍ مفعولٍ بِه ثانٍ لِ (تتّخذَ). (حُسنًا) مفعولٌ بهِ أوّل. والمَصدرُ المُؤوَّلُ (أنْ تُعَذِّبَ) في مَحلِّ رفْعِ

مبتدأٍ، والخبرُ محذوفٌ. جُملة (بَلَغَ) في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه. جُملة (وَجَدَها) لا محلَّ لها جوابُ شرط غَيرِ جازمٍ. جُملةُ (تَغْرُبُ) في محلِّ نصبِ حالٍ من المفعولِ. جُملةُ (وَجَدَ) الثانيةُ لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملةِ (وَجَدَ) الأولى. جُملةُ (قُلْنا) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملةُ النِّداءِ (يا ذا القرنَينِ) في محلِّ نصبِ مقول (قُلْنا). جُملةُ (أنْ تُعَذِّبَ) واقعٌ) لا محلَّ لها جوابُ النداء. جُملة (أنْ تَتَّخِذَ واقع) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جوابِ النِّداء

(قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا) (٨٧).

(قال) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتح، والفاعلُ هو. (أمّا) حرفُ شرطٍ وتفصيل (مَن) اسمُ شرطٍ جازمٌ مبني على السكون في محلِّ رفْع مبتدأ. (ظَلَمَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتح في محلِّ جزْم فعلِ الشرط، والفاعلُ هو. (فَسَوفَ) الفاءُ: رابطةٌ لجوابِ الشرط، سَوفَ: للاستقبالِ. (نُعَذِّبُهُ) نُعَذِّبُ: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، الفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرُه "نحنُ" للتعظيم، الهاءُ: ضميرٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به.

(ثمَّ)حرفُ عطفٍ وترتيب. (يُرَدُّ) فعلٌ مضارعٌ مبني للمجهول، ونائبُ الفاعلِ ضميرٌ مستترٌ تقديرُه "هو" (إلى ربِّه) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ ب(يُرَدُّ)، الهاءُ: مضافٌ إليه. (فَيُعَذِّبُهُ) الفاءُ: حرفُ عطفٍ، يُعَذِّبُ: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، الفاعلُ: هو، الهاءُ: ضميرٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به. (عذابًا) مفعولٌ مطلقٌ منصوبٌ. (نُكْرًا) نعتٌ ل (عَذابًا). جُملةُ (قال) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملةُ (مَن ظَلَمَ) في محلِّ نصبِ مقولِ (قالَ). جُملةُ (ظَلَمَ) في محلِّ رفْع خبر (مَن).

جُملة (سَوفَ نُعَذِّبُهُ) في محلِّ جزْمِ جوابِ الشرط الجازم مقترنةٌ بالفاء. جُملةُ (يُرَدُّ) في محلِّ جزمٍ معطوفةٌ على جُملةِ (نُعَذِّبُه). جُملةُ (يُعَذِّبُه) في محلِّ جزمٍ معطوفةٌ على جُملة (يُرَدُّ).

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْرًا) (٨٨)

(وأمَّا مَن آمنَ) الواو: حرفُ عطفٍ، (أمّا مَن آمَنَ) مِثل (أمّا مَن ظَلَمَ). (وعَمِلَ) الواوُ: حرفُ عطفٍ، عَمِلَ: فعلٌ ماضٍ مبني على الفتح، والفاعلُ هو. (صالِحًا) نعت مفعول به محذوفٌ أي عملا. (فلَهُ) الفاء: رابطةٌ لجوابِ الشرطِ، لهُ: متعلِّقانِ بخَبرٍ مُقدَّم. (جزاءً) مفعولٌ مُطلَقٌ لفعلٍ محذُوف. (الحُسنَى) مبتدأٌ مؤخَّرٌ مرفوع وعلامةُ رفعِه الضمَّةُ المقدَّرة على الألف للتعذُّرِ.

(وسَنَقُولُ) الواوُ: حرفُ عطفٍ، السينُ: للاستقبالِ، نقولُ: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، والفاعلُ مستترٌ تقديرهُ نحنُ. (لهُ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقان ب(نقول). (مِنْ أمْرِنا) مِن أمرِ: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقان ب (نقولُ)، نا: مُضافٌ إليه. (يُسْرًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. جُملةُ (مَن آمنَ) في محلِّ نصبٍ معطوفةٌ على جُملةِ (مَنْ ظَلَمَ). جُملةُ (آمنَ) في محلِّ رفعِ خبرِ (مَن). جُملة (عَمِلَ) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملة (آمنَ). جُملةُ (لهُ الحُسْنَى) في محلِّ جزمِ جوابِ شرطٍ جازمٍ مقترنةٌ بالفاءِ. جُملة (سَنَقولُ) في محلِّ جزمٍ معطوفةٌ على جُملةِ (لهُ الحُسنَى).

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) (٨٩).

(ثُمَّ أتْبَعَ سَبَبًا) مِثل (فأتْبَعَ سَبَبًا). جُملةُ (أتْبَعَ) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملة (أتْبَعَ) الأُولى.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ﴾ (٩٠)

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ ﴾ مَرَّ إعرابُها في الآية ٨٦. (على قَومٍ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقان ب (تَطْلُعُ). (لَمْ نَجْعَلْ) لَمْ: حرفُ جزمٍ ونفيٍ وقلب، نَجْعَلْ: فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ وعلامةُ جَزْمِه السكونُ، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرُه (نحنُ). (لَهُمْ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ بمفعولٍ به ثانٍ لفعلِ (نَجْعَلْ). (مِنْ دُونِها) مِن دُونِ: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ بحال (مِن سِتْرًا)، الهاء: ضمير في محلِّ جرٍّ بالإضافةِ. (سِتْرًا) مفعولٌ بهِ أوّل منصوبٌ. جُملة (بَلَغَ) في محلِّ جرٍّ بالإضافة. جُملة (وَجَدَها) لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ غيرِ جازمٍ. جُملة (تَطْلُعُ) في محلِّ نصبِ "مفعولٍ به ثانٍ أو حالٍ". جُملة (نَجْعَل) في محلِّ جرٍّ نعتٍ لـ(قَوم).

﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴾

(كذلك) الكافُ: حرفُ تشبيهٍ وجرٍّ، ذا: اسمُ إشارةٍ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ جرٍّ بالكاف، اللامُ: للبُعد، الكافُ: للخِطابِ متعلِّقان بخبرٍ محذوفٍ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه "الأمرُ". (وقَد) الواو: استئنافيّةٌ، قدْ: حرفُ تحقيقٍ. (أحَطْنا) أحطْ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على السكونِ، نا: في محلِّ رفْعِ فاعلٍ. (بِما) الباء: جرفُ جرٍّ، ما: اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ جرٍّ بالباء متعلِّقان بفعل (أحَطْنا). (لَدَيهِ) لَدَى: ظرفٌ زمانٍ مبنيٌّ على السكونِ متعلّقٌ بِصلةِ (ما)، الهاء: في محلِّ جرٍّ بالإضافةِ. (خُبْرًا) مفعولٌ بهِ لـ(أحَطْنا) منصوبٌ. جُملةُ

(الأمر كذلكَ) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملة (أحَطْنا) لا محلَّ لها "استئنافيّةٌ أو اعتراضيّةٌ".

(ثُمَّ أتبع سَبَبًا) (٩٢).

(ثُـمَّ أتْـبَعَ سَـبَبًا) مِثل الآيـة ٨٩. جُـملةُ (أتْـبَعَ) لا محـلَّ لـها معطوفـةٌ عـلى(الأمـر كذلكَ)[١].

١) إعراب الآيات: من كتاب إعراب القرآن الكريم الميسر: أ. د. محمد الطيب الابراهيم - دار النفائس - الطبعة الثالثة ١٤٢٧ ه- /٢٠٠٦ م.

يأجوج ومأجوج

أقوامٌ مُفْسِدُونَ سَيظْهَرُونَ في آخرِ الزَّمانِ

آياتُ القِصَّة:

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا. قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا. آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا. فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا. قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف: ٩٢ – ٩٨).

اللغةُ ومعاني الكلِمات:

جاءَ في "لِسانِ العَرب" أنّ يأجُوج ومأجُوج اسمانِ عَربيَّانِ مُشتقَّانِ مِن أجيجِ النَّارِ؛ أيّ: التهابَها، أو مِن الماءِ الأُجاجِ وهو الشديدُ المُلوحَةِ. وقيلَ: مِن الأجِّ وهُو سُرعةُ العَدْوِ. وقيلَ: مأجوجُ مِن ماجَ إذا اضْطَرَبَ، ويُؤيِّدُ هذا الاشتقاقَ قولُه تعالى في الآية ٩٩ مِن السُّورةِ نفْسِها: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾. وهُما على وَزنِ "يَفْعُول" في يأجُوج، و"مَفعُول" في مأجُوج، أو على وزنِ "فاعُول" فيهِما. أمَّا إذا كان الاسمانِ أعجميَّانِ فليسَ لهُما اشتقاقٌ؛ لأنَّ الأعجميةَ لا تُشْتَقُّ. وَجاءَ

هذا اللفظُ – أيضًا – في قولِه تعالى في الآية ٩٦ مِن سُورةِ الأنبياءِ: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ**﴾. ولعلَّ مِن رَحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أنَّه منعَهُم من الوصولِ إلينا والتعرُّضِ لنا، كما مَنَعَ الجِنَّ أيضًا؛ حتَّى تستمرَّ الحياةُ دُونَ عَبَثٍ مِن قِبَلِهم، أو أن تكونَ لهُم حضارةٌ شَيطانيَّةٌ مُتمرِّدةٌ تقومُ على نَسْفِ القِيَمِ والمَبادئِ والأخلاقِ في بقاعِ الأرضِ بشكلٍ مباشرٍ أو غيرِ مباشرٍ. ولن يُعذَّبُوا إلاّ بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهِم كما قال تعالى في الآيةِ ١٥ من سُورةِ الإسراء: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا**﴾. فإنْ كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ قد بعثَ إليهِم رُسُلاً فقَد قامتِ الحُجَّةُ عليهِم، وإنْ لمْ يكُنْ قد بعثَ إليهِم رُسُلاً فهُم في حُكْمِ أهلِ الفترةِ وحُكْمِ مَن لمْ تبْلُغْه الدعوةُ، أو أنَّهُم سَيُمتَحَنُونَ في عَرْصاتِ القيامةِ، فمَن أجابَ الداعي دخلَ الجَنَّةَ، ومَن أبَى دَخَلَ النَّارَ.

وعقيدةُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ أنَّ امتِحانَهُم لا يقتضِي نجَاتَهُم ولا يُنافي الأخبارَ عنْهُم بأنَّهُم مِن أهلِ النارِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أطلَعَ رَسُولَه صلى الله عليه وسلم على أنَّ هؤلاءِ هُم مِن أهلِ الشقاءِ، وأنَّ سَجاياهُم تأبَى قَبولَ الحقِّ والانقيادِ إليهِ؛ فهُم لنْ يُجيبُوا الداعيَ يومَ القيامةِ.

أقوال المفسرين

تفسيرُ الطَّبَريِّ

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) ثمَّ سار طُرُقًا ومَنازِلَ وسَلكَ سُبُلاً حَتَّى بَلَغَ بَينْ السَّدَّيْنِ. قرأ عامَّةُ قُرّاءِ المَدينةِ والكُوفيِّين (السَّدَّيْن) بِضَمِّ السِّين، وقرأ المَكِّيُون بالفتْح. قال أبو عَمروِ بنُ العَلاءِ: السَّدُّ" بالفتْح هو الحاجزُ بَينَكَ وبينَ الشيءِ، و"السُّدُّ" بالضَّمِّ ما كان مِن غَشاوةٍ في العَين. قال عِكْرمةُ: ما كانَ مِن صَنعَةِ بَني آدمَ فهو السَّدُّ بالفتح، وما كانَ مِن صُنْعِ اللهِ فهُو السُّدُّ بالضَّمِّ. قال الكِسائيُّ: هُما بمَعنى واحدٍ. والصوابُ مِن القولِ عِندي – واللهُ أعلمُ – أنَّهُما قِراءتانِ مُستفيضَتانِ في قراءةِ الأمصارِ، ولُغتانِ مُتَّفِقَتا المَعنى. و"السَّدُّ والسُّدُّ" جميعًا هو الحاجزُ بينَ الشيئَينِ، وهُما ها هُنا جَبلانِ سُدَّ ما بينَهُما، فَرَدْمَ ذُو القرنَينِ حاجزًا بينَ يأجُوج ومأجُوج ومَن وَراءهُم لِيقطعَ فسادَ غوائِلَهُم وعَبَثَهُم عنْهُم. قال ابنُ عبَّاسٍ وقتادةُ والضَّحَّاكُ: هُما جَبلانِ. (وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا)؛ أيّ: وَجدَ مِن دُونِ السَّدَّينِ قومًا لا يَكادُونَ يفقَهُونَ قولَ قائلٍ سِوى كلامِهِم. قرأ قُرّاءُ المَدينةِ والبَصرةِ والكُوفةِ (يَفْقَهُونَ) بفتحِ الياءِ والقافِ، وقرأَ عامَّةُ قُرّاءِ الكُوفةِ (يُفْقِهُونَ) بِضَمِّ الياءِ وكَسْرِ القافِ، وهُما قراءتانِ مُستفيضَتانِ في قراءةِ الأمصارِ.

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ) قرأَ قُرّاءُ الحِجازِ والعِراقِ بِغَيرِ هَمْزٍ، وقَرأ الآخَرونَ بالهَمزِ. والقِراءةُ الصحيحةُ عِندَنا (يَاجُوحَ وماجُوجَ) بألفٍ بِغَيرِ هَمْزٍ لإجماعِ الحُجَّةِ مِن القُرّاءِ عليهِ وأنَّه الكلامُ المعروفُ على

ألْسُنِ العَربِ. وهُمْ أُمَّتانِ مِن وراءِ السَّدِّ، قالَ بعضُهم: كانوا يأكُلُونَ الناسَ، وقال آخرُونَ: أنَّهُم سَيُفْسِدُونَ في الأرضِ، لا أنَّهُم كانوا يَومَئذٍ يُفْسِدُونَ.

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريّ أنَّ نبيَّ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: "لا يَمُوتُ رَجُلٌ مِنْهُمْ حتى يُولَدَ لِصُلْبِهِ ألْفُ رَجُلٍ". وكان عبدُ اللهِ بنُ مَسعُودٍ يَعجَبُ مِن كَثْرَتِهم ويقولُ: لا يَمُوتُ مِن يأجُوج ومأجُوج أحدٌ حتَّى يُولَدَ لَهُ ألفُ رَجُلٍ مِنْ صُلْبِهِ. وفي "لِسانِ العَربِ": أجّج، ويأجُوج ومأجُوج: قبيلتانِ مِن خَلْقِ اللهِ، جاءتِ القِراءةُ فيهِما بِهَمزٍ وغَيرِ هَمْزٍ. وَرَدَ في الحديثِ الشريفِ: إنَّ الخَلْقَ عَشَرَةُ أجزاءٍ، تِسْعَةٌ مِنها يأجُوج ومأجُوج.

وهُما اسمانِ أعجميَّانِ، واشتقاقُ مِثلِهما من كلامِ العَربِ يخرجُ مِن أجَّتِ النارُ، ومِنَ الماءِ الأُجاجِ وهو الشديدُ المُلوحةِ المُحرِقُ مِن مُلُوحَتِه. ويكونُ التقديرُ في يأجُوج "يَفْعُول"، وكذلك مأجُوج. ولو كان الاسمانِ عربيّينَ لكانَ هذا اشتقاقهُما؛ فأمّا الأعجميَّةُ فلا تُشتقُّ مِن العربيَّة. ومَن لا يَهْمِزُ وجعلَ الألفَينِ زائدتَينِ يقولُ ياجُوج مِن يَجَجْتُ، وماجُوج من مَجَجْتُ وهُما غيرُ مَصْرُوفَينِ.

(**فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا**) قرأ قُرّاءُ المَدينةِ والبَصرةِ (خَرْجًا)، وقَرأ قُرّاءُ الكُوفةِ (خَرَاجًا) بالألفِ. والأُولى (خَرَاجًا)؛لأنَّ القومَ عَرَضُوا على ذي القرنَينِ أنْ يُعْطُوهُ مِن أموالِهم ما يَستعِينُ به على بِناءِ السَّدِّ ولمْ يَعْرِضُوا عليهِ جِزْيةً، والخَراجُ عِندَ العَربِ هو الغَلَّةُ. قال ابنُ عبَّاسٍ وقتادةُ: (أجرًا).

(**عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا**)؛ أيّ: هلْ نجعلُ لكَ خَراجًا حتَّى أنْ تجعلَ بينَنا وبينَ يأجُوج ومأجُوج حاجِزًا يمنعهُم من الخُروجِ إلينا، وهو السَّدُّ.

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ) قال ذُو القرنَين: "إنَّ رَبِّي الَّذي مَكَّنَّني في عَملٍ ما سألتُمُوني مِن السَّدِّ بَينَكُم وبينَ هَؤلاءِ القومِ خَيرٌ مِن الأُجرةِ التي تَعرضُونَها عليَّ وأكثرُ وأطيبُ؛ ولكنْ أعينُوني بِفَعَلَةٍ وصُنَّاعٍ يُحْسِنُونَ البناءَ والعملَ. قال مُجاهِدٌ: برجال.

(أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)؛ أيّ: أجعلْ بينَكُم وبينَ يأجُوج ومأجُوج رَدْمًا. والرَّدْمُ هو الحائِطُ والسَّدُّ؛ إلَّا أنَّه أمنعُ مِنهُ وأشَدُّ. قالَ عن ابنِ عبَّاسٍ: هُو كأشدِّ الحِجابِ. وعن قتادةَ أنَّ رَجُلاً قال: "يا نبيَّ اللهِ قد رأيتُ سدَّ يأجُوج ومأجُوج. قال انْعَتْهُ لِي. قال كأنَّه البُرْدُ المُحَبَّرُ، طريقةٌ سَوداءُ وطريقةٌ حَمراءُ. قالَ قَدْ رأيتَهُ؟".

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ) أي جِيئوني بِزُبَرِ الحديدِ، وهي جَمعُ زُبْرَةٍ، والزُّبْرَةُ القطعةُ من الحديدِ. قال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٍ وقتادةُ: قِطَعُ الحديدِ.

(حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ)؛ أيّ: حتَّى إذا ساوَى بينَ الجبلَينِ بما جَعلَ بينَهُما مِن زُبَرِ الحَديدِ. قال ابنُ عبَّاسٍ ومُجاهِدٍ والضَّحَّاكِ وقتادةَ: بينَ الجَبلَينِ. (قَالَ انْفُخُوا)؛ أيّ: قالَ لِلفَعَلَةِ انفخُوا النَّارَ على هَذهِ الزُّبَرِ من الحَديدِ. (حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا) في الكلامِ متروكٌ وهُو فَنَفَخُوا؛ أيّ: حتَّى إذا جعلَ ما بينَ الصَّدَفَينِ من الحديدِ نارًا. (قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (بِمَدِّ الألفِ من آتُونِي بِمَعنى "أعطُوني قِطراً أُفرِغْ عَلَيهِ". وقَرأ قُرّاءُ الكُوفةِ (ائْتُونِي) بِوَصلِ الألفِ؛ بِمَعنى: جِيئُوني قِطْرًا أَصُبُّ عليهِ. والقِطْرُ هو النُّحاسُ. قال ابنُ عبَّاسٍ ومُجاهِدٌ والضَّحَّاكُ وقتادةُ (القِطْرُ) هو النُّحاسُ.

(**فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ**)؛ أيّ: فما اسْطاعَ يأجُوج ومأجُوج أن يَعْلُوا الرَّدْمَ الَّذي جَعلَهُ ذُو القرنَينِ حاجزًا بينَهُم وبينَ مَن دُونَهُم مِن النَّاسِ فَيَصيرُوا فوقَه ويَنزِلُوا مِنهُ إلى الناسِ.

(**وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**) قال قتادةُ: فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ؛ أيّ: مِن فَوقِه، وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا؛ أيّ: مِن أسْفَلِه. وقال ابنُ جُريجٍ: فما اسْتطاعُوا أنْ يَرْتَقُوهُ، وَمَا اسْتَطَاعُوا أنْ يَنْقبُوهُ.

(**قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي**) فلمَّا رأى ذُو القرنَينِ أنَّ يأجُوج ومأجُوج لا يستطيعونَ أن يَظهَرُوا ما بنَى مِن الرَّدْمِ ولا يَقْدرونَ على نَقْبِه قالَ: هذا الذي بَنَيتُه وسَوَّيتُه حاجزًا هو رحمةٌ مِن رَبِّي رَحِمَ بها مَن دُونَ الرَّدْمِ مِن الناسِ، فأعانَني بِرَحمَتِه لهُم حتَّى بَنَيتُه وسَوّيتُه لِيَكُفَّ بِذلِكَ غائِلةَ هذه الأُمَّةِ عنهُم.

(**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ**)؛ أيّ: إذا جاءَ وعدُ ربِّي – الَّذي جَعلَهُ مِيقاتًا لِظُهورِ هذه الأُمَّةِ وخُروجِها مِن وراءِ هذا الرَّدْمِ – سوَّاهُ بالأرضِ وسَيكُونُ ذلكَ بعدَ قَتْلِ عِيسى ابنِ مَريمَ عليهِ السلامُ الدَّجَّالَ. فعَن عبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَقِيتُ لَيْلةَ الإِسْرَاءِ إبْرَاهيمَ وَمُوسَى وعِيسَى فَتَذَاكرُوا أمْرَ السَّاعةِ، وَرَدُّوا الأمْرَ إلى إبْرَاهِيمَ فَقالَ إبْرَاهيمُ: لا عِلْمَ لي بِها، فَرَدُّوا الأمْرَ إلى مُوسَى، فَقالَ مُوسَى: لا عِلْمَ لي بها، فَرَدُّوا الأمْرَ إلى عِيسَى، قَالَ عِيسَى: أمَّا قِيامُ السَّاعةِ لا يَعْلَمُهُ إلا اللهُ؛ وَلَكِنَّ رَبّي قَدْ عَهِدَ إليَّ بِمَا هُوَ كائِنٌ دُونَ وَقْتِها، عَهِدَ إليَّ أنَّ الدَّجَّالَ خارِجٌ، وأنَّهُ مُهْبِطِي إلَيْهِ، فَذَكَرَ أنَّ مَعَهُ قَصبَتَيْنِ، فإِذَا رآني أهْلَكَهُ اللَّهُ، قالَ:

فَيَذُوبُ كما يذوبُ الرَّصَاصُ؛ حتَّى إنَّ الحَجَرَ والشَّجَرَ لَيَقُولُ: يا مُسْلِمُ هَذَا كافِرٌ فاقْتُلْهُ، فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ، ويَرْجِعُ الناسُ إلى بِلادِهِمْ وأوْطانِهِمْ فَيَسْتَقْبِلُهُمْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، لا يَأْتُونَ عَلى شَيْءٍ إلَّا أكَلُوهُ، ولا يَمُرُّونَ على ماءٍ إلاَّ شَرِبُوهُ، فَيَرْجِعُ النَّاسُ إليَّ، فَيَشْكُونَهُمُ، فأَدْعُو اللهَ عليهِم فيُمِيتُهُم حتَّى تَجْوَى الأرْضُ مِنْ نَتْنِ رِيحِهِمْ، فَيَنزلُ المَطَرُ، فَيَجُرُّ أجْسادَهُم فيُلْقِيهِمْ فِي البَحْرِ، ثُمَّ يَنْسِفُ الجِبَالَ حتى تَكُونَ الأرْضُ كالأدِيمِ، فَعَهِدَ إليَّ رَبِّي أنَّ ذلكَ إذا كانَ كَذَلِكَ، فإنَّ الساعة مِنْهُمُ كالحَامِلِ المُتِمِّ الَّتِي لا يَدْرِي أهْلُها مَتى تَفْجَؤُهُمْ بِولادِها لَيْلاً أوْ نَهَارًا" .

(**وَكَانَوَعْدُرَبِّيحَقًّا**)؛ أيّ: وكانَ وَعدُ ربِّي – الذي وَعَدَ خَلْقَهُ في دَكِّ هذا الرَّدْمِ، وخُروجِ هَؤلاءِ القومِ على النَّاسِ وعَيثِهِم – حقًّا؛ لأنَّه لا يُخْلِفُ المِيعادَ فلا يقعُ غيرُ ما وَعَدَ أنَّهُ كائنٌ.(١)

تفسيرُ "أنوارِ التنزيلِ وأسرارِ التأويلِ" لِلبَيضاويّ

(**حَتَّىٰإِذَابَلَغَبَيْنَالسَّدَّيْنِ**) بينَ الجبلَينِ المبنيّ بينهُما سَدَّه وهُما جَبلا أرمينية وأذربيجان. وقيلَ: جبلانِ مُنيفانِ في أواخرِ الشمالِ في منقطعِ أرضِ التُّركِ من ورائِهما يأجُوج ومأجُوج. قَرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحَمزةُ والكِسائيُّ وأبُو بكْرٍ ويَعقُوبُ (**بَيْنَالسُّدَّيْنِ**) بالضَّمِّ وهُما لُغتانِ. وقيلَ: المضمومُ لِما خَلَقَهُ اللهُ تعالى، والمفتوحُ لِما

١) تفسير الطبري: (ج١٨، ص١٠١- ١١٣).

عَمَلَهُ الناسُ؛ لأنَّه في الأصلِ مصدرٌ سمِّيَ بهِ حَدَث يُحْدِثُهُ الناسُ. وقيلَ: بالكسرِ وبينَ ها هُنا مفعولٌ بهِ وهُو مِن الظروفِ المُتصرِّفة.

(**وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا**) لِغرابةِ لُغَتِهم وقِلَّةِ فِطنَتِهم. قَرأ حمزةُ والكِسائيُّ لا يَفْقِهُونَ بالكسرِ؛ أيّ: لا يُفْهِمُونَ السامعَ كلامَهُم ولا يُبِينُونَهُ لِتَلَعْثُمِهِم فيهِ.

(**قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ**) أيّ: قالَ مترجمهم، أو قالَ الَّذِينَ مِن دُونِهِم.

(**إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ**) قبيلتانِ مِن ولدِ يافثِ بنِ نُوحٍ، وقيلَ: يأجوجُ مِن التُركِ، ومأجُوج مِن الجبلِ. وهُما اسمانِ أعجميَّانِ بدليلِ مَنْعِ الصَّرفِ، وقيلَ: عَربيَّانِ مِن أجَّ الظُّلَيمُ إذا أسرعَ، وأصلُهُما الهمزُ كما قرأَ عاصمٌ ومُنِعَ صرفُهما للتعريفِ والتأنيثِ.

(**مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**) ؛أيّ: في أرضِنا بالقتْلِ والتخريبِ وإتلافِ الزَّرعِ. قيلَ: كانوا يَخرُجونَ أيَّامَ الرَّبيعِ فلا يَترُكُونَ أخضرَ إلاّ أكلُوهُ، ولا يابِسًا إلَّا احتمَلُوهُ، وقيلَ: كانُوا يأكُلُونَ الناسَ.

(**فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا**) نُخْرِجُه مِن أموالِنا. قرأَ حمزةُ والكِسائيُّ (خَراجًا) وكِلاهُما واحدٌ ك "النَّوْلِ والنَّوالِ". وقيلَ: الخراجُ على الأرضِ والذِّمَّةِ والخَرْجُ المصدَرُ.

(**عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا**) يحجزُ دونَ خُروجِهم عَلَينا، وقَد ضَمَّهُ مَن ضَمَّ (السُّدَّيْنِ) غير حمزةَ والكِسائي.

(**قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ**)؛أيّ: ما جَعَلَني فيهِ مَكِينًا مِن المالِ والمُلْكِ خَيرٌ ممَّا تَبذلُونَ ليَ مِن الخَراجِ ولا حاجةَ بي إليهِ. وقَرأ ابنُ كَثيرٍ (مَكَّنَنِي) على الأصلِ.

(**فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ**)؛أيّ: بقوَّة فَعَلَةٍ، أو بِما أتقوَّى بهِ مِن الآلات.

(**أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا**) حاجزًا حصينًا وهو أكبر من السد من قولهم ثوبٌ مَردَم إذا كان رِقاعًا فوقَ رِقاعٍ.

(**ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ**)؛أيّ: قِطَعَهُ، والزُّبْرَةُ: القِطعةُ الكبيرةُ، وهو لا يُنافي ردَّ الخَراجِ والاقتصارَ على المَعُونةِ؛ لأنَّ الإِيتاءَ بمَعنى "المُناوَلةِ"، ويدلُّ عليهِ قِراءةُ أبي بَكْرٍ (ٱئْتُونِي) بكَسْرِ التنوينِ موصولةَ الهمزةِ على معنى "جيئوني بزُبَرِ الحديدِ"، والباءُ محذوفةٌ حذفَها في أمرتِكَ الخير؛ ولأنَّ إعطاءَ الآلةِ من الإِعانةِ بالقوَّة، دونَ الخَراجِ، على العَمل.

(**حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ**) بينَ جانبَي الجبلَينِ بتنضيدها. وقَرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ والبَصريّانِ بضَمَّتَينِ، وأبو بكرٍ بضَمِّ الصادِ وسُكونِ الدَّالِ، وقُرِىء بفَتْحِ الصَّادِ وضمِّ الدالِ، وكُلُّها لُغاتٌ من "الصَّدْفِ" وهو المَيلُ؛ لأنَّ كُلاًّ منهُما مُنعَزلٌ عن الآخَر، ومِنهُ التَّصادفُ للتقابُلِ.

(**قَالَ ٱنفُخُوا۟**)؛أيّ: قالَ للعَمَلَةِ انفُخُوا في الأكوارِ والحديدِ.

(**حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُ**) جَعلَ المنفوخَ فيهِ. (نَارًا) كالنَّارِ بالإِحماءِ.

(**قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا**) أيّ: آتوني نُحاسًا مُذابًا أُفْرِغْ عليهِ، فحُذِفَ الأوَّلُ لِدلالةِ الثاني عليهِ؛ لأنَّ إعمالَ الثاني من العامِلينَ المُتوجِّهينَ نحوَ معمولٍ واحدٍ أَولى.

وقرأ حمزةُ وأبُو بَكْرٍ (**قال ءاتُونِي**) موصولةَ الألفِ. (**فَمَا اسْطَعُوا**) بحذفِ التاءِ حَذْرًا من تلاقي مُتقارِبَين. قرأَ حمزةُ بالإدغامِ جامعًا بين الساكنَين على غَيرِ حَدِّهِ، وقُرِىء بقلبِ السِّين صادًا. (**أَن يَظْهَرُوهُ**) أنْ يَعْلُوهُ بالصُّعودِ لارتفاعِه وانْملاسِه.

(**وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا**) لِثخَنِه وصَلابَتِه. قيلَ: حفرَ للأساسِ حتَّى بلغَ الماءَ، وجعلَه من الصَّخرِ والنُّحاسِ المُذابِ والبُنيانِ من زُبَرِ الحديدِ بينَهُما الحطبُ والفحمُ حتَّى ساوَى أعلَى الجبلَين، ثمَّ وضعَ المَنافِيخَ حتَّى صارتْ كالنَّارِ فصَبَّ النُّحاسَ المُذابَ عليهِ فاختلطَ والتصقَ بَعضُه بِبَعضٍ وصار جَبلاً صَلْدًا. وقيلَ: بناهُ من الصُّخورِ مُرتبِطًا بعضُها ببعضٍ بكلاليبَ من حديدٍ ونُحاسٍ مُذابٍ في تجاويفِها.

(**قَالَ هَذَا**) هذا السَّد أو الإقْدار على تسْويَتِه.

(**رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي**) على عِبادِه.

(**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي**) وقتَ وَعدِه بِخُروجِ يأجُوج ومأجُوج، أو بقيامِ الساعةِ بأنْ شارفَ يوم القيامةِ.

(**جَعَلَهُ دَكَّاءَ**) مَدكُوكًا مَبْسُوطًا مُسَوًّى بالأرضِ، مصدرٌ بمعنَى مفعول، ومِنهُ جَمَلٌ أدكُّ لِمُنْبَسطِ السَّنامِ. قرأَ الكُوفيُّونَ (دكَّاءَ) بالمَدِّ؛ أيّ: أرضًا مستويةً.

(وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) كائنًا لا مَحالةَ.[1]

تفسيرُ القُرطبيُّ

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) قال ابنُ عبَّاسٍ: بينَ الجَبَلَين.

(وَجَدَ مِن دُونِهِمَا)؛ أيّ: مِن وَرائِهما.

(قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) قرأَ حمزةُ والكِسائيُ (يُفْقِهُونَ) بِضَمِّ الياءِ وكسرِ القافِ مِن "أفْقَه" إذا أبانَ؛ أيّ: لا يُفْقِهُونَ غَيرَهُم كلامًا. وقَرأَ الباقونَ بِفتْحِ الياءِ والقافِ؛ أيّ: يَعْلَمُونَ. والقِراءتانِ صَحِيحَتانِ، فلا هُم يَفْقَهُونَ مِن غَيرِهِم ولا يُفْقِهُونَ غَيرَهُم.

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ)؛ أيّ: قالتْ له أُمَّةٌ مِن الإِنسِ صالِحةٌ.

(إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) قالَ الأخفشُ: مَن همزَ يأجوجَ فجَعلَ الألِفَينِ مِن الأصلِ يقولُ "يأجوجَ يفعول" و"مأجوجُ مَفعول"؛ كأنَّه مِن أجيجِ النَّارِ، ومَن لا يَهْمِزُ ويجعلُ الألِفَينِ زائدتَينِ يقولُ "ياجُوجُ" مِن "يَجَجْتُ"، وماجُوج مِن "مَجَجْتُ" وهُما غَيرُ مَصرُوفَينِ. رَوى أبُو هُريرةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم أنّه قالُ: "وُلِدَ لِنُوحٍ سامٌ وحامٌ ويافثٌ؛ فَولدَ سامٌ العَرَبَ وفارِسَ والرُّومَ والخيرُ فيهِم، وولَدَ يافثُ

[1] تفسيرُ "أنوارِ التنزيلِ وأسرارِ التأويلِ" لِلبَيضاويّ: (ج٣، ص٢٩٢- ٢٩٤).

يـأجـوجَ ومـأجـوجَ والـتُّرْكَ والـصَّقالِـبَةَ ولا خـيرَ فـيهِم، وَولـدَ حـامُ الـقِبْطَ والـبَرْبَـرَ والسُّودانَ" .

ورَوى أبُو سَعيدٍ الخُدريُّ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قالَ: "لا يَمُوتُ رَجُلٌ مِنهُم حتَّى يُولَدَ لِصُلْبِهِ ألفُ رَجُلٍ؛ يعني يأجوجَ ومأجوجَ" .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مَسْعُودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: سألتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن يأجوجَ ومأجوجَ فقالَ: " يأجوجُ ومأجوجُ أُمَّتانِ؛ كُلُّ أُمَّةٍ أربعُمائةُ ألفِ أُمَّة، كُلُّ أُمَّةٍ لا يَعْلَمُ عَددَها إلاّ اللهُ، لا يَمُوتُ الرَّجُلُ مِنهُم حتَّى يُولَدَ لهُ ألفُ ذَكَرٍ مِن صُلْبِهِ كُلُّهُمْ قَد حَمَلَ السِّلاحَ" . قِيلَ يا رَسُولَ اللهِ: صِفْهُم لَنا. قالَ: "هُمْ ثلاثةُ أصنافٍ؛ صِنْفٌ مِنهُم أمثالُ الأرْزِ، وصِنْفٌ عَرْضُهُ وطُولُهُ سَواءٌ نَحْوًا مِن الذِّراعِ، وصِنْفٌ يَفْتَرِشُ أُذُنَهُ ويَلْتَحِفُ بِالأُخْرَى، لا يُمُرُّونَ بِفيلٍ ولا وَحْشٍ ولا خِنْزيرٍ إلَّا أكَلُوهُ، ويَأكُلُونَ مَن ماتَ مِنهُم، مقدمتهُم بالشَّامِ وسَاقَتْهُم بِخُراسانَ، يَشْرَبُونَ أنهارَ الشَّرْقِ وبُحَيرةَ طَبَرِيَّةَ، ويَمْنَعُهُمُ اللهُ مِن مَكَّةَ والمَدِينَةِ وبَيتِ المَقْدِسِ" .

وقالَ وَهْبُ بنُ مُنبِّهٍ: رآهُمْ ذُو القرنَين، وطُولُ الواحِدِ مِنهُم مِثلُ نِصْفِ الرَّجُلِ المَرْبُوعِ مِنَّا، لَهُمْ مَخاليبُ في مَواضِعِ الأظْفارِ وأضْراسٍ وأنْيابٍ كالسِّباعِ، وأحْناكِ كأحْناكِ الإبِلِ، وهُمْ هُلْبٌ عَلَيهِمْ مِن الشَّعَرِ ما يُواريهِمْ، ولِكُلِّ واحِدٍ مِنهُمْ أُذنانِ عَظِيمَتانِ، يَلْتَحِفُ إحْداهُما ويَفْتَرِشُ الأُخْرى، وكُلُّ واحدٍ مِنهُمْ قَد عَرَفَ أجَلَهُ لا يَمُوتُ حتَّى يَخْرُجَ لهُ مِنْ صُلْبِهِ ألْفُ رَجُلٍ إنْ كانَ ذَكَرًا، ومِنْ رَحِمِها ألْفُ أنْثَى إنْ كانتْ أُنْثَى.

ورَوى أبُو سَعيدٍ الخُدريُّ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قالَ: لا يَمُوتُ رَجُلٌ مِنهُم حتَّى يُولَدَ لِصُلْبِهِ ألْفُ رَجُلٍ؛ يعني: يأجوجَ ومأجوجَ.

وقال الضَّحَّاكُ وقَتادةُ: التُّرْكُ شِرْذِمَةٌ مِن يأجوجَ ومأجوجَ خَرجَتْ تَغيرُ، فَجاء ذُو القرنَينِ فَضَرَبَ السَّدَّ فَبَقِيَتْ في هذا الجانبِ.

وقال السُّدِّيُّ: بُنِيَ السَّدُّ على إحْدَى وعِشْرِينَ قَبِيلَةً، وبَقِيَتْ مِنهُم قَبِيلَةٌ واحِدَةٌ دُونَ السَّدِّ فَهُمُ التُّرْكُ.

(مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) إفسادُهُم هُو أكْلُ بَني آدمَ،

وقِيلَ: هو الظُّلْمُ والقَتْلُ وسائِرُ وُجوهِ الإفسادِ المَعْلُومِ مِن البَشَرِ.

وقالتْ فِرْقَةٌ: إفسادُهُم إنَّما كان مُتوقَّعًا؛ أيّ: سَيُفْسِدُونَ، فَطَلَبُوا وَجْهَ التَّحَرُّزِ مِنهُم.

(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) استفهامٌ على جِهَةِ حُسْنِ الأدبِ. وخَرْجًا؛ أيّ: جَعْلاً، وقُرِئَ (خَراجًا) والخَرْجُ أَخَصُّ مِن الخَراجِ. والسّدُّ: كُلُّ ما يُسَدُّ بِهِ.

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) الرَّدْمُ: هُو ما جُعِلَ بَعضُهُ على بَعضٍ حتَّى يتَّصِلَ، وهو أبْلَغُ مِن السَّدِّ؛ إذ السَّدُّ كُلُّ ما يُسِدُّ بِهِ، والرَّدْمُ: وَضْعُ الشَّيءِ على الشَّيءِ مِن (حِجارَةٍ أو تُرابٍ) أو نحْوِهِ حتَّى يقومَ مِن ذلكَ حِجابٌ. وقُرِئَ (سَدًّا) بالفتْحِ في السِّينِ.

قال الخليلُ وسِيبَوَيهِ: الضَّمُّ هو الاسمُ والفتْحُ هو المَصدَرُ.

وقال الكِسائيُّ: الفتْحُ والضَّمُّ لُغتانِ بمَعنى واحدٍ.

وقال عِكرِمَةُ: ما كانَ مِن خِلْقَةِ اللهِ لمْ يُشارِكْهُ فيهِ أحدٌ بِعَملٍ فهُو بالضَّمِ، وما كانَ مِن صُنْعِ البَشَرِ فهُو بالفتْح.

والمَعنى: قالَ لهُم ذُو القَرْنَينِ: ما بَسَطَهُ اللهُ تعالى لِي مِن القُدْرَةِ والمُلْكِ خَيرٌ مِن خَرْجِكُمْ وأمْوالِكُمْ؛ ولكنْ أعِينُوني بالرِّجالِ والعَملِ والآلاتِ كي أبْنيَ بها الرَّدْمَ.

قرأَ ابنُ كثيرٍ وَحْدَهُ: (ما مَكَّنَنِي) بِنُونَينِ، وقَرأ الباقُونَ: (ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي).

وفي هَذه الآيةِ دليلٌ على اتِّخاذِ السُّجونِ وحَبْسِ أهلِ الفسادِ فيها، وحِمايةِ الرَّعيَّةِ وإصلاحِ الثُّغورِ.

(**آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ**) زُبَرَ الحَديدِ: قِطَعَ الحديدِ، وجَمعُها "زُبْرَة" وهِي القِطعةُ العظيمةُ مِنهُ.

قرأَ أبو بكرٍ: (إيتُونِي) مِن الإتيانِ الذي هو المَجيءُ؛ أيّ: جِيئُوني بِزُبرِ الحَديدِ.

(**حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ**) بينَ الصَّدَفَينِ؛ أيّ: جانِبَي الجبلِ، وسُمِّيا بِذلكَ لِتصادُفِهما؛ أيّ: لِتلاقيهِما، ولا يُقالُ للواحدِ صَدَفٌ؛ وإنَّما يُقالُ: صَدَفانِ للاثْنَينِ؛ لأنَّ أحدَهُما يُصادِفُ الآخرَ.

قرأَ نافعٌ وحمزةُ والكِسائيُّ (الصَّدَفَينِ) بفتْحِ الصَّادِ وشَدِّها وفتْحِ الدَّالِ،

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبُو عَمرٍو (الصُّدُفَينِ) بِضمِّ الصَّادِ والدَّالِ،

وقرأَ عاصِمٌ (الصُّدْفَينِ) بِضمِّ الصَّادِ وسُكونِ الدَّالِ،

وقرأَ ابنُ الماجِشُون بفتْحِ الصَّاد وضَمِّ الدَّال،

وقرأَ قتادةُ (الصَّدْفَينِ) بفتْحِ الصَّادِ وسُكونِ الدَّالِ، وكُلُّ ذلكَ بمعنى واحدٍ.

(قَالَ انفُخُوا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا) ؛أيّ: على زُبَرِ الحَديدِ بالأكْيارِ حتَّى صارَ نارًا، ثُمَّ يُؤتَى ب (النُّحاسِ المُذابِ أو الرَّصاصِ أو الحَديدِ) بحسبِ الخِلافِ في القِطْرِ، فَيُفرِغهُ على تلكَ الطاقةِ المُنضَّدةِ، فإذا التأمَ واشتدَّ ولصقُ البعضُ بالبعضِ استأنفَ وَضْعَ طاقةٍ أُخرى، إلى أنْ اسْتَوى العملُ فصارَ جَبَلاً صَلْدًا.

قالَ قَتادةُ: هو كالبُرْدِ المُحَبَّرِ طريقةٌ سَوداءُ وطريقةٌ حَمراءُ.

ويُرْوى أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم جاءَهُ رَجُلٌ فقالَ: يا رَسُولَ اللهِ؛ إنِّي رأيتُ سَدَّ يأجوجَ ومأجوجَ.

قالَ: كيفَ رأيتَهُ؟

قالَ: رأيتُهُ كالبُرْدِ المُحَبَّرِ؛ طريقةٌ صفراءُ وطريقةٌ حَمراءٌ وطريقةٌ سَوداءُ.

فقالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: قَد رأيتَهُ.

ومَعنى (حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا)؛ أيّ: كالنَّارِ.

(قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) ؛ أيّ: أعطُوني قِطرًا أُفْرِغْ عَلَيهِ، على التقديمِ والتأخيرِ. والقِطرُ عِندَ أكْثرِ المُفسِّرينَ النُّحاسُ المُذابُ.

(فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ) ؛أيّ: ما استطاعَ يأجوجُ ومأجوجُ أن يَعْلُوهُ ويَصْعَدُوا فيهِ؛ لأنَّهُ أملسُ مُستوٍ مع الجَبَلِ، والجبلُ عالٍ لا يُرامُ. وارتفاعُ السَّدِّ مائتا ذِراعٍ وخَمسُونَ ذِراعًا.

ورُوِيَ في طُولِه "ما بينَ طَرَفَي الجَبَلَينِ مائةُ فَرْسخٍ، وفي عَرْضِهِ خَمْسُونَ فَرْسخًا"، قالهُ وَهْبُ بنُ مُنبِّهٍ.

(وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) لِبُعدِ عَرْضِهِ وقُوَّتِه.

رُوِيَ في الصَّحيحِ عن أبي هُريرةَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قالَ: " فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثْلُ هَذهِ وحَلَّقَ بإِصبعِهِ الإِبْهامِ والتي تليها... الحديثُ.

وعن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَخْرقُونَ السَّدَّ كُلَّ يومٍ حتَّى إذا كادُوا يَرَونَ شُعاعَ الشَّمْسِ قالَ الَّذي عَليهِم ارْجِعُوا فَستَخْرقُونَهُ غَداً فَيُعِيدُهُ اللهُ كأشَدَّ ما كانَ، حتَّى إذا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ وأرادَ اللهُ أنْ يَبْعَثَهُمْ على النَّاسِ حَفَرُوا حتَّى إذا كادُوا يَرَونُ شُعاعَ الشَّمسِ قالَ الذي عَلَيهِم ارْجِعُوا فَستَحْفُرونَهُ غداً إنْ شاءَ اللهُ، فَيَعُودُونَ إليهِ وهُوَ كَهَيئَتِهِ حِينَ تَركُوهُ فَيَخْرُقُونَهُ ويَخْرُجُونَ على النَّاسِ... الحديث وقَد تقدَّمَ آنفًا.

(قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) القائلُ هُو ذُو القرنَينِ، وأشارَ بِهذا إلى الرَّدْمِ والقوَّةِ عليهِ والانتفاعِ بِه في دَفْعِ ضَرَرِ يأجوجَ ومأجوجَ. ووَعْدُ رَبِّي هُو يومُ القِيامَةِ. وقيلَ: هُو وقتُ خُرُوجِهِم.

(جَعَلَهُ دَكَّاءَ)؛أيّ: مُستويًا بالأرْضِ.

ومَن قرأَ (دَكَّاءَ) أرادَ جَعْلَ الجبلِ أرضًا دكَّاءَ.

ومَن قرأَ (دَكًّا) فهُو مصدرُ دَكَّ يدكُّ إذا هَدَمَ وَرَضَّ. (١)

١) تفسيرُ القُرطبيُّ: (ج١١، ص٥٥- ٦٤).

تفسيرُ ابنِ كَثيرٍ:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) هُما جَبلانِ مُتناوحانِ بينهُما ثُغْرَةٌ يخرجُ مِنها يأجوجُ ومأجوجُ؛ فيَعيثُونَ فساداً، ويُهْلِكُونَ الحَرَثَ والنَّسْلَ.

ويأجوجُ ومأجوجُ مِن سُلالةِ آدمَ عليهِ السلامُ كما ثبتَ في الصَّحِيحَينِ.

(وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) لاستِعجامِ كَلامِهِم وبُعدِهِم عَن النَّاسِ..

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) عن ابنِ عبَّاسٍ: أجْرًا عَظِيمًا؛ يعني: أنَّهُم أرادُوا أنْ يَجْمَعُوا لهُ مِن بَينِهم مالاً يُعطُونَهُ إيَّاهُ؛ حتَّى يجعلَ بينَهُم وَبينَهُم سَدًّا.

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) قال ذُو القرنَين بِعفَّةٍ ودِيانَةٍ وصَلاحٍ وقَصْدٍ لِلخَيرِ: إنَّ الَّذي أعطانِي اللهُ مِن المُلْكِ والتَّمْكِينِ خَيرٌ لِي مِن الذي تَجْمَعُونَهُ؛ ولَكِنْ ساعِدُوني بِعَمَلِكُم وآلاتِ البِناء.

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ) الزُّبَرُ: جمعُ زُبْرَةٍ؛ وهِيَ القِطعةُ مِنهُ، قالَهُ ابنُ عبَّاسٍ ومُجاهِدٌ وقَتادةُ، وهِي كاللَّبِنَةِ.

(حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ)؛أيّ: وَضعَ بَعضَهُ على بَعضٍ من الأساسِ حتَّى إذا حاذَى بِهِ رُؤوسَ الجَبَلَينِ طُولاً وعَرْضًا.

(قَالَ انفُخُوا)؛أيّ: أجَّجَ عَليهِ النَّارَ.

(حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا) حتَّى صارَ كُلُّهُ نارًا.

(قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) قالَ ابنُ عبَّاسٍ ومُجاهِدٌ وعِكْرِمةُ والضَّحَّاكُ وقَتادةُ والسُّدِّيُّ: هُو النُّحاسُ المُذابُ، ويُشَبَّهُ بالبُرْدِ المُحَبَّرِ.

وعن قَتادةَ أنَّ رَجُلاً قالَ: يا رَسُولَ اللهِ، قَد رأيتُ سَدَّ يأجوجَ ومأجوجَ.

قالَ " : انْعَتْهُ لِي " قالَ: كالبُرْدِ المُحَبَّرِ؛ طريقةٌ سَوداءُ، وطريقةٌ حَمراءُ.

قالَ " : قَد رأيتَهُ " .

وقَد بعثَ الخليفةُ الواثقُ في دَولتِه بعضَ أُمرائِه ووَجَّهَ مَعهُ جيشًا؛ لِينْظُروا إلى السَّدِّ ويُعاينُوهُ ويَنعَتُوهُ لهُ إذا رَجَعُوا. فَتوصَّلُوا مِن بلادٍ إلى بلادٍ، ومِن مَلِكٍ إلى مَلِكٍ حتَّى وَصَلُوا إليهِ، ورَأوا بِناءَهُ مِن الحَديدِ ومِن النُّحاسِ، وذَكَرُوا أنَّهُم رأوا فيهِ بابًا عَظيمًا وعليهِ أقفالٌ عَظِيمةٌ، وَرأوا بَقيَّةَ اللَّبنِ والعَملِ في بُرجٍ هُناكَ. وأنَّ عِندَهُ حَرَسًا مِن المُلوكِ المُتاخِمَةِ لهُ، وأنَّهُ مُنيفٌ عالٍ شاهقٌ لا يُستطاعُ ولا ما حَولَهُ مِن الجِبالِ. ثُمَّ رَجَعُوا إلى بلادِهِم، وكانتْ غَيبَتُهُم أكثرَ مِن سَنتَينِ شاهَدُوا أهوالاً وعَجائِبَ.

(فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) يقولُ تعالى مُخبِرًا عن يأجوجَ ومأجوجَ أنَّهُم ما قَدَرُوا على أنْ يَصْعَدُوا فوقَ هذا السَّدِّ ولا قَدَرُوا على نَقْبِهِ مِن أسْفَلِهِ. ولَمَّا كانَ الظُّهورُ عليهِ أسهلَ مِن نَقْبِهِ قابلَ كُلاًّ بِما يُناسِبُه فقالَ: فَما اسْطاعُوا أنْ يَظْهَرُوهُ وما اسْتطاعُوا لَهُ نَقْبًا. وهذا دليلٌ على أنَّهُم لَمْ يَقْدِرُوا على نَقْبِهِ ولا على شَيءٍ مِنهُ.

(قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي) لَمَّا بَناهُ ذُو القرنَينِ قالَ هَذا رَحْمَةٌ مِن رَبِّي بِالنَّاسِ؛ حيثُ جَعلَ بَينَهُم وبينَ يأجوجَ ومأجوجَ حائِلاً يَمنَعُهم مِن العَيثِ في الأرضِ والفسادِ.

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي)؛أيّ: إذا اقتربَ الوعدُ الحقُّ.

(جَعَلَهُ دَكَّاءَ)؛ أيّ: ساواهُ بالأرضِ، وقالَ عِكْرمةُ: طريقًا كما كانَ.

(وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا)؛أيّ: كائنًا لا مَحالةَ[1].

تفسيرُ الجَلالَين

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) بِفَتْحِ السِّينِ وَضَمِّهَا هُنَا وَبَعْدَهمَا جَبَلاَنِ بِمُنْقَطَعِ بِلاَدِ التُّرْكِ سَدَّ الإِسْكَنْدَرِ مَا بَيْنهمَا كَمَا سَيَأْتِي.

(وَجَدَ مِن دُونِهِمَا) أَيّ: أَمَامَهُمَا.

(قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) أَيّ: لاَ يَفْهَمُونَهُ إِلَّا بَعْدَ بُطْءٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الْقَافِ.

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) بِالْهَمْزِ وَتَرْكِه: هُمَا اسْمَانِ أَعْجَمِيَّانِ لِقَبِيلَتَيْنِ فَلَمْ يَنْصَرِفَا.

(مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) بِالنَّهْبِ وَالْبَغْيِ عِنْدَ خُرُوجهمْ إِلَيْنَا.

(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا) جُعْلاً مِنْ الْمَال وَفِي قِرَاءَةٍ (خَرَاجًا).

---

[1]) تفسيرُ ابنِ كَثيرٍ: (ج٥، ص١٩٥- ١٩٩).

(**عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا**) ؛أيّ: حَاجِزًا فَلاَ يُصَلِونَ إِلَيْنَا.

(**قَالَ مَا مَكَّنِّي**) وَفِي قِرَاءَةٍ بِنُونَيْنِ مِنْ غَيْرِ إِدْغَامٍ.

(**فِيهِ رَبِّي**) مِنْ الْمَال وَغَيْرِه.

(**خَيْرٌ**) مِنْ خَرْجِكُمْ الَّذِي تَجْعَلُونَهُ لِي؛ فَلاَ حَاجَةَ بِي إِلَيْهِ وَأَجْعَل لَكُمْ السَّدَّ تَبَرُّعًا.

(**فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ**) لِمَا أَطْلُبُهُ مِنْكُمْ.

(**أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا**) حَاجِزًا حَصِينًا.

(**آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ**) قِطَعَهُ عَلَى قَدْرِ الْحِجَارَةِ الَّتِي يُبْنَى بِهَا وَجَعَلَ بَيْنهَا الْحَطَبَ وَالْفَحْمَ.

(**حَتَّىٰ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ**) بِضَمِّ الْحَرْفَيْنِ وَفَتْحِهِمَا وَضَمِّ الأَوَّلِ وَسُكُونِ الثَّانِي؛ أَيّ: جَانِبَيْ الْجَبَلَيْنِ بِالْبِنَاءِ وَوَضْع الْمَنَافِخ وَالنَّارِ حَوْلَ ذَلِكَ.

(**قَالَ انفُخُوا**) فَنَفَخُوا.

(**حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ**) أَيّ: الْحَدِيدَ.

(**نَارًا**) أَيّ: كَالنَّارِ.

(**قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا**) هُوَ النُّحَاسُ الْمُذَابُ تَنَازَعَ فِيهِ الْفِعْلاَنِ وَحُذِفَ مِنْ الأَوَّلِ؛ لإِعْمَالِ الثَّانِي – النُّحَاسِ الْمُذَابِ – عَلَى الْحَدِيد المحْمِيِّ فَدَخَلَ بَيْنَ زُبَرِه فَصَارَا شَيْئًا وَاحِدًا.

(**فَمَا اسْطَاعُوا**) أَيّ: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ.

(**أَن يَظْهَرُوهُ**) يَعْلُوا ظَهْرَهُ؛ لارْتِفَاعِهِ وَمَلاَسَته.

(**وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**) لِصَلاَبَتِهِ وَسُمْكِه.

(**قَالَ**) ذُو الْقَرْنَيْنِ.

(**هَذَا**) أَيّ: السَّدُّ والإِقْدَار عَلَيْهِ.

(**رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي**) نِعْمَةٌ؛ لأَنَّهُ مَانِعٌ مِنْ خُرُوجهِمْ.

(**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي**) بِخُرُوجِهِمْ الْقَرِيب مِنْ الْبَعْثِ.

(**جَعَلَهُ دَكَّاءَ**) مدْكُوكًا مَبْسُوطًا.

(**وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي**) بِخُرُوجِهِمْ وَغَيْرِه.

(**حَقًّا**) كَائِنًا[1].

في ظِلالِ القُرآنِ

(**حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ**) لا نستطيعُ أن نجْزِمَ بِشَيءٍ عن المكانِ الذي بلغَ إليهِ ذُو القرنَين بين السَّدَّين، ولا ما هُما هَذانِ السَّدَّان، وكُلُّ ما يُؤخَذُ مِن النَّصِّ أنَّه وَصلَ إلى مَنطقةٍ بينَ حاجزَينِ طبيعيَّينِ أو بينَ سَدَّينِ صِناعيَّينِ تفصلُهما فَجْوةٌ أو مَمَرٌّ.

[1] تفسيرُ الجَلالَين: (ج١، ص٣٩٤- ٣٩٥).

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ وَجدَ هُنالِكَ قَومًا مُتخَلِّفينَ لا يكادُونَ يَفْقَهُونَ قولاً.

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ عِندَما وَجدُوهُ فاتحًا قويًّا، وتَوسَّمُوا فيه القُدرَةَ والصَّلاحَ عَرَضُوا عليهِ أنْ يُقيمَ لهُم سَدًّا في وَجْهِ يأجُوجَ ومأجوجَ الَّذينَ يُهاجِمُونَهُم مِن وراءِ الحاجِزَينِ ويُغيرُونَ عليهِم مِن ذلكِ المَمَرِّ فَيَعيثُونَ في أرضِهِم فَسادًا، ولا يَقْدِرُونَ على دَفْعِهِم وصَدِّهِم؛ وذلكَ مُقابِلَ خَراجٍ من المالِ يَجمعُونَه لهُ مِن بينِهم.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ وتَبعًا للمَنهجِ الذي أعلنَهُ ذلك الحاكِمُ الصَّالِحُ مِن مُقاومَةِ الفسادِ في الأرضِ فقَد ردَّ عليهِم عَرْضَهُم الذي عَرَضُوهُ مِن المالِ وتطوَّعَ بإقامةِ السَّدِّ، ورأى أنَّ أيسرَ طريقةٍ لإقامَتِه هيَ رَدْمُ المَمَرِّ بينَ الحاجِزَينِ الطبيعيَّينِ. فَطلَبَ إلى أولئكَ القومِ المُتخَلِّفينَ أنْ يُعينُوهُ بقوَّتِهم الماديَّةِ والعَضَليَّةِ.

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ جَمَعُوا لهُ قِطَعَ الحديدِ؛ فَوضَعَها في الفتْحةِ بين الحاجِزَينِ؛ فأصبَحا كأنَّهُما صَدَفتانِ تُغَلِّفانِ ذلكَ الكومَ بينَهُما، وعِندَما أصبحَ الرُّكامُ بمُساواةِ القِمَّتَينِ قالَ انفخُوا على النَّارِ لتسخينِ الحديدِ؛ حتَّى إذا صارَ نارًا لِشدَّةِ تَوهُّجِه واحْمِرارِه قالَ آتُوني أُفْرِغْ عليهِ نُحاسًا مُذابًا؛ فَيَتَخلَّلَ الحديدَ ويَختلِطَ

بهِ؛ فيَزيدَهُ صَلابةً؛ وبِذلكَ التحمَ الحاجزانِ، وأُغْلِقَ الطريقُ على يأجوج ومأجوج. وكان هذا الَّذي هَدَى اللهُ إليه ذا القرنَينِ وذَكَرَهُ في كتابِه الخالدِ سَبْقًا للعِلْمِ البشريِّ الحديثِ بِقُرونٍ لا يَعلَمُ عَددَها إلَّا اللهُ.

(**فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**) فَما اسْطاعُوا أنْ يَتَسَوَّرُوهُ، وما اسْتطاعُوا أنْ يَنْفذُوا منهُ؛ وبِذلكَ تَعذَّرَ عليهِم أن يُهاجِمُوا أولئكَ القومَ الضِّعافَ المُتخَلِّفينَ فأمِنُوا واطْمأنُّوا.

(**قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي**) ونَظرَ ذُو القرنَينِ إلى العملِ الضخْمِ الذي قامَ بهِ، فَلَمْ يأخُذْهُ البَطرُ والغُرورُ، ولمْ تُسْكِرْهُ نَشْوةُ القوَّةِ والعِلْمِ؛ لَكنَّه ذَكَرَ اللهَ فَشَكَرَهُ وَرَدَّ إليهِ العملَ الصالِحَ الذي وَفَّقَهُ إليهِ، وتَبرَّأَ مِن قُوَّتِه إلى قُوَّةِ اللهِ وفَوَّضَ إليهِ الأمرَ.

(**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**) وأعلنَ ما يُؤمِنُ بهِ مِن أنَّ الجِبالَ والحواجِزَ والسُّدودَ سَتُدَكُّ قبلَ يومِ القيامةِ؛ فتعودَ الأرضُ سَطحًا أجردَ مُستويًا. وبِذلكَ تنتهي سِيرةُ ذي القرنَينِ النموذجُ الطَّيِّبُ لِلحاكِمِ الصَّالِحِ، يُمَكِّنُهُ اللهُ في الأرضِ، ويُيسِّرُ لهُ الأسبابَ فيَجتاحَ الأرضَ شَرْقًا وغَرْبًا؛ لَكنَّهُ (**لا يتجبَّرُ، ولا يتكبَّرُ، ولا يطغَى، ولا يَبطرُ**)، ولا يتَّخِذُ مِن الفُتوحِ وسيلةً لِلغُنْمِ المادِّيِّ واستغلالِ الأفرادِ والجَماعاتِ والأوطانِ، ولا يُعامِلُ البلادَ المفتوحةَ مُعاملةَ الرَّقيقِ، ولا يُسخِّرُ أهلَها في أغراضِه وأطماعِه؛ إنَّما ينشرُ العدلَ في كلِّ مكانٍ يحلُّ بهِ، ويُساعِدُ المُتخَلِّفينَ ويدرأُ عنهُم العُدوانَ دُونَ مُقابلٍ، ويَستخدِمُ القُوَّةَ التي يَسَّرَها اللهُ لهُ في (**التعميرِ والإصلاحِ وإحقاقِ الحقِّ**)، ثُمَّ يُرجِعُ كُلَّ خيرٍ يُحقِّقُهُ اللهُ على

يَديهِ إلى رَحمةِ اللهِ وفَضْلِه، ولا يَنْسَى وهُو في إبَّانِ سَطوتِه قُدرةَ اللهِ وجَبروتَه، وأنَّه راجِعٌ إليهِ.

فمَن يأجوجُ ومأجوجُ؟ وأينَ هُمُ الآنَ؟ وماذا كان مِن أمْرِهِم وماذا سَيكُونُ؟

كُلُّ هَذهِ أسئلةٌ تصعبُ الإجابةُ عليها على وَجْهِ التحقيقِ؛ فنحنُ لا نَعرفُ عنهُم إلاّ ما جاءَ في القُرآنِ الكريمِ ووَردَ في الأثرِ الصحيحِ.

والقُرآنُ الكريمُ يَذكرُ في هذا المَوضعِ ما حكاهُ مِن قولِ ذِي القرنَينِ: **(فإذاجاءَوَعْدُ رَبِّيجَعَلَهُدَكَّاءَو كانَوَعْدُرَبِّيحَقًّا)**، وهذا النَّصُّ لا يُحدِّدُ زَمانًا. ووَعْدُ اللهِ؛ بمعنى وَعْدِه بِدَكِّ السَّدِّ ربَّما يكونُ قد جاء مُنذُ أنْ هَجمَ التَّتارُ، وانْساحُوا في الأرضِ، ودَمَّرُوا المَمالكَ تدميرًا.

وفي مَوضعٍ آخرَ في سُورةِ الأنبياءِ: **(حتَّىإذافُتِحَتْيأجوجُومأجوجُوهُمْمِنكُلِّحَدَبٍيَنْسِلُونَ*واقْتَرَبَالوَعْدُالحَقُّ)** وهذا النَّصُّ كذلكَ لا يُحدِّدُ زَمانًا مُعيَّنًا لخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ؛ فاقترابُ الوعدِ؛ بمعنى: اقترابِ الساعةِ قَد وقعَ مُنذُ زَمَنِ الرَّسُولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فَجاءَ في القُرآنِ الكريمِ: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ). والزمانُ في الحِسابِ الإلهيِّ غَيرُه في حِسابِ البَشرِ؛ فقَد تُمرُّ بينَ اقترابِ السَّاعةِ ووُقُوعِها آلافُ السِّنينَ أو القُرونِ يَراها البَشَرُ طويلةً مديدةً وهِيَ عِندَ اللهِ وَمْضَةٌ قَصيرةٌ. وإذنْ: فمِن الجائزِ أنْ يكونَ السَّدُّ قَد فُتِحَ في الفترةِ ما بينَ: اقْتَرَبَتِ السَّاعةُ... ويَومِنا هَذا، وتكونُ غاراتُ المَغُولِ والتَّتارِ التي اجْتاحَتِ الشَّرْقَ هِيَ انسِياحُ يأجوجَ ومأجوجَ.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ الذي رَواهُ الإمامُ أحمدُ عن زَينَبَ بِنْتِ جَحْشٍ زَوْجِ النبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ قالتَ: اسْتيقَظَ الرَّسُولُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلّمَ مِن نَومِهِ مُحْمَرَّ الوجْهِ وهُو يَقولُ: " وَيلٌ لِلعَربِ مِن شَرٍّ قَد اقْتَرَبَ. فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثلُ هذا، وحَلَّقَ بإصبَعيهِ السَّبَّابةِ والإبهامِ.

قُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ؛ أنَهْلِكُ وَفِينا الصَّالِحُونَ؟ قالَ: نَعَم؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ"(١).

وكانت هذه الرُّؤيا مُنذُ أكثرَ مِن ثلاثةَ عشرَ قرنًا ونِصْفَ قَرنٍ مِن الزَّمنِ، وقَد وقَعتْ غاراتُ التَّتارِ بعدَها ودَمَّرَتْ مُلْكَ العَرَبِ بتدميرِ الخِلافةِ العبَّاسيَّةِ على يَدِ "هُولاكو" في خِلافَةِ "المُستعْصِمِ" آخرِ مُلوكِ العبَّاسيِّينَ.

وقَد يكونُ هذا تعبيرَ رؤيا الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم وعِلْمُ ذَلِكَ عِندَ اللهِ.

وكلُّ ما نَقُولُه "ترجيحٌ لا يَقينٌ".(٢)

التحريرُ والتنويرُ - تفسيرُ ابنِ عاشُورٍ

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) السُّدُّ بِضَمِّ السِّينِ وفَتْحِها هو الجَبَلُ، ويُطلَقُ – أيضًا – على الجِدارِ الفاصلِ؛ لأنَّهُ يُسَدُّ بهِ الفَضاءُ، وقيلَ: الضَّمُّ في الجبلِ، والفتْحُ في الحاجزِ. والمُرادُ بالسَّدَّينِ هُنا الجَبلانِ، وبالسَّدِّ المُفرَدِ الجِدارُ الفاصلُ، والقرينةُ هي التي عَيّنَتِ المُرادَ مِن هذا اللفْظِ المشتَرَكِ. وتعريفُ السَّدَّيْنِ هو تعريفُ الجِنْسِ؛ أيّ: بينَ سَدَّينِ مُعيَّنَينِ؛ أيّ: اتَّبَعَ طريقًا آخرَ في غَزوِهِ حتّى بلغَ بين جَبَلَينِ مَعلُومَينِ.

١) مسند أحمد: (٢٧٤١٦).
٢) في ظِلالِ القُرآنِ: (ج٤، ص٢٢٩٢- ٢٢٩٤).

(وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) ؛أيّ: أنَّهُم لا يَعرِفُونَ شيئًا مِن قولِ غَيرِهِم؛ فلُغَتُهُم مُخالِفةٌ لِلُغاتِ الأُمَمِ المَعرُوفةِ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: أنَّهُم قومٌ مُتوغِّلُونَ في البَداوةِ والبلاهةِ؛ فلا يَفْهَمُونَ ما يَقصدُه مَن يُخاطِبُهم.

قرأَ الجُمهورُ (يَفْقَهُونَ) بِفتْحِ الياءِ والقافِ؛ أيّ: لا يَفْهَمُونَ قولَ غَيرِهِم. وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ بِضمِّ الياءِ وكسرِ القافِ؛ أيّ: لا يستطِيعونَ إفهامَ غَيرِهِم قولَهُم، والمَعنيانِ مُتلازِمانِ. (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) هؤلاءِ القومُ مُجاوِرُونَ لِيأجُوجَ ومأجوجَ، وكانوا أضعفَ مِنهُم فَسألُوا ذا القرنَينِ أنْ يَقيهِمْ مِن فسادِ يأجوجَ ومأجوجَ. وجُملةُ (قَالُوا) استئنافٌ لِلمُحاوَرةِ. وافتتاحُهم الكلامَ بالنداءِ يدلُّ على أنَّهُم نادَوهُ نِداءَ المُستغِيثِ المُضطَرِ، ونِداؤهُم إيَّاهُ بِلَقَبِ ذي القرنَينِ يدلُّ على أنَّهُ مشهورٌ بِذلِكَ اللقبِ بينَ الأُمَمِ المُتاخِمَةِ لِبلادِه. وقَرأَ الجُمهورُ (ياجوج وماجوج) بِدُونِ هَمْزٍ، وقَرأُه عاصِمٌ بالهَمزِ.

(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) الخَرْجُ هو المالُ الذي يُدْفَعُ لِلمَلِكِ. وقَرأَ الجُمهورُ (سُدًّا) بِضَمِّ السِّينِ، وقَرأهُ الآخرُونَ بِفتْحِ السِّينِ.

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) ؛أيّ: ما آتاني اللهُ مِن المالِ والقُوَّةِ خيرٌ مِن الخَراجِ الذي عَرَضْتُمُوهُ، أو خيرٌ مِن السَّدِّ الذي سألتُمُوهُ. وقد بَدا لهُ إنْ سَدَّ عليهِم المُرورَ مِن بينِ الصَّدَفَينِ تَحَيَّلُوا فَتَسَلَّقُوا الجِبالَ، فأرادَ أنْ يَبْنِيَ سُوراً مُمْتَدًّا على طُولِ حُدودِ البِلادِ حتَّى يَتعذَّرَ عليهِم تسلُّقُها؛ ولِذلكَ سَمّاهُ رَدْمًا. والرَّدْمُ هُو البِناءُ المُردَّمُ، شُبِّهَ بِالثَّوبِ المُردَّمِ المُؤتلِفِ مِن رِقاعٍ فَوقَ رِقاعٍ؛ أيّ: سُدًّا مُضاعَفًا. ولَعلَّهُ بَنى جِدارَينِ

مُتباعِدَين ورَدَمَ الفراغَ الذي بَينَهُما بالتُرابِ المخلُوطِ ليتعذَّرَ نَقْبُه. ولَمَّا كانَ ذلكَ يَستدعِي عَمَلَةً كثيرِينَ قالَ لهُم (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا)؛ أيّ: بِقوَّةِ الأبْدانِ، أراد تسخيرَهُم للعَملِ لِدَفْعِ الضُّرِّ عنهُم.

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ) الإيتاءُ هو المُناوَلةُ؛ وليسَ تكليفًا للقومِ بأنْ يَجْلبُوا لهُ الحديدَ من مَعادِنِه؛ وكأنَّ هذا لِقَصدِ إقامةِ أبوابٍ مِن حَديدٍ في مداخلِ الرَّدْمِ لِمُرورِ سُيولِ الماءِ في شُعَبِ الجبلَ حتَّى لا يَنهَدِمَ البناءُ بأنْ جعلَ الأبوابَ الحديديَّةَ كالشَّبابيكِ تمنعُ مُرورَ الناسِ ولا تَمنَعُ انسيابَ الماءِ مِن بينِ قُضبُها، وجَعلَ قُضْبانَ الحَديدِ مَعضُودةً بالنُّحاسِ المُذابِ المَصبُوبِ على الحديدِ. والزُبَرُ جمعُ زُبْرَةٍ وهِي القِطعَةُ الكبيرةُ من الحديدِ.

(حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) الصَّدَفُ هو جانبُ الجَبلِ، قال ابنُ عَطيَّةَ والقزوينيُّ في "الكشْفِ": لا يُقالُ إلاّ صَدَفانِ بالتثنِّي، وقال أبي عِيسى: الصَّدَفُ كُلُّ بناءٍ عَظيمٍ مُرتفِعٍ. فَلَمَّا آتَوهُ زُبَرَ الحديدِ نَضَّدَها وبَناها وجَعلَها بمُستَوى الصَّدَفَينِ.

(قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) الخِطابُ لِلْعَمَلَةِ، والتقديرُ: انفخُوا في الكِيرَانِ المَصفُوفةِ على طُولِ ما بينَ الصَّدَفَينِ مِن زُبَرِ الحديدِ. والقِطرُ بكَسرِ القافِ هو النُّحاسُ المُذابُ.

(فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) ضمير اسْطَاعُوَا واسَتَطَاعُوا ليأجوج ومأجوج.

والظُّهورُ هو العُلُوُّ. والنَّقْبُ هو كَسْرُ الرَّدْمِ. وعدمُ استطاعتِهم ذلكَ؛ لارتفاعِه وصَلابَتِه و (**اسْطَاعُوا**) تخفيفُ (**اسْتَطَاعُوا**)، والجمعُ بَينَهُما تَفنُّنٌ في فَصاحةِ الكلامِ كراهيةِ إعادةِ الكلمةِ، واستطاعةُ نَقْبِ السَّدِّ أقْوى مِن استطاعةِ تَسلُّقِه، فَهذا مِن مواضعِ دلالةِ زيادةِ المَبْنى على زيادةٍ في المَعنى.

(**قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي**) الجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّه لَمَّا انتهَى مِن وَصْفِ الرَّدْمِ أثارَ سؤالاً: ماذا صَدَرَ مِن ذي القرنَينِ حينَ أتمَّ هذا العملَ العظيمَ؟

فيُجابُ بجُملَة: قالَ هَذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي. والإشارةُ بِهذا إلى الرَّدْمِ، وهو رَحْمَةٌ لِلنَّاسِ لما فيهِ مِن رَدِّ فَسادِ أُمَّةِ يأجوجَ ومأجوجَ عن أُمَّةٍ أُخْرَى صالحَةٍ. وجَعْلٌ مِن اللهِ؛ لأنَّ اللهَ ألهَمَهُ ذلكَ وَيَسَّرَ لهُ ما هو صَعْبٌ.

(**فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ**) نَطقَ بالحِكْمةِ؛ لأنَّهُ يَعلَمُ أنَّ كُلَّ حادثٍ صائرٌ إلى زَوالٍ؛ ولأنَّهُ عَلِمَ أنَّ عَملاً عَظِيمًا مِثل ذلكَ يحتاجُ إلى التعَهُّدِ والمُحافَظةِ عليهِ من الانهدامِ، وعَلِمَ أنّ ذلكَ لا يتسنَّى في بعضِ أزمانِ انحطاطِ المَملَكةِ الذي لا مَحِيصَ مِنهُ لِكُلِّ ذِي سُلطانٍ. والوعدُ هو الإخبارُ بأمرٍ مُستقبَلٍ، وأرادَ بهِ ما في عِلْمِ اللهِ تعالى مِن الأجَلِ الذي ينتهي إليهِ دوامُ ذلكَ الرَّدْمِ، فاستعارَ له اسمَ الوعدِ. ويجوزُ أن يكونَ اللهُ قد أوحَى إليهِ أو ألهَمَهُ أنَّ لِذلكَ الرَّدْمِ أجَلاً مُعيَّنًا ينتهي إليهِ. والدَّكُّ مَصدَرٌ بمَعنَى المفعولِ لِلْمُبالَغَةِ؛ أيّ: جَعلَهُ مَدْكُوكًا مُسوًّى بالأرضِ بعدَ ارتفاعٍ.

(وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) الجُملَةُ تذييلاً بَديعًا لِلعِلْمِ بأنَّه لا بُدَّ له مِن أجَلٍ ينتهِي؛ أيّ: وكان تأجيلُ اللهِ الأشياءَ حقًّا ثابِتًا لا يَتخلَّفُ[1].

خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) السَّدُّ هو الحاجِزُ بينَ شَيئَينِ، وقَد يكونُ أمْرًا (مَعنويًّا أو مَحسُوسًا) كالجِبالِ. والمُرادُ بالسَّدَّينِ هُنا جَبَلانِ بَينَهُما فَجْوةٌ يأتي مِنها العدوُّ.

(وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا) ؛أيّ: تَحتَهُما.

(قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) ؛أيّ: لا يَعرِفُونَ الكلامَ، ولا يَفْقَهُونَ القولَ؛ حتَّى ولا يَقرَبُونَ مِن أنْ يَفْهَمُوا، فلا ينفِيَ عنهُم الفهْمَ؛ بلْ مُجرَّدَ القُرْبِ مِنهُ؛ وكأنَّه لا أملَ لهُ في أنْ يُفْهِمَهُم، ثُمَّ قالَ بعدَها مُباشرةً (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ) فأثبتَ لَهُمُ القولَ؟

يَبدُو أنَّه خاطبَهُم بِلُغةِ الإشارةِ، واحتالَ على أنْ يَجْعَلَ مِن حَركاتِهم كلامًا يَفْهَمُهُ ويُنفِّذَ لهُم ما يُريدُونَ. ولا شكَّ أنَّ ذلك احتاجَ مِنهُ (جُهْدًا وصَبْرًا) حتَّى يفهمَهُم ويَفهَمَ مِنهُم؛ وإلَّا فقَد كان في وُسْعِه أن يَنْصرِفَ عنهُم بِحُجَّةِ أنَّهُم (لا يَتكلَّمُونَ ولا يَتفاهَمُونَ)؛ فهُو مِثالٌ لِلرَّجُلِ المُؤمِنِ الحَريصِ على عَملِ الخَيرِ، ولا يألُو جُهدًا في نَفْعِ القومِ وهِدايتِهِم.

[1] التحريرُ والتنويرُ - تفسيرُ ابنِ عاشُورٍ: (ج١٦، ص٣٠- ٤٠).

والمُرادُ بالقَولِ هُنا دلالةٌ مُعبِّرةٌ تعبيرَ القولِ فلا بُدَّ أنَّهُم تعارَفُوا على شَيءٍ يَتفاهَمُونَ بهِ.

(قالُوا يا ذا القَرنَينِ إنَّ يأجُوجَ ومأجُوجَ مُفسِدُونَ في الأرضِ فَهَل نَجعَلُ لَكَ خَرجًا عَلَى أن تَجعَلَ بَينَنا وبَينَهُم سَدًّا) يأجوجُ ومأجوجُ قومٌ خَلْفَ (السَّدَّينِ أو الجَبَلَينِ) يَنْفذُونَ إليهِم مِن هذهِ الفَجْوةِ فيُؤذونَهُم ويَعتَدُونَ عليهِم؛ لِذلكَ عَرَضُوا عليهِ أنْ يَجْعَلُوا لهُ (أجْرًا أو خَراجًا) يَدفَعُونَه إليهِ على أنْ يَسُدَّ لَهُم هذه الفَجْوَةَ فلا يَنْفُذُ إليهِم أعداؤهُم.

(قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيرٌ) القوْلُ هُنا – أيضًا – قَوْلُ دلالةٍ وإشارةٍ تُفهِمُهُم أنَّهُ في غِنىً عن الأجْرِ؛ فعِنْدَه الكثيرُ من الخَيرِ الذي أعطاهُ اللهُ؛ إنَّما هُو في حاجةٍ إلى قُوَّةٍ بَشريَّةٍ عاملةٍ تُعينُه وتَقومُ مَعهُ بتَنفيذِ هذا العملِ.

ونَفْهَمُ مِن الآيةِ الكريمةِ أنَّ المَعُونَةَ مِن المُمكَّنِ في الأرضِ المالكِ للشَّيءِ يجبُ أنْ تكونَ حِسْبةً للهِ، وأنْ تُعينَ مَعُونةً لا تَحْوِجُ الذي تُعينُهُ إلى أنْ تُعينَهُ كلَّ وَقْتٍ؛ بلْ أعَنْهُ إعانةً تُغْنيهِ أن يحتاجَ إلى المَعونَةِ فيما بعدُ؛ كأنَّ تَعَلُّمَهُ أنْ يَعملُ بِنَفْسِه بَدَلَ أنْ تُعطِيه مَثلاً مالاً يُنْفِقُهُ في يَومِهِ وساعتِه ثُمَّ يَعودُ مُحتاجًا؛ لِذلكَ يقولُونَ: "لا تُعطِني سَمَكَةً؛ ولكنْ عَلِّمني كيفَ أصطادُ"، وهكذا تكونُ الإعانةُ مُستمرَّةً دائمةً، لها نَفَسٌ ولها عُمْرٌ.

(فأعِينُونِي بِقُوَّةٍ) لَمَّا كانَ ذُو القرنَينِ مُمكَّنًا في الأرضِ، وفي يَدِهِ الكثيرُ مِن الخَيراتِ والأموالِ، فهُو بِحاجَةٍ إلى طاقةٍ بَشريَّةٍ عاملةٍ قويَّةٍ مُخْلِصَةٍ.

(**أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا**) لمْ يَقُلْ سَدًّا؛ لأنَّ السَّدَّ الأصَمَّ يَعيبُهُ أنَّه إذا حَصَلَتْ رَجَّةٌ – مَثلاً – في ناحيةٍ مِنهُ تَرُجُّ الناحيةَ الأُخْرى؛ لِذلِكَ أقامَ لهُم رَدْمًا؛ أيّ: يَبني حائِطًا مِن الأمامِ وآخرَ مِن الخَلْفِ، ثُمَّ يَجعَلُ بَينَهُما رَدْمًا مِن التُّرابِ؛ لِيكُونَ السَّدُّ مَرِنًا لا يتأثَّرُ إذا ما طرأتْ عليهِ هَزَّةٌ أرضيَّةٌ مَثلاً، فيكونُ فيهِ التُّرابُ مِثلَ النابضِ الذي يَمتَصُّ الصَّدَمات. والرَّدْمُ أنْ تَضعَ طبَقاتِ التُّرابِ فوقَ بَعضِها وتُسوِّيها بالأرضِ.

(**آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ**) لمْ يَكُنْ ذُو القرنَينِ بِمُفْرَدِهِ؛ بل مَعهُ جيشٌ وقُوَّةٌ وعُدَدٌ وآلات... وكان بِمَقْدُورِهِ أنْ يأمُرَ رِجالَهُ بِعَملِ هذا السَّدِّ؛ لكنَّه أمرَ القومَ وأشْرَكَهُم مَعهُ في العملِ لِيُدَرِّبَهُم ويُعَلِّمَهُم ما دامُوا قادِرينَ ولَدَيهِم الطاقةُ البَشريَّةُ اللازِمةُ لهذا العملِ. وما دامَ رَبُّكَ قَد أعطاكَ القُوَّةَ فاعملْ ولا تَعْتَمِدْ على الآخَرِينَ، لذلكَ تجِدُ هُنا أوامرَ ثلاثةً: (**أَعِينُونِي بِقُوَّةٍ، آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ، آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيهِ قِطْرًا**). وزُبَرُ الحَديدِ؛ أيّ: القِطَعُ الكبيرةُ مِنهُ ومُفْرَدُها "زُبْرَةٌ". والقِطْرُ هو النُّحاسُ المُذابُ؛ لَكِنْ كيفَ بَنى ذُو القرنَينِ هذا السَّدَّ من الحَديدِ والنُّحاسِ؟ هذا البِناءُ يُشبِهُ ما يَفعَلُهُ المُهَنْدسونَ اليومَ في الخرسانةِ المُسلَّحةِ؛ لَكنَّهُ استخدمَ الحديدَ وسَدَّ ما بينَهُ مِن فَجْواتٍ بالنُّحاسِ المُذابِ؛ لِيَكُونَ أكثرَ صلابةً، فلا يَتمكَّنُ الأعداءُ مِن خَرْقِهِ، ولِيكُونَ أملسَ ناعِمًا فلا يَتَسلَّقُونَهُ ويَعلونَ عليهِ.

(**حَتَّى إِذَا سَاوَى بَينَ الصَّدَفَينِ**) الصَّدَفُ هو الجانبُ، ومِنهُ قولُه تعالى في الآيةِ ١٥٧ من سُورةِ الأنعامِ: (**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا**).؛أيّ:

مالَ عَنها جانبًا. ومعنَى (**سَاوَى بينَ الصَّدَفَيْنِ**) ؛ أيّ: ساوَى الحائِطَينِ الأماميِّ والخَلْفيِّ بِالجَبَلَينِ.

(**قالَ انْفُخُوا**) ؛ أيّ: في الحديدِ الذي أُشعِلَ فيهِ.

(**حَتَّى إذا جَعَلَهُ نارًا**) ؛ أيّ: حتَّى إذا التهبَ الحديدُ.

(**قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيهِ قِطْرًا**) نادَى بِالنُّحاسِ المُذابِ. وهَكذا انْسَبَكَ الحديدُ المُلْتهِبُ مع النُّحاسِ المُذابِ فأصبحَ حائِطًا صُلْبًا عالٍ أملسَ.

(**فَمَا اسْتَطَاعُوا أنْ يَظْهَرُوهُ**) أنْ يَظْهَرُوهُ؛ أيّ: ما استطاعتْ يأجوجُ ومأجوجُ أنْ يَعْلُوا السَّدَّ أو يَتَسَلَّقُوهُ ويَنْفُذُوا مِن أعلاهُ؛ لأنَّه ناعمٌ أمْلَسُ ليسَ بهِ ما يُمكِنُ الإمساكُ بهِ.

(**وما اسْتَطَاعُوا لهُ نَقْبًا**) ؛ لأنَّهُ صُلْبٌ.

(**قالَ هَذا رَحْمَةٌ مِن رَبِّي**) لمْ يَفُتْ ذا القرنَينِ – وهُو الرَّجُلُ الصَّالِحُ – أنْ يَسْنِدَ النِّعمَةَ إلى المُنْعِمِ الأوَّلِ، وأنْ يَعتَرِفَ بأنَّه مُجرَّدُ (واسَطَةٍ وأداةٍ) لِتنفيذِ أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فقالَ: (**هَذا رَحْمَةٌ مِن رَبِّي**) ؛ لأنَّني أخَذْتُ المُقوِّماتِ التي مَنَحَني اللهُ إيَّاها، واستعمَلْتُها في خِدمَةِ عِبادِه. الفِكْرُ مَخلُوقٌ للهِ، والطَّاقةُ والقوَّةُ مَخلُوقةٌ للهِ، الموادُّ والعناصرُ في الطبيعةِ مَخلُوقةٌ للهِ، إذنْ: فَما لِي أنْ أقولَ: أنا عَمِلْتُ كَذا وكذا؟

(**فإذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي**) ؛ أيّ: الآخِرَة. (**جَعَلَهُ دَكَّاءَ**) إيَّاكُمْ أن تَظُنُّوا أنَّ صَلابَةَ هذا السَّدِّ ومَتانَتَهُ باقيةً خالِدةً؛ إنَّما هذا عَملٌ لِلدُّنيا فحسبْ، فإذا أتَى وَعدُ اللهِ بالآخِرَةِ

والقيامَةِ جَعلَهُ اللهُ دَكًّا وسَوَّاهُ بالأرضِ؛ ذلكَ لِكَي لا يَغْتَرُّونَ بهِ، ولا يَتمَرَّدُونَ على غَيرِهِم بعدَ أنْ كانُوا مُسْتَذَلَّينِ مُسْتَضْعَفِينَ لِيأجوجَ ومأجوجَ؛ وكأنَّه يُعطِيهِم رَصِيداً ومَناعةً تَقيهِم الطُّغيانَ بعدَ الاستِغناءِ.

(وَكَانَوَعْدُرَبِّيحَقًّا) واقِعًا لا شَكَّ فيهِ. والتحقيقُ الأخيرُ في مسألةِ ذِي القرنَينِ وبِناءِ السَّدِّ: أنَّهُ واقعٌ بِمَكانٍ يُسمَّى الآنَ "بلخ" والجَبلانِ مِن جبالِ القُوقازِ، وهُما مَوجُودانِ فِعلاً، وبينَهُما فَجْوةٌ مبنيٌّ فيها، ويَقولُونَ: إنَّ صاحِبَ هذا البناءِ هو "قورش"، وهذا المكانُ الآنَ بينَ بَحْرِ قزوينَ والبحرِ الأسودِ(١).

الوسيط لمُحمَّد سيِّد طنطاويّ

(حَتَّىٰٓإِذَابَلَغَبَيْنَالسَّدَّيْنِ)؛أيّ: بعدَ أنْ بَلَغَ ذُو القرنَينِ مَغْرِبَ الشَّمسِ ومَشْرِقَها سارَ في طريقٍ ثالثٍ مُعتَرِضٍ بينَهُما آخِذاً فيهِ حَتَّى بَلَغَ في مَسيرِهِ ذلك بَينْ الجَبلَينِ، وسَمَّى الجبلَ سَدًّا؛ لأنَّهُ يَسدُّ فَجًّا مِن الأرضِ. وقالُوا "السَّدَّانِ" هُما جَبلانِ مِن جهةِ أرمينية وأذربيجانَ، وقيلَ: هُما في نهايةِ أرْضِ التُّركِ مِمَّا يَلي المَشْرِقَ.

(وَجَدَمِندُونِهِمَاقَوْمًا)؛ أيّ: وَجَدَ مِن وَراءِ الجَبلَينِ أُمَّةً مِن النَّاسِ لُغَتُهُم لا تكادُ تُعرَفُ لِبُعدِهِم عنْ بَقيَّةِ الناسِ؛ ولِذا قال سُبحانَه وتعالى: **(لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)**؛أيّ: لا يكادُ هؤلاءِ القومُ **(يَفهمُونَ أو يَقرؤونَ)** ما يَقولُه النَّاسُ لهُم

١) خواطِرُ الشيخ مُحمَّد مُتولِّي الشِّعراويّ: (ج١٤، ص٨٩٨٨-٨٩٩٣).

لِ(غَرابةِ لُغَتِهِم، وقِلَّةِ فِطنَتِهِم، ولا يَعرِفُ الناسُ – أيضًا – ما يقولُه هؤلاءِ القومُ لهُم لِشِدَّةِ عُجْمَتِهِم.

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)؛ أيّ: قالَ هؤلاءِ القومُ: (يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ).

ويأجوجُ ومأجوجُ اسمانِ أعجميَّانِ، قِيلَ: مأخُوذانِ من الأوْجَةِ؛ وهِي (الاختِلاطُ أو شِدَّةُ الحَرِّ)، وقِيلَ: مِن الأوْجِ؛ وهُو سُرعةُ الجَرْي.

واختُلِفَ في نَسَبِهِم؛ فقِيلَ: هُمْ مِن ولدِ يافثِ بنِ نُوحٍ، والتُّركُ مِنهُم، وقِيلَ: يأجوجُ مِن التُّركِ ومأجوجُ مِن الدَّيلَمِ؛ أيّ: قالَ هؤلاءِ القومُ – الَّذِينَ لا يكادُونَ يَفقَهُونَ قولاً – لِذي القرنَينِ – بعدَ أن تَوسَّمُوا فيهِ القُوَّةَ والصَّلاحَ... – يا ذا القرنَينِ: إنَّ قبيلةَ يأجوجَ ومأجوجَ مُفْسِدُونَ في الأرضِ بشتَّى أنواعِ الفسادِ والنهْبِ والسلْبِ.

وفي الصَّحِيحَينِ من حديثِ زَينبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللّٰهُ عنها قالتْ: اسْتَيقظَ رسولُ اللّٰهِ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسلَّمَ مِن نَومِه مُحمَرٌّ وَجْهُهُ وهُو يقولُ: " لا إلهَ إلَّا اللّٰهُ، وَيلٌ لِلعَربِ مِن شَرٍّ قَد اقْترَبَ، فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يأجُوجَ ومأجُوجَ مِثلُ هَذِهِ، وحَلَّقَ بينَ أصابِعِه. قُلْتُ: يا رَسُولَ اللّٰهِ، أنَهْلِكُ وَفِينا الصَّالِحُونَ؟ قالَ: نَعَم؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ"[1].

[1] صحيح البخاري: (٧٠٥٩).

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يدلُّ هذا العَرْضُ على ثِقَتِهِم فيهِ وحُسْنِ أدبِهِم مَعهُ؛ حيثُ خاطَبُوهُ بِصيغةِ الاستفهامِ الدالَّةِ على أنَّهُم يُفوِّضُونَ الأمرَ إليهِ. والخَرْجُ هُو ما يُخْرِجُهُ الإنسانُ مِن مالِهِ لِغَيرِه.

وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ (خَراجًا)، وهُما بِمعنى واحدٍ؛ أيّ: هلْ نَجعَلُ لكَ مِقْدارًا كبيرًا مِن أموالِنا على سَبيلِ الأجْرِ، لِكي تُقيمَ بينَنا وبينَ قبيلةِ يأجوجَ ومأجوجَ سَدًّا يَمنعُهُم مِن الوصولِ إلينا ويَحُولُ بينَنا وبينَهُم؟

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ رَدَّ عليهِم ذُو القرنَينِ بِما يَدلُّ على قُوَّةِ إيمانِه وحِرصِه على إحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ. فقالَ: إنَّ ما بَسَطَهُ اللهُ تعالَى لِي مِن الرِّزْقِ والمالِ والقُوَّةِ... خَيرٌ مِن خَرْجِكُمْ ومالِكُم الذي تُريدُونَ أن تجْعَلُوهُ لِي في إقامةِ السَّدِّ بينَكُم وبينَ يأجوجَ ومأجوجَ.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾؛ أيّ: وَفِّرُوا عليكُم أموالَكُم، وأَعِينُونِي بِكُلِّ ما أتقوَّى بهِ؛ حتَّى أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وبينَ يأجوجَ ومأجوجَ حاجزًا حَصينًا وجِدارًا مَتينًا يَحُولُ بينَكُم وبينَهُم. والرَّدْمُ هو الشَّيءُ الذي يُوضَعُ بَعضُه فوقَ بَعضٍ حتَّى يَتَّصِلَ ويَتلاصقَ. يُقالُ: ثوبٌ مُرَدَّمٌ؛ أيّ: فيهِ رِقاعٌ فوقَ رِقاعٍ، وسَحابٌ مُرَدَّمٌ؛ أيّ: مُتكاتِفٌ بَعضُه فوقَ بعضٍ. قالَ ابنُ عبَّاسٍ: الرَّدْمُ أشدُّ الحِجابِ.

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ الزُّبَرُ جمعُ زُبْرَةٍ؛ وهِي القِطعَةُ الكبيرةُ من الحديدِ؛ أيّ: أحْضِرُوا لي الكثيرَ مِن قِطَعِ الحديدِ الكبيرةِ، فأحْضَرُوا له ما أرادَ.

(**حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ**)؛أيّ: حتَّى إذا ساوَى بَينْ جانبَي الجَبلَينِ. وسَمَّى كلَّ واحدٍ من الجانبَينِ صَدَفًا؛ لِكَونه مُصادِفًا ومُقابِلاً ومُحاذِيًا لِلآخَرِ، ولا يُقالُ لِلمُفْرِدِ صَدَفٌ حتَّى يُصادفَه الآخَرُ؛ فهُو من الأسماءِ المُتضايِفَةِ؛ ك(الشَّفْعِ والزَّوجِ).

(**قَالَ انفُخُوا**)؛ أيّ: انْفُخُوا النَّارَ على القِطَعِ الكبيرةِ مِن الحديدِ الموضُوعةِ بينَ الصَّدَفَينِ.

(**حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا**)؛أيّ: حتَّى إذا صارَت قِطَعُ الحديدِ الكبيرةِ كالنَّارِ في احْمِرارِها وشِدَّة تَوهُّجِها.

(**قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا**)؛أيّ: نُحاسًا أو رَصاصًا مُذابًا، وسَمِّيَ بِذلكَ لأنَّه إذا أُذيبَ صارَ يقطرُ كما يقطرُ الماءُ. والمَعنى: قالَ لهُم أحْضِرُوا لِي قِطَعَ الحديدِ الكبيرةِ، فلَّما أحْضَرُوها لهُ أخَذَ يَبنِي بها شيئًا فشَيئًا حتَّى ساوَى بين جانبَي الجَبلَينِ، ثُمَّ قالَ لهُم أوقِدُوا النَّارَ وانْفُخُوا فيها بالكِيرانِ أو ما يُشْبِهُها، فَفَعلُوا ما أمَرَهُم به حتَّى صارَتْ تلكَ القِطَعُ تُشْبِهُ النَّارَ في حَرارتِها وهَيئَتِها، فقالَ: أحْضِرُوا لِي نُحاسًا مُذابًا؛ لِكي أُفْرِغَهُ على تلكَ القِطَعِ مِن الحديدِ؛ لِتَزْدادَ صَلابةً ومَتانةً وقُوَّةً. وبِذلِكَ يكونُ ذُو القرنَينِ قد لبَّى دعوةَ أولئكَ القومِ في بناءِ السَّدِّ بِطَريقةٍ مُحكَمةٍ سليمةٍ، اهتدَى بها العُقلاءُ في تقويةِ الحديدِ والمَباني في العصرِ الحديثِ. وكان الداعي لهذا العملِ الضخْمِ هو الخَيلولَةَ بينَ هؤلاءِ القومِ وبينَ يأجوجَ ومأجوجَ الذينَ يُفْسِدُونَ في الأرضِ ولا يُصْلِحُونَ.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أخبرَ القُرآنُ الكريمُ بأنَّ ذا القرنَين جعلَ يأجوجَ ومأجوجَ يَقِفُونَ عاجِزينَ أمامَ هذا السَّدِ الضخْمِ المُحْكَمِ، فما اسْتطاعُوا أن يَرْتَفِعُوا على ظَهْرِه أو يَرقوا فَوقَهُ لِملاسَتِه وارتفاعِه، وما اسْتَطاعُوا أنْ يُحْدِثُوا فيهِ (نَقْبًا أو خَرْقًا) لِصَلابَتِه ومَتانَتِه وثَخانَتِه.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ ووَقفَ ذُو القرنَين أمامَ هذا العملِ العظيمِ مُظْهِرًا الشُّكْرَ للهِ تعالَى والعَجْزَ أمامَ قَدْرَتِه شأنُه شأنُ الحُكَّامِ الصَّادِقينَ في إيمانِهم، الشاكِرينَ لِخالِقِهم توفيقَهُ إيَّاهُم لِكُلِّ خيرٍ. وقفَ لِيَقُولَ بِكُلِّ تواضُعٍ وخُضوعٍ لِخالقِه: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾؛ أيّ: هذا الذي فَعَلْتُهُ مِن بناءِ السَّدِّ وغَيرِه أثرٌ مِن آثارِ رَحْمَةٌ رَبِّي التي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ فَإذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي الذي حَدَّدَهُ لِفناءِ هَذهِ الدُّنيا ونهايتِها، أو الذي حَدَّدَهُ لِخُروجِهم مِنهُ.

﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾؛أيّ: جعلَ هذا السَّدَّ أرضًا مُستويةً. ومِنهُ قولهُم: ناقةٌ دكَّاءَ؛ أيّ: لا سَنامَ لها.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾؛أيّ: وكانَ كُلُّ ما وَعدَ اللهُ تعالى بهِ عِبادَه مِن ثوابٍ وعِقابٍ وغَيرِهما وَعداً حقًّا لا يَتخلَّفُ ولا يتبَّدلُ، كما قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ونَرَى في قِصَّةِ ذي القرنَين مِن الدُّروسِ والعِبَرِ والعِظاتِ أنَّ التمكينَ في الأرضِ نِعْمَةٌ يَهبُها اللهُ لِمَنْ يشاءُ مِن عِبادِه.

وأنَّ السَّيرَ في الأرضِ لإحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ مِن صفاتِ المُؤمنينَ الصَّادقينَ، وأنَّ الحاكِمَ العادلَ مِن صِفاتِه (رَدْعُ الظالمينَ عن ظُلْمِهِم، والإحسانُ إلى المُستقيمينَ المُقْسِطينَ، والعملُ على ما يجعلُهم يَزدادُونَ استقامةً وفَضْلاً، وأنَّ مِن معالِمِ الخُلُقِ الكريمِ أنْ يُعيِّنَ الإنسانَ المُحتاجَ إلى عَونِه، وأنْ يُقدِّمَ له ما يَصُونَهُ عن الوقوعِ تحتَ وطأةِ الظَّالمينَ المُفْسِدينَ، وأنَّ مِن الأفضلِ أن يَحتَسِبَ ذلك عِندَ اللهِ تعالى، ولا يَطلُبَ مِن المُحتاجِ إلى عَونِه أكثرَ مِن طاقَتِه.

كما أنَّ مِن أبرزِ صِفاتِ المُؤمنينَ الصَّادقينَ أنَّهُم يَنسِبُونَ كُلَّ فَضْلٍ إلى اللهِ تعالى وإلى قُدْرَتِه النافذةِ، وأنَّهُم يَزْدادُونَ شُكْرًا وحَمْدًا لهُ تعالى كُلَّما زادَهُم مِن فَضْلِه.(١).

التفسيرُ المُيسَّر

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) حتَّى إذا وصلَ إلى ما بينَ الجَبلَينِ الحاجِزينِ لِما وَراءهُما وَجَدَ مِن دُونِهِما قَومًا لا يَكادُونَ يَعْرِفُونَ كلامَ غَيرِهِم.

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) قالُوا يا ذا القرنَينِ إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ – وهُما أُمَّتانِ عَظِيمَتانِ مِن بَني آدمَ – مُفْسِدُونَ في الأرضِ بإهلاكِ الحَرْثِ والنَّسْلِ، فهَل نَجْعلُ لكَ أجْرًا ونَجْمَعُ لكَ مالاً على أنْ تجعلَ بينَنا وبينَهُم حاجِزًا يَحُولُ بينَنا وبينَهُم؟ **(قَالَ مَا**

١) الوسيط لمُحمَّد سيِّد طِنطاويّ (ج ٨، ص٥٧٢-٥٧٦).

﴿مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ قال ذُو القرنَين ما أعطانِيه رَبِّي مِن المُلْكِ والتمكينِ خَيرٌ لِي مِن مالِكُم، فأعِينُوني بِقُوَّةٍ مِنكُم أجعلْ بينَكُم وبينَهُم سَدًّا.

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أعْطُوني قِطَعَ الحديدِ، حتَّى إذا جاؤوا بِهِ ووَضَعُوهُ وحاذَوا بِه جانِبَي الجَبَلَين، قال لِلعُمَّالِ أجِّجُوا النَّارَ حتَّى إذا صارَ الحديدُ كُلُّهُ نارًا قالَ أعْطُوني نُحاسًا أُفْرِغَهُ عليهِ.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ فَما استطاعَتْ يأجوجُ ومأجوجُ أنْ تَصعَدَ فوقَ السَّدِ لارتفاعِه ومَلاسَتِه، وما استطاعُوا أنْ يَنْقبُوهُ مِن أسْفَلِه لِبُعدِ عَرْضِه وقُوَّتِه.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ قالَ ذُو القرنَين: هذا الذي بَنيتُه حاجِزًا عن فَسادِ يأجوجَ ومأجوجَ رَحمَةٌ مِن رَبِّي بِالنَّاسِ، فإذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي بِخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ جَعَلَهُ دَكَّاءَ مُنْهَدِمًا مُستويًا بالأرضِ، وكان وَعْدُ رَبِّي حَقًّا[1].

[1]) التفسير الميسر: (ج١، ص٣٠٣- ٣٠٤).

أقوال المؤرخين والباحثين

دراسةٌ فريدةٌ ونَهْجٌ عِلْميٌّ: قام د. أحمد منصور بدراسة فريدة من نوعها ونهج منهجا علميا بدلائل من القرآن الكريم والسّنة النّبوية فقال: (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا. قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا)؛ أيّ: أنَّهُ مَكَّنَ ما شاءَ اللّهُ لهُ أنْ يَمْكُثَ على أرضِ القومِ الذينَ لَمْ يَجْعَلِ اللّهُ لهُم مِن الشَّمسِ سِتْرًا، ثُمَّ انطلقَ مُتَّبِعًا سَبَبًا آخَرَ مِن أسبابِ السَّماءِ؛ حتَّى بلغَ أرضًا أُخرى في مَجموعةٍ شَمسيَّةٍ ثانيةٍ وفِي مَوضعٍ مُعيَّنٍ نَزَلَ هُناكَ؛ لِيَجِدَ قَومًا لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قولاً فَقالُوا لَه: يا ذا القَرنَينِ إنَّ يأجُوجَ ومأجُوجَ مُفْسِدُونَ في الأرْضِ. سَنَتوقَّفُ عِندَ قَولِهِم هذا قليلاً ! قالُوا عَن يأجُوجَ ومأجُوجَ إنَّهُمْ مُفْسِدُونَ في الأرْضِ ولَمْ يَقُولُوا مُفْسِدُونَ في أرْضِنا أوْ في بِلادِنا، وَهذا يَدُلُّ على أنَّ إفْسادَهُم قَد طالَ الأرضَ قاطِبةً؛ وهذا ليسَ بِعَجيبٍ ولا غَريبٍ على أُمَّتَينِ وَصَفَهُم رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في الحَديثِ الصَّحيحِ أنَّهُم يَغْشُونَ الأرضَ، وَيشْرَبُونَ الأنهارَ؛ فَيُجَفِّفُونَها، ويَشْرَبُونَ بُحَيرةَ طَبريَّةَ؛ حتَّى لا يَبْقَى فِيها ماءٌ فَيَمُرُّ آخِرهُم لِيَقُولَ كان هُنا ماءٌ، وبَعدَ أنْ يُمِيتَهُم اللّهُ لا يَجِدُ نبيُّ اللّهِ عِيسَى وأصحابُه مِن المُؤمِنينَ مَوضِعَ قَدَمٍ لَهُم في الأرضِ مِن جُثَثِهِم؛ فَيَتَوسَّلُوا إلى اللهِ فَيُرْسِلُ طَيرًا أعْناقُها كأعْناقِ الإبِلِ فَتَحْمِلَهُم فَتَطْرَحهُم حيثُ يَشاءُ اللّهُ.

فَهلْ مِثلُ هَذهِ الطُّيورِ مَوجُودةٌ على أرْضِنا؟

ومِمَّا يَدلُّ على كَثرَتِهم أنَّ المُسلِمينَ يُوقِدُونَ مِن قِسيِّهِم وَنِبالِهِم وَتُروسِهِم سَبْعَ سِنِينَ، تَصوَّرْ كَمْ يكونُ عَدَدهُم؟

إنَّ كُلَّ هذا يُؤكِّدُ لنا أنَّ يأجُوجَ ومأجُوجَ لَيسُوا على كُرَتنا الأرضيَّة هَذه؛ وإلَّا فَلماذا لمْ يَشْتَكِ مِنهُم القومُ الذينَ مَرَّ بِهِم ذُو القَرنَينِ عِندَ العَينِ الحَمِئَةِ حينَ بُلوغِه مَغْرِبَ الشَّمسِ؟ أوْ أولئكَ الذينَ مَرَّ بِهِم عِندَما بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمسِ؟ لِماذا اقتصرَ فَسادُهُم على بُقْعَةٍ مُعَيَّنةٍ؟ لِماذا لمْ يَعْرِفهُم الأقوامُ والأُممُ السابقةُ؛ كـ(عادٍ وثَمُود والفَراعِنَةِ) وغيرُهُم مِمَّنْ سَكَنَ الأرضَ وَيُسجِّلُوا عَن مَعارِكِهِم مَعهُم؛ عِلْما أنَّه لا يَدان لأحدٍ بِقِتالِهِم كما جاءَ في الحَديثِ الصَّحيحِ؟ أمْ أنَّهُم؛أيّ: يأجُوجُ ومأجُوجُ قَد ظَهرُوا فَجأةً؟ أليسوا خَلْقًا مِن آلافِ السِّنِينَ إنْ لمْ يَكُنْ أكثرَ؟

لِهذا كُلِّهِ وغَيرِهِ مِن الإثباتاتِ نَقولُ: يستحيلُ أن يكونُوا على كُرَتِنا الأرضيَّةِ هَذه، ولَيسُوا على الأرضِ التي زارَها ذُو القَرنَينِ وَوَجدَ فيها العَينَ الحَمِئةَ، ولَيسُوا على الأرضِ التي يَعِيشُ عليها القومُ الذينَ وَجَدَهُمْ عِندَ بُلُوغِهِ مَطْلِعَ الشَّمسِ.

فالأصحُّ – واللهُ تعالى أعلمُ – أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مَوجُودونَ مع القومِ الذينَ يكادون لا يَفْقَهُونَ قولاً على أرضٍ واحدةٍ وَبَينَهُم صَولاتٌ وجَولاتٌ ويُفْسِدُونَ في أرْضِهِم وَرُبَّما دامَتْ هذه الحالُ رَدْحًا مِن الدَّهرِ لا يَعلَمُهُ إلَّا اللهُ؛ حتَّى ساقَ اللهُ إليهِم ذَا القَرنَينِ. وتُوضِّحُ الآياتُ الكريمةُ أنَّ أولئكَ القومَ قَد طَلَبُوا مِن ذِي القَرنَينِ بناءَ سَدٍّ يَحُولُ بَينَهُم وبينَ يأجوجَ ومأجوجَ مُقابلَ خَرْجٍ.

وهُنا نَتوقَّفُ لِتَحليلِ المَوقفِ: إنَّ هَؤلاءِ القومِ يَعرِفُونَ نُقطةَ ضَعْفِ عَدوِّهِم كما يَعرِفُونَ نُقطةَ قُوَّتِه؛ فَهُمْ لمْ يَطْلبُوا مِن ذِي القَرنَينِ قِتالَ يأجوجَ ومأجوجَ وإخْضاعَهُم

لِسُلْطانه؛ بلْ طَلَبُوا سَدًّا لِعلْمِهِم أنَّ هذا السَّدَّ سَيحَلُّ المُشْكِلَةَ، وكذلكَ فإنَّ عَرْضَ الخَرْجِ عَليهِ يَدلُّ على أنَّهُم لَيسُوا فُقراءَ. وقَولَهُم (**أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا**) يَدلُّ على أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لَيسُوا تحتَ الأرضِ كما تَخيَّلَ البَعضُ، ويَدلُّ – كذلك – على أنَّهُم على الجِهَةِ الأُخْرَى مِن السَّدِّ فوقَ سَطحِ الأرضِ. وطَلَبُهُم هَذا قَد يُفيدُنا في أنَّهُم حاوَلُوا بِناءَ مِثْلِ هذا السَّدِّ؛ ولَكِنَّهُ انهارَ أمامَ جَبَرُوتِ عَدوِّهِم؛ لأنَّهُ كان سدًّا يَفْتَقِرُ إلى القُوَّةِ المُتوفِّرةِ في السَّدِّ الذي بَناهُ ذُو القَرنَينِ. ثُمَّ (**قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا. آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا. فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**) وَرَدًّا على عَرْضِهِم الخَرْجَ مُقابِلَ بِناءِ السَّدِّ قالَ لهُم: ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيرا مِن خَراجِكُم، وَطَلَبَ مِنهُم إعانتَهُ بِقُوَّةٍ لِعَملِ رَدْمٍ بَينَهُم وبينَ يأجوجَ ومأجوجَ، ثُمَّ طَلَبَ مِنهُم إحضارَ زُبَرِ الحَديدِ فَساواهُ بينَ الصَّدَفَينِ. لِنَتوقَفْ قليلاً عِندَ زُبَرِ الحَديدِ لِنَرَى ماذا تعني؟

قِيلَ في كُتبِ التفسيرِ أنَّها "قِطَعُ الحديدِ"؛ ولَكِنْ هلِ الحَديدُ مَوجُودٌ في الطبيعةِ على شَكْلِ قِطَعٍ؟ لا؛ إنَّهُ موجودٌ على شَكلِ فِلزاتٍ وأكثرُها انتشارًا هي أكاسيدُ الحديدِ. ويُوجَدُ في الطبيعةِ – أيضًا – نِسبةٌ قليلةٌ مِن (الحَديدِ والنيكلِ) ويُسمَّى "الحديدَ النيزكيَّ"؛ لأنَّهُ يسقطُ مع النَّيازِك. فَهَلْ قِطَعُ الحديدِ التي وَجدَها ذُو القرنَينِ عِندَ القومِ هِي مِن الحديدِ النيزكيِّ؟ أمْ كان لَديهِم وسائلُ مُتقدِّمةٌ كما هِي عليهِ اليومَ لاسْتِخْراجِ الحديدِ مِن فِلزاتِه بالأفرانِ العاليةِ أو بِوسائلَ أُخرى لا نَعلَمُها؟

ولو سَلَّمْنا بأنَّ لَدَيهِم قِطعًا مِن الحديدِ فَهلْ إشْعالُ النَّارِ عَليها بِكُلِّ بَساطَةٍ سَيَصهَرُها؟

إنَّ صَهْرَ الحَديدِ يَتطلَّبُ دَرجاتِ حَرارةٍ عاليةٍ تَزيدُ على ألفٍ وخَمسمائةِ دَرجةٍ مِئويَّةٍ، فَما الطاقةُ الهائِلَةُ التي استعمَلَها ذُو القَرنَينِ لِصَهْرِ كَمٍّ هائلٍ مِن الحديدِ؟

نَقولُ – واللهُ تعالى أعلمُ – : أنَّ ذا القَرنَينِ قد استعملَ تفاعلاً كيمائيًا يُعرفُ اليومَ بِتفاعُلِ الثيرمايت؛ the mitereaction) وهو تفاعلٌ بينَ أكاسيدِ الحَديدِ والألمنيومِ حيث يقومُ الألمنيومُ بانتزاعِ الأكسجينِ من أكاسيدِ الحديدِ وإطلاقِ كَمٍّ هائلٍ مِن الحرارةِ تتراوحُ بين ٢٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ درجة مئويَّة تكفي لِصَهْرِ الحديدِ.

أمَّا الألمنيومُ فهُو العُنْصُرُ الثالثُ مِن حيثُ وَفرَتُه في الطبيعةِ، ويُوجَدُ في الأغلبِ على شَكْلِ مُركَّباتٍ. ثُمَّ إنَّ ذا القَرنَينِ وَضَعَ الخاماتِ الأوَّليَّةَ بِكَمِيَّاتٍ مُناسبَةٍ، وأشعلَ النَّارَ في نقاطٍ مُعيَّنةٍ مِن السَّدِّ، وطلبَ مِنهُم النفْخَ لإحداثِ التفاعُلِ الذي أَطلقَ كمًّا هائلاً مِن الحرارةِ صَهرَتِ الحديدَ وشكَّلتِ السَّدَّ.

وقَد يكونُ الرَّدْمُ هو بِمَثابةِ داعمٍ للقلبِ الحديديِّ قبلَ أنْ يَبْرُدَ. وإذا كان القَطْرُ هو النحاسُ فيُمْكِنُ صَهْرُهُ بالكيفيَّةِ نَفْسِها وإفراغُه على قلبِ السَّدِّ الحديديِّ المُنْصَهِرِ؛ لإكسابِه (القُوَّةَ والمَتانَةَ) واللهُ أعلَم.

ثمَّ قال تعالى : (**فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**) وهذا – أيضًا – إثباتٌ آخرُ على أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ ليسُوا كما يَظنُّ البعضُ تحتَ الأرضِ. فمِن المَلحُوظِ هُنا أنَّهم يَقومُونَ بِمُحاولتَينِ مُختَلِفَتَينِ لِلتغلُّبِ على السَّدِّ، واللهُ يُخبِرُنا في كتابِه الكريمِ عن فَشَلِهِم في تلكَ المُحاوَلتَينِ إلى أنْ يحينَ الأجَلُ الذي قَدَّرَهُ اللهُ لهُم

لِلخُروجِ، فلمْ يَتمكَّنُوا مِن تَسلُّقِ السَّدِّ واعتِلائِه ولمْ يتَمكَّنُوا مِن نَقْبِه؛ ولكنَّ يأجوجَ ومأجوجَ في نهايةِ الأمرِ سوف يَنقبُونَ السَّدَّ ألاَ وهو العملُ الأصعبُ، ولمْ يستطِيعُوا فِعلَ الأسهلِ وهو تَسلُّقُه فماذا نفهمُ مِن ذلك؟

قد يُشيرُ هذا إلى نقطةِ الضَّعفِ التي أودعَها اللهُ في هذا العدوِّ الشَّرسِ وهي عدمُ القُدرةِ على التسلُّقِ فَعَمَدُوا إلى نَقْبِه. ولا يُرَجِّحُ أحداً أنْ يكونَ يأجوجُ ومأجوجُ مَحصُورِينَ في نطاقٍ ضَيِّقٍ من الأرضِ أو يَعيشُونَ تحتَها؛ لأنَّهُم خَلْقٌ كثيرٌ، واللهُ مُتكَفِّلٌ بِرِزْقِهِم شأنُهم شأنُ كُلِّ دوابِّ الأرضِ؛ لِقَولِه تعالى في الآية ٦ من سُورةِ هُودٍ: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾؛ بلْ إنَّهُم يَعيشُونَ على نطاقٍ واسعٍ في أرضٍ تحوي خَيراتٍ وفيرةً ومِياهً غزيرةً، والأدلَّةُ على ذلك كثيرةٌ منها:

١ – "... ويَسْتَوقِدُ المُسْلِمُونَ مِن قِسِيِّهِمْ ونُشَّابِهِم وجُعابِهِمْ سَبْعَ سنِينَ..." فإذا كانُوا تحتَ الأرضِ فكيفَ تسنَّى لهُم إعدادُ مِثْلِ هذه الأسلحةِ التي تَتطلَّبُ موارِدَ هائِلةً مِن (أخشابٍ وحديدٍ) لِصُنْعِ السِّهامِ والتُّروسِ؟ وما يَدلُّ على الكَمِّ الهائلِ مِن هَذهِ الأسلحةِ أنَّ المُسلِمينَ سَيُوقِدُونَ مِنها لِمُدَّةِ سَبْعِ سِنينَ. فأيُّ عاقلٍ يُصَدِّقُ أنَّهُم تحتَ الأرضِ؟ بلا شكٍّ فَهُم مَوجُودونَ على سَطحِ أرضٍ ذاتِ بيئةٍ تحوي (الأشجارَ والمواردَ) اللازِمةَ لِصُنْعِ مِثْلِ هذه الأسلحةِ.

٢ – إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَحفرُونَ كُلَّ يومٍ في السَّدِّ؛ حتَّى إذا كادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمسِ قالَ الّذي عليهِم ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُهُ غَداً.

إنَّ الذي يقولُ أنَّهُم في باطنِ الأرضِ ومُغْلَقٌ عليهِم بالسَّدِّ، ويُستَدلُّ على ذلكَ بأنَّهُم لا يَرونَ شعاعَ الشَّمسِ نَسألُه كيفَ يَستطيعُونَ مَعرِفةَ الأيَّامِ وتحديدَ الأوقاتِ دُونَ الرُّجوعِ إلى الوسائلِ التي خَلقَها اللهُ لنا لِمعرِفةِ حسابِ الأيَّامِ وعَددِ السِّنينِ؛ وأقصِدُ بذلكَ الشمسَ والقمرَ؟ كما هُو واضِحٌ مِن حَديثِ المُصطفى صلى الله عليه وسلم هُم يَعرِفُونَ الأيَّامَ ويُحدِّدُونَها أليسَ كذلكَ؟

إذنْ لا بُدَّ أنَّهُم يَرَونَ الشمسَ والقمرَ، وهذا هو واقِعُ يأجوجَ ومأجوجَ والسَّدِّ؛ فالسَّدُّ فوقَ سطحُ الأرضِ يحولُ بينَهُم وبينَ القومِ، واللهُ أعلمُ أنَّهُم في الجِهَةِ الشرقيَّةِ منهُ ويَقومُونَ بالحَفْرِ كُلَّ يَومٍ مِن شُروقِ الشَّمسِ حَتَّى نهايةِ اليومِ حِينَ يُقَرِّرُ زَعيمُهُم بالرجوعِ لِمُواصَلَةِ الحفْرِ في اليومِ التالي. وَهُمْ بالتأكيدِ لا يَعلَمُونَ أنَّهُم على وَشكِ أنْ يُحْدِثُوا فَتْحةً فيهِ تُمكِّنُهُم مِن رُؤيةِ أشعَّةِ الشَّمسِ التي تُوشِكُ على المَغيبِ؛ وإلَّا لَما توقَّفُوا عن الحَفْرِ؛ ولَكنَّها إرادةُ اللهِ تعالى؛ لأنَّه لمْ يَحِنْ وَقْتُ خُرُوجِهم.

تأمَّل دِقَّةَ اللفظِ في حَديثِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم " ... حَتَّى إذا كادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ... " لمْ يَقُلْ ضَوءَ الشَّمْسِ، فَهُمْ يَرَونَ ضَوءَ الشَّمْسِ الذي يَملأ الدُّنيا؛ ولَكِنْ في نهايةِ يَومِهِم كادُوا أنْ يَرَوا شُعاعُ الشَّمْسِ المُباشر، ومِن هُنا نَسْتَشِفُ أنَّ الشَّمسَ كانتْ تُرْسِلُ أشِعَّتَها باتِّجاهِ القومِ وعَكْسَ اتِّجاهِ يأجوجَ ومأجوجَ دُونَ أنْ يَحُولَ بينَها وبينَ السَّدِّ حائلٌ واللهُ تعالى أعلَمُ.

٢ – " ... حَتَّى إذا شاءَ اللهُ أنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَفَرُوا، حَتَّى إذا كادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشمسِ قالَ الذي عَليهِمْ اِرْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَداً إنْ شاءَ اللهُ تعالى وَاسْتَثْنَوْا، فَيَعُودُونَ إليهِ وهُوَ كَهَيئَتِه حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَحْفُرُونَه ويَخْرُجونَ على النَّاسِ. آنَذاكَ

يُوحِي اللهُ إلى نَبيِّهِ عِيسَى بنِ مَريمَ عَليهِ السَّلامُ أنّهُ قَد أُخْرِجَ، وفِي روايةِ ابْنِ حَجَرٍ قَد أَنْزَلَ، عِباداً لهُ لا يَدان لأحَدٍ بِقِتالِهِم... " ونَتوَّقَفُ هُنا عِندَ لفْظَةِ (قَدْ أنْزلَ) وفِيها دليلٌ على أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ لَيسُوا عَلى أرْضِنا هَذهِ؛ بلْ على أرضٍ أُخرى لا يَعلَمُ مَكانَها إلَّا اللهُ تعالى، وأنَّهُم سَيَنْزِلُونَ إلى كُرَتِنا الأرْضِيَّةِ هَذهِ؛ ولكِنْ قَبْلَ نُزُولِهِم ستكونُ لهُم جَولةٌ مَع القومِ الذينَ هُم دُونَ السَّدَّينِ؛ لأنَّهُم هُم أوَّلُ مَن سَيَخْرُجُونَ عليهِم. لاحِظْ: " ... ويبعثُ اللهُ يأجوجَ ومأجوجَ، فَيَخرُجُونَ وَهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ... " ما مَعنَى "حَدَبٍ"؟

ذَكَرَ المُفسِّرُونَ أنَّه ما غَلُظَ مِن الأرضِ وعَلا، ويَنْسِلُونَ؛ أيّ: يَخْرُجُونَ مُسْرِعِينَ، ولنا أنْ نَتساءلَ لِماذا يَخرُجُ يأجوجُ ومأجوجُ مِمَّا عَلا مِن الأرضِ وغَلُظَ بعدَ أنْ خَرَجُوا مِنَ السَّدِّ؟

لِماذا يَعمدُونَ إلى المُرتفَعاتِ وَيَترُكونَ الأرضَ السهلةَ – عِلْمًا بأنَّ مُشْكِلَتَهُم هِي السَّدُّ وهو مُرتفِعٌ؟

لِماذا لمْ يَصِلُوا إلى المُسْلِمينَ وهُم مُتحَصِّنُونَ بأعالي الجِبالِ إذا كان لَدَيهِم القُدرةُ على تَسلُّقِ المُرتَفعاتِ؟

أليسَ الجَبلُ هُو مِن أحدابِ الأرضِ كما يقولُ المُفسِّرُونَ؟ لمْ يَذكُرْ صلى الله عليه وسلم حينَ وَصلَ إلى نقطةِ انْسلالِهِم مِن الأحدابِ أنَّها تعني الخُروجَ مِن آكامِ الأرضِ وما عَلا مِنها، بلْ قالَ: " ... فَيَخْرُجُونَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ... " لاحِظْ – أيضًا – أنَّ مِن كُلِّ حَدَبٍ تدلُّ على كَثْرةِ الأحدابِ المُنسَلِّ مِنها يأجوجُ ومأجوجُ.

إنَّ ما فَهِمْناهُ مِن كتابِ اللهِ وحَديثِه صلى الله عليه وسلم أنَّ الأحدابَ التي يَنْسَلُّ مِنها يأجوجُ ومأجوجُ هيَ – واللهُ أعلمُ – وسيلةُ نَقْلِهِم مِن الأرضِ التي كانُوا يَعيشُونَ عليها إلى كُرَتِنا الأرضيَّةِ، ولعلَّها الأطباقُ الطائرةُ التي شُوهِدتْ آلافَ المرَّاتِ مِن قِبَلِ كثيرٍ مِن الناسِ، وأجْمَعُوا على أنَّها مُحدَّبةُ الشكْلِ. لكنْ كيفَ حَصَلُوا عَليها؟

ربَّما أنَّهُم اسْتَولُوا عليها مِن القومِ الذين اسْتعانُوا بِذي القَرنَينِ لِبناءِ السَّدِّ، أو أنَّهُم استمدُّوا مِن ذي القَرنَينِ صِناعةَ مِثْلِ تلكَ الأطباقِ وطَوَّرُوها بمُرورِ الزمنِ؛ ولَكِنْ رَغمَ تَقدُّمِهِم لمْ يَكُنْ لهُم طاقةٌ بِقتالِ يأجوجَ ومأجوجَ رُبَّما بِسَبَبِ تكاثُرِهِم؛ فقَد وَردَ في الحديثِ الصَّحيحِ: " ... أنَّ الرَّجُلَ مِنهُمْ لا يَمُوتُ حَتَّى يُولَدَ لَهُ أَلْفُ ذَكَرٍ... "؛ لِذلكَ لو تأمَّلْتَ طريقةَ القضاءِ عليهِم لَوجَدْتَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُرْسِلُ عَليهِم النّغَفَ فَيأتيهِم في رِقابِهِم ومَناخِيرِهِم فَيَمُوتُونَ مَوتَةَ رَجُلٍ واحدٍ.

٤ – " ... ثُمَّ يهبطُ نَبيُّ اللهِ عِيسَى وأصحابُهُ إلى الأرضِ، فَلا يَجِدُونَ مَوضِعَ شِبْرٍ إلاّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ ونَتْنُهُمْ ودِماؤُهُم، فَيَرْغَبُ نَبيُّ اللهِ عِيسَى وأصحابُه إلى اللهِ سُبحانَه، فيُرسِلُ طَيراً كأعناقِ البُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطرَحُهُم حيثُ شاءَ اللهُ... ". نَتوقَّفُ هُنا عِندَ نُقطتَينِ؛

الأُولى: أنَّ لِيأجوجَ ومأجوجَ بعدَ مَوتِهِم نَتنٌ وزَهَمٌ؛ أيّ: رائحةٌ كريهةٌ مِن التَّعفُّنِ، وهذا يُشيرُ إلى أنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مِن مادَّةٍ عُضويَّةٍ يَتولَّدُ عَن تَعفُّنِها غازُ كبريتِ الهيدروجين.

الثانيةِ: أنَّ مَواشي المُسلمينَ تَسْمَنُ مِن أكْلِ لحُومِهِم؛ ممَّا يُؤيِّدُ أنَّ أجسادَهُم تحتَوي على موادّ عُضويَّةٍ مِن التِّربَةِ.

إذنْ هُمْ خَلْقٌ مِن تُرابٍ؛ وليسَ مِن نارٍ؛ أيّ: أنَّهُم إنسٌ ولَيسُوا مِن الجِنِّ؛ فقَد وَردَ في كِتابِ "أخبارِ الشُّيوخِ وأخلاقِهِم" حديثٌ مرفوعٌ رقم ٢٧ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَزَّأَ الْخَلْقَ عَشَرَةَ أَجْزَاءٍ؛ فَجَعَلَ الْمَلائِكَةَ تِسْعَةَ أَجْزَاءٍ، وَجَزَّأَ سَائِرَ الْخَلْقِ، وَجَزَّأَ الْمَلائِكَةَ عَشَرَةَ أَجْزَاءٍ؛ تِسْعَةُ أَجْزَاءٍ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ، وَجُزْءٌ لِرِسَالَتِهِ وَأَمْرِهِ، وَجَزَّأَ الْجِنَّ وَالإِنْسَ عَشَرَةَ أَجْزَاءٍ؛ فَجَعَلَ تِسْعَةَ أَجْزَاءٍ الْجِنَّ، وَجُزْءًا الإِنْسَ وَلا يُولَدُ لِلإِنْسِ مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وُلِدَ لِلْجِنِّ تِسْعَةُ أَمْثَالِهِ، وَجَزَّأَ الإِنْسَ عَشَرَةَ أَجْزَاءٍ؛ فَجَعَلَ تِسْعَةَ أَجْزَاءٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَجُزْءًا سَائِرَ الإِنْسِ " .

وليسُوا مِن البشَرِ؛ أيّ: ليسُوا مِن أبناءِ آدمَ؛ فآدمُ عليهِ السلامُ هُو أبو البَشرِ، وليسَ أبا الإِنْسِ، ولَمْ يجيءْ في القُرآنِ الكريمِ أو يَرِدْ في السُّنَّةِ – مُطلَقًا – أنَّ آدمَ أبُو الإِنسِ؛ لأنَّ هُناكَ فرقًا بين الإِنْسِ والبَشرِ؛ فَكُلُّ البَشرِ مِن الإِنسِ؛ ولكنْ ليسَ كُلّ الإِنْسِ بَشرٌ واللهُ تعالى أعلمُ.

وأمَّا مَن ذهبَ إلى أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مِن البَشرِ؛ أيّ: مِن ذُرِّيَّةِ آدمَ فَسَنُورِدُ لهُ هُنا حَدِيثَينِ صَحِيحَينِ يُثبِتانَ أنَّهُم ليسُوا كذلكَ؛

الحديثَ الأوّلَ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آدَمُ، فَتَرَاءَى ذُرِّيَّتُهُ، فَيُقَالُ هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ. فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ. فَيَقُولُ يَا رَبِّ، كَمْ أُخْرِجُ؟ فَيَقُولُ أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ. فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِذَا أُخِذَ مِنَّا مِنْ كُلِّ مِائَةٍ

تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فَمَاذَا يَبْقَى مِنَّا؟ قَالَ إِنَّ أُمَّتِي فِي الأُمَمِ كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَسْوَدِ"(١).

الحديثَ الثاني عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي اللهُ أنَّ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَا آدَمُ، فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا؛ فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلاً وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلاَّ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ"(٢). من الملحوظ في الحديث الشريف الأوَّل حينَ يطلبُ اللهُ عزَّ وجلَّ من آدمَ إخراجَ بَعْثِ النَّارِ من ذُرِّيَّته لا ذِكْرَ ليأجُوجَ ومأجُوجَ، والنِّسبةُ من كُلِّ مائةٍ تِسْعَةٌ وتِسعُونَ.

أمَّا في الحديثِ الشريفِ الثاني فاللفظُ الذي وَرَدَ فيه هُو إخراجُ بَعْثِ النَّارِ، ولمْ يَذكر ذُرِّيَّةَ آدمَ فقط، وهل بَني آدمَ وَحْدَهُم في أرضِ المَحْشَرِ؟ كُلُّ الخلائقِ – جنِّها وإنسِها – ستكونُ مَحشُورةً؛ قالَ اللهُ تعالى في الآية ١٢٨ من سُورةِ الأنعام: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ

١) البُخاري: (٦٥٢٩).
٢) البُخاريّ: (٢٢٤٨)، مُسلمٌ: (٢٢٢).

الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) . ولذا نقولُ: إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ قد لا يَكُونُوا مِن ذُرِّيَّةِ آدمَ؛ بلْ هُمْ خَلْقٌ مِن الإِنْسِ لهُم طبيعةٌ مُختلِفةٌ.

وتأمَّلْ – كذلكَ – الحديثَ الشريفَ الآتي:

عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ قالَ: بَينَما رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في بَعضِ مَغازيهِ وقَد فاوتَ السَّيرَ بأصحابِه؛ إذْ نادَى رَسُولُ اللهِ بهذهِ الآيةِ: (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) (الحج: ١). قالَ: فَحثوا المطيَّ؛ حتَّى كانُوا حَولَ رَسُولِ اللهِ، قالَ: " هلْ تَدْرُونَ أيَّ يَومٍ ذلكَ؟

قالوا اللهُ ورَسُولهُ أعْلَمُ.

قالَ: ذلكَ يومٌ يُنادَى آدمُ؛ يُناديهِ رَبُّهُ ابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ؛ مِنْ كُلِّ ألفٍ تِسعمائة وتِسعَة وتِسْعِينَ إلى النَّارِ.

قالَ: فأبْلِسَ القومُ؛ فَما وَضَحَ مِنهُم ضاحِكٌ، فقالَ النَّبيُّ: ألاَ اعْمَلُوا وأبْشِرُوا؛ فإنَّ مَعَكُمْ خَليقتَينِ ما كانَتا في قَومٍ إلَّا كَثَّرَتاهُ؛ فَمَنْ هَلَكَ مِن بَني آدمَ ومَن هَلَكَ مِن بَني إبليسَ ويأجوجَ ومأجوجَ.

ثُمَّ قالَ: ألا أبْشِرُوا ما أنْتُمْ في النَّاسِ إلَّا كالشَّامَةِ في جَنْبِ البَعيرِ، أو كالرَّقمَةِ في جَناحِ الدَّابَّةِ" . المَطيّ: جَمْعُ مَطيَّةٍ؛ وهي الدَّابَّة التي يُرْكَبُ؛ أيّ: ظَهْرُها. أبْلَسَ: سَكَتَ. الرقْمَةُ: الهَنَةُ الناتِئةُ في ذِراعِ الدَّابَّةِ (١) .

١) تهذيبُ الآثار للطَّبريّ: (١٠/١/١٤٤).

تأمّلْ لو أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مِن بَني آدمَ لَما ذُكِرُوا هُنا، ولأكْتُفِيَ بِذِكْرِ مَن هَلَكَ مِن أبناءِ آدمَ فقط واللهُ تعالى أعلمُ.

ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ طَيراً كأعناقِ البُخْتِ؛ أيّ: الإبلِ فَتَحْمِلهُمْ وتَطْرَحهُم حيثُ يشاءُ اللهُ.

أليسَ العربُ هُم الأخبَرُ بالصَّحراءِ والطُّيورِ وأسمائِها؟ بَلَى.

لِماذا لمْ يُسَمِّ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم لَهُم تلكَ الطيورَ ذاتِ الأعناقِ الكبيرةِ؟

أينَ ستذهَبُ بِهِم إذا كانُوا أصلاً قَد مَلؤا الأرضَ كُلَّها؟

إنَّ هذهِ الطُّيورَ – واللهُ تعالى أعلمُ – ليستْ مِن طُيورِ أرضِنا؛ بل تأتي مِن السماءِ؛ لِتحْمِلَ الأشرارَ وَهُمْ فَرْسَى وتَطْرَحُهُم في أرضٍ بَعِيدَةٍ ليسَتْ كُرتَنا الأرضِيَّةَ هذهِ.

وإنَّني لأتساءلُ هل هذهِ الطُّيورُ هي طُيورُ العَنْقاءِ التي كما يقولُ المَثلُ الصِّينيُّ – حينَ تأتي العَنْقاءُ مِن السَّماءِ يَحُلُّ السَّلامُ – فَهلْ لِهذا القولِ أصلٌ وحقيقةٌ؟

وهلْ كان لِمَنْ قَبْلَنا مِن الأُمَمِ الغابِرةِ تَواصُلٌ مع المَخلُوقاتِ الفضائيَّة وهُم على عِلْمٍ بما سَيحْدُثُ في آخرِ الزَّمانِ؟

وهل الغُولُ المذكورُ في الأساطيرِ والخُرافاتِ – التِّنِّينُ في الخُرافاتِ الصِّينيَّة – هُو عَينُه يأجوجُ ومأجوجُ؟

جاء اسمُ الغُول مِن يَغِيلُ؛ أيّ: يَخْتَفِي، وقَد يكونُ ذلكَ سببَ التسميةِ؛ لأنَّ الأوائلَ سَمِعُوا بِيأجوجَ ومأجوجَ ولمْ يَرَوْهُم.

لاحِظْ أنَّ كلمةَ "يأجوجَ" مِن أجيجِ النَّارِ، والتِّنِّينَ ينفثُ مِن فَمِهِ النَّارَ. وكُلُّ هذا هُو فقط اجتهاداتٌ مِنِّي ومُجرَّد تساؤلاتٍ فقط لا غَيرَ واللهُ وَحدَهُ أعلمُ.

٥ – ومِن الأدلَّةِ القاطِعَةِ التي تُثْبِتُ أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ ليسُوا في باطنِ الأرضِ قولُه تعالى في الآيةِ ٤٥ من سُورةِ فاطِر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾، وكذلك قولُه عزَّ وجلَّ في الآية ٦١ من سُورةِ النَّحلِ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

لاحِظْ أنَّ الآيتَينِ الكريمتَينِ تُشيرانِ إلى أنَّ الدَّوابَّ؛ وخاصَّةً المُكلَّفةَ مِنها تعيشُ على ظَهرِ الأرضِ لا في بَطْنِها، ولو أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَعيشُونَ في باطنِ الأرضِ لَما اقتصرتِ الآياتُ الكريمةُ على ذِكْرِ هَلاكِ الدَّوابِّ التي على ظَهرِ الأرضِ؛ بل تَعدَّتْ إلى التي تعيشُ في بَطْنِها أليسَ كذلك؟

والظاهرُ أنَّ الدَّابَّةَ المَذكُورةَ في الآيتَينِ السابقتَينِ هي كلُّ ما يَعقِلُ مِن إنسٍ وجِنٍّ؛ ومِنها (يأجوجُ ومأجوجُ).

٦ – ولِمَن يقولُ "أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَعيشُونَ في باطنِ الأرضِ فلِماذا لمْ يَشْرَبُوا المِياهَ الجَوفيَّةَ إذا كانتْ لهُم القُدرةُ على شُرْبِ أنهارِ الأرضِ وبُحَيراتِها.

يقولُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " . . . فَيَعُمُّونَ الأرضَ فَيَنْشفُونَ الماءَ ويتحصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ في حُصُونِهِمْ، ويَنْحازُ مِنْهُم المُسلِمُونَ حَتَّى تَصيرَ بِقيَّةُ المُسلِمينَ في مَدائنِهِمْ وحُصُونِهِم ويَضُمُّونَ إليهِم مَواشيَهم، ويَشْرَبُونَ مِيَاهَ الأرضِ حَتىَّ إِنَّهمْ لَيَمُرُّونَ بِالنَّهرِ فيَشْرَبُونَهُ حَتَّى مَا يَذَرُونَ فِيهِ شَيئًا، حَتَّى إنَّ بَعْضَهُمْ لَيَمُرُّ

بِذلِكَ النَّهرِ حَتَّى يَترُكُوهُ يَبَسًا حَتَّى إنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ لَيَمُرُّ بِهِ فَيَقُولُ: قَد كانَ هاهُنا مَاءٌ مَرَّةً ! فيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحيرَةٍ طَّبَرِيَّةٍ فَيَشْرَبُونَ ما فِيها، ويَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَد كانَ بِهَذهِ مَرَّةً ماءٌ. ويَظْهَرُونَ على الأرْضِ، ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إلى جَبَلِ الخَمَرِ وهُوَ جَبَلُ بَيتِ المَقْدِسِ فَيَقُولُونَ: لقَد قَتَلْنا مَن فِي الأرْضِ هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَن في السَّماءِ. فَيَرْمُونَ بِسِهامِهِمْ إلى السَّماءِ فَتَرْجِعُ عَلَيها كَهَيئةِ الدَّمِ الذي اجْفَظَّ، لِلبَلاءِ والفِتْنَةِ. فَيَرُدُّ اللّٰهُ عَلَيهِ نُشَّابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أهلَ الأرضِ وعَلَوْنا أهْلَ السَّمَاءِ. ويُحْصَرُ نَبيُّ اللّٰهِ عِيسىَ وأصْحابُه حَتَّى يكونَ رأسُ الثَّورِ لأحَدِهِمْ خَيرًا مِن مائةِ دِينارٍ لأحَدِكمُ اليَومَ. فَيَرْغَبُ نَبيُّ اللّٰهِ عِيسى وأصْحابُه إلى اللّٰهِ، فَيَبْعَثُ اللّٰهُ نَغَفًا فِي أقْفائِهِمْ؛ فَيَقْتُلُهُم بِها فَيُصْبِحُونَ مَوتَى يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَيُصْبِحُ المُسْلِمُونَ لا يَسْمَعُونَ لَهُمْ حِسًّا، فَيَقُولُونَ: مَنْ رَجُلٌ يَشْرِي نَفْسَهُ ويَنْظُرُ ما فَعَلُوا؟

فَيَنْزِلُ مِنْهُم رَجُلٌ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَهُ على أنْ يَقْتُلُوهُ فَيَجِدُهُمْ مَوتَى؛ بَعضهُم على بَعضٍ فَيُناديهِمْ: يا مَعْشَرَ المُسْلِمينَ ! ألاَ أبْشِرُوا؛ فإنَّ اللّٰهَ قَد كَفاكُمْ عَدُوَّكُمْ. فَيَخْرُجُ النَّاسُ مِنْ مَدَائِنِهِمْ وحُصُونِهِمْ ويَخْلُونَ سَبِيلَ مَوَاشِيهِمْ، فَما يكونُ لَها رَعْيٌ إلاَّ لُحُومُهُم.

قالَ رَسُولُ اللّٰهِ صلَّى اللّٰهُ عليهِ وسَلَّمَ: "والّذي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إنّ دَوابَّ الأرْضِ لَتَسْمَنُ وتَبْطَرُ وَتَشْكَرُ شَكَرًا مِن لُحُومِهِم ودِمائِهِم. ثُمَّ يهبِطُ نَبيُّ اللّٰهِ عِيسَى وأصْحابُهُ إلى الأرْضِ؛ فلا يَجِدُونَ في الأرْضِ مَوضِعَ شِبْرٍ إلَّا مَلأَهُ زَهَمُهُمْ ونَتْنُهُم ودِماؤُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبيُّ اللّٰهِ عِيسَى وأصْحابُه إلى اللّٰهِ سُبحانَهُ، فَيُرْسِلُ اللّٰهُ طَيراً كأعْناقِ البُخْتِ فَتَحْمِلُهم فَتَطْرحُهُمْ حيثُ شاءَ اللّٰهُ؛ بالمهيلِ، ويَسْتَوقِدُ المُسْلِمُونَ مِن قِسِيِّهِمْ

ونُشَّابِهِمْ وجِعابِهِمْ سَبْعَ سِنِينَ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ عَلَيهِمْ مَطَرًا لا يَكُنُّ مِنهُ بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ أربعِينَ يَومًا، فيَغْسِلُ الأرضَ مِنهُم حَتَّى يَترُكَها كالزَّلَفَةِ ثُمَّ يُقالُ للأرْضِ: أنْبِتي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ؛ فيَومَئِذٍ تأكُلُ العِصابَةُ مِنَ الرُّمّانةِ فتُشبِعُهمْ ويَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِها، ويُبَارِكُ اللهُ في الرِّسلِ حتَّى أنَّ اللَّقْحَةَ مِنَ الإِبلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ منَ النَّاسِ، واللَّقْحَةُ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفي القَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، واللَّقْحَةُ مِن الغَنَمِ لَتَكْفِي الفَخْذَ مِن النَّاسِ، ولَيُحَجَّنَّ البَيتَ ولَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يأجوجَ ومأجوجَ. فَبَينما هُمْ كَذلِكَ إذْ بَعَثَ اللهُ عَلَيهِمِ رِيْحًا طَيِّبةً فَتأخُذَهُمْ تحَتَ آباطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوْحَ كُلِّ مُؤمِنٍ وكُلِّ مُسْلِمٍ، ويَبْقَى شِرارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيها تَهارُجَ الحُمُرِ فَعَلَيهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ" .

شَرحُ الألفاظِ: قالَ الّذي عَليهِم؛ أيّ: الّذي هُو أميرٌ عليهِم. حَتَّى إذا بَلَغَتْ مُدَّتُهُم؛ أيّ: المُدَّة الّتي قَدَّرَها اللهُ لهُم. لا يدانِ بِكَسْرِ النُّونِ: لا قُدرةَ ولا طاقةَ. فَحَرِّزْ؛ أيّ: ضُمَّهُمْ واجْعَلْهُ لهُم حِرزًا. حَدَبٍ: المكانُ المُرتفِعُ مِن الأرضِ. يَنسِلُونَ: يَمْشُونَ مُسْرِعِينَ. الخَمَرَ: الشَّجَرَ المُلْتَفَّ الّذي يَستُرُ مَن فيهِ. اجْفَظَّ؛ أيّ: مَلأها. نَغَفًا: دُودٌ يكونُ في أُنوفِ الإِبلِ والغَنَمِ. فَرْسَى؛ أيّ: قَتْلَى. تَبْطَرُ: تَنْشَطُ. شَكَرًا: شَكَرَتِ الناقةُ؛ أيّ: امْتلأ ضَرْعُها لَبَنًا، والدَّابَّةُ سَمِنَتْ. زَهَمُهُم ونَتْنُهُم؛ أيّ: دَسَمُهُم ورائِحَتُهم الكَرِيهةُ. كأعناقِ البُخْتِ: كأعناقِ الإِبلِ.

المَهِيلُ: الهُوَّةُ الذاهبةُ في الأرضِ، وقِيلَ: مَطْلِعَ الشَّمْسِ. قِسِيِّهِمْ: جمعُ قَوسٍ. نُشَّابِهِم: سِهامِهُم. جِعابِهِمْ: جمعُ جَعْبَةٍ؛ وهي ظَرْفُ النُّشَّابِ. أَترِسَتِهم: جَمعُ تِرْسٍ. لا يَكُنُّ مِنهُ؛ أيّ: لا يَسْتُرُهُ. الزَّلَفَةِ: المِرآةُ، وقيلَ الصَّحْفَةُ، وقيلَ: الرَّوضَةُ، وقِيلَ غيرُ ذلكِ، والمُرادُ: أنَّ الماءَ يَعمُّ جميعَ الأرضِ فَيُنَظِّفها حتَّى تَصيرَ حيثُ يَرَى

الرائي وَجْهَهُ فيها. العِصابةُ: الجَماعةُ. قِحْفِها: مقعرُ قِشْرِها شَبَّهَها بِقحف الرأسِ الّذي فوقَ الدِّماغِ. الرِّسلِ: هو اللبنْ. اللَّقْحَةَ: هي القريبةُ العَهْدِ بالولادةِ. الفِئَامَ: الجماعةُ الكبيرةُ. الفَخْذَ: الجماعةُ مِن الأقاربِ. يَتَهَارَجُونَ تهارُجَ الحُمُرِ؛ أيّ: يُجامِعُ الرَّجُلُ النِّساءَ بِحَضْرَةِ النَّاسِ كما يفعلُ الحَميرُ، والهَرْجُ: الجِماعُ.

أمَّا الطُّيورُ ذاتُ الأعناقِ التي يُرْسِلُها اللهُ كي تُخَلِّصَ أرْضَنا مِن جُثَثِ يأجوجَ ومأجوجَ، رُبَّما كانت طُيورُ العنْقاءِ التي تَذْكُرها الحَضاراتُ(الصِّينيَّةُ والهِنديَّةُ والأوروبيَّةُ والفِرعَونيّةُ والعَربيَّة) على أنَّها خُرافةٌ؛ ولكنْ مَن يَعْلَمُ، ربَّما أنَّ لِهَذهِ الخُرافةِ أصلٌ مِن الحقيقةِ، وأنَّ القُرونَ الأُولى قد رأتْ بالفعلِ؛ مِثل هَذهِ الطُّيورِ أو عَلِمَتْ بِها مِن أنبيائِها ورُسُلِها؛ ولكنْ عِندَما كَذَّبُوا رُسُلَهُم حَوّلُوا تلكَ الحقائقَ إلى خُرافاتٍ. والحفْرِيَّاتُ على كُرَتِنا الأرْضيَّةِ هَذهِ أثبَتتْ وُجودَ ما يُشبِهُ تلكَ الطُّيورَ، وهِيَ التي واكبَتْ حقْبةَ الدِّيناصُوراتِ المُنقرِضَةِ مِن ملايينِ السِّنينِ؛ ولكنْ هذا لا يَنفِي وُجودَ مِثلِ تلكَ (الطُّيورِ والدِّيناصُوراتِ) على كواكبَ أُخرى لمْ تَحلّ بِها كارثةٌ حتَّى تَنْقَرِضَ كما التي حَلَّتْ بأرْضِنا هَذهِ.

ومِن الملحُوظِ أنَّه بعدَ أنْ يَقضِيَ اللهُ على يأجوجَ ومأجوجَ – كما وَردَ في الحَديثِ الصحيحِ – (تَضَعَ الحَربُ أوزارَها، ويَنْزِعُ اللهُ الشَّحناءَ، ويَحلُّ السلامُ في الأرضِ)؛ حتَّى أنَّ الطِّفْلَ يلعبُ بِالحَيَّةِ فلا تَلْدَغُهُ، ويَضَعُ الرَّجُلُ يَدهُ في فَمِ السَّبُعِ فلا يُؤذيهِ ويبقَى الناسُ على ذلكَ سَبْعَ سِنينَ والأرضُ في (خَيرٍ وَفيرٍ وسلامٍ عامٍّ)؛ حتَّى تأتي رِيحٌ طَيِّبةٌ تَنزعُ مَن في قلبِه ذَرَّةُ إيمانٍ فلا يبقَى إلَّا شِرارُ الناسِ وعَليهِم تقومُ الساعةُ.

وعن النُّواسِ بنِ سَمْعانَ الكلابيّ قالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الدَّجَّالَ

ذاتَ غَداةٍ، فَخَفَّضَ فيهِ ورَفعَ حتَّى ظنَّناهُ في ناحيةِ النَّخْلِ، فقالَ: " غَير الدَّجَّالِ أخْوَفَني عَليكُم؟ فإنْ يَخْرُج وأنا فيكُم فأنا حَجيجُهُ دُونَكُمْ، وإنْ يَخْرُجْ ولَسْتُ فِيكُمْ فَكُلُّ امْرئٍ حَجيجُ نَفْسِه، واللّهُ خَليفَتي على كُلِّ مُسْلِمٍ. وإنَّهُ شَابٌّ جَعْدٌ قَطَطٌ عَينُهُ طافِيةٌ، وإنَّهُ يَخْرُجُ خلّةً بينَ الشَّامِ والعِراقِ؛ فَعاث يَمِينًا وشِمالاً، يا عِبادَ اللّهِ اثْبُتُوا.

قُلْنا: يا رَسُولَ اللّهِ، ما لبْثُهُ في الأرضِ؟

قالَ: أرْبَعُونَ يَومًا؛ يَومٌ كَسَنَةٍ، ويَومٌ كَشَهْرٍ، ويَومٌ كَجُمُعَةٍ، وسائِرُ أيَّامِهِ كأيَّامِكُم.

قُلْنا: يا رَسُولَ اللّهِ فَذاكَ اليومُ الذي هُو كَسَنَةٍ أيَكْفِينا فِيهِ صَلاةُ يَومٍ ولَيلَةٍ؟

قالَ: لا؛ اقْدُروا لَهُ قَدْرَهُ.

قُلْنا: يا رَسُولَ اللّهِ فَما إسْراعُهُ في الأرضِ؟

قالَ: كالغَيثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ.

قالَ: فَيَمُرُّ بِالحيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَسْتَجِيبُونَ لهُ، فَيأمُرُ السَّماءَ فَتُمْطِرِ والأرْضَ فَتُنْبِتُ وتَرُوحُ عَلَيهِم سارِحَتُهُم وَهِيَ أطْولُ ما كانتْ ذُرَى وأمَدَّهُ خَواصِرَ وأسْبَغَهُ ضُرُوعًا. ويَمُرُّ بِالحَيِّ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَليهِ قَولَهُ فَتَتْبَعُهُ أمْوالُهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيسَ لَهُمْ مِن أمْوالِهِم شَيءٌ، ويَمُرُّ بِالخَرْبَةِ فَيَقُولُ لَها: أَخْرِجي كُنُوزَكِ؛ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُها كَيَعاسِيبِ النَّحلِ.

قالَ: وَيأمُرُ بِرَجُلٍ فَيُقْتَلُ فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَينِ رَمْيَةَ الغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ إليهِ. فَبَينَما هُمْ على ذَلِكَ؛ إذْ بَعَثَ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ المَسِيحَ عِيسَى ابنَ مَريمَ،

فَيَنْزِلُ عِندَ المَنارَةِ البَيضاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَينَ مَهْرُوْدَتَينِ واضِعًا يَديهِ على أجْنِحَةِ مَلَكَينِ، فَيَتْبَعهُ فَيُدْرِكُهُ فَيَقْتُلهُ عِندَ بابِ لُدْ الشَّرقِيِّ.

قالَ: فَبينَما هُمْ كَذلِكَ؛ إذْ أوحَى اللهُ عزَّ وجلَّ إلى عِيسَى ابنِ مَريمَ عَليهِ السلامُ أنِّي قَد أَخْرَجْتُ عِباداً مِن عِبادِي لا يَدانُ لكَ بِقِتالِهِم؛ فَحَرِّزْ عِبادي إلى الطُّورِ، فَيَبْعَثُ اللهُ عزَّ وجلَّ يأجوجَ ومأجوجَ كما قالَ تعالى: (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ). فَيَرْغَبُ عِيسَى وأصْحابُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ فَيُرْسِلُ عَليهِم نَغَفًا في رِقابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرسَى كَمَوتِ نَفْسٍ واحِدَةٍ، فَيَهْبِطُ عِيسَى وأصْحابُهُ فلا يَجِدونَ في الأرضِ بَيتًا إلَّا قَد مَلأهُ زَهَمُهُمْ وَنَتَنُهُم، فَيَرْغَبُ عِيسَى وأصْحابُهُ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيهِم طَيراً كأعناقِ البُخْتِ، فَتَحْمِلهُمْ فَتَطْرَحهُمْ بِالمَهيلِ.

قالَ: ويُرْسِلُ اللهُ مَطراً لا يكُنُّ مِنهُ بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ أربَعِينَ يَومًا فَيَغْسِلُ الأرضَ حَتَّى يَتْرُكَها كالزَّلْقَةِ، ويُقالُ للأرْضِ أنْبِتي ثَمَرَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ،

قالَ: فَيَومَئذٍ يأكُلُ النَّفَرُ مِن الرُّمَّانَةِ فَيَسْتَظِلُّونَ بِقحْفِها، ويُبارِكُ في الرسلِ حتَّى إنَّ اللقْحَةَ مِن الإبِلِ لَتَكْفِي الفِئامَ مِن النَّاسِ، واللقْحَةَ مِن البَقَرِ تَكْفِي الفَخذَ، والشاةَ مِن الغَنَمِ تَكْفِي أهْلَ البَيتِ.

قالَ: فَبينَما هُمْ على ذلكَ؛ إذْ بَعَثَ اللهُ عزَّ وجلَّ رِيحًا طَيِّبَةً فَتأخُذهُم تحَتَ آباطِهِم فَتَقْبِضُ رُوْحَ كُلِّ مُسْلِمٍ – أوْ قالَ مُؤمِنٍ – وَيَبْقَى شِرارُ النَّاسِ يَتَهارَجُونَ تَهارُجَ الحُمُرِ وَعَلَيهِم تَقُومُ السَّاعةُ"[1].

[1] انفردُ بإخراجِه الإمامُ مُسلِمٌ دونَ الإمامِ البُخاريِّ، سُنَن التِّرمذيّ: (٢٢٤٠)، تفسير ابن كثير: ٤(ج، ص٥٩٢).

قال القاضي عِياضٌ: يجبُ الإيمانُ بالأحاديثِ الصَّحيحةِ الواردةِ في يأجوجَ ومأجوجَ، وأنَّ خُروجَهُم مِن عَلاماتِ الساعةِ... [1].

* ومِن الإعجازِ العِلْميِّ في وَصفِ أهمِّ خَصائصِ السَّبائكِ المَعدنيَّةِ الحَديديةِ قولُه تعالى: (آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إذا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حتَّى إذا جَعَلَهُ نارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيهِ قِطْرًا).

شَملَتْ هذهِ الآياتُ الكريمةُ الكثيرَ مِن العُلومِ الهندسيَّةِ ذاتِ التطبيقاتِ التِّقنيَّةِ العاليةِ في سَبعةَ عَشرَ عِلْمًا؛ منها:

السبائكُ المعدنيةُ – تشكيلُ المعادنِ – قَطْعُ المعادنِ – هندسةُ اللِّحامِ – الفلزاتِ والتعدينُ – خواصُّ الموادِّ واختبارُها – فحصُ الوصْلاتِ – تحديدُ درجاتِ الجَودَةِ... وتتجلَّى الحِكْمةُ الرَّبَّانيَّةُ حينَما نعلمُ أنَّ كُلَّ عِلْمٍ من العُلومِ المَذكُورةِ يحتوي على كَمٍّ هائلٍ مِن المعلُوماتِ قد يصلُ إلى آلافِ الكُتُبِ تناولَتْها الأبحاثُ البَشريَّةُ على مَرِّ الأزمانِ **(قُلْ لَو كانَ البَحْرُ مِدادًا لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَو جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)** (الكهف: ١٠٩).

ولقد أجمعتْ مُعظَمُ كُتبِ التفاسير على أنَّ المقصودَ بِزُبُرِ الحديدِ هو قِطَعُ الحديدِ السابقِ استخدامُها؛ والذي يُعرَفُ باسْمِ "الحديدِ المَطْروقِ"؛ لِما لهُ مِن خواصَّ ميكانيكيَّةٍ أهمُّها: أنَّه عندَ إرجاعِه داخلَ الفرنِ العالي فإنَّه يَتحوَّلُ إلى فُولاذٍ؛ وهو مادَّةٌ (مَتينةٌ وقويَّةٌ ومُعمَّرةٌ)، أمَّا حافَّتَي الصَّدَفَينِ؛ فالمَقصُودُ بِهما حافَّتَي الجَبَلَينِ؛ أيّ: حافَّتَي اللوحَينِ. وعَمليَّةُ المساواةِ بين حافَّتَي (الجَبلَينِ أو اللوحَينِ) هي من

[1] مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح: (ج١٦، ص ٢).

الضَّرُورات الهندسيَّةِ؛ وهُو ما يُعرَفُ باسْم "شَطْفِ حافَّتَي اللوحَينِ" وهو أحدُ بَديهياتِ عمليَّاتِ اللحامِ؛ حتَّى لا تكونَ المُنشأةُ الهندسيَّةُ هَشَّةً وضعيفةً. وحتَّى يَكتسِبَ الرَّدْمُ مَناعةً دائمةً أَفْرَغَ عليهِ القِطْرَ؛ وهو سَبِيكةُ النُّحاسِ المُنصَهِرِ، وتحتوي على تِسعَةٍ وثلاثينَ عُنصراً كيميائيًّا؛ مِثل (القصديرِ، والنِّيكل، والفانديوم، والثوريوم، والنيوبيوم، والكروم، والتيتانيوم) وغَيرِها فاكْسَبَها (مناعةً وقوَّةً) ومُقاوَمةً لِلصَّدأ. وهذه في حَدِّ ذاتِها مُعجِزةٌ قرآنيَّةٌ أُخرى (من أبحاث المؤتمر العالَمي للإعجاز العلميّ في القُرآنِ والسُّنَّةِ – بِتصرُّف). واللهُ المُوفِّقُ.

سَدُّ يأجُوج ومأجُوج: ذكرَ الإمامُ القُرطبيُّ في كتابهِ "التذكرة" أنَّ ذا القرنَين لّما عاينَ ذلك منهُم انصرفَ إلى ما بينَ الصَّدَفَينِ فقاسَ ما بينهُما فَوَجَدَهُ مائةَ فَرْسخٍ؛ فَحَفَرَ له أساسًا حتَّى إذا بَلَغَ الماءُ جَعلَ عَرْضَهُ خَمسينَ فَرسخًا، وجَعَلَ حَشْوَهُ الصُّخورَ، ثُمَّ صَهرَ النّحاسَ وَصَبَّهُ عليهِ؛ فَصارَ كأنَّه عِرقٌ مِن جبلٍ تحتَ الأرضِ، ثُمَّ عَلاهُ وشَرَّبَهُ بِزُبَرِ الحَديدِ والنّحاسِ المُذابِ، وجعلَ خِلالَهُ عِرقًا من نُحاسٍ؛ فَصارَ كأنَّه بُرْدٌ حَبِرَةٌ من صُفرةِ النُّحاسِ وحُمْرَتُه من سَوادِ الحديدِ.

وذَكرَ القطَّانُ في "تيسيرِ التفسير" أنَّ طولَ السَّدِّ خَمسُونَ مِيلاً، وارتفاعَه تسعةَ وعِشرونَ قَدَمًا، وسُمْكَهُ عَشرةُ أقدامٍ، وتَتَخَلَّلُهُ بعضُ الأبوابِ الحديديةِ، وفي أعلاهُ بُرْجٌ لِلمُراقَبةِ.

وذكر الإمامُ النَّسفيُّ في "مَدارك التنزيلِ" أنَّه حَفرَ الأساسَ حتَّى بلغَ الماءَ؛ فَجعلَ الأساسَ مِن الصَّخرِ والنُّحاسِ المُذابِ، وجَعلَ البُنيانَ مِن زُبَرِ الحديدِ بينُهما الحطبُ والفحمُ؛ حتَّى حاذى ما بينَ الجَبلَينِ إلى أعلاهُما، ثُمَّ نفخَ بالمَنافيخِ؛ حتَّى إذا صارتْ

كالنَّارِ صَبَّ النُّحاسَ المُذابَ على الحديدِ المحْميِّ فاختلطَ والتصقَ بَعضُه بِبَعضٍ وَصارَ جَبَلاً صَلْداً، وقيلَ: إنَّ بُعدَ ما بينَ السَّدَّينِ مائةُ فَرْسخٍ.

رَدْمُ ذِي القرنَينِ شيءٌ آخرُ: ولا يُمكِنُ أن يكونَ ردمُ ذي القرنَينِ هو جِدار "دربند" أو "بابُ الأبوابِ" كما اشتهرَ عند العربِ؛ لأنَّ جِدار "دربند" بناهُ "أنو شروان" مِن مُلوكِ فارس (٥٢١ – ٥٧٩ م)؛ أيّ: بعدَ بناءِ السَّدِّ بألفِ سَنَةٍ؛ ولأنَّه يمتدُّ مِن الجبلِ إلى الساحلِ من ناحيةِ الشرقِ وليس بينَ جَبَلَينِ، كما أنَّه من الحِجارةِ والطِّينِ ولا أثرَ فيه للحديدِ والنُّحاسِ.

وأمّا سُورُ الصِّينِ فقَد بُنِيَ سَنة ٢٦٤ ق. م بينَما بُنِيَ سَدُّ ذِي القرنَينِ في القرنِ السادسِ قبلَ الميلادِ. وهُناك فُروقٌ عديدةٌ بينهُما منها:

١ – أنَّ السَّدَّ الذي بناهُ ذُو القرنَينِ هو لِصَدِّ هَجماتِ يأجُوج ومأجُوج، والسُّورُ الذي بناهُ الصِّينيُّونَ فَهُو لحِمايةِ مُتلكاتِهم.

٢ – أنّ الموادَ التي استخدمَها ذُو القرنَينِ في بناءِ السَّدِّ هي (الحَديدُ والنُّحاسُ) كما ذكرَتْها الآياتُ الكريمةُ، أمّا الموادُّ التي استُخْدِمَت في بناءِ سُورِ الصِّينِ فَهِيَ (الحِجارةُ والآجُرُّ).

٢ – أنَّ رَدْمَ يأجُوج ومأجُوج بُنِيَ بينَ جَبَلَينِ. أمَّا سُورُ الصِّينِ فَهُو مبنيٌّ على السُّهولِ وقِمَمِ الجِبالِ، ويمتدُّ مِن شَرْقِ الصِّينِ إلى غَرْبِها على مسافةِ آلافِ الأميالِ.

٤ – أنَّ سَدَّ يأجُوج ومأجُوج لا يُمكِنُ الصُّعودُ عليهِ ولا نَقْبُهُ؛ حتَّى يشاءَ اللّهُ عزَّ وجلَّ في آخرِ الزمانِ، أمَّا سُورُ الصِّينِ فقَد تهاوتْ مِنهُ عِدَّةُ مَواقِعَ يَدخُل مِنها النَّاسُ ويَخْرُجُونَ؛ بلْ ونقضَ الناسُ أجزاءً عديدةً مِنه.

مَوقِعُ الرَّدمِ: إنَّ تحديدَ مكانِ الرَّدْمِ غيرُ واردٍ قطعيًّا، ولا يستطيعُ أحدٌ الجَزْمَ بهِ؛ لأنَّ الآياتِ القرآنيةَ والأحاديثَ النبويةَ لم تُحدِّدْ ذلكَ؛ لكنَّها تدلُّ على أنَّها منطقةٌ بينَ حاجزَينِ طبيعيَّينِ تفصلُهما (فَجْوةٌ أو ممَّرٌ) ردمَه ذُو القرنَين. وذُكِرَ أنَّ الخليفةَ الواثقَ (٢٢٧ – ٢٣٢ ه/٨٤٢ – ٨٤٧ م) بعثَ بعضَ أُمرائهِ وجَهَّزَ معهُم جيشًا وكتبَ معهُم كُتبًا إلى المُلوكِ مِن أجْلِ المساعدةِ للوصولِ إلى السَّدِّ؛ لِيكْشِفُوا خَبَرَهُ، ويُعاينُوهُ ويَنعتُوه لهُ إذا رَجَعُوا، فَتوصَّلُوا مِن بلادٍ إلى بلادٍ، ومِن مَلكٍ إلى مَلكٍ؛ حتّى وَصلُوا إليهِ، وَرأوا بِنائَه مِن (الحديد والنحاسِ).

وذَكَرُوا أنَّهُم رأوا فيه بابًا عَظيمًا وعليهِ أقفالٌ عظيمةٌ، ورأوا بقيَّةَ اللَّبنِ والعملِ في بُرْجٍ هُناكَ، وأنَّ عِندَه حُرَّاسًا مِن المُلوكِ المُتاخِمَةِ لهُ، وأنَّه عالٍ مُنيفٌ شاهقٌ لا يستطيعُ أحدٌ تَسلُّقَه ولا ما حَولَه من الجِبالِ، ثُمَّ رَجَعُوا إلى بلادهِم. وكانت غَيبَتهُم أكثرَ من سنتَينِ شاهَدوا فيها أهوالاً وعَجائِبَ. ولمْ يُذكَرْ سندٌ لهذهِ القِصَّةِ، ولمْ يُتكلَّمْ عليها بِشَيءٍ (١).

ويَروي الإمامُ "الإدريسيُّ" في كتابهِ "نُزهة المُشتاقِ في اختراقِ الآفاقِ"، و" ابنُ خرداذبه في كتابِه "المَسالِك والمَمالِك" قِصَّةَ هذهِ الرِّحلةِ على النحْو الآتي: إنَّ الواثقَ باللّهِ لَمَّا رأى في المنامِ أنَّ السَّدَّ الذي بناهُ ذُو القرنَينِ مفتوحًا، أحضرَ سَلامَ التُّرجمان الذي كان يَتكلَّمُ ثلاثينَ لِسانًا وقالَ لهُ: اذهبْ وانْظُرْ إلى هذا السَّدِّ وَجِئني بِخَبرِه وحالِه وما هُو عليهِ. وأمرَ له بأصحابٍ يَسيرُونَ معهُ وعَدَدُهُم ٦٠ رَجُلاً وَوَصلَهُ بِخَمسةِ آلافِ دينارٍ، وأعطاهُ دِيتَهُ عشرةَ آلافِ درهمٍ، وأمرَ لكلِّ واحدٍ

١) البداية والنهاية: (ج٧، ص١٢٦)

من أصحابه بخَمسينَ ألفِ درهمٍ ومَؤُونةِ سَنةٍ ومائة بَغْلٍ تحملُ الماءَ والزادَ، وحَملَ سلامٌ رسالةً من الخليفةِ إلى إسحاقِ بنِ إسماعيلَ صاحبِ أرمينية بتفْليس، وكتبَ صاحبُ أرمينيةُ توصيةً لهُم إلى صاحبِ السرير، وذلكَ كتبَ لهُم إلى صاحبِ اللان، وهكذا إلى فيلا شاه وطرخان مَلِكِ الخزر؛ فأرسلَ خمسةَ أدلَّاءَ سارُوا معهُم ٢٥ يومًا حتَّى انتهَوا إلى أرضٍ سوداءَ مُنتِنَةِ الرَّائحةِ.

قالوا: فَسِرْنا فيها عشرةَ أيَّامٍ فَوصَلْنا إلى مُدُنٍ خرابٍ فَسِرْنا فيها عِشرينَ يومًا، وسألْنا عن خَبَرِها فقيلَ لنا: هيَ المُدنُ التي خَرَّبَها يأجُوج ومأجُوج. ثُمَّ صِرْنا إلى حُصونٍ بِالقُربِ من الجبلِ الذي في شُعبةٍ مِنهُ السَّدُّ، وفي تلك الحُصونِ قومٌ مُسْلِمُونَ يَتكلَّمونَ (العربيّةَ والفارسيّةَ) يَقْرَؤونَ القُرآنَ ولهُم كَتاتِيبُ ومَساجِدُ، وبينَ كُلِّ حِصْنٍ وآخرَ فَرْسخانِ، ثُمَّ صِرْنا إلى مدينةٍ يُقالُ لها "أيكة" لها أبوابٌ من حديدٍ وفيها مزارعُ؛ وهيَ التي كان يَنزِلُها ذُو القرنَينِ بِعَسْكَرِه، وبينَها وبين السَّدِّ مسيرةُ ثلاثةِ أيَّامٍ، ثُمَّ صِرْنا إلى جَبلٍ عالٍ عليه حِصنٌ. والسَّدُّ الذي بَناهُ ذُو القرنَينِ هو فَجٌّ بين جبلَينِ عَرْضُه ٢٠٠ ذراع، وهو الطريقُ الذي يَخرُجونَ منهُ فيَتفرَّقونَ في الأرضِ، فحَفرَ أساسَه ٢٠ ذراعًا وبَناهُ ب(الحديدِ والنُّحاسِ)، ثُمَّ رفعَ عَضاضتَينِ ممَّا يلي الجبلَ مِن جانبَي الفجِّ عَرْضُ كُلٍّ منهُما ٢٥ ذراعًا في سِمْكِ ٥٠ ذراعًا، وكُلُّهُ بناءٌ بِلَبِنٍ مُغيّبٍ في نُحاسٍ، وعلى العَضاضتَينِ عَتبَةٌ عُليا مِن حديدٍ طُولُها ١٢٠ ذراعًا، وَفوقَها بناءٌ بذلك اللَّبنِ الحديدِ إلى رأسِ الجَبلِ وارتفاعُه مَدَّ البصرِ؛ فيكونُ البناءُ فوقَ العَتبَةِ ٦٠ ذراعًا، وفوقَ ذلك شُرَفٌ من حديدٍ في كُلِّ شُرْفَةٍ قَرْنَتانِ تَنثني كُلُّ واحدةٍ على الأُخرى، طولُ كُلِّ شُرْفَةٍ خَمسةُ أذرُعٍ في أربعةٍ، وعليه سَبْعٌ

وثلاثونَ شُرْفةً وبابٌ من حديدٍ بمِصراعَينِ مُعلَّقَينِ؛ عَرْضُ كُلِّ مِصراعٍ ٥٠ ذراعًا في ٧٥ ذراعًا في ثِخْنِ خَمسةِ أذرُعٍ، وقائمتانِ في دوَّارةٍ على قَدْرِ العَتَبةِ لا يدخلُ مِن البابِ ولا الجَبلِ رِيحٌ، وعلى البابِ قُفْلٌ؛ طُولُه سبعةُ أذْرُعٍ في غِلَظِ باعٍ في الاستدارةِ، والقُفْلُ لا يَحتضِنُه رَجُلانِ، وارتفاعُ القُفْلِ من الأرضِ ٢٥ ذِراعًا، وفوقَ القُفْلِ بِخَمسةِ أذرُعٍ غُلْقٌ؛ طُولُه أكثرَ من طُولِ القُفْلِ، وقَفيزاهُ كُلُّ واحدٍ ذِراعانِ، وعلى الغُلْقِ مفتاحٌ مُعلَّقٌ؛ طُولُه ذِراعٌ ونِصفُ الذِّراعِ، وله ٢١ سِنًّا من الأسنانِ، واستِدارةُ المِفتاحِ ٤ أشبارٍ مُعلَّقٌ في سِلسلةٍ ملحُومةٍ بالبابِ؛ طُولُها٨ أذرعٍ في ٤ أشبارٍ، والحَلْقةُ التي فيها السلسلةُ مِثلُ المنجنيقِ، وعَتبةُ البابِ عَرْضُها ١٠ أذرعٍ في بسطِ مائةِ ذراعٍ، ومع البابِ حِصْنانِ يُكوِّنُ كُلٌّ منهُما ٢٠٠ ذراعٍ.

وفي أحدِ الحِصنَينِ آلةُ البِناءِ التي بُنيَ بها السَّدُّ من قُدورِ الحديدِ ومَغارفَ حديدٍ، وهُناك بقيَّةٌ من اللَّبنِ الذي التصقَ ببعضِه بسببِ الصَّدأِ. ورئيسُ تلك الحُصونِ يَركبُ في كُلِّ اثنينِ وخَميسٍ، وهُم يتوارَثونَ ذلك البابَ كما يتوارثُ الخُلفاءُ الخِلافةَ، يُقرَعُ البابُ قَرْعًا له دَويٌّ الهدفُ منهُ أن يسمعهَ مَن وراءَ البابِ فيَعلَمُوا أنَّ هُناكَ حَفظةً وأنّ البابَ ما زالَ سليمًا. وعلى مِصراعِ البابِ الأيمنِ مكتوبٌ (**فإذاجاءَ وَعْدُرَبِّي جَعَلَهُدَكَّاءَو كانَوَعْدُرَبِّيحَقًّا**). والجبلُ من الخارجِ ليس له مَتنٌ ولا سَفْحٌ، ولا عليهِ نباتٌ ولا حَشيشٌ ولا غيرَ ذلكَ، وهو جبلٌ مسطَّحٌ متَّسِعٌ قائمٌ أملسُ أبيضُ. وبعد تفقُّدِ سَلامٍ التُّرجمانِ للسَّدِّ انصرفَ نحْو "خُراسانَ" ومنها إلى "طبانوين" ومنها إلى "سَمَرْقَنْدَ" في ثمانيةِ أشهُرٍ ومِنها إلى "أسبيشاب" عَبْرَ نهرِ بَلْخٍ، ثُمَّ صار إلى "شروسنة" ف "بُخارى وتِرْمِذ" ثُمَّ إلى "نيسابور". ومات مِن

الرِّجالِ في الذهابِ ٢٢ رَجُلاً وفي العودةِ ٢٤ رَجُلاً. ووَردَ نيسابورَ وبقيَ معهُ مِن الرِّجالِ ١٤ ومن البِغال ٢٢ بَغْلاً، وعاد إلى "سُرَّ مَن رأى" فأخبرَ الخليفةَ بما شاهدَه بعدَ رحلةٍ استمرَّت ١٦ شهْرًا ذَهابًا و١٢ شهْرًا إيابًا.

ومِن المُرجَّحِ أن يكونَ الموقعُ على الحدودِ القيرغستانيةِ الغربيةِ – الأوزبكيةِ الشرقيةِ في آسية الوسْطى قريبًا من شمالِ غَربِ الصِّينِ بينَ بحرِ قزوينَ والبحرِ الأسودِ؛ حيث تُوجَدُ سلسلةُ جبالِ القُوقازِ التي تفصلُ بين الشمالِ والجنوبِ؛ إلَّا في ممَّرٍ كان يهبطُ منه المُغيرُونَ، وفي هذا المَمرِّ بَنى ذُو القرنَينِ الردمَ.

ويُؤكِّدُ ذلك أنَّ الكتاباتِ الأرمينيةَ تُسمِّي ذلك السَّدَّ بِ "هاك غورائي أو كابان غورائي"؛ أيّ: مضيق "غورش أو ممَرّ غورش"، ويشهدُ على ذلك – أيضًا – تسميةُ هذا المضيقِ باللغةِ الجُورجيةِ ب "البابِ الحديديّ".

موقع الردم على الخريطة[1]

صُورةُ الردمِ عبرَ جوجل إيرث تُظهِرُ أنَّه عالٍ شاهقٌ لا يُمكِنُ تَسلُّقُه ولا ما حولَه مِن الجبالِ؛ ارتفاعُه ٢٦٠ مترًا، وهذا يُطابِقُ ما ذَكرَه سلام التُّرجمان.

ولو دقَّقْنا في الصورةِ فسوفَ نشاهدُ مِقْبِضًا دائريًّا داخلَ شِقَّي البابِ تمامًا كما هو في الصُورةِ المخطوطةِ. ونُشاهِدُ – أيضًا – جبلَينِ متناوحَينِ بينهُما ثُغرةٌ كان يخرجُ منها يأجُوج ومأجُوج على بلادِ التِّركِ فيَعيثونَ فيها فسادًا ويُهلِكونَ الحَرثَ والنَّسلَ.

ملْحوظةٌ: الردمُ شيءٌ وبينَ السَّدَّينِ شيءٌ آخرُ؛ فالردمُ بناءٌ من (حديدٍ ونُحاسٍ) حُجِزَ وراءَه يأجوجُ ومأجوج، أمَّا السَّدَّانِ فهُما جَبلانِ يبعد الردمُ عنهُما حوالَي ١٠٦ كم بمقياسِ جوجل إيرث.

* وقد كُشِفَ سَدٌّ بمَقربةٍ من مدينةِ "ترْمِذ" عُرِفَ بـ "بابِ الحديدِ"، ومرَّ به في أوائلِ القرنِ الخامس عشرَ الميلاديِّ العالِمُ الألمانيُّ "سيلد برجر" وسجَّلَه في كتابِه.

وذكرَه المؤرِّخُ الإسبانيُّ "كلامينجو" في رحلتِه سنَة ١٤٠٢ م وقال: إنَّ سَدَّ مدينةِ بابِ الحديدِ على طريقِ سَمَرْقَنْد والهندِ، وقد يكونُ هو السدُّ الذي بناهُ ذُو القرنَينِ (في ظِلال القُرآن).

* لقد جاء ذِكْرَ يأجوجَ ومأجوج في القُرآنِ المجيدِ، ووَردَ في بعضِ الأحاديثِ الصحيحةِ والضعيفةِ، وفي الكتابِ المقدَّسِ في "سِفْرِ التكوين وسِفر حزقيال وسِفر الوحي". وإنَّ أنسبَ مكانٍ جُغرافيٍّ لوجُودِهم فيه هو ما يُسمَّى اليومَ "عُقْدَةَ

[1] عبد الله شُربجي - كتاب رحلة ذي القرنَين إلى المَشرِق

بامير" ، وتقعُ بين أفغانستانَ وطاجاكستانَ وباكستانَ والتّبْت . وتُعرَفُ هذه الجبالُ بِسَقْفِ العالَم لِعُلوِّها الشاهقِ، وتحتوي على العديدِ من المَمرَّاتِ والخنادقِ والكُهوفِ السِّرِّيَّةِ التي لا تُرى بالأقمارِ الصناعيةِ ويصعبُ الوصولُ لها بأيِّ وَسيلةٍ كانت حتَّى على الأقدامِ. وهذه المنطقةُ هي الأنسبُ لإقامةِ الردْمِ؛ لأنَّ الجِبالَ هُناكَ تُشكِّلُ سلسلةً مُتداخلةً ومُتلاحِمةً؛ حيث أنَّ كلمةَ السَّدَّينِ تعني "الجبالَ المتلاحِمةَ في شطرَين مُنفصِلَين بِمَرٍّ جبليٍّ وهو الذي رَدَمَه ذُو القرنَين على يأجُوج ومأجُوج (الباحث أحمد آل الشيخ) .

* إنَّ السَّدَّ موجودٌ في مكانٍ جبليٍّ شاهقِ الارتفاعِ شديدِ التضرُّسِ قائمٍ كجِدارَينِ شامخَينِ على جانبَيه في المضيقِ الجبليِّ المعروفِ باسم "داريال" ، وهو مرسومٌ في الخرائطِ الإسلاميةِ والروسيةِ في جُمهوريةِ "جُورجيا" .

وقد استُخْدِمَت في تشيدِه قِطَعُ الحديدِ الكبيرة وأُفرِغَ عليه النُّحاسُ المنصَهِرُ كما وصفهُ القرآنُ الكريمُ تمامًا، وأنَّ كُتلَ الحديدِ المخلوط بالنُّحاسِ موجودةٌ في جبالِ القوقازِ على ارتفاع ٥٦٢٠ م (عبد العزيز المسند في كتابه عن الصين) .

* أنَّ الخُبراءَ الذين زاروا المنطقةَ قالوا: إنَّ السَّدَّ موجودٌ الآنَ، ويُعرَفُ بِ "سَدِّ دربند" بالقُربِ من مدينة "ترمِذ" (القطَّان – تيسير التفسير) .

بينما يُرجِّحُ الدكتورُ "أحمد منصور" أنَّ سدَّ يأجُوج ومأجُوج ليس على أرضِنا هذه ويتساءل: إذا كان السدُّ الذي بناهُ ذُو القرنَينِ موجوداً بالفعلِ على الكُرةِ الأرضيَّةِ فلماذا لم يُخْبِرْ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم اليهودَ الذين سألُوه عن ذِي القرنَينِ عن مكانِه حتَّى يكون ذلك دليلاً يُؤكِّدُ على صِدق رِسالَتِه؟

ويقولُ: إنَّ سُوءَ الفهمِ يكمنُ في عدمِ استيعابِ فكرةِ وجودِ أراضٍ أُخرَ غَير الكُرةِ الأرضيَّة التي نعيشُ عليها؛ رغمَ أنَّ القرآنَ الكريمَ أوردَ الكثيرَ من الآياتِ التي تُثبِتْ بِصُورةٍ جَليَّةٍ وجودَ كواكبَ أُخرى عليها خَلْقٌ مُكلَّفٍ من إنسٍ وجِنٍّ سأوردُ بَعضًا منها:

قال اللهُ تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ) (الشُّورى: ٢٩). يُتَّضِحُ من الآيةِ الكريمةِ أنَّ هُناكَ دابَّةً قد بثَّها اللهُ عزَّ وجلَّ في السَّمواتِ كالتي بثَّها في الأرضِ، وكلمةُ "السَّموات" تعني أنَّ الدابَّةَ ليستْ في سماءٍ مُعيَّنةٍ؛ بل في السَّمواتِ؛ ولكنْ ما طبيعةُ هذه الدابَّةِ التي بثَّها اللهُ في السَّمواتِ؟

الجوابُ نجِدُه في قولِه تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: ١٦٤)، وكذلكَ في قولِه تعالى: (خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) (لُقمان: ١٠). إنَّ كُلَّ مَن يتأمَّلُ الآيتَينِ الكريمتَينِ يَتبيَّنُ له أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد بثَّ جميعَ أصنافِ الدوابِّ في الأرضِ، وأنَّ الدابَّةَ المبثوثةَ في السمواتِ

هي حَتْمًا مِن صِنفِ الدوابِّ المبثوثةِ في الأرضِ، ومِن المحُتَّمِ وجودُ أرضٍ في تلك السمواتِ كي تدبَّ عليها هذه الدابَّةُ. تأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هُود: ٦)؛ أيّ: أنَّ كُلَّ الدوابِّ رِزْقُها على اللهِ تعالى؛ لأنَّه خالقُها؛ ولكنَّ الآيةَ الكريمةَ أشارتْ إلى الدوابِّ المَبثوثةِ في الأرضِ، فماذا عن الدوابِّ المبثوثةِ في السمواتِ؟ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الآيةَ السابقةَ تقصدُ – أيضًا – الدوابَّ المبثوثةَ في السمواتِ؛ لأنَّها بكلِّ بساطةٍ مبثوثةٌ على أرضٍ ما في تلك السَّمواتِ، ولو لم يَكُنْ هذا التفسيرُ صحيحًا لأشارتِ الآيةُ المذكورةُ إلى أنَّ الدابَّةَ التي في السَّمواتِ – أيضًا – على اللهِ رِزْقُها ويَعلَمُ مُستقرَّها ومُستودعَها. وهذا إثباتٌ آخرُ يدلُّ على أنَّ السَّمواتِ تحوي أراضٍ أُخرَ يعيشُ عليها خَلْقٌ آخرُ. وقَد جاءَ في القُرآنِ الكريمِ ما يُشيرُ إلى وُجودِ تلك الأراضي في السمواتِ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الطَّلاق: ١٢) إذنْ: هُناكَ سَبْعُ أراضٍ وسَبْعُ سَمواتٍ. قال ابنُ عبَّاسٍ لِمَنْ سألَه عن تفسيرِ هذه الآيةِ: لو حَدَّثْتُكُمْ بِتَفْسِيرِها لَكَفَرْتُمْ، وكُفْرُكُمْ عَدَمُ تَصْدِيقِكُمْ.

وقالَ لِرَجُلٍ آخرَ حين سألَهُ عن تفسيرِها: ما يُؤمِّنُكَ لو حَدَّثْتُكَ بِتَفسيرِها أنْ تَكفُرَ واللهُ أعلمُ.

لماذا لمْ تكشفِ الأقمارُ الصِّناعيَّةُ سدَّ يأجُوج ومأجُوج؟

إنَّ معرفةَ جميعِ بِقاعِ الأرضِ والإحاطةِ بما فيها مِن مخلوقاتٍ لا يَقْدُرُ عليها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ الذي أحاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْمًا. ولا يدلُّ عدمُ اكتشافِ (سدِّ ذي القرنَين أو مكانِ يأجُوج ومأجُوج أو دابَّة الأرضِ أو الدَّجَّالِ) أو غَيرِها من المخلُوقاتِ على أنَّهُم غيرُ مَوجُودينَ.

ومِن المحُتملِ أن يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ قد صَرَفَ الناسَ عن رُؤيتِهم أو جَعلَ بينَهُم وبينَ الناسِ ما يمنعُ من الوصولِ إليهِم كما حصلَ لِبَني إسرائيلَ حينَ ضَربَ اللهُ عليهِم التِّيهَ فَضَلُّوا أربعينَ سَنَةً في فراسخَ قليلةٍ من الأرضِ فلم يَطَّلِعْ عليهِم الناسُ حتَّى انتهى أمدُ التِّيهِ. وما عَجزَ الأوائلُ عن اكتشافِ ما اكتشفَهُ المتأخِّرونَ إلَّا لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ لكلِّ شيءٍ أجَلاً وكُلُّ شيءٍ عِندَه بمِقدارٍ.

المُفسِدُونَ في الأرضِ:

* ما علاقةُ العربِ بالشَّرِّ الذي ذَكَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عند استيقاظِه مِن نومِه وقَد احمرَّ وَجْهُه الكريمُ وهو يقولُ: " لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَيلٌ للعَربِ مِن شَرٍّ قد اقتربَ، فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يأجُوج ومأجُوج مِثلُ هَذهِ وحَلَّقَ تِسعينَ... (مِن حديث زينبَ بنتِ جَحشٍ)؟ وتُراودُني أسئلةٌ كثيرةٌ حولَ يأجُوج ومأجُوج ونحنُ في عَصرِ التكنولوجيا والعُلومِ، فلمْ يَعُدُ مقبولاً إلاَّ أنْ نَتَّحَدَّثَ بالدلائلِ والبراهينِ التي يفهمُها جيلُ هذا العَصر. هؤلاءِ القومُ سيأتونَ من كلِّ مكانٍ إلى فلسطينَ في آخرِ الزمانِ بعدَ نُزولِ عِيسى عليهِ السلامُ وقتالِ المُسلِمينَ لليهودِ والقضاءِ عليهِم وقتلِ عِيسى عليهِ السلامُ للدَّجَّالِ زَعيمِ اليهودِ، فيغضبُ هؤلاءِ القومُ ويأتونَ لمُحاصَرةِ

عِيسى عليهِ السلامُ ومَن معهُ مِن المؤمِنينَ ويَشرَبُونَ من بُحيرةِ طبريَّة حتَّى يجفَّ مائُها. فلِماذا يُريدُونَ الانتقامَ، وما علاقتهُم بهذا الموضوعِ؟

مِن المعرُوفِ أنَّ منسوبَ الماءِ في بُحيرةِ طَبريَّةَ انخفضَ كثيراً لدرجةِ أنَّ أجزاءَ كبيرةً منها قد جفَّت بالفِعل، ولو استمرَّت المستوطَناتُ الإسرائيليةُ على مُعدَّلاتِ الاستهلاكِ الحاليِّ ستجفُّ البُحيرةُ بالكاملِ حتماً خلالَ السنواتِ القليلةِ القادمةِ.

إنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قد أخبرَنا بأنَّ يأجُوج ومأجُوج سَيَشرَبونَها، فمَن يشربُها الآنَ غيرُ اليهودِ في إسرائيلَ، فهلْ هُم مِن نَسْلِ يأجُوج ومأجُوج ويَشربُونَ من بُحيرةِ طبريَّة منذُ فترةٍ ونحنُ مغيَّبينَ لا نَرَى ما يحدثُ؟ ألَسْنا في آخرِ الزمانِ؟

هل مَن سيأتي منهُم بعدَ مقتلِ الدَّجَّالِ هو الفوجُ الأخيرُ المتبَّقي على ظَهرِ الأرضِ بعدَ أن تهلكَ الأفواجُ الأُولى على أرضِ فِلسطينَ ليقضيَ اللهُ على مَن تبَّقى مِنهُم بالنُّغُفِ؛ وبذلك تنتهي شُرورُهُم تماماً؟

إنَّ المُتأمِّلَ في هذا الموضوعِ يجدُ أنَّ هُناكَ روابطَ مشتركةً بين يأجُوج ومأجُوج واليهودِ وزعيمِهم الدَّجَّالِ وأرضِ فِلسطينَ وبُحيرةِ طبريَّة ونبيِّ اللهِ عِيسى عليهِ السلامُ. لقد كانتْ هذه الإشارةُ النبويةُ قبلَ أكثرَ من ١٤٠٠ سَنةً، فهل يعتقدُ أحدٌ بعدَ هذه المُدَّةِ الطويلة أنَّهُم لازالوا محبُوسينَ خلفَ الرَّدْمِ؟[١]

* إنَّ يأجُوج ومأجُوج هُم سكَّانُ مملكةِ قبائلِ الخَزْرِ التي كانتْ وثنيَّةً لا دِينَ لها ولا خُلُقَ يَردَعُها عن الإفسادِ، وكانت تقطنُ المنطقةَ الواقعةَ شمالَ سلسلةِ جِبال القوقازِ التي تربطُ ما بين بَحْرِ قزوينَ والبحرِ الأسودِ، وهذه السلسلةُ الجبليَّةُ لا يُوجَدُ فيها إلَّا

[١] د. فتحي نُعيِنع – بتصرُّف.

مَرٌّ واحدٌ كان يأجُوج ومأجُوج يَعبَرونَهُ فأغلقَه ذُو القرنَينِ لِمَنعِهم من الاعتداءِ على جِيرانِهِم. وبما أنَّ اليهودَ كانوا دائمًا يتقرَّبونَ من الكياناتِ القويَّةِ (سياسيًّا واقتصاديًّا)؛ بِصَرفِ النظرِ عن الأخلاقيَّاتِ والمبادئ؛ فقَد نجَحُوا في تهويدِ مملكةِ الخزرِ، واعتنقَ ملكُها اليهوديةَ، وأعلنَها الدِّيانةَ الرسميَّةَ لِلمَملكةِ، وتزامنَ ذلك مع إقامةِ مَملكةِ القيصرِ في رُوسية فقامَ بِمُحاربَتِهِم ففرُّوا إلى أوروبة.

ويبدو أنَّ "هِتلر" أراد أن يفعلَ بهِم ما فعلَه القيصرُ الروسيُّ؛ ولكنَّه لم يُوفَّقْ بِذلِكَ. ومع سُقوطِ الخلافةِ العُثمانيَّةِ وتقسيمِ البلادِ العربيةِ واحتلالِها بعدَ الحربِ العالميَّةِ الثانيةِ تخلَّصَ الأوروبيُّونَ مِنهُم بِتَوطينِهم بأرضِ فلسطينَ بمَوجبِ وَعدِ بلفور؛ لِيَستريحُوا مِنهُم ونعاني نحنُ مِن شُرورِهم وإفسادِهم. فهَل سقوطُ الخِلافةِ وتوطينُ أحفادِ مملكةِ الخَزْرِ بفِلسطينَ هو الشَّرُّ الذي قصدَه رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وخصَّ به العربَ؟ أمْ أنَّ الشَّرَّ الأكبرَ سيكونُ عند مَجيئِهِم الجَماعيِّ بعدَ مَقتلِ زعيمِهِم الدَّجَّال؟

الآن نحنُ نُعاني من وُجودِ ٢.٥ مليون يهوديٍّ خَزَريٍّ، فما بالُكَ لو احتشدَ الملايينُ منهُم وهم غاضِبُونَ لا سيطرةَ عليهِم يَعيثونَ الفسادَ والخَرابَ في كُلِّ مكانٍ تطؤهُ أقدامهُم؟

هؤلاءِ المُفْسِدُونَ عاشُوا مُحتقَرينَ ومَنبُوذينَ على مدارِ تاريخِهِم؛ فذُو القرنَينِ بنَى رَدمًا لِيَمْنَعَهُم من الاعتداءِ على جِيرانِهِم، وقيصرُ روسيةَ حاربَهم وأبعدَهم عن بلادِه، وفعلَ هِتلر بهِم ما فعلَه قيصرُ روسيةَ، أمَّا أوروبةَ فتخلَّصَتْ مِنهُم بتوطينِهِم

في فلسطينَ. وها نحنُ نُعاني مِن شُرورهِم ونَدعُو اللهَ أن يُخلِّصَنا – أيضًا – مِن وُجودهِم بينَنا.

والمُلْفِتُ لِلنظرِ أنَّهم بنَو جِدارًا فاصلاً بينَهُم وبينَ الفِلسطينيِّينَ؛ لأنَّهم على ما يبدُو ما زالوا يذكُرونَ رَدْمَ ذِي القرنَينِ، ومُعجَبُونَ بِه فانعكسَ ذلك على طريقةِ تفكيرِهِم إلى يومِنا هذا. ومَن يشربُ بُحيرةِ طبريَّة اليومَ هُم الأفواجُ الأُولى من اليهودِ الذينَ انحدَرُوا من سُلالةِ أجدادِهِم في مَملَكةِ الخَزَرِ وهُم يأجُوج ومأجُوج، ولقد بدأتِ البُحيرةُ بالجَفافِ فِعلاً وسيقولُ آخرُ مَن يأتي مِنهُم بعدَ مَقتلِ الدَّجَّالِ: لقَد كان هُنا ماءٌ مِصداقًا لِقَولِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: " ... ويمُرُّونَ على بُحيرةِ طبريَّة فيَشْرَبُها أوَّلُهم فيأتي آخِرُهُم فيقولُ: لقَد كان هُنا ماءٌ " (سُننَ ابنِ ماجه).

تأمَّلُوا جيِّدًا في هذه الكلماتِ الدقيقةِ " فَيَشْرَبُها أوَّلُهُم... " ولمْ يَقُلْ يَشْرَبُ مِنها أوَّلُهُم؛ أيّ: أنَّها سَتُشْرَبُ بالكاملِ، وتجفُّ مع الأفواجِ الأُولى وهذا ما يحدثُ بالفعلِ الآنَ فلا يَجِدُ مَن يأتي بعدَ ذلك ماءً، فيقولُ: لقَد كانَ هُنا ماءٌ يَقصِدُ في الماضي. ولاحِظُوا أيضًا كلمَتي "أوَّلهم وآخرُهم"؛ أيّ: القومُ نَفْسُهم؛ وليسُوا أقوامًا مختلفةً. في الماضي حاولَ اليهودُ قَتْلَ عِيسى عليهِ السلامُ فَنَجَّاهُ اللهُ ورَفَعَهُ في مُعجِزَةٍ مِن مُعجزاتِه ليهبطَ مرَّةً ثانيةً ويقضي على زَعيمِهم الدَّجَّال، ومَرَّةً أُخرى يُحاصِرهُ يأجُوج ومأجُوج انتقامًا مِن مَقتَلِ الدَّجَّالِ فيقضي اللهُ عليهِم بالنُّغُفِ في مُعجزةٍ أُخرى. ويلاحظُ أنَّه في كِلتا المُحاولَتَينِ يُنقِذُ اللهُ نبيَّه عِيسى عليهِ السلامُ؛ ففِي الأُولى مِن اليهودِ، وفي الثانيةِ مِن يأجُوج ومأجُوج. فما علاقةُ اليهودِ بهَؤلاءِ القومِ، ولماذا اجتمعُوا على أمرٍ واحدٍ؛ ألاَ وهُو قَتْلُ عِيسى عليه السلامُ؟ أمّا عن

علاقةِ العربِ بهذا في قولِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم " وَيلٌ لِلعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَد اقتَرَبَ" . . . فلا يحتاجُ لتعليقٍ؛ لِكَونِه أصبحَ أمراً واضحًا للعيانِ؛ فالجميعُ يَرى كمْ هي الشُّرورُ والفِتنُ والفوضَى والقتلُ والمؤامراتُ التي تحدثُ في بلادِ العربِ منذُ أنْ زُرِعَتْ إسرائيلُ في قلبِ الأُمَّةِ العربيةِ[1].

يأجُوج ومأجُوج والقُدسُ:

تحدَّث القرآنُ الكريمُ عن يأجُوج ومأجُوج في سُورةِ الأنبياءِ في سِياق ذِكْرِ القريةِ التي أهلكَها اللهُ سُبحانَه وتعالى والحديثِ عن أهْلِها الذين طُرِدُوا مِنها ومُنِعُوا من المُطالَبةِ بها والعودةِ إليها حتَّى تُفْتحَ يأجُوجُ ومأجُوجُ (**وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ. حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ**) (الأنبياء: ٩٥ – ٩٦). إنّ كُلَّ مَن نَوَّرَ اللهُ تعالى بَصيرتَه يُدركُ أمرَينِ: الأوَّل هو القريةُ، والثاني هو النظامُ العالَميُّ ليأجُوج ومأجُوج؛ فالقريةُ هي مدينةُ القُدْسِ ! وقَد دمَّرَها اللهُ تعالى وطَردَ اليهودَ مِنها، وحَرَّمَ عليهِم آنذاكَ المُطالبةَ بِها على أنَّها مِلْكٌ لهُم والعودةَ إليها؛ لكنَّهُم اليومَ طالَبُوا بها وعادُوا إليها بمُساعَدةِ النظامِ العالَميِّ ليأجُوج ومأجُوج الذي يملكُ القُوَّةَ ويفرضُ سيطرَته؛ فالأوروبيُّونَ والأمريكيُّونَ واليهودُ يُسيطِرُونَ اليومَ على العالَمِ أجمعَ، ويَستخْدِمُونَ السلطةَ والقوَّةَ لتحقيقِ مآربِهِم. فَوعَدُوا اليهودَ بالأرضِ المُقدَّسةِ "وعد بلفور" وقدَّمُوها لليهودِ غَيرِ الأوروبيِّينَ على أنَّها "إسرائيلُ المُقدَّسةُ دولةُ النبيِّ داوودَ"، فانْخَدَعُوا بذلكَ، وانْزَلَقُوا

[1] د. زغلول النجّار - بتصرُّف

في الهاويةِ التي ستؤدِّي إلى دَمارِهم النهائيِّ بإذنِ العليِّ القديرِ، وقامتْ إسرائيلُ عام ١٩٤٨ م.

لمسات بيانية

* ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾

إنَّ زيادةَ المَبنى في اللُّغةِ تُفيدُ زيادةَ المَعنى. والصُّعودُ على السَّدِّ أهونُ من إحداثِ نَقْبٍ فيه؛ لذا استخدمَ (اسْطاعُوا) مع الصُّعودِ، و(اسْتَطاعُوا) مع النَّقْبِ. فَحُذِفَ مع الحَدثِ الخفيفِ؛ أيّ الصُّعود، ولم يُحذَفْ مع الحَدثِ الشَّاقِّ؛ أيّ: النقْب؛ بلْ أعطاهُ أطولُ صِيغَةٍ لهُ. وكذلكَ فإنَّ الصُّعودَ على السَّدِّ يتطلَّبُ زَمَنًا أقصرُ من إحداثِ النقْبِ فيه فَحُذِفَ من الفِعْلَ وقَصَّرَ منهُ لِيُجانِسَ النُّطقَ الزَّمنيَّ الذي يَتطلَّبُه كُلُّ حَدَثٍ. فَضْلاً عن أنَّ كلمةَ (اسْطاعُوا) في هذا المَوضعِ تُوحي بالانْزِلاقِ؛ كأنَّهُم لَّما أرادُوا أنْ يَصعَدُوا عليهِ انْزَلَقُوا فجاءتْ لفظةُ (اسْطاعُوا).

الحِوارُ في نبأِ ذي القرنَين... القَومِ الَّذينَ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَولاً: تُركِّزُ فَحْوى هذه المُحاوَرةِ حولَ إفسادِ يأجوجَ ومأجوجَ في الأرضِ، وعجزَ أولئكَ القومُ أمامَ هذا الوضْعِ المأساويِّ الذي يُهدِّدُ استقرارَهُم وأمْنَهُم، والتماسَهُم من ذي القرنَين أنْ يَجْعلَ لهُم سَدًّا لحمايَتهِم من غاراتِهم.

– قالُوا يا ذا القَرنَين: **هَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا على أنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وبَيْنَهُم سَدًّا؟**

– (قالَ مامَكَّنِّي فِيهِ رِبِّي خَيْرٌ فأعينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) . إجابةُ الشريفِ الكريمِ الذي تأبَى نفْسُه التماسَ الأجْرِ المادِّيِّ مُقابِلاً لِعَمَلِه، المُسْتَغْني بِما آتاهُ رَبُّهُ مِن تمكينٍ وبِما ادَّخَرَهُ له مِن ثوابٍ أُخرويٍّ.

ولَمْ يشأْ أنْ يَتْرُكَ أولئكَ القومَ مُتواكِلينَ مُتخَلِّفينَ؛ بلْ أشْفَقَ لِحالِهم وسَعَى لإشراكِهِم في إنجازِ الرَّدْمِ حتَّى يَسْتفيدُوا مِن (دِرايتِه وخِبْرَتِه وتَمَرُّسِه) في شتَّى مراحلِ البناءِ كي يَعتمِدُونَ على أنفُسِهِم مُستقْبَلاً (فأعينُونِي بِقُوَّةٍ... آتونِي زُبَرَ الحَديدِ... انفُخُوا... آتونِي أُفْرِغْ عليهِ قِطْراً) فكانتْ غايةُ تلكَ الأوامِرِ الصَّادِرةِ عنه أثناءَ إنجازِ هذه المَهمَّةِ تعليميَّةً مَحضَةً.

هذا الموقفُ الحِواريُّ أفضَى عن سُلوكِ ذِي القرنَينِ الحاكِمِ النَّزِيهِ التَّقيِّ الحَريصِ على تحقيقِ الأمنِ والاستقرارِ في أوساطِ الأُمَمِ، مُعْلِنا أنَّ الفَضْلَ يعودُ – أوَّلاً وأخيراً – إلى اللهِ رَبِّ السَّماواتِ والأرضِ، فلا يَغْشاهُ البَطَرُ ولا يُداخِلُهُ الغُرورُ: (قالَ هَذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فإذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) . فأظهرَ عَبْرَ هذه الومْضَةِ الحِواريَّةِ الخاطِفَةِ إيمانَه بالبَعثِ في سِياقِ الإخبارِ بِما سَيَصيرُ إليهِ حالُ الرَّدْمِ غَداةَ اقترابِ السَّاعةِ. فكَما أنَّ بِناءَ الرَّدْمِ كان بِتَمكينٍ مِن اللهِ تعالى، فإنَّ دَكَّهُ سَيكُونُ بِمُقتضَى مَشيئَتِه التي لا مَردَّ لَها، وبِذلِكَ ربطَ مِن خلالِ هذا الموقفِ الحِواريِّ بينَ (الحقيقةِ الناصعةِ وقيمةِ ذلك العملِ الجبَّارِ) الذي أقرَّ أنَّ مَصدَرَهُ إلهيٌّ.

إذنْ: "الغايةُ" مِن هذهِ الإطلالاتِ الحِواريَّةِ هِي (تدعيمُ فاعليَّةِ القَصِّ التأثيريَّةِ والإيحائيَّةِ، وتأكيدُ المَصدَرِ الإلهيِّ للأخبارِ التي يُحدِّثُهُم عنها الرَّسُولُ صلى الله

عليه وسلم "شَكْلاً ومَضْمُونًا" لا قِبَلَ لإِنْسيٍّ أن يقفَ على نَظائِرها مَهما بَلغتْ سَعَةَ اطّلاعِه على مَورُوثِ أهلِ الكتابِ إلَّا بمَشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

أصْلُهُم: يأجوجُ أو مأجوجُ أو يأجوجُ ومأجوجُ مَعًا هو الابنُ الثاني لِيافِث أحدِ أبناءِ نُوحٍ الثلاثةِ والذينَ مِن أصلابِهِم تَفرَّقَتِ البشريةُ في الأرضِ بعدَ الطُّوفانِ. واختارَ نُوحٌ لابْنِه يافث مَشرِقَ الأرضِ سَكَنًا لَهُ.

وفي الرُّكْنِ المُنْزَوي بَعيداً في الشمالِ الشرقيِّ وضِمنَ مَساحةٍ واسعةٍ ومُرتفعَةٍ استقرَّ يأجوجُ ومأجوجُ وذُرِّيَّتُه فُسُمِّيَتْ تلكَ الأرضُ بادئَ الأمْرِ باسْمِه. ولَّما شاعَ الاسمُ وتداولَتْهُ ألسنَةُ إخوانِهِم وأبناءِ عُمومَتِهِم في مُختلفِ العُصورِ خَضَعَ لِقَواعدِ لُغاتِهِم وطُرُقِ نُطْقِها وحَرَّفَ وبَدَّلَ فيهِ إلى أنْ صارَ اليومَ مَنْغُولِيًّا. وعُرِفَتْ سُلالةُ يأجوجَ ومأجوجَ لَدَى خُرُوجِهِم على إخوانِهِم وأبناءِ عُمُومَتِهِم بأسماءٍ مُتعدِّدةٍ. فَعُرِفُوا عِندَ الآشُوريِّينَ في القرنِ السادسِ قبلَ الميلادِ باسْم "ألسكيتيون"، وسَمَّاهُم الصِّينيُّونَ في القرنِ الثالثِ قبلَ الميلادِ باسْم "هسيونغ نو"، واحتفظَ لهُم القُرآنُ الكريمُ عِندَ نُزولِه في القرنِ السابعِ الميلاديِّ باسْم "يأجوج ومأجوج"، وتُنْطَقانِ بِهَمْزٍ أو بِدُونِ هَمْزٍ. وعُرِفُوا عِندَ (المُسلِمينَ والصِّينيِّينَ والأوربيِّينَ) في القرنِ الثالث عشرَ الميلاديِّ باسْم "المَغُولِ والتَّتارِ". (مِن كتاب يأجوج ومأجوج فتنةُ الماضي والحاضر والمستقبل للشفيع الماحي أحمد). ولقَد تضافَرتِ الشواهدُ على أنَّهُم قبائلُ همجيَّةٌ سُمِّيَتْ بأسماءٍ مُختلفةٍ خلالَ العُصورِ المُتتالية. وتقولُ المصادرُ اليونانيةُ أنَّ أصلَ "مَنْغُول" هو "مَنْكُوك أو مَنْجُوك" وفي كِلْتا الحالتَينِ تَقْتَرِبُ الكلمةُ من النُّطْقِ العِبْريِّ

"ماكوك" والنُّطقِ اليونانيِّ "ميكاك"، والظاهرُ أنَّ هذه الكلمةَ ما زالتْ تُحُرِّفُ حتَّى أصبحتْ "يأجوجَ" في العِبْريّةِ.

وبالرغْم مِن أنّ كَلِمَتَي "يأجوج ومأجوج" تبدوانِ كأنَّهُما عِبْرِيَّتانِ؛ ولَكِنَّهُما في الأصلِ قَد لا تكُونا ذلكَ؛ فَهُما تُنطَقانِ باليونانيةِ "كاك" Gag و"ماكوك" Magog، وقَد ذُكِرَتا بهذا الشكلِ في التوراةِ وَراجَتا في سائرِ اللُّغاتِ الأوروبيَّة باسْم "ميغر" أو "ميكر".

صِفاتُهُم: صِغارُ العُيونِ، ذُلْفُ الأُنوفِ، صُهْبُ الشُّعورِ، عِراضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجُوهَهُم المِجانُّ المُطَرَّقةُ على أشكالِ التُّرْكِ وألوانِهِم.

وذكرَ ابنُ حَجَرٍ بعضَ الآثارِ في صِفاتِهِم؛ ولكنَّها رواياتٌ ضعيفةٌ، ومِمَّا جاءَ فيها أنَّهُم ثلاثةُ أصنافٍ:

صِنْفٍ أجسادُهُم كالأرْزِ وهو شَجَرٌ كبيرٌ جدًّا،

وصِنْفٍ أربعةُ أذْرُعٍ في أربعةِ أذْرُعٍ،

وصِنْفٍ يَفْتَرِشُونَ آذانَهُم ويَلتَحِفُونَ بالأُخْرى.

وَجاء – أيضًا – أنَّ طُولَهُم شِبْرٌ وشِبْرَينِ وأطولُهُم ثلاثةُ أشبارٍ.

وتدلُّ الرِّواياتُ الصَّحيحةُ أنَّهُم رِجالٌ أقوياءُ لا طاقةَ لأحدٍ بِقِتالِهِم، ويبعدُ أنْ يكونَ طولُ أحدِهِم شِبْرٌ أو شِبْرَينِ؛ لِحَديثِ النُّواسِ بنِ سَمْعانَ أنَّ اللهَ تعالى يُوحِي إلى عِيسَى عليهِ السلامُ بِخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ، وأنَّه لا يَدانِ لأحدٍ بِقِتالِهِم، ويأمُرُهُ بإبعادِ المُؤمِنينَ مِن طَريقِهِم... حَرِّزْ عِبادي إلى الطُّورِ.

ذَكَرَ المَسْعُوديُّ: ولا يَقدرُ على استقصاءِ ذِكْرِهِم أحدٌ لِكثْرَةِ عَدَدِهِم، وقَد زَعَمُوا أنَّ مِقدارَ رُبُعِ الأرضِ مَسيرةُ مائةٍ وعِشرينَ سَنَة. فذَكَرُوا تِسعينَ مِنها لِيأجوجَ ومأجوجَ، واثني عَشرَ لِلسُّودانِ، وثمانيةً لِلرُّوْمِ، وثلاثةً لِلعَرَبِ، وسَبْعَةً لِبقيَّةِ الأُممَ. وسَمَّى أصحابُ التاريخِ يأجوجَ ومأجوجَ أربعينَ أُمَّةً مُختلفي الخَلْقِ والقُدُودِ، في كُلِّ أُمَّةٍ مِنها مَلِكٌ ولَهُم زِيٌّ ولُغَةٌ؛ فمِنْهُم مَن طُولُه الشِّبْرُ والشِّبْرانِ وأطولُ مِن ذلكَ، ومِنهُم المُشوَّهُونَ،

ومَن يَفْتَرِشُ إحدَى أُذُنيهِ ويَتغَّطَى بالأُخْرى، ومَنْ لهُ ذَنَبٌ وقَرْنٌ وأنيابٌ بارِزةٌ، ومِنهُم مَن مَشيهُ وَثْبٌ، ويَأكُلُونَ الحِيتانَ والنَّاسَ والخَشاشَ والطَّيرَ والرُّخُمَ والحِدأةَ، وبَعضُهم يُغيرُ على بَعضٍ. ومِنهُم مَن لا يَتكلَّمُ إلاَ هَمْهَمَةً وفِيهِم شِدَّةٌ وبأسٌ، وأكثرُ طَعامِهِم الصَّيدُ، وكانوا يُغِيُرونَ على الأُممَ التي تليهِم ويُخْرِبُونَ بُلْدانَهُم حتَّى عَملَ ذُو القرنَينِ السَّدَّ وهُمْ يَسْتَفْتِحُونَهُ آخرَ الزَّمانِ كما قالَ اللّهُ عزَّ وجلَّ، وربَّما أكلَ بَعضُهُم بعضًا. والزَّلازِلُ عِندَهُم كثيرةٌ. وذَكَرَ أنَّ عِندَهُم أُممٌ تَعرِفُ المَناسِكَ. ورَوى الإمامانِ أحمدُ والطبرانيُّ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَطَبَ وهو عاصِبٌ أصْبُعَهُ مِن لَدْغَةِ عَقْرَبٍ فقالَ: " إنَّكُمْ تَقُولُونَ لا عَدوَّ لَكُمْ، وإنَّكُمْ لا تَزالُونَ تُقاتِلُونَ عَدُوًّا حتَّى يأتيَ يأجوجُ ومأجوجُ؛ عِراضُ الوُجُوهِ، صِغارُ العُيونِ، صُهْبُ الشِّعافِ، مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ، كأنَّ وُجُوهَهُم المِجانُّ المُطَرَّقَةُ"(١).

نِسْبَتُهم إلى الإنْسِ: رَجَّحَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ أنَّهُما قبيلتانِ مِن البَشرِ مِن ولدِ يافثِ بنِ نُوحٍ، واستدلَّ على ذلكَ بِما جاءَ عَن عِمْرانَ بنِ حُصَينٍ رضيَ اللّهُ عنهُ أنَّ النبيَّ

١) تفسيرُ ابنِ كثيرٍ: (ج ٤، ص ٥٩٤)

صلى الله عليه وسلم كان في بَعضِ أسفارِه فتَفاوتَ بينَ أصحابِه السَّيْرُ فَرَفَعَ بِهاتَينِ الآيتَينِ صَوتَه: (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) حتَّى بلغَ آخرَ الآيتَينِ.

فلمَّا سَمِعَ أصحابُه بذلِكَ حثُّوا المَطِيَّ وعَرَفُوا أنَّه قَولٌ يَقُولُه. فَلمَّا تأَبَّشُوا حَولَهُ قالَ: " أتَدْرُونَ أيَّ يَومٍ ذاكَ؟ ذاكَ يَومٌ يُنادَى آدمُ فَيُناديهِ رَبُّهُ تباركَ وتعالى: يا آدَمُ ابْعَثْ بَعْثًا إلى النَّارِ. فَيقُولُ: يا رَبِّ وما بَعْثُ النَّارِ؟

قالَ: مِنْ كُلِّ ألفٍ تسعمائةٍ وتِسعَةٌ وتِسْعِينَ في النَّارِ وواحدٌ في الجَنَّةِ.

قالَ عِمْرانُ: فأُبْلِسَ أصحابهُ حتّى ما أوضَحُوا بِضاحِكَةٍ. فلمَّا رأى ذلكَ قالَ: اعْمَلُوا وأبْشِرُوا؛ فو الذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بِيَدِهِ؛ إنَّكُمْ لَمَعَ خَلِيقَتَينِ ما كانَتا مَع شَيءٍ قَطُّ إلَّا كَثَّرَتاهُ يأجُوج ومأجُوج ومَنْ هَلَكَ مِن بَني آدَمَ وبَني إبليسَ. قال: فأُسْرِيَ عَنهُم. ثُمَّ قالَ: اعْمَلُوا وأبْشِرُوا، والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيدِهِ ما أنْتُمْ في النَّاسِ إلَّا كالشَّامَةِ في جَنْبِ البَعيرِ أو كالرَّقْمَةِ في ذِراعِ الدَّابَّةِ " (رواهُ البُخاريُّ ومُسلِمٌ وأحمدُ والتِّرمذيُّ). تأَبَّشُوا؛ أيّ: اجتَمعُوا إليهِ وأطافُوا بهِ. أُبْلِسَ؛ أيّ: سَكَتُوا مِن شِدَّةِ المُفاجأةِ والفَزَعِ. الشَّامَةُ: العَلامةُ السَّوداءُ. الرَّقْمَةُ: الدائرةُ الصغيرةُ.

ويُشيرُ صلى الله عليه وسلم إلى قِلَّةِ أُمَّتِه يومَ القيامةِ بالنِّسبةِ لِكَثرَةِ الأُمَمِ الأُخْرى.

وثَبتَ في الصَّحيحَينِ عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "يقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ يا آدمُ، قُمْ فابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ ذُرِّيَتِكَ".

فيقولُ: يا ربُّ وما بَعثُ النَّارِ؟ فيقولُ: مِنْ كُلِّ ألْفٍ تِسعَمائةٌ وتِسعةٌ وتِسعُونَ إلى النَّارِ وَواحِدٌ إلى الجَنَّةِ، فَحِينَئذٍ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها، وتَرَى النَّاسَ سُكارَى ومَا هُمْ بِسُكارَى ولكنَّ عَذابَ اللهِ شديدٌ. قالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، أيُّنا ذلكَ الواحِدُ؟ فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أبْشِرُوا؛ فإنَّ مِنكُمْ واحداً، وَمِن يأجوجَ ومأجوجَ ألْفًا"(١).

بيانُ الحقيقةِ: دَلَّتِ النُّصوصُ الصحيحةُ الصريحةُ على أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مِن الكُفَّارِ في الدُّنيا، وأنَّهُم كذلكَ مِن أصحابِ النَّارِ في الآخِرَةِ.

قال الشيخُ ابنُ عُثَيمين: وهذا صريحٌ أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مِن بَني آدمَ وأنَّهُم يَدْخُلُونَ النَّارَ، ومِمَّا يَدلُّ على كُفْرِهِمْ وطُغْيانِهِم هو إفْسادُهُم في الأرضِ، ومُحاصرتُهم لِنبيِّ اللهِ عِيسَى عليهِ السَّلامُ ومَن مَعهُ مِن المُؤمِنينَ، واعتقادُهُم بِغَلَبَةِ وقَهْرِ مَن في السماءِ. انتهى.

فمَن زَعمَ أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ خُلِقُوا مِن نُطفَةِ آدمَ حينَ احتلَمَ فاختلَطتْ بِالتُّرابِ فَخُلِقُوا مِن ذلكَ، وأنَّهُم ليسُوا مِن حوَّاءَ فلا دليلَ عليهِ.

ومَن زَعَمَ أنَّهُم على أشكالٍ مُختلِفةٍ وأطوالٍ مُتباينَةٍ فهُو (قولٌ بِلا دليلٍ، ورَجْمٌ بِالغَيبِ بِغَيرِ بُرهانٍ).

١) صحيحُ البُخاريّ: (٦٥٢٠)، صحيحُ مسلِمٌ: (٢٧٩/٢٢٢).

وما رُوِيَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قالَ: " إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مِن ولَدِ آدمَ، ولَو أُرْسِلُوا لأفْسَدُوا على النَّاسِ مَعايِشَهُم، ولنْ يَمُوتَ مِنهُم رَجُلٌ إلَّا تَرَكَ مِن ذُرِّيَّتِه ألفًا فَصاعِدًا، وإنَّ مِن وَرائِهِم ثلاثَ أُممٍ تاويل، وتايس ومَنسَك"(١).

وأمَّا الحديثُ الذي ذَكَرَهُ الإمامُ ابنُ جَريرٍ في تاريخِه أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذَهبَ إليهِم لَيلَةَ الإسراءِ فَدَعاهُمْ إلى اللهِ فامْتَنَعُوا مِن إجابَتِهِ ومُتابَعَتِه، وأنَّهُ دَعا تلكَ الأُمَمَ التي هُناكَ تاريس وتاويل ومنسك فأجابُوهُ. فهُو "حديثٌ موضوعٌ" اخْتَلَقَه أبو نُعيمٍ عُمَرُ بنُ الصُّبْحِ أحدُ الكذَّابينَ الكِبارِ الذين اعتَرَفُوا بِوضْعِ الحَديثِ.

أدِلَّةُ خُرُوجِهِم: قولُه تعالى في الآيتَينِ ٩٦ – ٩٧ مِن سُورةِ الأنبياءِ: (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ). وقولُه عزَّ وجلَّ – أيضًا –: (**قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا**). فهَذهِ الآياتُ الكريمةُ تدلُّ على خُروجِهم آخرَ الزَّمانِ، وأنَّ ذلك علامةَ قُرْبِ النَّفْخِ في الصُّوْرِ وَخرابِ الدُّنيا وقِيامِ الساعةِ.

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رضيَ اللهُ عنهُ عن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ: لَقِيتُ لَيلَةَ أسْرِيَ بِي إبراهيمَ ومُوسَى وعِيسَى، فَتَذاكَرُوا أمْرَ السَّاعةِ فَرَدُّوا أمْرَهُم إلى إبراهِيمَ فقالَ: لا عِلْمَ لِي بِها، فَرَدُّوا أمْرَهُم إلى مُوسَى فقالَ: لا عِلْمَ لي بِها، فَرَدُّوا أمْرَهُم إلى عِيسَى فقالَ: أمَّا وَجْبَتُها فلا يَعْلَمُ بِها أحدٌ إلَّا اللهُ، وفِيما عَهِدَ إليَّ رَبِّي

١) الطَّيالسيّ: (٢٢٨٢)، مجمعُ الزوائد: (١٢٥٧١) فهُو حديثٌ غريبٌ؛ بل مُنكَرٌ ضَعيفٌ.

أنَّ الدَّجَّالَ خارِجٌ ومَعي قَضيبانِ، فإذا رآني ذابَ كَما يَذُوبُ الرَّصاصُ، قالَ: فَيُهْلِكَهُ اللهُ إذا رآني حَتَّى أنَّ الحَجَرَ والشَّجَرَ يقولُ: يا مُسْلِمُ؛ إنّ تَحْتِي كافِرًا فَتعالَ فاقْتُلْهُ. قالَ: فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إلى بلادِهِم وأوطانِهِم، فَعِندَئذٍ يَخْرُجُ يأجوجُ ومأجوجُ وهُمْ مِن كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَطَؤونَ بِلادَهُم ولا يأتُونَ على شَيءٍ إلَّا أهْلَكُوهُ، ولا يُمُرُّونَ على ماءٍ إلَّا شَرِبُوهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إلى أوطانِهِم يَشْكُونَهُم، فأدْعُو اللهَ عَلَيهِمْ فَيُهْلِكُهُمْ ويُمِيتُهُمْ حتَّى تَجْوَى الأرضُ مِن نَتَنِ رِيحِهِمْ، ويُنْزِلُ اللهُ المَطرَ فيَجْتَرِفُ أجسادَهُمْ حتَّى يَقْذِفَهُم في البَحرِ. فَفيما عَهِدَ إليَّ رَبِّي أنَّ ذَلِكَ إذا كان كَذلِكَ إنَّ السَّاعةَ كالحامِلِ المُتِمِّ لا يَدري أهْلُها مَتى تَفْجَؤهُم بِولادِها لَيلاً أو نَهارًا (١)، وقد دَلَّتِ الأحاديثُ الشريفةُ على أنَّهُم عِندَما يَخْرُجونَ يَمْلِكُونَ مِن أسبابِ القُوَّةِ ما يَجْعَلُهُم يَتفوَّقُونَ على سائرِ النَّاسِ؛ إمَّا لأنَّهُم قَد وَصَلُوا إلى تِقنيَّاتٍ تُمَكِّنُهُم مِن قَهْرِ غَيرِهِم والسَّيطرةِ عليهِم، أوْ أنَّ خُروجَهُم سَيكُونُ بَعدَ زَوالِ هذه الحضارةِ المادِّيَّةِ ورُجوعِ الناسِ إلى القِتالِ بالوسائلِ البدائيَّةِ والتقليديَّةِ.

ووَرَدَ في التوراةِ: وكان كلامُ الرَّبِّ إليَّ قائلاً: يا ابْنَ آدمَ؛ اجْعَلْ وَجْهَكَ على جُوج أرضِ مأجوج، رئيس روش وماشك وتوبال، وتنبَّأ عليهِ وقُلْ: هَكذا قالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ. في ذلكَ اليومِ عِندَ سُكْنَى شَعْبي إسرائيلَ آمِنينَ تأتي مِن مَوضِعِكَ مِن أقاصي الشمالِ أنتَ وشُعوبٌ كثيرةٌ مَعكَ، كُلُّهُم راكِبُونَ خَيلاً، جَماعةٌ عظيمةٌ وجيشٌ كثيرٌ، وتصعدُ على شَعبي إسرائيلَ كسَحابةٍ تَغْشَى الأرضَ في الأيَّامِ الأخيرةِ يكونُ هذا(٢).

---

١) مُسنَد أحمد: (٥، ١٨٩)، تفسير ابن كثير: (ج ٤، ص٥٩٥).
٢) حزقيال: (٢٨: ١ - ٢٢).

ووَرَدَ أيضًا: ثُمَّ متَى تَمَّت الألفُ سَنَةٍ يُحَلُّ الشَّيطانُ مِن سِجْنِه ويَخرجُ لِيضِلَّ الأُمَمَ الذينَ في أربعِ زوايا الأرضِ جُوج ومأجوج لِيَجْمَعَهُم لِلحَربِ، الذين عَدَدُهُم مِثلُ رَمْلِ البحرِ فَصَعَدُوا على عَرْضِ الأرضِ، وأحاطُوا بِمُعَسْكَرِ القِدِّيسينِ وبالمدينةِ المَحبُوبةِ – أورشليم – فَنَزَلَتْ نارٌ مِن عِندِ اللهِ مِن السماءِ وأكَلَتْهُمْ، وإبْليسُ الذي كانَ يُضِلُّهُم طُرِحَ في بُحيرةِ النَّارِ والكِبْريتِ (١) يأجوجُ ومأجوجُ هُم المَغُولُ والتَّتارُ:

ذهب المُفسِّرُ مُحمَّدُ الطاهِر بنِ عاشُورٍ – رَحِمهُ اللهُ تعالى – إلى القولِ بأنَّ يأجوجَ ومأجوجَ هُمُ المَغُولُ والتَّتارُ، وأنَّهُم قد خَرَجُوا بالفعلِ حين غَزوا بغدادَ وبلادِ العَرَبِ في القرنِ السابعِ الهِجريِّ. ولعلَّ في ذلكَ إشارةً ضِمنيَّةً لحديثِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم " وَيلٌ لِلعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَد اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مِثْلُ هَذهِ وحَلَّقَ بإصبعيهِ الإبهامِ والتي تليها... ".

فإذا كان قد فُتِحَ مِنهُ ما يُقارِبُ البُوصَةَ في زَمَنِه صلى الله عليه وسلم فلا غَرابةَ أنْ يكونَ قد فُتِحَ مِنهُ بعدَ ذلكَ بِستَّةِ قُرونٍ ما يَكفي لِمُرورِ إنسانٍ، وبالتالي: لا غَرابةَ أنْ يَكُونُوا هُمْ التَّتار؛ خاصَّةً وأنَّ أغلبَ مَن تَضرَّرَ مِن ذلكَ الغَزْوِ هُم العَربُ بالذَّاتِ.

وفيهِ – أيضًا – إشارةٌ ضِمنيَّةٌ إلى أنَّ السَّدَّ قد فُتِحَ في القرنِ السابعِ الهِجريِّ مَع بقاءِ أجزاءٍ كبيرةٍ مِنهُ سوفَ تُدَكُّ قبلَ يومِ القيامةِ ومِنها "هَضبَةُ التِّبْتِ".

ومعنَى ذلكَ: أنَّهُم سَيظْهَرُونَ في زَمَنِ عِيسَى عليهِ السلامُ بعدَ ظُهورِهم الذي وَقَعَ في القرنِ السابعِ الهِجريِّ وقبلَ بَعثِهم يومَ القيامةِ.

---

١) الرُّؤيا: (٢٠: ٧ - ١٠)

وتُؤكِّدُ الآيةُ الكريمةُ: (حتَّى إذا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ وهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ)، أنَّ دَكَّهُ غَيرُ فَتْحِه. ولعلَّ ما حصلَ في القرنِ السابعِ الهجريِّ حينَ أتى المَغُولُ إلى العِراقِ والشَّامِ،

وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ يَدلُّ على أنَّ رَدْمَ يأجوجَ ومأجوجَ قَد فُتِحَ وأنَّ هذا مِن علاماتِ اقترابِ الساعةِ حسبَ الآيةِ(١).

هل سَيُصِيبُ إفسادُ يأجوجَ ومأجوجَ العالمَ كُلَّهُ؟

إنَّ ما جاءَ في يأجوجَ ومأجوجَ من الآياتِ الكريمةِ والأحاديثِ النبويةِ الشريفةِ يَدعُو إلى التأمُّلِ لِمَعرِفَةِ مَن هُمُ الذينَ سَيَخْرُجُ فيهِم هؤلاءِ المُفْسِدُونَ؛ إذ لا سبيلَ لِمَعرِفةِ حقيقةِ ذلكَ إلَّا بالوحي.

وهُناكَ أدلَّةٌ ظاهِرُها خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ على الناسِ كافَّةً وشُموليَّةِ أذاهُم أهلَ الأرضِ قاطبةً منها:

١ – قولُه تعالى: (**قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ**)

كلمةُ الأرضِ مُطلَقَةٌ ظاهِرُها إمكانُ بُلوغِ أذاهُم إلى البِقاعِ كافَّةً.

٢ – عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضيَ اللهُ عنهُ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّهُ قَالَ: " . . . يَحْفِرُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَخْرِقُونَهُ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَدًا، فَيُعِيدُهُ اللَّهُ كَأَشَدِّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مُدَّتَهُمْ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى

١) أحمد آل الشيخ: - قراءةٌ في نظريةِ ابنِ عاشورٍ - بِتصرُّفٍ.

النَّاسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ ارْجِعُوا فَسَتَخْرِقُونَهُ غَداً إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَاسْتَثْنَى. قَالَ فَيَرْجِعُونَ فَيَجِدُونَهُ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَخْرِقُونَهُ فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ... "(١).

تأمَّلْ – أُخيَّ – قولَهُ صلى الله عليه وسلم وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ، وقولهُ – أيضًا – فَيَخْرِقُونَهُ فَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ..؛ فكلِمةُ "النَّاس" عامَّةٌ تشملُ في ظاهرِها عُمومَ الناسِ؛ وليسَ فِئةً خاصَّةً منهُم.

قال الإمامُ ابنُ العربيِّ في هذا الحديثِ ثلاثُ آياتٍ: أنَّ اللهَ مَنَحَهُمْ أنْ يُوالُوا الحَفْرَ ليلاً ونَهاراً، ومَنعَهُم أنْ يُحاوِلُوا الرُّقيَّ على السَّدِّ ب "سُلَّمٍ أو آلةٍ" فلَم يُلْهِمْهُم ذلكَ، ولا عَلَّمَهُم إيَّاهُ، وَصَدَّهُمْ عن أنْ يَقُولُوا "إنْ شاءَ اللهُ" حتَّى يجيءَ الوقتُ المُحدَّدُ.

٢ – قولُهم: (لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الأَرْضِ فَلْنَقْتُلْ مَن في السَّماءِ) ظاهِرُه أنَّهُم يَقصدُونَ أهلَ الأرضِ جميعًا؛ لأنَّ (مَن) مِن ألفاظِ العُمومِ.

وهُناكَ أدلَّةٌ أُخْرى ظاهِرُها خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ على المُسلِمينَ في الأرضِ المُباركةِ التي ستكونُ فيها "المَلحَمةُ الكُبْرى"، ويَخْرجُ فيها الدَّجَّالُ، ويُحْشَرُ الناسُ إليها يومَ القيامةِ وهي بلادُ الشامِ والجَزيرةِ وما حولَها وهيَ:

١ – عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ:

١) رواهُ التِّرمذيُّ (٢١٥٢).

"لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ – وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا – قَالَتْ زَيْنَبُ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ! قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"(١).

يقولُ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ: إنَّما خَصَّ العَرَبَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّهُم أوَّلُ مَن دَخَلَ في الإسلامِ، وللإنذارِ بأنَّ الفِتنَ إذا وَقَعَتْ كان الهلاكُ أسرعَ إليهِم(٢) ويقولُ – أيضًا – : إنَّما خَصَّ العَرَبَ بذلكَ؛ لأنَّهُم كانُوا حِينَئذٍ مُعظَمَ مَن أسْلَمَ(٣).

٢ – حديثُ النَّواسِ بنِ سَمْعانَ رضيَ اللهُ عنهُ ومِمَّا وَردَ فيه: " فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ – يعني الدَّجَّالَ – إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ... فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى انِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لاَ يَكُنُّ

---

١) البخاريّ: (٢٢٤٦)، مُسلِم: (٢٨٨٠).
٢) فتحُ الباري: (ج ١٢، ص ١١).
٣) فتح الباري: (ج ١٢، ص ١٠٧).

مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ... فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ ". (١)

فظاهرُ هذا الحديثِ يدلُّ على أنَّ خروجَ يأجوجَ ومأجوجَ على المُسلِمينَ سيكونُ في أرضِ النبوَّةِ وبلادِ الشامِ وما حولَها؛ فبُحيرةُ طَبريَّةَ في بلادِ الشامِ، وانحصارُ عيسَى عليهِ السلامُ والمؤمنينَ مَعهُ في الطُّورِ، وإلقاءُ جُثَثِ يأجوجَ ومأجوجَ حيثُ شاءَ اللهُ مِن الأرضِ كُلِّها قرائنُ تُشعِرُ أنَّ هَذهِ الفِتنةَ لا تَعمُّ الأرضَ كُلَّها، وإنْ كانتْ باقي البقاعِ سوفَ تتأثَّرُ بما يَحدُثُ في هذه البلادِ المُبارَكةِ.

ثُمَّ إنَّ قولَه صلى الله عليه وسلم " ... وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ " يدلُّ على أنَّ شِرارَ الناسِ هؤلاءِ لمْ يقْتلْهُم يأجوجُ ومأجوجُ؛ لأنَّهُم لم يَكُونُوا آنذاكَ مع المُؤمنينَ والمسيحِ عيسَى ابْنِ مَريمَ عليه السلامُ.

ولا يُمكِنُنا الجَزْمُ بأحدِ الاحتمالَينِ؛ لِعَدمِ قيامِ الأدلَّةِ الظاهرةِ على الترجيحِ بينَهُما، والمُهمُّ هو أخْذُ العِبْرَةِ والعِظَةِ مِن هذه الفِتنةِ العظيمةِ.

لا قتالَ بعدَ يأجُوج ومأجُوج: عن سَلَمَةَ بنِ نُفيلٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال: بَينا أنا جالسٌ عِندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم إذْ جاءَهُ رَجُلٌ فقالَ: يا رَسُولَ اللهَ؛ إنَّ الخَيلَ قَدْ سيبت؛ أي: تُرِكَتْ، وَوُضِعَ السِّلاحُ، وزَعَمَ أقْوامٌ أنْ لا قِتالَ، وأنْ قَد وَضَعَتِ الحَرْبُ أوزارَها. فقالَ صلى الله عليه وسلم: "كَذَبُوا. الآنَ جَاءَ القِتالُ؛ وأنَّهُ لا يَزالُ

(١) صحيح مسلم: (٢٩٢٧).

مِنْ أُمَّتِي فِئَةٌ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خالَفَهُمْ، يزيغُ اللهُ قُلُوبَ قَومٍ يَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ، يُقاتِلُونَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، ولا تَضَعُ الحَرْبُ أوزارَها حَتَّى يَخْرُجَ يأجُوجُ ومأجُوجُ(١).

يبقى الحجُّ بعدَ يأجُوج ومأجوج: عن أبي سَعيدٍ الخُدريّ رضيَ اللهُ عنهُ قال: قال رَسُولُ صلى الله عليه وسلم: " لَيُحُجَّنَّ هذا البيتُ ولَيُعْتَمرنَّ بعدَ خُروجِ يأجُوج ومأجُوج "(٢) خُروجُهم من أشراطِ الساعة: عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الغفاري قَالَ: اطَّلَعَ النبي صلى الله عليه وسلم عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: " إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ. فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ"(٣) وقال ابنُ جرير: حدَّثنا شُعبةُ عن عبدِ اللهِ بنِ أبي يَزيدٍ قال: رأى ابنُ عبَّاسٍ صِبْيانا يَنْزُو بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَلْعَبُونَ، فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: هكذا يَخْرُجُ يأجوجُ ومأجوجُ(٤).

هل يجبُ على المسلمينَ قتالُ يأجوجَ ومأجوجَ؟ لا، لما تقدَّمَ من حديثِ النُّواسِ بنِ سَمْعانَ: ... فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى انِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ...

---

١) رَواهُ النَّسائيُّ في السُّنن الكُبرى، والطبرانيُّ في "الكبير"، ورواه أحمدُ والنَّسائيُّ بلفظٍ قريبٍ منه وَصحَّحه الألبانيُّ في السلسلة الصحيحة برقم(١٩٢٥).
٢) صحيح البُخاري: (١٥٩٢)،تفسير ابن كثير: (ج٤، ص٥٩٦).
٣) صحيح مسلم: (٢٩٠١).
٤) تفسير ابن كثير: (ج٤، ص٥٩٢).

حُكْمُ مَنْ أَنْكَرَهُمْ: مَن أنْكَرَ يأجُوجَ ومأجُوجَ فَهُو كافِرٌ؛ لأنَّ مَن كَذَّبَ اللهَ سُبحانَه وتعالى وكَذَّبَ رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم فَهُو كافِرٌ، ومَن أنْكَرَ شَيئًا ثابِتًا عَن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَهُوَ كافِرٌ. وقَد صَحَّتِ الأخْبارُ عَن رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وتَواتَرتْ في (نُزُولِ المَسِيحِ عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عليهِ السَّلامُ مِن السَّماءِ في آخِرِ الزَّمانِ، وخُروجِ يأجُوج ومأجُوج، وخُروجِ الدَّجَّالِ، وظُهورِ المَهْدِيّ)؛ فالدَّجَّالُ والمَسِيحُ ابنُ مَريمَ ويأجُوج ومأجُوج هؤلاءِ الثلاثةُ ليسَ فيهِم شَكٌّ ولا رَيبٌ؛ أمَّا المَهْدِيُّ فقَد تواترَت فيهِ الأخبارُ – أيضًا –؛ لَكِنْ لِبَعضِ الناسِ فيه إشكالٌ وتَوقُّفٌ؛ فَمَنْ أنْكَرَ الدَّجَّالَ أو المَسِيحَ ابنَ مَريمَ أو يأجُوج ومأجُوج فلا شَكَّ في كُفْرِهِ ولا تَوقُّف / : ؟ وإنَّما التَّوقُّفُ فِيمَنْ أنكرَ المَهْدِيَّ فقط؛ فهَذا قد يُقالُ بالتَّوقُّفِ في كُفْرِهِ وَرِدَّتِه عن الإسلامِ والأظْهَرُ والأقْرَبُ تَكفِيرُهُ.(١)

الإعجازُ اللُّغويّ: في قولِه تعالى **(فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا)** كلمةُ **(اسْطَاعُوا)** الأُولى مِن غَيرِ حَرفِ التاءِ، أمَّا كَلِمَةُ **(اسْتَطَاعُوا)** الثانيةُ فَفِيها حَرفُ التاءِ فَما الفَرْقُ؟

إنَّ الرَّدْمَ الذي جَعَلَهُ ذُو القرنَينِ على يَأْجُوج وَمَأْجُوج عِبارةٌ عن سَبِيكَةٍ قَوِيَّةٍ جِدًّا مِن (الحَديدِ والنّحاسِ والقَطِرانِ) حَسْبَما جاء في مُعظَمِ التفاسيرِ؛ فَفي قَولِه **(فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ)**؛ أيّ: أنْ يَصْعَدُوا فَوقَهُ أو يَتَسَلَّقُوهُ، والصُّعُودُ فوقَ السَّدِّ قَد يَكُونُ سَهْلاً باستعمالِ سُلَّمٍ أو أيِّ وَسيلَةٍ أُخْرى أو شَخْصٍ يُعيِّنُه، أمَّا نَقْبُ السَّدِّ؛

١) فتاوى نور على الدرب: (ج١، ص٢٥٥).

أيّ: عَمَلُ فَتحةٍ فيهِ فَهِيَ صَعْبَةٌ؛ بل وأصْعَبُ مِن الصُّعودِ عليه؛ لِذَلِكَ قال تبارك وتعالى (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) فجاءَ حَرْفُ التاءِ؛ لِيَدُلَّ على الصُّعوبَةِ واللهُ أعلمُ.

إعراب الآيات الكريمة[1]

(**حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا**) (٩٢).

(**حَتَّى إِذَا بَلَغَ**) مَرَّ إعرابُها في الآية ٨٦. (**بَيْنَ**) اسمٌ ظرفيٌّ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به. (**السَّدَّيْنِ**) مُضافٌ إليهِ مجرورٌ وعلامةُ جَرِّهِ الياء. (**وَجَدَ**) فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، والفاعلُ ضميرٌ مُستترٌ تقديرهُ هو. (**مِنْ دُونِهِمَا**) مِن دُونِ: جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (**وَجَدَ**)، (**هُما**) ضمير بارز متصل في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه. (**قومًا**) مفعولٌ بهِ. (**لا يَكادُونَ**) لا: نافيةٌ، يكادونَ: فعلٌ مضارعٌ ناقصٌ مرفوعٌ وعلامةُ رَفعِه ثبوتُ النونِ، والواو: اسمُه. (**يَفْقَهُونَ**) فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ وعلامةُ رَفْعِهِ ثبوتُ النونِ، والواو: ضميرٌ بارزٌ مُتَّصلٌ في مَحلِّ رفْعِ فاعلٍ. (**قولًا**) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. جُملةُ (**بَلَغَ**) في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليه. جُملة (**وَجَدَ**) لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ غَير جازمٍ. جُملةُ (**لا يَكادُونَ**) في محلِّ نصبِ نعتٍ ل (**قومًا**). جُملة (**يَفْقَهُونَ**) في محلِّ نصبِ خَبر (**يَكادُونَ**).

[1] مرجع سابق، الطيب.

(قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) (٩٤).

(**قالُوا**) قالَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الضمِّ، والواو: ضميرٌ بارزٌ متَّصلٌ في مَحلِّ رفْع فاعل. (**يا ذا القرنَين**) مرَّت في الآية ٨٦. (**إنَّ**) حرفُ توكيدٍ ونَصبٍ. (يأجُوج) اسم إنَّ. (ومأجُوج) الواو: حرفُ عطفٍ، مأجوجَ: اسمٌ معطوفٌ على (يأجوج) منصوبٌ. (مُفْسِدُونَ) خبرُ إنّ مرفوعٌ وعلامةُ رَفعِه الواو. (في الأرْضِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (مُفْسِدُونَ). (فهَلْ) الفاء: حرفُ عطفٍ، هل: حرفُ استفهامٍ. (نَجْعَلُ) فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، والفاعلُ ضميرٌ مُستترٌ تقديرهُ "نحنُ". (لك) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ بمَفعولٍ بهِ ثانٍ لفِعْل (نَجْعَل). (خَرْجًا) مفعولٌ بِه أوّل منصوبٌ.

(على) حرفُ جرٍّ. (أنْ) حرف نَصبٍ ومَصدرٍ، (تَجْعَلَ) فعلٌ مُضارِعٌ منصوبٌ، والفاعلُ ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ "أنت"، والمصدرُ المؤَّولُ "أنْ تجعَلَ" في محلِّ جرٍّ ب على وهُما مُتعلِّقانِ ب (تَجْعَل). (بَينَنا) بينَ: ظرفُ مكانٍ مُتعلِّقٌ ب (تَجْعَل)، (نا): ضميرٌ مُضافٌ إليهِ. (وبينَهُم) الواو: حرفُ عطفٍ، بينَهُم مِثل الأُولى. (سَدًّا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. جُملة (قالُوا) لا محلَّ لها استئنافٌ بيانيٌّ. جُملةُ (يا ذا القرنَين) في محلِّ نصبِ مَقولِ (قالُوا). جُملةُ (إنّ يأجُوج) لا محلَّ لها جوابَ النِّداء. جُملةُ (نَجْعَلُ) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملة جوابِ النِّداء.

(قالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) (٩٥).

(قالَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتحِ، والفاعلُ ضميرٌ بارزٌ مُتَّصِلٌ تقديرهُ هو (ما) اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ على السكونِ في محلِّ رفْعٍ مبتدأٍ. (مَكَّنِّي) مَكَّنَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الفتحِ، وسُكِنَت النونُ لإدغامِها فيما بعدَها، النونُ المدغمةُ للوقايةِ، الياءُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلِّ نصبِ مَفعولٍ به. (فيهِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (مَكَّنِّي). (رَبِّي) ربِّ: فاعلٌ مرفوعٌ وعلامة رفعه الضمَّةُ المُقَّدرة، الياء: ضميرٌ بارزٌ متَّصلٌ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليه. (خَيرٌ) خبرُ المبتدأ (ما). (فأعِينُونِي) الفاءُ: فاءُ الفصيحةِ، (أعينُو): فعلُ أمرٍ مبنيٌّ على حذفِ النونِ، والواو: ضميرٌ بارزٌ متصلٌّ في محلِّ رفعِ فاعلٍ، النونُ: للوقايةِ، والياء: ضميرٌ بارزٌ متَّصلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به. (بِقُوَّةٍ) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ ب(أعينُوني).

(أجْعَلْ) فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ وهُو جوابُ الطلبِ، والفاعلُ ضميرٌ بارزٌ متَّصلٌ تقديرهُ "أنا" . (بَينَكُم) بينَ: ظرفُ مكانٍ منصوبٌ متعلِّقٌ بمفعولٍ بهِ ثانٍ ل (أجْعَل)، كُم: ضميرٌ بارزٌ مُتصلٌ في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليه. (وبَينَهُم) الواو: حرفُ عطفٍ، (بينَهُم) مِثل الأُولى (رَدْمًا) مفعولٌ بهِ أوّلُ منصوبٌ. جُملةُ (قال) لا محلَّ لها استئنافٌ بيانيٌّ. جُملة (ما مَكَّنِّي فيهِ رَبِّي خَيرٌ) في محلِّ نصبِ مَقولِ (قالَ). جُملةُ (مَكَّنِّي) لا محلَّ لها صِلةُ الموصولِ (ما). جُملةُ (أعينُونِي) في محلِّ جزمِ جوابِ الشرطِ الجازمِ المُقدَّر؛ أيّ: إنْ طلبتَ العَونَ فأعينُونِي. جُملة (أجْعَل) لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ مُقدَّر غَير مُقترِنةٍ بِالفاء؛ أيّ: إنْ تُعِينُوني أجْعَل.

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) (٩٦).

(آتُونِي) آتُو: فعلُ أمرٍ مبنيّ على حذفِ النونِ، الواو: ضميرٌ بارزٌ مُتَّصلٌ في محلِّ رفْع فاعلٍ، النون: للوقايةِ، الياءُ: مفعولٌ به. (زُبَرَ) مفعولٌ بهِ ثانٍ عامِلُه (آتُونِي). (الحَدِيدِ) مُضافٌ إليهِ مجرورٌ. (حتّى) حرفُ غايةٍ وجرٍّ. (إذا) ظرفٌ مستقبلٌ مُتضمّنٌ الشرطَ مُتعلِّقٌ ب(قالَ) بعدَه. (سَاوَى) فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتحِ المُقدَّرِ على الألفِ، والفاعلُ: ضمير بارز متصلٌ تقديرُه هو. (بينَ) ظرفُ مكانٍ متعلِّقٌ ب (ساوَى) منصوبٌ. (الصَّدَفَينِ) مُضافٌ إليهِ مجرورٌ وعلامةُ جرِّه الياء. (قالَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتحِ، والفاعلُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ تقديرهُ هو. (انفخُوا) فعلُ أمرٍ مبنيٌّ على حذفِ النونِ، والواو: ضميرٌ بارزٌ متَّصلٌ في محلِّ رفعِ فاعلٍ. (حتّى إذا) مِثلُ الأوَّل مُتعلِّقٌ ب (قالَ) الآتي. (جَعَلَهُ) جعلَ: فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتحِ، الفاعلُ: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ تقديرُه هو، الهاءُ: مفعولٌ به. (نارًا) مفعولٌ بهِ ثانٍ عامِلُه (جَعَلَهُ). (قالَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتحِ، والفاعلُ: ضميرٌ بارزٌ متَّصلٌ تقديرهُ هو. (آتُونِي) كالسابق. (أُفْرِغْ) فِعلٌ مضارعٌ مجزومٌ وهُو جوابُ الطلبِ، والفاعلُ: ضميرٌ مستترٌ تقديرُه أنا. (عَلَيهِ) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (أُفْرِغ). (قِطْرًا) مفعولٌ بهِ منصوبٌ. جُملة (آتُونِي زُبُرَ) لا محلَّ لها استئنافٌ في حَيّزِ القولِ، ويجوزُ أن تكونَ بَدلاً مِن (أعينُوني). جُملة (سَاوَى) في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليه. جُملة (قالَ) لا مَحلَّ لها جوابُ شرطٍ غيرُ جازمٍ. جُملة (انْفُخُوا) في محلِّ نَصبِ مَقُولِ (قالَ). جُملة (جَعَلَهُ) في محلِّ جرٍّ مُضافٍ إليه. جُملة (قالَ الثانية) لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ غيرُ جازمٍ. جُملة (آتُونِي أُفْرِغْ) في محلِّ نصبِ

مَقُولِ (قالَ). جُملة (أُفْرِغْ) لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ جازم مُقدَّر غير مُقترنة بالفاء.

(فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) (٩٧).

(فما) الفاءُ: حرفُ عطفٍ، ما: نافيةٌ. (اسْطاعُوا) فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الضَّمِّ، الواو: ضميرٌ بارزٌ متَّصلٌ في محلِّ رفْع فاعلٍ. (أنْ) حرفٌ نصبٍ ومصدرٍ. (يَظهَرُوُه) يَظهرُوا: فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ وعلامةُ نَصبهِ حذفُ النون، والواو: ضميرٌ بارزٌ متصلٌ في محلّ رفْعِ فاعل، الهاء: ضميرٌ بارزٌ متَّصِلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به. والمصدرُ المؤوَّل (أنْ يَظْهَرُوهُ) في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ ل (اسْطاعُوا). (و) الواو: حرفُ عطفٍ. (ما اسْتَطاعُوا) مِثل الأوَّل. (له) جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقانِ ب (نَقْبًا). (نَقْبًا) مفعولٌ بهِ عامِلُه (اسْتطاعُوا). جُملة (ما اسْطاعُوا) لا محلَّ لها معطوفةٌ على مَحذُوفٍ مُستأنَفٍ؛ أيّ "عَجَزُوا". جُملة (أنْ يَظْهَرُوهُ) لا محلَّ لها صِلةُ الموصولِ الحَرفيِّ (أن). جُملة (ما اسْتَطاعُوا) لا محلَّ لها معطوفةٌ على جُملة (ما اسْطاعُوا) الأُولى.

(قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) (٩٨).

(قال) فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتح، الفاعلِ: ضميرٌ مُستترٌ تقديرهُ هو. (هَذا) الهاءُ للتنبيه، ذا: اسمُ إشارةٍ مبتدأٌ مرفوعٌ. (رحمةٌ) خبرٌ مرفوعٌ. (مِن رَبِّي) جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ بمَحذوفٍ بِنَعتٍ ل (رَحْمَة)، الياءُ: ضميرٌ بارزٌ متَّصلٌ في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه. (فإذا) الفاءُ: استئنافيةٌ، (إذا) ظرفٌ مستقبلٌ مُتضمِّنٌ معنى الشرطِ. (جاءَ) فعلٌ ماضٍ مبنيٌ على الفتح. (وَعْدُ) فاعلٌ مرفوعٌ. (رَبِّي) ربّ:

مضافٌ إليهِ مجرورٌ وعلامةُ جرِّه الكسرةُ المُقدَّرة، الياءُ: ضميرٌ بارزٌ متَّصلٌ في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه.(جَعَلَهُ) جَعَلَ: فعلٌ ماضٍ مبنيّ على الفتح، والفاعلُ: ضمير بارز متصلٌ تقديرُه هو، الهاءُ: ضمير بارز متصلٌ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به. (دَكّاءَ) مفعولٌ بهِ ثانٍ منصوبٌ. (وكان) الواو: حاليَّة، كانَ: فعلٌ ماضٍ ناقصٌ مبنيّ على الفتحِ. (وَعْدُ) اسمُ كانَ مرفوعٌ. (رَبِّي) مِثل الأولى. (حَقًّا) خبرُ كانَ منصوبٌ. جُملة (قالَ) لا محلَّ لها استئنافيّةٌ. جُملةُ (هذا رَحْمَةٌ... في محلِّ نصبِ مَقولِ (قالَ). جُملة (جاءَ وَعْدُ) في محلِّ جرّ مُضافٍ إليه. جُملة (جَعَلَهُ) جوابُ شرطٍ غَيرُ جازمٍ. جُملة (كانَ وَعْدُ) في محلِّ نصبِ حالٍ.

المصادر

١) صحيح البخاري.

٢) تاريخ مصر القديم الجزء الثاني د. رمضان السيد.

٣) موسوعة مصر القديمة سليم حسن.

٤) قصص الأنبياء والتاريخ د. رشدي البدراوي.

٥) تاريخ اليهود لتقي الدين المقريزي.

٦) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم د. أحمد فخري.

٧) عصور ما قبل التاريخ وبداية الأسر د. علي رضوان.

٨) تاريخ سيناء لنعوم شقير.

٩) تشريح الحضارة لباري ج كيمب.

قصص سورة الكهف

سُورةُ (الكهف) سُورة "الحَمْدِ والشُّكْر، والتوحيدِ والإخلاصِ، والمُغيَّباتِ والمُبهَماتِ، والإيمانِ واليقينِ، والأمثالِ والعِبَر، والحِوارِ والعَقلِ، والعِلمِ والحقيقةِ، والدعوةِ والمُلكِ، والبيانِ والنصيحةِ".. قَصَصُها فريدةٌ لم تتكرَّرْ في السُّورِ الأُخْرى، ودُروسُها حِكَمٌ بالِغةٌ تصلحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ مَن عَمِلَ بِمُقتضاها فازَ، ومَن استفادَ مِن دُروسِها أفلحَ؛ فَمعينُها لا ينضبُ، وفوائِدُها جَمَّةٌ لا تُحصى.

هِمَّةٌ عاليةٌ، وجَهدٌ عظيمٌ أن يبحثَ المرءُ في أمَّهاتِ المَراجعِ ومُتونِ الكُتبِ ومواقِع الإنترنت؛ لِلوُصولِ إلى ما كُتِبَ والاطلاعِ على آراءِ الآخَرينَ؛ فالعلمُ لم يتوقَّفْ، وإعجازُ القرآنِ الكريمِ قائمٌ إلى قيامِ الساعةِ، والناسُ في شَوقٍ ولهفةٍ لِمَعرفةِ المَزيد.

لقد ولَدَتْ فِكرَةُ هذا الكتابِ من خلالِ دِراسة هذِه السورةِ الكريمةِ حين تساءَلنا لِماذا لا نجمعُ كلَّ ما كُتِبَ عنها مِن أقوالِ المُفسِّرينَ وآراءِ الباحِثينَ وتوجيهاتِ المُرشِدينَ في قِرطاسٍ واحدٍ؛ لِتكُونَ النظرةُ شاملةً والمعاني أوضحَ؟

وفعلا وفقنا الله تعالى لهذا فله الحمد.

المؤلف..

www. kantakji. com